

حضارة العرب

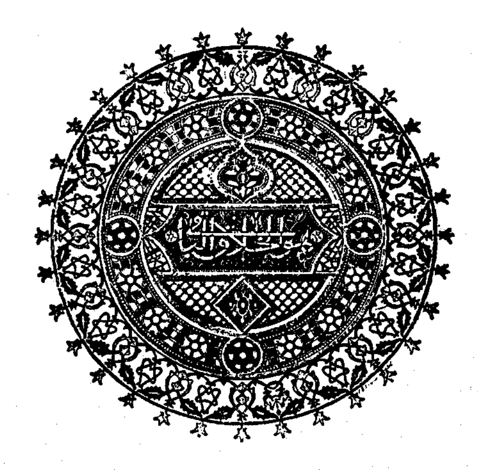
تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

كتاب يشتمل على ١٠ لوحات و ٤ خرائط و ٣٦٣ صورة
وفق تصوير المؤلف الفوتوغرافي ووفق أصح الوثائق

نقله إلى العربية

عادل زعيتر



طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

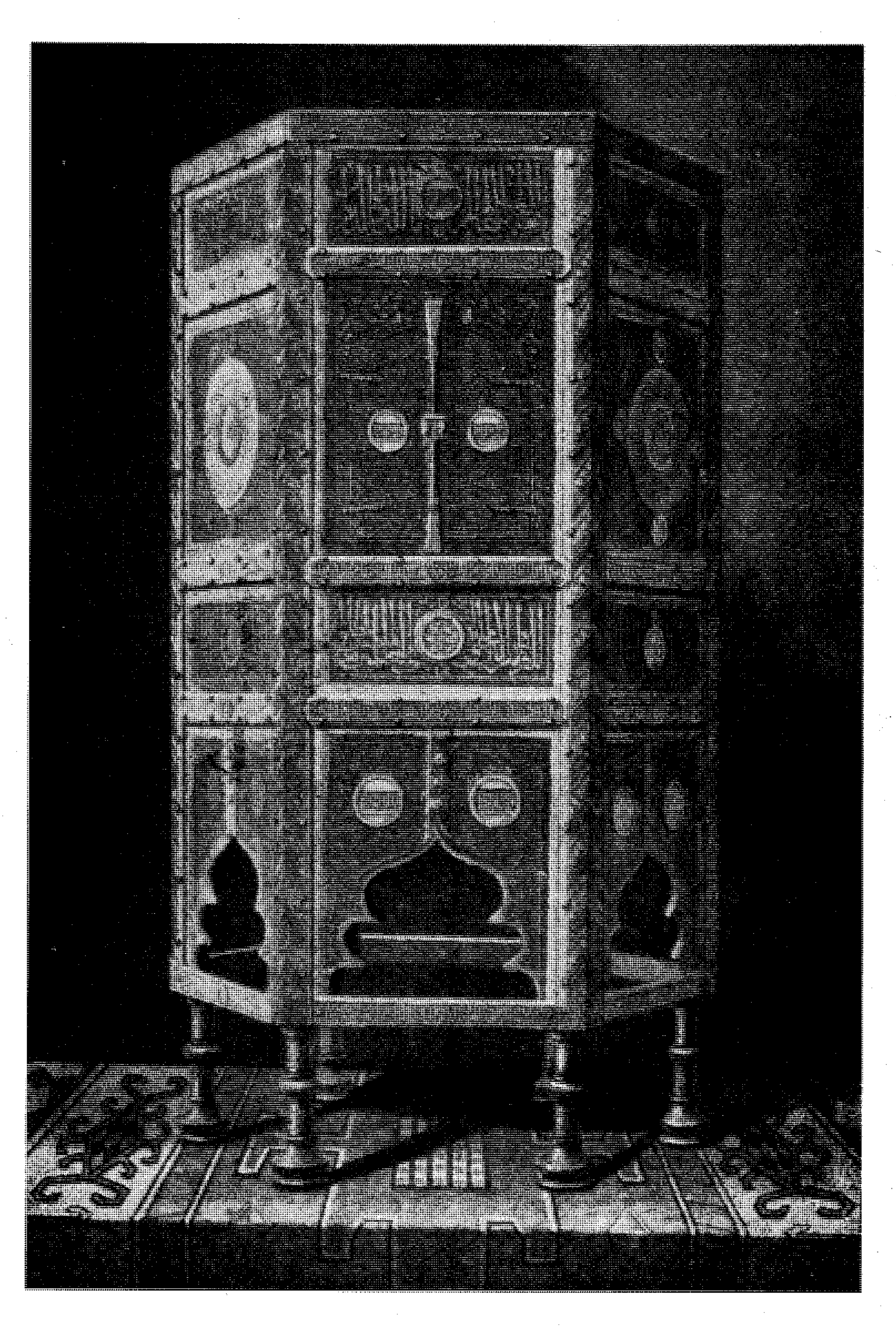
حضارة العرب

« إن القوة لم تكن عاملاً فى انتشار القرآن ماترك العربُ المغلوبين أحراراً فى أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغةً لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التى لم يعرفوها من قبل » .

« ولم ينتشر القرآن إذن بالسيف ، بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التى قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول » .

« أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ماندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة أن النظام والأديان ليست مما يفرض قسْراً فعاملوا أهل كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى الغالب ، إذا ماقيست بما كانوا يدفعون سابقاً ، فى مقابل حفظ الأمن بينهم ، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم » .

غوستاف لوبون



اسكملة من البرونز المكفت بالفضة للسلطان محمد بن قلاوون ، صنعت فى القرن الثالث عشر من الميلاد
(متحف الآثار العربية بالقاهرة)

(من تصوير المؤلف الفوتوغرافى)

المرحوم عادل زعيتر وحضارة العرب

« . . . وإنما حسبي أن أقرر أنه الذى رد إلى الترجمة اعتبارها بعد أن هبط بها المرتزقة والمأجورون وصنائع الاستعمار الفكرى ، وأنه الذى وقف فى غمرة الظلمة الداجية ، يحمل المشعل بيده الكريمة ليضىء لقومهِ العرب ، طريق الحق والخير والعزة . وما كان مشعله المضىء سوى قلم قوى ، نبيل أصيل ، يستمد قوته ونبله من عقل ناجح ، وضمير حيّ ، وقلب كبير ، وذكاء ساطع . . . » .

القاهرة : بنت الشاطىء

« . . . إن هذا الرجل أحد أساتذتِى الذين اخترتهم لجامعتِى الخاصة ، وقد لقننى أصعب الدروس فى السياسة والأدب والاجتماع . . . » .

القاهرة : كامل الشناوى

« . . . كان فى عادل فى دقة فى الترجمة كما كان فيه أصالة فى التعبير وفحولة فى التركيب وضلاعة فى اللغة .

يصوغ معانِى الخالدين بلاغة ويسكبها للضاد لحناً معرباً

القاهرة : محمد عبد الغنى حسن

« . . . كان عادل زعيتر جامعة وحدها ومجمعاً وحده، ومثل عادل زعيتر ظاهرة لا تتكرر فى كل قرن من الزمان ... »

القاهرة : وديع فلسطين

تبارك من أهدى كريم يراعه إلى العرب كنزاً لا تعد ذخائره

إذا نسجت ثوبَ الفخار يراعةٌ فمن نسج أقلام الخلود مآزره

القاهرة : عادل الغضبان

« . . . عرف قراء العربية الأستاذ محمد عادل زعيتر كاتباً قديراً مشرق الديباجة ، رقيق العبارة ، واضح الفكرة ، بصيراً بأسرار الكلمات وروحانيتها ، دقيق الحس فى اختيار أمشاجها ، مرهف الذوق فى تأليف شواردها وضم أشتاتها وتشيع فيها الجاذبية دقيقة ساحرة . . »

القاهرة : السيد أحمد صقر

« . . . والله لو لم يترجم عادل زعيتر تلك المجلدات العربيـة من أمهات الكتب بذلك القلم السيَّال البليغ ، واكتفى بترجمة كتاب « حضارة العرب » لغوستاف لوبون وحده لكفاه فخراً وخلوداً . . . ويقينى أن خدمته للأمة العربية تفوق أضعافاً مضاعفة خدمات رجال السياسة والأدب من أبناء العروبة » .

بغداد : طه الهاشمى

« . . . ترك عادل زعيتر بموته فراغاً فى المجتمع العربى والمجال العلمى والميدان الثقافى لا يسده أحد . . . »

بغداد : الدكتور مصطفى جواد

« . . . مؤلفات غوستاف لوبون ـ كلها ـ ترجمها بدقة وأمانة وأناقة وفصاحة وإخلاص مابعده ولا فوقه إخلاص . ولعل كتابه (حضارة العرب) الذى أنصف فيه العلامة الفرنسىُّ العربَ أروع هذه الكتب وأحبها إلى الجماهير . . .

وإذا كانت الترجمة وسيلة من وسائل التقارب بين الأمم فقد كان عادل زعيتر الوسيط الأول فى العالم بأسره . . . »

بيروت : عبد الله المشنوق

« . . . عادل زعيتر بانِي دولة ومقيم صرح للثقافة يبقى عالياً يشرق منه النور . . » .

بيروت : عجاج نويهض

« ما عرف العرب فى كل العصور مؤرخاً أنصفهم وروى حقيقتهم كما صنع غوستاف لوبون عندما وضع سِفره التاريخى العظيم فى تأثيل الحضارة العربية وتمجيد الفتوحات العربية حتى يتهمه من لا يعرِف المؤلف النزيه المتحرر أنه يتزلف للعرب ويتملقهم بعد ما صوّر الحضارة العربية بريشة المبدع الفنان وصاغ للعرب لاتاجاً من العِقيان ، مرصّعاً بالجواهر الحسان ، بل تاجاً عبقرياً ، عبهرىَّ البيان ، منضداً بالفراقد والشهبانَ ؛ كأن فيه نفَساً من جبريل ورضوان وريحاً من الجنان . نعم صاغ غوستاف لوبون للعرب تاجاً عبقرياً أبدياً يزرى بتاج كسرى أنو شروان وأباطرة الرومان وسائر التيجان ، ثم جاء عادل زعيتر فألقى على هذا التاج أسمى ما يزخُر فى الإنسان من خلجات الجنان ، ومهره بأنقى ما يفيد فى الوجدان من حب وحنان ، وبعثه للعربية بأفصح لسان وأعذب بيان وكان له بدل الفضل فضلات . » .

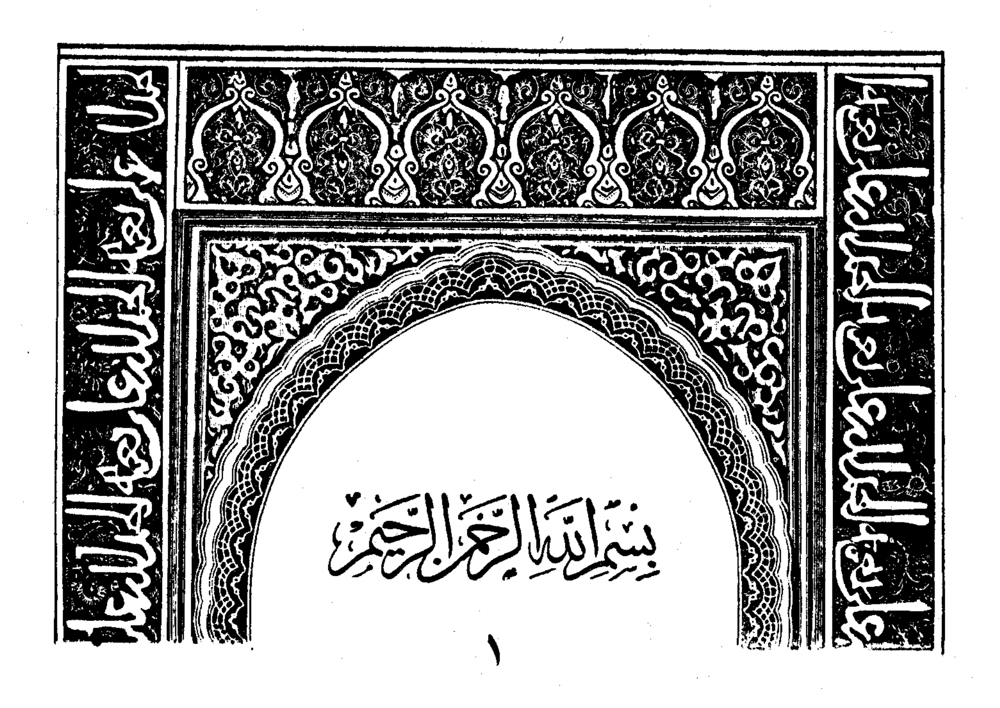
حمص : نظير زيتون

« . . . عادل زعيتر إمام من أئمة البلاغة فى هذا العصر ، وسيد النقلة المترجمين إلى اللغة العربية منذ عرفت العربية الترجمة والنقل إلى اليوم .

وقد بلغ أسلوبه فى القوة والبلاغة والأصالة والابتكار ما يسمو به إلى مصاف بلغاء العربية فى أزهى عصورها .

إن عادل زعيتر مدرسة كاملة بأصولها وقواعدها وأقيستها وقوانينها لمن يريد أن يتعلم كيف تكون الترجمة وكيف يكون النقل وكيف يكون الأسلوب الرفيع . . . »

عمان : محمود سيف الدين الإيرانى



١

كان من نتائج اصطراع الشرق والغرب منذ قرون مَضَت وإلقاء العربِ الرُّعْبَ فى قلوب الأوربيين أن صار الأوربيون يَشْعُرون بمَذَلَّة الخضوع للحضارة العربية التى لم يتحرروا من سلطانها إلَّا منذ زمن قريب ، فأخذوا يُنْكِرون فضل العرب على أوربة وتمدينهم لها ، وأصبح هذا الإنكار من تقاليد مؤرِّخى أوربة وكُتَّابها الذين لم يُقِرُّوا لغير اليونان والرومان بتمدينها ، وقد ساعدهم على هذا ماعليه العرب والمسلمون من التأخر فى الزمن الأخير ، فلم يشاءوا أن يرَوْا للعرب رُقِيًّا تاريخيًّا أعظمَ مما هم عليه الآن غيرَ ناظرين إلى أن نَجْم حضارة العرب أَفَل منذ أجيال ، وأنه لا يَصِحُّ اتخاذ الحال دليلاً على الماضى .

ولم تَخْلُ أوربة ، مع ذلك ، من مؤرخين أبصروا ما للعرب من فضلٍ فى تمدين أوربة ، فألفوا كتباً اعترفوا فيها للعرب بما ليس فيه الكفاية .

وقد رَاعَ هذا الجحودُ العلامةَ الفرنسىّ الكبير غوستاف لوبون ، وهو الذى هَدَتْه رِحلاته فى العالم الإسلامىّ ومباحثُه الاجتماعية إلى أن العرب هم الذين مَدَّنوا أوربة ، فرأى أن يبعث عصرَ العرب الذهبىَّ من مَرْقَده وأن يُبْدِيَه للعالم فى صورته الحقيقية ما استطاع ، فأخرج فى سنة ١٨٨٤ كتابَ « حضارة العرب » الذى نَعْرِض ترجمته على الناطقين بالضاد .

سَلَكَ العلامة لوبون فى تأليف كتاب « حضارة العرب » طريقاً لم يَسْبِقه إليها أحد ، فجاء جامعاً لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها فى العالم ، شاملاً لعجائبها مُفَصِّلاً لعواملها ، باحثاً فى قيام دولة العرب وفى أسباب عظمتهم وانحطاطهم ، مبتعداً عن أوهام الأوربيين التقليدية فى العرب والإسلام .

وقد استعان لوبون بطريقة التحليل العلميِّ على الخصوص ، فأوضح فى هذا الكتاب الصِّلَةَ بين الحاضر والماضى ، ووَصَفَ فيه عِرْقَ العرب وبيئاتِهم ، ودَرَس فيه أخلاقَهم وعاداتِهم وطبائعهم ونُظُمهم ومعتقداتِهم وعلومَهم وآدابهم وفنونهم وصِناعاتِهم وتأثيرَهم فى المشرق والمغرب وأسبابَ عظمتهم وانحطاطهم .

٢

لم يكن العرب ، على رأى لوبون ، من الأجلاف قبل الإسلام ، وقد رأى أن السجايا الخُلقيَّة للعرق العربىّ هى التى عَيَّنَت اتجاهَه ، وأنه ، وإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بَغْتَةً على مسرح التاريخ ، لا يكون هذا إلا نتيجة نُضْج بطىء ، وأن تطور الأشخاص والأمم والنُّظُم والمعتقدات لا يَتِمّ إلا بالتدريج ، وأن درجةَ التطور العاليةَ التى تبدو للعيان لا تُبْلَغ إلّا بعد الصعود فى درجاتٍ أُخَر ، فإذا ما ظَهَرَت أمةٌ ذاتُ حضارة راقية كانت هذه الحضارة ثمرةَ ماض طويل، ورأى لوبون ، أيضاً ، أنّ جهل الناس لهذا الماضى الطويل لا يَعْنِى عدَم وجوده ، وأن الحضارةَ التى أقامها العرب فى أقلّ من مئة سنة ، وهى من أنضر الحضارات التى عَرَفها التاريخ ، ليس مما يأتى عفواً ، وأنه كان للعرب قبل الإسلام حضارةٌ لم تكن دون حضارة الآشوريين والبابليين تقدماً ، وكان للعرب ، عدا الآثار القليلة التى كُشِف عنها ، لغةٌ ناضجة وآداب راقية ، وكان العربُ ذوى صِلات تجارية بأرقى أمم العالم عالمين بما يَتِمّ خارج جزيرتهم ، فالعربُ الذين هذا شأنهم كانوا ، لا ريب ، من ذوى القرائح التى لا تَتِم إلا بتوالى الوِرَاثة وبثقافةٍ سابقة مستمرة ، والعربُ الذين صُقِلَت أدمغتهم على هذا الوجه استطاعوا أن يُبْدِعوا حضارتَهم الزاهرة بعد خروجهم من جزيرتهم فى مدة قصيرة .

ثم أيَّد لوبون وِجْهة نظره بقوله : « إن البرابرة الذين قَوَّضوا دعائم الإمبراطورية الرومانية قاموا

بجهود عظيمة دامت قروناً كثيرة قبل أن يقيموا حضارةً على أنقاض الحضارة اللاتينية ويَخْرُجوا من ظُلُمات القرون الوسطى » .

ثم ذهب لوبون إلى أن المعتقداتِ القديمةَ فى جزيرة العرب كانت قد ضَعُفت وفَقَدت الأصنامُ قوتَها ودبَّ الهَرَم فى آلهتها ، وأنه كان فى الجزيرة العربية ، خلا النصارى واليهودَ ، مَنْ كانوا يعبدون إلهاً واحداً ، وهم الحنفاء .

ولكن لوبون ، الذى ذكر استعداد العرب للقيام برسالتهم العظمى ، أشاد بفضل الرسول الأعظم على العرب وزَعامته الكبرى لهم ، فالرسولُ فى نظره « كان يبدو رابط الجأْش إذا ما هُزِم ومعتدلاً إذا ما نُصِر » ، وذهب لوبون إلى أن الرسول الأعظم « كان شديد الضبط لنفسه كثير التفكير صَمُوتاً حازماً سليمَ الطَّوِيَّة . . . صبوراً قادراً على احتمال المشاقِّ ثابتاً بعيد الهمة لين الطبع وديعاً . . . وكان مقاتلاً ماهراً ، فكان لا يَهْرُب أمام المخاطر ولا يُلْقى بيديه إلى التهلكة ، وكان يعمل ما فى الطاقة لإنماء خُلُق الشجاعة والإقدام فى بنى قومه . . . وكان عظيم الفِطْنة » .

ورأى لوبون أن السيد الرسول الذى كانت تلك صفاتِه أتى العرب ، الذين لا عهد لهم بالمُثُل العُلْيا ، بِمَثَلٍ عالٍ اهْتَدَوْا به ، فاكتسب العرب بهذا المَثَل العالى آمالًا متماثلة وتَوَجَّهت به جهودهم إلى غرض واحد وصاروا مستعدين للتضحية بأنفسهم فى سبيل نشره فى أنحاء الدنيا ، ثم قال : « إن محمداً أصاب فى بلاد العرب نتائجَ لم تصِب مثلَها جميع الدِّيانات التى ظهرت قبل الإسلام ، ومنها اليهودية والنصرانية ، ولذلك كان فضل محمد على العرب عظيماً . . . وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرَفهم التاريخ . . . والتعصبُ الدينيُّ هو الذى أعمى بصائرَ مؤرخى الغرب عن الاعتراف بفضل محمد » .

٣

قامت عظمة الرومان على عبادة رومة ، وكانت رومة سيدةَ العالم حين كان الرومانىّ يُضَحِّى بنفسه فى سبيل عظمتها ، ثم فَقَدت الأمم الإغريقية والرومانية والآسيوية مُثُلَهَا العليا ، ولم يبق لحبّ الوطن

والدين والاستقلال والأمة والمدينة أثر فى نفوس أبنائها ، وصارت الأثَرة كلَّ ما فى قلوب هؤلاء ، « والأثَرةُ إذا كانت دليل قوم تَجزوا عن مقاومة قوم آخرين مستعدين للتضحية بأنفسهم فى سبيل معتقداتهم » .

وصار العرب أمةً واحدةً بفضل الإسلام ، وأصبح الإسلام مَثَلَ العرب الأعلى ، واكتسب العربُ به من الحَمِيَّةِ ما استعدوا معه لفتح العالم إعلاء لشأنه بقيادة زعمائهم الماهرين .

ولم تكن جزيرة العرب قبل الإسلام سوى ميدان حرب دائم واسع لِمَا تأصَّل فى العرب من الطبائع الحربية ، فلما جاء الإسلام وألَّف بين قلوب العرب ووَجَّهوا جميع قُوَّاتِهم إلى البلاد الأجنبية ، وهم الذين وَرِثوا الشجاعة أباً عن جدّ ، صَرَعوا الأغارقة والفرس بفضل يقينهم ، وصار الناس يدخلون فى الإسلام وينتحلون لغةَ العرب أفواجاً .

وهنا يبدو إنصاف العلاّمة لوبون فى بيان أسباب ذلك فقد صَرَّح بأن وضوح الإسلام من أسباب انتشاره ، وبأن وضوحه هذا مشتقٌّ من قوله بالتوحيد المحض الذى فيه سِرُّ قوته .

ومن أسباب انتشار الإسلام ، كما بَيَّنَ لوبون ، ما أَمَر به من العدل والإحسان ، وما انطوى عليه من التهذيب للنفوس والتسامح والملاءمة لمناحى العلم واكتشافاته .

ثم رَدَّ العلامة لوبون على الزعم القائل إن الإسلام انتشر بالقوة ، فما قاله :

« إن القوة لم تكن عاملا فى انتشار القرآن ما تَرَكَ العربُ المغلوبين أحراراً فى أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلامَ واتَّخذوا العربية لغةً لهم فذلك لِمَا رَأَوْهُ من عدل العرب الغالبين مما لم يَرَوْا مثله من سادتهم السابقين ، ولِمَا كان عليه الإسلام من السهولة التى لم يَعْرِفوها من قبل » .

« ولم ينتشر القرآن ، إذَنْ ، بالسيف ، بل انتشر بالدعوة وحدَها ، وبالدعوة وحدَها اعتنقته الشعوب التى قهرت العرب مؤخراً ، كالترك والمغول » .

« أدرك الخلفاء السابقون ، الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما نَدَر وجودُه فى دُعاة الديانات الجديدة ، أن النُّظُم والأديان ليست مما يُفْرَضُ قَسْراً فعاملوا أهل كلِّ قطر استَوْلَوْا عليه

بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونُظُمَهم ومعتقداتِهم ، غيرَ فارضين عليهم سوى جزية زهيدة ، فى الغالب إذا ما قيست بما كانوا يدفعون سابقاً فى مقابل حفظ الأَمْن بينهم ، فالحقُّ أن الأمم لم تَعْرف فاتحين متسامحين مثلَ العرب ، ولا ديناً سَمْحاً مثلَ دينهم » .

« وما جَهِله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة فى اتساع فتوحهم وفى سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم التى رَسَخَتْ وقاومت جميع الغارات وبَقِيَت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم » .

وأ كثر لوبونُ ، فى مواضع كثيرةٍ ، من ذِكْر الأمثلة على تسامح العرب ورأفتهم بالمغلوبين ، ومن ذلك « أن العرب حاصروا الإسكندرية حصاراً دام أربعة عشر شهراً ، وقُتِلَ فى أثنائه ثلاثةٌ وعشرون ألفَ جندىّ من العرب ، وأن عمرو بن العاص كان سَمْحاً رحيماً نحو أهل الإسكندرية مع تلك الخسارة التى أصيب بها العرب ، ولم يقْسُ عليهم ، وصنع ما يَكْسِب به قلوبهم ، وأجابهم إلى مطالبهم ، وأصلح أسدادهم وتُرَعهم وأنفق الأموال الطائلة على شؤونهم العامة » .

ولذلك لم يَكَد القرنُ الأول من الهجرة ينقضى حتى كانت رايةُ النبىِّ العربىِّ تخفِقُ فوق البلاد الواقعة بين بين الهند والمحيط الأطلنطىّ ، وبين القفقاس والخليج الفارسىّ وفوق إسپانية .

٤

وبحث العلامة لوبون فى القرآن وأصول الإسلام وفيما يُسْنِده بعض كُتَّاب أوربة إلى الإسلام من عوامل الانحطاط ، كعقيدة القضاء والقدر (الجَبْرية) وأحوال المرأة ومبدأ تَعَدُّد الزوجات .

رأى لوبون أنه ليس فى القرآن من الجَبَرية ما ليس فى الأديان الأخرى ، وأن فريقاً من فلاسفة الوقت الحاضر وعلمائه يقول إن مجرى الحوادث تابعٌ لسُنَّة لا تتبدل ، وأن الجَبَريةَ الإسلامية نوعٌ من التسليم الهادئ الذى يَعَلّمَ به الإنسان كيف يَخْضَعُ لحكم القَدَر من غير تَبَرُّم ومُلاوَمة ، « وتسليمٌ مثلُ هذا وليدُ مزاجٍ أ كثر منه عقدة ، والعرب كانوا جَبَريين بمزاجهم قبل ظهور محمد ، فلم يكن لجَبَريتهم تأثير فى ارتقائهم كما أنها لم تُؤَدِّ إلى انحطاطهم » .

ولما تناول لوبون حال المرأة فى الإسلام بَيَّن أن الرجال كانُوا ، قبل ظهور الرسول ، يَعُدُّون منزلةَ

النساء متوسطةً بين الأنعام والإنسان ، وأنهم كانوا يرَوْنها أداة للاستيلاد والخدمة ، وأن عادة الوأد كانت شائعةً بين عرب الجاهلية ، ثم جاء الإسلام وحَسَّنَ حال المرأة وكان أولَ دينٍ رفع شأنها ، ومنحها حقوقاً إرثية لا تَجِدُ مثلَها فى القوانين الأوربية ، وأَمَر بمعاملتها بأحسنَ مما فى تلك القوانين ، وبَيَّن لوبون ، أيضاً ، أن نقصان شأن المرأة حَدَث خلافاً للإسلام ، لا بسبب الإسلام ، وأن الإسلام ، الذى كان أول دين رفع شأن المرأة ، برىءٌ من خفضه ، وأنه اتفق للنساء أيام حضارة العرب ما اتفق لأَخواتهنَّ حديثاً فى أوربة من التقدم ، ثم التمس لوبون العذر للشرقيين فى مراقبة المرأة ، فقال « إن الشرقيين ، إذْ كانوا مطامعين بغرائزهم على سرائر الأمور ، وكانوا يرَوْن من طبيعة المرأة أن تكون غادرة غيرَ وفية ، كما أن الطيران من طبيعة الطير ، وكانوا حريصين على صفاء نسلهم ، اتَّخذوا ما يرُوقهم من وسائل الحَذَر منعاً لحدوث ما يَخْشَوْن » .

وأنحى لوبون باللائمة على مؤرخى أوربة الذين قالوا إن مبدأ تعدد الزوجات هو ركن الإسلام ، وإنه علّة انحطاط الشرقيين ، فمبدأ تعدد الزوجات ، كما أوضح لوبون ، لم يكن خاصاً بالإسلام ، فقد عَرَفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور الرسول ، ولم ترَ الأمم التى اعتنقت الإسلام شيئاً جديداً فيه ، وعند لوبون : « أن حبَّ الشرقيين الجَمَّ لكثرة الأولاد وميلَهم الشديد إلى حياة الأُسْرة وخُلُقَ الإنصاف الذى يردعهم عن ترك المرأة غيرِ الشرعية بعد أن يكرهوها خلافاً لما يقع فى أوربة وغيرَ ذلك من الأسباب الكثيرة ، كلُّها أمورٌ تحفِز الشرائع إلى تأييد العادات التى هى وليدة الطبائع ، وإذا نظرنا إلى أن القوانين لا تلبث أن تطابق العاداتِ كان لنا أن نقول إن تعدد الزوجات غيرَ الشرعىِّ فى أوربة لا يلبث أن تؤيده القوانين » ، ولم يرَ لوبون سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعىِّ عند الشرقيين أدنى مرتبةً من مبدأ تعدد الزوجات السرّىِّ الخبيث الذى يُؤدِّى إلى زيادة اللُّقطاء فى أوربة .

وإنما عزا لوبون سقوطَ الدولة العربية وانحطاط العرب إلى صفات العرب الحربية المتأصلة التى كانت نافعةً فى دَور فتوحهم ، فالعربُ بعد أن تَمَّت فتوحهم أخذ ميلهم إلى الانقسام يبدو ، وصارت دولتهم تتجزأ ، وقَوَّضوا كيانهم بسلاحهم أكثر مما قُوِّض بسلاح الأمم الأخرى ، وعَزَا لوبون انحطاط العرب ، أيضاً ، إلى ما حدث من قبض أناسٍ من ذوى العقول المتوسطة على زمام دولتهم الواسعة بعد

أن كان يُدير شؤونَها رجالٌ من العباقرة ، وإلى ما أَلِفه العرب من التَّرَف وما أصابهم من فتورٍ فى الحماسة لمثلهم الأعلى ، وإلى تنافس مختلف الشعوب التى خَضَعت لسلطانهم ، وإلى فساد الدم العربىِّ الذى نشأ عن توالد العرب وتلك الشعوب .

وعلى ما فى هذه الأسباب من الصحة لا نعتقد أن لوبون أصاب حين ظنَّ أن من أصول الإسلام النظامَ الأساسىَّ القائلَ بجَمْع جميع السلطات فى يد سيد مطلق ، وحين عزا انحطاط العرب إلى هذا النظام الذى حُمِل به الناس كما ادَّعى ، على التمسك بأحكام الماضى الإسلامية غيرِ المطابقة لاحتياجاتهم المتحولة ، فبعد أن أوضح لوبون أن نظام العرب ديموقراطىٌّ ، وأن مبدأ المساواة التامة ساد الجميعَ بفضله ، وأن الفقهاء ساروا على مبدأ « لا يُنْكَر تغَيُّر الأحكام بتغير الأمكنة والأزمان » ، وأن المسلمين فى عصر خلفاء بغدادَ وقرطبةَ الزاهر كانوا يَعْلَمُون ، بما يأتون من ضروب الاجتهاد ، كيف يُوَفِّقون بين هذه الأحكام واحتياجات الأمم التى انتحلتها ، كان من الخطأ ذهابُه إلى أن نظام الحكم المطلق هو من أصول الإسلام ، جاء فى القرآن : « وَلْتَكُنْ منكم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخيْرِ ويَأْمُرُونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عن المُنكَرِ وأولئكَ هم المفلحونَ . . . وَشَاوِرْهم فى الأمرِ ، فإذا عَزَمْتَ فتوكَّل على اللهِ . . . وأَمْرُهم شُورَى بينهم إلخ . » ، وقال الرسول الأعظم : الدينُ النصيحةُ لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم ... وإن اللهَ يَرْضَى لكم أن تَعْبُدُوه وحدَه ، ولا تُشْرِكُوا به شيئاً ، وأن تَعْتَصموا بحبل الله جميعاً وأن تُنَاصِحوا من وَلَّاهُ الله أمرَكم ... وما تَشَاوَرَ قومٌ إلا هُدوا لأرشد أمرهم ... وإن الناس إذا رَأَوا الظالم فلم يأخذوا على يَدَيْه أوشك أن يعمَّهم اللهُ بعقابٍ من عنده ، إلخ . » .

٥

وبعد أن أوضح العلامةُ لوبون أن الإسلام أَلَّف بين قلوب العرب ، وأنهم فتحوا العالم بفضله متخذين ما أمرهم به من العدل والإحسان والتسامح والرأفة بالأمم المغلوبة دستوراً لهم ، قال : « كان من سياسة العرب الثابتة ، إذا ما أرادوا الاستقرار بقطر ؛ أن يكونوا على وِئام مع الأهلين المغلوبين ، وأن يحترموا دينهم وشرائعهم ، وأن يَكْتَفُوا بأخذ جزيةٍ طفيفة منهم » ، وإلا كان همُّهم تمويلَ الجنود وأخذَ الغنائم .

وأثبت لوبون ، بما لا يترك للشكّ مجالا ، أن عبد الرحمن الغافقىّ لم يَهْدِف من غَزْوه لفرنسة إلى الاستقرار بها واتخاذِها قاعدةً للاستيلاء على أوربة ، وأن النصرَ الذى أحرزه شارل مارتل فى پواتيه لم يكن مُهِمًّا كما زعم المؤرخون ، بدليل عَجْزِ شارل مارتل عن استرداد أيةِ مدينةٍ استولى عليها العرب عسكريًّا فى فرنسة ، وبدليل بقاء العرب ، بعد معركة پواتيه مدةَ قرنين فى جَنوب فرنسة ، وبدليل محالفة بعض أمراء فرنسة العرب على شارل مارتل الذى أخذ يَنْهَبُ بلادَهم ، ثم قال لوبون : « إن النتيجة المهمة الوحيدة التى أسفر عنها انتصارُ شارل مارتل فى پواتيه هى أنه جعل العرب أقل جُرْأَةً على غزو شمال فرنسة ، ونتيجةٌ مثل هذه لم تَكْفِ لتكبير أهمية انتصارِ هذا القائد الفَرَنْجِىِّ » .

ثم ألمع لوبون ، بعد أن ذكر غاية العرب من غزو فرنسة ، إلى تخوف مؤرخى الغرب على مصير أوربة فيما لو كان النصر قد تمَّ للعرب فى معركة پواتيه وكانت غايتهم الاستيلاء ، وقال : « لنَفْرِض ، جَدَلاً ، أن النصارى عَجَزوا عن دحر العرب ، وأن العرب وَجَدُوا جَوَّ شمال فرنسة غيرَ بارد ولاماطر كجوِّ إسپانية فطابت لهم الإقامة الدائمة به ، فماذا كان يصيب أوربة ؟ كان يصيب أوربة النصرانية المتبربرة مثلُ ما أصاب إسپانية من الحضارة الزاهرة تحت راية النبىِّ العربىِّ ، وكان لا يَحْدُث فى أوربة ، التى تكون قد هُذِّبَت ، ما حَدَث فيها من الكبائر ، كالحروب الدينية وملحمة سان بارتلمى ومظالم محاكم التفتيش وكلِّ ما لم يَعْرِفه المسلمون من الوقائع التى ضَرَّجَت أوربة بالدماء عِدَّة قرون » .

وقد خَصَّص العلامة لوبون فصلا للحروب الصليبية أشار فيه ، غيرَ مرة ، إلى الفرق بين الفتح العربى والغارات الصليبية من حيث التسامحُ وحسنُ معاملة المغلوبين والسياسةُ الرشيدة ، فقال : « كانت أوربة ، ولا سيما فرنسةُ ، فى القرن الحادى عشر الذى جُرِّدَت فيه الحملة الصليبيةُ الأولى فى أشد أدوار التاريخ ظلاماً . . . ولم يكن الصراع العظيم الذى كان يَتَمَخَّض عنه العالم غيرَ نزاع عظيم بين أقوام من الهَمَج وحضارةٍ تُعَدّ من أرقى الحضارات التى عرفها التاريخ » .

وقال لوبون ، بعد أن ذَكَرَ الفظائع الوحشية وأعمالَ التخريب والسلب التى اقترفها الصليبيون فى طريقهم إلى القدس وذبحَهم لمئات الألوف من المسلمين والعرب والأبرياء : « كان سلوكهم حين دخلوا القدس غيرَ سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى » .

ثم قال لوبون ، الذى رَوى لنا أن أول ما بدأ به قائد الحملة الصليبية الثالثة ريكاردوس هو قتله صَبْراً ثلاثة آلاف أسير مسلم سَلَّموا أنفسهم إليه بعد أن قطع لهم عهداً بحقن دمائهم : « ليس من الصعب أن يتمثل المرء درجةَ تأثير تلك الكبائر فى صلاح الدين النبيل الذى رحم نصارى القدس فلم يَمَسَّهم بأذى ، والذى أَمَدَّ فليب أوغست وقلبَ الأسد ريكاردوس بالأزواد والمُرَطِّبات فى أثناء مرضهما ، فقد أبْصر الهُوَّة العميقة بين تفكير الرجل المتمدن وعواطفه وتفكير الرجل المتوحش ونَزَوَاته » .

وتَمَنَّى العلامة لوبون أن يكون العرب قد اسْتَوْلَوْا على العالم ، ومنه أوربة ، لِما كان فيهم من نبيل الطبائع وكريم السجايا ، فأعرب عن ذلك بقوله : « يُرْوَى ، مع التوكيد ، أن موسى بن نُصَيْر فكَّر ، بعد فتح إسپانية ، فى العودة إلى سورية من بلاد الغول وألمانية وفى الاستيلاء على القسطنطينية وفى إخضاع العالم القديم لأحكام القرآن ، وأنه لم يَعُقْه عن ذلك العمل العظيم سوى أمر الخليفة إياه بأن يعود إلى دمشق ، فلو وُفِّق موسى بن نُصَير لذلك لجعل أوربة مسلمةً ولَحَقَّق للأمم المتمدنة وَحْدَتها الدينية ولأنقذ أوربة ، على مايحتمل ، من دور القرون الوسطى الذى لم تَعْرِفه إسپانية بفضل العرب » .

٦

ولم يكن دور الفتح سوى وجهٍ من وجوه تاريخ العرب ، ولم تَعْنِ إقامةُ دولةٍ عظيمةٍ إبداعَ حضارة ، والعربُ قد أبدعوا حضارة جديدة ، ولم يلبث دور ازدهار حضارتهم أن بدأ بعد أن فَرَغوا من فتوحهم ، ومابذلوا من الجهود فى الوقائع الحربية وَجَّهوا مثله إلى الآداب والعلوم والصِّناعة ، وأبدعوا فيها بسرعة ما أبدعوه فى ضروب القتال ، وكان لا بُدَّ من وجودِ عوامل لصعود العرب فى سُلَّم الحضارة والإبداع فيها .

رَجَع العلامة غوستاف لوبون هذه العواملَ ، خلا ما تقدم ، إلى بِيئَة العرب وذكائهم اللامع وخيالهم الخَصِب وحَيَوِيَّتهم ، وقال :

« لم يلبث العربُ بعد خروجهم من صَحَارى جزيرتهم أن وجدوا أنفسهم أمام ما بَهَرَهم من آثار الحضارة الإغريقية اللاتينية ، وأن أدركوا تَفَوُّقَها الثَّقافىّ ، كما أدركوا تَفَوُّقَها الحربىّ فيما مضى ، فجَدُّوا ، من فَوْرِهم ، ليكونوا على مستواها .

« ويتطلب استمراء حضارة راقية ذكاء مثقفاً . . . وقد أثبتنا أن العرب كانوا أيام الرسول ذوى ثقافة أدبية رفيعة .

« والحقُّ أن الرجل المثقف قد يجهل أموراً كثيرة ، وإنما يتعلمها بسهولة ، لِمَا فيه من الاستعداد الذهنيِّ ، وقد أظهر العرب فى دراسة العالم ، الجديدِ فى أعينهم ، من الحماسة كالاستعداد الذى أَبْدَوْا لفتحه .

« ولم يَتَقَيَّد العرب فى دِراسة تلك الحضارة ، التى واجهتهم فجأةً ، بمثل التقاليد التى أثقلت كاهل البِزَنطيين منذ زمن طويل ، فكانت الحرية من أسباب تقدمهم السريع . . . ولم يلبث أن تَجَلَّى استقلال العرب الروحىُّ الطبيعىّ وخيالُهم وقوة إبداعهم فى مبتكراتهم الحديثة ، وقد رأينا أنه لم يَمْضِ سوى وقت قصير حتى طبعوا على فنِّ العِمارة وسائر الفنون ، ثم على مباحثهم العلمية ، طابَعهم الخاصّ الذى يبدو أولَ وَهْلَةٍ فى آثارهم » .

وقد استدلّ لوبون على أن العرب خَرَجوا من جزيرتهم أصحابَ ذكاء مصقول من عجز البرابرة الذين قَضَوْا على الدولة الرومانية ومن عجز الترك والمغول الذين قَضَوْا على الدولة العربية عن إبداع أية حضارة لعقولهم الغليظة ، مع توافر عوامل البيئة ، فقال :

« يبدو لنا الفرق بين الأمم التى تكون على جانب كبير من الذكاء ، كالأمة العربية ، والأممِ المنحطة ، كبرابرة القرون الوسطى الذين قَضَوْا على دولة الرومان ، وأجلافِ الترك والمغول الذين غَمَر طوفانهم دولة محمد .

« فلقد أبدع العرب من فَوْرِهم ، بعد أن استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس ، حضارةً جديدة أفضلَ من الحضارات التى جاءت قبلها ، وكانت عقول البرابرة عاجزةً عن أدراك كُنْهِ الحضارة التى قهروا أهلها ، وكان انتفاعهم بها ممسوخاً فى بدء الأمر ، ولم يسيروا بها نحو الرقىّ إلا بعد أن صُقلَت أدمغتهم فصارت قادرةً على إدراك معانيها بعد زمن طويل .

« والواقع أن تقدم أولئك البرابرة الذين هدموا الدولة الرومانية لم يَحْدُث إلا بتوالى الأجيال ،

وأنهم لبُطْء تقدمهم لم يستطيعوا إقامة حضارة جديدة على أنقاض حضارة القرون الأولى إلّا بعد جهود استمرت قروناً كثيرة » .

أما الترك والمغول فلم يكن لهم ، على رأى لوبون ، شأنٌ فى ميدان الحضارة ، ولَم يَقدِروا على الانتفاع بحضارة العرب انتفاعاً كافياً ، فضلاً عن عدم استطاعتهم إبداعَ أىِّ شىء بتوالى القرون .

حقًّا إن العرب أخذوا يُنَظِّمون شؤونَهم بعد انتهاء دور الفتوح ، فحوّلوا جهودهم إلى ميدان الحضارة ، وأبدعوا حضارة أينعت فيها الآداب والعلوم والفنون وبَلَغَت الذُّرْوَة .

وهنا نذكر أن العلامة لوبون ، الذى رأى أن العرب أثبتوا منذ ساعة اتصالهم بالعالم الخارجىّ أنهم من ذوى العقول الناضجة المستعدة للتمدن والتمدين ، لم يَسَعْه ، حين تكلم عن تهمة حرق مكتبة الإسكندرية ، سوى رَدِّها عنهم بحرارةٍ فى الكلمات الآتية ، وهى :

« وأما إحراقُ مكتبةِ الإسكندرية المزعومُ فمن الأعمال الهمجية التى تأباها عادات العرب ، والتى تجعلُ المرء يسأل : كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً ؟ وهذه القصة دُحِضَت فى زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها ، ولا شىء أسهل من أن نُثْبت ، بما لدينا من الأدلة الواضحة ، أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين فى الإسكندرية قبل الفتح العربىّ بعناية كالتى هدموا بها التماثيل ولم يَبْق منها ما يُحْرَق » .

٧

رأى العربُ ذوو الذكاء اللامع والخيال الخصب والحَيَوية أنفسَهم ، فى دور الفتح ، فى بِيئاتٍ متباينة واقعة بين بلاد الهند والمحيط الأطلنطىّ ، وكان لهذه البِيئات تأثيرٌ متنوع فيهم مع تشابه صفاتهم الخاصة بعرقهم ، فكان ما ترى من تفاوت فى آثارهم الماثلة القائمة فى تلك الأقطار ومن وجود أوجه شَبَه بينها على العموم .

قال لوبون : « كان شأن العرب بالنسبة إلى المهندسين الأجانب الذين استخدموهم فى دور الفتح كشأن الرجل الغنىّ الذى يقيم لنفسه بيتاً ، فكما أن المهندس الذى يَرْسُم بيت ذلك الغنىّ يراعى فيه ،

لا ريب ، ذوقَه نرى مهندسى الروم قد رَاعَوْا ذوق العرب فيما أقاموا لهم من المبانى الأولى ، فتَجَلت عبقرية العرب فيها .

« ولم يلبث العرب ، بعد أن تَحَرَّرُوا من المؤثرات الأجنبية ، أن أصبح لعمارتهم من الأشكال والنقوش الخاصة ماصار من المتعذر معه خلطها بغيرها ، وإن أمكن أن يُرَى شىء من الأثر البِزنطىّ أو الفارسىّ أو الهندىّ فى بعض زخارفها مع محافظة البناء فى مجموعه على طابعه العربىّ » .

ولكنّ إبداع فنّ عمارة جديد لا يكفى لجعله أفضل من غيره ، فقد يكون الفنّ الذى ظهر قبله خيراً منه ، فإلى هذا انتبه العلامة لوبون ، وقال : « يكفى الإنسانَ أن ينظر إلى إحدى البنايات التى أقيمت فى دور راق من أدوار الحضارة العربية ، مسجداً كان ذلك البناء أو قصراً ، أو أن ينظر إلى ماصُنِع فيه من دَوَاة أو خِنْجَر أو جلدِ قرآنٍ ليرى لهذه الآثار طوابعَ خاصةً لايتَطَرَّق الوهم إليه فى أصلها، والباحث فى مصنوعات العرب ، كبيرةً كانت أو صغيرة ، لايرى فيها أية صِلَة ظاهرة بمصنوعات أية أمة أخرى ، فالإبداعُ فى مصنوعات العرب تامٌّ واضح . . .

« وتتجلى قوة الإبداع الفنىّ فى الأمم فى سرعة تحويل ماظَفِرَت به من عناصر الفنّ وجعله ملائماً لاحتياجاتها وابتكارها بذلك فنًّا جديداً ، فإذا تحقق هذا لدينا عَلِمْنا أن العرب لم تَسْبِقْهم أمة . . .

« وما على المرء إلا أن ينظر إلى آثار العرب الأدبية والفنية ليعلم أنهم حاولوا تزيين الطبيعة دائماً، وذلك لِما اتَّصَف به الفنّ العربىّ من الخيال والنضارة والبهاء وفَيْض الزخارف والتفنن فى أدقّ الجزئيات .

« والأمة العربية ، قد رَغِبت، بعد أن اغتنت (والأمة العربية أمةُ شعراء ، وأىُّ شاعرٍ لا يكون متفنناً) فى تحقيق خيالاتها فأبدعت تلك القصور الساحرة التى يُخَيَّل إلى الناظر أنها مؤلفة من تخاريمَ رُخاميةٍ مُرَصَّعة بالذهب والحجارة الكريمة .

« ولم يكن لأمة مثل تلك العجائب ، ولن يكون ، فهى وليدة جيل فَتِيٍّ مَضَى وخيالٍ خصب ذَوَى ، ولا يطمعنْ أحدٌ فى قيام مثلها فى الدور الحاضر المادىّ الفاتر الذى دخل البشر فيه » .

ولم يستطع العلامة لوبون أن يمنع نفسه ، وهو المفكر الوقور ، من التَّغَنِّي بآثار العرب وإبداء ذلك فى كل مناسبة ، ومن ذلك قوله عن جامع الصخرة فى القدس : « والمرء قد يُفَكِّر فى تلك القصور السحرية التى يُبْصِرها بخياله أحياناً ، ولكن الخيال دون الحقيقة فى أمر جامع عمر » .

والخلاصة أن لوبون رأى أن فنون العرب آية فى الإعجاز وأنها تُورِث العَجَب العُجاب .

ولم يَرَ لوبون أن انتفاع الفنّ العربىّ بما اذَّخَرَتْه الأجيال السابقة مما يَضُرُّه ، فعند لوبون أن كلّ جيل يقتبس من الأجيال الماضية ، وهو يضيف إلى ما اقتبسه إذا كان على ذلك من القادرين ، قال لوبون : « أثبت العلم الرفيع أن أصول الفنّ اليونانىّ مقتبسةٌ من الآشوريين والمصريين . . . وأن العرب والأغارقة والرومان والفنيقيين والعبريين وكلّ أمة أخرى استفادوا من مجهودات الماضى ، ولولا ذلك لكان لِزَاماً أن تبدأ كلُّ أمة بما بدأت به الأمم الأخرى ولَسُدَّ باب التقدم ، وكلُّ ما تفعله الأمة فى بدء الأمر هو أنها تقتبس من الأمم التى جاءت قبلها ثم تُضِيف إلى ما أخذته أموراً أخرى . . .

« وإذا أنعمت النظر فى المبانى العربية ، كالقصور التى أقامها العرب فى الأندلس أو المساجد التى أقاموها فى القاهرة ، رأيتَ العناصر الأولى التى تألفت منها بلغت من التمازج درجة يتعذر معها الانتباهُ إلى المصادر التى اشْتُقت منها » .

٨

ولم يكن النشاط الذى يَحْفِز الإنسان إلى التقدم قويًّا فى أمة مثلَ قوته فى العرب ، كما شَهِد به العلامة غوستاف لوبون ، ولذلك نال العرب درجةً رفيعة من الثَّقافة بعد أن أتموا فتوحهم بزمن قصير ، وكانت لهم مبتكراتٌ فيما وَرِثوه من علوم الأولين .

والواقعُ أن حبّ العرب للعلم كان عظيماً ، وأن الخلفاء لم يتركوا طريقاً لاجتذاب العلماء ورجال الفنّ إلا سلكوها ، وأن أحد خلفاء بنى العباس شَهَرَ الحربَ على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين فى التدريس ببغداد ، وأن العلماء ورجال الفنّ والأدباء من جميع المِلَل والنِّحَل أخذوا يتقاطرون إلى بغداد التى كانت مركز الثَّقافة العالمية ، كما أخذوا يتقاطرون إلى عاصمة الأندلس ، قرطبة ، التى كانت مركزاً للعلوم والفنون والصناعة .

قال لوبون : « كانت معارف اليونان واللاتين القديمةُ أساساً لثقافة متعلمى العرب فى الدور الأول ، وكان هؤلاء كالطلاب الذين يتَلَقَّوْن فى المدرسة ما وَرِثه الإنسان من علوم الأولين ، وكان اليونانُ أساتذةَ العرب الأولين إذَنْ ، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع والنشاط لم يكتفوا بحال الطلب الذى اكتفت به أوربة فى القرون الوسطى ، فلم يلبثوا أن تحرَّروا من ذلك الدور الأول . . .

« والإنسانُ يَقْضى العجبَ من الهمة التى أقدم بها العرب على البحث ، وإذا كانت هنالك أممٌ قد تساوت هى والعرب فى ذلك فإنك لا تَجِد أمة فاقت العرب على ما يحتمل . . .

« ولم يَلْبث العرب ، بعد أن كانوا تلاميذَ معتمدين على كتب اليونان ، أن أدركوا أن التجرِبة والترصد خيرٌ من أفضل الكتب . . . ويُعْزَى إلى بيكن ، على العموم ، أنه أول من أقام التجرِبةَ والترصد ، اللذيْن هما ركن المناهج العلمية الحديثة ، مقامَ الأستاذ ، ولكنه يجب أن يُعْتَرف اليوم بأن ذلك كلّه من عمل العرب وحدَهم .

« ومَنَحَ اعتمادُ العرب على التجربة مؤلفاتِهم دقةً وإبداعاً لا يُنْتَظَر مثلُهما من رجل تعوَّد درسَ الحوادث فى الكتب . . .

« ونشأ عن مِنْهاج العرب التجرِبيِّ وصولُهم إلى اكتشافات مهمة . . .

« ولما آل العلم إلى العرب حوَّلُوهُ إلى غير ما كان عليه ، فتَلَقَّاه ورثتُهم مخلوقاً خلقاً آخر ... »

٩

ولم يقتصر فضل العرب فى ميدان الحضارة على أنفسهم ، فقد كان لهم الأثرُ البالغ فى الشرق والغرب ، والمشرقُ والمغرب مدينان لهم فى تمدنهما ، ولم يَتَّفِق لأمة فيهما ما للعرب من النفوذ .

ذلك ما رآه لوبون ، وهو القائل : « إن الأمم التى كانت لها سيادة العالم ، كالآشوريين والفرس والمصريين والأغارقة والرومان ، توَارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلالٍ دارسة وعادتْ أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات ، والعربُ ، وإن توَارَوْا أيضاً ، لم تزل عناصر حضارتهم ، وإن شئتَ فقُل ديانتهم ولغتهم وفنونهم ، حَيَّةً . . .

« وأنشأ العرب بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارة التى ظهرت قبلها ، وتمكَّنُوا من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وحضارتهم الجديدة واتصلت بالعرب أممٌ قديمة كشعوب مصر والهندوس ، واعتنقت معتقداتِ العرب وعاداتِهم وطبائعَهم وفنَّ عِمارتهم ، واستولت بعد ذلك أمم كثيرة على الأقطار التى فتحها العرب ، وظلَّ نفوذ العرب فيها ثابتاً ، ويلوح لنا أن رسوخ هـذا النفوذ أبديٌّ فى جميع البِقاع الآسيوية والإفريقية التى دخلوها والتى تمتدُّ من مَرَّاكُش إلى الهند » .

وشمَل فضل العرب قاهريهم أيضاً ، مع عجز هؤلاء عن الانتفاع بحضارة العرب كما كان يجب ، وانتحل أكثر قاهرى العرب دين العرب وفنونهم وعلومهم ، واتخذ أكثرهم العربيةَ لغة له ، ولم يَدُرْ فى خَلَد أحدهم إقامةُ حضارةٍ مقامَ حضارة العرب ، فحضارةُ العرب أينما حَلَّتْ ثَبَتَتْ أصولها ، ولم يَقْدِر فاتح على زعزعتها ، وهى من المناعة ما استطاعت أن تُهَيْمِن به على الأمم التى حاولت هدمها .

قال لوبون : « لا نرى فى التاريخ أمةً ذاتَ أثرٍ بارز كالعرب ، فجميع الأمم التى اتَّصَل العرب بهم اعتنقت حضارتهم ، ولو حيناً من الزمن ، ولما غاب العرب عن مسرح التاريخ انتحل قاهروهم ، كالترك والمغول ، إلخ . تقاليدَهم وبَدَوْا للعالم ناشرين لنفوذهم ، أجَلْ ، لقد ماتت حضارة العرب منذ قرون ؛ ولكن العالَم لا يَعْرِف اليومَ فى البلاد الممتدة من سواحل المحيط الأطلنطىِّ إلى الهند ومن البحر المتوسط إلى الصحراءِ غيرَ أتباع النبىِّ ولغتهم » .

وعندما تكلم العلامة لوبون عن عرب الأندلس قال : « لم يَكَد العربُ يُتِمُّون فتح إسپانية حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا فى أقلّ من قرن أن يُحْيوا مَيِّت الأَرَضين ويَعْمُرُوا خَرِب المدن ويقيموا فَخْمَ المبانى ويُوطِّدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شَرَعوا يتفرَّغون لدِراسة العلوم والآدب ويترجمون كتب اليونان واللاتين ويُنْشِئون الجامعات التى ظَلَّت وحدها ملجأً للثَّقافة فى أوربة زمناً طويلا » .

ثم رأى لوبون أن إسپانية هَبَطت إلى الدَّرْك الأسفل من الانحطاط بعد جَلاَء العرب عنها ، وذلك بعد قوله : « لا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نَجِد بين وحوش الفاتحين من يؤاخَذ على اقترافه

مظالمَ قتلٍ كتلك التى اقْتُرِفت ضِدّ المسلمين، ومما يُرْثى له أن حُرِمَت إسپانية عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثَّقافية والصِّناعية » .

ورأى لوبون ، والحقُّ ما رأى ، أن العرب مَدَّنوا أوربة مادةً وعلماً وأخلاقاً ، « فقد كان عرب الأندلس يَتَّصِفون بالفروسية المِثاليَّة خلا تسامحهم العظيم ، فكانوا يَرْحمون الضعفاء ويَرْفُقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما إلى هذا من الخِلال التى اقتبستها الأمم النصرانية بأوربة منهم مؤخراً . . وأثَّر عرب الأندلس فى أخلاق الناس ، فهم الذين عَلَّموا الشعوب النصرانية ، وإن شئتَ فقل حاولوا أن يُعلِّموها ، التسامحَ الذى هو أثمن ماتصبو إليه الإنسانية ... ويمكن القول بأن التسامح الدينيّ كان مطلقاً فى دور ازدهار العرب ... ومثلُ هذا التسامح مما لم تَصِل إليه أوربة بعد ماقامت به فى أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة وما عانته من الأحقاد المتأصلة وما مُنِيَتْ به من المذابح الدامية » .

وقد أفاض العلامة لوبون فى إيضاح تمدين العرب لأوربة،وانتهى إلى ما يأتى : « إنه كان للحضارة الإسلامية تأثيرٌ عظيم فى العالم ، وإن هذا التأثير خاصّ بالعرب وحدَهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التى اعتنقت دينهم ، والعرب هم الذين هَذَّبُوا بتأثيرهم الخُلُقِيّ البرابرة الذين قَضَوْا على دولة الرومان ، والعربُ هم الذين فتحوا لأوربة ما كانت تجهله من عالَم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، فكانوا مُمَدِّنين لنا وأئمةً لنا ستة قرون ... وظَلَّت تَرْجمات كتب العرب ، ولا سيما الكتبُ العلمية، مصدراً وحيداً ، تقريباً ، للتدريس فى جامعات أوربة خمسة قرون أو ستة قرون ... وإذا كانت هناك أمةٌ تُقِرّ بأننا مَدِينون لها بمعرفتنا لعالَم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة . . . فعلى العالَم أن يعترف للعرب بجميل صُنْعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبديًّا ، قال مسيو ليبرى : لو لم يظهر العرب على مَسْرَح التاريخ لتأخرت نهضة أوربة الحديثة فى الآداب عِدَّةَ قرون » .

ولم يَغِبْ عن بال لوبون أن يَرُدّ على قول بعض الكتاب إن معظم علماء العرب فى بلاد الإسلام ليسوا من أصلٍ عربىّ ، فقد قال : « إن تلك البلاد مما ملكه العرب ، وإن الدم العربىّ مما جرى فى عروق أبنائها ، وإن علوم العرب مما كان لها نصيبٌ منه زمناً طويلاً ، وإنه إذا أبيح لأحدٍ أن

يجادل فى الآثار التى صدرت عن مدارس العرب كان ذلك من قبيل إباحته لنفسه أن يجادِل فى مؤلفاتِ علماء فرنسة بحُجَّة أنهم من الشعوب الكثيرة التى تألف من مجموعها الشعب الفرنسىُّ كالنورمان ، والسِّلْت ، والأكيتان ، إلخ . » .

وعند العلامة لوبون أن أوربة أخذت حضارتها من عرب الأندلس على الخصوص ، وهو لم يرَ للحروب الصليبية كبيرَ فضلٍ فى تمدين أوربة خلا ما اقتبسه الأوربيون فى أثنائها من وسائل ترَف الشرق وطِراز عِمارته وصنائعه ، قال لوبون : « إن استفادة الصليبيين من علوم العرب الخالصة كانت ضعيفةً إلى الغاية خلافاً لِما ذهب إليه كثير من المؤرخين ، فالجيوشُ الصليبية إذ كانت جاهلة للعلماء لم تكن لتبالِيَ بالمعارف والأصول مبالاتَها بشكل البناء أو الأسلوب الصِّناعىِّ » .

وسأل لوبون ، بعد أن أثبت فضل العرب على أوربة وتمدينهم لها : « لماذا يُنكِرُ علماء الوقت الحاضر تأثيرَ العرب ؟ » فكان جوابُه : « إن استقلالنا الفكرى لم يكن ، بالحقيقة ، فى غير الظواهر وإننا لسنا من أحرار الفكر فى بعض الموضوعات كما نريد .

« فالمرء عندنا ذو شخصيتين : الشخصيةِ العصرية التى كوّنتها الدِّراساتُ الخاصة والبيئةُ الخُلُقية والثَّقافية ، والشخصية القديمة غير الشاعرة التى جَمدَت وتَحَجَّرت بفعل الأجداد وكانت خلاصةً لماض طويل .

« والشخصيةُ غيرُ الشاعرة وحدَها ، ووحدَها فقط ، هى التى تتكلم عند أكثر الناس وتمْسِك فيهم المعتقداتِ نفسَها مسماةً بأسماء مختلفة وتُمْلى عليهم آراءهم فيلوح ما تُمْلِى عليهم من الآراء حرّةً فى الظاهر فتُحْتَرم .

« فالحقُّ أن أتباع محمد ظلوا أشدَّ ما عرفته أوربة من الأعداء إرهاباً عِدَّة قرون ، وأنهم عند ما كانوا لا يُرْعِدوننا بأسلحتهم ، كما فى زمن شارل مارتل والحروب الصليبية ، أو يهددون أوربة بعد فتح القسطنطينية ، كانوا يُذِلُّوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس.

« وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضدَّ الإسلام والمسلمين فى قرون كثيرة ، وصارت جزءاً من مزاجنا ، وأضحت طبيعةً متأصلة فينا تأصُّلَ حِقْدِ اليهود على النصارى الخفىِّ أحياناً والعميق دائماً .

« وإذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضدَّ المسلمين مُبْتَسَرَنا الموروثَ الذى زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة إن اليونان واللاتين وحدَهم منبعُ العلوم والآداب فى الزمن الماضى أَدْرَكْنا ، بسهولةٍ ، سرَّ جحودنا العامّ لتأثير العرب العظيم فى تاريخ حضارة أوربة .

« ويتراءى لبعض الفُضَلاء أن من العار أن يُرَى أن أوربة النصرانيةَ مدينةٌ فى خروجها من دور التوحش لأولئك الكافرين ، فعارٌ ظاهر كهذا لا يُقْبَل إلَّا بصعوبة » .

ووَضَع لوبون العرب فى صَفِّ اليونان والرومان ، ورآهم أرقى من جميع أمم الغرب التى عاشت قبل عصر النهضة ، فكان فى هذا أكثرَ إنصافاً من بعض كتاب العرب المعاصرين الذى استهوتهم الثَّقافةُ الأوربية المدرسية فأخذوا يسايرون رجالَها متجاهلين ما لأمتهم العربية من المقام العريض فى ميدان الحضارة راغبين بالأغارقة والرومان عنها حينما يتكلمون فى تاريخ الحضارة العالمية .

واعترف لوبون للعرب بظهور رجالٍ عظماء منهم كما تشهد بذلك اكتشافاتهم ، ولكنه أبدى ارتيابه فى ظهور عباقرةٍ منهم كنِيُوتُن ولِيبْنِتْز ، فنَعُدّ ذلك هَفْوَةً من العلامة لوبون الذى ذكر فى غيرِ موضعٍ أن لاڤوازيه مدينٌ لعلماء العرب فى علم الكيمياء وأن كِيپلر وكُوپِرْنيك مدينان لعلماء العرب فى علم الفلك مثلاً ، فقد قال : « يرى بعضُ المؤلفين أن لاڤوازيه هو واضع الكيمياء ، وقد نَسُوا أننا لا عهد لنا بعلم من العلوم ، ومنها علم الكيمياء ، صار ابتداعه دفعةً واحدةً ، وأنه وُجِدَ عند العرب من المختبرات ماوَصَلوا به إلى اكتشافاتٍ لم يَكُنْ لاڤوازيه ليستطيعَ أن ينتهى إلى اكتشافاته بغيرها » ، وقال نقلاً عن العلامة سيديو : « إن العرب سبقوا كيپلر وكوپرنيك فى اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بَيْضِيّ وفى نظرية دوران الأرض » ، وقال : « ترى فى كتب العرب من النصوص ما تعتقد به أن نفوسهم حَدَّثَتْهم ببعض اكتشافات العلم الحديث المهمة » ، فإذا كانت الحضارة العامة سلسلةَ حلقات وكانت حضارة العرب من أهم تلك الحلقات كان من المتعذر ظهورُ نِيُوتن ولِيبِنِتْز وغيرهما من أركان حلقة الحضارة الحديثة بدونها ، والفضلُ للمتقدم .

١٠

وهنا أذكر أن لكتاب « حضارة العرب » الذى أُقدِّم ترجمته مطالبَ ومناحىَ كثيرةً لا تتسع هذه المقدمةُ للإحاطة بها ، وأن أقلَّ نظرة إلى الفهرس المفصل الذى نُشِرَ فى آخر هذا الكتاب يدلُّ عليها .

فمن درس كتاب « حضارة العرب » وإنعام النظر فيه يتبيَّن للقارئ أن العلامة غوستاف لوبون سلك فى تأليفه طريقاً جديداً لم يَسْبِقه إليه أحد ، وأنه حاول فيه بعث حضارة العرب من مَرْقَدها وإظهارَها للملأ على وجهها الصحيح .

ولم يَأْلُ العلامة لوبون جهداً فى درس حضارة العرب مستنداً إلى أهمِّ المؤلفات التاريخية وإلى مشاهداته الشخصية ، فجاء كتابُه جامعاً لكثير مما فى تاريخ حضارة العرب من العِظات والعِبَر ، وقد أكثر بعض كُتَّابنا من الاستشهاد بجُمَلٍ منه عند بحثهم فى تاريخ الحضارة فصار من الضرورىِّ نقله بأسْره إلى اللغة العربية .

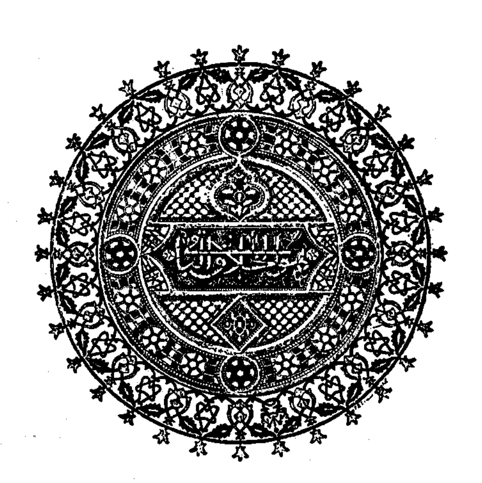
وهذا الكتاب صحيحُ المناحى والغايات فى مجموعه ، وهو كغيره من الكتب المهمة ، لا يخلو من هَفَواتٍ لا تخفى على القارئ ، ولكن هذه الهَفَواتِ لا تَحُطُّ من قيمته العظيمة ، وقد أشرت إلى أهمها فى هذه المقدمة .

وبحثَ العلامة غوستاف لوبون فى طبائع العرب وعاداتهم ونظمهم فى مختلف الأقطار كما كانت عليه فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فعلى القارئ أن يلاحظ ذلك ، وأن يَعْلَم أن هذا الكتاب ظهر فى سنة ١٨٨٤ ، وأن طبائعَ العرب وعاداتِهم تحوَّلَت بعض التحول منذ ذلك التاريخ بفعل مبتكرات العلوم والفنون والصِّناعة وبفعل علاقات أمم الشرق الوثيقة بأمم الغرب فى الزمن الحاضر .

أَلَا إن الأمة العربية التى هى عُرْضَةٌ لأشدِّ المصائب والمِحَن ، والتى نرى أن القضاء على كيانها

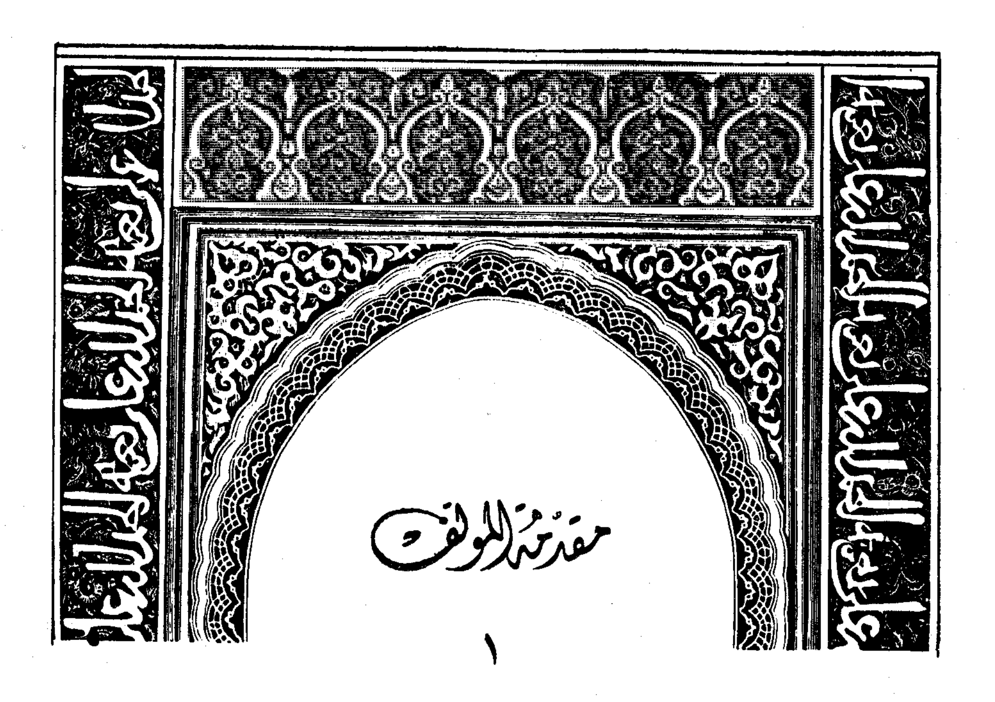
القوميّ ومُقَوِّماتِ حضارتها من سياسة أكبر دول التاريخ في المشرق والمغرب منذ قرون كثيرةٍ ، لاتزال تقاوم ، وها هي ذي قد أخذت تنهَضُ وتسعى لتحتلّ مكاناً لائقاً بتاريخها المجيد ، فإذا كان التوفيق قد أصابني في نقل هذا الكتاب ، وكان للأمة العربية نفعٌ فيه ، نِلْتُ ما أَتَمَنَّى (١) .

« نابلس » عادل زعيتر



(١) يقضي الواجب بأن أسجل شكري الوافر لمطبعة دار إحياء الكتب العربيـة التي التزمت طبع هذا الكتاب ، وذلك لما بذلته من جهد وتضحية في إخراجه في هذه المرة على هـذا الوجه النفيس الذي يحكي الأصل في المظهر جهد الاستطاعة ، ولما قدمته إلى من تسهيل في الإشراف على طبعه بإتقان بالغ ، وذلك بعد أن أعدت النظر في ترجمته وقمت بتجديد في عبارته .

وهنا ننبه القارئ إلى أن العلامة لوبون قد اقتطف كثيراً من كتب الحديث والأدب والعلم والفلسفة والتاريخ ، إلخ ، فأعدنا معظمه إلى أصـله العربي ، وأما الذي لم نتوصل إلى نصه العربي ، وهو قليل جداً ، فقد ترجمناه من الفرنسية مع وضع إشارة (*) عليه في مواضعه تنبيهاً للقارىء (المترجم) .



مقدمة المؤلف

١

يَعْرِفُ قراء كتبنا السابقة مَضامين هذا السِّفر الجديد ويَعْلَمون أننا سندرس تاريخ الحضارات بعد أن بحثنا فى الإنسان والمجتمعات .

كان كتابنا السابق[(١)] وقْفاً على وصف ما اعتور جسمَ الإنسان وعقله من التطور المتتابع ، وعلى بيان العناصر التى تتألف المجتمعات منها ، وقد رَجَعْنا فيه إلى أقدم أدوار الماضى ، وأوضحنا فيه كيف نشأت زُمَر الإنسان الأولى ، وكيف تَوَلَّدَت الأُسَر والمجتمعات والصناعات والفنون والنُّظُم والمعتقدات ، وكيف تحولت هذه العناصر بتوالى الأجيال ، وبَيَّنَّا فيه عوامل هذا التحول .

وإننا ، بعد أن بحثنا فى الإنسان وهو منفردٌ وفى تطور المجتمعات ، نرى أن نطبق قواعدنا التى بسطناها هنا لك على الحضارات العظيمة إكمالاً لبرنامجنا .

إن العمل لواسعٌ ، وإن مصاعبَه لَكثيرةٌ ، وإذْ كنا لا نُبْصر مَداه الآن عزمنا على جعل كلِّ مجلدٍ منه تامًّا مستقلاًّ ، فإذا انتهينا من المجلدات الثمانية أو العشرة الباحثة فى تاريخ مختلف الحضارات وتَمَّت بذلك غايتنا سَهُلَ ترتيبها ترتيباً علميًّا .

وبالعرب بدأت ، وسبب ذلك أن حضارتهم من الحضارات التى اطَّلَعْت عليها فى رِحلاتى

---

(١) كتاب « الإنسان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما » وهو يقع فى مجلدين .

الكثيرة أحسنَ مما اطلعت على غيرها من الحضارات التى كَمُل دَوْرُها وتجلى فيها مختلف العوامل التى أوضحنا سِرَّها فى ذلك الكتاب ، وهى من الحضارات التى نرى الاطلاعَ على تاريخها مفيداً إلى الغاية وهو أقلُّ ماعَرَفه الناس .

وتسيطر الحضارة العربية، منذ اثنى عشر قرناً ، على الأقطار الممتدة من شواطئ المحيط الأطلنطىّ إلى المحيط الهندىّ، ومن شواطىء البحر المتوسط إلى رمال إفْرِيقية الداخلية ، وكان سكان هذه البلدان المترامية الأطراف تابعين لدولة واحدة ، ويدينون الآن بديانة واحدة، ولهم لغة واحدة ، ونُظُمٌ واحدة، وفنونٌ واحدة .

ولم يقم عالمٌ بوضع كتاب جامع لتأثير حضارة العرب فى الأمم التى سيطرت عليها شاملٍ لعجائبها فى إسپانية وإفريقية ومصر وسورية وفارس والهند ، ولم تنل يدُ البحث العامّ فنونَ العرب ، وإن كانت أكثرَ ماعُرِف من عناصر حضارتهم ، وباء المؤلفون القليلون الذين أرادوا ذلك بالخَيْبَة، فعزَوْا حبوط عملهم إلى نقص الآثار والأسانيد !

ولا ننكر أن تشابه المعتقدات أوجب تجانساً كبيراً فى فنون مختلف البلاد التى خضعت للإسلام، ولكن من الواضح أن مابين الأمم الإسلامية من الاختلاف ومابين بيئاتها من التباين أدَّى ، من جهةٍ أخرى ، إلى فروقٍ بعيدة الغوْر فى تلك الفنون ، فما ذلك التجانس وما تلك الفروق ؟ سيرى القارئ الذى يتصفح فصول هذا الكتاب ، الخاصة بدراسة فنّ البناء وما إليه ، درجةَ صموت العلم الحديث عن هذه المسائل .

وكلما أمعنا فى درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائقُ جديدةٌ وآفاقٌ واسعة ، ولسُرْعان مارأينا أن العرب أصحابُ الفضل فى معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تَعْرِف لها ، مدةَ خمسةِ قرون ، مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم ، وأنهم هم الذين مَدَّنوا أوربة مادةً وعقلاً وأخلاقاً ، وأن التاريخ لم يَعرِف أمة أنتجت ماأنتجوه فى وقت قصير ، وأنه لم يَفُقْهم قوم فى الابتداع الفنىِّ .

وتأثيرُ العرب عظيم فى الغرب ، وهو فى الشرق أشدّ وأقوى ، ولم يَتَّفِق لأمة مااتفق للعرب من

النفوذ ، والأمم التى كانت لها سيادة العالم ، كالآشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان ، توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة ، وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات ، والعرب ، وإن تَوَارَوْا أيضاً ، لم تزل عناصر حضارتهم ، وإن شئت فقل دِياناتهم ولغتهم وفنونهم ، حيةً ، وينقاد أكثر من مئة مليون شخص مقيمين فيما بين مَرَّاكُش والهند لشريعة الرسول .

وثَبَتَت أصول شريعة الرسول وفنونُ العرب ولغتهم أينما حَلَّت ، ولم يَدُرْ فى خَلَد أحد من الفاتحين الكثيرين الذين قهروا العرب إقامةُ حضارة مقام حضارة العرب ، وانتحلوا كلُّهم دينَ العرب وفنونهم ، واتخذ أكثرهم العربيةَ لغةً له ، وتقهقرت أمام الإسلام فى الهند دِياناتٌ قديمة ، وجعل الإسلامُ مصرَ الفراعنةِ القديمةَ ، التى لم يكن للفرس واليونان والرومان فيها سوى نفوذ قليل ، عربيةً تامةَ العروبةِ وعَرَفَت أقوام الهند والفرس ومصرَ وإفريقية لهم سادةً غير أتباع محمد فيما مضى ، ولم يَعْرِفوا لهم سادةً غيرَ مسلمين بعد أن رَضُوا بالإسلام ديناً .

حقًّا أن من أعاجيب التاريخ أن يُلَبِّيَ نداء ذلك المُتَهَوِّس الشهير شعبٌ جامحٌ شديدُ الشكيمة لم يَقْدِر على قهره فاتح ، وأن تنهار أمام اسمه أقوى الدول وألا يزال يُمْسِك ، وهو فى جَدَثه ، ملايينَ من الناس تحت لواء شرعه .

ويجب احترام أعاظم مؤسسى الأديان والدول ، وإن وَصَفهم العلم الحديث بذوى الهوَس ، وحُقَّ له ذلك ، ففيهم تتجلى روح الزمن وعبقريةُ القوم ، وبلسانهم تنطق أجيالٌ من الأجداد راقدةٌ فى ثنايا العصور ، والخيالاتُ ، وإن كانت كلَّ ما يأتى به هؤلاء المبدعون لمُثُلٍ عالية ، هى التى أوجدت كياننا الحاضر ولا تقوم بغيرها حضارة ، ولم يكن التاريخُ سوى قَصَصٍ للحوادث التى أقام بها الإنسان خيالًا فعبده ثم هدمه .

والحضارةُ العربية من صنع قومٍ من شِباه البرابرة ، فلما خَرَج هؤلاء القوم من صَحَارى جزيرة العرب صرعوا الفرس واليونان والرومان وأقاموا دولةً عظيمة امتد سلطانُها من الهند إلى إسبانية ، وأبدعوا تلك الآثار التى هى آيةٌ فى الإعجاز والتى تُورِث بقاياها العَجَب العُجَاب .

فما العواملُ التى ظهرت ؛ ونَمَت بها ، حضارة العرب ودولتُهم ؟ وما أسبابُ عظمتهم وانحطاطهم ؟

حقًّا إن ما ذكره المؤرخون ضعيف إلى الغاية ولا يَقِف أمام سلطان النقد ، وطريقةُ التحليل العلميّ أفضلُ وسيلةٍ لإيضاح شأن أمةٍ كالأمة العربية .

والغربُ وليد الشرق ، ولا يزال مِفتاحُ ماضى الحوادث فى الشرق ، فعلى العلماء أن يبحثوا عن هذا المِفتاح فيه .

وتبدو الفنون واللغات وأكثر الدِّيانات العظمى بارزةً فى الشرق ، ويختلف سكان الشرق الآن عن سكان البلدان الأخرى فى المبادئ والآراء والمشاعر .

والشرقُ يتحول بِبُطْء ويقترب حاضره من ماضيه ، ويستطيع من يبحث فى أحواله الحاضرة أن يَصِلَ إلى صميم الأجيال الغابرة .

والشرقُ مرجعٌ دائم لرجال الفن والعلم والأدب ، وما أكثر ما جَلَستُ تحت نَخْلةٍ أو أمام معبدٍ فأخذتنى سِنَةٌ ، وخُضت فى بحر من الخيالات ، وأبصرتُ من خلالها سالفَ الأجيال ، وتَمثَّلَتْ لى مدنٌ غريبة ذاتُ أبراج مُشْرفة ، وقصورٌ عجيبةٌ ومعابدُ شامخةٌ ومآذنُ رفيعةٌ تتلألأ تحت وَهَج الشمس ، ورأيت قوافلَ من أهل البدو وجموعاً من الشرقيين بملابسهم الزاهية وشراذمَ من الأَرِقَّاء السُّمْر ونساءٍ مُخدَّراتٍ تجُوب تلك المدن !

ولا مِراء فى توارى نينوى ودمشقَ وأُورَشليمَ وأثينة وغَرْناطة وممفيسَ وطِيبَةَ ذاتِ مئة الباب وأُفولِ نجمها ، ولا رَيْبَ فى أن قصور آسية ومعابدَ مصرَ صارت خرائبَ وأطلالاً ، ولا شكَّ فى أنه لم يبق من آلهة بابلَ وسورية وكلدة ووادى النيل سوى ذكْرَيات ، ولكنه يستتر تحت هذه الأنقاض عِبرٌ لا تُحْصَى ، وتشتمل هذه الذِّكْرَيات على معانٍ بعيدةِ الغَوْر ، وتنطوى أخبارُ تلك الشعوب التى تناوبت ما بين عَمَد هِرْكُولَ ونجودِ آسية الخْصيبة ، وما بين شواطىء بحر إيجة المُخْضَرَّةِ ورمالِ إثيوبية المُحْرِقة ، على أسرار وألغاز .

وتلك البقاع القاصية حافلةٌ بالمعارف ، وقد يُغَيِّر الباحثُ آراءه بسببها ، ويدلُّ درسها على وجود هُوَّة عميقة بين الناس وعلى بُطْلان مزاعمنا فى الحضارة والإخاء العالميّ ، وعلى اختلاف ما نَخَاله ثابتاً من المبادئ والحقائق باختلاف البلدان .

وفى تاريخ العرب ، إذَنْ ، مسائلُ كثيرةٌ تتطلب حَلًّا ، وفيه دروسٌ وعِبَرٌ جديرة بالحفظ ، والعربُ عُنوان أمم الشرق التى تختلف عن أمم الغرب ، ولا تزال أوربة جاهلةً لشأنهم ، فلْتَعلم كيف تَعرِفهم ، فالساعة التى ترتبط مقاديرُها فى مقاديرهم قد اقتربت .

وإن ما بين الشرق والغرب من الاختلاف عظيم إلى الغاية فى الوقت الحاضر ، ويبلغ فى عِظَمه ما يتعذر معه اعتناقُ أحدِهما لمبادئ الآخر وتفكيره .

وقلَبَتْ مبتكراتُ العلوم والصناعة كيانَ الغرب المادىّ والأدبىّ رأساً على عَقِب ، وتعانى مجتمعاته المُسِنَّة تحولًا بعيد المدى ، ويقاسى خلافاً شديداً ، ويكابد فى سبيل معالجة الشرور التى نشأت عن ذلك الخلافِ أَزْمَةً عامة تَسُوقه باطِّرَادٍ إلى تبديل نُظُمه ، ويَئِنُّ من عدم الانسجام بين المشاعر القديمة والمعتقدات الجديدة ، ويَأْلَم من تَصَدُّع مبادئ الأجيال السابقة .

وتنال يدُ التغيير فى الغرب الأُسرةَ والتملك والدِّيانةَ والأخلاق والمعتقداتِ ، وتصبح هذه الأمورُ موضوعَ جَدَل ، ولا يقدر أحد أن يتَكَهَّن بما يتمَخَّض عنه العلم الحديث ، وكَلِفَت الجماهيرُ بمبادئَ سلبيةٍ فى الوقت الحاضر ، وبلغ كَلَفُها بها درجةَ الحماسة غيرَ مقدِّرةٍ نتائجَ ذلك .

ونرى الآن قيامَ آلهةٍ جُدُدٍ مقامَ قدماء الآلهة ، ونشاهد العلم يدافع عنهم اليوم ، فمن ذا الذى يذود عنهم فى المستقبل ؟

وحالُ الشرق غير ذلك ، فالشرق فى طُمَأْنينة وسكونٍ ، وقد بلغت شعوبه التى هى أكثرية البشر درجةً ظاهرة من التسليم الهادئ الذى هو عُنوان السعادة على الأقل ، ولا عهد له بما عندنا من الانقسامات والحياة الصاخبة .

وتتمتع شعوب الشرق بما خَسِرناه من التماسك ، فمعتقداتُ هذه الشعوب لا تزال قويمة ، وتحافظ أُسَرُها على استقرارها القديم ، وبَقِيَت مُقَوِّمَاتُ المجتمعات القديمة ، كالدِّيانة والأسرة والنظم والتقاليد والعادات ، وهى التى أصابها فى الغرب من الهدم ما أصابها ، مُؤَثِّرةً فى الشرق مسيطرةً عليه ، وليس على الشرقيين أن يفكروا فى تبديلها .

٢

فَصَّلنا فى كتابٍ آخرَ طُرُقَ البحث والاستقصاء ، التى يُسْتعان بها على درس الحوادث التاريخية ، تفصيلاً كافياً ، والآن نذكر أهمَّها :

إن مبدأ « العلة » المسيطرَ على دِراسة قضايا العلم يسيطر على دِراسة حوادث التاريخ أيضاً ، وأن طرق البحث والاستقصاء التى يُسْتعان بها على دِراسة القضايا العلمية يُسْتعان بها على دِراسة الحوادث التاريخية أيضاً ، فيجب ، إذَنْ ، درسُ الحادثة الاجتماعية كما تُدْرَس أيَّةُ حادثةٍ طبيعية أو كيماوية .

وتخضع الحادثات كلُّها لبعض السُّنَن ، أى لنظام من الضرورات والوجوب ، ويَعْمَل الإنسان ، وتُسَيِّره فى عمله قوًى مسيطرةٌ يسميها أناسٌ بالطبيعة وآخرون بالحكمة الربَّانية أو القضاء والقَدَر أو المصير ؛ ونحن مُسَيَّرون من المهد إلى اللحد بما لا نستطيع مقاومته من القُوَى القاهرة الغالبة المتماسكة ، ولا تَعْدُو أقصى جهودنا وغايةُ أمانينا حدَّ الوصول إلى معرفة بعض مظاهرها وصفاتها اللازمة .

ومَثَلُ تاريخ الإنسان كمَثَل سَرْدٍ واسعٍ متماسكِ الأجزاء تتَّصل حلقاته الأولى بأقدم الأحقاب والعصور ، وكلُّ حادثة تاريخية نتيجةُ حادثاتٍ أقدمَ منها ، والحالُ ، وهو وليد الماضى ، يحْمِل فى أثنائه وتضاعيفه بذورَ المستقبل ، فيستطيع صاحب ذكاء ثاقب أن يقرأ سَيْر الأمور المقبلة من خلال الحوادث الحاضرة .

ولن يتَّصف أحدٌ بمثل هـذا الذكاء ، والإنسانُ ، وإن استطاع يوماً أن يَطَّلع على العوامل التى أوجبت حدوث الحال وعلى ما فى هـذه العوامل من القُوَى المتقابلة ، يتعذر عليه تحليـلُ هذه العوامل ، ومما لا يَقْدِر عليه علمُ الفلك أن يُعَيِّن بالحساب اتجاهَ جِرْمٍ خاضع لتأثير ثلاثة أجرام أخرى ، فما تكون المسألةُ حين البحث عن تأثيرِ ألوفِ الأجرام فى جِرْم واحد ؟

ولم تُسْتنبط جميع السُّنَن التاريخية المزعومة من غير ما هو تحت الحسِّ والاختبار ، وهى تُقاس بملاحظات علماء الإحصاء الذين يستطيعون ، بما يشاهدون ويختبرون ، أن يُنْبئوا ، مثلاً ، بعدد الوَفَيات والجرائم وأنواع الجرائم التى يُصاب بها بلدٌ يَسْكنه مليونُ نَفْسٍ فى سنةٍ ما من غير أن يَخْلُصوا إلى صميم علل الحوادث الذى هو ضربٌ من المُحَال ، وهذه العوامل كثيرةٌ إلى الغاية .

ونشأ عن تَعَذُّر النفوذ إلى علل الحوادث الاجتماعية استخفافُ فريق من العلماء بالعلوم التاريخية التى حاولوا الغَوْصَ فيها ، قال الكاتب الفاضل مسيو رينان : « إن العلوم الافتراضية تُنْقَص بعد أن توضع ، وسَتُهْمَل فى مئة سنة ، وأوشك جيلٌ من الذين لا يبالون بالماضى أن يظهر ، ويُخْشَى ، والحالة هذه ، أن تندثر قبل أن تُقْرأ كُتُبُنَا فى دقائق الأدب وروائع الفنون التى ينال التاريخ منها ضبطاً ودقة » ، ويرى رينان أن المستقبل للفيزياء والعلوم الطبيعية حيث يَتَجَلَّى « كُنْهُ الوجود ومعنى العالم وسرُّ الله وما إلى ذلك » .

وقد يَأْمُل كلُّ واحد ذلك لا رَيْبَ ، ولكننا لا نرى ما يُسَوِّغ هذه الأمانىّ ، فليس فى العلوم الوضعية شىء عن الموجب الأول لأىِّ حادث كان ، وكلُّ ما كَشَفَتْ العلومُ الوضعية الحديثة عنه ، فكانت فيه قوتُها ، هو ما بين ظواهر الأمور من الارتباط ، وهى حين تتناول أموراً معقدة تَغْرَق فى بحر من الفَرْضيَّات والظنون ، ولا تكاد العلوم الحديثة تأتى بجواب حائرٍ عن المسائل التى يضعها الإنسان كلّ يوم ، وهى لن تَحُلَّ واحدة من المُعْضِلات التى تواجه الطبيعةُ بها الإنسان من مَهْده إلى لَحْده ، وهى لا تُشْبِعُ ما تلقيه فى قلوبنا من فُضُول أبداً ، وهى تثير الأفكارَ ولا تَفُكّ المسائل ، وستلحق كُرَتُنَا الأرضية فى الفضاء بالأجرام الخامدة قبل أن يجيب أبو الهول الخالدُ عن سؤال واحد.

إذَنْ ، يجب ألّا يَعْتَرِينَا الوهمُ حَوْلَ قدرة العلوم فنُحَمِّلَها ما لا طاقة لها به ، والعلومُ تبحث ، فقط ، فى أوصاف الإنسان أو الحيوان أو النبات أو المجتمع ، وفى رسم صورةٍ صادقة عن أدوار الماضى ، وفى ارتباط بعض الحوادث التاريخية فى بعض ، ولا نطالِب المؤرخ بأكثرَ من هذا .

والعمل شاقٌّ ، ويتطلب عنايةً كبيرة ، ومن الصعب جمعُ ما هو ضرورىٌّ من الموادِّ لتصوير إحدى الحضارات ، وأصعبُ من هذا استخدامُ هذه الموادّ .

ولم تكن هذه الموادُّ فى أنساب الملوك وأخبار الملاحم والفتوحات ، وإنما هى ، على الخصوص ، فى لغات كلِّ دورٍ وفنونه وآدابه ومعتقداته ونُظُمه السياسية والاجتماعية ، ولم تنشأ هذه الموادُّ عن المصادفات أو أهواء الرجال أو مشيئة الآلهة ، بل عن احتياجات الشعوب وأفكارها ومشاعرها ، وتتضمن الدِّياناتُ والفلسفة والآداب والفنون نَمَطاً خاصًّا من الشعور وطَرْزاً مُعَيَّناً من التفكير ، ولا تتضمن غيرَ هذا .

نعَمْ ، إن أعمال الرجال وآثارهم تُعَبِّر عن أفكارهم ومشاعرهم وتمكننا من تَصَوُّر الدور الذى كانوا فيه ، ولكن هذا لا يكفى ، فالأممُ نتيجة ماضٍ طويل ، وليست الأممُ بنتَ ساعةٍ واحدة ، وهى محصولُ ما خضعت له من البيئات المختلفةِ التأثير ، ولذا يُفَسَّر حاضرها بماضيها .

ونَرَى تسميَةَ البحث فى تكوين العناصر التى تتَأَلَّف الأمةُ منها بعلم الأَجِنَّة الاجتماعىّ ، وسيكون هذا العلم أساساً متيناً يسْتَنَد إليه التاريخُ كما تستند علوم الحياة إلى علم أَجِنَّة الأحياء فى الوقت الحاضر .

ولا بُدَّ لذوات الحياة من أن تقطع أطواراً سُفْليَّة قبل بلوغها درجةً عالية من الرقىّ ، وقلما يكشف التاريخُ لنا الغِطاء عن هذه الأطوار السُّفْليَّة بعد اختفائها ، ولم يفُت البحثَ العلمىَّ أن يجمع منها ما هو أساسىّ من ضَياعِ حَلَقَاتٍ من سلسلتها ، ولم تُصِب المجتمعاتُ كلُّها أدواراً متماثلة من التقدم أيضاً ولم يُجاوِز الكثيرُ منها بعدُ ما قطعه الغربُ من المراحل التى هى عنوان الماضى الثابت ، والذى يَسِيرُ فى الأرض يشاهدُ أدوارَ التاريخ البشرىّ المختلفة منذ أقدم العصور الحجرية حتى الوقت الحاضر ، وبهذا يمكن تأليفُ تاريخ إحدى الأمم ومعرفةُ عناصر حضارتها .

ومن الممكن تأليفُ تاريخٍ لإحدى الحضارات ونُمُوِّها بطريق البحث فى المبانى العظيمة والآداب واللغات والنُّظُم والمعتقدات ، إلخ . ، وإذا كان من النادر نَيْلُ كلٍّ هذا فإن بعض هذا يكفى لاستخراج ما تَبَقَّى ، فالطرق العلمية التى يَصِل بها الباحث إلى تصوير حيوانٍ مستعيناً بِقِطَعٍ من هيكله العظمىِّ يُسْتفاد منها فى المباحث التاريخية أيضاً ، وظهورُ بعض الخطوط والحروف يتضمن وجودَ غيرها دائما .

وقد تكون تلك الموادُّ غيرَ كافيةٍ من حيث الضبطُ والدقة على الخصوص ، والعلمُ الحديث يترك إتمامها للحَفَدَة ، ومن السهل أن نتوقع اختلافاً بين كتب التاريخ التى تُؤَلَّف فى المستقبل وكتب التاريخ الحاضرة ، فستقتصر كتب تاريخ الحضارات التى تُؤَلَّف فى القرن العشرين ، مثلاً ، على العُنوان ومجموعةٍ من الصور والخرائط والمُنْحَنيات الهندسية الدالة على تقلبات الحوادث الاجتماعية .

ويمكن التعبير عن الجسامة والطاقة والوزن والديمومة بأرقامٍ أو خطوط دائماً ، ولا نرى حادثةً

نفسية أو اجتماعية مُعقدة يتعذَّر الإفصاح عنها بأرقامٍ أيضاً ، ويكفى للوصول إلى قياسها بمقياسٍ أن تُفرّق إلى عناصرها الأساسية، ولا جَرَم أن علم الإحصاء أقلُّ العلوم الحديثة ، التى هى فى دور النشوء، تقدماً ، وما بلغه علم الإحصاء يُنَبِّئنا بفائدته المَرْجُوّة فى المستقبل ، فقد ألقى علماؤهُ ، بما جمعوه من الأرقام، ضوءاً على إنتاج البلدان واستهلاكها وثروتها واحتياجاتها وقوة سكانها المادية والأدبية وتباين مشاعرها ومعتقداتها ومختلف العوامل المؤثِّرة فيها .

وربما يقع ذلك فى المستقبل ، الذى يُعَبَّر فيه عن وقائع التاريخ والحوادث الاجتماعية بالصور والخرائط والمُنْحَنيات الهندسية ، نرى أن نستعين بأصحِّ الآثار والأدلة التى خلَّفها الماضى وأكثرها ضبطاً ، وعندى أن مالدينا من الموادِّ التى ذكرناها يكفى لوضع صورةٍ عن الحضارات الماضية وتاريخ تكوينها ، ويجب ، للانتفاع بتلك الموادِّ ، أن تُدْرَس آثارُ الحضارات الماضية فى أمكنتها ، فمناظرُ هذه الآثار ، لا الكتبُ، هى التى تُعرِب عن الماضى، وليس فى الكتب ماتُعْرَف به العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية .

وتكون دِراسة البيئات فى أمكنتها أمراً ضرورياً عندما يُبْحَث فى أمّة ، كالأمة العربية ، ذاتِ آثارٍ كثيرة فى مختلف الأقطار التى ازدهرت حضارتُها فيها ، وتُعَلِّمنا الرِّحلاتُ كيف نتحرر من قيود الآراء المتأصلة والتقاليد الموروثة وضلال الماضى وباطله .

وسَيَجِد القارئ فى هذا الكتاب تطبيقاً للقواعد المذكورة التى ابتعدنا بها عن أكثر أحكامنا التقليدية الموروثة فى الشرقيين، ولا سيما فى دين محمد وتعدد الزوجات والرِّقّ والحروب الصليبية والنُّظُم والفنون وتأثير العرب فى أوربة وما إلى ذلك .

٣

إن الآثار الباقية من حضارة العرب كثيرة ، وهى تكفى لإيضاح أقسامها الجوهرية بسهولة ، وقد استعنّا بأكثرها ، أى بما خلَّفه العرب من العلوم والآداب والفنون والصناعات والنظم والمعتقدات.

وأكثرُ مارجَعْنا إليه فى وضع هذا الكتاب هو مانسميه الآثارَ الماثلة التى تستوقف النظر بأشكالها الظاهرة وتعبر عن رغائب الزمن الذى قامت فيه ومشاعره تعبيراً صادقاً ، ولا غرْوَ ، ففيها يتجلّى نفوذُ العروق وتأثيرُ البيئة وبها يمكن الوقوفُ على أحوال القرون الغابرة ، فالكهفُ الذى نُحِت فى العصر الحجرىّ أو المعبدُ المصرىُّ أو المسجدالإسلامىّ أو الكتدرائية أو محطةُ السكة الحديدية أو مَخْدَعُ المرأة العصرية أو الفأسُ المصنوعةُ من الصَّوّان أو السيف ذو المِقْبَضَين أو المِدْفَعُ الذى يَزِن خمسين طُنًّا أفضلُ لمعرفة جميع ذلك من أكداس كُتُب البحث والجَدَل .

ولا نرى غيرَ طريقةٍ واحدةٍ لوصف الآثار الماثلة، وهى عَرْضُ صورها ، فصور البَارْتِنُون والحمراء وأفْرُودِيت أَوْلَى من مجموعة الكتب التى وضعها جميعُ مؤلفى العالَم لوصفها .

وما تُلْقِيه صُوَر الآثار التاريخية فى الرُّوع من المعانى الصادقة يدفعنا إلى الإكثار منها فى هذا الكتاب ، والقارئُ الذى يقتصر على تَصَفُّح صُوَر هذا الكتاب يَطَّلع على حضارة العرب وتحولاتها فى مختلف الأقطار أكثر مما يَطَّلع عليه من الكتب الكثيرة ، وذلك عدا إعفائه من مطالعة المباحث المُطَوّلة فى وَصْف تلك الآثار من غير أن يَظْفَر منها بفكر صحيح ، ولقد أصاب من قال : « إن صورة متقنة خيرٌ من مئة صفحة فى الوَصْف » ، وليس من المبالغة أن يقال إنها خير من مئة مُجَلَّد .

ولا تكفى ألفاظ أيّةِ لغةٍ لوصف آثار الشعوب ، ولاسيما آثارُ الشرقيين ، وإنما نَطَّلع بالمشاهدة على مناظرها ومبانيها وفنونها وعروقها ، ولا يستطيع أَرْوَعُ القول أن يُؤَثِّر فى النفس بمثل ماتُؤَثِّر به رؤية الأشياء نفسِها أو صورُها عند الضرورة .

والفوتوغرافيةُ هى التى يمكن أن تجود علينا بصُوَر صحيحة للأبنية والآثار الفنية والمناظر وأمثلة الشعوب ومظاهر الحياة المنزلية ، وبها نستعين فى وضع هذا الكتاب ، فما تَقْدِر الفوتوغرافية عليه من الدقة فى بضع ثوانٍ لا يستطيعه أمهرُ رجال الفنِّ فى أيام كثيرة .

ولو اقتصر الأمر على تصوير المبانى ، مثلاً ، لاستطاع رسامٌ ماهر لا قيمة للوقت عنده أن ينافس الفوتوغرافية ، ولكن مثل هذه المنافسة تتعذر عند مايجب تصوير ألوفٍ من مناظر الحياة العامة التى هى عُنوان وجود الأمة ، فالفوتوغرافية وحدَها هى التى تستطيع أن تُصَوِّر الأشياء فى أثناء حركتها

تصويراً صادقاً ، وذلك كشارع يزدحم الناس فيه أو سوقٍ أو حِصانٍ جَوادٍ راكض أو مَوْكِب عرس أو ما ماثل ذلك .

ومنذ أمس فقط أوْصَت طُرُق العلم الحديثة بأن يُسْتَعان فى الرِّحلات بالفوتوغرافية ، وهذا الكتابُ هو أول الكتب انتفاعاً بالفوتوغرافية ، وفيه يرى القارئُ مقدارَ النتائج المهمة التى توَصَّلْنا إليها بفضل الفوتوغرافية ، وكلُّ صورة فوتوغرافية اشتمل عليها وثيقةٌ صادقة قوية لا يتطرق إليها الوهن .

وإذْ كانت الصور الفوتوغرافية من عمل الشمس وحدَها حُقَّ لى أن أناضل عن قيمتها ، وعلى العالِم الذى قد يستخف بالصور التى يحتويها هذا الكتاب أن يفكر قليلاً ليرى كيف تُفَضَّل مجموعةٌ من الصور الفوتوغرافية على تِلالِ الكتب التى بُحِث فيها عن اليونان والرومان ، وما أكثرَ ما نتعلمه من الصور الفوتوغرافية ، وما أحقر المؤلفاتِ بجانبها !

ولْيَتْرُكْ فنُّ الرسم ، وهو الذى قام حتى الآن بما طُلِب منه فى تصوير المبانى والموجودات ، مكانه للفوتوغرافية التى يُرْكَن إليها ، اليوم ، فى كتب العلم أو التاريخ أو الرِّحلات ، نَعَمْ ، إن فى نقل الآلات الفوتوغرافية المعقدة إلى البلدان البعيدة واستعمالها لَمصاعبَ كثيرةً ، ولكنه يجب على كل عالم أو سائح ثَبَتٍ يريد أن تكون لأثره قيمةٌ أن يخضع لحكم الضرورة مهما كلفه الأمر .

ولا يُتْرَك مثلُ هذا العمل إلا لأربابه ، فإذا كان من السهل استعمال آلة التصوير والتقاط الصور فإنه يعسُر انتخاب الآثار التى يجب تصويرها ويصعُب تعيين الأحوال التى يجب أن تكون عليها هذه الآثار وقت تصويرها .

ويكفى ، لإدراك درجة الاختلاف فى اللون أو الصفة أو الأوضاع ، أن نُنْعِم النظر فى المنظر الواحد أو البناء الواحد أو الشخص الواحد الذى يُصَوِّره مصورون كثير .

وعدسةُ التصوير صادقةٌ فى ذلك كله لا ريب ، ولكن الطبيعة هى التى تتغير ، فالبناء أو المنظر الواحد الذى تضيئه الشمس فى الشتاء لا يظلُّ البناء أو المنظرَ نفسَه حين إضاءة الشمس له فى الصيف ، أو حين إضاءتها له فى الصباح أو المساء .

وكلُّ الفن فى التقاط صور الأشياء حينما تكون مؤثرة فى النفس مع توَخّي الضبط ، ولا يكفى أن تكون الصورة صادقةً لتؤثر فى النفس، فمع أنى أنظر بعين العجب إلى كتاب مسيو پيرو عن مصر أرى الصورَ الشاحبة الجافة التى زَيَّن بها صفحاتِه لا تؤثِّر فى النفس ذالك التأثيرَ المطلوب[1] ، وغَرَضٌ غيرُ هذا مايجب على المؤلفين أن يَسْعَوْا إليه .

وتختلف الوسائلُ التى نشرنا بها صورَنا الفوتوغرافية على حسب تأثيرها فى النفس، ففى الأمور التى قُصد بهـا التأثير جملة ، لا تفصيلاً ، حُوِّلَت صورُها إلى كليشات على طريقة التجويف الفوتوغرافى الحديثة (فوتوغرافور) وفى الأمور التى قصِد فيها إظهارُ الدقائق حُفِرَت صُوَرُها الفوتوغرافية بالمِنْقَاش فى الخشب من غير أن يكون للرسام عمل فيها ، وإذا عدوت بعضَ الشواذ وجدتَنا لم نلجأ ، لإظهار دقائق فن البناء ، إلى طريقة الرسم بالتخطيط إلا عند عدم كفاية أية طريقة أخرى غيرها .

وفى الـكتاب ٣٦٣ صورة لم تُتْرَكْ واحدةٌ منها لمتفننٍ يصنع فيها كما يشاء ، ورَغِبْنا عن الوثائق التى كان للخيال حظٌّ فيها مرجحين العدول عن مصدرٍ للصور الرائعة ، كالتى نُشِرَت فى كتاب مسيو إيبر ومسيو مَسْپيرو عن مصرَ ، وحازها ناشر هذا الـكتاب ، مقتصرين ، مع الأسف ، على ما استند منها ـ وهو قليل ـ إلى صور فوتوغرافية فرأينا من العبث تـكرارَ صنعه .

ولم تفُتْنى الاستفادة من الرسوم التى صُنِعَت بأمانةٍ مع اتخاذى الفوتوغرافية أساساً لصور هذا السِّفْر ، فاستعرتُ رسوماً كثيرة من مجموعات كوست وپريس الأڤينيِّ وجونس ، ولا سيما الـكتابان الرائعان اللذان نُشِرا حديثاً فى إسپانية عما فيها من الآثار الفنية والعمارات ، وكان للفوتوغرافية كبيرُ عملٍ فى هذا ، أيضاً ، ماجُعِلت هذه الرسومُ خاضعةً لطريقة التجويف الفوتوغرافى (الهيلوغرافور) :

وقضت ضرورة التزيين ألّا أوزع صور هذا الـكتاب توزيعاً مرتباً دائماً ، وإنما يمكن القارئ أن يجد بسهولةٍ ماقد يحتاج إليه منها عند نظره إلى فهرس الصور ، والقارئ ، باطّلاعه على هذا الفهرس يَعْلَمُ تنوع هذه الوثائق ويَعْلَمُ مانُشِر منها فى هذا الـكتاب دون غيره .

وقد تعذر علينا ، لضخامة هذا الـكتاب وكثرة صوره ، أن نُبَيِّن المصادرَ التى اعتمدنا عليهـا

---

(١) يدرك القارىء درجة النقص فى الصور التى أخـذها مسيو پيرو من القاهرة عن الأهرام والصور التى أخذها عن معابد جزيرة الفيلة وغيرها عند قياسها بجيد الصور الفوتوغرافية .

فى هامش صَفَحاته ، فاكتفينا بنشر فهرس شامل لها فى آخره ، فالقارئُ الذى يريد أن يتعمق فى بعض المباحث يجد ضالَّته فيه .

وليعلم القارئُ أن كل فصل فى هذا الكتاب هو خلاصةُ عِدَّةِ مباحث ، وما أبديته من الملاحظات يمكن عدُّه متمًّا لها .

ونحن إذ نَخْتِم هذه المقدمة نُلَخِّص المِنْهاج الذى اتَّبَعْناه فى وضع هذا الكتاب ، والذى نَتَّبِعه فيما نؤلفه من تواريخ الحضارات ، بما يأتى ، فنقول :

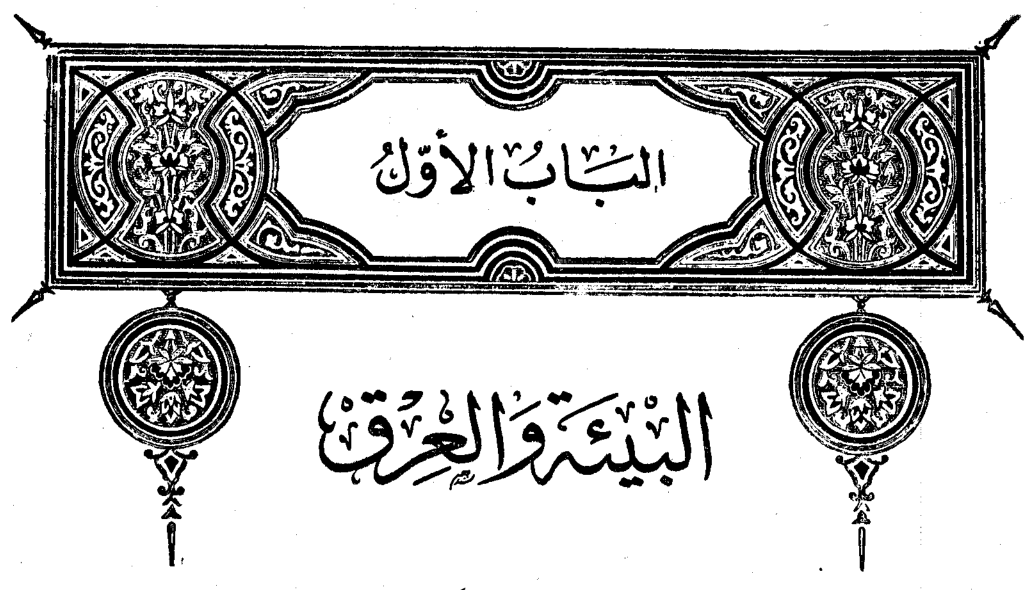
من المبادئ العامة : الوجوبُ فى وقوع الحوادث التاريخية ، والصلةُ الوثيقة بين الحوادث الحاضرة وحوادث الماضى .

ومن موادِّ التأليف : آثارُ الشعوب التى هى موضوع الدرس وتصويرُها تصويراً صادقاً ، ووصفُ العِرْق جسماً وعقلاً ، والبيئةُ التى نشأ فيها العِرْق ، والعواملُ التى خضع لها ، وتحليلٌ لعناصر الحضارة، أى للنُّظُم والمعتقدات والعلوم والآداب والفنون والصِّناعات ، وتاريخٌ لتكوين كلٍّ واحدٍ من هذه العناصر .

وإذا أصابنا التوفيق فى عَرْض صورة واضحة عن الأزمنة التى نرغب فى بعثها ، مستعينين بتلك الموادِّ والمبادئ ، فإننا نكون قد نلنا ما نتمنى[1] .

---

(١) من الواجب أن أختم هذه المقدمة بشكرى لمن وجدت منهم نفعاً فى أثناء تأليف هذا الكتاب وفى أثناء رحلاتى الأخيرة ، وأخص بالذكر منهم العضو فى المجمع العلمى ومدير مدرسة اللغات الشرقيـة مسيو شيفر ، والأستاذ فى جامعة كوانبر مسيو ، ب . سيمويس ، والدكتور سوزا ڤيتربو فى أشبونة ، ورجل الفن فى غوليغان (البرتغال) مسيو شارل ريلها ، والوزير لدى بلاط سلطان مراكش مسيو دالوين ، والمسجل فى القنصلية الفرنسية بالقدس مسيو دوماليپرتوى ، والدكتور سوكيه ، والكونت پود هوركى ببيروت ، ومدير البنك السلطانى بدمشق مسيو شلو نبرغر ، ومديرى المكتبة الوطنية بباريس مسيو لاڤوا ومسيو تيارى ، والمصورين الرسامين مسيو هوبو ومسيو پيتى ، ومسيو فيرمان ديدو الذى أسعدنى الحظ النادر بأن أجد فيه ناشراً لم يقصر فى الإنفاق على طبع هذا الكتاب وبأن كان لى فى نصائحه الأخوية ومعارفه الفنية فائدة كبيرة .



الباب الأول

البيئة والعرق

الفصل الأول

جزيرة العرب

١ — جغرافية جزيرة العرب

جزيرة العرب هى مَهْد الإسلام ، وهى مَنْبِت الدولة الواسعة التى أنشأها خلفاء محمد . ويتألف القسم الأكبر من جزيرة العرب من صحارٍ ، ويحيط بها البحر الأحمر من الغرب ، وبحرُ عُمَان والخليجُ الفارسىّ من الشرق ، والمحيطُ الهندىُّ من الجنوب ، وتتصل من أقصى غربها وشرقها بإفريقية وآسية .

ويحيط بجزيرة العرب من ثلاث جهات ، أى من الغرب والشرق والجنوب ، ثلاثةُ أَبْحُر كما ذكرنا ، وأما حدُّها الشمالىّ فغير واضح ، وهو يمتد تقريباً باتجاه الخطِّ الذى يبدأ من مدينة غزة الفلسطينية الواقعة على ساحل البحر المتوسط مارًّا بجَنوب البحر الميت فدمشق فالفرات وينتهى بخليج فارس . ويبلغ طول جزيرة العرب من أقصى شمالها إلى أقصى جَنوبها نحوَ ٢٣ درجةً أو ٢٫٥٠٠ كيلو متر ، ويبلغ عرضها من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسىّ نحو ألف كيلو متر .

وتزيد مساحة جزيرة العرب على ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع ، أى على مِساحة تَعْدِل فرنسة ستّ مرات .

وليس لدينا إحصاء قاطع لنفوس جزيرة العرب فى الوقت الحاضر ، وقد قُدِّرت منذ بضع سنين بعشرة

ملايين ، ولم تَزِد على خمسة ملايين فى أحدث المؤلفات ، وخُمس هؤلاء السكان أهل بدوٍ على الأقلّ .

ونحن إذا نظرنا إلى سطح جزيرة العرب رأيناه مؤلفاً من هَضْبَة تُشْبه الصحراء الإفريقية فى اتساعها وسهولها القاحلة الرملية، أو الصخرية، التى تتخللها بِقَاعٌ منبتة ، وتنحدر هذه الهَضْبة إلى الخليج الفارسىّ .

ويَقْطَعُ مجاهلَ جزيرة العرب الواسعة أودية وبقاعٌ جبلية ذاتُ مُدُن وقُرى يسكنها فريقٌ من الزراع ، ولا تَعْرِف الصحراء غير أهل البَدْو الذين يجوبونها .

وتقع فى وسط تلك الهَضْبَة العربية بلادُ نجد التى تُعَدُّ جزيرةً خَصْبة تحيط بها الفَلَوات والجبال بدلاً من الماء .

ويُظَنُّ أن نحو نصفِ جزيرة العرب مؤلفٌ من بِقاع خَصبة وأن النصف الآخر من صَحارٍ ، وإن دَلَّت الخرائط على اتساع رُقْعَة الصحارى وانقباض رُقْعَة البِقاع الخصبة ، وما فى الخرائط من التفاوت ناشئٌ عن قلة ارتياد علماء الجغرافية لجزيرة العرب واضطرارهم إلى ترك البقاع المجهولة منها بيضاً .

ولم يُعْرَف من سلاسل جبال جزيرة العرب الكثيرة سوى القليل ، وأحسنُ ما عُرِف منها السلسلة الممتدة على طول الشاطىء الشرقىّ للبحر الأحمر حيث يرتفع بعض ذراها ٢١٥٠٠ متر .

وفُقْدان الأنهر الدائمة فى جزيرة العرب مما يستوقف النظر ، وتبقى أخاديدها خاليةً من الماء فى أكثر أيام السنة ، وتَشُقُّ هذه الأخاديدُ جزيرة العرب طولاً وعرضاً ، وقد يبلغ طول بعضها ، كوادى الرُّمّة ، ١٣٠٠ كيلو متر ، وهى تصبح كالأنهر العظيمة المعروفة حين يملأها ماء المطر .

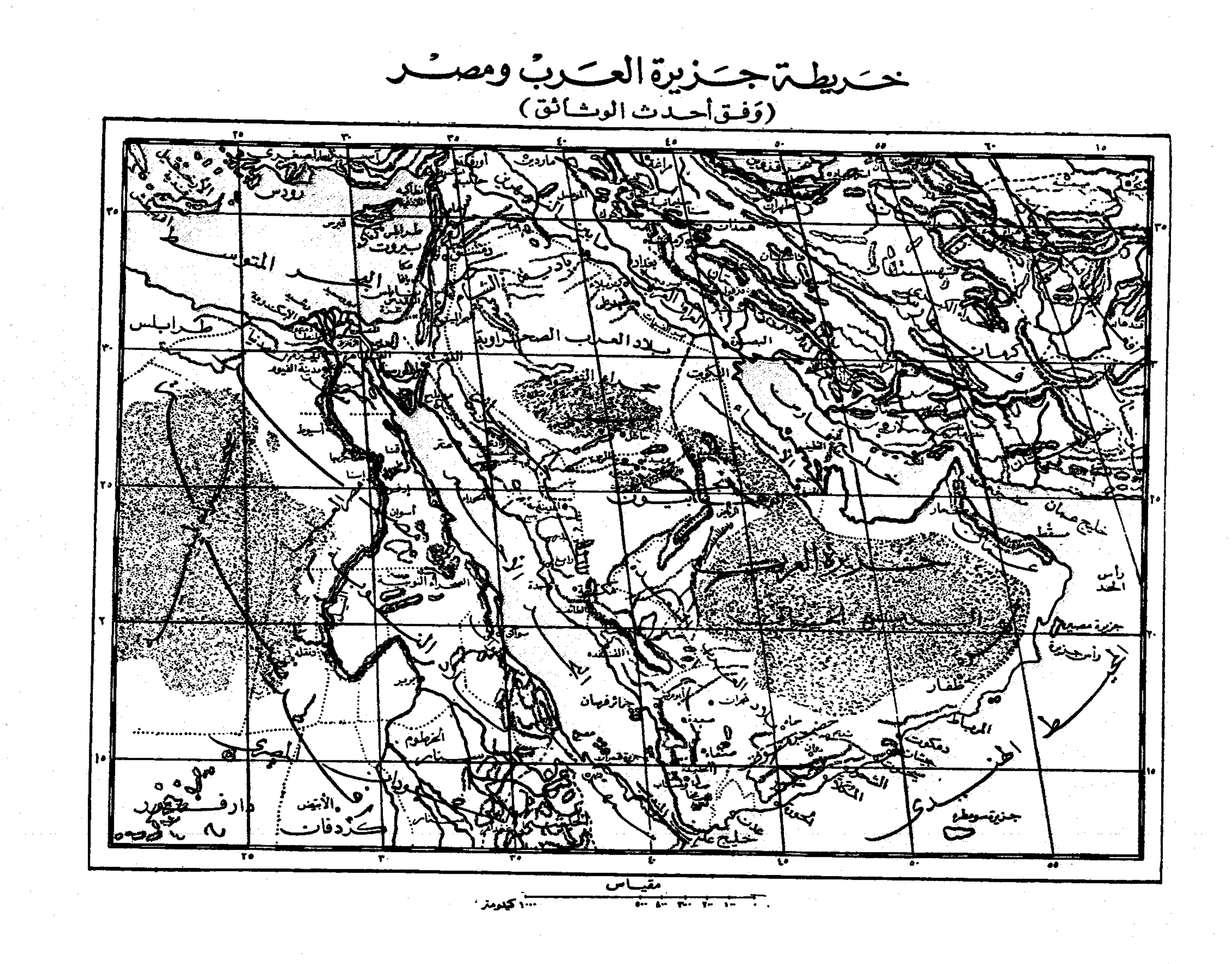
والجَدْبُ والحرُّ من أظهر ما عُرِفت به جزيرة العرب منذ القديم ، والجَدْبُ على الخصوص ، هو أشدُّ ما تعانيه ، ولم ينشأ عن قطع أشجار غابها بالتدريج سوى زيادة القحط ، شأنُ بلادِ الجزائر الخصيبة فى العهد الرومانىّ والجديبةِ فى الوقت الحاضر .

ويدوم المطر فى جزيرة العرب بضعة أشهر على العموم ، ومتى احتبس . عَمَّ الخراب وأصبحت تلك البلادُ غيرَ صالحة للسَّكَن تقريباً ، ويقترن القحطُ فى جزيرة العرب بريح السَّموم فى الغالب .

وريحُ السَّموم وعدم الماء أشدُّ ما تقاسيه القوافل فى جزيرة العرب من أخطار ، قال مسيو دِيفِرْجيه :

خريطة جزيرة العرب ومصر

(وفق أحدث الوثائق)



« تَعرِف القافلة ، وهى تتوغل فى الصحراء ، علاماتِ ريح السَّموم الأولى ، وهى : أن السماء تظهر فى الأفق مَغْراء[١] ثم قَهْباء[٢] ودَكْناء[٣] ، والشمسُ تَضْعُف أشعتها فتصبح حمراء . والرمال الناعمة تملأ الجوّ والهواء ، والرياحُ تُثيرها فتغدو كالبحر المُزْبِد الذى تُحرِّكه العاصفة الهوجاء .

« وهنالك تَنقبض صدور السُّيَّاح وتَحْمَرُّ عيونهم وتَجِفُّ شفاههم ويأخذون فى الهَرَب هم وجمالهم التى تعدو تارةً وتَقِفُ أخرى لتَطْمِرَ نحورَها فى الرمل وتُمرِّغ مناخيرَها بالأرض ، وإذا ما استطاعت القافلة أن تحتمِىَ وراء صخرةٍ حتى تَهْدَأ الزوبعة فإنها تنجو ، ولكنها إذا تاهت فى البادية وكانت بعيدة من الملاجئ أو اشتدت العاصفة فإن نشاطها يَفْتُر وتَفقِد غريزة حبّ البقاء ، ويستولى عليها الثَّوَل[٤] والدُّوار ، وتصير غير قادرة على الفِرار ، وتُدْفَن تحت أكثبة الرمل ، وتبقى مدفونةً إلى أن تَهُبَّ عاصفةٌ أخرى وتَكْشِفَ عن عظامها المبيضة » .

وتكون درجة الحرارة فى داخل جزيرة العرب مرتفعة عادة ، ولا تَهبِط فى الصحراء إلى أقلّ من ٤٣ نهاراً و٣٨ ليلا ، وتكون معتدلة فى الأماكن الجبلية أو القريبة من البحر ، فقد شاهد نِيبُوهْر أن الحرارة فى اليمن لا تزيد فى أواخر شهر يولية على ٢٩ درجة بمقياس سنتيغراد ، ويكون البرد فى صنعاء قارساً فى الشتاء .

والجفافُ والجوُّ المُحرِق ليسا سائدين لجزيرة العرب كلِّها مع ذلك ، ففى جزيرة العرب بِقاعٌ متسعةٌ اتساعَ الدول الأوربية المهمة كثيرةُ الخِصْب كبلاد اليمن وبلاد نجد التى لم يَرَ بلغريفُ ما هو أنفعُ من جوِّها للصحة فى العالم .

وتتألف صحارى جزيرة العرب من سهول رملية واسعة ، وفيها آبارٌ وواحاتٌ ذاتُ نخيلٍ ومَنَاجع[٥] .

وتجوب قبائلُ البَدْو الصحراء دائما ، ويأخذ عيشها بمجامع قلوب الأعراب ، ويُفَضِّله الأعرابُ

(١) المغراء : مؤنث الأمغر ؛ وهو ما كان لونه بلون المغرة . (٢) القهباء : مؤنث الأقهب ، وهو ما كان لونه القهبة ، وهى بياض تعلوه كدرة . (٣) الدكناء : مؤنث الأدكن ، وهو ما كان لونه مائلا إلى السواد . (٤) الثول : من ثول الرجل يثول : حمق . (٥) المناجع : جمع المنجع ، وهو الموضع يقصده الناس فى طلب الكلأ .

على غيره مع نَفْرَة الأوربيين منه ، وليس حُبُّ الأعراب لعيش البادية حديثاً ، فهم حَفَدة العرب الذين قَصَّت التوراة علينا من أنبائهم ، والذين حافظوا على ما تقتضيه من أذواق وطبائعَ وعادات .

ومما تقدَّم ترى جزيرة العرب ذاتَ أجواءٍ وتُرْبَة مختلفة ، فيوجب هذا اختلافاً فى طُرُق معايشها ونباتها وحيوانها وسكانها .

٢ — إنتاجُ جزيرة العرب

التمر والبُنّ من أهم ما تنتجه جزيرة العرب ، ويعتمد سكانها على التمر فى طعامهم ، وعلى البُنّ فى اغتنائهم ، ويستفيد العرب منذ القديم مما يُصدرون من اللُّبَان [١] والسَّلِيخَة [٢] والسَّنَا [٣] المَكّيّ والأدهان .

ولاختلاف جوِّ جزيرة العرب يَنْبُت فيها مثلُ نبات البلاد الحارة والبلاد المعتدلة ، كالقطن وقصب السكر والجُمَّيْز والطَّلْح والدَّردار [٤] والمُرَّان [٥] ، إلخ .

ويَنْدُر شجر الغاب فى جزيرة العرب ، والنخلُ أظهرُ ما فيها ، وهو الذى يكون به لمناظر الشرق شكلٌ خاصٌ .

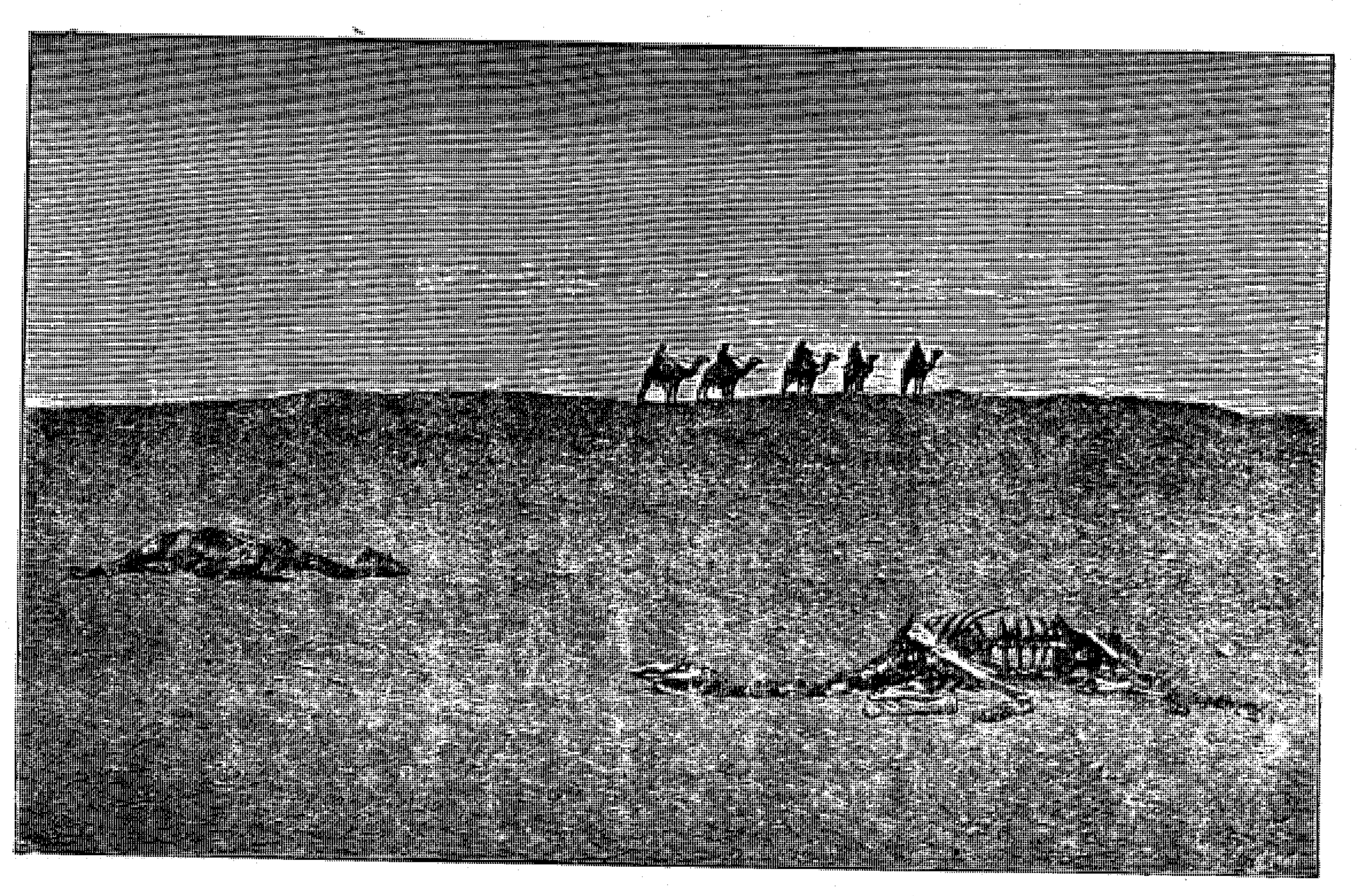
وتَصْلُح الأماكن الخصبة من جزيرة العرب لمثل النبات الذى يزرع فى أوربة كالمِشْمِش والخَوْخ والتين واللوز والعِنَب والقمح والذُّرَة والشعير والدُّخْن [٦] والفول والتَّبْغ ، إلخ .

ومع أن الزراعة فى حقول اليمن جيدةٌ فإن العمل فيها شاقٌّ لِمَا تحتاج إليه من السقى الدائم بمياه المطر التى تُجْمَع فى الآبار وبين الأَسْداد .

وتَعْرِف جزيرة العرب مثلَ ما نعرف من الحيوانات الأهلية كالبغال والحمير والبقر والضأن والمعز ، إلخ . ولا تَجْهَلُ جزيرة العرب الكثيرَ من الضوارى كالأسد والنَّمِر والفهد .

---

(١) اللبان : الكندر ، وهو صمغ شجرة شائكة ورقها كالآس (٢) السليخة : دهن ثمر البان قبل أن يربب . (٣) السنا : نبات كأنه الحناء ، زهره مائل إلى الزرقة وحبه مفرطح إلى الطول ، ومنه نوع عريض الأوراق أصفر الزهر وأجوده الحجازى ، ويعرف بسنامكة ، ويقال له أيضاً (السنا المكى) . (٤) الدردار : شجر عظيم له زهر أصفر وورق شائك وثمر كقرون الدفلى . (٥) المران : شجر تتخذ منه الرماح (٦) الدخن : نبات حبه صغير أملس .



١ ـ البادية (من صورة فوتوغرافية)

وليست الضوارى أشدَّ مايخاف سكانُ جزيرة العرب ، ففيها الجرَادُ الذى قد يأتى على الأخضر واليابس ، وقد لا يخلو الجراد من فائدةٍ مع ذلك ، فهو ، فى الغالب ، غِذاء المسافرين فى البادية وطعامُ مطاياهم أسابيعَ كثيرة .

والخيلُ والجمال أكثر حيوانات جزيرة العرب نفعاً للإنسان،فأما الجمل ، وهو أفضل حيوان أهليّ عند العرب،فلا تُقْطَع البادية بغيره ، وهو،لقناعته وقوته واحتماله المشاقَّ وصبره على العطش أياماً،لايقوم مقامه حيوانٌ فى الركوب وحمل الأثقال ، وهو يستطيع أن يَجُوب البادية بين حلبَ والبصرةِ حاملاً ٥٠٠ رَطل مع عَلَف قليل ، وهو يقْدِر أن يأكل مالا يَقْدِر حيوانٌ عليه من الطعام ، وقد عَجِبْت منه حين رأيته يأكل هادئاً مطمئناً أوراقَ الصُّبَّار التى تكون على جوانب الطُّرُق فيُشْبِه شَوْكُها المِسَلاّت .

وأما الخيول العربية فذات شهرة عالمية، وهى إذ وُصِفت غيرَ مرة وكان ماقاله پلغريف من أحسنِ ماقيل فيها فإننى أقتطف منه مايأتى :

« إن الخيول العربيـة ، وهى قويةٌ عصبية رشيقة ، مفتخرةٌ بِعِتْقها ، مختالةٌ فى مراتعها ، مثالُ الأناقة فى شكلها والكمالِ فى صفاتها،وهى برؤوسها الصغيرة النحيفة ، وأحداقها الوَهَّاجة ، ومناخيرها الواسعة ، وكواهلها الناهضة،وجوانبها الممتلئة القصيرة ، وأكفالها الطويلة ،وذيولها المتموجة،وقوائمها الدقيقة المتينةِ عُنوانُ الجمال ، وهى بدَعتها وبأسها وقناعتها وسرعة عَدْوِها تَفْضُلُ أحسنَ الأنواع الأوربية ، ويَعُدّ الأعراب خمسةَ أنواع أصيلة للخيل متولدة من خمسة حُجُور[1] كان يرْكبها الرسولُ على زعمهم ، وعندما تَلِد الحِجْرُ الأصيلة مُهراً يجتمع فى المِضْرَب[2] أناسٌ ليكتبوا شهادةً عن وصفه واسم أمه ونسبها ويُمْضوها ويضعوها فى كُيَيْسٍ جلدىّ يُرْبَط بنَحْره ، فيَدْخُلُ بذلك فى زمرة الجِياد المرموقة التى أدى الطمع فيها إلى اقتتال القبائل غيرَ مرة .

« وسرعة عَدْو الفرس هى التى تُنْقذ حياةَ المقاتل فى الصحراء غالباً ، ومما رواه بُرْكهَارْدُ أن فرساناً من الدروز هجموا فى سنة ١٨١٥ على عِصابة من الأعراب فى حوران ودحروها إلى مضاربها

---

(١) الحجور : جمع الحجر ، أى الأنثى من الخيل (٢) المضرب : الخيمة العظيمة .

وأحاطوا بها من كلِّ جانب ، وأنه لم يَنجُ من القتل منها سوى رجل واحد امتطى صَهْوَة جواده وخَرَق خطَّ الحصار وَوَلَّى مُدْبراً ولم يُعَقِّبْ ، وأن أحسَن فرسانهم ، وهم القُساة الذين أقسموا أن يقتلوا العِصابة على بَكْرَة أبيها جَدُّوا فى أثره ، وأن ذلك المنهزم لم يترك صخوراً وسهولاً وتِلالاً إلا قطعها بسرعة الزوبعة ، فلما أيقن أولئك الفرسان ، بعد مطاردةٍ عنيفة دامت عِدَّة ساعات ، أنه لا أمل لهم فى قتله ناشدوه أن يَقِف ليُقَبِّلوا ناصية جواده الأصيل ويتركوه ، فرَضِيَ بذلك ، فقالوا له لما صَرَفوه كلمتهم المأثورة : « اغسِلْ حوافرَ جوادك ثم اشْرَبْ غُسالَتها » ، قاصدين بذلك إظهارَ مشاعرهم نحو جواده النجيب » .

وأضيف إلى ما تقدم قولى إن الخيول العربية لا تَعرِف سوى مِشْيَتَيْن : الخِطاء والعَدْو ، وإن انقيادها لصاحبها جديرٌ بالذكر ، وما أكثر ما رأيتُ العربَ يترجَّلون وخيولهم لا تحاول الابتعاد عنهم ، مع تركهم أعِنَّتها لها !

وعلى ما فى الخيل من الفائدة لا تتوالد كثيراً فى جزيرة العرب خلافاً لِما يُظَنُّ ، وسببُ ذلك أن الخيل ، وهى على عكس الجمل الذى يمكن تربيته فى كلِّ مكان ، لا تُنَشَّأُ إلّا فى البِقاع الخصبة ، كسهول العراق وسورية ، ونجد ، وفى نجد وحدَها أعزُّ الخيول العربية وأرشقُها .

وعُرِفَت جزيرة العرب فى القرون القديمة بِوَفْر معادنها الثمينة وأحجارها الكريمة، واليوم لم يبق أثرٌ لذلك ، ولا نَعْلَمُ غيرَ ما يُقصّ علينا من الأنباء عن حديدها ونحاسها ، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نُبْدِيَ رأياً قاطعاً فى ثروة جزيرة العرب المعدنية ، فمعارفنا بها سطحيةٌ .

وظلَّت صِناعةُ قسمٍ من جزيرة العرب وتجارته على ما كانت عليه فى القرون الخالية ، وتُعَدُّ الحُلِيُّ اليمنية والتمورُ والخيلُ والنِّيلج[1] والسَّنَا المَكِّيُّ واللُّبان والمُرُّ[2] الصافى، إلخ ، أهمَّ موادِّ الإصدار من جزيرة العرب ، ولا تزال القوافل تقوم ، كما فى العصر الإسرائيليِّ ، بإصدار هذه المواد من جزيرة العرب إلى أوربة ، وبإيراد ما تحتاج إليه من إفريقية والهند وفارس .

---

(١) النيلج : شىء يتخذ من نبات العظلم بأن يغسل ورق العظلم بالماء فيجلو ما عليه من الزرقة ويترك الماء فيرسب النيلج أسفله كالطين فيصب الماء عنه ويجفف . (٢) المر : مائع يسيل من شجرة فيجمد وهو طيب الرائحة مر الطعم .

وتُحسب المسافاتُ بالساعات فى جزيرة العرب ، كما فى الشرق كلّه ، ويَرَى العربىُّ أن سير الجمل ذى الحمل الخفيف فى الساعة الواحدة يَعْدِل فرسخاً ، فنجم عن هذا أن المَسافات التى تلوح تافهةً على الخريطة تُقْطَع فى عِدَّة أيام .



٢ — مخيم حجاج بالقرب من مكة فى موسم الحج (من صورة فوتوغرافية)

وجزيرةُ العرب خالية من الطُّرُق المُعبَّدة ، والطرقُ التى تَسْلُكها القوافل فيها هى الأودية أو الأخاديد التى ذكرناها آنفاً ، وإذا ما استثنينا هذه المسالك ، التى لا تزال كما كانت عليه فى الزمن القديم ، رأينا مناحىَ جزيرة العرب تَتَعَيَّن بآبارها التى تَتَعَذَّر الحياةُ هناك بدونها ، وأكثرُ مسالك جزيرة العرب استطراقاً هى : الطريقُ التى بين دمشق وبغداد ، والطُّرُقُ التى تبدأ من مدينة الرياض النجدية وتنتهى بمكة ومسقط وبغدادَ ودمشق .

٣ – أقسام جزيرة العرب

لم يَعْرِف القدماء من جزيرة العرب سوى الشيء القليل، ولم يتحدَّث هِيرُودتس عنها في أكثر من بضع كلمات، ولا يُؤْبَه للأخبار الناقصة التي أتى بها إسترابون وديودورس الصِّقِلِّيّ، وهما اللذان أسندا إلى جزيرة العرب من المنتجات، في الغالب، ما كانت تصدره إليها بلاد الهند فتُصدرها إلى الخارج، وذكر بطليموس – ويظهر أنه عرَف جزيرة العرب – أحسنَ مما عرَفه أولئك، أنه كان في بلاد اليمن ١٧٠ مدينة، وعدَّ من هذه المدن خمسَ عواصم كبيرة.

ومعرفةُ الرومان لجزيرة العرب كانت ضعيفةً إلى الغاية، وحاول الرومان غيرَ مرةٍ، تدويخَ جزيرة العرب التي كانوا يعتقدون أنها تنْتج من التوابل والأبازير والعطور والنسائج والحجارة الكريمة ما كانت تستورده من بلاد الهند والصين بالحقيقة، ولكنهم وهم الذين كانوا سادة العالم، لم يستطيعوا أن يقهروا قبائل البدو العربيةَ التي احتمت بكُثْبان الرمال وجَوِّ البلاد.

ولم يتوغل الأوربيون في جزيرة العرب إلّا حديثاً، ولم يَعْرِف عنها الأوربيون، قبل نِيبُوهْر الذي زارها سنة ١٧٦٢، سوى ما أخذوه عن جِغرافِيّي العرب أو عن بطليموس من المعارف المبهمة، ونرى الخريطةَ التي رسمها نِيبُوهْر أُولَى الخرائط العلمية عن جزيرة العرب، مع اقتصاره على السياحة في قسم من بلاد اليمن.

وانقضى نصفُ قرن بعد نِيبُوهْر من غير أن يقوم سائحٌ آخرُ بارتياد جزيرة العرب، فلما كانت سنة ١٨١٥ استأنف بُرْكهارْد البحثَ فجَمع أنباءً رائعةً عن جزيرة العرب، ولا سيما مكةُ والمدينة، وما قامت به مصرُ حوالَيْ تلك السنة من غَزْوٍ ضد الوهابيين كان فاتحةَ بحثٍ واسع عن مختلف أقسام جزيرة العرب، ثم جاب جزيرة العرب سُيَّاحٌ كثيرون نذكر منهم وَالين (سنة ١٨٤٥) وبُرْتُون (سنة ١٨٥٢) وبلغريف (سنة ١٨٦٢) الذي زار في أواسط جزيرة العرب، أماكنَ كانت مجهولة قبله تماماً[١].

(١) كنت أريد أن أتم مباحثي في مختلف البلدان التي خضعت لدولة العرب العظمى فأسيح في قلب جزيرة العرب وأوضح بعض المسائل التي لم أجد لها حلا، فاقترحت حديثاً على وزير المعارف العامة، وهو القيم على أموال البعثات العلمية، أن يعهد إليّ في ارتياد جميع جزيرة العرب والتقاط صور فوتوغرافية لأهم آثارها، فلم يقبل اقتراحي، ولذلك عدلت وأنا العاجز عن القيام بتلك الرحلة العزيزة من مالي الخاص، عن مشروعي فاقتصرت على رحلاتي في أقسام دولة العرب الأخرى التي تسهل السياحة فيها.

وقَسَّم القدماء جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام : بلادِ الحِجْر العربية (بطرا) ، وهى القسمُ الشمالىُّ الغربىُّ من جزيرة العرب ، وبلاد العرب السعيدة ، وهى القسمُ الجنوبىُّ الغربىّ منها ، والصحراءِ العربية ، وهى قلبها وشرقها .

فأما بلادُ الحِجْر العربية (بطرا) فتشتمل على القسم الواقع بين فلسطين والبحر الأحمر ، وأما الصحراء العربية فهى البادية الكُبْرَى التى تَمْتَدّ من حدود سورية والعراق إلى الفرات فإلى الخليج الفارسىّ ، وأما بلادُ العرب السعيدة فتشتمل على القسم الجنوبىّ من جزيرة العرب ، أى على نجد والحجاز واليمن وعُمان ، إلخ .

وجَهِل جِغْرافِيّو العرب ذلك التقسيم ، فلم يَرَوْا بلاد الحِجْر (بطرا) من جزيرة العرب ، فكان التقسيمُ الوحيد الذى اصطلحوا عليه ما يأتى :

بلاد الحجاز ، وهى جبليةٌ رملية ، تشتمل على الجزء المتوسط من المِنطقة الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، ومن بلاد الحجاز مكةُ والمدينة المقدستان .

وبلاد اليمن ، وهى فى جَنوب بلاد الحجاز ، تتألف من الزاوية الجنوبية الغربيــة من جزيرة العرب ، وبلادُ اليمن أغنى جزيرة العرب وأخصبُها .

وبلاد حضرموت ومهرة وعُمان والأحساء ، وهى تَلِى اليمنَ كما يبدو من الخريطة ، تَمْتَدّ من خليج عدن إلى أقصى خليج فارس .

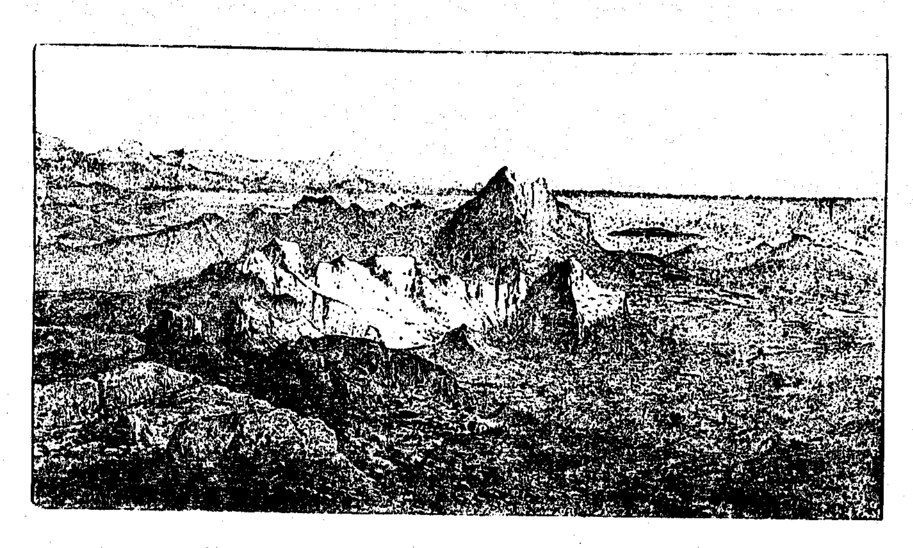
وبلاد نجد ، وهى هَضْبَةٌ خَصبة ذاتُ مدن مهمة ، تقع وسط جزيرة العرب وتحيط بها الفَلَوات والمفاوز من كلِّ جانب .

ولا مطابقةَ بين هذه التقسيمات ، التى يرجع أكثرها إلى أقدم أدوار التاريخ ، وتقسيمِ جزيرة العرب السياسىّ ، فقد كان العرب قبل ظهور محمد منقسمين إلى ألوف من القبائل المستقلة ، ثم قامت الدولة العربية فتألفت من تلك القبائل أمة واحدة ، ثم عاد سـكان جزيرة العرب ، بعد زوال تلك الدولة ، إلى حالهم السابقة ، وأصبحتَ لا ترى فى جزيرة العرب غيرَ إماراتٍ صغيرة وقبائلَ مستقلةٍ تخضع كلٌّ واحـدة منها لرئيس واحد ، ولا يُستثنى من ذلك سوى الممالك الثلاث : نجد واليمن وعُمان .

وإليك بياناً موجزاً عن مختلف الأماكن التى ذكرناها آنفاً :

بلاد الحجْر العربية (بطرا) . ــ ذكرنا آنفاً أن جغرافيِّى العرب لم يَعُدُّوا بلاد الحِجْر من أقسام جزيرة العرب ، ونحن لا نستطيع إلا أن نَعُدَّها من تلك الأقسام من الناحية الجغرافية والناحية الإثنوغرافية .

وتتألف « بلاد الحِجْر » من جزيرة سيناء الممتدة من حدود فلسطين إلى البحر الأحمر ، ويدلُّ اسم « بلاد الحِجْر » على حقيقتها ، وذلك أنه يقع فى وسط جزيرة سيناء طَوْدٌ من الصَّوَّان يُسَمَّى طور سيناء ، ويحيط بهذا الطَّوْد بُقْعةٌ صخرية ذات نبات قليل ضعيف ، وتصبح هذه البُقعة رملية بالقرب من الساحل .



٣ ــ منظر من طور سيناء (من تصوير مسيو دو لا بورد)

وكانت جزيرة سيناء ذاتَ شهرة فى التاريخ مع فقرها ، فهى بلاد الأدوميين والعمالقة والأنباط والمديانيين الذين ذُكروا فى كتب العبريين كثيراً ، وفيها تاه بنو إسرائيل زمناً طويلاً بعد خروجهم من مصرَ وقبل دخولهم أرضَ الميعاد ، ولا يزالون يُشيرون هنالك إلى الجبل الذى بَلَّغ منه موسى شريعتَه إلى قومه ، وإلى الحَجَر الذى ضربه موسى بعصاه فانبَجَس منه الماء ، وإلى كهف جبل حوريب الذى توارى فيه النبيُّ إيليا خوفاً من غضب الملكة إيزابيل .

وتُرَى فى تلك البلاد القديمة التى قَصَّت التوراة علينا أخبارها خرائبُ بلاد الحِجْر (بطرا) ، وهى أنقاضٌ للمخازن التى كانت قبائل اليمن تَجْلُب إليها اللُّبَانَ والأطياب لمبادلتها بسِلَع الفنيقيين .

بلاد نجد . - بلاد نجد هَضْبة واسعة خصبَة واقعة فى وسط جزيرة العرب ، وتحيط بها الفَلَوات والجبال من كلٍّ جانب .

واطِّلاعُ الناس على شئون هذه الهَضْبة التى تقوم عليها الدولة الوهابية أمرٌ حديث ، وقد قال بلْغريف عن سكانها : « إن بينهم ، كما بين سكان شفيلد وبِرْمنغم ، مهندسين قادرين على إنشاء خطوط حديدية وصنع آلاتٍ وبواخرَ » ، ثم ذكر بلغريفُ ، فى أثناء كلامه عن نجد ، أن من الباطل أن تُوصَم جزيرة العرب بالتوحش وأن يُحْكم عليها بما يلاقيه السياح الذين لا يَقْصِدون سوى بعض بقاعها الساحلية على العموم .

وعلى ما أصاب الوهابيين من الانهزام أمام المصريين فى سنة ١٨١٠ وسنة ١٨١٨ لم تلبث الدولة الوهابية أن أعيد بنيانها ، ويقيم أميرها عادةً فى مدينة الرياض العظيمة الشأن .

والزراعةُ أهمُّ ما يعتمد عليه سكان نجد ، وقد قال بلغريف : « تُنْبِت وَفْرة الذُّرَةِ والقمح والتمر الجيد فى نجد أن النجديين زُرَّاعٌ ما هرون » .

بلاد الحجاز . — بلاد الحجاز واقعة على ساحل البحر الأحمر وتشتهر ، على الخصوص ، بأنها مهدُ الإسلام وبمكةَ والمدينةِ المقدستين اللتين يأتيهما ، فى كلٍّ سنة ، ألوف الحجيج من أقصى نواحى العالم الإسلامىّ .

وتشتمل بلادُ الحجاز على بقاعٍ خصبة ، ولكن مُعْظَم بِقاعها غيرُ ذى زرع ، ونرى شريف مكةَ الأكبر ، الذى يقيم بالطائف ، هو الذى يقبض على ناصية الحكم فيها ، وإن كانت تابعةً لسلطان الآستانة بالاسم .

ومكةُ من المدن الواقعة فى وسط الصحراء ، ولا نشاهد مثلَها فى غير جزيرة العرب ، ولا تفى أرَضُوها غيرُ الخصبة باحتياج سكانها ، فيَجْلُب هؤلاء السكان الحبوبَ ، التى يُضْطَرُّون إليها ، من مدينة جُدَّة التى هى مرفأٌ لمكة واقعٌ على ساحل البحر الأحمر .

وجَهِل الأوربيون مكة ، التى سماها أهلوها بأمّ القُرَى ، زمناً طويلاً ، ولا يستطيع أوربىٌّ أن يدخُلها من غير أن يُعرِّض نفسَه للقتل،وما قَدَر عليه بعضُ السياح من زيارةٍ لها كان بفضل تنَكُّرهم وتضلُّعهم من اللغة العربية ، ولم يكن لدينا عنها ، فيما مضى ، غيرُ رسومٍ ناقصة لا يُرْكَن إليها عند البحث الصحيح ، ونستطيع ، اليومَ فقط ، أن نتمثلها تمثلاً صحيحاً بفضل الصور الفوتوغرافية التى التقطها أحد رجال الجيش المصرى ، صادق بك ، والتى انتهت إلينا بأوربة فى سنة ١٨٨١ ، فاستعنّا ببعضها فى هذا الكتاب .

ولا تُفَضَّل مكة على المدن العربية الأخرى بغير نظامها الكبير ، ويَنْدُر الماء فيها ، ويُجْلَب إليها أطيبُ الماء بقَنَوَاتٍ من ينابيع عَرَفَة التى تَبْعُد منها بضع ساعات،وتقول القصة إن زوجةَ الخليفة الأشهر هارون الرشيد المُفَضَّلَةَ ، زبيدة ، هى التى أنشأت تلك القَنَوات .



٤ ـ واحة الذهب على خليج أيلة (بلاد الحجر العربية) (من تصوير مسيو دو لابورد)

وتصبح مكة فى موسم الحج أغنى مراكز العالم الإسلامىّ التجارية وأكثرها تنوعاً ، ويقوم فى

وسطها المسجد الحرام الذى ذاعت بفضله شهرة (أم القرى) ، وتقوم الكعبةُ الشهيرةُ التى يقول مؤرخو الشرق إن إبرٰهيم هو الذى أنشأها ، فى المسجد الحرام، وتنافَس الخلفاء والسلاطين والفاتحون منذ زمن محمد فى تزيين المسجد الحرام بسائق التقوى ، فلم يبق شىء من زخارفه الأولى .

والمسجدُ الحرام مُربَّع الشكل ، ويجِدُ المرء نفسَه ، بعد أن يدخله من أحد الأبواب ، فى باحة فسيحة تحيط بها أقواسٌ قائمة على غابة من الأعمدة ، وتعلو هذه الأعمدةَ قِبابٌ صغيرة كثيرة ، وتقوم مآذنُ المسجد الحرام على مختلف أجزاء ذلك المُرَبَّع .

واتُّخِذ المسجد الحرام المكىّ مثالاً فى إنشاء كثير من مساجد سورية على الخصوص ، ورأيتُ فى دمشق مساجدَ كثيرةً مبنيـة على طِراز الحرم المكىّ ، وتختلف مساجد القاهرة عنها بشكل مآذنها ودقائق زخارفها بعض الاختلاف .

ويقع المعبد الصغير ، الكعبة ، فى باحة الحرم المكىّ ، والكعبةُ بناءٌ مُكَعَّبٌ ذو حجارةٍ سُمْرٍ ، ويبلغ ارتفاعها أربعين قدماً وطولُها ثمانىَ عشرةَ قدماً وعرضُها أربع عشرة قدماً على حسب رواية بركهارد ، وليس للكعبة سوى باب واحد يرتفع عن الأرض سبعَ أقدام ، ولا يُوصَل إليه إلّا بسُلَّم مُتَنَقِّل يَنْصِبُونه فى موسم الحج ، ويتألف داخلُ الكعبة من حُجْرَة واسعة مُبَلَّطةٍ بالرُّخام ومُنارَةٍ بمصابيحَ مصنوعةٍ من الإبريز ومزخرفةٍ بالكتابات .

وداخلُ الكعبةِ غنىٌّ بزخارفه فى كلّ زمن ، ومن أقدم ماوُصِف به هو ماجاء فى رِحلة ناصر خُسْرَوْ المفيدةِ التى قام بها فى سورية وفلسطين وجزيرة العرب ، إلخ . (١٠٣٥ م — ١٠٤٢ م)، والتى نشرها حديثاً مديرُ اللغات الشرقية العالم ، مسيو شِيفر ، قال ناصر خسرو :

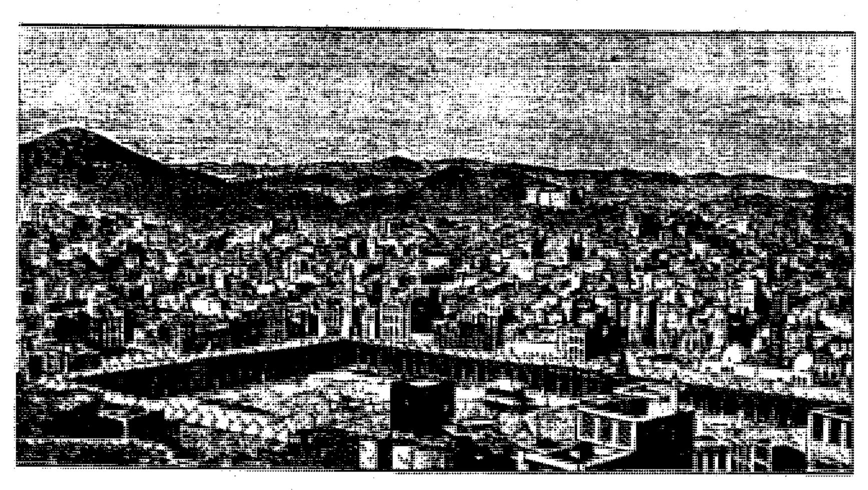
« يُغَطِّى جُدُرَ الكعبة رُخَامٌ من شتى الألوان، وتُسَمَّر بجدارها من الناحية الغربية ستةُ محاريبَ فضيةٍ طويلة بمقدار قامة الرجل مُكَفَّتَةً بالذهب واللُّجَيْن[1] المُرَقَّش باللون الأسود، ويبلغ ارتفاع الجُدُر فى البدء أربعةَ سواعد من الأرض ، فإذا عَدَوْتَ هذا الارتفاعَ وجدتَ مافوقه حتى السقف مستوراً بصفائحَ من الرُّخام المزين بالزخارف العربية وبالنقوش المذهبِ معظمُها ».

---

(١) اللجين : الفضة .

والحجرُ الأسود الأشهرُ مُدَمَّجٌ فى أحد جُدُر الـكعبة الخارجية ، ولا يزيد قطر الحجر الأسود ، وهو الذى يقول العرب إن الملائـكة أَتَوْا به من الجنة ليـكون مَوْطِئاً لإبراهيم حين بنائه البيتَ الحرام، على سبعة قراريط ، ولا نعلم شيئاً كَرَّمه الناس زمناً طويلاً كالحجر الأسود الذى كان موضع احترامٍ وتبجيلٍ قبل ظهور محمد بقرون كثيرة .

وتُـكْسَى الـكعبة فى كلِّ سنة كِسْوَةً سوداء تسترها كلها عدا موضعَ الحجر الأسود وبضعَ أقدام من أسفلها ، ويُعْصَب أعلى الـكعبة ، فى أوائل مواسم الحج ، بنِطاق مُوَشًّى بآيات قرآنية مكتوبة بحروف من ذهب .



٥ ــ مكة والمسجد الحرام (من صورة فوتوغرافية التقطها الـكولونيل المصرى صادق بك)

ويقوم فى ساحة المسجد الحرام ، أيضاً ، بناء مُرَبع ساترٌ لِيَنْبُوعٍ تقول القِصَّة إن مَلَـكاً فَجَّره حين حَجَبَتْ هاجرُ وجهَها لـكيلا ترى ــ وهى هائمةٌ على وجهها فى البادية ــ ولدَها إسماعيلَ يموت عطشاً .

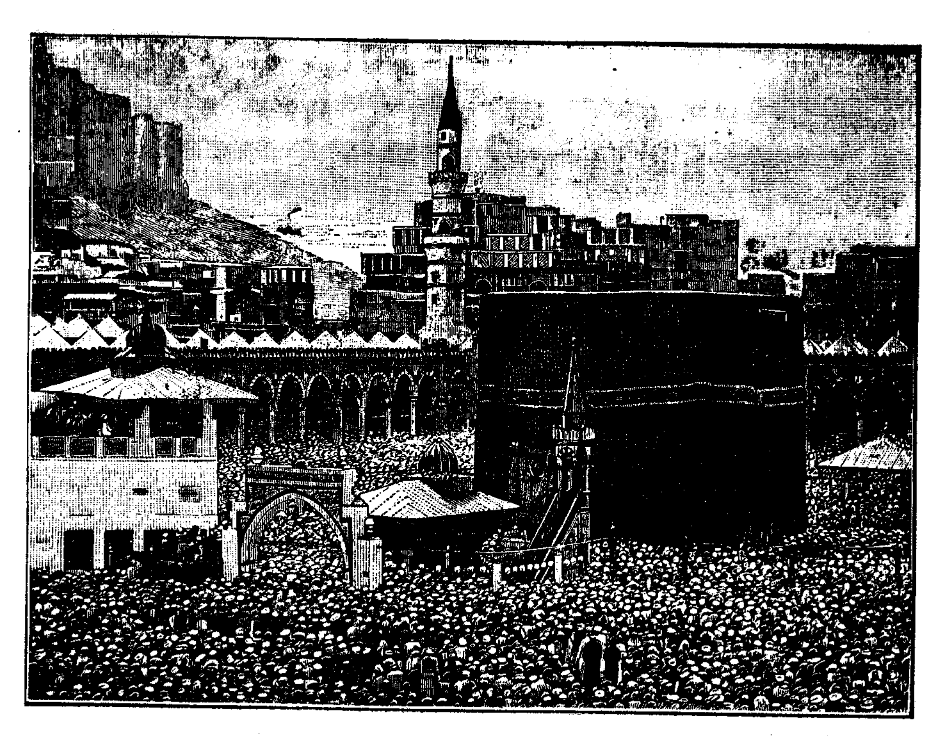
ويَجْزِم مؤرخو العرب أنه كان يسكن مكةَ مئةُ ألف نفس فى غابر الأزمان ، ويرى بركهارد أنه لا يَقْطُن بها سوى عشرين ألفَ نفس فى الوقت الحاضر.

وتقع المدينة فى الحجاز أيضاً ، وهى أقدمُ عاصمة للدولة العربية،وتلى مكةَ فى الشَّرَف عند المسلمين من الناحية الدينية ، فإلى المدينة هاجر محمد ، وفيها تُوُفِّىَ بعد أن وَطد دعائم دينه .

وتحيط بالمدينة أرضٌ جديبةٌ كما تحيط بمكة ، ولا تُنْبِت هذه الأرضُ مايحتاج إليه أهلوها من الحبوب ، فيَجْلُبُ هؤلاء الأهلون مايُضْطَرُّون إليه منهامن ميناء ينبع الواقع على ساحل البحر الأحمر.

وأصبحت المدينة ذاتَ غِنًى وثَراء بفضل تقوى الُحجاج وبرِّهم،وتتألف بيوتها ، المبنية من الحجارة المنحوتة ، من طبقتين على الأقلِّ ، وشوارعُها مُبَلَّطَةٌ ، ويحيط بها سورٌ مرتفع .

وليس فى المدينة مبانٍ قديمةٌ ، خلا مسجدها المشهور الذى دُفن فيه محمد بعد أن كان يُعَلِّم الناس فيه أحكام الإسلام ، وصارت المدينة ، بفضل قبر الرسول ، مكانَ حجٍّ وزيارة مُهِمٍّ مِثْلَ مكة تقريباً .



٦ ـ الكعبة فى المسجد الحرام بمكة أيام الحج (من صورة فوتوغرافية)

بلاد عسير . — تقع بلاد عسير الواسعة بين الحجاز واليمن ، وكان الأوربيون يجهلونها حتى أوائل القرنِ التاسعَ عشرَ ، ونحن لا نعْلَم من أمرها سوى أنه يسكنها قوم مقاتلون وأنها ذاتُ مدنٍ مهمة كثيرة .

بلاد اليمن . — تتألف بلاد اليمن من القسم الجنوبيّ الغربيّ من جزيرة العرب ، وهي أغنى جزيرة العرب وأخصبها وأكثرها سكاناً ، وهي أهمّ جزء من البِقاع التي كان يسميها القدماء « بلادَ العرب السعيدة » .

ويتعاطى سكان اليمن الزراعة والتجارة معاً ، وترْجِع علاقاتهم بالمصريين والفرس والهنود وغيرِهم إلى أقدم القرون .

واليومَ يَدِين أهلُ اليمن بالطاعة لِمَنْ يُسَمُّونه « الإمام » ، ويقيم الإمامُ بصنعاء التي يبلغ عدد سكانها ستين ألفاً ، ومن قول العالم الجغرافيّ العربيّ الإدريسيّ عن صنعاء : أنها كانت مقرّ ملوك اليمن وعاصمةَ جزيرة العرب ، وأنه كان لملوكهم قصرٌ متينٌ شهيرٌ ، وأنها كانت تشتمل في زمانه على عِدَّة قصور تحيط بها الحدائق الواسعة وعلى بيوتٍ مصنوعةٍ من الحجارة المنحوتة ومحتويةٍ نوافذَ زجاجية ، وأن فيها عشرين مسجداً تعلو أكثرَها قِباب مُذَهَّبةٌ فتساعد على تزيين هذه العاصمة القديمة .

وأُتيح لفروتندن أن يزور صنعاء ، فوصف موْكِبَ الإمام فيها يوم الجمعة بما يأتي: « يَشُقُّ طريقَ المسجد خمسون أعرابياً مُدَجَّجُون بالسلاح سائرون ستة ستة مُنْشِدون بعضَ الأناشيد ، فيأتي خَلْفَهم أمراء البيت المالك راكبين عِتاق الخيل حاملين رماحاً طويلة تعلوها راياتٌ خَفَّاقَة ، فيأتي الإمامُ خلف هؤلاء الأمراء مُمْتَطِياً صَهْوَةَ جوادٍ أشهبَ ناهضٍ من جِياد الخيل التي تُرَبَّى في صحراء الجوف بشمال صنعاء والتي تَعْدِل خيولَ نجد سرعةً ورشاقة وتَزيد عليها علواً ، حاملاً بيده اليمنى قناةً ذاتَ قارِيَة[1] من فِضة ومِقْبَضٍ من ذهبٍ منقوش ، متكئاً بيده اليسرى على كتِف خَصِيّ ، تاركاً العِنان لاثنين من عبيده ، متقياً وَهَج الشمس بِمِظَلَّة وسيعة مُهَدَّبَة ذاتِ جلاجلَ من فِضة ، فيأتي خلف الإمام سيفُ الخليفة مستظلاً بِمِظَلَّةٍ أقلّ أهميةً من تلك ، فيأتي خلف سيف الخليفة قائدُ الجيش وأقرباء الإمام وخواصُّ ضباطه ، فئة أعرابيٍّ مسلح » .

ولا تزال صنعاء أهمّ مدن جزيرة العرب ، وقال مسيو هاليفي الذي زارها منذ زمن قريب : « يُذَكِّرنا فنُّ عِمارتها بالمباني الشهيرة التي شِيدَت على حسب فن العِمارة الإسلامية » .

---

(١) القارية: أسفل الرمح أو أعلاه .

وتشتهر مدن اليمن ، ولا سيما الروضةُ القريبة من صنعاء ، بحدائقها وبيوت لهوها ، ويُستعان فى الروضة بالكَرْمَة فى صُنْع العُرُش كما يستعان بها فى إيطالية .

وتقع بعد ثلاثين فرسخاً من صنعاء خرائبُ مدينة مأرب أو سبأ التى كانت عاصمةَ البلاد فى غابر الأزمان فغَدَت اليومَ قريةً ، وكانت تلك الخرائب تشتمل فى زمن الإدريسىِّ ، الذى ألف كتابه فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، على أنقاض قصرين أقام أحدَهما سليمانُ وأقامت الآخرَ نساء داود (!) ، وكانت المِلكة التى زارت سليمانَ تَمْلِك سبأ كما روت كتب اليهود .

ومن بين مُدُن اليمن المشهورة نذكر المرفأين ، مخا وعدن ، الواقعين على البحر الأحمر ، وتنحصر أهميةُ مدينة عدن المتهدمة ، التى استولى عليها الإنكليز ، فى موقعها ، وكانت عدن فيما مضى زاهرة كثيرةَ السكان ، ومما قاله العالم الجِغرافىّ الإدريسىّ عنها منذ ستمائة سنة أنه يُجْلَب إليها من السِّند والهند والصين ثمينُ الأدوات كنِصال السيوف المُرَصَّعة والجِلودِ المُحَبَّبة والمِسكِ وسروج الخيل والفلفل والبهار والنارجيل[١] والأبازيرِ والهال والقرفة وقشرِ العفص والإهْلِيلَج[٢] والأَبْنُوس وقشرِ السُّلحفاء والكافورِ وجوزِ الطيب والقَرَنفُلِ ومختلفِ المنسوجات النباتية الثمينة المخملية والعاج والقصدير ونخل الهند والقصب والندِّ المرِّ الصالح للتجارة .

والبُنُّ من أهم ما تنتجه بلاد اليمن فى الوقت الحاضر ، فتصدره إلى أنحاء العالم قاطبةً ، ومع مايزرع من البُنِّ الوافر فى كثير من بقاع الأرض لم يَبْلُغ من حيث الجَوْدَةُ فى مكانٍ ما بَلَغَه فى بلاد اليمن ذاتِ الجوِّ الخاص ، وتُعَدُّ مخا مستودع البُنِّ اليمنىِّ .

وليس لملوك اليمن فى الوقت الحاضر ما كان لأسلافهم فى القرون الخالية من الجلال والعظمة ، ولا يَعْدُو سلطانُهم الآنَ حدودَ المدن الكبرى ، ولا يتناول نفوذُهم مختلفَ القبائل المستقلة المنتشرة فى نواحى البلاد .

بلاد حضرموت ومهرة وعُمَان والأحساء . — تمتد بلاد حضرموت ومهرة من شرق اليمن إلى عُمَان ، وتقع على طول ساحل المحيط الهندىّ ، وتسكنها قبائلُ مستقلةٌ ، وفيها بضع مدنٍ تكاد تكون مجهولةً .

(١) النارجيل : الجوز الهندى . (٢) الإهليلج : عقار من الأدوية .

وعاصمةُ حضرموتَ هى مدينةُ شِبامَ الواقعةِ على مسيرة يوم من مدينة تريمَ المهمةِ التى يبلغ عددُ مساجدها عددَ ما فى رومة من الكنائس كما روى فريسنل .

وتقع بلادُ عُمان ، التى تأتى بعد مهرة ، على ساحل المحيط الهندىّ والخليجّ الفارسىّ وهى رمليةٌ تتخللها واحاتٌ كثيرة وأوديةٌ خَصبة ، ومقرُّ سلطانها مدينةُ مسقط التى لا قيمة لها اليوم .

وليست بلادُ الأحساء الممتدةُ من عُمَان إلى مصبِّ الفرات والواقعةُ على طول الخليج الفارسىّ معروفة جيداً ، ويُظَنُّ أنها قليلةُ السكان ، ويُعَدُّ القسم الذى بين مدينة القطيف والبصرة صحراء واسعةً ، وتقع تجاه هذا القسم جزرُ البحرين التى هى أشهرُ مغاوص اللؤلؤ فى العالم .

لقد أتينا ببحث موجز عن جزيرة العرب ، وعلينا أن ندرس الآن أمرَ سكانها ، وسنرى أن العالم لم يَعْرِف قطراً طبع بجوِّه وأرضه طابعَه على شعب كما طبَعَت جزيرةُ العرب بجوِّها وأرضها طابعَها على من يسكنها من الأهلين .

ولا تنفع أنباء الفتوح وأخبارُ الملوك فى الوقوف على تاريخ إحدى الأمم ، والذى ينفع فى ذلك هو البحثُ فى مختلف العوامل التى أثَّرَت فى تطورها والتى يجئُ عامل العرق الذى تنتسب إليه فى مقدمتها .

فما سجايا هذا العرق الخلقية ومواهبه العقلية ؟ وماذا اعتور هذا العرقَ من التغير بفعل البيئة والوِراثة والعلاقات بالأمم الأخرى ؟ .

هذا ما نرغب فى معرفته وما نسعى إلى درسه فى هذا الكتاب .

الفصل الثانى

العَرَبُ

١ — مبدأ العرق كما أقرّته العلوم الحديثة

أرى ، قبل البحث فى العرب ، أن أُمَهِّد الأمرَ بدرس ماهو ضرورىٌّ من أوصاف الإنسان وقوفاً على هذا الفصل .

تقسّم الجماعات البشرية المنتشرة فى مختلف أقطار الأرض إلى عروق ، وكان يُظَنُّ أن الفروق بين العروق البشرية أقلُّ مما هى عليه بين أنواع الحيوان ، بَيْدَ أن العلم الحديث أثبت أن عروق البشر مفترقةٌ فى أخلاقها افتراق أنواع الحيوان المتقاربة ، فيجب عَدُّ كلمة « العِرْق » بالنسبة إلى الإنسان مرادفةً لكلمة « النوع » .

ويمكن تعريف العِرْق ، أو النوع البشرىّ ، بأنه يَدُلُّ على جماعات ذات أخلاق مشتركة تنتقل إليها بالوراثة انتقالاً منتظماً .

ويرى الذين لم يدرسوا علم أوصاف الإنسان أن « الأمة » و « العِرْق » كلمتان مترادفتان تقريباً، مع أن لهما معانىَ مختلفة تماماً ، فالأمةُ هى جماعةٌ من الناس الذين ينتسبون ، فى الغالب ، إلى عروق كثيرة جَمَع بينها نظامُ حكم واحد ومصالحُ واحدة ، فإذا صح ما ندعوه الآن بالأمة الإنكليزية أو الأمة الألمانية أو الأمة النمسوية أو الأمة الفرنسية مثلاً لم يَبْق ما تصحُّ تسميته بالعِرْق الإنكليزىّ أو العِرْق الألمانىّ أو العِرْق النمسوىّ أو العِرق الفرنسىّ ، فكلُّ أمة من هذه الأمم هى من تباين المَحَاتِد والأصول ونقصِ الادِّغام مالا يجوز معه أن تُطْلَق عليها كلمة « العِرْق » ، أَجَلْ ، إن من الجائز أن تَنْضَوِىَ جماعاتٌ بشرية كثيرة إلى قوانينَ واحدةٍ وأن تَدِين هذه الجماعات بديانة واحدة وأن تتكلم بلغة واحدة ، ولكنه لا يتألف منها عِرْقٌ متجانس إلاّ بعد أن تستقرَّ فيها أخلاقٌ واحدة وصفاتٌ جثمانية واحدة بفعل البيئة والتوالد والوراثة .

ويَتَطَلَّب كسب هـذه الأخلاق والصفات زمناً طويلاً جدًّا ، والصفات الموروثة إذا كانت لا تستقرُّ إلا ببطوء فإنها لا تزول إلا ببطوء ، وبأقصى البطوء تندمج العروق وتتحول ، ويجب ، لـكى يكون للبيئات والتوالد أبلغُ الأثر فى تـكوين العرق ، أن يتوالى التطور ويتراكم بفعل الوراثة المتتابعة المستمرة قروناً كثيرةً سائراً نحو غرض واحد .

ويَعُدُّون البيئةَ ، فى الغالب ، من العوامل التى تستطيع تحويل صفات العِرْق وإثباتَها ، ولـكن الوراثةالتى تتراكم بها أخلاق العِرْق وسجاياه وتَرْسُب مع الزمن أقوى من البيئة وأعظمُ أثراً ، فقد دلت حوادث التاريخ على أن العِرْق إذا ما استقرت أخلاقه وسجاياه بالوراثة وبلغ من الـكِبَر عِتِيًّا[1] عَجَزت البيئةُ عن التأثير فيه وصار أهونَ عليه أن ينقرض من أن يتحول ، من أجْل ذلك نرى بنى إسرائيل يحافظون على مثالهم الثابت فى كلّ قطر ، ومن أجل ذلك أيضاً تَعَذَّر على بلاد مصر الحارة ، مع ما فيها من قوة صَهْرٍ ، أن تُحَوِّل العروقَ المُسِنَّة التى استولت عليها واحداً بعد الآخر فـكانت قبراً لـكلٍّ واحد فيها.

وإنما تُؤَثِّر البيئات فى العروق الحديثة ، أى العروق التى تنشأ عن توالد مختلف الأمم ذات الصفات المتباينـة ، فإذا ما فَلَّت الوراثةُ الوارثةَ وانحلت بذلك مُقَوِّمات الماضى القديمة الموروثة بفعل الوراثة الجديدة خلا الميدان للبيئة وقامت بعملها .

والتوالدُ ، لـكى يكون مُؤَثِّراً ، يجب أن يتـكرر وألَّا تتفاوت كثيراً نِسَبُ من يتوالدون من أفراد مختلف العروق ، وإذا عَظُمَ التفاوت فى نِسب العناصر المتوالدة كانت الغَلَبة لصفات العِرْق الوافر العدد ، لا لصفات العِرْق القليل العدد الذى لا يَبْقى له أثرٌ من حيث النتيجةُ ، وقد دلَّ الاستقراء على أن رَهْطاً من البِيض لم يلبث أن يزول أثره بعد بضعة أجيال إذا ما توالد هو وقومٌ من الزنوج ، وأن صفاتِ أمةٍ مقهورة صغيرة تزول بالتوالد أمام صفاتِ أمةٍ منتصرة كبيرة .

ومن الأمثلة على ذلك أغارقة الوقت الحاضر الذى لا يَمُتُّون إلى أجدادهم الذين خَلَّدتهم التماثيل بوجه شَبَهٍ[2] ، ومن تلك الأمثلة رومانُ بلاد الغول الذين ، وإن كنَّا وارثين لحضارتهم ولغتهم ، لم

---

(١) بلغ من الـكبر عتياً : بلغ غاية الـكبر . (٢) لا أبالغ إذا قلت إنه لا يرى فى بلاد اليونان الآن أغارقة حقيقيون إلا نادراً ، كما أن بلاد اليونان لم تر إغريقياً حقيقياً منهم منذ زمن طويل ، فلم أجد واحداً منهم لا فى أثينة ولا فى غيرها من بلاد اليونان ، كما أنى لم أجد تمثال شخص واحد من التماثيل ، التى هى على شىء من القدم والمحفوظة فى متحف أثينة ، يشابه المثال الإغريقى ، ومع ذلك فإن مسيو شليمان الذى سحت معه حيناً بين لى أن المثال اليونانى القديم لا يزال يوجد فى ميغار وإيتاك وليسبوز ونواح أخرى لم أزرها ، ولـكن هذا من القلة بحيث لا ينقض ما ذكرته آنفاً .



٧ ـ أعراب ورؤساء أعراب من القبائل المستقلة المجاورة للبحر الميت (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

يبق لدمائهم أثرٌ في عروقنا ، ومنها أيضاً حال العرب في مصر ، فسوف ترى أن المصريين الذين تمرَّدوا على حضارة الفرس واليونان والرومان ولغاتِهم انتحلوا لغة العرب ودينهم وتمدنهم ، وأن مصر غَدَت بذلك أشدَّ البلاد التي دخلت في دين محمد عروبةً ، وأنه ، مع كثرة توالد المصريين والعرب الفاتحين وظهورِ مثالٍ جديد اختلف عن الأصل بعد انقضاء جيلين أو ثلاثة أجيال ، أدَّى تفوقُ نسبة المصريين العديدة من حيث النتيجةُ إلى تقلص أثر الدم العربيّ في المصريين ، وأن الفلاح المصريّ العتيدَ ، العربيّ بدينه ولغته ، رَجَعَ ابناً لقدماء المصريين وصورةً حيَّة لهم .

٢ — أهمية الأخلاق في تقسيم العروق

لا تَصْلُح اللغة والدين والجماعات السياسية والصفات التشريحية ، كشكل الجماجم ولون الجلود والسَّحَنَات[1] ، لتقسيم العروق وإظهارِ الفروق الدقيقة بين الأمم المتقاربة ، كالأمم الأوربية مثلاً ، وإن صَلَحَت الأوصاف التشريحية لتقسيم الأجناس البشرية الظاهرة الاختلاف البادية التباين .

بَيْدَ أنه توجد صفاتٌ نفسية ، وإن شئت فقل سجايا خُلُقيةٌ ، ثابتة ثباتَ الصفات التشريحية ، وأنه سيأتي يومٌ تكون فيه هذه الصفات النفسية ، التي أغفلها علم أوصاف الإنسان الحديثُ ، أساساً لتقسيم العروق ، فلا يقول فيه أشدُّ الناس تمسكاً بالأوصاف التشريحية إنه ينال ، باطلاعه على صفات العرقين المتقابلين التشريحية ، معارفَ أكثر من التي ينالها باطلاعه على صفاتهما النفسية .

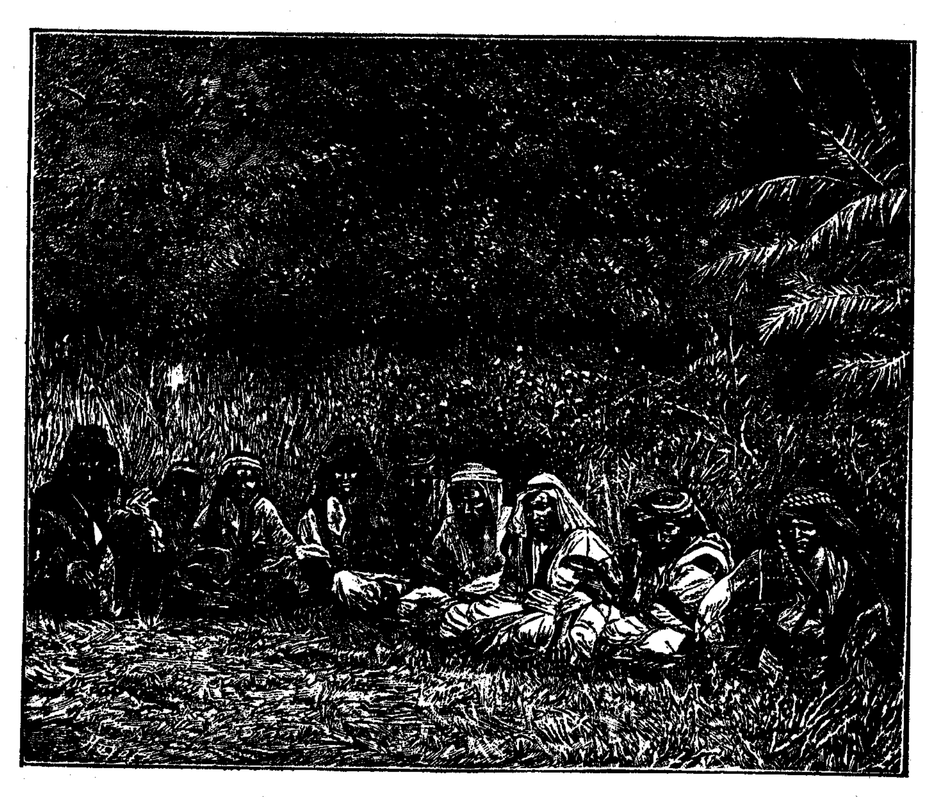
وتأتي الصفات النفسية المتشابهة بنتائجَ متشابهة دائماً كما تأتي الصفاتُ التشريحية ، ومن يُنْعِم النظر في تطور إحدى الأمم يَعْجب مما يلاحظه من تَجَلِّي سجاياها الخُلُقية على نَمَطٍ واحد في غصون الأجيال ، وتنشأ عن الصفات النفسية نُظُمُ الأمة وشأنُها في العالم على الخصوص ، وتستتر تحت الأخلاق ، أي تحت المُقَوِّمات التي تُولد مع الإنسان وتُقَرِّر طِرازَ شعوره وفعله ، عواملُ السَّيْر اللاشعورية .

---

(١) أرى السحنات ، التي لم تكن عاملا أساسياً في تقسيم العروق البشرية حتى الآن ، مهمة إلى الغاية ، وقد اعترفت بأهميتها حينما شاهدت في رحلاتي الكثيرة في أوربة وآسية وإفريقية كيف يسهل على سكان البلاد الأصليين أن يميزوا بالضبط أبناء مختلف العروق مع ما بين هؤلاء من وحدة في الأزياء ، ثم حاولت إثبات أهمية السحنات في تقسيم العرق في رسالة خصصتها للبحث في السحنات ، ففيها يجد القارئ إيضاحاً كاشفاً عن الوسائل التي يستنبط بها ما بين أفراد العرق الواحد من الاشتراك في سحناتهم .

وتختلف الأخلاق باختلاف العروق ، ونفسر بهذا الاختلاف السببَ فى أن النُّظُم المتشابهة تأتى بنتائج مختلفةٍ عند إدخالها إلى أمم مختلفة ، ونفسر به ، مثلاً ، علةَ الفوضَى السائدةِ لجمهوريات أمريكة الإسبانية البائسة وما تتمتع به جُمهورية الولايات المتحدة من السعادة والرَّخاء مع تماثل نُظُم هذه البلاد وتلك .

وفى الماضى تَنْضَج عوامل السِّيَر ، ومنه تَتَسَرَّب فينا ، وفى الماضى الطويل تَتَكَوَّن المرُوءة والنشاط والشجاعة والمبادرة وردع النفس وكبح العواطف وغيرُ ذلك من الأخلاق والمشاعر التى يَرِثُها أبناء الجيل الحاضر لينقلوها إلى جيل المستقبل ، والتى لا يستطيع أىٌّ نظام أن يَمْنَحَها .



٨ ـ أعراب سوريون (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف فى أريحا)

وعلى ما فى السجايا الخُلُقية من الثبات نراها تقدر ، كالصفات الجُثْمانية ، أن تتحول ببطء بتأثير مختلف العوامل ، ولا سيما البِيئةُ المادية والمؤثراتُ الأدبية والتوالد ، ومن ذلك اختلافُ أخلاق الرومانى الذى كان معاصراً لهليو غابال عن أخلاق أجداده فى العصر الجُمهورىّ ، واختلافُ سكان الولايات المتحدة فى الأخلاق عن آبائهم الإنكليز .

والأخلاقُ فى طريق التحول عند أكثر الأمم الحاضرة ، وهى لا تزال بعيدةً من الرُّسوخ ، فقد نشأ عن الفتوحات العظيمة التى ظهرت بها الأمم الحاضرة أن تقابلت عناصر كثيرة التباين فاختلط بعضها ببعض قليلاً ، ولمَّا يَمضِ من الزمن ما يكفى لاكتسابها كثيراً من المشاعر المشتركة .

وأمرٌ مثلُ هذا يتَّضِح جيداً حينما ندرس أحوال شعوب حديثة يُخَيَّلُ إلينا ، أولَ وَهْلَةٍ ، أنها متجانسةٌ كالفرنسيين المؤلفين بالحقيقة من عناصرَ مختلفةٍ كالكِمْريين والنورمان والسِّلْت والأكيتان والرومان وغيرهم من الذين داسوا ديارنا وجاسوا [1] خلالها من غير أن يتمازج حَفَدتهم ، كما يجب ، حتى الآن .

وأوضحتُ فى كتاب جديد مقدارَ التأثير العميق الذى يُؤَثِّره فى مقادير الأمم مختلفُ العناصر التى تدخل فى تركيبها ، كما بَيَّنْت فيه أن دِراسة هذه العناصر ، لا دراسةَ النُّظُم السياسية التى هى معلولات لا عِلَلٌ هى التى ترشدنا إلى سرِّ الدَّوْر الذى تمثله الأمم فى التاريخ ، وما قُمْت به من تلخيصِ ذلك فى هذا الكتاب يكفى لإقناع القارئ بأهمية درسِ روح الأمم الذى لا يزال ناقصاً [2] ، وسنرى فى البحث فى أخلاق العرب تفسيراً وافياً لأسباب عظمتهم وانحطاطهم .

منشأ العرب

عُدَّ العربُ واليهود والفنيقيون والعبريون والسوريون والبابليون والآشوريون ، الذين استوطنوا جزيرةَ العرب وآسية الصغرى حتى الفراتِ ، من أصلٍ واحد ، ويُطْلَقُ على هذا الأصل اسمُ الأرومة السَّامِيَّة .

وتقوم قرابة هذه الأمم على تجانس لغاتها واشتراكِ أبنائها فى صفاتٍ جُثْمانية متماثلة كاسْوِداد شعورهم وكَثَاثَةِ لحُاهم وكُمْدَة ألوانهم وما إلى ذلك ، ومن الممكن أن نجادل فى قيمة هذه الصفات ، ولكننا إذْ نخرج بهذا عن الغرض ، نرى الاقتصار على اقتباس ما ورد عنها فى بعض المتون .

(١) جاس القوم يجوسون جوساً بين البيوت والدور : داروا فيها بالعيث والفساد وطلبوا ما فيها . (٢) فصلت تلك المبادىء فى الكتب أو المذكرات الآتية : المجلد الثانى من كتاب الإنسان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما ـ علم وصف الإنسان ودرس العروق (المجلة العلمية) من موسكو إلى جبال تترة ، بحث فى تكوين العرق (مجموعة الجمعية الجغرافية) .

وذهب العلماء إلى وجود مثالَيْن لصفات تلك الأمم الجُثْمانية ، أحدُهما لطيفٌ ، والآخرُ غليظ ، فأما المثال الأول فيتَّصِف ، كما قال مسيو جيرار : « بقامته الهيفاء المعتدلة وأعضائه المُكْتَزَّة(١) المُشْتَدَّة ومفاصله الدقيقة ووجهه الطويل الدقيق فى أسفله وذَقَنِهِ المُتَوثِّب وفمه الصغير وأسنانه البِيض المُنَضَّدة وشفتيه الرقيقتين وأنفه الضيق الأقنى وعينيه السوداوين النجلاوين وحاجبيه الأَزَجَّيْن ورأسه المستطيل ، ونَجِد هذا المثالَ ، الشائعَ بين العرب على العموم ، فى بنى إسرائيل والسوريين والمصريين الأقدمين والمعاصرين أيضاً .

« وأما المثال الآخر فيتصف بقامته الطويلة الثقيلة وأعضائه العَضِلة ووجهه العريض الثخين وفكِّه القويِّ البارز وذَقَنِهِ الناتئ وفمه الضخم وشفتيه الغليظتين وأنفه الأقنى الواسع وحاجبيه المقترنين وعينيه السوداوين الكبيرتين وجبينه الضيق المستقيم ، ونَجِد هذا المثال بين الآشوريين واليهود وعرب الجنوب والمصريين الذين تَجْرى فى عروقهم دماء إفريقية لا ريب ، وذلك لِما تدلُّ عليه خطوطُ سَحَناتهم ونِسَبُ أجسامهم » .

ومهما تكن وَحْدَةُ هذه الصفات التى نجادل فى قيمتها ، ومهما تكن أهميةُ هذه القرابة السامِيَّة التى لانجزم بها نراها ترجع ، على فرض وجودها ، إلى ماقبل التاريخ ، وقد كانت هذه الأمم السامِيَّة على اختلافٍ وتباينٍ منذ أقدم عصور التاريخ كما دلت عليه الروايات .

وإذا جاز لنا أن نحكم فى مبادئ السامِيِّين السياسية والاجتماعية ، من خلال مبادئنا الحاضرة ، رأيناها قَبَلِيَّةً غيرَ راقية ، وذلك مع الاعتراف بأن الأمم السامِيَّة أقامت حضاراتٍ عظيمةً وأن ثلاثة من الأديان الخمسة أو الستة التى تسود العالم (وهى اليهودية والنصرانية والإسلام) نشأت عن الفرعين السامِيَّيْن : اليهود والعرب .

وكانت القرابةُ بين العرب واليهود وثيقةً ، ودليلُ ذلك ما بين لغتى تينك الأمتين وتقاليدهما من التشابه .

ولا جرَم أن الشَّبَه قليلٌ بين العربىِّ أيام حضارته واليهودىِّ الذى عُرِف منذ قرونٍ بالنفاق

---

(١) المكتزة : المتقبضة .

والجُبْن والبخل والطمع ، وأن من الإهانة للعربيِّ أن يقاس باليهوديِّ ، ولكنْ ، لا تَنْسَ أن طرق الحياة الخاصة التي خضع اليهودُ لحكمها منذ قرون كثيرة هي التي أنشأت منهم عِرْقاً ذليلاً غيرَ محترم[1] ، وعندي أن كلَّ أمة تكون عُرْضَةً لمثل ما أصاب اليهود ، ولا تَعْرِفُ عملاً لها غيرَ التجارة والرِّبا ، وتُحْتَقَر في كلِّ مكان ، وتنتقل إليها تلك الغرائزُ المنحطة بالوِراثة المتتابعة مدة عشرين قرناً ، وتتأصل فيها ، تصير كما صار إليه اليهود لا مَحَالة .

ويجب لكي نَتَمثل القرابة بين اليهود والعرب ، أن نعود إلى عصرِ إبراهيم الذى نرى أن قبيلته الصغيرة كانت تغزو جيرانها وتُلْقي الذُّعْر فيهم ، كما تغزو قبائلُ البدو العربية الحاضرة جيرانها وتخيفهم ، ولْنَعْلَمْ ، كما أُرَجِّح ، أن أَسْرَ اليهود في مصر لم يكن سوى نتيجةِ غزوةٍ أسفرت عن حصر المصريين لليهود النَّهَّابين في مكان من شمال مصر لم يستطيعوا الخروج منه في زمن موسى إلَّا بعد إقامتهم به زمناً طويلاً ، وبلوغِهم من النفوس عدداً تمكنوا به من مقاومة الفراعنة ،

---

(١) إن العربي مع إقراره لليهودى بالقرابة ، أول من يحمر وجهه خجلا منها ، وما شاهدته في رحلاتي الكثيرة التي قمت بها في ألمانية وبولونية وغليسية وروسية والشرق من الاحتقار لليهودى لا يذكر بجانب كره العربي له ، فاليهودى في نظر العربي نوع من الحيوان النجس الذى يباح أن يصنع به كل شيء ، ولا يخاطب العربي في الجزائر يهودياً إلا بعد أن يناديه : « يامنتن بن منتن » ، والعربي قادر على فرز اليهودى من غيره مهما حاول اليهودى أن يتنكر ، وقد تحققت ذلك حين قدر لى الاشتراك في مؤتمر من الأوربيين عقد في الجزائر حيث كان أناس من العرب يدلونى على يهود من المتعذر تمييزهم بسحناتهم .

ويعامل اليهودى في البلاد العربية المستقلة عن نفوذ الأوربيين بأسوأ مما يعامل به الحيوان ، وإليك كيف وصف مسيو كوت في سنة ١٨٥٥ حال اليهود في مراكش :

« يحرم على اليهودى أن يلبس غير الثياب السود التي هي رمز اللعنة والشقاء ، ويحظر عليه ركوب الخيل ، وإذا مر أمام مسجد أو زاوية أو ولى أو مرابط أو شريف وجب عليه خلع نعليه وحملهما بيده ، ويمتنع على اليهودى أن يدخل مقابر المسلمين ، وتجلد العريفة المسلمة اليهودية في الأماكن العامة لأتفه الأسباب ، وإذا ما ضرب مسلم يهودياً وجب على اليهودى ألا يدافع عن نفسه بغير الفرار أو الاستعطاف ، وإلا أمكن قتله ، وما أكثر ما يرجم صبيان العرب شباب اليهود ويضربونهم بالعصي ويصفعونهم ويعضونهم ويخدشونهم ، وشباب اليهود يركعون ويتلوون ويتلمسون الخلاص ويرجون النجاة من غير أن يقدروا على ضرب أحد من أولئك الصبيان أو جرحه .

وما تقدم ، وإن كان يقع في داخل مراكش ، لا يحدث مثله في طنجة حيث يقيم كثير من قناصل الدول الأوربية الذين يحتمى اليهود بهم على العموم ، ولما أتيت تلك المدينة العجيبة وزرت واليها وصحبني ترجمان القنصلية البلجيكية اليهودى لاقى هذا الترجمان من الوالى كل رعاية .

والرجوع لمدة أربعين سنة إلى حياة البادية ، وما كانت حياة اليهود لتختلف ، إلى زمن داود ، عن حياة الصَّحارى التى أَلِفَتْها قبائلُ البدو العربية فى فلسطين وجزيرة العرب .

٤ — تَنَوُّع شعوب العرب

يَعُدُّ أكثرُ الأوربيين العربَ عِرْقاً واحداً على العموم ، وكلُّ مسلم ، عند هؤلاء الأوربيين ، يسكُن بقاع آسية وإفريقية الممتدة من مَرَّاكُش إلى جزيرة العرب ، هو عربىٌّ ، وذلك كما يَعُدّ العربُ جميعَ الأوربيين من إنكليز وألمان وطلاينة وروس أمةً واحدة يُسَمُّونها الإفرنج .

والحقُّ أن تَمَثُّل الأوربيين للعرب على هذا الوجه هو من عدم الصحة كَتَمَثُّل العرب للأوربيين ، وذلك أنه يوجد بين العرب مُثُلٌ كالتى تُشاهد فى أوربة ، وأن العرب قد انتَهَوْا ، بما صادفهم من البيئات ، وبما اختلطوا به من الأمم ، إلى أمزجة كثيرة مُعقَّدة إلى الغاية .

وعلى ذلك أصبح عربُ مكة ، بعد أن كان يتألف منهم عِرْق خالص فى الماضى ، مزيجاً من أبناء مختلف الشعوب المنتشرين فيما بين المحيط الأطلنطىّ ونهر السند والذين



٩ — عربيان حضريان من سورية
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف بدمشق)

يحجُّون مكةَ في كلّ سنة منذ زمن محمد ، وقلّ مثل هذا عن عرب إفريقية وسورية الذين اختلطوا بالفنيقيين والبربر والترك والكلدان والتركمان والفرس والأغارقة والرومان ، ولا تستثن من هذا أجزاء جزيرة العرب الوسطى المنعزلة ، كبلاد نجد ، التي اختلط أهلوها بالزنوج على نِسَبٍ واسعة منذ قرون .

واستوقف تأثيرُ الزنوج في سكان جزيرة العرب نظرَ جميع السُّيَّاح الذين ارتادوها ، ومن ذلك أن رَوَى رُوتَا وجودَ بُقْعة في اليمن صار سكانها من أصحاب الجلود السُّود على وجه التقريب ، مع أن سكان الجبال من أهل اليمن الذين قلّ اختلاطهم بالآخرين ظلُّوا بيضاً ، وإن قصّ هذا السائحُ ، في معرِض الكلام عن أسْرَة أحد رؤساء تلك البُقْعَة ، أنه « يوجد في أبنائها جميع الألوان التي تترجح بين الأسود والأبيض تبَعاً للعروق التي تنتسب إليها أمهاتهم » ، ومن ذلك أن رأى وَالِينُ قبائلَ من العبيد السود في الجوف ، وأنه يوجد زنوجٌ في نجد وفي بقية جزيرة العرب من غير اكتراثٍ للون وللتوالد ، ومن ذلك أن رأى بلغريفُ مقاليدَ مدينةِ القطيف النجدية المهمة بيد زنجيّ ، ومما قاله بلغريف: « إنني رأيت في الرياض أناساً من الخِلَاسِيِّين[1] يحمِلون سيوفاً ذاتَ مقابضَ فضيةٍ ويخدِمهم عربٌ خلص من أبناء إسماعيل وقحطان » .

وعجبتْ ليدي بلنت من عدم الاكتراث لأمر اللون أيضاً ، وذلك في رِحلتها إلى بلاد نجد في سنة ١٨٧٨ ، فروَتْ أن حاكم مدينة سكاكة النجدية زِنْجِيٌّ أسودُ كريهُ الملامح كزنوج إفريقية ، ثم قالت : « إن مما لا يصدقه العقل أن يحيط بهذا الحاكم الزِّنْجِيِّ، الذي لا يزال عبْداً ، رَهْطٌ من النُّدَماء البِيض الخالصي العروبة يمتثلون أوامره ويبتسمون استحساناً لأفاكيهه التافهة » .

واختلاطُ مختلف العروق أظهرُ ما يكون لدى أهل الحضر من العرب ويباهي كلُّ عربيٍّ بوجود نِسْوَةٍ من مختلف الألوان في دائرة حريمه ، ويتجلى صَفاء العِرْق في سكان الجبال وأهل البدو من العرب أكثر مما في غيرهم ، وذلك مع ملاحظة وجود أناسٍ من أهل بادية الشام الشرقية ، القريبة من تدْمُر على الخصوص ، شُقْرٍ زُرْقِ العيون بسبب اختلاطهم بأهل الشمال على ما يَلُوح .

---

(١) الخلاسي : الولد من أبوين أبيض وأسود .

٥ — وصف الفوارق بين العرب

إن الفارق الأساسيّ الوحيد بين العرب هو ما أيدته تقاليدهم وطُرُق معايشهم ، وهو تقسيمهم إلى أهل حَضَر وأَهْل بَدْو ، ويجب ألا يغيب هذا التقسيم الجوهريُّ عن البال حين البحث في تاريخهم، فأما أهل البدو ، وهم الأعراب المُوَزَّعون فيما بين المحيط الأطلنطيّ وخليج فارس ، فلهم طُرُقُ معايشَ وعادات وطبائعُ لا تزال كما كانت عليه منذ آلاف السنين ، ويحتمل أن تَبْقَى هكذا إلى الأبد ، وهم مُقَسَّمون ، كما في العصر الإسرائيليّ ، إلى قبائلَ ترتحل عن الأماكن المقيمة بها عندما تستنفد مواشيهم ما عليها من الكلأ ، وأما أهل الحضر من العرب فهم ، على العكس ، يتغيرون بتغير الأماكن والشعوب التي يخالطونها .



١٠ ـ عربي حضري سوري (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف في دمشق

وإن تقسيم العرب إلى أهل حَضَرٍ وأهل بَدْوٍ يطابق ما في الرواية التي قالت بتقسيمهم إلى ثلاثة عروق : العِرْقِ الذي بادَ وعَفَا أثره قبل الإسلام ، والعرقِ المؤلف من أبناء قحطان الذين استقروا ببلاد اليمن والذين هم أقحاحُ العرب، والعرقِ المؤلف من ذرية إسماعيل الذي هو ابن جاريةِ إبرٰهيم المصرية.

وتعلم مما قلناه آنفاً عن العرب المعاصرين الذين هم وليدو توالدٍ مختلفٍ أنه يتعذر وجودُ مثالٍ خالص خاص بالعرب بسبب ما تَعَرَّض له العرب من التمازج كتعذر وجود مثال فرنسيٍّ أو إيطاليّ .

وأحسنُ وصفٍ قيل في مثال العرب الُجثمانيِّ ، الذي يطابق فريقاً كبيراً من العرب الُخلص ، هو ما ذكره الجرّاح الأول السابق في الجيش المصري ، لاري ، في الكلمات الآتية وهي :

« هم مربوعو القامة ذوو تكوينٍ حَسَنٍ ومَرَانةٍ ضُلْعٌ سُفْعٌ(١) ، وجوهُهم بيضيّةٌ سُمْرٌ ، وجُبُنُهم عريضةٌ عالية ، وحواجبُهم سُودٌ منفصلة ، وعيونُهم كُحْلٌ لامعة ، وأنوفُهم معتدلة ، وأفواهُهم جميلة ، وأسنانُهم مُنَضَّدَة عاجية البياض ، وآذانُهم حسنةُ الشكل غيرُ كبيرة مائلةٌ قليلاً إلى الأمام ، وخُرُوتهم(٢) محاذيةٌ تماماً لأجفانهم .

« وفى المرأة العربية محاسنُ كثيرة كما فى أخَواتها فى الأمم الأخرى ، ونحن نُعْجَب ، على الخصوص ، باستدارة أعضائها اللطيفة وتناسب يَدَيْها واعتدال رِجْلَيْها وهَيَف قامتها وتبخترها ، إلخ .

« ويُقَسَّمُ أهلُ البدوِ أو الرعاةُ من العرب إجمالًا إلى قبائلَ كثيرةٍ مُوَزَّعة فى أطراف الأراضى الخصِبة القريبة من البادية ، وتُقِيم القبائلُ بمضاربَ وخيامٍ تُنْقَل من مكانٍ إلى آخرَ عند الضرورة ، وعلى ما بين أبناء القبائل العربية والعرب المتمدنين من الشَّبَه نرى أبناء القبائل العربية يُمَيَّزون بتألق عيونهم وغموض ملامحهم واعتدال قامتهم وسرعة عَدْوهم وضُمُورهم وقُوَّتهم وتَوَثُّبهم وخُيَلائهم وعِتْقهم وحَذَرهم وبأسهم ونَجْدَتهم ولباقتهم وذكائهم النادر وفُرُوسيتهم ورمايتهم واستعدادهم العظيم لاحتراف مختلف المِهَن والصناعات » .

وأشدُّ ما استوقف نظرى من الأوصاف التى وَصَف لارى بها العربَ هو ما شاهدته ، على الخصوص ، من التماع عيون صبيانهم وبياض أسنانهم ودِقَّة أيديهم وأرجلهم وهَيَف قامتهم وما إلى ذلك مما لا يُرَى اليومَ فى غير عرب البادية .

وإذا عَدَوْت ذلك التقسيمَ الأساسىّ وجدت أن الفارق العملِيّ الوحيد الذى بين العرب المولَّدين هو ما يقوم على البحث فى سكان كلِّ قطر يسكنه العرب ، وهذا ما نفعله حينما نَصِفُ بالتتابع عربَ جزيرة العرب وسورية ومصر وإفريقية والصين ، وصفاتُ هؤلاء النفسيةُ ، لا صفاتُهم الجُثمانية ، هى أكثر ما نبحث فيه ، مع أن نَشْرَ صورنا الفوتوغرافية أنفعُ فى تَمَثُّل هذه الأمثلةِ من أىِّ بيانٍ مفصلٍ كان .

---

(١) الأسفع : من لفحته الشمس لفحاً يسيراً فغيرت لون بشرته . (٢) الخروت : جمع خرت ، وهو ثقب الأذن .

عرب جزيرة العرب . ـ عرب البِقاع الوسطى من جزيرة العرب ، ولا سيما الأعراب ، هم ، مع اختلاطهم بأناسٍ من الزنوج ، أكثرُ العرب مشابهةً لأجدادهم الأقدمين ، وهم الذين سنبدأ بالبحث فيهم .

ويتألف من الأعراب ، الذين يَظُن الكثيرون أن جزيرة العرب لا تشتمل على غيرهم ، عِرْقٌ جَليلٌ بعيدٌ من التمدن عاطلٌ من أيّ تاريخ كان ، ونحن إذا ما استثنينا الذين نرى أنه لم يتبدل فيهم شيء منذ ألوف السنين ، وعلى من يَوَدُّ أن يَعْرِف ما كانوا عليه منذ ثلاثة آلاف سنة أن ينظر إلى حاضرهم ، وهم الذين لم يطرأ على ماوصفهم به هيرودتس أو التوراة شيء ، وهم الذين قُدِّر عليهم ألّا يتحوّلوا ، وإذا كان من فضلِ البِقاع الخصبة ، كاليمن ، أن تُنْشِئَ أهلَ حضرٍ فإن رمال الصحراء القاحلة لا تَصْلُح لغير الأعراب .



١١ ـ عرب من مصر العليا (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف بالقرب من طيبة)

وسكانُ البدو من العرب مُقَسَّمون ، فى كلِّ زمنٍ ، إلى قبائلَ صغيرةٍ تخضع كلٌّ واحدةٍ منها لشيخ أو أمير ، ويقتصر سلطان هـذا الشيخ أو الأمير ، تقريباً ، على قيادة المحاربين فى الغَزَوات وتقسيم الغنائم والصدارة فى بعض الحَفَلات .

والغزوُ وتربيةُ الحيوانات هما كلُّ مايعتنى به الأعراب ، ولا نهايةَ لِماَ يشتعل بين القبائل العربية من الحروب لأتفه الأسباب،ماعَمِلَتْ بمبدأ الثأر والقِصاص الإسرائيلىِّ القائل : إن العينَ بالعينِ والسنَّ بالسنِّ والنفسَ بالنفس،وماتَبع كلَّ حادثِ قتلٍ يقَعُ بينها حادثُ قتلٍ مثله انتقاماً ، ولا ترضى القبيلتان العربيتان المتعاديتان بالدِّيَة بدلاً من القصاص إلا بعد أن يَنْهَـكهما الجَهْدُ ويعتريهما الوَهْن .

وتنشأ عيوب أهل البدو من العرب ومحاسنُهم عن طراز حياتهم ، قال هيردر :

« لايزال الأعراب محافظين على طبائع أسلافهم البدوية،وهم ، على مافى الأضداد من غرابة،يتصفون بسفك الدماء وحقنها وباعتقاد الخرافات وردِّها وبالإيمان والإلحـاد ، وهم ، على مايظهر ، ذوو فُتُوَّة خالدة يقْدِرون بها على القيام بجليل الأعمال عندما يؤمنون بمبدأ جديد ، وهم أحرارٌ كِرامٌ شُمُّ الأنوف غِضَابٌ مقاديمُ يجمعون فى مثالهم بين الفضائل والمساوئ الخاصة بقومهم .

« والأعرابىُّ نشيطٌ ، ويعود نشاطه إلى وجوب كسب عيشه بنفسه ، وهو صبورٌ ، ويرجع صبره إلى مالا محيص عنه من احتمال الآلام والمِحَن ، وهو محبٌّ للحرية ، والحريةُ هى الأمرُ الوحيد الذى اتفق له أن يتمتع به ، وهو محارب ، ويحارب حاقداً كلَّ من يحاول استعباده ، وهو قاسٍ على نفسه صارمٌ وَلُوع بالانتقام فى الغالب .

« ونرى الأعراب متماثلين فى أمور العزِّ والشرف لتماثل أحوالهم ومشاعرهم ، ويقوم فخرهم على السيف والقِرى والبلاغة ، فبحدِّ السيف يصونون حقوقهم،وبالقِرَى يتجلى كرم أخْلاقهم ، وبالبلاغة يَحْسِمون مالا يَقْدِر عليه السلاح من الخصام » .

وقال دِيفِرْجِه : « قد يكون أظهرَ مافى الأعراب هو أنهم جِماعُ الأضداد ، فالنهبُ والـكرم ، والسلبُ والجود ، والقسوةُ والنُّبْل ، وغير ذلك من الصفات التى تدعو إلى المقت والإعجاب فى وقت واحـد مما نراه فى الأعراب ، وليس فى هـذا مايُعْذَر به الأعراب لو لم نلاحظ أنهم محـكوم عليهم

بالاكتفاء بما تنتجه بلادهم المعتزلة التى هى أكثر أراضى العالم جُدُوبَةً ، ويعتذر الأعرابُ عن النهب بأنهم محرومون ، لفقر بلادهم ، طِيبَ العيش ووَفْرَةَ الغَلاَّت والكلأ مما لم تعرفه أمة أخرى ، وبأنهم يُزِيلون هذا الحَيْفَ المُقَدَّر بأسِنَّة رِماحهم معتقدين أن من الحلال دَهْمَ القوافل وسلبَ ما بأيديها تعويضاً لهم مما لم تَقْدِر أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة ، وبأنهم يَعُدُّون قطعَ السابلة وسلبَ ما بأيدى الناس ضرباً من حقوق الفتح والفخر كتدويخ مدينة أو ولاية ، وذلك لعدم تفريقهم بين الحرب والكُمُون .

« ومساوئُ مثلُ هذه لا تُغْتَفَر لو لم يكن عند الأعراب من الفضائل ما يُشْفع لهم به ، ومن هذه الفضائل أن الأعرابىَّ المحارب ، المتعطشَ للنهب والانتقام والذى يفعل عند مَسِّ كرامته ما لم تسمع به أذن من ضروب القسوة ، مِضْيَافٌ كريم أنيسٌ فى مِضْرَبه ، ومنها أن الهَضِيم الذى يَضَعُ نفسه تحت حماية الأعراب ، ولو كان من أعدائه ، أو الذى يصبحُ فى جواره ، يُعَدُّ من أفراد أُسْرَته ، فلا يستطيع أحدٌ بعدئذ أن يعتدى على حياته المقدسة التى يدافع عنها ذلك الأعرابىُّ أكثر من أن يدافع عن نفسه وإن ظهر أن هذا الغريب من أعدائه الذين تَمَنَّى زوالهم مئةَ مرة .

« وليس بمستبعدٍ أن يأخذ الأعرابىُّ المِضْيَافُ جَمَل جاره طوعاً أو كَرْهاً ويصنعَ منه طعاماً ليُمْعِن فى إكرام ضيوفه ، والكرمُ أفضلُ فضائلِ الأعراب ، ويَعُدُّه الأعراب أخصَّ ما اتصفت به أمتهم » .

وأضيف إلى ما تقدم أن الأعراب من سكان جزيرة العرب وسورية وإفريقية يُحِبُّون الحرية حُبًّا جَمًّا لا يقدِر الأوربىّ أن يتصوره ، وهم يزدرون أبناء المدن ويَعُدُّونهم من الأرقاء لذلك، ويتضمن الارتباط فى الأرض عندهم معنى توديع الحرية والخضوع لسيد ، ويَرَى الأعرابُ الذين لا يملكون سوى حريتهم أن هذه الحرية أغلى شىء ، وقد حافظوا عليها بتوالى الأجيال ، ولم يقدر جميع الفاتحين من الأغارقة والرومان والفرس وغيرهم من الأمم التى دَوَّخَت العالم أن يُعَبِّدُوهم ، وكلُّ قهر للأعراب لا محالةَ زائلٌ ، والقهرُ إذا ماوقع كان على أيدى أعراب آخرين ، فلا يَفُلُّ الأعرابَ إلا الأعراب .

ويرجع حبُّ الأعراب للحرية إلى أقدم عصور تاريخهم ، فقد روى ديودورس الصقلىُّ أن

الأنباط ، وهم من أعراب بلاد الحِجْر العربية (بطرا) ، كانوا ممنوعين من بَذْر القمح وغرس الأشجار المثمرة وبناء البيوت لِما فى هذه الأعمال من التضحية بالحرية طوعاً ، ولِذا لم يَسْتَذِلّ الأعرابَ أحد، وهم الذين لم يُعْطوا ملوكَ فارسَ الجِزْيةَ ، وقد أعطاها أهلُ فنيقية وفلسطين كما ذكر هيرودتس .

ويُلقِى الأعراب الرعبَ فى قلوب جيرانهم المتمدنين لِما فُطِروا عليه من الرغبة فى النهب وحبِّ القتال ، ويَعُدّ هؤلاء المتمدنون الأعرابَ من قُطّاع الطرق ، وينظر الأعرابُ إلى المسألة من ناحية أخرى ، أى يَفْخَرُ الأعرابُ بسلب القوافل فَخْرَ الأوربيين بضرب المدن بالقنابل أو افتتاحِ الأقطار أو ما إلى ذلك ، ويحترم الأعرابُ رؤساءهم احترامَ الأوربيين لأعاظم القادة ، وإن لم يقيموا لهم تماثيل.

وأصبح أعراب جزيرة العرب ، بما كان عندهم من غرائز النهب والقتال ، محاربين أشداء أيام خلفاء محمد فدَوّخوا العالم بسرعة ، ولم تتغير غرائزهم بتغير ما لاَقَوْا من الأحوال الجديدة ، بل تجلّت على صورٍ أخرى ما كان الثباتُ من الغرائز ، فأصبح حبُّهم للنهب حُبًّا للفتح ، وتحوّل كرمهم إلى ما أخذته أوربة عنهم مؤخراً من طبائع الفروسية ، ثم إن ما بينهم من التفاخر والمنافسة لم يلبث أن جاوز الحدود المعقولة فكان سبباً فى خسرانهم بعد أن كان حافزاً لهم على العمل الصالح فى البُداءة .

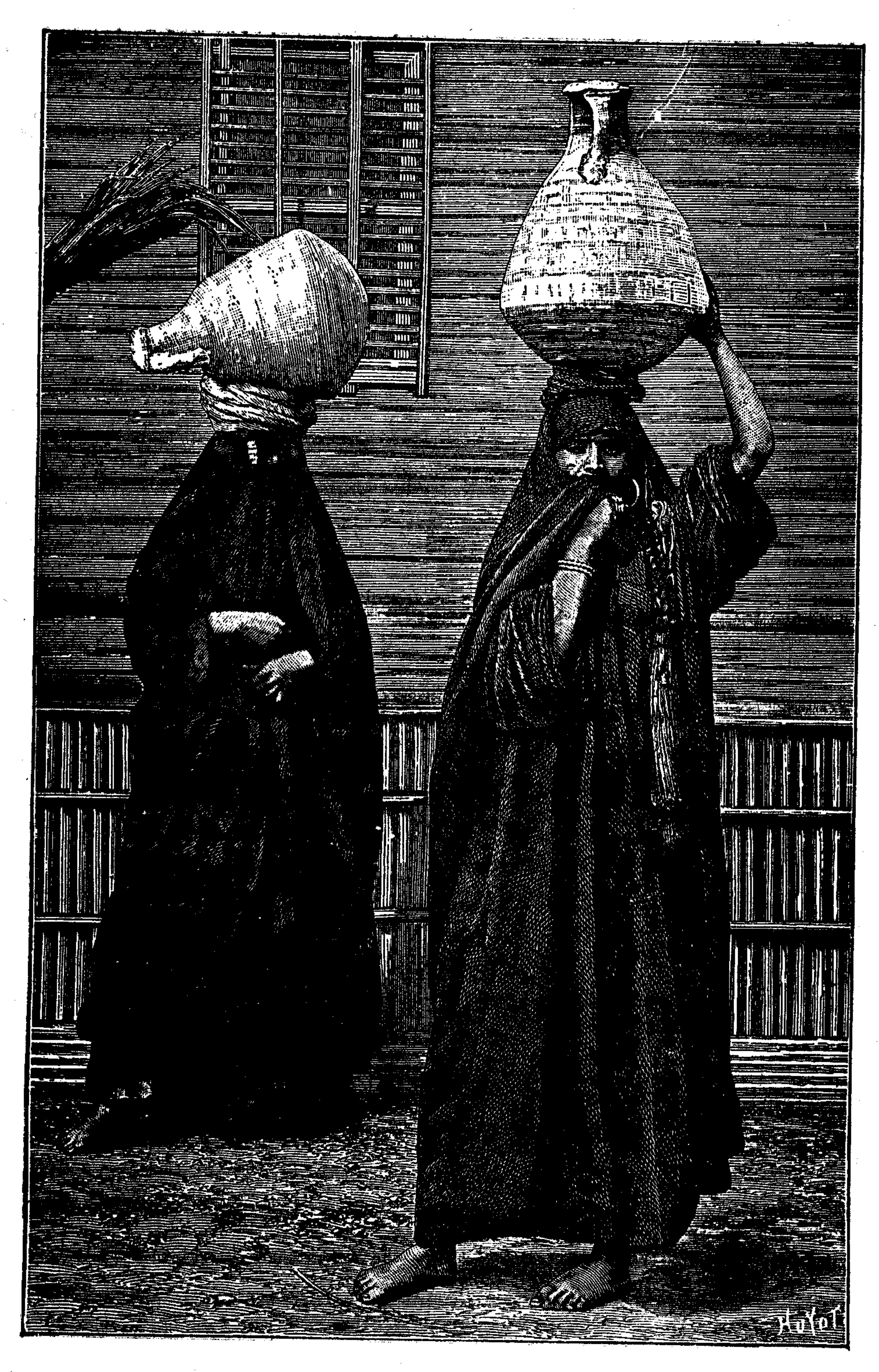
وكان يتألف من الأعراب قسمٌ كبير من جيوش خلفاء محمد ، وقام الأعراب الفاتحون بأجلِّ الخِدَم لأولئك الخلفاء ، وإن كان العلماء وأرباب الفن الذين ازدهرت بهم حضارةُ أتباع النبيّ لم يظهروا من بين الأعراب .

ويستخفّ الأعرابُ بسلطان الحضارة ، ويُفَضِّلون عليها عَيْشَ البادية ، وهذه من المشاعر الموروثة التى ترَى مثلها عند هنود أمريكة ولا يُؤَثِّر فيها أىّ دليل ، ورَفَض الأعراب ، فى سورية على الخصوص ، كلّ أرضٍ عُرِضت عليهم ليستقروا بها ، ويَعْرِف هؤلاء الأعراب، الذين يستوقف نُبْلُهم وبَأسهم نظرَ كلّ سائح ، كيف يَسْتغنُون عن نعَم الحضارة المصنوعة وعن جَبَرُوت كلِّ أمير إقطاعى كأمراء القرون الوسطى، ولا تخلو حياة البادية من السحر والجمال مع ذلك، ولا أتَرَدَّد ثانيةً فى ترجيحها على حياة المصانع التى يقضى العامل فيها اثنتى عشرة ساعة من كلِّ يوم .

وعندى أن أهل البدو من العرب ، مع بقائهم على الفطرة وعدم تحولهم قِيدَ أُنمُلَةٍ عن الحال[1]

---

(١) الأنملة : بتثليث الهمزة والميم ، رأس الإصبع ، وقيل المفصل الأعلى الذى فيه الظفر .



١٢ ـ عربيتان من جوار القاهرة (من صورة فوتوغرافية)

الابتدائية التي كانوا عليها منذ أقدم العصور ، أفضلُ من جميع أمم الرُّعاة في العالم ، وقد أتيح لى أن أحادثهم غيرَ مرةٍ فظهر لى أن مبادئهم في الحياة تَعْدِلُ مبادئَ كثيرٍ من الأوربيين العريقين في الحضارة ، وسنرى أن الأعراب الأجلافَ بعاداتهم شعراء بتصوراتهم ، ويَنْدُر أن يكون الأعرابيُّ غيرَ شاعر .

والأعرابيُّ ، وهو شاعرٌ ، صبيٌّ في خُلُقه ، وينطوى تحت دَعَته الظاهرة من التقلب ما لا يشاهَد مثلُه إلا في الأولاد والنساء ، وهو كهؤلاء لا يتأثر إلا بعامل الساعة التي يكون فيها ، ولا تستهويه سوى ظواهر الأمور ، ويَبْهَرُه الضجيج والضوضاء والبَهْرَج ، وفي فَتْنه سرُّ اجتذابه .

وأمرٌ مثلُ هذا يشاهَدُ في العروق والأمم الفطرية وما إليها من النساء والصِّبْية الذين هم عُنوان أدوار التطور البشريّ الأولى ، والحقُّ أن الأعرابيّ جِلفٌ ذكيٌّ لم يَصْعَد درجةً في سُلَّم الحضارة منذ ألوف السنين ، ولم يُعَانِ ما عاناه الرجل المتمدن من التحول المتراكم بتوالى الأجيال ، وإذا صحَّ ما نعتقده من أن اختلاف السجايا الخلقية يكفى لوجود فروقٍ بعيدةِ الغَوْر بين الناس أمكننا أن نقول إنه يتألف من العرب المتحضرين والأعرابِ عرقان تَفْصِل بينهما هُوَّة عميقة .

ويختلف عرب الجزيرة الحضريون ، الذين نبحث في أمرهم الآن ، عن أولئك الأعراب اختلافاً كبيراً ، فأهل الحضر من عرب الجزيرة لم يكونوا أجلافاً كما يُعْتَقَد على العموم ، وعند بلغريف أن السياح الذين لم يزوروا سوى بعض الأماكن الساحلية التي لا أهمية لها في جزيرة العرب الواسعة هم مصدر هذا الرأى الفاسد ، ويَنْظُر بلغريف إلى أهل عُمَان بعين التقدير والإعجاب حيث يبحث في ثقافتهم ، ولا يَصْعُب ، كما يرَى ، وجودُ أناسٍ من أهلِ نجد قادرين ، كالإنكليز ، على صُنْع الآلات ومَدِّ الخطوط الحديد ، وليس من المجهول شأنُ جامعة زبيد وجامعة ذمار اليمنيتين اللتين ، وإن كانتا دون جامعة الأزهر المصرية أهميةً ، تساعدان مثلها على نشر العلم القويم بين أولى البصائر من الأهلين .

ومن دأبنا في الوقت الحاضر أن ننظر إلى عرب الجزيرة من خِلال المُثُل الكئيبة التي نراها في سورية ومصر والجزائر والتي لا تَنِمُّ إلا على أناس أَحَطَّتهم ضروب الاختلاط والعبودية ، وعلى الباحث الذى يرغب في اسْتِبار العرب أن يَسِيح في مَهْد العروبة ، وأن يدرس أحوال العرب فيها عن كَثَب

فقد عَدَّ بلغريفُ عرب الجزيرة الذين عاش بينهم زمناً طويلاً من أعظم أمم الأرض كرماً ونُبْلاً ، قال بلغريف :



١٣ ــ مسلمونَ من النوبة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

« إن أهل الحضر من العرب من أنبل شعوب الأرض وأكرمهم ، وهم جديرون بهذا المديح ، وقد أكثرتُ من السياحة فى أنحاء العالم ، وكانت لى صلاتٌ وثيقة بمختلف الأمم الإفريقية والآسيوية والأوربية ، فظهر لى أن الأمم التى يُفَضَّل أفرادها على سكان جزيرة العرب الوسطى قليلة إلى الغاية .

« ويتكلم أولئك الحضريُّون العرب بلغة الأعراب مع ذلك ، ويجرى فى عروقهم ما يجرى فى عروق الأعراب من الدماء ، وما أبعد المسافَةَ بين الفريقين ! » .

وذكرنا أن الفروق التى بين أهل الحضر من العرب الساكنين فى مختلف البلدان كالفروق التى بين الأمم المتمدنة ، وتُشاهَدُ مثلُ هذه الفروق بين سكان جزيرة العرب نفسِها ، فالفرق بين سكان

القطر النجدىّ ، الذى هو أوسع من كثير من الممالك الأوربية ، وبقيةِ سكان جزيرة العرب لا يقلّ عن الفرق الذى بين سكان شمال أوربة وسكانِ جنوبها ، والوهابيون ، الذين هم أكثر نشاطاً من العرب الآخرين وأقلّ اندفاعاً وراء عوامل الزمن ، أشدُّ العرب مكراً وغَبْرَةً ، قال بلغريف فى وصف الوهابيين :

« يَقِلُّ الوهابيون عن العرب الآخرين كرماً وإقداماً ومَرَحاً وصراحةً ، ويزيدون عليهم صبراً وحِكْمَةً ، ويَنْدُر أن يَدُلّ كلامهم على سرائرهم ، وهم حَزَمَةٌ بعيدو الهمة جبابرةٌ ذوو انتقام ، قُساةٌ نحو أعدائهم ، مشكوكٌ فى مودتهم لغير بنى قومهم ، ولذا فهم جديرون بأن يُسَمَّوْا ، من غير تجَنٍّ ومع كل تحفظ ، بإسكتلنديى جزيرة العرب .

ووجوهُهم ذات صُلُود وعُبُوس مما لا يُرَى مِثْلُه فى وجوه عرب الشمال الطليقة ، ولا يُؤْخذون بدوافع الساعة العتيدة ، وإذا ما ساروا فبعد تفكير وإنعام نظر .

« ويَقْدِرون بإرادتهم القوية وثباتهم وجَلَدهم على تنظيم شؤونهم الاجتماعية والسيطرة على جيرانهم مع ما فيهم من الذكاء المحدود ، ولا ريب فى أنهم سينتصرون ، بفضل اتحادهم المتين ، على أعدائهم الذين أضعفهم انقسامهم ، وأن سيادة القسم الأعظم من جزيرة العرب ستكون لدولتهم الوهابية ، وأن أطماعهم وآمالهم ستتحقق فى أقرب وقت .

« وتتجلى أخلاقهم فى أدقّ شؤون حياتهم الأهلية ، ويجب على من يرغب فى مفاوضتهم ألّا يسترسل فى كلامه وأن يَزِن حركاتِه كما يفعل عندما يحادث أعداءه » .

عرب سورية . — عربُ سورية ، كعرب الجزيرة ، أهلُ حَضَر يسكنون المدن وأعرابٌ يقيمون بالبادية ، ولم يكن فى السيطرة المتتابعة التى أصابت سورية ما يَتَوَجّع منه أعرابُها الذين لا يزالون يعتمدون فى معايشهم على النهب وتربية المواشى منذ ثلاثة آلاف سنة ، ونحن إذا ما استثنينا المدنَ نرى سورية قبضتَهم بالحقيقة ، فهم يهاجمون فيما وراء نهر الأردن ، وفى أبواب دمشق نفسِها ، السياحَ والقوافلَ التى لم تُؤَدِّ إليهم الفِدَى فى مقابل خَفْرِها وحمايتها والسماح لها بالمرور ، وتجتمع فى أعراب سورية صِفَةُ الشَّرَه وصفةُ الكرم المتناقضتان اللتان ألمعنا إليهما فيما تقدم ، ويقدِّسون الضيف مادام نزيلَهم .

ولم يَقْدِر أحدٌ على إلزام أعراب سورية بترك البادية التي تعودوا العيش فيها منذ قرون، وقد رفضوا كلَّ أرض عُرِضَت عليهم ليستقروا بها ، وامتنعوا عن أيِّ عمل زراعيّ .

ونرى في سورية ، بجانب الأعراب الذين يَدِينُون بدين محمد ، قبائلَ ذاتَ شعائرَ وعقائدَ مختلفةٍ يَسْهُل تمييزُ بعضِها من بعضٍ لعدم توالدها فيما بينها ، وأهمُّها المتاولة والنصيرية والموارنة والدروز .

فالمتاولةُ قبائلُ عربيةٌ جبليــة تعيش في اعتزال ، وهم من مسلمي الشيعة المتعصبين الذين يَأْبَوْنَ تناول الطعام مع أيِّ أجنبيٍّ كان، ونرى من أوصافهم أنهم مزيجٌ من المُغُول والعرب والفُرْس ، مع أن بعض الباحثين يظن أنهم منحدرون من بعض القبائل الكردية .


١٤ ــ مسلمتان من النوبة (من صــورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

والنصيريةُ قبائلُ جبلية أيضاً ، وهم يدينون بدِيانةٍ مشتقة من الإسلام بعيدةٍ منه كلَّ البعد ، ويُرَى أن النصيرية من القائلين بالتناسخ ويَعْبُدون الشمسَ والقمر ، إلخ .

وللموارنة ، مع قربهم من السوريين ، طابعٌ خاصٌّ، وهم أتباعُ طائفةٍ مسيحية ذاتِ عُجْب صاحبةٍ لم تــكن على شيء كبير من البسالة كما أثبتت الحوادث ذلك .

والدروزُ يُشْبِهون الأعراب، وتتألف منهم طائفةٌ إسلامية عاتية حُرَّة انفصلت عن السوريين والعرب منذ قرون، وتوجد بين الدروز الشجعان ذوى الصَّوْلَة وموارنةِ لبنان عداوةٌ متأصلة .

ويتألف من سكان مدن سورية وقُرَاها مزيجٌ من المصريين والفنيقيين واليهود والبابليين والفرس والأغارقة والرومان والعرب والمُغُول والشركس والصليبيين والترك وغيرهم من الأمم التي استولت بالتتابع على سورية كلِّها أو بعضها، ولذا يشاهِد السائح في سورية مُثُلاً كثيرةَ التباين ، ويتصف سكان المدن من السوريين بالذكاء ولين العريكة والمكر والمخادعة على العموم ، وقديماً نَعَتَ الرومانُ السوريين

بأنهم وُلِدوا للعبودية ، والسوريون ، وقد رَضُوا بكلِّ حكم أجنبيّ أصابهم منذ قرون كثيرة ، لم يبق من نشاطهم سوى منازعاتهم الدينية ، وقد عُرِفوا ، فيما لا يَمَسُّ عقائد الدين ، بإذعانهم التامّ وانقيادهم المطلق لكلِّ ذى سلطانٍ مما لا يتصوره أوربيٌّ ، ويمكن القارىء أن يقِفَ على ذلك من القصة الآتية التى رواها مسيو دُوڤُوغُويه عن أوربيٍّ كان فى سورية أيام القمع الذى وقع بعد ملاحم سنة ١٨٦١ :

« رَوَى ضابطٌ معلمٌ أوربىٌّ كان فى خدمة الترك أنه شاهد الأمر الآتى ، وهو : أن أحد الجلادين الكثيرين فى ذلك الوقت كاد يُتِمُّ عملَ نهاره ، وأن الكلاّب كان عالياً والكرسىّ واطئاً فلا يوصل إليه به ، وأن مسلماً مُسِناً مَرّ من هنالك راكباً حماراً حاملاً قطعة لحم ، فأمره الجلاد بالوقوف فأطاعه فترَجَّل مادًّا عُنُقه للشنق طائعاً ظانًّا أن أَجَله جاء ، فأفهمه الجلاد أنه لم يَقْصِد شنقَه ، وإنما يريد حمارَه ليَصْعَد فيه رجلٌ محكوم عليه بالموت ويُوضَعَ الحبلُ فى عُنُقه ، فلما وضع الجلاد الحبل ونَخَسَ الحمار هَوَى ذلك المحكوم عليه بالموت ، فرَكِب الشيخ الهَرِم حماره بعد أن حمل قطعة اللحم لائذاً بالفِرار » .

وإننى أقول مكرِّراً إن ذلك الإذعان لايتجلى إلا فى الأمور التى لا تَمَسُّ عقائد الدين ، ولم يطرأ على الهدوء العميق الذى تتمتع به دمشق شىء من جَرّاء الاضطرابات التى وقعت حديثاً فى مصر ، وتعجبتُ من السهولة التى كان يَضرِب بها جندىٌّ واحدٌ جموعاً زاخرة ويدحرها لتُفَسِّح المجالَ لمرور أحد الأعيان أو السياح ، ومع ذلك فقد سمعتُ فى دمشقَ والقدسِ غيرَ مرةٍ أن أقلَّ نجاحٍ لعُرابى كان نذيرَ قتلٍ لنصارى سورية الذين يَحْمَرُّ الوجه خجلاً من جُبْنهم ، وهؤلاء النصارى هم الذين كانوا يُذْبَحون فى سنة ١٨٦١ كالضأن من غير أن يُبْدُوا أقلَّ مقاومة ؛ وهم الذين يكونون ، لاريب ، جُبناء أنذالاً لو حَدَثَ فى سنة ١٨٨٢ من الإثخان فيهم ما كان يتوقعه الملأ .

عرب مصر . — عربُ مصرَ نتيجةُ توالدِ سكان مصر الأصليين والعربِ الذين فتحوا مصر فى سنة ٦٤٠ بقيادة عمرو بن العاص ، وعربُ مصر ليسوا عرباً بدمهم ، وإن كانوا عرباً بلغتهم ودينهم ، فقد دَلَّنا علم وصف الإنسان على أن العنصر العربىّ الغالب لم يَلْبَث أن طغى عليه العنصر المصرىّ المغلوب الأوفرُ عدداً والأكثر احتمالاً لجوِّ مصرَ المرهوب ، وأن العناصر المتداخلة لم تَلْبَثْ أن توارت ،

وأن المصريَّ الحضريّ العربيَّ بدينه ولغته رَجَعَ ابناً لقدماء المصريين فى زمن الأهرام ، أى ذا سعَةٍ فى كتِفه ووجهه وغِلَظٍ فى شَفَتَيْهِ ونُتُوءٍ فى وَجْنَتَيْهِ ومشابهةٍ للمُثُل المنحوتة فى قديم الآثار .

ولم يكن عرب النيل الحضريون أبناء لقدماء المصرين بتقاطيعهم فقط ، بل وَرِثوا عن هؤلاء أخلاقَهم ولُطفَهم وأدبَهم الجمَّ أيضاً ، وهم يَخْشَوْنَ ، لِمَا عَانَوْا من ضروب الاستبعاد منذ قرون ، جميعَ السادة ، ولا سيما الأوربيون ، فقد استطعتُ ، حين ذاعت الأنباء فى القاهرة بأن مصر العليا مضطرمةٌ بالعصيان والملاحم ، أن أجول منفرداً فى القُرَى القائمة على ضَفَّتَيِ النيل من غير أن يصيبنى أذًى .

واحتياجاتُ الفلاح المصريّ قليلة جدًّا وهو إذا ما مَلَك بُلْغَةً كان سعيدا ، وهو يعيش من غير تفكيرٍ فى المستقبل والوقت والأبعاد ، ويكون جوابُه « لا أعلم » حين سؤاله عن أشياء كان يجب أن تكون التجاريبُ المتكررةُ قد هَدَتْه إليها ، ولا يَعْرِف مدةَ السفر بين قريته وإحدى القرى المجاورة ولا للَمسافةَ بينهما ، ولا يرى له مصلحةً فى معرفة هذا .

ونشاهد فى مصرَ مِثْلَ ما نشاهد فى جزيرة العرب وسورية من الأعراب والحضريين ، ونرى الفرق بين أعراب مصر وحضريها أعظمَ مما فى أيٍّ قطر آخرَ لاختلاف العرقين فى مصرَ فضلاً عن اختلافهما فى المعايش ، وإذا كانوا عرب المدن قد تحولوا بفعل التوالد المستمر إلى مصريين فإن أعراب مصر لم يختلطوا بسواهم نظراً إلى طُرُق معايشهم الخاصة ، وهؤلاء الأعرابُ يُشْبِهون ، بِقَنَا أنوفهم ورِقَّةِ شفاههم وطولِ وجوههم البَيْضِيَّةِ وعيونهم اللامعة ، مثالَ العربيّ البدويِّ فى زمن محمد .

والأعرابُ ، فقط هم أهل الحرب والنِّزال المرهوبون فى مصر، وهم الذين يجب أن يخافهم الإنكليز فى غزوهم الجديد لوادى النيل إذا لم يَشْتَرُوا حِيادَهم بأيِّ ثمن كما أَخبَرنا به العارفون غير مرة .

ويَنْصِب أهل البدو من عرب مصر خيامَهم فى الصَّحارى الرملية القريبة من ضَفَّتَى النيل ، وهم قَلَّمَا يَخْشَوْن جانبَ الحكومة ، ولا صِلَةَ بينهم وبين الفلاحين الذين يُبْغِضونهم .

ومعايشُ هؤلاء الأعراب كمعايش عرب البادية ، فالعربىّ البدوىّ هُوَ هُوَ أينما حلّ وحيثما اتجه .

ونرى فى مصرَ ، عدا العرب ، عناصر كثيرةً أخرى كالترك والأقباط والسوريين والزنوج والأغارقة والأوربيين وغيرهم من العناصر التى يَنْدُر أن تتوالد هى والفلاّح المصرىّ ، وذلك فضلاً عن أن جوّ مصر القتّال لا يَصْلُح لتناسل الأجانب ، ومنهم الترك ، فى أكثرَ من جيلين ، وأصولُ العرب ، لا غيرُها ، هى التى استطاعت أن تَثْبُت فى مصر .

ومن تلك الشعوب نَذْكُر الأقباطَ الذين ، وإن كانوا لا يُعَدُّون حَفَدةً خُلَّصاً لقدماء المصريين ، يُرَى بينهم أشخاصٌ مشابهون لِما فى النَّواويس القديمة أكثر مما بين سواهم ، ويَدِين الأقباط بالنصرانية ، ولم يختلطوا بالعرب ، ويقطنون فى مصر العليا ، ولا سيما ببعض القرى والمدن كأسيوط ، وتُشْبِه لغتُهم لغةَ قدماء المصريين ، وتَوَصَّلَ شانپوليون بدرسها إلى إيضاح الكلمات الهيروغليفية كما هو معلوم ، ومع نصٍّ كثير من المؤلفات على أنه لا يتكلم أحدٌ باللغة القبطية فى الوقت الحاضر سَمِعْتُ أقباطاً يتكلمون بها فيما بينهم على لَهَجاتٍ مختلفة ، ويكتب الأقباط لغتهم بالحروف اليونانية فى الزمن الحاضر .

ويُقَدَّر الأقباط المقيمون بمصرَ بمئتى ألف نفس ، وإن قالوا لى مُؤَكِّدين إن عددهم يزيد على خمسمئة ألف ، ويلوح لى أن الصورة المحزنة التى تُصَوَّر بها سَجِيَّتهم لا تَمُتُّ إلى الحقيقة بصلة ، وكلُّ ما فى الأمر أنهم أفضل فى الثقافة من عرب الوقت الحاضر ، ومن الترك على الخصوص ، وأنهم ، وإن كانوا لا ينالون أعلى المراتب بسبب دينهم ، يُعْطَوْن المناصبَ الإدارية التى تتطلب جَهْداً ودِرَاية .

وأما التركِ الذين حَلُّو محلَّ العرب فى مصر سياسةً فإن تأثيرهم فى تكوين العِرْق المصرىّ صِفْرٌ ، وتتألف منهم الآن طبقةٌ أريستوقراطية لا تختلط بالسكان ، ولا يزيد عددُهم على عشرين ألفاً .

غربُ إفْرِيقية . — إننا إذا استثنينا مصرَ التى تُعَدّ من الشرق عادةً نرى أنه يسكن شمالَ إفريقية أناسٌ منتشرون إلى ما بعد خطِّ الاستواء من بعض النِّقاط ، يدينون بدينٍ واحد وإن لم تَجْرِ دماء العرب فى عروقهم بصورة مطلقة ، متمازجون من البربر والعرب والزنوج ، وفى مرّاكُشَ ، على الخصوص ، يتجلى هذا التمازجُ الذى يزيد كلما دَنَوْنا من خطّ الاستواء .

ويختلف بربرُ إفريقية عن العرب كثيراً ، وسنتكلم عنهم مفصلاً فى الفصل الذى خصصناه للبحث فى تاريخ عرب إفريقية ، فلا نبحث فيهم الآن .



١٥ ــ متسولان مراكشيان (من صورة فوتوغرافية)

وعربُ إفريقية أهلُ بَدْوٍ وأهلُ حضَرٍ كعرب الأقطار الأخرى الذين تكلمنا عنهم ، وهم نتيجةُ اختلاط أعقدَ مما فى أيِّ مكان آخر ، وأهلُ مدنهم الساحلية الذين ننعتهم بالعرب هم ، على الخصوص ، مزيجٌ من القرطاجيين والرومان والوَنْدَال والأغارقة والبربر والعرب والترك والأوربيين والزنوج وغيرهم من الآدميين الذين تَلاقَوْا فى تلك السواحل والبِقاع ، وشاهدتُ فى سواحل إفريقية الشمالية جميعَ المُثُل التى تَتَرَجَّح بين زنوج السودان والحُور العِين ، وليس من الصواب أن يُنَاط عربُ الجزائر بمثالٍ واحد أو ببضعةِ مُثُلٍ كما فعل ذلك حديثاً أحدُ علماءِ وصف الإنسان الذى لم يأتِ بغير بحثٍ سطحيٍّ عنها .

ولم يكن العربىّ الجزائرىّ غير مُوَلَّدٍ بالحقيقة (١) ونرى فيه أحطَّ صفات المولدين ، وحَضَرِيُّو العرب من سكان مدن الجزائر نتيجة تمازج تلك الأمم ، وقد حَطَّتهم سيطرة الأجنبىّ المتتابعة ، وأعرابُهم مُتَمَرِّدون على كل حضارة كأهل البدو فى كل قطر ، وهم أقل تمازجاً وانحطاطاً من حضريى العرب .

(١) يرى مسيو كارتز أن عدد العرب المحض فى الجزائر مئتا ألف من ٢٥٠٠٠٠٠ مسلم (عربى وتركى وبربرى) ، وعنده أن البربر أكثر سكان الجزائر عدداً ، ويبلغون نحو مليون وأربعمائة ألف .

ويُجْمِـع أولئك الحضريون والأعراب على مَقْت الأوربيين القاهرين لهم وحقدِهم الشديد عليهم، ويُضَحّي الجزائريُّ، الذى نَصِفه بالخلق المُتَرَدِّد المِكْسال القانع الوضيع المُتَزَيِّد، بماله ونفسه، ويشترك فى كل عصيان وتمرد، للخلاص من حكم الأجنبيّ الذى فتح بلاده، وقد تَتِمّ إبادةُ عرب الجزائر بوسائلَ منتظمةٍ كالتى اتخذها الأمريكيون لإبادة أصحاب الجلود الحُمْر، ولكن الذى أعتقده هو أن الفرنسيّ لن يستطيع حملَ الجزائريّ على التفرنس، وأن من المتعذر أن يسود السلام فى قطرٍ واحد بين العرب والفرنسيين الذين ينتسبون إلى عرقين مختلفين، وقد سمعت هذا الرأى، الذى يُجْتَنَب تدوينه فى الكتب عادةً، من جميع أولى البصائر فى الجزائر، وإنى أوافق عليه موافقة تامة.


١٦ ـ سقاء مراكشى فى طنجة
(من صورة فوتوغرافية)

عرب إسپانية. — جميعُ العرب الذين ذكرناهم آنفاً من الأحياء الذين يَصْلُحون أن نَتَمَثَّل بهم أجدادَهم مع ما طرأ عليهم من التغير، وغيرُ ذلك أمرُ عرب إسپانية الذين بادوا ولم يتركوا من الذرارى من نَتَنَوَّر بهم أجدادَهم، ونحن مع جهلنا حقيقةَ مثالهم نراه كان مختلفاً عن مثال العرب السابقين الذين فتحوا إسپانية، فقد تَغَيَّر المثال العربىّ الأصلىّ بتوالده هو والموالى من النصارى وبربر إفريقية الذين أغاروا على إسپانية، ونتج عن هذا التوالد الذى دام ثمانية قرون عِرْقٌ جديد يختلف مثاله عن مثال الغُزَاة الفاتحين اختلافاً محسوساً كما تَشْهَد بذلك السُّنَنُ الأنثروپولوجية التى بيّنّاها فى بدء هذا الفصل، وتَشْهد آثارُ حضارة العرب فى إسپانية بسموّ ذكاء هذا العرق الجديد المُوَلَّد، ويدلّ تاريخهم على عُلُوّ فُرُوسيته وبسالته، ويُثْبِت صِرَاعُه الأهلى الذى كان عِلّةَ زوالِه اتصافَه بسجايا العرب الأصلية، ونحن، إذ لا نستطيع أن نستدلّ على عرب إسپانية الذين انقرضوا إلّا بدِراسة حضارتهم وتاريخهم، نُحِيلُ القارئ إلى الفصول التى خصصناها للبحث فى تلك الحضارة وذلك التاريخ.

عرب الصين . — أخذ خلفاء العرب وملوك الصين يتبادلون السفراء بعد أن أقام العرب دولتهم ، وسترى فى مكانٍ آخرَ من هذا الكتاب أن صِلاتِ العرب والصين التجاريةَ كانت منتظمةً برًّا وبحراً .

ولم يَلْبَثْ الإسلامُ فى الصين ، كما فى كلِّ بلدٍ دَخَلَه العرب ، أن صار له أتْبَاع ، ويُقَدِّر مسيو دابْرِي دُوتِيرِسَان عددَ مسلمى الصين بعشرين مليون نفس ، وذلك فى كتاب نشره حديثاً عن الإسلام فى الصين ، ويرى هذا المؤلف أن دماء عربية تجرى فى عروق مسلمى الصين وإن لم يكونوا عرباً حَصْراً ، وأنه يتألف منهم عِرْقٌ مَزيج من العرب والترك والصينيين ، ثم يقول : « إن المسلمين فى الصين متحدرون من الكتيبة المؤلفة من أربعة آلاف جندىٍّ الذين أَمَدَّ بهم الخليفةُ أبو جعفر الإمبراطورَ سُوتْسُونْغَ فى سنة ٧٥٥ م حين شَقَّ أَنْلُوشِين العَصاَ ، والذين سَمَحَ هذا العاهلُ لهم بالإقامة بأهمّ مدن الصين مكافأةً لهم على ما قاموا به من الخِدَم فتزوجوا صينياتٍ ، وكان بهم أصلُ مسلمى الصين » .

وقال ذلك المؤلف ، بعد أن استشهد برأى أَنْدِرْسُن الذى يرى أن شَرَفهم يفوق الوصف ، وذلك مع الاستشهاد بملاحظاته الخاصة :

« إنهم يتصفون بروح الصدق والشرف على العموم ، وإن من يتقلد منهم بعضَ مناصب الدولة يحترمه الأهلون ويُحِبُّونه ، وإن من يتعاطى التجارةَ منهم يتمتع بالسمعة الطيبة ، وإنهم يؤتون الصدقات كما يأمر الدين ، وإن الناظر إليهم يُخَيَّل إليه أنهم يؤلفون أُسْرَةً كبيرة واحدة يَشُدُّ بعضُها أَزْرَ بعض .

« وإنهم ، مع طابعهم الخاصّ ، استطاعوا بفضل نباهتهم وإخائهم الدينىّ وتسامحهم أن يلائموا بيئتهم وأن يَنْموا ويَكْثُروا ، وذلك خلافاً لدُعاة الأديان الأجنبية الأخرى الذين أرادوا أن يكون لهم شأنٌ فى الصين فلم يتقدموا خُطْوَةً حتى الآن » .

ونشأ عما فُطِر عليه مسلمو الصين من التسامح والروح الحُرَّة واحترامهم عاداتِ الصين وشرائعها ومعتقداتها أن يتمتعوا بما للصينيين من الحقوق وأن يكون منهم حكامٌ وقُوَّادٌ ومُقَرَّبون من الإمبراطور .

أسهبتُ فى هذا الفصل فى بيان بعض المسائل التى أغفلها المؤرخون مع ما لها من الأهمية الكبرى فى إيضاح ارتباط حوادث التاريخ ، ونَعُدّ سجايا العرق الخُلقية والذهنية أقوى العوامل فى تطور الأمم ، فالسجايا الخُلقية التى تنتقل بالإرث هى التى تُعَيِّن اتجاه السير ولا يستطيع أحد أن يتخلص من سلطانها ، وعالَمُ الأمواتِ هو الذى يُمْلِى على الأمة اتجاهها .

وفى الماضى تَنْضَج عوامل سَيْرِنا الحاضر ، وفى الحاضر تَنْضَج عوامل سَيْرِ أبناء المستقبل ، والحاضر، وهو عبدُ الماضى ، سيدُ المستقبل ، فيجب على من يرغب فى معرفة المستقبل أن يدرس الحاضر .

الفصل الثالث

العرب قبل ظهور محمد

---

١ — الوهم فى همجية العرب قبل ظهور محمد

رأى الكثيرون أنه لا تاريخ للعرب قبل ظهور محمد ، وحجتهم فى ذلك أن العرب قبل ظهور محمد، إذ كانوا مؤلفين من قبائلَ متنقلةٍ عاطلة من العَنْعَنات ، كانوا من الأجلاف الذين لم تعِ ذاكرة الإنسان شيئاً عنهم .

وإلى مثل هذا الرأى ذهب بعض الأذكياء المعاصرين، ومنهم مؤلف تاريخ اللغات السامية الشهير، رينان ، الذى قال : « لا مكان لبلاد العرب فى تاريخ العالم السياسىِّ والثقافىِّ والدينىِّ قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذى صار به العرب أمةً فاتحةً مبدعة، ولم يكن لجزيرة العرب شأنٌ فى القرون الأولى من الميلاد حين كانت غارقة فى دياجير ماقبل التاريخ ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد » .

وعندنا أن هذا الرأى فاسدٌ أولَ وَهْلَة ، ولو لم نَعْلم شيئاً عن ماضى العرب ، فإن أمكن ظهورُ حضارةِ أمةٍ ولغتِها بَغْتةً على مسرح التاريخ لا يكون هذا إلا نتيجةَ نُضْجٍ بطىء ، فلا يتم تطور الأشخاص والأمم والنُّظُم والمعتقدات إلّا بالتدريج، ولا تُبْلَغ درجة التطور العالية التى تبدو للعِيان إلّا بعد الصمود فى درجات أخرى .

وإذا ماظهرت أمةٌ ذاتُ حضارةٍ راقية على مسرح التاريخ قلنا إن هذه الحضارة ثمرةُ ماضٍ طويل، ولا يَعْنِى جهلُنا لهذا الماضى الطويل عدمَ وجوده ، وتؤدى مباحثُ العلم فى الغالب إلى عرض هذا الماضى للناظرين .

ولم يكن أمر حضارة العرب قبل ظهور محمد غيرَ ذلك، وإن عَسُر علينا أن نقول كيف كانت هذه

الحضارة ، فقد أثبتت الآثار والوثائق التى بأيدينا وجودها وأنها لم تكن ، على مايحتمل،دون حضارة الآشوريين وحضارة البابليين اللتين ظهر شأنهما حديثاً بفضل علم الآثار بعد أن كانتا مجهولتين .

ولم ينشأ وَهْمُ الناس فى همجية العرب قبل ظهور محمد عن سكوت التاريخ فقط ، بل نشأ ، أيضاً ، عن عدم التفريق بين أهل البدو وأهل الحضر من العرب .

والأعرابُ ، قبل محمدٍ وبعده ، أجلافٌ كأجلاف الأمم الأخرى الذين لم يكن لهم تاريخ ولا حضارة .

وليس الأعرابُ غيرَ فرعٍ من فَرْعَى الأَرُومة العربية،فيوجد بجانبهم العربُ المتحضرون المقيمون بالمدن والماهرون فى أمور الزراعة،ويسهل علينا أن نُثْبِت وجودَ حضارةٍ عظيمة لهؤلاء المتحضرين من العرب وإن كنا لا نَعْرِف تفاصيلها .

ولم يكن التاريخ صامتاً إزاء ثقافة العرب القديمة صَمْتَه إزاء الحضارات الأخرى التى رفع العلمُ الحديثُ عنها التراب ، ولو كان التاريخُ صامتاً إزاء حضارة العرب لقطعنا ، مع ذلك ، بوجودها قبل ظهور محمد بزمن طويل ؛ ويكفى لتَمَثُّلها أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور محمد آدابٌ ناضجةٌ ولغةٌ راقية ، وأنهم كانوا ذوى صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القديم فاستطاعوا فى أقلَّ من مئة سنة أن يقيموا حضارةً من أنضر الحضارات التى عَرَفها التاريخ .

والحقُّ أن الآداب واللغة من الأمور التى لا تأتى عفواً ، وهى تُتَّخذ دليلاً على ماضٍ طويل ، وينشأ عن اتصال أمةٍ بأرقى الأمم اقتباسُها لِمَا عند هذه الأمم الراقية من التمدن إذا كانت أهلاً لذلك .

وقد أثبت العربُ أنهم أهل للاقتباس ، ولا رَيْبَ فى أن العربَ ، الذين استطاعوا فى أقلَّ مِن قرنٍ أن يقيموا دولةً عظيمة ويُبْدعوا حضارةً عالية جديدة ، من ذوى القرائح التى لا تَتِمُّ إلّا بتوالى الوِراثة وبثقافةٍ سابقة مستمرة ، وبالعرب ، لا بأصحاب الجلود الحُمْر أو الأوستراليين ، أنشأ خلفاء محمد تلك المدنَ الزاهرة التى ظلت ثمانيةَ قرونٍ مراكزَ للعلوم والآداب والفنون فى آسية وأوربة .

أَجَلْ ، استطاعت أممٌ كثيرة غيرُ العرب أن تَهْدِم دولاً عظيمة ، ولكنها لم تَقْدِر مثلَهم أن تُبْدِع حضارةً لِما لم يكن عندها ما عند العرب من ثقَافة سابقة كافية ، وكلُّ ما قدَرت عليه هو أنها استفادت ، بعد زمنٍ طويل ، من حضارة الأمم التي قهرتها ، ومن ذلك أن البرابرة ، الذين قوَّضوا دعائم الإمبراطورية الرومانية ، قاموا بجهودٍ عظيمة دامت قروناً كثيرة قبل أن يقيموا حضارةً على أنقاض الحضارة اللاتينية ويَخْرُجوا من ظُلُمات القرون الوسطى .

ونحن ، قبل أن نوضح ــ بما لدينا من الوثائق والآثار الضئيلة ــ ما كانت عليه حضارة العرب قبل ظهور محمد ، نرى تلخيصَ ما نَعْرِفه عن تاريخهم القديم بما يأتي .

٢ ــ تاريخُ العرب قبل ظهور محمد

للعرب ما قَبْلَ تاريخهم مِثْلُ ما للأمم الأخرى .

أثبت البحث فيما تركه الأجداد في طبقات الأرض من بقايا الأسلحة والأدوات والمساكن أنه وُجِد قبل الزمن القصير الذي يبحث التاريخ في حوادثه ملايينُ السنين التي جَهِل الإنسان فيها أمر المعادن والزراعة وفنَّ ترويض الحيوان والتي لم يكن له فيها غيرُ الصَّوَّان سلاحاً ، ويسمى ذلك الدورُ الكبير بالعصر الحجريّ ، وعَثَرَ علماء الآثار القديمة في جزيرة العرب وأوربة وأمريكة وفي كلِّ مكانٍ على آثارٍ لذلك العصر الحجريّ .

ودلَّت تلك البقايا التي وُجِدَت في طبقات الأرض على تماثل الأمم في العصر الحجريّ ؛ وبتلك البقايا يسهل تصوير طرق المعايش والتفكير عند أجدادنا الأقدمين ، وقد أَفَضْت في درس هذا الموضوع في كتابي الأخير فلا أرى الآن فائدةً في العَوْدَة إليه .

ولا تَرْجِعُ أقدم روايات جزيرة العرب إلى ما قبل إبراهيم ، ولكن علم اللغات يثبت أن أمماً ذات لغة واحدة كانت تسكن البِقاع الواقعة بين القفقاس وجنوب جزيرة العرب ، وإن لم يكن عِرْقُ هذه الأمم واحداً ، ودلَّ درسُ اللغات الساميَّة على أن لغات تلك الأمم ، وهي العبرية والفنيقية والسريانية الأشورية والكلدانية والعربية ، وثيقةُ القُرْبى متحدةُ الأصل .

ونحن نجهل درجةَ تأثير البيئات وطرقِ المعايش فى اختلاف تلك الأمم مع اتحاد عرقها الذى تكلمنا عنه ، ولا نستطيع غيرَ تقرير قرابتها من العرب ، والعربُ وحدَهم هم الذين نبحث الآن فى شؤونهم .

ومصادرُ تاريخ العرب قبل ظهور محمد هى كتبُ العبريين ورواياتُ العرب والنصوصُ القليلة التى وَرَدَت فى كتب بعض مؤرخى اليونان واللاتين وما جاء فى الخطوط الآشورية وما أسفرت عنه الاكتشافات التى تمَّت فى موقع الصَّفا القريبِ من دِمشق .

وتعترف كتبُ العبريين بقرابة العرب من العبريين ، وتَعُدُّ العربَ أقدمَ من العبريين ، وتَقُصُّ علينا الشىء الكثير من أنباء نِزاع العرب الدائم وتكاد تَطْفح من أخبار العمالقة ومديانيى جزيرة سيناء وأهلِ سبأ الذين كانوا يقيمون بجَنوب جزيرة العرب .

ويَرْوى العربُ وكتبُ اليهودِ مصدرُ روايتهم ، أن قحطان وإسماعيل بن هاجرَ ، جاريةِ إبرٰهيم المصريةِ ، هما والدا العرقين اللذين عَمَرا جزيرةَ العرب فى الأصل ، أى والدا أهل الحَضَر فى الجنوب والأعراب فى الشمال ، ويَرْوُون أن بنى قحطان أقاموا دولَة سبأ والدولة الحِمْيَرِيّة باليمن ، وأن بنى إسماعيل سكنوا الحجازَ القريبة من فلسطين ، وأن بنى إسماعيل كانوا أصحاب مكة التى تنازعت هى وصنعاء اليمن عُنوانَ عاصمة جزيرة العرب .

وعلى ذلك يكون الأنباطُ والأدوميون والموءابيون والعمالقة والعمونيون والمديانيون وغيرُهم من القبائل التى ترَدَّد اسمها كثيراً فى التوراة من بنى إسماعيل ، ويُظَنُّ أن هذه القبائل من العمالقة تحالفوا هم وأعرابُ سورية واستولَوْا على مصرَ سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وعُرِفوا بالرُّعاة ودام سلطانُهم قروناً كثيرة .

وتجَمَّع العالقةُ والأدوميون والموءابيون والعمونيون فى بلاد الحِجْر العربية (بطرا) وفى جزيرة العرب الصحراوية ، وصار من دأبهم محاربةُ العبريين ، وحالوا دون دخول العبريين أرض كنعان زمناً طويلاً ، ولم يَتِمَّ إخضاعهم نهائياً ، ولوقتٍ قصيرٍ ، إلا فى زمن داود وسليمانَ .

ولم تُحَدِّثنا التوراة عن غير أعراب حدود فلسطين، ولم تُخْبِرنا بشىء عن عرب اليمن المتحضرين خلا ما جاء فيها عن زيارة ملكة سبأ للملك سليمان .

وتُحدِّثنا آثارُ الآشوريين عن عرب الشمال فقط ، أى عرب سورية وماجاورها، وذُكِرَ العربُ قبل الميلاد بثمانمئة سنة فى بلاغ سلما نصر الثانى، وأدَّت مَلِكتان عربيتان فروض الطاعة إلى تيغلاتفلا نصر قبل الميلاد بنحو ثمانمئة سنة، ورَفَع أسر حدون أميرةً عربية نشأت فى بَلاط نينوى على أحد العروش، واستعان أخو آشور بانيبال بجيوشٍ عربية عندما رفع راية العصيان .

وعلى مافى تواريخ العرب من غموضٍ ومبالغاتٍ تجعل الاعتماد عليها أمراً صعباً نراها وحدَها قد قصَّت علينا أنباء جزيرة العرب الماضية ، وأيَّدَت مارواه مؤلفو اليونان واللاتين عن عظمة اليمن ، ومما جاء فى هذه الأنباء العربية أن اليمن كانت مَقرًّا لأقوى دول الأرض وأن حُكْم ملوكها دام ثلاثة آلاف سنة ، وأنها غَزَت بلاد الهند والصين من المشرق ، وبلغت بغَزَواتها مَرَّاكُش من المغرب .

ولا يَرْجِع ماعَلِمْناه من مؤلفات اليونان واللاتين من الأنباء الصحيحة عن تاريخ بعض جزيرة العرب إلى ماقبل الإسكندر ، ويمكن تلخيصُه فيما يأتى :

عَزَم الإسكندر على فتح جزيرة العرب التى كان الأغارقة يَعرِفون غِنَى سكانها قبل الميلاد بأربعة قرون ، وكانت الغزوة التى قام بها نِيارْك حولَ جزيرة العرب نذيرَ تصميمِ الإسكندر على غَزْوها ، ونجَت جزيرةُ العرب من غَزْو الإسكندر بسبب موته ، وأضحت البِقاع القريبة من حدود مصرَ وفلسطين ، والتى كان العرب يسكنونها ، من نصيب بطليموس حين قُسِّمَت دولة الإسكندر ، وشايع الأنباطُ بطليموسَ على أنتيفون الذى فتح أحد قُوَّاده الماهرين بلادَ الحِجْر (بطرا) بَغْتَةً بعد أن أصبح سيدَ سورية وفنيقية ، وأباد الأنباط بعدئذٍ جيشَ أنتيفون المؤلفَ من ٤٦٠٠ جندىٍّ فساق إليهم جيشاً آخرَ بقيادة ابنه ديميتريوس ، وخاطب عرب بلاد الحِجْر (بطرا) كما روى ديودرس الصِّقِلِّىُّ الأميرَ ديميتريوس عند بلوغه ديارهم بما يأتى : « لماذا تحاربنا أيها الملك ديميتريوس ونحن من سكان الصحارى التى لاتُسَدُّ فيها خَلَّة ؟ ترانا نَقْطُن فى هذه البِقاع القاحلة فِراراً من العبودية، اقبَلْ هدينا وارْجِعْ إلى حيث كنت ، سنكون من أوفى الأصدقاء لك ، ولكنك إذا رَغِبْت فى حصرنا حُرِمْتَ كلَّ هناءة ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبديل طرق حياتنا التى تَعَوَّدناها منذ نعومة

أظفارنا ، وإذا قَدَرْتَ على أسْر بعضنا أيقنْتَ أنك لن تجد واحداً ممن أسَرْتَ يستطيع أن يألفَ حياةً غير التى ألِفناها » .

هنالك رأى ديميتريوسُ أن يقبل هديةَ الأنباط وأن يَرْضَى بالمـآب خاتماً بالسِّلم حرباً أبصرها مملوءةً بالمصاعب .

وكانت قبائل البدوِ ، حتى التاريخِ الميلادىِّ ، تنضمُّ فى الحروب الكثيرة ، التى تُهْلِكُ الحرثَ والنسل فى تلك البِقاع ، إلى المصريين تارةً وإلى السوريين تارةً أخرى ، ثم أثارت غاراتُهم وقَطْعُهُم



١٧ ــ أعراب من بادية الشام (من صورة فوتوغرافية)

للسوابل غضبَ قياصرة الرومان الذين كان سلطانُهم يمتدُّ إلى الفرات ، فجرَّدوا على عرب بلاد الحِجْر (بطرا) حَمَلاتٍ كثيرةً لم تُنْتِج غيرَ حملهم على دفع الجزْية أو وقْفِ العِداءِ إلى حين ، وكانت طريقة أولئك الأعراب فى الغزْو مثلَ ما يفعلون اليوم ، أى كانوا يُغيرون على العدوّ بَغْتةً ثم يفِرُّون إلى البادية عند المطاردة .

وإذْ كانت خيالات الأغارقة والرومان تتأجّج طَمَعاً فى ثروة جزيرة العرب ساق أغسطس إلى

اليمن جيشاً لم يُلاقِ غير الهبوط التام ، وفى عهد طيباريوس وحده استطاع الرومان أن يفتحوا من بلاد العرب جزيرةَ سيناء التى كان سكانها من الأعراب تقريباً ، فأضحت مدينةُ الحِجْر (بطرا) بذلك بلدةً رومانية زاهية كما تدلُّ عليه بقاياها .

وكان للعرب أثرٌ فى الحروب التى تقع بين الرومان والفرس، وبلغ نفوذ العرب فى الدولة الرومانية شأواً بعيداً ، حتى إن أحدهم فليبَ العربىَّ نُصِب قيصراً رومانياً فى سنة ٢٤٤ م ، وكان العرب يُهدِّدون سلامة آسية الصغرى ذات حين ، ولم يقْضِ العرب عن مجاورة آسية الصغرى إلّا بهدم تَدْمُرَ فى عهد أوريليانوس سنة ٢٧٢ م ، وتحويل سورية إلى ولاية رومانية ، واتِّباع بعض سكانها ملوكَ الغساسنة العرب الذين كانوا تحت حماية القياصرة .

ولما صارت القسطنطينيةُ عاصمةَ الدولة الرومانية نازع العربُ الفرسَ والأغارقة سيادةَ الفرات ، وسبق ذلك أن تَوَطَّنَتْ قبائلُ من عرب اليمن تلك البِقاعَ وأنشأت ، سنة ١٩٥ م ، فى جنوبها ، وعلى ضَفَّتَى الفرات وبالقرب من المكان الذى أقيمت عليه مدينة الكوفة فيما بعد ، مدينةَ الحيرة الشهيرة التى انقلب ملوكُها العرب ينافسون أكاسرةَ الفرس وقياصرةَ الروم فى التَّرف والعظمة، « وكانت قصور الحيرة مُؤثَّثَةً بأثمن الأثاث وكانت حدائقها مَكسوّةً بأعزِّ الأزهار ، وكانت قواربُها الأنيقة الساطعةُ الأنوار تَشُقُّ الفراتَ ليلاً حاملةً أغنى الأمراء وأمهرَ الموسيقيين ، وأطلق العرب لأنفسهم عُنَنَ الخيال فقَصُّوا علينا أنباء القصور الساحرة العجيبة التى أضحت ، لا ريب ، أجملَ مساكن الشرق وأطيبَها » .

وعاشت دولة الحيرة أربعمئة سنة، أى مدةً تُعَدّ طويلة لدولةٍ ، ولم يَنْتَهِ إلينا من أنبائها إلّا الشىء القليل ، وخضعت فى سنة ٦٠٥ م للدولة الساسانية ، وظَلَّتْ مرزبةً فارسيةً إلى أن جاء محمدٌ بعد قليلٍ زمنٍ وَدَكَّ خلفاؤه دولة الأكاسرة واستولَوْا على بلاد فارس .

ظهر مما تقدم أن جزيرة العرب نجَتْ من غزو الأجنبىِّ خلا ما أصاب حدودها الشمالية، وأن عظماء الفاتحين من مصريين وأغارقة ورومان وفرس وغيرهم ممن انتهبوا العالم لم ينالوا شيئاً من جزيرة العرب التى أوْصَدت دونهم أبوابَها .

نَعَمْ ، إن جزيرة العرب كانت حين ظهور محمد تحت خطر الغزو الأجنبيِّ المرهوب، وإن الأحباش استولَوْا في سنة ٥٢٥ م على اليمن التي لم تَدِنْ لغير ملوك العرب فيما مضى ، وإن الأحباش حاولوا أن يحملوا العرب على التَّنَصُّر فاستطاعوا تنصير بعض القبائل العربية ، وإن الفرس طردوا الأحباش من اليمن في سنة ٥٩٧ م ، أي قبل ظهور محمد بقليل فأضحى للفرس مَرَازِبَةٌ في اليمن وحضرموت وَعُمَان ، غير أن ذلك كلَّه كان لأجلٍ قصير ، ولم يُصِب بلادَ نجد والحجاز الواسعةَ منه شيء .

إذَنْ ، من الصواب قولُنا : إن القسم الأكبر من جزيرة العرب هو القسمُ الوحيد الذي لم تطأه أرجل الفاتحين من بلاد العالم المتمدن على مايحتمل .

٣ — حضارة جزيرة العرب قبل ظهور محمد

يَقُصُّ علينا بنو إسرائيل بعضَ الأخبار عن تجارة العرب ومدنهم ، ولا سيما مدينةُ سبأ في اليمن، ولكن قِصَصهم خالية من الأسانيد ، وإن دَلَّت على وجود مدنٍ عربية عظيمة في أقدم العصور .

ووَصَف هيرودتس ، قبل المسيح بنحو أربعمئة سنة ، بلادَ العرب السعيدة بأنها من أغنى بقاع العالم ، وأنه كان في مأرب ، أو سبأ التي ورد ذكرها في التوراة ، قصورٌ نَضِرة ذاتُ أبواب عَسْجَدِيَّة وآنيةٍ من ذهب وفِضة وسُرر من المعادن الثمينة .

ولم يَرْوِ إسترابون غيرَ ماروا هيرودتس ، واستند إسترابون في روايته عن مدينة مأرب إلى أرتيميدور ، وقال : « إن قصورها ذاتُ سقوف مزخرفة بالذهب والعاج والحجارة الثمينة وذاتُ أثاث فاخر وآنية منقوشة » ، ورأى إراتوستين أن بيوتها تشابه بيوت مصرَ في مجموعها .

وهنالك مطابقةٌ بين ماروا قدماء المؤلفين وماجاء في تواريخ العرب التي أجمعت على امتداح غِنَى اليمن ، واسمع ماقاله المسعوديُّ حين تكلم عن مأرب :

ذَكَر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها وأكثرها جِناناً وغِيطاناً وأفسحِها مروجاً ، بين بُنْيانٍ وجِسْرٍ مقيم وشجرٍ موصوف ومساكبَ للماء متكاثفةٍ وأنهارٍ متفرقة ، وكانت مَسيرَةَ أكثر من شهر للراكب المُجِدِّ على هذه الحال وفي العرض

مثلَ ذلك ، وأن الراكب أو المارَّ كان يسير فى تلكَ الجنان من أولها إلى أن ينتهى إلى آخرها لا يرى جهة الشمس ولا يفارقه الظلُّ لاستتار الأرض بالعمارة والشجر واستيلائها عليها وإحاطتها بها ، فكان أهلها فى أطيب عيش وأرفهه وأهنأ حال وأرغده ، وفى نهاية الخِصْب وطيب الهواء وصفاء الفضاء وتدفُّق المياه وقوةِ الشَّوْكة واجتماع الكلمة ونهاية المملكة ، فكانت بلادهم فى الأرض مَثَلاً ، وكانوا على طريقٍ حسن من اتّباع شريف الأخلاق وطلبِ الفضائل على القاعد والمسافر بحسب الإمكان وما تُوجِده القدرة من الحال ، فمَضَوْا على ذلك ما شاء الله من الأعصار لا يعاندهم مَلِكٌ إلّا قَصَموه ولا يوافيهم جبَّار فى جيش ، فَذَلَّت لهم البلاد وأذعن لطاعتهم العبادُ فصاروا تاجَ الأرض » :

ويظهر أن أَسْدَاد مأرب كانت سبب ثَرَاء بلاد اليمن ، والأسدادُ جُدْرَانٌ ثخينةٌ قائمة فى عَرْض الأودية لحجز السيول ، حتى إذا امتلأ ما بينها تَكوَّنَت بحيرةٌ واسعة ذاتُ منافذَ تجرى منها المياه لرىِّ الأراضى ، ويروى مؤرخو العرب أن الملكة بلقيس التى زارت سليمان ، على زعمهم ، هى التى أنشأت تلك الأسدادَ ، ونشأ عن خراب أسداد مأرب فى القرن الأول من الميلاد فَقْرُ بلاد اليمن وتفرُّقُ سكانها .

ويكفى تطابق تلك الروايات لإثبات مماثلة مدن اليمن فى نضارتها لمدن مصر وتقدُّمِها الكبير فى ميدان الحضارة ، ولا تزال بقاياها مطمورةً تحت التراب ، وهى تنتظر البحَّاثة الذى يُزِيله عنها كما أُزيل عن نينوى وبابل .

ومن الأدلة على ازدهار مدن اليمن فى القرون القديمة ما كان لها من الصلات التجارية الواسعة بالبلاد الأخرى ، وبما أن من الصعب أن نَعْثُر فى التاريخ على أمةٍ ذاتِ شأنٍ كبير فى التجارة من غير أن تكون متمدنة ، وبما أن علاقاتِ العرب التجاريةَ العالمية استمرت ألفَىْ سنة ، وقد ورد ذكرُها فى التوراة ، فإننا نقول إن العرب ضربوا بسهمٍ وافرٍ فى ميدان الحضارة وإنه كان لمخازنهم من الأهمية ما للمخازن البندقية فى إبَّان عظمتها .

وكان العربُ واسطةً بين قدماء الأوربيين وبقاع الشرق القاصية ، ولم تقتصر تجارة العرب على منتجات بلادهم ، بل كانت تَشمَل السِّلَعَ التى كانوا يَجْلُبُونها من إفريقية والهند أيضاً ، وكانت النفائس ، كالعاج والعطور والأفاويه والحجارة الكريمة والتبر والأرقّاء ، إلخ ، أهمَّ مايتاجر به العرب

واستعان العرب بالفنيقيين ، القريبين منهم لغة ، زمناً طويلا لبيع سلعهم ، وكان الفنيقيون يَخْزُنُون سِلَع العرب فى مدنهم الكبيرة كمدينة صور ، ثم يبعثون بها إلى الخارج لبيعها .

وكان العرب والبابليون يتنافسون فى الاتجار مع الهند ، وكان البابليون يَصِلون إلى الهند بطريق البرّ أو بطريق البحر من خليج فارس ، وكانت قوافل البابليين تَنقُل السِّلع إلى سورية لتوزعها على العالم ، مارةً فى طريقها إلى دمشق من تَدْمُر وهليوبوليس (بعلبك) المهمتين اللتين لا تزال بقاياهما الماثلةُ فى الصحراء تثير عجب السُّيَّاح .

فبمثل تلك العلاقات التجارية التى دامت مئاتِ السنين نتصور ما كانت عليه مدن جزيرة العرب ، ولا سيما مدنُ اليمن النَّضِرَة التى اغتنت بالتجارة وألِفَت أطيبَ النفائس ، وندركُ سِرَّ إجماع مؤلفى اليونان واللاتين والعرب على امتداح ازدهار تلك المدن العجيب .

ولم يَسْطَع نجم حضارة العرب قبل محمد فى اليمن وحدَها ، فما جاء فى أقدم روايات التاريخ عن حضارة الحيرة والغساسنة يثبت ، أيضاً ، درجةَ استعداد أتباع محمد للقيام برسالتهم فى عالم المدنية .

وقد تحدَّثنا عن الحيرة التى تَجَّدها العرب وقلنا إنها كانت تُنَافس القسطنطينية وعاصمةَ الفرس ، ولم تَقِلَّ عنها أهميةً مملكةُ غسان التى أسسها عرب اليمن بعد ظهور المسيح بزمنٍ قليل والتى دام سلطانُها نحوَ خمسمئة سنة واشتملت على ستين مدينةً مُحَصَّنة كما جاء فى كتب التاريخ .

وظهرت عظمةُ حضارة مملكة غسان من حَلِّ الكتابات الحِمْيَرِيَّة المنقوشة على آثارها التى اكْتُشِفَتْ بالقرب من عاصمتها القديمة بُصْرَى الواقعة على حدود سورية ، ومن بقايا قَنَواتها التى تشهد بما كان عند سكانها من الاستعداد الكبير للقيام بالأعمال العظيمة .

وإذْ كان عرب الحيرة وغسان متصلين بالفرس والرومان كان تأثيرُ هؤلاء فى حضارة أولئك كبيراً ، وغيرُ ذلك أمرُ حضارة اليمن العربية التى هى أقدم من حضارة الرومان ، والتى يجب أن يُبْحَث فيها عن بقايا حضارة العرب القديمة ، والتى نأسف على بقائها بعيدةً من يد البحث والتنقيب

حتى الآن ، فيظلُّ اطلاعنا على أمر مدن اليمن القـــديمة ناقصاً نقصانَ اطلاعنا السابق على آثار الآشوريين التى كانت مطمورة تحت رمال الصحراء .

وتدلُّ جميعُ الدلائل على أن كلَّ تنقيبٍ فى بلاد اليمن يأتى بأحسن النتائج ، فقـد حَدَّث مسيو هاليفى ، الذى جاب بلاد اليمن منـذ بضع سنين ، ولم يَسْطِـعْ أن يقوم بأىِّ حفرٍ كان ، أن العرب يَعْثُرون أحياناً على تُحَف ذهبية وفِضية بين خرائب اليمن وأنه وُجِد بجوار الحرم غيرِ البعيد من صنعاء مسلاّتٌ ذات كتاباتٍ كثيرة ، وأنه اكتُشِف بابُ معبدٍ حِمْيَرِىّ منقوشةٍ على حجارته صُوَرُ حيوانات ونباتات .

واشترى مسيو شاونبرجر فى القسطنطينية حديثاً مئتى قطعةٍ من نقود ملوك اليمن التى اكتشفها عربىٌّ فى صنعاء فترجِع فى قِدَمها إلى ماقبل الميلاد ، ولهذه النقود ، التى لم يُوجَد منها قبل ذلك سوى قطعتين أو ثلاث قطع فى جميع المتاحف الأوربية ، أهميةٌ خاصة ، فعلى أحد وجهيها صورةٌ جانبية لملك مُتوَّجٍ يُذَكِّرنا شعرُه المضفور بضفائر ملوك الرُّعاة الذين خرجوا من بلاد العرب وملكوا مصرَ زمناً طويلاً والذين اكتشف مسيو ماريت بعضَ تماثيلهم المعروضة اليوم فى مُتحَف بولاق ، وعلى الوجه الآخر صورةُ بُومَةٍ ، ويظهر أن رسَّام تلك النقود اقتبس رسومها من النقود الإغريقية التى كانت تتداولها أمم البحر المتوسط ذاتُ العلاقات التجارية الكثيرة بالعرب .

ومهما تكن الآثارُ التى ألمعنا إليها آنفاً ناقصةً فإنها مما تَتِمُّ به روايات قدماء المؤلفين ، ومما نُبْصِر من خِلاله ازدهارَ حضارة العرب الغابرة التى نَسِيها الناس فى الوقت الحاضر فتنتظر من يَكْشِف الغِطاء عنها ، والتى نرتدع ، بما نَعرِف عنها من العلم القليل ، عن عَدِّ العرب هَمَجاً ، والعربُ هؤلاء قد ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرونٍ كثيرة وأنشأوا المدنَ العظيمة وكانت علاقاتهم بأرقى شعوب الأرض وثيقةً .

٤ — أديان جزيرة العرب القديمة

كانت عبادات القبائل العربية قبل ظهور محمد كثيرةً إلى الغاية ، وكانت عبادة الشمس وأهمِّ النجوم

أكثرَها انتشاراً وأخذت القبائل العربية عن الأمم التي كانت تتصل بها كثيراً من آلهتها ، فكان زُونُها[1] جامعاً لشتى الأصنام كالألنبيا الإغريقية الرومانية .

وتدلُّ كتابات الآشوريين التي رُسِمَت قبل ظهور المسيح بسبعمائة سنة أو ثمانمئة سنة ، وما اكتُشِفَ في الصّفا ، على أن العرب كانوا مشركين وأنهم كانوا يقيمون لآلهتهم تماثيلَ ، وإليك ، مثلاً ، ما جاء في إحدى الكتابات الآشورية التي تُشِير إلى عودة أسِرحَدُّون من غزوه لجزيرة العرب الصحراوية :

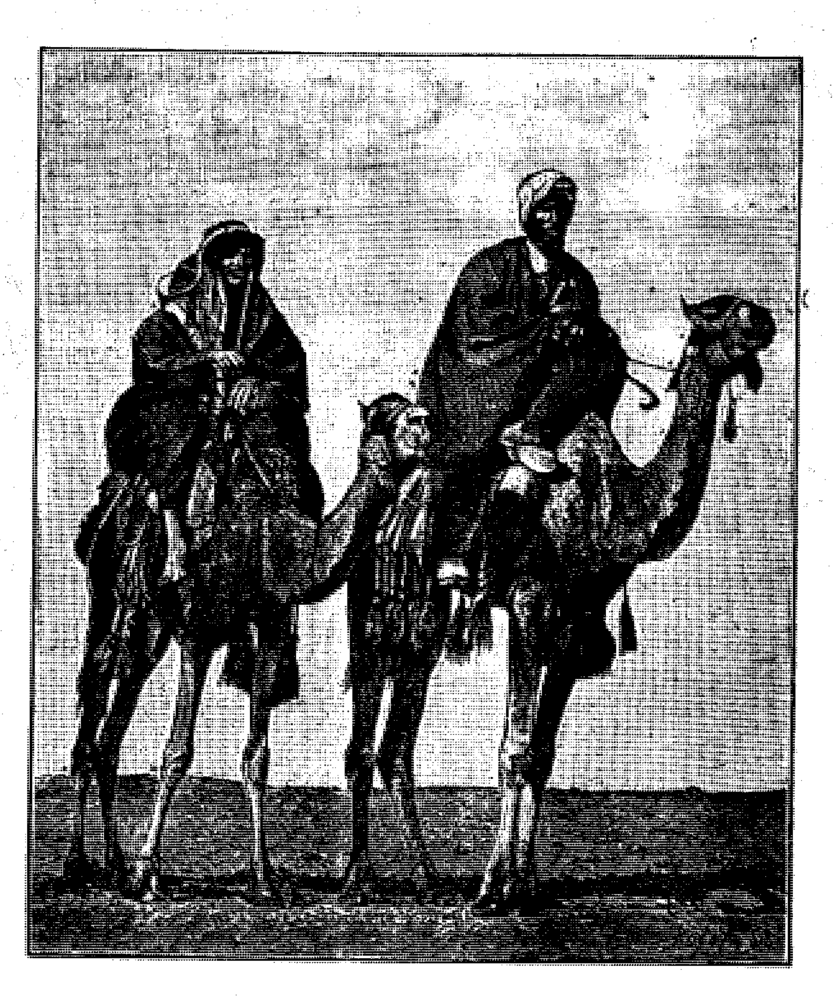


١٨ ـ أعرابيات من بادية الشام (من صورة فوتوغرافية)

« أتى الملك العربيُّ فلانٌ إلى عاصمتي نينوى ومعه هدايا كثيرة ، وقَبَّلَ قدميَّ طالباً أن أعيد إليه تماثيلَ آلهته ، فرَقَّ له قلبي وأعدتها إليه بعد أن أمرت بإصلاحها ونقشِ تمجيد ربي آشورَ عليها وتوقيعِها ، وجعلتُ الأميرةَ العربية طَبْوَة التي نشأت في بَلاطي ملكةً وأعدتها إلى بلادها مع آلهتها » .

(١) الزون : الموضع تجمع فيه الأصنام .

ووُجد فى ثنايا تلك العبادات المختلفة بذورُ توحيدٍ مما تَعَهَّدَ محمدٌ إنماءه فيما بعد ، وقد بَنَى إبرٰهيم الكعبة فى جزيرة العرب كما روى العرب ، وجَعَل العربُ منها موضعَ تكريم وحج منذ القديم ، وكان فيها حين ظهور محمد ٣٦٠ صنماً وصورة ، وكانت صورةُ المسيح ومريم العذراء من هذه الصورة كما جاء فى تواريخ العرب ، وكان من دواعى الفخر عندالعرب تزيينُ الكعبة التى كان اليهود شديدى التعظيم لهـا أيضاً ، وكانت سِدانتها بيد قبيـلةِ قريش التى نالت بذلك نوعاً من السيادة الدينية بين العرب .



١٩ ــ جالان من بلاد الحجر العربية (بطرا)

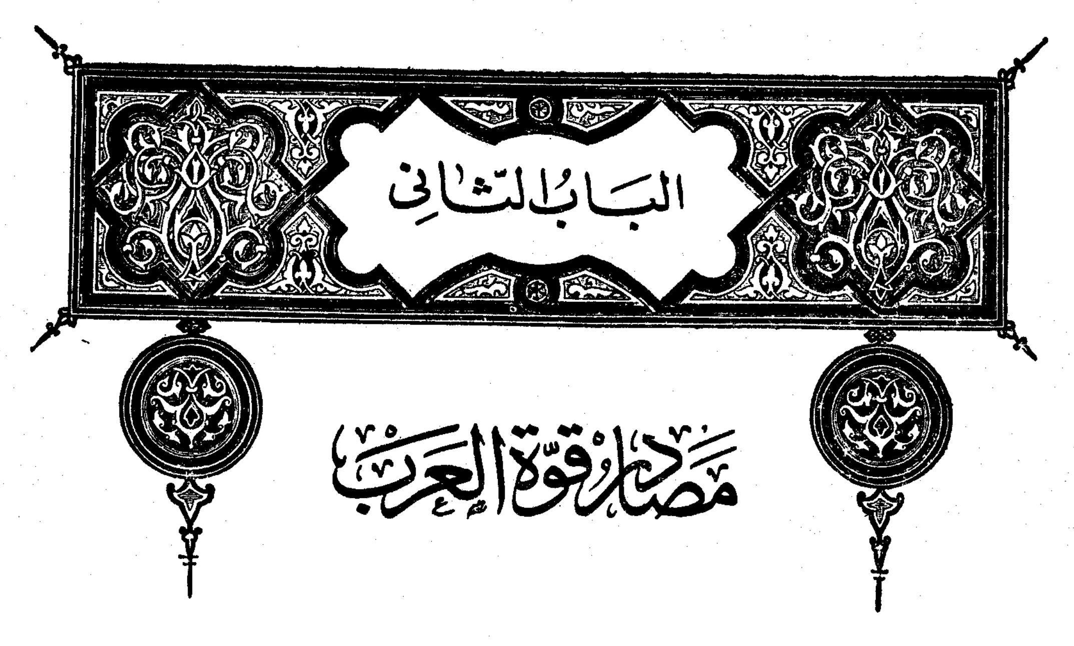
ووُجِدَ بين العرب ، فضلاً عن النصارى واليهود الذين لم يكن عددُهم قليلاً فى جزيرة العرب ،

من يعبدون إلهاً واحداً ، وسُمِّيَ هؤلاء بالحنفاء ، وكان محمد يُحِبّ هذا الاسم ، وليست عقيدة التوحيد، التي هي من أهمّ مبادئ القرآن ، كلّ ما عند الحنفاء ، بل قالوا أيضاً ، كما قال القرآن فيما بعد ، إن على الإنسان أن يُسَلِّمَ بقضاء الله وقَدَرِه تسليمَ إبراهيم حينما رأى ذبحَ ابنِه إسحق ، ولذا لم يكن من الخطأ إخبارُ محمدٍ في القرآن بوجود مسلمين قبل ظهوره .

ونشأ عن وَحْدة لغة العرب وحشرِ آلهتهم في الكعبة إمكانُ صَهْر عبادات هذه الآلهة وتحويلها إلى عبادة إلهٍ واحد ، ومما يَسَّر هذا الصَّهْر تكَلُّمُ عُبَّادِ هذه الآلهة الكثيرة بلغةٍ واحدة .

والحقُّ أن وقت جَمْعِ العرب على دين واحد كان قد حَلّ ، وهذا ما عَرَفه محمد ، وفي الوجه الذي عَرَفه فيه سِرُّ قوته ، وهو الذي لم يُفكِّر قَطُّ في إقامة دين جديد خلافاً لِما يقال أحياناً ، وهو الذي أنبأ الناس بأن الإله الواحد هو إلهُ باني الكعبة ، أي إلهُ إبراهيم الذي كان العرب يُجِلُّونه ويُعَظِّمونه،

وعلائمُ اتجاه العرب أيام ظهور محمد إلى الوَحدة السياسية والدينية كثيرةٌ ، وما حدث من الثَّوْرَة على الأوثان في عهد قياصرة الرومان حَدَث مثلُه في جزيرة العرب حيث ضَعُفَت المعتقداتُ القديمة وفَقَدَت الأصنامُ نفوذَها ودبَّ الهرم في آلهتها ، والآلهةُ مما يجب ألّا يَهْرَم .



الفصل الأول

محمد - نشوء الدولة العربية

١ — فتوة محمد

وُلِدَ محمد فى مكة فى اليوم السابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ م . وكان أبوه عبد الله ، الذى تُوُفِّىَ قبل ميلاده بشهرين ، ابن قطبٍ من أقطاب الكعبة الشهيرة ، وكانت أمُّه آمنةُ بنتَ زعيم إحدى القبائل .

ورأى العرب أن يَقْرِنوا ميلاد زعيمهم الأعظم بالآيات ، فرَوَوْا أن العالم اهتزَّ لوِلادته ، وأن نارَ المجوس المقدسة خَبَتْ ، وأن شياطين الشرِّ دُحِرَت من أعلى الشُّهُب ، وأنه تَصَدَّع من أبراج إيوان كِسْرَى « ملك الملوك » أربعةَ عشرَ برجاً إيذاناً بقرب انهيار دولة الفرس العظمى .

ورَضَع محمدٌ أُمَّه فى البُداءة ، ثم دفعت به إلى قبيلةٍ فى البادية وَفْقَ عادةٍ لا تزالُ تُصادَف حتى اليوم ، فلما بلغ الثالثة من سنيه ، ورأى أبواه من الرَّضاعة ما رأيا من الخوارق التى كانت تلازمه ، على زعم كتب السيرة ، خافا مَغَبَّةَ الأمر ، ولم يريدا بقاءه عندهما .

ولم تَلْبَث أمُّه أن ماتت وهو صبىٌّ تاركةً أمرَ رعايته لجده عبدالمطلب ، فغالَى جدُّه هذا فى الاهتمام به .

ولـكن ملائـكةَ الرحمة ، التى أرادت مُضِىَّ محمدٍ قُدُماً ، صَبَّتْ عليـه ، وهو صغيرٌ ، أنواعَ المصائب التى يُصاب بها الإنسانُ عادةً درجةً درجةً ، فقد مات جدُّه بعد وفاة آمنة بسنتين ، وكَفَلَه عمه التاجر الذى كان يسافر ، ولم يَجِد محمدٌ له غيرَ نفسِهِ حامياً بعد قليل .

وتقول القِصَّة إن محمداً سافر مع عمه إلى سورية مرةً ، وتَعَرَّفَ فى بُصْرَى براهبٍ نسطورىٍّ فى دَيْرٍ نصرانىٍّ ، وتلقى منه علْم التوراة .

ولما بلغ محمد العشرين من عمره اشترك فى حربٍ بين قريشٍ وقبيلةٍ أخرى ، فأظهر فيها ، كما قيل بصيغة التأكيد ، براعةً حربيةً تَجَلَّتْ فيه بعد زمن .

ونال محمد شهرةً فائقة ، وعُرِف برِفْقه وصدقه ، فلقّبته قريشٌ بالأمين .



٢٠ ـ منظر المدينة (من صورة فوتوغرافية)

وإذا أضيف إلى شهرته حُسْنُ صِحَّتِهِ عَلِمْنا السِّرَّ فى عطف خديجةَ ، التى كانت أرملةً غنيّةً ، عليه وتفويضِها أمورَ تجارتها إليه ، وتَهَيَّأَ له السفرُ إلى سورية بذلك والاجتماعُ مرةً ثانية بالراهب الذى

أطْلَعَه على علم التوراة سابقاً ، وتزوَّج بعد رجوعه من سورية ، وكان عمره خمساً وعشرين سنة، خديجةَ الأَيِّمَ المثْرِية البالغةَ من العمر أربعين سنة ، وخديجةُ هى أُولى زوجاته ، ولم يتزوج امرأةً أخرى فى حياتها .

ولم يُخْبرنا التاريخ عن سيرة محمد فى السنين الخمسَ عشرةَ التى انقضت بعد زواجه بخديجة ، ويُفْتَرض، وإن لم يَقُم دليل على ذلك ، أنه كان يُفكِّر فى أثنائها فى مبادئ دينه الذى سيكون زعيمَه ، ولم يَبْدُ منه فى تلك السنين أىُّ نفور من عبادات العرب مع ذلك ، كما أنه لم يقع فيها ما يدلُّ على تفكيره فى قلب تلك العبادات رأساً على عَقِب .

٢ — رسالة محمد

لم يتكلم محمد عن بعثته إلا بعد بلوغه الأربعين من عُمُره ، فبعد أن كان قائماً يتحَنَّث(١) على جبل حِرَاء ، الذى يبعد ثلاثة أميال من مكة ، مِثْلَ ما كان يفعل فى كلِّ سنة ، جاء خديجةَ مُمْتَقِعا وأخبرها ، كما روى مؤرخو العرب ، بأنه بينما كان نائماً فى الجبل إذ سَمِع جبريل يَقْرَع أذنيه بقوله: [(اقْرَأْ باسمِ ربِّكَ الذى خَلَقَ ، خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ ، اقْرَأْ وربُّكَ الأكْرَمُ الذى عَلَّمَ بالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ) يا محمد ! أنت رسولُ الله وأنا جبريلُ] ، كما أخبرها بأن هذا كلامٌ إلهىٌّ وبأنه يَشْعُر فى نفسه بقُوَّةٍ نبويَّة .

ولم تتردَّد المرأةُ المطيعة ، خديجة ، فى تصديق بعثة زوجها النبوية ، وانطلقت إلى ابن عمها وَرَقَة ، وكان على جانبٍ من العلم ، وقَصَّت عليه ما سَمِعَت ، فقال : « قُدُّوس ، والذى نفس وَرَقَة بيده لئن صَدَقْتِنِي يا خديجة لقد جاءه النَّامُوس الأكبر الذى كان يأتى موسى بن عِمْران ، وإنه لنبىُّ هذه الأمة » .

ورَجَعَت خديجة إلى محمد وأخبرته بقول وَرَقَةَ ، واطمأنَّت نفسه ، فطاف بالكعبة سبع مرات، ثم انصرف إلى منزله ، ثم تواتر الوحى عليه كما ذكر أبو الفداء .

---

(١) يتحنث : يتعبد .

ولم يُنْذِر محمد ، فى السنين الثلاث الأولى من بعثته ، غيرَ عشيرته الأقربين الذين كانوا ، على العموم، من ذوى النفوذ والوجاهة بسبب مقامهم وأعمارهم، فلما اطمأنَّ إلى جوارهم جَهَرَ بدعوته وأخذ يحمل على الإشراك الذى كان مركزهُ فى بيتِ آلهة جزيرة العرب المقدس، الكعبة ، كما ذكرنا ذلك .

ولم يُكْتَب له التوفيق فى بدء الأمر ، وكان الناس يَسْخَرون منه ، ولكن سُخْرِيَة سَدَنَةِ الكعبة ، قريشٍ ، لم تلبث أن انقلبت إلى غضبٍ على محمد وتهديدٍ له ولمن والاه بالقتل .

ولم يَفُلَّ ذلك من عزم محمد ، وقد قال، كما ذكر أبو الفداء : « لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ما تركت هذا الأمر » .

هنا لك فكَّرَت قريشٌ فى اضطهاد محمد ، ولم يمنعها من القضاء عليه غيرُ ماتعوَّدته الأُسَرُ العربية من إجارة أبنائها وما كانت تراه من تعريض قريش لأَثْآر عشيرةِ محمدٍ الأقربين الكثيرين .

ولذلك أمكن محمداً أن يواصل دعوته وأن يزيد عددَ أصحابه من غير أن يصيبه أذى كبير ، ثم هاجر هؤلاء الأصحاب إلى الحَبَشَة ، لِمَا لم يلاقوا من جِوَارٍ كما لاقَى محمدٌ .

وروى مؤرخو العرب أن ملك الحَبَشة سأل هؤلاء المهاجرين عن دينهم الجديد ، فأجابه جعفر ابنُ عمٍّ محمدٍ بما يأتى :

« كنا قوماً أهلَ جاهلية ، نَعْبُدُ الأصنام ، ونأكل المَيْتَة ، ونأتى الفواحشَ ، ونقطع الأرحام ونُسِيء الجوار ، ويأكل القويُّ منا الضعيفَ ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نَعْرِف نسبَه وصدقه وأمانته وعَفَافه ، فدعانا إلى الله لنُوَحِّده ونَعْبُده ونَخْلَع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصِلَة الرحم وحُسْن الجوار والكفِّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقولِ الزُّور وأكلِ مال اليتيم وقذف المُحْصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدَّقْناه وآمَنَّا به واتَّبَعْناه على ما جاء به من الله ، فعبَدْنا الله وحدَه لا نشرك به شيئاً ، وحرَّمْنا ما حُرِّم علينا وأحْلَلْنا ما أُحِلَّ لنا » .

وكان محمد يقابل ضروب الأذى والتعذيب بالصبر وسِعَة الصدر ، وكان فى كلِّ يوم يجتذب

أصحاباً آخرين ببلاغتــه ، والتجأ محمــد إلى عمــه أبى طالب ذى الجاه الكبير راغباً فى السلامة .

ومضت عشر سنين ومحمدٌ لم يَفْتُر ثانيةً عن الدعوة إلى دينه ، فلما بلغ الخمسين من عمره أصيب بمصيبتين كبيرتين : وفاةِ عمه أبى طالب الذى كان يحميه ، ووفاة زوجته خديجة التى كان أقرباؤها من الأعيان النافذين .

وتركَ النبيُّ مكةَ حين أضحى غيرَ قادرٍ على مقاومة أعدائه ، وذهب إلى الطائف القريبة ، ودافع أمام أهليها عن صدق بعثته ، ولم يُصْغوا إليه ، فاضطُرَّ إلى العودة .

ولم يلبث الأمرُ أن تبَدَّل ، ولم يلبث الزمن أن تَبَسَّم لمحمدٍ بعد عبوس ، فقد اغتنم محمدٌ موسمَ الحجِّ ودعا إلى دينه أناساً من اليمن كانوا ينظرون إلى مكة بعين الغَيْرة ، وكانوا ينتظرون ، كما شاع بينهم ، ظهورَ نَبِيٍّ ، وقد استهواهم حديثُ النبيِّ واعتقدوا أنه هو النبيُّ المنتظر ، وقد حَدَّثوا بذلك أهلَ يثرب التى كانت تأكلها الغَيْرة من مكة أيضاً ، وقد جاءه من هؤلاء رجالٌ كثيرٌ ليستمعوا إلى دينه البسيط الواضح ، فلم يَطْلُب منهم غيرَ الإيمان بإلهٍ واحدٍ وبالآخرة حيث يُجازَى الأشرار ويُكافَأُ الأبرار ، وغيرَ إطاعةِ أمرِ الله والصلاةِ صباحَ مساء مع الطهارة بالوضوء والتَّحَلِّى بجميع الفضائل والإقرارِ بأن محمداً رسولُ الله وإطاعتِه ، وقد أخذ هذا الدينُ بمجامع قلوبهم فآمنوا به وصَدَّقوه وبايعوه ، ثم انصرفوا للدعوة إلى دينه .

ولَمَّا عَلِمتْ قريشٌ ماأصاب محمدٌ من النجاح غَضِبوا وسَخِطُوا ، وهم الذين لم يستطيعوا أن يُغْضُوا على دينٍ جديد قد يَضُرُّ بمصالحهم ، فأتمروا بمحمد ليقتلوه .

ولم يعلم محمد بالأمر إلّا بعد أن حاصر المؤتمرون منزلَه ، واستطاع محمد ، مع ذلك أن يَتَسَلَّل ليلاً من بين المؤتمرين وأن يَتَفَلَّت من مطاردة قريش له وأن يَصِل هو وصديقه أبو بكر إلى يثربَ التى سُمِّيَت بالمدينة بعدئذٍ .

وكانت هذه الهجرة فى سنة ٦٢٢ م ، واتخذها العرب مبدأً لتاريخهم .

٣ — محمد بعد الهجرة

دَخَل محمدٌ المدينة دخولَ الظافرين ، وأظلَّ أصحابُه رأسَه بسُعُوف النخل ، وصارت الجوع ترتمى على قدميه .

وشرَع محمدٌ ، منذ وصوله إلى المدينة ، يُنَظِّم شؤون دينه ، وأخـذ القرآن ، الذى كان فى دور التـكوين ، يكتمل بفضل تواتر نزول الوحى على محمدٍ فى جميع الأحوال الصعبة خلا مبادئه الأساسية التى كانت قد عُرِضت .

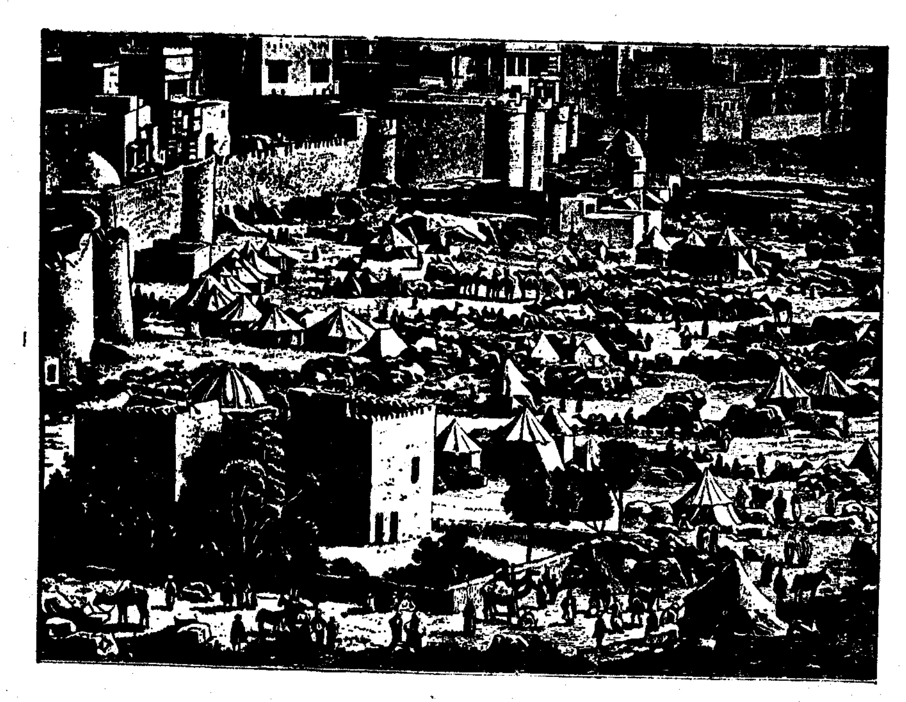
ووُضِعَت شعائر الإسلام بالتعاقب ، فسُنَّ الأَذان لدعوة المؤمنين إلى الصلوات الخمس ، وفُرِض صومُ شهر رمضان، أى الامتناعُ عن الطعام من الفجر إلى غروب الشمس شهراً كاملاً ، وفُرِضَت الزكاةُ التى يُعِين المسلمُ بها الدينَ الذى أقيم .

وصار محمد ، بعد وصوله إلى المدينة، يقود الغزَواتِ بنفسه ، أو بواسطة أحد أصحابه ، وغزوةُ بدر التى وقعت فى السنة الثانية من الهجرة هى أولى الغزَوات المُهِمَّة ، ففيها هَزَم جنودُ محمد ، الذين لم يزيدوا على ٣١٤ مقاتلا ، والذين لم يكن بينهم سوى ثلاثة فرسان، أعداءهم الذين كانوا ألفى مقاتل ، فـكانت هزيمةُ أعداء النبىّ التامَّةُ فى بدر فاتحةَ شهرته الحربية .

وتوالت الوقائع بين محمد وجيرانه ، وكانت كلُّ مصيبةٍ تُصِيبه يَعْقُبها انتصارٌ له فى الغالب، وكان يبدو رابطَ الجأش إذا ماهُزِم ، ومعتدلًا إذا مانُصِر ، وهو لم يَقْسُ على أعدائه إلا مرةً واحـدة حين أمر بأن تُضْرَبَ رقابُ سبعمئة معتقل يهودىّ خانوه .

وعَظُم شأن محمد فى عِدَّة سنين ، وأصبح لابدَّ له من فتح مكة حتى يَعُمَّ نفوذه ، ورأى أن يفاوض قبل امتشاق الحُسام وصولًا إلى هـذا الغرض ، فجاء إلى هـذا البلد المقدس ومعه ١٤٠٠ من أصحابه ، ولم يُـكْتب له دخوله ، وقد دُهِش رسلُ قريش من تعظيم أصحابه له ، فقال أحـدهم : « إنى جئت كسرى وقيصرَ فى ملـكهما فوالله مارأيت مَلِـكاً فى قومه مثلَ محمد فى أصحابه » . .

ورأى محمد بعد ذلك الإخفاق أن يُرَوِّح أصحابه،فَخَفَّ بهم إلى مدينة خيبر المُحَصَّنة المُهِمَّة الواقعة في شمال المدينة الغربيّ والبعيدةِ منها مَسيرَةَ خمسة أيام ، والتى كانت تقْطُن فيها قبائلُ يهودية ، والتى كانت مَقَرّ تجارة اليهود ، ففتحها عَنْوَةً ، وشَعَر محمدٌ بِدُنُوِّ أَجَله بعد خيبرَ ، وذلك أن زينبَ اليهوديةَ أهدت إليه شاةً مسمومة ، فأخذ منها قطعة ولاكها ، ثم لفَظها بعد أن ذاق طعماً غريباً فيها ، وقال : « تُخْبِرُني هذه الشاةُ أنها مسمومة » ، ثم دعا بزينبَ الإسرائيلية فاعترفت اعترافاً دقيقاً ونجت من العقاب حين قالت : « لقد بَلَغْتَ من قومي مالم يَخْفَ عليك ، فقلتُ : إن كان مَلِكاً استرحتُ منه وإن كان نَبِيًّا فسيُخْبَر » ، ولم تزل أَكْلَةُ خيبرَ تُعاوِده مع حماية الله له ، فتوفِّى بتأثيرها بعد ثلاث سنين كما روى المؤرخون .



٢١ ــ مخيم حجاج بالقرب من المدينة (من صورة فوتوغرافية)

ولما أَحَسَّ محمدٌ نُمُوَّ سلطانه عزَمَ على فتح مكة وألَّف جيشاً من عشرة آلاف محارب ، أى ألَّف جيشاً لم يَسْبِق أن جُمِعَ مثلُه ، وبَلَغ محمدٌ أسوارَ مكة ، وفتحها به من غير قتالٍ ، وذلك بقوة ماتَمَّ له من النفوذ .

وعامَل محمدٌ قريشاً ، الذين ظلُّوا أعداءً أشداء له عشرين سنة ، بلطف وحلم ، وأنقذهم من سَوْرة أصحابه بمشقةٍ ، مكتفياً بمسح صُوَر الكعبة وتطهيرها من الأصنام (الـ ٣٦٠) التي أمر بكَبِّها على وجوهها وظهورها وبجعل الكعبة معبداً إسلامياً ، وما انفكَّ هذا المعبد يكون بيتَ الإسلام .

ودخل أكثر القبائل المجاورة في الدين الإسلاميّ على أثر فتح مكة ، وحاولت بعضُ القبائل أن تقاوم ، فهُزِمَت شرَّ هزيمة .

وهنا لك بلغ محمدٌ أوْجَ مجده ، فعزم على غزو سورية التي كان يعتقد أن أصحابها الروم يهددون حدوده .

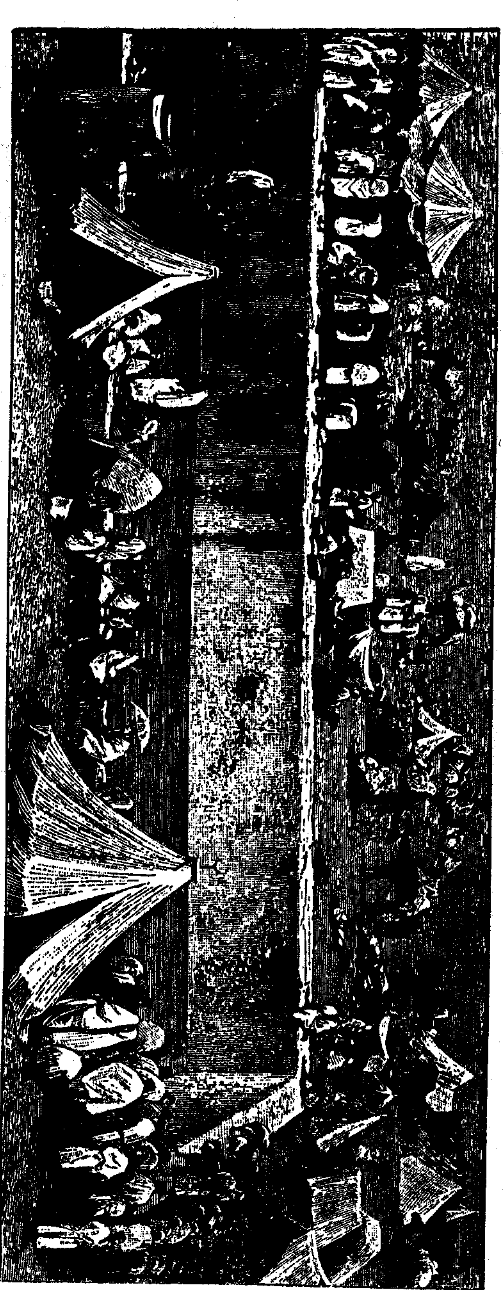
واستطاع محمدٌ أن يجمع جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألفَ مقاتلٍ ووُجِدَ عشرةُ آلافِ فارسٍ بين هؤلاء المقاتلين، ولما وَصَل إلى تبوكَ الواقعةِ في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق عَلِم أن الروم أقلعوا عن غرضهم، فلم يُتَابِع سَيْرَه ، ولم يَخْلُ زَحْفه هذا من فائدة ، إذ نَتَج عنه أن خَضَع للنبيِّ أمراء البلاد العربية المجاورة لمصر وسورية .

ورَغِب محمد في زيادة نفوذه حتى قبل فتح مكة ، فأرسل كُتُباً إلى جميع الجهات، وإلى أقوى ملوك الأرض أيضاً ، يدعو فيها إلى الإسلام ، وساق إلى ملك غسان الذي كان من عُمَّال ملوك الروم جيشاً صغيراً لم يُكتب له غيرُ الفرار ، وكانت هذه الغَزْوة ، وهي الوحيدةُ التي وقعت خارجَ جزيرة العرب في أثناء حياته ، ذاتَ نفع ، فلم يلبث العرب الذين وُكِل إليهم أمرُ حفظ الحدود أن انحازوا إلى النبيِّ حين أخَّر هرقلُ عنهم رواتبهم .

ولم تُثْمِر كُتُب محمد إلى الملوك ، وقد قصَّ التاريخ علينا أن رسولَ محمدٍ وَصَل إلى كِسْرَى حين كان السفراء يُمْضون معاهدة السِّلْم بين كِسْرى وهرقل ، وأنه عندما أُلْقِيَ كتابُ محمدٍ إلى كسرى ورأى فيه اسمَ محمدٍ قبل اسمه وَجَد ، وهو ملكُ الملوك ، أن هذا يتضمن أفضليةَ محمدٍ عليه وَفْقَ رأي الشرقيين مَزَّق الكتاب غاضباً قبل أن يقرأه وداسه تحت قدميه، وقال : « يكاتبني بهذا وهو عبدي »، وأن النبيَّ لَمَّا بلَغَه ذلك قال : « مَزَّق الله مُلكَه كما مَزَّق كتابي » .

وقد قُبِلَت دعوة النبيِّ ، فمَزَّق خلفاؤه مُلْكَ كِسرى كلَّ مُمَزَّق من فورِهم .

ولم يكتفِ كِسرى بتمزيق كتاب محمد ، بل بعث إلى عامله باليمن : « أن ابعثْ إليَّ هذا الرجل الذى يزْعُم فى الحجاز أنه نبيٌّ » ، ولـكن ابن كِسرى قتل أباه هذا قبل أن يقوم عامل اليمن بتنفيذ ذلك الأمر الصعب .



٢٢ – الوضوء من بئر زمزم المقدسة فى موسم الحج بمكة (من صورة فوتوغرافية)

ومَضَى على الهجرة عشرُ سنين، فخرج النبيُّ حاجًّا إلى مكة ، وكان هذا آخرَ حجٍ قام به،قال أبو الفداء : « ثم رَجَع إلى المدينة وبدأ به مرضه وهوفى بيت زينب بنت جحش،وكان يدور على نسائه حتى اشتدَّ مرضهوهو فى بيت ميمونة بنت الحارث ، فجمع نساءه واستأذنهن فى أن يُمَرَّض فى بيت إحداهن،فأَذِنَّ له فى أن يُمَرَّض فى بيت عائشة ، فانتقل إليه » .

وشَعَر محمد بدُنُوِّ أجله،وأرادأن يُوَدِّع قومَه فجمعهم وشكر لله توفيقَه لإكمال رسالته،ثم قال:« أيُّها الناس من كنتُ جَلَدْت له ظهرا فهذا ظهرى فَلْيَسْتَقِدْ منِّى ،ومن كنت شتمتُ له عِرْضاً فهذا عِرْضى فَلْيَسْتَقِدْ منه ، ومن أخذت له مالًا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يَخْشَ الشَّحْناء من قِبَلى ، فإنها ليست من شأنى » .

فادَّعَى عليه رجلٌ ثلاثةَ دراهم ، فأعطاه عِوَضَها ، ثم قال : « أَلَا إن فُضُوح الدنيا أَهْوَن من فُضُوح الآخرة » ، ثم صَلى على الذين قاتلوا معه ، ثم أُعِيدَ إلى بيت عائشة .

وأراد محمدٌ ، قبل وفاته بثلاثة أيام ، أن يُنقَلَ إلى المسجد ليُصَلِّى ، ولم يحتمل محمدٌ هذا النقْل ، فأمر بأن يقوم أبو بكر مقامَه ، فعَدَّ المسلمون هذا دليلاً على أن الخلافة لأبى بكر بعد النبيِّ .

وتوفِّىَ محمد بعد مرضٍ دام خمسةَ عشرَ يوماً ، وكانت وفاته فى السنة الحادية عشرة من الهجرة حين كان عمره ثلاثاً وستين سنة .

وكانت جزيرة العرب ، حتى عُمَان ، قد صَبَأت قبل وفاة محمد إلى الإسلام ، وقد رَضِى بالإسلام مشركو العرب ومسيحيوهم ويهودهم ، وأصبحوا بذلك أمةً واحدة ألهبتها المعتقدات الجديدة ، وغَدَت مستعدةً لفتح العالَم بعد زمنٍ قليل بقيادة زعمائها الماهرين .

٤ — حياة محمد وأخلاقه

تكلمنا عن حياة محمد العامة فيما تقدم ، والآن نبحث فى أخلاقه وحياته الخاصة ، مستعينين بأسانيد العرب وآثارهم ، قال المؤرخ العربىُّ أبو الفداء فى وصف محمد مستنداً إلى ما رُوِى عن أصحابه :

« وصَفَهُ علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضَخْمَ الرأس كثَّ اللحية شَثْنَ الكفيْن والقدميْن ضَخْمَ الكراديس مُشْرَبًا وَجْهُهُ حمرةً ، وقيل كان أدعجَ العينين سَبْطَ الشعر سَهلَ الخدين كأنَّ عُنقَهُ إبريقُ فِضَّة ، وقال أنس : لم يَشِنْهُ الله بالشيب ، كان فى مُقَدَّم لحيته عشرون شَعْرَةً بيضاء وفى مَفرَقِ رأسه شَعَراتٌ بيضٌ . . .

« وكان صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً ، يُكْثِرُ الذكر ويُقِلُّ اللغو ، دائمَ البِشْر ، مطيلَ الصمت ، لَيِّنَ الجانب ، سَهلَ الخُلُق ، وكان عنده القريب والبعيد والقوىّ والضعيف فى الحقِّ سواء ، وكان يُحِبُّ المساكين ، ولا يُحَقِّرُ فقيراً لفقره ، ولا يهاب مَلِكاً لمُلْكه ، وكان يُؤَلِّفُ قلوب أهل الشرف ، وكان يُؤَلِّف أصحابه ، ولا يُنَفِّرهم ، ويصابر من جالسه ولا يَحيد عنه حتى يكون الرجل هو المنصرف ، وما صافحه أحد فيتركَ يده حتى يكونَ ذلك الرجل هو الذى يترك يده ، وكذلك من قاومه لحاجةٍ يَقِف رسول الله صلى الله عليه وسلم معه حتى يكون الرجلُ هو المنصرف وكان يَتَفقَّد أصحابه ويسأل الناس عما فى الناس ، وكان يَحْلِب العنْز ويجلس على الأرض ، وكان

يَخْصِف النعل ويَرْقَع الثوب ويَلْبَس المخصوف والمرقوع ، عن أبى هريرة قال : « خَرَج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم يَشْبَع من خبز الشَّعير . وكان يأتى على آل محمد الشهرُ والشهران لا يُوقَد فى بيتٍ من بيوته نارٌ ، وكان قُوتهم التمر والماء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعْصِب على بطنه الحجرَ من الجوع » .

ويضاف إلى الوصف السابق مارواه مؤرخو العرب الآخرون من أن محمداً كان شديد الضبط لنفسه كثيرَ التفكير صَموتاً حازماً سليم الطَّوِيَّة عظيمَ العناية بنفسه مواظباً على خدمتها بالذات حتى بعد اغتنائه .

وكان محمدٌ صبوراً قادراً على احتمال المشاقّ ثابتاً بعيد الهمة لَيِّن الطبع وديعاً ، فذكر أحد خدمه أنه ظلّ عنده ثمانىَ عشرةَ سنة وأنه لم يُعَزِّره قطّ فى هذه المدة ولو مرة واحدة .

وكان محمد مقاتلاً ماهراً ، وكان لا يَهْرَب أمام المخاطر ولا يُلْقِى بيديه إلى التَّهْلُكة وكان يعمل مافى الطاقة لإنماء خُلُق الشجاعة والإقدام فى بنى قومه .

ويقال إن محمداً كان قليلَ التعليم ونُرجِّح ذلك ، وإلا لَوَجَدْتَ فى تأليف القرآن ترتيباً أكثرَ مما فيه ، ونرجح أيضاً أن محمداً لو كان عالماً ما أقام ديناً جديداً ، فالأُمِّيُّون وحدَهم هم الذين يَعْرِفون كيف يُدْرَك أمرُ الأُمِّيِّين .

وكان محمدٌ عظيمَ الفِطْنَة سواء أكان متعلماً أمْ غيرَ متعلم،وتُذَكِّرُنا حكمته بما عَزَتْه كتب اليهود إلى سليمان .

شاءت الأقدارُ أن يكون محمدٌ ، وقد كان شابًّا ، حَكَماً بين أقطاب قريش الذين كادوا يقتتلون، حين اختلفوا فى مَنْ يَضَعُ فى أحد جوانب الكعبة ذلك الحجرَ الأسود الشهير الذى كان العرب يعتقدون أن مَلَكاً جاء به من السماء إلى إبراهيم ، فقال محمدٌ الشابُّ أمام الخصوم الذين أوشكوا أن يلجأوا إلى السلاح : « هَلُمَّ إلىّ ثوباً » ، فأُتِىَ به فَنَشَره وأخذ الحجر الأسود ووضعه بيده فيه ، ثم قال : « لِيأْخُذ كبيرُ كلِّ قبيلة بطرفٍ من أطراف هذا الثوب » ، فحملوه جميعاً إلى مايحاذى موضعَ الحجر من البناء ، ثم تناوله محمد من الثوب ووضَعه فى موضعه ، وانحسم الخلاف .

وضَعْفُ محمد الوحيدُ هو حُبُّه الطارئُ للنساء ، وهو الذى اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره ، ولم يُخْف محمد حُبَّه للنساء فقد قال : « حُبِّبَ إلىَّ من دنياكم ثلاث : الطيبُ والنساء وجُعِلَت قُرَّةُ عينى فى الصلاة » .

ولم يبال محمد بسنِّ المرأة التى يتزوجها ، فتَزَوَّج عائشةَ وهى بنتُ عشر سنين ، وتَزَوَّج ميمونة وهى فى الحادية والخمسين من سِنِيها .

وأطْلَقَ محمدٌ العِنان لهذا الحبِّ ، حتى إنه رأى اتفاقاً زوجةَ ابنه بالتَّبَنِّى وهى عارية ، فوقع فى قلبه منها شىء ، فسَرَّحها بعلُها ليتزوجها محمد ، فاغتمَّ المسلمون ، فأُوحِىَ إلى محمد ، بواسطة جبريل الذى كان يتَّصِل به يومياً ، آياتٌ تُسَوِّغ ذلك ، وانقلب الانتقاد إلى سكوت .

وتزَوَّج محمدٌ أربعَ نِسْوَة فى سنة واحدة ، وبلغ عدد من تزوجهنَّ خمسَ عشرة امرأة ، واجتمع منهن إحدى عشرة فى وقتٍ واحد ، وقد يرى الأوربىُّ أن هذا العدد كبير ، ولكن الشرقيين لا يَرَوْن إفراطاً فيه ما رَأَوْا أنه يمكن النبىَّ أن يتزوج نساءً أكثر من أولئك لو سَمَح لنفسه أن يسير على غِرار الملك سليمان العظيم الذى هو أكثر ملوك التوراة حكمة .

ولم يَثْبُت ، تماماً ، وَفاء زوجات محمد الكاملُ له ، ويظهر أن محمداً لاقى من المكاره الزوجية ما يَنْدُر وجوده عند الشرقيين ويَكْثُر وقوعه لدى الأوربيين ، وكانت عائشة موضوعَ قلقٍ له على الخصوص ، وأصبحت ذاتَ مرةٍ موْضِع قالة سُوء فشَهِدَ بعصمتها جبريل المحبُّ للخير دائماً ، ودُوِّنَت شهادته فى هذه المسئلة الحَسَّاسة فى القرآن ، وحُظِر الشَّكُّ .

وعَرَف محمد فى آخر الأمر ، ما يَنْجُم عن زيادة عدد الزوجات من المفاسد والشرور ، وحَرَّم محمدٌ على المسلم أن يَجْمَعَ أكثر من أربع زوجات ، ولم يكن محمدٌ هو الذى أباح تعدد الزوجات بين العرب ، فتَعَدُّد الزوجات مما عَرَفَتْه أمم آسية على اختلاف مِلَلها ونِحَلها قبلَ النبىِّ ، ولا يزالُ تعدُّدُ الزوجات شائعاً بين هذه الأمم .

وكان محمدٌ قليلَ المسامحة نحو النساء مع مَيْله الشديد إليهن ، ومع أن محمداً لم يبلغ فى شِدَّتِه درجةَ رجال التوراة وصَفَهُنَّ فى القرآن بأنهن يُنَشَّأْن فى الحِلْيَة ويُخَاصِمْنَ من غير سبب ، وقال: « ما رأيتُ

من ناقصات عقل ودين أذهَبَ لِلُبِّ الرَّجُل الحازم من إحداكُنَّ » ، ورَوَى أبو الفداء أن محمداً ذكر أنه كَمُل من الرجال كثيرٌ ولم يَكْمُل من النساء سوى أربع : امرأةِ فرعون : آسية ، وأمِّ عيسى : مريم ، وزوجةِ النبيّ : خديجة ، وبنتِ النبيّ : فاطمة .

وأولادُ محمدٍ هم من زوجته الأولى خديجةَ التى هى ثالثةُ نساءِ العالم الأربع الكاملات ، وثلاثةُ ذكور من أولاده السبعة ماتوا صِغاراً ، ولم يَبْقَ له سوى أربع بناتٍ تُعَدُّ أشْهَرَهنَّ فاطمةُ .

ومات محمدٌ عن تسع أيامى ، وحَرُم عليهنَّ الزواج بعد وفاته احتراماً لحظْره مهما كان عَزَاؤُهن.

ولم يَقُل محمد إنه يأتى بالخوارق مع إيمانه برسالته ، وعَزَا المسلمون إليه خوارقَ كثيرةً مجاراةً للمعتقدات الشائعة القائلة إنه لا نُبُوَّةَ بغير خوارق ، وإليك قولَ مسيو كاز يميرسكى الوجيزَ :

« انشقَّ القمر بطلبه فِرْقَتَيْن على مَشْهَدٍ من الملأ ، ووَقَفَت الشمسُ بدعوته على الجبال والأرض حتى يؤدىَ علىٌّ صلاةَ العصر بعد أن أفاق النبىُّ من غَفْوَته ورأسُه على رُكْبَتَىْ علىٍ الذى أخبره بأنه لم يُؤَدِّها حِرْصاً على راحته ، وكان يظهر ، وهو المعتدلُ القامةِ ، أطولَ من كلِّ شخص يسير بجانبه ، وكان النور يَسْطَع من وجهه ، ويُشِـعُّ من بين أصابعه حين يضع يده على وجهه ، وكانت الحجارة والأشجار والنباتات تُسَلِّم عليـه وتنحنى أمامه ، وكانت الحيوانات ، كالظباء والذئاب والضِّباب ، تُكلِّمه ، وكانت الجِذْيانُ تخاطبه وهى مَشْوية ، وكان الجنُّ يخافونه ويؤمنون برسالته لِمَا له من السلطان المطلق عليهم ، وكان يَرُدُّ البصرَ للعُمْى ويَشْفِى المَرْضَى ويُحْيِى الموتى ، وأنزل من السماء مائدةً لعَلِىٍ وأُسْرَته حين جاعوا ، وأنبأ بأن ذرية فاطمة سينالها جَوْر وعُـدْوان ، وبأن مُلْك بنى أمية سيدوم ألف شهر ، فَحَدث كما أخْبَر ، إلخ . » .

وفضلاً عن ذلك فإنه أُثبِت للمسلمين الصالحين أنه أُسْرِىَ بمحمدٍ ليلاً على ظهر حيوانٍ خيالىٍ يُسَمَّى البراق ، والبراقُ دابة مُجَنَّحة لها وجهُ المرأة وجسمُ الفرس وذَنَب الطاووس ، ويعتقد المسلمون أن محمداً اخترق السماواتِ السبعَ فى مِعْراجه حتى بلغ عرش الإله .

وقيل إن محمداً كان مصاباً بالصَّرْع ، ولم أَجِد فى تواريخ العرب مايُبِيح القَطْع فى هذا الرأى ، وكلُّ

ما فى الأمر هو ماوراه معاصرو محمد ، وعائشةُ منهم ، من أنه كان إذا نزَل الوحىُ عليه اعتراه احتقانٌ وجهىٌّ فغطيطٌ فغَشَيان ، وإذا عدوت هَوَس محمدٍ(١) ، كـكلٍّ مفتون ، وَجَدْته حصيفاً سليمَ الفـكر .

٢٣ — ضريح فاطمة بنت محمد فى المقبرة الكبرى بدمشق (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ويجب عَدُّ محمـــدٍ من فصيلة المتهوسين(١) من الناحية العلمية كما هو واضح ، وذلك كأكثر مؤسسى الدِّيانات ، ولا كبيرَ أهمية لذلك ، فأولو الهوس وحدهم ، لا ذوو المزاج البـارد من المفـكرين ، هم الذين يُنْشِئون الدِّيانات ويقودون الناس ، ومتى يُبْحث فى عمـل المفتونين فى العـالم يُعْتَرف بأنه عظيم ، وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول وأثاروا الجموع وقادوا البشر ، ولو كان العقل ، لا الهوَسُ ، هو الذى يسود العـالم لـكان للتـاريخ مجرًى آخر .

ولا يَقِف أىُّ قولٍ بخداع محمدٍ ثانيةً أمام سلطان النقـــد كما يلوح لى ، ومحمدٌ كان يجِد فى هَوَسه(١) ما يَحْفِزه إلى اقتحام كلِّ عائق ، ويجب على من يَوَدُّ أن يَفْرِض إيمانَه على الآخرين أن يؤمن بنفسه

(١) هذه العبارات من نبزات المستشرقين ، ولا تتفق مع كرامة النبى محمد ، ولا شاهد لها من الواقع .

قبل كلِّ شيء ، ومحمد كان يعتقد أنه مؤيد من الله ، فيتقوّى ، ولا يرْتدُّ أمام أيِّ مانع .

وجَمع محمدٌ قبل وفاته كلمةَ العرب، وخلَق منهم أمةً واحدة خاضعة لدين واحد مطيعةً لزعيم واحد، فكانت فى ذلك آيتُه الكبرى .

ومن العبث أن نبحَثَ فى هل كانت هذه النتائج التى بلَغها محمد مما توخّاه قبْلاً ، ونحن إذْ لم نُؤتَ سوى علمٍ قليل عن عِلَل ارتباط الحوادث التى نُذْعن لحكمها طَوْعاً أو كَرْهاً ترانا مضطرين إلى مجاراة المؤرخين فى رأيهم أن مابلغه أعاظم الرجال ، ومنهم محمد ، من النتائج هو مما كانوا يَسْعَوْن إلى تحقيقه ، ورأيٌ مثل هذا ، وإن كان لايُسَلَّم به على عِلاَّته ، لانخوضُ فى نَقْضِه لِمَا فى ذلك من الخروج عن موضوع هذا الكتاب .

ومهما يكن من أمرٍ فإن مما لا ريب فيه أن محمداً أصاب فى بلاد العرب نتائجَ لم تُصِب مثلَها جميعُ الدِّيانات التى ظهرت قبل الإسلام ، ومنها اليهودية والنصرانية ، ولذلك كان فضلُ محمدٍ على العرب عظيماً ، ويتجلّى هذا الفضلُ العظيم فى جواب رُسُل عمر بن الخطاب إلى كِسْرى حين سألهم عن أعمال النبيّ ، قال هؤلاء الرسل :

« فأما ماذكرتَ من سوء حالنا فما كان أحدٌ أسوأَ حالاً منا ، وأما جوعنا فلم يكن يُشْبِه الجوع، كنا نأكلُ الخنافس والجِعْلان والعقارب والحيَّات ، فكنا نرى ذلك طعامَنا ، وأما المنازلُ فكانت ظَهْرَ الأرض ، ولم نَلْبَس إلَّا ماغزَلْنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، كان دِينُنا أن يقْتُلَ بعضُنا بعضاً ويُغِير بعضنا على بعض ، وكان أحدُنا يَدْفِن ابنته وهى حَيَّةٌ كَرَاهِيَةَ أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالُنا قبلَ اليوم على ماذكرنا لك ، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نَعْرِف نَسَبَه ونَعْرِف وجهه ومولده ، فأرضُه خيرُ أرضنا وحَسَبُه خيرُ أحسابنا ، وبيتُه أعظمُ بيوتنا ، وقبيلتُه خيرُ قبائلنا ، فقذف الله فى قلوبنا التصديقَ له ، واتِّباعه ، فما قال لنا فهو قولُ الله ، وما أَمَرَنا فهو أمر الله ، فقال لنا إن ربَّكم يقول : إنى أنا الله وحدى لا شريك لى ، كنتُ إذْ لم يكن شىءٌ وكلُّ شىءٍ هالكٌ إلا وجهي ، وأنا خلقت كلَّ شيء وإلىَّ يصير كلُّ شيء ، وإن رحمتى أَدْرَكَتْكم فبعثت إليكم

هذا الرجل لأَدُلَّـكم على السبيل التى بها أُنْجِيكم بعد الموت من عذابى ولِأُحِلَّـكم دارى دَارَ السلام ، فنشهد عليه أنه جاء بالحقِّ من عند الحقِّ » .

وإذا ما قِيسَت قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عَرَفهم التاريخ ، وأَخَذ بعض علمـاء الغرب يُنْصِفُونَ محمـداً مع أن التعصب الدينىّ أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله ، قال العلامة بارتلمى سنت هيلر : « كان محمدٌ أكثرَ عرب زمانه ذكاء وأشدَّهم تديناً وأعظَمَهم رأفةً ، ونال محمـدٌ سلطانَه الـكبيرَ بفضل تَفَوُّقه عليهم ، ونَعُدّ دينَه الذى دَعا النـاسَ إلى اعتقاده جزيلَ النِّعَم على جميع الشعوب التى اعتنقته » .

فما سرُّ هـذا الدينِ الذى خضع لحـكمه ملايين من الناس ؟ وما الحقائق التى أرشد العالمَ إليها ؟ ذلك ما نبحث فيه عَمَّا قليل .

الفصل الثاني

القرآن

١ — خلاصة القرآن

القرآنُ هو كتابُ المسلمين المقدس ودستورُهم الدينيُّ والمدنيُّ والسياسيّ الناظمُ لسيرهم ، وهذا الكتابُ المقدس قليلُ الارتباط مع أنه أُنْزِل وحياً من الله على محمد ، وأسلوبُ هذا الكتاب ، وإن كان جديراً بالذكر أحياناً ، خال من الترتيب فاقدُ السِّياق كثيراً ، ويَسْهُل تفسير هذا عند النظر إلى كيفية تأليفه ، فهو قد كُتِب تبعاً لمقتضيات الزمن بالحقيقة ، فإذا ما اعترضت محمداً مُعْضِلَةٌ أتاه جبريل بوحيٍ جديدٍ حلًّا لها ودُوِّنَ ذلك في القرآن .

ولم يُجْمَع القرآنُ نهائيًا إلا بعد وفاة محمد ، وبيانُ الأمر أن محمداً كان يَتَلَقَّى في حياته عِدَّة نصوصٍ عن الأمر الواحد ، فلما انقضت عِدَّة سنين على وفاته حَمَل خليفتُه الرابع[1] على قبول نَصّ نهائي للقرآن مقابلاً بين ما جمعه أصحاب الرسول .

والقرآن مؤلَّفٌ من مئة وأربعَ عشرةَ سورة ، وكلُّ سورةٍ مؤلفةٌ من آيات ، ومحمدٌ هو الذي يَتَحَدَّث فيها باسم الله على الدوام .

ويَعُدُّ العربُ القرآنَ أفصحَ كتابٍ عَرَفه الإنسان ، ومع ما في هذا من مبالغةٍ شرقية نعترف بأن في القرآن آياتٍ موزونةً رائعةً لم يَسْبِقه إليها كتابٌ دينيٌّ آخر .

وتَقرُب فكرة الكَوْن الفلسفية في القرآن مما في الدِّيانتين الساميَّتَين العظيمتين اللتين ظهرتا قبل الإسلام ، أي اليهودية والنصرانية ، وزُعِم أن العنعنات الآرِيةَ الفارسيةَ أو الهندية ذات نصيبٍ ظاهر في النصرانية والإسلام ، ونحن نرى النفوذ الآريَّ في الإسلام ضعيفاً جدًّا .

---

(١) الصحيح أن الخليفة الثالث هو الذي فعل ذلك ، فكان عزوه إلى الخليفة الرابع سهواً من المؤلف (المترجم) .

ولم يكن محمد فيلسوفاً كبيراً ، أى من المفكرين المُتَبَحِّرين الذين يقاسون بمؤسسى البرهمية والبُدَّهِيَّة، فهو لم يُنكِرْ سببَ الأسباب كما أنكره البُدَّهِيُّونَ، ولم يَقُلْ مِثْلَهم بأن الكَوْن موجودٌ بالضرورة ذو انحلالٍ وتركيبٍ دائمَيْن ، ولم يتصف بنصف ما عند مؤلفى كتب البراهمة المقدسة من الشكِّ ولم يُدْخِل إلى القرآنِ مثلَ التأملاتِ الآتية التى تجدها فى كتب الويدا : « من أين أتى هذا الكَوْن ؟ أهو من صنع خالق أم لا ؟ يَعْلَمُ ذلك من ينظر من فوق الفلك ، وقد لا يعلم[1] » .

ولكن أقوالاً مجردة مثل هذه لا تنفع غيرَ الفلاسفة ، ومحمدٌ لم يزْعُم أنه يكتب من أجل الفلاسفة، وكان من مقاصد محمد أن يقيم ديناً سهلاً يستمرئه قومه ، وقد وُفِّق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم ، ولم يُفَكِّر محمدٌ فى إبداع دين جديد قَطُّ ، وهو الذى أعلن أنه يسير على غِرار من تقدمه من أنبياء بنى إسرائيل من إبرٰهيم إلى عيسى قائلاً إن ما أوحى إليهم صحيحٌ ، والحقُّ أن اليهودية والنصرانية والإسلام فروعٌ ثلاثة لأصل واحد ، وأنها ذات قُرْبَى وشيجة .

والدينُ الذى دعا النبيُّ إليه الناسَ سهلٌ جداً ، وقد عَرَّفه محمدٌ بالكلمات القليلة الآتية حين أتاه جبريل بزِيِّ العرب وسأله عنه، وهى: « أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتُؤْتِيَ الزكاة وتصومَ رمضان وتَحُجَّ البيتَ لمن استطاع إليه سبيلاً » ، وهذا التعريف الذى قَبِله جبريلُ تامٌّ كما هو واضح .

ويُلَخِّص المسلمُ الإسلامَ فى هاتين الكلمتين اللتين لا يُنْكَر إيجازُها ، وهما :

« لا إلٰه إلا الله محمدٌ رسول الله » .

وإننى أنقل من القرآن بضعَ آياتٍ فى كلِّ موضوع مُهِمّ ، وأرتِّبُ ما نقلته من آياتِه على حسب الموضوعات نظراً إلى أن ما ورد من الآيات فى الموضوع الواحد مبعثرٌ فيه اتفاقاً .

---

(١) أحيل القارئ الذى يرغب فى الوقوف على فلسفة بدهة وتاريخ تطور الأديان إلى المجلد الثانى من كتابى : « الإنسان والمجتمعات » ، ففيه يجد أن البدهية ، التى لها من الأتباع ما للأديان الأخرى مجتمعة ، قائمة على إنكار كل ألوهية إنكاراً تاماً ، وأنها تدعو الناس، مع ذلك ، إلى التحلى بأطيب الأخلاق، كما اعترف به أحد علماء النصرانية المتشددين المشهورين مكس موللر الذى قال: « دعا إلى الأخلاق الفاضلة ، قبل ظهور المسيح ، أناس اعتقدوا أن الآلهة أشباح باطلة فلم يقيموا هيكلا حتى للرب غير المعروف » ..

[لقد رجع المؤلف عن رأيه هذا فى كتابه « حضارات الهند » الذى ترجمناه إلى العربية ، فقال بعد أن ساح فى الهند إن البدهية تقول بتعدد الآلهة] (المترجم) .

وإننى أبدأُ بما جاء فى القرآن عن مصدره وعن قُرْباه الوشيجةِ بالكتب المقدسة التى أتت قبله :

« . . . لِكلِّ أجلٍ كِتابٌ » (من سورة الرَّعْد) .

« ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيه هُدًى للمتَّقين » (من سورة البقرة) .

« وَ إنَّهُ لتَنزيلُ ربِّ العالَمين ، نزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ من المُنذِرين ، بِلِسَانٍ عربىٍّ مُبِين ، وَ إنه لَفِى زُبُرِ الأوَّلين » (من سورة الشعراء) .

« كَلاَّ إنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شاءَ ذَكَرَه ، فى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ، بِأيْدِى سَفَرَةٍ ، كِرَامٍ بَرَرَة » (من سورة عبس) .

« فلا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ [1] ، الجَوَارِ الكُنَّسِ [2] ، وَاللَّيْلِ إذا عَسْعَس [3] ، وَالصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ ، إنه لَقَوْلُ رسولٍ كريمٍ ، ذى قُوَّةٍ عِندَ ذِى العَرْشِ مَكِينٍ ، مُطَاعٍ ثَمَّ أمين » (من سورة التكوير) .

« وَمِنْ قَبْلِهِ كتابُ موسى إماماً وَرَحْمَةً ، وهذا كتابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الذين ظَلَموا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِين » (من سورة الأحْقَاف) .

« شَرَعَ لكم من الدِّينِ ماوَصَّى به نُوحاً والذى أوْحَيْنَا إليك وما وَصَّيْنَا به إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وعيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فيه » (من سورة الشُّورَى) .

وإلٰهُ محمدٍ واحدٌ فى السماء . واسمع تعريفَ النبىّ له :

« بَدِيعُ السماوات والأرض ، وإذا قَضَى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون » (من سورة البقرة) .

« اللهُ لا إلٰه إلَّا هُوَ الحىُّ القَيُّوم » (من سورة البقرة) .

« شَهِدَ اللهُ أنه لا إلٰهَ إلَّا هُوَ والملائكةُ وأُولُوا العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ ، لا إلٰهَ إلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيم » (من سورة آل عمران) .

---

(١) الخنس : الكواكب السيارة التى ترجع إلى أول البرج ، وسميت خنسا لتأخرها . (٢) الجوار الكنس : الكواكب السيارة الغيب ؛ لأنها تجرى مع الشمس والقمر وترجع إلى أول البرج حتى تختفى تحت ضوء الشمس .

(٣) عسعس : أقبل بظلامه أو أدبر ، وهو المناسب لقوله (إذا تنفس) .

« إن فى خَلْقِ السَّماوَاتِ والأَرضِ واختلافِ الليـلِ والنهارِ والفُلْكِ التى تجْرِى فى البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ الناسَ وما أَنزَلَ اللهُ من السَّماَء من ماءٍ فَأَحْيَا به الأرضَ بعد مَوْتِها وَ بَثَّ فيها من كلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماَءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعْقِـلُون » .

(من سورة البقرة) .

وإلٰهُ القرآنِ الواحدُ ، وإن لم يكن شديداً شِدَّةَ إلٰه التوراة ، جبَّارٌ عزيزٌ ذو انتقام يفعَلُ مايشاء ولا يُسْأَل عمَّا يفْعل . جاء فى القرآن :

« . . . وإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ للناسِ على ظُلْمهم ، وإن رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَاب » .

(من سورة الرعد) .

« وَالفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ، والشَّفْعِ والوَتْرِ (١) والليـلِ إذَا يَسْرِ ، هَلْ فى ذلك قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ (٢) ، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذاتِ العِمادِ ، التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فى البلاد ، وثمُودَ الذين جابُوا (٣) الصَّخْرَ بالوادِ ، وفِرْعَوْنَ ذى الأَوْتاد ، الذين طَغَوْا فى البِلادِ ، فَأَكْثَرُوا فيها الفَسَاد ، فَصَبَّ عليهم رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ إن رَبَّكَ لَبِالْمِرْصاد » (من سورة الفجر) .

« إِنَّ الذين كَفرُوا بآياتِ اللهِ لهم عَذابٌ شَدِيدٌ ، واللهُ عَزِيزٌ ذو انْتِقام » .

(من سورة آل عمران) .

« وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَىٰ وهى ظالِمَةٌ إن أَخْذَه أَلِيمٌ شَدِيد » (من سورة هود).

« هو الذى يُرِيكم البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ ، ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والملائكةُ مِنْ خِيفَتِه وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فيُصِيبُ بها من يَشاَء ، وهم يُجادِلُونَ فى الله ، وهو شَدِيدُ المِحَال »

(من سورة الرعد) .

وما جاء فى القرآن من نصٍّ على خَلْق السماوات والأرض فى ستة أيام وخَلْقِ آدم والجنةِ وهبوطِ آدم منها ويومِ الحساب مقتبسٌ من التوراة .

وإليك وصفَ محمدٍ ليوم الحساب :

---

(١) الشفع : ليالى ذى الحجة العشر ، ووترها عرفة ، والشفع هو الزوج، والوتر هو الفرد . (٢) الحجر : العقل.
(٣) جابوا الصخر : قطعوه .

« فإذا جاءت الصَّاخَّةُ[١] ، يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ من أخيه وأُمِّه وأَبيه وصاحِبَتِه وبَنِيه » .
(من سورة عَبَسَ) .

« إذا السَّماءُ انفَطَرَتْ ، وإذا الكَواكِبُ انتَثَرَتْ ، وإذا البِحارُ فُجِّرَتْ ، وإذا القُبُورُ بُعْثِرَتْ ، عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ » (من سورة الانفطار) .

« والشمسِ وضُحاها والقَمَرِ إذا تَلَاها ، والنَّهارِ إذا جَلَّاها ، واللَّيْلِ إذا يَغْشاها ، والسَّماءِ وَما بَنَاها ، والأرضِ وما طَحَاها[٢] ، ونَفْسٍ وما سَوَّاها ، فأَلْهَمَهَا فُجُورَها وتَقْوَاها ، قد أَفْلَحَ من زَكَّاها وقد خابَ مَنْ دَسَّاهَا[٣] » (من سورة الشمس)

« يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمٰواتُ وَبَرَزُا لله الواحدِ القَهَّارِ ، وتَرَى المُجرِمينَ يومئذٍ مُقَرَّنينَ فى الأَصْفاد[٤] » (من سورة إبرٰهيم) .

« وَنُفِخَ فى الصُّورِ[٥] فصَعِقَ مَنْ فى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فى الأرضِ إلَّا مَنْ شاء الله ثم نُفِخَ فيه أُخرى فإذا هم قيامٌ يَنظُرُون ، وأَشرَقَت الأرضُ بنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الكتابُ وَجِيءَ بالنَّبِيِّينَ والشهدَاءِ وقُضِيَ بينهم بالحَقِّ وهُمْ لا يُظلَمُون ، وَوُفِّيَتْ كلُّ نَفْس ما عَمِلَتْ وهو أَعْلَمُ بما يفعلون ، وَسِيقَ الذين كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حتى إذا جاءوها فُتِحَتْ أبوابُها وقال لهم خَزَنَتُها أَلَمْ يأْتِكُم رُسُلٌ منكم يَتْلُون عليكم آياتِ رَبِّكم ويُنْذِرُونكم لِقاءَ يَوْمِكم هذا قالوا بَلَى ولكِنْ حَقَّتْ كلمةُ العذابِ على الكافرين ، قِيلَ ادْخُلُوا أبوابَ جَهَنَّمَ خالدين فيها فبِئْسَ مَثْوَى المتكبِّرين ، وَسِيقَ الذين اتَّقَوا رَبَّهم إلى الجَنَّةِ زُمَراً حتى إذا جاءوها وفُتِحَتْ أَبْوابُها وقال لهم خَزَنَتُها سَلَامٌ عليكم طِبْتُم فادخلوها خالدين » (من سورة الزمر) .

وفى النار ضروبُ العذاب كما يرى محمد ، ومن ذلك :

وَسُقُوا ماءً حَمِيماً[٦] فقَطَّعَ أَمْعاءهم » (من سورة محمد) .

---

(١) الصاخة : القيامة ، لأنها تصخ الآذان أى تصمها . (٢) طحاها : بسطها . (٣) دساها : أخفاها .
(٤) مقرنين فى الأصفاد : مشدودين فى القيود . (٥) الصور : البوق .
(٦) الحميم : الماء الحار لا يستساغ شربه .

« وَأَصْحَابُ الشِّمالِ ما أصحاب الشِّمالِ ، فى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وظلّ من يَحْمُومٍ[١] » .
(من سورة الواقعة) .

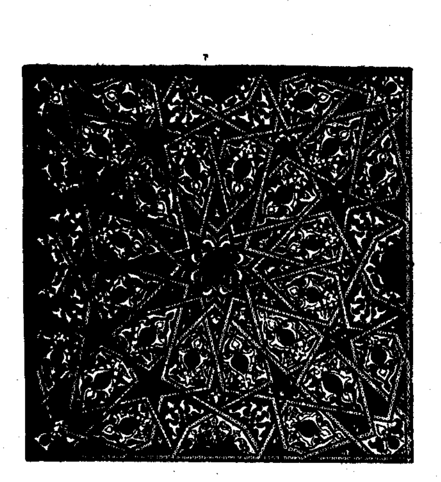
« كَلَّا والقمرِ والليلِ إذْ أدْبَرَ والصُّبْحِ إذا أَسْفَرَ إنها لإِحْدى الكُبَر » (من سورة المدثر)

وفى الجنة ما تَشْتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعينُ ، ومن ذلك :

« مَثَلُ الجَنَّةِ التى وُعِدَ المُتَّقُونَ فيها أنهارٌ من ماء غَيْرِ آسِنٍ[٢] وأنهارٌ من لبَنٍ لم يَتَغيرْ طَعْمُهُ وأنهارٌ من خَمْرٍ لَذَّةٍ للشارِبين » (من سورة محمد) .

وَأَقْبَلَ بعضُهم عَلَى بعضٍ يتساءلون ، قالوا إنا كنَّا قبل فى أهلنا مشفِقِين ، فمَنَّ الله علينا وَوَقانا عَذَابَ السَّمُوم ، إنا كُنَّا من قَبْلُ نَدْعُوه إنه هو البَرُّ الرَّحِيم » (من سورة الطور) .

« إن المتّقين فى جنَّاتٍ وَنَهَر » (من سورة القمر) .


٢٤ ـ من زخارف مصحف قديم فى القاهرة
(من إيبر)

« متّكِئين على فُرُشٍ بطائنُها من إسْتَبْرَق[٣] وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دانٍ ، فبأىِّ آلاء ربِّكُما تكذِّبان ، فيهن قاصراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهنَّ[٤] إنس قبلهمْ ولا جانٌّ ، فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان ، كأنهُنَّ الياقوتُ والمَرْجَان ، فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان ، هَلْ جزاء الإحسان إلَّا الإحسان ، فبأىِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان ، ومِنْ دُونِهما جنَّتان ، فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان ، مُدْهامَّتان[٥] ، فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان ، فيهما عينانِ نَضَّاختان[٦] ، فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان ، فيهما فاكهةٌ ونَخْل ورُمَّان ، فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان ، فيهنَّ خيْراتٌ حِسان ، فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان » (من سورة الرحمن) .

« وأصحابُ اليَمِينِ ما أصحابُ اليَمِين ، فى سِدْرٍ مَخْضُودٍ[٧] وطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وظِلٍّ مَمْدُود

(١) يحموم : أسود ، أى دخان مكفهر . (٢) غير آسن : غير متغير الرائحة والطعم . (٣) إستبرق : الديباج الثخين النسيج ، والديباج ما كان سداه ولحمته حريراً . (٤) لم يطمثهن : لم يمسسهن . (٥) مدهامتان : سوداوان . (٦) نضاختان : فوارتان . (٧) مخضود : لا شوك فيه .

وماء مسكوب وفاكِهةٍ كثيرةٍ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ ، وفُرُشٍ مَرْفوعةٍ » (من سورة الواقعة) .

وكان محمدٌ كثيرَ المسامحة لليهود والنصارى خلافاً لِمَا يُظَنُّ ، لا للملحدين ولا للمشركين الذين يُوصِي بمقاتلتهم . وإليك قولَه عنهم :

« إن شرَّ الدَّوابِّ عندَ الله الذين كَفَرُوا فهم لا يؤمنون » (من سورة الأنفال) .

« إن الذين لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطْمَأَنُّوا بها والذين هُمْ عن آياتِنا غافلون ، أولئك مَأْواهم النارُ بما كانوا يَكْسِبُونَ » (من سورة يونس) .

« لَا إِكْرَاهَ فى الدِّين قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِن الغَيِّ » (من سورة البقرة) .

« وقَفَّيْنَا [1] على آثارِهم بعيسى بن مريمَ مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيْهِ من التوراةِ وآتَيْناه الإنجيلَ فيه هُدًى ونُورٌ ومُصَدِّقاً لِما بينَ يَدَيْهِ من التوراةِ وهُدًى ومَوْعِظَةً للمُتَّقِينَ ، ولْيحكُمْ أَهلُ الإنجيلِ بما أَنزلَ اللهُ فيه ، وَمَنْ لَمْ يَحكُمْ بما أَنزلَ الله فأُولئكَ هم الفاسقون » (من سورة المائدة) .

٢٥ — اسم محمد كما جاء فى كتابة قديمة بجامع ابن طولون أظهرها مسيو مارسل .

« واصْبِرْ على مايقولون واهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً » (من سورة المزمل) .

« لِكلِّ أمةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوه فلا يُنازِعُنَّكَ فى الأَمْرِ وادْعُ إلى رَبِّكَ إنكَ لَعلَى هُدًى مستقيم » (من سورة الحج) .

« إن الذين آمنوا والذين هَادُوا والنَّصَارَىٰ والصَّابِئِين مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالحاً فلَهُمْ أَجْرُهُمْ عندَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عليهم ولا هُمْ يَحزَنُون » (من سورة البقرة) .

« وإنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتاب لَمَنْ يُؤْمِنُ باللهِ وما أُنزِل إليكم ومَا أُنزِلَ إليهم خاشِعِين لِلهِ لا يَشْتَرُون بآياتِ اللهِ ثمناً قَليلاً أُولئكَ لهم أَجْرُهم عندَ رَبِّهِم إن الله سَرِيع الحساب »

(من سورة آل عمران) .

« ولا تُجادِلوا أَهْلَ الكِتابِ إلا بالتى هِيَ أَحْسَنُ إلَّا الذين ظَلَمُوا منهُمْ وقولوا آمنَّا بالذى أُنزِلَ إلينا وأُنزِلَ إليكم وإلٰهُنا وإلٰهُكم واحدٌ ونحن له مُسْلِمُون » (من سورة العنكبوت) .

(١) قفينا على آثارهم : أتبعنا وأرسلنا .

ولم أجِد فى القرآن مايُعاب به الشرقيون ، وما يُمكِنُ أن يُعاب به كذلك ، كثيرٌ من العلماء المعاصرين من الجبرية المزعومة فيُجوِّز أن يُعَدَّ به محمدٌ أكثرَ جبريةً مما فى التوراة . وإليك ، مع ذلك، ما استطعت أن أجِدَه جوهريًّا فى القرآن حَوْلَ هذه المسألة :

« وما تَشَاءُونَ إلَّا أن يَشاءَ اللهُ رَبُّ العالَمين » (من سورة التكوير) .

« يقولونَ لَوْ كان لنا منَ الأمرِ شيءٌ ماقُتِلْنا هٰهُنا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فى بُيُوتِكُم لبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مضاجعهم » (من سورة آل عمران) .

« هُوَ الذى خَلَقَكُم منْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وأَجَلٌ مُسَمًّى عنده ثم أنتم تَمْتَرُون »
(من سورة الأنعام) .

« ولكلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فإذا جاء أَجَلُهم لا يَسْتَأْخِرُون ساعةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ »
(من سورة الأعراف) .

« ماتَسْبِقُ منْ أُمَّةٍ أَجَلَها وما يَسْتَأْخِرُون » (من سورة المؤمنون) .

« لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذَرَّةٍ فى السماواتِ ولا فى الأرضِ ولا أصغَرُ منْ ذلك ولا أكْبَرُ إلا فى كتابٍ مُبينٍ » (من سورة سبأ) .

« وما تَحْمِلُ من أُنثَىٰ ولا تَضَعُ إلَّا بِعِلْمِهِ ، وما يُعَمَّرُ منْ مُعَمَّرٍ ولا يُنقَصُ من عُمُرِه إلا فى كتاب » (من سورة فاطر) .

« إن أَجَلَ اللهِ إذا جاء لا يُؤَخَّرُ لو كنتم تعلمون » (من سورة نوح) .

« ما أَصاب من مُصِيبةٍ إلَّا بإِذْنِ الله ، ومَنْ يُؤْمِنْ بالله يَهْدِ قَلْبَه » (من سورة التغابن).

« ومَنْ أحسنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلهِ وهو مُحْسِنٌ واتَّبَعَ ملَّةَ إبراهيم حَنيفاً » .
(من سورة النساء) .

٢ — فلسفة القرآن ـ انتشاره فى العالم

إذا رَجَعْنا القرآن إلى عقائده الرئيسية أمكننا عَدُّ الإسلامِ صورةً مُبَسَّطةً عن النصرانية ، ومع ذلك فإن الإسلام يختلف عن النصرانية فى كثير من الأصول، ولاسيما فى التوحيد المطلق الذى هو أصلٌ أساسىٌ ، وذلك أن الإله الواحد ، الذى دَعا إليه الإسلامُ ، مهيمنٌ على كلِّ شىء ولا تَحُفُّ به الملائكة والقديسون وغيرُهم ممن يُفرَض تقديسهم . وللإسلام وحدَه أن يُباهِىَ بأنه أولُ دينٍ أدخل التوحيدَ إلى العالم .

وتُشْتَقُّ سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض ، وفى هذه السهولة سِرُّ قوة الإسلام ، والإسلامُ ، وإدراكُه سَهْلٌ ، خالٍ مما نراه فى الأديان الأخرى ويَأْباه الذوق السليم ، غالباً ، من المناقضات والغوامض ، ولا شىء أكثرُ وضوحاً وأقلُّ غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إلهٍ واحد وبمساواةِ جميع الناس أمام الله وببضعةِ فروضٍ يَدْخُل الجنةَ من يقوم بها ويَدْخُل النار من يَعْرِض عنها ، وإنك إذا ما اجتمعتَ بأىِّ مسلمٍ من أيةِ طبقةٍ ، رأيتَه يَعْرِف ما يجب عليه أن يَعْتقِدَ ويَسْرُدُ لك أصول الإسلام فى بضع كلمات بسهولة ، وهو بذلك على عكس النصرانىِّ الذى لايستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجَدَل .

وساعَدَ وضوحُ الإسلامِ البالغُ وما أَمَرَ به من العدل والإحسان كلَّ المساعدة على انتشاره فى العالم ، ونُفَسِّر بهذه المزايا سببَ اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عَرَفوا أصول الإسلام ، كما نفسِّر السببَ فى عدم تَنَصُّر أية أمة بعد أن رَضِيَت بالإسلام ديناً ، سواء كانت هذه الأمة غالبةً أم مغلوبة .

ويجب على من يرغب فى الحكم بفائدة كتاب دينىٍّ ألاّ ينظر إلى قواعده الفلسفية الضعيفة على العموم ، بل إلى مَدَى تأثير عقائده ، والإسلام إذا ما نُظِر إليه من هذه الناحية وُجِد من أشدِّ الأديان تأثيراً فى الناس، وهو ، مع مماثلته لأكثر الأديان فى الأمر بالعدل والإحسان والصلاة ، إلخ . ، يُعلِّم

هذه الأمورَ بسهولة يستمرئها الجميع ، وهو يَعْرِف ، فضلا عن ذلك ، أن يَصُبّ فى النفوس إيماناً ثابتاً لا تزعزعه الشُّبُهات .

ولا ريب فى أن نفوذ الإسلام السياسىّ والمدنىّ كان عظيماً إلى الغاية ، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفةً من إمارات مستقلة وقبائلَ متقاتلةٍ دائماً ، فلما ظهر محمد ومَضَى على ظهوره قرنٌ واحد كانت دولةُ العرب ممتدةً من الهند إلى إسپانية ، وكانت الحضارة تَسْطَع بنورها الوهاج فى جميع المُدُن التى خَفَقَت راية النبىِّ فوقها .

والإسلام من أكثر الدِّيانات ملاءمةً لاكتشافات العلم ، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح ، والبُدَّهية ، وإن فاقت جميعَ الأديان الساميَّة فلسفةً ، تراها مضطَرّةً أن تتحوَّل تحوُّلاً تامًّا لتستمرئها الجموع ، وهى لا شكّ ، دون الإسلام فى شكلها المُعدَّل هذا .

وجَرَت حضارةُ العرب ، التى أوجدها أتباعُ محمـــدٍ ، على سُنَّة جميع الحضارات التى ظهرت فى الدنيا : نشوء فاعتلاء فهبوط فموت ، ومع ما أصاب حضارةَ العرب من الدُّثُور ، كالحضارات التى ظهرت قبلها ، لم يَمَسَّ الزمنُ دينَ النبىِّ الذى له من النفوذ ماله فى الماضى ، والذى لا يزال ذا سلطانٍ كبير على النفوس ، مع أن الأديان الأخرى التى هى أقدم منه تَخْسَر كلَّ يوم شيئا من قوتها .

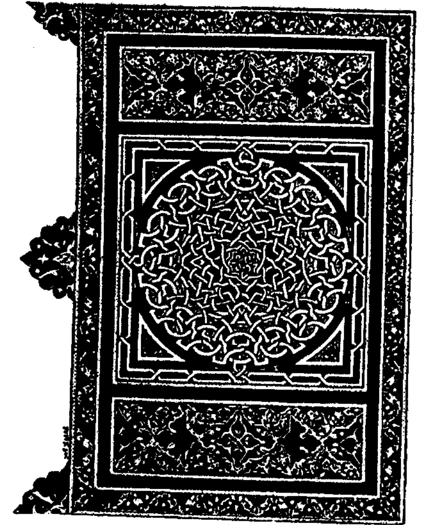
ويَدِين بالإسلام فى الوقت الحاضر أكثرُ من مئة مليون شخص ، واعتنقته جزيرة العرب ومصرُ وسورية وفلسطين وآسية الصغرى وجزءٌ كبير من الهندِ وروسيةَ والصينِ ، ثم جميعُ إفريقية إلى ما تحت خطِّ الاستواء تقريباً .

وتَجْمَع بين مختلف الشعوب التى اتخَذَت القرآنَ دستوراً لهـا وحْدَةُ اللغة والصِّلاتُ التى يُسْفِر عنها مجىء الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامىِّ .

وتجب على جميع أتباع محمدٍ تلاوةُ القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان ، واللغةُ العربية هى ، لذلك ، أكثرُ لغات العالم انتشاراً على ما يحتمل ، وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يُمْكِن جمعُها به تحت عَلَمٍ واحد فى أحد الأيام .

وقَضَى أعداء الإسلام من المؤرخين العَجَبَ من سرعة انتشار القرآن العظيمة فعزَوها إلى ما زَعَموه

من تَحَلُّل محمد وبَطْشه ، ويسهل علينا أن نُثْبِت أن هذه المزاعم لا تقوم على أساس ، فنقول : إن من يقرأ القرآن يَجِد فيه ما فى الأديان الأخرى من الصَّرَامة ، وإن ما أباحه القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريباً على الشعوب المسلمة التى عَرَفته قبل ظهور محمد ، وإن هـذه الشعوب لم تَجِدْ نفعاً جديداً فى القرآن لهذا السبب .


٢٦ ـ صوان مصحف قديم فى مكتبة الإسكوريال (المتحف الإسبانى)

وما قيل من دليـلٍ حول تَحَلُّل محمد نَقَضَه العلامةُ الفيلسوفُ بِيلُ منذ زمن طويل ، وقال بِيلُ ، بعد أن أثبت أن ما أمر النبىّ بالتزامه من قيود الصيام وتحريم الخمر ومبادئ الأخلاق هو أشدُّ مما أُمِرَ به النصارى :

« إن من الضلال ، إذَنْ ، أن يُعْزَى انتشارُ الإسلام السريع فى أنحاء الدنيا إلى أنه يُلْقِى عن كاهل الإنسان ما شَقَّ من التـكاليف والأعمال الصالحة ، وأنه يُبيح له البقاء على سيىء الأخلاق ، وقد دَوَّن هوتنجر قائمةً طويلة بالأخلاق الـكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين ، فأرى ، مع القصد فى مدح الإسلام ، أن هذه القائمة تحتوى أقصى ما يمكن أن يُؤْمَر به إنسانٌ من التحلى بمكارم الأخلاق والابتعاد عن العيوب والآثام » .

ومما نَبَّه إليه العَلَّامة بِيلُ أن مَلَاذَّ الجنة التى وُعِـد بها المسلمون لا تَزيد على ما وُعِد به النصارى فى الإنجيل ، جاء فى الإنجيل : « لم ترَ عَيْنٌ ولم تَسْمع أُذُنٌ ولم يَخْطُر على قلب إنسان ما أَعَدَّه الله للذين يُحِبُّونه » .

وسيرى القارئ ، حين نبحث فى فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم ، أن القوة لم تـكن عاملاً فى انتشار القرآن ، فقد ترك العربُ المغلوبين أحراراً فى أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعضُ الأقوام النصرانيةِ الإسلامَ واتخذوا العربيةَ لغةً لهم فذلك لِمَا رَأَوْا من عَدْل العرب الغالبين ما لم يرَوْا مثـله

من سادتهم السابقين ، ولِما كان عليه الإسلام من السهولة التى لم يَعْرِفوها من قبل[١] .

وقد أثبت التاريخُ أن الأديان لا تُفْرَض بالقوة ، فلما قهر النصارى عربَ الأندلس فضَّلَ هؤلاء القتلَ والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام .

ولم ينتشر القرآن بالسيف إذَنْ ، بل انتشر بالدعوة وحدَها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوبُ التى قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول ، وبلغ القرآن من الانتشار فى الهند ، التى لم يكن العربُ فيها غيرَ عابرى سبيل ، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها ، ويزيد عدد مسلمى الهند يوماً فيوماً مع أن الإنكليز ، الذين هم سادة الهند فى الوقت الحاضر ، يُجَهِّزُون البعثات التبشيرية ويرسلونها تِباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جَدْوَى .

٢٧ ـ آخر صفحة من مصحف قديم فى مكتبة الإسكوريال (المتحف الإسبانى)

(١) رأينا من آى القرآن التى ذكرناها آنفاً أن مساحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية ، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التى ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص ، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته ، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربة المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أنعموا النظر فى تاريخ العرب ، والعبارات الآتية التى أقتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت أن رأينا فى هـذه المسألة ليس خاصاً بنا ، قال روبرتسون فى كتابه (تاريخ شارلكن) : « إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وإنهم ، مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم ، تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً فى التمسك بتعاليمهم الدينية » .

وقال ميشود فى كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : « إن القرآن الذى أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وحرم محمد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها » .
وقال الراهب ميشود فى كتابه (رحلة دينية فى الشرق) : « ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذى هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أى معتقد عليهم بالقوة » .

ولم يكن القرآن أقلَّ انتشاراً فى الصين التى لم يفتح العرب أىَّ جزء منها قطّ ، وسترى فى فصل آخر سرعةَ الدعوة الإسلامية فيها ، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليوناً فى الوقت الحاضر .

وليس فيما يُوصَم به الإسلام من الجَبَرِية ما يزيد خطراً على ما رَدَدْنا عليه ، وليس فى آى القرآن التى ذكرناها آنفاً من الجبرية ما ليس فى كتب الأديان الأخرى كالتوراة مثلاً ، وهنالك فلاسفةٌ وعلماء لا هوت يعترفون بأن مجرى الحوادث تابع لسُنَّة لا تتبدل ، قال المصلح الدينىُّ القدير لوثر : « يُحْتَجُّ على اختيار الإنسان وإرادته بنصوص الكتاب المقدس التى لا تُحْصَى ، وإن شئت فقل بكلِّ ما ورد فى الكتاب المقدس » .

وكُتُبُ جميع الأمم الدينيةُ مفعمةٌ بالجَبَرية التى يسميها القدماء بالقَدَر ، ووَضع القدماء القَدَرَ ، الذى لا رادَّ لحكمه ، على رأس كلِّ أمرٍ عادِّين إياه سلطةً مطلقة لامناص للناس والآلهة من إطاعتها ، وحاول إديب ، غير جدوى ، أن يَضْرَع إلى هاتف الغيب الذى أخبره بأنه سيقتل أباه ويتزوج أمه فلم يستطع رَدًّا لحكْم القَدَر الجَبَّار .

ولم يكن محمد ، إذَنْ جَبَريًّا أكثرَ من مؤسسى الأديان الذين ظهروا قبله ، ولم يَسْبِق محمدٌ فى جبريَّته علماءَ الوقت الحاضر الذين أيَّدوا مع العلامة لابلاس رأىَ الفيلسوف لِيبنتز فى القول : « إنه إذا وُجِد ذكاء يَعْرِف ، لوقتٍ ، جميعَ قُوَى العالم ومواضعَ ما فيه من الموجودات ويستطيع أن يُحَلِّلها ويُحيطَ بمُحَرِّكات أعظم أجرام العالم وأصغر ذَرَّاته فإنه لا يبقى عنده شىء غيرُ مُعَيَّن ويصبح الماضى والمستقبل حالًا فى نظره » .

والجَبَريةُ الشرقية التى قامت عليها فلسفة العرب ويستند إليها كثيرٌ من مفكرى العصر الحاضر هى نوع من التسليم الهادئ الذى يَعْلَم به الإنسان كيف يخضع لحكم القَدَر من غير تَبَرُّم ومُلاوَمَة ، وتسليمٌ مثل هذا هو وليدُ مزاج أكثر من أن يكون وليدَ عقيدة ، وقد كان العربُ جَبَريين بمزاجهم قبل ظهور محمد فلم يكن لجبريتهم تأثيرٌ فى ارتقائهم كما أنها لم تُؤدِّ إلى انحطاطهم .

الفصل الثالث

فتوح العرب

---

١ – حال العالم فى زمن محمد

كان يتنازع سيادةَ العالم حين وفاة محمد دولتان عظيمتان : إحداها دولة الروم التى كانت عاصمتُها القسطنطينيةَ وكانت صاحبةَ السلطان على جَنوب أوربة والشرق الأدنى وشمال إفريقية الممتدِّ من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطىّ ، والأخرى دولة الفرس التى كان سلطانها ممتدًّا إلى مكان بعيد من آسية، وكان شمال أوربة وغربُها فريسةً للبرابرة الذين كانت أمورهم فوضى وكانوا يتقاتلون على أسلاب الرومان وغنائمهم .

وكانت دولةُ الروم التى نَهَكَتْها محارباتها لدولة الفرس ، والتى كانت تعانِى عواملَ الانحلال الكثيرة ، فى دور الانحاط ، ولم تكن غيرَ هيكلٍ نَخِرٍ يكفى أقلُّ صدمةٍ لتداعيه .

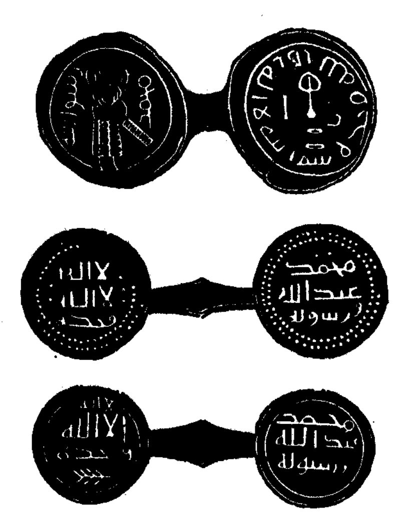
وكذلك كانت علائمُ الانقراض باديةً على دولة الفرس التى أوهنتها تلك الحروب أيضاً .

وأثقل الحكمُ الرومانىُّ كاهلَ مصرَ وإفريقية ، وكانت القسطنطينية تستغلُّ شعوبَها من غير أن تُحْسن سياستَهما ، وكانت الاختلافاتُ الدينية ومظالمُ الحكام تقوض دعائمهما .

ولم تكن أوربة أحسنَ حالًا ، فكان الحكم فى إسپانية ، التى ستصبح مقرًّا لدولةٍ زاهرة تحت الحكم العربى ، بيد القوط المسيحيين الذين لم يستطيعوا أن يتمدنوا ، والذين أكلتهم الانقساماتُ الدينية فاستغاثوا بقيصر الروم ، فلم يُعَتِّم حلفاؤهم أن صاروا أعداءً تجب محاربتهم ، وفَقَدَت رومة الإيطاليةُ نفوذَها القديم وأصبح اسم الرومانىِّ محتقراً فى كلِّ مكان ، وصار البرابرة يتناوبون السيطرة عليها .

ولم تكن الفوضى ظاهرةً فى مكان ظهورَها فى سورية التى هى أولُ قطرٍ استولى عليه العرب ،

وكان همُّ المدن السورية ، التى لم تنلها أيدى التخريب فى الحروب الرومية الفارسيـة الدائمة ، والتى لم تَزَلْ على شىء من النضارة ، مقتصراً على المعاملات التجارية والمجادلات الدينية ، ولم تبال بما كان يقع خارج أبوابها ، وكانت تَهْجَرُ أريافُها ، ولم يـكترث أهلوها لشىء من المبادىء القومية ، وكانوا مستعدين لتلبية نداء أىِّ فاتحٍ يَعِدُ بإطعامهم ، وكان الأريستوقراطيون من سلالة فاتحى سورية،الذين أفسدهم توالدُهم والأممَ الآسيوية ، قد انحدروا إلى الحضيض فخَسِروا قيمتَهم ونفوذهم .

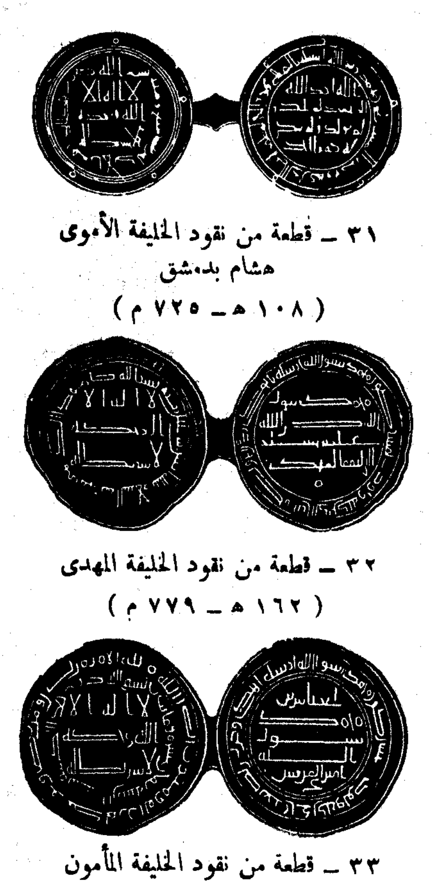

٢٨ و ٢٩ و ٣٠ ــ ثلاث قطع من نقود الخلفاء الأولين (أخذت صور هذه النقود والنقود التى تليها من مجموعة مسيومارسيل)

ونحن ، عندما بحثنا فى كتابنـا السابق عن مختلف العوامل التى تُؤَثِّر فى تطور المجتمعات ، قلنا إن المثل الأعلى هو من أهمها ، وذكرنا أن عبـادة الوطن والمعتقدَ الدينىَّ وحبَّ الاستقلال والمجد والأمة والمدينة وغـيرها من المُثُل العليـا هى من الخيالات من الناحية الفلسفية ، وأن مِثْل هـذه الخيالات هى التى تقود الناس دائما ، وأن أمر النُّظُم السياسية والاجتماعية التى وَقَتِ البشرَ حتى الآن قد استقام بفضلهـا ، وأن عظمة الرومان قامت على عبادة رومة على الخصوص ، وأن رومة كانت سيدة العالم حين كان الرومانىُّ يُضَحِّى بنفسه فى سبيل زيادة سلطانها .

وكانت الأمم الإغريقية الرومانية والآسيوية، وقتَ ظهورِ محمدٍ ، قد فَقَدَتْ مُثُلَها العليا منذ زمن طويل ، فلم يَبْقَ لحبِّ الوطن وعبادة الآلهة أثرٌ فى نفوس أبنائهـا ، وكانت الأَثَرَة كلَّ مافى قلوب هؤلاء الأبناء ، والأَثَرَةُ إذا كانت دليلَ قومٍ عَجَزوا عن مقاومة قوم آخرين مستعدين للتضحية بأنفسهم فى سبيل معتقداتهم .

وقد استطاع محمدٌ أن يُبْدِع مثلاً عالياً قويًّا للشعوب العربية التى لا عهد لها بالمُثُل العليا،وفى ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص ، وذلك المثلُ الأعلى الجديد هو من الخيالات لا ريب ، شأنُ

المُثُل العليا التى ظهرت قبله ، ولـكنك لا تَجِد من الحقائق ماهو قوىٌّ قوةَ هذه الخيالات ، ولم يَتَرَدَّد أتباعُ النبىِّ فى التضحية بأنفسهم فى سبيل هذا المثل الأعلى طامعين فى الجنة التى لا يَمْدِلها شىء من متاع هذه الحياة الدنيا .



٣١ – قطعة من نقود الخليفة الأموى هشام بدمشق
(١٠٨ هـ – ٧٢٥ م)

٣٢ – قطعة من نقود الخليفة المهدى
(١٦٢ هـ – ٧٧٩ م)

٣٣ – قطعة من نقود الخليفة المأمون
(٢١٨ هـ – ٨٣٣ م)

ولم يَلْبَث الإسلامُ أن مَنَّ على جميع الشعوب التى خَضَعَت لسلطانه مِثْلَ مامَنَّت بهعظمةُ رومة على الرومان، فمنح تلك الشعوبَ مصالحَ مشتركةً وآمالاً مشتركةً مُوَجِّهاً بذلك جهودَها نحو غرض واحد مع أنها كانت ذاتَ مصالحَ مختلفةٍ قبل ذلك .

وإن وَحدة المصالح والمعتقدات ، وإن كانت تؤدى إلى تجانس الأمة ، لا تعطيها من الوسائل ماتَقْدِر به على الفتح العالمىّ ولو كانت أركان العالم متداعيـةً كالدولة الإغريقية الرومانية والدولة الفارسية فى زمن ظهور محمد، فقـد كانت تانك الدولتان مرهوبتين مع ما كان يبدو من وهنهما ، فـكان لابدَّ للأمة التى تريد محاربتهما من أن تـكون ذاتَ صفاتٍ حربيـة عظيمة فضلاً عن معتقداتها التى تُوَجِّه جهودها إلى غرض واحـد ، ولم يَحْتَجِ العرب إلى مايتطلبه مثلُ هذا العمل الجليل من الشجاعة وحبِّ القتال ماوَرِثهما العرب أباً عن جدٍّ ، مضافاً ذلك إلى مانشأ عن إيمان العرب الجديد من حرصهم على الشهادة حُبًّا للجنة التى وُعِدوا بها.

ولـكن العرب كانوا يجهلون فنَّ الحرب جهلاً تاماً، ولا تقوم الشجاعة مقام هذا الفنِّ ، وكان اقتتال العرب فيما بينهم من نوع اقتتال البرابرة الذين يَنْقَضُّون على أعدائهم بلا نظام ولا يحارب كلٌّ واحدٍ إلَّا من أجْلِ نفسه ، وكان غيرَ هذا أمرُ الفُرْس والروم الذين كانت معرفتهم لفنِّ الحرب عظيمةً جداً كما ظهر من اشتباكهم الأول بالعرب ، ولم يَلْبَث العربُ أن عَلِموا من الهزائم التى أصابتهم فى سورية

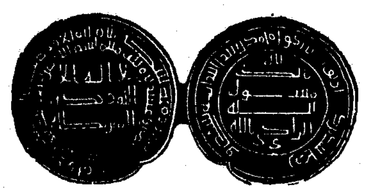
ما كان يُعْوِزُهم ، وأن اقتبسوا من قاهريهم كثيراً من شؤون الحرب ، وأخذوا عمن التحق بهم من الرجال الذين اجتذبهم الإيمان الجديد ما كانوا يجهلون من فنون تعبئة الجيش والنظام وأعتدة الحرب، وقد تمّ استعدادُهم فى بضع سنين ، وقد بُهِت الروم حين حاصر العربُ دمشقَ ورَأَوْهم مجهزين بمثل ما كان عندهم من الآلات الحربية الكاملة الجيدة .

٢ — طبيعة فتوح العرب

لم تَقِلّ براعة الخلفاءِ الأولين السياسيةُ عن براعتهم الحربية التى اكتسبوها على عَجَل، وذلك أنهم اتصلوا منذ الوقائع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين الذين كان يَبْغِى عليهم قاهروهم منذ قرون كثيرة والذين كانوا مستعدين لأن يستقبلوا بِتِرْحاب وحُبُورٍ أيّ فاتحٍ يُخَفِّفُ وطأةَ الحياة عنهم، وكانت الطريقُ التى يجب على الخلفاء أن يَسْلكوها واضحة ، فَعَرَفوا كيف يُحْجِمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه وعَرَفوا كيف يبتعدون عن إعمال السيف فيمن لم يُسْلِم، وأعلنوا فى كلِّ مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وعُرْفها وعاداتها ، مكتفين بأخذهم ، فى مقابل حمايتها ، جزيةً زهيدة تَقِلُّ عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب .

وكان العرب ، قبل أن يَسْعَوْا إلى فتح بلدٍ ، يرسلون رُسُلاً حاملين إليه شروطاً للوِفاق ، وتكاد هذه الشروط تكون مماثلةً للشروط التى عَرَضها عمرو بن العاص على أهالى غزة حين حصاره لها فى السنة السابعةَ عشرةَ من الهجرة ، وللشروط التى عُرِضَت على المصريين وأهل فارس ، وتلك الشروط التى عَرَضها عمرو ابن العاص هى ، كما رواه المؤرخُ العربىُّ ، المكين ، ما يأتى :

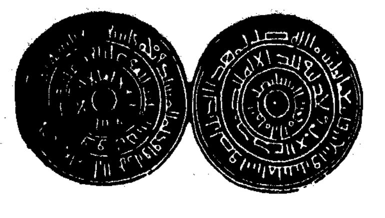
« أمرنا صاحبنا أن نقاتلكم إلى أن تكونوا فى ديننا فتكونوا إخوتنا ويلزمكم ما يلزمنا فلا نتعرّض إليكم ، فإن أبيتم أعطيتم الجزية فى كلِّ عام أبداً ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم إن تَعَرّض إليكم فى وجهٍ من الوجوه ويكون لكم عهدٌ علينا ، فإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا السيف فنقاتلكم حتى تفيئوا إلى أمر الله » .

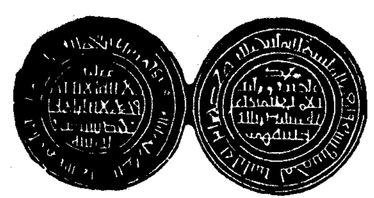


٣٤ ــ قطعة من نقود ابن طولون
(١٥٧ هـ ــ ٨٧٠ م)

٣٥ ــ قطعة من نقود الخليفة الرضى
(٣٢٧ هـ ــ ٩٣٣ م)

ويُثْبِت لنا سلوكُ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب فى مدينة القدس مقدارَ الرِّفق العظيم الذى كان يعامل به العربُ الفاتحون الأمم المغلوبة ، والذى ناقضه ما اقترفه الصليبيون فى القدس بعد بضعة قرون مناقضةً تامة ، فلم يُرِد عمرُ أن يدخل مدينةَ القدسِ معه غيرُ عددٍ قليل من أصحابه ، وطلب من البطرك صفرونيوس أن يرافقه فى زيارته لجميع الأماكن المقدسة ، وأعطى الأهلين الأمانَ ، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين فى بِيَعِهم (١) .

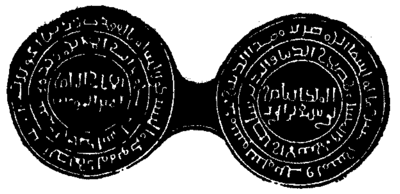




٣٦ و ٣٧ ــ قطعتان من نقود الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٤٢و٤٦٥ هـ ــ ١٠٥٠و١٠٧٢ م)

ولم يكن سلوكُ عمرو بن العاص بمصرَ أقلَّ رِفقاً من ذلك فقد عرَض على المصريين حرية دينيــة تامة وعدلًا مطلقاً واحتراماً للأموال وجِزْيَةً سنوية ثابتة لا تزيد على خمسةَ عشرَ فرنكاً عن كلِّ رأس بدلًا من ضرائب قياصرة الروم الباهظة ، فرَضِيَ المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط دافعين للجزية سلفاً ، وقد بالغ العرب فى الوقوف عند حدِّ هذه الشروط والتقيدِ بها فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمَرّين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى ، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيّمَا إقبال .

ونتائجُ مثلُ هذه لا تُنَال بالقوة كما قلت غير مرة ، ولم يَظْفَر بمثلها من مَلَكَ مصر من الفاتحين قبل العرب .



٣٨ ــ قطعة من نقود صلاح الدين ضربت بدمشق سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وعلى أحد وجهيها اسم الخليفة العباسى ببغداد

وللفتوح العربية طابعٌ خاص لا تَجِد مِثْلَه لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب ، وبيانُ ذلك أن البرابرة الذين استولَوْا على العالم الرومانىِّ والتركَ وغيرَهم ، وإن استطاعوا أن يقيموا دولًا عظيمة ، لم يؤسسوا حضارة ، وكانت غاية جهودِهم أن يستفيدوا بمَشَقَّةٍ من حضارة الأمم التى قهروها ، وعكسُ ذلك أمر العرب الذين أنشأوا بسرعةٍ حضارةً جديدة كثيرةَ الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها ، والذين تمكّنوا من اجتذاب أممٍ كثيرة إلى دينهم ولغتهم فضلًا عن حضارتهم الجديدة ، واتصلت بالعرب أممٌ

(١) البيع : جمع البيعة ، وهى المعبد للنصارى .

قديمة، كشعوب مصر وَالهنود ، واعتنقت معتقداتِ العربِ وعاداتِهم وطبائعَهم وفنَّ عِمارتهم، واستولت بعد ذلك الدور أمم كثيرة على الأقطار التى فتحها العرب فظلَّ نفوذ العرب فيها ثابتاً ، ويلوح لنا رسوخُ هذا النفوذ إلى الأبد فى جميع البقاع الآسيوية والإفريقية التى دخلوها والتى تمتدُّ من مَرّاكش إلى الهند . والإسپان وحدَهم هم الذين استطاعوا أن يتخلصوا من الحضارة العربية ، ولكنهم لم يصنعوا هذا إلاَّ ليَقعوا فى الانحطاط العُضال كما يأتى بيانه .

٣ – خلفاء محمد الأولون

لم يكن عمل محمد حين وفاته فى سنة ٦٣٢ م فى غير دور التكوين ، وكانت ضروبُ الأخطار تُنْذِرُ بزواله إلى الأبد ، وكانت وَحدة بلاد العرب السياسية التى تمَّتْ على يده نتيجةَ الوَحْدَة الدينية التى أنشأها ، وكان من الممكن أن تَنْقَضِيَ هذه الوَحدةُ الدينية بانقضاء موجدها .



٣٩ ـ قطعة أخرى من نقود صلاح الدين

أَجَلْ ، استطاع العرب أن يَدِينوا لرسولٍ من الله ، ولكن لم يَدُلَّ شيءٌ على وجوب نصب خليفة بعده ، وهنا لك قبائلُ كثيرة ، ضَحَّت بحريتها ونَزَعَت ما فيها من حقدٍ على أيِّ سلطانٍ إجابةً لدعوة رسول الله ، لم تَرَ أن تخضع لحكم خلفاء لم يُحَدِّث عنهم حتى يدَّعوا ممارسةَ مِثْلِ سلطانه .

وكانت هنا لك أخطارٌ أخرى أعظمُ من تلك تُهَدِّدُ بخنقِ عملِ محمدٍ فى مَهْدِه ، فقد ظهر متهوسون كثيرون هَزَّهم ما نال محمدٌ من التوفيق ، ورَأَوْا أن يَدَّعوا النبوةَ أيضاً ، فاستطاع أحدُهم أى يجعل سكان نصف اليمن من أتباعه ، ولولا قتلُ بعض المؤمنين إياه لخسر الإسلام أحسنَ ولاياته ، واقتصر متهوسٌ آخر على إضافة بعض السُّوَر إلى القرآن ، وبلغ من النفوذ ، لزمنٍ معيّن ، ما يَقرُبُ من نفوذ الخلفاء الأولين .

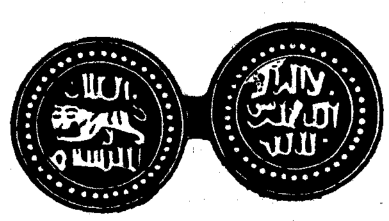
إذَنْ ، كانت أمام دينِ محمدٍ عوائقُ كثيرةٌ اقْتُحِمَتْ بفضل عبقرية أصحابه الذين اختاروا

خلفاء لم يفكروا فى غير تنفيذ شريعة القرآن واحترامها ، ولم يُطِعْهم العرب فى الظاهر ، بل أطاعوا شريعةً ذاتَ مصدر إلٰهىّ لم يجادلوا فيه .

وكان الخلفاء الأولون ، وهم أبو بكر (٦٣٢ م ـ ٦٣٤ م) وعمر (٦٣٤ م ـ ٦٤٤ م) وعثمان (٦٤٤ ـ ٦٥٥ م) وعلىّ (٦٥٥م ـ ٦٦٠م) ، من صحابة محمد ، وقد اقتدى هؤلاء الخلفاء بمحمدٍ فى زُهْدِه وبسيطِ عاداتِه ، فلم يترك أبو بكر حين وفاته غيرَ ثوبه الذى كان يَلْبَسُه وبعيرِه الذى كان يَرْكَبُه ومولاه الذى كان يَخْدُمُهُ ، ولم يأخذ من بيت المال فى حياته سوى خمسة دراهمَ مُياومةً ليعيش بها ، وكان عمرُ يَلْبَس ثوباً مُرَقعاً وينام على درج المسجد بين المساكين مع اقتسامه هو وجنودُه مغانمَ كثيرة .

٤٠ ـ قطعتان من نقود الملك الكامل ضربتا فى أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد ، وعلى أحد وجهيهما اسم الخليفة العباسى ببغداد

ولم ينتقل العرب من النظام الديمقراطىّ إلى النظام المَلَكىّ إلا بالتدريج ، وكانت المساواة تامةً فى عهد الخلفاء الأولين ، وكانت الشريعة للجميع على السواء ، فَمَثَل علىٌّ بين يدَى القاضى لمقاضاة من اعتقد أنه سارق سلاحه ، وأتى مَلِك غَسَّانَ وقومُه الذين اعتنقوا الإسلام مكةَ للاجتماع بعمرَ ، ولطم عربيًّا وَطِىءَ إزارَه واشتكى العربىُّ إلى عمرَ ، ورأى عمرُ العملَ بما تأمر به الشريعة من إقامة الحدِّ ، فقال الملِك : « كيف ذلك يا أميرَ المؤمنين وأنا مَلِكٌ وهو سوقة ؟ » فقال عمر : « إن الإسلام جمعكما وسوّى بين الملك والسُّوقة فى الحدّ » .

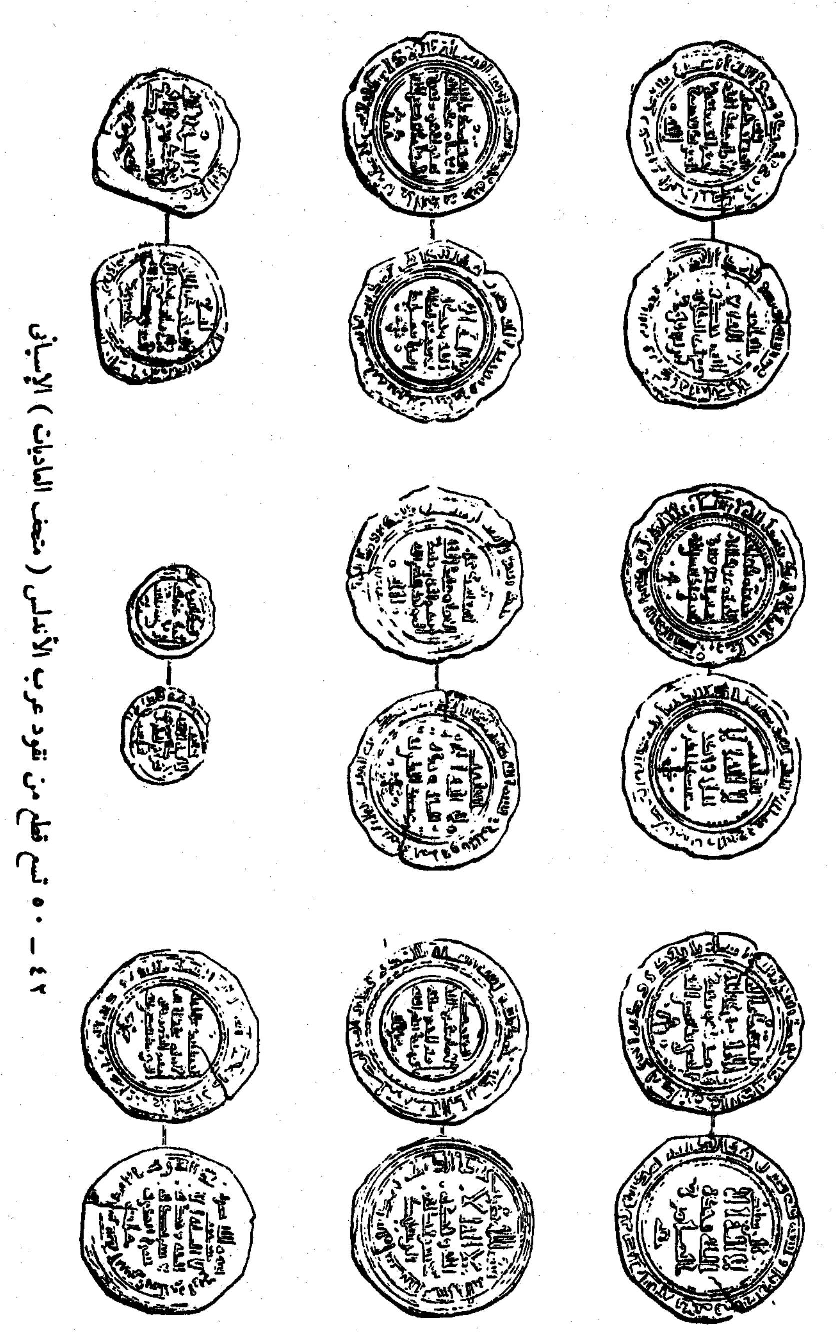


٤١ ـ قطعة من نقود السلطان بيبرس

ولم يَدُمْ ذلك العدل زمناً طويلاً ، فقد صار الخلفاء ملوكاً مستبدين ، وإنما بَقِىَ العرب متساوين أمام القرآن حتى الزمن الحاضر .

وأبو بكر هو خليفةُ النبىّ الأولُ ، وكان محمدٌ قد أمره ، ذات مَرَّةٍ ، أن يقوم مقامه فى الصلاة ، فكان هذا عاملاً فى انتخابه خليفةً ، وصار الانتخابُ عاملَ شِقَاق ، وأخذ هذا الشِّقاقُ يَحْدُث عند نصب الخلفاء ،

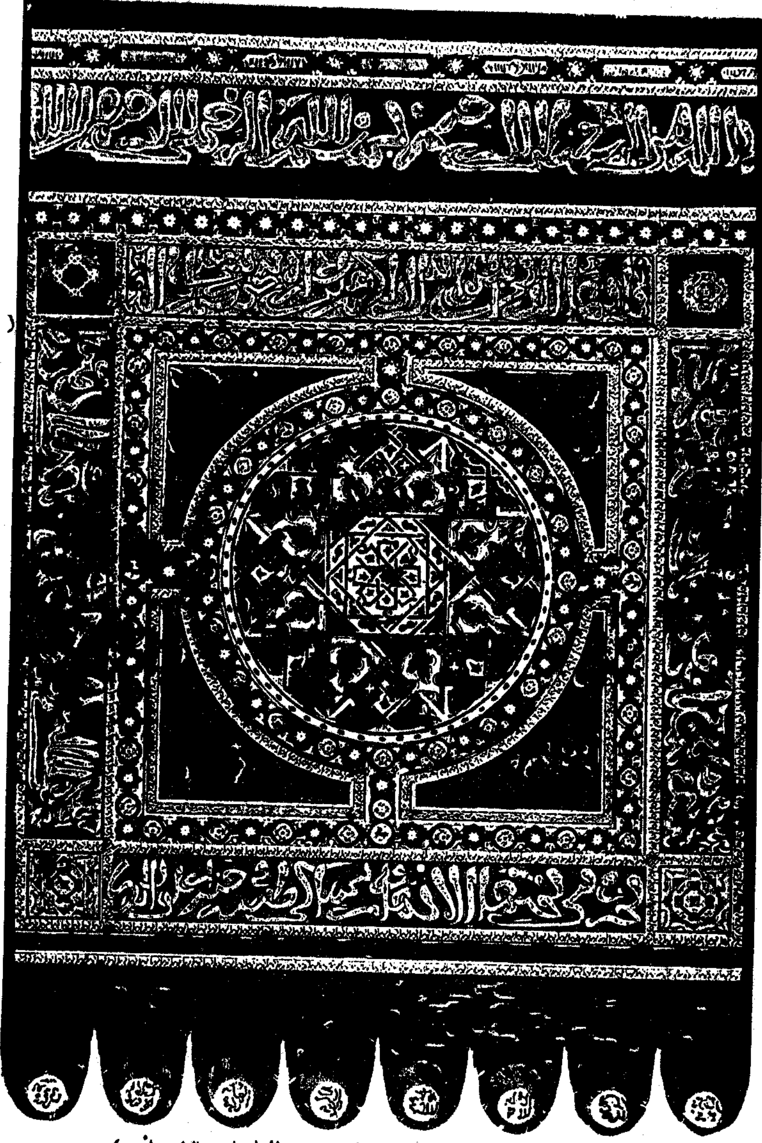
ورَوَى مؤرخو العرب أن أول خُطْبة لأبى بكر ، بعد مبايعته بالخلافة ، كانت ما يأتى : أيها الناس ، قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوِّمونى ، الصدق أمانة ،



٤٢ — ٥٠ نسخ قطع من نقود عرب الأندلس (متحف العاديات) الإسبانى

والكَذِبُ خيانة ، والضعيفُ فيكم قوىٌّ عندى حتى أُرِيح عليه حقَّه إن شاء الله ، والقوىُّ منكم

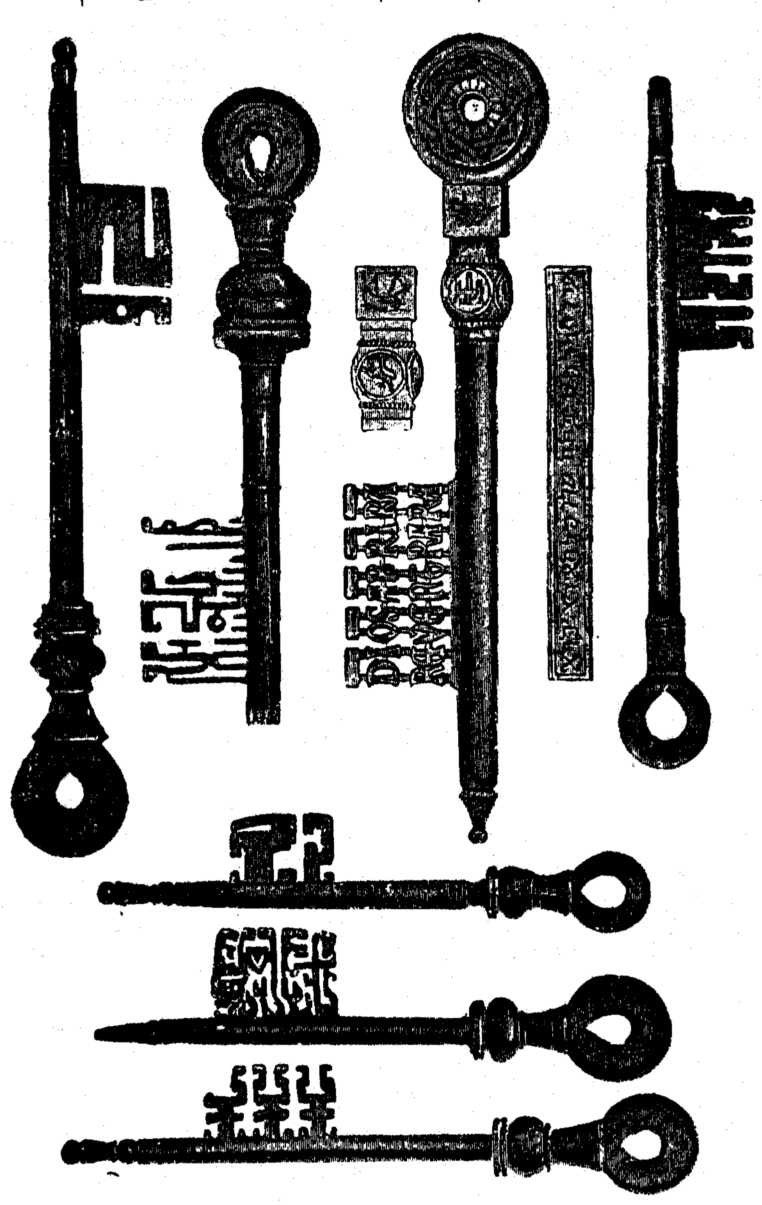
ضعيف عندى حتى آخذ الحقَّ منه إن شاء الله ... أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عَصَيت الله ورَسولَهُ فلا طاعة لى عليكم ... » .



٥١ ــ شعار الموحدين العربى (متحف العاديات الإسبانى)

وكان أبو بكر مُضطَرًّا إلى مقاومة الطامعين فى الخلافة وإلى محاربة القبائل التى امتنعت عن أداء ما فرض القرآنُ من الزكاة ، ولم يلبث أبو بكر أن رأى أن أحسن وسيلة لمعالجة انقسام العرب هو أن يُوَجِّه العرب إلى البلاد الأخرى كيما يمارسون عاداتِهم فى الحرب والقتال ، وسار الخلفاء الذين أتَوْا بَعْدَه على هذه السياسة الرشيدة التى انتشر بها الإسلام .

وأخـذ العرب يتقاتلون بعد أن خلا العالَمُ من بلد يفتحونه ، وحلّت ساعةُ تفرّق كلمتهم ، ودخلوا دورَ الانحطاط ، وقوّضوا كيانَهم بسلاحهم أكثر مما قُوِّض بسلاح الأمم التى خضعت لسلطانهم



٥٢ ـ مفاتيح عربية لبعض المدن والقصور (متحف العاديات الإسبانى)

وبَدَأَت الفتوحات الكبيرة فى زمن الخليفة الثانى عمرَ بن الخطاب فقط ، أجَلْ ، إن العرب نالوا عِدَّة انتصاراتٍ فى سورية فى خلافة أبى بكر ، ولكن مهارتهم الحربية كانت ضعيفة مع شجاعتهم

العظيمة ، كما قلنا ، فكان يتخلَّلُ تلك الانتصاراتِ نوازلُ إلى أن حَذَقُوا صنع السلاح كأعدائهم .

وكان عمرُ بن الخطاب قائداً بارعاً وسياسيًّا ماهراً ، وكان عُنْوَانَ العدل والإنصاف . وقد رَوَى مؤرخو العرب أنه عَلاَ المِنْبَر بالمدينة حينما أفضت إليه الخلافة وقال: « يـأَيُّها الناس ، واللهِ مافيكم أحدٌ أقوى عندى من الضعيف حتى آخذَ الحقَّ له ، ولا أضعفُ عندى من القويِّ حتى آخذ الحقَّ منه » .

والحقُّ أن الدولة العربية العظمى بدأت فى خلافة عمرَ بن الخطاب، وأما القيصر هرقل الذى أُكره على مغادرة سورية والالتجاء إلى عاصمته القسطنطينية فقد أدرك أن العـالم سيكون له سادة جُـدُد .

٤ — خلاصةُ تاريخ العرب

نُلَخِّص فيما يأتى تاريخَ وقائع العرب الحربية المهمة فى القرون الثمانية التى دامت فيها حضارتهم :

القرن الأول من الهجرة ـ كانت فتوحات خلفاء محمد الأولى فى بلاد العراق الخاضعة لدولة الفرس وفى بلاد سورية الخاضعة لقيصر القسطنطينية هرقل ، وكان بَدْء فتح هذين القطرين فى زمن الخليفة الأول الذى لم يلبث أن توفِّىَ فَوَاصَلَهُ عمرُ الذى دخل القدس بنفسه فخَسِرَ الروم ، فى سبع سنين ، بلادَ سوريةَ التى ظلوا حاكمين لها سبعمئة سنة .

ودَوَّخ جنودُ عمرَ بلاد العراق وفارس من فَوْرِهِم ، أىْ كَفَى لثَلِّهم عرشَ بنى ساسان وهدمِهم الدولةَ الفارسية العريقةَ فى القِدَم حروبُ شهرين .

ونالت كتائبُ عمرَ ، التى كان يقودها المجاهد الشاعر عمرو بن العاص ، فى الغرب انتصاراتٍ سريعةً ، واستولت على بلاد مصرَ والنوبة ، وكانت الدولة العربية التى وُلدت منذ عشرين سنة على جانب كبير من الاتساع حين وفاة عمر فى سنة ٦٤٤ م .

وداوم الخليفة الثالث عثمان ، الذى بلغَ الثمانين من عُمُره ، على الفتوح ، وأتمَّ قُوَّاده فتحَ بلادِ فارس ، ووَصَلَت جيوشه إلى بلاد القفقاس ، وأخذت تَرْتَادُ الهند .

وكان الخليفة الرابعُ علىٌّ ، وهو صهرُ النبىِّ (٦٥٥ م)، هدفاً للدسائس التى كادت الدولةُ العربية تنهار بسببها ، وقُتِل علىٌّ بعد خلافةٍ دامت خمسَ سنين ، فخُـتِم بوفاته دور الخلفاء الأولين الذين كانوا من أصحاب محمد السابقين المعدودين آباءَ الإسلام .

وفُتِحَ دورُ خلفاء بنى أمية بمعاوية (٦٦٠ م) ، ونقَلَ هؤلاء مقرَّ الخلافة إلى دمشق ، وصاروا يسيرون على نَمَط ملوك آسية .

وأرسل الخليفة الجديد كتائبَ إلى شمال إفريقية الذى جعل منه حكومةً منفصلة ، ولم يَعُقْ زحفَها غيرُ المحيط الأطلنطىّ ، وجاب البحرَ المتوسط أسطولٌ مؤلفٌ من ١٢٠٠ قطعةٍ ، فاستولى على جُزُره وأغارَ على صِقِلِّيَّة .

وحُوصرت القسطنطينيةُ سبعَ سنين على غير جدْوَى ، وعُبِر نهر جيحون ورَفَع قُوّادُ الخليفةِ رايتَه حتى سمرقند .

ومات معاوية (٦٨٠ م) بعد حُكْمٍ دام عشرين سنة .

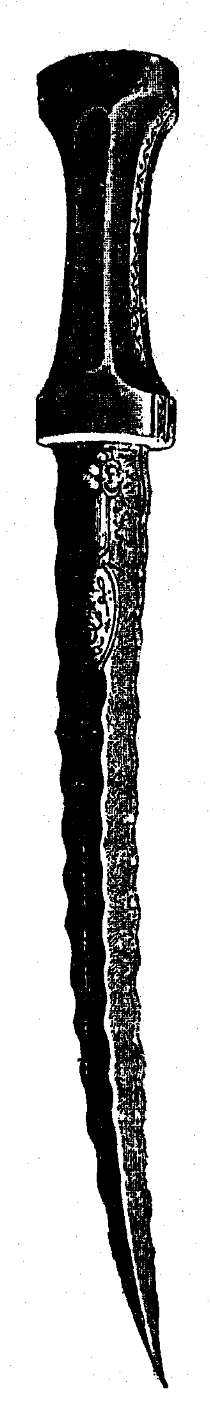
وثابر بنو أمية على الفتح ، وبلغت جيوشُهم حدودَ الصين من الشرق والمحيط الأطلنطىّ من الغرب، وجاوز العرب مضيقَ جبل طارق فى سنة ٧١٢ م، ودخلوا إسپانية ، ووُفِّقوا لنزعها من مملكة القوط النصرانية ، وأقاموا فيها مملكةً خَضَعت لسلطان العرب نحو ثمانية قرون .

ولم يَنْقَضِ القرنُ الأول من الهجرة حتى كانت رايةُ النبىِّ تَخْفُق من الهند إلى المحيط الأطلنطىّ ، ومن القفقاس إلى الخليج الفارسىِّ ، وغَدَت إسپانية ، التى هى إحدى الممالك النصرانية الكبرى فى أوربة ، خاضعةً لشريعة محمد .

القرن الثانى من الهجرة ــ اتسع نِطاقُ الفتوح العربية قليلاً فى القرن الثانى من الهجرة، وأصبح هَمُّ العرب مصروفاً إلى تنظيم دولتهم العظمى على الخصوص، وتوغلت جيوشهم فى بلاد الغول حتى اللوار حيث دحرها شارل مارتل ، واستقروا بجَنوب فرنسة إلى أن طَرَدهم شارلمان منه نهائيًّا .

٥٣ ــ دبوس أمير عربى فى مصر على الطراز الفارسى العربى (هذا السلاح والسلاح الآتى من تصوير پريس الأفينى)

ونَقَلَ ، فى القرن الثانى من الهجرة ، مقرَّ الخلافة من دمشقَ إلى بغدادَ التى أنشأها المنصور فى سنة ٧٦٢ م ، بعد أن تَمَّت الخلافة فيه لبنى العباس (عمِّ النبى) الذين هدموا دولة الأمويين فى سنة ٧٥٢ م ، وقتلوهم خلا طَرِيدٍ منهم استطاع أن يَفِرَّ اتفاقاً وأن يقيم دولةً مستقلة فى إسپانية سنة ٧٥٦ م .



٥٤ ـ خنجر أمير عربى في مصر

واتَّسَعَت رُقْعَة الدولة العربية منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة وبَلَغَت من الحدود مالم تَقْدِر على مجاوزته باسطةً حكمها من جبال البرنات وجبل طارق إلى الهند ، ومن شواطىء البحر المتوسط إلى رمال الصحراء .

وصار مُعْظَم آسية خاضعاً لسلطان الخلفاء الممتدِّ من جزيرة العرب إلى التركستان ومن وادى كشمير إلى جبال طُورُس، وعُبِّدَتْ بلادُ فارس، وصار ملوكُ كابل وجميعُ أمراء وادى السِّنْد يُعْطُون الجِزْيَة ، وأضحى العربُ فى أوربة مالكين لإسبانية ولجُزُر البحر المتوسط ، وأضحَوْا فى إفريقية مالكين لشمالها ولمصر .

وانتهى دورُ الفتوح ، وبدأ دور التنظيم ، وحَوَّل الفاتحون نشاطهم إلى ميدان الحضارة ، وكان عهدُ بنى العباس الأَوَّلين عهد ازدهار لحضارة العرب فى الشرق ، وكان عهداً اقتبس العربُ فيه ثقافَةَ اليونان ، فلم يُعَتِّموا أن أبدعوا حضارةً ساطعة ازدهرت فيها الآداب والعلوم والفنون .

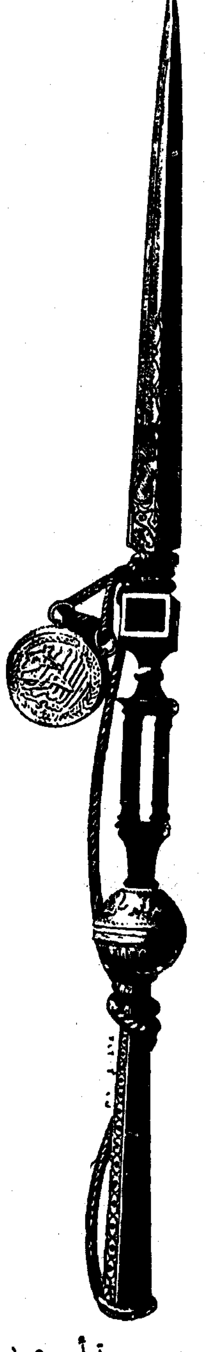
ونَهَضَت الفنونُ والعلوم والصِّناعةُ والتجارة بسرعةٍ فى زمن هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) على الخصوص ، وصار الشعراء والعلماء وأرباب الفنِّ يُشيدون بذكر بطل ألف ليلة وليلة فى أقاصى العالم ، وأعطته القسطنطينيةُ جزيةً ، وأرسل إليه إمبراطور الغرب ، شارلمان ، وفداً ، ولم يَقِلَّ عصر المأمون عن عصر سلفه الرشيد نضارةً .

ولم تكن الروابطُ بين الأمم التى اجتمعت تحت راية الدولة العربية العظمى متينةً ولم تلبث هذه الروابطُ أن انحلَّت، ولم تلبث هذه الأممُ أن أخذت تستقلُّ تِباعاً مع دوام الحضارة على سيرها زمناً طويلاً ، وسيكون القرنُ الثالث من الهجرة شاهداً على هذا الانقسام الذى أخذ يبدو منذ أواخر القرن الثانى .

القرن الثالث من الهجرة . — كان قيام خلافة قرطبة فى الغرب قبل ذلك نذيرَ انقسام دولة العرب، فظهرت فى بلاد فارس والهند بشرق بغداد إماراتٌ كثيرة ، ولم تَنْشَب هذه العاصمة أن أحاط بها أمراء مستقلون .

ويشترى ابنُ طولون استقلالَه السياسىَّ بمصرَ ، ويُقيمُ فيها مملكة ، ويُلْقَى حبلُ إفريقية على غاربها ، ويَملِك إسپانية خلفاء مستقلون استقلالا تامًّا .

القرن الرابع من الهجرة . — استمرت الدولة العربية على الانقسام فى القرن الرابع من الهجرة ، وقامت دولٌ مستقلةٌ فى كثير من ولاياتها ، وخَسِرَت بغدادُ ما للعواصم من المزايا ، وصارت القاهرة قاعدةَ الإسلام الحقيقية ، وأصبحت إسپانية أنضرَ مقرٍّ للحضارة العربية مع دوام عاصمة الخلفاء القديمة على إلقاء أشعتها الساطعة ، ويقْصِد طالبو العلم من جميع أقطار الأرض، ومنها أوربة النصرانية، جامعاتِ العرب الكبيرةَ فى طُلَيْطلة وغَرْناطة وقرطبة .


٥٥ — حربة أمير عربى فى مصر

القرن الخامس من الهجرة . — شَهِدَ القرنُ الخامس من الهجرة أمرين مهمين ، وهما الحروبُ الصليبية وظهورُ الأتراك السلجوقيين فى العالم العربىّ، وكان قد جىء بهؤلاء السلجوقيين البرابرة من التركستان كأسْرَى حرب فى بدء الأمر ، ثم تألَّف منهم حَرَسُ الخلفاء ببغداد ، فابتلعوا السلطة الحقيقية شيئًا فشيئًا غيرَ تاركين للخلفاء من السلطة سوى المظاهر .

وجعل السلجوقيين مَقَرَّهم أمام القسطنطينية بعد أن مَلَكوا جميعَ الولايات المجاورة لبغداد ، واستولَوْا على سورية، وأحَلّوا تعصبَهم محلَّ تسامح العرب ، ونَهَوُا النصارى عن القيام بشعائر دينهم ، وجاروا على حجيجهم ، فاضطربت أوربة وثارت، بعد أن كانت تخشى تقدمَ المسلمين منذ زمن طويل.

ونشأ عن مواعظ بطرس الراهب ودعوة البابا أوربان الثانى أن جَرَّد الأوربيون حملتَهم الصليبية الأولى فى سنة ١٠٩٥ م وانقَضُّوا على فلسطين ، واستولَوْا عليها ، وأنشأ غودفروا البويونى مملكةَ القدس النصرانية الهزيلة .



٥٦ و ٥٧ فأسا أمير عربى فى مصر

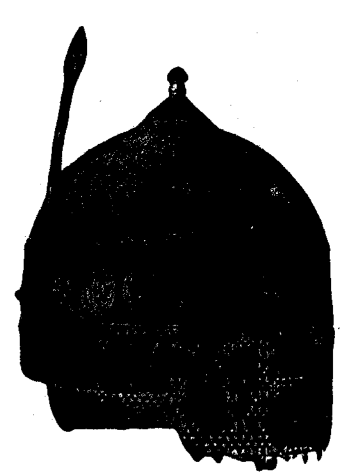
ومما حدث فى القرن الخامس من الهجرة أن طُرِد العربُ من صِقِلِّية وأن حالف نصارى إسپانية بعضُ التوفيق ، فاستولى الأذفونش القشتالىُّ على طُلَيْطِلة ، فكان هذا بُدَاءةَ الفتحِ الذى لم يَتِمَّ إلَّا بعد جهود أربعة قرون .

القرن السادس من الهجرة . — أدى انتصار النصارى الأولُ فى الشرق إلى زيادة الحماسة فى أوربة ، فَجَرَّدَت أوربةُ حملةً صليبية ثانية على الإسلام فى سنة ١١٤٧ م ، فكانت نتيجة هذه الحملة

وَبالاً على الصليبيين كأية حملة جردتها أوربة بعدئذ على العالم الإسلامىّ ، فقــد استولى سلطانُ مصر الشهيرُ صلاحُ الدين الأيوبىّ على بلاد فلسطين وطرد منها النصارى و بَقِيَ سيدَ المدينة المقدسة على الرغم من الحملة الصليبية الثالثة التى جَرَّدتها أوربة فى سنة ١١٨٩م بقيادة فردريك بار باروس وفليب أوغست وقلب الأسد : ريكاردس .

القرن السابع من الهجرة . — جَرَّد الأوربيون على الإسلام عِدَّةَ حَملاتٍ صليبية كان نصيبُها الحبوطَ الذريع ، واكتسح الصليبيون فى حملتهم الرابعة التى جَرَّدوها فى سنة ١٢٠٢ م مدينةَ القسطنطينية المسيحيةَ بدلاً من مقاتلة المسلمين ، وأقاموا فيها دولة لاتينية شرقية لم يُكْتَب لها البقاء أكثر مما كُتِب لدولة القدس ، ولم تكن الحَمَلات الصليبية الأربع الأخيرة أوفرَ حظاً مما تقدمها ، وأُسِر الملك سان لويس فى الحملة السابعة ، وافتدى نفسه بفِدْية عظيمة ، ومات هذا الملك فى الحملة الثامنة بالطاعون حين اقترب من أسوار تونس طامعاً فى تنصير أميرها .

وكانت هذه الحملةُ الثامنة أُخْرَى الحَمَلات الصليبية، وأدرك العالَم النصرانىُّ بها أنه لايزال عاجزاً عن قهر المسلمين ، وعَدَل عن فتح فلسطين ، وظَلَّت الراية الإسلاميةُ تَخْفُق فوقها حتى الآن .



٥٨ — خوذة أمير عربى فى مصر
(على الطراز الفارسى العربى)

وبينما كان العربِ يدفعون نصارى الغرب فى أثناء الحروب الصليبيــة ويَخْرُجون منهـا ظافرين ظهر فى الشرق الأقصى عدوٌّ مخيف ، فقـــد قَذَفَت نُجُود التتر تيَّارَ المغول الذى انْقَضَّ على آسية بقيادة جَنْكِيزخان ، واكتسح بلادَ الصين وفارس والهند ، ثم استولى المغولُ على بغـداد فى سنة ١٢٥٨ م ، وقَضَوْا على العباسيين الذين كان لهم السلطان منذ خمسمئة سنة .

وعلى ما بين الترك والمغول من شَبَهٍ فى الهمجية كان المغول أكثر استعداداً للثقّافة ، فالمغولُ وإن لم يكونوا أهلاً لإبداع حضارة جديدة كما أبدع العرب ، استطاعوا أن ينتفعوا بحضارة العرب الذين ، وإن زال ملكهم فى الشرق ، ظَلَّت حضارتهم تُهَيْمِن عليه .

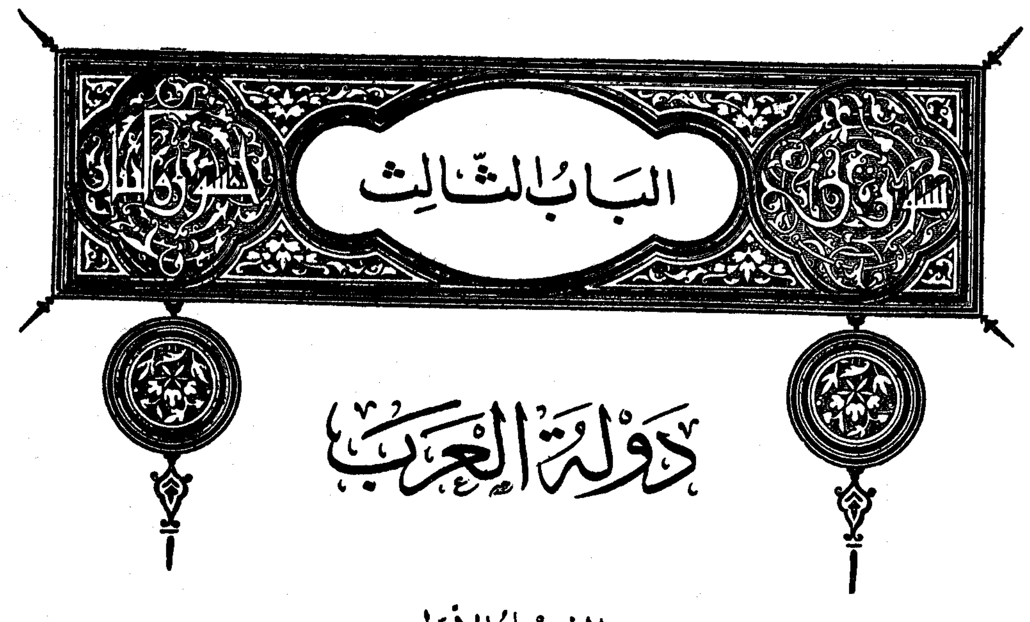
وانحصر سلطان العرب فى مصر وإسپانية بعد أن تَكَمَّش أمام أولئك الفاتحين .

القرن الثامن من الهجرة . — كان القرن الثامن من الهجرة حافلاً باقتتال الترك والمغول على ميراث العرب فى الشرق ، وقد دَقَّت ساعة انحطاط هؤلاء الآخرين .

القرن التاسع من الهجرة . — قُضِىَ على دولة العرب وحضارتهم فى إسپانية التى ملكوها نحو ثمانمئة سنة ، وذلك أن فرديناند استولى على عاصمة العرب الأخيرة غَرْناطة فى سنة ١٤٩٢ م ، وأنه أخذ يُمْعن فى قتلهم وتشريدهم جماعاتٍ جماعاتٍ ، وأن خلفاءه ساروا على سُنَّته ، وأنه قُتِل من العرب وشُرِّدَ ثلاثةُ ملايين نفس ، فخَبَتْ إلى الأبد شعلةُ حضارة العرب التى كانت تُنير أوربة منذ ثمانية قرون .

وكانت خاتمةُ دولة العرب فى القرن التاسع من الهجرة ، ولم يبق للعرب فى الشرق من الشأن الكبير فى غير دينهم ولغتهم وحضارتهم ، وحاولت الأمم التى قهرت العرب أن تسير على نحو العرب كما صنع البرابرة الذين قهروا الرومان ، فأحَلَّت الهلالَ باسم القرآن مَحَلَّ الصليب فى القسطنطينية التى كانت عاصمة الروم ، فارتعدت فرائصُ العالم النصرانىِّ فَرَقاً من ذلك .

ولكن الترك ، وإن كانوا أهلَ حربٍ وقتالٍ ، لم يكونوا أهلًا ليَصْعَدوا فى سُلَّم الحضارة ، ولم يَقْدِرُوا على الانتفاع بتراث العرب المغلوبين الثَّقافىِّ ، فضلًا عن إنمائه ، ويقول العربُ : « لا يَنْبُتُ العُشْبُ على أرضٍ يَطَأُها الترك » ، والحقُّ أنه لم يَنْبُت ، فسترى فى فصلٍ آخرَ دَرَكَة الانحطاط التى هَبَطَت إليها دولة العرب القديمة بسرعة بين أيدى سادتها الجُدُد .



الفصل الأول
العرب في سورية

١ — اختلاف البيئات التى لاقاها العرب

وَقَفْنا هذا الفصل وما يليه من فصول هـذا الباب على البحث فى شأن العرب فى مختلف البلدان التى استَوْلَوْا عليها ، وغايتُنا من ذلك بيانُ حضارة العرب بياناً مجملًا وإيضاحُ تأثيرهم فى الأمم التى عاشروها وتأثيرُ هذه الأمم فيهم ، ونرى أن نُقَدِّر حضارة العرب بالبحث فى آثارهم فى كلِّ بلد افتتحوه فإذا تيسر لنا ذلك أمكننا أن ندرس ، فى فصول هذا الكتاب ، مختلفَ العناصر التى تتألَّف من مجموعها حضارة العرب .

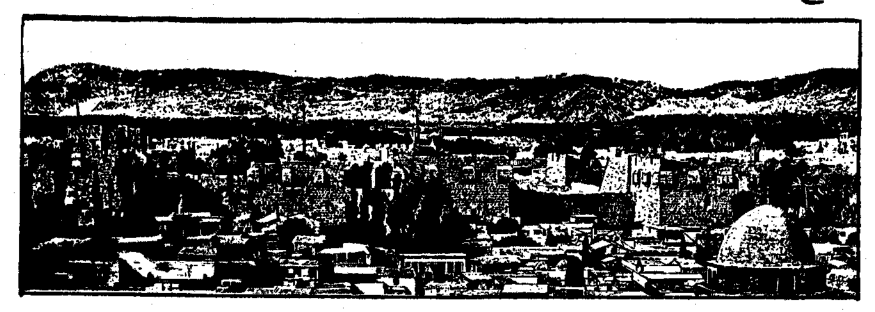
كانت أمم البلاد التى استولى العربُ عليها فى آسيا وإفريقية وأوربة وأقاموا عليها دولتَهم العظمى متباينةً أشدَّ التباين حين الفتح العربىّ ، فأنت ، إذ كنت ترى بينها أمماً من أنصاف البرابرة ، كالتى فى بعض أجزاء إفريقية ، كنت ترى منها أمماً بلغت الذُّروةَ من الحضارة اليونانية والحضارة اللاتينية كالتى فى سورية .

إذَنْ ، كانت الأحوال التى صاقبت العرب مختلفةً باختلاف الأماكن ، وكان من الحقِّ أن يجِدَ الإنسان تفاوتاً فى درجات حضارتهم تبَعاً لتفاوت البيئات .

ذلك مايتجلّى لنا فى تاريخ حضارة العرب كلما توغلنا فى تفصيلاته، وتشتمل حضارة العرب التى دامت ثمانية قرون على درجات كثيرة خلافاً لِماَ ذهب إليه المؤرخون الذين تعوّدوا ، حين البحث فى حضارة العرب ، أن ينظروا إليها من خِلال أمة واحدة ودور واحد ، وكان للعمارة والآداب والعلوم والفلسفة والدين درجاتُ تطورٍ مختلفةٌ باختلاف الأقطار التى خضعت لسلطان العرب ، ولم يمنع ذلك من أن يكون للعرب تراثٌ مشتركٌ من الناحية الدينية والناحية اللغوية مادام الإسلامُ دينَهم والعربيةُ لغتَهم ، ولـكن وَحْدَة اللغة والدين لا تَعْـنِى وَحْدَة حضارة العرب فى مختلف البلدان التى خضعت لشريعة محمـد ، كما أنك لا تستطيع أن تخلِط حضارة الأمم النصرانية فى القرون الوسطى بحضارتهم فى عصر النهضة أو فى الوقت الحاضر .

٢ — استقرار العرب بسورية

كان البلدُ الغنىُّ ، سورية ، قد أصبح رومانياً قبل الفتح العربىّ بنحو سبعة قرون ، ويوجد ارتباكٌ وغموض فى أخبار المعارك الأولى التى أدّت إلى فتح العرب لسورية، فأما مؤرخو العرب ، وعلى رأسهم الواقدىّ الذى يُرجَع إليـه على العموم ، فإنهم مَزَجُوا الحقائق بالخيال ، فحَطّ ذلك من قيمة قَصَصِهم ، فأنت إذا أنعمت النظر فى روايات الواقدىّ رأيته يُذَكِّر ، حين بحثه فى وقائع العرب الحربية ، بأبطال أوميرث مع رفعٍ لقيمة المرأة فى تلك الوقائع ، وأما مؤرخو الروم فقد التزموا جانب الصمت عن فتح سورية الذى كان كلُّه عاراً على دولة بزنطة القوية .



٥٩ ـ أسوار دمشق (من صورة فوتوغرافية)

ومهما تـكن دقائقُ الفتح العربىِّ لسورية فإن سورية خضعت لحـكم العرب بعد حرب سِجَالٍ بين العرب والروم .

وفتحُ دمشق من أهمّ فتوح العرب فى سورية ولم تلبث دمشقُ الشهيرةُ أن أصبحت فى العهد الأُمَوِى عاصمةَ الدولة العربية بدلاً من المدينة .

وتمّ فتحُ دمشقَ يوم وفاة الخليفة الأول أبى بكر فى السنة الثالثةَ عشرةَ من الهجرة (٦٣٤م) ، وصَرَخ هرقل حين أتاه خبرُ سقوط دمشق قائلاً : « وداعاً يا سورية ! » :

حقًّا لقد خَسِر الرومُ سورية ، فقد استولى العرب بعد معركة اليرموك الشهيرة ، التى دامت ثلاثة أيام وانتهت بانتصار العرب ، على جميع مدن سورية ، وفتحوا عَنْوَةً تَدْمُرَ وبعلبكّ وأنطاكية وطبرية ونابلسَ والقدس وطرابلس وغيرها ، وأُكرِه القيصر على مغادرة سورية إلى الأبد بعد أن ملكها أسلافه منذ سبعة قرون .

وكان لفتح القدس دوىٌّ عظيمٌ بين المدن التى استولى عليها المسلمون، وكان المسلمون يعلقون أهميةً كبيرةً على فتح هذه المدينة التى كانوا يقدسونها تقديسَ النصارى لها ، ففيها توفِّىَ المسيح الذى هو عند المسلمين من أعاظم الأنبياء ، وفيها الصخرة الشهيرة التى عَرَج منها محمد فى السماء .

هجم العرب على القدس بِشدَّةٍ كالتى أبْدِيَت للذَّبِّ عنها ، وحَثَّ البطركُ صفرونيوسُ الحماةَ النصارى على الدفاع عن قبر الربِّ فلم يُجْدِ ذلك نفعاً تجاه القَدَر الذى قَضَى بأن تَحِلَّ راية الإسلام محلَّ الصليب فوق قبر يسوع ، ورأى صفرونيوسُ أن يُذْعِن بعد حصارٍ دام أربعة أشهر ، واشترط أن يَتسلم الخليفةُ عمرُ القدسَ بنفسه، فقُبِل ذلك ، فركِب عمر بعيراً ، وغادر المدينة وحدَه تقريباً ، ولم يأخذ معه من الزّاد سوى قِرْبة ماء وجِراب شعير وأُرْزٍ وتَمْر ، وأغَذَّ عمرُ فى السير ليلَ نهارَ ليَصِلَ إلى القدس فى وقت قصير ، فلما دخل القدس أبدى من التسامح العظيم نحو أهلها ما أَمِنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم ، ولم يَفْرض سوى جزية زهيدة عليهم .

وأبدى العربُ تسامحاً مثلَ هذا تِجاه المدن السورية الأخرى كلِّها ، ولم يَلْبَث جميعُ سكانها أن رَضُوا بسيادة العرب ، واعتنق أكثرُ أولئك السكان الإسلام بدلاً من النصرانية ، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية، وظلت سورية بلداً عربيًّا إسلاميًّا كما كانت فى أوائل الفتح العربى مع تداول كثيرٍ من الفاتحين لسيادتها بعد ذلك .

ولما توالت هزائم الروم فى سورية استحوذ عليهم خوفٌ عظيم من العرب الذين أمعنوا فى ازدرائهم،

ومن الأدلة على ذلك الكتابُ الآتى الذى أرسله عمرُ بن الخطاب إلى هرقل يطالبه فيه بإطلاق قائدٍ عربىّ أسَره الروم فى إحدى الوقائع :

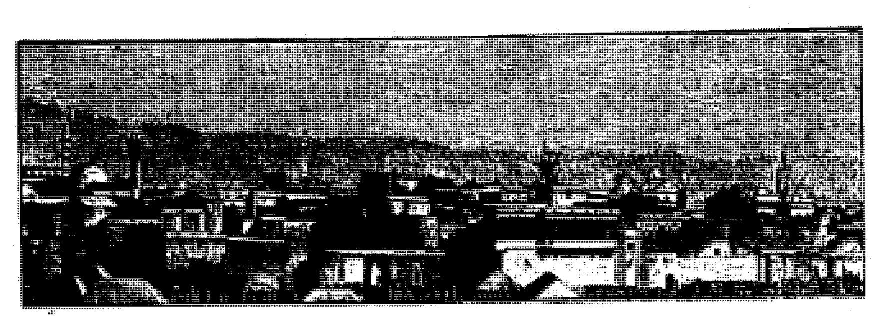
« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله ، من عبد الله عمرَ بن الخطاب إلى هرقل ملك الروم ، أطلقوا الأسيرَ المسلم ، عبدَ الله بن حذافة ، حين وصول كتابى هذا إليكم ، فإن فعلتم ذلك رجوت من الله أن يهديَكم الصراط المستقيم ، وإن لم تفعلوا فإننى أبعث إليكم رجالًا لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بَيْعٌ عن الجهاد فى سبيل الله ، والسلام على من اتبع الهدى » .

ولم يكن القيصر هرقل ليغضب من هذا الكتاب الشديد ، فقد أطلق الأسيرَ مصحوباً بهدية ثمينة إلى الخليفة ، وهرقلُ هذا هو وارث عرش القياصرة الجبّارين الذين دوّخوا العالم فخلَف من بعدهم خَلْفٌ فقدوا المشاعر التى كان فيها سِرُّ عظمتهم .

وعاد عمر إلى المدينة بعد أن تمَّ فتحُ سورية ، ونظَّمَ شؤون الدولة الفَتِيَّة مُوصِياً قُوّاده بتوسيع رُقعتها ، ووَزَّع عمرُ الغنائم العظيمة التى أخذها المسلمون من الروم والفرس على أصحابه ، وجعل لهم ، على حسب قِدَم خِدَمِهم ، رواتبَ سنوية تترَجَّح بين ألف درهم وخمسة آلاف درهم .

٣ ـ حضارة سورية أيام سلطان العرب

استردَّت سورية أيام الحكْم العربىّ ما أضاعته من الرَّخاء منذ زمن طويل ، وبلغت درجةً رفيعة من الرُّقىِّ فى العهد الأُمَوِىّ والصدرِ الأول من العهد العباسىِّ ، وكان العدل بين الرعية دستورَ العرب السياسىِّ ، وترك العرب الناسَ أحراراً فى أمور دينهم ، وأظلَّ العربُ أساقفةَ الروم ومطارنةَ اللاتين بحمايتهم ، فنال هؤلاء مالم يعرفوه سابقاً من الدَّعة والطُّمَانينَة ، وبلغت الصِّناعةُ والزِّراعة درجةً رفيعة فى سورية ، وازدهرت بسرعةٍ كُبْرَياتُ المدن السورية كالقدس وصور وصيدا ودمشق .



٦٠ ــ حى الميدان بدمشق (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وكانت سورية من أغنى أقطار العالم دائماً ما لم تنَلْها أيدى التخريب ، فهى ذات أرض كانت تُنْبِت البُرَّ والقطن والشعير والأُرُزَّ والتوت والزيتون والليمون والبرتقال من غير عناء ، وكانت جبال لُبنان مستورةً بأعرّ الأشجار ، كشجر البلوط والدُّلْب(١) والجُمَّيْز إلخ ، ولولا الإنسانُ لكان هذا البلدُ القديم جنّة الأرض ، واستحقَّ تسميةَ العبريين له بأرض الميعاد ، ذلك البلدُ العجيب الذى وَصَف شعراء العرب كلَّ جبل فيه بأنه يحمل الشتاء على رأسه والربيع على كَتفَيْه والخريفَ على صدره على حين يرقُد الصيفُ متثاقلاً على قدميه .

ويُسْتَدَلُّ على حضارة سورية أيام سلطان العرب بما رواه الكُتّاب وبما لا يزال قائماً فيها من المبانى .



٦١ ــ شارع فى دمشق (من صورة فوتوغرافية)

وروى المؤرخون أن سورية لم تلبث أن ازدهرت بعد أن فتحها العرب ، فقد جدَّ العرب فى دراسة كتب اليونان والرومان مثلما جدُّوا فى ميادين القتال ، وأنشأوا المدارس فى كلّ مكان ، وصاروا أساتيذَ من فورهم بعد أن كانوا تلاميد ، وأنهضوا العلوم والشعر والفنون الجميلة أيّما إنهاض .

ودام رَخاء سورية حتى دور الانقسام الذى زلزل دولةَ الخلافة ، وأخذ ينقُص ، ولم يتمَّ زواله إلا حين غدَت سورية تابعةً لدولة الترك ، فصِرْت لا ترى فيها شيئاً مما كان فى أيام الحكم العربىّ من النفائس والفنون والصِّناعة ، وأصبحت المدن الكبيرة القديمة ، كصَيدا وصور ، قُرًى حقيرة ، وتعرَّت الجبال تماماً ، وهجر الناسُ الحقولَ الغنية بعد ازدهارها فيما مضى ، وأضحت هذه الأماكنُ الخصيبة لا تُنْبِتُ

(١) الدلب : شجر عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمرة .

عُشباً ما ثقلت عليها وطأة الترك ، قال مسيو دافيد فى تاريخه عن سورية :

كأنَّ من العَبَث أن أدَّت حضارة الخلفاء فى قرنين ، كما أدَّى الأغارقة والرومان ، إلى إنشاء المبانى الرائعة وصنعِ النفائس الفاخرة ونشرِ اللغة الراقية ووضعِ طرائف نحوها المنطقية وقولِ أشعارها البليغة ، وكأنَّ من العَبَث أن سَقت دمشقُ الفولاذَ وغزَلت حلبُ الحريرَ اللامع ، وكأنَّ من العبث أن ازَّيَّنَتْ رُبَا حوران وهِضَابُها بالزرع وأشجار الفاكهة الذهبية وأن أبدى أهلوها نشاطاً فائقاً ، فقد حرَّق ، عن عمدٍ ، أجلافُ القفقاس ، الذين بزُّوا جميع قدماء الفاتحين جهلاً وقسوةً وطمعاً ، آثارَ الفنِّ والعلوم وهدموا المصانع وقتلوا العُمَّالَ وسَحَقوا كلَّ شيء لم يستطيعوا نقلَه » .

وعادت سورية لا تكون غير بلاد جديبة خَرِبة فى الوقت الحاضر ، واستوقفت نُدْرَة نباتها نظرى حين طُفْتُ فيها ، ولاح لى أنها بلغت من الفقر مالا تأتى معه بغير كَلأ قليل ، ومررتُ من الطريق الواقعة بين بيروت ودمشق فلم أجِد أثراً للنبات فى غير ما قَرُب من أبواب المدن ، وعاد لبنان وما وراء لبنان لا يكونان سوى صخور عارية ، وليس الجَدْب فى أبواب القدس أقلَّ من ذلك ، ولا ترى فى كلِّ مكانٍ سوى الحجارة والصخور ، ولا تجد شيئاً من الكَلأ (١) .

---

(١) يعود انحطاط الزراعة فى سورية إلى عدة أسباب ، ومنها الجفاف الناشىء عن قطع غابها ، ومنها غارات الأعراب ، ومنها ظلم الباشوات ، فالفلاح ، الذى يعلم أن ما يدخره يكون عرضة للنهب لا محالة ، يتقاعد عن العمل ، ولو قدر لسورية نوع من الإدارة الرشيدة التى تحمى رءوس الأموال لبلغت زراعتها ما بلغه أغنى بلاد أوربة ، ففى سوريا ينبت القمح ويربى شجر التوت وينمو الزيتون من غير عناء وبما يثير العجب ، ويستدل على ما يمكن أراضى سورية أن تنتجه بالمعلومات الآتية التى جمعتها فى أمكنتها ، وهى :

فكر بعض سكان يافا وصيدا منذ أربعين سنة فى زراعة البرتقال ، فأصبحت هذه الزراعة من أهم موارد البلاد ، ففى يافا وحدها ٣٥٠ حديقة برتقال تشتمل كل واحدة منها على ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ شجرة ، ويترجح ثمن الواحدة منها بين أربعين ألف فرنك وخمسين ألف فرنك ، ويترجح دخلها السنوى بين أربعة آلاف فرنك وخمسة آلاف فرنك ، وتباع ثمار هذه الحدائق فى مصر وتركية وأوربة ، ويبلغ ثمن كل ألف حبة برتقال أربعين فرنكا ، ويمكنك أن تقدر المدى الذى قد تبلغه زراعة البرتقال فى تلك البلاد إذا علمت أن ثمن الفدان الأملس الواحد (نحو أربعة آلاف متر مربع) الصالح لزراعة البرتقال فى جوار يافا ١٢٠٠٠ فرنك ، وأنه لا يزيد على بضعة فرنكات فى الأراضى التى تبعد منها ساعتين أو ثلاث ساعات ، وينتظر أن تعد لزراعة البرتقال الأراضى التى يسهل ريها من نهر العوجة والتى لا قيمة لها فى الوقت الحاضر .

٤ — المبانى التى تركها العرب فى سورية

لم تكن المبانى التى تركها العرب فى سورية كثيرةً ، وإنما يفيد درسُها كثيراً لِقِدَمها ورَوْعتها .

ذكرنا آنفاً أنه كان للعرب مُدُنٌ مهمة قبل ظهور محمد ، وأنه كان فى الكعبة الشهيرة أكثرُ من ثلاثمائة صنم ، وإننا نجْهَل ، مع الأسف ، كيف كان فنُّ العِمارة العربية قبل الإسلام وإن ما حدث فى الحرم المكىِّ ، وهو البناء العربىُّ القديم الوحيد المعروف ، من الترميم المتصل يجعل وَصْفَ ما كان عليه أيام الجاهلية أمراً صعباً ، وكلُّ ما نتصوره هو أن المسلمين حافظوا على ترتيبه الأول .



٦٢ — ساحة المسجد الكبير فى دمشق (من صورة فوتوغرافية)

ومهما يكن من أمرٍ فإن مما لا ريب فيه أن مبانىَ الدَّور الإسلامىِّ الأول لم تكن من صنع العرب ، وأن عمال البلاد التى دانت لهم هم الذين غَيَّروا معالم الكنائس لتكون موافقة لعبادة المسلمين ، وأنهم أقاموا مبانىَ العرب بأنقاض الكنائس ، وأن عمال الفرس والروم هم الذين أتيح للعرب ، على الأكثر ، أن يستخدموهم فى سورية ريثما يكونون أهلًا لذلك .

وكان شأنُ العرب بالنسبة إلى المهندسين الأجانب الذين استخدموهم فى دور الفتح كشأن الرجل الغنىِّ الذى يقيم لنفسه بيتاً ، فكما أن المهندس الذى يرسُم بيت ذلك الغنىِّ يراعى فيه ، لا ريب ، ذوقَه نرى مهندسى الروم قد راعَوْا ذوق العرب فيما أقاموا لهم من المبانى الأولى ، فتَجَلَّت عبقرية العرب فيها .

ولم يلبث العرب ، بعد أن تحرروا من المؤثرات الأجنبية ، أن أصبح لعمارتهم من الأشكال والنقوش الخاصة ما صار يتعذر معه خلطها بغيرها ، وإن أمكن أن يُرَى شىء من الأثر البزنطىِّ أو الفارسىِّ أو الهندىِّ فى بعض زخارفها مع محافظة البناء فى مجموعه على طابعه العربىّ .

ولنبحث الآن فى بعض المبانى المهمة التى تركها العرب فى سورية :

جامع عمر . — جامعُ عمرَ الشهيرُ القائم فى القدس هو عند المسلمين أقدسُ مكانٍ فى الأرض بعد الحرم المكىِّ والحرم المدنىِّ ، وقد كان دخولُه ، حتى السنين الأخيرة ، مُحرَّماً على كلِّ أوربىّ ، وإلّا قُتل ، وقد قضى الصليبيون منه أعظمَ العجب حين اقتحموا القدس ، وقد عدُّوه معبدَ سليمان ، وقد نال شهرةً عظيمة فى أوربة فأقيمت فيها كنائسُ كثيرةٌ على طِرازه ، وقد يكون جامعُ عمر البناء الدينىَّ العالمىَّ الوحيد المقدس عند المسلمين واليهود والنصارى على السواء .

بُنِىَ جامعُ عمرَ على مكان هيكل سليمان الشهير الذى جدَّده هيرودس وأُعْجِب بأُبَّهته تيطس ، ذات ساعة ، حين حاول إنقاذَه من اللَّهب ، وعلى الصخرة التى أراد إبراهيم ذَبْحَ ابنه عليها امتثالاً لأمر الله كما تقول القصة ، والأماكنُ التى تجمع فى العالم من الذِّكريات مثلُ هذا المكان قليلةٌ إلى الغاية ولا تجد مكاناً اتفق له من التقديس ما اتفق لهذا المكان لا ريب ، ففيه كان سليمان يَعْبُد ربَّ اليهود القادر ، وعليه كان الرومان يُسَبِّحون بحمد ملك الآلهة والناس جوپيتر العظيم ، وفيه وضع الصليبيون صورة المسيح ، والآن يعبد المسلمون فيه إله النبىِّ محمد .

ولم تكن قيمة جامع عمر بما يثير من الذكريات فقط ، بل هو من أهمِّ ما شاده الإنسان أيضاً ، وهو أعظم بِناء يستوقف النظر فى فلسطين بالحقيقة .

ويقوم جامع عمر فى وَسَط ساحة فسيحة يبلغ طولها خمسمئة متر وتَعْدِل مِساحتها ربعَ مِساحة القدس تقريباً ، ويحيط بها سورٌ يُطْلِق العربُ عليه اسمَ الحرم الشريف ، وتشتمل على مبانٍ مهمة كثيرة نذكر منها المسجدَ الأقصى على الخصوص .

وأثبتت مباحث علم الآثار الحديثةُ أن ساحة الحرم القدسىّ هى ذُرْوَة جبل مُريَّة التى مَهَّدها سليمان وسَوَّاها وأنشأ عليها هيكله ، ووَسَّع ملوك اليهودية ، ولا سيما هيرودس ، نطاقها مرةً بعد مرة ، ونُرَجِّح أن الصخرة المَقدسة الواقعة فى وَسَط جامع عمر كانت أعلى نقطة فى ذِرْوَة جبل مُريَّة فاحترمها سليمان فى أثناء تلك التسوية .

وبُنِى جامع عمر على رُقعةٍ من الرخام قائمة الزوايا مرتفعةٍ ثلاثةَ أمتار من أرض الحرم، وقام جامع عمر على المكان الذى كان فيه هيكل إسرائيل على التحقيق ، ويُرْقَى إليه بمَرَاقٍ كثيرة قليلةِ الدَّرَج تعلوها حنايا مصنوعةٌ على رسم البيكارين قائمةٌ على أعمدة رُخامية ذاتِ تأثيرٍ حسنٍ جدًّا .

٦٣ ـ مئذنة عيسى فى المسجد الكبير بدمشق

ويُزَيِّنُ تلك الرُّقعةَ من الحرم منابرُ للوعظ ومحاريبُ للصلاة ، إلخ . ، ويُرَى بعضُ هذه الآثار طريفاً إلى الغاية .

ويخطِئُ الأوربيون حين يُسَمُّون ذلك المسجدَ جامعَ عمر ، فهذا البناء ليس مسجداً فى الحقيقة ، ولم يُنشِئه عمر ، وإنما أشار عمر ، الذى لم يَمكُث فى القدس سوى زمن قصير ، إلى المكان الذى رَغِب فى إقامة مسجدٍ عليه ، ويرى مسيو دوفوغيه أن بناء هذا الجامع تمَّ بعد وفاةِ عمرَ بمدةٍ طويلة ، أى فى السنة الثانية والسبعين من الهجرة (٦٩١م) ، ولا يُسَمِّيه العرب بغير اسم قُبَّة الصخرة لاشتماله ، بالحقيقة على الصخرة المقدسة التى تكلمنا عنها .

ويذكرنا ذلك البناء الإسلامى القديم فى مجموعه بالطراز البزنطى، ولكن ملوك المسلمين أصلحوه وأتمّوه فى مختلف الأدوار فاشتمل على نماذجَ مهمةٍ للفنّ العربىّ فى تلك الأدوار(١) .

وجامعُ عمر مُثمّن الزوايا ، ويُدْخَل من أربعة أبواب مقابلة للجهات الأربع ، ويكسو الرُّخامُ جوانبَه السفلية، ويستر الميناء الفارسىّ الجميل جوانبَه العليا التى تمّ تصفيحها به بعد إنشائه بزمن طويل، أى فى زمن السلطان سليمان القانونىّ (سنة ١٥٦١) .

ويتلألأ ذلك الميناء الجميل كالحجارة الكريمة حين تُلْقِى الشمس أشِعّتَها على جامع عمر فيكتسب خارجُ هذا الجامع منظراً سحريًّا خياليًّا لا عهد لجوانب المبانى الأوربية الدُّكْن بمثله ، والمرء قد يُفكّر فى تلك القصور السحرية التى يبصرها بخياله أحياناً ، ولكن الخيالَ دون الحقيقة فى أمر جامع عمر .

وليس داخل جامع عمر على شىء من التعقيد ، ففيه نِطاقان مُثمّنان دوا مركز واحد ، ويحاط هذان النِّطَاقان بسياج مُدَوّر حول الصخرة الشريفة التى هى فى وسط هذا الجامع .



٦٤ ـ مدرسة وأساتذتها وتلاميذها فى دمشق
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

---

(١) إن وصفنا لجامع عمر وغيره من المبانى العربية مختصر عن ضرورة ، وهو مع اختصاره يكفى لإتمام صور هذا الكتاب الصادقة ، ويتطلب وصف كل واحد من أكثر المبانى العربية المهمة ، التى نذكرها فى هذا السفر وصفاً جامعاً ، مالا يقل عن مجلد واحد ، فقد خصص مسيو دوڤوغيه مجلداً واحداً لوصف جامع عمر ، وخصص أوين جونس مجلدين مصورين ضخمين لوصف الحمراء وحدها ، وخصص پريس الأڤينى ثلاثة مجلدات لوصف مبانى القاهرة ، وهنالك أبنية عربية كثيرة لم توصف مفصلا بعد ، واكتفى المؤرخون بذكرها من غير أن ينشروا صورها فى الغالب ، وإن فى نشر صورة لكل واحد منها ما يغنى عن بيان مائة صفحة ، ونحن ، والحالة هذه ، نأمل أن تكون لدى القارئ فكرة جامعة صائبة فى مبانى العرب بعد إنعامه النظر فى الصور التى عرضناها فى هذا الكتاب ، ونرى أن صورنا الفوتوغرافية ، التى هى الأولى من نوعها عن داخل جامع عمر على الخصوص ، أصدق من أى رسم جاء عنه فى أى كتاب نشر حتى الآن ، فبهذه الصورة الفوتوغرافية ظهر ما فى داخل هذا الجامع من الدقائق ، وذلك مع ما اعترضنا حين التقاط هذه الصور من المصاعب بسبب تفاوت نور داخل هذا الجامع وتعذر دفع آلة التصوير إلى الوراء عند الاقتضاء ، وليس من غير مصاعب كبيرة ما وفقنا لنيله من الصور التى يشتمل عليها هذا الكتاب .

وزينةُ داخل جامع عمر غنيــة إلى الغاية ، وسيقانُ أعمدة نِطاقه الأول من الرُّخام المأخوذ من المبانى القديمة والمختلف شكلاً وارتفــاعاً ، وتختلف تيجان هذه الأعمدة فى الشكل أيضاً ، ويَرْجِــع أكثرها إلى أوائل العصر البزنطىِّ ، ويستر أعلى جدران هذا الجــامع فُسَيْفِساء باهرةٌ تَرْجِــع إلى القرن العاشر من الميلاد كما يُظَنُّ ، ويحيط بقاعدة قُبَّته عِصابةٌ عريضة مُزَيَّنة بآيات قرآنية عن المسيح مكتوبةٍ بخطوط كوفية ذهبية .

وجُدِّدَت قُبَّة جامع عمر فى سنة ١٠٢١م ، أى فى زمن ازدهار الفنِّ العربىِّ ، وهى ذات زُخْرف داخلىّ رائع ، أى مَــكْسُوَّةٌ بالفُسَيْفِساء والنقوش والرسوم العربية الجميلة المتشابكة المعقدة إلى الغاية .

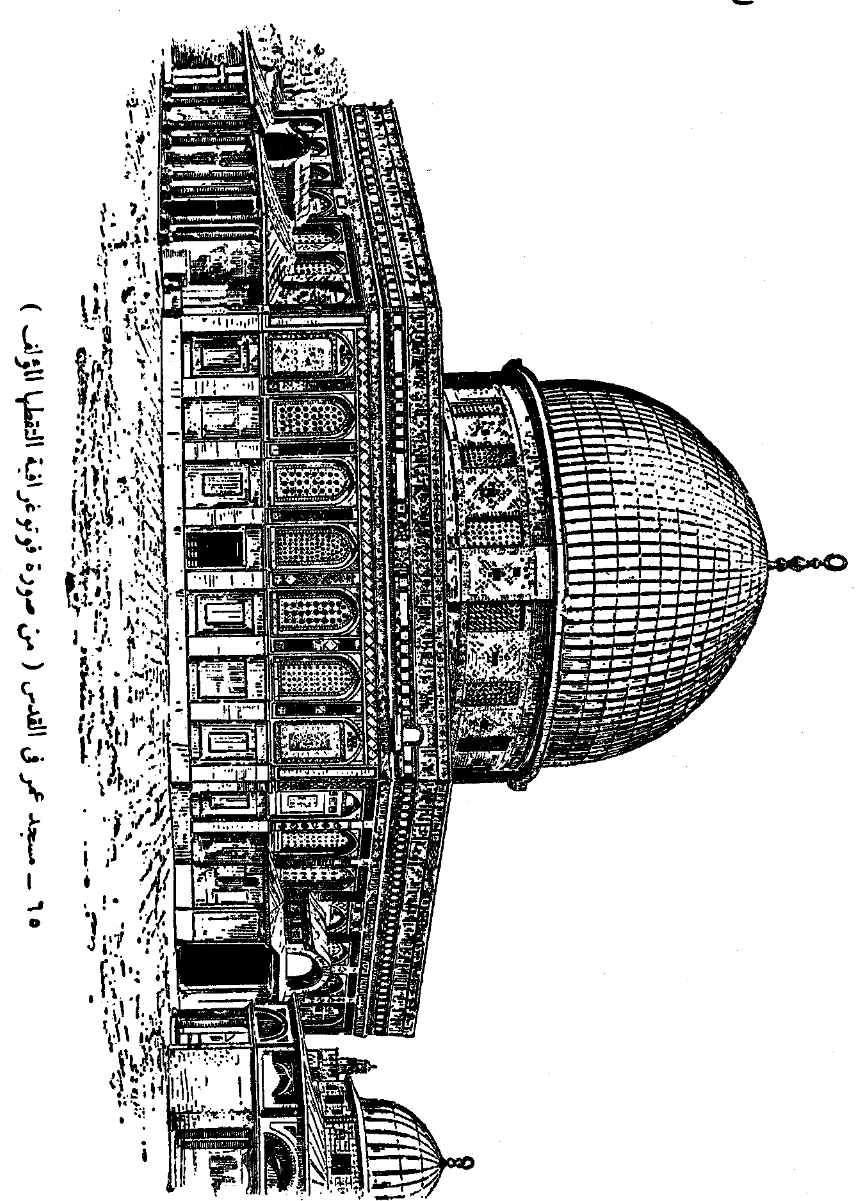
وداخلُ المسجد باهرٌ جميعُه ، فجواجزُه مستورةٌ بالميناء والفُسَيْفِساء والرسوم الذهبية وصحائفِ البرونز المُطَرَّقة ، ونوافذُه مُزَيَّنَةٌ بقِطَــعٍ زجاجية مُلَوَّنة فى القرنِ السادس عشرَ ، موصولٍ بعضُها ببعض وصلاً منسجماً بالجِصِّ ، لا بالرصاص كما فى أوربة ، وينشأ عن هذا الوصل المنسجم ما لا نراه فى كنائسنا من الظلِّ والنور .

وتُرَى فى وسط جامع عمر تلك الصخرة الشريفة التى يقال إن مَلْكِيصادَق وإبراهيمَ وداودَ وسليمان كانوا يُضَحُّون بقرابينهم عليها ، ونرى مع ذلك ، أن تلك الصخرة هى ذُروة جبل مُرِيَّة التى احترمها سليمان حين توطئته لهذا الجبل ، كما ذكرنا آنفاً ، فاتخذها مذبحاً فى هيــكله لا ريب .

ويبلغ طول تلك الصخرة المقدسة سبعة عشرَ متراً ، ويبلغ ارتفاعها مترين ، ويحيط بهــا سياجٌ حديدىٌّ مصنوعٌ فى زمن الصليبيين ، ويُشار فى الغار الذى تحت تلك الصخرة إلى المــكان الذى رُوِى أن داودَ وسليمان صَلَّيا فيه .

وتقول القِصَّة العربية إن محمــداً ذهب على الدابة الخيالية التى تــكلمنا عنها آنفاً من ذُرْوَة تلك الصخرة ليُــكَلِّم الله ، وتُؤَيِّد هذه القصةَ بوجود سَرْج رُخامى لتلك الدابة لا يزال مُرَصَّعاً فى قُبــة الصخرة ، وتذهب هذه القصة إلى أن جبريل هو الذى منع تلك الصخرة من مصاحبة محمــد فى رِحلته بعد أن ارتفعتْ من الأرض بضعةَ أمتار ، وأن تلك الصخرة بَقِيَت معلقة فى الهواء منذ ذلك الحين راغبةً عن العودة إلى حيث كانت ، وهذا ما يُرَدِّدُه سَدَنَةُ جامع عمر للزائرين بإخلاص ، ومع ذلك ،

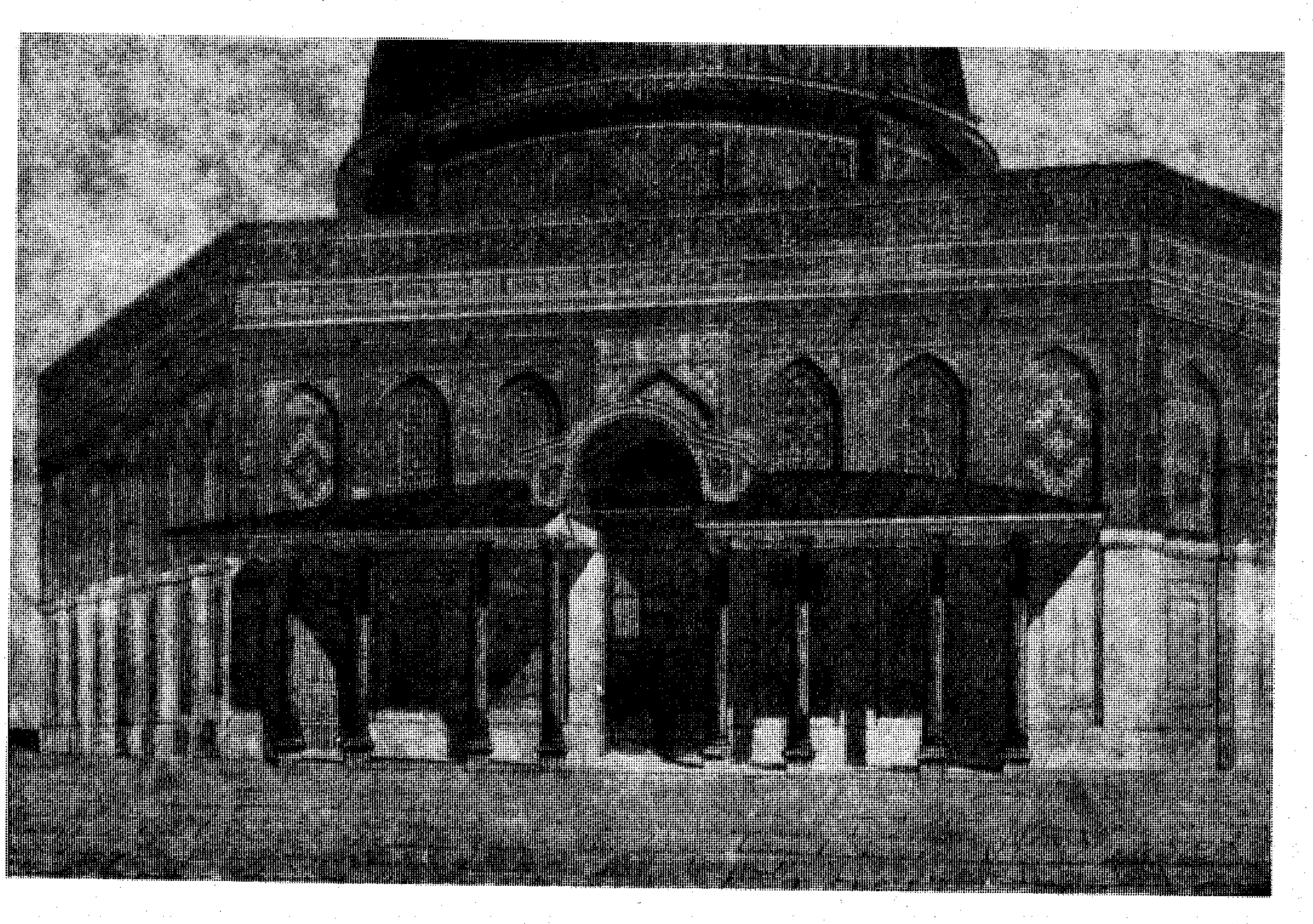
فقد أتيح لى فى أثناء دراستى الطويلة لجامع عمر وحديثى الكثير مع قَيِّمِه أن أسأل هـذا القَيِّمَ عن رأيه فى ذلك فرأيته ضعيف الإيمان بصحته ، وظهر لى أن حاكم القدس العثمانىّ فى الوقت الحاضر حَظَر على سَدَنة ذلك الجامع رواية هذه الأُسْطُورَة للنصارى .



٦٥ — مسجد عمر فى القدس (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ويعلو قبة جامع عمرَ هلالٌ عظيم .

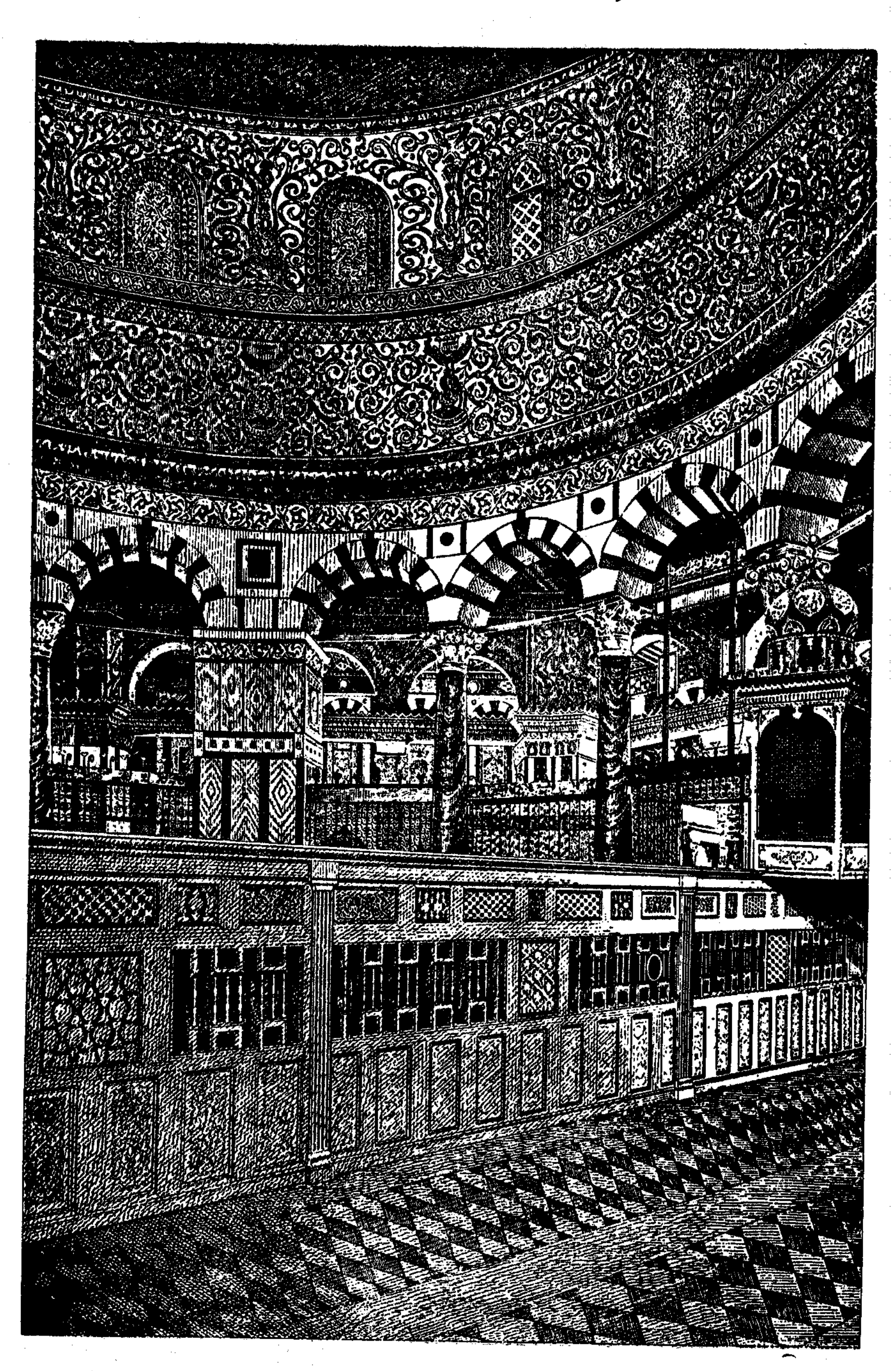
ويُرَى فى الحرم ، أمام جامع عمرَ ، مِنْبَرٌ عربىٌّ جميل مصنوعٌ من الرُّخام الأبيض وتعلوه قبـة



جامع عمر بالقدس

(من تصوير المؤلف الفوتوغرافى)

صغيرة قائمة على حنايا مصنوعة على شكل نعل الفرس ، ويُسَمَّى هـذا المِنْبَرُ مِنْبَرَ عمرَ وإن أُنشئ بعد عمر بزمن طويل ، أى فى القرنِ الخامسَ عشرَ من الميلاد .



٦٦ ــ داخل مسجد عمر (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وبذكر من بين الأبنية المهمة القائمة فى الحرم البناء المعروف بقُبَّة السِّلْسِلة أو محكمة داود ، وهذا البناء جَوْسَقٌ حجرىّ أنيق مبنىّ على الطراز البزنطىّ ومستورٌ بالميناء الفارسىّ ، وتقول القصة إن محكمة داود كانت قائمة هنالك .

المسجد الأقصى . — بُنِيَ المسجد الأقصى فى الحرم القدسىّ ، وهو قديمٌ أيضاً ، وأصلُ المسجد الأقصى كنيسةٌ بناها القيصر جوستنيان تبجيلاً للعذراء وحَوَّلها العرب إلى مسجدٍ بأمر الخليفةِ عمرَ ، ثم هَدَم الزلزالُ المسجدَ الأقصى وجُدِّد بناؤه فى سنة ٧٨٥م ، ثم نالته يد الإصلاح وأكسبته مَسْحَةً عربيةً مع الزمن ، ولو فى الجزئيات على الأقل ، ثم رَمَّمَهُ صلاحُ الدين فى سنة (٥٨٣ هـ - ١١٨٧م) ، ثم جُدِّد فى القرنِ الخامسَ عشرَ من الميلاد ، بعضُ أجزائه ، كرواقه مثلاً .

ويشتمل المسجد الأقصى على أعمدة أُخِذَت من مبانٍ كثيرة ، ونرجح أن صحونه المركزية ، التى هى على الطراز البزنطىّ ، أُنْشِئَت فى القرن السابع .

وأقواسُ المسجد الأقصى مصنوعةٌ على رسم البيكارين على العموم ، وسَكَن الصليبيون المسجدَ الأقصى واتخذوا دِهْلِيزَه مستودعاً لأسلحة فرسان الهيكل .

ويحتوى المسجد الأقصى على محرابٍ أنيقٍ مُزَيَّن بالفُسَيْفِساء ، وتدلُّ كتابته على أن صلاح الدين هو الذى أنشأه فى سنة (٥٨٣ هـ - ١١٨٧م) ، وأقيم مِنْبَرُه العجيبُ المصنوعُ من الخشب المنقور المُرَصَّعِ بالعاج والصدف فى سنة (٥٦٤ هـ - ١١٦٨م) ويعود زجاج نوافذه التى تعلو محرابَه إلى القرنِ السادسَ عشرَ من الميلاد .

ويُرَى فى جانِبَى المسجد الأقصى كُوَّتان طريفتان للصلاة إحداهما ذاتُ أعمدة مبرومة وحنايا مصنوعة على رسم البيكارين وتُدْعَى محرابَ عمرَ على زعمِ أن عمر صَلَّى فيه ، وتُدْعَى الأخرى محرابَ زكريا عادةً (١) .

---

(١) رسمت جميع الصور والألواح التى عرضنا بها مختلف أقسام المسجد الأقصى وجامع عمر من الداخل وفق صورنا الفوتوغرافية ، ولم تظهر فى أى كتاب آخر بعد ، وكان لنا بمسيو مالپرتوى عون نافع فى تلوين صورنا الفوتوغرافية عن زجاج النوافذ والمحراب حيث هما .

المبانى العربيــة الأخرى فى القدس . — مبانى العرب الأخرى فى القدس أقلُّ أهميةً مما ذكرناه آنفاً ، ونكتفى بأن نذكر منها بابَ دمشقَ الجميلَ الذى جدَّد السلطانُ سليمان بناءه ، وإن شئت فقلْ رمَّمَه ، فى سنة (٩٤٤ – ١٥٣٧م) .

ونحن إذا استثنينا المبانىَ الأثرية الأخرى القليلة ، كـكنيسة القيامة[1] ، لم نرَ فى القدس غيرَ المبانى المصرية ، وللنفوذ الأوربىّ فى القدس أثرٌ ظاهر مُؤدٍّ إلى نزْع طابعها الشرقىّ بالتدريج . والمرء حينما يقترب من القدس عن طريق يافا ، يشعر بتبدُّد أحلامه ، فهو يرى أديارَ الرهبان والمشافىَ والقنصلياتِ الـكثيرةَ فيظُنُّ نفسَه فى ضاحية إحدى المدن الـكبيرة ، ومن يرغب فى اجتلاء عظمة القدس وجلالها فليَصْعَدْ فى جبل الزيتون على الخصوص ، ثمَّ ليُرْجِع البَصَرَ لِيَرَى القدسَ الزاخرة بالقِباب والمآذنِ والأسوار والبروجِ ذات الشُّرُفات والبيوتِ ذات الباحات .

وما فى القدس من الذِّكْريات يكفى وحدَه لجعلها موضع تمجيد ولاجتذاب الحجاج إليها من أقصى أقطار الأرض ، ويالَسِحْر تلك الذكريات ويالَرَوْعتها فى قلوب المؤمنين الذين يزورون القبر المقدس وجبلَ الزيتون ووادى قدرون ووادى يهو شافاط وضريحَ العذراء وتربةَ ملوك اليهودية والطريقَ للقدس وجبلَ صهيون وما إلى ذلك من الأمكنة التى تَـكْثُر فى الجوار !

ومهما يكن المرء ملحداً فإنه لا يستطيع ألَّا يكترث للقدس التى هى مَنْبِت إحدى الدِّيانات الـكبرى ، ويُخَيَّل إلى الإنسان أن ظِلَّ المسيح يُشْرِف على القدس التى شَهِدَت وفاتَه ولا يزال اسمُه يَطِنُّ فيها ، وليس بجائزٍ أن يُبْحَث بحثاً عميقاً فى أمر هذه الأماكن المقدسة لِمَا فى هذا من خطرٍ لنفوذها ، والخيال الذى أملاه الإيمان المتين هو الذى دَلَّ عليها مع ضَياع أثرها منذ زمن طويل ، فهل تلك الحديقةُ هى حديقةُ الزيتون التى نَدَب المسيحُ فيها حَظَّه ؟ وهل تلك الطريقُ هى الطريقُ التى مَشَى عليها المسيحُ لِيُصْلَب ؟ وهل ذلك القبر الذى يُعَظِّمه النصارى هو القبرُ الذى ضَمَّ جُثْمان المسيح بعد موته ؟ إن علم الآثار الحديث شديدٌ فى أجوبته عن هذه الأسئلة ، فهو يقول : إن القدس الحاضرة قائمةٌ ،

---

(١) مقدم كنيسة القيامة العجيب ذو رسوم هندسية وحنايا قوطية قريبة من الحنايا المصنوعة على شكل نعل الفرس ، فأعده مختاراً من المبانى العربية ، أو من المبانى التى أثر فيها الطراز العربى على الأقل .

عِدَّةَ أمتارٍ ، على أنقاض القدس الماضية التي أمر بهدمها تيطس ، فيتعذر رسمُ خِطَطها القديمة ، ولكن الإيمان وحدَه يكفي المؤمن ، ولا غَرْوَ ، فالإنسان لا يُقدِّس غيرَ الخيالات ، والقديمُ منها أكثرُ ما يُكْرِمُ ، لأنه أكثرُ ما أُكْرِم .

برجُ الرملة العربيُّ . — أذكر برج الرملة من بين مباني العرب القديمة القليلة في سورية ، ويقوم



٦٧ ـ سقف الرواق الأول الداخلي في جامع عمر (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

هذا البرج بالقرب من مدينة الرملة الصغيرة الواقعة بين القدس ويافا .

ويُسَمِّى العربُ برجَ الرملة ببرج الشهداء الأربعين ، ويؤكِّدُ العرب أنه دُفِنَ فيه أربعون شهيداً من المسلمين .

وبرجُ الرملة مثالٌ جميل لفنِّ العِمارة العربية ، وهو مُرَبَّع الشكل ، ويدخله النورُ من نوافذَ مصنوعةٍ على رسم البيكارين ، وتُبلَغ ذُرْوَتُه بِمِرقاةٍ مؤلفةٍ من ١٢٠ درجة لا تزال فى حالة جيدة خلا الدرجاتِ الأخيرة منها .

وعَدَّ بعضُهم برجَ الرملة أثراً صليبيًّا ، وهو يُذَكِّرنا بالطِّراز الذى نقله الصليبيون إلى أوربة فى الحقيقة ، ولكنه لا ينبغى الشكُّ فى أصله العربىِّ الثابت بدقائقه وفنِّ بنائه ، وبالكتابة التى تدلُّ على أنه أُنْشِئَ فى سنة (٧٠٠ هـ – ١٣١٠ م) ، والتى تطابق ماروواه أحد مؤرخى العرب من أن ابن السلطان قلاوون هو الذى بناه ، وتَنْفِى الحالةُ التى عليها الحجرُ المنقوشة عليه تلك الكتابةُ كلَّ احتمال بإضافة هذا الحجر مؤخراً إلى برج الرملة .

مبانى العرب فى دمشق . — ذكرنا ، حين بَحَثْنا فى أحوال العرب قبل ظهور محمد ، أن دمشق كانت مستودعَ تجارةِ الشرق فى فجر التاريخ ، وكان العربُ يَعْرِفون دمشقَ قبل ظهور محمد بِعِدَّة قرون لجلبهم محاصيلَ بلادهم إليها ، وكانت دمشْقُ جَنَّةَ الدنيا فى نظرهم ، وكانت دمشق من أروع مدن العالم فى غابر القرون كما هى الآن ، ودمشقُ هى التى قال القيصرُ جوستنيان إنها « نُور الشرق » .



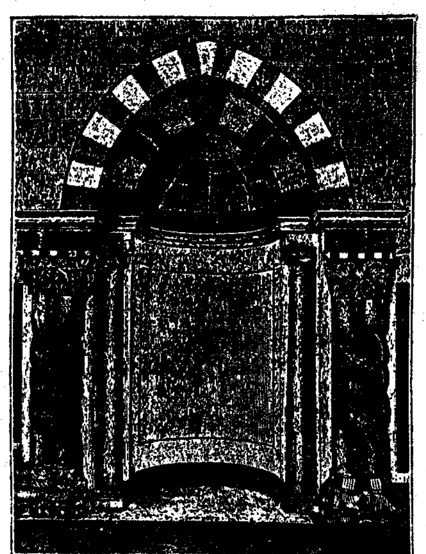
٦٨ — محراب زكريا فى المسجد الأقصى
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وكانت دمشقُ من الأهمية ما اتخذها العربُ معه عاصمة لدولتهم بدلًا من المدينة ، كما قامت بغداد مقامَ دمشقَ بعد زمنٍ طويل .

وظَلَّت دمشق مركزاً كبيراً للتجارة والعلوم والصِّناعة فى الشرق حتى بعد أن عادت لا تكون عاصمةً لدولة العرب ، وكانت لمدرستها الطبية ومرصدها الفلكىِّ وقصورها ومساجدها شهرة عالمية .

وظَلَّت دمشقُ ، التى كانت معاصرةً لدَوْر الأهرام ، موجودةً مع استيلاء الآشوريين والميديين والمصريين والفرس والأغارقةوالرومان والعرب والترك عليها بالتتابع،ولكن انتهابها وإحراقها مما أتى على قصورها تقريباً .

والعربُ ، وإن زالت سيادتهم عن دمشق ، يَمْلِكونها بدينهم وعاداتهم ولغتهم ، وقد تكون دمشق من أكثر مدن العالم اصطباغاً بصبغة العرب، وقد نَجَتْ دمشقُ من النفوذ الأوربىِّ تماماً لَعطَلها من مكانٍ للأوربىِّ إلا نادراً ، وذلك خلافاً لبقية سورية ، وليست دمشق كالقاهرة التى تتفرنج كلَّ يوم مع أن العرب هم الذين أنشأوا القاهرة وثَبَت مُلْكهم فيها عِدَّة قرون ومع أن القاهرة تشتمل على أبنية عربية أعظمَ قيمةً مما فى دمشق ،



٦٩ ـ محراب عمر فى المسجد الأقصى
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وعلى من يريد أن يَطَّلِع على طبائع الشرق ، وأن يَرْجِع إلى منبع التاريخ ، ويعيشَ فى الماضى، أن يزور دمشق .

وتبدو دمشقُ ذات المآذن الجميلة وغُوطَتُها للناظر من بعيد ذاتَ منظرٍ ساحر أجمعَ السُّيَّاح على امتداحه وإن لم أرَه يَعْدِل منظر القاهرة الفتَّانَ من فوق قلعتها ، قال مسيو داڤيد :

« يرَى السائح الذى يقترب من دمشق أنه لا شىء يَعْدِل عظمتَها ورَوْعَتها وسحرها ، فلدمشق غُوطَتُها النَّضِرَة التى تقع بين سهل واسع،والتى تتخللها منازلُ القوم وحدائقُهم،والتى تحيط بأغرب مافى الدنيا وأسطع مافيها من أسوارٍ خلافاً لمعاقل الغرب الشاحِبة الكامدة القَذِرَة ، وتبدو هذه الأسوار، المؤلفةُ من حجارة صُفْر وسُودٍ مدورةٍ ومربعةٍ ومثلثةٍ على ألفِ شكلٍ مع الانسجام ، حُلّةً مُوَشَّاة بالزبارج كما وصفها شعراء الشرق .

« وليس ذلك النِّطاقُ كلَّ مايبدو للأعين ، فهنالك أسوارٌ فى داخل المدينة تَفْصِل بين أحيائها ، وهنالك أسوارٌ ذاتُ أبراجٍ مُرَبَّعةٍ قائمةٍ على جوانبها ، وهنالك أسوارٌ تعلوها زخارفُ على شكل عمائم .

« ولكن هذا ليس سوى المرحلة الأولى من المنظر ،فصميمُ المدينة أسنى وأبهى،وهو يتألف من أشجارٍ تَأْلَفهُ من بيوت ، وذلك أن هنا صفًّا من شجر السَّرو ، وهنا محلاًّ للنزهة ، وهناك أقواساً عربية ، وهناك سوقاً للأخذ والعطاء ، وهنالك نخلاً تَهُزُّ رءوسها الجميلة فوق حوضٍ على شكلِ نصفِ دائرةٍ لِعَيْنٍ عظيمة،وهنالك أشجاراً مثمرة مصفوفة على شكلِ رِقاع الشِّطْرَنج داخلَ قصرٍ إسلامىّ، ثم هنالك أكثرَ من ألف قبة تعلوها الأهِلّةُ النُّحَاسيَّة والمآذنُ الرفيعة القائمة على جوانبها .

« ولتلك الرَّوضَة المزهرة أشجارٌ عالية وحدائقُ جميلةٌ ذات وَقْعٍ فى النفوس كأشعة الشمس الوَهَّاجة ، ولها شُعَبُ بَرَدَى السبعُ المُتَلَوِّيَةُ الفضية التى تَهَبُ دمشقَ سحرَ الألوان أيضاً .

« تلك هى دمشق التى يُسَمِّيها العرب بالشام ، والشامُ مايُسَمِّى به العرب بلادَ سورية » .

والأوربىُّ ، حين يدخل دمشقَ التى يُسَمِّيها العربُ دُرَّةَ الشرق ، لا تستهويه أوّلَ وَهْلَة ، وإنما تُؤَثِّرُ فيه طُرُقٌ مُعْوَجَّة قَذِرَة تقوم على طَرَفَيْها بيوتٌ خَرِبة ذاتُ جدرانٍ مصنوعة من طين وتِبْن ، وتُؤَثِّرُ فيه أعفارٌ تُعْمى الأبصار بما لا يتصوره الإنسان ، ولا يزول هذا التأثيرُ السيئُ عن الأوربىِّ إلا بعدَ تألُّفِها .

وتجارةُ دمشقَ الواسعةُ القائمةُ بينها وبين بقية الشرق تمنحها حياة عظيمة وطابعاً شرقيًّا خاصًّا ، والقوافلُ التى تأتى من بغدادَ تُوصِل إليها منتجاتِ فارسَ والهند ، وتَحْمِلُ القوافل إلى ذينك البلدين نسائجَها الحريرية المشهورة وبُزُوزَها وجلودها المدبوغة ونحاسها المُكَفَّت بالفضة .

وأقول ، مُكَرِّراً ، إنه يجب على من يرغب فى اجتلاء الشرق وألوانه اللامعة أن يزور دمشق وأهمُّ ما يستوقف النظر فى هذه المدينة القديمة ويبدو متنوعاً هو طُرُقها وأسواقها التجارية الطريفة واستجلاء أمثلةِ مختلف أمم الشرق فى بضع ساعات ، ففيها يُرَى الفُرْسُ ذوو القلانس الفَرْوِية والخناجرِ الزُّنَّارية ، ويُرَى السوريون ذوو الحُلَل المُخَطَّطَة والكوفيات والعُقُل الوَبَرِيَّة ، وتُرَى النساء العربيات

ذواتُ المآزر البيض التى تلمع عيونُهن المتوقدة من خِلالها، ويُرَى الدمشقيون ذوو الطرابيش الحُمْر أو العمائم البيض والألبسةِ الحريرية المُخَطَّطَة بخطوطٍ بيضٍ وسُود والمشدودةِ بزنانير ، ويُرَى حجاجُ البيت الحرام ذوو الثياب الرَّثَّة ، ويُرَى قَوَّاسُو القناصل ذوو السياط والملابس المُوَشَّاة الزُّرْق والخطوات الموزونة ، ويُرَى الموظفون العثمانيون ذوو الأَرْدية الرسمية القاتمة، ويُرَى فرسان الدروز ذوو العُجْب المُنَطَّقُون بالسلاح والراكبون عِتاق الخيل التى تعلوها سروجٌ جلدية قِرْمِزِيَّة مزينة بقطع لامعة من الذهب والفِضة ، وتُرَى قُطُر الجمال يَحْرُسها تجارٌ آتون من كرمان والأناضول وشواطىء الفرات . ويُرَى الأكراد والأعراب والأرمن والموارنة واليهود وروم الأرخبيل ، ويُرَى فى هذه الأخلاط اختلافٌ فى الألوان كالذى يُرَى فى قَوْس قُزَح، ويُرَى فيها ذوو البياض الناصع وذوو السواد الحالك وذوو الألوان التى بين اللوْنَيْن .

وقد خُيِّل إلىّ ، حينما كنت جالساً على متكأ فى إحدى القَهَوات العربية بدمشق ، وكنتُ أتأمَّل أولئك الناسَ من خِلال دُخان نارجيلتى ، أىْ من خلال هذا المِنْظَارِ السحرىِّ الغريب، أن قدرة ساحرة نقلتنى من فور ، ولساعةٍ ، إلى بيئة حاوية لأمم آسية فى غابر الأزمان .

أَجَلْ ، رأيت ، على مايحتمل ، منظراً مُنوَّعاً كذلك على الجسر الممتد من غَلَطَةَ إلى الضَّفَّة الأخرى من القرن الذهبىّ فى الآستانة ، ولكن العنصر الأوربىّ هو الغالب هنالك مقداراً فمقداراً ، ومن ثمَّ أرى أن الشرق عاد لا يتجلى وحدَه فى الآستانة مع مافيها من الأمثلة المتباينة لمختلف شعوب العالم .

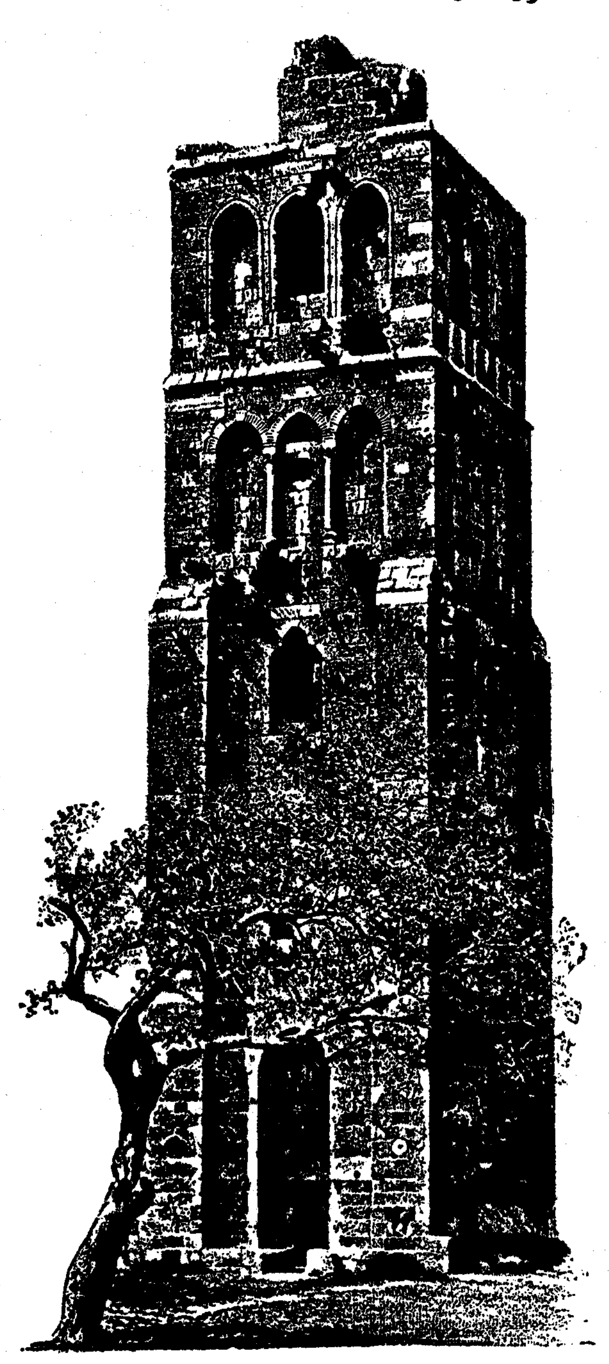
ويستعذب علماء الآثار وهُوَاةُ التُّحَف ورجال الفنِّ طولَ الإقامة بدمشق ، لِمَا يجدون فيها من بقايا المبانى مايتطلب وصفُه مجلداً ضخماً وما يُخْشَى أن يزول بعد زمن قليل لتداعيه يوماً بعد يوم ، ويُرَى فى كلِّ خطوة من ضاحية الميدان الواقعة على مدخل طريق مكة أنقاضُ مساجدَ وعيونٍ وأبنية أخرى ترجع إلى ماقبل مئتى سنة أو ثلاثمئة سنة ، وتشتمل على ضروب من الزينة القديمة وَفْقَ تقاليد العرب ، ويُشَاهَد فى تلك الآثار أثرٌ للفنِّ الفارسىِّ غيرُ قليل .

ويمكن الباحثَ أن يلاحظ فى دمشق وحدَها قصوراً على الطِّراز العربىِّ القديم مشتملةً على

محراب المسجد الأقصى ومنبره بالقدس

(من تصوير المؤلف الفوتوغراف)

وسائلَ للراحة والرفاهِيَة مع الذوق لا يُرَى مثلها فى أرق مساكن أوربة ، ومن دواعى الأسف أن نرى سُنَّة السكَوْن تجْرِى حُكْمها على هذه القصور فتزول .



٧٠ ــ برج الرملة (من صورة فوتوغرافية)

وبما أننى سأتكلم فى فصلٍ آخرَ عن أحد هذه القصور فإننى أكتفى الآن بذكر الجامع الكبير الذى هو أقدم مبانى دمشق .

بُنِيَ الجامع الكبير ، الذى يَرْجِعُ قسمٌ منه ، على الأقلِّ ، إلى ما بعد الهجرة بزمن قليل ، على أنقاض معبدٍ وَثَنِيّ حوَّلَه النصارى إلى كنيسة ، ثم التهمته النيران فى سنة (٤٦١ هـ ـ ١٠٦٩ م) فجُدِّد بناؤه ، وهو دون ما كانت عليه حالته الأولى وأقلُّ أهميةً من مساجد القاهرة على الخصوص .

وأُقيمَ جامع دمشقَ الكبير على هيئة المساجد الإسلامية الأولى ، فهو يتألف مثلُها من ساحةٍ كبيرة قائمة الزوايا ذاتِ أروقةٍ خُصِّصَ بعضها للصلاة وأقيمت على أركانها مآذنُ ، وسنصف فى الفصل الذى نتكلم فيه عن عربِ مصرَ مساجدَ كثيرةً من هذا الطِّرَاز .

وروَى مؤرخو العرب أن الرُّخام النادر كان يستر أسفلَ جُدْران ذلك المسجد الجامع ، وأن الفُسَيْفِساء كانت تستر أعلاها كما تستر قُبتَه ، وأن سقفه كان مصنوعاً من الخشب المُموَّه بالذهب ، وأن مصابيحه ، وعددها ستمائة ، كانت من الإبريز ، وأن محاريبه كانت مرصعة بالحجارة الثمينة .

ولم يبق من تلك الزينة سوى الشيء القليل ، وتُزَيِّن جدرانَه الآن خطوطٌ جميلة ، ويُزَيِّن نوافذَه زجاجٌ ذو ألوان كثيرة ، ويشاهَدُ في مواضعَ منه أثرٌ لِلفُسَيْفِساء القديمة .

ويشتمل ذلك الجامع الكبير على مِئْذَنتين مُرَبَّعَتَى الشكل وعلى مِئْذَنةٍ ثالثة أنيقةٍ مُثَمَّنَة الشكل ذاتِ أروقةٍ مُنَضَّدَة ومنتهية بكُرَة وهلال ، ومئذنةُ العروس أقدم هذه المآذن الثلاث ، وتَرْجِع في قِدَمِها إلى القرن الأول من الهجرة كما يُعْتَقَد ، ومِئذنةُ عيسى ، وهي إحدى هذه المآذن ، مُرَبَّعَة الشكل ، وتقول القِصَّة العربية إن عيسى سينزل على ذروتها يومَ الحساب لا ريب .

ظهر مما تقدم أن العرب احترموا منذ دور الفتح الأول ، آثارَ الأمم التي مَلَكوها ولم يفكِّروا في غير الانتفاع بحضارتها وترقيتها ، وذلك خلافاً لكثيرٍ من الأمم الفاتحة التي جاءت بعدهم ، وأن العرب الذين كانوا أميين في بدء الأمر لم يَلْبَثُوا أن فاقوا أساتذتهم ، وأنهم تعلموا بسرعةٍ ما كانوا يجهلون من فنون الحرب واستعمال آلات الحصار الرومية فسبقوا أعداءهم في ذلك ، وأنهم بعد أن كانوا مبتدئين في العلوم والفنون ما ثلوا الأمم الأخرى فيها بفضل ما أنشأوا من المدارس ثم تقدموها ، وأنهم ، بعد أن كانوا غير عالمين بفنون العمارة ، وبعد أن استخدموا مهندسين من الروم والفُرْس في تشييد مبانيهم ، استطاعوا بالتدريج أن يتخلصوا كلَّ الخلاص من كلِّ مُؤَثِّر أجنبيّ بما أحدثوا من التغيير والتبديل في فنون العِمارة وَفْقَ ذوقهم الفنيّ كما نرى ذلك عمّا قليل .

الفصل الثانى

العَرَبُ فى بَغْدادْ

حضارة العرب فى الشرق فى دَوْرِ الخلافة ببغداد

دَوْرُ الخلافة فى بغداد بآسية ودَوْرُها فى قرطبة بإسپانية أنضرُ أدوار الحكم العربىّ ، ولما استقلّت تانك الدولتان بسرعةٍ ، وفَصَلت بينهما مساوفُ عظيمةٌ ، كان لهما أصلٌ واحد ودينٌ واحد ولغةٌ واحدة ، تَقَدَّمَتا تقدماً متوازياً عِدَّةَ قرون ، وكانت المدينتان الكبيرتان ، بغدادُ وقرطبةُ ، وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للإسلام من مراكز الحضارة التى أضاءت العالم بنورها الوَهَّاج أيام كانت أوربة غارقة فى دياجير الهمجية .

ولم يلبث دَوْر ازدهار حضارة العرب أن بدأ بعد أن فرَغوا من فتوحهم ، وما بذلوا من الجهود فى الوقائع الحربية فى البُداءة وجَّهُوا مثله إلى الآداب والعلوم والصِّناعة ، فتقدموا فى الفنون السِّلْمِيَّة مِثْلَ تقدمهم فى الفنون الحربية .

ورأينا أن دمشق أصبحت عاصمة دولة الأمويين العربية بعد المدينة ، فلما قبض العباسيون على زمام الخلافة فى سنة (١٣٢ هـ — ٧٤٠ م) عزموا على تبديل العاصمة ، فأقاموا بالقرب من بابلَ وعلى شاطئ دِجْلَة ، مدينةَ بغداد التى لم تلبث أن صارت أشهرَ مدن الشرق .

ولم يَبْقَ من المبانى التى شادها الخلفاء فى بغداد مثلُ ما بَقِيَ فى سورية ، ولكن ما انتهى إلينا من آثار العرب فى العلم والأدب فى ذلك الدور وما ورد فى كتب مؤرخيهم يكفى لِتَمَثُّل حضارتهم فى القرن التاسع من الميلاد ، وما نذكره الآن ، وما نَدْرُسه فى الفصول الآتية من تاريخ العلوم والفنون ، يُلْقِى نُوراً على ناحيةٍ مهمةٍ من نواحى الحضارة العربية لم نُوضِحه فى الفصل السابق .

بَلَغَت بغداد ذُرْوَة الرَّخاء فى عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد الشهير (٧٨٦م—٨٠٩م)

وابنِه المأمون (٨١٣ م ـ ٨٣٣ م) وصارت أهمَّ مدن الشرق ، وذاع صيت الرشيد ، وطبّق الآفاق ، فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رُسُلاً إلى بلاطه ، وأرسل عاهل الغرب الحقيقيّ وصاحبُ الحوْل والشّوْكة ، الإمبراطورُ شارلمان ، الذى كان يَملِك ما بين المحيط الأطلنطيّ ونهرِ الإلب ، وهو الذى لم يَملِك غيرَ أناس من الهمَج ـ وفداً ليُبلِّغ الرشيدَ أطيبَ تحياتِه ويلتمسَ منه الحماية لحجيج القدس فأجابه الرشيد إلى سؤاله ، وردّ إليه وفْدَه مع هدايا عظيمة ، ومن بينها فيلٌ مُجهَّز بأفخر جهازٍ ، والفيلُ كانت تجهله أوربة تماماً ، ولآلئُ وجواهرُ وحُلِيٌّ وعاجٌ وعطورٌ ونسائجُ حريريةٌ وساعةٌ دَقّاقَة تدلّ على الوقت ، وقد قضى إمبراطور الغرب شارلمانُ العجبَ من هذه الساعة هو وحاشيتُه المتبربرون الذين لم يكن بينهم من قَدَر على إدراك كُنْهها ، والذين حاول شارلمانُ عَبَثاً أن يَحْمِلهم على إحياء حضارة الرومان .

وجلس الرشيد على عرش الخلافة فى الثالثة والعشرين من سنيه ، وكان تنظيمُ شؤون دولته الواسعة أوّلَ مافكر فيه ، فوُصِلَت ولايات الدولة بوسائلِ نقلٍ مُنَظَّمة وأُنْشِئَت مرابطُ لتتمكن البُرُد بها من قطع المساوف الكبيرة على عجَل ، وعُنِيَ بحمَامِ الزّاجل لربط مابين المدن بالرسائل كما هو واقعٌ بين بعض المدن فى الوقت الحاضر ، وكانت إدارة البريد ببغدادَ من أهمِّ وظائف الدولة كما فى أوربة الحديثة .

وكان الوُلاة على رأس الولايات ، وكانوا يمتثلون أوامرَ الخليفة ، وكان يقوم مقامَ الخليفة فى الولايات النائية ، كشمال إفريقية ، أمراء وِرَاثيُّون استقلوا مع الزمن استقلالاً تامًّا .

وكانت مالية الدولة دقيقةَ الضبط ، وكان دخْل الدولة قائماً على الجزْية والخَراج والمكوس وإحياء المَوَات واستخراج المعادن ، وروَى مؤرخو العرب أن دَخْل الخلافة السنويّ بلغ مئتى مليون فرنك ، أى مبلغاً عظيماً فى ذلك الزمن .

وكان يقوم بأعمال الجِباية لجنَةٌ تُدْعى الديوانَ ، قال ابن خلدون : « إن ديوان الأعمال والجِبايات من الوظائف الضرورية للمُلْك وهى ، القيام على أعمال الجبايات وحفظِ حقوق الدولة فى الدَّخْل والخَرْج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعْطياتهم فى إباناتها والرجوع فى ذلك إلى القوانين التى يُرتِّبها قَوَمَةُ تلك الأعمال وقَهارِمَةُ الدولة ، وهى كلُّها مسطورةٌ فى كتابٍ شاهدٍ بتفاصيل ذلك فى الدَّخْل والخَرْج مَبْنِيّ على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المَهَرَة من أهل تلك الأعمال ، ويُسَمّى ذلك الكتاب بالديوان ، وكذلك مكان جلوس العُمَّال المباشرين لها » .

وكانت إدارة الدولة موزعةً بين أربعة دواوينَ مماثلةٍ لدواوين الزمن الحاضر، وهو ديوان الغنائم ونفقات الجند وديوانُ الضرائب وديوانُ الجباية وديوان رقابة الدَّخْل والخَرْج .

وكانت جميع أوامر الخلفاء تُكْتَب فى سجلٍّ مَصُون لِيَرْجِعَ إليها فيه من يأتون بعدهم .

وكان الوزيرُ مرجعَ شؤون الدولة الأعلى ، وكان أكثرُ الخلفاء يتركون له مقاليدَ الحكم تماماً ، ويشابه مَنْصِبه فى عصر الخلفاء مَنْصِبَ رئيس الوزراء فى أيامنا .

ولم تكن الشُّرْطَةُ فى عهدِ الخلفاء أقلَّ انتظاماً من البريد والمالية ، وكانت للتجار نِقابَةٌ مسؤولة لرقابة أمور البيع والشراء ومنع الغش والتدليس .

وكان انتظامُ مالية الخلفاء سبباً فى القيام بأعمال عظيمة تعودُ على الناس بالخير ، كتعبيد الطُرُق وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافى والمدارس فى جميع نواحى الدولة ، ولا سيما بغدادُ والبصرةُ والمَوْصِلُ ، إلخ .

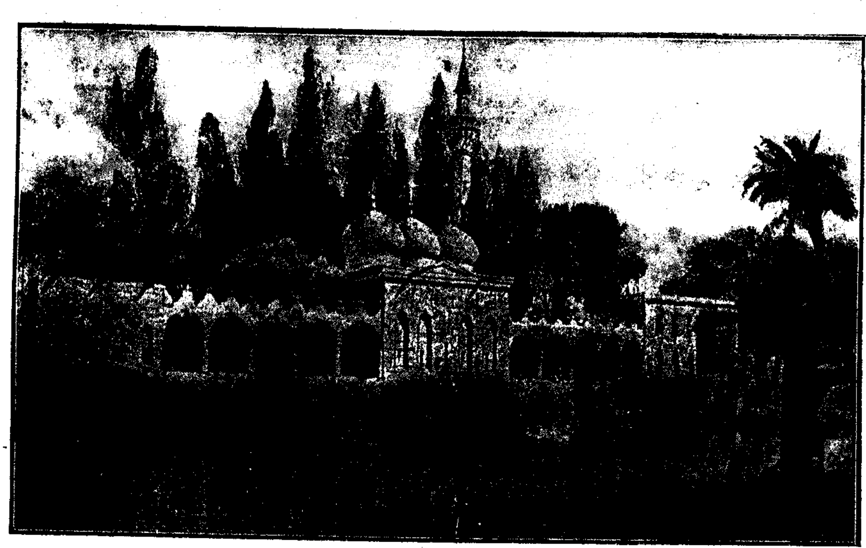
واتَّسع نِطاقُ الزراعة والصناعة، واشتهر نَبيذُ شِيرَازَ وأَصْبَهان، وصار يصدَّر إلى البلاد البعيدة ، وأُنشئت مصانعُ للنسائج الحريرية فى الموصل وحلب ودمشق ، وصار العرب يستغلون المالح ومناجم الكبريت والرُّخام والحديد والرَّصاص ، إلخ ، بطرقٍ فَنِّية .

ووُسِّعت دائرة التعليم العامّ ، واسْتُدْعِيَ الأساتذة من مختلف أقطار العالم ، وبلغ علم الفلك درجةً رفيعة من التقدم ، وانتهى إلى نتائجَ لم يَنْتَهِ إليها الأوربيون إلا فى العصر الحاضر ، كقياس دائرة نصف النهار ، ونُقلَت إلى اللغة العربية كتبُ علماء اليونان واللاتين ، ولا سيما كتبُ الفلسفة والرياضيات ، وصارت تُدَرَّس فى جميع المدارس ، وبَحَث العربُ فى آثار القدماء ، فسبقوا الأوربيين إلى ذلك ببضعة قرون .

وأَقْدَمَ العرب على تلك المباحث ، التى لم يكن لهم عهد بها ، بشوقٍ ونشاط ، وأكثرُوا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات فى كلِّ مكان ، وكانت لهم اكتشافاتٌ مهمة فى أكثر العلوم كما سترى ذلك فى الفصول التى ندرس فيها تفاصيلَ حضارتهم .

وترَى من الخلاصة السابقة أن العرب بلغوا درجة رفيعة من الثَّقافة بعد أن أتموا فتوحهم

بزمن قصير ، ولكن الإدارة الرشيدة والفنون المعقدة كالتعدين وطِرَاز العِمارة ، والعلومَ كعلمِ الفلك ، إذْ كانت مما لا يأتى عفواً لم يفعل العرب غيرَ مواصلة الحضارات التى ظهرت قبلهم ، كالحضارة اليونانية اللاتينية ، فكانت لهم مبتكراتٌ فيما وَرِثوه من علومها وفنونها وطُرُق حُكمها ، وكانوا بذلك على نقيض الروم الذين سَلَموا إلى العرب تُرَاث تلك الحضارات من غير أن ينتفعوا به والذين سقطوا فى أسفل دَرَكات الانحطاط .



٧١ ــ مسجد أورفة (العراق) (من تصوير فلاندان)

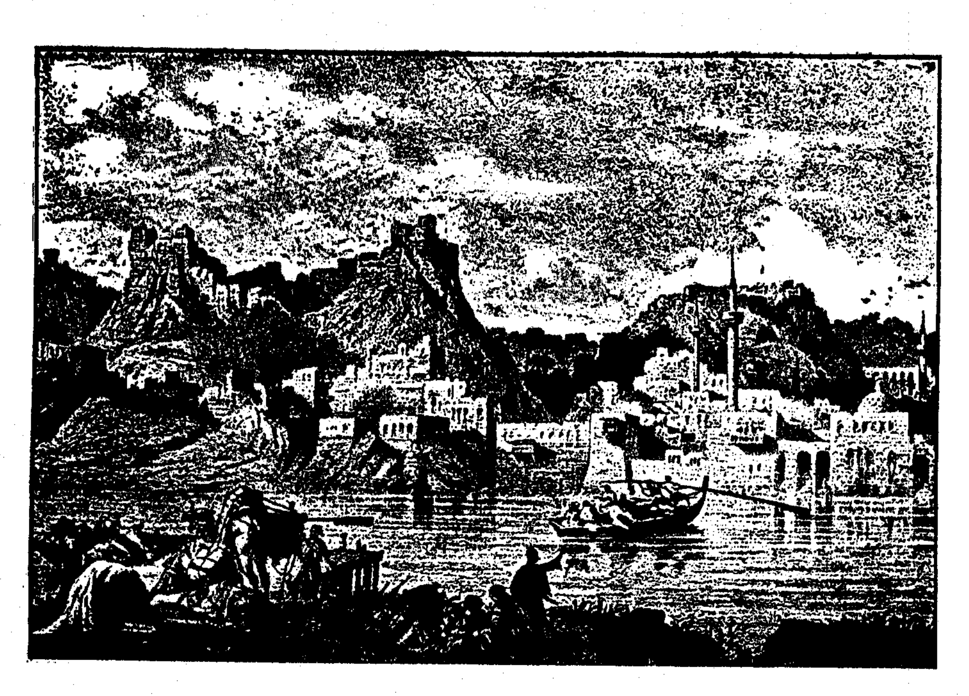
وكان حبُّ العرب للعلم عظيما ، ولم يترك الخلفاء فى بغدادَ طريقاً لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن فى العالم إلَّا سلكوها ، ومن ذلك أن شَهَر أحد أولئك الخلفاء الحربَ على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين فى التدريس ببغداد .

وكان العلماء ورجال الفنِّ والأدباء من جميع المِلَل والنِحَل ، من يونان وفرس وأقباط وكلدان ، يتقاطرون إلى بغداد ويجعلون منها مركزاً للثَّقافة فى الدنيا ، وقال أبو الفرج عن المأمون إنه « كان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذُّ بمذاكرتهم عِلْماً منه بأن أهل العلم هم صفوةُ الله من خلقه ونخبتهُ من عباده ... فلهذا السبب كان أهلُ العلم مصابيحَ الدجى وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم » .

وكان أولئك يحيطون بخلفاء بغدادَ ، وكان يمكن هؤلاء الخلفاء أن يَعُدُّوا قصرَهم أولَ قصور العالم وأنضرَها ، وتتَجَلى لنا أُبَّهةُ بغدادَ الشرقيةُ بالقول الآتى الذى وصف به المؤرخُ العربيُّ ، أبو الفداء ، استقبالَ أحد الخلفاء العباسيين لسفير قيصر الروم فى سنة ٣٠٥ هـ .

قال أبو الفداء :

« قَدِمَ رُسُل ملك الروم إلى بغداد ، فلما استُحْضِروا عُبِّئَت لهم العساكر وصُفَّت الدار بالأسلحة وأنواع الزِّينة ، وكان العساكر المصفوفون حينئذ مئة ألف وستين ألفاً ما بين راكب وواقف ، وَوَقَفَ الغِلمان ذوو الزينة الحَجَرِيَّة والمناطق المُحَلَّاة ، ووقَفَ الخُدَّام الخِصْيان كذلك ، وكانوا سبعةَ آلاف أربعةَ آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف خادم أسود ، ووَقف الحُجَّاب كذلك ، وهم حينئذ سبعمئة حاجب ، وأُلْقِيَت المراكب والزوارق فى دِجْلة بأعظم زينة ، وزُيِّنَت دار الخلافة ، فكانت السُّتُور المعلقة عليها ثمانيةً وثلاثين ألف سِتْر ، منها اثنا عشر ألفاً وخمسمئة سِتْرٍ من الدِّيباج المُذَهَّب ، وكانت البُسُط اثنين وعشرين ألفاً ، وكان هناك مئة سَبُعٍ مع مئة سَبَّاع ، وكان فى جملة الزينة شجرةٌ من ذهب وفِضّة تشتمل على ثمانيةَ عشرَ غصناً ، وعلى الأغصان والقُضْبان الطيورُ والعصافيرُ من الذهب والفِضة وكذلك أوراقُ الشجرة من الذهب والفِضّة ، والأغصانُ تتمايل بحركاتٍ موضوعة والطيورُ تُصَفِّرُ بحركات مُرَتبة ، وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه ، وأُحْضِروا بين يدى المقتدر ، وصار الوزير يبلِّغ كلامَهم إلى الخليفة ويَرُدُّ الجوابَ عن الخليفة » .



٧٢ ـ عبور الفرات عند بيره جك (من تصوير فلاندان)

وكانت قوة الخلفاء الحربيةُ فى بغدادَ تُناسب أهميةَ دولتهم ، ويمكننا اجتلاء ما كانت عليه من الهيبة فى الخارج بما أُكره عليه قيصرُ بزنطةَ الوارثُ لعظمة اليونان والرومان من دفع الجزْية حين تمنَّع عن إعطائها عَبَثاً ، فلما رفض خليفةُ الإمبراطورة إيرينَ ، القيصرُ نيقفور ، إعطاء الجزية فى كتابٍ أرسله إلى الخليفة هارون الرشيد أجابه هارونُ الرشيد بالكتاب الموجز العنيف الدالّ على درجة الاحتقار الذى أضحى عُرْضَةً له أبناء اليونان والرومان الضعفاء ، وإليكَهُ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب الروم ، قد قرأتُ كتابك يا ابن الكافر ، والجوابُ ما تراه ، لا ما تسمعه » .

رأى « كلبُ الروم » الجوابَ ، فقد خرَّب هارون الرشيد بلاده تماماً ، وأرغم قيصرَ القسطنطينية النصرانىَّ على دفع الجزْية إلى أمير المؤمنين .

ومن الإنصاف أن عُدَّ سلطانُ العرب السياسىُّ فى عصر الرشيد وابنه المأمون أقصى ما انتهى إليه سلطانُ العرب فى الشرق ، فقد كانت بلادُ الصين حدًّا لدولة العرب فى آسية ، ودَحَرَ العربُ قبائلَ إفريقية المتوحشة إلى حدود بلاد الحبشة ، ودحروا الروم إلى البُسْفُور ولم يَقِفُوا فى الغرب إلا عند المحيط الأطلنطىّ ، والحقُّ أن هؤلاء القوم الشجعان الذين لَبَّوْا دعوةَ محمد ، وغدَوْا أمةً واحدة ، أقاموا دولةً بَلَغَتْ ما بلغته دولة الرومان من الاتساع فى أقلَّ من قرنين ، وأن هذه الدولة بَدَت أكثر دول الأرض هيبةً وتمدناً .

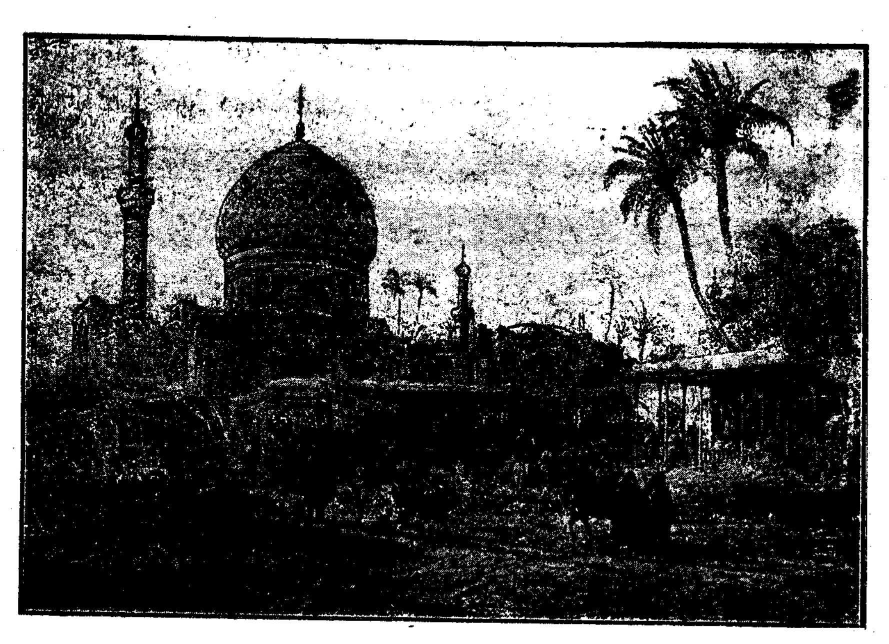
بَيْدَ أن مصير الدول الحربية العظمى المطلقة تابعٌ لاقتدار وُلاة أمورها ، فإذا كان هؤلاء الوُلاة من العباقرة ، كهارون الرشيد وابنه المأمون ، أَيْنَعَتْ تلك الدول وتقدَّمَت ، وإذا لم يكونوا أبناء بَجْدَتها هبطت بسرعةٍ أعظمَ من التى قامت بها .

ولم يكن كثيراً على أعاظم الرجال أن يحفظوا للخلافة هَيْبَتَها تِجاه ما كان يبدو من تفرُّق كلمة العرب فى أنحاء الدولة وتجاه الأمم التى دحروها حيناً من الزمن من غير أن يُقَوِّضوا أركانَها ، وقد استقلَّ البربر بُعَيْدَ استقلال الأندلس ، وقد أخذ الترك يَقْبِضون بدسائسهم على السلطة التى سينالونها كاملةً بسلاحهم ذاتَ يوم .

ولم تخبُ شُعْلَة الخلفاء العباسيين إلا فى القرن العاشر من الميلاد ، ولـكن الخلافة العباسية كانت قد خَسِرَت سلطانها منذ زمن طويل حينما غابت عن التاريخ .

لم يكن الترك الذين جيء بهم إلى بغدادَ من غير الأَسْرَى أو الموالى الذين أعجبت الخلفاء قُدُودُهم ففوَّض الخلفاء إليهم أمرَ حِراستهم ، ولم يَلْبَثْ هؤلاء الموالى أن صنعوا كما صنع المماليكُ بمصر ، فانفردوا بالأمر غيرَ تاركين لسادتهم الخلفاء سوى سُلْطَة اسمية .

ولم يَقْدِر الخلفاء على مقاومة جميع المطامع التى كانت تَحِيق بهم ، فانقسمت دولتهم إلى إمارات مستقلة ، فلما توارى آخرُ العباسيين عادت بغداد لاتستطيع الادعاء بلقبٍ آخرَ غيرِ كونها الملجأ الأول لعلوم الشرق وآدابه .



٧٣ ــ منظر فى بغداد بالقرب من مسجد أحمد كهيا (من تصوير فلاندان)

والمغولُ هم الذين قَضَوْا على الخلافة العباسية ، والمغولُ جيلٌ من الآدميين البدويين يؤَلِّف مع الترك عروقاً مختلفة نَعُدُّ منها أجلافَ هَضْبة آسية الوسطى الواسعة التى تَحُدُّها الجبالُ الفاصلة لها عن سيبرية من الشمال والتى تَحُدُّها الصينُ والتبتُ وبحرُ قَزْوين من الجنوب ، ويرى علماء وصف الإنسان

ولاسيما صديقي العالم الأستاذ دالّي، أن الترك والمغول والمماليك ، وأهل التبت على مايحتمل، من أصلٍ واحد يُدْعَى الأرومةَ المغوليـة ، وظاهرةُ هذه الأرُومة هي هيئةُ وجوههـا الخاصة وجلودُها الُمصْفَرّة الـكامدة وشعورُها المسَنْدَرة[1] ، إلخ ، ولانزال نجد شبهاً بين التركمان والمغول، ومثلُ هذا الشَّبَه كان موجوداً في غابر القرون بين الترك الُخلَّص والمغول لا ريب ، فقـد ذكر رشيد الدين في تاريخـه عن المغول، الذي ألفه في القرن الثالثَ عشرَ ، أن المغول والترك متشابهون تشابهاً يستوقف النظر وأن اسم هذين الجيلين كان واحداً في غابر الأزمان .

ومن المستحيل أن ترى اليوم قرابةً بين المغول وترك أوربة ، ويَرْجِـع ذلك ، لا ريب ، إلى تزوجهما في قرون كثيرة بنساء من العرق القفقاسيّ كالـكُرْجيات والشركسيات ، والفارسياتِ على الخصوص .

واستولى المغول على بغداد سنة (٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م) وخَرَّبوها تماماً ، وخنقوا آخر العباسيين ، المستعصم بالله، بأمر رئيس الغالبين « هولاكو» ونهبوا ما في بغداد من الأموال، وحَرَّقوا كتبها التي جمعها قبل هذه الـكارثة الهائلة محبو العلم وألقَوْها إلى نهر دِجْلَة ، فتألف منها جسرٌ كان يمكن الناسَ أن يَمُرُّوا عليه رجالاً ورُكْباناً ، وأصبح ماء دِجْلَةَ أسودَ من مِدادها، كما روى قطبُ الدين الحنفيُّ.

ولـكن أولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار في المباني وأحرقوا الـكتبَ وخَرَّبوا كلَّ شيء نالته أيديهم خضعوا لسلطان حضارة المغلوبين بِدَوْرهم، حتى أن «هولاكو» الذي خَرَّب بغدادَ وأمر بِجَرِّ جُثَّة آخر العباسيين تحت أسوارِها بَهَرَتْه عجائبُ حضارة العرب الجديدةِ في نظره ، فلم يلبث أن صار من حماتها ، وفي المدرسة العربية تَمَدَّن المغول واعتنقوا دين العرب وحضارتهم ، وشَمَلوا متفنني العرب وعلماءهم برعايتهم ، وأقاموا في بلاد الهند دولةً قوية عربية من فَوْرهم كما يمكن أن يقال ، وذلك لأنهم أحَلُّوا حضارةَ العرب محلَّ الحضارة القديمة ، ولأن سلطان حضارة العرب لا يزال مسيطراً هناك حتى اليوم .

أَجَلْ ، قامت بغداد من تحت الأنقاض ، ولـكن الترك استولوْا عليها بعد ثلاثة قرون فأصيبت بانحطاطٍ تامّ ، فغابت عنها المـكتبات ورجال الفنِّ والعلماء إلى الأبد .

---

(١) المسندرة : المنبسطة .

واليومَ لا تزال بغداد مركزاً مهمًّا بفضل موقعها التجاريّ ، ولكنها مدينة عصرية لا تَجِد فيها غيرَ الأنقاض من مباني الخلفاء ، وما يصادَفُ فيهـا اليوم من الأبنية ، المتداعية على العموم ، حديثٌ نسبيًّا ، وهو فارسيٌّ أكثرُ منه عربيًّا ، قال مسيو فلاندان : « تتوارى تحت طبقةٍ كثيفة من الغُبار أُسُسُ المباني ، ولا تكاد تَجِدُ فيها أثرَ هارون الرشيد وزُبَيْدة ، وهنا وهناك يُكْتَشَفُ في بعض زوايا الأسواق وعلى الشاطئ وبين أنقاضٍ أضاعت اسمَها وحوهُ جدرانٍ يُقْرَأُ عليها بصعوبة قِطَع من خطوطٍ كوفية ، ومِئذنةٌ يَشْهد خرابُها على قِدَمها ، وبقايا رِتاجٍ (١) ذي ميناء وذي فسيفساء لامعةٍ تنفصلُ على أساس البناء المُحطَّم .



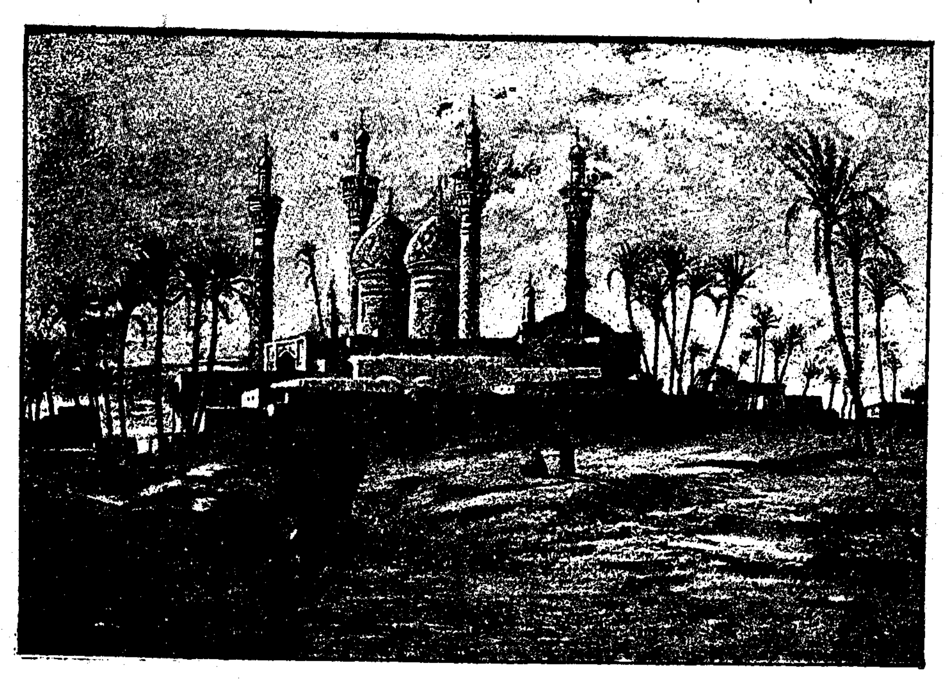
٧٤ ــ منظر في بغداد (من تصوير فلاندان)

« ولم يبال الترك بضَياع هذه الأدلة على حضارة منافسة لحضارة بزنطة ، ونحن إذا ما استثنينا تلك البقايا النادرة المجرَّدة من الفائدة معاً كان من العَبَث إزالة الغُبار المتراكم ببغداد ، فالحقُّ أن هذه المدينة العظيمة لم يبق فيها ما يُذَكِّرُ بخلفائها الأَعِزَّاء كما يُمكِن أن يقال » .

---

(١) الرتاج : الباب العظيم .

هذه هى حال بغداد اليوم ، وقد لَحِقت بغدادُ الخلفاء ، فى أعفار الماضى ، بطيبةَ وبابلَ ومَنْفِيسَ وكلٍّ عاصمة كبيرة كانت سيدةَ الدنيا ، ولكنَّ هذه المدنَ لم تسيطر على العالم بغير السلاح ، وخلفاء بغدادَ ملكوا العالم بحضارتهم على الخصوص .



٧٥ ــ منظر فى بغداد (من تصوير فلاندان)

ويجب ، لنُحْسِن تقدير تلك الحضارة ، أن نخرج من دائرة الإجمال ، التى التزمناها فى هذا الجزء من كتابنا ، وأن ندخلَ دائرة التفصيل ، فندرسَ ما أسفرت عنه من العلوم والآداب والفنون والصِّناعة ، وهذا ما نفعله فى فصول أخرى بعد أن نُتِمّ دِراستنا المختصرة لتاريخ العرب فى مختلف الأقطار التى استولَوْا عليها .

وكلما تقدمنا فى الكتاب بدا لنا ، بوضوح ، أمران جوهريان لم نفعل غير الإشارة إليهما حتى الآن ، وهما: أن العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة جديدة مستعينين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان، وأن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها ، وقد ظهر لنا أن جميع أمم الشرق الكثيرة التى ساعدت على قهر العرب ، ومنها الترك ، أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب ، وأن أمماً قديمة قِدَم العالَم ، كالمصريين والهنود ، اعتنقت ما جاءها به العرب أو وَرِثَتْهم من الحضارة والدين واللغة .

الفصل الثالث

العرب في بلاد فارس والهند

١ — العرب فى بلاد فارس

تختلف بقايا حضارة العرب باختلاف البلدان التى استولَوْا عليها ، وإذْ كان درسُ هذه الحضارة يقوم على البحث فى آثار العرب العلمية أو الأدبية أو الفنية أو الصِّناعية فإننا لا نستطيع أن نسير فى فصول هذا الكتاب على نَهْج واحد ، وقد رأيتَ أننا اعتمدنا فى كلامنا عن سورية على الآثار الماثلة ، وأننا سلكنا طريقاً آخرَ حينما بحثنا فى أمر بغداد التى لا تجِد فيها آثاراً شاخصة ، فاقتصرنا حين الكلام عنها على التنويه بتنظيم العرب السياسىِّ والمالىِّ والإدارىِّ وما إلى ذلك ، فإذا ماوَصَّلْنا تلك العناصرَ المختلفة بعضَها ببعضٍ أمكننا أن نَرْسُم صورةً جامعة لحضارة العرب فى مختلف الأزمنة .

ولا نَعْرِف إلا القليل عن آثار العرب فى بعض البلدان التى دانت لهم ، كبلاد فارس على الخصوص ، فترانا مضطرين إلى الإيجاز فى ذلك ، ومع ذلك يُثْبت علمنا القليل عنها أن ذلك الشأنَ كان عَظيماً جدًّا .

رأى العرب أنفسَهم ، حين هدموا دولة بنى ساسان الفارسية ، تِجاه حضارةٍ قديمة قويمة،فاقتبسوا الشىء الكثير من فنونها على الخصوص .

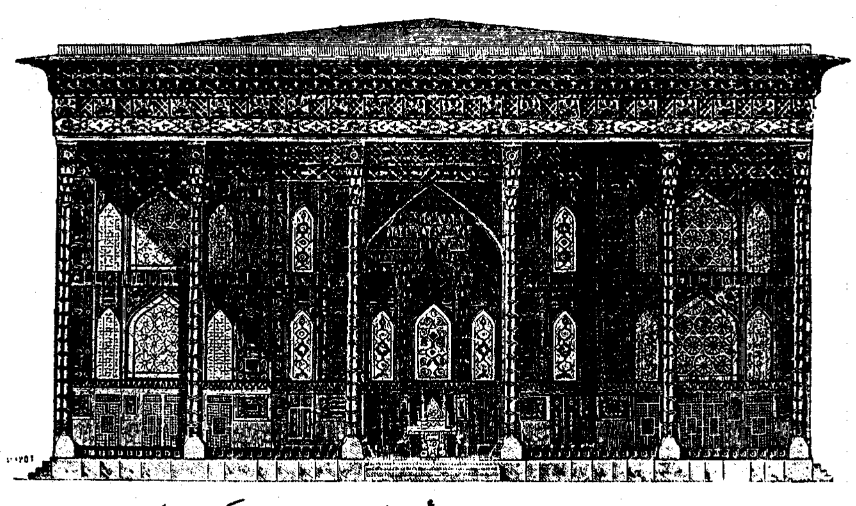
وتَمَّ النصر للعرب على بلاد فارس فى الدور الأول من الإسلام ، كما اتَّفَقَ لهم فى سورية ، واستولَوْا على أصْبَهان فى خلافة عمر بن الخطاب (٦٤٥ م) ، ودام السلطان للخلفاء فى بلاد فارسَ مدة ثلاثة قرون ، وكان تاريخ بلاد فارس مرتبطاً فى تاريخ بغداد بعضَ الارتباط ، ثم تداولت حُكْمَ بلاد فارس دولٌ مستقلةٌ موقتة كان يُدَالُ منها ، ونَعُدُّ من تلك الدول دولةَ الترك السلجوقيين الذين قَضَى المغول على سلطانهم فى القرنِ الثالثَ عشرَ ، ثم دولةَ التركمان الذين طَرَدوا المغول من بلاد فارس فى سنة ١٤٠٣ م .

ونشأ عن تتابع الغزو هدمُ المبانى القديمة التى شادها العرب وبنو ساسان فى بلاد الفرس وزوالُ ما كان منها فى مدينة أَصْبَهان ، على الخصوص ، زوالاً تامًّا ، وما نراه الآن فى أَصْبَهان هو من صنع الشاه الفارسىِّ الشهير عباس الذى اتَّخذها قاعدةَ مُلْكه فى سنة ٩٩٨هـ - ١٥٨٩م) والذى استردَّ من الترك مَعظَمَ بلاد فارسَ ، ويظهر أن ذلك القطر استردَّ رخاءه القديم لمدة قرن ، فقد قاتل الفرسُ منصورين دولةَ المغول فى الهند سنة ١٥٣٩م وانتزعوا منها ولاياتٍ كثيرةً واقعة غربَ نهر السِّنْد ، ثم سادت الفوضى والانحطاط بلادَ فارس، ونرَى اليوم بلاد فارس، الواقعةَ بين الروس الذين يرغبون فى التقدم نحو بلاد الهند والإنكليز الذين يمانعون فى ذلك ، مُهَدَّدَةً بأن تكون ميدان قِتالٍ لهذين الفريقين وأن تقع فريسةً للغالب منهما ، فكأنه كُتِب على بلادِ فارسَ أن تكون مسرحَ حروبٍ تمهيداً لإقامة الأجنبىِّ الغالبِ دولةً عالمية كما تمَّ فى القرون الغابرة .

وثبَت تأثيرُ العرب فى الفرس من اعتناق الفُرس لدين العرب ونُظُمهم، ومن شيوع اللغة العربية بينهم شيوعَ اللغة اللاتينية فى أوربة فى القرون الوسطى، وذلك من غير أن تكون لغةَ البلاد الدارجة كما ثبَت من استمرار الفُرس إلى الوقت الحاضر على تَلَقِّى عِلم التوحيد والتاريخ والعلوم الأخرى من كتب العرب .

وتَبدُو بقايا ما تركه العرب من الآثار الماثلة فى بلاد فارس من القِلَّة ما لا تكفى معه لبيان تأثير هاتين الأمتين إحداهما فى الأخرى ، ولا نَعرِف حالَ فَنِّ العِمارة الفارسىِّ قبل الإسلام بالضبط وفى ظلِّ العرب ، وما بَحَث فيه بعض الرُّوَّاد من المبانى لم يَخرُج عن حَدِّ الأنقاض التى يَصْعُب معها بيانُ الحالة التى كانت عليها فيما مضى ، ونقول مع ذلك ، وبعد إنعام النظر فى تلك البقايا وفيما رواه المؤرخون ، إن قصور أكاسرة الفرس قبل الفتح العربىِّ كانت على جانب عظيم من الزُّخْرُف والزينة ، وإن الفرس كانوا يَعْرِفون إقامة القِباب ، وإنهم كانوا يعلمون كيف يكسون المبانى بالميناء ، وإن العرب رَضُوا فى دور الفتح بفنِّ العِمارة الفارسىِّ مع قليلٍ من التبديل، وإن أهمَّ ما اقتبسه العرب من مُتَفَنِّنِى الفُرس فى ذلك الدور الأول هو جزئيات الزُّخْرُف واستعمالُ الميناء على الخصوص ، لا طرازُ البناء الذى استعاروه فى البُداءة ، من البزنطيين فى سوريةَ ومصرَ على الأقلِّ .

ثم تغيَّرت الأوضاع مع الزمن ، فصار العرب يُؤثِّرون فى الفُرس ، فاقتبس الفُرس من العرب شكلَ قِبابهم والنقوشَ المُتدلِّية (المقرنصات) وضروبَ الزينة كالكتابات ، وسنعود إلى هذه المسائل فى الفصول التى خصصناها للبحث فى فنون العرب .

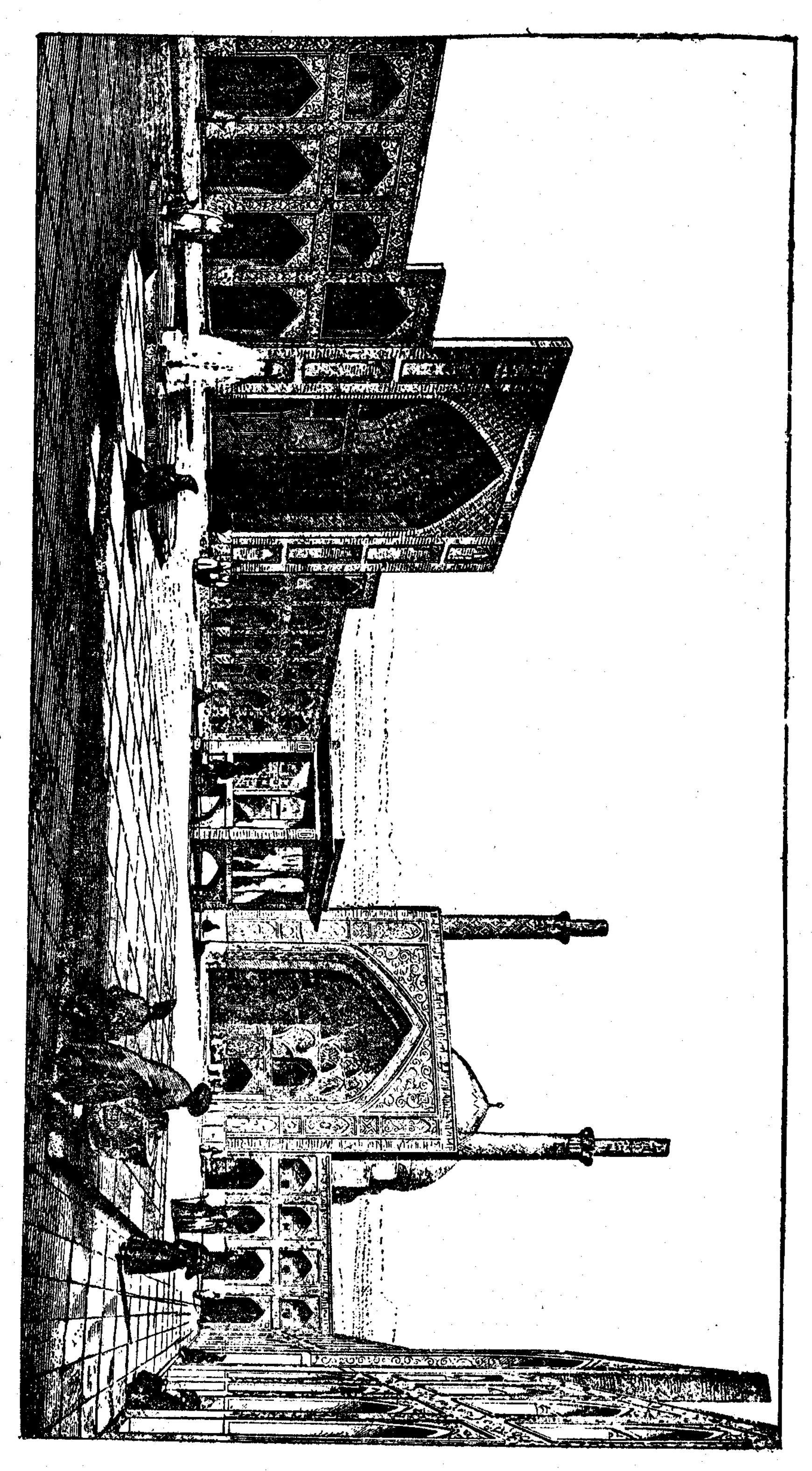


٧٦ ــ جوسق چهل ستون فى أصبهان (من تصوير كوست)

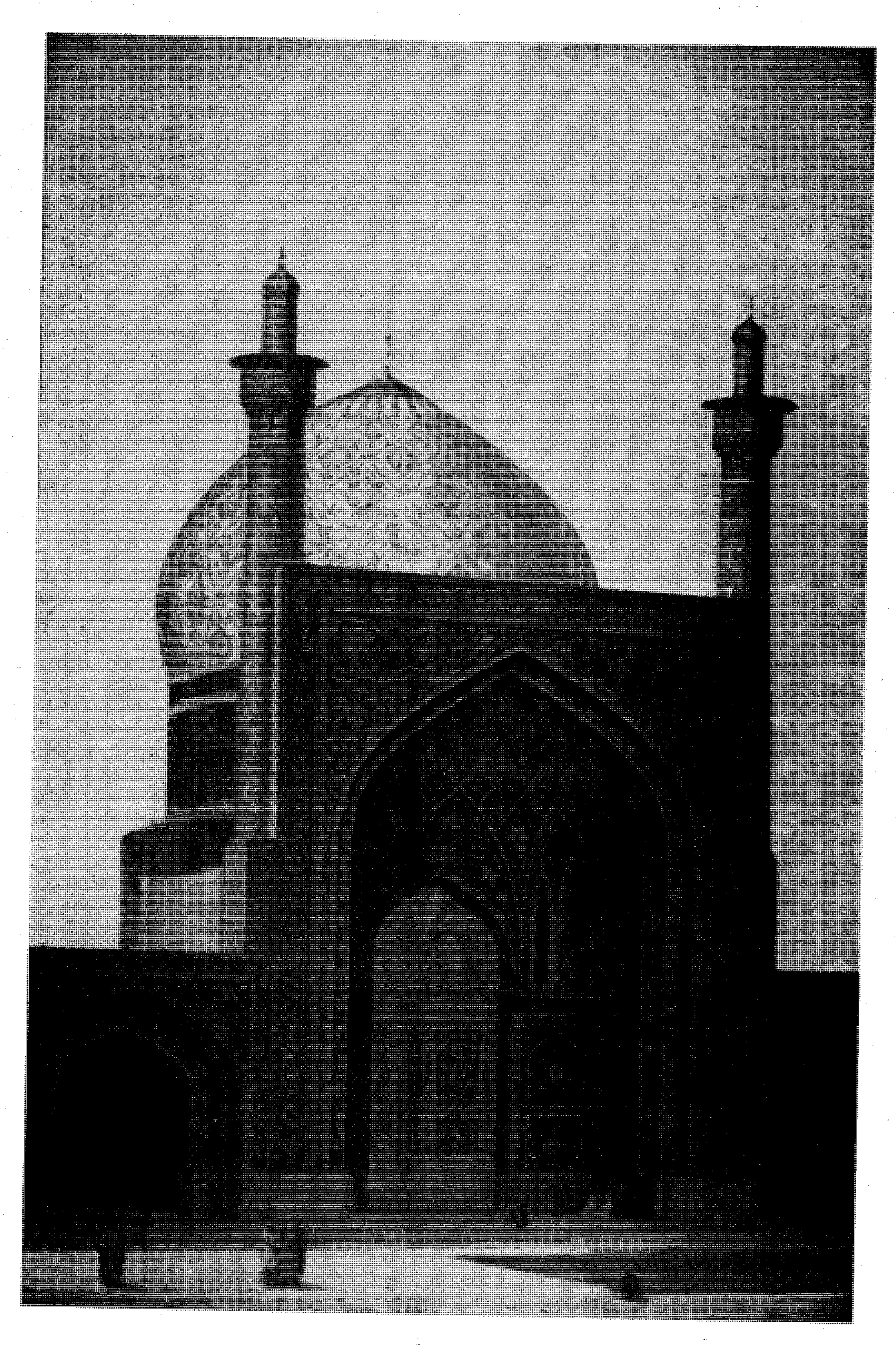
ولم يَبْقَ فى بلاد فارسَ من مبانى دور خلفاء العرب الأولين سوى عدد قليل ، كبقايا مسجد هَمَذان التى نشرنا صورتها فى فصلٍ آخر ، ويظهر أن فى مدينة مَشْهَد بقايا من مبانى ذلك الدور امتزج فيها الطِّراز العربىُّ بالطِّراز الفارسىِّ ، وهى التى تكلم عنها مسيو دوكانيكوف ، فتَجَلَّى الطِّراز الفارسىُّ فى أقواسها وميناتها ومآذنها المخروطة الشكل التى لا رُواق لها فى غير رأسها ، وتجَلى الطراز العربىُّ فى خطوطها المزخرفة وأعمدتها الهيفِ ومُتَدَلِّياتها ، إلخ .

وما بين بقايا مبانى عصر الخلفاء فى بلاد فارس والمبانى التى أقامها الشاه عباس فى أصبهان مؤخراً من التقارب يُثْبت لنا سَيْر المهندسين على نَمَط قديم واحد ، وسنرى فى الفصل الذى ندرس فيه تاريخ فنِّ العِمارة العربية ، أنه طرأ على ذلك النَّمط القديم بعضُ التغيير فى الجُزئيَّات المهمة مع الزمن ولا سيما فى شكل القِباب ، فبعد أن كانت القِباب منخفضة ، ثم ذاتَ نصفِ كُرة ، صارت مُخصَّرةً بَصَلِيَّة الشكل .

ومهما يكن من أمرٍ فإن لفنِّ العِمارة الفارسىِّ طابعاً خاصًّا ، وتَعُدُّ المآذن المخروطة الشكل



٢٧ – داخل مسجد في أصبهان (من تصوير كوست)



جامع أصبهان الـكبير

(من تصوير كوست)

والأبوابَ العظيمة المُفَرْطَحة القناطِر والجُدْرانَ المُزَيَّنَة بالميناء المُلوَّن من أهمِّ ما اختصَّ به فنُّ العِمارة الفارسيُّ ذو التأثير فى مبانى الهند كما نَقْطَع فى ذلك .

وانتحل المغول ، بعد أن قهروا العربَ ، دينَ العرب وحضارتهم ، واستخدموا فى بلادِ فارسَ والهندِ التى استولَوْا عليها مهندسين من الهندوس والفُرس ، فمزَجَ هؤلاء المهندسون مختلفَ الفنون فى المبانى التى أقاموها كما تراه بعد قليل ، وتدلُّ بقايا الآثار فى مدينة سمرقند العظيمةِ ، التى اتخذها تيمورلنك عاصمةً لدولته سنة ١٤٠٤ م ،فأصبحت نصفَ متداعيةٍ اليوم ــ على المُؤَثِّرات الفارسية فى فنِّ العِمارة ، وأعظمُ من ذلك ما كان للعرب من التأثير فى الهند فى بدء الأمرِ على الأقلِّ .

ويظهر أنه صار للمغول فنُّ عِمارةٍ خاصٌّ ، مع أنهم لم يُبْدِعوا أىَّ عنصر فى هذا الفنِّ الخاصِّ ، وقد قام هذا الفنُّ على مَزْج فنون مختلف الأمم التى خَضَعَتلحكمهم فيما شادوا من المبانى كما تدلّ عليه الصُّوَر التى نشرناها .

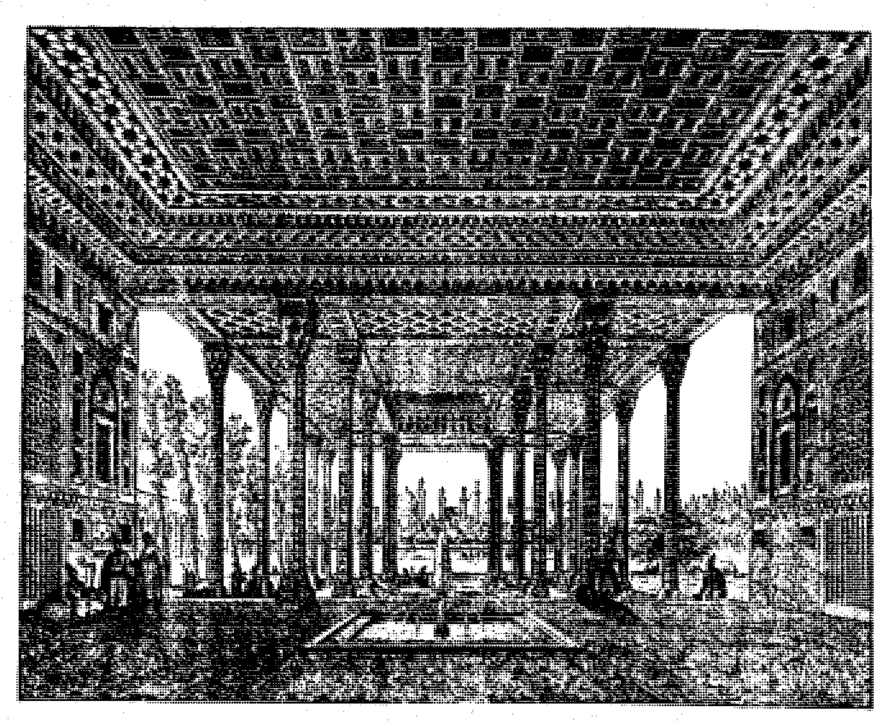
والخلاصةُ هى أن تأثير العرب فى بلاد فارس كان كبيراً فى أمور الدين والعلوم واللغة ، وأنه كان ضعيفاً بعضَ الضعف فى العادات وفنِّ العِمارة ، وأن الفرس ، خلافاً للمصريين ، حافظوا على أقسام حضارتهم القديمة الأساسية مع صلتها بحضارة الغالبين ، وذلك خلافاً للمصريين .

٢ ـ العرب فى بلاد الهند

لم يَتَّفِقْ للعرب فى بلاد الهند شأنٌ سياسىٌّ أعظمُ مما كان لهم فى بلاد فارس ، وللعرب ، مع ذلك، تأثيرٌ دينىٌّ قوىٌّ ونفوذٌ مدنىٌّ كبير فى بلاد الهند منذ القديم ، ففى الهند يخضع نحو خمسينمليونَ نفسٍ لشريعة النبىِّ فى الوقت الحاضر .

وبدأ ظهورُ العرب فى الهند منذ السنة الأولى من الهجرة (٦٣٧ م) ، فقد خرجت أساطيلُ عربيةٌ من عُمَان والبحرين وتَقَدَّمَت إلى مَصابِّ السِّند ، ثم أدى ملك كابُلَ الجزيةَ إلى العرب فى سنة ٦٦٤ م ، وفتح جيشُ العرب فى سنة ٧١١ م مملكة السِّنْد التى كانت تمتد إلى كشمير من الشرق ونهرِ السِّنْد والبحر من الغرب .

ولم يكن لاستقرار العرب هنالك أهميةٌ كبيرة ، فقد انتهى فى سنة ٧٥٠ م ، فآل الحكم فيها إلى ملوكٍ من الهندوس ، فإلى الترك والمغول الذين اعتنقوا الإسلام .



٧٨ ــ جوسق المرايا فى أصبهان (من تصوير كوست)

وملوكُ غَزْنة أَهَمُّ أولئك وأقدمُهم ، والغزنويون أخذوا يفتحون بلاد الهند حوالَىْ سنة ١٠٠٠م ، وانتهى قتالهم فى هذه السبيل بعد إحدى عشرة معركة قاموا بها فى خمسٍ وعشرين سنة ، واستولَوْا نهائيًّا على ضَفَّة السِّنْد الشرقية وعلى كشمير والبنجاب ولاهور وأجمير ، وأعلن الغزنويون عن أنفسهم فى كلِّ مكان أنهم دُعاة دين العرب وحضارتهم ، ومَنَحهم خلفاء بغداد لقبَ أَيامِنِ المؤمنين ، وهكذا خضعت الهند للفاتحين من الأجانب للمرة الأولى منذ زمن الإسكندر .

وكان سلطان الإسلام السياسىُّ والدينىُّ قويًّا فى بلاد الهند ، ورَسَخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسلام الذين تداولوا حكمها ، ولا يزال سلطان الإسلام الدِّينىُّ قائمًا فى بلاد الهند ، وإن توَارَى سلطانه السياسى عنها ، وهو يَمْضى قُدُمًا نحو الاتساع .

ووجد المسلمون ، حين أَوْغَلُوا فى الهنـد ، حضارةً قديمة أرقى من حضارتهم ، وعَرَفوا كيف يَمْزُجونها بها ، ومما يستوقف النظر ما استطاعوه فى زمن قصير من نشرهم لمعتقداتهم فى قسمٍ كبيرٍ من هذا القطر الواسع .

وأُعجِب غُزَاة المسلمين بمبانى الهندوس المغلوبين ، واسْمَعْ ماقاله محمود الغزنوىُّ فى كتابٍ أرسله إلى أحد قُوَّاده عن مدينة مترا ، التى كانت مشهورة أيضاً ، فى القرن الخامسَ عشرَ قبل الميلاد :

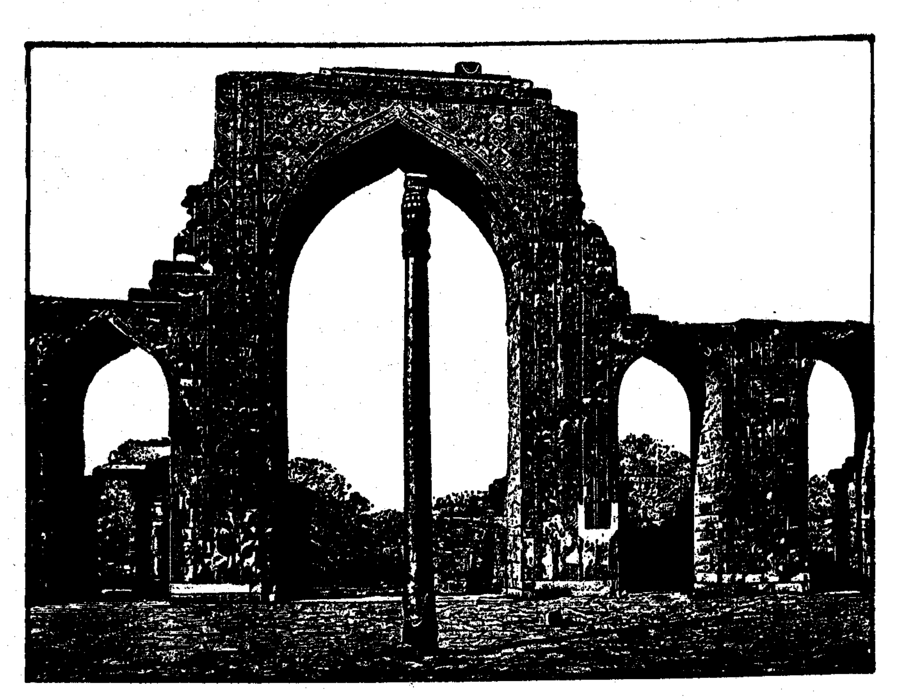
« تحتوى مدينة مترا العجيبة على أكثرَ من ألفٍ من المبانى المتينة متانَةَ أهل الإيمان والمصنوعِ أكثرُها من الرُّخام ، ولا يشتمل هذا العدد على معابد الكافرين ، وإذا عُدَّ المال الذى أُنفِق على إنشاء هذه المبانى بَلَغ ألوفَ الألوف من الدنانير فضلاً عن أنه لن يقام مثلُ هذه المدينة فى أقلَّ من قرنين ، ووَجَد جنودى فى معابد المشركين خمسةَ أصنامٍ من الذهب ذواتِ عيونٍ من ياقوتٍ أحمرَ تساوى قيمتُه خمسين ألفَ دينار، ووَجَدوا فيها صنماً آخرَ من الذهب مزخرفاً بما زِنَتُه أربعمئة مثقال من الياقوت الأزرق، وذا نَصَمَةٍ بلغ وزنُها عند الصهر ثمانيةً وتسعين مثقالاً من الذهب الخالص، ووَجَدوا فيها ، فضلاً عن ذلك ، نحوَ مئة صنم من الفِضَّة يَعْدِل وَزْنها حِملَ مئة بعير » .

وقام ملوكٌ جُدُدٌ مقامَ أصحاب غَزْنَة ، ثم جاء المغول فحَلُّو محَلَّهم ، وهنا نرى تنبيه القارئ إلى أن الذين تَمَّ لهم السلطان على الهنـد لم يكونوا عرباً بدمائهم ، وإنما كانوا من دُعاة دين العرب وحضارتهم .

ويَصِلُ الباحث ، حين يَدْرُسُ تأثيرَ العرب فى الأمم التى اختلطوا بها ، إلى إحدى النتيجتين الآتيتين ، وهما : إما أن تكون حضارةُ العرب قد حَلَّت محلَّ حضارة الأمة المقهورة كما حَدَث فى مصرَ ، وإما أن تكون قد امتزجت بحضارة الأمة المغلوبة كما حدث فى بلادِ فارسَ والهند ، وفى بلاد الهنـد بَلَغ امتزاج حضارة العرب بحضارة الهند مبلغاً بَدَت علائمه حتى على المذاهب الدينية ، ثم حدث أن أتى بعدئذ عنصر الحضارة الفارسية ، فاشترك هذا العنصرُ أيضاً فى ذلك الامتزاج .

ويدلُّ درس المبانى فى بلاد الهند على درجة تأثير العرب فيها فى مختلف الأدوار، وعلى درجة تمازج تلك العناصر الثلاثة، وكان تأثيرُ العرب سائداً لمبانى الدور الأول ، كباب علاء الدين الذى يكاد يكون

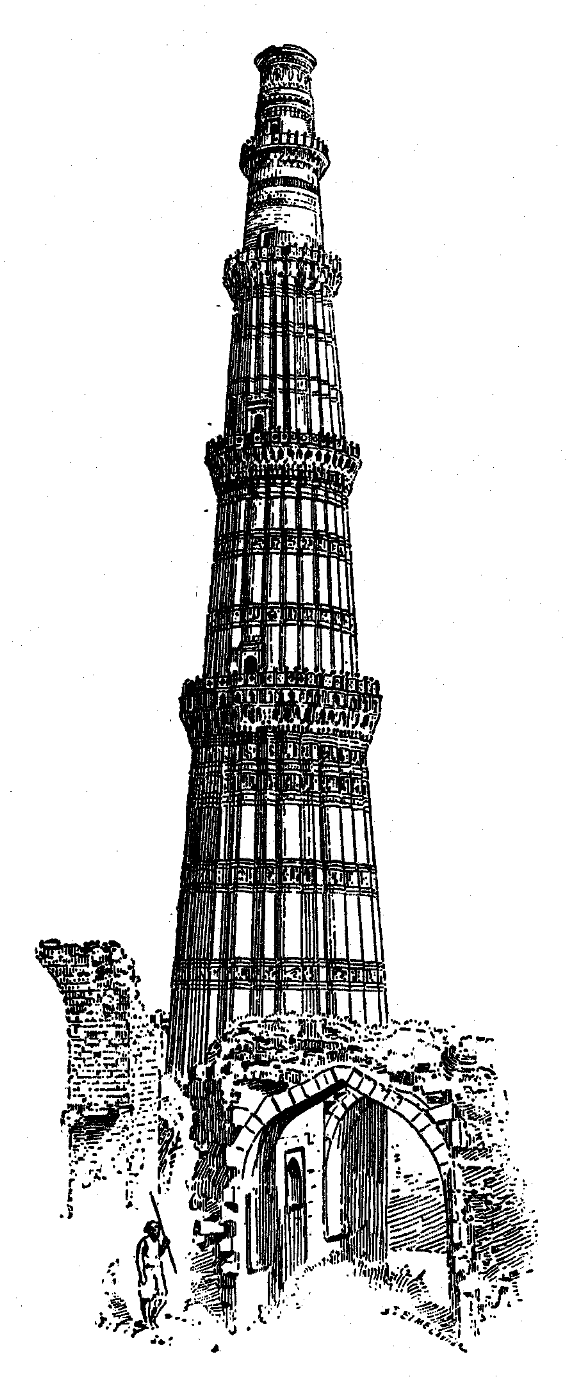
أثرُ الفنِّ الفارسيِّ فيه غيرَ موجود ، والذى لا يَبْدُو أثرُ الفنِّ الهندىِّ فى غير تفرعاته لعدم ملاءمة معابد الهنـد القديمة لمناحى الحضارة الجـديدة ، فاقْتَصَرَ أتباعُ النبىِّ على الانتفاع ببعض أجزاء هذه المعابد .



٧٩ ــ باب مسجد قطب وعمود الملك دهاوا المصنوع من الحديد « بالقرب من دهلى »
(من تصوير فريث الفوتوغرافى)

وظلَّ تأثير الفنِّ العربى فى تلك المبانى واضحاً بضعةَ قرون أخرى وإن توارى العرب عن مسرح العـالم بالتدريج ، ثم أخذ المجـال يَتَّسع للفنِّ الفارسىِّ فتمَّ له النفوذ على حساب الفنِّ العربىِّ والفنِّ الهندوسىِّ اللذين أخذ نطاقُهما يضيق .

وكان دور تحول مبانى الهند بعد الإسلام طويلاً ، وتأخَّرَ زمنُ ظهور المبانى التى كان للعبقرية العربية أثرٌ فيها ، ويَرْجِـعُ سببُ هذا إلى أن دُعاة شريعة الرسول لم يكونوا من العرب ، بل من الترك والمغول المشابهين للبرابرة الذين استولَوْا على العالم الرومانىّ ، والذين لم يَهْضِموا حضارة المغلوبين إلّا بعد انقضاء زمن طويل .



٨٠ ـ منارة قطب بالقرب من دهلى
(من صورة فوتوغرافية)

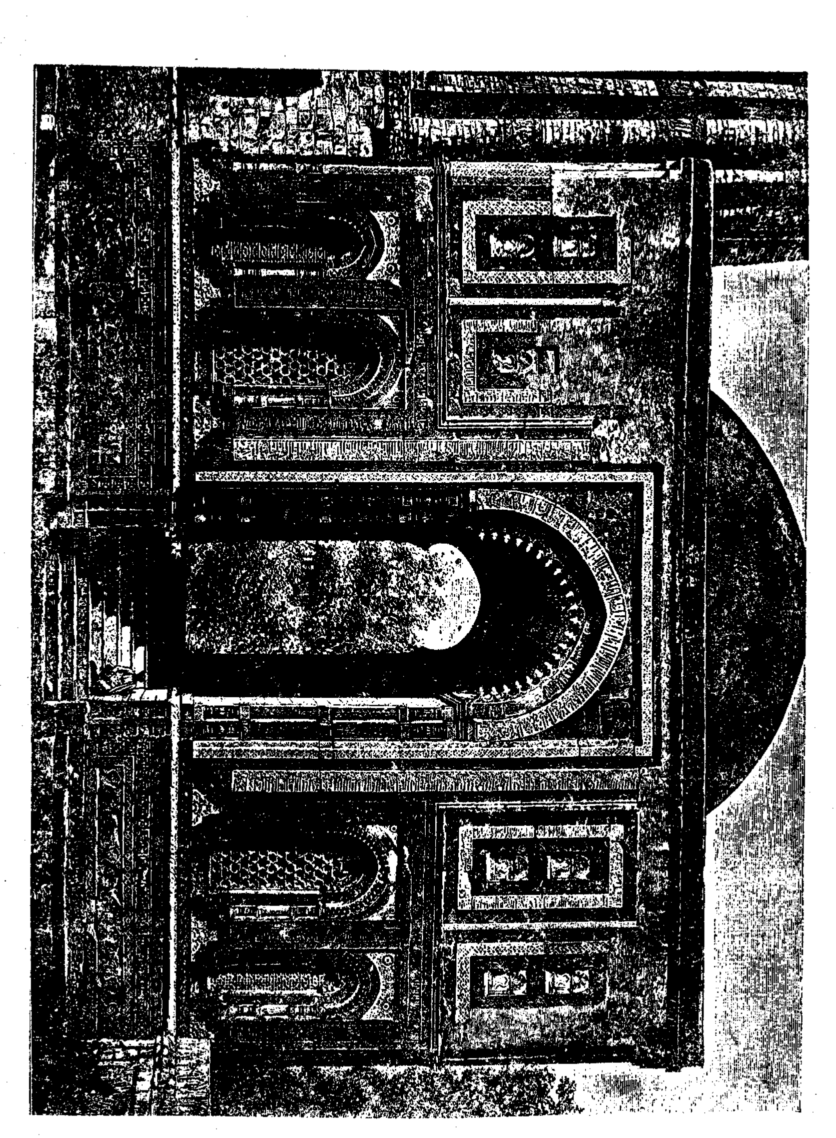
حقًّا أنهم لم يَهْضِموها إلَّا بعد زمن طويل ، وبهذا البطءِ يبدو لنا الفرق الأساسىُّ بين الأمم التى تكون على جانبٍ كبير من الذكاء فتتطور بسرعة ، كالأمة العربية ، والأممِ المنحطة التى تتطور ببطءٍ كبرابرة القرون الوسطى الذين قَضَوْا على دولة الرومان وكأجلافِ الآسيويين الذين غَمَر طوفانُهم دولةَ محمد .

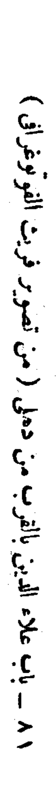
ولقد أبدع العرب من فَوْرهم تقريباً ، حضارةً جديدة أفضلَ من الحضارات التى جاءت قبلها ، وذلك بعد أن استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس ، وكانت عقولُ البرابرة عاجزةً عن إدراك كُنْه الحضارة التى قهروا أهلها ، وكان انتفاعهم بها ممسوخاً فى بدء الأمر ، وهم لم يسيروا بها نحو الرقى إلا بعد أن صُقِلَت أدمغتهم وصارت قادرةً على إدراك معانيها بعد زمنٍ طويل .

والواقعُ أن تقدم أولئك البرابرة الذين هدموا الدولة الرومانية لم يَحْدُث إلَّا بتوالى الأجيال ، وأنهم ، لبطء تَقَدُّمهم ، لم يستطيعوا إقامةَ حضارةٍ جديدة على أنقاض حضارة العالَم السابق إلا بعد جهود استمرَّت قروناً كثيرة .

ودام سلطان أصحاب غزنة حتى سنة ١١٨٦م وحَلَّ الغوريُّون ، الذين هم من التركمان ، محلَّهم ، ونذكر من ملوكهم المشهورين قطب الدين الذى تُوفِّىَ سنة ١٢١٠م ، والذى أقام فى بلاد الهند مبانىَ ذات قيمة كما سيأتى بيان ذلك .

وأصبحت مدينةُ دهلى ، فى سنة ١٢٥٠م ، ملجأً لرجال العلم والفنِّ من الغرباء ، وصارت تَحْدَبُ عليهم حَدَبَ بغدادَ فيما مضى، ثم أتى المغول، وصاروا يَغْزُون الدولة الجديدة ، ونازلهم علاء الدين تحت أسوار دهلى فى سنة ١٢٩٧م فوَجَد أمامه خمسمئة ألف رجلٍ ، على ما يُرْوَى ، فدَحَرهم .



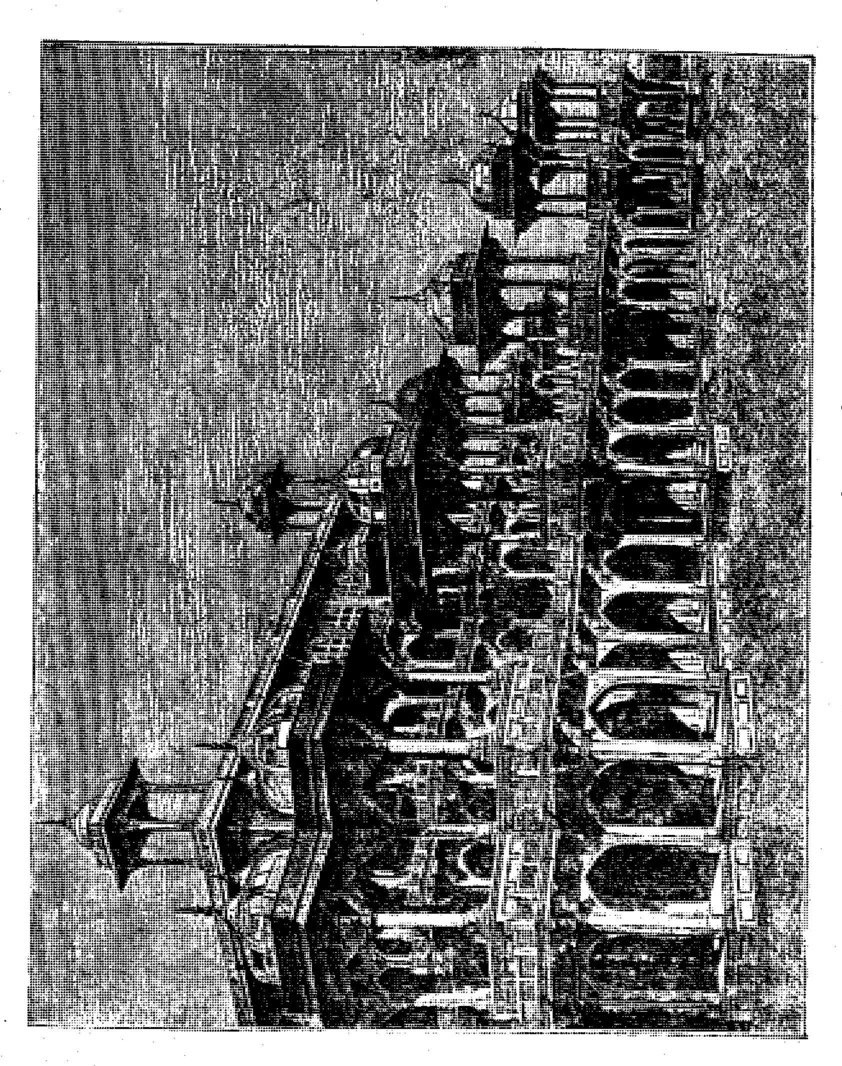


٨١ — باب علاء الدين بالقرب من دهلى (من تصوير فريث الفوتوغرافى)

وفتح تيمورلنكُ مدينةَ دهلى عَنْوَةً فى سنة ١٣٧٨م ، ولم يكن أمرُه غيرَ عابر سبيل ، فقد نشأ عن الفوضى التى أسفرت عنها فُتُوحه قيامُ دولة مستقلة موقتة هنا وهنالك، ولما حَلَّتَ سنة ١٥١٧م

استولى ملك كابُل ، الذى هو من ذرية تيمورلنك ، على مدينة دهلى ، وأسَّس دولةَ المغول الكبرى التى كُتِب لها البقاء مدة ثلاثة قرون ، ثم قضى عليها الإنكليز .

والآن ندرس على طريقتنا أهمَّ ما فى الهند من المبانى العربية أو المبانى التى كان للفنِّ العربىِّ



٨٢ — مزار أكبر فى سكندرا (من صورة فوتوغرافية)

أثرٌ واضح فيها ، فما نُقِشَ على الحجارة أفصح مما جاء فى الكتب .

منارة قطب . — يَرْجِع أَقْدَمُ ما انتهى إلينا من المبانى العربية فى الهند إلى أواخر القرن الثانى عشر من الميلاد ، ونَعُدُّ مسجدَ قطب ـ الذى أقيم فى سنة ١١٩٠م بالقرب من دهلى ـ ومنارةَ قطب من أهمِّ تلك المبانى .

ومنارةُ قطب ، ذاتُ الشرَف الكثيرة المُخرَّمةِ ، برجٌ طويلٌ مُخطَّطٌ ذو نقوش عربية مخروطُ الشكل مشدودٌ بنُطُق مُزَيَّنَةَ بالكتابة .

ولا نرى ماهو عربيٌّ فى منارة قطب سوى زخارفها وأروقتها ، وقد أقامها ، أو أتمَّ إنشاءها ، قطبُ الدين ، فأضيف اسمها إلى اسمه مع الاختصار ، فعرُفت فى أوربة باسم منارة قطب .

ويدلُّ شكلُ منارة قطب الخاصُّ على أن مهندسيها من الهندوس ، ويَعُدونها فى الهند من العجائب ، قال السيد أحمد خان،الذى عرَف عنه مسيو غراسين دوتاسى مخطوطاً هندوسياً مُهمّاًخاصّاً بدهلى : « إن عظمةَ هذه المَنارة وجمالَها مما لا يمكن وصفه كما يجب ، فهى مما لا نظير له على وجه الأرض » ، ويرى ذلك المؤلف أن المَلِك الهندوسىَّ پيثوره هو الذى بدأ بإنشائها فى سنة ١١٤٣ م فأتمَّها قطب الدين .

ويُشاهد بالقرب من منارة قطب الدين أنقاضُ معبدٍ هندوسىّ قديم حُوِّل إلى مسجد ، ويرْجع تاريخ إنشائه إلى (سنة ٥٨٧ هـ - ١١٩١ م) .

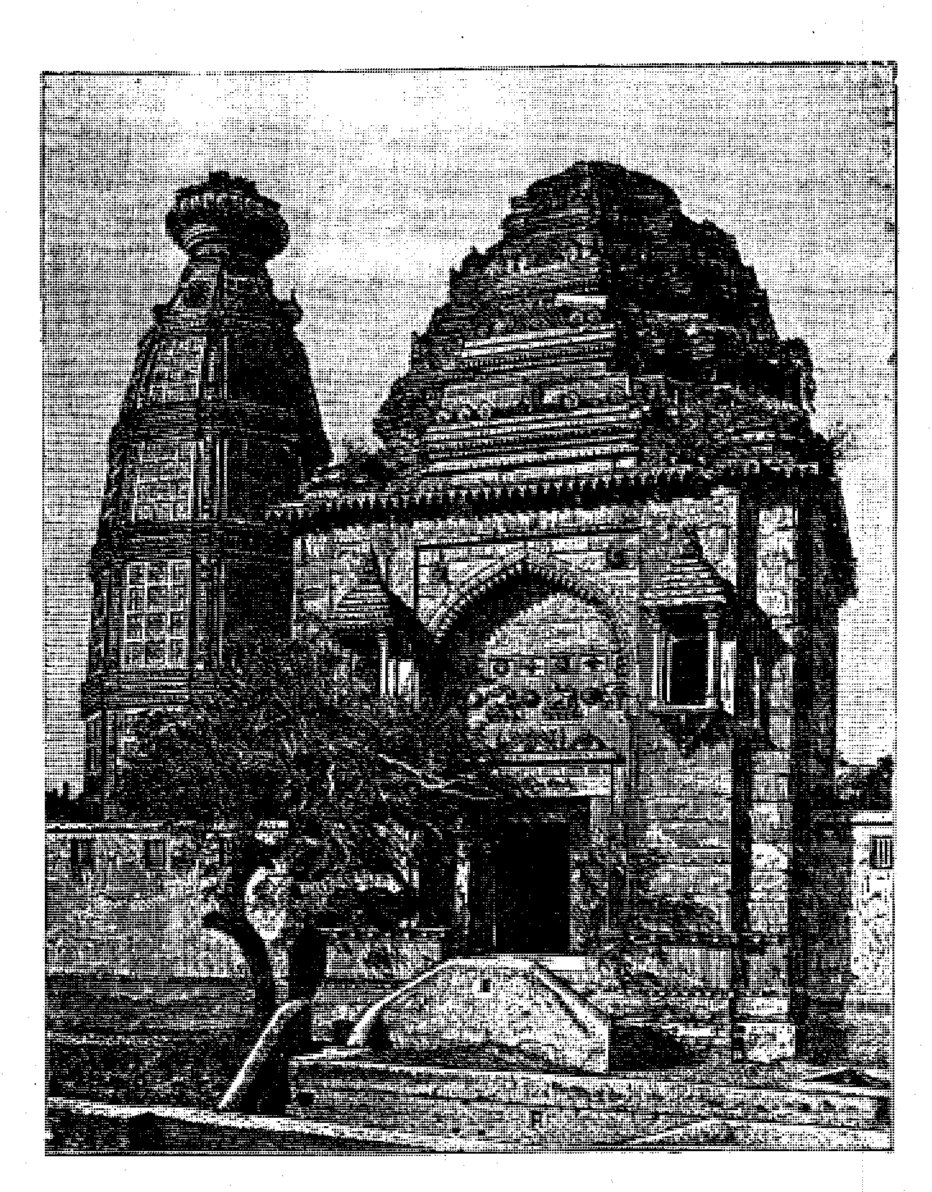
باب علاء الدين . — يشتمل ذلك النِّطاق الذى يحوى مسجدَ قطب ومنارتَه على كثير من الآثار المهمة الأخرى كمعبد پيثوره ، وأهمُّ تلك الآثار البابُ العظيم الشهير الذى أنشأه علاء الدين فى سنة ١٣١٠ م ، والذى يستوقف النظر بجماله الرائع من حيث تاريخُ الفنِّ عند المسلمين ، والذى هو من أهمِّ آثار الفنِّ العربىِّ التى انتهت إلينا ، ولم أشاهِد بين الأبواب مايماثله سوى بعض أبواب الحمراء الداخلية مع ماينها وبينه من التفاوت فى الاتساع كالذى بين الفُسْطاط والكندرائية .

وإن القارئَ الذى يتأمل صورة ذلك الباب الصادقةَ التى نشرناها فى هذا الكتاب ليَعْجَب من عبقرية المهندسين الذين استطاعوا أن يَمْزُجوا مختلفَ الفنون،فأقاموا بابَ علاء الدين المبتكَر المنسجمَ الذى تبدو أعمدةُ أُطُره هندوسيةً ، وتبدو قناطرُه ومعظمُ دقائِقِ زخارفهِ عربيةً ، ويكاد باب علاء الدين يُذَكِّرُنا فى مجموعه بالأبواب الفارسية الضخمة .

وتُناسِبُ متانةُ باب علاء الدين ضخامتَه ، فقد قامت حجارته مقامَ الآجُرِّ الذى شيدت به قصور العرب فى الأندلس وحلت نقوشُ حجارته محلَّ نقوش قوالب الحمراء السهلة .

مزار ألتَمش . — نجد بالقرب من مسجد قطب مزارَ الملك ألتَمش الذى أُنشئ فى سنة (٦٣٣ هـ - ١٢٣٥ م) على طِراز البناء المذكور آنفاً ، فيُعد من أقدم المبانى العربية فى الهند .

معبد بندرابن . — كان أوّل ما تجلّى به تأثيرُ العرب فى الهند تطعيمُ مبانيها القديمة بالفنِّ العربيِّ .



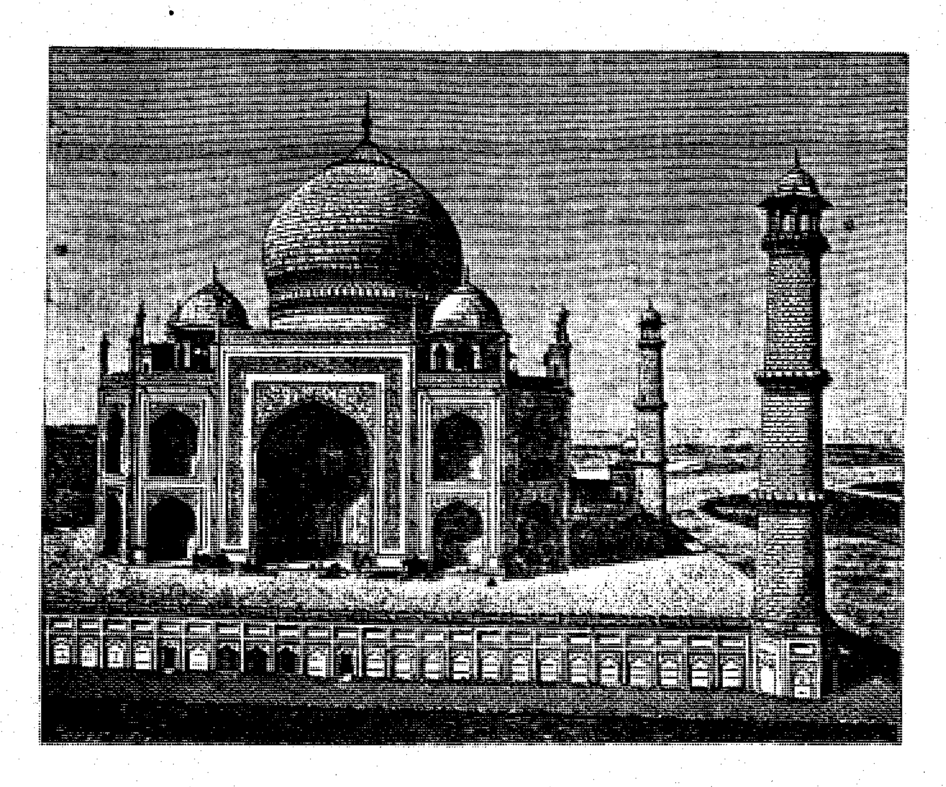
٨٣ - معبد بندرابن بالقرب من متره (من صورة فوتوغرافية)

وأقتصر، لبيان ذلك، على نشر صورةٍ لقسمٍ من معبد بندر ابن الذى بُنِيَ على طِراز شمال الهند، وأقيمت قنطرةُ بابه على الطراز الفارسىِّ العربىّ .

مزار أكبر فى سِكندرا . — قامت المبانى التى نذكرها الآن أيام سلطان المغول، وكان قد انتهى شأن العرب السياسىُّ فى الهند ، فحُصِر نفوذهم فى العلوم والفنون والدين ، وقد أشال نفوذُ الفرسِ والهندوس كِفَّةَ فَنِّ العرب ، فنشأ عن ذلك امتزاجُه بالفنون الأخرى ، فصِرْتَ لا ترى التأثيرَ البالغَ لِطراز العرب فى مبانى الهند كما كان مع بقائه حيًّا فيها .

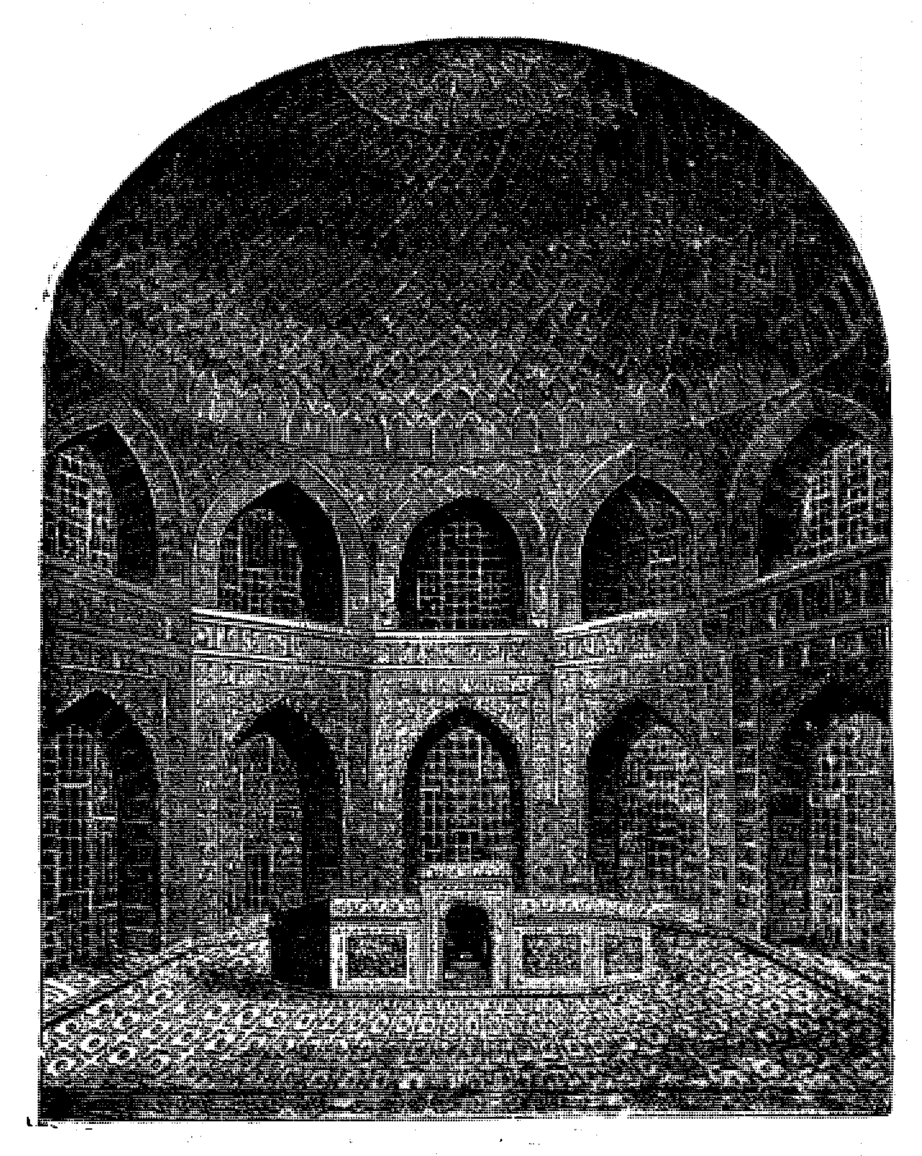
ويُعَدُّ مزار الملك أكبر ـ الذى أقيمْ حوالَىْ سنة ١٦٠٠م فى سِكندرا الواقعةِ بالقرب من دهلى ـ مِن أهمِّ مبانى ذلك الدور الجديد ، وهذا المزارُ شُرِع بناؤه فى زمن الملك أكبر وانتهى فى زمن شاهجهان .

وكان أكبرُ ـ الذى هو من حَفَدَة تيمورلنك ـ من أعظم من عَرَفَتهم بلاد الهند ، فقد بلغت بلاد



٨٤ ـ تاج محل فى أغرا (من صورة فوتوغرافية)

الهند فى عهده ، الذى دام من سنة ١٥٥٠ م إلى سنة ١٦٠٥ م ، ما لم تَعرِفه من الرَّخاء قبله ، وكان عصرُه عصرَ فنِّ العِمارة الذهبيَّ فى الهند .



٨٥ ــ قاعة تاج محل المثمنة الكبرى وقبته من الداخل

حقًّا لقد كان أكبرُ راغباً فى شَيْد المبانى ، فقد أقام فى عشرِ سنين ، بدأت من سنة ١٥٦٠ م ، وعلى الصحراء القريبة من أغرا ، مدينةَ فتح پور وقصورَها التى تُذَكِّرنا أنقاضها العجيبة بمدن رواية ألف ليلة وليلة البائدة ، ولما أعياهُ جَوُّ هذه المدينة بعد قليل ، وهى التى يتَمَنَّى بعضُ الدول الأوربية

العظمى أن تكون عاصمةً لها ، ارتحل عنهاهو وسكانُها هاجراً لها ولقصورهاومساجدها التى أصبحت مأوى للنُّمُر وبعض الزُّهَّاد بعدئذ .

ولم يقتصر أكبرُ على إقامة المبانى ، بل كان يُعْنَى بشؤون الفلسفة أيضاً ، فقد عَنَّ له ذاتَ يومٍ وهو الذى كان متسامحاً غيرَ متينِ العقيدة،أن يَصْهَرَ جميع الأديان فى دين واحد،فعقد مؤتمراً من رجال الأديان المعروفة ، ومنها النصرانية ، ليَبْسُط لهم خِطته .

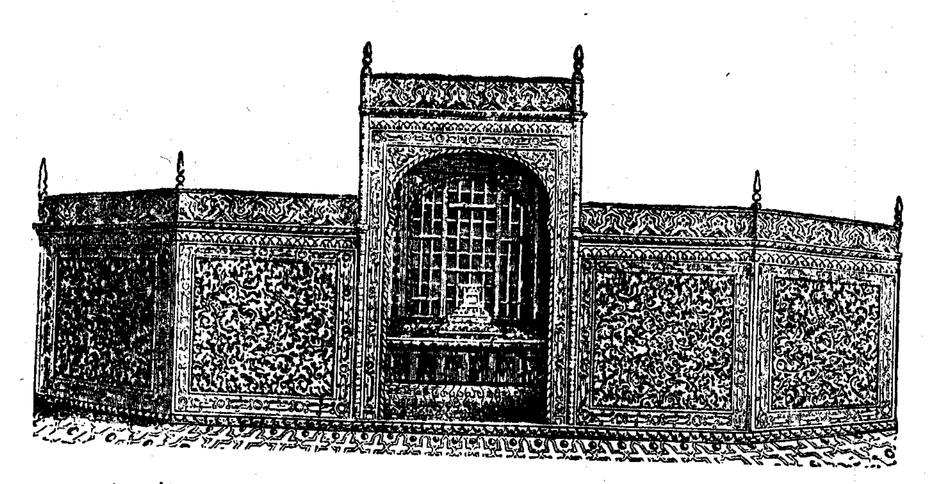
ومن دواعى الأسف أن نَسِى أكبرُ أن كلَّ واحدٍ من مستمعيه كان يعتقد أنه على الحقِّ الواضح وأن الآخرين على الضلال المبين ، وأن التوفيقَ بين المؤتمرين من المستحيل ، فلم يُسْفِر ذلك المؤتمر عن غير تشاتم هؤلاء وتلاعنهم .

وأيقن أكبرُ بذلك أن الملوك ، وإن قَدَروا مثلَه على بناء المدن والقصور فى الصحراء ، لأعجزُ من أن يُبَدِّدوا الأوهامَ القوية التى تسيطر على قلوب الناس ، فالتاريخُ لم يَعْرِف ديانةً قامت على مناقشات باردة أملاها العقل .

تاج محل فى أغرا . — يُرى فى مدينة أغرا عِدَّةُ أبنيةٍ مهمةٍ قامت على الطِّراز الهندوسىّ الفارسىِّ العربىِّ ، ولا سيما مزارُ تاج محل الشهير الذى يتطلب وصفه الكاملُ أكثرَ من مجلد . بدأ الملك شاهجهان ببناء تاج محل فى سنة ١٦٣١ م ليكون ضريحاً لزوجه التى لم يَقْدِر على سَلْوها فعزَم على إقامة أثرٍ لها أجملَ من كلِّ ماعَرَفه بنو الإنسان ، ودَعَا الملك شاهجهانُ مهندسى الشرق إلى التسابق فى وضع رسمه وحَمَل أقصى البلاد على جلب أغلى الحجارة وأعزِّها لرفعه ، وأنفق ، على مايقال ، ستين مليوناً فى سبيل إنشاء ذلك الأثر العظيم،خلا عِوَض أعمال الفَعَلةِ الذين كانوا يُسَخَّرون، ورأى تافرنيه أن إقامة تاج محل اقتضت جهودَ عشرين ألفاً من العمال فى اثنتين وعشرين سنة ، فبناء مثلُ تاج محل لا يقام فى أوربة بثلاثة أمثال هذا المبلغ .

بُنِيَ تاج محل الذى نشرنا بعضَ صوره الصادقة فى هذا الكتاب ، مع عدم كفايتها لإظهار جماله ، من المرمر الأبيض فى وَسَط قاعدة فسيحةٍ رُخاميةٍ تعلو خمسةَ أمتار عن وجه الأرض وتَمتَدُّ مئةَ متر من كلِّ جانب ، ويقوم على زوايا تلك القاعدة الأربع أربعُ مَنَاوِرَ ، ويلمس ماء

النهر أسفلَ إحدى جَنباتِها ، وتحيط الحدائقُ ذاتُ النبات الجميل بجَنَباتِها الثلاث الأخرى إحاطةً تأخذ بمجامع القلوب ، ويَحُفُّ حولَ تلك الحدائق سورٌ ذو شُرُفات، وتُدْخَل من باب كبير أُنشِيء على الطِّراز الفارسيِّ .



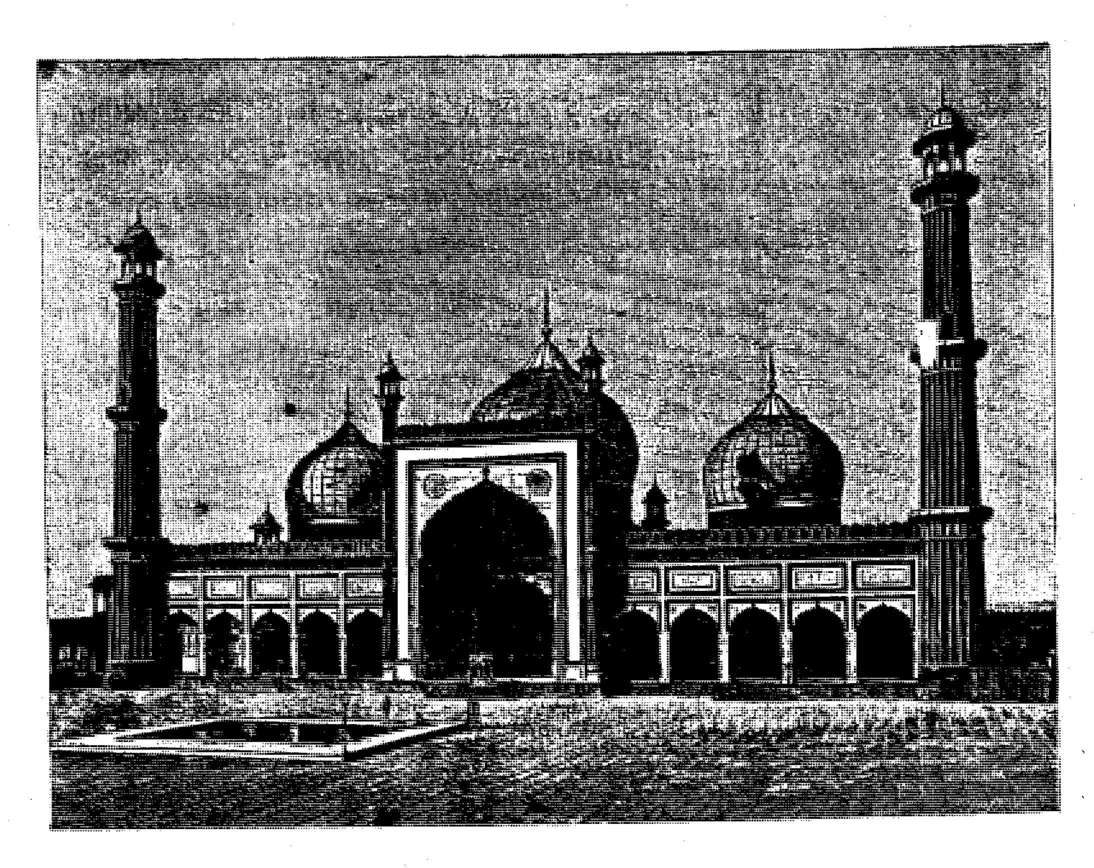
٨٦ ـ حاجز من الرخام الأبيض المنقوش المحيط بقبر شاهجهان وزوجه فى تاج محل

ولتاج محل أبعادٌ كبيرة ، فترتفع قُبته عن سطح الأرض أكثر من ثمانين متراً ، ويُدْخَلُ من أربعة أبواب يبلغ ارتفاع كلٍّ واحد منها عشرين متراً ، ويُرَى فى وَسَط تاج محل ضريح شاهجهان وضريح زوجته المحبوبة .

ويَعُدُّ السياحُ تاج محل من عجائب الدنيا ، وإليك ما قاله كاتبٌ لم يُصَرِّح باسمه فى مجلة المصوَّر مع صورةٍ مقتبسة من ميناء هندىٍّ صحيحةٍ صحةَ الصورِ الفوتوغرافية تقريباً .

« إن تاج محل مصنوع من المرمر الناصع المصقول ، ويكاد البصر يُخْطَف من نور هذا البناء العجيب حينما تُلْقِى الشمسُ أشعتَها عليه ، ولذا تَجِد نورَ القمر الشاحب أَلْيَقَ بتاج محل الأنيقِ ، وإنَّ كلَّ ما يمكن الفنَّ أن يجود به من الكمال صُبَّه فى تاج محل الساحر، فتَرَى فيه الجدران المرمرية المنقوشةَ بما لا يتصوره الإنسان من الأزهار والأوراق والورد والزخارف العربية الزاهية ، وتَرَى فيه الأعمدةَ الصغيرة الهيفَ والأُطُرَ الغانيـة والأورقةَ النَّيِّرَة والنقوشَ المتدلِّية والفُسَيْفِساء المتقنة

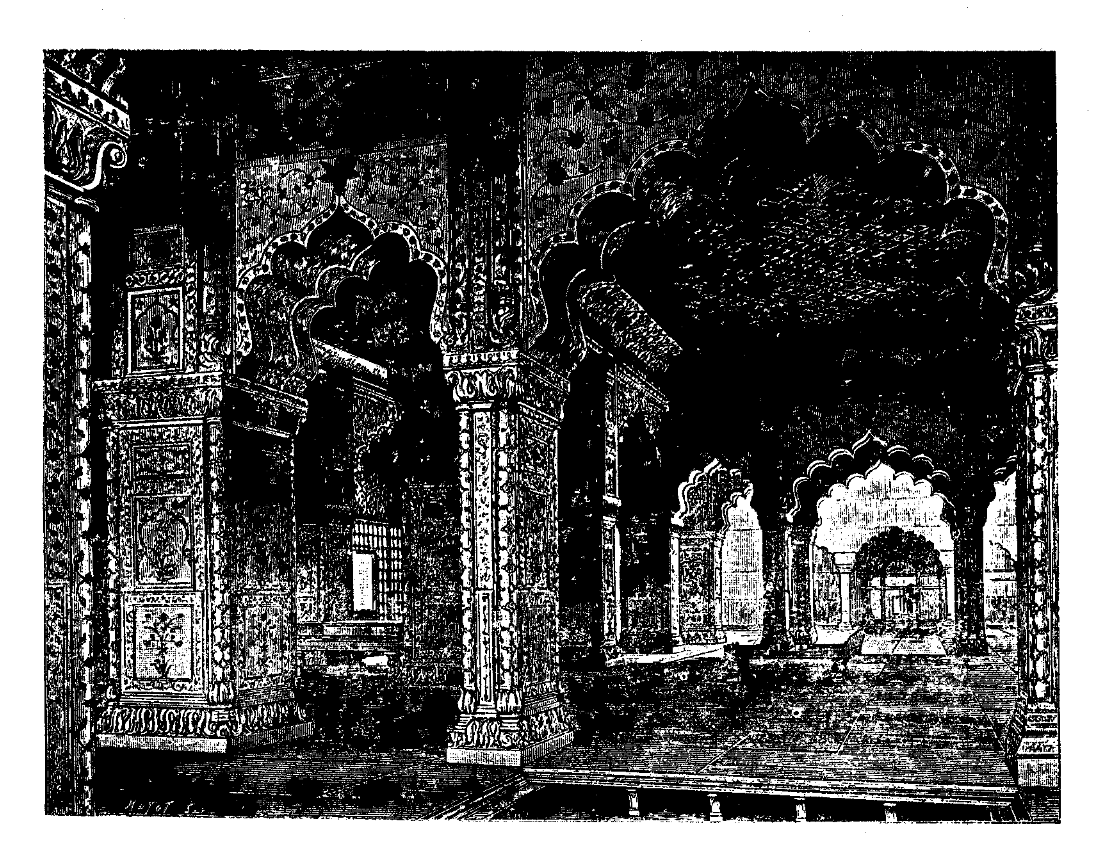
الثمينة الباهرة ، ترَى فيه كتاباتٍ جميلة من الرُّخام الأسود ، وترَى فى ذلك المكان الساحر جميع ما يسمح به الفنّ على الوجه الفيَّاض الأكمل .



٨٧ — المسجد الكبير فى دهلى (من صورة فوتوغرافية)

« وإذا نظرت إلى الضريحين المصنوعين من المرمر الناصع رأيتهما مُثْقَلَيْن بالكتابات والزينة الغنية مع عظيم إتقان وظَرْف ، وعلمتَ أن أزهارهما المرصعة بالفُسَيْفِساء ، والتى تطفح بها من الأسفل إلى الأعلى ، من أجمل ما صَنَع الإنسان ، فتتألف كلٌّ زهرة من مئةٍ من الحجارة الصَّقيلة المُلوَّنة المتنوعة التى جَمَع ما بينها صانعٌ ماهر فأكسبها الصورة التى أرادها ، وتلك الحجارةُ المُلوَّنة هى من اللَّازَوَرْد والزَّبَرْجَد والعقيق واليَصْب والرُّخام السُّمَّاقِ والمرمر الأصفر الذهبىّ ، إلخ . وزُيِّنَ أسفلُ الإطار المُثَمَّن والغُرَفُ القريبة منه بما ارتفاعه مترٌ و ٣٠ سنتيمتراً من الألواح الرُّخامية الناصعة الكبيرة

ذات النقوش البارزة من الفُسَيْفِساء على شكل الأزهار وأوانى الأزهار ، ومثلُ تلك الألواح مما يُشاهَد أيضاً فى أسفل القِباب التى تعلو مداخلَ تاج محل المُزَيَّنَةَ بالخطوط العربية المكتوبة بالرُّخام الأسود » .



٨٨ ـ داخل ردهة فى قصر ملوك المغول بدهلى (من صورة فوتوغرافية)

وتاج محل هو من المبانى الإسلامية النادرة التى تَفَلَّتت من يد التخريب الإنكليزية المنظمة ، والمصادفة هى التى أنقذت تاج محل من عُدْوان الإنكليز، فقد رأى الحاكم الإنكليزيُّ لورد بِنْتِنك أن تاج محل لايُدِرُّ شيئاً ، فاقترح أن يُهْدَم وتنزع فِضَّتُه وتباع قِطَعُه فى الأسواق، ولولا ما لتاج محل، الذى هو من أعظم المبانى التى شادها الإنسان ، من الأهمية العالمية الكبرى التى تكفى وحدَها لزيارة الهند لنُكِب العالَم بهدمه ، والحقُّ أن الذوقَ الفنىّ مما لا يلائم الطبائع التجارية التى قد يؤدى طَغْيُها

على العالم إلى دخوله فى دور يُسْتَباح فيه تحطيمُ تمثال كتمثال أفروديت (ڤينوس دوميلو) لتُصْنَع منه أجرانٌ وهواوينُ !

مسجد المعطى أو مسجد اللؤلؤ فى أغرا . — ومن بين مبانى أغرا المهمة أذكر أيضاً « مسجدَ المعطى » الذى أمر بإنشائه شاهجهان فى سنة ١٦٥٨م وَفْق طراز عهـده ، وهذا هو المسجد الذى صاح الأُسْقُفُ إيبرت حين رآه قائلاً : إن الخِزْىَ ليعتريه وقتما يفكر فى عجز أبناء دينه عن إقامة مثل بيت الله هذا .

المسجد الكبير فى دهلى . — تشتمل مدينة دهلى على كثيرٍ من المبـانى التى أقيمت على الطِّراز الإسلامىّ فى زمن المغول والتى نَعُدُّ بعضَهـا باختصار ، والمسجدُ الكبيرُ الذى أقيم فى سنة (١٠٦٠ هـ ١٦٥٠م) ، هو أول ما نَذْكُر منها .

بُنِىَ هذا المسجد الضخم على ذُرْوَة ساحة فسيحة يُوصَل إليها بدرجات عظيمة مؤدية إلى مدخل هائل أُنشِىء على الطِّراز الفارسىِّ ، وبُنِىَ من حجارةٍ رملية حُمْر ، ويَسْتُر مُقدَّمه رُخامٌ أبيض ورُخامٌ أسودُ متداخلان تداخلاً بديعاً ، ولم يَشِذَّ عن طِراز تلك المبانى التى تمازَج فيهـا الفنُّ العربىّ والفنُّ الفارسىُّ والفنُّ الهندىُّ ، وتجِد فى الصورة التى نشرناها ما يكفى للوقوف على شكله الخاص .

قصر المغول فى دهلى ، أو قلعة شاهجهان . — تمَّ بنـاء هذا القصر ، الذى أنشأه شاهجهان ، فى سنة (١٠٥٨ هـ ـ ١٦٤٨م) وهذا القصرُ هو أجمل القصور الإسلامية التى أقيمت فى بلاد الهند وفارس ، وما فى رِداهه من الفُسَيْفِساء يجْعَلُها قِطَعاً من الحُلِىِّ .

ولم يَنَل هذا القصرُ الشهير (الذى هو من أعجب ما شاده البشر ، والذى ضَنَّ به البرابرة الذين دَوَّخوا دهلى غيرَ مرة ونهبوها فلم يُخَرِّبوه) من الإنـكليز ما يستحقُّ من العناية ، فقد هدموا جميعَ أجزائه التى رَأَوْا أنهم لا ينتفعون بها وأقاموا فى مكانها ومن أنقاضها ثُـكَناً ، ولم يحترموا سوى الرِّدَاه التى رأَوْا فيها بعضَ النفع لهم ، وذلك مع علمنا أن الإنـكليز ، الذين حَسَبُوا مُقَدَّماً نفقةَ تنظيف تلك الرِّداه من فُسَيْفِسائها وزخارفها الجميلة عند تحويلها إلى اسطبلات ومراقدَ للجنود ، لم يرَوْا للخلاص من تلك النفقة ما هو أسهل من تـكليسها ، فسَخِط العالَم على هذا العملِ الهمجىِّ الذى تحْمَرُّ منه وجوه

وحوش البرابرة خجلاً فاضطرَّ الإنكليز إلى كَشْط ما جَنَتْ أيديهم من عمل حقير ، وما أبقاه الإنكليز من ذلك القصر يكفي ، مع ذلك ، لبيان ما كانت عليه حالُه قبل أن تُصيبه يدُ الهدّامة ، ويمكن القارئ أن يتمثله بسهولةٍ عند نظره إلى الصورة التي نشرناها في هذا الكتاب عن إحدى رِداهه .

قال مسيو روسله : « إن أُبهّة داخل ذلك القصر مما لم تسمعه أذن ، فقد زُيِّنَتْ أساطينه وحناياه وأطرُقُبّته بالنقوش العربية العجيبة التي رُسِمَت بالحجارة الكريمة المرصعة في الرُّخام ، وتَهَب الشمْس وقلما تُلقي أشعتها على فُسَيْفِساء ذلك القصر من خلال حناياه ، الحياةَ لطاقاتِ زهوره المصنوعة من اللّازَوَرد والعقيق واليَشْب وما لا يُحْصَى من أنواع الحجارة الثمينة » .

وزار هذا القصرَ الشهير في إبان عظمته فرنسيان ، أحدُهما طبيبٌ اسمُه بيرنيه ، والآخرُ صائغٌ اسمُه تافرنيه ، ووصفا دقائقَ كنوزه في سنة ١٦٧٠ م وسنة ١٦٧٧م ، وأُذِنَ للصائغ تافرنيه في فحص حجارته الكريمة ورسمها ، وتجد في كتابه تقديراً ورسوماً لأهمها ، ومما جاء فيه أن في القصر سبعةَ تيجانٍ مُرَصَّعة بالألماس وأن ثَمَن أهمِّ هذه التيجان السبعة يُقَدَّر بـ ١٦٠٥٠٠٠٠٠ فرنك .

وليس من الصعب أن نستعين بما ذكرناه آنفاً وبما جاء في كتب المتقدمين من الوصف ، فنتصورَ الحالَ التي كان عليها بَلاط ملوك الهند المعاصرين لملك فرنسة لويسَ الثالثَ عشرَ تقريباً ، فالسائحُ الذي يقترب من دهلي يشاهد في الأفق غابة من القباب والمناور التي تناطح السماء ، ثم يُمَتِّع ـ بعد أن يدخل دهلي ـ نظرَه بمئات القصور والمباني الساحرة المكسوة بالميناء الملون الذي لا يَقْدِر على الإعراب عن جماله غيرُ التصوير ، ويجب عليه ، إذا ما رَغِب في اجتلاء طلعة سيد تلك العجائب ، أن يسأل عن الساعة التي يذهب فيها إلى المسجد ، وهو يشاهد ، في أثناء انتظاره صابراً أُزُوفَ تلك الساعة ، الرِّياض الغَنَّ ذاتَ الجواسق المُخَرَّمة المغطاة بالفُسَيْفِساء والمنعكِس رُخامها في مياه الفَساقِي والحِياضِ العميقة والبارزة من بين أزهار الجُلول[1] والياسمين وشجر البرتقال والليمون والأشجار العَطِرة الطيبةِ الرائحة التي لا تَعرِف بلادنا مثلها .

---

(١) الجلول : جمع الجل ، وهو الورد أبيضه وأحمره وأصفره .

وبينما يقضى السائح العَجَب من تلك العجائب ، فيقول فى نفسه . إن ملائكة رواية ألف ليلة وليلة لا تستطيع أن تُبْدِع ما هو أروع منها ، يَسْمَعُ ألوفَ الصُّنُوج تَدُقُّ إيذاناً بمجىء الملك ، ويَرَى أنه يَخْرُج من باب القصر الهائل جمعٌ كبير من الخَدَم المتسربلين بسرابيلَ برَّاقةٍ ومن الجنود المُدَجَّجين بالسلاح اللامع ومن العبيد السُّمْر ذوى الخلاخل الفِضِّيَّة والحاملين للمحامل الزاهية ذاتِ المِظَلَّات المخملية ، ويرى ، فى وَسَط مَوْكبٍ من فرسان الهندوس والفرس والتركمان الحاملين سيوفَ الهندَ المرْهَفةَ ومن أكابر الأمراء والأعيان اللابسين أفخر الثياب المُطَرَّزَة بالذهب والفضة والحجارة الكريمة ، صاحبَ الجلالة الملكَ الراكبَ فيلاً ضخماً مُتَّزِن الخطا ، والذى تُظَلِّله مِظَلَّةٌ من الحرير المُطَرَّز بالألماس والزمرد ، ويَرَى الجمهورَ وهو يَخِرُّ ساجداً لذلك الملك المطلق الذى هو سيد الهند وظلُّ اللهِ الحىُّ المرهوبُ فى الأرض والممالكُ لخمسَ عشرةَ مملكة ، والذى هو مَلِك أغرا ودهلى وكابُل ولاهور وكجرات ومالوا وبنغال وأجمير ، ويرى على جوانبه فريقاً من حاشية الملك يُحَرِّك مراوحَ من ريش الطاووس ذواتِ أهدابٍ مرصعة بالحجارة الكريمة على حين تُلْقى الشمس أشعتها الذهبية على ذلك المَوْكب المَلَكىِّ الشرقىِّ الباهر .

الفصل الرابع

العرب في مصر

---

١ — حال مصر حين الفتح العربي

درسُ شأن العرب في مصرَ ذو فائدة عظيمة ، فمصرُ من البلدان التي طالت إقامة العرب بها ، وهي من البلدان التي أنشأوا فيها دولة مهمة ، وهي من البلدان التي كان تأثيرُهم فيها أعظمَ مما في أيِّ بلد آخر ، ولا شيء يستوقف النظر كحَفَدة قدماء المصريين الذين قاوموا نفوذ الأغارقة والرومان على الخصوص ثم اعتنقوا دين العرب ولغة العرب وحضارة العرب الغالبين وصاروا عرباً خالصي العروبة ، وفي فارس والهند امتزجت حضارة العرب بالحضارة السابقة، وفي مصرَ توارت أمام حضارة أتباع النبيّ الجديدة حضارةُ الفراعنة القديمةُ وحضارة اليونان والرومان التي تَنَضَّدت فوقها في قليل من المدن .

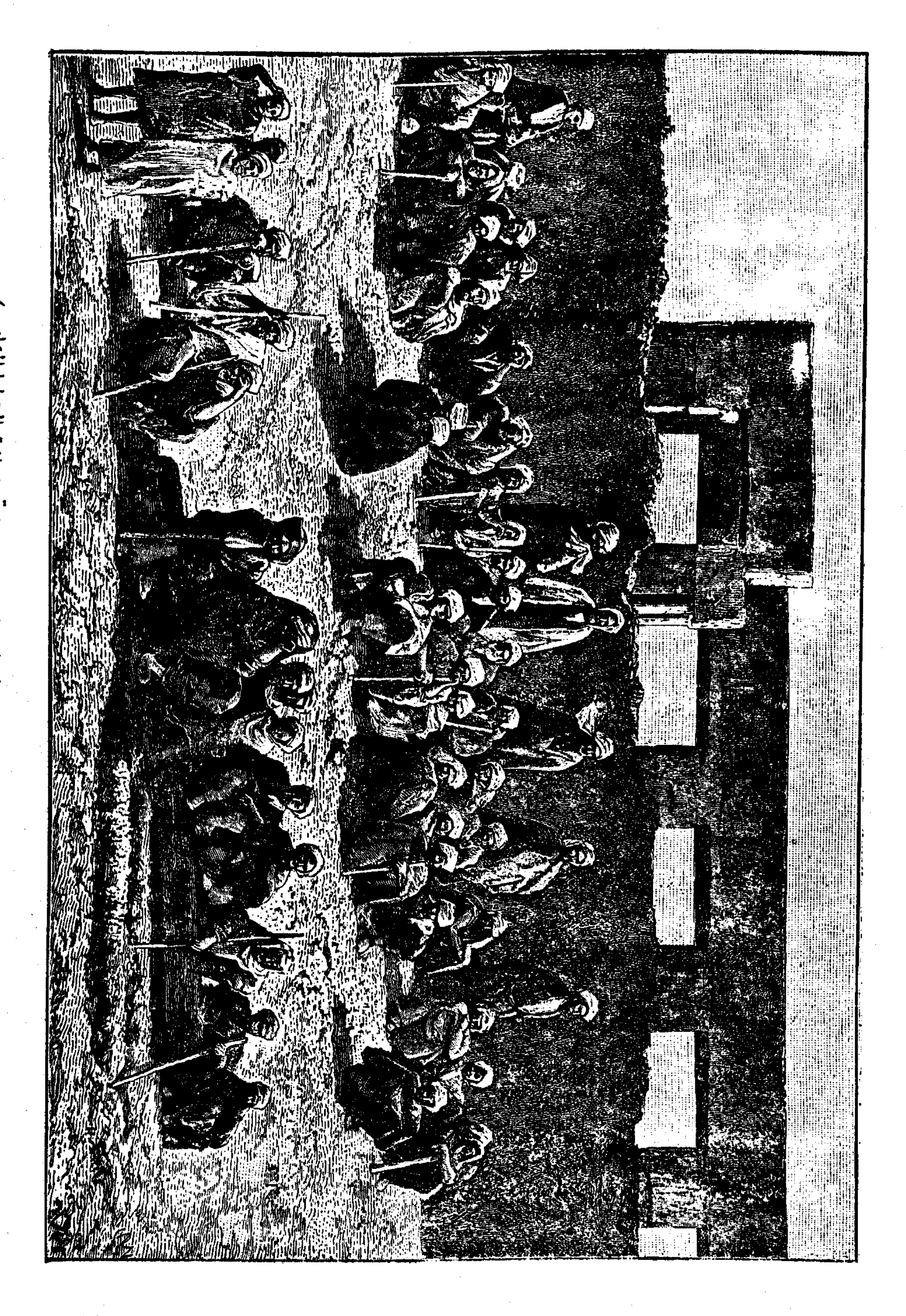
وتُثْبِتُ دراسةُ آثار العرب الماثلة في مصر أن ذلك الاستبدال كان تامًّا، والعربُ لم يقتبسوا شيئاً من المباني القديمة الكثيرة التي وجدوها في أنحاء القطر المصريِّ .

وتنطوي دراسة العرب في مصر على فائدة عظيمة من الناحية الإتنوغرافية، وقد ذكرنا في فصل سابق أنه لم ينشأ عن توالد العرب والمصريين عِرْقٌ جديد وَسَطٌ بين العرقين، وأن المصريين الذين صاروا عرباً باللغة والدين والحضارة لم يصيروا عرباً بدمائهم، فالشَّبَهُ الوثيقُ بين فَلّاحي شواطئ النيل المعاصرين ووجوهِ أجدادهم المنقوشةِ على آثار العصر الفرعونيّ يدلُّ على أن دَمَ القدماء لا يزال يجري في عروق أهل مصر .

ورأى العربُ ، حينما استولَوْا على مصر، أنهم في بلاد تختلف بطُرُق معايشها وبيئتها عن جزيرة العرب وسورية ، وكان كلُّ شيء في مصرَ ، من حضارةٍ وَسكانٍ وأرضٍ وَجَوّ ، جديداً غيرَ مألوف لديهم .

ولابُدَّ لنا من النظر إلى تاريخ مصرَ وَأحوالِ العيشِ الخاصةِ فيها لإدراك أسباب السرعة في استيلاء العرب على مصرَ ولفَهْم سِرِّ تأثيرهم فيها .

وتَرْجِعُ بعض الآثار المصرية القديمة إلى ما قبل سبعة آلاف سنة أو ثمانية آلاف سنة ، كما دلّت عليه المباحث الحديثة ، ومهما بَعُدْنا فى الرجوع إلى عصور التاريخ وجدنا المصريين أصحابَ حضارة راقية



٨٩ — من عرب وادى النيل (مصر العليا) (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ونجْهَلُ مصدرَ حضارة قدماء المصريين تماماً ، وإن كنا نَعْلَم أنها أقدم من جميع الحضارات التى أينَعت على شواطىء البحر المتوسط وأنها قامت على ضِفَّتِى النيل قبل أن تقتبس الشعوب الإغريقية منها فنونَها ومعتقداتِها بقرون كثيرة .

وظنَّ العلماء المعاصرون ، حين أَحْيَوْا بمباحثهم مصرَ الغابرة ، أنها لم تتبدل مع الزمن ، ولكن إنعام النظر فى آثارها التى تَمَّتْ فى مختلف الأدوار يدلُّ على أنها لم تَشِذَّ عن سنة التطور العامة ، وإن سارت حضارتُها ببطء فيما مضى .

ويَظْهَرُ أن كلَّ شيء ثابتٌ خالد فى معابدها ذاتِ الأبواب الهائلة ، وفى أهرامها التى تتحدَّى الدهر ، وفى تحنيطها الذى يُزْرى بسُنَّة الزمن ، ونُظُمها التى تُحَرِّم كلَّ تغيير وتبديل .

ولم يَسْهلْ ، والحالةُ هذه ، على الفاتحين أن يُؤَثِّرُوا فى أمةٍ تلك حضارتُها ، فلقد تتابع غزْوُ الأجنبيِّ لمصرَ فظلَّت ثابتة على قديمها ، واسْتَوْلَى الأغارقة والرومان على مصرَ من غير أن يؤثروا فيها ، ونَرَى فى المبانى التى شادها البطالمةُ والقياصرة فى مصر على طِراز فنِّ العِمارة المصرىِّ القديم من الأدِلة ما يكفى لإثبات ثبَات الحضارة المصرية القديمة بتوالى القرون .

وكانت مصر ، حين ظهور العرب على مَسْرَح التاريخ طُعْمَةً للغُزَاة الفاتحين منذ قرون كثيرة فقد استولى الإسكندر عليها فى سنة ٣٣٢ ق م ، وطردَ الفُرْسَ منها وأقام مدينة الإسكندرية فيها ، ثم نادى أحد قُوَّاده ، بطليموس سوتر ، بنفسه مَلِكاً عليها فى سنة ٣٠٤ ق . م ، وملكت أُسْرَة البطالمة مصرَ مدة ٢٧٤ سنة ، وكان آخرُ من تَوَلَّوْا أمورَ مصر من تلك الأُسْرَة الملكةُ كليوباترة الشهيرة ، ولما هَزَم أكتافيوسُ كليوباترةَ وأنطونيوسَ فى معركة أكسيوم فى سنة ٣٠ ق . م ، أصبحت مصرُ ولايةً رومانية ، ولما قُسِّمَت الدولة الرومانية على أثر وفاة ثيودوز فى سنة ٣٩٥ م كانت مصر من نصيب دولة الشرق الرومانية ، وظلت مصرُ تابعةً لهذه الدولة حتى سنة ٦٤٠ م ، أى السنةِ التى فتحها العربُ فيها .

وداومت مصرُ فى زمن البطالمة على تقاليدها القديمة وعاشت فيه عَيْشَ رَغَدٍ ورَخاء وصارت الإسكندريةُ فيه مركزاً تجاريًّا مهمًّا وملجأ ثقافيًّا ، وأقيمت فيه أبنيةٌ عظيمةٌ على الطراز

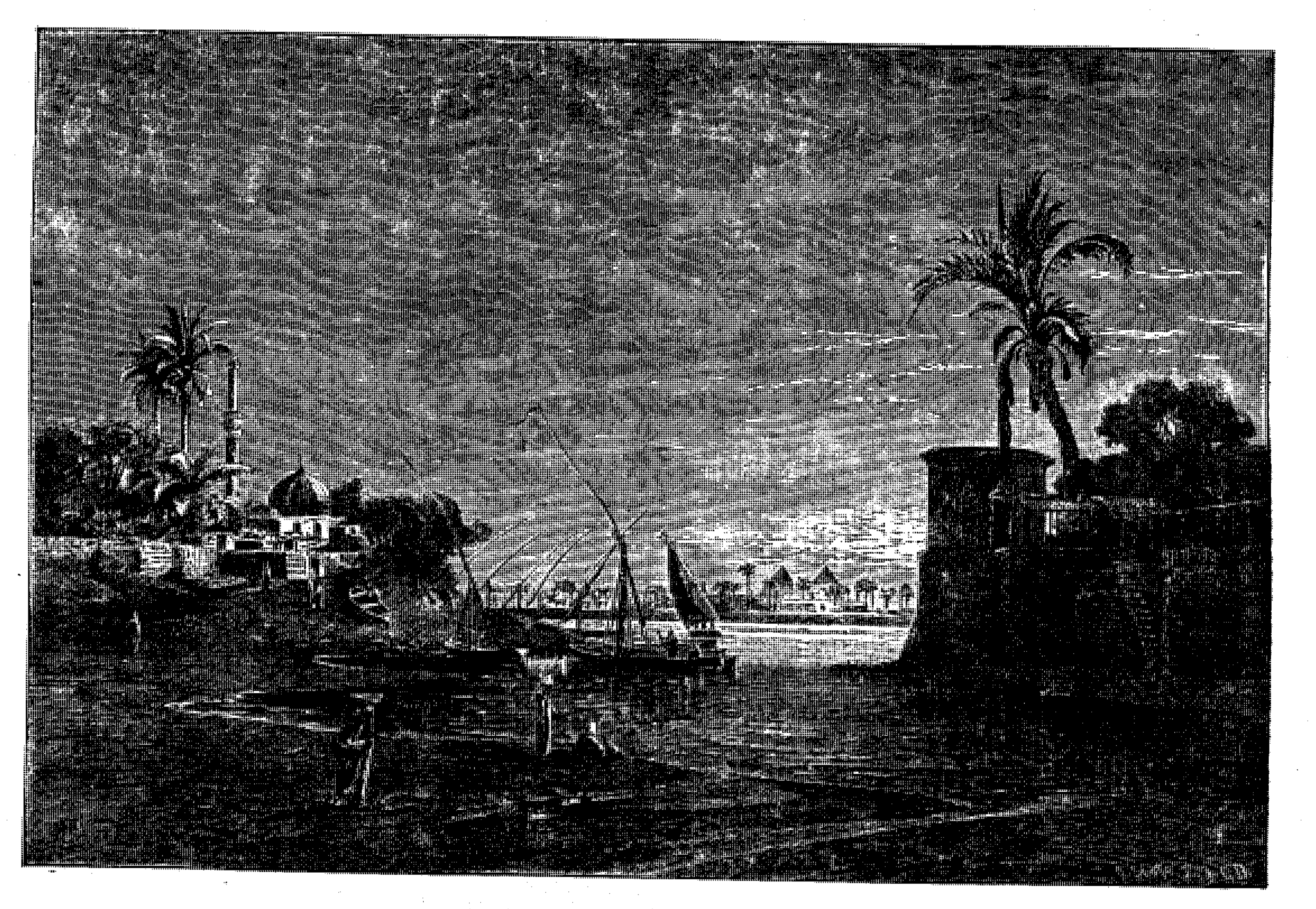
الفرعونىّ ، كما تشهد بذلك بعضُ تلك الأبنية التى لا تزال قائمةً فى جزيرة الفيلة ، فتُعَدُّ مُصَدِّقَةً لما قلناه من انتحال جميع الفاتحين الجُدُد لتقاليد المصريين ، وأنت إذا ما استثنيت المدنَ الإغريقية الرومانية التى أقيمتِ فى مصر ، كالإسكندرية مثلًا ، لم تكد تَشْعُر بأىِّ تأثيرٍ كان لأولئك الغُزاة فى مصر .



٩٠ ــ نخيل الجيزة (من صورة فوتوغرافية)

وعندما أصبحت النصرانيةُ دينَ دولة القسطنطينية الرسمىَّ أمرَ القيصر ثيودوز ، فى سنة ٣٨٩م ، بهدم جميع تماثيل الآلهة المصرية القديمة ومعابدِها وجميعِ ما يُذَكِّر الناسَ بها ، واكتفى بتشويه كتابات المعابد المصرية التى كانت من المتانة بحيث لم يَقْدِر على هدمها بسهولة .

ولا تزال مصرُ ملأى بأنقاض ذلك التخريب الذى أملاه التعصب ، وتُعدُّ تلك الأعمال من أفظع ما عَرَفه التاريخ من أثر عدم التسامح والبربرية ، ومن دواعى الأسف أن كان من بواكير أعمال ناشرى الدين الجديد ، الذى حَلَّ محلَّ دين الأغارقة والرومان ، هَدْمُ المبانى التى احترمها أكثرُ الفاتحين منذ خمسة آلاف سنة .



٩١ ـ جزيرة الروضة فى القاهرة (من تصوير ابر)

وأدَّت هذه الأعمالُ الوحشية بسرعة إلى امِّحاء الحضارة المصرية وزوال دَوْرِ الخطِّ الهيرو غليفيِّ الذى حُلَّت رموزه فى الزمن الحاضر، وأُكْرِهت مصرُ على انتحال النصرانية وهبطت بذلك إلى دَرَكات الانحطاط مقداراً فمقداراً إلى أن جاء العرب .

وكان قيصر الروم هرقلُ سيدَ مصر حينما حاول العرب فتحَ مصرَ بقيادة أحد رجال الخليفة الثانى، وكان أشدُّ البؤسِ والشقاء مما تعانيه مصر التى غَدَت ميدانَ قتالٍ للمذاهب النصرانية ، وكانت هذه المذاهب تَكْثُر فى ذلك الزمن وتتلاعن وتتقاتل .

وكانت مصرُ التى أكلتها الانقسامات الدينية ونَهَكَتْها مظالم الحكام تحْقِد أشَدَّ الحقد على سادتها الكثيبين ، وكانت تَعُدُّ من يُحَرِّرونها من أيدى قياصرة القسطنطينية مُنْقِذين ، لحفظ هذا الشأن للعرب .

٩٢ ـ منظر القاهرة ، ويرى مسجد قاغباى فى أول الصورة (من صورة فوتوغرافية)

تلك هى حال مصر عند ظهور أتباع النبىِّ ، ولنتكلم عن طُرُق حياتها الخاصة فى ذلك الزمن :

يجب أن ننتقل إلى وادى النيل لكى نَطَّلِع على أخلاق قدماء المصريين وطُرُق حياتهم ، ولِأَرض مصرَ وجَوِّها من الخواصِّ الثابتة بتقادم الزمن ما جعل الحياة فيها غيرَ متحولة ، ووَصْفُ مصرَ الحاضرةِ وسكانِها المعاصرين يَتَضَمَّن تَمَثُّلَ ما كان عليه وادى النيل وأهلوه عندما ظهر العرب فى هذا القطر .

من المعلوم أن مصر هى الوادى الضيقُ الذى أوجده النيلُ فى سواء الصحراء ، ويبلغ طول هذا الوادى مستقيماً من الشَّلَّال الأول الواقع على حدود بلاد النوبة إلى البحر نحوَ مئتى فرسخ ، ويبلغ طولُه مُعْوَجًّا من ذلك الشَّلَّال إلى البحر أكثرَ من ثلاثمئة فرسخ .

ويختلف وادى النيل عرضاً ، فبينما تراه لا يزيد على خمسة كيلو مترات فى مصرَ العليا تراه يزيد

على عشرين كيلو متراً في مصرَ الوسطى ، وهو لا يكون عظيمَ الاتساع إلا بالقرب من مصبٍّ نهر النيل حيث ينقسم إلى ضِلْعَيْه اللتين يتألف من ابتعاد إحداهما عن الأخرى شكلُ ٧ فيُسَمَّى السهلُ الواقعُ بينهما بالدلتا لمشابهته الحرفَ اليونانيَّ الذي يحمل هذا الاسم ، ويَبْلُغُ أكبرُ طول في المثلث الذي يتألف على هذا الوجه نحو أربعين فرسخاً ويَبْلُغُ أكبرُ عرضٍ في هذا المُثَلَّث ، أي من ناحية البحر ، ستين فرسخاً

والغِرْيَنُ[1] الذي تتألف منه مصرُ خَصِبٌ جدًّا ، وهو لا يحتاج إلى أكثرَ من نَضْحه بالماء ليُخْرِجَ زَرْعَه ، والنيلُ هو الذي يقوم بذلك حين فيضانه ، وفي مصرَ نظامٌ للرَّيِّ ، كالذي كان في زمن الفراعنة لا ريب ، يؤدِّي إلى توزيع المياه بين أقسام الأرض التي لا يَصِل إليها النيل بنفسه .

وبَلَغَتْ أقسامٌ كثيرة من تلك الأَرَضين العجيبة من الخِصْب مبلغاً تُخْرِج معه في كل سنة ثلاثةَ زروع في كثير من الجهات ، ويتمُّ زرع تلك الأَرَضين من غير عناء تقريباً ، أي أنها لا تحتاج في الغالب إلى من يُثِيرها لبَذرها ، وهي تُغِلُّ أكثرَ من أَرَاضِي البلدان الأخرى مع ذلك ، فبينما تُعْطِي الْبُرَّة ما يترجح بين خمسة أمثالها وعشرة أمثالها في أخصب أراضي فرنسة تراها تُعْطِي خمسةَ عشرَ مِثْلًا في أَرَاضي مصر[2] .

ولا يحتاج سكان مصر ، بسبب جَوِّها الحار[3] ، إلى وَفْرَة القُوت ولا إلى ثقيل الثياب ولا إلى مُحْكَم المنازل[4] ، فالفلاح المصريُّ يقتصرُ في طعامه على كِسَر يابسة من الخبز وقليلٍ من

---

(١) الغرين : الطين الذى حمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً كان أو يابساً .

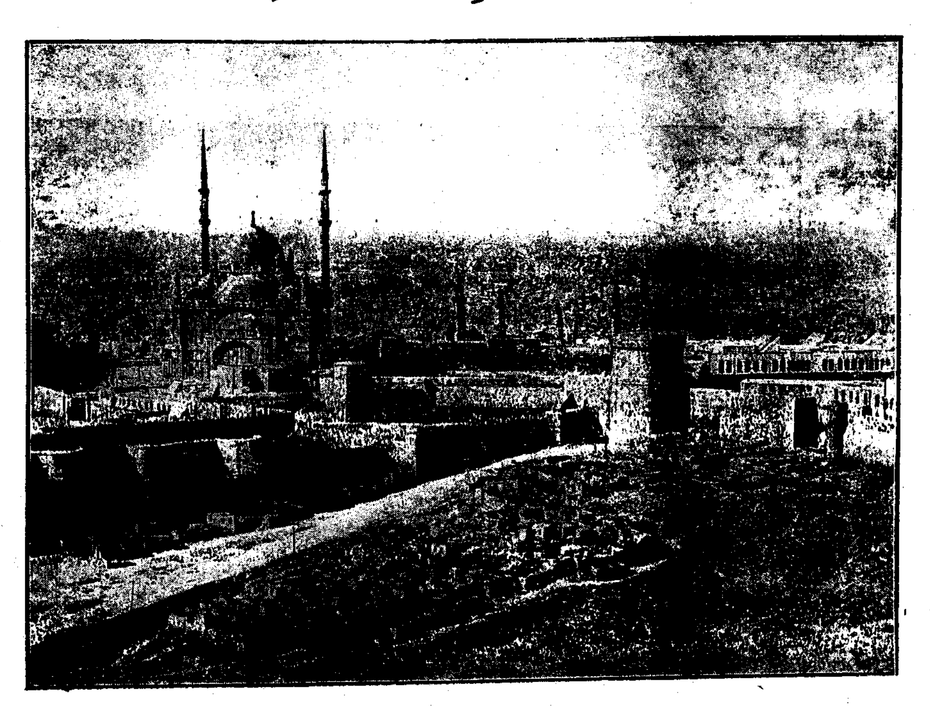
(٢) ظهر من محادثتي لكثير من التجار في مصر العليا أن متوسط ما تعطيه الأرضون هنالك هو ٪ ١٢ بعد النفقات ، ومع ذلك فإن ثمن الحبوب يكون من الانخفاض ما تقضي المصلحة معه بإصدارها إلى انكلترة وإن زادت نفقات النقل على ٪ ٣٠ من قيمتها .

(٣) قلما ينزل المطر في مصر العليا ، وتكون درجة الحرارة فيها مرتفعة حتى في الشتاء ، وكانت تختلف وقت الظهر من شهر نوفمبر وشهر ديسمبر سنة ١٨٨٢ بين ١٩ درجة و ٢٧ درجة ، وذلك في أثناء سياحتي في أسيوط وطيبة .

(٤) ذلك إلى حين انقضاض الترك ، والأوربيين مؤخراً ، على الفلاح المصري على الأقل ، والترك والأوربيون الذين لم يتركوا للفلاح المصري من غلاته غير ما يمسك رمقه قد جاوزوا الحدود فأخذا يساومونه حتى هذا المقدار الضروري فاضطروه إلى الاقتيات بالعشب غالباً ، ولا يتمتع الفلاح المصري من نعم الحضارة بغير ما يسمع عما في مدينة القاهرة الناشئة من الشوارع الجميلة والأغنياء ، ولذلك ومما اتصف به الفلاح المصري من الدعة والخضوع البالغين ، كاد يطير من الحماسة حين بلغه نبأ الثورة التي اعتقد أنها ستسفر عن طرد جميع الأجانب من وادي النيل ، وللفلاح المصري الذي يساق بالسياط إلى العمل بلا انقطاع في سبيل اغتناء المضاربين من الترك والأوربيين الكثيري الطمع والشره ، وللهندي الذي يقاسي ضروب البؤس والشقاء في سبيل سعادة سادته الجدد أن يقولا ، أحياناً ، إن الشعوب المتمدنة الحديثة لم تفتح البلدان إلا لتستغل سكانها استغلالا يثير حسد طغاة الفاتحين الذين يصب التاريخ عليهم غضبه .

الفواكه والبقول ، ويَسْكُن كوخاً حقيراً من تراب النيل المجبول بالتِّبْن والماء ، ويَلْبَس جِلْباباً أزرقَ ، وإذا ما كان عمره أقلَّ من أربعَ عشرةَ سنة كان من العُراة ، وقد رأيتُ فى مصرَ العليا وبالقربِ من حدود النوبة ، على الخصوص ، عُمَّالًا كثيرين لا يكاد يزيدُ ثوبُ كل واحد منهم على زُنَّار عَرْضُه بضعة سنتيمترات مشدودٍ على وَسَطِه ، و تَتَرَجَّح جميع نفقات الفَلَّاح المصرى السنوية فى زماننا ، الذى كَثُرَت فيه نفقات الإنسان ، بين سبعين فرنكاً و ١٢٠ فرنك ، ويَنْدُر أن تزيد أجرته اليومية على خمسين سنتيماً ، وأنبأنى دليلى فى الأقصر ، أحمد ، وهو لم يكن من سِفْلَة الناس، أن نفقاتِه السنوية ، هو وزوجه وأولاده الأربعة ، نحوُ أربعمئة فرنك ، وأنه يعيش بهذا المبلغ عيشاً لائقاً كثيراً .

ولم تتقدم طُرُق الزراعة والاستغلال فى مصر ما كانت عليه فى زمن الفراعنة ، ولا نرى من الفوائد ما يَحْفِزُها إلى تغييرها ما دام النيلُ والشمسُ يُغْنِيان فيها عن الأَسْمِدة والحرث .



٩٣ ـ منظر القلعة ومسجد محمد على فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية)

وتنظيمُ شؤون الرِّىِّ مقداراً فمقداراً بزيادة القَنَوات والتُّرَعِ هو كلُّ ما يُمْكِن إصلاحه

وما تقضى المصلحة بإصلاحه ، فبهذا يمكن إنقاذُ أجزاء مصر التى يَصِل إليها ماء النيل من الصحراء وتحويلُها إلى حقولٍ خَصِبَة .

ولا بُدَّ من أن تكون مصرُ الغنيةُ قد أثَّرت تأثيراً حسناً فى العرب الفاتحين الذين جاءوا من صَحارى بلادهم ، فالكتابان الآتيان اللذان تبادلهما عمرُ بن الخطاب وعاملُه عمرو بن العاص يُثْبِتان درجةَ تقديرهما لفتح مصر .

كتب خليفةُ أبى بكر ، عمرُ بن الخطاب ، إلى عامله عمرو بن العاص يقول له : « أطلب منك يا عَمْرو أن تَصف لى مصرَ وصفاً دقيقاً عند أخذكَ كتابى هذا لأتَمَثَّل ذلك البلد الجميل والسلام عليك » .

واسمع جواب عمرو بن العاص :

« ورد إلىَّ كتابُ أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، يَسْألُنى عن مصر ، اعْلَمْ يا أمير المؤمنين أن مصر تربةٌ غبراء ، وشجرةٌ خضراء ، طولُها شهر ، وعرضُها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورملٌ أعْفَر ، يَخُطُّ وسطَها نهرٌ مبارك الغَدَوات ، مَيْمُون الرَّوْحات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجَرْى الشمس والقمر له أوَانٌ ، يدرُّ حلابه ، ويكثرُ عَجاجه ، وتَعظُم أمواجه ، فتفيضُ على الجانبين ، فلا يمكن التخلُّص من القُرَى بعضِها إلى بعض إلا فى صغار المراكب ، وخِفاف القوارب ، وزوارق كأنهنَّ المخايل[١] ، أو وُرْقُ[٢] الأصائل ، فإذا تكامل فى زيادته نَكَص على عقبه كأوَّل ما بدأ فى جِرْيَته وطَما[٣] فى درَّته ، فعند ذلك تَخرُج مِلَّة محقورة يحرثون بطون الأرض ، ويَبْذُرون بها الحبَّ ، يرجون بذلك النماء من الربِّ ، لَقِيَهم ما سَعَوْا من كَدِّهم ، فناله عنهم أناس بغير جِدِّهم ، فإذا أشرق الزرع وأشرف ، سقاه الندا ، وغذَّاه من تحته الثَّرَى ، فبينما مصرُ يا أمير المؤمنين لؤلؤةٌ بيضاء ، فإذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رَقْشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، والذى يُصْلح هذه البلادَ ويُقِرُّ قاطنَها فيها ألَّا يُقْبَل قولُ خسيسها فى رئيسها ،

---

(١) المخايل من السحب : المنذرة بالمطر . (٢) الورق : جمع الورقاء ، أى التى لونها لون الرماد .

(٣) طما الماء : ارتفع وملأ النهر ، وطما البحر : امتلأ .

وألّا يُسْتَأْدَى خراجُ ثمرة إلّا فى أوانها ، وأن يُصْرف ثلثُ ارتفاعها فى عمل جسورها وتُرَعها ، فإذا تَقرَّر الحال مع العمال على هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال ، والله يُوَفِّقُ إلى حسن الحال » .

وقد يكون نهر النيل الذى فيه سِرُّ غِنَى مصرَ سببَ بؤسها ، فإذا ما كان فيضانه دون الدرجة الكافية ضَرَبَت المجاعة أطنابها فى مصر ، وإذا دام القحط فى مصر عِدَّةَ سنين لم يبق أمام الكثيرين من الفلاحين سوى الموت جوعاً ، ومن ذلك القحطُ الهائلُ الذى نُكِبَت به مصر سنة (٤٦٢ هـ ـ ١٠٦٩ م) أيام الحُكْم العربىّ ، فقد رَوَى مؤرخو العرب أنه حين نَقَص فيضان النيل عن درجة الكفاية خمسَ سنين متتابعة ، وتَعَذَّر جلب القمح من الخارج بسبب الحروب الكثيرة التى كانت تقع فى تلك السنين ، بلغت المجاعة فى مصرَ مبلغاً صارت تُباع معه البيضةُ الواحدة بخمسةَ عشرَ فرنكاً والهِرَّةُ الواحدة بخمسةٍ وأربعين فرنكاً ، وأن الناس أكلوا فى أثناء تلك المجاعة جِمالَ الخليفة وأفراسَه التى كان عددها عشرةَ آلاف ، وأنهم رَمَوْا فى إبَّانها وزيرَ الخليفة عن ظهر بغلته حينما كان ذاهباً إلى الصلاة فى المسجد فذبحوها وأكلوها على مرأى منه ، ثم أكلوا جُثَث الذين قُتِلوا بسبب هذا الاعتداء ، ودامت تلك المجاعة ، وكانت كلما دامت أكل الناسُ بعضُهم بعضاً ، فكان يُذْبح من يخرج من البيوت من الأولاد والنساء ويُؤْكل لحمُه مع عويله ، ومما حدث أن نَجَت امرأةٌ وكُتِبَ لها حظُّ البقاء حيةً بعد أن أُكِل بعضُها فى تلك الأيام ، فكان الناس يشيرون إليها لطويل زمن بعد انقضاء المجاعة .

٢ — استيلاء العرب على مصر

فَتح القائدُ عمرو بن العاص ، الذى هو من عمَّال الخليفة الثانى ، عمرَ ، بلادَ مصر فى السنة الثامنة عشرةَ من الهجرة (٦٣٩ م) ، وقد ذكرنا ما كان عليه عمرُو بن العاص من الحِذْق والمهارة نحوَ سكان مصر ، فهو لم يَتَعَرَّض إلى دِيانتهم ولا إلى نُظُمهم ولا عاداتهم ، ولم يطالبهم بغير جِزْية سنوية قدرُها خمسةَ عشرَ فرنكاً عن كلّ رأس مقابل حمايتهم ، فرَضىَ المصريون بذلك شاكرين ، ولم يَنِدَّ سوى الروم ، أى الجنودِ والموظفين ورجالِ الدين الذين أَبَوْا أن يخضعوا للغُزاة فالتجأوا إلى الإسكندرية ، فحاصرها العرب حصاراً دام أربعةَ عشرَ شهراً ، وقُتِل فى أثنائه ثلاثةٌ وعشرون ألفاً من العرب .

وكان عمرو بن العاص سَمْحاً رحيماً نحو أهل الإسكندرية مع تلك الخسارة التى أُصيب بها العرب ، ولم يَقْسُ عليهم ، وصَنَع ما يكسِب به قلوبهم ، وأجابهم إلى مطالبهم وأصلح أسدادهم وتُرَعَهم وأنفق الأموال الطائلة على شؤونهم العامة .

وأما إحراقُ مكتبةِ الإسكندرية المزعومُ فمن الأعمال الهمجية التى تأباها عادات العرب ، والتى تجعل المرء يسأل : كيف جازَت هذه القِصَّة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً ؟ وهذه القِصَّة دُحِضَت فى زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها ، ولا شيء أسهلُ من أن نُثْبِت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحْرَقُوا كتبَ المشركين فى الإسكندرية قبل الفتح العربىِّ بعنايةٍ كالتى هدموا بها التماثيلَ ولم يَبْقَ منها ما يُحْرَق .

وكان فتح الإسكندرية مُهِمًّا لدى العرب كفتح القدس ، فقد أَسْفَر عن فتحهم لمصر فتحاً نهائياً ، وكان لهم به مصدرُ ثَراء قوىّ ونقطةُ ارتكاز يَقْدِرون أن يستندوا إليها لقيامهم بفتوح جديدة أخرى .

ونحن ، لكى نُقَدِّر أهمية فتح العرب للإسكندرية ومقدارَ تأثيره فى العالم ، نرى أن نُوجِز ما كانت عليه حين دخول العرب بلادَ مصر .

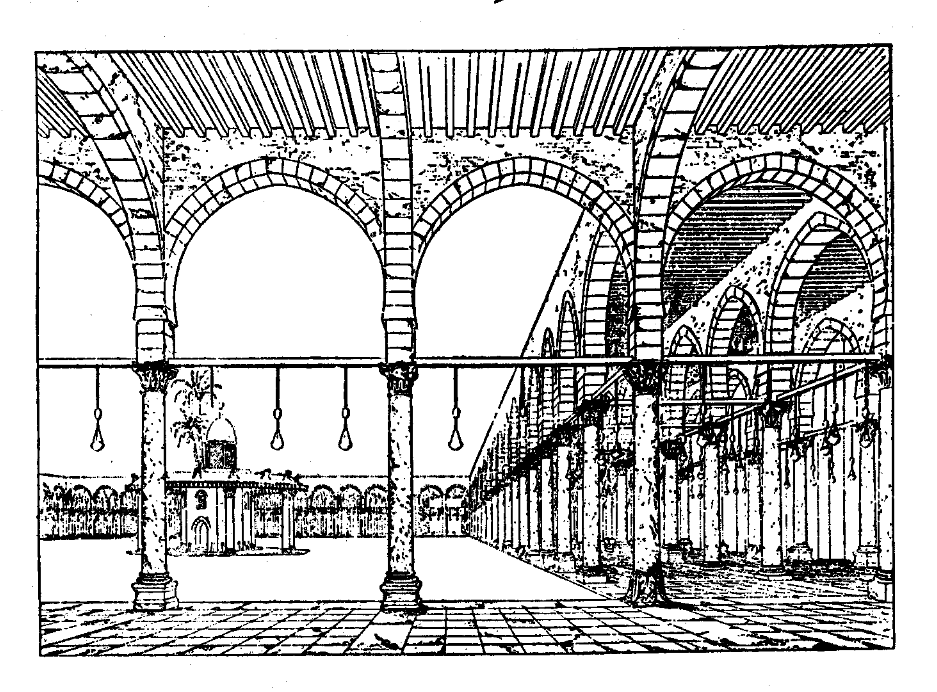
كانت الاسكندرية من أهمِّ مدن العالم منذ أنشأها الإسكندر (سنة ٣٣٢ ق . م) إلى أن فتحها عمرو بن العاص ، أى فى مدة ألف سنة ، وكان يمكن عدُّها ، وهى مركزٌ لتجارة البحر المتوسط بأسره ، ثانيةَ مُدُن الإمبراطورية الشرقية ، أى المدينةَ التى تأتى بعد القسطنطينية ، وكان البطالمةُ قد اجتذبوا إليها أشهرَ علماء العالم وفلاسفته ، وكانت تشتمل على أشهر المكتبات والمدارس .

بَيْد أن ذلك الرقىَّ العلمىَّ لم يَدُم ، فكانت ، حين فتحها الرومان بقيادة قيصر (سنة ٤٨ ق م) قد أخذت فى الذبول منذ زمن طويل .

ولم يكد فتحُ الرومان لها يَتِمُّ حتى أخذت تنهض وتنتعش ، وصارت ثانيةَ المدن فى الدولة الرومانية ، ولكن هذا الرّخاء كان موقتاً ، فهى لم تلبث أن صارت مسرحاً للاختلافات الدينية ، وتوالت فيها الثَّوْرَات والفِتَن منذ القرن الثالث مع ماقام به القياصرة من أعمال القمع ، ولما أصبحت النصرانية دين الدولة الرسمىّ أَمَر القيصر النصرانىُّ ثيودوز ، لا الخليفةُ عمرُ بن الخطاب ، بإبادة معابدها وتماثيلها وكتبها الوثنية كما ذكرنا ذلك آنفاً .

وحافظت الإسكندريةُ على شيء من مكانتها التجارية مع ما أصابها من النقص فى عهد قياصرة الروم ، وكان فيها من البقايا المهمة ما أدهش عامِل عمرَ بنِ الخطاب .

ولم يشاهد العربُ مدينةً منتظمةً انتظامَ الاسكندرية ، ونحن ، وإن لم يكن عندنا علمٌ قاطع بالحال التى كانت عليها حين الفتح العربىّ ، نَعرِف بالضبط ما كانت عليه فى القرن الثانى من الميلاد ،



٩٤ ــ داخل مسجد عمرو بن العاص (من تصوير كوست)

ونحن ، إذا ما أغْضينا عما أصاب مبانيَها من الهدم ، رَجَّحْنا أنه لم يطرأ على رسمها تبديلٌ كبير منذ ذلك القرن .

كانت الاسكندريةُ مستطيلةَ الشكل ذاتَ طول ٥٠٠٠ متر وذات عرض ١٨٠٠ ، وكانت تَقْطَعُها طرُقٌ مستقيمة طولاً وعرضاً ، فتفصِلها إحدى هذه الطرُقِ إلى قسمين .

ونَعُدُّ من الآثار المهمة ، التى كانت فى الاسكندرية ، دارَ الصِّناعة الكبرى ، والقصورَ الفخمة ، ومعبدَ نپتون الذى كانت أساطينُه تستوقف نظرَ المَلاحين من بعيد ، والتيمونيومَ الذى رأى أنطونيوس أن يَقْضِيَ بقيةَ عمره فيه معتزلاً بعد هزيمته فى أكسيوم ، والسيزارومَ الذى أقام به قيصرُ منذ قيامه بالحصار ، والمِسَلّتَيْن ، وغيرَهما من الآثار الكثيرة ، والأمپوريومَ القائم على طول الأرصفة حيث كانت

تباع السلع العالمية ، والموزيومَ حيث كانت المكتبةُ الشهيرةُ التى هى أعظمُ مكتبةٍ فى ذلك الحين ، ولم يكن فى ذلك الدَّوْر المنحطّ من العلماء غيرُ أصحاب الكرامات والنُّحاة واللغويين ورجالِ الدين ، وكان يقوم على تَلّ ، حيث يَنْتَصِبُ عمودُ پونپيوس اليوم ، معبدُ السراپيوم ذو الأبواب الضخمة والتماثيلِ الهائلة المصنوعة من الغرانيت .

وكانت جزيرة فاروسَ تواجه الإسكندريةَ وتقوم عليها المنارةُ الشهيرة التى صُنِعَت من الرُّخام الناصع ، والتى كان نورها يُرَى من مسافة عشرة فراسخ من البحر ، فتُعَدُّ من عجائب الدنيا السبع ، وكانت تتصل تلك الجزيرةُ بالبرِّ بطريقٍ مُعَبَّدَة طولها ١٢٠٠ متر .

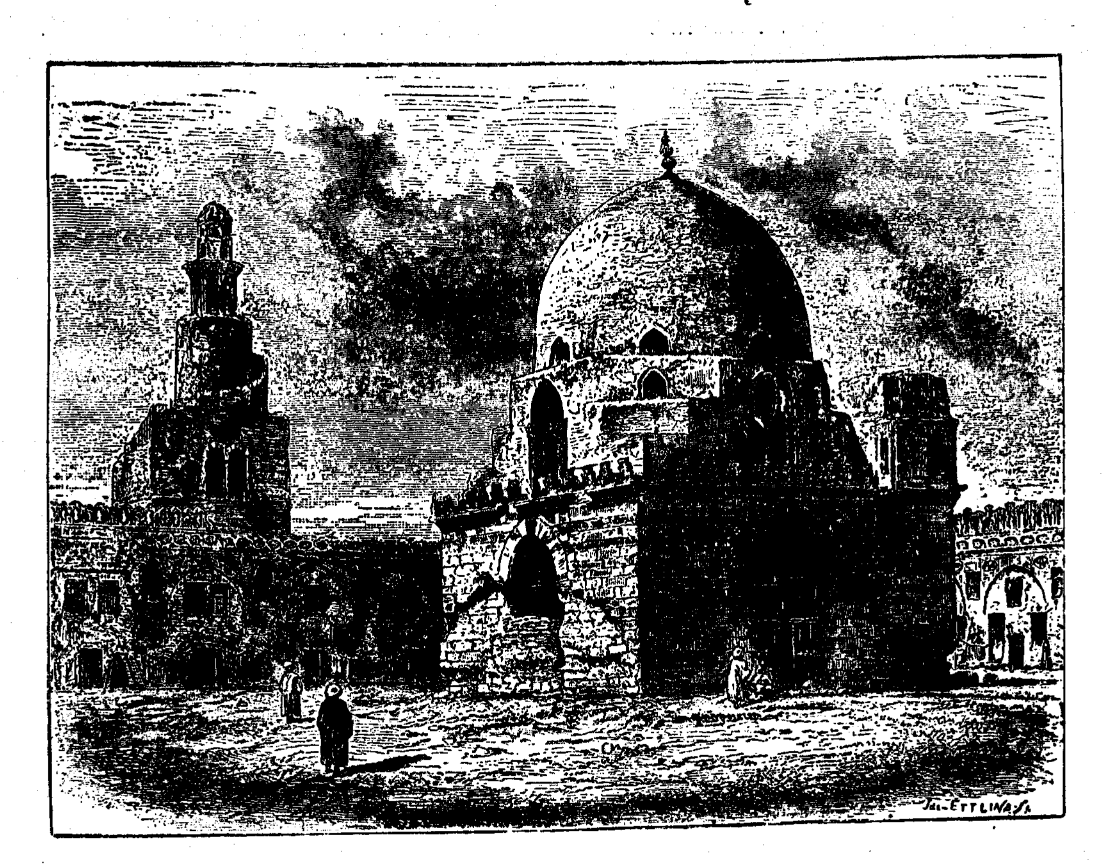
أقام عمرو بن العاص حاميةً فى الإسكندرية بعد الاستيلاء عليها ، وأرسل كتائبه إلى داخل مصر ، فاختارت مكاناً على شاطىء النيل حيث نَصَب فُسْطاطه ، وأنشأت أكواخاً موقتةً لم تلبث أن بُدِّلَت، بعد مدة قصيرة ، بيوتاً للجنود وقصوراً للقادة ، وكانت هذه الأبنيةُ نَوَاةً لمدينة القاهرة المنافسة القادمة لبغداد ، وسُمِّيَتْ بالفُسْطاط ، نسبةً إلى الفُسْطاط الذى نُصِبت عليه .

وراق مكانُ الفُسْطاط عمرو بنَ العاص،فعزم على جعله عاصمةً له فحَصَّنه بالأسوار مقيماً عليه بيته، وقد ظلَّ ذلك المكانُ عاصمةً لمصرَ من زمن عمرو ، أى منذ أكثرَ من اثنى عشر قرناً .

ودَلَّ ماقام به عمرو بن العاص من تنظيم مصرَ على عظيم حكمته ، وعامَلَ عمرو بن العاص الفلاحين بما لم يَعْرِفوه من العدل والإنصاف منذ زمن طويل ، وأنشأ للمسلمين وحدَهم محاكمَ مُنَظَّمة دائمة ومحاكمَ استئناف ، فإذا كان أحد الخصوم مصريًّا حُقَّ للسلطات القبطية أن تَتَدَخَّل ، واحترم عمرو بن العاص نُظُم المصريين وعاداتِهم ومعتقداتِهم .

ولم يَمْنَع عمرو بن العاص من عادات المصريين سوى عادة اختطاف إحدى العَذَارى الحِسَان من أبويها فى كلِّ سنة وقذفِها فى النيل لكى يَمُنَّ إله النيل على مصرَ بما تحتاج إليه من ارتفاع الماء وقت الفيضان ، وقد استبدل عمرُو بن العاص بتلك العادةِ العادةَ التى لا تزال موجودةً إلى يومنا ، وهى قَذْف تمثالٍ خَزَفىّ ، يُدْعَى العروسَ ، فى النيل فى يومٍ معين من كلِّ سنة ، وإنى أرى من المحتمل أن تكون هذه العادة ، التى تَرْجِع فى القِدَم إلى ستة آلاف سنة ، قد أتت من عادة تقريب القرابين البشرية فى الدِّيانة المصرية الأولى .

وسار عمرو بن العاص فى مصرَ على غِرار عمر بنِ الخطاب فى القدس ، فشَمِل الدِّيانة النصرانية بحمايته ، وسَمَح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطركٍ لهم كما فى الماضى ، ومن تسامحه أن أَذِن للنصارى فى إنشاء الكنائس فى المدينة الإسلامية التى أسَّسها .



٩٥ ــ ساحة مسجد ابن طولون وحوضه ومئذنته (من تصوير لبن)

وإذْ لم يكن للمسلمين مساجدُ فى مصرَ ، وإذْ زاد عددُ من أسلم من النصارى ، أقام عمرو بن العاص مسجداً جميلًا على طِراز الحرم المكّى ، ولا يزال المسجدُ الشهيرُ الذى أنشأه قائماً مع عدم اكتراث الحكومة المصرية لتصدُّعه .

ولم يَكْتَف عمرو بن العاص بفتح مصرَ الدنيا ، بل زَحَف بجيشه إلى بلاد النوبة ، أى أَوْغَل فى إثيوبيةِ الرومان القديمة على رأس عشرين ألف جندىّ ، ولم تَخْرُج هذه الحملة عن صِفَة الغَزَوات التى لا تُؤَدِّى إلى تنظيم جِدِّىّ ما دام العرب لم يستقروا ببلاد النوبة استقراراً ثابتاً ، بل اقتصروا على

غَزْوها بين وقت وآخر ، ومع ذلك فقد اعتنق النوبيون دينَ العرب ولغتَهم كما اعتنقهما المصريون ، واليومَ إذا نظرتَ إلى النوبيين، وقد أتيح لى أن ألتقط صوراً فوتوغرافية لهم، رأيتَهم قوماً مختلفى الألوان والملامح ، فمنهم البيض الذين ينتسبون إلى عرب الحجاز ، ومنهم سُود الجلود ، ومنهم من هم حَسَنو الخِلْقَة ، ومن النوبيات من يشابهن مصريات العصر الفرعونىّ مشابهةً عظيمة .

وغزَا العرب ، غيرَ مرةٍ ، بلادَ الحَبَشَة ، أو القسمَ المجاور منها للبحر الأحمر على الأقل ، فكان تأثيرهم فيها دون تأثيرهم فى بلاد النوبة، فقد حافظ الأحباش، الذين انتحلوا النصرانيةَ منذ القرن الرابع، على دينهم ، وإن شاعت اللغة العربية بينهم وصاروا أخلاطاً من الآدميين .

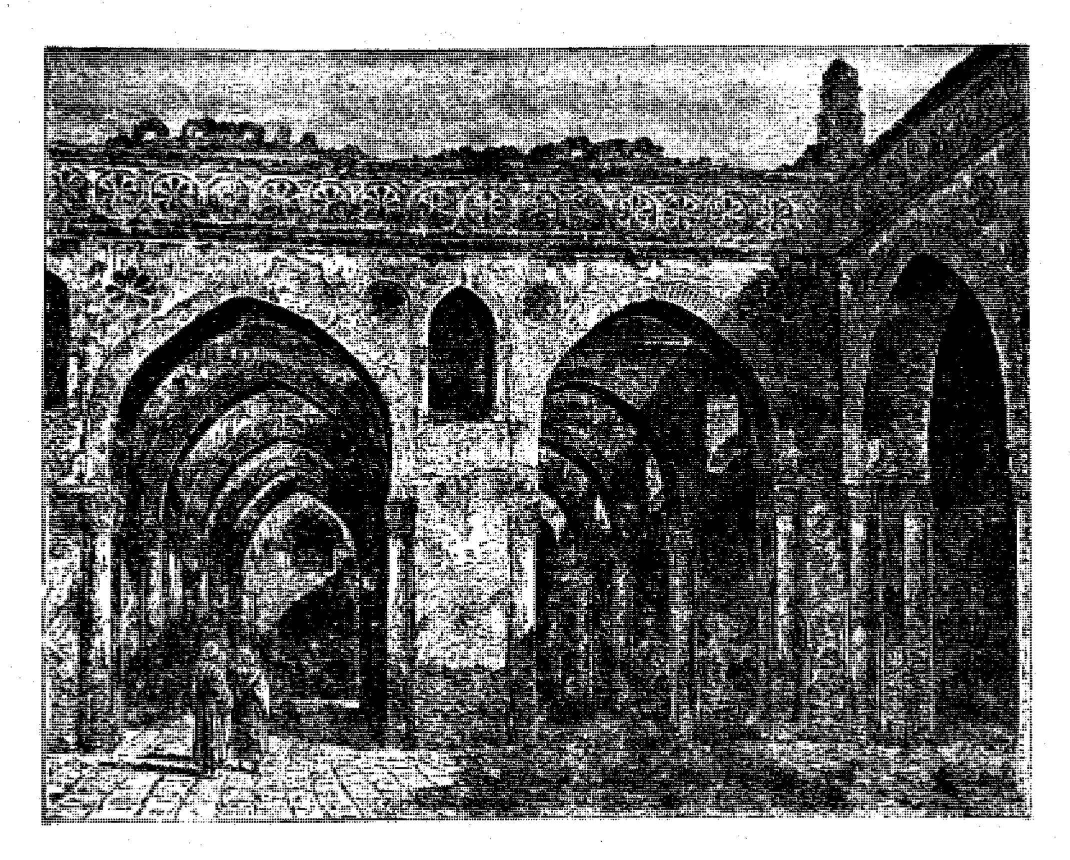
والمدةُ بين فتح العرب لمصر فى سنة ٦٣٩م وفتح الترك لها سنة ١٥١٧م نحوُ تسعمئة سنةٍ تداولت حكمَ مصر فى أثنائها تسعُ دول :

خضعت مصرُ لخلفاء المشرق (٦٣٩م — ٨٧٠م) ، ثم استقل وُلاتها فأسسوا الدولة الطولونية (٨٧٠م — ٩٠٥م) ، ثم استردَّ خلفاء بنى العباس سلطانهم عليها لمدة قصيرة (٩٠٥م — ٩٣٤م)، ثم قامت فيها الدولة الأخشيدية القليلةُ الأهمية (٩٣٤م — ٩٧٢م) ، ثم استولى عليها الفاطميون (٩٧٢م — ١١٧١م) الذين اشتملت دولتهم على شمال إفريقية وجزيرة سَرْدينية وجزيرةِ صِقِلِّية وجزرِ البحر المتوسط وسورية فبلغت مصرُ فى عهدهم ذُرْوةَ الرقىِّ والرَّخاء .

ثم أصاب خلفاءَ مصرَ مثلُ ما أصاب خلفاء بغداد ، فقد استحوذ عليهم صنفٌ من المُرْتَزِقة الذين عُرِفوا فى التاريخ باسم المماليك والذين تألف منهم حرسهم ، والذين كانوا ينتسبون إلى الشعب الذى ينتسب إليه مُرْتَزِقةُ بغداد ، ولم يتركوا لهم شيئاً من السلطة الحقيقية ، فلما جاءت سنة ١٢٥٠م استبدَّ المماليك بالحكم نهائيًّا ، وقد دام سلطانهم ٢٦٧ سنة .

وأقام المماليك فى مصرَ دولتين من أصلين مختلفين ، فأما الدولة الأولى فهى دولة التركمان المماليك (١٢٥٠م — ١٣٨١م) التى كان قوّامَها أناسٌ من الترك ، كما فى بغداد ، أُسِروا فى القفقاس وفيما جاور بحرَ قزوين فبيعوا كالأرِقّاء ، فهؤلاء الناس هم من المِلاَح الأقوياء الذين لاحَ أنه سيتألف منهم

حَرَسٌ مختار للخلفاء ، والذين كانوا ذوى منظر رائع بملابسهم الزاهية وأسلحتهم الجميلة المرصعة بالأشْعِرة التى قَلَّدهم بها الفرسان الصليبيون فاخترعوا اعلامَ الشرف ، والذين تقلد رؤساؤهم أعلى المناصب بالتدريج لِمَا نالوا من الحُظْوَة فانفردوا بالمُلْك فأقاموا دولتهم .



٩٦ ــ داخل مسجد ابن طولون (من تصوير ايبر)

وأما دولة المماليك الثانية فهى الدولة المعروفة فى التاريخ بدولة الشراكسة المماليك الذين لم يكونوا من ترك آسية العليا ، بل من بلاد الشركس (١٣٨٢م — ١٥١٦م) ، والذين طَمِع سلاطينُ دولة التركان المماليك فى قُوَّتهم ليدرأوا بهم كَيْدَ التركان الأشرار الذين خان أسلافُهم العربَ فيما مضى ، وقد خَيَّب هؤلاء الشراكسةُ ظنَّهم ، فاستبدوا بالحكم ، وأقاموا دولتهم التى دامت إلى سنة ١٥١٦م حين قَضَى عليها السلطان سليم الأول وحَوَّل مصرَ إلى ولاية تركية .

هنالك حانت ساعة انحطاط مصر ، ثم شَمِلها سلطان الأوربيين الحديث الخَفِىُّ فلم يزدها إلا انحطاطاً .

وصارت مصر ولايةً تركية ، ولم يلبث المماليك الذين قُهروا فى بدء الأمر أن عاد إليهم نفوذهم الحقيقىُّ ، وكان المماليك من أشدٍّ من حاربهم نابليون ، ولم تَنجُ مصر منهم إلا بفضل الجبَّار الذكىِّ محمد على الذى قتلهم على بَكْرة أبيهم .

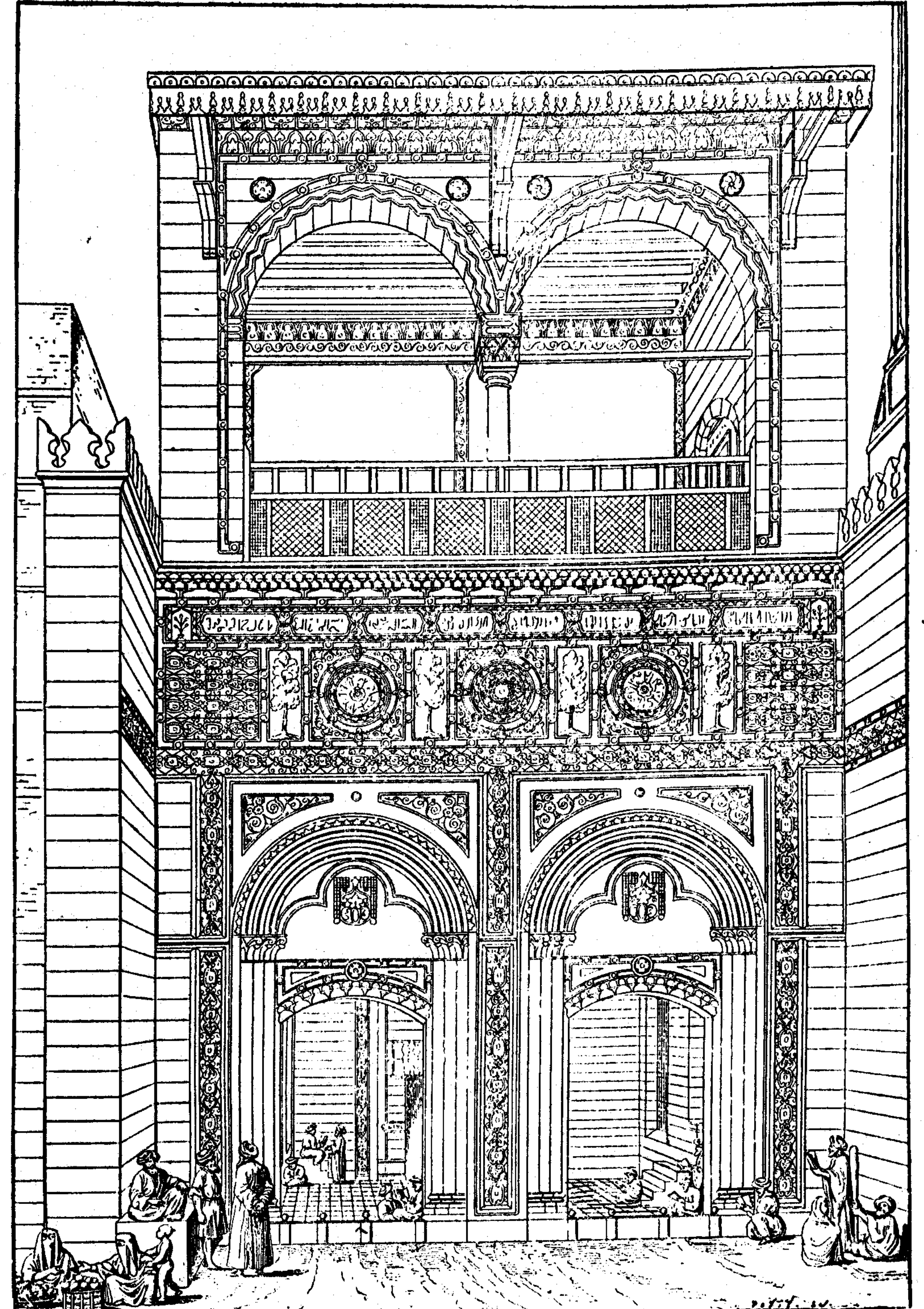
وكان المماليك يُجْمَعون بانضمام أناس إليهم من الخارج ، أى كان شراكسة مصرَ يشْتَرون الموالى من بلاد الشركس لإتمام عَدَدهم مادام جَوُّ مصرَ القتَّالُ لا يلائم تناسل الأجانب ، وكان شراكسة مصر ينقادون لفريقٍ من بَكَوَاتِهم الذين ظَلُّوا يَخْتارون أجملَ غِلْمان الشركس لكتائبهم .

٣ — حضارة العرب فى مصر

اسْتَقَت حضارةُ العرب فى مصرَ من اليَنْبُوع الذى اسْتَقَت منه حضارتهم فى سورية وبغداد ، وقامت حضارتهم فى مصر بعناصرَ اقتبسوها من البزنطيين على الخصوص،ودَلَّت مبانى العرب الأولى فى مصر على ذلك المصدر ، ولم يلبث العرب أن تحرروا من المؤثرات الأجنبية كما تدلُّ عليه مبانيهم التى أقيمت بعد مبانى الزمن الأول .

ويتصف عصرُ الفاطميين ، الذى بلغت حضارةُ العرب فيه بمصرَ ذُرْوَةَ الرُّقِىِّ ، بنُضْج الفنون وما تؤدى إليه الفنون من الصِّناعات ، وبَارت القاهرةُ بغدادَ فى الفنون ، لا العلومَ ، فمدارسُ القاهرة لم تبلغ من الشهرة مابلغته جامعات بغداد ، وسنعود إلى هذا حينما نبحث فى النواحى الثَّقافية من حضارة العرب التى لا نبحث فى غير قسمها المادىِّ الآن .

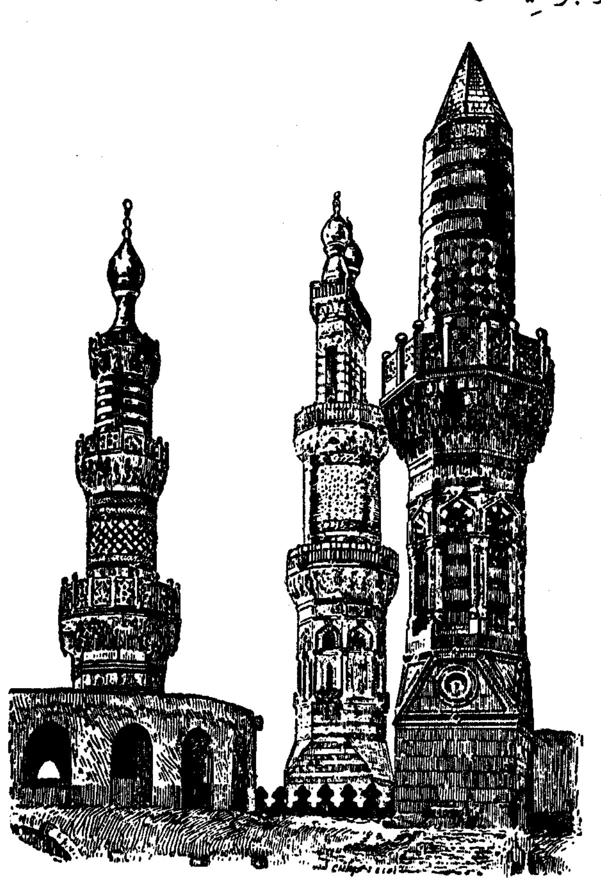
وزاد دَخْل خلفاء مصر على دخل خلفاء بغداد فى نهاية الأمر ، وذلك بفضل خِصْبِ أرَضى مصرَ وصِلاتها التجارية التى سنتكلم عنها فى فصل آخر،وكان خلفاء مصرَ يَقِفُون مُعْظَمَ ذلك الدَّخل على أمور التَّرَف وبناء القصور،ولم تكن نفقاتُ الإنشاء فى ذلك العهد باهظةً فى وادى النيل مادامت أجرةُ البَنَّاء اليومية فى أوائل القرن الحاضر ثمانين سنتيماً وأجرةُ الحفَّار خمسةَ عشرَ سنتيماً وثمنُ متر حجر البِناء المُكَعَّب ، ومنه أجرةُ قَلْعِه ونقله ، فرنكاً واحداً وعشرين سنتيماً .



٩٧ ـ باب السيدة بالجامع الأزهر فى القاهرة (من تصوير كوست)

وضَرَبَت الصِّناعةُ والصِّياغة والحياكة والنِّجادة والزَّخْرفةُ بسهمٍ كبير فى الكمال فى زمن الفاطميين (٩٧٢ م — ١١٧١ م) كما روى المؤرخ العربىُّ المقريزىُّ الذى جاء البحث فى آثار زمانه مُصَدِّقًا لروايته ، فكانت جُدْران البيوت تُغَطَّى بألواح القاشانىّ المَطْلِىِّ أو بالمِلاط الكلسىِّ الرُّخامىّ المُزَيَّن بالزخارف الزاهية والنقوش العربية كما نَتَمَثَّلُه بسهولةٍ من بعض القصور العربية الحاضرة فى القاهرة ، وكانت أرض تلك القصور تُفْرَشُ بالفُسَيْفِساء ، أو البُسُط المُوَشَّاة ، وكان أثاثُها يُصْنَع من الخشب الثمين المُرَصَّع بالصدف أو العاج ، وكانت متكآتُها ذاتَ رِياشٍ مُزَيَّنٍ فى لُحْمَته بصور الحيوان ، وكانت نَمارِقها تُكْسَى بالنسائج الأُرْجُوانِيَّة الرائعة .

وارتقت الصِّناعةُ المعدنية فى زمن الفاطميين إلى حَدٍّ بعيد أيضًا ، كما يشهد بذلك ما انتهى إلينا من الأوانى والأكواب والأباريق والأطباق والمصابيح وغيرها من ألوف المصنوعات التى نشرنا صُوَر نماذجَ كثيرةٍ لها فى هذا الكتاب .



٩٨ ـ القسم الأعلى من مآذن الجامع الأزهر
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وكانت قصور الخلفاء الفاطميين فَخْمَةً ، ويثبت ما نراه فى المساجد المصرية القديمة ، التى ظلت قائمةً ، من الزُّخْرُف أنه لم يكن فى وصف الكُتَّاب لها شىء من المبالغة .

وقَصَّ المؤرخون علينا نبأ القصر العربىِّ القديم الذى بناه خمارويه ابن طولون سنة (٢٧١ هـ ـ ٨٨٤ م)، أى قبل ظهور الفاطميين ، فقد كان يُحيط بذلك القصر ، على حسب ما جاء فى الأخبار العربية ، رِياضٌ

واسعة ذات زهور على شكل آيٍ من القرآن ، وكان يُرَى فى رِداهه الذهبية المُقْه[1] تماثيلُ لذلك الأمير ونسائه ذاتُ ثياب ثمينة، وكانت له حظيرة جميلة للحيوانات الكثيرة ، وكان يوجد تحت أحد أروقته الرُّخامية حَوْضُ زئبقٍ عَرْضُه ثلاثون متراً فينعكس عليه نورُ النهار وأشِعَّةَ القمر والنجوم ، وكان يُشاهَدُ من جَوْسَقٍ أنيقٍ فيه منظرٌ جميلٌ لحدائقه وللنيل والريف .

ولا تكفى الأوصاف المختصرة التى جاءت فى كتب العرب عن القصور العربية فى مصر منذ ألف سنة ، فترانا مضطرين إلى إتمامها بما رواه أوربىٌّ يُدْعَى غليومَ الصورىَّ فى كتابه التاريخىّ عن حروب أمراء النصارى فى فلسطين مستنداً إلى ما قَصَّه السفراء الذى أُرْسِلوا إلى بَلاطِ ملكٍ مصرىّ ، قال غليوم الصورىّ :

« نعتمد فى وصف قصر الأمير الرائع الذى لم يكن له نظيرٌ فى زماننا على ما قَصَّه أولئك السفراء الذين زاروه فرَأَوْا فيه ما ليس فى غيره من الجلال والنضارة والعظمة، فقد وَصَلَ أولئك السفراء ، بعد أن مَرُّوا من مسالكَ وقاعاتٍ كثيرة ، إلى أَرْوِقَة النُّزْهَة والرياضة ذاتِ العِماد المرمرية والسقوف الذهبية الدقيقة الصَّنْعَة والبَلاط الزاهى الألوان ، وبَهَرهم جمالُ ما رَأَوْا فبُهِتوا ولم تشبع عيونهم من النظر إلى تلك البدائع التى لم تكن لِتَخْطُر على قلوبهم ، ومما شاهدوه حِيَاضُ السمك الرُّخامية وأنواعُ الطيور المُغَرِّدة المُلَوَّنة البرَّاقة التى لم يَسْبِق لنا علمٌ بها ، ثم طاف الخِصْيان بهم فى غُرَفٍ تفوق ما تقدم حسناً ورُواءً ومما رَأَوْا هنالك أنواعُ ذاتِ القوائم الأربع العجيبة التى لا يَقْدِر على تصويرها سوى ريشةِ رَسَّامٍ تابعٍ لهواه أو شاعرٍ مُتَخَيِّل أو من يَسْبَح روحُه فى أحلام الليل، والتى تُنْتِجُها بلاد الجنوب والشرق لا بلادُ الغرب التى لا تراها ، والتى قَلَّما تَسْمَع عنها شيئاً » .

ويمكن تَصَوُّر ما كان عليه الخلفاء الفاطميون من الثَّراء عند النظر إلى قائمة الأموال التى رَوَى المؤرخ المقريزىّ أن الخليفةَ المستنصر (٤٢٧ هـ — ١٠٣٧ م) اضْطُرَّ إلى بيعها إرضاءً لأولئك المُرْتَزِقة الذين تكلمنا عنهم آنفاً وقلنا إنهم استبدوا بالملك تقريباً ، ولا يُطْعَن فى صِحَّة رواية المقريزىّ الذى استند إلى مَحْضَر وكيلِ الوزير ناصر الدولة ، فالمرء حين يقرأها يرى أن ثَرَواتِ العالم التَقَت

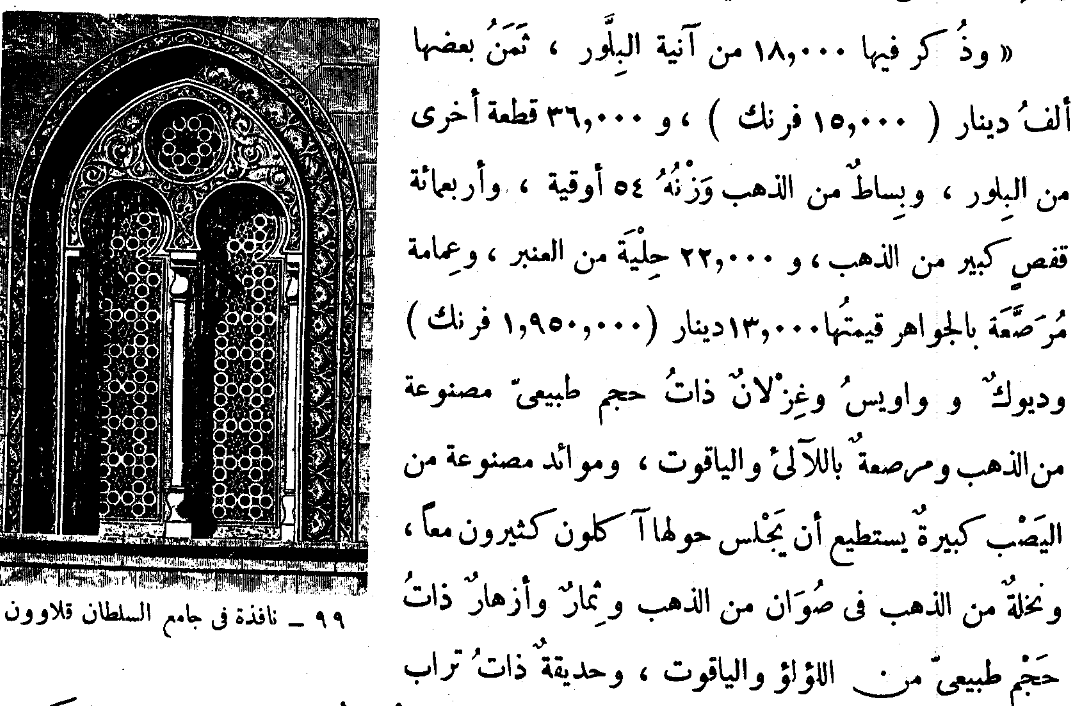
---

(١) المقهاء : مؤنث الأمقه ، وهو ما به مقه ، وهو بياض فى زرقة .

وتَكَدَّسَت فى مصرَ منذ قرون كثيرة لكى تُنْثَر على أحطِّ الجنود فى آخر الأمر كما قال مسيو مارسيل.

قال مسيو مارسيل نقلاً عن المقريزىّ :

« ذُكِر فى تلك القائمة العجيبة ما لا حَصْر له من أَمْدَاد(١) الزُّمُرُّد والياقوت واللآلئ والمرجان وما إلى ذلك من الحجارة الكريمة.



٩٩ ــ نافذة فى جامع السلطان قلاوون

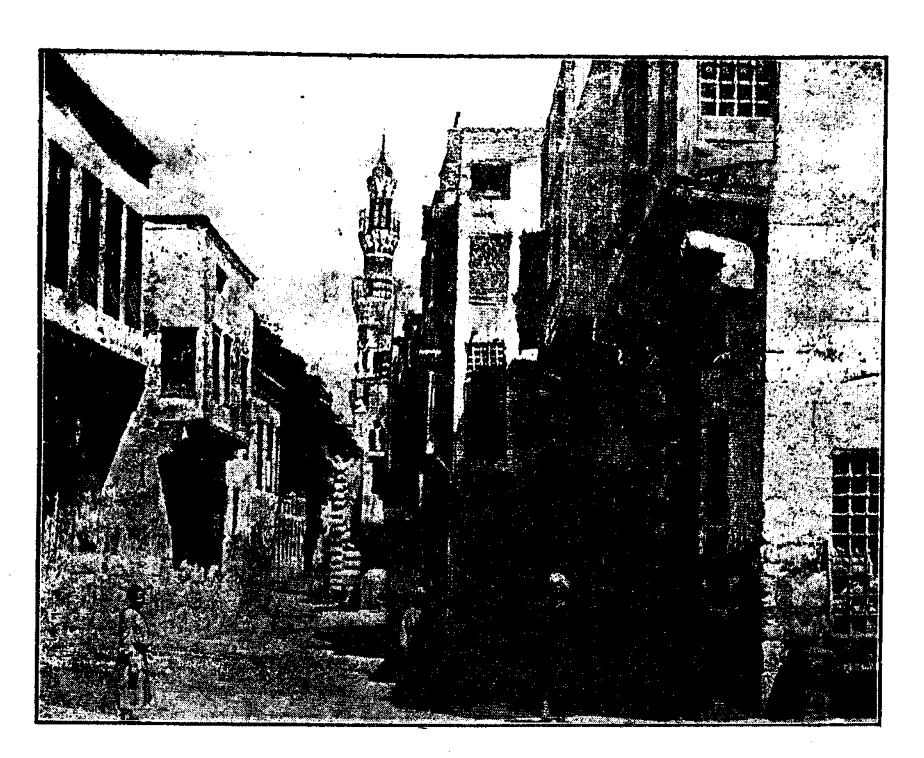
« وذُكر فيها ١٨,٠٠٠ من آنية البِلَّور ، ثَمَنُ بعضها ألفُ دينار (١٥,٠٠٠ فرنك) ، و ٣٦,٠٠٠ قطعة أخرى من البِلور ، وبِساطٌ من الذهب وَزْنُهُ ٥٤ أوقية ، وأربعمائة قفصٍ كبير من الذهب ، و ٢٢,٠٠٠ حِلْيَة من العنبر ، وعِمامة مُرَصَّعَة بالجواهر قيمتها ١٣,٠٠٠ دينار (١,٩٥٠,٠٠٠ فرنك) وديوكٌ وطواويسُ وغِزْلانٌ ذاتُ حجم طبيعىّ مصنوعة من الذهب ومرصعةٌ باللآلئ والياقوت ، وموائد مصنوعة من اليَشْب كبيرةٌ يستطيع أن يَجْلس حولها آكلون كثيرون معاً ، ونخلةٌ من الذهب فى صُوَان من الذهب وثِمارٌ وأزهارٌ ذاتُ حَجْم طبيعىّ من اللؤلؤ والياقوت ، وحديقةٌ ذاتُ تراب من الفضة المُذهبة ، وأرضٌ من العنبر ، وأشجارٌ من الفِضة وثمراتٌ من الذهب والحجارة الكريمة ، وخيمةٌ مصنوعة من المُخْمَل والدِّيباج المُوَشَّى بالذهب دائرتُها خمسمائة ذراع (٦٢٥ قدم) وارتفاعُها ٦٤ ذراعا (٩٠ قدماً) وبُسُطها تَعْدِل حِمْل مائة بعير ، وخيمةٌ أخرى مصنوعةٌ من الإبريز قائمةٌ على أعمدة من الفضة ، وأَخْبِيَةٌ وزنها ثلاثةُ قناطيرَ ، وألفان من الزَّرَابىِّ المزخرفةِ بالذهب ثمنُ إحداها ٢٢٠٠٠ دينار (٣٣٠٠٠٠ فرنك) وثمنُ أقلِّها ألف دينار (١٥٠٠٠ فرنك) ، وخمسون ألف قطعةٍ من النسائج الحريرية المُوَشَّاة بالذهب » ، إلخ .

(١) الأمداد : جمع المد ، وهو مكيال ، والمد رطلان عند أهل العراق ورطل وثلث عند أهل الحجاز ، وقيل المد هو ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يديه بهما ، وبه سمى مداً ، قاله الفيروزآبادى ، وقال قد جربت ذلك فوجدته صحيحا .

« وذلك إلى أن أمينَ بيتِ المال ابنَ عبد العزيز ذكر فى قائمته أكثر من مئة ألفِ سِلْعَةٍ ثمينةٍ ومئتى ألفِ قطعةٍ من السلاح سُلِمَتْ أمامه » .

ويسأل الإنسانُ ، عندما يَعْلم مقدارَ تلك الثَّروات : من أين أتت ؟ ومن أىّ يَنبُوعٍ كان الخلفاء يأخذون دخلهم الذى استطاعوا أن يجمعوا من الكنوز ما لا يَمْلِك مثلَه أىُّ واحدٍ من ملوك الزمن الحاضر ؟

كانت ثروة الخلفاء الفاطميين تستند إلى مصدرين مختلفين : الحاصلاتِ الزراعية والأعمال التجارية والواقعُ أن مصر كانت مستودعاً للتجارة بين أوربة والهند وجزيرة العرب ، وأن جميع سِلَع الشرق كانت تمرُّ ، مُضْطَرّةً ، من طريق الإسكندرية إلى الغرب .



١٠٠ ــ شارع فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية)

ورَوَى فريسكو بالدى الفلورنسىُّ أنه كان يُرَى من السفن فى ميناء القاهرة فى زمانه ، أى فى سنة ١٣٨٤ م ، أكثرُ مما فى جنوة أو البندقية ، وأن عدد الزوارق فى نهر النيل كان ٣٦٠٠٠ ،

فتُستخدم فى الوَسْق والتفريغ ، ويُرَى من أثمان السِّلَع التى ذُكِرَت فى رحلة أحد أصحاب ڤاسكودوغاما أن مكاسب خلفاء مصر منها كانت وافرةً إلى الغاية ، وأن الأبازير والتوابل كانت تباع فى القاهرة بثمنٍ أعلى مما عليه فى كلكتة خمسَ مرات .

ودام مصدرُ الثَّرَاء الواسع هذا إلى أن جاوز ڤاسكودوغاما ، فى سنة ١٤٩٧ م ، رأسَ الرجاء الصالح وبلغ شاطىء مَلَبار الذى لم يَرَه أوربىٌّ قبلَه والذى لم يختلف إليه أحدٌ غيرُ العرب حتى ذلك التاريخ .

وكانت الضربة التى نَزَلت بثروة خلفاء مصر بسبب هذا الاكتشاف عظيمةً جدًّا ، ولم يستطع الخلفاء أن يمنعوا بأساطيلهم البرتغاليين من الاستقرار بالهند ومن القضاء على تجارة العرب فى الشرق الأقصى ، أى على المصدر الأصلىِّ لثروة ملوك مصر .

٤ — مبانى العرب فى مصر

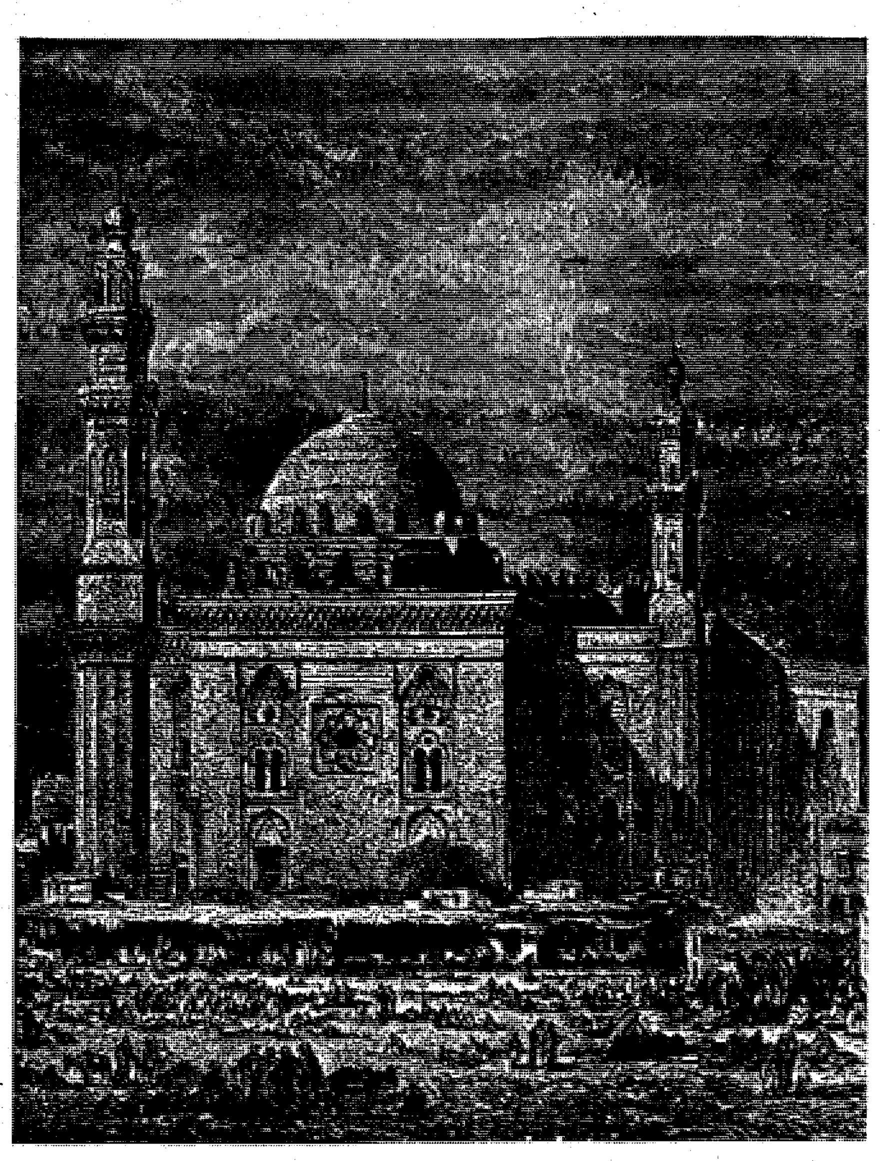
مصرُ هى البلاد الوحيدة التى تُرَى فيها المبانى العربيةُ القائمة منذ الدَّوْر الإسلامىِّ الأول ، والتى يمكن الباحث أن يَدْرُس فيها تحوُّل فَنِّ العمارة العربىِّ فى مختلف الأدوار .

وإذْ كان جميع تلك المبانى العربية القديمة القائمة هو من المساجد على وجه التقريب ، وكان أهمُّها فى القاهرة ، كان من السهل درسُها .

وظَلَّت مدينة القاهرة ، وإن شئت فقل أقسامها البعيدة من الأوربيين على الأقل ، عربيةً تماماً ، ولنا بحالها الحاضرة ، فكرةٌ عما كانت عليه فى عصر الخلفاء .

والناظر إلى القاهرة من بعيدٍ يراها ذاتَ طابع شرقىٍّ يستوقف النظر ، أى يراها ذاتَ طابعٍ لا يُشاهَدُ مثلُه فى أيةِ مدينة أخرى على مايحتمل، فهى مؤلفةٌ من بيوت بيض ذواتِ سقوف مستوية يُشْرِف عليها مئاتٌ من المآذن الهيفِ منفصلةٌ عن النخل ارتفاعاً ، وتسحر القاهرة من ينظر إليها من أعلى القلعة ، ولا أعلم مدينةً تَسْحَر القلوب بمنظرها كالقاهرة .

وشوارعُ القاهرة ضيقةٌ مُتَلَوِّيَةٌ غير منتظمة كشوارع كلِّ مدينة شرقية ، وتـكاد أطنافُ نوافذِ البيوت فى أحياء مصر القديمة ، على الخصوص ، تَتَمَاسُّ ، والحـكمةُ فى ضيق تلك الشوارع هى الاستكثار من الظلِّ واستبقاء الرطوبة ، ومن يَقْطَع شوارعَ القاهرة وميادينها الـكبيرة التى أنشئت على النَّمط الأوربىِّ تحت وَهَج الشمس يَعْلَمْ سِرَّ تفضيل الناس ، فى مثل ذلك الجوِّ ، للشوارع الضيقة المملوءة بالظلِّ على الشوارع الواسعة التى تُلْهبها نارُ الشمس على الدوام.



١٠١ ـ منظر جامع السلطان حسن (من تصوير إيبر)

ويستوقف تزاحمُ الأقدام فى شوارع القاهرة نظرَ السياح فى كلِّ حين ، ويُغْرى منظرُها النفوسَ مع زيارة دمشق ، فقد قضينا ساعاتٍ كثيرةً فى تأمُّلها .

قال الدكتور إيزانبر : « يُرَى ، فى الجمهور الأنمر [1] المتزاحم ، الفلاحُ المتواضع ، والبدوىُّ المتبختر ، والقبطىُّ أو اليهودىُّ العبوس ، واليونانىُّ النشيط اليقظ ، والقوَّاسُ الألبانىُّ الثقيل المُتزيِّدُ ، وأصنافُ الزنوج الذين تترجَّح ألوانهم بين الأبنوسىِّ الخاصِّ بالسُّودانىِّ واللَّمعان الخاصِّ بالبربرىِّ ، ويتألف منظرٌ لا يَمَلُّ منه الأجنبىُّ من القوافل الآتية من نواحى إفريقية وجزيرة العرب ، ومن الجمال الوئيدة المَشْى المُتَّزنة الخطا ، ومن الحمير السريعة الخطْو التى يركبها صِغارُ السادة من الشرقيين أو النساء المُتحجِّباتُ بأُزُرٍ قاتمة ، ومن الباشوات الذين يمتطُون بملابسهم الرسمية صَهْوَة الخيل ، ومن السقَّائين الذين يحمِلُون أسْقِيَةً جِلْدِيَّة لزجة ، ومن أنواع الحمَّالين ، ومن السُّوَّاس الصَّخَّابين الذين يَضربون العربىَّ البليدَ بسياطهم ، ومن الفلاَّحات البائسات المُتباطئات » .

أنْشِئَتْ مدينة القاهرة الجديدة سنة (٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م) ، وهى تضمُّ مدينةَ الفُسْطاط القديمة التى أقامها عمرو بن العاص فقامت مقامها ، وعادت مدينةُ الفُسْطَاط لا تكون اليومَ إلا ضاحيةً لتلك المدينة تُعْرَف الآن باسم مصرَ القديمةِ ، وإن كانت مدينةُ عمرو بن العاص هذه لم تَحْمل سابقاً هذا الاسمَ غيرَ المطابق للأصل .

وتمَّ إنشاء القاهرة بعد أن وُضِع حجرُها الأول بثلاث سنين ، وأنفق الفاطميون جزءاً كبيراً من دَخْلهم الواسع على تجميلها وزخرفتها ، ولم يألُ كلُّ عاهلٍ جُهْداً فى أن يَسْبِقَ سلفَه فى ذلك ، ثم سار المماليك الذين حلّوا محل الخلفاء العرب على غرار هؤلاء فى تزيين القاهرة ، ولم ينقطع أمر عُمْرانها إلَّا بعد أن أصبحت مركز ولايةٍ تركية ، فقد أهملها الترك فضلاً عن عدم زخرفتهم لها ، واليوم تتدرَّج مبانيها المهمة إلى الخراب ، وصار يُخْشَى زوالها فى المستقبل القريب لعدم إصلاحها ، وقد قال لى أحدُ

---

(١) الجمهور الأنمر : فيه الأبيض وفيه الأسود .

عِيَلةْ القوم فى مصر : إننى أصبت فى زيارتى لتلك المبانى ، فقد لا يبقى منها شىء يستحقُّ المشاهدة بعد سنين قليلة .



١٠٢ ـ بركة وضوء فى جامع السلطان حسن كما هى فى الوقت الحاضر (من صورة فوتوغرافية)

والآن ندرس ، على عَجَلٍ ، أهمَّ مبانى القاهرة وَفْقَ قِدَمِها ، وقد اخترنا من مساجد القاهرة ، التى تترجح بين أربعمئة مسجد وخمسمئة مسجد ، ماهو أَدَلُّ على تطور فنِّ العِمارة فى جميع أدوارها ، أىْ منذإنشائها حتى الأزمنة الأخيرة :

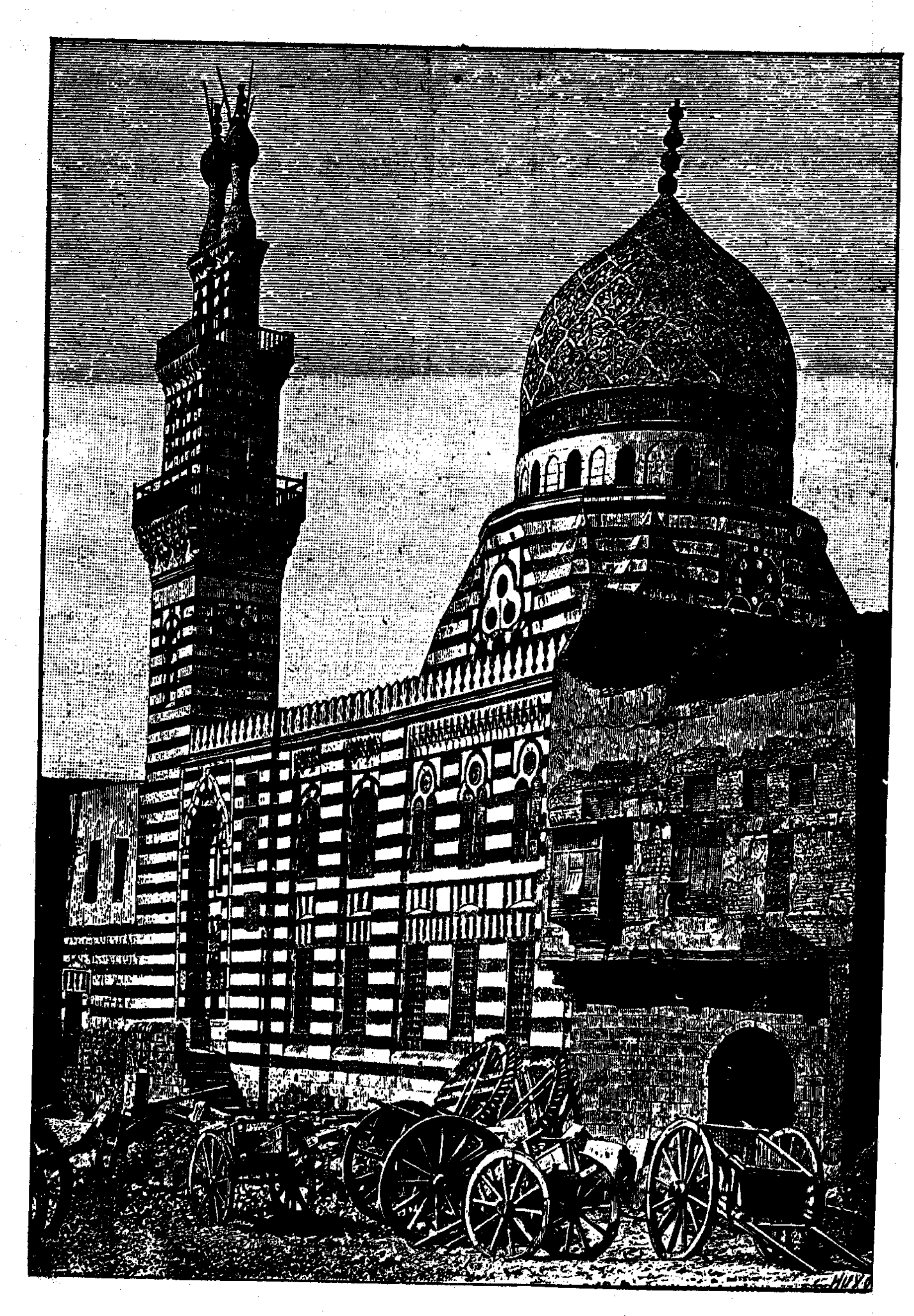
جامعُ عمرو بن العاص (٢١ هـ ـ ٦٤٢ م) . ـ جامعُ عَمرو بن العاص من أقدم معابد المسلمين وأقدسها وقد شَهِدَ بناءه ثمانون صَحَابيًّا .

وأنشأ هذا المسجد فاتحُ مصرَ عمرو بن العاص فحَمَل اسمَه ، وكان المسجدَ الجامعَ الوحيد الذى اشتملت عليه مدينة الفُسْطاط فى عهد الخلفاء الأربعة الأولين وفى زمن الدولة الأمَوِيَّة ، ثم اتُّخِذ رسمُه نَمُوذَجاً زمناً طويلاً مابدا مِثالَ المساجد الأولى :

ورسمُ المساجد الإسلامية الأولى بسيطٌ ، ومن يُنْعِم النظر فى أحـدها يُمَيِّزْها كلَّها ، ويتألف كلٌّ واحـد من هـذه المساجد من ساحة مستطيلة محاطة بأرْوِقَة واسعة ذات سُقُوف مستندة إلى صفوف كثيرة من الأعمدة ، ويُخَصَّص أكبر هذه الأَرْوِقَة الأربعة مكاناً للعبادة ، ويقع فى وسَط هذه الساحة بِرْكَةٌ للوضوء ، وتقوم على أركان المسجد أبراجٌ مرتفعةٌ تُسَمَّى مآذن .

ويُوجَدُ أمام أكثر المساجد القديمة ساحةٌ محاطة بمساكنَ للغرباء وإصطبلاتٍ للخيل والجمال وحَمَّامَات للعامة ومناهلَ للشرب ، وذلك أن المساجد الأولى ليست أماكنَ للعبادة وحدَها ، بل هى منازل للمسافرين أيضاً .

واستُعِيرت أعمدةُ جامع عمرو بن العاص من مختلف المبانى اليونانية والرومانية،وتعلوها أقواسٌ

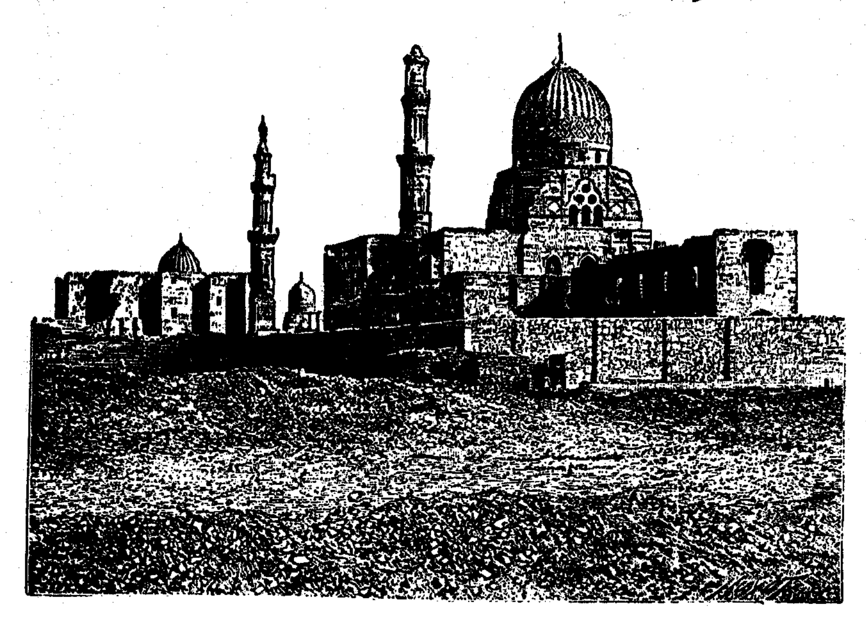


١٠٣ ــ مسجد آخور فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية)

لا تختلف عن الأقواس القديمة إلا بانكسار خفيف فى أعلاها وبأشكالها التى تشابه نعلَ الفرس فى أسفلها والتى أصبحت ، بعد تعديلٍ ، من صفات فن العِمارة العربىّ مع الزمن ، ومَنَحَ شكلُ نعل الفرس ، بتطبيقه على قاطع القِباب بعد ذلك ، هـذه القِبَابَ هَيَفاً ورَوْعَةً أسنى مما تَجِده فى قَطَس القِباب البزنطية .

ولم يبق لساحة جامع عمرو بن العاص المستطيلة التى تُحيط بها الأَرْوِقة سوى أعمدة قائمة فى جانبين متقابلين منها ، ويوجد فى أحد هذين الجانبين صَفٌ واحد من الأعمدة ، وفى الجانب الآخر المقابل الذى هو مكان للصلاة ستةُ صفوف من الأعمدة ، وتبلغ أقواسُ كلٍّ واحد من هذه الصفوف إحدى وعشرين قوساً ، ويَكُون ، بذلك ، مجموع الأعمدة التى فى مكان الصلاة ١٢٦ عمودا ، وإذا نظرنا إلى الصف الأول من مكان الصلاة فرأيناه ذا أعمدة مُضَاعَفَة كان الحاصلُ الحقيقىّ لأعمدة مكان الصلاة ١٤٧ عمودا .

ويُوجَدُ فى جامع عمرو بن العاص ، كما فى كلِّ جامع إسلامىّ ، مِحْرَابٌ مُقَنْطَرٌ يَتَّجه نحو مكة ويقيم المسلمون أمامَه صلواتِهم ، وفيه مِنْبَرٌ للوعظ ، والمحرابُ والمِنْبَرُ المذكوران بسيطان إلى الغاية .



١٠٤ ـ مسجد برقوق المشتمل على قبور الخلفاء (من صورة فوتوغرافية)

ومثلُهما بساطةً مِئذَنَتاه القليلتا الارتفاع ، اللتـان لم يكن لـكلٍّ واحدة منهما سوى رُوَاقٍ واحد ورأسٍ دقيق .

ولا ترى فى جامع عمرو بن العاص شيئاً من الزينة والنقوش البارزة والدقائق التى اتصف بها فنُّ العمارة العربىُّ فى المستقبل ، ويُوجَدُ لجامع عمرو بن العاص رَوْعَةٌ مع بساطته وغابة أعمدته وأقواسه ، ومن الحزن حقاً أن يَعْـتَرِيَهُ الوَهْن كما يعترى أكثر المساجد القديمة فى القاهرة[١] .

جامعُ ابن طولون (٢٤٣ هـ — ٨٧٦م) . — قام جامع ابن طولون على الطِّراز البسيط ، وإن كان أكثرَ زُخْرُفاً من جامع عمرو ، فرَسْمُهُ العامُّ مثلُ رَسْم جامع عمرو ، وهو ، كجامع عمرو ، مُؤلَّفٌ من ساحة مُرَبَّعة تُحِيط بهـا الأقواس من كلِّ جانب ، وتَقُوم هذه الأقواس ، المصنوعُ أعلاها على رسم البيكارين والمصنوعُ أسفلُها على شكل نعل الفرس بما هو أبْرَزُ ممـا فى جامع عمرو ، على أركانٍ قوية تلتصق بزواياها أعمدةٌ ذاتُ تيجان منقوشة على الطِّراز البزنطىِّ ، وذلك بدلاً من أن تقوم على أعمدةٍ كما فى جامع عمرو ، ويظهر أن هذه الأركان هى المصدرُ الذى اقتُبِس منه طِرازُ الأعمدة المُنْضَمَّة التى تُرَى فى كنائسنا القوطية كثيراً .

وباطنُ سَقْفِ جامع ابن طولون ، المستندِ إلى تلك الأقواس ، مصنوعٌ من الخشب كما فى جامع عمرو أيضاً ، ولا تُرَى فيه زخارفُ ونقوشٌ مُتَدَلِّيَةٌ ، وما فى أطنافه ونوافذه وأسفل حناياه من الأزهار والأغصانِ المصنوعة يذكِّرنا بالطراز البزنطىِّ مُبَشِّراً بظهور فَنِّ الزينة العربىِّ .

وتُقْرأ على أطناف باطن ذلك السَّقْف خطوطٌ كُوفيةٌ منقورةٌ فى الخشب .

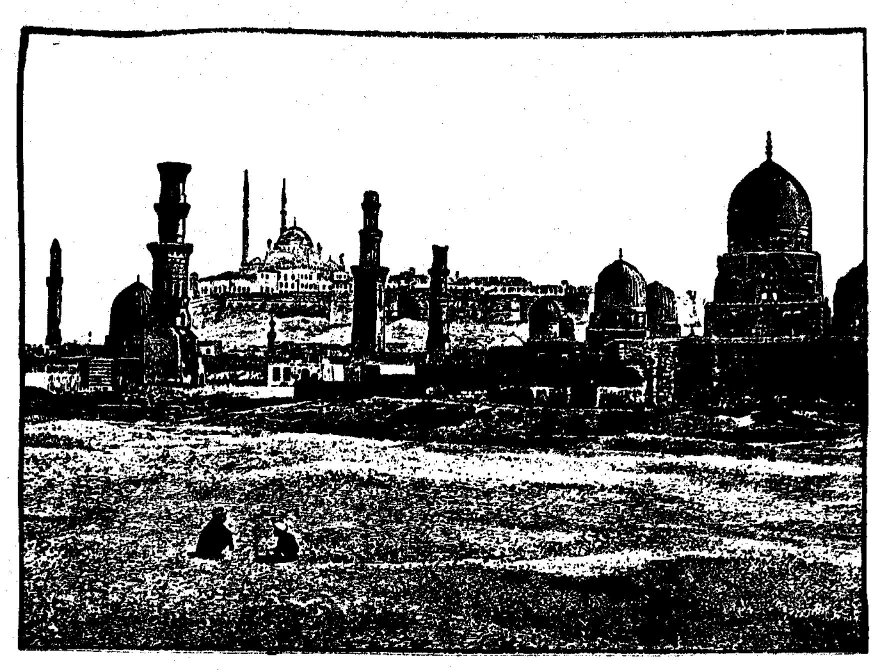
وتعلو جدرانَ ذلك الجامع شُرَفٌ ذاتُ منافذَ للضياء .

وُبنِيَ ذلك الجامع من الآجُرِّ المـكسوِّ بمِلاطٍ من الـكلس والرُّخام ،وصُنِعَت نقوشه وزخارفه من هذا المِلاط أيضاً .

---

(١) ينقل بعض المؤلفين المحققين كـ (بانيسيه) مارواه مؤرخو العرب من أنه كان يوقد فى مسجد عمرو بن العاص فى كل ليلة ١٨٠٠٠ مصباح وأنه كان يستنفد لهذا الغرض ١١٠٠٠ قنطار من الزيت الصافى يومياً ، فأرى أن أقل نظرة تـكفى لبيان فساد هـذه الرواية ، فمن المستحيل أن يستنفد كل مصباح ٦١ كيلو غرام زيت فى كل ليلة ، كما أن نقل تلك القناطير من الزيت إلى الجامع فى كل يوم يستلزم جحفلا من الجمال .

ولم يبقَ لذلك الجامع سوى مِئْذَنةٍ واحدة ، وهى برجٌ مُدرَّج مُربَّع فى أسفله ، أسطوانىٌّ فى وَسَطه مُثمَّنُ الزوايا فى أعلاه .



١٠٥ ـ سهل القبور فى أسفل القلعة وجامع محمد على (من صورة فوتوغرافية)

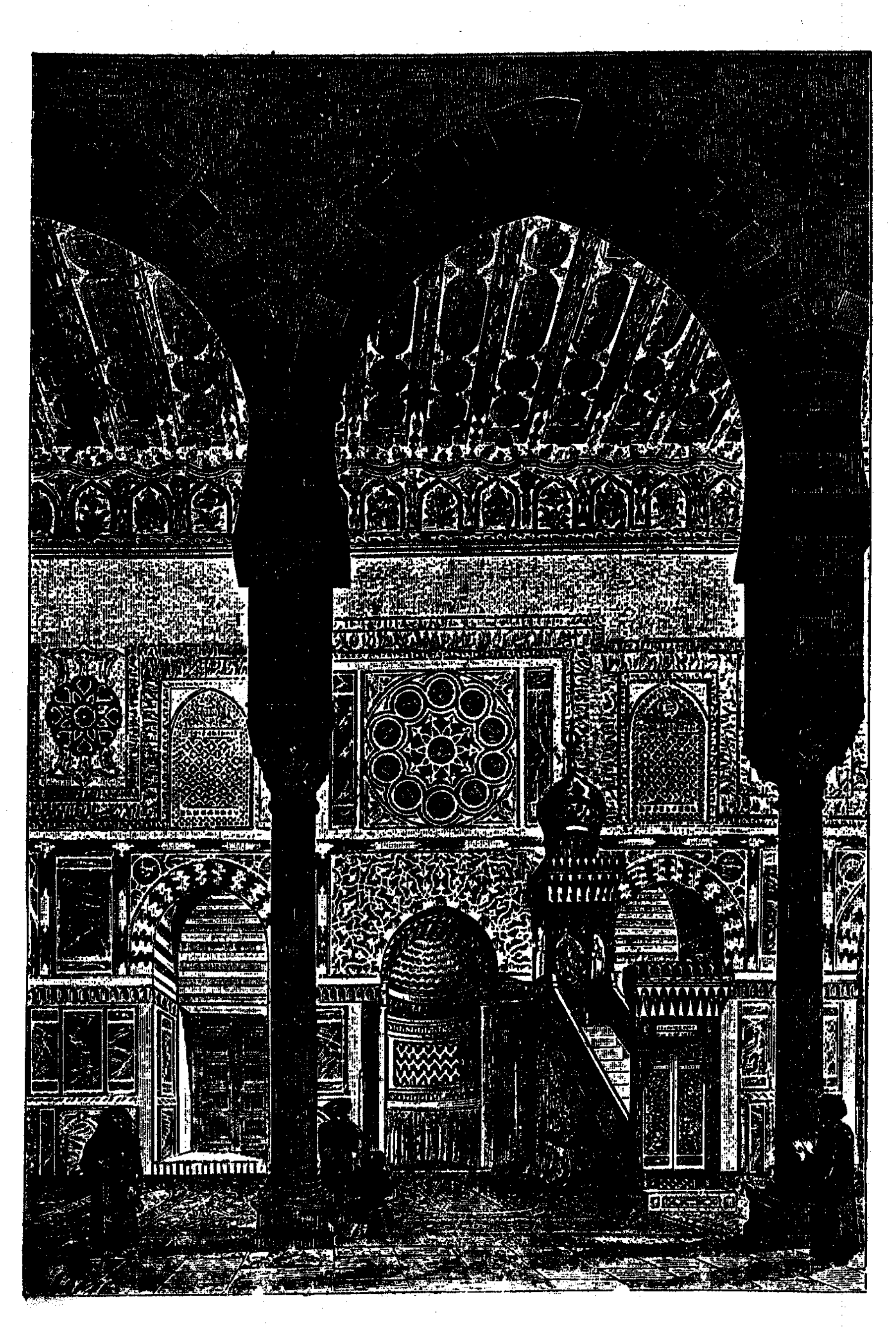
ويُرَى فى ساحة ذلك الجامع حَوْضٌ جميلٌ مُغطًّى ذو نوافذَ مُثلَّثةٍ فى أعلى بابه .

وأصاب الْوَهْنُ جامعَ ابن طولون ، ولم تُبَالِ حكومة مصر بهذا الأثر الفنىِّ العربىِّ القديم ، كما أنها لم تُبالِ بغيره من الآثار العربية ، ويرَى الناظرُ سَقْفَه وجدرانه وكلَّ شىء فيه على شَفا الانهيار ، ولن تمضىَ سِنُون قليلةٌ حتى يُصْبِح أنقاضاً ، وقد اضْطُرِرْنا لدخوله إلى كسر أحد أبوابه المُسَمَّرة . منعاً للناس من زيارته .

الجامع الأزهر (٣٥٩ هـ ـ ٩٧٠ م) . ـ الجامعُ الأزهر أرقى زُخْرُفاً من جامع ابن طولون ، ولكنه يجب على من يدرسه أن يذكر أن كثيراً من دقائقه تمَّ بعد إنشائه بزمن طويل .

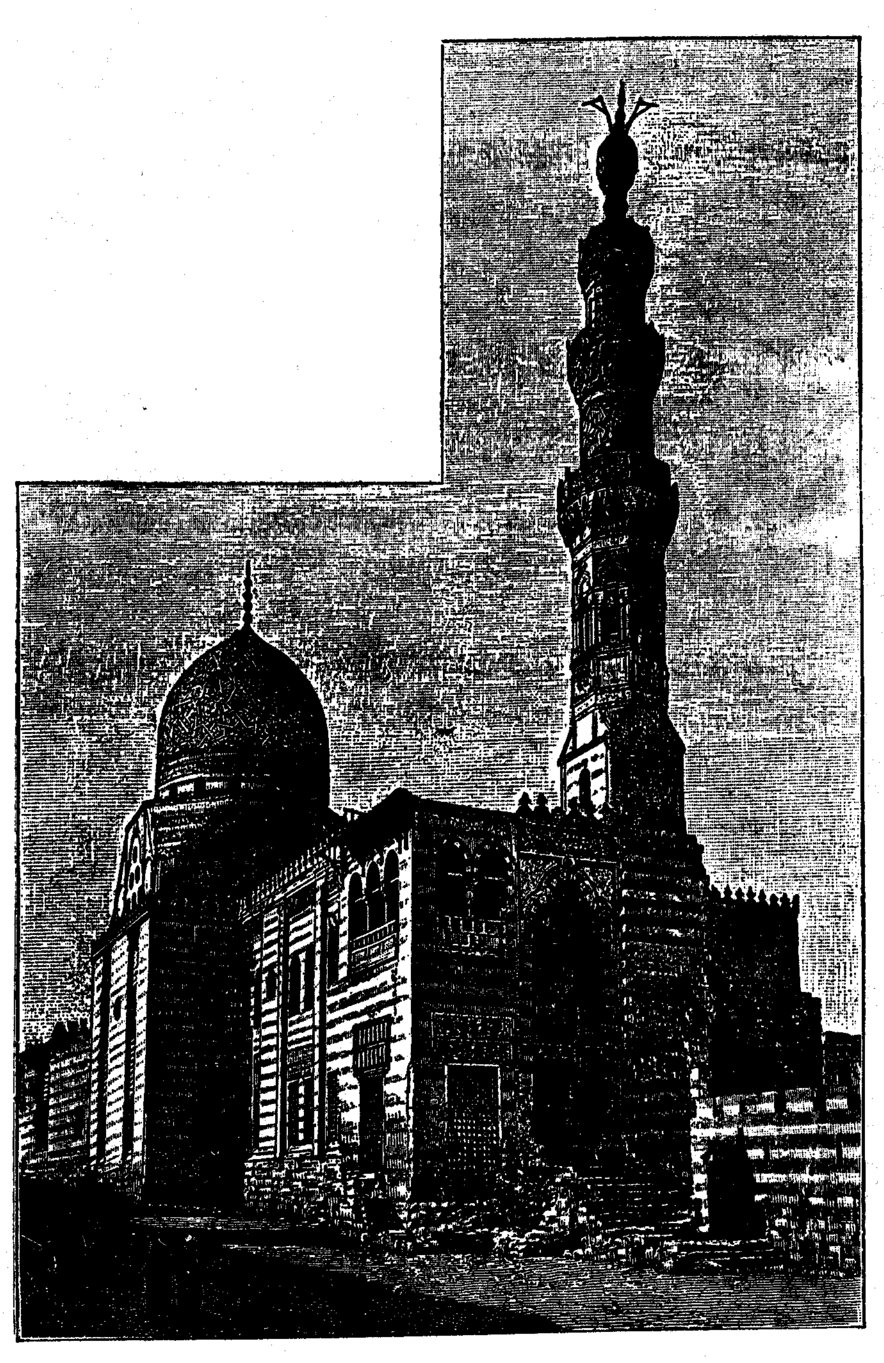
ويَتَمَتَّع الجامع الأزهر ، الذى بَدَأَ بعمله مِثلَ جامعةٍ منذ سنة ٣٧٥ هـ ، بشهرة واسعة بين المساجد الإسلامية ، وللجامع الأزهر الآن تأثيرٌ كبيرٌ فى بلاد الإسلام ، والطلابُ يَقْصِدونه أفراداً وأرْسالاً من

أنحاء العالم الإسلامىّ ، وكَيْفَ لا وهو الملجأُ الأخير لعلوم العرب فى الشرق ، وفى الجامع الأزهر أساتذة يَقْبِضُون رواتبهم من دَخْلِه ويُدَرِّسون فيه العلومَ والآدابَ والتوحيد والفقه والطبّ والفلك والرياضيات



١٠٦ ـ داخل جامع المؤيد. (من تصوير كوست)

والتاريخ ، وكان عدد طلابه اثنى عشر ألفاً فيما مضى ، ولا يَقِل الآن عن هذا العدد كثيراً ، ويقوم بنفقات طلابه الفقراء .



١٠٧ ـ جامع قايتباى (من صورة فوتوغرافية)

ويُشابه رَسْمُ الجامع الأزهر رَسْمَ المساجد السابقة ، وما يحيط به من مختلف المساكن يُفسِد رسمَه القديم بعضَ الفساد .

وعلى من يريد أن يَتَمَثَّل طِرازَ الجامع الأزهر القديمَ أن يَدْرُس صَحْنه الكبير ، فأقواسُه الحادَّة تقوم على ٣٨٠ عَمُودا من الرُّخام السُّمَّاق والمرمر والغرانيت ، وقواعدُ هذه الأعمدة وتيجانُها أُخِذتْ من أبنية قديمة ، وقوسُ القناطر حادةٌ أكثرَ مما في المساجد الأولى ، ومآذنُه الرائعة أُنشئت بعد إقامته بزمن ، وقد نَشَرْنا في هذا الكتاب صورةً فوتوغرافية التقطناها لها من أحد أرصفته ، كما نشرنا أيضاً صورةً لمحرابٍ فيه مُزَيَّنٍ بشتى الألوان ، وذلك في رَدْهةٍ اتُّخِذَت ضريحاً لرجل عظيم .

جامع قلاوون (٦٨٣ هـ - ١٢٨٣م) — جامع قلاوون مثالٌ لِمَا كاد يَبْلُغه فنُّ العِمارة في أرقى أدواره ، ومن دواعي الأسف أن لَطَّخ الدَّهَّانون بعض أجزاء جُدْرانه وباطنَ سُقُفه بحُجَّة الإصلاح والترميم .

ويُذَكِّرنا جامع قلاوون في مجموعه بالمباني القوطية الأولى ، وقد استوقفت هذه المشابهة أنظارَ العلماء الذين زاروه كـ (كوست) و (إيبر) ، قال إيبر :

« ومِمَّا يستحقُّ الذكر في مُقَدَّم جامع قلاوون ومزاره مشابهتُه لمُقَدَّم الكنائس القوطية الأوربية ، وما فيه من أقواس الدَّعْم الطويلة التي تقوم بينها أقواسٌ صغيرة مستندة إلى أعمدة ، وما كان من عدم وجود أفاريزَ فيه ، وما فيه من الأساطين العاطلة من السطوح ، وما فيه من الرِّتاج[(١)] الذي يزيد المدخلَ زُخْرُفاً وزينةً والذي يُرَى فيه كثيرٌ من الحنايا المتداخلة المرتكزة على أعمدةٍ صغيرة متفاوتة ، يُذَكِّرنا في مجموعه الفاقدِ النظام والانسجام بالمباني التي أقيمت في ذلك الدور في فرنسة وألمانية وشمال إيطالية .

وإننا ، مع إضافتنا إلى ذلك الطراز العربيّ ما تَطَلَّبه جَوُّ أوربة الباردُ الماطر وعاداتُها الدينية ونِقاشَةُ تماثيلِها وسقوفُها المرتفعة وسطوحُها الحادَّة الزوايا ومزاريبُها الناتئة وقِبابُ أجراسها وتماثيلُها ،

(١) الرتاج : الباب العظيم ، الباب المغلق وفيه باب صغير .

وجدنا أن النقوشَ البـارزة هى زُخْرُفُ فَنِّ العِمارة العربىِّ الذى نُقِل إلى إحدى الأمم النصرانيـة فى الشمال :

« وذلك الطرازُ هو الذى نسميه الطرازَ القوطىَّ فنرى مثاله الجميل فى سنت شابيل الباريسية التى أقيمت فى القرن الثالثَ عشرَ ، أى فى القرن الذى بُنى فيه جامع قلاوون » .

ويُرَى فى جامع قلاوون مَزَارٌ مُقبَّبٌ يَضُمُّ قبرَ بانيه ، وتقوم قناطر هذا المزار الرائعِ الطويلةُ على أركانٍ ذاتِ أعمدةٍ متصلة بزواياها ، ويُذَكِّرُنا هذا المزار ، وتُذَكِّرُنا نوافذُه المصنوعة على رسم البيـكارين ، بمبانى أوربة التى أقيمت على الطراز القوطىِّ كما يُذكِّرُنا جامع قلاوون نفسُه بها .

وكان يلحق بجامع قلاوون مَشْفىً ، وليس هذا المشفى موجوداً فى الوقت الحاضر مع وصفه مطولاً فى دليل نُشِرَ حديثاً فى الشرق .

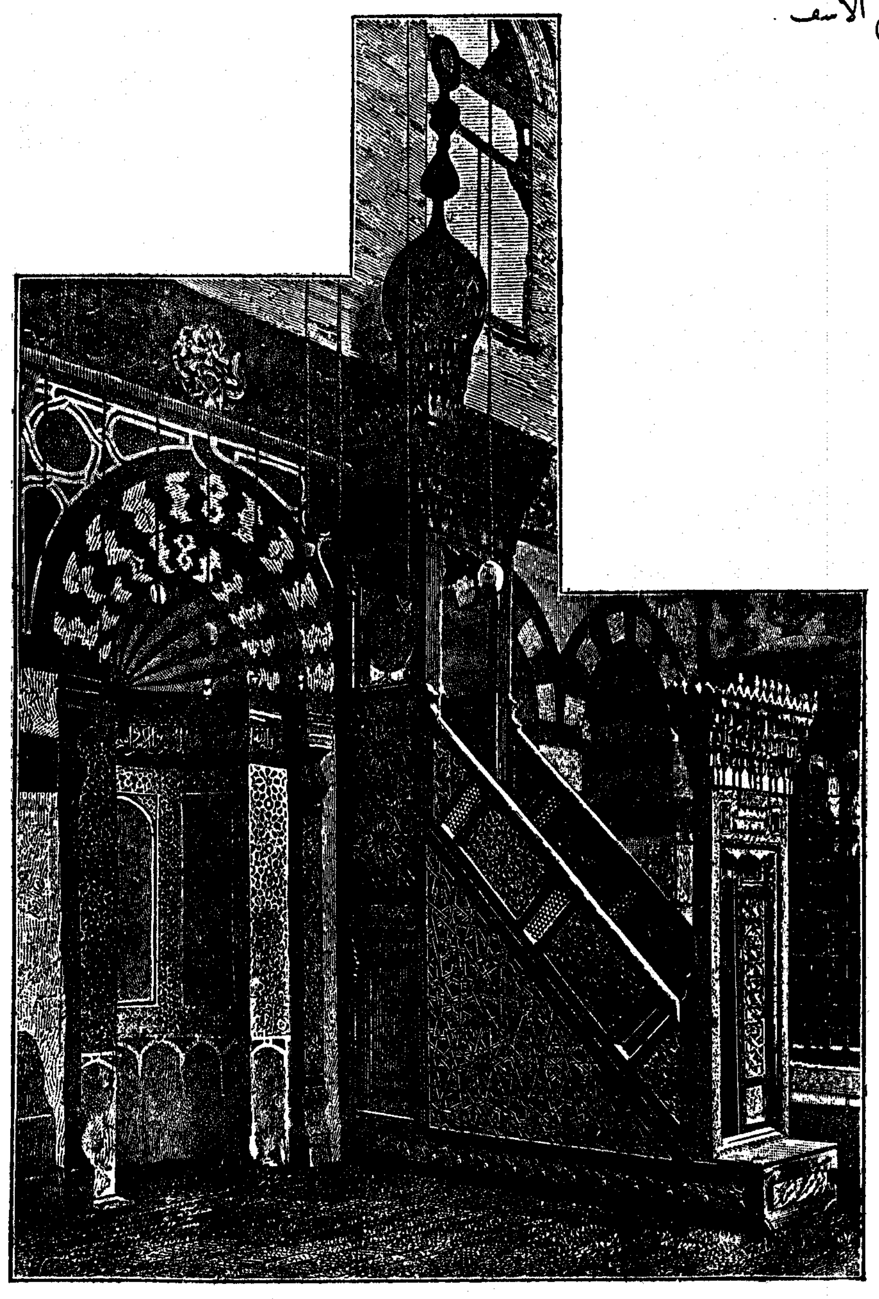
جامع السلطان حسن (٧٥٧ هـ ١٣٥٦م) . — بلغنـا أنضرَ أدوار فنِّ العِمارة العربىّ بالتدريج ، وهو ما أقيم فيه جامع السلطان حسن الذى هو أجمل مبانى القاهرة .

وتُذَكِّرُنا سِعَةُ جامع السلطان حسن العظيمة بأكبر كنائسنا ، وهو يزيد على كنيسة نوتردام الباريسيةحجماً ، ويبلغ ارتفاعُ قُبَّتِه العظيمة ٥٥ متراً ، ويبلغ ارتفاع أعلى مآذنه ٨٦ متراً ، أى ضِعْفَ ارتفاع عَمُود ڤندوم فى باريس ، ويبلغ طوله ١٤٠ مترا وعرضه ٧٥ متراً ، ويبلغ ثِخَن جُدرانه ثمانيةَ أمتار ، وقد بُنِيَت هذه الجُدران من الحجارة المنحوتة خلافاً لجدران المساجد القديمة التى بُنِيَتْ من الآجُرّ والرُّخام .

والجـامع السلطان حسن فى مجموعه منظرٌ رائعٌ لا نَجِد مثلَه فى مساجد الهنـــد الـكبيرة التى تـكلمنا عنها آنفاً .

ويختلف رسمُ جامعِ السلطان حسن العامُّ بعضَ الاختلاف عن الرسم المعتاد الذى تـكلمنا عنه ، فهو قائم على شكل الصليب الإغريقىِّ بدلاً من أن يكون مُرَبَّعا ، وهو ، بدلاً من أن يكون محاطاً بالقناطر كما فى المساجد السابقة ، تَجِد فى كلٍّ واحدةٍ من جهـات ساحته الداخليـة مدخلَ بَهْوٍ فسيح ذى قنطرة عظيمة مصنوعة على رسم البيـكارين نافذٍ إليها ، وتُقام الصلاة فى أكبر أبهائه ذى القُبَّـة

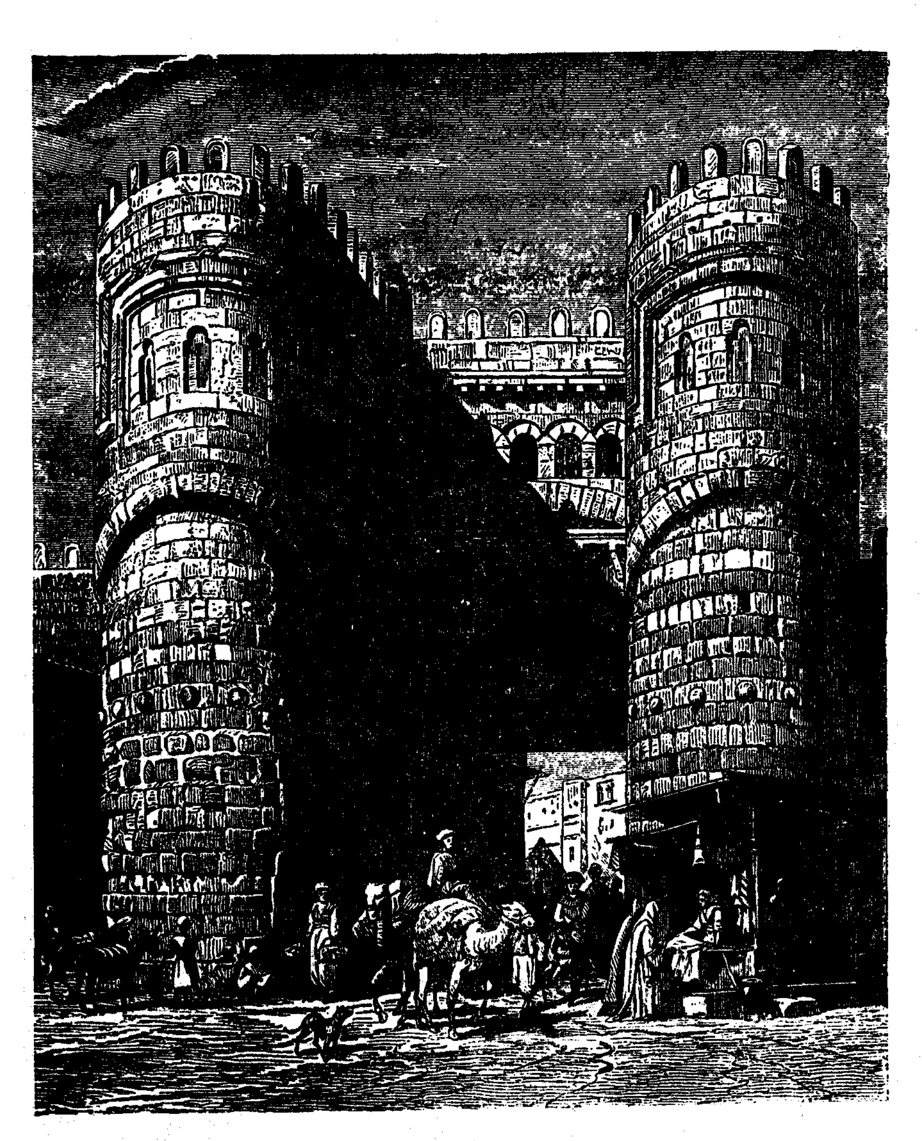
التي يبلغ ارتفاعُها ٢١ متراً ، ويَشْتمل هذا البَهْو الـكبير على محرابٍ ومِنْبَرٍ للوعظ كما تراه في جميع المساجد ، وتستر قواطعَ الجدران كتاباتٌ ونقوش عربية ، وتقوم في وَسَط تلك الساحة بِرْكة رائعة متداعية مع الأسف .



٨١ محراب جامع قايتباي ومنبره (من صورة فوتوغرافية)

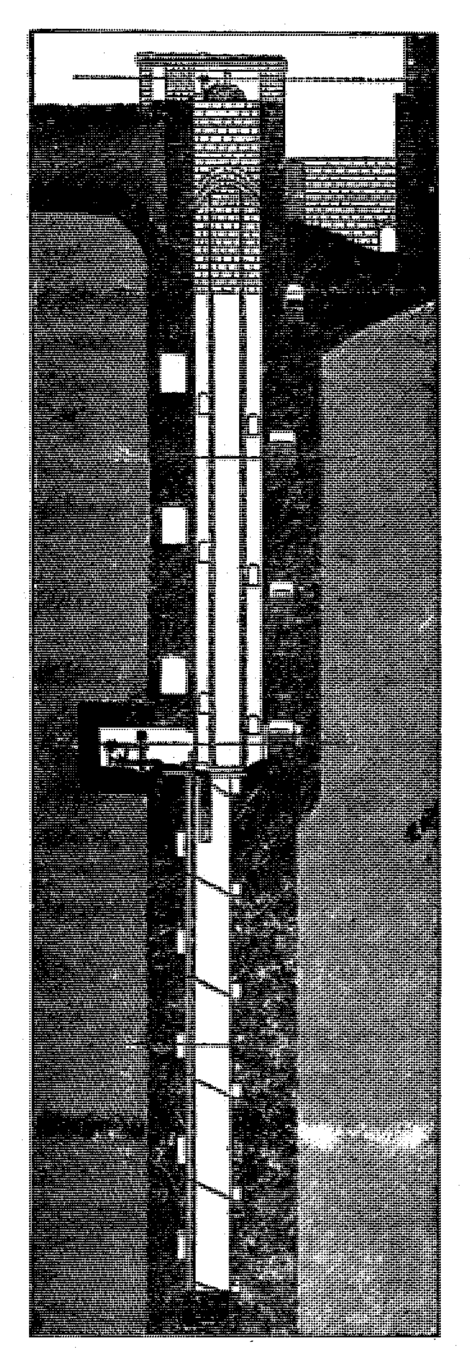
ويشتمل جامع السلطان حسن على قبر بانيه ، وهذا القبرُ فى بَهْوٍ يَبْلُغ عرضُ قبّته ٢١ متراً مع نقوشٍ مُتَدَلِّية فى القاعدة .

وتحيط بالبَهْوِ كتاباتٌ جميلةٌ منقورة فى خشبٍ ارتفاعه مترٌ واحد تقريباً .



١٠٩ ــ باب الفتوح (من تصوير إيبر)

ونرى أقواسَه مُخَصَّرَةً قليلاً كما فى أكثر المساجد السابقة ، ولم تَعُمَّ الأقواسُ المصنوعة على شكل نعل الفرس إلّا فى المبانى التى شادها العرب فى الأندلس على العموم .



١١٠ — بئر يوسف التى صنعها العرب فى القاهرة
(من تصوير كوست)

ويبلغ ارتفاع الرِّتاج الشمالىّ لجامع السلطان حسن عشرين متراً ، وهو مُجَوَّف على شكل نصف الدائرة ، ويرتكز نصف القُبَّة التى تعلوه على حجارة مُتدلِّية ، وتغطِّى قواطعه نقوشٌ عربية كثيرة

ولم ينل جامع السلطان حسن من العناية أكثر مما نالته مساجد القاهرة الأخرى ، فما فيه من الفُسَيْفِساء والنقوش والروافد(١) يندثر شيئاً فشيئاً ، وقد لا يبقى من هذا الأثر الرائع سوى الجدران بعدَ سنينَ قليلةٍ .

وجميع مساجد ذلك الدور تستحق الذكر ، فتُمَثِّل ، هى والمبانى التى أقيمت فى القرن الذى جاء بعدَها ، عصرَ فنِّ العِمارة العربىِّ الذهبىِّ بمصر .

ومن مبانى ذلك الدور أذكر ، على الخصوص ، جامعَ الأمير آخور ذا القُبَّة الرائعة ، والمبانىَ الآتية .

جامع برقوق (٧٨٤هـ — ١٣٨٤ م). — بُنِى هذا الجامع من مداميكَ منظَّمةٍ حَجَرية بيض وحُمْرٍ ، وهو من المبانى التى نسميها مزاراتِ الخلفاء ، وتُعَبِّر مِئْذَنتُه ، مع مئذنة جامع قايتباى ، عن المآذن العربية أحسنَ تعبير ، ولقبابِهِ المُخَصَّرَة قليلاً هَيَفٌ يَشْمَل النظر ، وللقُبَّة التى هى فوق ضريح

(١) الروافد : جمع الرافدة وهى خشبة السقف التى فوق الجسر ، والعامة تسميها الوصلة .

برقوق منظرٌ داخليٌّ ذو رَوْعَة وجَلال ، وتمْسِكُ أركانُ البَهْو المُرَبع هذه القبةَ بمدلياتٍ رائعة .

وَيشتمل جامعُ برقوق على مِنبَر عجيب من الرُّخام المنقوش ، ويُعَدّ هذا المِنبَر ، الذى هو تخاريمُ حجريةٌ بالحقيقة ، من روائع الفنِّ العربىّ ، فإهمالُ مثل هذا المِنبَر وتعريضُه للنهب من الجرائم الوحشية التى لا تُغْتفَر .

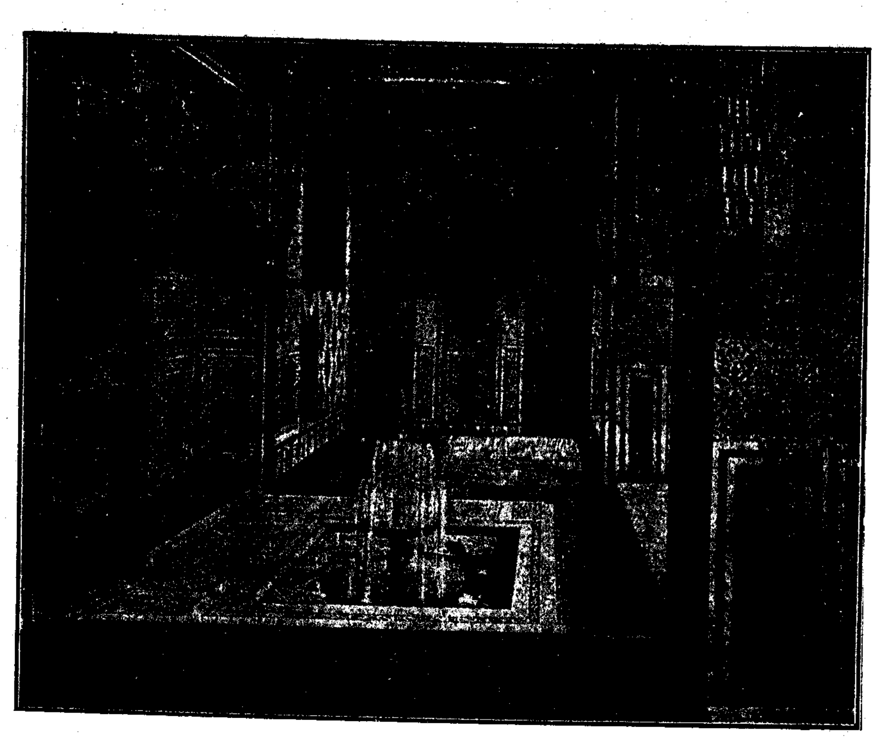
جامع المؤيد (٨١٨ هـ — ١٤١٥ م) . — جامعُ المؤيد فى مجموعه أقلُّ أهميةً من أكثر المساجد التى ذكرناها مع مافيه من فَيْض الزخارف،وهو إذا مانُظِر إليه من ناحية زخارفه عُدَّ من أغنى مساجد القاهرة ، وسيصبح أنقاضاً بعدقليل من الزمن لإهمال أمره كما سيصير إليه أكثرُ المبانى التى ذكرناها، وفى هـذا الجامع شاهدتُ سُقُوفاً ذاتَ رقاعٍ منقورةٍ مدهونة مُلَوَّنَة يَنْدُر وجودُها فى القاهرة الآن ، وشاهدتأبواباً عظيمةً ذاتَ أعمدة تعلوها أقواس مُخَصَّرَةٌ قليلاً فى قاعدتها مصنوعةٌ على رسم البيكارين، وشاهدتُ نوافذَ جميلةً مصنوعة أيضاً على رسم البيكارين تُحيط بها كتاباتٌ وفُسَيْفِساء أنيقة .

جامع قايتباى (٨٧٢ هـ — ١٤٦٨ م).— يشتهر هذا الجامع بقُبَّته الكاسية بالزينة العربية البارزة النقوش ، وبمِئْذَنته الرائعة المثلثة الطبقات المُغَطّاة بالنقوش والممدودةِ عُنْوَانَ فَنِّ العِمارة العربىّ الأخير على مايحتمل ، والناظرُ إلى هذه المِئذنة يشاهد درجةَ ذوق العرب الفنىِّ فى الزُّخْرُف البارز على الحجارة التى تُصْنَع منها المَسانِدُ والأَطْناف والأرْوِقَةُ الناتئة عن مستوى جُدران المآذن ، والتى تكتسب بها المآذنُ منظراً رائعاً لا تَرَى مثله فى البرج المُرَبَّع أو البرج الأُسطوانىِّ .

ويُعَدُّ جامعُ قايتباى كما يُعَدُّ جامعُ برقوق ، من المبانى المتصدعة التى يُسَمِّيها الناسُ مزاراتِ الخلفاء ، وأقيم أكثرُ هذه المبانى فى زمن المماليك الشراكسة،وذلك فى سهلٍ رَمْلىّ قريب من القاهرة ويتألف من مجموع هـذه المبانى منظرٌ من أجمل مارأيت ، ويُرَى فى الناحية الأخرى من القاهرة ، وبالقرب من القلعة ، سهلٌ آخرُ ذو مزاراتٍ مهمةٍ مُمْتِعةٍ كثيراً بُنِيَت فى مختلف الأدوار ، ويَعْلو هذه المزاراتِ متنوعُ المآذن والقِباب ، ولا أرى أن أُفَصِّل أمرَها لِماَ فى ذلك من الخروج عن نِطاق هذا الفصل ، ومع ذلك فقد نشرنا صورةً فوتوغرافية لهذه المقبرة فى هذا الكتاب .

المساجد التركية فى القاهرة . — لا أرى بين المساجد والقصور القليلة التى أُنْشِئَت منذ أوائل القرنِ

السادسَ عشرَ ، أى منذ استيلاء الترك على مصر ، مسجداً واحداً أو قصراً واحداً يستحقُّ الذكر ، ولو نظرتَ إلى أهمِّ المبانى التركية فى مصر ، أى إلى جامع محمد على الضخم ذى القبَّة الفَطْساء والمآذن الأُسوانية الهزيلة التى تنتهى بما يُشْبِه المِطْفَأة ، لرأيتَ الهُوَّة العميقة التى تَفْصِل بين ذوق العرب الفنىِّ وذوقِ الترك .



١١١ ـ ردهة استقبال عربية فى القاهرة (من تصوير بريس الأفينى)

نعم ، لم يكن العرب حين فتحوا مصر من رجال الفنِّ المتضلعين ، ولكن ما فطروا عليه من الذوق الفنىِّ العالى حَفَزهم إلى ابتداع طِراز عِمَارةٍ جديدٍ من عناصر الفنِّ البزنطىّ ، وغيرُ ذلك أمرُ أولئك الترك الذين لم يكونوا أهلاً للانتفاع بمواهب أساتذة الفنِّ وأمثلته ، والذين لم يرَوْا ، حين أرادوا إنشاء جامعٍ فى القاهرة ، غيرَ نَسْخ عِمارة أيا صوفية الثقيلة التى كانت كنيسةً بزنطية ، والتى هى عُنْوَانُ مَرْحَلَةٍ فنية جاوزها العرب منذ زمن طويل ، فعند تلك المرحلة وقَف الترك ، ولم يستطيعوا قطعَها .

الآثارُ العربيةُ الأخرى فى القاهرة : أبواب المدينة ، القلعة ، بئر يوسف ، إلخ . ـ أذكر ، من بين الآثار العربية التى أقيمت فى عصر الخلفاء والتى يتَجَلّى فيها فنُّ العِمارة العربىُّ ، بابين من أبواب

القـاهرة ، وهما : باب النصر وباب الفتوح اللذان أنشأهما الخليفـةُ الفاطمىُّ المستنصر فى القرن الحادى عشر من الميلاد .

وأذكر كذلك قلعةَ القاهرة التى أنشأها السلطانُ صلاح الدين فى القرن الثانى عشر ، وتستقى هذه القلعةُ ماءها من بئرٍ منقورةٍ فى الصخر نقْراً يدلُّ على مهارة مهندسى ذلك الزمن ، ويَبْلُغ عُمق هذه البئر ٨٨ متراً ، ويبلغ مدخلُها ثمانيةَ أمتار ، وتُقَسَّم إلى طبقتين ، ويُرْفَع ماؤها بقوة الثيران التى تُحَرِّك دولابَها ذا السُّبَح والقُلَل ، ويمكن النزولُ حتى الطبقة الأولى من هذه البئر بطريقٍ مستديرةٍ سهلةِ الانحدار ذاتِ قُصْفانٍ[1] واطئة إلى حَدٍّ يسهل معه نزولُ الثيران إليها وصعودُها منها .

ونشاهد فى القاهرة آثاراً كثيرة للحضارة العربية ، كالمنازل والأسلحة ومختلف المصنوعات وغيرها من الأشياء التى سندرسها فى فصول أخرى ، فإذا أضاف القارئ درسَ هذه الأشياء إلى درس الآثار التى ذكرناها آنفاً اتضح له أمر الحضارة التى أقامها رجال القرآن فى مصر .

---

(١) القصفان : جمع القصفة ، وهى مرقاة الدرجة .

الفصل الخامس

العرب في أفريقية الشمالية

---

١ – إفريقيّة الشمالية قبل الفتح العربى

نَقْصِد بإفريقية الشمالية البلادَ التى تشتمل على مَرَّاكُش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، وتمتدُّ إفريقية الشمالية من المحيط الأطلنطىّ إلى غرب مصرَ الملحقةِ بالشرق على العموم ، وتُحَدّ إفريقية الشماليةُ بالبحر المتوسط فى الشمال وبأقسامِ الصحراء المجاورة للسودان من الجَنوب .

وكان الرومان يُقَسِّمون إفريقية الشمالية إلى خمسة أقسام :

(١) بلاد بَرقةَ الواقعة فى غرب مصر . (٢) بلاد إفريقية القنصلية (طرابلس الغرب وتونس) .
(٣) بلاد نوميدية (ولاية قسنطينة) . (٤) موريتانية القيصرية (قسم من الجزائر الحاضرة) .
(٥) موريتانية الطنجية (مَرَّاكُش) ، وكانت رومة تمارس سلطانَها على هذه الولايات بما ترسله إليها من الوُلاة والمندوبين والحُكّام .

وسَمّى العربُ إفريقية الشمالية والأندلسَ بالمغرب فى البُداءة ، وأُطْلِق اسمُ إفريقية على تونس وطرابلس الغرب حين استقرّ العربُ بالقَيْرَوان وتونس ، وصارت كلمة المغرب لا تدلّ على غير بلاد إفريقية الغربية فى نهاية الأمر .

وصار العربُ يُسَمُّون البلادَ التى تحتوى الآن على الجزائر ، تقريباً ، بالمغرب الأوسط ، والبلادَ التى تحتوى الآن على مَرَّاكُش بالمغرب الأقصى .

واستولت شعوبٌ كثيرة على شمال إفريقية ، وكانت لها آثارٌ متفاوتة فيها ، وملكها قبل العرب كلٌّ من القرطاجيين والرومان والوندال والقوط والبزنطيين .

ولم يَتَبَدَّل أهلُ شمال إفريقية مع كثرة فتوح الأجانب لها ، وهؤلاء الأهلون هم البربر الذين حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم خارجَ المدن على الأقل .

وينطوى تاريخ استقرار العرب بإفريقية على النزاع الذى دام طويلاً بينهم وبين البربر ، وكان للبربر من الشأن فى إفريقية والأندلس ما يجب درسه لفهم ذلك التاريخ ، وتزيد ضرورة ذلك الدرس كلما أمعن العلماء فى الغلط حين يتكلمون عن البربر بسبب بلاد الجزائر .

وجميعُ أمم إفريقية الشمالية التى سَمَّاها الرومان بالنوميديين واللوبيين والإفريقيين والمغاربة والجيتول ، إلخ ، من عرق البربر ، ويمكن القول بأن من لم يكن زِنْجِيًّا فى شمال إفريقية كان بربريًّا ، وذلك قَبْل العرب .

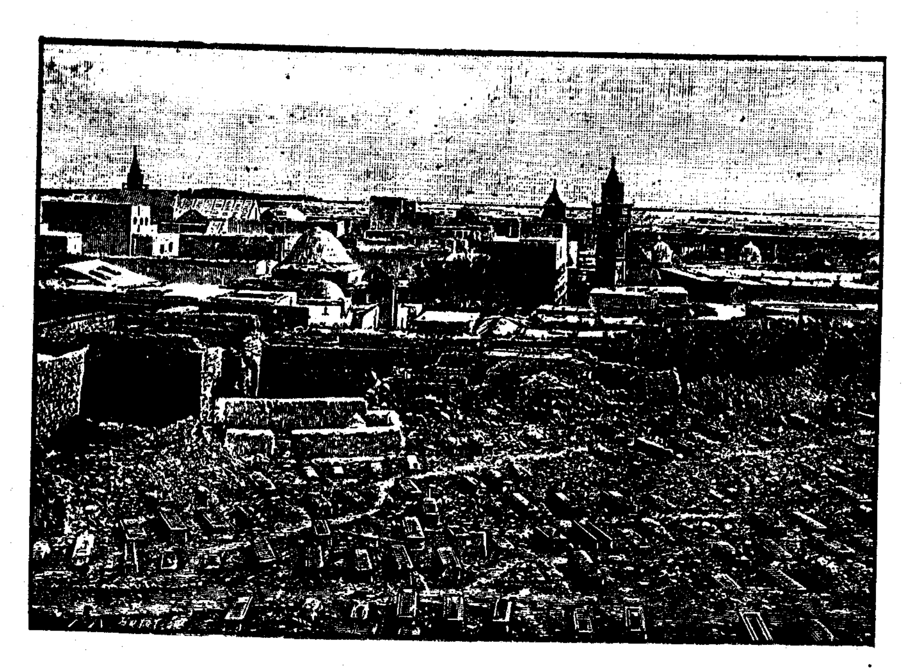
ولا يقلُّ جهلنا للأصل البربرى عن جهلنا لأصول أكثر العروق .

بَيْد أن ما نراه فى شواطئ إفريقية العليا من البيض بين الزنوج يَدُلنا على أن البربر نتيجةُ اختلاطِ مختلف الشعوب التى هاجرت إلى شمال إفريقية فى أقدم القرون ، وقد قلنا « أقدم القرون » لِما ليس لدينا من الروايات والتاريخ ما يُدَوِّن ذلك ، وقد قلنا « مختلف الشعوب » لِمَا نشاهد بين سُود الشعور من زُرْق العيون شُقْرِ الشعور .

ويمكننا أن نأتىَ بافتراضات معقولة عن الأمكنة التى صدرت عنها تلك الهجرة فنقول : إن أولئك المهاجرين لم يأتوا من الجنوب الذى لا يُرَى فيه غيرُ الزنوج ، ولا من الشمال الذى لم يكن إلَّا بحراً خِضَمًّا لم يفكِّر الأقدمون فى عبوره ، وإنما جاء أولئك المهاجرون من الشرق ، أى من آسية ، مارِّين من الأرض الضيقة التى تَصِلها بإفريقية ، أو جاءوا من الغرب ، أى من مَضِيق جبل طارق .

والحقُّ أن المهاجرين السُّودَ الشعور أَتَوْا من شواطئ الفرات ومن شمال جزيرة العرب ، أو من مكان أبعدَ منها على ما يحتمل ، وأن المهاجرين الشُّقْر الشعور الزُّرْقَ العيون أَتَوْا من شمال أوربة ، ولا ريب فى مجيء هؤلاء من شمال أوربة مارِّين ، على الأرجح ، من أقصى طرفٍ غربىّ بإفريقية ، وذلك بدليل ما بين آثارهم الحجرية فى إفريقية وما بين الآثار الحجرية التى اكْتُشِفَت فى شمال أوربة من المطابقة التى لا ترى مثلها عند مقايسة تلك الآثار بآثار الوندال الذين أَوْغَلوا فى إفريقية بعد الميلاد بزمن طويل .

وهنالك بعضُ الأدلة على هجرة شُقْرِ الشعور إلى إفريقية ، ففى مصرَ من المبانى التى أُقيمت منذ أكثر من أربعةَ عشرَ قرناً ، أو خمسةَ عشرَ قرناً ، قبل الميلاد ما رُسِمت عليه صُوَرُ إفريقيين شُقْرِ الشعور زُرْقِ العيون ، وأخبر الجغْرافىُّ سِلاَكْسُ فى رحلته التى قام بها فى أطراف البحر المتوسط قبل الميلاد بقرنين بوجود شعب من شُقْرِ الشعور قاطنٍ فى الولاية التى تُعْرف اليوم بتونس ، وعددُ هؤلاء قليل فى الوقت الحاضر ، وتراهم الآن شرَاذِمَ مبعثرةً فى إفريقيــة ، وترى منهم أشخاصاً بين الطَّوَارِق فى الصحراء .



١١٢ ـ منظر تونس (من صورة فوتوغرافية)

وتَفَوُّقُ سُودِ الشعور على شُقْرِ الشعور يدلُّ على أهمية تلك الهجرة من آسية وتغلبها .

ودَحَر العربُ البربر من الشواطئ ، وكان البربرُ يَقْطنون قبل ذلك فيما بين البحر المتوسط وبلاد السودان من البقاع الواسعة ، وتَمازَجَ سكانُ الجنوب من البربر والزنوجُ ، فنشأت عن ذلك أمثلةٌ من البربر مختلفةٌ يراها من يطوف فى مُدُنِ إفريقية ، ولا سيما مُدُنُ مَرّاكُش .

و يُقسَّمُ العِرْقُ البربرىُّ من الناحية السياسية إلى عِدَّة فروعٍ لِعرْقٍ واحد ، ومن هذه الفروع القبائلُ فى الجزائر ، والطوارقُ فى الصحراء ، والشُّلُوحُ فى مَرّاكُش .

ونقول ، مع ما نجدُ من صعوبةٍ فى وصف البربر وصفاً دقيقاً من الناحية الإثنوغرافية :

إذا بحثتَ عن البربر الخُلَّص وجدتَهم يسكنون الجبال الوَعْرَة ، وأما فى المدن وفى المناطق القريبة من الساحل فقد تحَوَّلوا بفعل توالدهم والرومان والأغارقة والوندال وغيرهم ، ولا سيما العربُ الذين عادلوهم فى بعض الأزمان كما نُبَيِّن ذلك عما قليل .



١١٣ ــ قرية بربرية فى الجزائر (من صورة فوتوغرافية التقطها جايزر)

ويَصْعُب على الباحث ، إذَنْ ، أن يُبْصِر المِثالَ البربريَّ الخالص بعد ذلك التوالد ، ونقترب من الصواب إذا قلنا إن المثال الذى نَراه غالباً بين البربر يختلف عن المثال العربىِّ بثخَنه وثِقَله ووجهه المُسَطَّح العريض الوجنتين الضَّيِّقِ فى أسفله وبشَفَتَيْه الغليظتين وأنفه القصير مع قليلِ فَطَسٍ وغالبِ خَنَسٍ(١) وبعينيه الصغيرتين الدَّجْنَاوَيْن وبسواد شعره ، وهذا إلى أننى شاهدتُ من أمثلة البربر مايَصْعُب تمييزه من المثال العربىِّ بسبب ما حَدَث بين الجيلين من التوالد لا رَيْبَ ، وذلك كما ذكرتُ .

(١) الخنس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع فى الأرنبة .

وللبربر لغةٌ عريقة فى القِدَم يحتمل أن تكون مشتقةً من الفنيقية ، وبهذه اللغة حَرَّض جوغورته جنودَه على ماريوس ، وبها تكلَّ الجيتول .

وإذا استثنيتَ مايُسْمَع فى إفريقية الشمالية من اللغات الأوربية علمتَ أن العربية والبربرية هما اللغتان اللتان يتكلم بهما سكان إفريقية الشمالية ، ولكن اللغة العربية هى الأوسع انتشاراً ، ولا يتكلم أحدٌ بالبربرية فى غير الجبال أو البقاع البعيدة جداً من المدن ، وللبربرية لَهَجاتٌ كثيرة مختلفة فيما بينها اختلاف مابين الفرنسية والإسپانية أو بينهما وبين الإيطالية ، وتَعَرَّبَت البربرية ، كما تَعَرَّب البربر أنفسهم ، نتيجةً لاتصالها باللغة العربية ، ويتألف نحوُ ثلث البربرية التى يتكلم بها سكانِ منطقة القبائل الكبرى من كلماتٍ عربية ، وأمرٌ طريف مثلُ هذا يُثْبِت لنا مَرَّةً أخرى مقدارَ تأثير العرب العظيم الذى لم يُكْتَب مثلُه لأيَّة أمة أخرى ، ومن هذه الأمم اليونانُ والرومان الذين دام سلطانهم فى شمال إفريقية دوامَ سلطان العرب من غير أن يتفق للغتيهم أىُّ أثرٍ فى اللغة البربرية .

ويَقْطُن أهل الحضر من البربر بِقُرًى تقوم فى أعالى الجبال على العموم ، ويختلف منظرها قليلاً عن منظر القُرى الأوربية ، والبربرُ صُبُرٌ على العمل الشاقِّ فلا يرتدون عنه ، ويثيرون مايَمْلِكون من الأراضى الضعيفة بجِدٍّ ونشاط ، ويكتفون بما يُمْسِك الرَّمَق لاحتياجاتهم القليلة ، وهم ذوو استعداد صناعىّ يكفى لصنع مايحتاجون إليه من مختلف الأدوات والنسائج والأسلحة والحُلِىِّ إلخ . ، وهم يرسلون إلى الخارج مايَزيد من مصنوعاتهم ، ورأيتُ بين مايصنعون من الحُلِىِّ مالا يقلُّ دِقَّةً عما نراه فى مخازن أكثر الصاغة الباريسيين أناقةً (١) .

ولدراسة طبائع البربر المعروفين بالقبائل وعاداتهم التى ثَبَتَت مع تعاقب الفاتحين أهمية خاصة : تشتمل كلُّ قريةٍ بربرية على أُسَرٍ كثيرة مؤلفة من أناس منحدرين من أصل واحد ومن أناس انْضَمُّوا إليهم بالوَلاء ، وتُعَدُّ كلُّ واحدة من تلك الأُسَرِ وَحْدَةً سياسية شرعية قادرة على التملك والبيع والشراء .

---

(١) رأيت فى مجموعة المصنوعات التى أحضرها مسيو دوويفالفى من آسية الوسطى أشياء مماثلة لما يصنعه البربر المعروفون بالقبائل ، فمن المحتمل أن تكون قد اقتبست حين كانت بلاد الهند ذات صلات بإفريقية أيام دولة العرب .

وتتألف القبيلةُ من اجتماع عِدَّة قُرًى ، والقريةُ ، لا القبيلةُ ، هى عُنوان الوَحْدَة السياسية البربرية خلافاً لما هو عند العرب ، والقريةُ البربرية هى جُمهوريةٌ صغيرة مستقلة يدير شؤونها رئيسٌ منتخب يُسَمُّونه الأمين ، وأهمُّ وظائف هذا الأمين أن يرْأس جمعيةَ البالغين من أهل قريته ، وتتمتع هذه الجمعية بالسلطة الاشتراعية والسلطة القضائية وتقرِّر شؤون السِّلْم والحرب ، وسلطة أمين القرية مقيدة جدًّا ، والوكيل هو الذى يرْقبه، والوكيلُ هو الذى يشكوه إلى تلك الجمعية إذا أتى عملاً يستحقُّ اللوم والتعنيف ، ومن ذلك ترى أن الاستقلال البلدىَّ الذى يَحْلُم به بعض الاشتراكيين تامٌّ عند البربر الذين حُرِموا بسببه تأليفَ أمةٍ فى كلِّ زمن .

والامتلاكُ أمرٌ فردىٌّ عند البربر ، ولكنَّ للأُسْرَة البربرية وللقرية البربرية أملاكهما المماثلة لأملاك بلدياتنا ، والأُسْرَةُ البربرية هى الوارثة حين لا يكون للمُوَرِّث ورثةٌ أو حين يكون ورثته بعيدين


١١٤ — بربرى من الجزائر (من صورة فوتوغرافية)

وقانون العقوبات عند البربر بسيط ، وعقوبات البربر فاضحةٌ على الخصوص ، ولا يَعْرِف البربرُ أمرَ السجون ، وتَنْدُر عندهم الجرائم ، ولا سيما السَّرِقَةُ ، ويعيش البربرىُّ فى غير مَعْزِل عن عشيرته فيَخْشَى مَغَبَّة الإجرام ، ويُرَى للرأى العامِّ سلطان عظيم فى تلك الجمهوريات البربرية المِكْرُسْكوبية التى يُعْرَف فيها كلُّ واحدٍ من أفرادها .

ويَدِين البربر فى الوقت الحاضر بالإسلام مع فتور ، وكان البربر قبل الفتح العربىّ يعبدون آلهة قرطاجة كـ « غُرْزيل ومَسْتِيمان » وغيرها من الآلهة القُساة، وروى ترْتُولْيان أن البربر كانوا يُضَحُّون ببعض الأولاد تقرُّباً إلى إله الزمن كيوان ، وكانوا يعبدون النار أيضاً ، وانتحل النصرانيةَ كثيرٌ من قبائل البربر المجاورة للمستعمرات اليونانية أيام الحكم المسيحىّ .

ويقتصر البربرىُّ على زوجة واحدة، ولا تتمتع المرأة البربرية بأكثرَ مما تتمتع به الأوربيات من الحقوق ، وإن كانت فى وِصايةٍ أقلَّ مما هُنَّ فيه .

والمرأةُ البربرية على جانب كبير من الحَمِيَّة ، وهى تحارب بجانب زوجها أحياناً ، وَخَلَدَ أُومِيرُس ذكرَها حين تغنى بخَبر تلك المَلِكة والنسوةِ المُترَجِّلات اللائى فتَحْنَ بلاد لوبية وبعضَ آسية الصغرى .



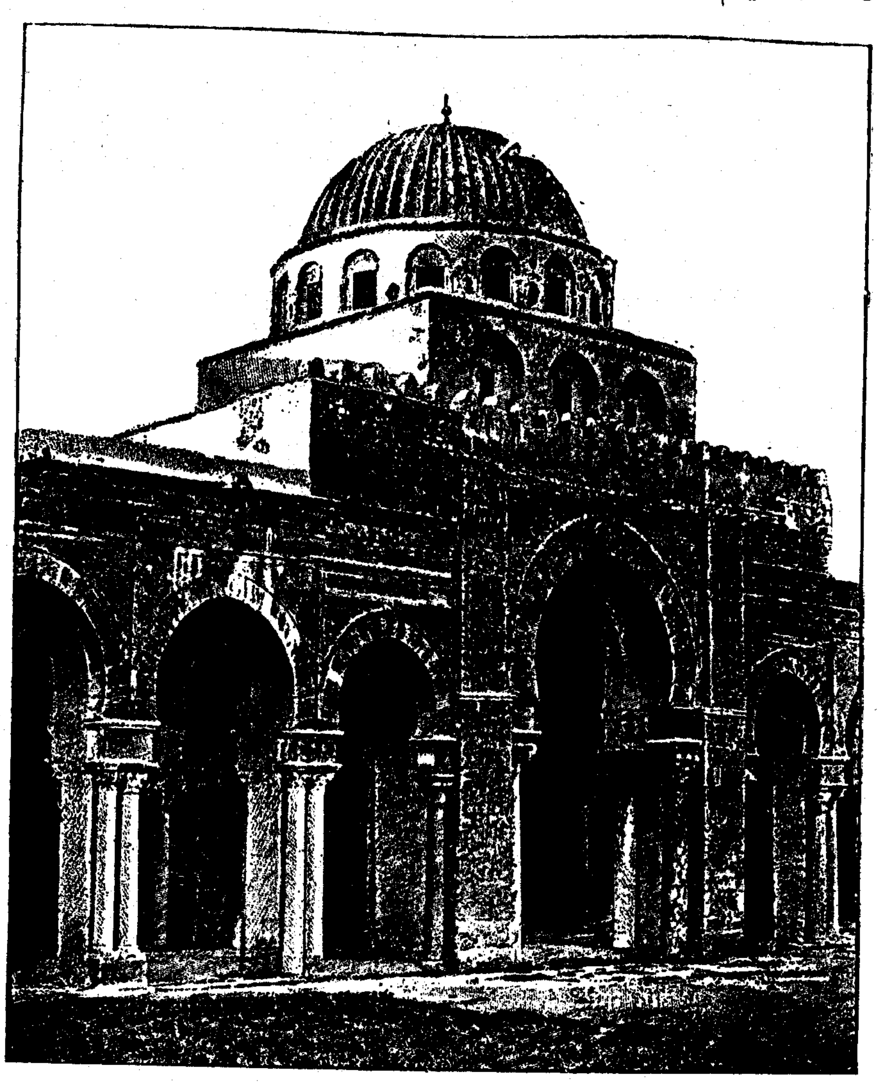
١١٥ ـ امرأة بربرية تصنع الـكسكسو (من صورة فوتوغرافية)

ومن النساء البربريات من جَلَسْنَ على عرش المُلك ، ويدلّ هذا الأمر ، الذى يَنْفِر منه العرب كثيراً ، على تباينهما فى النظر إلى بعض الشئون .

ولَقِى العرب الأَمَرَّيْن فى دور فتوحهم ، وذلك من مقاومة المَلِكة البربرية الكاهنة التى ألَّفت بين كثير من قبائل البربر وتَسلَّمت القيادة وقاتلت العربَ وكُتِب لها النصر فى المعركة الأولى وهَزَمَت العرب واستولت على جميع شمال إفريقية ، ولمَّا عاود العربُ الكَرَّةَ بجيش عَرَمْرَم عزمت الكاهنة على تخريب البلاد لمنعهم من فتحها ثانيةً ، فهَدَمَت جميع القُرَى التى كانت بين طرابلس الغرب وطنجة ، وكاد مصير شعب هذه السيدة ، التى ألقت الرُّعْب فى قلوب العرب والروم ، يكون غيرَ ما حدث لو لم تُقْتَل فى إحدى المعارك .

وانتهى العلماء الذين بحثوا فى أمر البربر إلى نتائجَ متناقضةٍ كثيراً ، ويمكن توفيق مابين هذه النتائج المتناقضة عند تَدَبُّر ماقلناه عن أخلاق العرب التى تختلف باختلاف طُرُق حياتهم ، فما قلناه عن العرب يَصِحُّ أن يقال عن البربر الذين تباينت فروعهم فتباينت طبائعهم ، وصار مايقال عن الطوارق البدويين النَّهَّابين الغَدَّارين لا يقال مثله عن سكان الجبال من البربر .

وقد تُعَدُّ روح البربر قريبةً جداً من روح العرب على أن يقاس حضريو أولئك وبدويوهم بحضريى هؤلاء وبدوييهم .



١١٦ ـ أحد أبواب مسجد سيدى عقبة فى القيروان (من صورة فوتوغرافية)

ولِطرُق الحياة تأثيرٌ كبير فى أخلاق جميع الأمم ، فإذا تماثلت طرُق حياة الأمم تماثلت هذه الأمم فى التفكير والسير فى الغالب .

والبربريُّ الحضريُّ ، كالعربيِّ الحضريّ ، جَلْدٌ على العمل صبورٌ حازم ماهر ، والبربريُّ البدويُّ ، كالعربيِّ البدوىّ ، طليقٌ مِحْرابٌ قنوعٌ خفيف طوّاق لِلْمَشاقِّ خَتّارٌ للأعداء ، ولايختلف البربريُّ عن العربيِّ إلا فى أنه أقلُّ من العربىّ ذكاء وأشدُّ منه حقداً وطغياناً .

وتجَلى غدر البربر منذ أوائل الفتح العربىّ ، فلما سأل الخليفةُ فى دمشقَ فاتحَ إسپانية موسى بن نصير عن البربر، أجابه بقوله : « هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية ، غير أنهم أغدرُ الناس ، ولا وفاء لهم ولا عهد » .

واشتهر البربرُ قبل الفتح العربىّ بطويلِ زمنٍ بأنهم ممن لا يوثق بكلامهم ، وقد كان عددهم كبيرا فى جيوش قرطاجة ، فأوجبوا اشتهارَ الحروب اليونانية بسوءِ السُّمْعة لا ريب .

ولم يكن تقسيم البربر إلى أهل بدوٍ وأهلِ حضرٍ أقلَّ أهميــةً من تقسيم العرب إلى مثل هذا كما يُرَى ، وإلى هذا انتبه ابن خلدون فى القرنِ الرابعَ عشرَ الميلادى فقال : « هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القــديم ملأوا البسائط والجبــالَ من تُلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره ، ويتَّخِذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخُوص والشَّجر ومن الشعر والوَبَر ، ويَظْعَن أهل العزِّ منهم والغَلَبَة لانتجاع المراعى فيما قَرُب من الرِّحلة لا يجاوزون فيها الرِّيفَ إلى الصحراء والقفار المُلْس ، ومكاسبُهم الشاء والبقر ، والخيلُ فى الغالب للركوب والنِّتاج ، وربمـا كانت الإبل من مكاسب أهل النُّجْعَة منهم ، شأنُ العرب ، ومعــاشُ المستضعفين منهم بالفَلْح ودواجن السائمة ، ومعاشُ المعتزين أهلِ الانتجاع والإظعان فى نِتاج الإبل وظِلالِ الرِّماح وقطع السابلة » .

وظهر مما تقدم خطأُ كثيرمن المؤلفين المعاصرين الذين رَأَوْا أن يُفرِّقوا بين العرب والبربر فزعموا أن البربر أهلُ حَضَر وزراعة وأن العرب أهلُ بدوٍ ، وانتهَوْا إلى قولهم إن البربر أهلٌ للتمدن وإن العرب غيرُ أهل له وذلك عندما تـكلموا عن سكان بلاد الجزائر .

ولـكنَّ نتيجةَ مثلَ هذه تقوم على أساس باطل ، وذلك أن العربَ والبربر أهلُ حضرٍ وأهلُ

بَدْوٍ على سواء ، وأن هذين الطِّرازين يَصْدُرَان عن البيئة التى يكونون فيها بالحقيقة ، فترى العربىَّ حضريًّا دائماً فى البقاع الخصيبة من جزيرة العرب ومصر والجزائر ، وتراه بدويًّا ، وبدويًّا دائماً ، فى الصَّحارى الرملية من تلك الأقطار .



١١٧ ـ مئذنة مسجد سيدى عقبة الكبير فى القيروان (من صورة فوتوغرافية)

ومن يَسْكُن الصحراء الكبرى من عرب أو بربر أو من أية أمة أخرى لا يكون إلَّا بَدَويًّا ، ومن ذلك أنك تبصر الطوارقَ الذين هم بربرٌ خُلَّصٌ من النوميديين عريقين فى البداوة ، فيقوم معاشهم على الحرب والسلب والنهب خاصةً ، كأعراب جزيرة العرب ، وأنك تُبْصِرُ البربرَ من سكان

الجبال ، التى تتعذر معيشة أهل البدو فيها ، يبنون البيوت ويزاولون أمور الزراعة .

وذلك هو شأن البربر قبل فتح العرب لإفريقية وبعده ، ويتعذر حمل بدويهم ، الذين تأصلت فيهم البداوة بفعل القرون حتى صارت فيهم طبيعةً ثانية ، على الحضارة والاستقرار ومزاولة الزراعة كما يتعذر منعُ كلب الصيد من تعقُّب الطرائد ، وقد يَتِمُّ ذلك ، ولكن بعد قرون ، لا فى يوم واحد .

وإذا ما قيس البربر الحضريون بالعرب الحضريين لم يُرَ ما يُسَوِّغ الادعاء بأن البربر أكثرُ استعداداً للتمدن من العرب ، وعكسُ ذلك ما تثبته حوادث التاريخ ، فلقد بلغ العرب ، لا البربرُ ، درجةً رفيعة من الحضارة

وأرى العربَ والبربر غيرَ مستعدين فى الوقت الحاضر ، لهَضْم طُرُق حياة الأوربيين ومشاعرهم ونظرهم إلى الأمور ، وذلك أن الحضارة عند أكثر الأوربيين هى قضاؤهم لمعظم أوقاتهم ، وإن شئت فَقُلْ عشرَ ساعاتٍ أو اثنتى عشرةَ ساعة ، فى المعامل أو المكاتب أو الحقول لنَيْل عَيْشهم اليوميّ على أن يستأنفوا العمل فى الغد ، وأن عيشاً مثلَ هذا مما لا يرضاه العربىُّ والبربرىُّ اللذان ليس لديهما من الاحتياجات المصنوعة ما عند الأوربىّ ، واللذان يَأْبيَان أن يكون لهما مثلُ تلك الاحتياجات

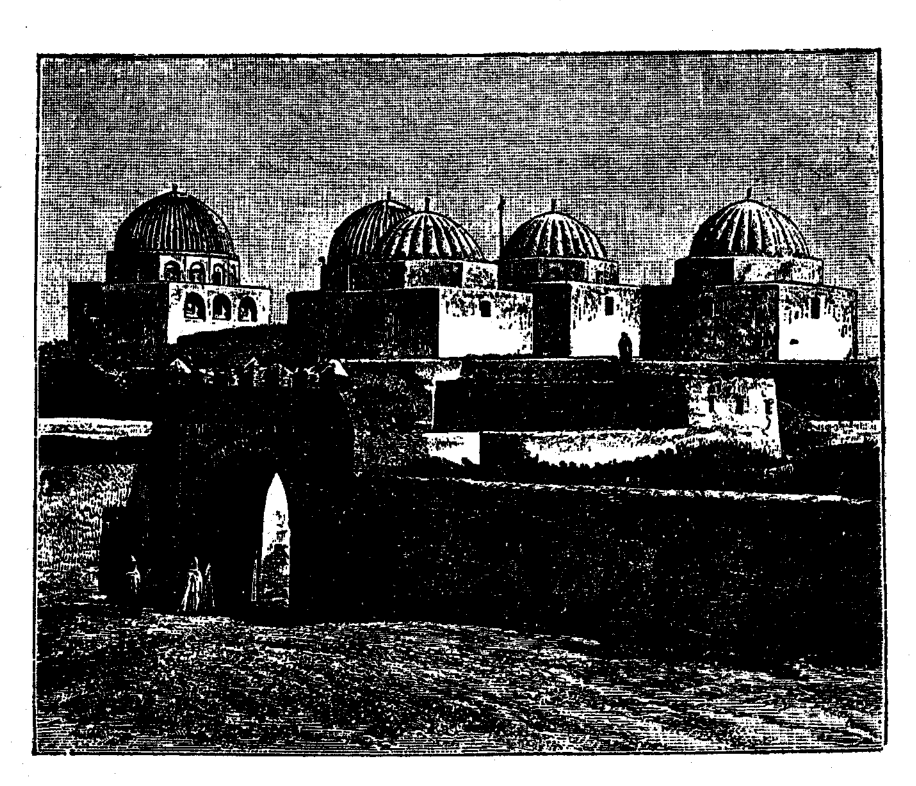
والأوربىُّ فى نظر العربىّ أو البربرىّ سيدٌ يعانيه ما ظلَّ مغلوباً على أمره ، فإذا سنحت الفرصة للتحرر منه لم يُحْجِم عن اهتبالها .

٣ — استقرار العرب بإفْرِيقِيَّة

لاَقى العرب فى فتح إفريقية من المصاعب ما لم يلاقوه فى فتح مصر ، ولم يستقرَّ أمرُهم بها إلّا ببطء شديد ، أى أن البربر لم يتوانَوْا عن مقاتلة العرب ، وإنهم استردوا استقلالهم غيرَ مرة .

وخَضَعَت إفريقية الشمالية للوندال ، الذين أتَوْا من إسبانية ، أكثر من مائة سنة (٤٢٩ م ـ ٥٤٥ م) بعد أن خضعت للرومان عِدَّة قرون ، ثم طردهم منها جيش جوستينيان الذى أرسله بقيادة بيليزير ، ثم استولى قوط إسبانية عليها ، وكان القوط مالكين لبعضها حين ظهور العرب على مسرح التاريخ .

ويُحِيطُ بتاريخ ولايات إفريقية شيء من الغموض أيام الفتح العربىّ ، ونَعْلَمُ مع ذلك ، أن إفريقية كانت على شىء من الطُّمَانينة والهدوء وقتما أراد القيصر هرقل أن يمنع تقدم العرب ، فكان هذا القيصر يفَكّرُ فى السفر بحراً إلى قرطاجة ليتخذها عاصمةً له بدلًا من القسطنطينية التى كانت تأكلها الفتن .



١١٨ ـ مسجد القيروان القديم (من صورة فوتوغرافيه)

ولم يكن سكون إفريقية غيرَ موقت ، والواقعُ أن إفريقية كانت ميداناً لمختلف المذاهب الدينية التى تقيمها وتقعدها فضلاً عن غزو الأجنبىّ .

نَعَمْ ، أصبحت إفريقية نصرانيةً كمصرَ ، ولكن انتحالها للنصرانية لم يَتِمَّ إلا بعد أن أُريقت سيولٌ من الدماء ، وذلك أن قسطنطين ، لما جلس على العرش ، رأى تلك المذاهبَ الدينية سببَ كلِّ اضطرابٍ وهيجان فلم يرَ غيرَ قهرها بالأسِنة والسيوف .

وأنشأ الرومانُ والبزنطيون مدناً مهمة فى إفريقية ، وزَيّنوها بمختلف المبانى التى لاتزال خرائبها

باقية ، وكان نفوذهم محليًا ، ولم يَعْدُ هذا النفوذُ حدودَ المدن ، فبدَوْا فاتحين لإفريقية أكثر من أن يكونوا مستعمرين لها .

وكانت مقاومة الروم للعرب فى شمال إفريقية ضعيفةً كما فى مصر ، ولولا البربرُ لتَمَّ للعرب فتحُها بسرعة ، ونشأ عن استبسال البربر فى مقاومة العرب أن اضْطُرَّ العرب إلى خَوْضِ خمسِ معاركَ هائلةٍ وقعت فى نحو نصف قرن ليكونوا سادةَ شمال إفريقية .

١١٩ ـ زخارف من القاشانى المطلى بالميناء فى مسجد القيروان (من صورة فوتوغرافية)

وكانت غَزْوَة العرب الأولى فى السنة الثالثة والعشرين من الهجرة (٦٤٤ م) ، وكانت ولايةُ بَرقة القريبةُ من مصرَ أولَ ما استولَوْا عليه ، ثم فتحوا ولاية طرابلس الغرب ، واستولَوْا على مُدُن كثيرة فى سنة ٦٤٦ م ، ثم جلَوْا عن البلاد بعد أن أَعْطَوْا فِدْيَةً ، ولم يظهروا ثانيةً إلّا بعد عشرين سنة حينما امتشقوا الُحسام وأَوْغَلوا فى البلاد حتى المحيط الأطلنطىّ .

وبَنَى العرب عاصمةَ إفريقيــة العربيةَ القـادمة ، القَيْرَوان ، فى سنة ٦٧٥ م ، واستولَوْا على قرطاجة فى سنة (٦٩١ م ـ ٦٩ هـ) ، وهزَموا الجيشَ الكبير الذى جمعته ملكةُ البربر الكاهنةُ لمقاتلتهم ، وصار لهم فى سنة ٧١١ م من القوة مافتحوا به بلاد إسپانية .

وكان يقوم بأمور الحكومة فى إفريقية ، حتى أوائلِ القرن التاسع من الميلاد ، أمراء بالنيابة عن الخلفاء ، فلما صار سلطان الخلفاء هنالك اسميًّا منذ عهد هارون الرشيد انفردَ الأمراء بالحكم واتخذوا القَيْرَوان عاصمةً لهم .

وتداول الحكمَ فى إفريقية من سنة ٨٠٠ م إلى سنة ٩٠٩ م أحد عشر أميراً من الأغالبة متخذين القَيْرَوان عاصمةً لهم ، وكان همُّ هؤلاء الأغالبةِ مصروفاً إلى مزج العرب بالبربر فتمتعت إفريقية

فى أيامهم بِطُمَأْنينة عظيمة ، ثم قَلَب البربر دولتَهم ونصبوا أميراً فاطميًّا من أصل بربرىّ خليفةً ، فَغدَت إفريقية مستقلةً عن العباسيين الذين لم تكن إفريقية تابعةً لهم إلا بالاسم منذ زمن طويل .

١٢٠ ــ خشب محفور فى مسجد القيروان (من صورة فوتوغرافية)

وقامت بأمور إفريقية دولٌ بربرية مستقلة حتى الفتح التركىّ الذى وقع فى القرن السادسَ عشرَ من الميلاد ، ولم يَلْبَثْ ذلك الاستقلال البربرىُّ أن صار شؤماً على إفريقية ، فقد انقسم البربرُ إلى زُمَرٍ لا تُحصَى تبعاً لغريزتهم التى كانت تمنعهم من تأليف أمة كبيرة ، وقامت فى إفريقية دُوَيْلاتٌ كثيرة مستقلة متقاتلة قياماً لم تَرَ إفريقية معه سوى بَصِيص من الحضارة .

ولا يمكننا أن نُقَدِّر طبيعة تأثير العرب فى إفريقية إلا إذا تذكرنا أن لفتوحهم دورين مختلفين كلَّ الاختلاف ، وأن لهذين الدورين نتائجَ إثنوغرافيةً مختلفةً كثيراً .

والدورُ الأول هو دور الفتوح الأولى التى تَمَّت فى القرن السابع من الميلاد ، ولم تخرج عن كونها احتلالاً عسكريًّا محدوداً جدًّا .

ولو اقتصر العرب فى إفريقية على ذلك الاحتلال لاستغرقتهم جموع البربر فى بضعة أجيال كما حدث لهم فى مصرَ ولكان أثرُهم فى التمدن لا فى الدم .

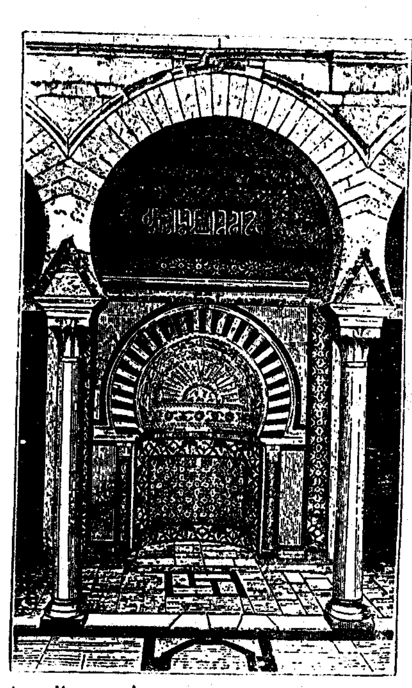
بَيْدَ أنه كان للغارة العظيمة الجديدة التى شَنَّها العربُ شأنٌ آخر ، فلما حشر العربُ جموعاً كثيرة فى إفريقية حَوَّلوا فريقاً كبيراً من البربر إلى عرب .

وتَدَفق العرب كالسيل على إفريقية فى أواسط القرن الحادى عشر ، أى فى وقت كان البربر قد استردوا فيه استقلالهم تقريباً ، واستقروا بشمالها ، ودحروا البربر إلى جبال التلِّ وإلى البقاع الَجنوبية.

وقام بذلك الغزو أعرابُ الحجاز الذين كانوا يَقْطُنُون بمصرَ العليا فى زمن الخلفـاء الفاطميين ، والذين بلغ ما قاموا به من أعمال السلب والنهب مبلغاً أصبحت الإقامةُ بها لانطاق معه ، فَعزَمَ الخليفة المستنصر على الخلاص منهم بحَضِّهم على بربر إفريقية وإغرائهم بهم .

وكان الأمرُ غارةَ أمة ، لا غارةَ عسكرية ، فقـد ظَعَن أولئك العرب رجالاً وأولاداً ونساءً وقِطَاعاً عن مصرَ ، وروى بعض علماء العرب أن عدد الظاعنين كان مليوناً ، ورَوى بعضٌ آخرُ أن عددهم كان نحو ٢٥٠٫٠٠٠ ، والذى أراه أن الغارة الأولى لم تَلْبَثْ أن رَدَفَتها غاراتٌ كثيرة أخرى.

وتَمَّت تلك الهجرةُ ببطء ، ولم يملأ العرب شمالَ إفريقية إلا بالتدريج، فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعـد أن مكثوا بها سنتين ، وزحفوا خُطْوَةً خطْوَةً ووَلَجوا فى الأودية جماعاتٍ على مَهْل ، واختلطوا بالسكان رويداً رويداً ، وزاد عددهم شيئاً فشيئاً ، وفَرَضُوا ، بفضل كثرتهم ،على البربر عاداتِهم ودينَهم ولغتهم بعد بضعة أجيال ، ولم يتركـوا لأمراءِ البربر سوى سلطة وهمية ، ولم يتَفَلَّت من نفوذهم غيرُ القبائل التى دُحِرَت إلى جبـال التلِّ وبعض البِقاع الَجنوبية .


١٢١ ـ محراب مسجد سيدى الحبيب فى القيروان
(من صورة فوتوغرافية)

ولم تُؤَدِّ تلك الغارات إلى نتائجَ مدنيـةٍ عُمْرانيَّة ، ففى إفريقيـة حافظ أعرابُ جزيرة العرب أولئك على جَلَفهم الذى هو نقيض كلِّ ثقافة جِدِّية ، وأخذت تلك الحضارة ، التى كادت تلمع ، تَذْوِى بسرعة .

ولم يُؤَدِّ ما كان يقع بين القبائل من الفِتَن والفساد ، وما كان يقع بين الدُّوَيْلات المستقلة المتناظرة من القتال ، إلى غير الانحطاط السريع ، فلما ظهر الترك فى القرن

السادسَ عشرَ أمام الجزائر لم يَصْعُب عليهم فتحُ شمال إفريقية بسرعة .

ومَرّاكُشُ وحدَها هي التي حافظت على استقلالها العربيِّ حتى الوقت الحاضر ، ولكن مَرّاكُش لم تصُن نفسها من الانحطاط الذى عَمَّ جميع ولاياتها شيئاً فشيئاً ،فقد أصاب الوَهْن مدينةَ فاس التي كانت منافسة لبغداد في القرن العاشر ، والتي رَوَى مؤرخو العرب أن عدد نفوسها كان خمسمئة ألف وأنها كانت تشتمل على ثمانمئة مسجدٍ ومكتبة عامة زاخرة بالمخطوطات اليونانية واللاتينية ، وأضحى سكان مَرّاكُش الذين قُدِّر عددهم الآن بستة ملايين شخص ، أو سبعة ملايين شخص ، من مولدى العرب والبربر والزنوج .

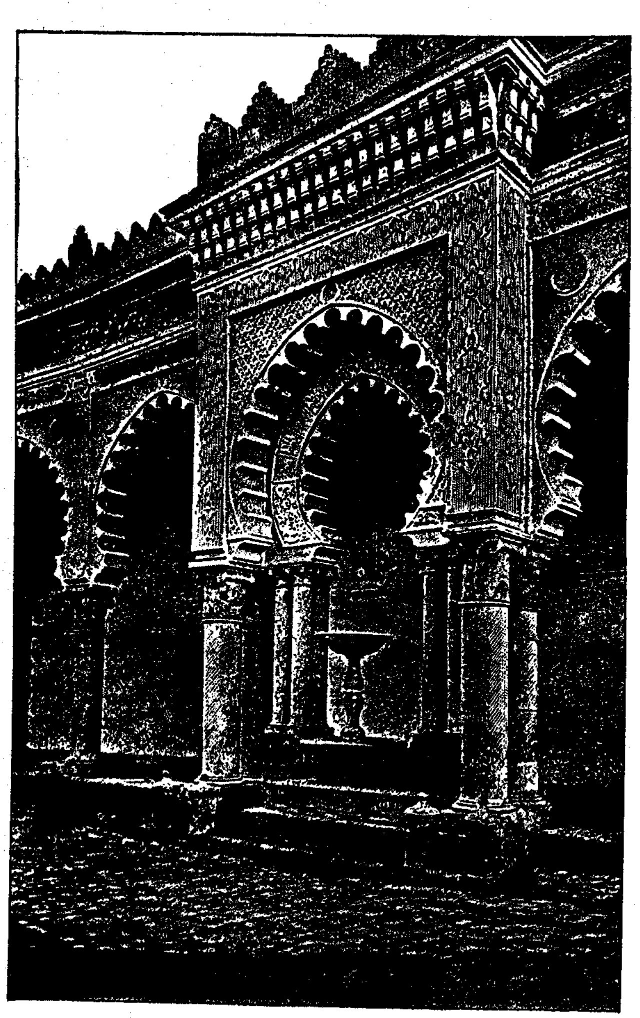
٣ — مباني العرب في شمال إفْرِيقِيّة

لم تُصِب حضارةُ العرب في إفريقية ما أصابته من الازدهار في مصر والأندلس ، وكان للعرب في إفريقية ، مع ذلك ، مدنٌ مهمة وبعضُ مبانٍ ذات قيمة ، ولا سيا في زمن الأغالبة ، وأنشأ العرب



١٢٢ — داخل مسجد سيدى أبى مدين في تلمسان (من صورة فوتوغرافية)

فى إفريقية مدناً كالقَيْرَوان وتونس وفاس ، وجَدَّدوا مدناً قديمة كتِلْمسان و بجاية والجزائر إلخ . ، ولم تكن نضارة تلك المدن غيرَ موقتة ، ولم يكن تنافس البربر وقلة استعدادهم للتمدن وغارات أعراب العرب وفُقْدان المراكز المهمة كبغدادَ فى المشرق والقاهرةِ فى مصرَ مساعداً على تقدم الحضارة فى إفريقية ، ولا ينتظرنَّ القارئُ ، إذَنْ ، بياناً عن مبانٍ عربية مبتكرة ثمينة فى إفريقية الشمالية كالتى فى الأندلس ومصر ، وسيَرَى القارئ فى الفصل الذى خصصناه للبحث فى تاريخ فنِّ العِمارة العربىِّ أن عرب إفريقية لم يُوَفَّقوا فى فنهم للتَّحَرُّر من النفوذ البزنطىّ .



١٢٣ ـ مقدم الجامع الكبير فى الجزائر

والآن نكتفى بذكر أهمِّ مبانى العرب الأثرية مختارين من مبانيهم الدينية ما سَمح الدهر ببقائه فى شمال إفريقية كما صنعناه سابقاً .

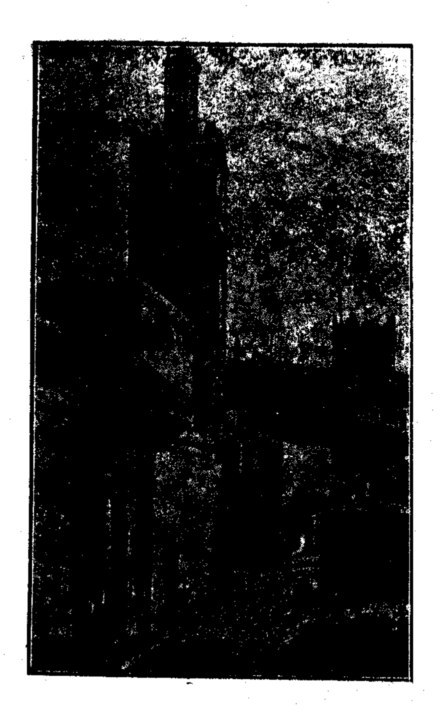
جامع القَيْرَوان . ـ أنشأ فاتح إفريقية الشهيرُ عقبة بن نافع مدينةَ القَيْرَوان ، وبَنَى فيها ، فى سنة (٥٥هـ ـ ٦٧٥ م) جامعها الكبير المربَّع الذى جُـدِّد بناؤه عِدَّةَ مرات فيما بعد ، ولا سيما فى سنة (٢٠٥ هـ ـ ٨٢٠ م) والذى تعلوه قِبابٌ مُنْخَفِضَة ويُحيط به سُورٌ وتُشْرِف عليه مِئذنةٌ كبيرة مُرَبَّعة عريضة القاعدة ذات ثلاث طبقات متفاوتة الاتساع ، وذاع طِرَازُ هذه المِئْذَنَة المربعة فى إفريقية الشمالية ، وكان شائعاً فى الأندلس على الأرجح .

والجامع القَيْرَوان الكبير وآثارها الدينية الأخرى قيمةٌ أثرية كبيرة مع ما نالته من التجديد

والترميم غيرَ مرة كما نذكر ذلك فى فصل آخر ، ولم تُنْشَر صُوَر هذه المبانى ، التى لم يَزُرْها الأوربيون إلا فى الزمن الأخير ، فى أىِّ كتاب حتى الآن .

ودُفِن عقبة بن نافع ، الذى أنشأ القَيْرَوان ، بالْقُرْب من بِسكرة ، ويُعَدُّ مسجد « سيدى عقبة » الذى يَضُمُّ قبرَه ، أقدمَ المبانى الإسلامية فى إفريقية ، ولهذا المسجد مِئذَنَةٌ مُرَبَّعة .

مسجد سيدى أبى مدين فى تِلْمسَانَ . ـ كانت تِلْمسَانُ عاصمةَ المغرب الأوسط فيما مضى ، وبُنِيَ مسجدُها فى سنة (٧٣٩ هـ ـ ١٣٨٨ م) وتمَّ إنشاء المدرسة التابعة لهذا المسجد فى سنة ٧٤٧ هـ ، وتُعَدُّ هذه المدرسة من أهمِّ المبانى التى من نوعها فى إفريقية حتى الآن ، وكانت تُدَرَّس العلوم والتاريخ فيها أيام ارتقاء العرب ، ويمكن القارئَ أن يَتَمَثَّل فنَّ عِمارتها من الصورة التى نشرناها فى هذا الكتاب .



١٢٤ ـ مئذنة المسجد الكبير فى طنجة
(من صورة فوتوغرافية)

مساجد الجزائر . ـ تكاد مساجد الجزائر تكون عصرية ، ولِذَا فليس فيها ما يستحقّ البحث ، وأهمُّ ما فيها مسجدُها الجامع الكبير الذى أقيم فى القرن العاشر من الميلاد والذى أصابته يَدُ التغيير فى مختلف الأزمنة ، فبُنِيَت مِئذنته المُرَبعة فى القرن الرابعَ عشرَ من الميلاد .

وليس فى داخل هذا المسجد الجامع الكبير الذى كُلِّس فى الوقت الحاضر شىءٌ من الزينة ، وتقوم أقواسه التى يَسْتَنِد إليها سَقْفُه على أعمدة مُرَبَّعة ، وأُنْشِئَت هذه الأقواسُ المُفَرَّضُ كثيرٌ منها على شكل نعل الفرس ورسم البيكارين .

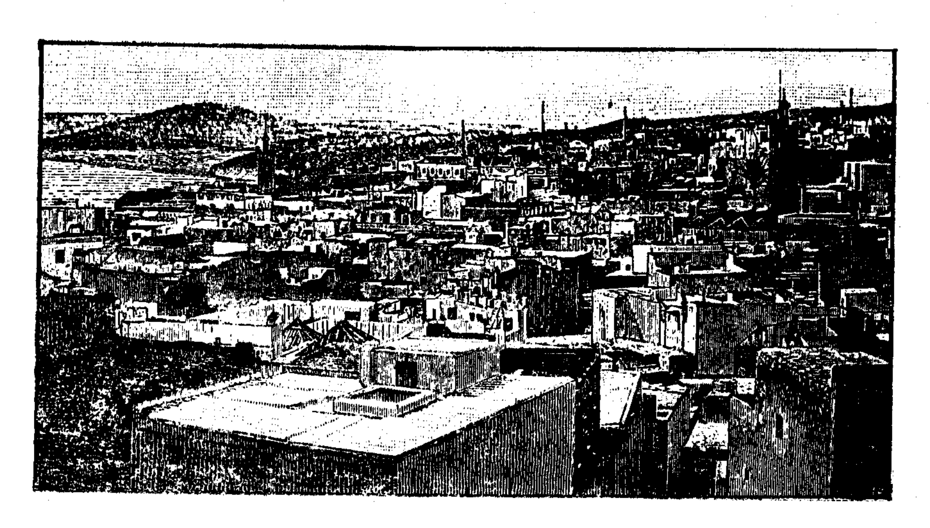
ويحيط بأحد وجوه هذا المسجد الجامع الكبير رُوَاقٌ جميلٌ مؤلفٌ من أقواس مُحَزَّزَة ، وصُنِعَت هذه الأقواسُ على شكل نعل الفرس ورسم البيكارين كالأقواس السابقة ، وتقوم هذه الأقواس على

أعمدة من الرُّخام ؛ ويذكرنا ذلك الرُّواق ، الذى أقيم بعد بناء ذلك المسجد الجامع بزمن طويل ، بأعمدة رُوَاقات القصر الداخلية فى أَشْبِيلِيَّة .

وإذا ما استثنيتَ ذلك المسجد الجامع لم ترَ فى الجزائر من المبانى مايَجْدُر ذكره سوى المزار الذى يَضُمُّ رُفاتَ عبدِ الرحمن والمُسَمَّى باسمه ، والذى بُنِى فى القرن الخامسَ عشرَ من غير أن يكون على شىء من الإبداع مع هَيَفه .

مساجد مَرَّاكُش . — يَرَى الإنسان فى مَرَّاكُش مساجدَ جميلةً كثيرةً ، ولاسيا مسجدُ مولاى إدريس ومسجدُ القَرويين فى فاس ، ولهذا المسجد شهرةٌ عظيمة فى تلك الديار ، وهو يشتمل على ٢٧٠ عمودا و ١٦ صَحْناً ، ويشتمل كلٌّ واحد من هذه الصُّحُون على عشرين قوساً ، ولا يستطيع الأوربىُّ أن يدخله من غير أن يُعَرِّض نفسه للقتل .

وأقيم أكثر مساجد مَرَّاكُش على طِراز مساجد إفريقية الشمالية ، وهى مثلها ذاتُ مآذنَ مربعةٍ يَنْدُر نظيرُها فى مصر ، وعلى هذا الطِّراز رُفِعَت فى طنجة مِئذنة الجامع الكبير التى ننشر صورةً لها فى هذا الكتاب فيمكن القارئَ أن يتمثل بها ما أقيم على طِرازها .



١٢٥ ـ منظر مدينة طنجة العام (من صورة فوتوغرافية)

ولا يُرَى فى مَرَّاكُش من المبانى العربية المهمة سوى عدد قليل من المساجد ، وإنما يُرَى فيها من العادات والأزياء والمظاهر الشرقية مايَنْدُر مِثْلُه فى بلد آخر ، ويجب على من يَرْغَب فى اجتلاء

حياة العرب فى عصر الخلفاء أن يزورها ، ففيها يرَى السائحُ مالا يراه فى بلاد الجزائر وسورية المائلة إلى التفرنج خلا دمشق .

وإننى أنصح لرجال الفنّ أن يطوفوا فى بلاد مَرَّاكُش التى لا تَصْعُب السياحة فيها ، والسائحُ المُحِبّ للفنّ الذى يُقِلُّه القِطار فيقطع فرنسة وإسپانية فى بضعة أيام ثم تَسْتَقِلُّه الباخرة من مالَقَة يَصِل إلى مدينة جبل طارق الإنكليزية الغبراءِ الكالحة ، ولا يأسف لبُعْد إنكلترة من هنالك لِمَا يراه بعد رِحلةٍ بحرية تدوم بضعَ ساعاتٍ من الفرق فى مدينة طنجة المَرَّاكُشية حيث يَقْضِى العجب .

حقًّا إن مدينة جبل طارق عُنْوَانُ الحياة المدنية العصرية وأن مدينة طنجة ذاتَ المساكن البيض والأهلين البُلْق[١] والحكام الحزَمة عُنْوَانُ الحياة العربية منذ ألف سنة ، وتُثِيرُ مناظرُ مساجد مدينة طنجة العجيبة ومآذنها وأبراجها المُشْرِفَة وأسواقِ نخَاستها ونسائها المُتَحَجِّبات وعربها المُدَّثِرين بأبهى الملابس فى السائح بعضَ ما جاء فى رواية ألف ليلة وليلة كما لو وَقَعَ هذا بقدرة ساحر ، وتتجلى للسائح حقيقةُ تلك الرواية كلما سار فى مدينة طنجة القديمة التى تقول الأساطير إن هِرْكُولَ بانيها ، فكانت شهيرةً فى عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد ، أى فى عهد هذا المعاصر الشهير للقيصر شارلمان الكبير .

---

(١) الأبلق : من كان فى لونه بياض وسواد .

الفصل السادس

العرب في إسبانية

---

١ — إسبانية قبل العرب

فكر العرب فى فتح إسپانية بعد أن طردوا الروم من شمال إفريقية وردُّوا جِماح البربر ، وتمَّ لهم، بصعوبةٍ ، فتحُ الأقطار الإفريقيــة التى كانت مسرحاً لحروب رومة وقرطاجة ولمغازى ماسينيسه وجوغورته وغيرهما من القادة المشهورين .

ولم يكن حبُّ التوسع وحدَه هو الذى حَفَز العرب ، الذين ترامت أطراف دولتهم ، إلى فتح إسپانية ، وإنما دفعهم إلى ذلك رغبتُهم فى إلهاء البربر الذين كانوا أشدَّ من حاربهم العربُ من الأعداء ، والذين ظلوا مرهوبين لشجاعتهم وميلهم إلى الاستقلال وحبِّهم للقتال على الرغم من قهر العرب لهم ، فكان من السياسة الرشيدة إرواء غرائزهم الحربية فى الغارة على البلدان الأجنبية .

ورَوَى ابن خلدون أن الجيش الأول الذى عَبَرَ مَضِيقَ جبل طارق ودَخَل بلاد إسپانية كان مؤلفاً من اثنى عشر ألف مقاتل ، وأن هذا الجيش كان من البربر تقريباً .

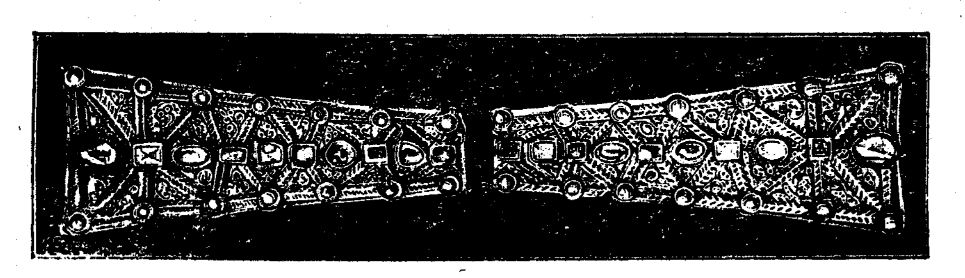
ونرى قبل أن نَقُصَّ خبرَ ذلك الفتح الإسلامىّ ، أن نُوجِز تاريخ إسپانية قبله ، ففى ماضى الأمم سرُّ حوادثها الحاضرة ، وبماضى إسپانية يُفَسر سببُ السرعة فى فتح أتباع الرسول لها .

كان للفنيقيين والأغارقة والقرطاجيين مستعمراتٌ فى إسپانية التى يسكنها السِّلْت الغولِيُّون ومن لم يُعْلَمَ أصلُهم جيداً من الإيبريين والليغوريين ، وأنشأ القرطاجيون مدينةَ قَرْطَاجَنَّة فى إسبانية بعد أن فتحوها لتكون تابعة لقرطاجة ، ثم فتح الرومان بلاد إسبانية على أثر الحروب اليونية، وذلك قبل الميلاد بقرنين .

وملَكَ الرومانُ بلادَ إسبانية حتى القرن الخامس من الميلاد ، وازدهرت مدنٌ فيها أيام حكمهم ،

ووهبت لرومة رجالاً مشهورين مثل سينيك ولوكن ومَرْسيال ، ووهبت لها قياصرةً مثلَ تراجان وأدريان ومَرْك أُورِيل وثِيُودُوز ، إلخ .

وكان لإسپانية نصيبٌ من إدبار رومة بعد أن كان لها حظٌ من إقبالها، فقد انْقَضَّ الوندال والألين والسويف الذين هم من برابرة الشمال على إسپانية بعد أن خَرَّبوا بلاد الغول ، ولم يلبث القوط ، الذين هم من البرابرة أيضاً ، أن قهروهم ، واستولَوْا على إسبانية فى القرن السادس من الميلاد ، وظلوا سادةً لها تماماً إلى أن جاء العرب .



١٢٦ ــ ذراعا صليب ذهبى قوطى طليطلى مرصع بالحجارة الثمينة (القرن السابع) (من صورة فوتوغرافية)

ولَسُرْعان ما اختلط القوطُ البرابرةُ باللاتين فى إسپانية ، فاتخذوا اللاتينيةَ لغةً لهم ، وانتحلوا النصرانية التى كانت دين الدولة الرسمىَّ بدلًا من عبادة الأصنام ، وخضعوا ، بذلك ، لسلطان الحضارة اللاتينية ، وحاولوا ، كغيرهم من قاهرى الدولة الرومانية ، أن يَهْضِموها على قَدْرِ عقولهم .

وبَقِيَتْ شريعةُ القوط دستورَ إسپانية النصرانية إلى منتصف القرنِ الثالثَ عشرَ ، ودلت الحوادثُ على أنهم امتزجوا بالعنصر اللاتينىِّ الذى كان مالكاً لقسم من البلاد ، وتَمَّ اختلاطهم بنصارى الشمال بعد أن دحرهم المسلمون إلى جبال أشتورش ، وظلَّ لقب « ابن القوطىِّ » من ألقاب الشرف حتى بعد أن استردوا إسپانية بزمن طويل ، وعندى أن من مظاهر الدم القوطىِّ ما نَجِد الآن فى إسپانية من أصحاب الشعور الشُّقْر الكثيرين .

وكان اختلاط القوط باللاتين ، قبل الفتح العربىِّ ، مقتصراً على عِلْيَة القوم ، وكان سكان البلاد الأصليون من الأَرِقَّاء الذين ليس لديهم شىء يدافعون عنه ، والذين كانوا مستعدين لقبول أىِّ سلطان عليهم ، فلم يكن الجيشُ المؤلف من أمثال هؤلاء مما يعتمد عليه .

ومن سوء حظ المملكة القوطية أن كان النظام المَلَكِيُّ القوطيّ قائماً على الانتخاب وأن كان المرشحون للعرش كثيرين ، فيقتتل أنصار هؤلاء المرشحين على الدوام ، ويُمَزِّقون باقتتالهم المملكةَ القوطية ، ولِذَا لم يكن الأشراف ممن يُرْكَن إليهم .

نزاعٌ اجتماعيٌّ ، وفتنٌ داخليةٌ ، وفُقْدَانٌ الروح العسكرية ، وفتورٌ عن الدفاع بين الأهلين المستعبدين ، هذه هى الحال التى كانت عليها مملكة القوط حين ظهور العرب ، وكان من المنافسات التى تُمَزِّق الدولة القوطية أن سَهَّل الأمير يُلْيَان ورئيسُ أساقفة أشْبِيلِيَّة ، وهما من عِلْيَة الإسپان ، فتحَ إسپانية على العرب .

٢ — استقرار العرب بإسبانية

دخل جيشٌ إسلاميٌ مؤلف من اثنى عشر ألف جندىٍ بلادَ إسپانية فى سنة ٧١١ م ، أى فى زمن الخليفة العاشر الذى كانت دمشقُ عاصمتَه .

ومن يقطع القِسمَ الجنوبىَّ الخصِب من بلاد إسپانية يَعْلَمْ مقدارَ التأثير الذى أثَّر به فى نفوس العرب حينما استولَوْا عليه ، فقد بهرتهم تُرْبَتَه وهواؤه ومُدُنه ومبانيه .

ووُصِفَت إسپانية فى كتابٍ أرسله قائدُ الجيش العربىِّ إلى الخليفة الأُمَوِىِّ بأنها : « شامية فى طيبها وهوائها ، يَمَنِيَّةٌ فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عِطْرها وذكائها ، أهْوَازِيَّةٌ فى عِظَم جباياتها، صينيةٌ فى معادن جواهرها ، عَدَنِيَّةٌ فى منافع سواحلها » .

واستولى المسلمون على ساحل إسپانية مبتدئين بجبل طارق الذى اقْتُبِس اسْمُه من اسم طارق بن زياد البربرىِّ الذى هو من رجال القائد العربىِّ موسى بن نُصَيْر .

وكان العرب قد قَضَوْا خمسين سنة فى فتح إفريقية البربرية ، ولم يَقْضُوا سوى بضعة أشهر فى فتح جميع إسپانية النصرانية،وتقَرَّر مصيرُ مملكة القوط فى المعركة الأولى المهمة التى خاض المسلمون غِمارها، والتى كان رئيس أساقفة أشْبِيلِيَّة حليفاً لهم فيها ، والتى خَسِر القوطُ فيها مُلْكَهم وخَسِروا إسپانية.

وعَجِبَ موسى بن نُصَير من ذلك النصر السريع الذى لم يتوقعه ، ولا غَرْوَ ، فقد كان يتصور ما لاقاه من الشدائد فى فتح إفريقية ، وكان يعتقد أنه سَيَلْقَى فى أوربة من الشجاعة وحبِّ الاستقلال ما لقِيَه فى البربر ، فلما تَبيَّن له خطوُه أراد أن يشارك طارقَ بن زياد فى مجد الفتح ، فعَبَرَ البحر بجيش مؤلف من اثنى عشر ألف جندىّ عربىّ وثمانية آلاف جندىّ بربرىّ ليواصل فتحَ إسپانية .

أَتَمَّ العرب فتح إسپانية بسرعة مدهشة ، وذلك أن المدن الكبيرة سارعت إلى فتح أبوابها للغُزاة ، فدخل الغُزاةُ قرطبةَ ومالَقة وغَرْناطة وطُلَيْطِلة صلحاً تقريباً ، ووَجد العرب فى طُلَيْطِلة التى كانت عاصمة النصارى تيجانَ خمسة وعشرين ملكاً قوطيًّا ، وأَسَروا أرملةَ الملك القوطىِّ ، رودريك ، التى تزوجها ابن القائد موسى بن نُصَيْر فيما بعد .



١٢٧ ــ داخل جامع قرطبة

وأحسن العربُ سياسةَ سكان إسپانية كما أحسنوا سياسة أهل سورية ومصر ، فقد تركوا لهم أموالَهم وكنائسهم وقوانينَهم وحقَّ المقاضاة إلى قضاة منهم ، ولم يَفرِضوا سوى جِزْيَة سنوية تبلغ ديناراً (١٥ فرنكاً) عن كلِّ شريف ونصفَ دينار عن كل مملوك ، فرَضِىَ سكان إسپانية بذلك طائعين ،

وخضعوا للعرب من غير مقاومة ، ولم يَبْق على العرب إلا أن يقاتلوا الطبقة الأريستوقراطية المالكة للأرضين .

ولم يَدُم القتالُ طويلاً ، وذلك أن العرب كسروا كلَّ مقاومة ، ودانت لهم جميعُ إسپانية فى سنتين ، ولكن لا إلى الأبد ، فقد استردَّ النصارى ما خَسِروه بعد جهادِ ثمانية قرون .

ويُرْوَى ، مع التوكيد ، أن موسى بن نُصَيْر فكَّر ، بعد فتح إسپانية ، فى العودة إلى سورية من بلاد الغول وألمانية وفى الاستيلاء على القسطنطينية وفى إخضاع العالم القديم لأحكام القرآن ، وأنه لم يَعُقْه عن ذلك العمل العظيم سوى أمر الخليفة إياه بأن يعود إلى دمشق، فلو وفِّق موسى بن نُصَيْر لذلك لجعل أوربة مسلمةً ، ولَحَقَّق للأمم المتمدنة وَحْدَتَها الدينية ، ولأنقذَ أوربة ، على ما يحتمل ، من دَوْر القرون الوسطى الذى لم تَعْرِفه إسپانية بفضل العرب .

ولنتكلم ، أولاً ، عن امتزاج أهل البلاد بسادتهم الجُدُد قبل أن نَقُصَّ عليكَ ماذا تمَّ للعرب فى إسپانية :

كان أوائلُ الغُزاة لإسپانية من العرب والبربر ، وكان يوجد بضعُ قبائلَ سوريةٍ فى الجيوش التى استولت عليها بعدئذٍ ، ولم يكن عدد ما اشتملت عليه هذه القبائل كثيراً ، ولم يظهر أمرُها إلا فى دور الفتح الأول ، فماذا كان شأن العرب والبربر وأهل إسپانية بعد ما دانت إسپانية للعرب ؟

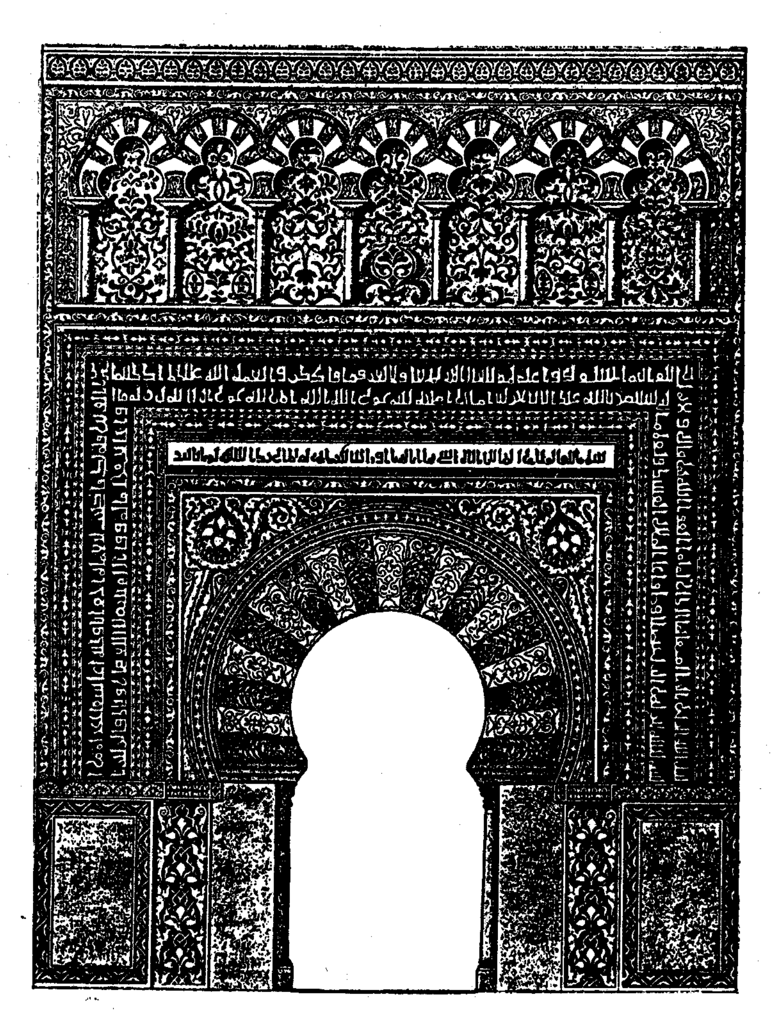
يرى المحقق البصير فى تاريخ المسلمين بإسپانية أن الإمامةَ الثقافية ورسالة التمدن كان يقوم بهما العرب ، وأن البربر اختلطوا بطبقات الأهلين الوسطى والدنيا ، وأن العرب حافظوا على شرَفهم الثقافىّ حتى بعد أن قَبَض البربر على زمام الحكم .

وليس لدينا من الوثائق ما نتمكن به من تقدير نِسْبَة العرب والبربر فى مئات السنين الثمانى التى دام فيها سلطانُ الإسلام بإسپانية ، ولكنَّ سَيْر الأمور يدلُّ على أن العنصر البربرىَّ أخذ يزيد بعد انفصال إسپانية عن خلافة المشرق ، ولا سيما بعد توالى غارات بربر مَرَّاكُش التى كانوا يَشُنُّونها عليها .

والحقُّ أن العرب ، بعد ذلك الانفصال ، كانوا يعتمدون فى بقائهم فى إسپانية على تناسلهم ، وأن

البربر كانوا يزيدون فيها بمن يَعْبُر جبلَ طارق من إخوانهم المَراكُشيين طلباً للثراء .

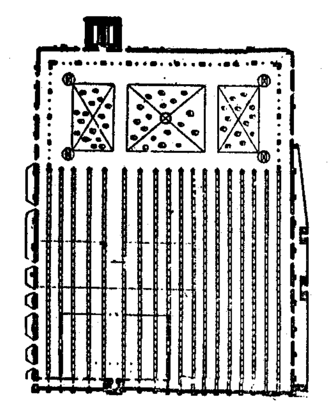
ويظهر أن التوالد لم يقتصر على العرب والبربر وحدَهم ، بل توالد العرب والبربر وسكان إسپانية الأصليون أيضاً ، فكان العرب يتزوجون النصرانيات على الخصوص ، فيُمِدُّون بذلك دوائرَ حريمهم ويُدِيمون بذلك نَسْلَهم .



١٢٨ ــ محراب جامع قرطبة (من تصوير مورفى)

ورَوَى مؤرخو العرب أن العرب تزَوَّجوا فى بدء الفتح ثلاثين ألف نصرانية ، ولا يزال يُرَى فى قصر أَشْبيلِيَّة رَدْهَةٌ تُدْعَى رَدْهَةَ الصبايا اللائى كان النصارى يُلْزَمون بتقديم مئةٍ منهنّ إلى أحد ملوك العرب فى كلِّ سنة كجِزْية ، فنحن إذا ما رأينا أن هؤلاء النصرانياتِ كُنّ من مختلف الأجناس

وأنه كان يجرى فى عروقهن الدَّم الإيبرىُّ واللاتينىُّ واليونانىّ والقوطىّ وغيرُ ذلك ، عَلِمْنَا أنه نشأ عن توالد النصارى والبربر والعرب ، الذى دام فى بيئةٍ واحدة قروناً كثيرة ، عِرْقٌ جديد مختلفٌ عن العروق التى فتحت إسپانية اختلافاً بَيِّناً ، وأن العناصر الكثيرة التى أدى تمازجها إلى ظهور ذلك العِرْق كانت فى أحوال تُؤَدِّى إلى تكوينه تكويناً مطابقاً لِما ذكرناه فى فصل سابق عن فعل البِيئة والتوالد .


١٢٩ ـ رسم جامع قرطبة
(كما جاء فى كتب العرب القديمة)

ولا أبحث هنا فى تاريخ ملوك العرب أو البربر الذين ملكوا إسپانية ثمانمائة سنة ، وإنما أُوجِز أهمَّ الحوادث السياسية التى وقعت فى تلك المـــدة الطويلة إيجازاً يكفى لفهم هذا الفصل :

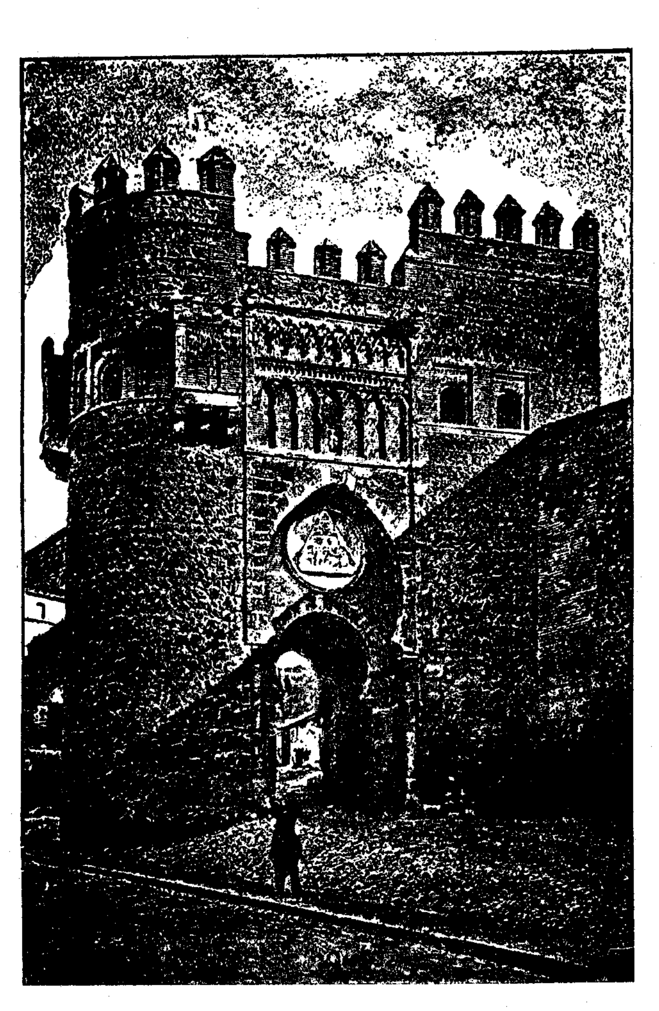
كانت إسپانية ، التى تَمَّ فتحها فى سنة ٧١١ م ، تابعةً لخلفاء دمشق حتى سنة ٧٥٦ م وكان ينوب عن هؤلاء الخلفاء أمراء فى شؤون حكمها ، فلما كانت سنة ٧٥٦ م انفصلت إسپانية عن خلافة المشرق ، وقامت فيها دولةٌ مستقلة عُرِفَت فى التاريخ بخلافة قرطبة التى أصبحت عاصمةً لها .

وأخذ نجمُ العرب السياسىُّ فى إسپانية يَأْفُل بعد أن مضى على سلطانهم ثلاثةُ قرون بلغت الحضارةُ العربية فيها ذُرْوتَها ، وشرع النصارى الذين دحرهم العرب إلى الشمال يستفيدون مما كان يقع بين المسلمين من الفساد والفِتَن وصاروا يُغِيرون عليهم .

واستغاث عرب إسپانية ببربر مَرَّاكُش فى سنة ١٠٨٥ م ، ليَحُولوا دون توالى انتصارات ملك قشتالة وليون : الأذفونش السادس ، ولم يلبث هؤلاء البربر الذين جاءوا إلى إسپانية حلفاء للعرب أن ظهروا لهم بمظهر السيد ، وأسفر تنازع العرب والبربر عن انقسام دولة العرب إلى عشرين دُوَيْلَة وعن قبض المرابطين والمُوَحِّدين وغيرِهم من البربر على زمام الأمور وعن تَكَمُّش العرب إزاء البربر وعن تَدَرُّج الحضارة العربية إلى الانزواء .

واهتبل النصارى تلك الفُرَصَ ، فَوَسَّعُوا دائرتهم على حساب المسلمين ، وأقاموا دُوَيْلَاتٍ

كثيرةً كبلَنْسِيَة وقشْتَالة ومُرْسِيَة وغيرِها مما انتهى إلى أربع دول ، وهى : البرتغال وَنَـبَرَّة وأرْغُونة وقَشْتَالة .



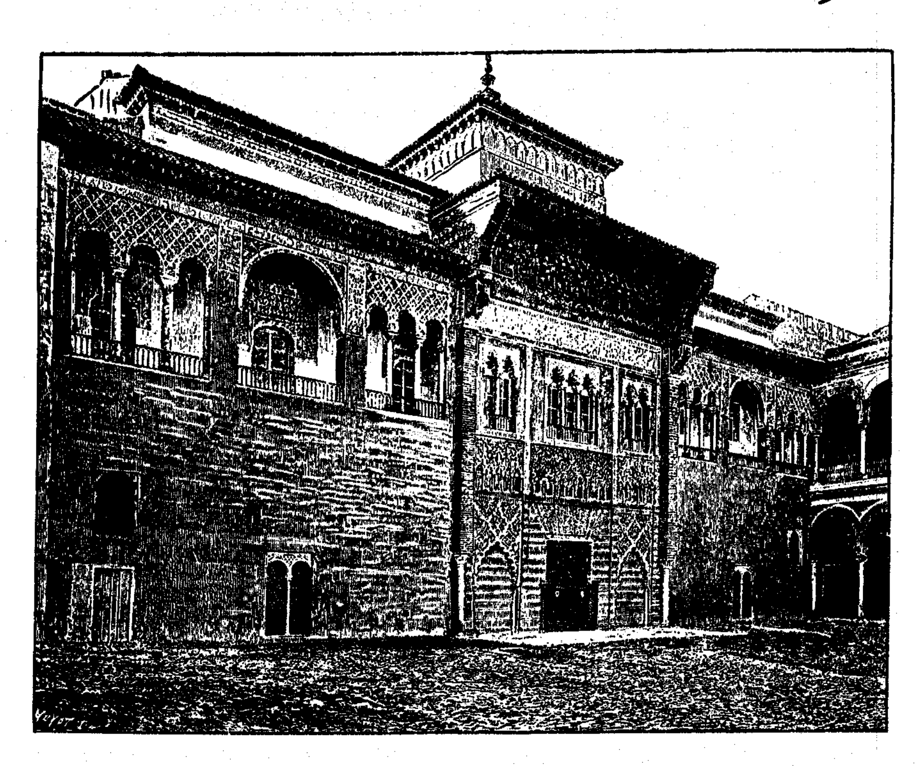
١٣٠ ـ باب الشمس فى طليطلة (من صورة فوتوغرافية)

ولم يبق للعرب فى أواخرِ القرنِ الثالثَ عشرَ سوى مملكة غَرناطة ، ولما تزَوَّج ملك أرغونة فرديناند الكاثوليكىُّ ملكةَ قشتالة إيزابِلاَّ ، وتمَّت بذلك وَحْدَة تينك الدولتين ، حاصر فى سنة ١٤٩٢ غرْناطة ، التى كانت آخرَ مَعْقِل للإسلام فى إسپانية ، وفتحها ، ثم ضَمَّ إليه مملكة نَبرَّة ، فأصبحت جميع إسپانية ، خلا البرتغال ، تابعةً لعرش واحد .

ودامت دولة العرب فى إسپانية نحوَ ثمانية قرون ، أى ما يقْرُبُ من مدة سلطان الروم ، وأدى انقسامها إلى زوالها أكثرَ مما أدَّتْ إليه الغارات الأجنبية ، فالعرب ، وإن كانت عبقريتهم الثّقافيــة من الطراز الأول ، لم يَبْدُ نبوغهم السياسىُّ غيرَ ضعيف .

وعاهد فردينانُد العربَ على منحهم حريةَ الدين واللغة ، ولكن سنة ١٤٩٩ م لم تَكَدْ تَحِلُّ حتى حلَّ بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذى دام قروناً ، والذى لم ينته إلّا بطرد العرب من إسپانية ، وكان تعميدُ العرب كَرْهاً فاتحةَ ذلك الدور ، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثيرٍ من المُعَمَّدين

على أنهم من النصارى ، ولم تَتِمَّ عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعةً واحدة ، ونصح كردينالُ طليطلة التقيُّ ، الذى كان رئيساً لمحاكم التفتيش ، بقطع رءوس جميع من لم يَتَنَصَّر من العرب رجالًا ونساءً وشيوخاً وولداناً ، ولم يرَ الراهب الدومينيكيُّ ، بليدا ، الكفايةَ فى ذلك فأشار بضرب رِقاب من تَنَصَّر من العرب ومن بَقِيَ على دينه منهم ، وحجتُه فى ذلك أن من المستحيل معرفةَ صدق إيمان من تَنَصَّر من العرب ، فمن المستحبِّ ، إذَنْ ، قتلُ جميع العرب بحدِّ السيف لكى يَحْكُمَ الربُّ بينهم فى الحياة الأخرى ويُدْخِلَ النارَ من لم يكن صادقَ النصرانية منهم ، ولم ترَ الحكومة الإسپانية أن تعمل بما أشار به هذا الدومينيكيُّ الذى أيَّده الإكليروسُ فى رأيه لِماَ قد يُبْدِيه الضحايا من مقاومة ، وإنما أمرت ، فى سنة ١٦١٠م ، بإجلاء العرب عن إسپانية ، فقُتِل أكثرُ مهاجرى العرب فى الطريق ، وأبدى ذلك الراهب البارع ، بليدا ، ارتياحَه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين فى أثناء هجرتهم ، وهو الذى قَتَل مئةَ ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت مُتَّجِهةً إلى إفريقية .



١٣١ ــ مقدم القصر فى أشبيلية (من صورة فوتوغرافية)

وخَسِرَت إسپانية بذلك مليونَ مسلمٍ من رعاياها فى بضعة أشهر ، ويُقَدِّر كثيرٌ من العلماء ، ومنهم سيديّو ، عددَ المسلمين الذين خَسِرَتهم إسپانية ، منذ أن فتح فرديناندُ غرْناطةَ حتى إجلائهم الأخير ، بثلاثة ملايين ، ولا تُعَدُّ ملحمةُ سان بارتلمى إزاء تلك المذابح سوى حادثٍ تافه لا يُؤْبَه له ، ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجِد بين وحوش الفاتحين من يُؤاخذ على اقترافه مظالمَ قتلٍ كتلك التى اقْتُرِفت ضِدَّ المسلمين .

ومما يُرْثَى له أن حُرِمَت إسپانية عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامةُ السكان الثَّقافيةُ والصِّناعية .

ثم رأت محاكم التفتيش أن تُبيد كلَّ نصرانىّ ترى فيه شيئاً من النباهة والفضل ، فكان من نتائج هذه المظالم المزدوجة أن هَبَطت إسپانية إلى أسفل دَرَكات الانحطاط بعد أن بلغت قِمَّةَ المجد ، وأن انهار معاً كلُّ ما كان فيها من الزراعة والصِّناعة والتجارة والعلوم والآداب والسكان .

وهاهى ذى عِدَّة قرون مَضَتْ على ذلك الدور من غير أن تستطيع إسپانية أن تنهض من هبوطها مع مابُذِل من الجهود ، وقد صار عدد سكان طُلَيْطِلَة فى الوقت الحاضر ١٧٠٠٠ بعد أن كان ٢٠٠٠٠٠ أيام الحكم العربىّ ، وقد أصبح عدد سكان قرطبة فى الوقت الحاضر ٤٢٠٠٠ بعد أن كان مليوناً أيام الحكم العربىّ ؛ ولم يَبْقَ من مُدُن ولاية شَلَمَنْقَة ، التى كان عددها أيام الحكم العربىّ ١٢٥ مدينة ، سوى ١٣ مدينة .

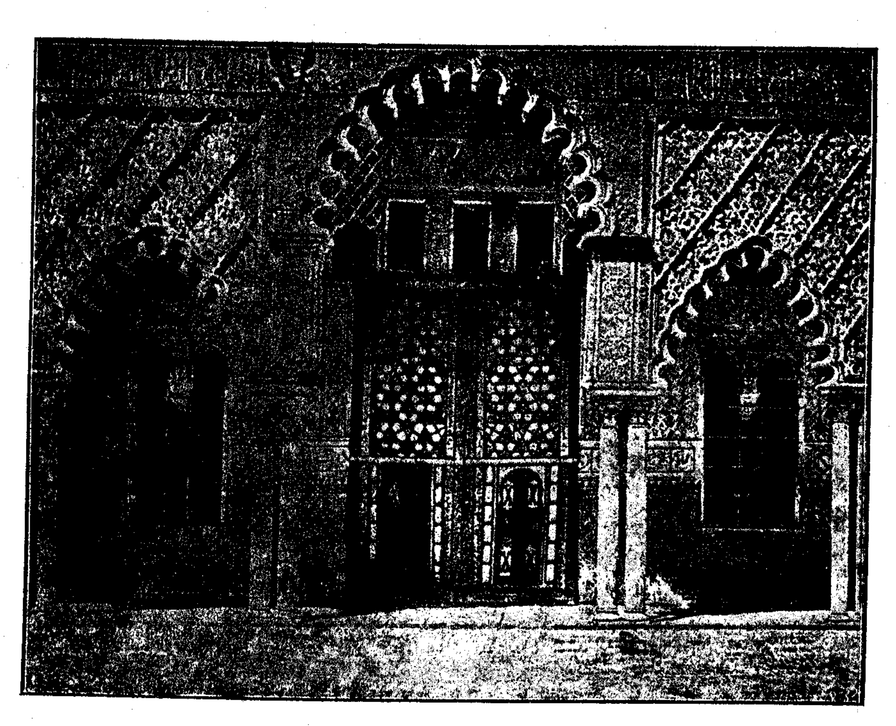
وسيرى القارئ فى الفصل الذى خَصَّصْناه للبحث فى وارثى العرب مقدارَ الانحطاط الذى أسْفَر عن إبادة العرب ، وإذا كنتُ قد أشرت إلى هذا هنا فلأن شأن العرب المدنىّ لم يَبْدُ فى قطر ملكوه كما بدا فى إسپانية التى لم تكن ذات حضارة تُذْكر قبل الفتح العربىّ فصارت ذات حضارة ناضرة فى زمن العرب ، ثم هَبَطت إلى الدَّرْك الأسفل من الانحطاط بعد جَلاء العرب ، وهذا مثالٌ بارزٌ على ما يُمْكِن أن يتَّفِقَ لِعرْقٍ من التأثير .



سقف محراب جامع قرطبة القديم
(طراز بزنطى عربى) ، (آثار اسبانية المعمارية)

٣ – حضارة العرب فى إسبانية

كانت إسبانية النصرانية ذاتَ رَخاء قليل وثقافة لا تلائم غيرَ الأجلاف فى زمن ملوك القوط . ولم يَكَد العربُ يُتِمُّون فتح إسبانية حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها ، فاستطاعوا فى أقلَّ من قرنٍ أن يُحْيوا مَيِّت الأَرَضِين ويَعْمُروا خَرِب المدن ويُقيموا فَخْمَ المبانى ويُوطِّدوا وثيقَ الصلات التجارية بالأمم الأخرى ، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين ويُنْشِئون الجامعاتِ التى ظلَّت وحدَها ملجأً للثقَّافة فى أوربة زمناً طويلاً .



١٣٢ – داخل ردهة فى القصر بإشبيلية (من صورة فوتوغرافية)

وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبدالرحمن إلى العرش على الخصوص ، أى منذ انفصال إسبانية عن المشرق بإعلان خلافة قرطبة فى سنة ٧٥٦ م ، فغَدَت قرطبة ، بالحقيقة ، أرقى مُدُن العالم القديم مُدَّةَ ثلاثة قرون .

ولم يَكَد عبدالرحمن يَقْبِض على زمام الحكم فى إسپانية حتى أخذ يسعى فى حمل العرب على عَدِّ إسپانية وطناً حقيقياً لهم ، فأنشأ جامع قرطبة الشهير الذى هو من عجائب الدنيا لتحويل أنظار العرب عن مكة ، وصار يُنْفِق دخلَ بيت المال فى إصلاح البلاد وعُمْرانها بدلاً من إنفاقه فى الغزَوات البعيدة ، ثم سار خلفاؤه على سُنته فى ذلك .

وامتازت حضارةُ العرب فى إسپانية فى ذلك الدور بمَيْل العرب الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم على الخصوص ، وأنشأ العرب فى كلِّ ناحية مدارسَ ومكتباتٍ ومختبراتٍ ، وترجموا كتب اليونان ، ودرسوا العلومَ الرياضية والفلكية والطبيعية والكيماوية والطبية بنجاح ، وسنرى فى فصولٍ أخرى أهميةَ اكتشافاتهم فى هذه العلوم المختلفة .

ولم يكن نشاطهم فى الصِّناعة والتِّجارة أقلَّ من ذلك ، فكانوا يُصدرون منتجاتِ المناجم ومعاملِ الأسلحة ومصانعِ النسائج والجلودِ والسُّكرِ إلى إفريقية والشرق بواسطة تجَّار من اليهود والبربر .

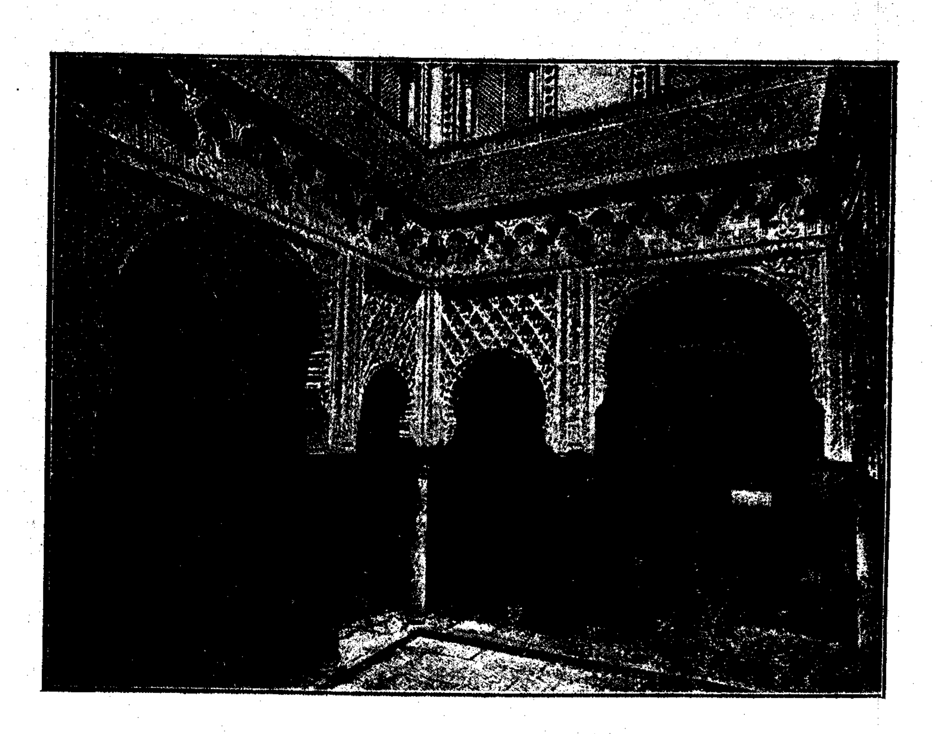
وَبَرُعَ العربُ فى الزِّراعة براعتَهم فى العلوم والصِّناعات ، ولا يُوجَدُ فى إسپانية الحاضرة من أعمال الرَّىِّ خلا ما أتمَّه العرب ، وأدخل العرب إلى حقول الأندلس الخَصِبَة زراعةَ قصب السكر والتوت والأُرُزِّ والقطن والموز، إلخ . ، وأصبحت إسپانية ، التى هى صحراء حقيقية فى الوقت الحاضر، عدا بعض أقسامٍ فى جَنوبها ، جَنَّةً واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية الفنية .

ووَجَّه العرب نشاطهم إلى كلِّ فرعٍ من فروع العلوم والصِّناعة والفنون ، ولم تَقِلَّ أشغالهم العامة عن أشغال الرومان أهميةً ، فأكثروا من إنشاء الطرق والجسور والفنادق والمشافى والمساجد فى كلِّ مكانٍ .

وظَنَّ رئيسُ الأَساقفة الإسپانىّ أكزيمينيس أنه، بإحراقه مُؤَخَّراً ما قَدَر على جمعه من مخطوطات أعداء دينه العربِ (أى ثمانين ألف كتاب) ، مَحَا ذكرَهم من صَفَحات التاريخ إلى الأبد ، وما دَرَى أن ما تركه العرب من الآثار التى تملأ بلادَ إسپانيـة ، خلا مؤلَّفاتهم ، يكفى لتخليد اسمهم إلى الأبد .

وكانت عاصمة الخلافة، قرطبة، داراً للعلوم والفنون والصِّناعة والتِّجارة ، وتستطيع أن تقابلها بعواصم

دول أوربة العظمى الحديثة ، وهى على خلاف قرطبة الحاضرة التى أضحت مَقَرًّا للأموات ، ومن المُؤلم أن كنتُ أسيرُ عِدَّةَ ساعاتٍ فى هذه المدينة الواسعة ، التى كان يقيم بها مليون شخص ، قبل أن أصادف مارًّا نشيطاً . .



١٣٣ ـ داخل ردهة فى منصر بأشبيلية (من صورة فوتوغرافية)

أَجَلْ ، كان من النصر العظيم أن أَحَلَّ النصارى الصليبَ محلَّ الهلال فى قرطبة ، ولكن الهلال كان يُهَيْمِن على أغنى مدن العالم وأجملها وأكثرها أهلاً ، فيُشْرِفُ الصليب اليوم على بقايا تلك الحضارة القويمة التى قَوَّضها عُبَّادُه من غير أن يقيموا حضارةً أخرى مقامها .

وكان نظام الحكم العربىِّ فى إسپانية مشابهاً لنظام الحكم الذى تكلمنا عنه فى فصل « العرب فى بغداد » ، أى كان الخليفة ، وهو وكيلُ الله فى الأرض ، حاكماً مطلقاً جامعاً لجميع السلطات المدنية والدينية والحربية مع اختياره مجلساً لإسداء النُّصْح إليه فى جميع أمور الدولة .

وكان يقوم بحكم الولايات وُلاةٌ يَنْصِبهم الخليفة جامعون لِمِثْلِ سُلُطَاته كلِّها .

وكان قانون الدولة المدنىُّ يستند فى نصوصه إلى القرآن وتفسير القرآن ، كما نوضح ذلك فى فصل

آخر فيتّخذ القضاةُ القرآنَ دستوراً فى أحكامهم ، وكانت المحاكم على درجتين ، فتقوم محاكم الدرجة الثانية (الاستئناف) بإصلاح ما تُصدره محاكم الدرجة الأولى من الأحكام .

وكان الخليفةُ ، كملوك ذلك العصر ، غيرَ ذى جيش دائم ، وكانت الكتيبةُ الوحيدة المُسلَّحة على الدوام مؤلفةً من حرَس وَلِىِّ الأمر الشخصىِّ الذى يبلغ عدده عشرة رجال أو اثنى عشر رجلاً [1] ، وإن كان يستطيع أن يجند كلَّ شخص قادر على حمل السلاح من أبناء الدولة .

وكانت البحريةُ قوية جداً ، وكانت تَتِمُّ بفضلها صلاتُ العرب التجارية بجميع مرافئ أوربة وآسية وإفريقية ، وظلَّ العرب وحدهم سادةَ البحر المتوسط زمناً طويلاً .

وكان دَخْلُ بيت المال يقوم على الضرائب والمناجم ، كما فى بغداد ، وكانت مناجم الفضة والذهب والزئبق غنيةً فى ذلك الزمن ، وكانت الضرائب تتألف من العُشْر العَيْنىِّ لحاصيل أرَضى المسلمين ، ومن الجِزْية التى يُعْطيها النصارَى واليهود ، ومن الجمارك والمُكوس ، فبَلَغ دَخْل دولة الخلافة فى إسپانية ثلاثمائة مليون فى إبَّان عظمتها ، أى فى عهد الحكم الثانى .

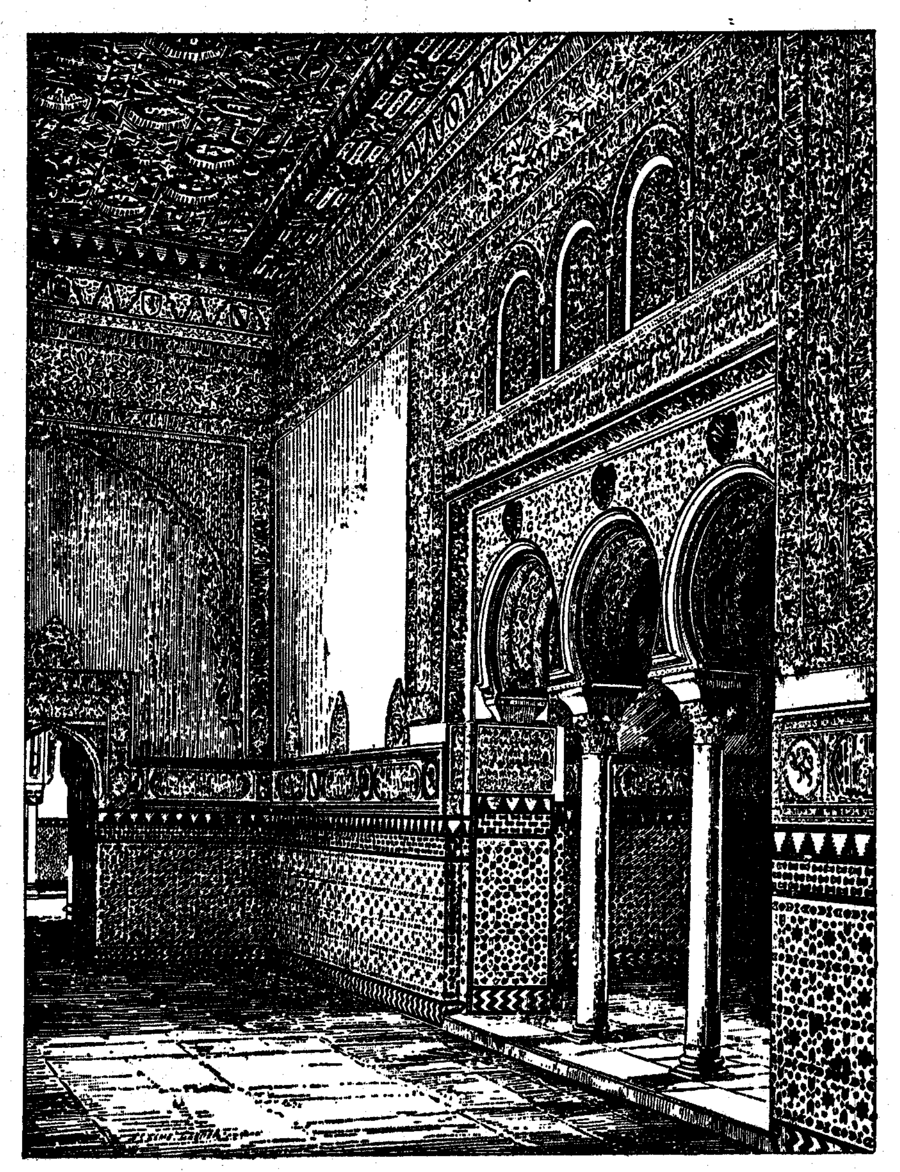
وقلنا إن الإمامة الثّقافية كانت للعرب فى البلاد ، وأما العوامُّ فكانوا من البربر ، ومن سكان البلاد القدماء على الخصوص ، وكان باب المناصب مفتوحاً للنصارى وكان النصارى يُستخدمون فى الجيش غالباً ، ولم يكن توالدُ المسلمين والنصارى غيرَ قليل ، وكانت أمُّ الخليفة عبدِ الرحمن الثالث نصرانيةً .

واستطاع العرب أن يُحَوِّلوا إسپانية ماديًّا وثقافيًّا فى بضعة قرون ، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية ، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانية على هذين الأمرين ، بل أثَّرُوا فى أخلاق الناس أيضاً ، فهم الذين عَلَّموا الشعوب النصرانية ، وإن شِئْتَ فَقُلْ حاولوا أن يُعَلِّموها ، التسامحَ الذى هو أثمن صفات الإنسان ، وبلغ حِلْمُ عرب إسپانية نحوَ الأهلين المغلوبين مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يَعْقِدُوا مؤتمراتِهم الدينية ، كمؤتمر أشْبِيليَّة النصرانىِّ الذى عُقِد فى سنة ٧٨٢ م ومؤتمرِ قرطبة

---

(١) لعل المؤلف قصد عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً فسقطت كلمة « آلاف أو ألف » عند طبع الأصل الفرنسى (المترجم) .

النصرانيّ الذى عُقِد فى سنة ٨٥٢ م، وتُعَدُّ كنائس النصارى الكثيرةُ التى بَنَوْها أيام الحكم العربيّ من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التى خضعت لسلطانهم .



١٣٤ ـ بهو ملوك المغاربة فى القصر بأشبيلية (من صورة فوتوغرافية)

وأسلم كثيرٌ من النصارى ، ولكنهم لم يُسْلِموا طمعاً فى كبير شىء ، وهم الذين استعربوا فغَدَوْا هم واليهودُ مساوين للمسلمين قادرين مِثْلَهم على تَقَلُّد مناصب الدولة ، وكانت إسپانية العربيةُ بلدَ أوربة الوحيدَ الذى تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها ، فصار عددهم فيه كثيراً جدًّا .

وكان عربُ إسبانية يتّصِفون بالفروسيـة المِثاليّة خلا تسامحهم العظيم ، وكانوا يَرْحمون الضعفاء ويَرْفُقون بالمغلوبين ويقِفون عند شروطهم وما إلى هذا من الخِلال التى اقتبستها الأمم النصرانية بأوربة منهم مؤخرا ، فتؤثِّر فى نفوس الناس تأثيراً لا تؤثِّره الدِّيانة .

وللفروسية العربية شروطُها كما للفروسية الأوربية التى ظهرت بعدها ، فلم يكن المرء ليصير فارساً إلّا إذا تحَلَّى بهذه الخِصال العَشْر : « الصلاح والـكرامةِ وَرِقَّة الشمائل والقريحة الشعرية والفصاحة والقوة والمهارة فى ركوب الخيل والقدرة على استعمال السيف والرمح والنُّشّاب » .

ونرى تاريخَ العرب فى إسبانية حافلاً بالأنباء الدالة على كثرة انتشار تلك الخصال ، ومن ذلك أن والى قرطبة لمَّا حاصر ، فى سنة ١١٣٩ م، مدينةَ طُلَيْطِلَة التى كانت بيد النصارى أرسلت إليه الملـكةُ بيرِنْجِر التى كانت فيهـا من بَلَّغه أنه لا يليق بفارسٍ بطلٍ شهم كريم أن يحاصر امرأةً ، فارتدّ القائدُ العربىُّ من فَوْره مُحَيِّياً المِلـكة .

وذاعت خِصال الفروسية تلك بين النصارى ، ولـكن ببطء ، ويمكننا أن نتمثل ما كانت عليه الفروسية النصرانية فى القرن الحادى عشر عند النظر إلى أمر السيد الـكنبيطور رودريك الڤيڤارىّ .

لم يكن هذا البطل الشهير الذى تَغَنَّى به الشعراء كثيراً سوى رئيس عِصابةٍ بالحقيقة ، أىْ كان محلَّ مزايدة ، فيبيعُ نفسَه من العرب تارةً ويبيعها من النصارى تارةً أخرى، ومما حدث أن دخل مدينة بَلَنْسِيَة صُلْحاً فلم يُحْجِم عن شَىٍّ حا كمها الهَرِم على النار لِيُـكْرِهه على كشف ما كان يَظنُّ وجودَه فى القصر من الـكنوز .

قال مسيو ڤيارْدُو : « إن ذلك الفارس الشهير الذى يُثِير اسمه ذِكْرَيات البطولة هو البطل الشعبىّ الذى اقتحم المخاطر والأهوال أكثرَ مما اقتحمه هركول وثيزه وقدماء أنصاف الآلهة مجتمعين .

« بَيْدَ أنه ، وإن كان من المؤلم تجريدُ اسمٍ عظيمٍ من بعض ما أسْبَغَتْه القرون عليه ، لم يُوضَع التاريخ لِيُؤَيِّد بأحكامه أقاصيصَ الأدباء وخيالات الشعراء .

« لم يَحُزْ رودريكُ ، أوْ روى دياز الڤيڤارىّ ، غيرَ صفات الجندىّ ، أى كان رئيس عِصابةٍ من المرتزقة قاسياً جَشِعاً حقوداً شديداً فى قوله وعمله كثيرَ الجَلَف مستخفّاً بالعدل والإنصاف .



١٣٥ ـ برج لاجيرالده (برج لعبة الهواء) فى أشبيلية (من تصوير جيرول دوپرانجه)

« وكان نصارى أرغونة أولَ من أعملَ السلاحَ فيهم لحساب المسلمين الذين منحوه لقب « السيد » فعُرِف به ، ثم باع سيفه من شانشه القوىّ ليساعده على تجريد ما لإخوته وأَخَواته من المقاطعات ، ثم حالف هذا وذاك محالفة الغادرين ، ولم يُبَالِ بعهد الأمان الذى قَطَعَه لمدينة ساغُونْتة ومدينةِ بَلَنْسِيَة فأطعم الكلابَ بعضَ الأَسْرَى ونَكَّل ببعضهم وحَرّق بعضاً آخرَ منهم إكراهاً لهم على كشف كنوزهم .

« حقاً إنه أطفأ ما تَمّ له من مجدِ النصر بما قام به من أعمال الخَتْر[1] والخِسَّة والإجرام ، وإنى أحيل القارئ الذى يريد التَّثَبُّت فى مِصْداق قولى إلى ما قاله مسيو دوزى فى مباحثه عن تاريخ عرب إسبانية السياسىّ والأدبىّ فى القرون الوسطى » .

وليس من الإنصاف أن نَقْسُوَ على السيد الذى لم يَعْمَل بغير ما كانت تُبِيحه طبائع زمنه، ولكن من الواجب أن نشير إلى تلك الطبائع ليتجلى لنا مقدارُ ما أسدت به الأمةُ التى عَمِلت على زوال تلك الطبائع من خدمةٍ عظيمة بتأثير تعاليمها التى لا مُؤَيِّد لها سوى الرأى .

ويقولون إن الدين يهذب الطبائع ، وأذهب إلى هذا الرأى أحياناً وإن لم يكن فى التاريخ سوى أدلة قليلة على ذلك ، وإنما الذى لا ريب فيه هو أن قواعد الفروسية التى جاء بها العرب أَدَّت إلى إصلاح تلك الطبائع أكثر من جميع التعاليم الدينية .

نَعَمْ ، إن إحراقَ السيدِ شيخاً ليَسْتَلِبَ ما له يُبْدِيه لنا وحشاً ، غير أن طبائع أهل ذلك الزمن كانت تُبِيح ذلك ، وأن كل أمير نصرانى كان يقترف مثلَ ذلك .

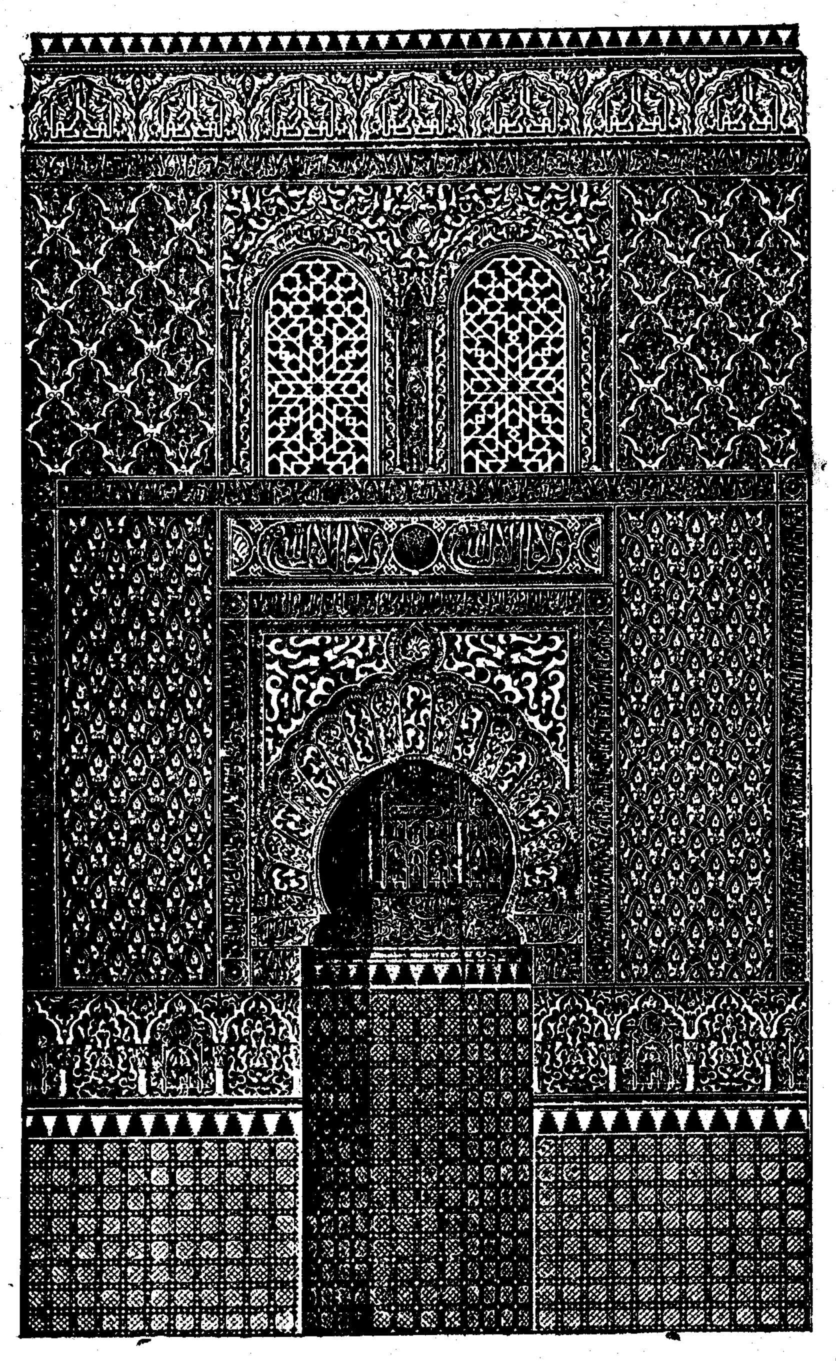
ومن ذلك أن دعا الطاغيةُ بِطْرُه ملكَ غَرْنَاطة ، أبا سعيدٍ ، إلى قصره فأعجبه ما كان يَتَحَلَّى به الملك أبو سعيد من الجواهر ، فلم يَرَ غيرَ سلبه إياها بقتله غَدْراً[2] .

---

(١) ختره يختره ختراً : غدره أقبح الغدر .

(٢) أهدى ملك إسبانية إلى أحد أمراء الإنكليز ياقوتة حمراء من تلك الجواهر التى سرقت من الملك العربى ، وهى الآن من الجواهر التى يزين بها تاج ملكة إنكلترا المصون مع الجواهر الملكية الأخرى فى « غرفة حل التاج » بلندن ، فأتيح لى أن أشاهدها .

فآثامٌ مثلُ هذه مما لم يقترفه العرب قَطُّ ، والعربُ أحسنوا كثيراً إلى الحضارة بنشرهم من المشاعر في أنحاء العالم ما يَحُولُ دون ارتكابها .



١٣٦ ـ محراب مسجد قصر الحمراء (من تصوير جونس)

واعترف الكتّابُ القليلون الذين درسوا تاريخ العرب بفضلهم الخُلُقِىّ ، وإليك ما قاله العالمُ الثَّبَتُ مسيو سيديّو : « كان العرب يفوقون النصارى كثيراً فى الأخلاق والعلوم والصِّناعات ، وكان من طبائع العرب ما لاتراه فى غيرهم من الكرم والإخلاص والرحمة ، وكان من طبائعهم التى امتازوا بها فى المحافظة على الكرامة ما يؤدى الإفراطُ فيه إلى المبارزة والشَّحْنَاء .

« وكان ملوك قشتالة وَنَبَرَّة على علم من صدق العرب وقِرَاهم ، ولم يَتَرَدَّد الكثير منهم فى المجىء إلى قرطبة ليعالجهم أطبَّاؤها المشهورون .

« وكان أفقر المسلمين يحافظ على شَرَف أسْرَته محافظةَ أشدِّ الرؤساء صَلَفاً » .

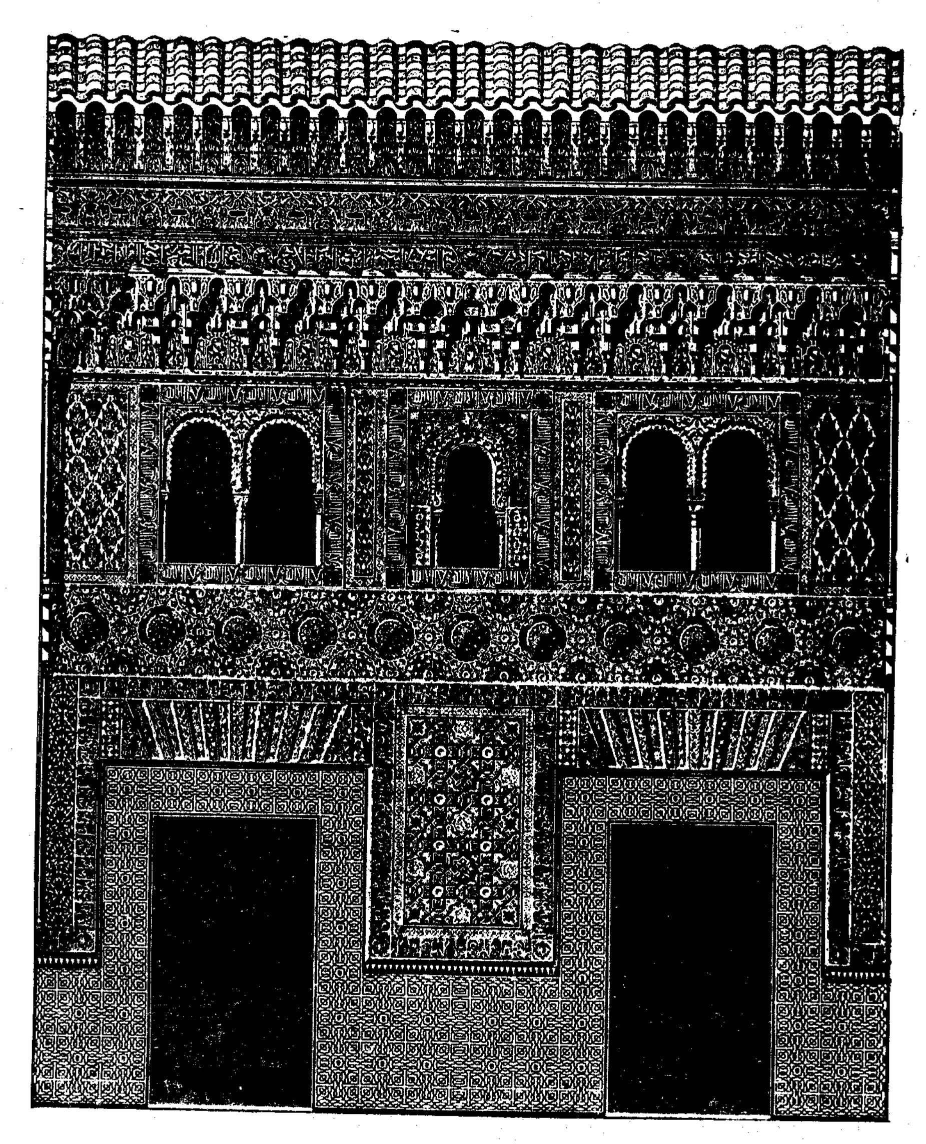
٤ — مبانى العرب فى إسبانية

استخدم العرب ، فى بدء إقامتهم بإسبانية ، مهندسين من الروم ، ولكن العرب لم يلبثوا أن أثَّرُوا بعبقريتهم الفنية فى أولئك المهندسين ، وبلَغ إبحاؤهم فى أمور الزينة مبلغاً صار يتعذر معه على أقلِّ الناس دقةً أن يَخْلِط مبانيَهم بالمبانى البزنطية .

ولم يَلْبَث العرب فى إسبانية أن تحرَّروا من النفوذ البزنطىّ كإخوانهم فى مصر ، فاستبدلوا النقوشَ العربية الممزوجة بالكتابة بالزَّخرفة الذهبية ، وأكثروا ، كما فى المشرق ، من المتدليات المؤلفة من الأقواس الصغيرة التى يعلو بعضُها بعضاً على شكل نخاريب النخل فيكون منظرها ساحراً عجيباً حينما يُزَيَّن بها داخلُ إحدى القِباب كما فى الحمراء ، وكانت هذه الأقواس على شكل نعل الفرس الظاهر فى البُداءة ، ثم اختلطت بأنواع الأقواس الأخرى البسيطة المصنوعة على رسم البيكارين والأقواس المفلوقة المصنوعة على رسم البيكارين ، والأقواسِ المنقوشة على شكل الأزهار والأغصان المصنوعة على رسم البكارين إلخ . وأما الأقواس المُجاوِزة فقد أهملها العرب تقريباً .

ونَعُدُّ جامع قرطبة الذى بُنِىَ فى القرن الثامن من الميلاد وبعضَ المبانى فى طُلَيْطِلة من آثار الدور الأول لفنِّ العمارة العربى بإسبانية ، ونَعُدُّ منارة لاجيرالدة (لعبة الهواء) الأشْبيليَّة ، التى أقيمت فى

القرن الثانى عشر من الميلاد ، والقصرَ الاشْبيلىَّ من آثار الدور الأوسط لفنِّ العِمارة العربىِّ ونَعُدُّ قصر الحمراء الغَرْناطىَّ الذى شِيد فى القرنِ الرابعَ عشرَ من الميلاد عُنْوَاناً لِماَ انتهى إليه فنُّ العِمارة العربى .



١٣٧ ــ مقدم مسجد قصر الحمراء فى غرناطة

وعلى ما فى هذه المبانى التى أُنْشِئت فى إسپانية فى مختلف الأدوار من التباين فى الطُّرُز نرى لهاطابعاً خاصًّا يدلُّ على أصلها أولَ وَهلة .

ويُرَى مثلُ هــذا الطابَع الخاصِّ فى مختلف المبانى التى شادها العرب فى مختلف الأقطار ، فقصرُ

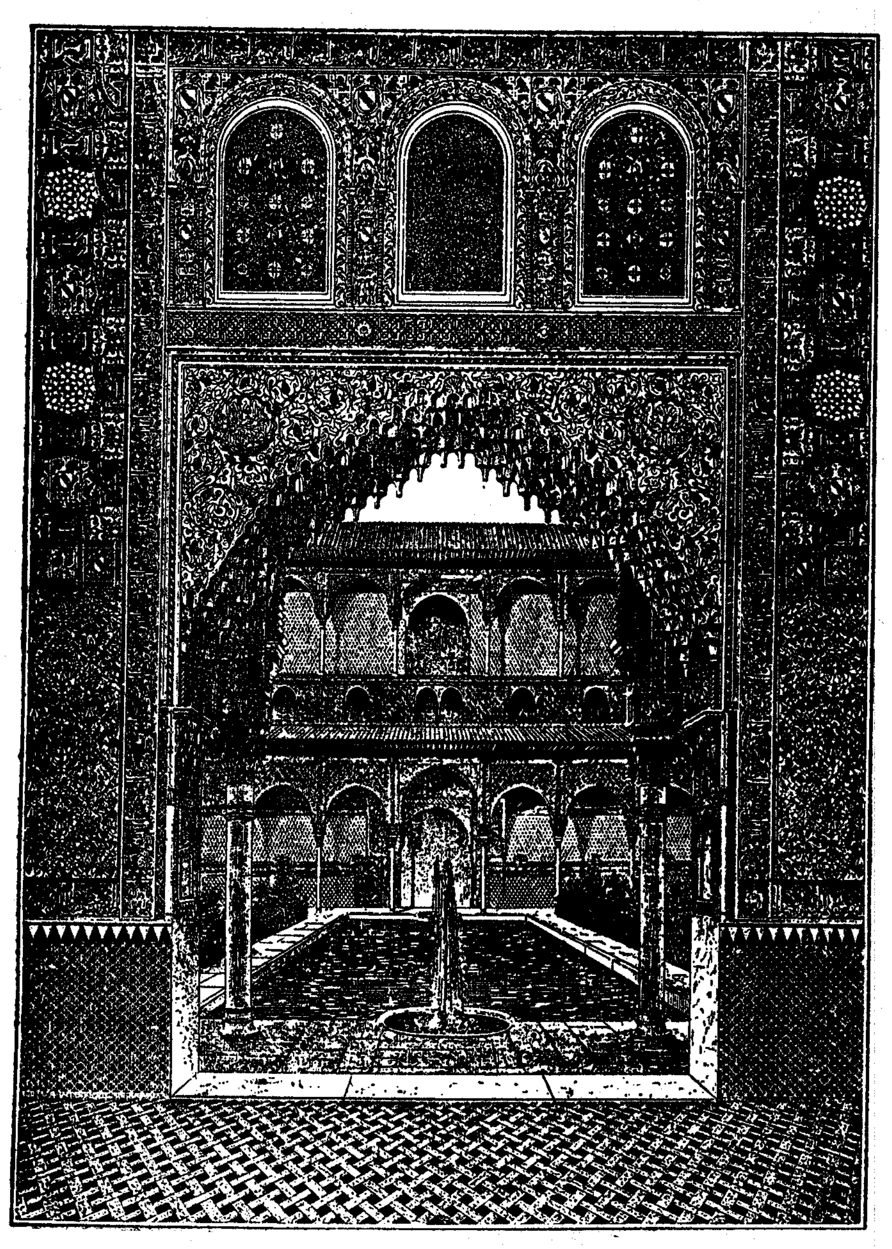
الحمراء فى غَرْناطة أو جامعُ السلطان حسن فى القاهرة أو بابُ علاء الدين فى دهلى أو غيرُه ، وإن بَدَا عليه تأثيرُ البيئة التى كان يعيش فيها المهندسون الذين رَسَموه ، جَمَعَتْ بينه وبين المبانى الأخرى التى شادها العرب فى الأقطار الأخرى صِفاتُ فَنِّ العِمارة العربىِّ العامةُ ، وتَنِمُّ هذه على مهارة صانعيها فى إبداع الآثار الجديدة بالموادِّ القديمة ، ولا جَرَمَ أن باب علاء الدين الذى أُلِّف فيه بين عناصر الفنِّ العربيـة والفارسية والهندوسية هو من الأمثلة المهمة لتأثير الفنِّ العربىِّ العجيب الذى طَبَع سِمَتَه على كلِّ ما مَسَّه والذى ظلَّ عربيًّا مع ما اقتبسه من الهندوس فى الهند ومن الفرس فى بلاد فارس ومن البزنطيين فى إسپانية .

ولنتكلم الآن بإيجاز عن المبانى المهمة التى تركها المسلمون فى إسپانية،وسنتبع طريقتنا فى نشر صُوَرٍ صادقةٍ عنها نشراً يُغنينا عن الوصف المفصل ، وذلك على أن نعود إلى الـكثير منهـا فى الفصل الذى ندرس فيه تاريخَ فَنِّ العِمارة العربىِّ .

المبانى العربية فى قرطبةَ . ـ إن جامع قرطبة الشهير الذى بدأ عبدُ الرحمن بإنشائه فى سنة ٧٨٠م، والذى يَعُدُّه علماء المسلمين قبلةَ أنظار المغرب ، من أجمل المبانى التى شادها العرب فى إسپانية ، قال كونده : « بُنِيَ ذلك المسجد الجامع فى أواخر القرن الثامن من الميلاد بأمر عبدالرحمن الأول وإشرافه، ورُوِى أن عبد الرحمن الأول هـذا أراد أن يجعله مماثلاً لجامع دمشق على أوسع نِطاق ، ومُذَكِّراً الناسَ بِفَيض زخارفه ، بعجائب هيكل سليمان القدسىِّ المَجيد الذى هَدَمه الرومان .

« وكان جامعُ قرطبة يفوق معابدَ الشرق قاطبةً بعظمته ورَوْعَته ، وترَى ارتفاعَ مِئْذَنته أربعين ذراعاً ، وترى قُبَّتَه الهَيْفاءَ تقوم على رَوَافِدَ من الخشب المحفور وتستند إلى ١٠٩٣ عَمُوداً مصنوعاً من مختلف الرُّخام على شكل رُقْعة الشِّطْرَنج فيتألف منها تسعةَ عشرَ صحناً واسعاً طولًا وثمانيةٌ وثلاثون صحناً ضَيِّقاً عرضاً ، وترَى فى وجهه الجنوبىِّ المقابل للوادى الـكبير تسعةَ عشرَ باباً مُصَفَّحاً بصفائحَ برونزية عجيبة الصنع خلا الباب المتوسط الذى كان مُصَفَّحاً بألواح من الذهب، وترَى فى كلٍّ من وجهه الشرقىِّ الجانبىِّ ووجهه الغربىِّ الجانبىِّ تسعةَ أبوابَ مشابهةٍ لتلك الأبواب » .

ولا يزال جامع قرطبة من المبانى المهمة مع ما أحدثه الإسپان فيه من التَّلَف والفساد ، ومع تلك الكنيسة الواسعة التى أقاموها فيه لتطهيره ، ومما صنعه الإسپان أن كلَّسوا زَخَارِف جُدُره وكتاباتِه ،



١٣٨ أ - قاعة البركة فى قصر الحمراء (من تصوير جونس)

ونزَعوا منه فُسَيفِسَاءَ أرضه ، وباعوا تُحَف سَقْفِه الخشبية المحفورةَ المُزَوَّقة ، فيجب على من يرغب فى تَمَثُّل شىء مما كان عليه جامع قرطبة أن ينظر إلى محرابه الذى تَفَلَّت وحدَه من التخريب .

ويَقوم سَقْف جامع قرطبة على أَعْمِدَة ، ويتكون من اجتماع هذه الأعمدة صفوفٌ من الصحون الكبيرة المتوازية المؤدية إلى باحته، وتتقاطع هذه الصحون وصحونٌ أخرى كتقاطع الأضلاع الذى ينشأ عنه زوايا قائمة ، ويتألف من مجموع تلك الأعمدة غابةٌ من الرخام واليَصْب والغرانيت ، وتعلو تلك الأعمدةَ أقواسٌ رائعة مُنَضَّدة مصنوعة على شكل نعل الفرس .

ولا يؤدى ارتفاع سقف جامع قرطبة الذى لا يزيد على عشرة أمتار إلى ما نراه فى الكتدرائيات القديمة ، التى أقيمت على الطراز القوطىّ فى القرون الوسطى، من الجلال الأَدْجَن ككتدرائية كولونية وستراسبرغ ، وإنما ينشأ عن تنَضُّد أقواسه وتنَوُّع زخارفه منظرٌ مبتكرٌ بديع قَلَّما تَجِد مثله فى مبانٍ أخرى .

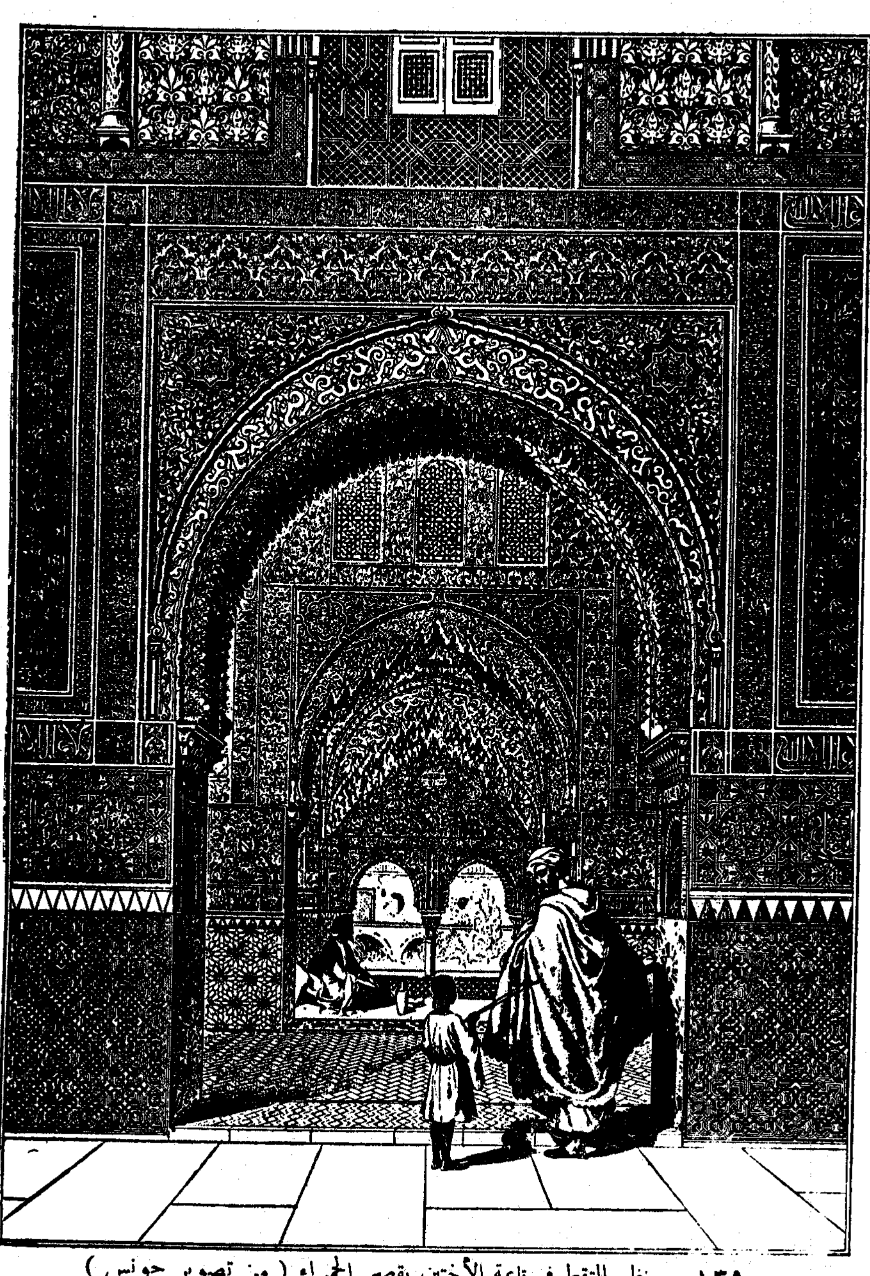
وأما محراب جامع قرطبة فإننا ، من غير أن نُجَارِيَ جيرول دوپرانجه فى قوله : « إنك لا ترى أحسنَ من زُخْرُفه وسَنائِه فى أىّ أثرٍ قديم أو حديث مماثل » ، نعترف بأنه من أجمل ما تقع عليه عَيْنُ بَشَر .

وأُقِيمَ جامعُ قرطبة أيام كان الفنُّ العربىُّ فى فجره ، وتَدَرَّج الفنّ العربىّ إلى الكمال ، فأقيمت على الطِّراز العربى الكامل مبانٍ عجيبةٌ كالحمراء تُخْبِرُ ، بمالها من الرَّوْعَة والجلال قادمَ الأجيال بما كان للقوم الذين شادوها من الذوق الفنىّ وحبِّ كلِّ ما هو ساطع بديع عجيب .

وأرى ، قبل أن أغادر قرطبة، أن أذْكُرَ ، أيضاً ، قصرَ الزهراء الساحرَ الذى بناه عبد الرحمن فى القرن العاشر بعيداً بضعةَ فراسخَ من قرطبة ، والذى دَرَس رسْمُه وقَصَّ التاريخُ نبأه ، وإن الضبط الذى وَصَف به كُتّابُ العرب جامعَ قرطبة لدليلٌ على صدق ما وَصَفوا به قصر الزهراء من الأوصاف التى أوْجزَها جيرُول دوپرانجة فيما يأتى :

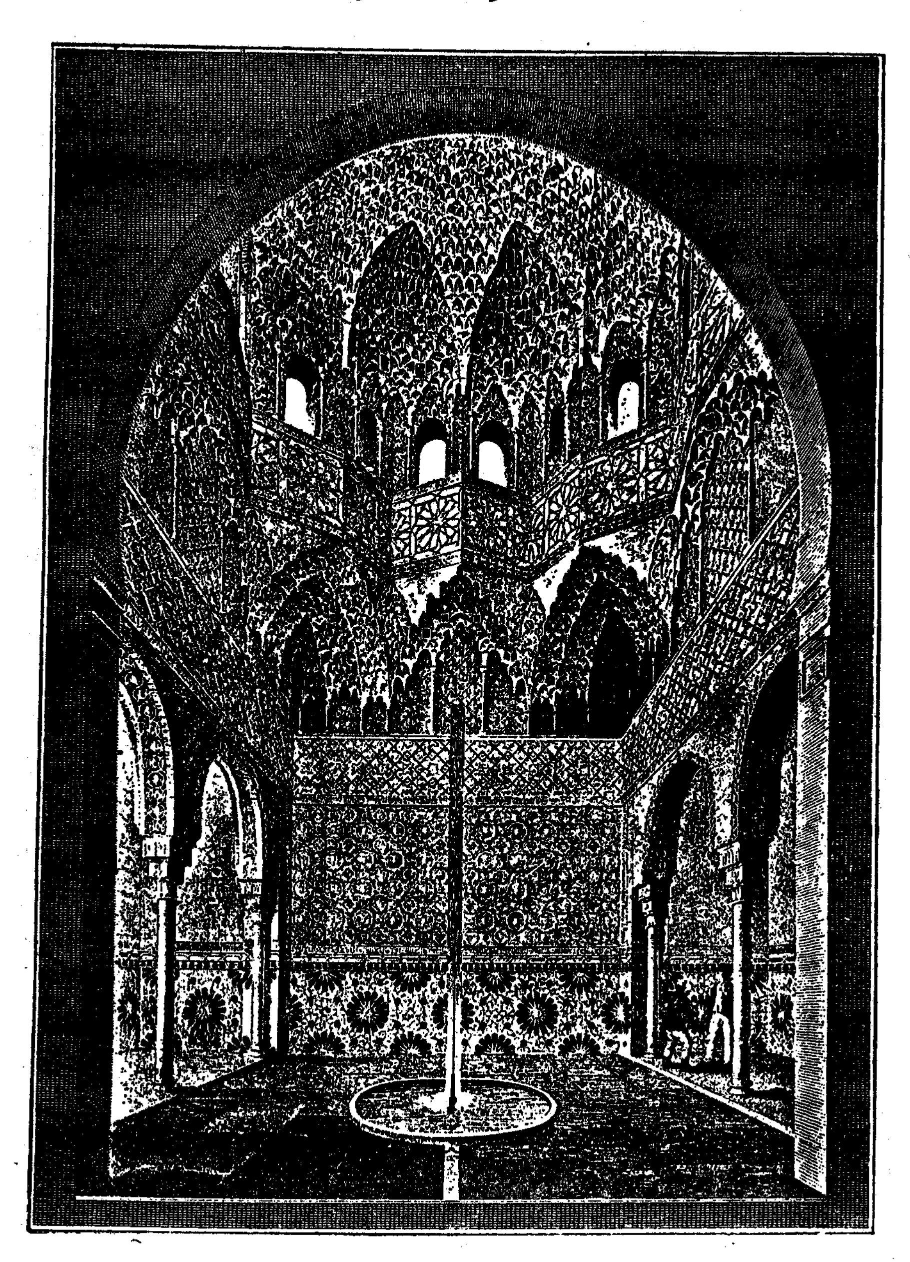
« كان يُزَيِّن ذلك القصرَ ٤٣٠٠ عمود من الرُّخام الثمين الكامل الصنع ، وكانت رِدَاهُه مُبَلَّطَةً بقِطَع من الرُّخام المنقوش بمهارة على ألف شكل ، وكانت حواجزُ هذه الرِّدَاه مغطاةً بالمَرْمَر ومزخرفةً بالأفاريز ذاتِ الألوان الباهرة ، وكانت سقوفُه ذاتَ نقوش ذهبية لَازَوَرْدِيَّة متشابكة ، وكانت جسور هذه السقوف وترابيعُها الأَرْزِيَّةُ دقيقةً متقنةَ الصُّنع ، وكان فى بعض رِدَاهِه عيونٌ

عجيبة تَصُبُّ مياهَها الصافية فى صهاريجَ رُخامية ذاتِ أشكالٍ مُنوَّعَة أنيقة ، وكان فى رَدْهَة الخليفة عينٌ مصنوعة من اليَصْب ومُزَيَّنَةٌ بإوَزَّةٍ عجيبة من الذهب عُمِلت فى القسطنطينية ، وكانت الدُّرَّةُ الشهيرة ، التى أتْحَفَ قيصرُ الروم عبدَ الرحمن الناصرَ بها ، تَمْلُو هذه العينَ ، وكانت الحدائقُ العظيمة



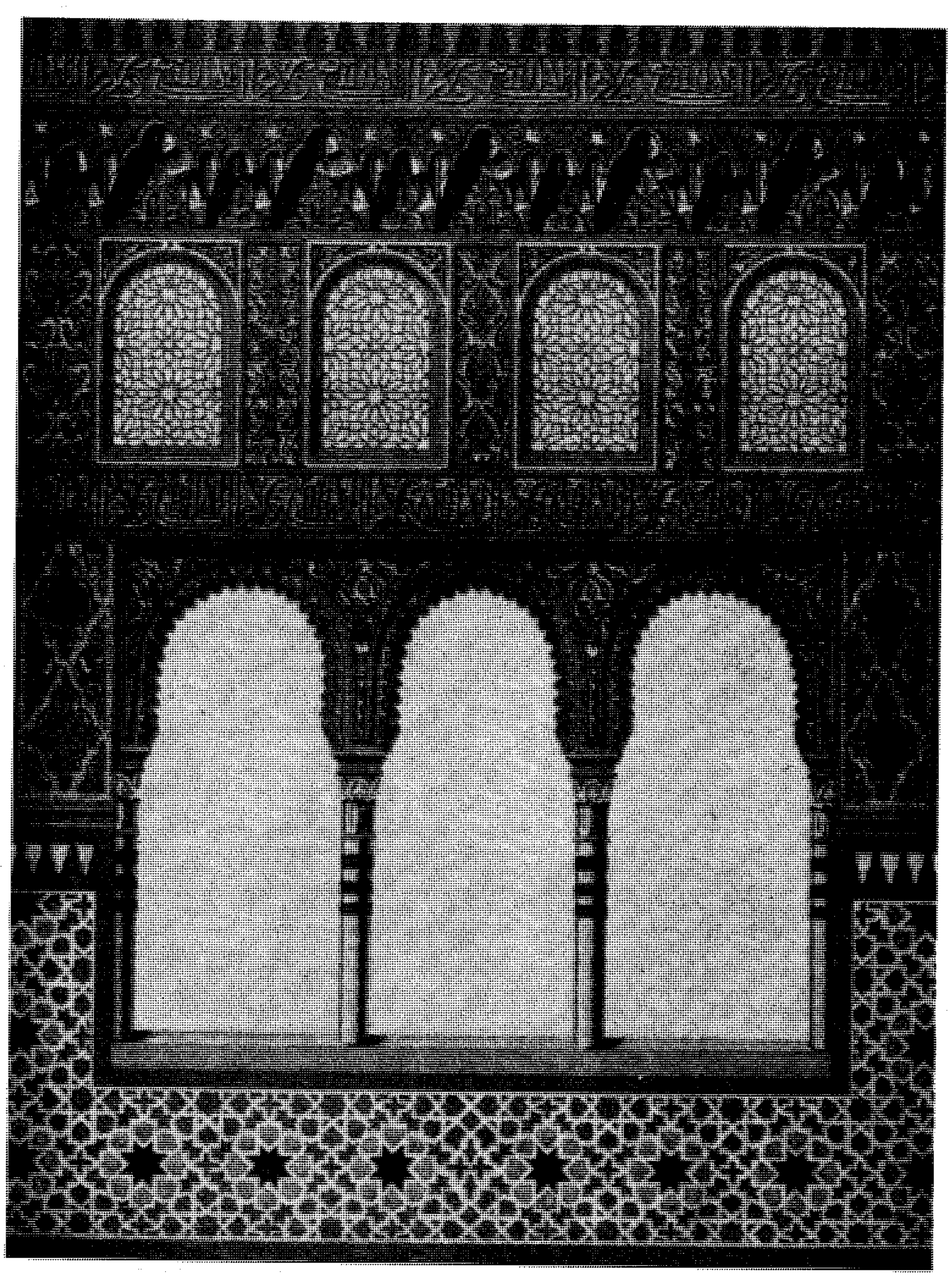
١٣٩ ـ منظر التقط فى قاعة الأختين بقصر الحمراء (من تصوير جونس)

ذاتُ الأشجار المثمرة والرَّياحين قريبة من القصر ، وكان فى وَسَط هذه الحدائق ، وعلى مكانٍ مُشرِف منها ، قبَّةُ الخليفة القائمة على أعمدةٍ رُخامِيَّةٍ بيضٍ ذاتِ تيجانٍ مُذَهَّبةٍ ، وكان فى وَسَط هذه القبة حَوْضٌ

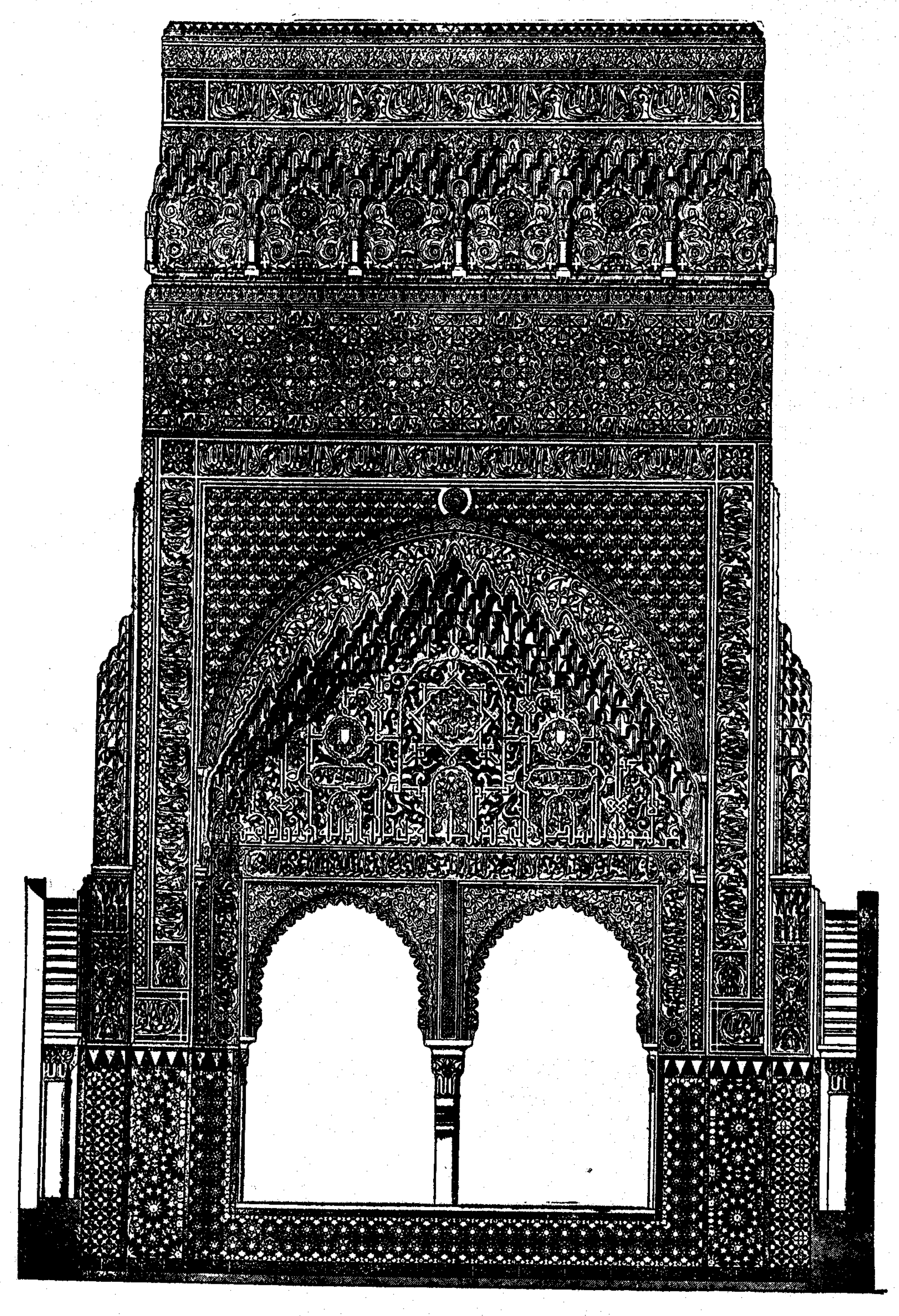


١٤٠ ـ قاعة بنى سراج فى قصر الحمراء (من تصوير مورف)

كبير من الرُّخام السُّمَّاقِيِّ مملوء بالزِّئبق الذى كان يَتَدَفَّقُ بشكل عجيب تدفقاً مستمرًّا فكانت أشعة الشمس تنعكسُ عليه بما يأخذ بمجامع القلوب ، وكان فى هذه الحدائق الجميلة حَمَّاماتٌ ذاتُ صهاريجَ



ليـوان فى قصر الحمراء بغرناطة



١٤١ ـ داخل قاعة لندرجة فى قصر الحمراء

رخاميةٍ وبُسُطٍ ورِياشٍ حريرىّ ذهبىّ مُوَشًّى بصُوَر غريبة طبيعية من الأزهار والغاب والحيوانات.

« وجُلِب الرُّخام الأبيض إلى قصر الزهراء من المريّة ، والوردىُّ والأخضر من قَرْطاجة وتونس ، وصُنِعَت فى سورية ، وفى القسطنطينية على روايةٍ ، عينهُ الذهبية المنقوشة ، وكان يُرَى هنالك ما جَلَبه أحمدُ الرومىُّ من الصُّوَر البشرية المنقوشة ، وأَمَر الخليفة بأن تُنْصَب هنالك صُوَرٌ من الذهب والحجارة الثمينة لاثنى عشر حيواناً مصنوعةٌ فى المعمل المَلَكىِّ بقرطبة ، فكانت المياه تتَدَفَّق من أفواهها تدفُّقاً مستمرّاً .

« وكان سَقْفُ رَدْهَة الخليفة مُذَهَّباً مؤلفاً من قِطَع رُخاميّة لامعة مختلفة الألوان وكانت جُدُره مزخرفةً مثلَ سقفه ، وكان فى وَسَط هذه الرَّدْهَة حَوْضٌ رُخامىٌّ عظيمٌ مملوءٌ بالزئبق ، وكان فى كلّ جانب من هذه الرَّدْهَة ثمانيةُ أبواب معقودة على حنايا من العاج والأَبْنُوس مزينةٍ بالذهب والحجارة الثمينة قائمةٍ على أعمدة من الرُّخام المُنَوَّع والبِلَّوْر الصافى .

« ورَوَى ابنُ حيان أن قصر الزهراء اشتمل على ٤٣١٢ سارية مختلفة الحجوم ، وأنه جُلِب ١٠١٣ سارية منها من إفريقية و ١٩ ساريةً منها من رومة ، وأن قيصر الروم أتْحَفَ عبد الرحمن بـ ١٤٠ سارية منها ، وأن بقية السوارى أُخِذَت من مختلف بِقاع الأندلس وطَرَّكونة وغيرها .

« وصُنِعَت أبواب قصر الزهراء من الحديد أو من النحاس المُمَوَّه بالذهب والفضة » .

المبانى العربية فى طُلَيْطِلَة . ــ مدينةُ طُلَيْطِلَة القديمةُ الحاضرةُ صورةٌ صادقة لِمَا كانت عليه المدن الأوربية فى القرون الوسطى ، وما هو ماثلٌ فيها الآن من الكتدرائية الفخمة وديرِ سان جوان دولوس ريس يكفى لشهرتها ، فإذا استثنيت هذين الأثرين رأيتَ فى كلِّ خُطْوة منها ما يساعد على درس تأثير العرب فى الأمم التى حَلَّت محلهم .

ولا يزال يُحيط بطُلَيْطِلَة حصونُها وأبراجها العربية ، ونذكر من أبوابها القديمة بابَ بيزَاغْرَة (باب شقرة) الشهيرَ الذى أُنْشِئ فى القرن التاسع من الميلاد ، وبابَ الشمس الشهيرَ الذى أُنْشِئ فى القرن العاشر من الميلاد فيَصْعُب عَلَىَّ أن أَعُدَّه ، كما عَدَّه غيرى ، من الآثار التى شِيدَت على الطِّراز البزنطىّ ، وذلك لشكله العربىِّ العامّ ولِمَا يُرَى فيه من الأقواس والزخارف العربية .

وأذكر من المبانى العربية فى طُلَيْطِلَة ، أو المبانى العربية اليهودية فيها ، سنتا ماريا لا بلانكا ، أى الكنيسَ القديمَ الذى بُنِيَ فى القرن التاسع .

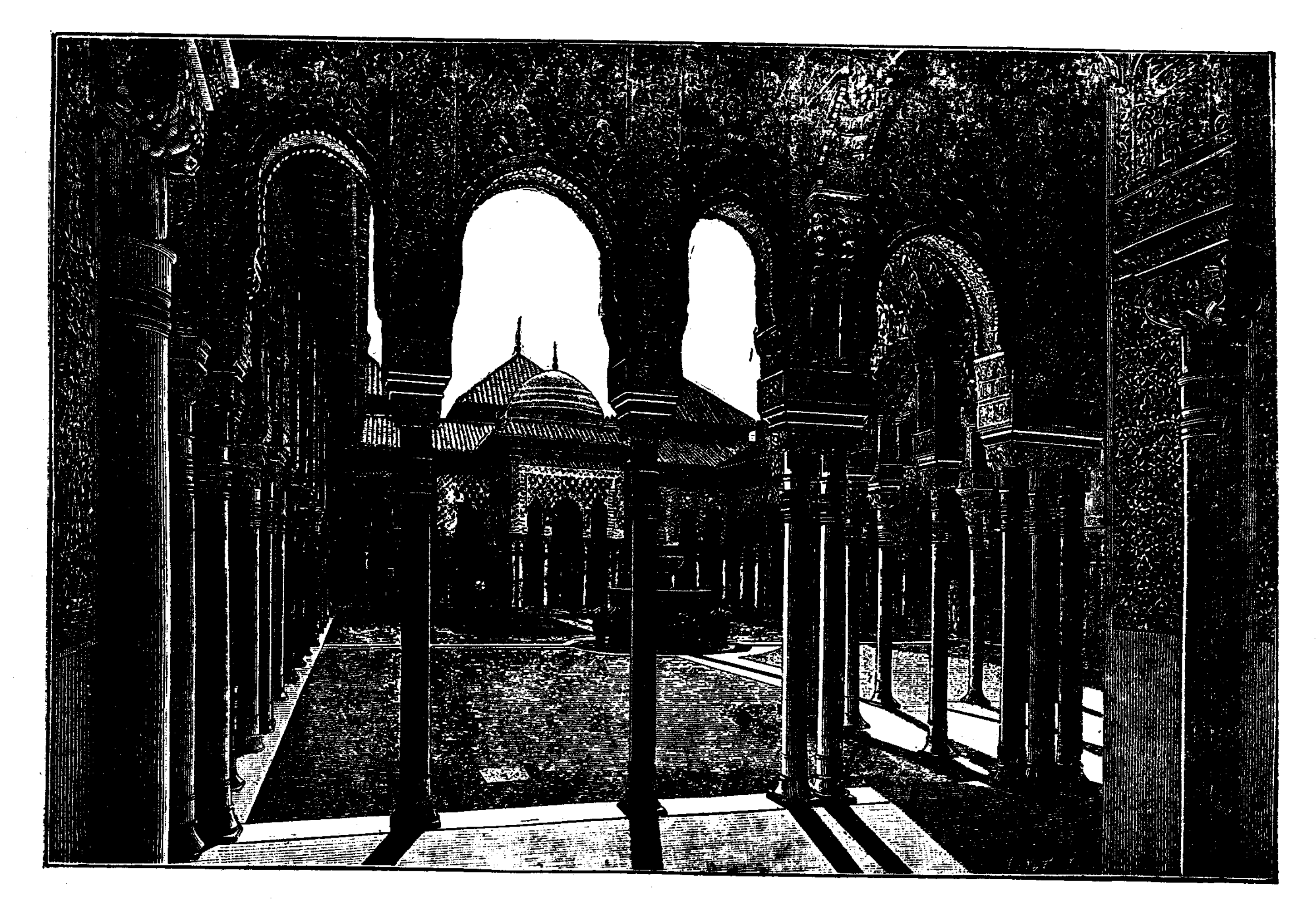
ويُعَدُّ بالألوف ما تَمَّ فى طُلَيْطِلَة من ضروب الزخارف على يد عمالٍ من العرب كانوا من رعايا النصارى قبل إجلاء العرب العامّ الذى حَدَث بعد فتح النصارى لجميع بلاد إسپانية ، وإلى هؤلاء العمال العرب يعود الفضل فيما ترى من دقائق النقوش والزينة فى مبانى طُلَيْطِلَة التى شِيدَت على الطِّراز الرُّومنى أو الطراز القوطىّ ، وقد نشأ عن هذا المَزْج بين الطراز العربىّ والطِّراز النصرانىّ ذلك الطرازُ الذى يُسَمَّى المدَجَّن ، والذى اتصل أمرُه فى إسپانية زمناً طويلاً ، والذى لم يَعْفُ أَثَرُه فيها كما تشهد بذلك بعض الأبنية التى شِيدَت فى أَشْبِيلِيَّة حديثاً .

المبانى العربية فى أَشْبِيلِيَّة . — يُرَى فى أشبيلية ، كما يرى فى طُلَيْطِلَة ، أثرٌ للعرب فى كلّ خُطْوَة ، وإن كان ذلك بمعنًى آخر ، فإذا نظرتَ إلى أكثر بيوت أَشْبِيلِية العربية العصرية رأيتَه مبنياً على الطِّراز العربىّ ، وإذا نظرتَ إلى الرقص البلدىّ والموسيقا المحلية فى أشبيلية رأيتهما على النَّهْج العربىّ ، وإذا نظرتَ إلى نِسْوَة أَشْبيلية ، على الخصوص ، رأيتَ الدَّم العربىّ يجرى فى عروقهنّ .

وإن البرج المُسَمَّى لاجيرالدة (برجَ لُعْبَة الهواء) هو أقدمُ المبانى العربية فى أشبيلية ، وهو بناء جميلٌ مُرَبَّع مبنىٌّ من الآجُرِّ الوَرْدِىِّ ، وهو يشابه بُرْجَ مار مُرْقس فى البندقية وأكثر مناور إفريقية ، وإننى أرجح أن يكون قد بُنِيَ مئذنةً للمسجد الجامع الذى أقامه المنصور فى سنة ١١٩٥ م .

ووجوهُ برج لاجيرالدة الخارجيةُ مستورةٌ بشبكةٍ من النقوش المحفورة ومن النوافذ ذات الأقواس المصنوع بعضها على شكل نعل الفرس والمصنوع بعضها الآخر على رسم البيكارين ، وكان يعلو ذلك البرجَ كُرَةٌ مَعْدَنية مُذْهَبة فأزالها الإسپان وبَنَوْا فى محلها برجاً للناقوس ، ثم وَضَعوا فوق هذا البرج تمثالاً ليكون رمزاً للإيمان .

والقصرُ الأَشْبِيلِىّ قصرٌ عربىّ قديم يَرْجِع إنشاؤه إلى أدوار مختلفة ، وقد بُدِئَ بإنشائه فى القرن الحادى عشر ، وشِيدَ مُعْظَمه فى القرن الثالثَ عشرَ ، و بَنَى مُقَدَّمَه عمالٌ من العرب فى عهد الطاغية بِطْرُه ، ثم حاول شارلكن أن يُزَوِّقه فأضاف إليه من الزخارف الإغريقية الرومية ما دلَّ على فساد ذوق الصانع .



١٤٢ ــ قاعة الأسود فى قصر الحمراء (من صورة فوتوغرافية)

واتخذ ملوك النصارى قصرَ أشْبيلِيَّة منزلاً لهم، ويُعَدُّ البناء الوحيد الذى حُفِظ من نوعه فى إسبانية، وإن الناظر إلى ردَاهِ هذا القصر المزخرفة بشتَّى الألوان، والتى أزال الـكلسَ عنها دوك مُونْبانْسِيه بعد أن كَلَّسها الإسبان وَفْقَ عاداتهم، ليَتَمَثَّل ما كانت عليه رِدَاه الحمراء قبل أن يُـكَلِّسها الإسبان أيضاً، وإن رَدْهَة الصبايا اللائى كان النصارى يقدمون مئةً منهنَّ كجزيةٍ إلى ملوك المغاربة فى أشْبيلية فى كلِّ سنة، كما رُوِىَ، وكذلك رَدْهَةُ السفراء، هما من أروع رِدَاهِ القصر الأشْبيلِيِّ، وتُعَدُّ ردهَةُ السفراء هذه من العجائب بغير ما أضيف إليها من الزُّخْرُف الرخيص، وإذا استثنينا مبانىَ دمشق العربيةَ وبعضَ مساجد القاهرة العربيةِ لم نرَ فى غير القصر الأشْبيلِيِّ تلك السقوف المُغطَّاةَ بالخشْبان المحفورة المطْلِيَّة المُذَهَبة التى يفتخر أثمنُ قصورنا باشتماله على مثلها.

والحقُّ أن أشْبيلية أكثرُ مدن إسبانية حياةً وتمدنًا، وهى نقيض غَرْناطة التى حافظت على تَوَحُّش القرون الوسطى وعلى كُرْهها الشديد للأجانب.

المبانى العربية فى غَرْناطة. — تتَجَلَّى عظمة فَنِّ العِمارة العربىِّ الأندلسىِّ فى قصر الحمراء الذى أُنشِىء فى القرنِ الرابعَ عشرَ من الميلاد.

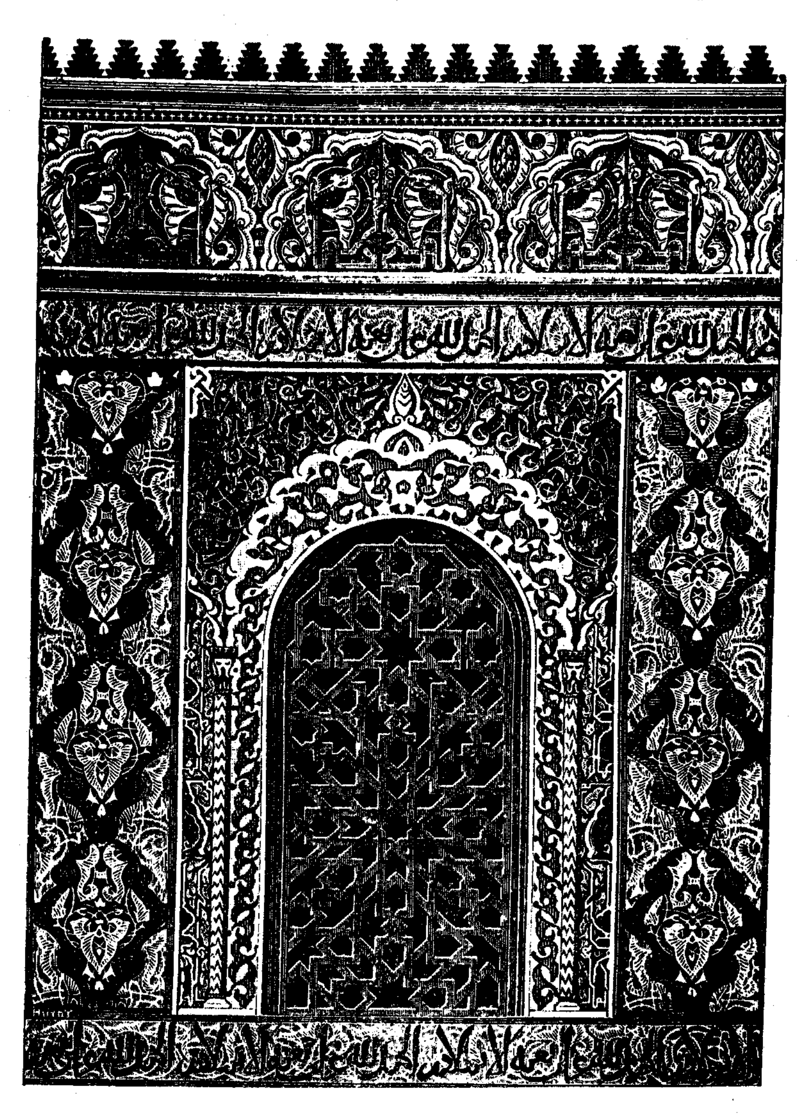
أُقِيمَ قصرُ الحمراء على مُنْحَدر جبل شلير الذى يُشْرِف على مدينة غَرْناطة وعلى المُرُوج الواسعة الخصِيبة، والذى يُعَدُّ من أجمل أمكنة العالم.

وإذا ما نَظَر المرء إلى الحمراء من أسفل الصخور التى تُتَوِّجها رآها أبراجاً مُرَبَّعة ذات ألوانٍ قِرْمِزية يناطح أعلاها السحابَ ويُسْفِر أدناها عن نباتٍ أخضرَ كثيفٍ، وإذا ما مَرَّ المرء من تحت الأشجار التى تَحُفُّ بها وَسَمِع تغريد الطيور التى عليها وخريرَ الماء الذى يجرى فى السواقى والقَنَوات القريبة منها فدخل ذلك القصر الشهير رأى ما تَغَنَّى به الشعراء، ولا سيما صاحبُ المَشْرقِيَّات (فُكْتور هُوغُو) الذى أنشد قائلاً:

«أَيَّتُها الحمراء! أيها القصر الذى زَيَّنَتْكَ الملائـكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام! أيتها القلعةُ ذات الشُّرَف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان والمائلة إلى الانهـدام! حينما تنعكس أشعة القمر الفِضية على جُدُرِكِ من خلال قناطركِ العربية يُسْمَع لكِ فى الليل صوتٌ يَسْحَر الألباب».

ويتعذّرُ وصفُ الحمراء بوصف دقيق ، وقلمُ الرسم وحدَه هو الذى يستطيع ذلك ، وهو ما نستعين به ، وما نشرنا فى هذا الكتاب من صُوَرٍ للحمراء يُغْنِي عن كلّ ما يمكن قوله .

وكلٌّ ما فى قصر الحمراء عجيب ، والمرء يقضى العَجَب من جُدْرانه المُزَيَّنَة بالنقوش العربية الأنيقة المحفورة المُفَرَّضَة وأقواسه المصنوعة على رسم البيكارين وقِبابه ذاتِ الزخارف الساحرة المُتَدَلِّيـة (المقرنصات) المَطْلِيَّة فيما مضى باللازَوَرْد والأُرْجُوان والإبريز .



١٤٣ ـ جزئيات نافذة فى قصر الحمراء

ولا تشابه الحمراء قصورَ أوربة مطلقاً ، شأنُ كثيرٍ من القصور العربية ، فهي عاطلةٌ من

المُقَدَّم ، وتنحصر زخارفها فى داخلها الذى نرَى كلَّ شىء فيه عجيباً ، وإن كان صغيراً ، وليس فيها رِدَاءٌ فَخْمَةٌ مُمِلَّة باردة مثلُ رِدَاه قصورنا الأوربية رُسِمَت ليُعْجَب بها الزائرون ، لا لتلائم ساكنيها .

ويمكننا أن نتمثَّل حياةَ ملوكِ العرب عندالنظر إلى الحمراء ، فالعينُ لاترَى من نوافذها غيرَ آفاقٍ لا نهاية لها ، وهى تُثِير ذِكْرَياتِ ما كان يَحْدُث فى رياضها الغَنِّ التى كانت حظايا ملوكِ غَرْناطة، وقد كُنَّ من أجمل غوانى الغرب والشرق ، يتَفَيَّأْن فى غِياضها ويتَنَسَّمْن شَذا أزاهرها النادرة .

وكان يَحُفُّ بصاحب تلك العجائب جمعٌ من المتفننين والعلماء والأدباء الذين كانوا أعلامَ ذلك العصر ، وكان لذلك الصاحب أن يَعُدَّ الملوكَ الآخرين من الحاسدين له ، وكان له أن يكتب على باب قصره كما صنع ذلك الملك الهندىُّ الذى حَكَتْ عنه القصة : « إن كان فى الأرض فردوسٌ فهو هذا ! » .

واشتهر أهمُّ أقسام قصر الحمراء بفضل الفوتوغرافية والرسم ، فذاع صيت قاعة الأسود وغرفة الأختين وحجرة بنى سراج ورَدْهَةِ العدل ، والقارئُ الذى يُنْعِم النظر فى الصُّوَر التى نشرناها عن تلك الأقسام فى هذا الكتاب يرى أنها ليست دون شهرتها ، وانتهت الشهرة إلى قاعة الأسود على الخصوص ، قال جيرُول دُوبرَانجه : « يَعْجِز الإنسان عن بيان مايَشْعُر به حين يَمُرّ من قاعة البركة ويدخل قاعة الأسود فيرى فيها الأروقة التى تُزَيِّنها الأقواسُ المُنوَّعةُ المزخرفةُ بالنقوش المُزْهِرة والزخارف المُتَدَلِّية والتخاريمِ التى كانت ذهبيةً مُلَوَّنةً ، وتَقَعُ عينهُ على غابة من الأعمدة الهيف التى وُضِع بعضُها منفرداً وبعضها مزدوجاً وبعضها مجتمعاً على شكلٍ بديعٍ فيُبْصِرُ من خِلالها التماعَ مِياه فِسْقِيَّة الأسود المُتَدَفِّقة » .

وتقول القِصَّةُ إن رِقاب بنى سِرَاج الستة والثلاثين ضُرِبَت على تلك الفِسْقِيَّة ، وتقول العامَّة إنه يُشاهد فى كل ليلة طَيْفُ أولئك القَتْلَى متوعِّداً متهدِّداً .

ولا تَمُتُّ أُسود تلك الفِسْقِيَّة إلى أىِّ حيوانٍ بوجهٍ شبهِ حقيقىّ ، فهى ناقصة الشكل نقصاً قَصَده المَثَّالون الذين أرادوا بها نوعاً من الزينة .

ويكاد زائرو الحمراء لا يُصَدِّقون ، أولَ وَهْلَةٍ ، أن زخارف جُدْرانها منقوشةٌ على الجِصِّ، لا على

الحجارة ، كما هو الأمرُ فى القاهرة والهند ، ويَرَى أولئك الزائرون الذين يتأملون قُرَن تلك الزخارف وسطها الأملس المصقول أن من المستحيل أَلَّا تـكون منقوشةً على الرُّخام ، ولم أَرَ أنها من الجِصِّ إلا بعد أن حَلَّل لى أحد أعضاء المجمع العلميِّ ، مسيو فريدِل ، قطعةً صغيرة منها .

والجِصُّ الممزوج بقليل من الموادّ العُضْوِيَّة هو ، إذَنْ ، ماصُنِعَت منـه جميعُ نقوش الحمراء ، ولا نستطيع سوى الاعتراف بإتقان صُنْع ذلك الجِصِّ الذى قاوم تقلبات الجوِّ خمسَمئةِ سنةٍ من غير أن يَفْسُد ، ولا أعتقد أن مهندساً أوربيًّا فى الوقت الحاضر يمـكنه أن يعاهد على صنع نوع من الجِصِّ يستطيع أن يدوم مثل هذا الزمن الطويل بلا عَطَب .

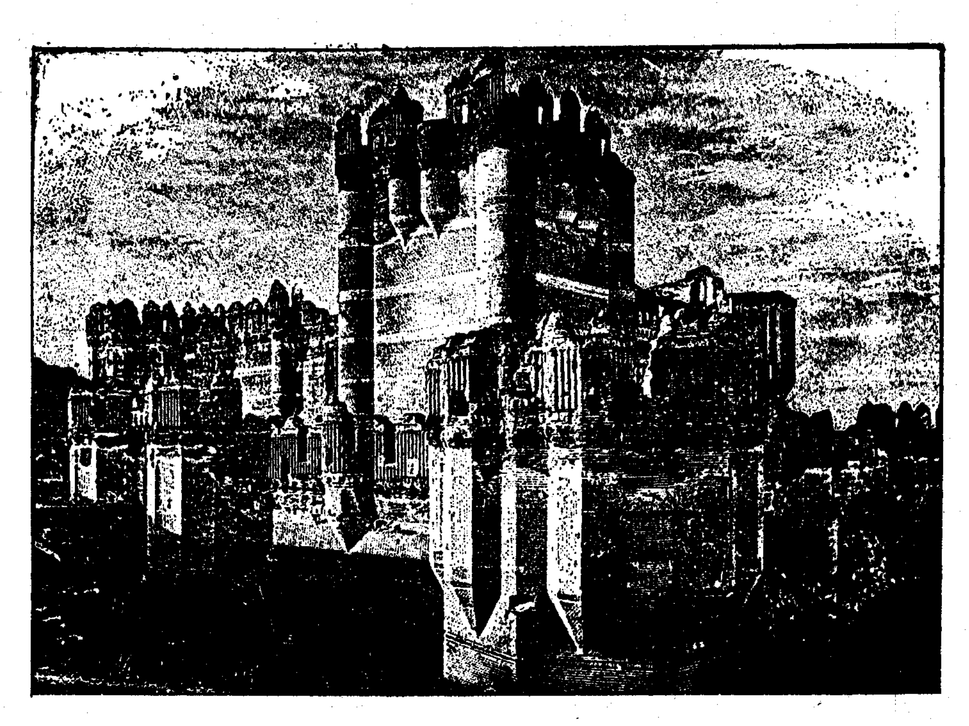
ولا يُسْتَدَلُّ على بقاء جُـدُر الحمراء بملاءمة جَوِّ إسپانية لهـا ماتَطَرَّق الفساد إلى أجزائهـا التى رُمِّمَت بعد إجلاء العرب بزمن طويل ، ويُعْرَف هـذا الفساد ، بسهولة ، من انثلام تلك الأجزاء المُرَمَّمَة وانخفاضِها وانتفاخها .

وقَصَّ جميع رجال الفنِّ الذين زاروا قصرَ الحمراء العجيبَ ، والأَلَمُ مِلء قلوبهم ، مالا يكاد العقل يُصَدِّقه من أنباء التخريب الفظيع الذى أحدثه الإسپان فيه ، فقـد هَـدَم شارلـكن قسماً مهمًّا منه ليُنْشِىء فى مكانه بناء ثقيلاً ، وعَدَّته جميع الحـكومات الإسپانية مجموعة من الخرائب القديمة التى لا تنفع لغير الاستفادة من موادِّها،قال مسيو دَفِلْيه فى كتابه عن إسپانية:« لقد بيعت ألواح الميناءالتى كانت تُزَيِّن رِداه الحمراء منذ بضع سنين لصنع المِلاط ، وبِيعَ بابُ مسجدها البرونزيُّ كنحاس عتيق، وحُرِّقَت منها أبوابُ رَدْهَةِ بنى سِراج الخشبيةُ الأنيقة كما يُحْرَق الحطب ، ثم اتُّخِذ من رداهها الجميلة سجونٌ للمجرمين ومخازنُ للمِيرة بعد أن بِيعَ ما أمكن نزْعُه منها » .

وأراد الإسپان تطهيرَ جُدْران الحمراء المُزَيَّنَةِ بالنقوش العربية الجميلة ، فـكَسَوْها طبقةً كثيفة من الـكلس ، ويظهر أن التـكليس الذى تَساوَى فى حُبِّه الإسپان والإنـكليز هو مما يرغب فيـه بعض الشعوب المتمدنة التى لاترَى ماهو أطيبُ منه للزينة (١) ، وهو مما يَرُوق بالتدريج أولئك الأوربيين الذين يَرَوْن فيه مظهراً للمساواة ووَحْدَة الشـكل المبتذلة .

(١) من المفيد أن نذكر الفرق العظيم بين عدم اكتراث الإسبان لما فى بلادهم من التحف الفنية وعبادة الإيطاليين لما احتوت بلادهم من نظائرها ، فالسياح الذين زاروا فلورنسة يعلمون أن سكانها يحترمون مااشتملت عليه من التماثيل كتمثال بيرسة وتمثال اختطاف بنات سابين وغيرهما من التماثيل الفريدة القائمة فى أحد الميادين العامة .

ولمَّا يَمْضِ زمنٌ طويلٌ على تذمر المتفننين من تخريب قصر الحمراء ، ونزَعَ أولو الأمر من الإسپان إلى المحافظة على ما بَقِيَ من هـذا القصر الساحر بعد أن قيل لأهل غَرْناطة ، غيرَ مرةٍ ، إنهم يَمْلِكون به إحدى العجائب التى تَجْلِبُ إليهم السُّيَّاحَ من كل جانب ، فأزيل شىء من الكلس



١٤٤ ــ قصر شقوبية (من صورة فوتوغرافية)

الذى سُتِرَت به تلك النقوشُ العربية ، وبُدِئَ بالترميم ، والإسپانُ عاملون على ذلك ببطء لعدم وجود عمالٍ فى إسپانية قادرين على إنجاز هذا الترميم الذى يَسْهُل أمرُه عند النظر إلى النماذج .

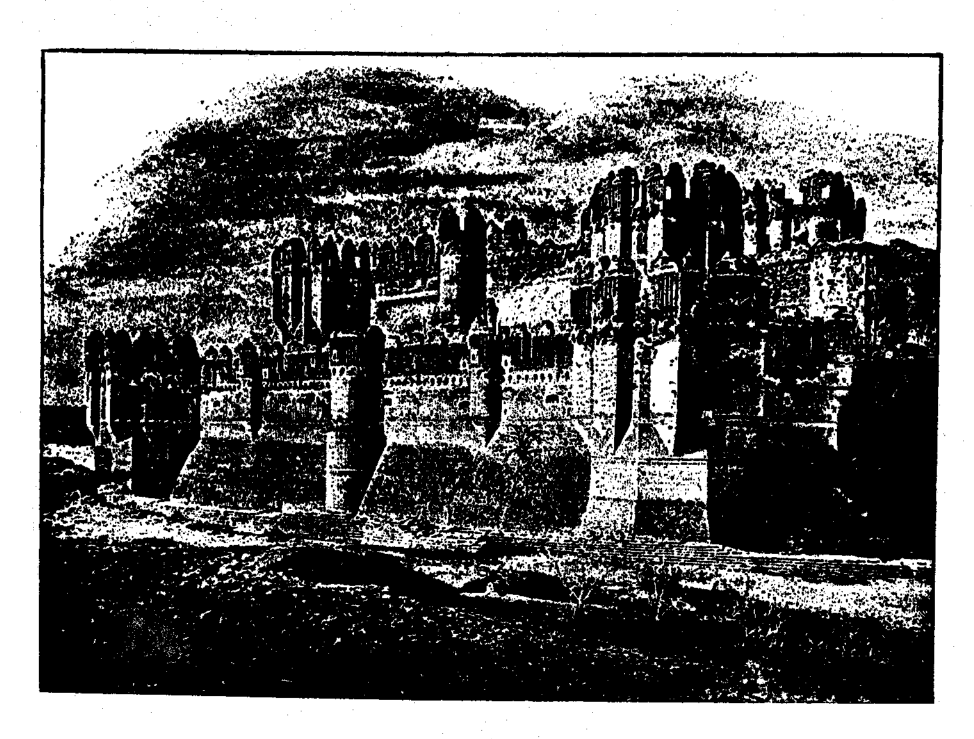
= وشاهدت الناس فى غرناطة يلتهون يوم الأحد بتكسير نقوش بقايا قصر شارلكن بما كانوا يرمون عليها من الحجارة ، ولما زرت قصر الإسكوريال القائم الذى بناه فليب الثانى ، والذى تجلت فيه روح إسپان ذلك الزمن الكئيبة كتجلى روح العرب فى الحمراء ، استوقف نظرى ما رأيت من الكشط فى زخارف رواقه ، وأنبأنى حارس القصر أن الناس يصنعون ذلك فى كل يوم أحد بعصيهم ومدياتهم .

وأعتقدأن الذى يقترفمثل هذا العمل فى قصر پيتىالفلورنسى يجازى بسلخ جلده حياً أو رجمه بلا رحمة مع ما اتصفبه أهل فلورنسة من دماثة الخلق .

ومن دواعى السرور أن أصبحت طبقة الإسپان الراقية ، على الأقل ، تتذوق قليلا ما فى تحفالفن من المعانى ، وذلك كما هو واضح من الكتابين المهمين اللذين نشرا حديثاً فى إسپانية عما فيها من الآثار القديمة ، التى يمكن أن تثير حسد جميع الأمم ، وقد أشرت إليهما فى مقدمة هذا الكتاب .

ويُرَى بجانب الحمراء قصرٌ عربىٌّ آخرُ يُسَمَّى جَنَّةَ العريف ، وقد بالغ الإسپان فى تكليس جدران هذا القصر ، فصِرْتَ لا تستطيع أن تتمثل حالَته الأولى ، وصار لا يستحقُّ الحماسةَ التى يَصِفُه بها مُطَوِّفو السُّيَّاح خلا روضَته .

وأما مدينة غَرْناطة فلا أنصحُ أحداً بأن يزورها بعد أن وَصَفَها شعراء العرب بأنها أنضرُ مدينة تنالها أشعةُ الشمس و بأنها دمشق الأندلس .



١٤٥ ــ قصر شقوبية (من صورة فوتوغرافية)

ولا أَقْدِر أن أَصِف الحال التى كانت عليها غَرْناطة فيما مضى ، ولكن غَرْناطة الحديثة لم تكن سوى قريةٍ كبيرة كئيبة قَذِرَة ليس فيها ما يَجْدُر ذكره غيرُ كتدرائيتها الفخمة وحمرائها فضلاً عن أنها قائمةٌ على مكانٍ يُعَدُّ من أجمل أمكنة العالم ، ولم تُبْنَ بيوتُها الحديثة على طِراز معروف ، وأَمْعَنْتُ فى البحث عن زخارفها التى قَصَّ أدباء معاصرون مشهورون علينا خبرَها فلم أجِدْ لها أثراً .

حقا لم تكن غَرْناطةُ الجديدةُ سوى مدينـة مَيِّتَة ، ويُعْرَف أهلها بأنهم من الجَهَـلَة الثُّقَلاء البعيدين من القِرَى ، وهى نقيضُ مدينة أشْبِيلِيَّة التى تُشَاهَد فيها مَسْحَةٌ من الحياة ، والتى تَجِدُ فيها من بائعى الـكتب مالا تَجِدُ فى غَرْناطة .

أكتفى بذكر ما تَقَدَّم من مبـانى العرب ، فإذا أضفنا إليه قصرَ شقوبية وبعضَ الأبنية التى نتـكلم عنها فى الفصل الذى خَصَّصْناه للبحث فى تأثير العرب فى أوربة كانت لدينا صورةٌ كافيـة للآثار العربية الماثلة الآن فى إسپانية والتى هى بقايا عصرٍ زاهر ، والتى تكفى وحدَها للدلالة على عظمة العرب ولولم يَنْتَهِ إلينا شىء من علومهم وآدابهم .

الفصل السابع

العرب في صقلية وإيطالية وفرنسة

---

١ — العرب فى صِقِلّية وإيطالية

يَدُلُّنا دَرْسُ تاريخ العرب فى مختلف الأقطار التى دخلوها على أن لِغزَواتهم مناحىَ مختلفةً ، أى يَدُلّنا على أنهم إما أن يكونوا قد أغاروا عليها ليستقروا بها نهائيًّا وإما أن يكونوا قد اكتفَوْا بغزوهم الخاطف لها ، فأما فى الحالة الأولى فقد كان من سياستهم الثابتة أن يكونوا على وِئام مع الأهلين المغلوبين وأن يحترموا دينهم وشرائعهم وأن يَكْتَفُوا بأخذ جِزْية طفيفة منهم كما صنعوا فى سورية ومصر وإسبانية ، وذلك خلافاً لعادة جميع الفاتحين فى زمانهم ، وأما فى الحالة الثانية فقد ساروا على سياسة كلِّ فاتح ، فعَدُّوا البلادَ التى أغاروا عليها كإيطالية ، وفرنسة على الخصوص ، من الفرائس وانتهبوا بسرعةٍ ماوَصَلت إليه أيديهم منها ، وخَرَّبوا فيها مالم يَقْدِروا على حَمْلِه غيرَ مبالين بسكانها .

وسار العرب على ذينك النَّجْدَيْن فى صِقِلّية ، فبما أن عدد من أغار منهم على صِقِلّيَة وعلى قطعة من إيطالية كان قليلاً وَقَفُوا عند حدِّ الغَزْو الموقت وما ينشأ عنه عادةً من التخريب والنهب وقتلِ مَن يقاوم من الأهلين ثم العودةِ السريعة ، ولما تكررت غَزَواتهم لتلك البلاد وأصابهم فيها من النجاح والتوفيق ما أصابهم رأَوْا أن يستقروا بها وأن يُحْسِنُوا سياسة أهلها ، ولما رَسَخَت أقدامهم فيها كَفُّوا عن عادة نهبها وأنعموا عليها بِنَعم الحضارة ، وكان لهم فيها مثلُ ما كان لهم فى إسبانية من الأثر النافع البالغ .

ويُمْكِننا ، ببيان هذه الفروق الأساسية فى سياسة العرب، إدراكُ تاريخ العرب فى مختلف الأقطار التى استولَوْا عليها وإيضاحُ عِلَّة اختلاف سياسة العرب أنفسهم فى البلدان المتجاورة .

ومسلمو إفريقية هم الذين غَزَوْا صِقِلِّيَة وإيطالية ، وأكثرُ هؤلاء المسلمين من البربر لِما كان من قِلَّة عدد العرب فى ذلك الدور ، وهؤلاء البربر من أشدِّ الشعوب التى دانت لشريعة الرسول بأساً وأضعفِهم تمدُّناً كما ذكرنا .

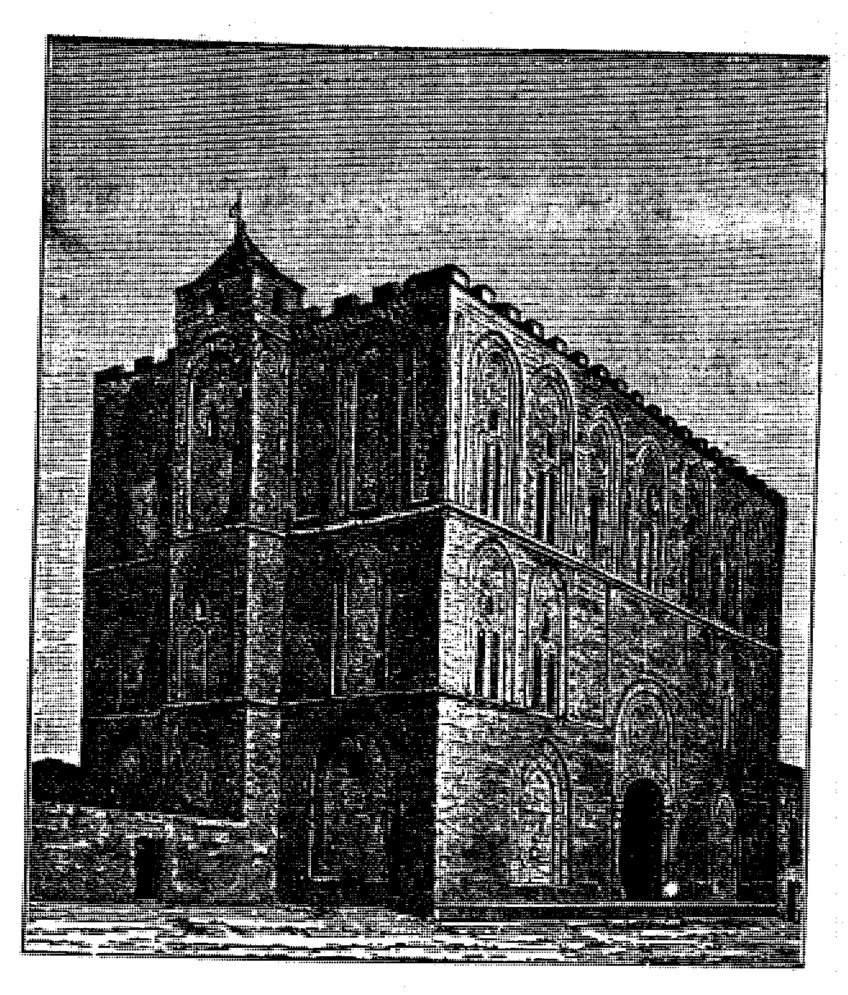
وأغار العرب على صِقِلِّيَة وجُزُر البحر المتوسط بِضْعَ مراتٍ منذ القرن الأول من الهجرة ، ولم يحاول العرب الاستيلاء على صِقِلِّيَة جِدِّيًّا إلّا فى أوائل القرن الثالث من الهجرة حين استقلَّ شمال إفريقية عن خلافة المشرق ، وحين حَدَث ماشَجَّعَهُمْ على ذلك .

وكانت جزيرة صِقِلِّيَة من أعمال حكومة بزنطة ، وكانت حكومة بزنطة ترسل إليها حكاماً ليمارسوا السلطةَ فيها ، ومما حدث أن عُهِدَ إلى أمير البحر أو فيميوس (فيمى) فى الدفاع عنها ، وأن عَلِم أو فيميوس أن قيصر بزنطة أمر بقتله ، وأنْ قَتَلَ أو فيميوسُ حاكمَ صِقِلِّيَة ونَصَب نفسه أميراً عليها ، وأن ثار أهلها عليه ففَرَّ إلى إفريقية طالباً حماية المسلمين ، وأن عاد إلى صِقِلِّية مع جيش من المسلمين لم يلبث أن سار على حساب نفسه ، فأتمَّ فتحَ صِقِلية بدخوله بَلَرْمَ بعد وقائعَ دامت بضعَ سنين (٢١٢ هـ — ٢١٧ هـ) .

ولم يقتصر العرب ، بمقاتلتهم الرومَ ، على غَزْوِ صِقِلِّية ، فقد استولَوْا على جَنوب إيطالية أيضاً ، وبلغوا فى تقدمهم ضواحيَ رومة ، وأحرقوا كنيسة القديس بطرس وكنيسةَ القديس بولس اللتين كانتا قائمتين خارجَ أسوار رومة ، ولم يَرْجِعوا عنها إلا بعد أن وَعَدهم البابا يوحنا الثامن بدفع جِزْيةٍ إليهم ، واسْتَوْلَى العرب على مدينة برنديزى الواقعة على شاطىء البحر الأدرياتىِّ ومدينةِ تارانت وأغاروا على دوكية بِنِيفِنْت ، وصاروا سادةَ البحر المطلقين بفتحهم صِقِلِّيَة وأهمَّ جُزُرِ إيطالية وقورسقة وقندية (الخندق) ومالطة وجميعَ جُزُر البحر المتوسط ، ولم يَسَع البندقية إزاء ذلك إلا أن تَعْدِل عن محاربتهم لطويل زمن .

والنورمانُ هم الذين قَضَوْا على سلطان العرب السياسىِّ فى صِقِلِّيَة فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، وداومَ العربُ ، بعد زوال سيادتهم ، على القيام برسالتهم الثَّقافية فيها كبيرَ وقتٍ ، وذلك أن ملوك النورمان ، إذْ كانوا من الذكاء مايستطيعون أن يدركوا به تفوقَ العرب العظيم استندوا إلى العرب فظلَّ نفوذ أتباع الرسول فى أيامهم بالغاً .

وإذْ كان لتاريخ النورمان صلةٌ وثيقة بتاريخ العرب فى صِقِلّية رأيتُ أن أُحَدِّث عن وقائعهم بإيجازٍ لفَهْم تاريخ حضارة العرب فيها، ومن المفيد أيضاً أن أذكر أسلوبَ الحرب فى ذلك الزمن وأن أُبَيِّن أعمال التخريب ، التى لَامَ مؤرخو اللاتين العربَ عليها ، هى مما كان يَسْتبيحه مقاتلو جميع الأمم .



١٤٦ ــ مقدم قصر العزيزة العربى فى صقلية (من صورة فوتوغرافية)

نَعُدُّ الأحوالَ التى ساقت النورمانَ من أمكنة بعيدة إلى فتح صِقِلّية من غريب الحوادث ، وذلك أن كَوْكَبة من فرسان الفَرَنج والنورمان كانت قادمة ، حوالَىْ سنة ١٠١٥ م ، من بيت المقدس إلى جَنوب إيطالية لتزور ، وَفْقَ العادة ، غارَ جبل غورغانو الذى اشتهر بظهور المَلَك ميكائيل فيه ، وأن

كونت أڤيلينو ، روفريدَ ، لما عَلِمَ ذلك استنجد بهم للدفاع عن ساليرم التى كان العرب يحاصرونها ، وأنهم استطاعوا أن يدخلوها وأن يَشُدُّوا عزائمَ أهلها الذين لم يلبثوا أن فكُّوا الحِصار وهزموا العرب ، وأن أهل ساليرم وأميرَهم فَرِحوا بذلك ودارت الحمية فى رؤوسهم ، فأجزلوا عطاء أولئك الغرباء ودَعَوْهم إلى الإقامة بين ظَهْرَانَيْهم .

ومع أن أولئك الحُجَّاج لم يرْضَوْا بذلك لرغبتهم فى رؤية وطنهم مرةً ثانية وَعَدُوا بأن يبعثوا إليهم فِتْياناً منهم للدفاع عن النصرانية ببسالة ، ثم توجهوا إلى وطنهم الذى كانوا فى أشدِّ الشَّوْق إليه وأخذوا معهم من الهدايا نسائجَ ثمينةً وحُلَلاً فاخرة وسُرُوجاً ذهبيةً وفضيةً زاهية ، وما لم تَعرِفه فرنسة قبل ذلك الزمن من البرتقال الناضج ، قاصدين بذلك أن يرَى بنو قومهم تلك المُنْتَجاتِ وأن يَتَشَوَّقوا إلى زيارة ذلك القطر الذى يُنْتِج مثلها .

ولم يَكَد أولئك الفرسان النورمان يَصِلون إلى وطنهم حتى أخذوا يَقُصُّون على أهله من الأنباء ما ألهبوا به حميتهم وما دفعوا به عدداً كبيراً منهم إلى غزو صِقِلِّية .

ذلك هو سبب غارة النورمان الذين كان هَمُّهم مصروفاً إلى النهب على حسب عادة ذلك الزمن أكثرَ مما هو مصروف إلى الدفاع عن دينهم ، والذين تساوى الأغارقة والإيطاليون والعرب فى نظرهم فصاروا يَسْلُبون هؤلاء جميعاً بنشاط ، والذين عَدُّوا فى خمسين سنة ، أى حتى تمَّ لهم الفتح ، جزيرةَ صِقِلِّية وما جاورها من إيطالية بلاداً مباركةً يمكن الاغتناء فيها بسهولة .

ولم ينشأ عن أعمال حُماة الدين من النورمان سوى تخريب تلك البلاد بسرعة ، ولم يَلْبَثْ أهلوها أن اعترفوا بأن صداقة فرسان النورمان أشدُّ وِقْراً من عداوة العرب ، فاستغاثوا بالبابا ليُنْقِذَهم من النورمان ، ولم يُجْدِ إنذارُ البابا للنورمان نفعاً ، فأرسل إلى قيصر القسطنطينية كتاباً يَدُلُّنا على سوء معاملة جيشٍ نصرانىّ فى ذلك الزمن لبلاد صديقة استولى عليها .

وإليك كتابَ البابا ليون التاسع الذى بعث به إلى قيصر القسطنطينية :

يكاد قلبى يَتَفَطَّر من الأخبار المحزنة التى أنبأنى بها رُسُل ابنى أرجيروس ، فعزمتُ على تطهير إيطالية من ظلم هؤلاء الأجانب النورمان المَردة الأشرار الزَّنادِقة الذى لايحترمون شيئاً عند اندفاعهم ،

والذين يَذْبَحون النصارى ويسومونهم أشدَّ العذاب غيرَ راحمين ولا مفرقين بين الجنسين والأعمار ، والذين يَنْهَبون الكنائس ويُحرِّقونها ويَهْدِمونها ، والذين يَعُدُّونَ كلَّ شيء فريسةً يُباح سلبها ، والذين أكثرتُ من لَوْمهم على فسادهم ومن إنذارهم بسوء أحكامى وخَوَّفْتهم من سَخَط الرَّبِّ ، فلم يَزِدْهم ذلك إلا عُتوًّا ، فكان أمرهم كقول الحكيم : إن من يتركه الرَّبُّ يظلُّ خبيثاً على الدوام وإن من يكون مجنوناً لا يُصْلِحه الكلام . ولهذا فقد عَزَمْتُ على شهر الحرب الدينية المشروعة على هؤلاء الغرباء الثُّقلاء الذين أمعنوا فى الظلم وصار أمرهم لا يُطاق ، وهذا دفاعاً عن الشعوب والكنائس » .

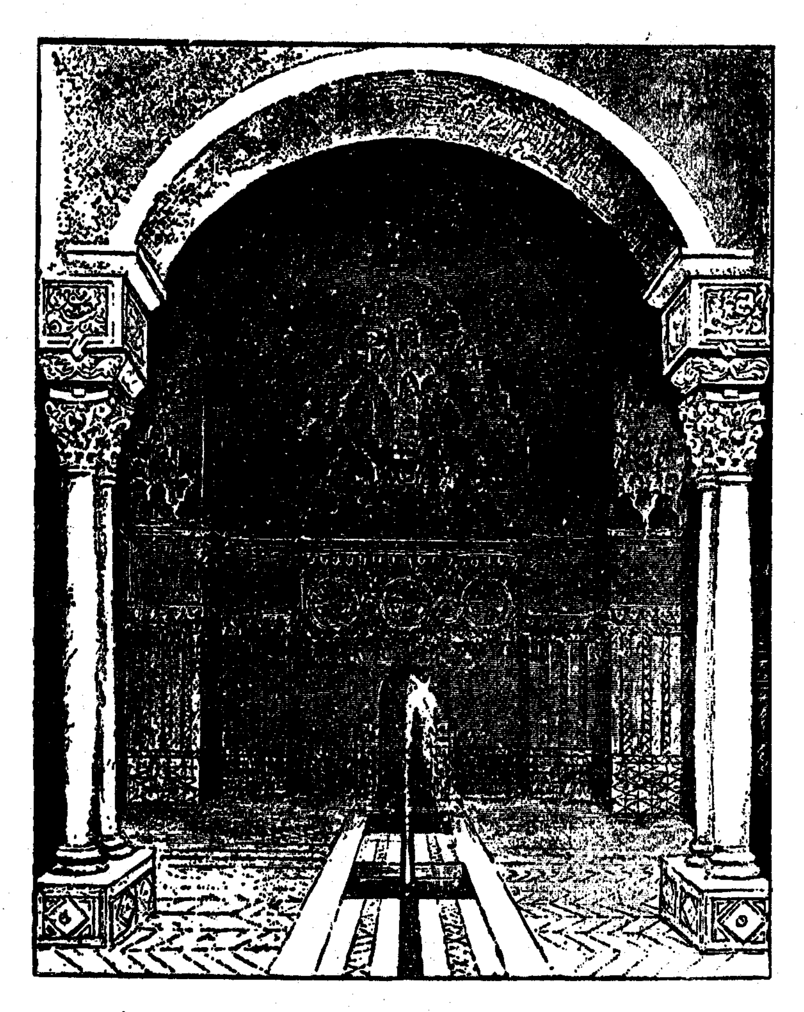
وإذ لم ينل البابا ليونُ التاسع أَيَّةَ مساعدةٍ من قيصر الروم سَعَى إلى عقد حِلْفٍ ضدَّ النورمان ، وخاطب الألمانَ فى ذلك ، ورأى الأُسْقفُ أيشتات عاراً فى قيادة البابا الجيشَ يحارب به النصارى ، ومَنَع ملكَ جرمانية ، هنرى الثالث ، من الانضمام إليه ، هنالك جمع البابا جيشاً أكثرَ عدداً من الجيش النورمانىّ ، وهجم على النورمان بصولةٍ مُتوَكِّلاً على الربِّ فكُسِرَ وأُسرَ ، وهنالك حاول البابا أن يستعطف قاهريه فاستردَّ حِرْمانه إياهم ومَنَحَهم البَرَكة ، ولم يُؤثِّر هذا فى مشاعر النورمان ، ولم يُسَرِّحوه إلا بعد سنة وبعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق الغليظة .

وداوم النورمان ، الذين خلالهم الجوُّ بذلك على اقتراف جرائم النهب عَمْداً فى صِقِلية وإيطالية ، ودام النزاع بين الحاكمين والمحكومين زمناً طويلاً ، وتعوَّده الأهلون ، وصاروا يَأْلَفون مايقع كلَّ يوم من حوادث السلب والقتل التى قَصَّ المؤرخون خبرَ كثيرٍ منها كما لو كان ذلك من الوقائع اليومية التى لا أهمية لها ، ومن ذلك أن فرسان النورمان كانوا يفاجئون الأديارَ السيئةَ التحصين ويَسْلُبون كلَّ ما فيها ويَبْقَرُون بطون رهبانها على بَكْرَة أبيهم خشيةَ الفضيحة ، وأن الرهبان من ناحيتهم كانوا يَتَغَفلون بعضَ أولئك الفرسانِ بين حينٍ وآخر فينتقمون منهم أشدَّ الانتقام .

وتاريخُ اللاتين حافلٌ بوصف أنباء تلك المجاملات المتقابلة ، ومن بين ألف حادثةٍ منها أختارُ الخبرَ الآتىَ الذى اطَّلع عليه مسيو دُولَا بريمُودِيرِى فى وثائقِ رهبان جبل كاسِينُو للدلالة على طبائع أهل ذلك الزمن :

« صَعِد الكونت رَادُلْف فى جبل كاسينو ذاتَ يومٍ ، وكان معه خمسةَ عشرَ نورمانياً ، فترك هؤلاء النورمانُ ، على حسب العادة ، أسلحتَهم وخيولهم عند باب الدير الذى دخلوه للصلاة ، وبينما

كان هؤلاء النورمان جُثِيًّا أمام هيكل القديس بِنُوَا أغلق الرهبان أبواب الدير من فَوْرِهِم وقبضوا على تلك الأسلحة والخيول ودَقّوا النواقيس إيذاناً بالخطر ، فتَدَفَّقَ أنصار الدير كالسيل ، وهجموا على هؤلاء النورمان الذين لم يبقَ لهم ما يدافعون به عن أنفسهم سوى السُّبُحات التى كانت بأيديهم .



١٤٧ ــ داخل قصر العزيزة فى صقلية (من تصوير جيرول دوپرانجة)

« وذهب عبثاً ما تَضَرّعوا به لاحترام ذلك المكان المقدس الذى لم يَحْدُث أن احترموا أمثاله ، وذهب عَبَثاً قَسَمُهُم إنهم لم يدخلوا الدير إلا للعبادة وللاتفاق مع رئيسه ، فقد جعل الرهبان أصابعهم فى آذانهم ولم يَرْضَوْا أن يُضِيعوا ما سَنَح لهم من فُرْصَة الانتقام ، وقد قُتِل أصحابُ الكونتِ الخمسةَ عشرَ ،

ولم يَنْج الكونت نفسُه من القتل إلا بفضل شفاعة رئيس الدير الذى اهتبل هذه الفرصة فأعاد إلى الدير ما كان هذا الكونت قد اغتصبه من الأملاك والأموال، وقصرُ القديس أندره وحدَه هو الذى حاول المقاومة » .

واستمرَّ النورمان على نهب صِقِلِّية إلى أن فكَّر رئيسٌ ماهر من رؤسائهم ، اسمه روجر ، فى فتحها بحزم ، والفرصةُ كانت سانحة لتحقيق ذلك .

وكان الانقسام يأكل المسلمين ، وكان مابين العرب والبربر من المنافسة يقودها إلى الهلاك فى صِقِلِّيَة كما كان يقودها إليه فى إسپانية ، وكانت صِقِلِّيَة فى ذلك الزمن ، أى فى سنة ١٠٦١ م ، مُجزَّأة إلى الإمارات الخمس : بَلَرْم ومَسِّينَة وقَطانية وأطْرَابُنْش وجرجنتة ، وأطلق المؤرخون لقبَ مَلِك على أمير بَلَرْم، ولكن هذا الملك كان يقتتل هو والأمراء المسلمون الآخرون مع استيلاء النورمان على نصف جزيرة صِقِلِّيَة .

وجعل انقسامُ العرب فى صِقِلِّيَة فتحَ النورمان لها من الممكنات ، وتمَّ استيلاء النورمان عليها بدخولهم بَلَرْم سنة ١٠٧٢ ، فأفَل نجم العرب السياسىُّ عن صِقِلِّيَة فى تلك السنة وإن دام تأثيرُهم الثّقافىُّ بعدها زمناً طويلاً بفضل دِراية روجر وخلفائه .

وبدا روجر الأول ، الذى نودى به أميراً على صِقِلِّيَة ، مُنَظِّماً قديراً كما بدا مقاتلا شجاعاً، ويجب عَدُّه من أعاظم رجال زمنه ، ويستحقُّ ابنه الذى خَلَفه مثلَ هذا المديح .

وكانت حضارة العرب زاهرة فى صِقِلِّيَة حين فتحها النورمان ، وأدركَ روجرُ وخلفاؤه أفضليةَ أتباع النبىِّ فانتحلوا نُظُمهم وشملوهم برعايتهم ، وتمتَّعت صِقِلِّية برخاء دام إلى أن قبض ملوكٌ من السُّوآب على زمامها فى سنة ١١٩٤ م فأجْلَوا العرب عنها .

وكان يسكن صِقِلِّيَة ، حينما نَظَّمَ روجرُ أمورها ، خمسةُ شعوبٍ ذاتِ لغاتٍ وعادات مختلفة ، وهى : الفَرَنْجُ (النورمان ولاسيما البريتان) والأغارقةُ واللنبارُ واليهود والعرب ، وكان لكلٍّ من هذه الشعوب شريعةٌ خاصَّة، أى كان الأغارقة يعملون بقانون جوستنيان، واللنبارُ يعملون بالفقه اللنبارىّ

والنورمانُ يعملون بالفقه الفرنجيّ ، والعربُ يعملون بالقرآن ، وكان لابُدَّ لمن يريد أن يُحْسِن سياسة هذه الشعوب المختلفة من التَّحَلِّى بروح التسامح والعدل والإنصاف ، وكان العرب يدركون ذلك لجاء روجرُ فأدركه أيضاً ، وكانت إمامةُ الثّقافة والصِّناعة للمسلمين،فأخذ روجر يحافظ عليهم أحسن المحافظة وكانت مراسيم روجر تُكتب بالعربية واليونانية واللاتينية،وكان نصف الكتابة فى دائرة نقوده بالعربية والنصفُ الآخر باليونانية أو اللاتينية ، وكان بعضُها يشتمل على رمْزِ المسيح ، وبعضٌ منها يشتمل على رمز محمد ، وبعضٌ آخرُ يشتمل على كلا الرمزين .

وسار خلفاء روجرَ على سُنَّته ، ومنهم غليومُ الثانى الذى درس لغة العرب ، وكان يَرْجِع إليهم فى أهم شؤونه ، وكانوا يقابلون عطفه بإخلاصهم له ، فينْضَوون إليه ويساعدونه على إطفاء مايقع من الفِتَن .

وروى مؤرخو العرب أن عدد العرب فى صِقِلِّيَة أصبح كثيراً فى سنة ١١٨٤ م،أى بعد قرن من ذلك الفتح ، وأنه كان لهم فى بَلَرْم أحياء واسعةٌ ومساجدُ كثيرةٌ وأئمة وقاضٍ للفصل فى خصوماتهم، وأزهرَ بلاطُ ملوك النورمان فى صِقِلِّية بفضل العرب ، وبالغ أبو الفداء فى تقديره فشبَّهه ببَلاط الخلفاء فى بغداد وببَلاط الخلفاء فى القاهرة .

٢ — حضارة العرب فى صِقِلِّيَة

إن المصادر التى يُرْجع إليها فى تصوير حضارة العرب فى صِقِلِّيَة قليلةٌ ، وليس لدينا منها غيرُ ماهو مبعثر فى كتب المؤرخين من الفِقَر وقليلٍ من المبانى التى لم تنلها يد التخريب وبعضِ النقود ، وتكفى هذه المصادر ، مع ذلك ، لإثبات أن حضارة العرب كانت فى صِقِلِّيَة على شىء من التقدم ، وإن لم تكن مثلَ ما كانت عليه فى مصرَ وإسپانية ، وأن صِقِلِّيَة كانت حين جَلاء العرب عنها أرقى ثقافةً وصِناعة واجتماعيًّا منها حين دخلوها ، ونحن إذا علمنا أن قيمة تأثير إحدى الأمم فى أمة أخرى من ناحية الحضارة تُقَدَّر بمقدار نهوضها بها وإصلاحها لها رأينا أنه كان للعرب تأثيرٌ عظيم فى صِقِلِّيَة .

وعَقَب دورُ تنظيم العرب لصِقِلِّية دورَ فتحهم لها ، فقَسَّم العرب صِقِلِّيَة إلى ثلاث ولايات بعد أن كانت مقسومةً ، منذ زمن القرطاجيين إلى الولايتين : بَلَرْم وسَرَقُوسه ، فكان تقسيم العرب لها إلى ثلاث ولايات أكثرَ ملاءمة لجغرافيتها ، وكان على رأس كلٍّ واحدة من هذه الولايات الثلاث والٍ ، وكانت كلُّ ولاية مُقَسَّمَةً إلى عِدَّة أعمال ، وكان يقوم بشؤون كلٍّ واحد من هذه الأعمال قائدٌ تابع للوالى ، وكان يقيم ببَلَرْمَ مُفْتٍ ، وكان يقيم بكلٍّ ناحيةٍ قاضٍ ومسجلٌ ، وكان فى كلِّ مدينة جابٍ ، وكان يُشْرف على إدارة أمور المال والمحاسبة ديوانٌ كبير .

وتُرِك لنصارى صِقِلِّيـة كلُّ ما لا يَمَسّ النظامَ العامّ ، فكان للنصارى ، كما فى زمن الروم ، قوانينُهم المدنية والدينية وحكامٌ منهم للفصل فى خصوماتهم وجِبايةِ الجِزْية السنوية التى فرضها العرب عليهم ، وهى ٤٨ ديناراً عن كلِّ غَنِيٍّ ، و٢٤ ديناراً عن كلِّ مُوسِر ، و١٢ ديناراً عن كلِّ من يَكْسِب عَيْشَه بنفسه ، وكانت هذه الجِزْية ، التى هى دون ما كان يأخذه الروم ، لا تُؤْخَذ من رجال الدين والنساء والأولاد .

١٤٨ ـ جزئيات إحدى وجهات قصر القبة العربى فى صقلية (من صورة فوتوغرافية)

وجَعَل العربُ كلَّ ماله علاقة بالحقوق المدنية ، كالتملك والإرث وما إليهما ، ملائماً لعادات صِقِلِّيَة ، ولم يرغب النورمانُ عنه حين استولَوْا عليها .

وسَمح العرب ، فى أيام سلطانهم ، للنصارى بالمحافظة على قوانينهم وعاداتهم وحريتهم الدينية ، وقد رَوَى الدومينيكيُّ كورادين ، وكان رئيساً لدير القديسة كاترين فى بَلَرْم ، أن القساوسة كانوا



١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ — نقود نصرانية عربية لملوك النورمان فى صقلية

أحراراً فى الخروج لابسين حُلَلهم الدينية ليناولوا المَرْضَى القربان الأقدس ، وقد روى الأب مُورُكُولى أنه كان يُنْصَب فى الحَفَلات العامة بمَسِّينة رايتان : إحداهما إسلامية وعليها صورةُ بُرْجٍ أسودَ فى حقلٍ أخضرَ ، والأخرى نصرانيةٌ وعليها صورةُ صليب مُذَهَّب فى حقلٍ أحمرَ ، ولم يَمَسَّ العربُ الكنائسَ القائمة فى صِقِلّيَة حين فتحهم لها ، وإن لم يأذنوا لهم فى بناءِ كنائسَ جديدةٍ فيها كما كانوا يأذنون لنصارى إسپانية .

ولم تَكَدْ أقدامُ العرب ترْسُخ فى صِقِلّيَة حتى أقبلوا على الزِّراعة والصِّناعة ، فانتشلوهما بسرعةٍ من الانحطاط الذى كانتا فيه ، وأدخلوا إلى صِقِلّية زِراعةَ القطن وقصبِ السكر والدَّرْدَار[1] والزيتون ، وحفروا فيها التُّرَع والقَنَواتِ التى لا تزال باقية ، وأنشأوا فيها المجارىَ المعقوفة التى كانت مجهولة قبلهم .

وتقدمت الصِّناعة فى صِقِلية بفضل العرب ، واستغلَّ عربُ صِقِلِّيَة ثروتها الطبيعيةَ واستخرجوا منها الفِضةَ والحديد والنحاس والكبريت والرُّخام والغرانيت ، إلخ . بأساليبَ فنيةٍ ، وأدخلوا إليها صنع الحرير ، ومما يُرَى فى نور نبرغَ رداءٌ من الحرير كان يَلْبَسه ملوكُ صِقِلِّية مُطَرَّزاً بكتابات كوفية مع تاريخ سنة ٥٢٠ ﻫ (١١٣٣م) ، ويَحْمِلُ كلُّ شىء على القول بانتشار فَنِّ صِباغة المنسوجات فى أوربة من صِقِلِّية .

وانتعشت التجارة واتَّسَع نِطاقها أيام العرب بعد أن كانت صِفْراً ، تقريباً ، قبلهم كما يدلُّ على ذلك ما انتهى إلينا من جداول مكوسهم التى أُدْرِجَت فيما نَظّمه النورمان من القوائم فى أوائل الفتح فتُثْبِت درجةَ تَحَوُّل تجارة صِقِلِّيَة حين هذا الفتح .

ولم يبق من المبانى الإسلامية فى صِقِلِّيَة سوى عدد قليل ، وأشهرُ هذه المبانى قصرُ العزيزة وقصرُ القُبَّة القائمان بالقرب من بَلَرْم واللذان ثَبَتَ بهما أنه لم يكن من المبالغة ما رواه المؤرخون عن فخامة مبانى

---

(١) الدردار : شجر عظيم له زهر أصفر وورق شائك وثمر كقرون الدفلى .

العرب فى صِقِلِّيَة ، فعَنْ هـذه المبانى المزينة بالرُّخام الثمين والفُسَيْفِساء الزاهرة والمحاطة بأجمل الرياض تَـكَلَّمَ الراهبُ ثيودوز والعالِمُ الجغرافىُّ الإدريسىُّ مع الإعجاب ، والراهبُ ثيودوز هذا أُسِرَ فى أثناء حصار سَرَقُوسَة فى سنة ٨٧٨ م ، ونُقِـل إلى بَلَرْم ، وامتدح قصور هـذه المدينة المهمة ومساجدَها وضواحيَهـا .

واسمع فى وصف بَلَرْم ماقاله العالمُ الجغرافىُّ العربىُّ الإدريسىُّ الذى ألَّف كتابَ رِحلته الـكبير فى بَلَرْم فى عهد الملك روجر الثانى أى بعد الفتح النصرانىِّ بزمنٍ قليل :

« بَلَرْمُ هى المدينة السَّنِيَّة العظمى ، والمحلة البهية الـكبرى ، والمِنْبَر الأعظم الأعلى ، عَلَمُ بلاد الدنيا ، وإليهـا فى المفاخر النهاية القصوى ، ذاتُ المحاسن الشرائف ، ودارُ الملك فى الزمان المؤتنف والسالف ، ومنها كانت الأساطيل والجيوش تغدو للغزو وتروح كما هى عليه الآن من ذلك ، وهى على ساحل البحر فى الجانب الغربىِّ والجبالُ الشواهق العِظام محدقةٌ بهـا ، وساحلُها بهج مُشْرِقٌ فَرِجٌ ، ولها حسن المبانى التى سارت الرُّكبان بنشر محاسنها فى بناءاتها ودقائق صِناعاتها وبدائعِ مخترعاتها ، وهى على قسمين : قصر ورَبَض ، فالقصرُ هو القصرُ القديم المشهورُ فخرُه فى كلِّ بلد وإقليم ، وهو فى ذاته على ثلاثة أسمِطَة ، السِّماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازلَ شامخةٍ شريفة ، وكثيرٍ من المساجد والفنادق والحَمَّامات وحوانيت التجار الـكبار ، والسِّماطان الباقيان فيهما أيضاً قصورٌ سامية ، ومبانٍ فاخرةٌ عالية ، وبهما من الفنادق والحمامات كثيرٌ ، وبهما الجامع الأعظم الذى كان بِيعَةً [1] فى الزمن الأقدم ، وأعيد فى هذه المرة على حالته فى سالف الزمان ، وصِفَتُه الآن تَعْزُب عن الأذهان ، لبديع مافيه من الصنعة والغرائب المفتعلة المنتخبة المخترعة ومن أصناف التصاوير وأجناس التزويق والـكتابات ، وأما الرَّبَض فمدينةٌ أخرى تُحْدِق بالمدينة من جميع جهاتهـا ، وبه المدينةُ القديمة المسماة بالخالصة التى كان بها سُكْنَى السلطان والخاصةِ فى أيام المسلمين ، وبابُ البحر ودارُ الصناعة التى هى للإنشاء ، والمياهُ بجميع جهات مدينة صِقِلِّيَة مخترقةٌ ، وعيونُهـا جاريةٌ مُتَدَفِّقَةٌ ، وفواكهها كثيرة ، ومبانيهـا ومُتَنَزَّهاتُها حسنة ، تُعْجِز الواصفين ، وتَبْهَر عقول العارفين ، وهى بالجملة فتنةٌ للناظرين ، والقصر

---

(١) البيعة : معبد النصارى .

المذكور من أكبر القصور مَنعةً وأعلاها رِفْعَةً ، لا يُنال بقتال،ولا يُطاق على حال ، وبأعلاه حِصْنٌ مُحْدَثٌ للملك المعظم رجار مبنيٌّ بالفصوص الجافية والحجارةِ المنحوتة الضخمة،وقد أُحكم نَسَقُه وأُعليت رُقَعُه ، وأُوثقت مناوره ومحارسه ، وأُتقنت قصوره ومجالسه،وَشيدت بُنْياناً ونُمِّقَتْ بأعجب المفتربات، وأُودعت بدائع الصفات ، فشَهِدَ لها بالفضل المسافرون ، وغلا فى وصفها الجوَّالون ، وقطعوا قطعاً أن لا مبانىَ أعجبُ من مبانى المدينة ، ولا مكانَ أشرفُ من مغانيها ، وأن قصورَها مشارفُ القصور، وأن دورها منازهُ الدور ، والرَّبَضُ المُحْدِق بالقصر القديم المتقدم ذِكْرُه هوفى ذاته كبيرُ القطر كثيرُ الفنادق والديار والحمَّامات والحوانيت والأسواق،وله سُورٌ يحيط به وخندقٌ وفصيل ، وله فى داخله بساتينُ كثيرةٌ ومُتَنَزَّهات عجيبة وسقايات ماء عذبة جارية مجلوبة إليها من الجبال المحدقة ببقُعَتها ، وبخارج الرَّبَض من الجهة الجنوبية منها نهرُ عباس ، وهو نهر جار عليه جمل من الأرحاء الطاحنة لا يحتاج معها إلى غيرها » .

وتُفَسِّر إمامةُ العرب فى الفنون والصِّناعات والعلوم سببَ حماية ملوك النورمان لهم ، وكان الرهبانُ يُعْجَبون بحِذْق العرب وإن كانوا يَعْزُون اكتشافاتِهم إلى السحر ، وإننى أنقل العبارةَ الغريبة الآتية التى وردت فى كتاب تاريخىّ لاتينىّ ، وذلك من بين العبارات الطريفة الكثيرة التى قيلت فى العرب ، وذلك للدلالة على رأى أعداء العرب فى العرب ، قال المؤرخ :

« اكتشفت الكونت روبرتويسكارد فى إحدى غَزَواته تمثالاً على عَمُود رُخامىّ متوج بإطار من نحاس منقورةٍ فيه هذه الكلمة : « سأكون عند طلوع الشمس من اليوم الأول من شهر مايو صاحباً لتاج من ذهب » ، فلم يستطع أحدٌ أن يُدْرِك مغزاها ، ولكنه كان عند الكونت روبرت أسيرٌ من عرب صِقِلِّيَة عنده علم الجفْر ، كجميع أبناء هاجر فأخبر الكونتَ هذا بأن لديه مِفتاحَ ذلك اللُّغزَ وبأنه يقول له معنى تلك الكلمة إذا أُطْلِق ، فوعده الكونت بذلك ، فأشار ذلك العربىُّ عليه بأن يَحْفِر حين طلوع الشمس من اليوم الأول من شهر مايو المحلَّ الذى يدلُّ عليه منتهى ظِلِّ ذلك التمثال ، فصنع الكونت مانَصَحَه به فوجد كنزاً كبيراً » .

٣ — غزو العرب لفرنسا

شَنَّ العرب غاراتٍ كثيرةً على فرنسة بعد فتحهم إسپانية ولم يقع ما يدل على أنهم كانوا يريدون الإقامة الجِدِّيَّة بفرنسة ، وفُسِّرَ هذا بعدم ملاءمة المناطق الباردة لهم .

والحقُّ أن الرَّخاء كان يُصْبِحُ حليفَ العرب فى المناطق المعتدلة الجنوبية ، وأن العرب استقروا بأقصى جَنوب فرنسة زمناً طويلا .

وكان يَمْـلِكُ بلادَ فرنسة ، حين ظهر فيها العرب فى القرن الثامن من الميلاد ، أمراء يُعْرَفون بالملوك الـكُسالَى ، وكانت تأكلها الفوضى الإقطاعية ، وكانت مستعدةً لتـكون غنيمةً لغزاة العرب الذين استولَوْا على أكثر مدنها الجنوبية بسهولة ، ودَخَلَ العربُ قَرْقَشُونة ونيم وليون وماكون وأوتون ، إلخ . بالتتابع بعد أن فتحوا أَرْبُونة من إقليم لَنْغدوكة وحاصروا فى سنة ٧٢١ م ، مدينةَ طلُّوشة التى كانت عاصمةَ أكيتانية على غير جدوى ، وانتشر العرب فى جميع وادى الرون وفى دوفينة وبورغونية .

واسْتَوْلى العربُ بالتدريج على نصف فرنسة الحاضرة الذى يبدأ من ضِفاف نهر اللُّوار وينتهى إلى مقاطعة فرَنْش كُونْتِه ، ولم يَقْصِد العربُ الاستقرارَ بتلك البلاد ، بل اكتَفَوْا باحتلال بعض المراكز المهمة لتـكون قواعدَ يستطيعون أن يَشُنُّوا منها غاراتٍ جديدةً على بعض البقاع حيث يأْمُلُون أن يَجِدُوا ما يَغْنَمون .

وأهمُّ تلك الغارات هى التى كانت بقيادة عبد الرحمن الغافقىِّ فوقفَها شارل مارتل (قارلة) بالقرب من پواتيه سنة ٧٣٢ م .

جَمَعَ عبدُ الرحمن الغافقىّ جيشاً على شىء من الأهمية فى إسبانية وعَبَرَ نهر الغارون واستولَى على بوردو (برديل) على الرغم من دفاع الأكيتان والڤاسكون الذين كان يقودهم دوك أوديس ، ثم تَوَجَّه إلى پواتيه فاستغاث دوك أوديس بشارل مارتل الذى كان يُلَقَّب بأمير القصر ويمارس السلطةَ باسم ملـكَيْن ضعيفين من ملوك الميروڤنجيين فى المقاطعتين : أُسْترازية ونُسْطِريَة .

ورَوَى أحدُ مؤرخي العرب : « أن كثيراً من سنيورات الفَرَنج اشْتَكَوْا إلى شارل مارتل من الأضرار التى أحدثها المسلمون ، ومن الخِزْى الذى يمكن أن يصيب البلاد من جرّاء دحرِ أناسٍ غير مدرَّبين وغيرِ حاملين سلاحاً كافياً لمحاربين مُجَهّزين بالدُّرُوع وبعُدّة الحرب الكاملة ، فأجابهم شارل مارتل قائلاً : « دَعُوهم يصنعوا ما يشاءون ، فهم الآن مستأسدون ، وهم كالسيل الذى يأتى على كل ما يعترضه ، وما عندهم من الحماسة والشجاعة يقوم مقام الدروع والحصون ، ولكنهم إذا ما أثقلتهم الغنائم وطاب لهم المُقَام بالبيوت الجميلة وأَلِفُوا رَفاهِيَة العيش واستحوذ الطمع على قادتهم ودَبَّ الشقاق فى صفوفهم زحفنا عليهم واثقين من النصر * » .



١٥٢ ـ إبريق عربى مصنوع من البلور فى القرن العاشر من الميلاد (متحف اللوفر) (صورة أخذت من جريدة الفنون الجميلة)

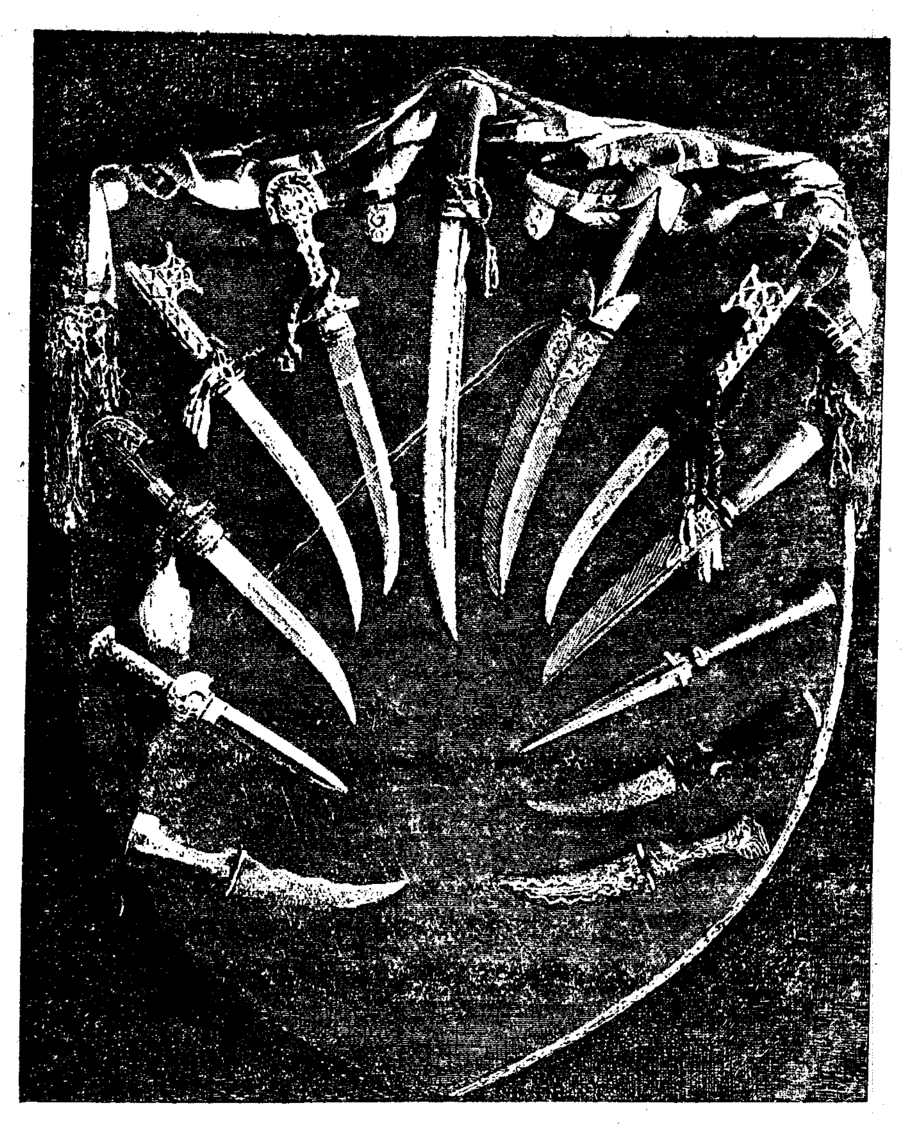
أَجَلْ ، كان رأى شارل مارتل صائباً ، غير أن الرُّعْب الذى ألقاه العرب فى القلوب كان من الشدة ماتُرِكوا معه يَنْهبون البلاد التى قطعوها بدلاً من محاولة وَقفهم .

واستطاع عبد الرحمن الغافقىّ أن يسير ، إذَنْ ، منتصراً غيرَ هَيَّاب إلى الأمام ، وأن يُخَرِّب الحقول الخَصِبة الواقعة بين مدينة بوردو ومدينة تور ، وأن يأخذ غنائمَ كثيرةً من المدن ، ونحن إذا علمنا أنه لم يكن من عادة العرب أن ينهبوا البلدان التى يرغبون فى استيطانها ، كما ذكرنا ذلك غيرَ مرة ، رأينا أن سلوك عبد الرحمن الغافقىّ يدلُّ على أنه ، بدخوله فرنسة ، لم يفكر فى غير الغنائم ، ويتجلَّى لنا ذلك عندما نَعلم أن العرب ، حينما وَصَلوا إلى مدينة تور ، كانوا مُثْقلين بالغنائم وأنهم لم يستطيعوا التقدم إلا بمشقة ، وأن عبد الرحمن الغافقىّ لَمّا عَلِم زحف شارل مارتل الذى جمع جيشاً من الممالك المتحدة تحت لواءِ كلوفيس فيما سَلَف ، فَكر فى الارتداد فنَزَل إلى بواتية واضطرَّ إلى منازلة شارل مارتل الذى كان يَتَعَقَّبُه .

وكان جيش شارل مارتل مؤلفاً من البوغورن والألمان والغُول ، وكان جيش عبد الرحمن الغافقىّ مؤلفاً من العرب والبربر ، وظلت المعركة غيرَ حاسمة بعضَ اليوم ، فلما كان المساء انفصلت فرقة من

جيش الفَرَنْج لتُغير على معسكر المسلمين ، فترك المسلمون ميدان القتال ليحافظوا على غنائمهم ، فأسفرت هذه الحركة الخَرْقاء إلى خسرانهم ، فاضْطُرُّوا إلى القتال متقهقرين إلى الجنوب ، وقد تَتَبَّعهم شارل مارتل من بعيد ، وحاصر أَرْبُونة غيرَ مُوَفَّق ، وأخذ ينهب البلاد المجاورة على حسب عادات ذلك الزمن ، وحالف أمراء النصارى العربَ ليَتَخَلَّصُوا منه وحَمَلُوه على القتال مُرْتَدًّا .

ولم يلبث ، المسلمون ، بعد أن أفاقوا من تلك الضربة التى أصابهم بها شارل مارتل ، أن أخذوا



١٥٣ ــ أسلحة عربية صنعت فى مختلف الأزمنة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

يستردون مراكزهم السابقة ، وقد أقاموا بفرنسة قرنين بعد ذلك ، وقد سَلَّم حاكمُ مرسيلية مقاطعةَ البروفنس إليهم فى سنة ٧٣٧ م ، واستولَوْا على الآرل ودخلوا مقاطعة سان تروبز فى سنة ٨٨٩ م ، ودامت إقامتهم بمقاطعة البروفنس إلى نهاية القرن العاشر من الميلاد، وأَوْغَلوا فى مقاطعة الڤالة وسويسرة سنة ٩٣٥ م ، ورَوَى بعض المؤرخين أنهم بلغوا مدينة ميس .

وتُثْبِت إقامة العرب بفرنسة مدةً تزيد على قرنين بعد شارل مارتل أن النصر الذى أحرزه فى بواتية لم يكن مهمًّا كما زعم المؤرخون ، ولم يَقُم إجماع هؤلاء المؤرخين الذين قَصُّوا علينا أن شارل مارتل أنقذ أوربة والنصرانية من العرب على أساس متين كما يَبْدُو لنا ، فلم تكن غزوة عبد الرحمن الغافقىّ سوى حملةٍ قام بها لِيُمَوِّن جنوده ويُمَكِّنهم من أخذ مغانمَ كثيرةٍ ، وما كان العرب ليفعلوا أكثر من نهب مدينة تور وبضع مدن أخرى، سواء انتصر شارل مارتل أو لم ينتصر ، وما كان هَمُّهم مصروفًا إلى غير العودة بما غَنِموه على أن يُعِيدوا الكَرَّة فى سنة أخرى إلى أن يَجِدوا أمامهم من التحالف مايَدْحَرُهم .

ولم يستطع شارل مارتل أن يطرد العرب من أَيَّةِ مدينة احتلوها عسكريًّا ، واضْطُرَّ شارل مارتل إلى التقهقر أمامهم تاركًا لهم ما استولَوْا عليه من البلدان، والنتيجةُ المهمة الوحيدة التى أسفرعنها انتصارُه هى أنه جعل العرب أقلَّ جُرْأَةً على غَزْو شمال فرنسة ، ونتيجةٌ مثلُ هذه ، وإن كانت مفيدةً ، لم تَكْفِ لتكبير أهمية انتصار هذا القائد الفرَنْجِيِّ .

ويرى المؤرخون الذين يُجَسِّمون قيمة انتصار شارل مارتل على العرب بالقرب من بواتية أنه لولا هذا الانتصار لاستمرَّ العرب على غَزَواتهم واستولَوْا على أوربة ، ثم يسألون مذعورين عن مصير الشعوب النصرانية لو خَفَقَت فوقها رايةُ النبىِّ ، قال مسيو هنرى مارتن فى كتابه عن تاريخ فرنسة الشعبىّ : « لقد تَقَرَّر مصير العالم فى تلك المعركة، ولو غُلِب الفرَنْج فيها لكانت الأرض قبضةَ محمد .. ولخَسِرَت أوربة والدنيا مستقبلهما ، فليس النشاط الذى يَحفِزُ الناس إلى التقدم مما تَجِده فى عبقرية المسلمين التى تتلخص فى فكرتهم عن الله ، وإلهُ المسلمين قد جَنَح إلى العُزْلة والسكون بعد أن خلق العالَم ، وهو لا يَحُثُّ الناس على العمل فى سبيل الرُّقِيِّ » .

والجوابُ عن ذلك هو أن النصر لو تمَّ للعرب ماطرَأَ تبديل على مقادير البلاد ، فإذا ما كان العرب غالبين انتهبوا بضعَ مُدُن ، على ما يحتمل ، زيادةً على المدن التى انتهبوها كما قلنا آنفا ، ثم ارتدوا حاملين غنائمَهم إلى ملجأ أمين ، ثم عادوا فى السنين القادمة إلى سيرتهم الأولى ريثما يلقاهم عدوٌّ قوىٌّ يَدْحَرُهم كما وُفِّقَ له شارل مارتل .

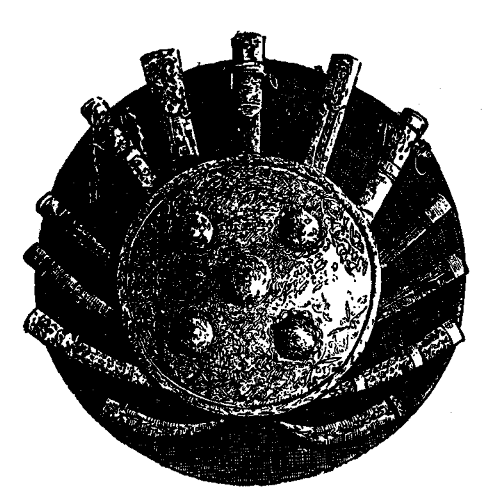
ولكن لنفرضْ جَدَلاً أن النصارى عَجَزوا عن دحر العرب ، وأن العرب وجدوا جَوَّ شمال فرنسة غيرَ باردٍ ولا ماطرٍ كجوٍّ إسپانية فطابت لهم الإقامة الدائمة به ، فماذا كان يصيب أوربة؟ كان يصيب أوربة النصرانية المتبربرة مثلُ ما أصاب إسپانية من الحضارة الزاهرة تحت راية النبىّ العربىّ ، وكان لا يحدث فى أوربة التى تكون قد هُذِّبَت ماحَدَث فيها من الكبائر كالحروب الدينية وملحمة سان بارتلمى ومظالم محاكم التفتيش وكلٍّ ما لم يَعْرِفه المسلمون من الوقائع التى ضَرَّجَت أوربة بالدماء عِدَّة قرون .

ويجب أن يكون المرء جاهلاً تاريخَ حضارة العرب جهلاً مُطْبِقاً ليوافق على ما زعمه ذلك المؤرخ العالم من « أن النشاط الذى يَحْفِز الناس إلى التقدم ليس مما تجِدُه فى عبقرية المسلمين » ، ومن « أن أوربة والدنيا كانتا تخسران مستقبلهما » ، فمزاعمُ مثلُ هذه ليست مما يَقِف أمام سلطان النقد عندما يُعلَم أن التمدن اللامع حلَّ بالبلاد التى خَضَعَت لأتباع الرسول محَلَّ الهمجية ، وأن النشاط الذى يَحْفِز الإنسان إلى التقدم لم يكن قويًّا فى أمةٍ مثلَ قوته فى العرب .

ولم يكن احتلال العرب لجنوب فرنسة عِدَّة قرونٍ غيرَ ذى أثرٍ ضعيف ، فبما أن المدن التى اسْتَوْلَوْا عليها فى جَنوب فرنسة من القواعد الحربية التى كانوا يستندون إليها فى غاراتهم لم يبالوا بتمدينها ، ولم يكن لهم فى جَنوب فرنسة مراكزُ مهمةٌ للحضارة كما اتفق لهم فى إسپانية وبلاد المشرق .

ومع أن إقامة العرب بفرنسة نشأت عن بعض السَّرَايا نراهم قد تركوا أثراً عميقاً فى اللغة وفى الدَّم كما نذكر ذلك فى فصل آخر ، وذلك أنه استقرَّ أناسٌ كثيرون منهم بالأَرَضين القريبة من المدن التى استولَوْا عليها وتعاطَوْا فيها أمورَ الزراعة والصِّناعة ، وأنهم أدخلوا صناعةَ البُسُط إلى أُبُوسُون ، وأنهم أدخلوا كثيراً من أساليب الفلاحة كما عُزِى إليهم ، وأنهم امتزجوا بسكان البلاد بسبب محالفاتهم

الـكثيرة لأمراء النصارى الإقطاعيين المتقاتلين على الدوام ، وأنه وُجِـدَ حَفَدَةٌ للعرب فى أماكنَ كثيرة من بلاد فرنسة كالمقاطعات : كروز والألب الأعلى ومونتمور (جبل المغاربة) وبنِيُو (شارانت) وبعضِ قرَى لاند وروسيون ولنغدوكة وبيارن كما أثبت ذلك علمُ وصف الإنسان ، فيمكن الإنسانَ أن يَعْرِفهم بجلودهم السُّمْر وشعورهم السُّود وأنوفهم القُنْو وعيونهم الثاقبة اللامعة ، ويمكن المرء أن يُعْرف نساءهم بألوانهنَّ الزيتية ووجوهِهنَّ الأسيلة وأعينهِنَّ النُّجْل الدُّعْج وحواجبِهنَّ الزُّجِّ وصدورهنَّ الناهدة إلخ . ، وإذا كانت هذه الصفات قد ظَلَّت باقيةً فلم تَمَّحِ بغَرَقها فى صفات السكان المجاورين ، تبعاً للسُّنَن الأنتروبولوجية التى بَيَّنَّاها ، فلأن حَفَدَة العرب أولئك ألَّفوا جماعاتٍ صغيرةً منفصلةً عن بقية الأهلين غيرَ متصلةٍ بهم بصِلات التوالد .


١٥٤ ــ قرب عربية
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

انتَهَينا من تاريخ العرب فى مختلف الأقطار التى دانت للإسلام ، وعلمنا درجة اختلاف هذا التاريخ باختلاف البِيئات التى أقاموا بها وبحسب مقاصدهم من الاستيلاء عليها ، ورَأَينا أنهم ذوو أثر بالغ فى تمدين الأقطار التى خَضَعَت لهم خلا فرنسة على ما يحتمل ، وأنَّ كلَّ بلد خَفَقَت فوقه راية النبيّ تَحَوَّل بسرعةٍ فازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصِّناعة والزراعة أيما ازدهار :

ولْنَدَعْ جانباً بياننا المُجْمَل الذى اقتصرنا عليه حتى الآن ، ولنبدأْ بتفصيل تاريخ حضارة العرب ودرسِ مبتـكراتهم فى مختلف المعارف البشرية التى زاولوها ، فمهما يَـكُنْ تاريخُ إحـدى الأمم السياسيُّ مبهماً أو زاهراً فإن شأن هذه الأمة الحقيقيَّ فى العالم يُقَاسُ باكتشافاتها وتأثيرها فى ميدان الحضارة .

الفصل الثامن

اصطراع النصرانية والإسلام
الحروب الصليبية

---

١ — منشأ الحروب الصليبية

كان سلطان العرب السياسيُّ فى أواخر القرن الحادى عشر من الميلاد ، أى فى الدور الأول من الحروب الصليبية ، فى طور الانحطاط ، وإن لم يَذْوِ نفوذُ اسمهم فى العالم ، فقد كانت إفريقية وإسبانية قبضتهم ، ولم يتقادم بَعْدُ الزمنُ الذى كانوا فيه سادةَ البحر المتوسط وسادةَ جزء من فرنسة وملوكاً لصِقِلِّيَة ، والذى أوغلوا فيه حتى رومة فأكرهوا البابا على دفع جزية إليهم ، ولم يَصِلْ قياصرة الرومان فى إبان مجدهم إلى ما وصل إليه اسم محمد من إلقاء الرعب فى برابرة أوربة ، فهجومُ أوربة النصرانية على الإسلام الذى كانت فرائص العالم ترتجف فَرَقاً منه منذ خمسة قرون ، وذلك فى عُقْرِ داره ، من الأعمال العظيمة التى كانت تتطلب حماسةً دينية بالغة واعتماداً كبيراً على الربِّ وجيشاً مؤلفاً من مليون جندىّ .

وكلٌّ يَعْلَم كيف أجاب العالَمُ النصرانىّ دعوةَ ذلك المجذوب، وكيف انْقَضَّت أممٌ على الشرق، وكيف أن سَوْق تلك الجيوش الهائلة لم يُؤَدِّ إلى غير نصرٍ وَهْمِيٍّ ، وكيف فُلَّت عزيمة مجاهدى النصارى الذين لم ينقطع سيلهم مُدَّةَ قرنين من أجْلِ فتح القدس والمحافظةِ عليها أمام هلال الإسلام .

واصطلح الناس على تسمية ذلك الصِّرَاع بين النصرانية والإسلام بالحروب الصليبية ، وكان لتلك الحروب نتائجُ مهمةٌ فى تاريخ حضارة أوربة العامّ ، وليس من الجائز أن نَصْمُتَ عنها إذَنْ فى هذا الكتاب الذى لم نقتصر فيه على بيان حضارة العرب وحدَها ، بل عَزَمْنا فيه على درس تأثيرهم فى العالم أيضاً .

ولْنَقُل كلمة عن حال الغرب والشرق فى زمن الحروب الصليبية .

كانت أوربة ، ولاسيما فرنسة، فى القرن الحادى عشر الذى جُرِّدَت فيه الحملة الصليبية الأولى فى أشدِّ أدوار التاريخ ظلاماً ، وكان النظام الإقطاعىّ يأكل فرنسة وكانت مملوءةً بالحصون التى كان أصحابها ، وهم من أنصاف البرابرة ، يقتتلون دائماً ولا يَمْلِكون سوى أناسٍ من العبيد الجُهَّال ، ولم يكن فى ذلك الحين نفوذٌ شامل لسوى البابا ، وكان الناس يَخْشَوْن البابا أكثرَ من احترامهم له .

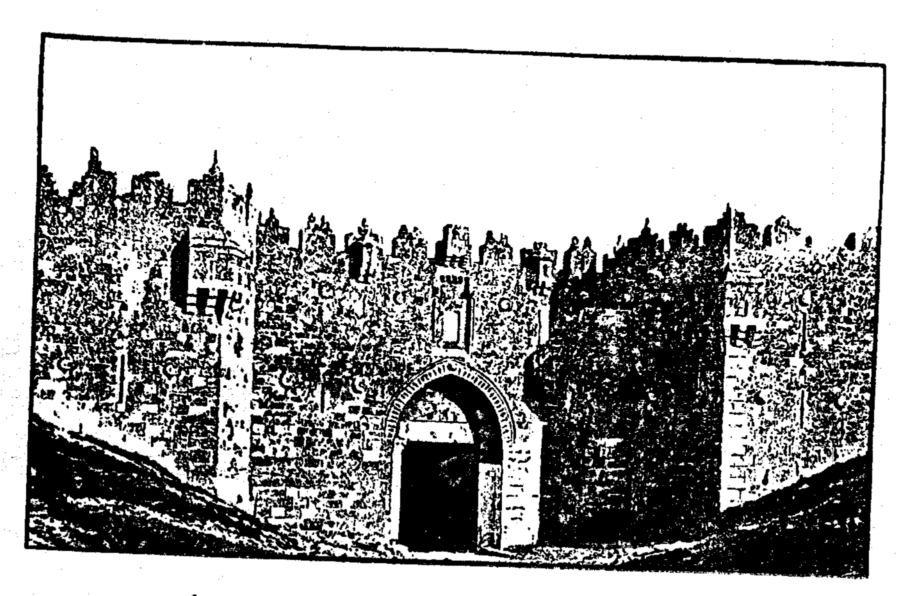
وكانت دولة الروم فى الشرق قائمةً ، وكانت القسطنطينية ، مع انحطاطها ، عاصمةً لدولة كبيرة ، وكانت ميداناً للمنازعات الدينية وأنواع المشاحنات، وكانت تخسر كلَّ يوم جزءاً من أملاكها فضلاً عن انطفاء سلطانها فى إيطالية ، وكان كلٌّ من بابا رومة وبطرك بزنطة قد حرَمَ الآخر فصار للنصارى كنيستان .

وكان قسمٌ من سورية تابعاً للترك السلجوقيين، وكان القسم الآخر تابعاً لسلاطين مصرَ، ولم يكن الخليفةُ ببغدادَ غيرَ شبحٍ ، وكانت دولة العرب السياسية فى دور الانحلال مع محافظة حضارتهم على سلطانها ، ولم يكن الصِّراعُ العظيم الذى كان يتمخض عنه العالم ، إذَنْ ، غيرَ نزاعٍ عظيم بين أقوام من الهَمَج وحضارةٍ تُعَدُّ من أرقى الحضارات التى عرَفها التاريخ .

وكانت الصِّلات بين أوربة والشرق مقصورةً على زيارة حجيج النصارى لفلسطين فى ذلك الدور، وواظب النصارى على زيارة فلسطين مع زيادةٍ منذ زمن قسطنطين ، ولا سيما منذ حَسُنَت العَلاقاتُ بين هارون الرشيد وشارلمان .

وزاد عددُ زيارات النصارى لفلسطين مع الزمن، وكان يتألف من بعض قوافل حُجَّاج النصارى جيشٌ حقيقىّ ، ومن ذلك أن استصحب الأبُ ريشاردُ سبعَمئة حاجّ فى سنة ١٠٤٥م ، ولم يستطع أن يَصِل إلى ما هو أبعد من قبرس ، ومن ذلك أن رئيس أساقفة مايانس ، سيغفروا ، وأربعةُ أساقفةٍ يقودون قافلةً من سبعة آلاف حاجّ فى سنة ١٠٦٤م ومشتملةً على بارونات وفرسان ، فحاربت هذه القافلة الأعراب والتركمان .

وما كان يَعْتَوِر زياراتِ القدس من المصاعب والمخاطر أوجب فَرْضَ الإكليروس لها عادِّين إياها مُكَفِّرَةً عن أسوأ الجرائم ، وما كان عدد أكابر المجرمين قليلاً فى ذلك الزمن ، وما كان خوف جهنم والشيطان ضئيلاً فى نفوس البرابرة ، فزاد عدد الحجيج لهذا السبب ، وأنت إذا ماعَدَوْتَ بعضَ المغامرين والأتقياء الُخْمسِ وَجَدْتَ أولئك الحجاج مؤلفين ، على العموم ، من أسفل المجرمين المفطورين على أخطر الجرائم ، والذين ما كان غيرُ الفزَع من النار ليدفعهم إلى قصد تلك البلاد البعيدة .



١٥٥ ـ باب دمشق فى القدس (من صورة فوتوغرافية)

وكان عدد حجيج النصارى يزيد كلَّ يوم ، وكان ضجيجهم يزيد على ما كان عليه ، وكان التركان الذين قاموا مقام العرب فى سورية أقلَّ تسامحاً من العرب ، فجادل هؤلاء التركان أولئك النصارى فى حقِّ المرور من وَسَط البلاد الإسلامية بلا إذنٍ إيفاء لزيارة بيت المقدس،وأكرهوا حجيج النصارى على دخول القدس بخشوع بدلاً من أن يسمحوا لهم بدخولها ظافرين على صَوْت الصُّنُوج وضَوْءِ المشاعل كما كان العرب يسمحون به وأخذوا يَحْمِلُونهم على دفع الفِدَى غيرَ تاركين وسيلة لإيذائهم إلا أتَوْها .

وحَدَثَ أن جاء لزيارة بيت المقدس جنديٌّ قديم كان قد ترَهَّب بعد أن طرأ على حياته الروحية

ما كدَّر صَفوه وكان اسمُ هذا المجذوبِ المتعصبِ النشيط بطرسَ ، فأضاف التاريخ إلى اسمه لقب « الناسك » .

واشتاط بطرسُ الناسك غيظاً من سوء ماعومل به فى فلسطين ، وغاص بطرسُ الناسكُ فى بحرٍ من الأحلام فرأى أنه مرسل لدعوة أوربة إلى إنجاد الأرض المقدسة .

ومَلَكَت هذه الأوهام مشاعره فتوَجَّه إلى رومة ليستعين بالبابا ، فأذن له البابا أوربان الثانى فى دعوة النصارى إلى إنقاذ الأماكن المقدسة ، فصار يجوب بلاد إيطالية وفرنسة ، ويُلْقِى الخُطَب النارية ممزوجةً بالبكاء والعويل وصبِّ اللَّعنات على الكافرين ، وبوعد الربِّ للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة ، وتؤثِّرُ فصاحتُه التمثيلية الخيالية فى قلوب الجموع ، ويَعُدُّه الناسُ نبيًّا فى كلِّ مكان .

ولم تكن الجموعُ التى ألهبها بطرس الناسك لتستطيع عملَ شىء وحدَها وإنما حدث ماحَفز السنيوراتِ الذين كانوا سادةً للجموع إلى دَعْم تلك الحركة ، وذلك أن قيصر الروم ، ألكسيس كومنين ، الذى كانت دولته تخسَر كلَّ يوم قطعةً من أملاكها ، استغاث بالبابا وملوكِ أوربة حينما حاصر الترك القسطنطينية ،فأقام ذلك العالم النصرانىّ وأقعده بالإضافة إلى مواعظ بطرس الناسك.

ورأى البابا أن يُشَجِّع تلك الحركة ، فعقد فى إيطالية مؤتمراً دينيًّا لم يُسْفِر عن نتيجة ، ثم عقد،فى سنة ١٠٩٥ م ، مؤتمراً ثانياً فى كليرمون بأُوفِرْن ، وحَضَر بطرس الناسك هذا المؤتمرَ الأخير،وتحالف المُؤْتَمِرُون ، تلبيةً لدعوته الصارمة وترديدِ الجموع الهائجة لكلمة:« الربُّ يريد ذلك ! » ، على الزحف إلى فلسطين لإنقاذ قبر الربِّ مُلْصِقِين الصلبان على أكتافهم وأجمع المُؤْتَمِرُون على أن يُبْدَأ بالزحف فى عيد انتقال العذراء من السنة القادمة حتى يَجْمَعَ أولياء الأمور جيشاً كبيراً قادراً على القيام بذلك .

٢ — خلاصة الحروب الصليبية

نشأ عن عزم القوم على غَزْو فلسطين اشتعالُ النفوس حَمِيَّةً ، وصار كلٌّ واحدٍ يرْجُو إصلاحَ حاله فضلاً عما يناله فى ملكوت السماوات ، فغدا العبيد يطمعون فى فكِّ رقابهم ، وغدا أبناء الأُسر الذين حُرِموا الميراثَ بسبب نظام البِكْرِيَّة والسنيوراتُ الذين كانت قِسْمَتُهم ضِيْزَى[1] يَطْمَعون فى

(١) ضِيْزَى : جائرة .

الاغتناء ، وغدا الرهبان الذين أضنتهم حياة الأديار وجميعُ المحرومين طيبَ العيش ، وكان عددهم كبيراً ، يُعلِّلون أنفسهم بأطيب الأمانىّ .



١٥٦ ـ قسم من أسوار القدس
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

حقاً لقد أصاب القومَ نَوْبَةٌ حادَّة من الجنون ، فرَغِب السنيورات والعبيد والرهبان والنساء والأولاد وجميع الناس فى الزحف ، وأخذ كلُّ امرئٍ يبيع ما يَمْلِك ليَتجهَّز ، واستعدّ من الرجال ١٣٠٠٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين حالاً .

وكانت تلك النَّوْبة تزيد حِدَّةً كلَّ يوم ، ولم يرْغَب الذين بَكَّروا فى انتظارِ تأليفِ جيشٍ منظَّم ، وما كاد ربيع سنة ١٠٩٦ م يَحِلُّ حتى توَجَّهت عِصاباتٌ كبيرة من كلِّ صَوْب وحَدَب إلى نهر الدانوب .

وكانت الحركة شاملةً ما بين بحر الشمال ونهر التِّيبِر ، وكانت تَجرُف سكانَ بعض القرى آخذين ماعندهم من الأموال ، وكانت أوربة كلُّها تَنقَضُّ على آسية .

وكلما اقتربت تلك العِصابات من هدفها المأمول زادت جنوناً ودارت المعجزاتُ والكراماتُ فى أدمغتها المشتعلة التى طارت منها العقول إلى الأبد .

وكان بطرس الناسك والفارس الفقير غوتيه على رأس أهمِّ العِصابات الزاحفة إلى الشرق ، وأُكرِمَت هذه العِصاباتُ فى البلدان الأوربية التى كانت تَمرُّ منها فى بدء الأمر ، ولكنها لم تكد تَصِل إلى بلغارية حتى التقت بأناس من ضِعاف الإيمان أَبَوْا أن يُضَيِّفوهم مجاناً ، وساء هذا الرفضُ الصليبيين ، ولم يُحْجِموا عن اغتصاب مامُنِعوه وعن نهب قُرَى تلك البلاد وذبح أهليها ، ولم يَصْبِر الأهلون على ذلك فأخذوا ينتقمون ويقتلون فريقاً كبيراً منهم أو يُغْرِقونه ، وَجَدَّ الصليبيون فى طلب النجاة بسرعة ، وبلغوا القسطنطينية ناقصى العدد ، ووجدوا فيها عِصابات من التوتون والطلاينة والفَسْكون والغول والبروفَنْسيين كانت قد سَبَقتهم إليها ، وهنالك انضمَّ هؤلاء إلى أولئك وأخذوا يقتلون وينهبون ويأتون مايفوق الوصف من الأعمال الوحشية ، ويَعزِم البزنطيون على التخلص منهم ، ويَنقُلونهم بالسفن إلى ماوراء البُسْفور .

وبَلَغ عدد من سِيقَ من الصليبيين إلى آسية الصغرى على ذلك الوجه مئةَ ألف ، واقترف هؤلاء من الجرائم نحوَ المسلمين والنصارى مالا يصدر عن غير المجانين من الأعمال الوحشية ، وكان من أحبِّ ضروب اللهو إليهم قتلُ من يلاقون من الأطفال وتقطيعُهم إرْبًا إرْبًا وشَيُّهم كما روَتْ آن كومنينُ بنتُ قيصر الروم .

وكان من حقوق الترك أن يقابلوهم بالمثل ، ولذا صار الترك يتَصَيَّدونهم كما يتَصَيَّدون الحيوانات المفترسة مقيمين من عِظامهم هَرَماً عظيماً .

ولم يَلْبَث جيشُ الصليبيين الأول المؤلف من مئات الألوف أن أُبيد ، وإنما كانت تأتى من خلفه فيالقُ مُنَظَّمة تامَّة العُدَّة مؤلفةٌ من سبعمئة ألف مقاتل بقيادة أقوى السنيورات ، أى كان يأتى من الفيالق مالم يَسْبِق للعرب أن جمعوا جيشاً لَجِباً مثلَه .

ومن هذه الفيالق نَذْكُر الفيلق الذى كان يقوده دوك اللورين الدُّنيا ، غودوفروا البُويُونىُّ ، والذى كان مؤلفاً من ثمانين ألف مقاتل من سكان اللورين وباڤارية وسَكْسُونية .

وحاصر الصليبيون مدينة إزنيق الواقعةَ فى آسية الصُّغْرَى ، وهزموا جيشاً تركيًّا ، وقطعوا رؤوس جَرْحَى الترك وربطوها بسروج خيولهم وعادوا إلى معسكرهم ، ثم رَمَوْها إلى تلك المدينة التى كانت محاصَرَةً .

ولم يكن ذلك مما يُرْضى الأهلين ، فسَلَّمَ الأهلون ، الذين عَلِموا ماذا كان ينتظرهم ، أمْرَ أنفسِهم إلى القيصر بالقسطنطينية ، فاضْطُرَّ حلفاؤه الصليبيون إلى القتال مُرْتَدِّين .

وبَقِيَ على الصليبيين أن يقطعوا نحو مئتى فرسخ ليَصِلوا إلى سورية ، وكان هَمُّهم مصروفاً إلى الاغتناء ، ولم يُحْسنوا سياسةَ الأهلين ، وخَرَّبوا البلاد ، وكَشَّر الجوعُ لهم عن أنيابه ، واضْطَرَب حبل نظامهم ، وتفرقوا ، وتقاتل من قادتهم القائدان المُهِمَّان : تانكريد وبودوين ، ثم انفصل بودوين عن رفقائه هو وفيلقُه كى يَسْلُب ويحارب لحساب نفسه .

وفتكت الأمراض والمجاعة بالصليبيين فتكاً ذريعاً ، وقَنِط بطرسُ الناسك من النصر وفَرَّ من المعسكر ، وأُعيد إليه ، فاستقبله تانكريد بضرب العِصِيِّ .

وَدَبَّت الفَوْضَى فى مفاصل الجيش الصليبىِّ ، وشاع التجسس فيه ، وأمر بوهيموند بتقطيع الجواسيس وطيهم وإطعامهم للجنود الجائعين ، فتدابيرُ كهذه تُخْبِرنا عن حالِ جيشٍ اضْطُرَّ إلى اتخاذها .

ويدلُّ سلوك الصليبيين فى جميع المعارك على أنهم من أشدِّ الوحوش حماقةً ، فقد كانوا لا يُفَرِّقون بين الحلفاء والأعداء والأهلين العُزْلِ والمحاربين والنساء والشيوخ والأطفال ، وقد كانوا يقتلون وينهبون على غير هدى .

ونَرَى فى كلِّ صفحةٍ من الكتب التى ألَّفها مؤرخو النصارى فى ذلك الزمن براهين على توحش الصليبيين ، ويكفى لبيان ذلك أن ننقل الخبر الآتىَ الذى رواه الشاهد الراهب روبرت عن سلوك الصليبيين فى مدينة مارات للدلالة على سياسة الصليبيين الحربية ، وذلك بالإضافة إلى ما حَدَث حين الاستيلاء على القدس ، قال المؤرخ الراهب التَّقِىُّ روبرت :

« وكان قومنا يَجُوبون الشوارعَ والميادين وسطوحَ البيوت ليُرْوُوا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللَّبُؤات التى خُطِفَتْ صِغارها ، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرْباً إرْباً ، وكانوا لا يستبقون إنساناً ، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بُغْيَةَ السرعة ، فيا للعَجَب ويا للغرابة أن تُذْبح تلك الجماعة الكبيرةُ المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوِم ! وكان قومنا يَقْبِضون على كلِّ شىء يجدونه فيَبْقَرون بطون المَوتَى ليُخْرِجوا منها قِطَعاً ذهبيةً ، فيا للشرهِ وحبِّ الذهب ! وكانت الدماء تسيل كالأنهار فى طُرُق المدينة المُغطَّاة بالجُثَث ، فيا لتلك الشعوب العُمْى المُعَدَّة للقتل ! ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحدٌ لِيَرْضى بالنصرانية ديناً ، ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم فى برج القصر ، وأمر بضرب رقابِ عجائزهم وشيوخهم وضِعافهم وبِسَوْق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاقية لكى يباعوا فيها .

« وحدث قتلُ الترك ذلك فى يوم الأحد الموافق ١٢ من ديسمبر ، وإذْ لم يمكن إنجازُ كلِّ شىء فى ذلك اليوم قَتَل قومُنا ما بَقِىَ من أولئك فى اليوم التالى » .

وليس من العسير أن ندرك رأىَ الشرقيين المتمدنين فى أولئك ، فتواريخُهم مملوءةٌ بما كانوا

يُوحُون به إليهم من الاحتقار العظيم ، قال الشاعر الفارسيّ الكبير سعديّ بعد زمنٍ : « لا يستحق أولئك أن يُسَمَّوا بشراً » .

وكان عددُ الصليبيين مليونَ شخص حينما خرجوا من أوربة ، فأخذت المجاعة والأوبئة والدعارة والوقائع والمنازعاتُ تُبيد هذا الجيشَ العظيم الذى كان يمكنه فتحُ العالم لو أُلِّفَ من أناس آخرين ، ولم يَبْقَ منه عند بلوغه القدس سوى عشرين ألفاً .

وكانت القدس تابعةً ، فى ذلك الحين ، لسلطان مصر الذى استردها من الترك فاستولى عليها الصليبيون فى ١٥ من يولية سنة ١٠٩٩م ، وقد جاء فى الأقاصيص أن القديس جورج تراءى للصليبيين من جبل الزيتون ، وأنه حرَّضهم على القتال فانقضوا على أسوار القدس واقتحموها .

وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غيرَ سلوك الخليفةَ الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون ، قال كاهن مدينة لُوپوِى ، رِيمُوندُ داجِيل !



١٥٧ ـ منظر القدس (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

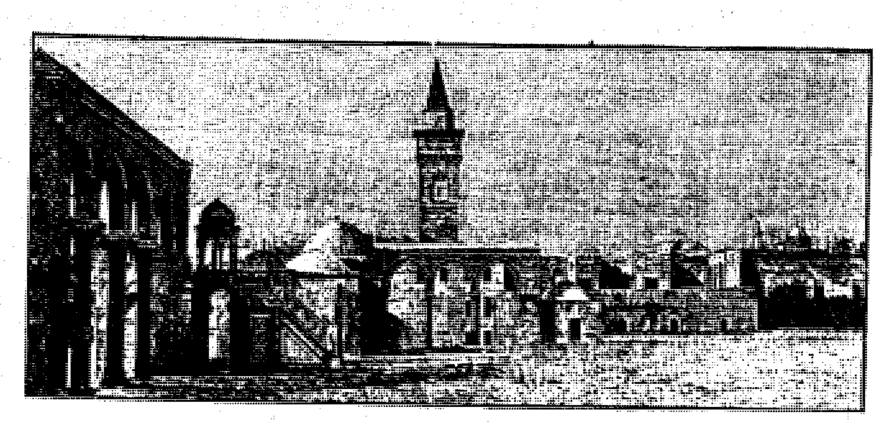
« حدث ما هو عجيب بين العرب (!) عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها ، فقد قُطِعَت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقلَّ ما يمكن أن يصيبهم (!) وبُقِرَت بطون بعضهم ، فكانوا يُضْطَرُّون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحُرِق بَعْضهم فى النار فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لا يُرَى فى شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رءوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يَمُرُّ المرء إلا على جُثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا . . . » .

وروى ذلك الكاهنُ الحليم خبرَ ذبح عشرةِ آلافِ مسلم فى مسجد عمر ، فعَرَض الوصف اللطيف الآتى :

« لقد أفرط قومنا فى سفك الدماء فى هيكل سليمان ، وكانت جُثث القَتلى تعُوم فى الساحة هنا وهنالك ، وكانت الأيدى والأذرع المبتورة تَسْبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها ، فإذا ما اتصلت ذراعٌ بجسم لم يُعْرَف أصلها ، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يُطِيقون رائحة البُخار المنبعثة من ذلك إلّا بمشقة » .

ولم يَكْتَفِ الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس ، من المسلمين واليهود وخوارج النصارى ، الذين كان عددُهم نحْوَ ستين ألفاً فأفنَوْهم على بَكْرَة أبيهم فى ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأةً ولا ولداً ولا شيخاً .

وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبةً ، فانهمكوا فى كلّ مايستقذره الإنسان من ضروب السكر والعربدة ، واغتاظ مؤرخو النصارى أنفسهم من سلوك حُماة النصرانية مع اتصاف هؤلاء المؤرخين بروح الإغضاء والتساهل ، فنَعَتَهم برناردُ الخازنُ بالمجانين ، وشَبَّهَهم بودان الذى كان رئيس أساقفة دُولَ ، بالفُرُوس التى تتمرَّغ فى الأقذار .



١٥٨ ـ الحرم الشريف فى القدس ، وفيه ترى ساحة جامع عمر فى الوقت الحاضر وساحة هيكل سليمان فيما مضى (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وهاج العالم الإسلامىُّ من استيلاء الصليبيين على القدس كما هاج العالم النصرانىُّ ، ولاح ، لوقتٍ قصير ، تَضَعْضُع نفوذ أتباع النبىّ الذى تَأصل منذ خمسة قرون ، وتناسى المسلمون جميعَ عوامل الانقسام الذى كان يَفُتُّ فى عَضُدهم مع ما أحدثه ذلك الاستيلاء من الذُّعر الكبير فيهم ، وأغضى سلطان القاهرة عن منافسته لخليفة بغداد فتبادلا السفراء للبحث فى عمل ما يجب لتلافى تلك المصيبة .

أجَلْ ، لقد خَسِرَ النصارى مليونَ رجل ، وخَرِب بعض أوربة فى سبيل فتح القدس ، وكان النصارى يَرْجُون أن يحتفظوا بثمرة هذا الفتح العزيز ، غيرَ أنَّ أملَهم خاب ، فلم يَلْبَث المسلمون أن استردوا القدس ، وعادت القدسُ إلى حظيرة الإسلام إلى الأبد .

واخْتِيرَ غودفروا ملكاً على القدس لشجاعته التى أقام الدليل عليها ، ولكن الشجاعة لا تكفى لتنظيم دولة ، فقد كان غودفروا عاجزاً عن إدارة شؤون دولته الفَتِيَّة مع شِدَّة بأسه ، ثم مات غودفروا بعد زمن قليل ، ولم يكن خليفته بودوان أقدرَ منه على تدبير أمور الحكم .

وكان قد مضى على وجود الفَرَنج فى فلسطين عشرون سنة حينما توفِّىَ بودوان فى سنة ١١١٩ م ، ولم ينشأ عن حكم الفَرَنج لها سوى خرابها وإقفارها ، وكان من نتائج هذا الحكم أن عَرَفت البلاد نظامَ الإقطاع كما فى أوربة وأن قُسِّمَت إلى الإمارات الإقطاعية المتقاتلة على الدوام : طرابلس وعسقلان ويافا ، إلخ . ، ولم يلبث طُغاتُها الصُّغَراء الذين لم يكونوا ليفكروا فى غير الاغتناء أن خربوها بعد أن كانت زاهرةً أيام الحكم العربىِّ الرشيد ، وإليك ما قاله أُسْقُف عكا الصليبىُّ جاك دُوفِيتْرِى عن أبناء الصليبيين الأولين ، وذلك فى تاريخه عن القدس :

« خَرَج من الصليبيين الأولين الأتقياء المتدينين جيلٌ من الفَجَرة الأشرار الفاسدين المُنْحَلِّين الفاسقين كما يَخْرُج الثُّفْل من السُّلاف[١] والدُّرْدِىُّ[٢] من الزيت والشَّيْلَم[٣] من البُرِّ والصدأ من القُلُزِّ[٤] . . . وكان هؤلاء الأبناء يختصمون ويقتتلون لأتفه الأسباب ، حتى إن بعضَهم كان يستعين على بعضٍ بأعداء النصارى فى الغالب . . . وكان لا يُرَى منهم فى أرض الميعاد غيرُ الزنادقة والملحدين واللصوص والزُّناة والقَتَلة والخائنين والمُهَرِّجين والرُّهْبان الدُّعَّار والراهبات العواهر » .

ولم يكن غليوم الصورىُّ أقلَّ صراحةً من ذلك ، فقد قال ، بعد أن وَصَم أبناء الصليبيين بأنهم « من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين » : « تلك هى رذائلهم الوحشية التى لو أراد كاتبٌ أن يَصِفها لخرج من طور المؤرخ ليدخلَ فى طور القادح الهاجى » .

---

(١) السلاف : ما سال وتحلب قبل العصر ، وهو أفضل الخمر . (٢) الدردى من الزيت ونحوه : الكدر الراسب فى أسفله . (٣) الشيلم : الزؤان يكون بين الحنطة . (٤) القلز : النحاس الذى لا يعمل فيه الحديد .

وبينما كان النصارى يُخَرِّبون القدس كان المسلمون يستردون بالتدريج ، ماخَسِروه ، وقدأورث تقدمُهم فى سورية واستيلاؤهم على الرُّها (أورفة) هَلَعاً فى قلوب النصارى بفلسطين ، فاستغاث النصارى بأوربة .

ونُظِّمَت حملةٌ صليبيةٌ ثانية لإمداد أولئك ، ونَجَح سان برنارد فى إيقاد نار التعصب الدينىّ ، فقد تَوَجَّه ملك فرنسة لويس السابع على رأس الحملة الصليبية الجديدة إلى فلسطين ، وتَبِعه الملك الألمانىُّ كونارد الثالث ، غير أن جيش لويس السابع الذى كان عددُه مئةَ ألف مقاتل لم يَكَد يَصِل إلى آسية الصغرى حتى أبيد على بَكْرَة أبيه،ففرَّ لويس السابع بطريق البحر ليذهب إلى أنطاكية ويَتَوَجَّه منها إلى القدس كحاجٍّ عادىّ ، وما كان جيش كونارد الثالث أوفرَ حَظًّا من جيش لويس السابع .

ولم يَبْدُ سلوك الصليبيين فى هذه الحملة الثانية أحسن من سلوك رجال الحملة الصليبية الأولى ، قال الكاهن أنسكِتِيل فى تاريخه:« قلما كان يُوجَدُ صليبىٌّ يسير بوحىٍ دينىّ،فلم يترك أولئك الصليبيون جرائمَ وحشيةً وضرباً من قَطْع الطرق وفضائحَ مُزْرِيَةً إلا اقترفوها » ، وعزا سان بِرْنَارْدُ ذلك الحبوطَ إلى ما ارتكبه هؤلاء الصليبيون من تلك المظالم .

وتَمَّ طَرْدالصليبيين من القدس على يدالسلطان صلاح الدين الأيوبىِّ الشهير،وذلك أن صلاح الدين دخل سورية بعد أن أصبحت مصر وجزيرة العرب والعراق قبضَته ، وأنه غلب ملك القدس الأسيفَ غِى دُولُوزِينْيَان وأَسَرَه واستردَّ القدس فى سنة ١١٨٧ م .

ولم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل فى الصليبيين مثلَ مافعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش فيُبِيدَ النصارى على بَكْرة أبيهم ، فقد اكتفى بفرض جِزْيَةٍ طفيفة عليهم مانعاً سلبَ شىء منهم .

قُضِيَ على مملكة القدس اللاتينية بعد أن عاشت ٨٨ سنة ، ومَرَّت سبعةُ قرونٍ على تلك الحوادث من غير أن تَخرُج هذه المدينة المقدسة من أيدى أتباع محمد على الرغم من جميع الجهود التى قام بها العالم النصرانىّ منذ ذلك الحين .

ولا نرى فائدةً كبيرةً فى تاريخ الجهود غير المُجْدِية التى قامت بها أوربة لاسترداد القدس ، أى فى تاريخ الحَمَلَات الصليبية الستِّ الأخيرة ، وإنما نكتفى بذكرها الخاطف .

ورئيسُ أساقفة مدينة صور فى فنيقية ، غليومُ ،هو الذى حَرَّض أوربة على تجريد الحَمْلة الصليبية الثالثة (١١٨٩ — ١١٩٢ م) ، وقد قاد هذه الحملةَ الثالثةَ ملكُ فرنسة : فليب أوغست ، وملكُ إنـكلترة : قلبُ الأسد ريكاردس ، وقيصرُ ألمانية : فريدريك باربارُوس ، أى أقوى ملوك أوربة .

فأما باربارُوس فقد مات فى آسية الصغرى، حينما كان يغتسل فى نهر البَرَدان (قَرَه صُو) ،ولم يَصِل سوى بقايا جيشه إلى سورية،وأما فيليب أو غست،فقد تَعِب سريعاً ، وأبحر إلى صور بعد إقامةٍ قصيرة بفلسطين تاركاً خَلفَه جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة أمير بورغونية ، ولذا ظلت القيادة العليا فى يد قلب الأسد ريكاردس الذى اقترفَ جرائمَ وحشيةً كالتى اقترفها رجال الحَمْلة الصليبية الأولى .

وكان أولَ مابدأ به ريكاردس هو قَتْلُه ، أمام معسكر المسلمين ، ثلاثةَ آلاف أسيرٍ مسلم سَلَّموا أنفسهم إليه بعد ماقطَع لهم عهداً بحَقْن دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العِنان فى اقتراف أعمال القتل والسلب .


١٥٩ — منبر من رخام فى الحرم القدسى يعرف بمنبر عمر (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وليس من الصعب أن يَتَمَثَّل المرء درجةَ تأثير تلك الـكبائر فى صلاح الدين النبيل الذى رَحِم نصارى القدس ولم يَمَسَّهم بأذى ، والذى أَمَدَّ فليب أوغست وقلبَ الأسد ريكاردس بالأزواد والمُرَطِّبات فى أثناء مرضهما ، فقد أبصر الهُوَّة العميقة بين تفـكير الرجل المتمدن وعواطفه وتفـكير الرجل المتوحش ونَزَوَاته ، وأدرك أنه لا يجوز أن يُعَامَل أولئك الحَمْقَى بغير ماتعامل به الوحوش الضارية .

وأُكْرِه ريـكاردس من فَوْره على مغادرة فلسطين قبل أن يرى القدس ، ولم يـكن للحملة الصليبية الثالثة التى قادها ملوك أوربة الأقوياء الثلاثة المتحالفون نتيجةٌ غيرُ بقاء النصارى مالـكين لبضع مدن الساحل .

ثم نُظِّمت الحملةُ الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤ م) بقيادة أمير الفلاندر : بُودُوَانَ ، وعزم الصليبيون ، في هذه المرة على بلوغ فلسطين بحراً ، لا برّاً كما في الماضي ، وأبحروا من ميناء زاره متوجهين إلى عاصمة الدولة النصرانية : القسطنطينية ، ولما بلغوها رأى بعضهم أن سورية لا تزال بعيدةً وأن الصليبيين السابقين نَهَكوها غير تاركين فيها نهاباً ، وأن كلّ الصيد في جوف القسطنطينية ، فانضمّ بقية الصليبيين إلى هذا الرأى الصائب وأخذوا ينهبون ما فيها وإنْ دخلوها حُلَفاء .

وكانت القسطنطينية تشتمل في ذلك الحين على ما تركه الأغارقة والرومان من كنوز الفنّ والأدب ، ولم يرَ صليبيو أوائل القرنِ الثالثَ عشرَ في هذه الكنوز شيئاً نافعاً يمكن تقديمُه إلى قبيلةٍ من أصحاب الجلود الحمر (اليوروج) ، فصاروا يُحَطِّمون كلّ ما لم يكن من الذهب أو الفضة أو يُلْقونه إلى البحر ، وصاروا يَكْسِرون التماثيلَ الرُّخامية التى صنعها لِيزِيب وفِيدياس وبَراكْزِيتيل ، ويُتْلِفون ، في يوم واحد ، تآليفَ ديموستين وديودرس ، وپوليب ، إلخ ، المهمة .

ولم يُفَكِّر بودوانُ وأصحابه في الزحف إلى فلسطين بعد أن شَبِعوا من الغنائم فنُصِب بودوانُ قيصراً ؛ وأجاز البابا إينوسانُ الثالثُ ذلك مع بيانه أن الصليبيين اقترفوا أفظع الجرائم .

ولا احتياج إلى ذكرنا أن سلطة هذا القيصر الجديد كانت موقتةً ، فلم يكن الصليبيون من غير الهَمَج العاجزين عن إقامة دولة دائمة وعن غير التخريب ، ولم ينشأ عن إقامتهم القصيرة بالقسطنطينية غيرُ إبادة كنوز العالم اليونانيّ اللاتينيّ القديم .

ولم تكن الحَمْلتان الصليبيتان ، الخامسةُ والسادسة ، من الحَمْلات المُهِمَّة ، ولم تباليا بالجهاد في سبيل القدس ، وإنما ذهب أكثر رجالهما إلى مصرَ طمعاً في الغنائم فاضْطُرُّوا إلى التقهقر بعد أن أوغلوا قليلاً فيها .

وتَوَجَّه جيشٌ صغير إلى القدس بقيادة فردريك الثاني الألمانيّ الذى تعاهد هو والمسلمون ، فسَمَح له المسلمون بدخول القدس حليفاً ، فعاد إلى أوربة مكتفياً بهذه المجاملة الحقيرة .

ومع ذلك فإن الحَملات الصليبيةَ أخذت تَفْقِد صِبْغَتها الأوربية الشاملة التى اصطبغت بها في بدء الأمر ، فقد قام مقام أَخْلاط الزُّمَر الأولى ، التى كانت تَنْقَضُّ على آسية ، بعضُ السرايا الصغيرة التى رَكِبَتْ كلٌّ واحدةٍ منها مَتْنَ هواها فلم تبحث عن غير ما فيه الثراء .

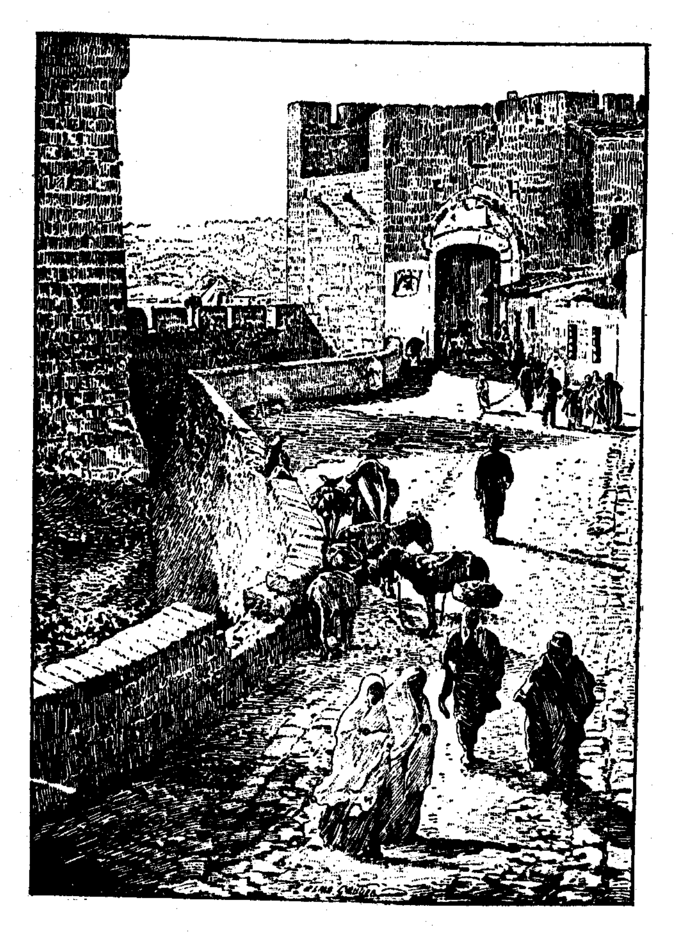
وظلت القدس ، وفلسطينُ تقريباً ، قبضةَ المسلمين على الرغم من الحَملات الصليبية الخمس التى جُرِّدت بعد الحَملة الصليبية الأولى ، ثم عزم ملك فرنسة ، سان لويس ، على العَوْد إلى الجهاد فجرَّد حملةً صليبية سابعة فى سنة ١٢٤٨م،وقد غادر إيغْمورْت على رأس خمسين ألفَ مقاتل متوجهاً إلى مصر، وقد احتلَّ دِمْياطَ ، وزحف إلى القاهرة التى كُسِر جيشَه قبل أن يبلغها ، ووقع أسيراً ، وافتدى نفسه ، وذهب إلى سورية ، وأقام بها سنتين من غير أن يَظْفَر بطائل ، ثم رَجَع إلى فرنسة قبل أن يرى القدس .

ولم تَنْثَنِ عزيمةُ سان لويس مع هذا الانكسار ، فقد جهَّز حملة صليبية جديدة بعد ستَّ عشرةَ سنة ، وقد غادر إيغمورت فى ٤ من يوليه سنة ١٢٧٠م على رأس جيش مُؤَلف من ثلاثين ألفاً من المُشاة وستة آلاف من الفرسان ، وقد تَوَجَّه إلى تونس طَمَعاً فى حمل أميرها على انتحال النصرانية ، فأصابه الطاعون حينما كان محاصراً لها ، فمات فى ٢٥ من أغسطس سنة ١٢٧٠م .

وكانت تلك الحَمْلة الثامنة أُخْرَى الحَملات الصليبية ، فبها خُتِمَت تلك المغازى الكبيرة إلى الأبد وبَقِيَ المشرق خاضعاً لأتباع النبىِّ العربىِّ .

ولم يلبث النصارى أن خَسِروا ما كانوا يَمْلِكون من النواحى القليلة فى فلسطين، وأراد البابوات أن يوقظوا حَمِيَّة النصارى الدينية على غير جَدْوَى ، فقد فَتَرَت حرارة الإيمان فى النفوس ، وصارَ هَمُّ شعوبِ الغرب مصروفاً إلى أهداف أخرى .

ولا أحاول ، فى خاتمة هذه الخلاصة القصيرة التى سردتها عن تاريخ الحروب الصليبية ، تَسْويغَ ذلك الاعتداء الذى وَجَّهَتْه أوربة إلى المشرق أو ذَمَّه ، فأمورٌ مثل هذه من نوع المجادلات التى تَرُوق شُبَّان المؤرخين ولا تستحقُّ أن يُبَالَى بها ، ولا أعلم أن فاتحاً فى القرون القديمة أو الحديثة فَكَّر ثانية فى عدل جهاده الحربىِّ أو ظلمه مالاءم ذلك الجهادُ مصالحه وما رأى وصولَه إلى مقصده من غير خطر كبير، فإذا كُتِب له النجاح فى جهاده كفاه نجاحُه ولم يَبْقَ مايستلزم تسويغَه،ولم يَعْدَم ، عند الضرورة ، فرسانَ بيانٍ لتمجيد ما صنع ، وإذا ما هجا بعضُ الكُتّاب مظالمَ القوة قائلين إن على القوة ألاّ تتغلب على الحقِّ كان ذلك من قبيل ذَمِّ الأمور الطبيعية غيرِ المُجْدى ، كشكوانا من السَّقَم والهَرَم والموت .


١٦٠ ـ باب يافا فى القدس (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

حقاً إن مبادئ الحقوق النظرية المُدَوَّنة فى الكُتُب لم تكن دليلَ أمة فى أىّ زمنٍ وإن المبادئ التى احترمتها الأمم هى التى أيَّدَتْها قوة السلاح كما أثبته التاريخ ، وإن البابوات لم يسيروا على غير سُنَنِ الفاتحين فى الماضى والمستقبل ، حينما حَرَّضوا النصارى على الحروب الصليبية الطاحنة المنافية لأبسط قواعد الإنصاف من الناحية النظرية ، فلا يُفِيد لَوْمهم على ما فعلوا ، ولْنَترك ، إذَنْ ، كلَّ بحث من هذا النوع ولندرس النتائجَ القريبة والبعيدة لذلك النزاع العظيم بين عالَمَيْن .

٣ ـ نتائجُ الحروب الصليبية بين الغرب والشرق

آراء المؤرخين فى نتائج الحروب الصليبية متناقضةٌ إلى الغاية ، وقد أسهب أكثرهم فى مدحها ، وعَدَّها بعضُهم ذاتَ نتائجَ سيئة .

وإذا نظرنا إلى هدف الحروب الصليبية القريب الذى هو فتحُ فلسطين رأيناها لم تُسْفِر عن أيَّة نتيجةٍ مع ما خَسِرَته أوربة فى قرنين من المال والرجال ، فقد بَقِىَ المسلمون سادةً لتلك الأماكن التى أراد النصارى أن يستولوا عليها بأىِّ ثمن كان .

ولكننا إذا نظرنا إلى النتائج البعيدة التى أسفرت عنها الحروب الصليبية تجلّت لنا أهميةُ تلك

النتائج التى كان بعضها نافعاً وبعضها ضارًا وإن شال الميزانُ ورجحت كِفة النافع منها ، فقد كان اتصال الغرب بالشرق مُدَّة قرنين من أقوى العوامل على نُمُوِّ الحضارة فى أوربة ، وتكون الحروب الصليبية قد أدَّت بهذا إلى نتائج غيرِ التى نشدتها ، وليس التاريخ خالياً من الأمثلة على عدم المطابقة بين الضَّالَّة المنشودة والهدف المُدْرَك ، بل هو حافلٌ بهما ، حتى يكاد البصيرُ يرى فى ذلك قاعدةً مُطَّردة .

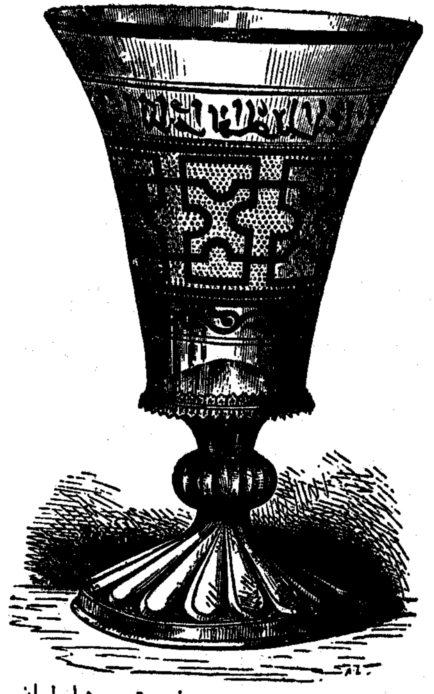
وإذا أراد المرء تَصَوُّر تأثير الشرق فى الغرب وَجَب عليه أن يَتَمَثَّل حال الحضارة التى كانت عليها شعوبُهما المتقابلة ، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقاً فى بحر من الهمجية ، وقد ظهر من بياننا الوجيز عن الحروب الصليبية أن الصليبيين كانوا فى سلوكهم وحوشاً ضارية وأنهم كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحونهم على السواء ، وأنهم خرَّبوا فى القسطنطينية مالا يُقدَّر بثمن من الكنوز القديمة الموروثة عن اليونان والرومان .

ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يُفيد الشرقَ ، ولم ينتفع الشرق منهم بشىء فى الحقيقة ، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بَذْرها فى قلوبهم الازدراء للغربيين على مَرِّ الأجيال ، ولم ينشأ عن جهالة الصليبيين وغِلْظَتهم وتوحشهم وسوءِ نِيَّتهم غيرُ حَمْل الشرقيين أسودَ الأفكار عن نصارى أوربة وعن النصرانية ، وغيرُ إيجادِ هُوَّةٍ عميقة لا يمكن سَدُّها بين أمم الشرق وأمم الغرب ، وما إلى ذلك من النتائج الضَّارَّة التى أشرنا إليها آنفاً .

ولم تكن العَدَاوةُ العادلة التى يَحْمِلها الشرقيون تجاه أمم الغرب كلَّ ماصَدَر عن الحروب الصليبية من النتائج الضَّارَّة ، فقد نشأ عنها ، أيضاً ، زيادةُ سلطة البابوات الذين كانوا رؤساء عالين للصليبيين ، وزيادةُ سلطة رجال الدين الذين اغْتَنَوْا بأرَضِين اضْطُرَّ السنيوراتُ إلى بيعها منهم ليقوموا بنفقات الغَزْو ، وقد نجَم عن نُمُوِّ سلطة أولئك واغتناء هؤلاء أن رَغِب البابوات فى السيطرة على الشعوب والملوك وأن عَمَّ فساد الإكليروس ، فأدى هذا الفساد بعد زمنٍ إلى الإصلاح الدينىِّ وما قاسته أوربة بسببه من المنازعات الدامية .

ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدم التسامح العالَمَ عِدَّةَ قرون، وأنْ صَبَغَته بما لم تَعْرِفه دِيانةٌ ، خلا اليهودية ، بِصِبْغَةِ القسوة والجَوْر ، أجَلْ ، كان العالم قبل الحروب الصليبية يَعْرِف الشىء

الـكثير من عدم التسامح ، ولـكنه نَدَر أن كان عدم التسامح هذا يَصِل إلى حدِّ الجَلَف والطغيان ، وقد بَلَغَ عدمُ التسامح هذا مبلغاً من الُحمَيَّا الشديدة فى الحروب الصليبية مالا يزال العالم يقاسى أثرَه إلى زماننـا تقريباً ، فلم يلبث رجال الدين الذين تَعَوَّدوا سفكَ الدماء أن صاروا ينشرون المعتقـد ويُبيدُون أصحاب البِدَع على الطريقة التى كانوا يُبِيدُون بها الـكافرين ، ويَرَوْن أنه يجب إخماد أقلِّ انحرافٍ بأفظع تعذيب ، ومن نتائج ما نَماَ فى الحروب الصليبية من روح عدم التسامح المشؤومة ماحدث من ذبح اليهود والألبيجوا وكلِّ ذى بِدْعَة ومن إنشاء محاكم التفتيش ومن الحروب الدينية ومن الحروب الوحشية التى ضَرَّجت أوربة بالدماء زمناً طويلاً .


١٦١ ـ قدح عربى يعرف بقدح شارلمان ويرجح أنه جىء به من الشرق أيام الحروب الصليبية (متحف شارتر)

ولْنَبْحَث الآن فى نتائج الحروب الصليبية النافعة بعد أن ذكرنا نتائجها الضارَّة الثابتة :

كان من النتـائج السياسية التى نشأت عن الحروب الصليبية أن تَضَعْضَع النظامُ الإقطاعىُّ فى فرنسة وإيطالية على الأقل ، وذلك أن السنيورات لم يَخْسَرُوا كثيراً من أَرَضيهم التى باعوها لينفقوا على ماجَهَّزوه من الحَمَلات فقط ، بل باعوا أيضاً ما كانت تصبو إليـه المدنُ من الحرية والامتيازات ، فصارت هـذه المدنُ دُوَيْلاتٍ مستقلةً ضِمْنَ دُوَل الإقطاع تابعةً للملك وحـدَه ، ثم أصبح اشتراء المدن لحريتها مبدأً عامًّا ، فقامت بلديةٌ مستقلة فى كلِّ مدينة ، فكانت نتيجة ذلك أن ضَعُف شأن الإمارات الإقطاعية الصغيرة ، لا الـكبيرة التى مالت إلى التَّوَسُّع ، وأن أضحى مَلِكُ فرنسة حَـكَماً بين القَسَّالات وسادتهم السابقين أكثرَ مما فى الماضى ، وأن زادت بذلك سلطة ملوك فرنسة الضعيفةُ قبل الحروب الصليبية ، على حساب سلطة قَسَّالاتهم التى كادت تساوى سلطةَ الملك فيما مضى، والتى عادت لا تـكون فى غير الظواهر فى بضعة قرون .

ولم يتقلّص النظام الإقطاعيُّ بفعل الحروب الصليبية إلا فى فرنسة وإيطالية ، لا فى إنكلترة وألمانية اللتين لم يشترك سنيوراتُهما فى الحروب الصليبية الأولى إلا قليلاً، واللتين حافظوا على إقطاعاتهم فيهما ، وصاروا رُقَباءَ على ملوكهما الذين تورّطوا فيها كثيراً ، فاستفادوا من ذلك فقيّدوا سلطة هؤلاء الملوك ، ونحن إذا أنعمنا النظر فيما نشأ عن سير الحوادث من النتائج البعيدة بدا لنا أن أصول دستور إنكلترة السياسيِّ المتين ترجع إلى حوادث الحروب الصليبية .

أجَلْ ، اشترك ثلاثةٌ من قياصرة ألمانية فى الحروب الصليبية ، فلما مات فردريك الثانى الذى هو آخرهم كانت السلطة القيصرية من الأوهام ، واشترك ثلاثة من ملوك فرنسة فى الحروب الصليبية ، فأما رِحْلَة فليب أوغست فكانت قصيرة، وأما سلطة الأشراف فى غياب لويس السابع ولويس التاسع فكانت غيرَ خَطِرَة لِمَا ذكرنا ، فسَهُل على نائب الملك سوجر والملكة بلانش أن يرُدَّا جِمَاحَها .

وكان لاصطراع أوربة وآسية تأثيرٌ كبير فى التجارة أيضاً ، فقد نشأ عن تجهيز الجيوش الكبيرة التى قذفت بها أوربة فى الشرق فى قرنين وتموينها ونقلها حركةٌ عظيمة فى التجارة والبحرية ، فاغتنى بذلك أهل مرسيلية وپيزة وجنوة والبندقية على الخصوص ، وبلغت بحرية مرسيلية درجةً عظيمةً من النُّمُوِّ استطاعت معه ؛ فى سنة ١١٩٠ م ؛ أن تنقل إلى الأرض المقدسة جيشَ قلب الأسد ريكاردس .

ولم يقِف نُمُوُّ التجارة بعد طرد الصليبيين من آسية ؛ فقد عَقَد أكثر جمهوريات إيطالية وأمراء المسلمين معاهداتٍ تجاريةً ؛ وكانت صِلات البندقية التجارية الوثيقة بالشرق سبب عظمتها ، واطَّرَدَ تقدمُ هذه التجارة مع الزمن إلى أن اكْتُشِفَتْ طُرُقٌ بحريةٌ جديدة ، فانتقل زمامها إلى أيدٍ أخرى .

ولم يكن تأثيرُ الحروب الصليبية فى الصِّناعة والفنون أقلَّ من ذلك ، فقد استوقفت نفائسُ الشرق الباهرة أنظارَ السنيورات الصليبيين مع جَلَفهم ، فوَجدوا فى التجارة وسيلةَ تقليدها ، فنرى اقتباسَ نفائسِ الشرق فى أسلحة الغرب وثيابه ومساكنه فى القرن الثانى عشر ، والقرنِ الثالثَ عشرَ على الخصوص .

وكلما نمت النفائسُ أدّت إلى تقديم الصِّناعة بحكم الضرورة ، وتبحث الصِّناعةُ عن المنتجات التى تطلُبها التجارة منها بطبيعة الحال ، فتحفِزها الضرورةُ إلى القيام بذلك من فورِها .

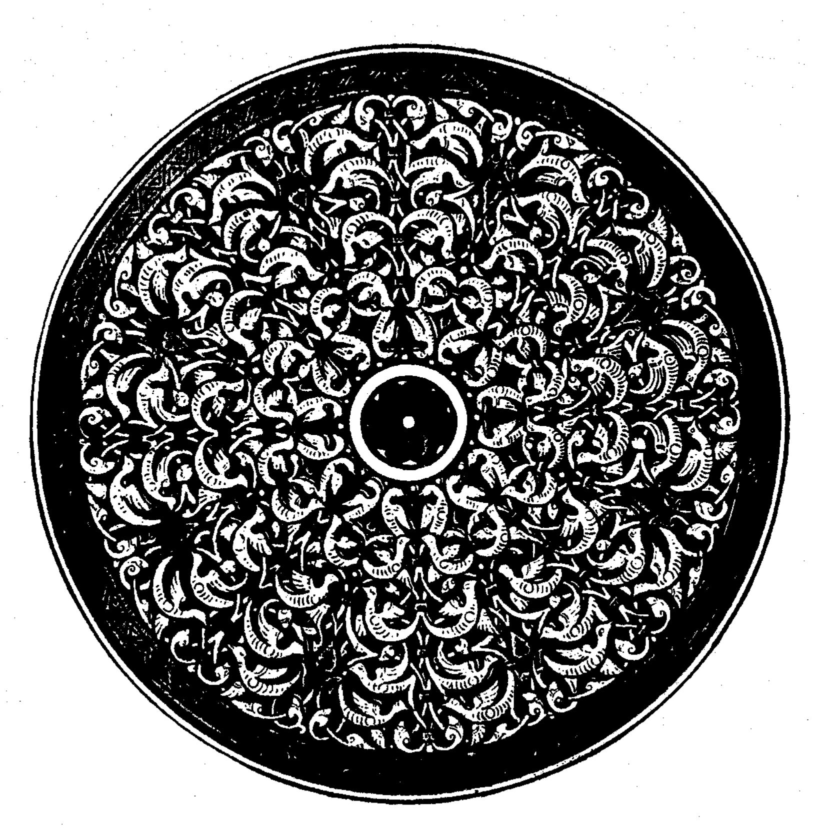


١٦٢ـ إناء عربى مصنوع من النحاس المكفت ، ويعرف بإناء معمودية سان لويس (متحف اللوفر)

وإذْ كانت صنائع الخشب والمعادن والميناء والزجاج تتطلّب معارفَ كثيرةً فقد اقتبسها الأوربيون من آسية مع جهلهم لها قبل دَوْرِ الحروب الصليبية ، وعَمَّ أمرها بذلك فى أوربة فعن صُورَ أخَذَت البندقيةُ نماذجَ صِناعة الزجاج، وعن المسلمين أخَذَت أوربة صِناعةَ النسائج الحريرية والصِّباغة المتقنة ، وعن سورية أخَذَ عُمّال الحَمَلات الصليبية التى دام أمرها قرنين وصانعو أسلحتها ومهندسوها ونجاروها ومن إليهم ما كانوا يجهلون من المعارف الصِّناعية ، وذلك فى أثناء إقامتهم الطويلة بها .

وكان تأثير فنون الشرق فى الغرب عظيماً أيضاً ، فقد نشأ عن إيلاف الصليبيين ضروبَ منتجات الشرق الممتدِّ من القسطنطينية إلى مصر تهذيبُ أذواقهم الغليظة ، ولم يلبث فَنُّ العمارة أن تحوَّلَ فى أوربة تحولًا تامًّا ، ولا يَصْعُب علينا ، والحالة هذه ، أن نُثْبِت فى فصلٍ آخرَ قوةَ تأثير آثار حضارة العرب فى أطواره الأولى .

وأما استفادة الصليبيين من علوم العرب الخالصة فـكانت ضعيفةً إلى الغاية خلافاً لِماَ ذهب إليه كثيرٌ من المؤرخين ، فالجيوشُ الصليبية إذْ كانت جاهلةً للعلماء لم تـكن لتبالِيَ بالمعارف والأصول مبالاتَهـا بشكل البناء أو الأسلوب الصِّناعىِّ .



١٦٣ ــ طبق عربى قديم مصنوع من النحاس

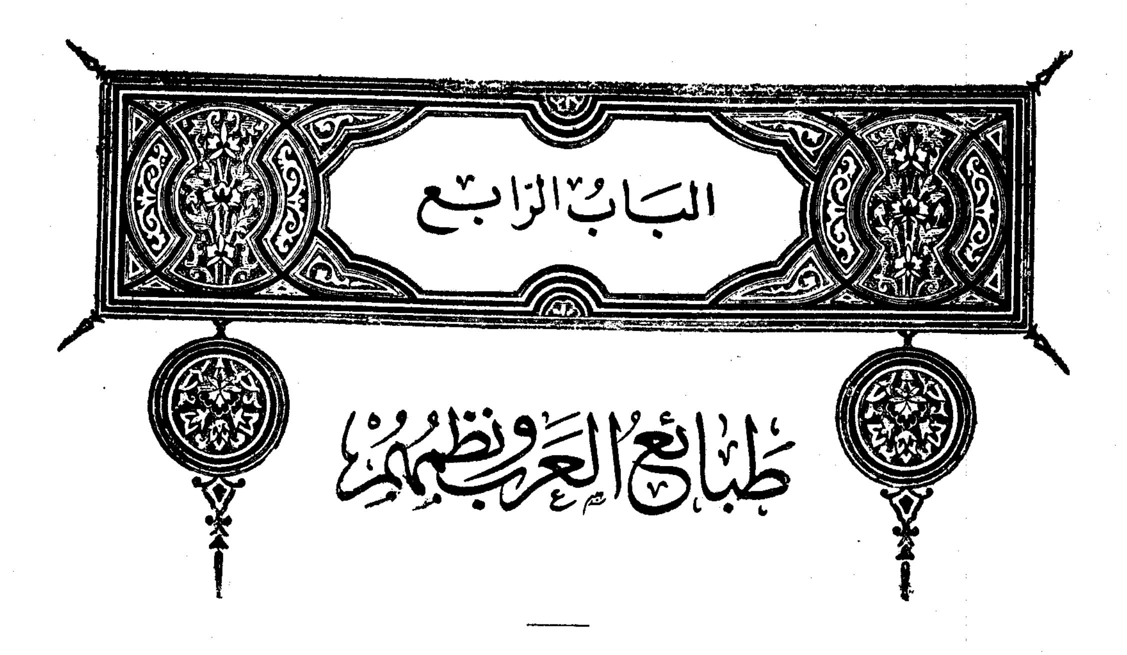
وإذا كنتُ لم أَقُلْ إن تأثيرَ الصليبيين فى تقدم أوربة العلمىِّ صِفْرٌ فلِمـا بين العلوم والصِّناعات من الصِّلَة ، ولِماَ تجُرُّ إليه إحداهما إلى بحثٍ قليلٍ فى الأخرى غالباً .

ولا يُحْتَجُّ علينا بأن القرون الوسطى استنبطت معارفها العلمية والأدبية من مؤلفات الشرقيين ، فالواقعُ أن تلك المعارف لم تَدْخُل أوربة بفضل الحروب الصليبية قَطُّ كما نبين ذلك فى فصلٍ آخر .

ولم يكن تأثير آداب العرب فى الصليبيين صِفْراً ، بل كان كذلك ، ضعيفاً جدًّا ، أى استوحاها

كثيرٌ من شعراء الغرب وكُتَّابهم ، فكان سَحَرةُ مِصْرَ وعجائب الشرق وغودفروا وتانكريدُ وغيرُهما موضوعَ قَصَصٍ مُهِمّ للشعراءِ الجوّالين الذين كانوا يُنْشِدُونه بين قصرٍ وقصر .

ظهر مما تقدم أن تأثير الشرق فى تمدين الغرب كان عظيماً جدًّا بفعل الحروب الصليبية ، وأن ذلك التأثير كان فى الفنون والصِّناعات والتجارة أشدَّ منه فى العلوم والآداب ، وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيم باطِّرَادٍ بين الغرب والشرق وإلى ما نشأ عن تَحَاكِّ الصَّليبيين والشرقيين من النُّمُوِّ فى الفنون والصناعة تَجَلَّى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأَعَدُّوا النفوسَ إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التى أخذت جامعات أوربة تُعَوِّل عليها فانْبَثَقَ عصرُ النهضة منها ذاتَ يومٍ .



الفصل الأول

أهل البدو وأهل الأرياف من العرب

١ — تمثُّل حياة قدماء العرب

سنحاول أن نَرْسُم بإيجاز ، فى هذا الفصل والفصل الذى يليه، حياةَ العرب بعد ظهور محمد ببضعة قرون فبالبحث فى طبائع العرب وعاداتهم نستطيع أن نَقِفَ على مصدر نُظُمهم السياسية والاجتماعية التى كانت سائدةً لدولتهم .

ونستنبط خطوطَ هذا الرسم الموجز الأساسيةَ من التأمل فى حال العرب المعاصرين ، واستقراءُ مثلُ هذا لا يَصْلُح لغير عدد قليل من الأمم ، ولا سيما الأممُ الشرقيةُ التى نَدْرُس تاريخها .

وسرعةُ التحول من أظهر ماتتصف به حضارة أمم الغرب ، فإذا ماقابلنا بين عصر شارلمان وعصرِ لويسَ الرابعَ عشرَ مثلاً بَدَا لنا عالَمَان مختلفان أشــدَّ الاختلاف فى الفنِّ والصِّناعة والعلم والحيـاة الاجتماعية واللغة .

ولـكن التحولات التى تَحْدُث بين دور وآخر لا تبدو بعيدةَ الغَوْر إلا لأن التاريخ لايبالى بغير الطبقات الاجتماعية العليا ، فإذا مانظرنا إلى الطبقات الوسطى أو الدنيا التى هى رُكْنُ كلِّ أمةٍ رأينا

تحوّلها ضعيفاً إلى الغاية ، فالعلوم والآداب والفنون والصّناعات التى تتألف من مجموعها حضارة أحد الأدوار لم تكن غيرَ ذات تأثيرٍ ضئيل فى المجموع مع انقضاء القرون، فالفرْق بين صاحبٍ لشارل مارتل وأحدِ حفَدَته فى زمنِ لويسَ الرابعَ عشرَ عظيمٌ لا ريب ، وهو ضعيفٌ بين حَدّاد أو تاجر أو فلّاح فى عصر الأوّل وبَنِيه فى عصر الثانى ، واليومَ قلّما نجد فرْقاً بين الفلّاح البريتانىِّ الحاضر وأجداده الذين ظهروا منذ ألف سنة .



١٦٤ ـ واحة بسكرة (الجزائر) (من صورة فوتوغرافية)

ومهما يكن الفرْقُ ضعيفاً فإنه موجودٌ بفعل البيئة على كلِّ حال ، فالفلّاحُ البريتانىُّ ، وإن لم يَفُق أجدادَه فى مزاجه النفسىِّ ، نراه ، وهو محافظ على لهجته الإقليمية الخاصة ، وهو قابع فى قريته الغامض أمرُها ، يعيشُ فى بيئة تختلف عن البيئة التى كان أجداده يعيشون فيها ، أى يرى وَميضاً من حضارةٍ تتحول باستمرار .

وترى أوربة أن أمم الشرق لاتتحول ،ونحن نرى أن أمم الشرق تتحول قليلاً فى الوقت الحاضر

لا رَيْب ، وأن طبقاتِها العليا ، على الأقلّ ، كانت تتحول كثيراً فى غابر الأزمان ، فالفَرْق عظيمٌ بين أمير عربىّ من حاشية الملك أبى عبد الله الصغير وصاحبٍ لعمرَ بنِ الخطاب ، وهو أعظم من ذلك بين عالمٍ فى جامعة بغداد أو جامعة قرطبة وأحدِ رُعاة بلاد العرب الأقدمين .

ولم يكن التحولُ ضعيفاً فى غير طبقات المجتمع الدنيا كما يشاهَد مثلُ ذلك فى كلّ مكان كما ذكرنا ، والفَرْقُ ، إذَنْ ، قليلٌ بين سكان الأرياف من العرب فى زمن محمد وبين ذَرَاريّهم فى زماننا ، وهو أقلُّ بين أهل البدو فى ذينك الدورين .

ولذا نَرَى فروقاً فى تحول أمم الشرق كالتى رأيناها فى أمم الغرب ، ونرى ألا يُخْلَط ، عند البحث ، بين تطور طبقات الشعب الواحد الاجتماعية لِما بينها من تفاوت .

ومع ذلك ، يجب أن يُعْتَرَف بأن العرب أقلُّ تحولاً من الأوربيين بين قرن وقرن ، ولم ينشأ استقرارُهم العتيد عن زوال حضاراتهم فقط ، بل نشأ ، أيضاً ، عن كون القرآن دستورَ المسلمين الدينىَّ والسياسىَّ والمدنىّ على الخصوص ، وعن أن ثبات أىِّ أمرٍ من هذه الأمور الثلاثة المتماسكة كان يُوجِب ثبات الأمرين الآخرين بحكم الضرورة ، وهكذا لم يلبث المسلمون أن رَأَوْا أنفسَهم مُقَيَّدين بسلسلةٍ من التقاليد والعادات التى تأصَّلَت بحكم الوِراثة ، فأصبحت من الرسوخ بحيث لا تُؤَثِّر فيها الزعازع ، وهكذا كادت طبائع أكثر العرب وعاداتُهم تكون ثابتةً لا تتبدل منذ قرون ، وهكذا أصبح من الممكن تَمَثُّلُ حياتِهم الماضية بدرس حياتهم الحاضرة .

وكان تحول أهل الأرياف والبدو من العرب ، على الخصوص ، ضئيلا ، وكان تَحَوُّل أهل المدن الذين انتابهم الفاتحون أظهرَ من ذلك ، ولكن هؤلاء الفاتحين إذ اتخذوا القرآن دستوراً لهم وكان القرآن نافذاً فى أدقِّ شؤون العرب لم تتَغير طبائع العرب وعاداتُهم إلا قليلاً ، وحاضرُ العرب ، وإن لم يكن ، لذلك التحول القليل ، صورةً تامة عن ماضيهم ، يَكْفى لتمثله مع ذلك .

وبما أنه يوجد لحياة العرب الاجتماعية صُوَرٌ مختلفة باختلاف حياتهم البدوية أو الريفية أو الحضرية دائماً فقد رأينا أن ندرس كلَّ واحد من هذه الوجوه على حِدَة .

٢ – حياةُ أهل البدو من العرب

لقد وصفنا سجايا أهل البدو من العرب بما فيه الكفاية ، ولا نرى أن نعود إلى ذلك مرة أخرى ، وإنما نُتِمُّ الآن ما قلناه فى فصلٍ آخرَ بأن نَصِف معايشَهم من الناحية المادية :



١٦٥ – مخيم أعراب فى الجزائر (من صورة فوتوغرافية)

إن بيانَ عاداتِ أولئك الأعراب وطبائعِهم أسهلُ من بيان عادات سكان الأرياف والأمصار وطبائعهِم ، وذلك أن حياة الأعراب بسيطةٌ إلى الغاية ، وأنها طليقةٌ من تلك الزيادات المُعقَّدة التى أوجبها الاستقرار والتوطن ، وفى الوصف الآتى الذى أقتطفه من كتابٍ لكوست تصويرٌ كافٍ لعادات الأعراب ، أجَلْ ؛ إن كوست صَوَّر بهذا الوصف قبائلَ صحَارى وادى النيل العربيـة منذ خمسين سنة ، ولكن ما تُسْفِر عنه حياة الصحراء من تبَدُّلٍ قليلٍ فى المعايش يجعل ذلك الوصف صالحاً

لتَمَثُّل الأعراب المعاصرين لسليمان أو المعاصرين لمحمد أو الذين سَيُولَدون بتعاقب الأجيال إلى أن تُبَدَّل الأرضُ غيرُ الأرض وتـكون آسية وإفريقية خاليتين من الصَّحارى ، قال كوست :

« يَمْتطى الأعرابىُّ صَهْوَةَ فَرَسه وقت الفجر ، ولا يَرْجِع إلى خيمته إلا وقت الغروب ، ويَغتَذى الأعرابىُّ فى النهار بالتمر وقليـلٍ من الذُّرَة أو البُرِّ ويُرْعِى فَرَسَه بالـكلأ الذى يَجِدهُ فى طريقه ، فإذا دخل خَيْمَتَه عِشاءً ناولته زوجُه كُوبَ لبن وقليلَ تمرٍ وعسلاً .

« ولا يَتَردد الأعرابىُّ إلى المدن إلا ليبيعَ ما تُنْتجه مواشيه وإبلُه وخيله ، ولا ينام الأعرابىُّ فى المدن ، وإذا ما نَزَل الأعرابىُّ بأرضٍ زَرَعَ فى بضعة أَفْدِنَةٍ منها ما يحتاج إليه من البُرِّ والشعير والذُّرَة ، ويَبْدُو الأعرابىُّ ، على خلافِ الفَلَّاح الذليل ، فَخُوراً بحريته ذا خَطْوٍ ثابت وعينين لامعتين ثاقبتين ، ولا يُصاب الأعرابىُّ بما يصاب به الفلاحون من الأمراض لقناعته وحياته المُنَظَّمة ، ودَمُ الأعرابىِّ صافٍ صفاء نسيم الصحراء الذى يَتَنَسَّمه .

« ومن أهمِّ ما تَعْتنى به الأعرابيات حَلْبُ الشِّياه والبقر ، وصنعُ الدقيق بمِطْحَنَتَيْن يَدَوِيَّتَيْن صغيرتين ، وصنعُ الخبز والطعام ، وتربيةُ الأطفال ، وحَوْكُ الثياب الصفيقة والبُسُطِ والخيام .

« وإذا ما عَزَمَت القبيلة على الرحيل رَكِبَت نساؤُها الهوادجَ اثنتين اثنتين ، والهوادجُ نوع من السِّلال التى توضع على ظهور الجمال وتصنع من أغصان الدِّفْلَى[1] ويُبَطَّن أسفلها بجلد الضَّأن ويُسْتَر أعلاها بنسيجٍ للوقاية من تَقَلُّب الريح ووَهَج الشمس ، ويأخذ الأعربياتُ ، بعد أن يجْثُمن فى الهوادج ، فى طَحْن البُرِّ بمطاحنهن اليدوية الصغيرة ، ويُهَيِّئن العجين ، ثم يَخْبِزْن الخبزَ فى أول مَوْقِفٍ على المَلَّة[2] أو على مَوْقِدٍ صغير أو على الرَّضْف[3] ويَسْتَعْمِلْن بعْرَ الجمال وَقُوداً .

« وتـكون خَيْمة الرئيس فى الوَسط ، وتليها خِيامُ أبنائه المتزوجين ، فخيام الأقرباء ، فخيام الخَدَم ، وتـكون الأفراس أمام الخِيام لتـكون حاضرة عند أول إشارة ، ثم تليها حظـيرةُ البقر والإبل والضَّأن والمَعْز .

(١) الدفلى : نبت زهره كالورد وحمله كالخروب . (٢) الملة : الجمر ، الرماد الحار .
(٣) الرضف : الحجارة المحماة .

« وتُصَفُّ الجمالُ ، فى الغالب ، حوْلَ خَيْمة الحَرَس على شكلِ دائرة ، وتُنْصَب خِيامُ الأرصاد الصغيرة بعيدةً من المُخَيَّم قليلاً للرَّقابة ليلاً .

وتكون تلك الخِيامُ قليلةَ الارتفاع ، ولا يستطيع المرء أن ينتصب فى غير وسطها ، وتَظْهر مُرَبَّعةَ الشكل ، ولا تكون مُدَوَّرةً مطلقاً ، ويمكن إغلاقُها من كلِّ جانب ، وإن كان شمالُها يُتْرك مفتوحاً لدخول النسيم ، وتُصْنَع تلك الخيام من المِرْعِزِّ والوَبَر ، وينحدر عنها ماء المطر من غير أن يَنْفُذ منها ، ولا تُؤثِّر فيها العواصف والرياح والشمس » .



١٦٦ ـ سوق فى مراكش (من صورة فوتوغرافية)

وأضيف إلى ما تقدم ما تشتمل عليه تلك الخِيام من متاع بسيط ملائم للحياة البدوية ، فكلُّ خَيْمَة تحتوى على أسلحة ورمح طولُه ثلاثةُ أمتار أو أربعةُ أمتار ولوحٍ حديدىّ للخَبْز وقِدْرٍ للطبخ وإبريقٍ للقهوة ومِهْرَاسٍ لها ودَلْوٍ وبضعةِ ثياب وما إلى ذلك ، ولذلك ليس من العسير أن نعلم أن أناساً ذوى احتياجات ضئيلة ، كأهل البدو ، لم يَعْرفوا سادةً لهم قطّ .

٣ — حياة أهل الأرياف والعرب

الحياة الاجتماعية . — يسكن جزيرةَ العرب وما جاورها من البِقاع ، فى كلّ زمن أناسٌ يعتمدون فى معايشهم على الزراعة ويسكنون الأرياف البعيدة من المدن ويخضعون ، دائماً ، لأحكام بِيئَة واحدة مشتملة على طبقة ضَيِّقَة من التقاليد والعادات ، ولا يعانون شيئاً من التحول المُهِمّ غيرَ ما يتحَوَّل به دينُهم ، وأولئك هم الذين يجب البحث فى أحوالهم للوقوف على بعض ما جاء فى القرآن من النُّظُم .

وإننى أتّخذ ، من مختلف السكان ، عرب حوران مثالًا للبحث ، وتَقْرُب من بادية الشام بلادُ عرب حوران الذين هم من أنصاف المستقلين ، والذين أجاد مسيو لُوپْليه درسَ شؤونهم فى كتابه المُمْتِع عن عمّال الشرق ، فنرى من المفيد أن نبحث فى أحوالهم لنَتَمَثل كيف يعيش السكان الذين تختلف طبائعهم عن طبائع جيرانهم من أهل الحضر وأهل البدو ، ولنَعْلَمَ ما نشأ عن هذا الجِوَار من النُّظُم .

يُعَدُّ أهلُ حوران الذين أدرس حياتهم الاجتماعيـة من العِرْق العربىّ وإن لم يقيموا بجزيرة العرب ، فقد كان يَسْكُن حورانَ بعد ظهور المسيح بزمن قصير قبائلُ عربيةٌ (من القحطانيين على رأى فِتْزشْتَايْن) كانت قد هاجرت من جَنوب جزيرة العرب وأقامت دولة السليحيين ثم دولةَ الغساسنة التى كانت تحت رعاية الرومان ، ونُصِبَ ، فليبُ ، الذى هو من عرب حوران ، قيصراً رومانياً فى سنة ٢٤٤ م ، وليس بمجهولٍ أن عاشت دولة الغساسنة خمسمائة سنة ولم تَنْقَرِض إلا باستيلاء خلفاء محمد على أملاكها ، ويَعُود إلى الغساسنة فضلُ إقامة الآثار العظيمة التى لا تزال ماثلةً فى بلاد حوران ، ولاسيما فى عاصمتها القديمة بُصْرَى ، ولا تزال تُرَى هنالك كتاباتٌ بالخطّ الحِمْيَرِىّ الذى سُمِّى باسم لغة بعض القبائل القديمة فى جزيرة العرب .

ويتألَّف عربُ حورانَ المجاورون لبُصْرَى من أعراب وحضريين ، فأما الأعراب فلا يظهرون فى حورانَ إلا صَيْفاً ، ويرْحَلون فى الشتاء إلى العراق أو إلى وادى الأردن ، أما الحضريون فهم جَمْعٌ من الزُّمَر التى تجْمَع بينها صِلَةَ القرابة ، فتخضع لرئيسِ أُسْرَةٍ خضوعاً تُشابه به نظامَ القبيلة الفطرىَّ كما يرى .

وجميعُ تلك الزُّمَر من الزُّمَر الزراعية ، وهى إذْ كانت قليلَة الأهلين بالنسبة إلى اتساع الأرَضين الصالحة للفِلاحة لا تَحْرُث كلُّ واحدةٍ منها سوى قسم .

وأرَضُو كلِّ قرية مُشَاعَةٌ بين أفرادها ، ويستطيع كلُّ واحد من هؤلاء أن يَزْرَع منها بنسبة ماعنده من البقر ، وتباع الحبوب ، التى تزيد على احتياجات بقر كلِّ زُمْرَة وجمالِها ، من الأعراب أو من تجار دمشق ، أو أن القوافلَ تنقلها إلى سواحل سورية لتُرْسَل إلى أوربة .

وتَـكُون المُنْتَجَاتُ مالَ الزُّمْرَة خلا الدَّخْل القليل الذى يناله بعض الأفراد من بعض المصادر ويُنْفقونه كما يشاءون .

وتُعَدُّ الصِّناعةُ ، هنالك ، فى حُـكْم المعدوم تقريباً ، وذلك أن الأهلين يصنعون قليلاً من النسائج ويبتاعون مايحتاجون إليه منها من تجار دمشق الذين يشترون حبوبهم .

وتَتَأَلَّف كلّ زُمْرة من أُسَر كثيرة ، قال مسيو دِيلْبِه :

« لايدلُّ اسم الزّمرة التى تَضُمُّ أناساً كثيرين يعيشون تحت سقف واحد على كلِّ واحد من أفرادها دلالةً واضحة ، وإنما يضاف اسم ذلك الفرد إلى اسم أبيه فيقال فلان بن فلان ، وإذا ما كان للوالدين ولدٌ أضيفَ اسم كلّ منهما إلى اسمه فيقال فلان أبو فلان أو فلانة أمّ فلان ، وفى الغالب يُحْذَف اسم كلٍّ من الوالدين فيقال أبو فلان أو أم فلان ، وإذا لم يكن للزوجين ولدٌ لم يـكَنَّيَا لِما فى التَّـكْنية الوهمية من السُّبَّة ، ويَتَسَمَّى الناسُ باسم أُسَرٍ حينما تـكون أسماء هـذه الأُسر من أسماءِ ذوى المجد والجاه من الأجداد الذين تَصْلُح أسماؤهم أن تـكون مَدارَ فخرٍ للحَفَدة ، وقد جرَت العادة ، مع هذا، على إطلاق اسم جدِّ الأسرة المَجيد على ربِّها العَتيد وحدَه ، وإن كان ذلك من حقوق جميع أفراد تلك الأسرة » .

ويبلغ عدد أفراد كلِّ أُسْرَة فى الزمرة ، ومنهم الخَدَم ، نحوَ ثلاثين شخصاً تابعين لرئيسها الذى هو أكبر أفرادها سِنًّا ، وتقوم النساء بتدبير منزل الأُسرة حَصْراً، ويُعامَلْن برفق ولطف وإن كُنَّ يُرْقَبْنَ رَقابةً وثيقة ، وإذا حدث أن اقترفت إحدى الفَتيات خطيئةً ، وهذا مايَنْدُر وقوعه ، قتلها أقرباؤها .

ويُرْجَع إلى القرآن والعادة فى أحوال حَضَرِيِّى العرب الشرعية ، ويفْصِل شيخٌ فى خصوماتهم ، وقد يَرْضَى أهل القتيل بالدِّيَةِ ، ويُفَضِّلون القِصاص عليها فى الغالب ، ويُؤَدِّى كلُّ قتل إلى تعاقب حوادث القتل بتعاقب الأجيال .



١٦٧ ــ مخيم أعراب بالقرب من طنجة (من صورة فوتوغرافية)

ولا تَقَع حوادثُ القتل إلا نادراً لِما ينشأ عنهما من النتائج الخطِرَة ، ويحترم الأعرابُ أنفسُهم حياةَ الإنسان حين النهب خوفاً من الثأر ومايؤدى إليه الثأر من تَأَصُّل العَداوة وتَأَرُّثها .

ويَكون الثأرُ نافعاً عند من هم على الفطرة،وإن ظَهَر أولَ وَهْلَةٍ عملاً همجيًّا ، فهو يَمْنَعُ حوادثَ القتل التى تقع ، لامحالة ، عندما يكون القانون رحيما ، وهم يَرَوْنهأحسن القوانين لأنه الدواء الوحيد.

ولا نظامَ يُكْرِه الأفرادَ على العيش ضِمْنَ الزُّمَر ، وإنما الضرورةُ تُلْجِئُهم إلى ذلك ، ففى المجتمعات التى لا يرْكَنُ الإنسانُ فيها إلى حماية الحكومة يَكون ، وهو منفردٌ ، من الضَّعْفمايُعَدُّ معه محكوماً عليه بالزوال ، وبهذا أيضاً نُفَسِّر التفاف كلِّ زمرة عربية فى كل مكان حَوْلَ رئيسٍ

حِفْظاً لحياة أفرادها ، والحقُّ أن هذه الزُّمَر الصغيرة ليست غيرَ شركاتٍ لابدَّ منها لحفظ حياة الأعضاء الذين تتألف منهم ، ويقوم نظام القبائل البدوية على مثل هذه الضرورة ، ويتصف نظامُ القبائل هذا بعدم التحول اتصافَها به .

وليس ببعيد أن كان عجز الفرد فى كلِّ مجتمع ضعيفِ النظام سبباً لظهور تلك الزُّمَر ، فإذا ماقامت حكومةٌ مركزية مقامَ الزمَر فى حماية الأفراد زالتْ تلك الزُّمر عن الوجود أو كادت .

ونذكر ، بجانب أفراد الأُسَر التى تتألف منها الزُّمر وتُقاسمها المنافعَ ، فريقَ الخدَم الذين إما أن يكونوا قد أَتَوْا من الخارج طلباً للرزق ، وإما أن يكونوا من زُمَرٍ أخرى لم يَأْلَفوا العيش فيها ، وإما أن يكونوا من زُمَر مُنْحَلَّة لنكبةٍ حَلَّت بها أو لعلة أخرى .

وأمورُ الزراعة هى أكثرُ مايمارسه هؤلاء الخدَم الذين يصبحون بذلك من المزارعين والذين يتقاضَوْن ربعَ الغَلَّة غالباً فى مقابل أعمالهم ، ثم يُعَدُّ هؤلاء الخدَم من الأُسْرَة ويأكلون من طعامها ، وليس من القليل أن يَتزَوَّج خادمٌ إحدى بناتها ، ومما يحدث على العموم أن يُشْرَط على الخادم ألّا يأخذ أجرة سوى طعامه وثيابه لسنين كثيرة ، وعَقْدٌ مثلُ هذا يُذَكِّرُنا بما صنعه يعقوب مع لابان ليتزوج راحيل ، وعَقدٌ مثلُ هـذا يُثْبِت لنا ضَعْف التحول فى طبائع العرب وعاداتهم منـذ العصر الإسرائيليِّ ، وقد يحدث أحياناً ، كما كان يحدث فى ذلك العصر ، أن يُطَالِب الحَمْوُ بإطالة مدة الخدمة وإن لم يُشْرَط ذلك فى العقد .

وسواء على الخادم أَتزَوَّجَ إحدى بنات سَيِّده أم اقتصد مبلغاً من المال ليتزوج وليشترى بعض الأنعام وليؤلف أُسرةً وليزرع لحسابه الخاص ، لا تكون الخدمة عنـد أولئك الناس الذين هم على الفطرة سوى مرحلة لبلوغ ماهو أعلى منها .

وجميعُ من ذكرنا من الأهلين هم من القائلين بمبدأ تعدد الزوجات ، شَأْنُ جميع الشرقيين ، والضروراتُ هى التى تُبيح لهم تعدد الزوجات كما نُبينُ ذلك فى فصل آخر ، والزوجات هُنَّ اللائى يُحرِّضْنَ أزواجهنَّ قَبل أىِّ إنسان على تزَوُّج نِسْوة أخرى .

ويُوجَدُ لحضريِ حوران ، كـكلِّ بلد مجاور للصحراء وكمعظم جزيرة العرب، صِلَاتٌ بالأعراب الذين يُضْطَرُّون إلى السلب لعدم كفاية ما تُنْتِجه مواشيهم وخيولُهم وجمالهم .

ومصالحُ الأعراب والحضريين متناقضةٌ تناقضَ مصالح الصائد والطائر ، فالصائدُ يرْغب فى أكل الطائر ، والطائرُ يسعى لـكيلا يأكله الصائد ، ولـكن الضرورة التى هى أقوى مهيمن على الإنسان لم تَلبَث أن وَفَّقت بين مصالح فَرِيقَيِ العرب المتناقضة ، وذلك أن الحضريين يدفعون إلى الأعراب فى كلِّ سنة من المـال ما يقابل حمايتهم لهم ، وأن الأعراب يَذبُّون عن الحضريين طمعاً فيما يأخذون منهم ، وهذا يعنى أن الحضريين يتركون بعضَ غَلَّاتهم ليُنقِذوا بقيتها ، وهذا لا يختلف ، فى غير الشكل ، عما يدفعه الرجل المتمدن إلى إحدى شركات التأمين من المبالغ لتَضْمَن له مالَه ، ولا عما يدفعه إلى الحـكومة من الضرائب لتؤدىَ منها رواتبَ الشُّرَط والقضاة وسائر الموظفين الذين يَـكُفُّون الأذى عنه .

والحقُّ أن أولئك العرب ، الذين لم تـكن لهم حكومة لتدفع رواتبَ إلى الشُّرَط والجند ولتمنع بذلك سلبهم ، يُضْطَرُّون إلى مداراة قُطَّاع الطُّرُق ، والنتيجةُ واحدة ، وليست النفقاتُ أشدَّ وَطْأً .
وتصبح القبائلُ البدوية حليفةً للقُرَى المجاورة فى مقابل ما تدفع إليها هذه القرى من الأَتَاوَى ، وتقوم بالدفاع عنها إزاء الأعراب الآخرين الذين يمكنهم أن يهاجموها ، ولا يَحْدُث مثلُ هذا الهجوم إلا نادراً لِقلَّة ما يَظْفَرُون به من الغنائم من غَزْوهم لقرية تحافظ عليها قبيلةٌ أخرى .

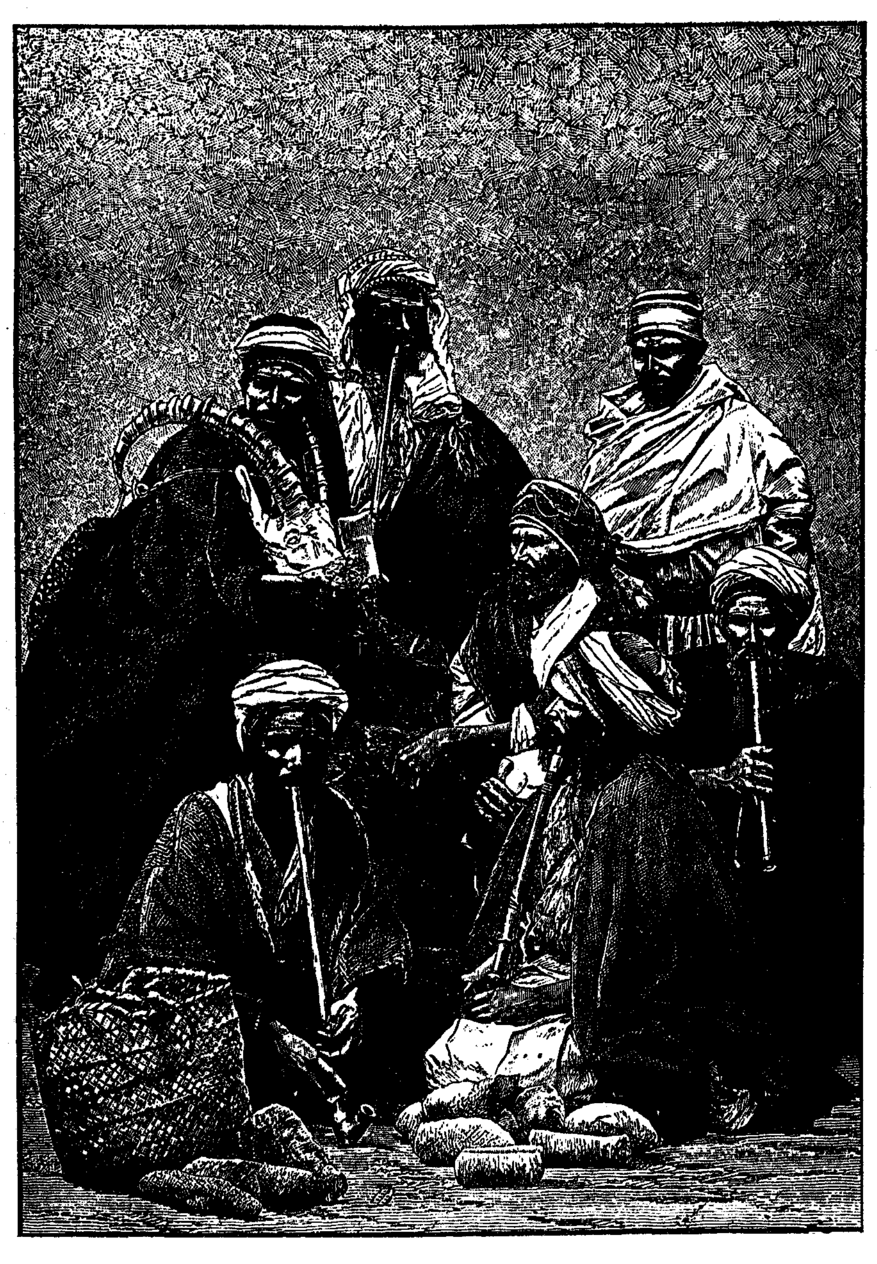
وتشابه مساكن حضريِ حورانَ مساكنَ سورية ، فيتألف كلُّ بيت فيها من جَنَاح للغُرَباء ومن جَنَاح للأسرة ومن مرافقَ وساحاتٍ وأَصابِلَ وما إليها ، وتحيط الحواجز بِغِماءِ[1] البيت ، ويُصنع هيكله من الخشب وجُدُرُه من الصَّلْصال[2] ، ويتألف أثاثه من الفُرُشِ التى يُنام عليها .
المساكن — لِنَدَع الآن جانباً حياةَ العرب الاجتماعية ، وهم الذين اتخذْتُهم مثالًا ، ولنتكلم قليلًا عن حياة العرب المنزلية فى مختلف الأرياف فَنَتَحَدَّثَ عن منازلهم وطعامهم وأزيائهم :

---

(١) الغماء : السقف .   (٢) الصلصال : الطين اليابس يصل من يبسه .

إن بيوت طبقات العرب الوسطى والدنيا على جانب كبير من البساطة ، وهى تختلف عن بيوت أغنياء العرب الزاهية التى سنصفُها فى الفصل الآتى :

وطِرازُ تلك البيوت العامُّ واحدٌ فى الشرق كله ، وهى تَفْقِدُ كثيراً من مظاهرها الشرقية



١٦٨ ــ جمالة فى مصر (من صورة فوتوغرافية)

الأصلية فى البلاد التى صار للأوربيين نفوذٌ فيها ، وليَذْهب إلى بعض القُرَى فى سورية والجزائر ومَرّاكُش من يرْغَب فى رؤية تلك البيوت المُربَّعة البِيض ذاتِ السطوح والشكل المُكَعَّب والفُرَج الضَّيِّقة والتى تـكتسب منظراً عريقاً فى شرقيته عندما يحيط النخل بها .



١٦٩ ــ عرب معتقلون بالقرب من تونس (من صورة فوتوغرافية)

وتختلف أنواع الموادّ التى تُبْنَى بها تلك المنازل ، كالحجارة والمُلُط وغيرها ، باختلاف البلدان والبِيئات ، فإذا نظرتَ إلى منازل العرب القـــائمة على ضِفاف النيل ، مثلاً ، رأيتها مَبْنِيَّة من الآجُرّ المصنوع من طين ذلك النهر الممزوج بالتِّبْن والمُجَفَّف بفعل الشمس ، وأنه يَنْدُر أن يزيد ارتفاع بعضها على ثلاثة أمتار ، وأنها لا تُدْخَل إلا من باب ضَيِّق جدًّا ، وأنه لا يوجد فى منازل فقراء الفلاحين من المنافذ سوى أبوابها ، وأن منازل ذوى اليسار منهم تتأَلف من أقسام كثيرة مستقلة : من بيوتٍ للسَّكَن ، وحظائرَ للأنعام ، وأبراجٍ للحَمَام ، إلخ . وأنه يحيط بتلك المنازل جُدُرٌ طينية مُكَلَّسَة ، وأن أثاثها يتألف من فُرُشٍ فقط ، وأنه قلما يوجد فيها مُتـكأ ، وأن

الثياب تُعَلَّق على حيطانها ، وأن الفُرُش واللُّحُف تُطْوَى فى كلِّ صباح وتُوضَع على الرِّفَاف وأنه يحيط بأَغْمِيَة البيوت حِياطٌ على العموم .

وهنا أُنبِّه القارئَ إلى أن المنازل العربية وأبراجَ الحَمَـــام فى مصر تَمُتُّ إلى المبانى الفرعونية القديمة بصِلَة القرابة ، وقد كانت تتَمَثَّل لى من بعيدٍ أبراجُ الحَمام المصريةُ ، الـكبيرة أحيانًا كبعض البيوت الأوربية ، وما يحيط بها من المرافق أطلالاً لبعض المعابد المصرية ، فأبراجُ الحَمَام المصريةُ مقتبسةٌ من صُرُوح قدماءِ المصريين ، والمنـازلُ المصرية تَمِيل إلى الشكل الهرَمِىِّ الذى يظهر أنه دستور فَنِّ العمارة الفرعونية ، وبهـذا وحدَه يبدو تأثيرُ الطِّراز المصرىِّ القديم فى طِراز البنـاء الإسلامىّ ، ويزول العَجَب عندما نعلم أن سكان وادى النيل حَفَدَةٌ لقدماءِ المصريين أكثر من أن يكونوا عربًا .

الطعام ، — يقتصر فقراء العرب فى طعامهم على الطُّلَم [1] وبعض الُخضَر والفواكه كالموز والتين والرُّطَب ، ويحتوى طعـام الموسرين منهم على اللحم فى الغالب ، وتُعَدُّ الفراريج المُقطَّعة المحاطة فى الصحن بالأَرُزِّ أَكْلَةَ المصرين الوطنية ، ويعتمد أهل الجزائر فى طعامهم على الـكسكسو المصنوع من العجين المُحَبَّب المخلوط بأنواع اللحوم ولا سيما لحمُ الضأن .

ومهما يكن العربىُّ فقيراً ، ومهما يكن العربىُّ بدويًّا ، يبالغ فى اقتِرَاء الضيف ، وينفق فى هذا السبيل من سَعَةٍ ، ويُؤْتَى بصحون الطعام على طَبَقٍ كبير من النحاس ويَجْلِس من حَوْلِه القُرْفُصاء ، ويَتَناول الطعامُ بالأيدى ، لا بالملاعق والشَّوْكات التى ليست موجودة ، ويكون اللحم مُقطَّعاً سلفاً ، وتؤخذ من مختلف الصحون قِطَعٌ من اللحم وتُدَحْرَج فى الـكَفِّ حتى تصبح كُبَّةً ، ومن أدب المائدة عند العرب أن تُقَدَّم هذه الـكُبَّة إلى الضيف ليَزْدَرِدَها ، ومن سوء الأدب رفضُها ، فإذا ما كانت تلك الـكُبَّة من صنع أعرابىّ لم يَقُمْ بما أمر به القرآن من الوضوء كانت من نوع حبوب المَرْضَى العسيرةِ الهضم ، وإذا ما فَرَغ الضيوف من طعامهم أُحْضِرَت إليهم الطسُوت ليَغْسِلوا أيديَهم .

ولا تزال الطِّبَاخة العربية فى المراحل الأولى، وقد أتيح لى ، مع ذلك ، أن أرى على الموائد العربية

(١) الطلم : جمع الطلمة ، وهى الخبزة .

من أنواع الطعام ما تجهله الموائد الأوربية ، ولا سيما الحَلْوِيَّاتُ الفاخرة والقِشْدِيَّات المتقنة ، وقد حَذِق العرب عمل الحَلَاوَى والمُرَبَّبات كثيراً .

والماء هو ما يشربه المسلمون عادةً ، ولكنهم في الشرق يشربون العَرَق المصنوع من البلح والممزوجَ بالمُصْطَكاء ، وذلك مع قليلٍ من الجهر .

وليس بمجهول أن موائد النساء العربيات مستقلةٌ عن موائد الرجال ، وأن أزواج ربِّ العائلة وبناته يُبَالِغن في خدمته ولا يأكلن إلا بعد أن يُتِمَّ طعامه .

الأزياء . ـ يَعْجَبُ المرء ، حين يتصفح إحدى المجلاتِ التي صدرت منذ قرنٍ والمشتملةِ على صُوَرٍ للأزياء التي شاعت في أوربة وحدَها في غضونه من تحوُّل آراء الأوربيين وأذواقهم في الأزياء ومحافظةِ العرب على أزيائهم التي أَلِفوها منذ اثنى عشر قرناً مما يدلُّ على ثبات تقاليدهم ، أَجَلْ ، لم تكن أزياء المسلمين واحدة في جميع أنحاء إفريقية ومصرَ وسورية وجزيرةِ العرب ، ولكنه يَسْهل تَبَيُّن ما بينها من الشبَه العظيم ، وهي تُرَدُّ إلى جِلْباب وعَبَاءة دائماً ، والعَبَاءةُ زرقاء أو سوداء في مصرَ ، وبيضاء في الجزائر ، ومخططة بخطوط بيضٍ وسودٍ في سورية ، إلخ .

وقد يكون غِطاء الرأس أكثرَ ما يتحول من الأزياء العربية ، ومع ذلك فإن غِطاء الرأس قد تحوَّل ضِمْن دائرة ضَيِّقَة ، ففي مصرَ يَلْبَسون الطربوش والعِمَامة ، وفي سورية يَلْبسون الكُوفِيَّة ، وهي مِنْدِيلٌ زاهي الألوان يُلَفُّ به الرأس ، وهو مصنوع من وَبَرَ الإبل ، وفي الجزائر يُسْتَر الرأس بغطاء أبيضَ يَسْتَقِرّ عليه بشَطَن[1] مماثل للعِقال .

وليس لأزياء النساء أنواعٌ في غير الطبقات المُوسِرة ، ويتألف لباس المرأة الفقيرة من حُلَّة طويلة مشدودة من الوسط بنِطاق ، ومن غطاء لا يترك من الوجه شيئاً ظاهراً سوى العينين ، ويتألف ثوب المرأة المصرية من جِلْبَابٍ أزرقَ مصنوعٍ من القطن ، ولا تعرف المرأة المصرية ، ولا الشرقيةُ ، المِشَدّ وما إلى المِشَدّ من وسائل التجميل المصنوعة ، ومع ذلك فإن الفلاحة المصرية ذاتُ بَخْتَرَةٍ تائهة تُدْهِش رجالَ الفنِّ ، وتذكِّرنا ببَخْتَرَة إلاهات قدماء الأغارقة ، والإنسانُ ، وقلّما يرى الفلاحةَ المصرية الناهدة

---

(١) الشطن : الحبل .

الضامرةَ الكتف الحاملةَ إناءً على رأسها تمشى باتّزان ، يقطع حقا بأن أمهر الخياطين فى أوربة لم يُوَفَّقوا لمنح المرأة الأوربية مثلَ هذه المِشْيةِ على الرغم مما يلجأون إليه من وسائل التجميل المصنوعة الغالية .

وأقول زيادةً على ما تقَدَّم ، وذلك لكيلا أعودَ إلى دراسة الأزياء عندما أبحث فى شؤون عرب المدن ، إن ملابس أغنياء العرب مُعَقَّدَة ، ولكنها أنيقة ، وهى مؤلفة من قُمُصٍ من الحرير أو الشُّفُوف ومن صُدُراتٍ مُطَرَّزَة بالذهب ومن سراويلَ واسعةٍ ، إلخ . ، وإن النساء يَلْبَسْن ، وقلما يَخْرُجْن من بيوتهنَّ ، مآزرَ ويَسْتُرْن وجوهَهُنَّ ببراقع .



١٧٠ ــ أعرابيتان من جوار بعلبك (سورية) (من صورة فوتوغرافية)

وليس من المفيد أن نُسْهِب فى بيان الزِّيِّ عند العرب بأ كثرَ مما تقدم ، وما نشرنا فى هذا السِّفْر من الصور الكثيرة أفضلُ من كلِّ إيضاح ، فأرجو أن يَتَبَيَّنَ القارئُ عالَمَ الشرق ، الذى يختلف عن عالمنا ، من خلال صُوَرَ الأزياء والأمثلة والمبانى وما إليها أ كثرَ مما يوصف ذلك العالَمَ الذى لا يَتَجَلَّى من غير أن يُلْقَى فى الرُّوع باهرُ الصُّوَرِ وزاهى الألوان .

الفصل الثانى

عرب المدن ، طبائعهم وعاداتهم

١ — المجتمع العربىّ

إن مما يستوقف النظر ما نراه من التضادّ بين ثبات نُظُم الشرقيين وتسليمهم بالأمر الواقع الذى ليس له دافع والإخاء السائد لمختلف طبقاتهم من جهةٍ وثَوْرات الأوربيين الدائمة وهَرْجهم وتنازعهم الاجتماعىّ من جهةٍ أخرى .

وأظهرُ ما يتصف به الشرقيون هو أدبُهم الجمُّ وحِلْمُهم الكبير وتسامُحهم العظيم نحوَ الناس والأموال ودَعَتُهم ووقارهم فى جميع الأحوال واعتدالُهم الكثير فى الاحتياج ، وقد مَنَحهم إذعانهم الهادئ لمقتضيات الحياة طمأنينةً روحية قريبة من السعادة المنشودة على حين تورثنا أمانينا واحتياجاتُنا المصنوعةُ قَلَقاً دائماً بعيداً من تلك السعادة .

ومن السهل ذمُّ ذلك التسليم الفلسفىّ وبيانُ محاذيره ، ولا يُنْكَرُ ، مع ذلك ، أن المفكرين الذين درسوا تقلبات الأمور لم يُوَفَّقُوا بَعْدُ لاكتشاف ماهو أكثر ملاءمةً لحكمة الحياة ، فلايجوز، والحالةُ هذه ، ازدراء مِزاجٍ نفسىّ يَمْنَح المرء سعادة وطُمأنينة وإن لم يساعد على تقدُّم الحضارة فى كلّ وقت .

وليس من الصعب أن نَتَمَثَّل الحالَ التى كان عليها المجتمعُ العربىّ أيام ازدهار حضارة أتباع النبىّ بطريق البحث فى حالة المجتمع العربىّ الحاضرة وفى حوادث الماضى ، فقد دَلّ وصفنا لحاضر العرب فى مختلف الأقطار التى كانوا سادة لها على أن مايُشَاهَد من أُنْسِهم وتسامحهم كان يُشَاهَد أيام حضارتهم أيضاً ، وقد وصفنا طبائعهم النبيلة وفُرُوسِيَّتَهم ورأينا أن أوربة المتبربرة اقتبستهما منهم .

وإن مانراه خاصًّا بالطبقات الأوربية العليا من الأدب والوَقار، هو من الأمور الشائعة بين مختلف

طبقات الشرق كما أجمع عليه السياح ، وإليك ماقاله الفيكونت فوغيه عندما تكلم عن تزاور أفقر طبقات العرب : « لا يسعنى سوى الإعجاب بما يسود اجتماعاتِ أولئك القرويين الفقراء من الوَقار والأدب ، وما أعظم الفرقَ بين اتزّان أقوالهم وَنُبْل أوضاعهم ولَغَط بنى قومنا ووقاحتهم ! » .

وأُتيحَ لى ، غيرَ مرةٍ ، أن أتصل بكثير من العرب فى مختلف أنحاء العالم الإسلامىّ ، فقضيتُ العجبَ فى كلّ مرةٍ من الوقار والتَّرحاب اللذين كان يستقبلنى بهما أناسٌ لا تعلو طبقتُهم الاجتماعية طبقةَ فَلّاحى أوربة ، لافرق فى ذلك بين أن يكون ربُّ البيت فقيراً أو غنيًّا ، وذلك أن الواحدمنهم يتَقَدَّم نحوكَ ليُحَيِّيَكَ على الطريقة الشرقية،أى بوضع يده على صدره وجبينه ، وليدعوكَ إلى الجلوس على مُتَّكأ فى صَدْر البيت المقابل للباب ، ثم يَعْرِضُ عليك سيغارةً أو نارجيلةً للتدخين وقهوةً للشرب، وينتظر منك بأدبٍ أن توضح له سبب زيارتك .

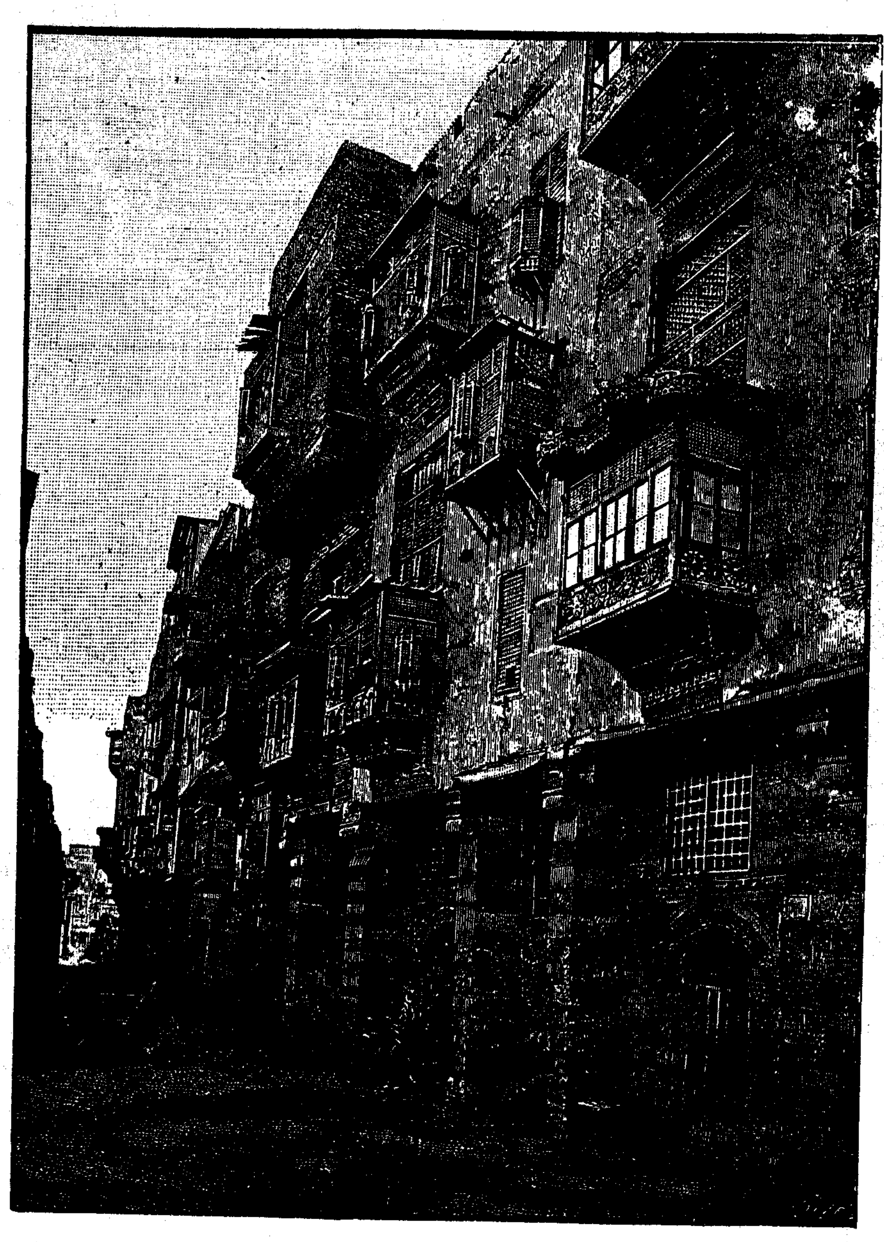
٢ — المُدن العربية ، البيوت ، الأسواق ، إلخ .

المدن العربية . — يَكْفِى كثير من المُدن العربية الحاضرة ، كدمشق وبعض الأحياء فى القاهرة، لتصَوُّر ما كانت عليه المدن العربية فى سالف الأزمان ، وقد تكلمتُ عن منظر شوارعها المُلتَوِية المُشَوَّشة غيرَ مرة،ولا فائدة فى الرجوع إلى ذلك الآن،وإذا ما أغضَيْتَ عن المدن الشرقية التى تَلْمِس فيها نفوذَ الأوربيين ، كالمدن الساحلية السورية مثلاً ، رأيت شَبَهاً عظيماً بين مدن الشرق قاطبةً ، فالسائح الذى ينتقل إليها فَجْأَةً بقوة ساحر يَعْلَم من فَوْره حقيقةَ الجزء الذى هو فيه من الكُرَة الأرضية .

وتنقطع الحركة فى شوارع جميع المدن العربية مع غروب الشمس ، وتُغْلَق الحوانيت فى ذلك الوقت ، ويَدْخُل الناس بيوتهم ، ولا يَخْرُج الإنسان من بيته ليلاً إلا حاملاً فانوساً لعدم الإنارة المصنوعة .

ولا عهد للشرقيين بما فى مدن أوربة من الحركة الليلية ومن الحوانيت والقَهَوات المُضاءة بأبهى الأنوار ، ومع ذلك يَجِد الشرقيون فى حياتهم المنزلية من الرَّوْعَة مايستغنون به عن ملاهى الليل ،فإذا

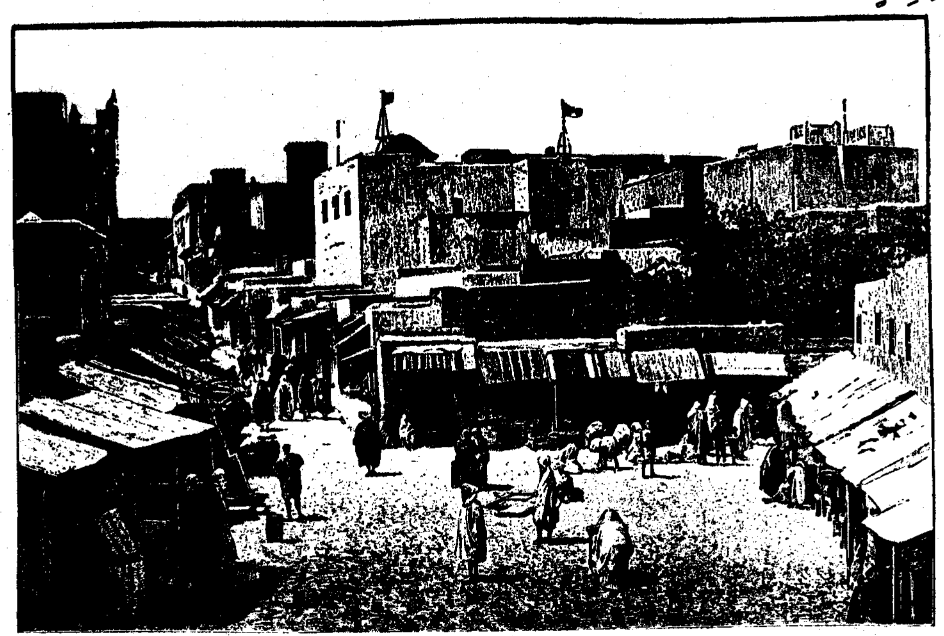
قُيِّضَ لأناس منهم أن يزوروا أوربة بَهَرتهم حركة مدنها الليلية وقالوا : إن مَلال الغربيين فى بيوتهم يدفعهم إلى الخروج منها وملازمتهم الأندية أو القَهوَات ، وقد قال لى تاجرٌ بغدادىّ وقورٌ زار عواصم أوربةَ كثيراً : « إن ذلك من النتائج السيئة للاقتصار على زوجة واحدة لا ريب » .



١٧١ ــ شارع قديم فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية)

وليست شوارع الشرق موضوعَ عناية أحد ، وترك أمر إزالة ما يُلْقَى فيها من الأقذار للكلاب، والكلابُ لا تترك منها شيئاً ، ولا صاحبَ لهذه الكلاب التى تشتمل كلُّ مدينةٍ على الألوف منها فتعيش جماعاتٍ يكون فى كلِّ حيّ واحدةٌ منها ، ولا يَخْرُج كلبٌ من حَيّ من غير أن يُمَزَّق ، ولذا ليس من الممكن أن يَقْتَنِيَ رجلٌ كلباً فى الشرق ، فإذا ما حدث أن كان له كلب وقَطَع معه شارعاً مَزَّقته كلاب الأحياء التى يَمُرُّ منها حتماً .

ويُعامِل الشرقيون الكلابَ وجميع الحيوانات بِرِفْقٍ عظيم ، ولا ترى عربيًّا يُؤْذِى حيواناً ، وإيذاء الحيوان من عادة سائقى العربات فى أوربة ، وليس من الضرورىّ ، إذَنْ ، أن يُؤَلِّف العربُ جمعياتِ رِفْقٍ بالحيوان .



١٧٢ ـ شارع فى طنجة (مراكش) (من صورة فوتوغرافية)

والحقُّ أن الشرق جَنَّةُ الحيوانات ، وفى الشرق تُرَاعَى الكلاب والهِرَرَة والطيور ، إلخ . ، وتُحَلِّق الطيورُ فى المساجد وتُوَكِّر فى أطنافها مطمئنةً ، وتأوى الكَرَاكِيُّ إلى الحقول من غير أن تُؤْذَى ، ولا تجد صبيًّا يَمَسُّ وُكُناً ، وقد قيل لى فى القاهرة بصيغة التوكيد ، وهذا يُؤَيِّد ما ذكره بعض المؤلفين ، إن فى القاهرة مسجداً تأتيه الهِرَرَة فى ساعاتٍ معينة لتتناول طعامها وَفْقَ شروط أحد الواقفين منذ زمن طويل .

وجزئياتٌ كتلك تدلُّ على طبائع الأمة ، وتدلُّ على درجة افتقار الأوربيين إلى تعلّم الشيء الكثير من حلم الشرقيين وأُنْسِهم .

ولا يَعْرِف الشرق من أمور العربات سوى الشيء اليسير ، ولا ترَى فى الشرق غيرَ طُرُق قليلة صالحة لسَيْر العرَبات ، ولا يَعْتَمِد الشرقيون فى شؤون النقل إلا على الخيل والجمال والحمير ، والناسُ فى مصرَ يستخدمون الحميرَ على الخصوص ، والناسُ فى القاهرة يرْكبون الحميرَ فى جوْلاتهم اليومية ، والحميرُ المصرية أجملُ من الحمير الأوربية التى فقَدَت صيتَها ، ولا يرى عِلْيَةُ القوم فى مصرَ ولا نساؤُهم غَضاضَةً فى امتطائها .



١٧٣ ـ دابة فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقطها سباه) ـ

ولـكلِّ حمارٍ في مصرَ سائقٌ يدفعه إلى العَدْو بصوته أكثرَ مما بعصاه ، ولا يطيع الحمار المصريُّ غيرَ سائقه ، ولا يَأْبه لـكلِّ حَثٍّ يقوم به أيُّ سائق موقت آخر .

المساكن . ـ يَميلُ سكانُ المدن من العرب إلى إنشاء مساكنهم على الطِّراز الأوربيّ في الوقت الحاضر ، ولذلك تُصْبِح القصور العربية القديمة نادرة جدًّا .

وتشاهَد أجملُ البيوت المبنية على الطِّراز العربيّ في دمشق ، وليس في مناظر هذه البيوت الخارجية ما يستوقف النظر على العموم ، وفي داخل المنازل ، لا في خارجها ، تتَجَلَّى حياة الشرقيين الذين لا يُضَحون بشيء في سبيل المظاهر ، وتُدْخَلُ تلك البيوت ، على العموم ، من مَسْلَك ضَيِّق مُقَبَّب يجْلِس فيه الخدَم ، وإذا ما انتهيتَ منه دخلتَ ساحةً كبيرة ، وإن شئتَ فقُلْ حديقةً مُفَرَّشة بالرُّخام ومشتملةً في وَسَطها على حَوْضٍ مُحاط بأشجار الصفصاف والبرتقال والليمون والرمان وأنواع الرياحين التي تَنشُر شَذَاها داخلَ البيت ، ويحيط بتلك الساحة أقسامُ البيت الصالحةُ للسَّكن والتي يحتوى داخلُها كلَّ زُخْرُف عجيب ، والصورةُ التي التقطناها عن داخل أجمل قصور دمشق فنشرناها في فصل آخر أفصحُ دليل على ذلك ، والوصف أعجزُ من أن يُصَوِّر لنا ما لِسقُفِه من الروافد الناتئة والأشـكال الهندسية المُجوَّفَة التي نَقَشَ المتفننون أجملَ النقوش العربيـة على خَشَبها الأَرْزِيّ والحماطيِّ[1] ، والوصفُ أعجز من أن يُصَوِّر لنا ، كذلك ، رسومَ قِطعه الزجاجية العجيبة وجُدُرَه المَكْسُوَّة خطوطاً وكتاباتٍ وأفاريزَه المُتَدَلِّية التي تَرْبِط السَّقْفَ بجوانب حِيَاطه .

وتُقسِّم الرَّدْهَةُ المهمةُ المرتفعةُ ارتفاعَ طبقتين في ذلك القصر إلى ثلاثة أقسـام على العموم ، وتحيط هـذه الأقسام بساحة مُبلَّطة ، وتتوسط هـذه الساحةَ فِسْقِيَّةٌ رُخامية منقوشة مُثَمَّنة الزوايا فوّارَة .

ويتألف رياش ذلك القصر من أَرِيكة كبيرة مُغطاة بالحرير المُطَرَّز بالذهب والفِضة حول حِيَاط رَدْهَته ، وتشتمل بقية أمتعته على مُتَّكآت ومقاعدَ صَدَفِيَّةٍ ومَشَاكٍ مستورةٍ بالرُّخام والخشب الثمين والزجاج والميناء الفارسيّ لتُوضَع فيها الأواني الصينية والفِضة وفناجينُ القهوة المستقرةُ بظروفٍ صغيرة مُخَرَّمة والنارجيلاتُ والمباخر ، إلخ .

---

(١) الحماطة : شجرة شبيهة بالتين ، وقيل هي الجميزة .

وَيَنشد العربيُّ الراحةَ فى تلك الملاجىء[1] الهادئة الساحرة العَطِرَة التى يَتَخَلَّلها الرُّخاء[2] ولا يَنْفُذ من نوافذها سوى ضياء قليل ولا يُعَكِّر صفوَها غيرُ خرير ماء الحِياض المرمرية ، ويستطيع العربيُّ الذى تحيط نساؤه به هنالك أن يُطْلِق لخياله العِنان فيُخَيَّل إليه أنه انتقل إلى جنة محمد من خِلال دُخان نارجيلته .

ويختلف طِرازُ البيوت العربية فى الجزائر ومَرَّاكُش بعضَ الاختلاف عن طِراز بيوت العرب فى دمشق ، فقد استُبْدِلت القاعة فيها بالحدائق لضيق الاتساع ، وتحيط بالقاعة أجزاء المسكن .

وإذا ما نظر الإنسان إلى تلك البيوت من الخارج رآها مُكَعَّباتٍ حجريةً بيضاً كبيرةً تَعْلُوها سُطوح ، ويَنْفُذ النورُ إلى أجزائها من قاعاتٍ مُحَاطة بأقواس تقوم عليها طبقات من الأَرْوِقة التى تُدْخَل الغُرف منها ، وهى مُبَلَّطَةٌ بالآجُرِّ المَطْلِيِّ ، ويُغَطِّى الميناء جُدْرَانَها ، ويَسْتُر الخشبُ المحفور سقوفَها من الداخل ، ويتألف أثاثها من الحُصْر والبُسُط ومن مُتَّكَأٍ يوضع فى أقصى الغرفة وَيَصْلُح للجلوس فى

---

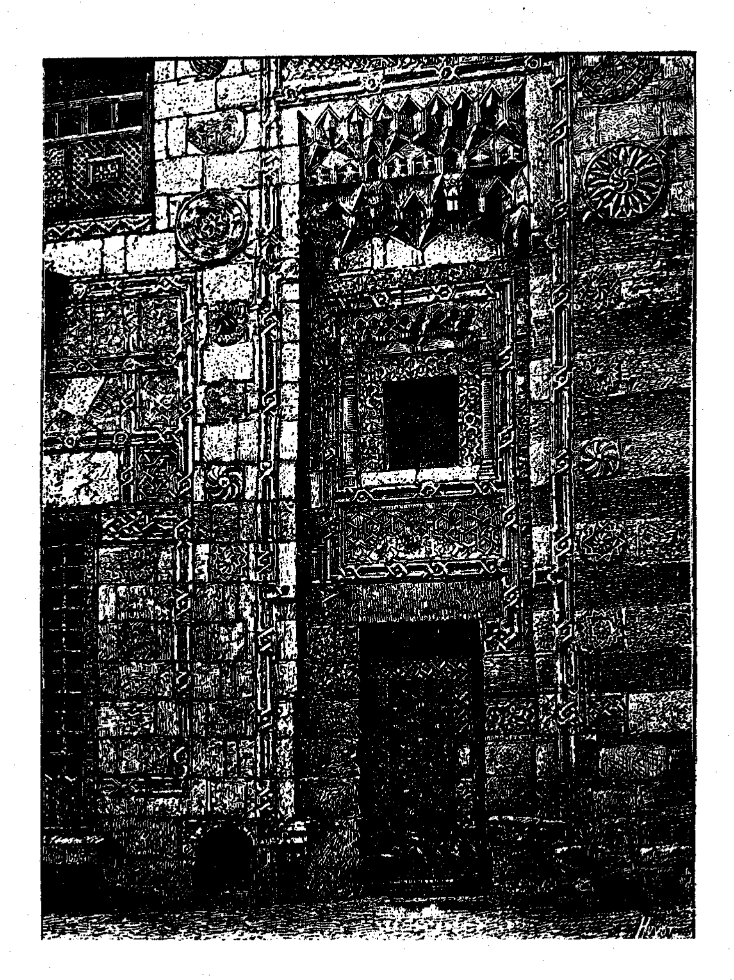
(١) زالت تقريباً القصور العجيبة التى كانت تشتمل كل مدينة عربية على عدد كبير منها أيام ازدهار حضارة العرب ، نعم ، يقيم مرابو اليهود بيوتاً من نوعها فى دمشق ، ولكن ما فطر عليه الشعب اليهودى من الذوق الفاسد والترف المزيف يدفع المرء إلى الأسف على ما ينفقون من المال فى تقليد تلك القصور العربية التى هى فى طريق الأفول تقليداً سيئاً ، فالمرء يرى فى تلك البيوت اليهودية خلطاً كريهاً بين أخس ما صنعه شرقى وأقبح ما أنتجه أوربى ، ويشاهد فيها نقوشاً من أحط ما صنعه الرسامون ، وتلك البيوت اليهودية وحدها هى التى يستطيع الأجانب أن يدخلوها ، وهى التى لا يزورون غيرها ، فيخطئون فى عدها من أمثلة فن العمارة العربى ، وقد أنعمت النظر فى بيت اليهودى الذى نشر رسمه المؤلفان الفاضلان مسيو لوته ومسيو غيران والذى هو أشهر تلك البيوت اليهودية فلم أجد فيه سوى فساد فى ذوق صانعيه الذين حاولوا أن يوفقوا فى شيده بين مختلف فنون البناء فضلا عما رأيت فيه من الأمتعة الأوربية المبتذلة والشماعد التى لا يساوى بدل الواحد منها سوى بضعة دوانق والتماثيل الصغيرة لنابليون ، والرسوم التى تعد أحط رسوم ايبنال الملونة بجانبها آية فى الإبداع .

والقصر الذى نشرت صورة ردهة الحريم منه هو القصر القديم الذى تملكه أسرة أحد ولاة الشام السابقين ، أسعد باشا ، وهذا القصر من أقدم ما فى الشام ، وهو أجمل قصورها ، ومن دواعى الأسف أن يكون عرضة للخراب وألا يكون أصحابه ، الذين هم على جانب قليل من الذوق الفنى ، من الغنى ما يستطيعون به إصلاحه ، وقد رأيت ، لعدة أسباب ، أن أنشر لردهته صورة فزدت فيها ما ليس فيها الآن من الرياش مستنداً إلى الصحيح من الروايات ، وغيرت موضع إحدى حواجزها ليبدو للناظر زخرف ما يقابل مدخلها ، وتدل تلك الصورة على ما هو أكثر من ثلث تلك الردهة ، والمرء حين يمر من العتبة وينظر إلى الفسقية الرخامية التى تكون أمامه ثم يتلفت يرى عن شماله قسم تلك الردهة القائم الزوايا ، ويرى أمامه قسما آخر مثله ، ويرى عن يمينه قسما ثالثاً مثله ، ويتألف من مجموع هذا صليب إغريقى حل مدخل الردهة محل شعبته السفلى .

والتقطت أيضاً صورة فوتوغرافية لنافذة فى تلك الردهة فنشرتها .

(٢) الرخاء : الريح اللينة التى لا تحرك شيئاً .

النهاروالنوم فى الليل، ومن صناديقَ خشبيةٍ مدهونة لصيانة الثياب والُحلِيّ ، ويُسْتَر أعلى تلك القاعات بنُسُجٍ ذاتِ حبالٍ مربوطةٍ بكلاليبَ على السطوح منعاً لحرارة الشمس ، والواقع أن البيوت القائمة على هذا الطِّراز تلائم البلادَ الحارة ، وأن الناس فى المدن العربية القديمة فى إسپانية ، ولا سيما فى أشْبِيلِيَّة ، يَشيدون بيوتهم على طِرازها حتى الآن .



١٧٤ ــ باب بيت قديم فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وفنُّ عمارة إحدى الأمم عنوانٌ صادق لاحتياجاتها ، وإذا ارتحلت أمةٌ عن قطر إلى آخر حوّلت فنَّ عِمارتها إلى ما يُلاَئِم بيئتها الجديدة ، ولهـذا نرى اختلافاً بين البيوت العربية فى القاهرة ، مثلاً ، والبيوتِ الموصوفةِ آنفاً ، ففى المدن الـكبيرة كالقاهرة ، حيث تَضِيق المِساحاتُ ، تُقام البيوت على ثلاث

طبقات فى الغالب ، ولا تكون رِداهها مرتفعة كما فى دمشق ، وتُفتح نوافذها على الشوارع لعدم كفاية قاعاتها الضيقة لتجديد هوائها ، ولكن العرب إذْ يرَوْن أن تكون النوافذ مُغْلَقَةً أمام الغرب لم يُمَنِّمُوا أن اخترعوا الشبابيكَ الخشبية ذاتَ التخاريم وسَمَّوْها المشربياتِ .

والآن لا يُرَى فى القاهرة غيرُ عددٍ قليل من البيوت القديمة التى أُنْشِئت على طِراز العِمارة فى عصر الخلفاء والتى تنقلِب إلى خرائب ، وأذكر منها بيتَ مدير المساجد العامّ ، ويرَى أغنياؤُها فى الوقت الحاضر إنشاء بيوتهم على الطِّراز الأوربىّ لِما يجِدُونَ فيها من الهَيَف ! وتمتاز البيوت القديمة فى القاهرة من بيوتِ كثيرٍ من المدن الشرقية بأبوابها المزخرفة إلى الغاية .

الأسواق . ــ الأسواقُ من أهمِّ أجزاء المدن فى الشرق ، فيُرَى فى كلِّ مدينة مهمة كثيرٌ من الأبنية التى يتألف من مجموعها حَىٌّ للتجارة وحدَها يُسَمَّى السوق ، وتحتوى السوق على أروقة طويلة مُغَطَّاة بألواح أو حُصُر وعلى دكاكينَ متجمعةٍ على حسبِ أنواع السِّلَع ، ويضاف نوعُ السِّلَع التى تباع فى الرُّوَاق إلى كلمة السوق فتُعَيَّن بذلك فيقال ، مثلاً ، سوقُ الأسلحة وسوقُ الأزياء وسوقُ الأبازير ، إلخ . وإذا عَدَوْت كبرياتِ المدن لم تجِد غيرَ السوق مكاناً للبيع ولو كانت السلعُ مما يُستَهلَك يومياً .

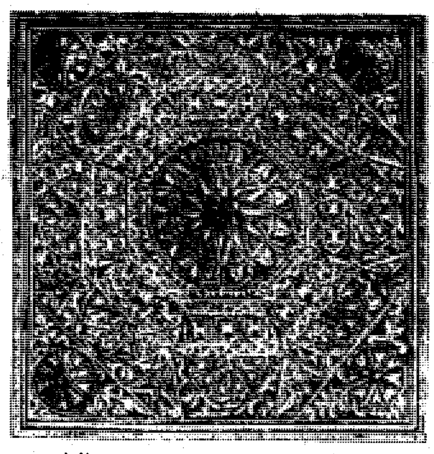
ولا شَبَهَ بين الدكاكين الشرقية المظلمة والحوانيت الأوربية ، ولا عهد للدكاكين الشرقية بفنّ العَرْض على الخصوص ، وتبْدُو هذه الدكاكينُ مُجَوَّفَاتٍ مظلمةً يترجَّح عَرْضها بين مترين وثلاثة أمتار ولا تزيد على هذا طولا ، وتكون السلع مُنَضَّدَةً فيها ، ويجلس البائع أمامها ، وتحتوى على ثرَوَاتٍ واسعةٍ أحياناً مع حقارة منظرها .

والسوقُ مَلْقَى الناس المُفَضَّلُ فى الشرق ، وهى المكانُ الوحيد الذى يكون فيه شىءٌ من النسيم فى الغالب والنساء يَقْصِدْنه ليمكُثْن فيه مُدَّةَ ساعات .

والرجالُ وحدَهم هم الذين يقومون فى الشرق بإدارة شؤون دكاكين الأسواق ، ومنها دكاكينُ النصارى .

وينتظر التاجرُ المشترىَ أمام دكانه مُتزِناً صابراً ، ولا يُزْعِج أحداً من المارين ما لم يكن التاجر

يهوديًا ، فإذا كان التاجر يهوديًا ألْحف على المشترى بدناءةٍ ، فلم يَسْتَطع أن يتخلص منه إلا بعد عناء كبير .



١٧٥ ــ سقف بيت عربى قديم فى القاهرة
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ومن عادات التاجر الشرقىِّ ، مهما كان جنسه ، أن يطلب ، أولَ وَهْلَةٍ ، خمسةَ أمثال ماتساويه سِلْعَتُه ، كما أن من العادات الثابتة ألا تَتمَّ الصفقة إلا بعد جَدَل طويل ، وإذا كانت السلعة على شىء من القيمة استمرت المساومة أياماً كثيرة ، وقد اقتضى اشترائى للنارجيلة النحاسية المُكَفَّتَة بالفضة ، والتى نشرتُ صورتَها فى هذا الكتاب ، مساومةً دامت أسبوعاً كاملاً ، فكأنَّ الشرقىَّ لا يَخْرُج عما يملك إلا بعناء ، فعلى من يرغب فى ابتياع شىء من الشرقىِّ أن يكون صبوراً مثله .

٣ ــ الأعياد والاحتفالات :

الوِلادة ، والخِتان ، والزواج ، والدفن

الوِلادة والخِتان . ــ الوِلادة من أفراح العرب الخاصَّة ، والخِتان من أفراحهم العامة ، فإذا بلغ الصبىُّ السنة السادسة أو السابعة من عُمْره خُتِن ، ويومَ الخِتان يُسار بالصبى فى مَوْكِب عظيم فى المدينة لابساً أفخرَ الثياب ، مُبَرْقَعَ الوجه ، راكباً حصاناً مجهزاً بأثمن عُدة ومخفراً بأولاد آخرين لابسين مثله ، ويتقدم المَوْكبَ الحلاقُ الذى سَيَخْتِنه ورجالُ الموسيقا ، ويعترض النساء بين الفَيْنَة والفَيْنَة للمَوْكب مُزَغْرِدَاتٍ ، ثم يَصِل المَوْكب إلى المسجد المنار بأبهى الأنوار ، ثم يُسار منه إلى بيت الأبوين ليتناول الناسُ الطعام من مائدتهما ، ثم يُبْدَأ بالألعاب التمثيلية فى الغالب ، ويَخْتِن الحلاقُ الصبىَّ عند الانتهاء من الأكل وعلى صوت الصُّنُوج خَنْقاً لصوته ، ويُحْيى المدعوون الكثيرون ليلتَهم بشرب المرَطِّبات والقهوة والنارْجيلات .

الزواج . ـ تُعَدُّ حَفَلاتُ الزواج من الأفراح كحَفَلات الخِتان ، وأقتصر الآن على بيان الأعراس دارساً فى فصل آخر حالَ المرأة فى الشرق :



١٧٦ ـ نافذة فى قاعة الحريم من قصر أسعد باشا بدمشق (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

حيما يَرْغَبُ الفتى فى الزواج يُفَوِّضُ إلى امرأةٍ كبيرةِ العُمر أن تبحث له فى الأُسَر عن الفَتَيات الصالحات للزواج ، ويختار واحدةً ممن وُصِف له جمالُهنَّ وكمالُهنَّ ، ثم يفوِّض إلى شخصٍ أمرَ خِطْبَتها ، وتُسْأل المخطوبة عن رأيها صورةً ، ولا يكون لديها مايُسَوِّغ رفضَها تزَوُّجَه مادامت لا تراه إلا بعد عقد الزواج ، ثم يفاوض الخطيبُ أباها فى مقدار مَهرها ، وذلك لأن الرجل هنالك ، لا المرأة كما فى أوربة ، هو الذى يدفع المَهْر ، فإذا تمت المفاوضة جاء الخطيب ومعه أصدقاء له إلى بيت حَماه حيث يكون منتظراً إياه هو وبعض الأصدقاء والشهودُ وأحدُ الـكَتَبَة ، وعندئذٍ يُلفَظ بصيغة العقد الشرعية ويُدوِّن الكاتبُ ما وقع ، وبهذا يكون عَقْد النكاح قد انتهى شرعاً ، ومن هنا ترى أن ذلك الزواج عَقدٌ خاصٌّ لا يتطلب تأييداً دينيًّا أومراسمَ مدنية ، ولا تُزَفُّ العروس إلى زوجها إلا بعد أيامٍ تقام فيها الحفَلات ، وتُرْسَل العروسُ المُبَرْقَعة فى مَوْكِبٍ مُؤَلَّف من الأصحاب والموسيقيين إلى الحَمَّام ، ثم تعود إلى بيت أبيها حيث الموائدُ ، وتُبْعَث مُبَرْقَعَةً فى اليوم التالى إلى بيت زوجها المعَدِّ المنَار بعنايةٍ لاستقبالها ، وذلك فى وَسَط مَوْكِبٍ تتقدمه جماعةٌ من الموسيقيين والمهرِّجين والمصارعين ، فإذا ما انصرف الناس أمكنَ الزوجَ أن يرفع النِّقاب عن زوجه وأن يتأمَّلها لأول مرَّة .

ولا تقام تلك الحَفَلاتُ إلّا فى الأحوال التى يكون فيها عَقْدُ نكاح ، وعند ما لا يُصار إلى طريقة عَقْد النكاح يَذْهَب المرء إلى أسواق النِّخاسة الكثيرة التى لاتزال موجودةً فى الشرق ، ولا سيما فى القاهرة ، مع إنكار وجودها فى الكتب ، ويأخذ واحدةً من الإماء الشَّرْكسيات أو الكُرْجِيات الحِسان بمبلغٍ قد يَصِل أحياناً إلى ستة آلاف فرنك ، وتكون هذه الأَمَة من الأسْرَة ، ويكون لأولادها ما لأولاد الزوجات من الحقوق ، ويُعامَل الإماء برِفقٍ ولا يُفكِّرْن فى

التَّحَرُّر ، وإن كان التَّحَرُّر من الأمور السهلة إلى الغاية ، فما عليهن فى مدينةٍ كالقاهرة ، التى تعانى مَناحِيَ أوربة ، إلا أن يذهبن إلى أولياء السلطة ليُعْرِبْن عن رغبتهن فيه .

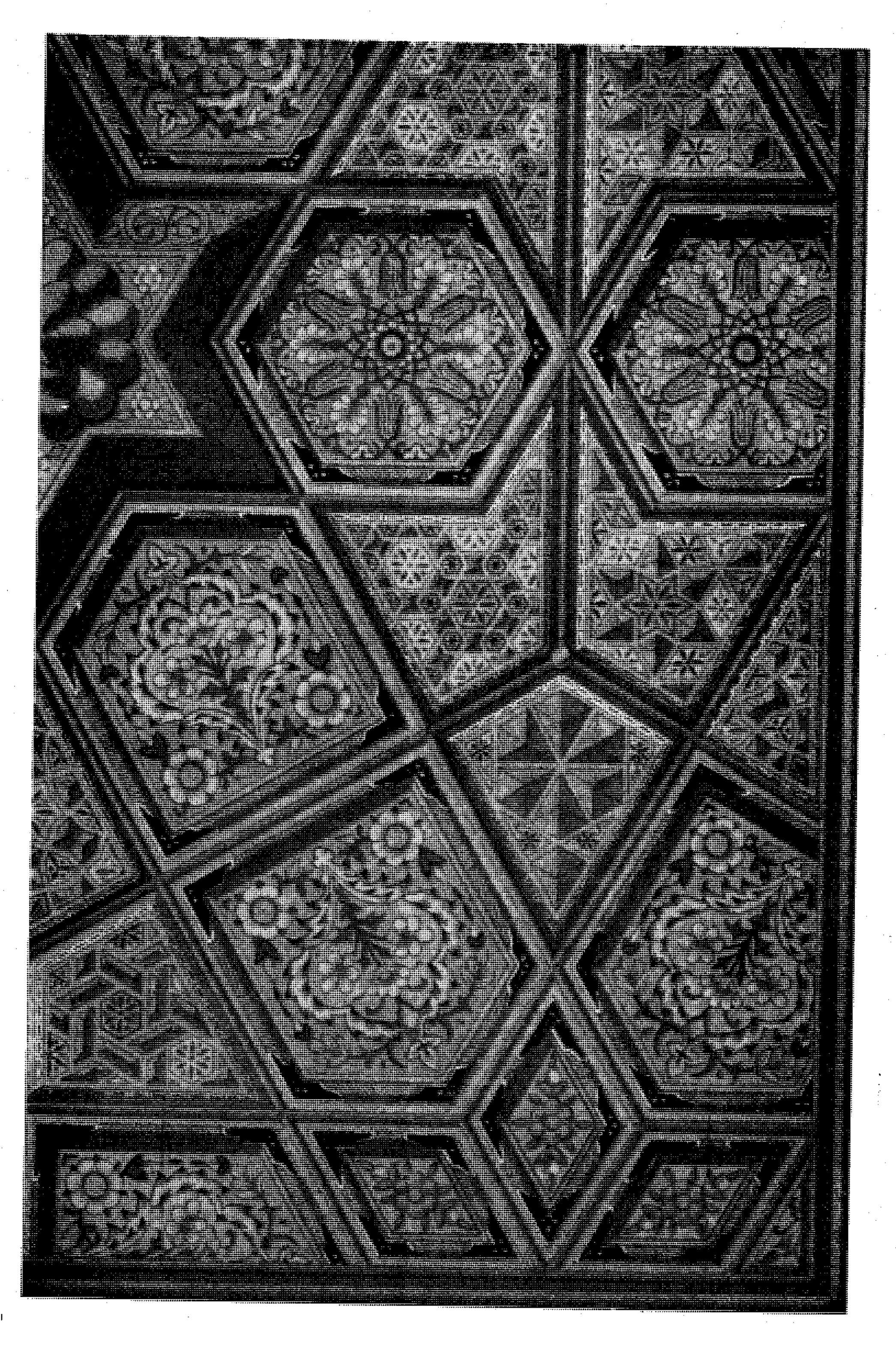
المـآتم . ـ مراسمُ الدفن عند المسلمين فَخْمَةٌ فخامةَ مراسمِ الزواج ، فالميتُ يُوضَع ، بعد أن يُكَفَّن ، فى تابوتٍ ويُغَطَّى التابوتُ بشالٍ كشميرىّ ، ويتناوب حَمْلَه خمسةٌ أو ستةٌ من أصدقائه ، ويتقدم الجنازةَ فريقٌ من العُميان والمساكين مُرَتلين بعض آى القرآن ، ويأتى خَلْفَها الأقرباء والأصحاب والنائحات ، ويُصَلَّى على الميت فى المسجد ثم يُدْفَن فى المقبرة ويُوَجَّه وجهه إلى مكة ، وإذا كان الميت عظيماً أُقيم حول قبره بنيانٌ مُكَعَّب تعلوه قُبَّة ، وإذا حَلَّت الأعياد زُيِّنَت القبور بالأزهار وقَضَى النساء أياماً حولها بالدعاء .

٤ — مختلف عادات العرب : الحَمَّامات ؛ القَهوات ، التدخين ؛ تعاطى الحشيش

الحَمَّامات . ـ حَمَّامات الشرق أفضل من حَمَّامات الغرب صحةً وراحة ، وهى ، عدا ذلك ، محلٌّ للاجتماع والمحادثة ، ولا تقلُّ شأناً عما كان لها عند قدماء الرومان .

وتُنشأ حَمَّاماتُ الشرق على نَمَطٍ واحد ، ولا يختلف بعضُها عن بعض فى غير الزينة والنفائس .

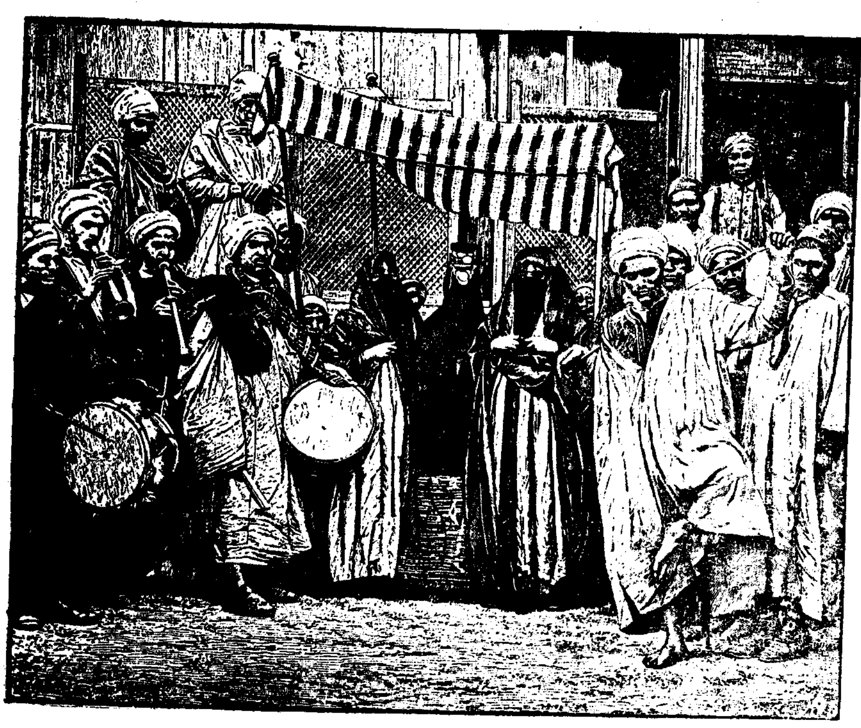
ويُوجَدُ مُتَّكأٌ كبير ، فى رَدْهَة الحَمَّام حيث يستريح المُسْتَحِمّ ويَخْلَعُ ثيابه وتُحفَظ ، وتُرَى فِسْقِيَّةٌ من الرُّخام فى الوَسَط ، ويتَلَفَّف المُسْتَحِم بِمِنْشَفَةٍ ، وينتعلُ نعلاً من الخشب ، ويَدْخل غرفةً تبلغ حرارتها نحو خمسين درجة ، ويَسْتَلْقِى على بَلاطةٍ من الرُّخام ويُمَسَّد ، ثم يدخل غرفةً ثالثةً ويُدَلَّك جِسْمه ، ويُغَسَّل بالصابون ويتوضأ ، ويُصَبُّ الماء الفاتر والباردُ عليه غيرَ مرة ، ثم يعود إلى تلك الرَّدْهه ويستَلْقى على ذلك المتَّكأِ مشتملاً بالمناشف ويشرب النارجيلة والقهوة ، ولا شىء يُنْعِشُ الإنسانَ ، بعد نَصَبِ النهار ، مِثْلَ ذلك الاستحمام ، فنتمنى أن يشتمل جميع مدن أوربة المهمة على مثل تلك الحَمَّامات .



سقف بيت حديث بدمشق

(من تصوير بورغوان)

القَهوات والتدخين وتعاطى الحشيش . ـ يَترَدّد الناس هنالك كثيراً إلى القَهوات ، ولكن لا عهد لتلك القَهوات بما فى قَهوات أوربة من وسائل الترف ، وذلك أن متاع تلك القَهوات يتألف من حُصُرٍ وأكواب ونارجيلات فى الغالب ، ومع ذلك تمتاز القهوة التى تُعرَض فيها بحُسْن الصُّنع ، والأوربىُّ الذى يتعَوَّدها فى الشرق لا يَعُود إلى نقيع القهوة فى بلاده إلا على مَضَض .



١٧٧ ـ موكب عرس فى القاهرة (من صورة فوغرافية التقطها سباه)

وليس بمجهولٍ أن معرفة الشرقيين للقهوة أمرٌ حديث ، وأنهم لم يَعْرِفوها أيام ازدهار حضارة العرب .

ومن العادة فى الشرق أن يتناول المرء ، فى أثناء شرب القهوة ، التبغَ الأشقرَ العَطِرَ اللذيذ الذى لا يَعرِف الغربُ غيرَ نوعٍ مُقلَّد منه ، وفى الشرق يستعملون ذلك التبغ على العموم فى النارجيلات الطويلة الأنابيب وذاتِ النماذج الكثيرة ، فيمرُّ الدُّخان من آنيتها المملوءة بالماء مُتطَهِّراً بذلك من عناصره السَّامة قبل أن يَصِل إلى الأفواه ، ويُبَلَّل التبغُ ، ويُوضَع فى أعلى النارجيلات ، وتُوضع عليه

نُوَيْرَاتٌ تحترق مع التنفس من أطراف تلك الأنابيب الأخرى ، وتَجِد السيفارةَ شائعةً فى الشرق ، ويجهل الشرقُ السيفارَ [١] .

والحشيشُ ، الذى هو مادةٌ مُسْكِرة ، من أهمِّ وسائل اللهو والتسلية عند أمم الشرق منذ قرون ، والفلاحُ الشرقىُّ الحقير يصبح وقتما يتعاطاه سعيداً حيناً فلا يَرْضَى بحظٍّ أعظم ملوك الأرض بدلاً من حَظِّه ، والشرقيون قد حَلّوا بفضله مشكلةَ وضع السعادة فى الزجاجة التى لا تَعْسُرُ حِيازَتها ، وإذ لا يزال ذا شأن عظيم فى حياتهم نرى من المفيد أن نقول كلمة فى خواصه :

يُصْنَع الحشيش من القِنَّب الهندىِّ كما يَعلم العالمُ ، ويباع فى القاهرة والقسطنطينية على العموم كَمُرَبَّبٍ وحَلْوَى ومعجون ومُلَبَّس ، إلخ . ، ويُمْزَج ، لتعديل خواصه ، بجَوْز القَيْء والزَّنجبيل والقِرْفة والقَرَنْفُل وما إلى ذلك ، وكذلك بالذُّرَّاح [٢] على ما يقال .

ويظهر أن الحشيش كان معروفا فى القرون القديمة ولم يُسْتَخْرج التِّرْياق ، الذى حكى عنه أوميرس والمادةُ التى رَوَى ديودورس الصِّقِلّىُّ أن نساء ديوسكوپوليس المصرية كُنَّ يُزِلْن بها هموم أزواجهنَّ وغضبهم ، من غير القِنَّب الهندىِّ على ما يُظَنُّ ، ومما لا ريب فيه أن أمر الحشيش كان شائعاً فى سورية أيام الحروب الصليبية .

وللأثر الذى ينشأ عن تناول الحشيش علاقةٌ بحال الإنسان الروحية ، وأرى أن أثرَه النفسىَّ يُلَخَّص بأنه يُجَسِّم الخيالاتِ التى تجُول فى النفس ، وأن هذه الخيالاتِ تَشْتَدُّ وتُمْزَج بالحقائق فإذا كانت النفس طيبة غَرِقَتْ على العموم فى بحر من الملاذِّ بما يلائم ما تبالى به من الأعمال عادةً ، وعلى هذا

---

(١) لا يحتوى تبغ الشرق على النيكوتين تقريباً ، والمرء لا يستطيع ، مع ذلك ، أن يتعاطاه كثيرا على شكل سفاير من غير أن يشعر بتعب ، والتبغ ، إذ لا بد من أن يكون لذلك ذا مواد سامة أخرى غير مادة النيكوتين التى ظن أنها المادة السامة الوحيدة فيه ، رأيت منذ بضع سنين أن أدرسه ، فاكتشفت فى دخانه مادة الألكالوئيد التى هى أشد سماً من مادة النيكوتين كما اكتشفت فيه مقداراً كبيراً من الحامض البروسى ، وقد دونت ذلك فى كتابى « دخان التبغ ومباحث كياوية وفيزيولوجية » الذى طبع ثانية مع إضافتى إليه مباحث جديدة فى الحامض البروسى وأكسيد الفحم وما فى دخان التبغ من مختلف العلل السامة .

(٢) الذراح : جنس من الحشراب الغمدية الجناح المتعددة المفاصل .

الوجه يرى الشرقيون الذين يتناولون الحشيش بين حريمهم أنهم يُنْقَلُون إلى مافى جنات محمد من حُور العِينِ مسحورى العيون برقص نسائهم مُشَنِّفِي الآذان بأغانيهنَّ [1] .

ولم يُدْرس تأثير الحشيش ، من الناحية العلمية ، درساً كافياً مع مايؤدى إليه درسه من النتائج الطريفة فى علم النفس ، وقد ذكرنا فى كتاب نشرناه حديثاً عن تأثير الحشيش النفسىِّ أنه ينشأ عن تعاطيه انفتاقُ شخصية الإنسان كما يحدث للسائر فى النوم ، فتقوم الذاتُ غيرُ الشاعرة التى تكون راقدةً فى الأحوال العادية ، والتى هى أساسُ حركة الإنسان بالحقيقة ، مقامَ الذات الشاعرة ، فيَفْقِدُ الإنسان كيانَه ويُحَدِّث عن نفسه إلى شخص ثالث ، ويبدو التغير فى قوله وسلوكه وأخلاقه وتظهر حقيقةُ أمره ، وهنالك يمكن حَمْله على إظهار سَرائره ، وقد يُسْتَعان بالحشيش فى الأحوال الخَطِرة فيعترف به بعض المجرمين بذنوبهم ويُجْتَنَب الخطأُ القضائىّ بذلك .

٥ — الألعاب والتمثيل والراقصون والقاصُّون ، إلخ .

تختلف ألعاب العرب قليلاً عما نَعْرِفه فى أوربة ، فلُعبة الشِّطْرَنج ولُعبة النَّرْد ولُعبة الدامة مما ألِفه العرب ، والمصارعةُ والرِّماية ولُعبة الكُرَة ، والمسايفةُ ولُعبة الصَّوْلَجان مماهو شائعٌ بين العرب ، ولُعبة الرمح ، وسِباقُ الخيل من أكثر مايُولَع به الأعراب .

والتمثيلُ من وسائل التسلية عند الشرقيين أيضاً ، ولكن الممثلين فى الشرق يكونون من اللُّعَب فى الغالب ، أو ، كما رأيتُ بنفسى ، من الأشخاص الذين لم يَحْذِقوا فنَّ التمثيل أحياناً فيُلْقُون فصولَهم برصانة كالقارئ من غير أن تَمُتَّ أوضاعهم بصِلَةٍ إلى حقيقةِ مايرغبون فى الإعراب عنه من العواطف.

---

(١) يحتاج وصف الخيالات التى تدور فى رأس من يتعاطى الحشيش إلى قلم شاعر ، وإليك ماقاله جيرار دو نيرڤال :
« تتحرر الروح من الجسم وتسبح طليقة جذلة فى الفضاء والنور محادثة من تصادف من الملائكة ويبهرها بوحيه المفاجىء الساحر ، فتقطع من فورها جوا من السعادة يعجز القلم واللسان عن وصفه ، وذلك فى دقيقة يلوح أنها أبدية ما تعاقبت هذه الأحاسيس بسرعة ، وقد رأيت حلماً كان يبدو لى ثابتاً متنوعاً عندما ركبت قاربى المتمايل تحت روعة أخيلتى مغمضاً عينى على نهر جار دائم من العقيق والياقوت والزمرد وما إلى ذلك مما يصور الحشيش عليه أعجب الخواطر ، ورأيت فى سواء الفضاء حورية ، لايرقى إليها خيال شاعر ، قد ابتسمت لى بما أخذ بمجامع قلبى وهبطت إلى من عليائها ، وهل كانت من الملائكة أو من الجن ؟ ذلك مالا أعرفه ، وإنما استلقت بجانبى فى ذلك القارب الذى تحولت ألواحه آنئذ إلى صدف ولؤلؤ وصار يجرى فى بحر فضى بقوة نسيم عطر » .



١٧٨ ــ نارجيلة عربية مصنوعة من النحاس المكفت بالفضة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ويتذوّق الشرقيون الموسيقا والأغانى كثيراً ، وقلما تدخل قهوةً شرقية من غير أن تسمع فيها مالا يروق الأوربيين من ألحان الرَّباب والكمَان والمِزْمار الحادَّة المحزنة .

ويُعَدُّ الرقص فى الشرق من الأمور التى يقوم بها أشخاص مأجورون ، ويَحْمَرُّ وجه العرب خجلاً من الرقص العلنىّ الذى يشابه رقص الأوربيينَ فى الرِّداه العامة ، وليس مما يلائم الذوقَ السليم عند العرب أن يَرْقُص رجل مُتَّزن فى المسرح على أنغام آلات الطرب .

والنساء اللائى يُلقبن بالعوالم هُنَّ اللاتى يَرْقُصْن فى الشرق ، والرَّقَصَاتُ التى رأيتها فى مدن آسية وإفريقية ومصر العليا أقلُّ من شهرتها ، وتتألف هذه الرَّقَصات من حركات البطن والخصرِ دون بقية البدن ، ورقصةُ السيف التى شاهدتها ليلاً حَوْلَ وَقْدَةٍ فى أريحا من أروع تلك الرَّقَصَات ، فقد اشتركت فيها فَلَّاحاتٌ شاهراتٌ سيوفاً رفيعةً كُنَّ يُدِرْنَها حَوْلَ رأسى زاعقاتٍ فى أُذُنى على حين كانت الراقصاتُ الأُخَرُ يُغَنِّين أغانىَ يَمْتَدِحْن فيها ما يَفْتَرِضْن وجوده فى الضيف من الجاه والصيت والكرم ، وكُنَّ يقلنَ مثلاً : إنه قهر أعداءه ، وإن ذراعه لا تَنْثَنِى ، وإن فرائص أقوى الشجعان ترتعد فَرَقاً حين سماع صوته ، إلخ . وتتجلى مهارة الراقصات فى مَسِّهِنَّ بالسيوف رأسَ الضيف الكريم من غير أن يَجْرَحْنه ، وقد حاولتُ عَبَثاً أن أحمِلَ أولئك الفَتَيَاتِ الأعرابيات على إبداء ذلك الحِذْق فوق رءوس أبناء قومهن ، مع أن الشيخ المفوض إليه أمرُ حِراستى أخبرنى بأن من النادر إصابةَ أحدٍ من ذلك بأذى .

ولم يَبْقَ لعوالمِ مصر العليا ما كان لهنَّ فى غابر الأزمان من رَوْنَقٍ وَبَهَاء ، واللباسُ الذى

يَلْبَسْنَه أمام الجمهور هو جِلْبابٌ طويلٌ يَفْقِدْن به كلَّ رَوْعَةٍ، ولـكنهن إذا ماكُنَّ بين الخُلّان خَلَعْنَه بسهولة ورَقَصْنَ لابساتٍ ثوباً بسيطاً كالذى تَعزُوه القِصَّةُ إلى حوّاء .

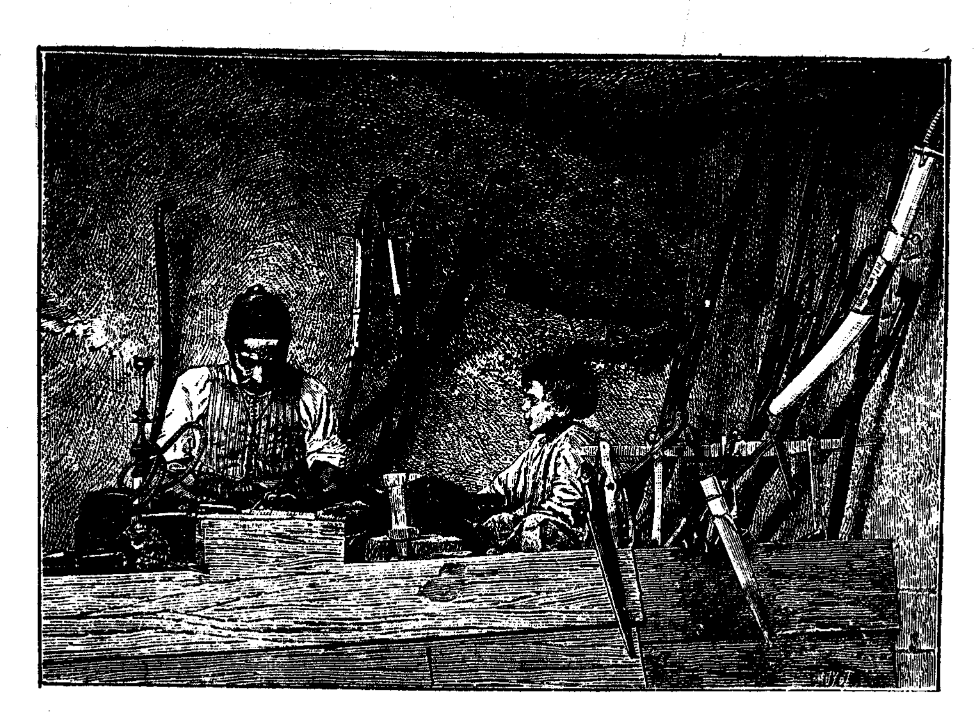
وأَعُدُّ قِصَصَ العجائب التى يتلوها القاصُّون المُحْتَرِفون من أهمِّ وسائل التسلية عندالعرب ، وهؤلاء القاصُّون منتشرون فى أنحاء الشرق ، ولهم حُظْوَةٌ كبيرة فى كلِّ مكان ، ويَقُصُّ القاصُّون القِصَصَ ارتجالاً فى بعض الأحيان ، ويقتصرون فى الغالب على إنشاد قصيدة أو تلاوة قِصَّةٍ من رواية ألف ليلة وليلة ، ولا أزال أذكر أننى زُرْت حَيًّا من أحياء يافا الشعبية ذاتَ ليلةٍ ، فشاهدتُ فيه جَمْعاً عربيًّا من الحمّالين والنَّوَاتِى والأُجَراء ، إلخ . ، يستمعون على نورِ مِصْباحٍ إلى قصة عنترة بعناية ، فترانى أشكُّ فى نَيْلِ قاصٍّ مثلَ ذلك النجاح لو أَنْشَد جماعـةً من فلاّحى فرنسة ماتَيَسَّر من شعر لامارتين أو شاتوبريان .

ونُدْرِك ناحيةً من أخلاق العرب بما نراه من تأثير القاصِّين فى الجمهور العربىّ الذى نعْلَمُ أنه ذو حيوية مع وَقار ، وقوةِ خيالٍ مع تمثيل ، والذى يَبْدُو أنه يَرَى مايَسْمَع ، والذى يَبْلُغ من فَرْط التأَثُّر مايَظْهَرُ أنه يَسْمَعُه حقًّا .

١٧٩ ـ نارجيلة فارسية عربية
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

قال أحد السياح صارخاً : « لِيَنْظُر الإنسان إلى أبناء الصحراء أولئك حينما يستمعون إلى قِصَصِهم المُفَضَّلة ، فهو يرى كيف يضطربون وكيف يهدأون ، وكيف تَلْمَع عيونهم فى وجوههم السُّمْر ، وكيف تنقلب دَعَتُهم إلى غضبٍ وبكاؤهم إلى ضحك ، وكيف تقِف أنفاسهم ويَسْتَرِدُّونها ، وكيف يقاسمون الأبطال سَرّاءهم وضَرّاءهم ، حقًّا إن تلك لروايات وإن الحاضرين لممثلون أيضاً ، وحقًّا إن الشعراء فى

أوربة ، مع نفوذ أشعارهم وسحر بيانهم وجمال وصفهم ، لا يُؤَثِّرون فى نفوس الغربيين الفاترة عُشْرَ مِعْشار مايُؤَثِّر به فى نفوس سامعيه ذلك القاصُّ الذى هو من الأجلاف ، فإذا ما أُحيط ببطل الرواية ارتجف السامعون وصَرَخُوا قائلين : « لا ! لا ! حفظه الله ! » ، وإذا ما كان فى حَوْمَة الوَغَى محارباً

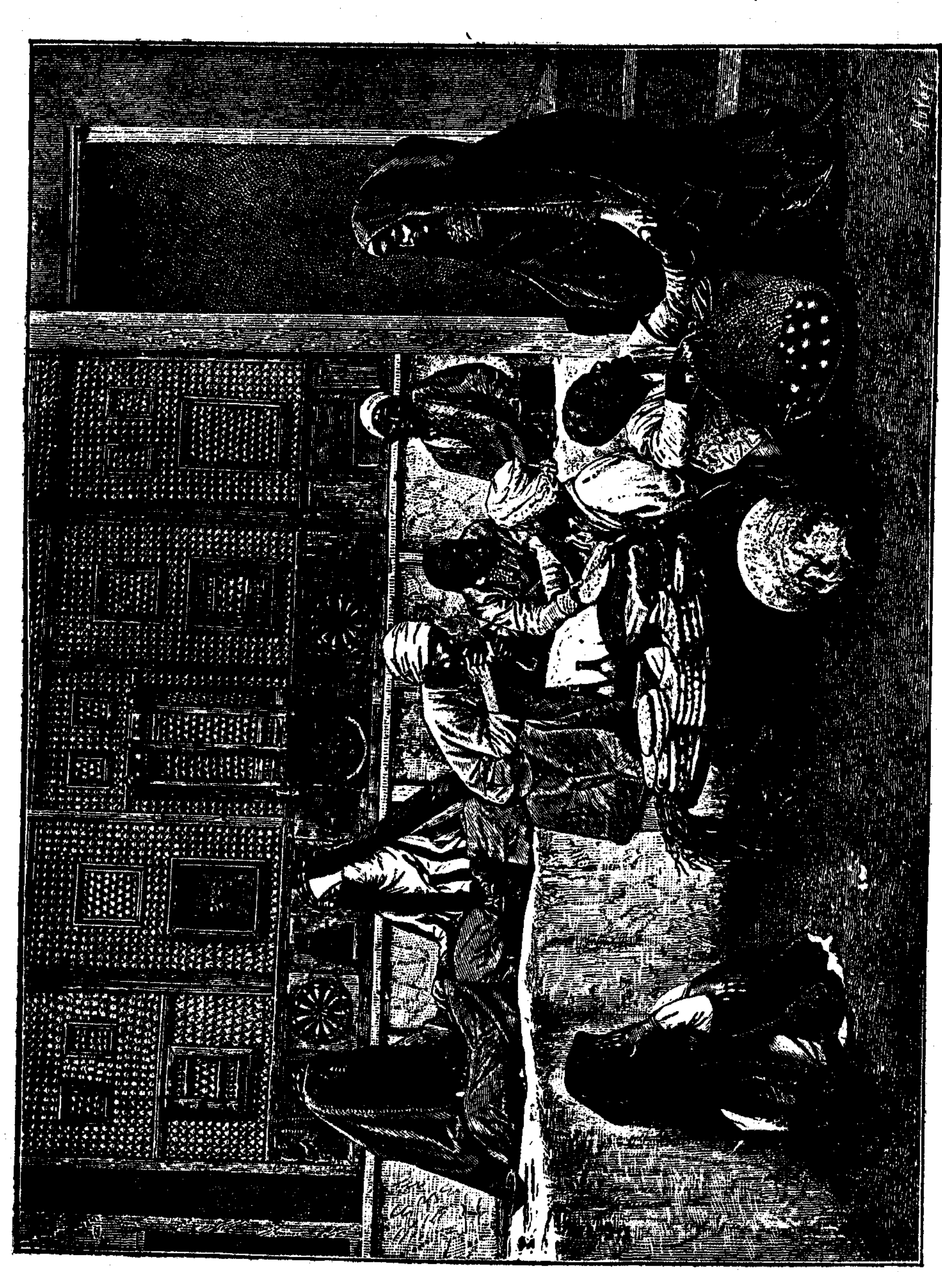


١٨٠ ــ دكان صانع أسلحة عربى فى سورية (من صورة فوتوغرافية)

كتائب أعدائه بسيفه أمسكوا سيوفهم كأنهم يريدون إنجاده ، وإذا ما كاد يذهب فريسةَ الغدر والخيانة قَطَّبوا وصرخوا قائلين : « لعنة الله على الخائنين ! » ، وإذا ماقَضَى عليه أعداؤه الكثيرون تأوَّهوا وقالوا : « تَغَمَّده الله برحمته وفَسَح له فى دار السلام ! » وإذا ما كان العكس فرَجَع ظافراً منصوراً هتفوا قائلين : « الحمد لربِّ الجُنْدِ ! » ، ويكون هُتَافهم وقَلَّما يذكر القاصُّ محاسنَ الطبيعة ولا سيما الربيعُ : « طيب ! طيب ! » ولا شىء يَعْدِل السرورَ الذى يبدو على ملامحهم عند مايَصِف القاصُّ امرأةً جميلة ، فتراهم يُنْصِتون له إنصاتَ من يكاد لُبُّه يطير من الوَجْد ، وإذا ما أَتَمَّ وصفَه قائلاً : « الحمد لله الذى خلق المرأة ! » قالوا قول المُعْجَب الشاكر : « الحمد لله الذى خلق المرأة ! » .

٦ – الرِّقُّ فى الشرق

تثير كلمة « الرِّقِّ » فى نفس الأوربىِّ ، القارئ لِقصص الأمريكية منذ ثلاثين سنة ، صورةَ أناس يائسين مُقَرَّنينَ فى الأصفاد ، مَقُودِين بالسِّياط رَدِيئى الغِذاء مقيمين بمظلم المحابس .



١٨١ – بائعون جائلون فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقطها سباه)

ولا أبحث هنا فى صحة صورة الرّق هذه عند الأنغلو أمريكيين منذ بضع سنين، ولا فى صحة تفكير صاحبِ رقيقٍ فى إيذاء مالٍ غالٍ كالزِّنجيِّ والقضاء عليه ، وإنما الذى أراه صدقاً هو أن الرّق عند المسلمين غيرُه عند النصارى فيما مضى ، وأن حال الأرقّاء فى الشرق أفضلُ من حال الخدَم فى أوربة، فالأرقَّاء فى الشرق يؤلِّفون جزءاً من الأُسَر ، ويستطيعون الزواجَ ببنات سادتهم أحياناً كما رأينا ذلك سابقاً ، ويَقدِرون أن يَتَسنَّموا أعلى الرُّتَب ، وفى الشرق لا يرَوْن فى الرِّق عاراً ، والرقيقُ فيه أكثرُ صِلَةً بسيده من صِلة الأجير فى بلادنا .



١٨٢ ـ كاتب عرائض فى القدس (من صورة فوتوغرافية)

قال مسيو أبُو : « لا يكاد المسلمون ينظرون إلى الرِّقِّ بعين الاحتقار ، فأمهات سلاطين آل عثمان ، وهم زعماء الإسلام المحترمون ، من الإماء ، ولا يرَوْن فى ذلك ما يَحُطُّ من قَدْرهم ، وكانت أُسَر المماليك الذين ملكوا مصرَ زمناً طويلًا تَلْجَأ ، لِتَدُوم ، إلى اشتراء صِغار الموالى من القفقاس وتَبَنّاهم فى سنّ البلوغ، وليس من القليل أن يُرَبِّيَ أميرٌ مصريّ أحدَ صغار الأرقّاء ويُعلّمه ويُدَرِّبه ويُزَوِّجه ابنته ويُفوِّضَ إليه إدارةَ شؤونه ، وترى فى القاهرة أكابرَ من الوزراء والقادة والقضاة اشتُرِيَ الواحدُ منهم فى شَبابه بما لا يزيد على ألفٍ وخمسمئة فرنك » .

واعترف جميعُ السُّياح الذين درسوا الرقَّ فى الشرق درساً جِدِّياً بأن الضَّجَّة المُفرِضَة التى أحدثها حَوْلَه بعض الأوربيين لا تقوم على أساس صحيح ، وأحسنُ دليل يقال تأييداً لهذا هو أن المَوَالِيَ الذين يرْغَبُون فى التَّحَرُّر بمصر ينالونه بإبداء رغبتهم فيه أمام أحد القضاة ، وأنهم لا يلجأون إلى حقهم هـذا ، قال مسيو إيبر مشيراً إلى ذلك : « يجب عَدُّ الرَّقيق فى بلاد الإسـلام مَبْخُوتاً على قَدر الإمـكان » .

ومن السهل أنْ أُكْثِر من اقتباس الشواهد على صحة ذلك ، ولـكننى أكتفى بذكر الأثر الذى أوجبه الرِّقُّ فى الشرق فى نفوس المؤلفين الذين أُتيح لهم دَرْسُه فى مصر حديثاً :

قال مسيو شارم : « يَبْدُو الرِّقُّ فى مصرَ أمراً لَيِّناً هَيِّناً نافعاً منتجاً ، ويُعَدُّ إلغاؤه فيها مصيبةً حقيقية ، ففى اليوم الذى لا يستطيع وحوش إفريقية الوسطى أن يبيعوا فيه أَسْرَى الحرب ، ولا يَرَوْن فيه إطعامَهم ، لا يُحْجِمون عن أكلهم ، فالرِّقُّ ، وإن كان لطخةَ عارٍ فى جبين الإنسانية ، أفضلُ من قتل الأَسْرَى وأكل لحومهم إذا ما نُظِر إليه من وِجْهَة نظر هؤلاء الأَسْرَى ، وذلك على الرغم من رأى مُحِبِّى الإنسانية من الإنـكليز الذين يقولون إنه أجدر بكرامة الزنوج أن يأكلهم أمثالُهم من أن يسودهم أجنبىّ ! » .

وقال مدير مدرسة اللغات فى القاهرة مسيو دو ڤوجانى : « ترى الأَرِقَّاء الذين يستفيدون من الحرية الممنوحة لهم قليلين إلى الغاية مع أن هـذه الحرية تَسْمَحُ لهم بأن يعيشوا كما يشاءون من غير إزعاج ، فالأَرِقَّاء يُفَضلونَ حال الرِّقِّ السالم من الجَوْر على حال القلق الذى يكون مصدرَ آلامٍ ومتاعبَ لهم فى الغالب .

« وتَرَى الأرقاء فى مصرَ أحسنَ حالاً مما كانوا عليه قبل استرقاقهم بدلاً من أن يكونوا من البائسين المناكيد ، وبَلَغَ الـكثيرون منهم ، ولا سيما البيضُ ، أرقى المناصب فى مصرَ ، ويُعَدُّ ابن الأَمَة فى مصرَ مساوياً لابن الزوجة فى الحقوق ، وإذا كان ابن الأَمَة هذا بِكْرَ أبيه تَمَتَّع بكلّ ما تمنحه البِـكْرِية من الامتيازات ، ولم تـكن من غيرِ الأرقاء زُمْرَة المماليك التى مَلَـكَتْ مصرَ زمناً طويلاً ، وفى أسواق النِّخاسة اشْتُرِيَ على بك وإبراهيم بك ومراد بك الجَبَّارُ الذى هُزم فى معركة الاهرام ، وليس من النادر أن ترى اليوم قائداً أو موظفاً كبيراً فى مصر لم يكن فى شبابه غيرَ رقيق ،

وليس من النادر أن ترى رجلاً فى مصر كان سيِّدُه المصرىُّ قد تبنَّاه وأحسنَ تعليمه وزوَّجه ابنته ».

وليست مصرُ القطرَ الوحيد الذى يُعامَل فيه الارقّاء برِفْق عظيم ، أى أن ماتراه فى مصرَ ترَى مثلَه فى كلِّ بلدٍ خاضع للإسلام ، واسمع ما قالته السيدة الإنـكليزية بِلَنْتُ فى كتاب رِحلتها فى بلاد نجد ذاكرةً محادثتَها لعربىٍّ :

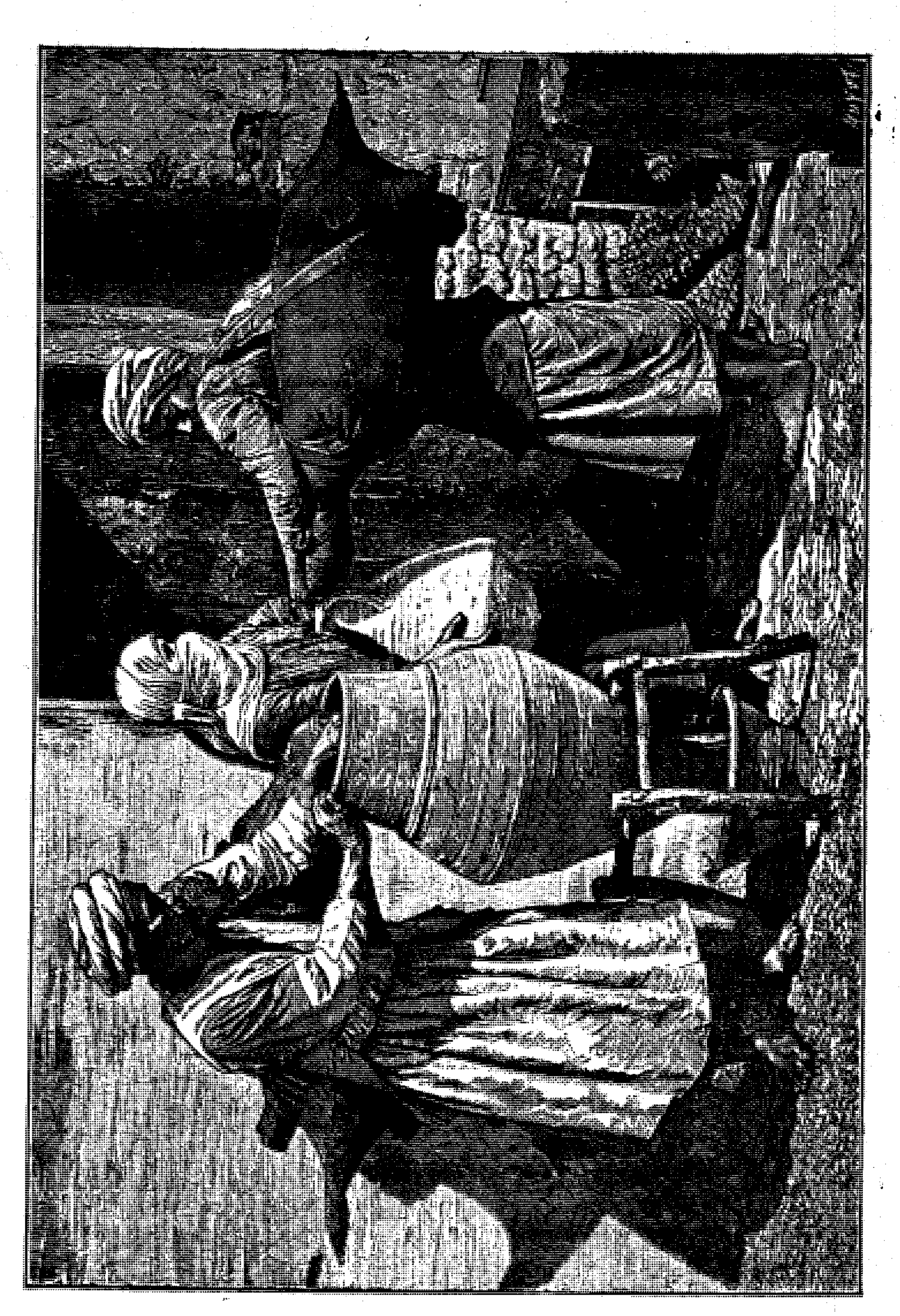
« إن مما لم يَسْتَطِعْ أن يفهمه ذلك العربىُّ هو وجود نفع للإنـكليز فى تقييد تجارة الرقيق فى كلِّ مكان ، ولما قلتُ له إن مصلحة الإنسانية اقتضت ذلك » أجابنى : « إن تجارة الرقيق لا تنطوى على جَوْر ، ومن ذا الذى رأى إيذاء زِنْجِىّ ؟ » ، والحقُّ أننا لا نزعم أننا رأينا ذلك ، ومن الأمور المشهورة أن الأرقاء عند العرب يكونون من الأبناء المُدَلَّلين أكثر من أن يكونوا من الأُجَراء » .

ولا شىء يستحقُّ الذَّمَّ واللَّوْم كالرِّقِّ ، ولـكن المبادئ التى صنعها الإنسان ذاتُ شأن ضعيف فى سير الأمور ، وإذا ما نَظَر المرء إلى الرِّقِّ بمنظار الزِّنْجِىِّ المخلوقِ المنحطِّ وَجدَه أمراً طيباً ، فلا شىء أصلح لهؤلاء المخلوقات الضعيفة الفطرية القليلة الحَذَر والتبصر من أن يكون لها سيدٌ يرى من مصالحه أن يقوم بشؤونها ، ودليلنا على هذا ما أصاب أرِقَّاء أمريكة من الانحطاط المُحْزِن الذى نشأ عن تحريرهم بعد حرب الانفصال وإلقاء حِبالهم على غَوَاربهم .

ويتطلب منعُ النِّخاسة منعَ البحث عن الأَرِقَّاء كما يَزْعُم الإنـكليز أنهم يفعلون ، أى تبديلَ طبائعِ الشرق كلِّه وتغييرَ بقيـة العالَم بعضَ التغيير ، ولم ينشأ عن تدخل الأوربيين القائم على الرِّيَاء والمداجاة فيما لا يَعْنيهم سوى الفشلِ ومقتِ الشرقيين لهم .

قال المؤلفُ الإنـكليزىُّ ج . كُوبِر فى كتابٍ حديثٍ دَرَسَ فيــه أمرَ النِّخاسة فى إفريقيَّة :

« لم تـكن الحَمَلاتُ التى جُرِّدَتْ على تجار الرقيق فى السودان إلا من نوع الغزَوَاتِ التى تُضِيفُ إلى المذابح مذابحَ أخرى ، أَجَلْ ، لقد قَضَتْ تلك الحَمَلاتُ على بعض مراكز أولئك التجار ، ولـكن هذه المراكزَ لم تَلْبَثْ أن أعيد تأسيسُها بعد انصراف تلك الحَمَلات ، ولم ينْجُم عن النفقات العظيمة والدماء المسفوكة فيها كبير طائل ، ولم تُؤَدِّ إلى تقييد النِخاسة » .



١٨٣ ـ سقاءان في القاهرة (من صورة فوتوغرافية)

ولا ريب فى أن الأوربيين الذين يَتَدَخَّلون فى أمور الشرق لمنع النِّخاسة قسراً من محبى الإنسانية الصالحين ومن ذوى النِّيَّات الطيبة الخالصة ، ولكن الشرقيين لا يعتقدون صدقَهم ، وحجةُ الشرقيين فى ذلك هو أن أولئك المحبين للإنسانية الصالحين والراحمين للزنوج هم الذين أكْرَهوا الصينيين بقوة المدافع على أن يُدْخِلوا إلى بلادهم ذلك الأفيونَ الذى أهلك من الناس فى سنةٍ واحدة مالم تُهْلِكْهُ تجارة العبيد فى عشر سنين .

....

الفصل الثالث

نظم العرب السياسية والاجتماعية

---

١ – مصدر نظم العرب

تختلف النُّظُم السياسية والاجتماعية ، لأكثر الأمم التي يُعْنَى بها التاريخ ، اختلافاً عظيماً بين أمة وأخرى ، ويدلُّ إنعامُ النظر على أن قيمة تلك النُّظُم أمرٌ نِسْبِيٌّ ، فما صَلُح منها لأمة لا يَصْلُح لأمة أخرى في الغالب .

وتحتاج تلك الحقيقةُ إلى برهان ، ولا تُسَلِّم بها النفس حالاً ، ويظهر العكسُ من الحقائق أولَ وَهْلَةٍ ، أي أنه يُرَى وجوبُ اتخاذِ النُّظُم التي عُزِيت إليها عظمةُ إحدى الأمم مثالاً للاقتداء ، وأن من الحكمة انتحالها وحملَ الناس عليها طوْعاً أو كرْهاً ، وهذا ما اعتقده أقطاب السياسة والمؤرخون زمناً طويلا ، ولا يزال أكثرهم يراه .

واليومَ فقط بدأنا نَعْلَمُ خطر ذلك الرأي ، فقد أثبت البحث العميق في حياة الأمم ، أن نُظُم الأمم عُنوان مشاعرها واحتياجاتها الموروثة التي هي وليدة ماضٍ طويل، وأنها لا تتبدل كما يشاء الإنسان، حقّاً رَوَى المؤرخون وجودَ مشترعين ، كموسى وليكورغ وسولون ونوما وغيرهم ، فرَضوا على أممهم شرائعَ ابتدعوها ، ولكن الواقع غير ذلك، فلم يكن لمشترع مثلُ تلك القدرة التي لم تتفق لأقوى الفاتحين وأعنف الثَّوْرات إلَّا لوقت قصير، فإذا أُكْرِهَت أمة على قبول نُظُم تختلف عن نُظُمها كان ذلك من قبيل إرغام حيوان على تبديل وضعه الطبيعيّ حيناً من الزمن ، وإذا مازال عامل القهر عاد الماضي إلى مجراه وظهر أن الأمر لم يَعْدُ حَدَّ تغيير بعض الكلمات .

وهنالك حوادثُ تاريخيةٌ كثيرة تظهر في بدء الأمر مناقضةً لِمَا تقدم ، فيجب درسُها درساً حقيقياً لِيُرَى زوالُ هذا التناقض ، خُذِ العرب مثلاً تَرَهم قد فرَضوا نُظُمهم على أممٍ مختلفة، ولكنك

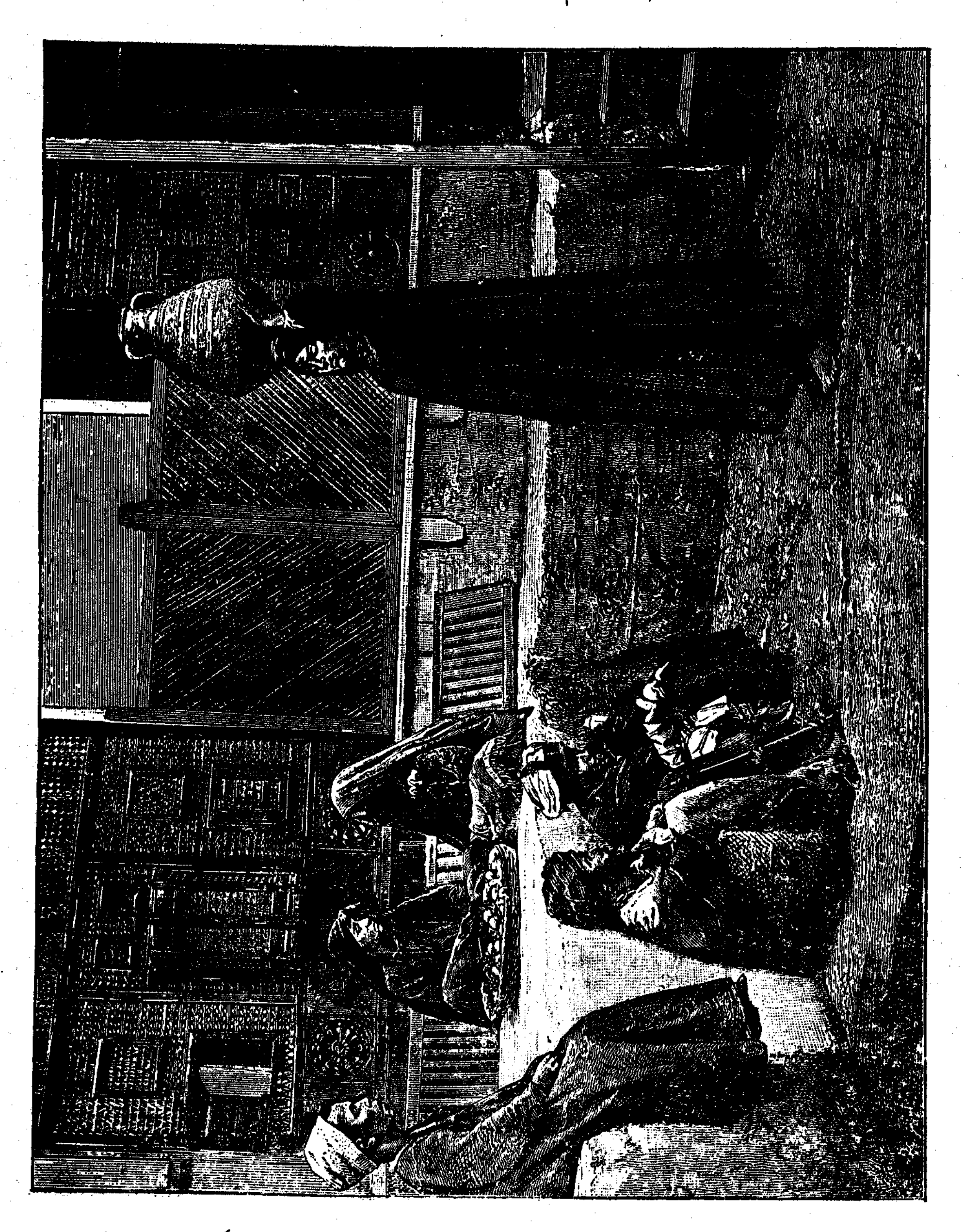
إذا مابحثت فى أمم آسية وإفريقية التى سارت على سُنَّة العرب علمتَ أن النُّظُم السابقة لأكثر هـذه الأمم لم تختلف عن نُظُم العرب إلا قليلاً ، وأنه إذا كان بينهـا وبين نُظُم العرب اختلافٌ فى الأمور الجوهرية ، كنُظم البربر مثلاً ، بدا لك ضَعْفُ أثر القرآن فيهـا ، والعربُ ، وهم أعقلُ من كثير من أقطاب السياسة المعاصرين ، كانوا يعلمون جيداً أن النُّظم الواحدة لا تلائم جميع الشعوب ، فكان من سياستهم أن يتركوا الأمم المغلوبة حرةً فى المحافظة على قوانينها وعاداتها ومعتقداتها .

ولا تتبدل النُّظُم ، وهى عُنْوان احتياجات الأمة ومشاعرِها التى نَبَتَتْ فيها ، إلَّا بِتَبَدُّل تلك الاحتياجات والمشاعر ، وقد أثبت التاريخ أنها لا تتحول إلا بتعاقب الوِراثة ، ومن ثم ببطء عظيم ، وقد اقتضى تحولُ البرابرةالذين قَضَوْا على العالم الرومانىِّ إلى ماصاروا إليه فى دور النهضة مرورَ القرون الوسطى التى دامت ألف سنة .

وتسيطر سُنَن تطور ذوات الحياة على تطور النُّظُم الاجتماعية ، وقد اكتسب ، بتعاقب الأزمنة ، بعضُ ذوات الحياة ، التى كانت تعيش فى البحر فى الأدوار الجيولوجية ، من الأعضاء ما تَمَكَّن به من العَيْش فى الهواء ، وليس بعيداً الزمنُ الذى كان علماء الطبيعة يجهلون فيه تطور ذوات الحياة والحَلَقاتِ التى تَصِل بين طَرَفيْها ، وليس بعيداً الزمنُ الذى كان علماء الطبيعة يعتقدون فيـه أن قُدْرة عُلْويَّة خَلَقت ذواتِ الحياة فى أوقات مختلفة ، فلما تقدم العلم أثبت أن هـذه التحولاتِ العظيمةَ لم تَحْدُث فَجْأةً ، بل هى وليدة تطورات غير محسوسة اكتسبها كلُّ جيل وتراكمت بالوِراثة فى عِـدَّة قرون وأسفرت عن تحولات عظيمة جداً .

ونَعُدُّ العِرْق والبيئة وطُرَق المعايش والعواملَ المختلفة ، التى نرى الضرورةَ أوّلَها وعزيمةَ الرجال أضعفَها ، أسباباً رئيسةً فى نُشُوءِ النظم ، والزمنُ وحدَه هو القادر على توطيدها ، وإذا رأينا أمةً ذاتَ نُظُم واحدة منذ زمن طويل أيقنا بأن هـذه النظم خيرُ مايلائمها ، وإذا كانت الحرية أمراً طيباً لدى بعض الشعوب كانت صَرامة وَلىِّ الأمر المطلق أفضلَ للشعوب الأخرى ، ولِذَا فإن من قِصَرِ النظر أن نَقِف عند حدِّ ثقافتنا الاجتماعية التقليدية الخطرة ، وأن نرى من الممكن تطبيقَ نُظُمِ لاءمَتْ أمةً بتعاقب الأزمان على أمةٍ أخرى ، وهذا لا يختلف كثيراً عن محاولة حمل السمك على التنفس فى الهواء بحجة أن جميع الحيوانات العليا تتنفس فى الهواء ، فالسمكُ يموت حيث تحْيَا ذوات الثُّدِىّ .

وما تنشأ به نُظُم الأمم ، وما تتحول به ، من البطء العظيم يجعلنا لا نُبْصِر التحولات ، على العموم، إلا إذا جَهَر بها مشترع عظيم ، فنعزو إلى هذا المشترع وضعَ القوانين مع أنها وليدةُ ماض طويل،وليس شأنُ المشترعين الحقيقيُّ سوى إثباتهم ، بما لهم من سلطان ، عاداتٍ مستقرةً بالأذهان بعض الاستقرار ،



١٨٤ ـ داخل حوش فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية)

وإلغائهم العاداتِ غيرَ الصالحة أو الضارةَ التى لولاهم لدام أمرها مدة أخرى ، أَجَلْ ، إن تأثير المشترعين مُهِمٌّ ، ولكن هذا التأثير لا يكون إلا إذا كانت التحولاتُ التى هى وليدة استنباطهم ضئيلةً إلى الغاية،

وهنالك يمكنهم أن يُرَدِّدوا قول سولون : « إننى لم أَمْنَح أهل أثينة أفضلَ ما يتصور الإنسانُ من القوانين ، بل مَنَحْتُهم أَفْضَل القوانين التى يُطِيقُونها » ، فسولونُ لم يَخْتَر القوانين التى جاء بها فى الحقيقة من غير العادات السابقة التى رَسَخَت فى أذهان القوم ومعتقداتهم .

ومِثْلُ ذلك شأنُ محمد الذى عرَف كيف يختار من نظم العرب القديمة ما كان يبدو أقومَها ، فدَعَمها بنفوذه الدينىِّ العظيم ، ولكن شريعة محمد لم تَنْسَخ جميع العاداتِ التى قامت مقامها كما أن قانون الألواح الاثنَىْ عشر لم يَقْضِ على قوانين الرومان القديمة ، ومحمدٌ ، حين رأى أن يُحَرِّم بعض العادات القديمة كالوَأْد ، لم يفعل غيرَ ما يلائم المشاعرَ المنتشرة بدرجة الكفاية وما تُقرُّه هذه المشاعر .

وشريعةُ محمد ، فى فصولها غيرِ الدينية ، هى خلاصةُ عاداتٍ قديمة إذَنْ ، وهى ، كالشرائع الأخرى ، تَكْشِف بسهولة عن الحالة الاجتماعية للأمة التى ظهرت فيها ، ولا كتابَ تاريخٍ يَعْدِل دِراسةَ قوانين إحدى الأمم فى بعض الأحيان فالقوانين تَدُلُّ ، بما تُبْصر من الاحتياجات وبما تأمر به وما تنهى عنه ، على أحوال المجتمع الذى نشأت فيه كما نُبَيِّن ذلك غيرَ مرة .



١٨٥ ــ كوب عربى قديم من البلور
(من تصوير إيبر)

وليس من الضرورى أن يُعْتَمَد على شريعة إحدى الأمم وحدَها فى استجلاء حالتها الاجتماعية إذا كان لهذه الأمة آثارٌ أخرى فى التاريخ ، وهى إذا كانت ذاتَ حضارةٍ وأنْسالٍ كان أسهلَ على الباحث أن يدرس بقايا تلك الحضارة والأَنْسَال للوقوف على حالتها الاجتماعية كما صنعنا ذلك فى الفصول السابقة ، ونحن حين وصفنا حياة العرب ورَجَعْنا إلى الأزمنة التى نشأت فيها نُظُمهم أَعْدَدْنا القارئ ، بما فيه الكفاية ، ليَتَمَثَّل النظُمَ التى ندرسها الآن وليُدْرِك تأثير المشترعين الضئيل فى تكوينها .

ومن الضرورىِّ أن يُبْحَث على هذا النَّمط فى شؤون الأمم التى يُرَاد وصفها واكتناهُ نظامها

الاجتماعيّ عرباً كانت هذه الأمم أو غيرَهم ، ونرجو أن يَحِلّ الوقت الذى يُدْرِك الفقهاء فيه أهميةَ هذا ، فيصبحَ علمُ الحقوق غيرَ قائم على سَرْد موادّ القوانين المُعَقَّدَة والمناقشات البزنطية .

٢ — نُظُم العرب الاجتماعية

خَصَّصْتُ مطالبَ كثيرةً من هذا الكتاب للبحث فى أهم نُظُم العرب الاجتماعية كنظام الأُسْرَة والرِّقّ وتعدد الزوجات ، إلخ . ، فأقتصر هنا على بيان أهمّ ما جاء فى القرآن من الأحكام الاشتراعية .

واختلط شرعُ العرب المدنىُّ بشرعهم الدينىّ اختلاطاً وثيقاً ، وتألف منهما علمٌ قائم على تفسير القرآن .

وما كان القرآن ليُبْصِرَ جميعَ ما يَحْدُث فى كلّ يوم ، وهو لم يستدرك غيرَ القليل من ذلك ، وكان الناس منذ البُداءة يَرْجِعون مُضْطَرِّين إلى النبيّ وخلفائه من بعده لحلّ المُعْضِلات الشرعية اليومية ، فتألف مما رُوِى من أحكامهم المجموعة منذ القرون الأولى من الهجرة ما سُمِّى بالسُّنّة .

ثم ظَهَرَ بعد زمنٍ قصير أن القرآن والحديث غيرُ كافِيَيْن ، ورُئِىَ إتمامُهما بوضع دستورٍ مَدَنِيّ ودينيّ مُشْتَقّ من تفسير القرآن ، وقامت بذلك جماعةٌ كبيرة من الأئمة فى القرن الأول والقرن الثانى من الهجرة ، واعْتُرِف بأربعة منهم ، وهم : أبو حنيفة والشافعىُّ ومالك وابن حنبل . وإلى هؤلاء تُنْسَب المذاهب الأربعة التى يَقْتدى بها مختلفُ شعوب الإسلام ، فأما المذهب المالكىُّ فاتُّبِع فى إفريقية ، وأما المذهبُ الحنفىّ فاتُّبِع فى تركية والهند ، وأما المذهبُ الشافعىُّ فاتُّبِع فى مصرَ وجزيرةِ العرب مع عمل المحاكم المصرية بالمذهب الحنفىّ ، وأما المذهبُ الحنبلىُّ فمهجورٌ فى أيامنا (!) .

ثم صار لكلّ واحد من هذه المذاهب الأربعة كثيرٌ من الشرّاح ، ومن ذلك أن كان خَليلٌ ، المتوفى سنة ١٤٢٢ م ، شارحاً المذهب المالكى المنتشر فى بلاد الجزائر ، فعُدّ كتابه الذى تُرْجِم إلى الفرنسية مرتين، إحداهما بقلم الدكتور بيرون والثانية بقلم مسيو سِغْنِت ، أهمّ رسالة فى الفقه المالكىّ .

وإذا عَدَوْتَ هذه المصادرَ فى علم الـكلام الإسلامىّ وفى الفقه الإسلامىّ وجدتَ للأحوال التى لا تَجِد لها قاعدةً مقررة ، والتى لا يمكن القياسُ فى أمرها ، مجموعةَ أحكامٍ سلطانيةٍ تُعْرَف بالفتَاوِى .



١٨٦ ـ إناء عربى قديم مصنوع من النحاس

وتجِدُ بجانب الدساتير المدونة فقهاً قائماً على العادة مختلفاً باختلاف الأمكنة فَدَلَّ هذا على أن الفقه الإسلامىّ غيرُ مقيد بالقرآن خـلافاً لِمَا يُظَنُّ أولَ وَهْلَةٍ ، وقد يكون للعادات من الفعل ماليس للقانون المُدَوَّن ، ومن هذا نَسْخُ القبـائل البربرية لِما جاء فى القرآن من الأحكام فى حقوق النساء فى الميراث ، ومن هذا أنك لا ترَى عند قبائل اليمن سوى فقه قائم على العادات مُتَغَيِّرٍ بتغير هـذه القبائل مختلفٍ عن تعاليم النبىّ غالباً ، قال الرَّحَّالة مسيو هاليڤى الذى ساح فى اليمن حديثاً : « إن لـكلّ قبيلة اشتراعاً خاصًّا » .

والعقوباتُ تستند إلى القرآن وتفاسير القرآن أيضاً ، أىْ تقوم على مبدأ القِصاص كما قامت عليه شريعة موسى ، ومبدأ القصاص هذا هو المبدأُ الممكن فى جميع الشرائع الفطرية كما قلنا ، ومما بَيَّنَّاه فى كتابنا السابق أن حقَّ المجازاة كان فى البُداءة خاصًّا بالمعْتَدَى عليه ، وأن الجزاء كان يُفْرَض على المذنب أو على أُسْرَته ما كانت الأسرةُ وَحْدَةً فى جميع المجتمعات القديمة ، وأن الثأر إذا لم يُدركْ من الوالد أُدرِكَ من ابنه أو حفيده ما نَصَّت التوراةُ على أن الرّب ينتقم « من الأبناء حتى الجيلِ الثالث والجيلِ الرابع » لذنبٍ اقترفه الأب .

ومن فوائد القصاص أنه يُقَلِّل حوادثَ القتل كثيراً ، ومن محاذيره أنه يؤدى إلى استمرار أعمال

الثأر زمناً طويلاً غالباً ، ولِذَا رُئِى أن تقوم الدِّيَةُ التى تُدفع إلى أهل المقتول مقامه أحياناً ، ولِذَا دامَ هذا النظام إلى أن جاء الوقت الذى صار المجتمع يقوم فيه بمعاقبة المذنب بدلاً من أن يقوم بها المُعْتَدَى عليه أو أُسرتُه، ولكن هذا الطور الجزائىّ الأخيرَ لا يكون فى غير المجتمعات التى يقوم فيها نظامٌ مركزىّ قوىّ ، ونظامٌ مركزىٌّ مثلُ هذا إذ لم يقُم أيامَ محمدٍ ظلّ نظام العقوبات الذى نَصَّ عليه القرآن مستنداً إلى مبدأ القِصاص ومبدأ الدِّيَة الفطريين ، وبَقِى أمره سائداً ما خَضَع للدستور الدينىّ بشكله القديم .

ومن ثَمَّ تَرَى أن ما جاء فى شريعة موسى من حق القصاص القائل : إن العينَ بالعينِ والسنَّ بالسنِّ هو ، مع مبدأ الدِّيَة الذى جاء مُلَطِّفاً له ، مبدأُ الفقه الجزائىّ الأساسىُّ فى القرآن ، ومع ذلك فقد أوصى القرآن بالعفو على أنه خيرٌ من الثأر ، ونَعُدُّ هذا تقدماً عظيماً ما عَدَّ الإنسانُ فى الأدوار الفطرية عدمَ الانتقام عاراً ، وإليك مبادىء القرآن الأساسيةَ فى الجرائم وما يقابلها من العقوبات :

« وإنْ عاقَبْتم فعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم به ولَئن صَبَرْتُم لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين » .

(من سورة النحل)

« يٰأيُّها الذين آمَنُوا كُتِبَ عليكم القِصاص فى القَتْلَىٰ ، الحرُّ بالحرِّ والعَبْدُ بالعبدِ والأُنثَىٰ بالأنثى ، فَمَنْ عُفِىَ له من أخيه شىءٌ فاتِّبَاعٌ بالمَعْرُوفِ وأداءٌ إليه بإحْسان ، ذلك تخفيفٌ من رَبِّكُمْ ورَحْمَةٌ ، فَمَن اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذلك فَلَهُ عَذابٌ أَليم » . (من سورة البقرة)

« مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فى الأَرض فَكَأَنَّما قَتَل النَّاسَ جميعاً ومَنْ أَحْيَاها فكأنَّما أحْيا الناسَ جميعاً » . (من سورة المائدة)

« والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جزَاءً بِما كَسَبَا نَكالاً مِنَ الله ، واللهُ عَزِيزٌ حكيمٌ » .

(من سورة المائدة)

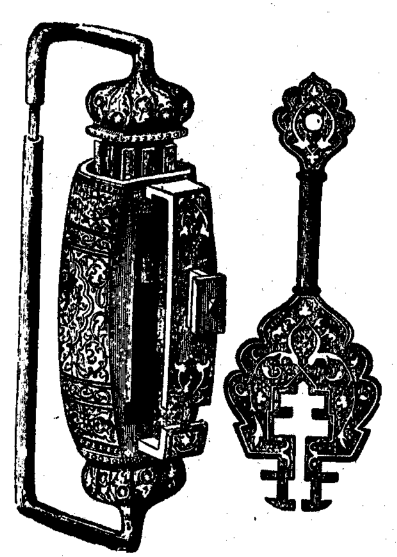
والمفسرون نَصُّوا على أحكام الدِّيَة ، فإذا وقع القتل عَمْداً كان القِصاص جزاء القاتل ، ما لم يَقْبَل أهل القتيل الدِّيَة .

وإذا وقع القتل خطأً كانت الدِّيَة مئة جَمَل ، ولا تُرَدُّ الدِّية ، ويختلف التعويض فى حالة الجروح باختلاف أهمِّيَّتها .

وأهلُ القـــاتل أو أفراد أُسْرته هم الذين يُؤَدُّون الدِّيَة ، وإذا كان القاتل مجهولاً دفعتها الزُّمْرَة التى ينتسب القاتل إليهـا ، ومن هنا تُبْصِر مقـدار التضامن بين عرب الأُسرة الواحدة أو الزُّمْرة الواحدة .

وجرائم القتل والجَرْح وحدَها هى التى يُمْكِن العِوَضُ منهـا كما جاء فى القرآن وفى أكثر الشرائع القديمة ، وأما العقوباتُ التى تُفْرَض على السارقين وقُطَّاع الطرُق فمتنوعةٌ ، فتُقْطَع يد السارق اليُمْنَى فى المرة الأولى مثلاً ، ثم تُقْطَع رجلُه اليُسْرَى فى المرة الثانية ، والحبسُ أو البَتْر أو القتلُ جزاء قُطَّاع الطرُق ، والرَّجْمُ جزاء الزناة والزَّوانى من الأزواج على أن يَثْبُت الزنا بشهادة أربعة شهود أو بإقرار المذنب ، والحدُّ الذى يقام على شارب الخمر ، أو الذى كان يُقام عليه فيما مضى ، أربعون جَلْدَةً .

وأحكامُ الحقوق المدنية كثيرةٌ إلى الغاية فى كتب الفقه التى ألمعنا إليها آنفـاً ، وما نذكره عن حقوق التملك والميراث ، إلخ . يَكْفى لتنوُّر أقسامها المهمة .



١٨٧ ـ قفل عربى

ليس فى القرآن غيرُ الإجمال لحقِّ التملك ، ولكن المفسرين أحسنوا ترتيبه .

وبالغ العرب فى احترام حق التملك ، حتى ما كان منه خاصًّا بالمغلوبين ، ومن ذلك أن الأراضى التى أُخِذَت من المغلوبين بالفتح أعيدت إليهم على أن يُؤَدوا خَرَاجاً قَلَّما يزيد على خُمس محصولاتها .

ويُؤَدِّى إحياء المَوَات عند العرب إلى حقِّ التملك ، فالعرب يَرَوْن أن إحياء المَوَات يَتَضَمَّن منح الأرض قيمة ، ومن ثَمَّ يتضمن حقًّا لتملكهـا .

وأكثرُ المفسرين من غير القائلين بمبدأ مرور الزمن ، وحقُّ الادعاء عندهم لا يسقط بمرور الزمن ، ومع ذلك فإن من أحكام المذهب المالكى أن مدة مرور الزمن عشرُ سنين بين الغرباء وأربعون سنةً بين الأقارب .

ولا يستطيع الأجنبيُّ أن يتملك أرضاً أو يشترىَ عَبْداً فى دار الإسلام ، ولـكن كلمة الأجنبىِّ لا تشتمل على غير الـكافرين ، أىْ ليس المسلمون أجانبَ فى نظر بعضهم إلى بعضٍ مهما اختلفت الشعوب التى ينتسبون إليها ولا فرق فى دار الإسلام بين الصينىِّ المسلم والعربىِّ المسلم فى التمتع بجميع الحقوق ، وبهذا تختلف الحقوقُ الإسلامية عن الحقوق الأوربية اختلافاً أساسيًّا .



١٨٨ ــ صندوق للسلطان قلاوون
(من تصوير پريس الأفينى)

وتُعَدُّ مبادئُ المواريث التى نَصَّ عليها القرآنُ بالغةَ العدل والإنصاف ، ويمكن القارئَ أن يدرك هذا من الآيات التى أنقلها منه ، ولم يُبْصَر فى القرآن جميعُ الأحوال التى عالجها المفسرون فيما بعد وإن أشير فيه بدرجة الكفاية إلى روحها العامة ، ويظهر من مقابلتى بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنكليزية أن الشريعة الإسلامية مَنَحَت الزوجاتِ، اللائى يُزْعَم أن المسلمين لا يعاشرونهنَّ بالمعروف ، حقوقاً فى المواريث لا تَجِدُ مثلَها فى قوانيننا .

جاء فى القرآن :

« للرِّجَال نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوَالِدَان والأَقْرَبُون وللنِّسَاءِ نَصِيبٌ مما تَرَكَ الوَالِدَان والأَقْرَبُون مِّمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (١) » (من سورة البقرة)

« يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ، فإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما تَرَكَ ، وإن كانت وَاحِدَةً فلها النِّصْفُ (٢) وَلأَبَوَيْه لِكُلِّ وَاحِدٍ منهمَا السُّدُس مِمَّا تَرَكَ إن كانَ له وَلَدٌ (٣) ، فإن لم يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّه الثُّلُثُ (٤) ، فإن كان لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّه السُّدُس (٥) ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بها أَوْ دَيْن ، آبَاؤُكم وأَبْنَاؤُكم لا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لكم

(١) الأولاد فى فرنسة ، ذكوراً كانوا أو إناثاً ، يرثون جميع ما يتركه الوالدان .
(٢) حصة البنت الإرثية فى فرنسة مساوية لحصة الابن الإرثية .
(٣) لا يرث الأبوان شيئاً فى فرنسة ما وجد للمورث أولاد أو ذرية آخرون ، والأم فى إنكلترا ترث كل شىء وتقاسمها زوجته التركة .
(٤) الأصول فى فرنسة متساوون فى الميراث ، ذكوراً كانوا أو إناثاً .
(٥) حصة الأم فى تركة الابن فى فرنسة هى الربع إن كان له إخوة ، ويقتسم هؤلاء الإخوة بقية التركة ، فإذا كان للمورث أبوان كان لكل منهما ربع التركة وكان نصفها للاخوة .

نفعاً ، فَرِيضَةً من الله ، إن اللهَ كان عليماً حكيماً ، ولـكم نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْوَاجُـكُمْ [١] إن لم يـكُنْ لهنَّ وَلَدٌ ، فإن كانَ لهُنَّ وَلَدٌ فلَـكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا ترَكْنَ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْدَيْنٍ ، ولهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا ترَكْتُمْ [٢] إن لَمْ يَكُنْ لَـكُمْ ولدٌ ، فإن كان لـكمْ ولدٌ فلهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا ترَكْتُمْ ، من بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بها أَوْدَيْن ، وإن كان رجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَو أُخْتٌ فَلِـكُلِّ وَاحِدٍ منهما السُّدُس ، فإن كانوا أَكْثَرَ من ذلك فَهُمْ شُرَكَاءُ فى الثُّلُثِ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بها أَوْدَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً من اللهِ ، واللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ » (من سورة النساء) .

« يَسْتَفْتُونَكَ ، قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم فى الـكَلَالَةِ ، إن امْرُؤٌ هَلَكَ ليسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ ما تَرَكَ ، وهُوَ يَرِثُهَا إنْ لم يكُنْ لها وَلَد [٣] ، فإن كانَتَا اثْنَتَيْنِ فلهُمَا الثُّلُثَان مما تَرَكَ ، وإن كانُوا إِخْوَةً رِجَالاً ونِساءً فلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْن ، يُبَيِّنُ اللهُ لـكم أن تَضِلُّوا ، واللهُ بِكلِّ شىءٍ عَلِيمٌ » (من سورة النساء)

« والذينَ يُتَوَفَّوْنَ منـكم ويَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إلى الحَوْلِ غيرَ إخْرَاجٍ » (من سورة البقرة) .



١٨٩ — حجر عربى منقوش
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف فى القاهرة)

ونظامُ القضاء والمرافعات عند المسلمين

(١) لا يرث الأزواج فى فرنسة إلا عند عدم وجود من لهم حق الميراث ، ويأخذون فى إنـكلترا ، بالعكس ، جميع التركة .
(٢) لا ترث الزوجات فى فرنسة أزواجهن إلا عند عدم وجود من لهم حق الميراث ، ويأخذون فى إنـكلترا نصف التركة إن لم يكن لهم ورثة آخرون ، ويأخذ بيت المال بقية التركة ، وإذا كان للزوج المتوفى زوجة وأولاد أخذت الزوجة ثلث التركة وأخذ الأولاد أو الحفدة بقيتها .
(٣) يكون للإخوة أو الأخوات فى فرنسة ، كما فى انـكلترا جميع التركة عند عدم وجود وارث من الأصول أو الفروع ، وإذا مات الولد عن أب أو أم وإخوة أو أخوات تقاسموا فى فرنسة التركة على النسبة المذكورة آنفاً .

بسيطٌ إلى الغاية ، أىْ أنه يقوم بالقضاء قاضٍ منفردٌ مُعَيَّنٌ من قبل ولىِّ الأَمْر ، ولا تُسْتَأْنف أحكام القاضى ، ويَحْضُر الخصوم أمام القاضى بدعوة ، ويترافعون إليه مشافهةً ، ويَعْرِضون عليه بَيِّنَاتِهم التى قد تكون قائمة على الإقرار أو الشهادة أو التحليف ، فيَنْطِق بالحكم حالاً ، وقد أُتيح لى فى مَرّاكُش أن أشاهد إصدار هذه الأحكام المختصرة ، فرأيتُ القاضى جالساً فى الساحة التى هى أمام قصر الوالى ، والخصومَ والشهود حَوْله جُثِيًّا مُوجِزين قضاياهم ، وأحكامُ القاضى تُنَفَّذ فَوْراً حينما يكون ذلك ممكناً كأنْ يأمرَ بجَلْد المذنب بضعَ جَلَدات .

أجَلْ ، قد لا تَضْمَن تلك الطرق البسيطة العدلَ كما تضمنه طرقنا الأوربية المعَقَّدَة ، ولكنها لا تُضيع وقت المتقاضين الثمين على كلِّ حال ، ولا تُثقِلهم بالنفقات القضائية التى تُدْفَع عادةً فى العالم المتمدن فتُخَرِّب بيوتهم غالباً .

وتكون أحكام أولئك القضاة عادلةً على العموم مع بساطة تلك الطرق، فروح العدل والإنصاف ناميةٌ كثيراً فى العرب ، ويَرْجِع نُمُوُّها فيهم إلى أن العدلَ أساسُ الحياة فى تلك المجتمعات التى لا تزال على الفطرة ، لا إلى أمر القرآن وحدَه بالعدل على أن العدل من أحسن الفضائل .

ونَخْتِم قولنا فى نظم العرب الاجتماعية بأن نذكر أن العرب يتّصِفون بروح المساواة المطلقة وَفْقاً لنُظُمهم السياسية ، وأن مبدأ المساواة الذى أُعْلِن فى أوربة قولاً ، لا فعلاً ، راسخٌ فى طبائع الشرق رسوخاً تامًّا ، وأنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التى أدَّى وجودها إلى أعنف الثَّوْرات فى الغرب ولا يزال يُؤَدِّى ، وأنه ليس من الصعب أن تَرَى فى الشرق خادماً زوجاً لابنة سيده وأن تَرَى أُجَرَاء منهم قد أصبحوا من الأعيان .

والكُتّاب الأوربيون الذين بحثوا عن بعدٍ فى شؤون أولئك الأقوام ، وهم الذين لا يَعْلَم الأوربيون من أمورهم سوى القليل ، يستخِفّون بتلك النظم ، ويقولون إنها أدنى من نظمِنا كثيراً ، ويتَمَنَّوْن قُرْبَ الوقت الذى تستولى فيه أوربة الطامعة على تلك البِقاع .

وغيرُ ذلك ما يُبديه الباحثون المُحَقِّقون ، وإليك ، مثلاً ، ما جاء فى كتابٍ ثمين وضعه العالِمُ المتدين مسيو لُوبْلِه الذى هو ممن أجادوا درسَ أمور الشرق .

« صان المسلمون أنفسَهم حتى الآن من مثل خَطايا الغرب الهائلة فيما يَمَسُّ رَفَاهِيَة طبقات العمال، وتراهم يحافظون بإخلاص على النُّظُم الباهرة التى يسود بها الإسلام بين الغَنِيِّ والفقير والسيدِ والأجير على العموم ، وليس من المبالغة أن يُقال ، إذَنْ ، إن الشعب الذى يَزْعُم الأوربيون أنهم يرغبون فى إصلاحه هو خيرُ مثالٍ فى ذلك الأمرِ الجوهريِّ » .

٣ — نظُمُ العرب السياسيةُ

ذكرنا فى الفصل الذى خصصناه للعرب فى بغداد أهمّ عناصر دستورهم السياسيِّ ، وقلنا إن إدارة الحكم العربية ، ولا سيما الماليةُ والضرائبُ والشُّرْطَة ، كانت تسير سيراً رشيداً ، ومن المؤسف أن كانت تلك الإدارةُ الرشيدة تستند إلى نُظُم سياسية ضعيفة إلى الغاية .

ولا شىء أكثرُ بساطةً من نُظُم العرب السياسية ، فقد قامت على مساواة الجميع التامة تحت سيد واحد ، أى تحت وكيل الله فى الأرض الذى كان الصاحبَ الوحيد لكلِّ سلطة مدنية ودينية وحربية، والذى لم يكن فى الدولة سلطةٌ غيرُ سلطته أو سلطة مندوبيه ، ولم يَعْرِف العربُ قَطُّ نظامَ الإقطاع والأريستوقراطيةَ والوظائفَ الوِراثية .

وكان نظامُ العرب السياسىُّ ديموقراطيًّا يديره سيدٌ مطلق فى الحقيقة ، وساد مبدأ المساواة التامة فى هذا النظام ، ومن ذلك ما ذكرته من حُكم عمرَ بن الخطاب فى أمر لَطْمَةِ ملك الغساسنة ، الذى أسلم بعد واقعة اليرموك ، لذلك العربىِّ ، فقد قَضَى عمرُ بن الخطاب أن يَفْتَدِىَ ذلك الملكُ الغسانىُّ نفسَه، وإلا أمر ذلك العربىَّ بأن يَلْطِمه ، وقد قال عمرُ بن الخطاب لذلك الملك الغسانىِّ: « إن الإسلام جمعكما وسَوَّى بين المَلِك والسُّوقَة » .

وكانت خلافة الخلفاء الأولين أمراً انتخابيًّا ، ثم أصبحت الخلافةُ وِراثية ، أىْ صار الخلفاء يَخْتَارون من بين أبناء أسرتهم الذكور أصلحَهم ، وأمرٌ مثلُ هذا حَسَنٌ لعدم استناده فى منح السلطة إلى النَّسَب وحدَه ، ولكنه كان يؤدى إلى تنافس أولئك الأبناء وتنازعهم تنازعاً شديداً يمكن تلافيه لو كان النَّسَب وحدَه حَكَماً .

وإذْ لم يَكُن الخلفاء قادرين على ممارسة سلطانهم فى جميع أنحاء دولتهم كانوا مُضْطَرِّين إلى إنابة وُلَاةٍ عنهم ليقوموا مقامهم فى القضاء والقيادة والإدارة، وكان ينشأ عما يتمتع به هؤلاء الوُلاة من السلطة طَمَعُهم فى الاستقلال فيَجِدون فيما لديهم من السلطان المطلق وسائلَ لبلوغ ذلك ، فكان على خلفاء المشرق والمغرب أن يحاربوهم على الدوام .

ولم ينشأ ضعفُ الخلفاء عن فِتَن الوُلاة الدائمة وحدَها ، بل هنالك عِلَلٌ كانت تَفُتُّ فى عَضُد الدولة العربية أيضاً ، ومن أهمها اختلاف الشعوب التى خضعت لشريعة القرآن فيما بين مَرَّاكُش والهند ، فإذا كان القرآن ملائماً لاحتياجات بعض الأمم فإنه لم يلائم احتياجاتِ بعضها الآخر ، وإذا كان السوريون واليهود والبربر والنصارى، إلخ . ، قد خضعوا لنُظم قاهريهم حيناً من الزمن فإنهم لم يُقصِّروا فى التخلص منها بعد أن رأَوْها غيرَ ملائمة لاحتياجاتهم بدرجة الكفاية .

١٩٠ ــ نبراس مسجد فى القاهرة

وكانت تلك النُّظم السياسية سببَ عظمة العرب مع ما فيها من عوامل الضعف ، ولا شىء أصوبُ من جَمْع محمدٍ لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية فى يد واحدة

أيامَ كانت جزيرة العرب مُجزَّأةً ، ماا ستطعنا أن نُقَدِّر قيمة ذلك بنتائجه ، فقد فتح العربُ العالَمَ فى قرنٍ واحد بعد أن كانوا قبائلَ من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد .

وقد يؤدى مِثْلُ هذه النظم إلى عظمة الأمة أو انحطاطها تبعاً للزمن ، وقد أوضحتُ هذا التناقضَ الظاهر فى الفصل الذى خَصَّصْته فى كتابى السابق لدرس مالاستعداد المجتمعات من التأثير المتقلِّب فى تطورها ، فبعد أن بَيَّنْت فيه أن الأمم التى خَضَعَت لشرائعَ ثابتةٍ استطاعت أن تخرج من طور الهمجية ذكرتُ أن الأمم المتمدنة التى دَاوَمت على التقدم هى التى تَخَلَّصت من دائرة تلك الشرائع بالتدريج . والعربُ ، الذين استطاعوا بفضل محمدٍ أن يحقِّقوا أحد ذينك الشرطين فيَخْرُجوا من جاهليتهم ، لم يَعْرِفوا كيف يلائمون الشرطَ الثانى فدخلوا دور الانحطاط ، والعرب ، بعد أن جاءهم رجل عظيم جَمَع كلمتهم المتفرقة بشريعته ، لم يَظْهر منهم رجلٌ عظيمٌ آخر ليُخْرِجهم من دائرة تلك الشريعة .

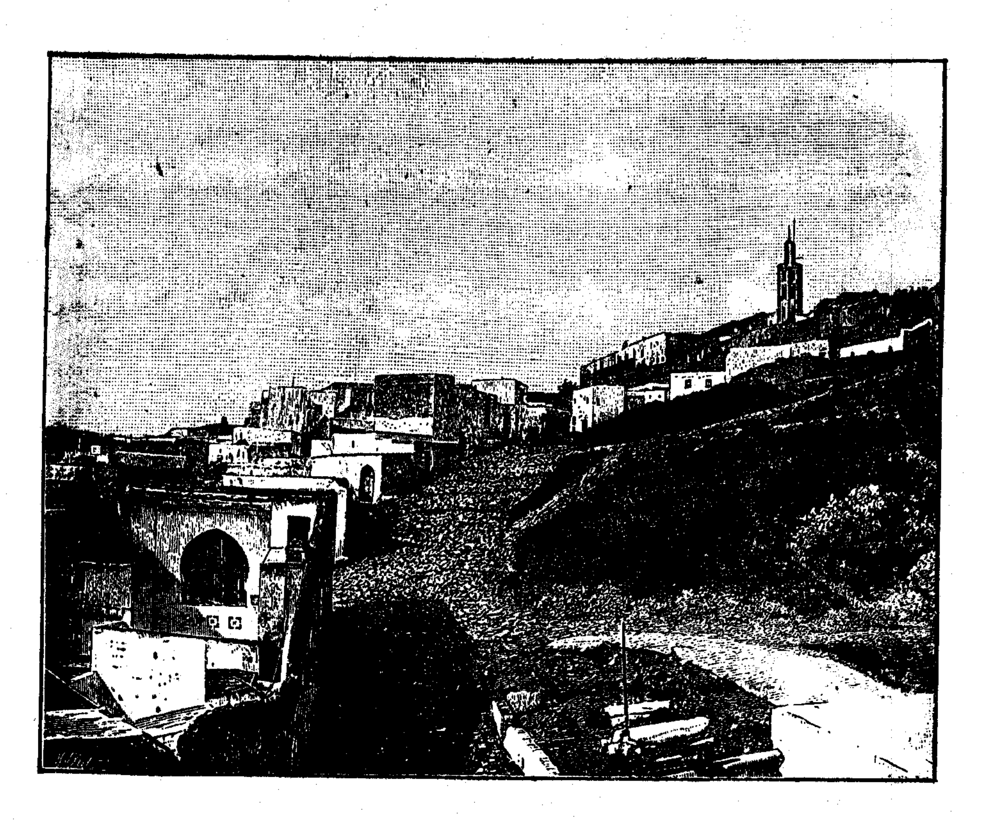
وعاد القرآنُ ، الذى لاءم مشاعر الأمة العربية واحتياجاتها أيام محمد ملاءمةً تامة ، غيرَ ما كان عليه بعد بضعة قرون ، ولو كان القرآن دستوراً دينياً فقط ما كان هنالك كبيرُ محذورٍ ، ولكن القرآن ، إذ كان دستوراً سياسيًّا ومدنيًّا أيضاً ، وكان بطبيعته ثابتاً ، بَدَت عدم المطابقة بينه وبين الاحتياجاتِ الدائمةِ التحول والأمم ونُظُمِها الثابتة ، وحالت هذه النُّظُمُ دون تقدم تلك الأمم التى قُيِّدَتْ بقيود الماضى .

ويَبْدُو أكثرُ النُّظمِ المشتقة من القرآن على شىء من المرونة مع ثباتها ، وإنما الذى هو ثابتٌ غيرُ مَرِنٍ منها هو النظامُ الإسلامىُّ الأساسىُّ القائل بجمع جميع السلطات فى يدِ سيدٍ عالٍ مطلقٍ معدودٍ وكيلَ الله فى الأرض .

وإذا نظرتَ إلى العرب أيام سلطانهم ، أو إلى مختلف الأمم التى داومت بعدهم على نشر القرآن ، رأيتَ نُظُمَها السياسية متجليةً فى شكل مَلَكىٍّ حربىٍّ ودينىٍّ مطلق ، وإذا كانت هذه النُّظُمُ قادرةً على إقامة الدول الكبيرة بسرعة لم تَكْفُلْ بقاءها إلا نادراً كما دَلَّ على ذلك تاريخ العرب والمغول والترك الذين لم تتقدم دولهم العظيمة ، وهى التى كان عليها أن تكافحَ المصاعب الداخلية والخارجية المتنوعة ، إلا عندما كان على رأسها رجالٌ عظماء .

من أجْل ذلك ترَى الدول الحربية الواسعة التى تقُوم بسرعة تَسْقُط بسرعة غالباً ، ويَدِبُّ

الانحطاط فى مفاصلها عند ما يَخْلُفُ الرجلَ العبقريَّ الذى قبض على زمامها رجلٌ أو اثنان من ذوى العقول المتوسطة ، شأنُ الأندلس والمشرق ، فبعد أن كان عصر هارون الرشيد وابنه المأمون أنضرَ ما رأته دولة الخلافة فى بغداد جاء دور الانحطاط حالاً .



١٩١ ــ شارع فى طنجة (من صورة فوتوغرافية)

وكان عهدُ آخر الأُمويين فى إسپانية أقوى ما وَصَلَ إليه العرب فيها بفضل وزيره الأكبر ، المنصور فلما مات هذا الوزير فى أوائل القرن الحادى عشر من الميلاد سَقَط مُلْكهم معه ، وأصبح البربر سادة البلاد ، وصار كلٌّ والٍ ينادى بنفسه مَلِكاً ، ثم أَفَلَ نجمُ العرب السياسىُّ فى إسپانية بفعل هذا الانقسام أكثرَ مما كان بفعل أعدائهم فى الخارج ، وبهذا أثبت لنا العربُ أن النُّظم التى تبلغ الأمة بها أعلى درجات العظمة يمكن أن تسقط بها فى هُوَّة الانحطاط ، وذلك كما قلنا آنفاً .



١٩٢ ــ سوق كبيرة فى طنجة (مراكش) (من صورة فوتوغرافية)

الفصلُ الرابع

المرأة في الشرق

---

١ — أسبابُ تعدد الزوجات فى الشرق

لا يُدْرِكُ المرء نظمَ أُمّةٍ أجنبية إلا إذا تناسى ، قليلاً ، مبادئَ البيئة التى يعيش فيها وفرَض نفسه من أبناء تلك الأمة،ولا سيما إذا كانت تلك النُّظُم من نوع مبدأ تعدد الزوجات الذى لَمَّا تُعْلَمْ حقيقةُ أمرِه إلا قليلاً فأسيء الحكم فيه .

ولا نذكر نظاماً أنحى الأوربيون عليه باللائمة كمبدأ تعدد الزوجات ، كما أننا لا نذكر نظاماً أخطأ الأوربيون فى إدراكه كذلك المبدأ ، وذلك أن أكثر مؤرخى أوربة اتزّانًا يَرَوْن أن مبدأ تعدد الزوجات حجرُ الزاوية فى الإسلام ، وأنه سببُ انتشار القرآن . وأنه عِلّة انحطاط الشرقيين ، ونشأت عن هذه المزاعم الغريبة ، على العموم ، أصواتُ سُخْطٍ رحمةً بأولئك البائسات المُكدَّسات فى دوائر الحريم واللائى يَرْقُبُهُنّ خِصْيانٌ غِلاظٌ ويُقْتَلْن حينما يَكْرَهُهنّ سادتهنّ .

ذلك الوصف مخالفٌ للحقّ ، وأرجو أن يَثْبُتَ عند القارئ الذى يقرأ هذا الفصل ، بعد أن يطرح عنه أوهامَه الأوربية جانباً،أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقىّ نظامٌ طَيّبٌ يرفع المستوى الأخلاقىَّ فى الأمم التى تقول به ، ويزيد الأُسْرة ارتباطاً ، ويمنح المرأة احتراماً وسعادةً لا تراهما فى أوربة .

وأقولُ ، قبل إثبات ذلك ، إن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصًّا بالإسلام ، فقد عرَفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور محمد ، ولم ترَ الأمم التى اعتنقت الإسلام فيه غُنْماً جديداً إذَنْ ، ولا نعتقد ، مع ذلك ، وجودَ دِيانة قوية تستطيع أن تُحَوِّل الطبائع فتبتدعَ ، أو تمنعَ ، مثلَ ذلك المبدأ الذى هو وليد جَوِّ الشرقيين وعروقهم وطُرُق حياتهم .

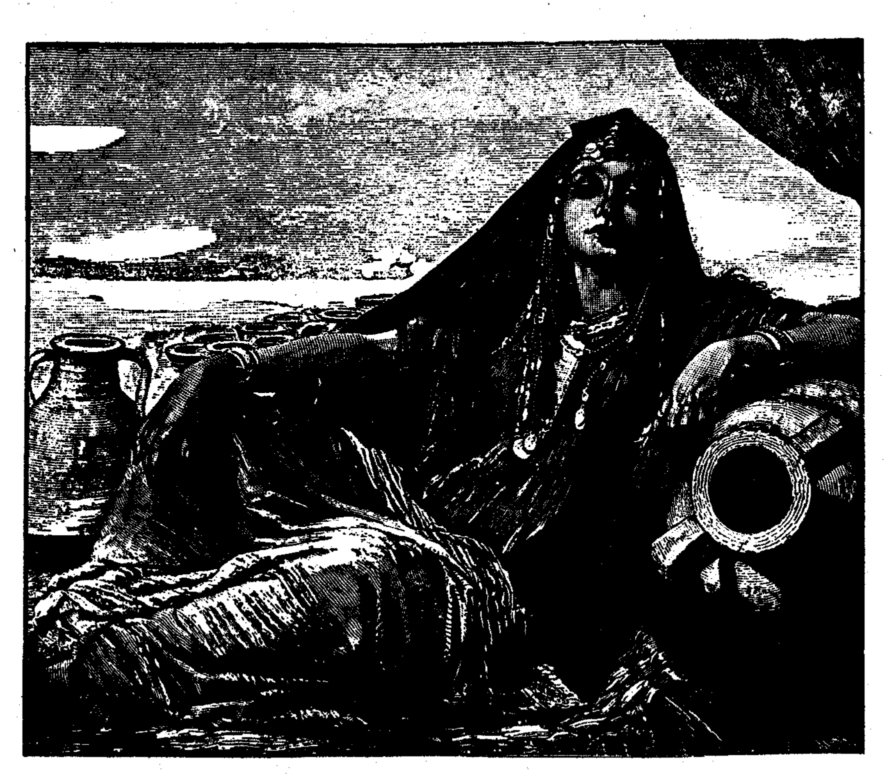
وتأثيرُ الجوِّ والعِرْق من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى إيضاح كبير ، وبما أن تركيب المرأة الجُثْمانِي

وأُمومتها وأمراضها ، إلخ . مما يُكْرِهُها على الابتعاد عن زوجها فى الغالب ، وبما أن التَأَيُّمَ الموقت مما يتعذر فى جَوٍّ الشرق ، ولا يلائم مزاج الشرقيين ، كان مبدأ تعدد الزوجات ضَرْبَةَ لازِب .

وفى الغرب ، حيث الجوُّ والمزاج أقلُّ هَيْمَنَةً ، لم يكن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة فى غير القوانين ، لا فى الطبائع حيث يَنْدُر .

ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعىّ عند الشرقيين أدنى مرتبةً من مبدأ تعدد الزوجات السِّرِّى عند الأوربيين ، وأبصر العكس فأرى ما يجعله أسنى منه ، وبهذا نُدْرِك مَغْزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شَزْراً .

ومن السهل أن ندرك علل إقرار الشرائع الشرقية لمبدأ تعدد الزوجات بعد أن نشأ عن العوامل الجُثْمانية المذكورة آنفاً ، فحُبُّ الشرقيين الجَمُّ لكثرة الأولاد وميلُهم الشديد إلى حياة الأُسرة وخُلُقُ



١٩٣ ــ بائعة خزف فى مصر العليا (صورة مأخوذة من لِبِر)

الإنصاف الذى يردعهم عن ترك المرأة غير الشرعية بعد أن يَكْرَهُوها ، خلافاً لما يقع فى أوربة ، وغيرُ

ذلك من الأسباب الكثيرة التى أعود إليها عما قليل ، كلُّها أمورٌ تَحْفِز الشرائعَ إلى تأييد العادات التى هى وليدة الطبائع ، وإذا نظرنا إلى أن القوانين لا تَلْبَث أن تطابق العاداتِ كان لنا أن نقول إن تعدد الزوجات غيرَ الشرعىِّ فى أوربة لا يلبث أن تؤيده القوانين .



١٩٤ ـ فتاة قبطية (من تصوير ليبر)

ومن أسباب تعدد الزوجات التي لم أذكرها بعدُ ماهو خاصٌّ ببعض الطبقات وما يُفيد بيانه للدلالة على سيطرته فى بعض البلدان ، حتى إن أكثر الأوربيين تديناً اضْطُرُّوا إلى الاعتراف بضرورته حينما أنعموا النظر فى الشعوب التى ظهر فيها مبدأ تعدد الزوجات ، ومن ذلك أن رأى مؤلفُ كتاب « عُمّال الشرق » العالمُ مسيو لُوپْلِه بيانَ الضرورة التى تدفع أرباب الأُسَر الزراعية فى الشرق إلى زيادة عدد نسائهم وكونَ النساء فى هذه الأسَر هُنَّ اللائى يُحَرِّضْن أزواجَهن على البناء بزوجاتٍ أُخَر من غير أن يتَوَجَّعْن ، قال مسيو لُوپْلِه :

« يتزوّج ربُّ الأسرة صغيراً على العموم ، وتَضْعُف زوجتُه الأولى بعد أن تكون ذاتَ أولاد كثير على حين يبقى تامَّ القوة ، فيُضْطَرُّ إلى الزواج مرةً أخرى بتحريض الزوجة الأولى غالباً وبموافقتها تقريباً . . . وقد يَعْجَب المرء أولَ وَهْلَةٍ ، من حَمْلِ امرأةٍ زوجَها على الزواج بامرأة أخرى ، ولكن العجب يزول حينما نعلم أن النساء فى الأسَر الإسلامية (الزراعية) هُنَّ اللائى يَقُمْن بشؤون المنزل مهما كانت شاقةً ، وذلك أن الفلاحين إذ كانوا يجهلون أمرَ اتخاذ الخوادم لم يبقَ للنساء غيرُ الاستعانة بالإماء والقريبات اللائى يكنَّ فى الزمرة نفسها ، وقد لا يكون هنالك قريبات ، وقد لاتسمح الأحوال باشتراء إماء ، وقد تصبح الإماء عند اشترائهن جواريَ منافساتٍ للزوجة الأولى فى الحُظْوة لدى ربِّ الأُسرة ، فلا يكون لدى الزوجة الأولى مايستلزم تفضيلَ الإماء هؤلاء على الزوجات الشرعيات الأُخَر ، ومن ثَمَّ ترى أن الزوجة تشير فى تلك الأحوال على زوجها بأن يَبْنِيَ بزوجة أخرى ، ولا سيما إذا علمت أنها تصنع ذلك حينما تكون آخذةً فى الهَرَم منهمكةً فى واجبات الأُمُومَة » .

ومن العوامل المهمة التى ذكرها ذلك المؤلف فى تعدد الزوجات عند الشرقيين هو « حُبُّهم للذُّرِّيَّة الكثيرين ، ولا عَجَبَ ، فالعُقْمُ عند الشرقيين من أعظم ما يُصَاب به إنسان ، والشرقيُّ إذا ما رُزِق بضعة أولاد طَمِع فى زيادة عددهم ، وتزوج بنساء أُخَرَ وصولاً إلى هذا الغرض » .

ولاحظ ذلك المحقق أن تعدد الزوجات عند الشرقيين لايؤدى إلى تحاسدهنَّ وتنافسهنَّ ، ويرَى الأوربيونَ استحالةَ ذلك لِمَا يُسَاوِرُهم من مبتسَراتٍ لارَيْبَ ، ورأيُ الأوربيين هذا ناشىء عن نظرنا إلى الأمور من خلال مشاعرنا ، لامن خلال مشاعر الآخرين ، ويكفى انقضاء بضعة أجيال لإطفاء مبتسَراتٍ

أو إحداثها ، ويمكننا أن ندرك ضرورةَ تبديل رأينا فى هذا الأمر عند الرجوع إلى أدوار المجتمعات الفطرية الأولى حين كان النساء شيئاً مُشاعاً بين رجال القبيلة الواحدة ، أو إلى الأدوار التى هى أقرب من تلك حين كان النساء شيئاً مُشاعاً بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو إلى أيامنا التى نرَى فيها وجودَ هذه الطبائع فى بعض أجزاء الهند .

٢ — تأثير الإسلام فى أحوال النساء فى الشرق

لم يقتصر الإسلام على إقرار مبدأ تعدد الزوجات الذى كان موجوداً قبل ظهوره ، بل كان ذا تأثير عظيم فى حال المرأة فى الشرق ، والإسلامُ قد رفع حال المرأة الاجتماعىِّ وشأنَها رفعاً عظيماً بدلاً من خفضهما خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى ، والقرآنُ قد مَنَح المرأةَ حقوقاً إرثية أحسن مما فى أكثر قوانيننا الأوربية كما أثبتُّ ذلك حينما بحثتُ فى حقوق الإرث عند العرب ، أَجَلْ ، أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوربة التى قالت به ، ولكنه اشترط أن يكون « لِلْمُطَلَّقاتِ متاعٌ بالمعروف » .

وأحسنُ طريقٍ لإدراك تأثير الإسلام فى أحوال النساء فى الشرق هو أن نبحث فى حالهنَّ قبل القرآن وبعده .

يمكننا استجلاء الحال التى كانت عليها النساء قبل ظهور النبىِّ من التحريم الآتى الذى جاء فى القرآن : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ وَأَخَواتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخالاتُكُمْ وَبَناتُ الأَخِ وَبَناتُ الأُخْتِ وَأُمَّهاتُكُمُ اللاَّتى أَرْضَعْنَكُم وَأَخَواتُكُم مِّنَ الرَّضاعَةِ وَأُمَّهاتُ نِسائِكُم وَرَبائِبُكُم اللاَّتِى فى حُجُورِكُم مِنْ نِّسائِكُمُ اللاَّتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُناحَ عَلَيْكُم ، وحَلاَئِلُ أَبْنائِكُمُ الذين مِنْ أَصْلاَبِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً » .

وتحريمٌ مثلُ هذا ، وإن كان لا يَدُلّ على رقىّ عادات الأمة التى اقتضته ، يَهُونُ أمر دلالته عندما نعلم أن ما أشار إليه من العادات كان شائعاً بين جميع الأمم السَّامِيَّة ، فالتحريم الذى جاء فى

التوراة (الأَصْحاح الثامنَ عشرَ من سِفْرِ اللاويين ٦ ـ ١٨) مثلُ ما جاء فى القرآن ، ويشير إلى أمور أشدَّ خَطَراً مما أشار إليه القرآن .



١٩٥ ـ امرأة بربرية من الجزائر (من صورة فوتوغرافية)

وكان الرجال قبل ظهور محمد يَعُدُّون منزلةَ النساء متوسطةً بين الأنعام والإنسان من بعض الوجوه ، أى أداةً للاستيلاد والخدمة وكانوا يَعُدُّون ولادة البنات مصيبةً ، وشاعت عادة الوَأْد ، وصار لا يُجادَل

فيها كما لو كانت البنات جِرَاءً (١) يُقذَف بها فى الماء ، ويمكننا أن نتمثَّل عادةَ الوَأْد عند العرب من المحاورة الآتية التى وقعت بين رئيس بنى تميم قيسٍ ومحمدٍ ، حينما رأى قيسٌ محمداً يَضَع إحدى بناته على رُكْبَتَيْه ، والتى رواها كوسان دوپرسڤال :

قيسٌ : « مَنْ هذه الشاة التى تَشَمُّها ؟ » .

محمد : « ابنتى » .

قيس : « والله كان لى بنات كثيرٌ ، فوَأَدْتهُنَّ من غير أن أشمَّ واحدةً منهن » .

محمد ـ صارخاً ـ : « ويلٌ لك ، يظهر أن الله نَزَع الرحمةَ من قلبك،فلا تَعرِف أطيبَ النِّعَم التى مَنَّ الله بها على الإنسان * » .

وإذا أردنا أن نَعْلَم درجةَ تأثير القرآن فى أمر النساء وجب علينا أن ننظر إليهنَّ أيام ازدهار حضارة العرب ، وقد ظهر مما قصَّه المؤرخون ، فنذكره فيما بعد ، أنه كان لهنَّ من الشأن ما اتفق لأَخَوَاتهن حديثاً فى أوربة ، وذلك حين انتشار فروسية عرب الأندلس وظَرْفهم .

وقد ذكرنا فى فصلٍ سابق أن الأوربيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة ، والإسلامُ ، إذَنْ ، لا النصرانيةُ ، هو الذى رفع المرأة من الدَّرْك الأسفل الذى كانت فيه ، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع،وإذا نظرتَ إلى سنيورات نصارى الدور الأول من القرون الوسطى رأيتَهم لم يحملوا شيئاً من الحُرْمَةِ للنساء ، وإذا تصفحتَ كُتُبَ تاريخ ذلك الزمن وجدتَ ما يُزيل كلَّ شكٍّ فى هذا الأمر،وعلِمتَ أن رجال عصر الإقطاع كانوا غِلاظاً نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمرَ معاملتهنَّ بالحُسْنَى ، ومن ذلك ماجاء فى تاريخ غاران لُولُوهِيرَان عن معاملة النساء فى عصر شارلمان وعن معاملة شارلمانَ نفسِه لهنَّ كما يأتى : « انقضَّ القيصر شارلمان على أخته فى أثناء جِدالٍ وأخذ بشعرها وضَرَبها ضرباً مُبَرِّحاً وكسر بقُفَّازه الحديدىِّ ثلاثاً من أسنانها »،فلو حَدَثَ مثل هذا الجَدَلِ مع سائق عربةٍ فى الوقت الحاضر لَبَدا هذا السائقُ أرَقَّ منه لا رَيْب .

ومن الأدلة على أهمية النساء أيام نضارة حضارة العرب كَثْرَةُ من اشتهر منهنَّ بمعارفهنَّ العلمية

---

(١) الجراء : جمع الجرو ، وهو ولد الكلب .

والأدبية ، فقد ذاع صيتُ عددٍ غيرِ قليلٍ منهن فى العصر العباسىِّ فى المشرق والعصرِ الأُمَوىِّ فى إسپانية،ونذكر منهنَّ بنتَ أحد الخلفاء ، الذى كان جالساً على عرش الخلافة سنة ٨٦٠ (!) ، وَلَّادَةَ التى لُقِّبَتْ بسافو قرطبة ، وقال كوندِه مُلَخِّصاً ماذكره مؤرخو عبد الرحمن الثالث :

« كان عبد الرحمن الثالث ، وهو يتمتع بأطايب مدينة الزهراء ، يُحِبُّ أن يستمع إلى أغانى جاريته وأمينةِ سِرِّه العَذبة مُزْنَةَ وإلى فتاة قرطبة الكريمة عائشةَ التى رَوَى ابن حَيَّان أنها كانت أعقلَ بنات عصرها وأجملَهنَّ وأعلمهنّ ، وإلى صفيةَ التى كانت شاعرةً باهرة الجمال . . . » ، وأضاف مؤرخو الحكم الثانى إلى ذلك قولَهم : « إن نساء ذلك الزمن (الذى كان للعلم والأدب شأنٌ عظيم فيه ببلاد الأندلس (كُنَّ مُحِبَّاتٍ للدرس فى خُدُورهنّ ، وكان الكثير منهن يَتَمَيَّزْن بدماثتهنّ ومعارفهنّ ، وكان قصر الخليفة يَضُمُّ لُبْنَى،أى هذه الفتاةَ الجميلةَ العالمةَ بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم والكاتبةَ البارعة التى كان الخليفة يعتمد عليها فى كتابة رسائله الخاصة والتى لم يكن فى القصر مثلُها دقةَ تفكيرٍ وعذوبةَ قريضٍ ، وكانت فاطمةُ تكتب بإتقان نادر ، وتنسَخُ كُتُباً للخليفة ، ويُعْجَبُ جميعُ العلماء برسائلها ، وتَمْلِك مجموعةً ثمينة من كتب الفنِّ والعلوم ، وكانت خديجةُ تَنْظِم الأبياتَ الرائعة وتُنْشِدها بصوتها الساحر ، وكانت مريمُ تُعَلِّم بناتِ الأُسَر الراقية فى أشْبِيلِيَّةَ العلمَ والشعر مع شهرةٍ عظيمة فتَخَرَّجَت فى مدرستها نساء بارعات كثيرات ، وكانت راضيةُ ، المعروفة بالكوكب السعيد والتى حَرَّرها الخليفةُ عبد الرحمن وتَنَزَّل عنها لابنه الحكم ، نابغةَ عصرها فى القريض ووضعِ القِصَص الرائعة فساحت فى الشرق بعد موت الخليفة وكانت محلّ هُتَاف العلماء فى كلِّ مكان » .

وخَبَتْ حضارةُ قدماءِ الخلفاءِ الساطعةُ فى عهد وارثى العرب ، ولاسيما فى عهد الترك،فنَقَص شأنُ النساء كثيراً ، وسأُبَيِّن فى مكانٍ آخرَ أن حالتهنّ الحاضرة أفضلُ من حالة أَخَوَاتهنّ فى أوربة حتى عند التُّرْك ، وما تقدم يُثْبِت أن نقصان شأنهنَّ حدث خلافاً للقرآن ، لا بسبب القرآن على كلِّ حال .

وهنا نستطيع أن نُكَرِّر ، إذَنْ ، قولَنا إن الإسلام،الذى رفع المرأة كثيراً ، بعيدٌ من خفضها،

ولم نكن أولَ من دافع عن هذا الرأى ، فقد سَبَقَنا إلى مثله كوسان دوپرسڤال ثم مسيو بارْتِلمِى سَنْت هِيلِر .



١٩٦ ــ امرأة بربرية من جوار بسكرة (من صورة فوتوغرافية)

ولم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة ، بل نُضِيف إلى هذا أنه أولُ دين فعل ذلك ، ويَسْهل

إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان والأمم التي جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة ، وهذا ما أوضحناه في كتابنا الأخير ، فلا نرى غيرَ تكرار ما ذكرناه فيه لإقناع القارئ :

كان الأغارقة ، على العموم ، يَعُدُّون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تنفع لغير دوام النسل وتدبير المنزل ، فإذا وَضَعَت المرأة ولداً دَمِيماً قَضَوْا عليها ، ومن ذلك قولُ مسيو تُرُوپْلُونْغ :

« كانت المرأة السيئة الحظِّ التي لا تضع في إسپارطة ولداً قويًّا صالحًا للجندية تُقْتَل » ، وقال : « كانت المرأة الوَلُودُ تُؤْخذ من زوجها بطريق العارية لتَلِد للوطن أولاداً من رجل آخر » ، ولم يَنَلْ حُظْوَةً من نساء الإغريق في دور ازدهار الحضارة اليونانية سوى بناتِ الهوى اللاتي كُنَّ وحدَهنَّ على شيء من التخرج .

وكان جميع قدماء المشترعين يُبْدون مثل تلك القسوةِ على المرأة ، ومن ذلك قَوْلُ شرائع الهندوس : « ليس المصير المُقَدَّر والريح والموت والجحيم والسمُّ والأفاعي والنار أسوأ من المرأةِ » .

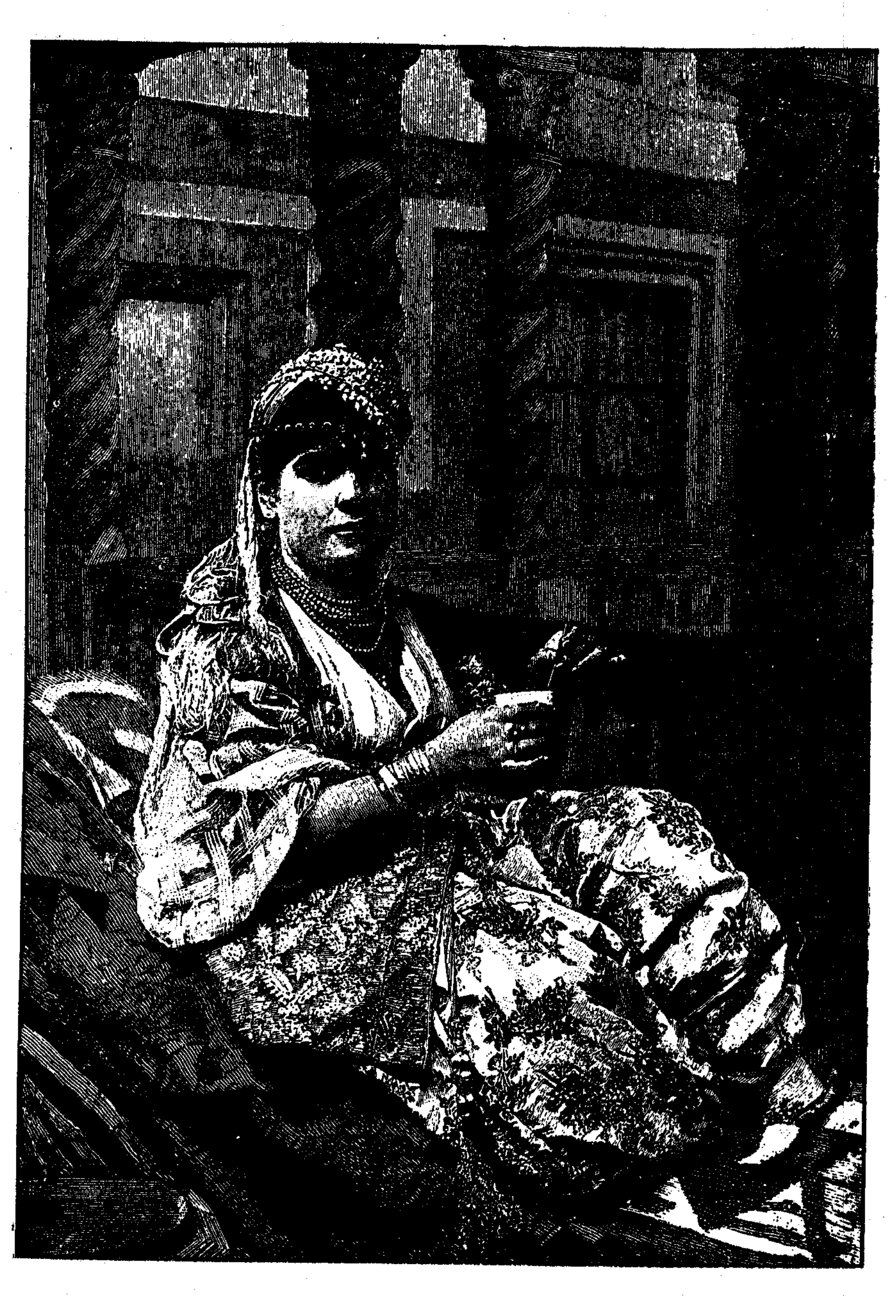


١٩٧ ــ فتاة مراكشية (من صورة فوتوغرافية)

ولم تكن التوراة أرحمَ بالمرأة من شرائع الهند ، ومن ذلك قَوْلُ سِفْرِ الجامعة إن « المرأةَ أمرُّ من الموت » وإن « الصالحَ أمامَ الله يَنْجُو منها . . . رجلاً واحداً بين ألف وجدتُ ، أما امرأةً فبين كلِّ أولئك لم أجِد » .

وليست أمثال مختلف الأمم أكثرَ اعتدالاً ، فالمثلُ الصينيُّ يقول : « أَنْصِتْ لزوجتك ولا

تُصَدِّقْها » ، والمثلُ الروسيُّ يقول : لا تَجِدُ فى كلِّ عشر نِسْوَةٍ غيرَ روحٍ واحدة » ، والمثلُ الإيطاليُّ يقول : « المِهْمَازُ للفرس الجوّاد والفرس الجموح ، والعصا للمرأة الصالحة والمرأة الطالحة » ، والمثلُ الإسپانيُّ يقول : « احْذَر المرأة الفاسدة ولا تَرْكَنْ إلى المرأة الفاضلة » .



١٩٨ ــ فتاة عربية من الجزائر (من صورة فوتوغرافية)

وتَعُدُّ جميعُ الشرائع الهندوسية واليونانية والرومانية والحديثة المرأةَ من فَصِيلة الإماء أو الصبيان ، ومن ذلك قولُ شريعة مَنُو « تَخضَع المرأة فى طفولتها لأبيها وفى شبابها لزوجها وفى تأَيُّمها لأبنائها إذا كان لها أبناء ، وإلا فإنها تخضع لأقرباء بَعْلها ، أىْ لا يجوز تركُ أمرها لها » ، ويقْرُب من هذا ما ورد فى شرائع اليونان والرومان ، فقد كان سلطان الرجل فى رومة على زوجته مطلقاً ، وكانت تُعَدُّ أَمَةً لا قيمة لها فى المجتمع ، ولم يكُنْ لها قاضٍ سوى زوجها الذى بيده حقُّ حياتها وحقُّ مَوْتها ، ولم تعامل الشريعة اليونانية المرأةَ بأحسنَ من هذا ، وهى لم تعترف لها بأىِّ حقّ ، ولا بحق الميراث .

ومن غير أن نذهب بعيداً إلى أحكام القوانين والدِّيانات القديمة فى نَقْص المرأة عقلاً وأخلاقاً ، أذْكُرُ أن بعض العلماء المعاصرين أثبتوا ذلك النقص مستندين إلى عواملَ تشريحية ونفسية كثيرة ، فحاولوا إقامة الدليل على أن الحضارات كلما تقدمت اختلفت المرأة عن الرجل ذكاء (1) .

ولا يظنُّ القارئ أن العرب ، الذين احترموا المرأة أكثرَ من أية أمة ظهرت ، لم يوافقوا على الرأيِ القديم القائل بنقص المرأة عقلا وأخلاقاً ، فشكوكهم فى وفاء المرأة كبيرة إلى الغاية ، وذلك أن المرأة فى نظرهم من المخلوقات الصغيرة الجميلة الفاتنة العابثة اللاهية التى لا يُرْكَن إلى ثبات جَنانها طَرْفَةَ عَيْن ، وقديماً قال مشترع الهند الرزين مَنُو الذى ظهر قبل محمد بأكثرَ من ألفىْ سنة : « تُعَد المرأة زانيةً إذا خَلَت بالرجل مُدَّةً تكفى لإنضاج بيْضَة » .

أَجَلْ ، إن المدة التى حَدَّدها مَنُو لإصدار هذ الحُكْم الصارم قليلةٌ ، ولكنه نشأ عن اعتقاد الشرقيين صحةَ ذلك تقييدُهم لحرية المرأة وإكراهُها على العَيْش فى دوائر الحريم ، وهذا لا يَعْنى أنهم يَرَوْنَ عِصْمَةَ المرأة بين الجُدُر والخِصْيان ، وإنما حملوها على العيش فى هذه الدوائر لعدم اكتشافهم علاجاً أفضلَ منه ، ومن يُنْعِم النظر فى أقاصيصهم الشعبية يَرَ فيها أثراً لهذا الاعتقاد ، فاقْرَأْ رواية ألف ليلة وليلة العجيبة ، مثلاً تَجِد أن فاتحتها الدقيقة تدور حول مَيْل المرأة إلى الخداع بطبيعتها وأن المرأة لو حُبِسَت فى قفص من زجاج وراقبها مَلَكٌ مِغْيارٌ لاستطاعت ، فى الغالب ، أن تخادع كما تشاء

---

(1) لا أكتم أننى صاحب هذا الرأى الخصيب النتائج ، ففصلته فى مذكرة نشرتها بعنوان : « المباحث التشريحية والرياضية فى ناموس تحولات حجم الجمجمة » ، وفى هذه المذكرة حاولت أن أثبت أيضاً أن فروق الذكاء بين الرجال تبدو باطراد كلما تمدنوا ، وأن الحضارة تقودنا باستمرار إلى التفاوت لا إلى المساواة .

والشرقيون ، إذْ كانوا مُطَّلعين بغرائزهم على سرائر الأمور ، يَرَوْن من طبيعة المرأة أن تكون غادرةً غيرَ وَفيَّة كما أن الطيران من طبيعة الطير ، والشرقيون ، إذْ كانوا حريصين على صَفاء نَسْلهم ، اتخذوا ما يرُوقُهم من وسائل الحَذَر منعاً لحدوث ما يَخْشَوْن .

٣ — الزواج عند العرب

أباح القرآن للمسلم أن يتزوج أربعَ نِسْوَة من الحرائر وما شاء من الإماء ، ويُعَدُّ أولاد الإماء شرعيين كأولاد الحرائر .

وللزوج أن يُطَلِّق زوجته ، ولكنه يجب عليه أن يصنع ما يَكْفُل به مصيرها .

وفى بلد كالشرق ، حيث يَسْهُل الزواج فيتزوج الرجال والنساء فى مَيْعَة الشباب يُدْرِك السِّرُّ فى إمكان صرامة الطبائع بأشدَّ مما فى أوربة ، والحقُّ أن الطبائع فى الشرق صارمةٌ ، وأن من النادر أن ترى رجلاً يتَمَلَّق زوجةَ رجلٍ آخر لمخالفة ذلك للطبيعة عند الشرقيين مع عَدِّه أمراً طبيعيًّا لدى الأوربيين ، « فلا ترى هنالك ، كما قال الدكتور إيزَنْبِرْت ، مثلَ ما يُكَدِّر صَفْو الحياة الزوجية فى أوربة من الخيانة التى هى أعظم إفساداً للأخلاق من تعدد الزوجات على ما يحتمل[1] » .

وتُحاط المرأة فى الشرق برَقابة شديدة ، ولا يزورها رجلٌ ، ولا تَخْرُج من بيتها إلاّ مُبَرْقَعَةً ، وإذا عَدَوْتَ الآستانة وجدتَ النساء الشرقياتِ مصحوباتٍ على العموم ، ولا يتعرض أحدٌ لهنَّ إلا نادراً ، ولا نَعْجَبُ كثيراً ، إذَنْ ، من قول الشرقيين إن نساءهم أفضل من الأوربيات .

ولا يزال ربُّ الأسْرة الشرقية محافظاً على سلطانه خلافاً لِما هو واقع فى الغرب ، ولا تُكَلِّمُ النساء الشرقياتُ أزواجَهن إلا بأدب ، ويقتدى الأولادُ بهنَّ بطبيعة الحال ، ويتمتع ربُّ الأسْرة الشرقية ، فى الحقيقة ، بمثل ما كان يَتَمَتَّع به ربُّ الأسْرة فى رومة الغابرة من السلطان والامتيازات ، ولا يَجِد الشرقيون فينا ما يُثيرُ حسدهم من هذه الناحية .

---

(١) يمكن الدكتور إيزنبرت أن يقول ، أيضاً ، إن الخيانة الزوجية فى الأمم القائلة بالاقتصار على زوجة واحدة تزيد باطراد ، فقد دلت الاحصاءات الرسمية التى نشرت حديثاً على أن عدد قضايا الزنا فى فرنسة سنة ١٨٨٠ أصبح تسعة أمثال ما كان عليه فى سنة ١٨٢٦ .

وينظر العرب شَزْراً إلى العزوبة ، والعزوبةُ تزيد فى الغرب شيوعاً كلَّ يوم كما دلت عليه الإحصاءات ، ومتى بلغ العربىُّ العشرين من عُمُره تزوج على العموم ، ومتى بلغت العربية ما بين السنة العاشرة والسنة الثانية عشرة من عُمُرها تزوجت على العموم ، وقد اعترف إيبر بفائدة هذه العادة فقال: « لا يسعنا إلا الشهادة بحسن تلك الروح البَيْتِيَّة وصلاح تلك الحياة المَنْزِليَّة » .



١٩٩ ـ فتاة سورية (من صورة فوتوغرافية)

ويمتاز الزواج الشرقىُّ من الزواج الأوربىِّ، فيما عدا مبدأ تعدد الزوجات ، بأن الزوج فى الشرق هو الذى يدفع إلى أهل الزوجة مَهْراً متحوِّلاً بحسب ثروتيهما ، وبأن الزوجة عند أكثر الغربيين ، ولاسيما طبقاتُهم المُوسِرةُ ، هى التى تدفع مبلغاً من المال يُعْرف بالدُّوتَة لتنال زوجاً .

وحقوق الزوجة التى نص عليها القرآن ومفسروه أفضلُ كثيرا من حقوق الزوجة الأوربية ، فالزوجة المسلمة تتمتع بأموالها الخاصة فضلاً عن مَهْرها وعن أنه لا يُطْلَب منها أن تشترك فى الإنفاق على أمور المنزل ، وهى إذا أصبحت طالقاً أخذت نَفَقَةً ، وهى إذا تأَيَّمت أخذت نَفَقَةَ سنةٍ واحدة ونالت حِصَّةً من تركة زوجها .

وتُعامَل المرأة المسلمة باحترام عظيم فضلاً عن تلك الامتيازات ، وتنال بذلك حالًا أجمع الباحثون المنصفون ، ومنهم من ناصب بعاطفته مبدأ تعدد الزوجات العِداء ، على الاعتراف بحسنها ، ومن هؤلاء مسيو دو أَمسِيس الذى قال فى مَعرِض الحديث عن المرأة فى الشرق ، وذلك أن أنحى باللائمة على تعدد الزوجات وَفْقَ وجهة نظره الأوربية : « إن المرأة فى الشرق تُحترم بنُبْل وكرم على العموم ، فلا أحدَ



٢٠٠ ــ امرأة تركية بالزى البلدى (من صورة فوتوغرافية)

يستطيع أن يرفع يده عليها فى الطريق ، ولا يَجْرُؤ جندىٌّ أن يسىء إلى أوقح نساء الشعب حتى فى أثناء الشغب ، وفى الشرق يَشْمَل البَعْلُ زوجته بعين رعايته ، وفى الشرق يبلغ الاعتناء بالأم درجة العبادة ، وفى الشرق لا تجِد رجلاً يُقْدِم على إلزام زوجته بالعمل ليستفيد من كسْبها ، وفى الشرق يدفع الزوج مهراً إلى زوجته فلا تجئ الزوجة إلى بيت زوجها مصحوبةً بأكثرَ من جهازها ومن بضع إماء لها وإذا

طُلِّقَت الزوجة فى الشرق أو هُجِرَت أعطاها الرجل نَفَقَةً لتَعِيشَ عن سَعَة ، وحَمْلُ الزوج بعد الفراق على القيام بهذا الإنفاق يمنعه من إساءة معاملتها حَذَرَ مطالبته بالفراق » .

والاعتراضُ الوحيد الظاهر الذى يُوجَّه إلى مبدأ تعدد الزوجات هو أنه يجعل المرأة تَعِسَة ، وقد أجمع على فساد هذا الزعم الذى طال أمَده جميعُ الأوربيين الذين درسوا أمره فى الشرق عن كَثَب ، فبعد أن ذكر مسيو إيبر ، الذى بدا خصماً لمبدأ تعدد الزوجات مع تَرَدُّدٍ ، أن المسلمات لا يتظلمنَ منه قال : « قد يظهر لأَخَوَاتِهِنَّ الأوربيات أنهن من الذليلات ، ولكنهن لا يَشْعُرن بأنهن أسيرات مطلقا ، وهُنَّ يَقُلْن فى الغالب ، لنسائنا اللاتى يَزُرْنَهنَّ إنهن لا يَقْبَلْنَ استبدال حالِنا بحالهنّ » .

ولم يكن مدير مدرسة اللغات فى القاهرة ، مسيو دوڤوجانى ، أقلَّ صراحة من ذلك : فقد قال : « تَعُدُّ المسلماتُ أنفسَهن غيرَ تَعِسات من حياة العُزْلَة التى يَفرِضها عليهن نظام الحريم ، فهنَّ إذ يُولَدْن فى دوائر الحريم غالباً يَتَرعْرَعْن فيها جاهلاتٍ وجودَ حياةٍ لبناتِ جنسهنّ أفضلَ من تلك الحياة مُعْرِضاتٍ عن الحرية التى تتمتع بها الأوربيات ، ولا غَرْوَ ، فدوائرُ الحريم كانت مَسْرَحَ طفولتهنَّ ومسراتهنَّ الأولى وهواجسهنَّ الأولى .

« ويقال إن العادة طبيعة ثانية ، فإذا صحَّ هذا القول كانت حياة الحريم طبيعةً ثانية لبنات الشرق ، فهنّ إذْ يتعوّدن السير فى دائرةٍ يَعْرِفْن حدودها لا يُفكِّرْن حتى فى التحرر منها ، وهُنّ حين يَتَزَوّجْن يَنْتَقِلن من دوائر آبائهن إلى دوائر أزواجهنّ حيث يَتَمَتَّعن بأنُمٍ جديدة ويفْتَحْنَ قلوبهن ، الخاليةَ من تَرَحٍ تُورِثُه تربيةٌ دقيقة ، لمعانى السعادة ، وما يلاقينه من رعاية أزواجهنّ يجعل هذه السعادة أمراً ميسوراً ، والمسلمُ يَحْبُو بكلِّ جميل وبكلِّ ثمين ، والمسلمُ يُحِبُّ أن يَعْرِض فى دوائر حريمه كلَّ ما يَنِمُّ على التَرَف والزُّخْرُف مع أنه يَرْضى لنفسه برُقْعَةٍ متَضِعَةٍ إذا ما قيست بتلك » .

ونَقَضَ ذلك العالمُ الرأىَ القائل إن نساء الشرق جاهلاتٌ جهلا عميقاً ، وذَكَرَ أنهن أعظمُ تعلماً من أكثر نساء أوربة وأن منهن من ينتسبن إلى أرقى الطبقات ، وقال : « إن التعليم كثيرُ الانتشار فى دوائر الحريم ، وليس من القليل أن تجِدَ نساءً متزوجاتٍ وغير متزوجاتٍ تُجيد كلٌّ واحدةٍ منهن

العربية والفرنسية والإنكليزية والتركية تكلماً وكتابة ، فإذا ما اجتمع عددٌ كبير من المسلمات الراقيات فى دوائر الحريم تحادثن باللغة الفرنسية غالباً » ، وأما أنا فلم أشاهد عدداً كبيراً من الباريسيات اللاتى يتكلمن بأربع لغاتٍ تكلماً صحيحاً أو غيرَ صحيح .

ولا تَقُلْ إن طرق حياة النساء فى الشرق مانعةٌ من تعليمهنَّ فى كلِّ وقت ، فقد رأيتَ مما تقدم أن عدد النساء اللاتى اشتهرن أيام ازدهار حضارة العرب بعلومهنَّ كان كثيراً إلى الغاية ، ولم يستند الكُتَّابُ الذين تحدَّثوا عن جهل المرأة الشرقية إلا إلى حال الإماء اللاتى يُجْلَبْنَ من أقاصى الأقطار ويُشْتَرَيْنَ من أسواق النِّخاسة ويُشاهَدْن فى بعض دوائر الحريم ، وماهؤلاء الكُتَّاب إلى كمن يَستنبط رُقِيَّ السيدة الباريسية الفاضلة من حال خادمة غرفتها .

٤ — الحريم فى الشرق

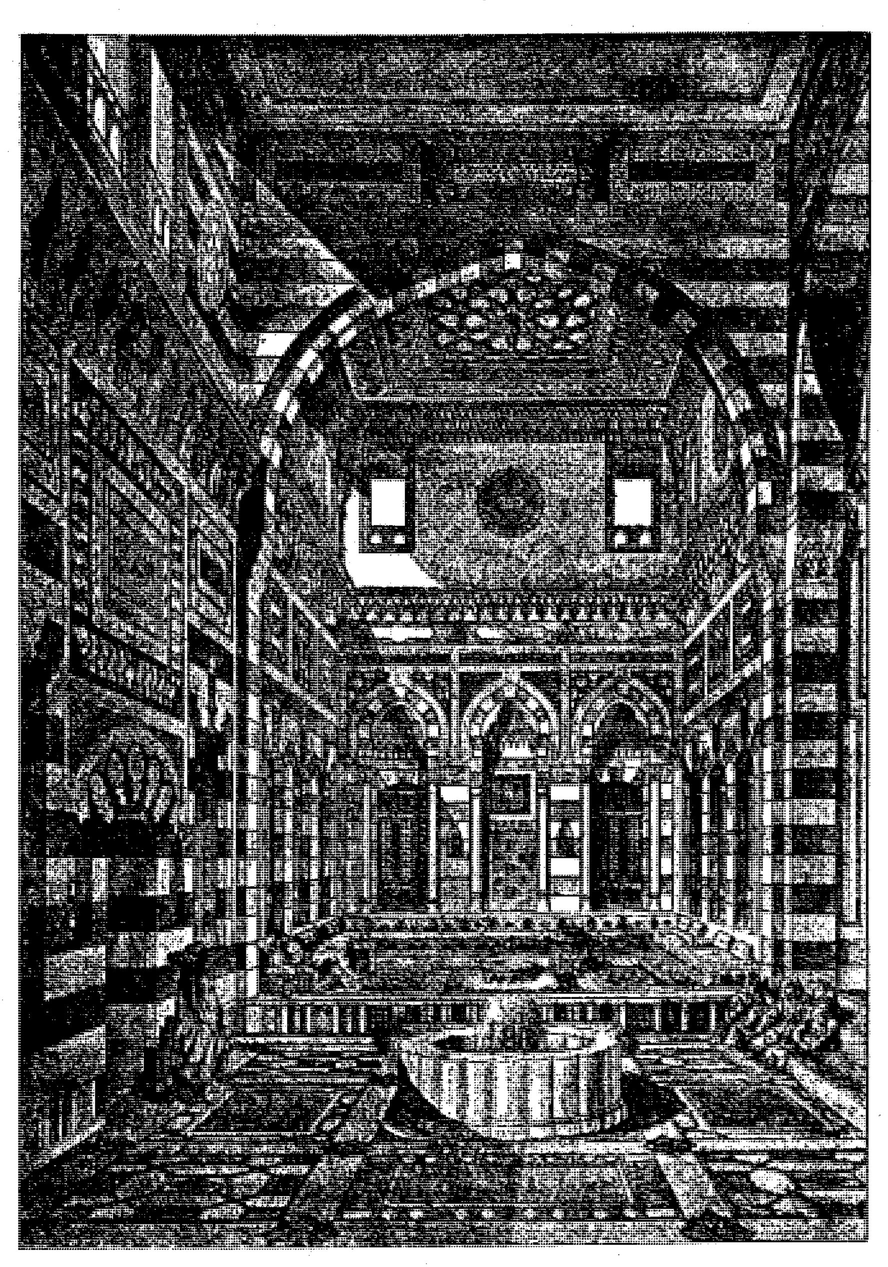
كلمةُ « الحريم » لفظٌ عامٌ يدلُّ عند العرب على كلِّ ما هو مقدس ، فإذا ما طُبِّقَت هذه الكلمة على منزل دلَّت على أمنع قسم منه وأشدِّه حرمةً لدى المسلم ، أى على المكان الذى تسكنه نساؤه .

ويَنسُج الأوربيون، على العموم ، أفسدَ الآراء حَوْلَ دوائر الحريم فى الشرق ، ويَعُدُّون دوائرَ الحريم دُورَ فِسْقٍ يسكنها نساءٌ سجينات تَعِسات يَقْضِين أوقاتَهنَّ فى البطالة ويَلْعنَّ حظَّهن .

وقد بَيَّنَّا درجة بُعْدِ هذه الأحكام من الصحة ، ويقضى جميع الأوربيين الذين يدخلون دوائرَ الحريم كلَّ العجَب من حبِّ النساء فيها لأزواجهِنَّ ومن تربيتهِنّ لأولادهنَّ وتدبيرهِنَّ لأمور منازلهنَّ ورضاهنَّ بما قُدِّر لهنَّ واعتقادِهنَّ تقهقرَهنَّ إذا ما حُمِلن على تبديل حال الأوربيات بحالهنَّ ، وهنَّ يتوجعن بإخلاصٍ من إلزام الأوربيات بالأشغال وبالأعمال اليدوية مع أنهن لا يعتنين إلا بأُسَرهنَّ وأزواجهنَّ ذاهباتٍ إلى أن المرأة خُلِقَت لهذا .

وينظر الشرقيون إلى الأوربيين الذين يُكْرِهون نساءهم على التِّجارة والصِّناعة والأشغال إلخ ، كما ننظر إلى حصان أصيل يستخدمه صاحبه فى جَرِّ عَرَبة أو إدارةِ حجرِ رَحًى ، فيجب ألَّا يكون على المرأة ، عند الشرقيين ، غيرُ إدخال السرور إلى قلب الرجل وتربيةِ الأسرة ، ولا يرَى الشرقيون أن المرأةَ التى تزاول أعمالاً أخرى تستطيع أن تقوم بدَوْرِها هذا على الوجه اللائق .

وتترك الأممُ بعضَ الأثر فى نفس من يزورها ، ولِذا أشارك الشرقيين فى رأيهم ذلك مشاركةً تامة، وأقولُ ، مع ذلك ، إن كلَّ شيء فى دوائر الحريم لا يسير كما يُرَام ، وإن دوائر الحريم فى المدن التركية الكبيرة على الأقل ، ولا سيا فى الآستانة ، تُورِث فساداً كبيراً ، وإن أخلاق الحريم فى الآستانة هَيِّنَةٌ



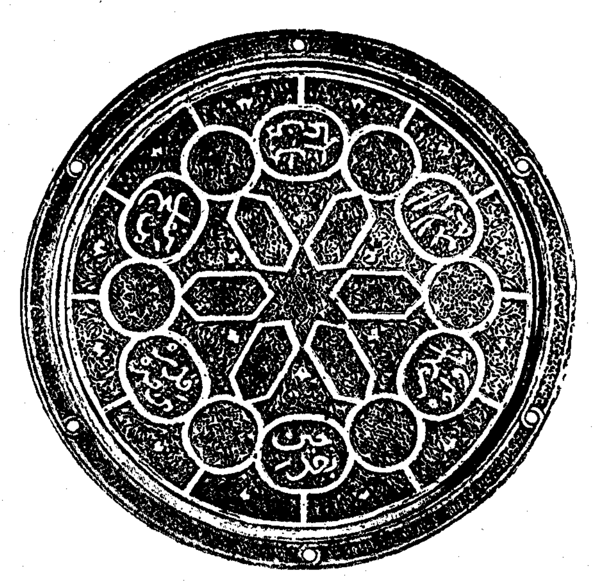
٢٠١ ــ داخل قصر أسعد باشا فى دمشق (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

فى الوقت الحاضر كالتى تشاهد فى عواصمنا الغربية الكبرى، وإن نفوذ الأوربيين وزيادةَ الترَفِ والفقر الشائع ، بعد الحرب الأخيرة على الخصوص، أمورٌ أدت إلى انحلال الأخلاق ، وإنك تجد فى الآستانة نساءً كثيراتٍ ، ومنهن من يَنْتَسِبْنَ إلى بعض الأعيان ، لايَصْعُبُ نَيل الحُظْوَة لديهنَّ بدراهمَ تُدْفَع إلى حَرَس الحريم من غير ضرورةٍ إلى كبيرِ عناء فى الغالب .

وروت زوجة محمد باشا القبرسيِّ الذى كان رئيساً للوزارة العثمانية فى كتابها (الإنكليزىّ) الحديث الذى اسمه « ثلاثون سنة فى الحريم » ، وذلك بعد أن قَضَت حياتها فى دوائر حريم أكابر الأعيان ، أنه كان من عادة نساء السلطان عبد المجيد أن يُنَادِين السَّابِلَة من نوافذ قصرهنَّ ، وأن من يُلَبِّى الدعوة من أولئك السابلة يُخْنَقُ فى الغد كتماً للسرِّ ، وأن خبر ما وقع من الفِسْق لايَشِيع على العموم، وأنه كان من حَذَر نازلى هانم بنتِ عزيز مصر ، محمد على ، أن تقتل جميع عُشَّاقِها من المارين ، وأنها كانت مع ذلك شديدةَ الغَيْرَة كما يدلُّ عليه ما يأتى : « حدث أن قال المرحومُ زوجُها ، ذاتَ مرةٍ ، للجارية التى أحْضَرَت إليه ماء : « كفى يا حَمَلى ! » ، فلما وَصَل خبر هذه الكلمة إلى تلك الأميرة اضطَرَبت وأمرت بخنق تلك الجارية التَّعِسة وحَشْوِ رأسها بالأرُزِّ وطهوه ووضعه فى طَبَق وتقديمه إليه، فلما عُرِض عليه قالت له : « كُلْ قطعةً من حَمَلك إذَنْ » ، فرَمَى هنالك مِنْشَفَتَه وتوارى ، ولم يَبْدُ مَلِيًّا كارهاً لها بعد ذلك » .

نقلتُ ما تقدم ليطلع القارئ على ما يقال فى مدح مبدأ تعدد الزوجات وعلى ما قد يقال فى ذَمِّه ، وإنما أرى أن مساوئه تتجلى ، على الخصوص ، فى دوائر حريم أعيان الترك حيث تُحَاكُ الدسائس التى هى سياسيةٌ أكثرُ منها غرامية ، لا فى دوائر حريم الطبقات الوسطى ، وأرى أن مَثَل من يحاول تقدير نظام الحريم بتلك الروايات كمَثَل من يُقَدِّر مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة بالفضائح التى تَضِجُّ محاكمنا منها فى كل يوم ، أو بالقضايا التى تُرْفَع على بعض رجال الدين النصرانىِّ لعدم قيامهم بما يجب عليهم من الطُّهْر والعَفاف .

وإننى أطمع أن يعتقد القارئ ، بعد وقوفه على ما تقدم ، أن مبدأ تعدد الزوجات أمرٌ طَيِّب ، وأن حبَّ الأسرةِ وحسنَ الأدب وجميلَ الطبائع أكثرُ نُمُوًّا فى الأمم القائلة به مما فى غيرها على العموم ، وأن الإسلام حَسَّن حال المرأة كثيراً ، وأنه أولُ دينٍ رَفَع شأنها ، وأن المرأة فى الشرق أكثرُ احتراماً وثقافةً وسعادةً منها فى أوربة على العموم تقريباً .



٢٠٢ ـ كفة ميزان نحاسية مكفتة بالفضة مصنوعة فى دمشق
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

الفصل الخامس

الدين والأخلاق

١ — تأثير الدين فى المسلمين

تكلمنا فيما تقدم عن أحكام القرآن كما علّمه محمد منذ ثلاثة عشر قرناً ، ولكن القرآن دستور مكتوب ، ويوجد فرقٌ بين التعاليم المكتوبة والعمل بها فى الغالب ، وإذا ما أراد الإنسان أن يعلم أهمية هذه التعاليم وجب عليه أن يدرس درجة تأثيرها فى الحياة ، وحدودُ هذا التأثير هو الذى تهمّ معرفته إذن ، وهذا لا نستطيعه إلا بالدخول فيما لم نأته حتى الآن من التفصيل :

تأثيرُ دين محمد فى النفوس أعظم من تأثير أىّ دين آخر ، ولا تزال العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً ، أجل ، قد تجد بين المسلمين عدداً قليلاً من الزنادقة والأخلياء ، ولكنك لن ترى من يجرؤ منهم على انتهاك حرمة الإسلام فى عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة فى المساجد وصوم رمضان الذى يراعي جميعُ المسلمين أحكامه بدقّة مع ما فى هذه الأحكام من صرامةٍ لا تجد مثلها فى صوم الأربعين الذى يقوم به بعض النصارى كما شاهدتُ ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية التى زرتها فى آسية وإفريقية ، ومن ذلك أن أتيح لى أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفرادُ عصابةٍ عربية مُقرَّنين فى الأصفاد ومتّهمين بأنواع الجرائم ، فقضيتُ العجب حين رأيتهم ، وهم الذى خرقوا حومةَ جميع القوانين الاجتماعية مُستخفّين بأقسى العقوبات ، لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبىّ ، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفادَ عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهّار ويعبدوه .

وعلى من يرغب فى فهم حقيقة أمم الشرق ، التى لم يُدرك الأوربيون أمرها إلّا قليلاً ، أن يتمثل سلطانَ الدين الكبيرَ على نفوس أبنائها ، وللدين ذى التأثير الضئيل فينا نفوذٌ عظيم فيهم ، وبالدين

يُؤَثِّر في نفوسهم ، ولولا الدين ما حُرِّكَ ساكنُ المصريين منذ الثورة الحديثة التي ضَرَّجَت مصر بالدماء ، وقد تجلَّت لي صعوبة إدراك الناس لروح الأمم الأخرى من مطالعة الصحف الأوربية التي ذَكَرت أن ثورةَ عَربِ مصرَ الأخيرةَ حدثت لينالوا من الحقوق السياسية ما يجهلونه بالحقيقة جهلا تامًّا ، وذلك أن العرب إذْ تعوَّدوا الإذعانَ لأهواءِ ربٍّ ، ولم يَصْعَب عليهم الإذعانُ لوكلائه ، وأن الرجل الذي يخاطب العربَ باسم الله يُطَاع لا مَحَالَة ، ما عَلِموا أنه يتكلم باسم الله حقًّا ، فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق الذي استطاع العربُ أن يفتحوا العالم به فيما مضى ، وهم اليوم يَصْبِرون به على قَسْوَة المصير .

حقًّا إن مثل تلك المعتقدات يُورِثُ الجموعَ أوهاماً جميلةً تُعَدُّ عُنوانَ السعادة ، والجموع تُبْصِرُ من خِلالها نعيمَ الآخرة الذي لا تَرَى مثله في هذه الحياة الدنيا ، وهي تصونها من الوقوع في اليأس وما يَجُرُّ إليه اليأس من الفِتن الشديدة ، ويجب على من يستخفُّ بتلك الأوهام أن يستخفَّ بجميع الأوهام ليكون منطقيًّا فيزدري المجد والطموح والحبّ وجميعَ الخيالات الساحرة الجديرة بالاحترام التي نقضي حياتَنا وراء تحقيقها ، وهذه الأوهامُ أعظمُ عامل في سَيْرِ الإنسان حتى الآن ، والمُفَكِّرُ الذي يكتشف ما يُغْني الناسَ عنها لم يُولَدْ بعد .

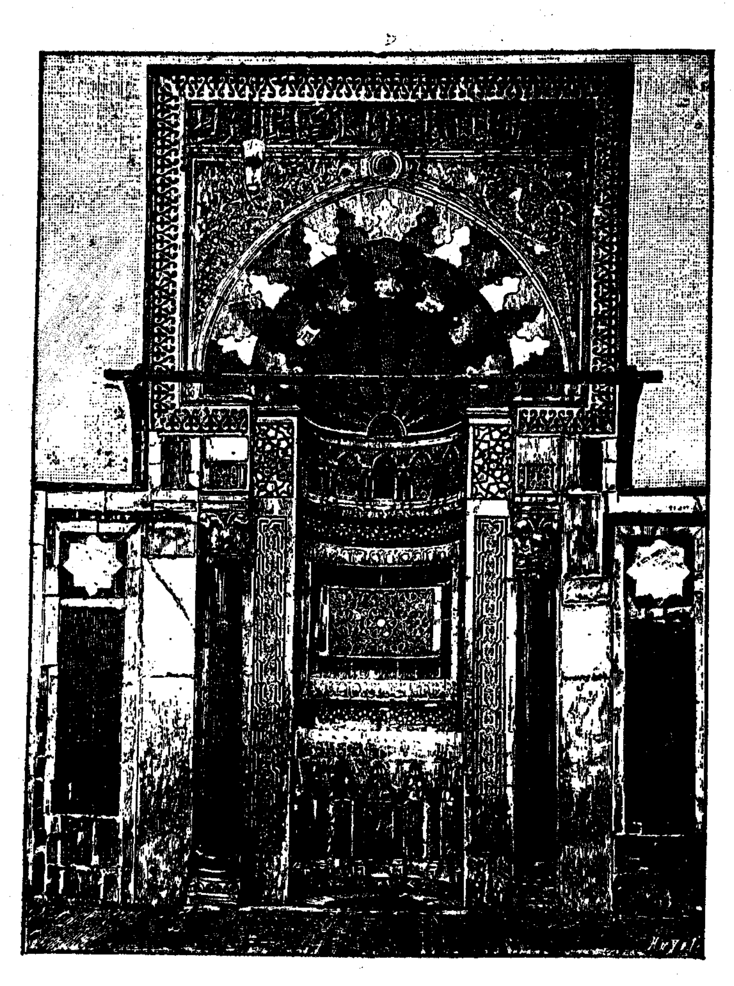
٢ — الطقوس الدينية في الاسلام

الفِرَق الإسلامية . — أرى أن أقول بضع كلماتٍ عن الفِرَق الإسلامية قبل وصف طُقُوس العرب الدينية الأساسية :

يشتمل الإسلامُ على عِدَّةِ فِرَقٍ كَكلِّ دين ، وبلغ عدد الفِرَق الإسلامية ، منذ أوائل التاريخ الهجريّ ، اثنتين وسبعين فرقةً ، وأكثرُ من هذا عددُ الفِرَق البروتستانية وحدَها .

وفرقةُ أهل السُّنَّة وفرقةُ الشيعة أقدمُ الفِرَق الإسلامية وأهمُّها ، فأما الشيعة فيزعُمون أن الخلافة لصهر النبيِّ عليّ ويحترمون عليًّا كاحترامهم لمحمد تقريباً ، وأما أهل السُّنَّة فيَرَوْن خِلافةَ الخلفاء صحيحةً وَفْقَ ترتيبهم ، ويُمَثِّلُ أهل السُّنّة الفريقَ الصحيح .

وإذا ما استثنينا تينك الفرقتين رأينا فِرَقاً ثانوية فى الإسلام ، وأهمُّها الوهابية التى ظَهَرَت منذ قرنٍ فأقامت دولةً قوية فى وَسَط جزيرة العرب ، وتَزْعُم الوهابية أنها تُعيدُ إلى الإسلام صفاءه القديم والوهابيون پروتستانُ الإسلام فى الحقيقة .



٢٠٣ ـ محراب فى الجامع الأزهر بالقاهرة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

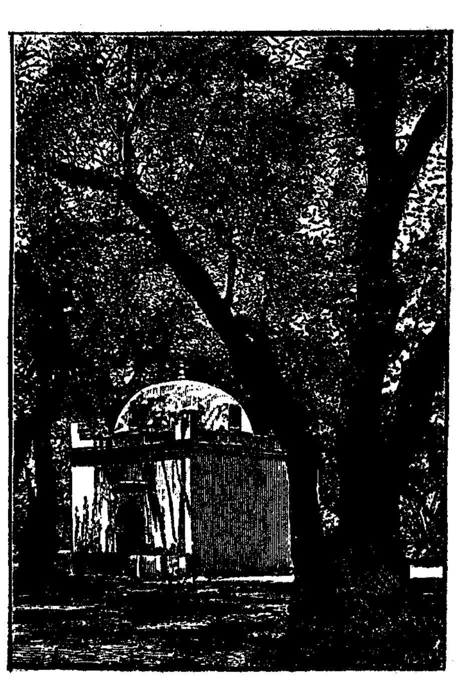
والفُرْس من الشيعة ، والعربُ والترك من أهل السُّنّة ، وأهلُ نَجْد من الوهابيين .

وينظر بعضُ تلك الفِرَق إلى بعض بعين التسامح ، وتَصْلُح الفرقُ فى سورية على الخصوص ، أن تكون قُدْوَةً لمختلف الفِرَق النصرانية ، وأنت لا تَجِدُ فى العالم الاسلامىِّ محاكم مثلَ محاكمِ التفتيش أُلِّفَتْ لحمل أنصارِ فِرْقةٍ على انتحال مبادئ فِرْقةٍ أخرى بالحديد والنار ، وأنت تجد أساتذة منتسبين

إلى مختلف المذاهب يعيش بعضُهم بجانب بعض متفاهمين فى الجامع الأزهر الذى هو أهمُّ مَوْئلٍ للتعليم الدينىّ فى الشرق .

ولْنَذْكر الآن طقوسَ العرب الدينية المهمة :

الصلاة . — الصلاةُ من أهمِّ العبادات التى نَصَّت عليها شريعةُ محمد ، المسلمُ لا يَفِرُّ من أدائها مهما كانت أمَّته وطبقته .



٢٠٤ ـ ضريح ولى عربى فى غابة البليدة المقدسة (الجزائر) (من صورة فوتوغرافية)

ويَجِب أن تُؤَدَّى الصلاةُ خمس مراتٍ فى أوقاتٍ مُعَيَّنة من كلِّ يومٍ كما أمر النبىُّ ، ويَدْعُو المؤذِّنون من المآذن ، فى بلاد الاسلام الواسعة ، مَعْشَرَ المسلمين إلى الصلاة بأصواتهم الجهيرة وقتَ الفجر ووقت الظهر ووقت العصر ووقت المغرب ووقت العشاء ، وصيغةُ الأذان هى :

« الله أكبر ، أشهدُ أنْ لا إلٰه إلا الله ، أشهد أن محمداً رسولُ الله ، حَىَّ على الصلاة » .

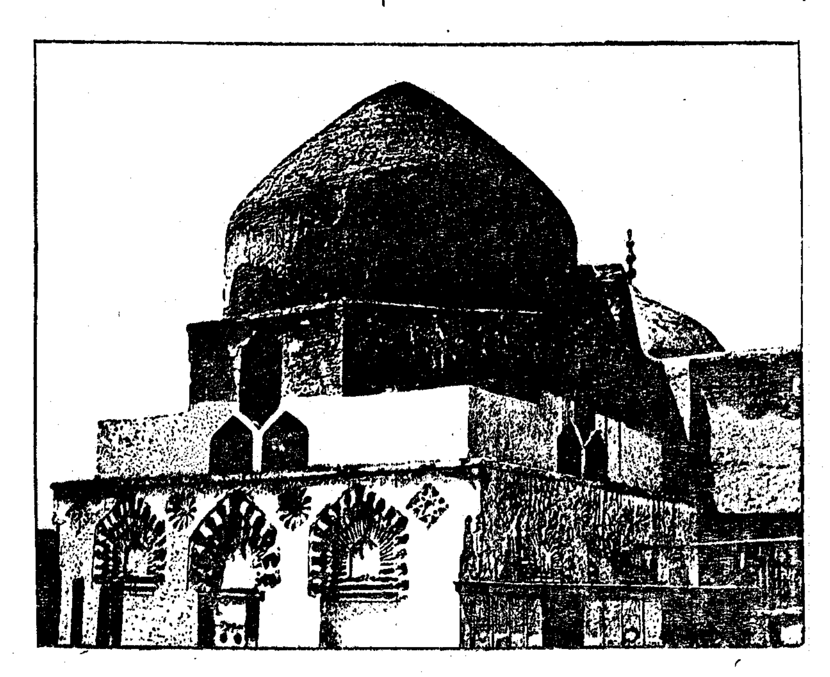
وإذا ما تَمَّ الأذان قام المسلمون إلى الصلاة رافعين أيديَهم إلى آذانهم ، ثم وضعوها تحت سُرَّاتهم تالين ما تَيَسَّر من القرآن ، ثم ركعوا وسجدوا غيرَ مرّة .

ويُؤَدِّى المسلمون صلاةَ الجمعة وقتَ الظهر فى المساجد بعد أن يستمعوا إلى خُطْبَة الإمام ، ويدوم ذلك ثلاثةَ أرباع الساعة .

وعلى المسلم أن يتَوَضَّأ قبل الصلاة ، وتَجِد فى كلِّ مسجد حَوْضاً للوضوء .

الصوم . — الصوم من أهمِّ عبادات الاسلام أيضاً ، ويصوم المسلمون على اختلاف طبقاتهم ، ويَرَاعِى المسلمون فى صيامهم شروطَ الصوم الشديدة بدقةٍ يَصْعُب على الأوربىِّ أن يتصورها ، ويقوم الصوم فى شهر رمضان الذى يَحِلُّ فى فصولٍ مختلفةٍ مع السنين ، على الامتناع عن الأكل والشرب والتدخين من الفجر إلى غروب الشمس .

ويتضمن امتناعُ المسلم عن الشرب والتدخين فى النهار قهراً لنفسه ، فإذا ما اقترب وقت الغروب رأيتَ المسلم حاملًا سيغارته أو ممسكاً أُنبُوب نارجيلته منتظراً ، فارغَ الصبر ، إيذانَ المؤذن بحلول وقت الإفطار ، وإذا ما غَرَبَت الشمس استدرك المسلم ما فاته ، وتناول طعاماً وافراً .



٢٠٥ ــ القسم الأعلى لمزار العباسيين الذى اكتشف حديثاً فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية)

وفى ليالى شهر رمضان تُنَارُ القهَوَات ، وتُمَثَّلُ الروايات ، وتشاهد الألعــاب بعد الإفطار ، وتُضَاء المساجد .

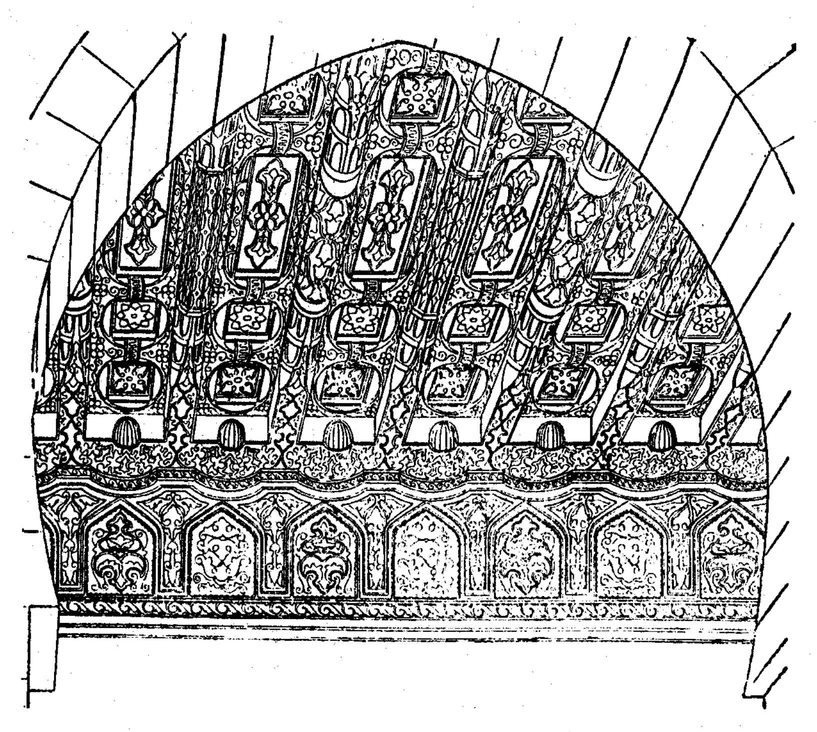
الأعياد الدينية . — أعياد المسلمين الدينية ، خلا رمضان كثيرةٌ ، وأذكر منها يومَ مولد النبيِّ ، وليلةَ نصف شعبان المرهوبةَ التى تُوزَن فيها مصايرُ النــاس وتُنَظَّم ، وعيــد الأضحى الذى يدوم أربعة أيام من آخر أشهر السنة ويَرْمُزُ إلى ضَحِيَّةِ إبرٰهيم .

وتَذْبَحُ كلُّ أسرةٍ خروفاً أو حيواناً آخرَ فى عيد الأضحى ، ويَلْبَس المسلمون أفخر الملابس ، ويَمْشُون فى الأسواق ، وتُضَاء المساجد بالمصابيح ذاتِ الألوان ، وأَعُدُّ الليــلةَ التى نظرتُ فيها إلى ميناء رودسَ المُنارِ ليلةَ عيد الأضحى من أروع ما رأيت فى حياتى .

وبَلَغَ تأثيرُ الإسلام فى أدقِّ شؤون العرب مبلغاً تكون معه جميع مراسمهم أعمالاً دينية ، ومن

تلك المراسم أنكحتُهم وخِتاناتهم التى وَصَفْناها فى فصل سابق ، والتى ليست ، فى الحقيقة ، سوى أعمالٍ دينية ومدنية معاً .

الحجُّ . — يُعَدُّ حجُّ المسلم لمكةَ مرةً فى العُمُر من أهمِّ ما أَمَر به محمد من الأمور الدينية والسياسية



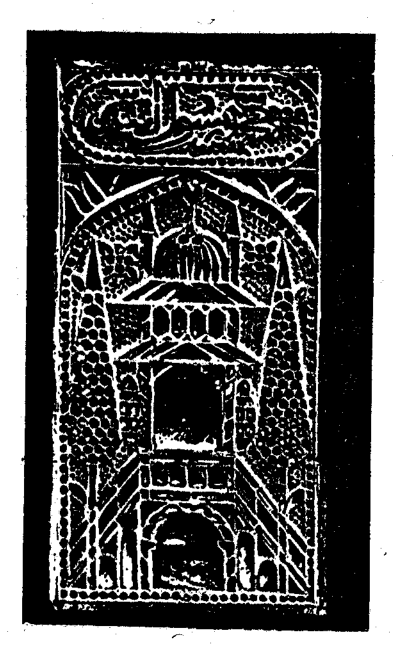
٢٠٦ ــ سقف جامع المؤيد فى القاهرة (من تصوير كوست)

ويَتِمُّ الحجُّ بواسطة القوافل العظيمة التى يُعَدُّ أهمُّها ما يخرج من القاهرة والشام ، وتكون الرحلةُ طويلةً ، ويَهْلِك فيها حُجَّاجٌ كثير ، وتَهُون المشقة فى سبيل زيارة الكعبة المُشرَّفَة الشهيرة أيام محمد والتى يَرْجِع أصلُها إلى أقدم قرون التاريخ .

وإذا ما اقترب الحُجّاج من مكةَ حَلَقُوا وخلعوا ثيابهم وقاموا بضروب الوضوء ولَبِسوا الأُزُر ، ثم طافوا حول الكعبة سبعَ مراتٍ واستلموا الحجرَ الأسود الشهير الذى تكلمنا عنه فى فصل آخر ، ثم توجهوا إلى جبلِ عرفاتٍ القريبِ من مكةَ وسمِعوا فيه خُطبةَ الإمام ، ثم أفاضوا إلى حيث يَرْمُون الشيطانَ بحَصَيات فى الوادى الذى طَرَده منه إبراهيم ، ثم نَحَروا الذبائح ، ثم زار أكثرهم حميةَ المدينةَ التى تَضُمُّ قبر الرسول .

وفى الغالب يَبْلُغ عدد الذين يزورون مكة كلَّ سنة مئتى ألفِ حاجٍ ، وفى موسم الحجِّ يتقابل المسلمون الذين يجيئون من أنحاء العالم الإسلاميّ الممتد من مَرّاكُش إلى الهند وحدود الصين مارًّا بإفريقية الوسطى .

والحقُّ أن المؤمنين إخوةٌ كما أمر القرآن ، وأن الحجَّ فُرِض لتوثيق عُرَا الإخاء الإسلاميّ كما ذهب إليه متكلمو العرب ، فإذا ما عَقَد الحُجّاج اجتماعاتِهم التى لايستطيع نصرانىٌّ أن يَلِج فيها من غير أن يُقْتَل استقصى بعضُهم احتياجاتِ بعضٍ وتفاهموا فى شؤون الإسلام ، ثم نشروا ذلك فى جميع نواحى الإسلام ، ولانرى أن نُسْهِب فى بيان ما قد يَنْشَأ من النتائج السياسية المهمة عن اجتماع الحجيج الذين يأتون مكةَ فى موسم الحجِّ من الأقاصى فتوَحِّد بينهم المصالحُ الدينية المشتركة .



٢٠٧ ــ نافذة فى مسجد عربى بالقاهرة
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ولمكةَ أهميةٌ تجارية كبيرة إلى الغاية عدا أهميتها الدينية والسياسية ، فمكةُ من أعظم أسواق العالم ، وفيها يُتقايض بالسلع التى ترِدُها من أنحاء الدنيا .

أذكار الدَّراويش. — عَرَفَ الإسلامُ الزهدَ والذِّكْرَ كما عرَفتهما الأديانُ الأخرى ، وأدَّى الزهدُ والذكرُ إلى تأليف الطُّرُق الدينية التى تَهْدِف إلى النجاة الأبدية ، وتظهر الطُّرُق الدينية فى الأديان التى تميل إلى التشاؤم عادةً ، وليس القرآن أقلَّ تشاؤماً من الإنجيل ، فالقرآن ، كالإنجيل ، يَعُدُّ الحياةَ الدنيا طريقَ ابتلاء وامتحان للوصول إلى الآخرة ، وأوجب هذا مَيْلَ ذوى الوَرَع والقَلَق إلى التَّحَرُّر من مفاسد الدنيا ودخولِ ملكوت السماوات بالزُّهْد .

وأذْكُر ، من بين الطُّرُق الدينية التى تَسْتوقف النظر ، طريقة الدراويش الدَّوّارين (المَوْلَوِيَّة)

وطريقةَ الدراويش الصَّخّابين ، ونُعِتَ هؤلاء بهذا الاسم لِمَا يأتون من الأعمال والحركات التي يَصِلون بها إلى درجة الوَجْد والانجذاب كما كان يصنع رهبانُ أديارنا كثيراً .

وفى الآستانة شاهدتُ الدراويشَ الدَّوّارين فى أثناء أذْكارهم فرأيتُ حالهم ، بعد أن يَدُوروا كثيراً على أنفسهم ، قريبةً من حال السائرين فى النوم ، ويقوم الدراويشُ الدَّوّارون ، قبل دوَرانهم على أنغام النّاى والطبل والرَّباب ، ببعض التَّراتيل التى تشابه تراتيلَ كنائسنا ، وإن كانت أعذبَ وأشجى مع عدم طنينها .

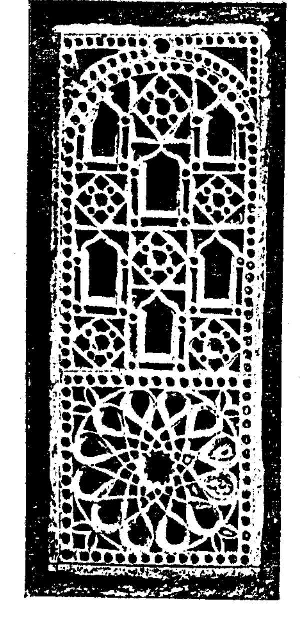
٢٠٨ ـ نافذتا مسجد فى القاهرة
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وجرَّبْتُ تأثيرَ تلك المُوسِيقا فى المؤمنين بنفسى ، وسَبَحْتُ فى بحر من الرُّؤَى حين سَمِعْتها ، قال تِيُوفيل غُوتيه موضحاً هذا التأثيرَ فى الأسطر الآتية :

« كان ذلك اللحنُ العجيب يُثير فى قلبى ما لا يُعْرَف من الحنين إلى الأوطان ، وكان يُثير فيه مالا يُوصَف من الولَه والجَذَل ، وكان يُثير فيه ميلاً إلى الانسياق مع التَّيّار ، وما أكثر ما كان يَهيج فى نفسى من الذِّكْرَيات والمناظر الخيالية الجميلة الساحرة ! وما أكثر ما كنت أَتَمَثَّل به مانَسِيتُ من الصور والرسوم والمشاهد والأمانىّ اللطيفة فأتَرَنَّح مُسَلِّماً أمرى إلى سحره ! وهو المُؤَثِّر الذى يناقض ما تعودناه » .

وإذا ما دام تأثير تلك الأنغام بعضَ الزمن خَلَع أولئك الدراويش أَرْدِيتهم ، ولم يبق عليهم سوى قُمُصِهم ، باسطين أَذْرُعَهم كالصليب ، راقصين حول أنفسهم بانتظام ، متدرِّجين ببطء مائلى الرؤوس ، فاتحى

الأفواه مُغْمِضى العيون فاقدى المشاعر ، وما كان وَضْعُ ذُرْعَانهم المُتْعِبُ ، الذى لا يحتمله الإنسان فى الأحوال العادية إلّا لبضع دقائقَ . ليُزْعِجهم فى ربع ساعة ، وما كنتُ لأجدَ فى حركاتهم غيرَ العذوبة والانتظام الرائع ، فيُخَيَّل إلىَّ أننى تِهْتُ فيما لا حدَّ له من الأخيلة التى يَعْجِز عن وصف سحرها القلم، قال ذلك الـكاتب :



٢٠٩ ـ نافذة مسجد عربى
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

« ما يرَوْن فى تلك الرُّؤَى التى ترُنِّحهم ؟ أيرَوْن فيها جَنَّة محمد التى تشتمل على غاباتٍ من الياقوت وجبالٍ من العنبر وقصورٍ من الألماس وخيامٍ من اللؤلؤ ؟ لا ريب فى أنهم ، فى تلك الرُّؤَى ، يُقَبِّلون ، بمباسمهم العَطِرَة ، الحورَ العين البيض والخُضْر والحُمْر ، ويشاهدون نورَ الله الساطع الذى يُغْشى الأبصار فتبدو الشمسُ بجانبه مظلمةً ، ويشاهدون الأرضَ ، التى يُمْسِكونها بطرف أباهمهم ، تُطْوَى كورقةِ دَفْترٍ مُلْقاةٍ فى كانون ، ويتمايلون بهُيَامٍ فى صُورَتَى الله ، أى فى الخلود ، وفيما لا حدَّ له » .

ومتى خَرَج الدَّراويش الدَّوَّارون من وَلَهِهم وَقَفوا وركعوا وخَرَجوا من القاعة .

ولم أشاهد أذكارَ الدراويش الصَّخَّابين ، ولـكنى أرى ، مما وُصِفوا به ، أنهم يدخلون فى حالٍ من التنويم كالحال التى يكون عليها الدراويش الدَّوَّارون بفعل الرقص والمُوسِيقا ، وذلك أنهم يَصِلون إلى درجةٍ من عدم الإحساس ما يَقْدِرون أن يَثْقُبوا به أعضاءهم بآلات مُذَرَّبة [١] من غير أن يَشْعُروا بشىء كما يفعل العيساوية .

المبانى الدينية : المساجد والزوايا والمدارس ، إلخ . ـــ المسجدُ مركزُ الحياة الحقيقىُّ عند العرب ، فالعرب يَتَّخذون المسجد محلاً للاجتماع والعبادة والتعليم ، والسَّـكَنِ عند الاقتضاء ، لا لعبادة الله فقط كبِيَـعِ النصارى .

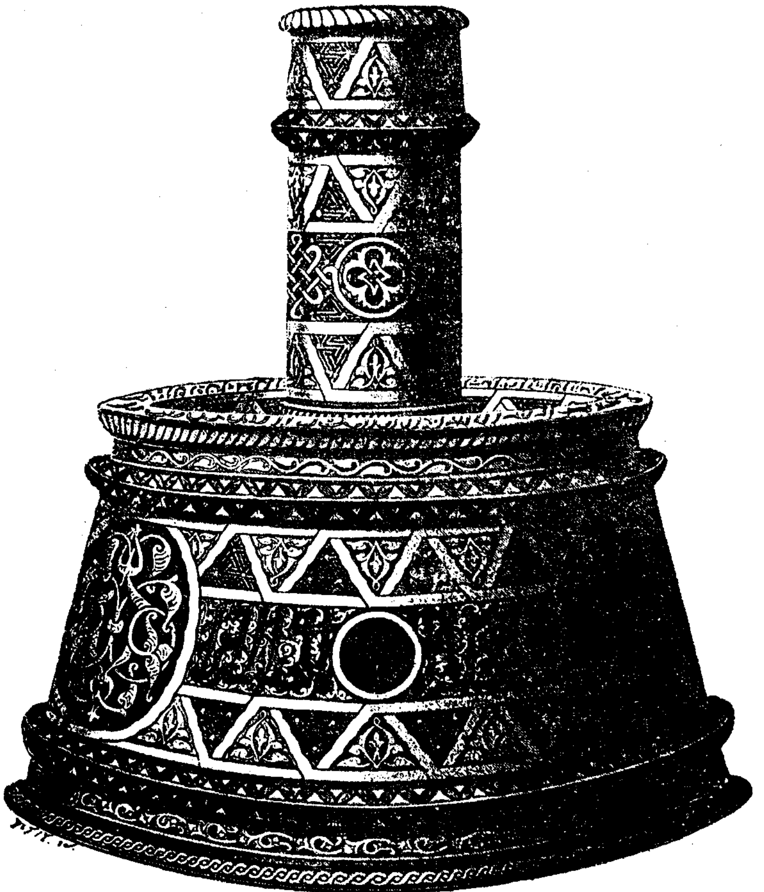
(١) مذربة : حادة قاطعة .

وقد أوضحنا فى فصلٍ سابق رسمَ المساجد العامّ ، فذكرنا أن المساجد القديمةَ بُنِيَت على نَمَطٍ واحد ، أى أنها مؤلفة من ساحات قائمة الزوايا محاطةٍ بأَرْوِقَة ، وأن الصلاة تقام فى أوسع تلك الأروقة وتجِد فى وَسَط كلِّ ساحةٍ حوضاً للوضوء ، وتجِد فى مكان الصلاة محراباً فى الحائط مُتَّجِهاً نحو مكةَ ومِنْبَراً للوعظ وقِمَطْراً يُفْتَح عليه المصحف عند القيام بالأعمال الدينية ، ومصابيحَ كثيرةً مُعَلَّقَةً بالسقف ، وتجِد الُحصرَ والبُسُط كلَّ ما فيه من أثاث .

وتوجد بجانب مكان الصلاة ، فى الغالب ، حجرةٌ تَضُمُّ ضريحَ مؤسس المسجد .

وتقوم على أركان المساجد مآذنُ ليُدْعَى المؤمنون من فوقها إلى الصلاة .

ومن توابع المساجد ، على العموم ، حَمَّاماتٌ وفنادقُ وأصابلُ ومشافٍ ومدارسُ ، وهكذا يتجلى اختلاط الحياة المدنية بالحيـــاة الدينية عند المسلمين فى مساجدهم .

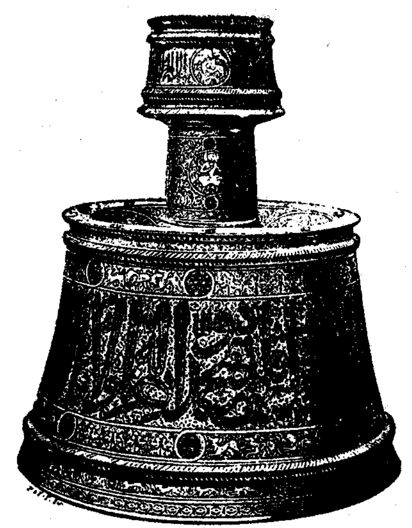


٢١٠ ــ شمعدان للسلطان قلاوون (من تصوير بريس الأفيني)

تظلُّ المساجد مُفَتَّحَةَ الأبواب من الفجر إلى العِشاء ، أى إلى نحو الساعة الثانية بعد الغروب .

وكلٌّ مسجد مستقلٌّ عن الآخر ، ويُنْفَق على المسجد من رَيْع ماوَقَفَه عليه مؤسسوه مع مايضاف إليه من الُحبُس ، ويدير شؤونه قَيِّمٌ يساعده جماعةٌ من الأئمة والُحجّاب والمؤذنين والسَّقّائين والخَدَم ، إلخ . ،

ممن تجدهم حتى فى أصغر المساجد ، ويمارس أئمةُ المساجد ، فى الغالب ، مِهَناً أخرى بالإضافة إلى أَمِّهم المصلين فى الأوقات المُعَيَّنة .



٢١١ ـ شمعدان للسلطان قلاوون
(من تصوير بريس الأفينى)

وكما أن مساجد المسلمين مراكزُ للاجتماع وملاجىء للغرباء ومراجعُ للمَرْضَى هى ، كذلك ، موائلُ للتعليم ، وفى أصغر المساجد يُعلَّم الأولاد ، وتُعدُّ المساجدُ الكبيرة من الجامعات التى لا تَقِلُّ ، أحياناً ، عن جامعات أوربة أهميةً ، ونذكر منها الجامعَ الأزهر الشهيرَ القائم فى القاهرة والذى يَضُمُّ ثلاثمئة أستاذٍ وأكثرَ من عشرة آلاف طالب يَقصِدونه من جميع نواحى العالم الإسلامىّ .

حَقّاً إن الجامع الأزهر مركزٌ دينىٌّ وأدبىٌّ مهمٌّ إلى الغاية ، وأنه يتخرَّج على أساتذته خَلْقٌ كثير من الوُعَّاظ والعلماء والقُضاة والأعيان والنافذين ، إلخ . ومن دواعى الأسف أن يَظَلَّ التعليم فى الجامع الأزهر على الحال التى كان عليها عند بدء انحطاط العرب ، وأن يسير على برنامج مماثل لبرنامج جامعاتنا فى أواخر القرون الوسطى،ويُدَرَّسُ فى الجامع الأزهر علمُ الحساب والهندسة والفَلَك والنحو والأدب والبيان والمنطق ، وذلك عدا تلاوة القرآن وتفسيره .

وليس التدريس فى المساجد مشابهاً لِما فى جامعاتنا السابقة من حيث البرامجُ وحدَها ، بل نرى شَبَهاً بينهما فى المناهج وفى حياة الطلاب أيضاً،فلما قُيِّض لى أن أجوب الجامع الأزهر فى أثناء دروس أساتذته رأيتُنى قد انتقلت ، بعصا سحرٍ ، إلى إحدى جامعاتنا القديمة فى القرن الثالثَ عشرَ ، فتَمَثَّل لى ما كان فيها ، كما فى الجامع الأزهر،من التشويش فى دروس علم الكلام ودروس الأدب ، وتَمَثَّل لى ما كان فيها مثلَ مافى الجامع الأزهر من المناهج ونُظُم جمعيات الطلاب وتَمَتُّعِهم بالحرية والإعفاء .

ويَجْلِس كلُّ أستاذ على حَصِيرٍ فى أكبر رُوَاقٍ من الجامع الأزهر،وهو المُصَلَّى ، وتحيط به حَلْقةٌ من التلاميذ اللابسين الجبابَ السُّودَ والعمائمَ البيضَ والحاملين أقلاماً قصبيةً ليكتبوا بها ما يُملَى عليهم والمُدْخِلين محابرَ إلى زنانيرهم ، ويُنْفِق الجامعُ الأزهر على الفقراء من تلاميذه ويُسْكِنهم حُجُراتِه .

وقد رأيت جميع أولئك الشبان جادِّين فى أعمالهم مجتهدين فى دروسهم ، ومنهم من أَتَى لنَيْل

العلم من الهند ومن مَرَّاكُش ، فالعلمُ الذى استهانت به الأديان الأخرى يُجِله المسلمون حقًّا ، وإلى المسلمين يُعْزَى القولُ الصائبُ : « من البشر مَنْ يَتعَلمون فيَعْلَمون ، ويُعَدُّ مَنْ سِوَاهم من الحشَرَات أو ممن لا يَصْلُحون لشىء ولا يَنْفَعون * » .

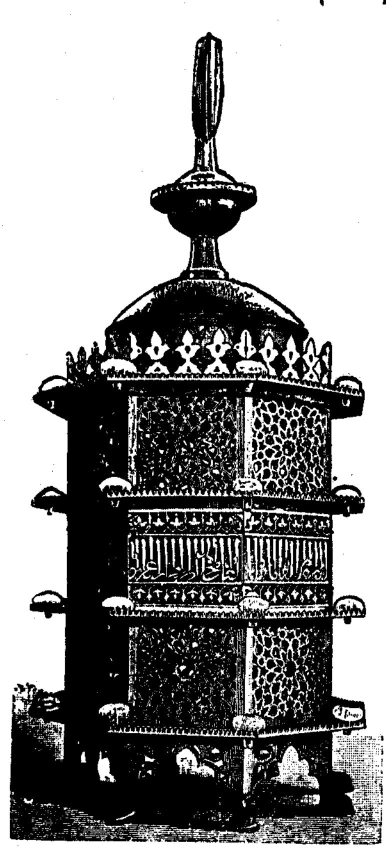
ولدى المسلمين أماكنُ دينية أخرى أقلُّ أهمية من المساجد ، كزارات الأولياء التى هى أبنيةٌ صغيرة مُكَعَّبة تَعلُو كلَّ واحدة منها قُبَّة ، والتى لا يخلو منها بلدٌ إسلامىٌّ تقريباً ، ويقع مزار الولىِّ الذى نشرنا صورته فى هذا الكتاب فى الغابة المقدسة الرائعة الواقعة بالقرب من البليدة .

وأذكر ، بجانب تلك المبانى الدينية ، الزوايا التى يُقيم بها أصحاب الطُّرُق من الدراويش والتى أرى عددها قليلاً إذا ماقِيسَت بعدد الأديار الواسعة الانتشار لدى الأمم النصرانية فى أوربة ، ولا تختلف الزوايا عن مبانى المسلمين الأخرى إلَّا قليلاً ، ولا ترَى فيها منظرَ أديارنا الأدجن .

٣ — الأخلاقُ فى الإسلام

أصولُ الأخلاق فى القرآن طيبةٌ ، فالقرآنُ يأمر بالصدقة والإحسان والقِرَى والاقتصاد فى الرغائب والوفاء بالعهد وحبِّ الأقربين واحترام الوالدين وحماية الأيامى واليتامى وبما نَجِده مُكَرَّراً فيه من درء السيئةِ بالحسنة ، وتُطَابِقُ أصولُ الأخلاق فى القرآن ماورد فى الإنجيل تقريباً .

بَيْدَ أنه لا أهميةَ كبيرةً لدِراسة مافى أحد الكتب من أصول الأخلاق ماكانت مبادئ الأخلاق فى كلِّ دين طيبةً ، وليست مكارم الأخلاق التى تُؤمر بها الأمم ، إذَنْ ، هى التى تجب معرفتها عندالبحث فى شؤونها، بل يُنْظَر إلى ماعَمِلَت به منها ، ولا عجبَ،فقد دلَّت المشاهدة على أن مطابقةالأعمال للأقوال ضعيفةٌ جداً على العموم



٢١٢ — مسرجة مسجد قديمة مصنوعة من البرونز
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف فى القاهرة)

وقد حاولنا ، فى الفصل الذى خَصَّصْناه فى كتابنا الأخير للبحث فى نشوء الأخلاق ،أن نُثْبِتَ أن شأن الدين فى تكوين الأخلاق أمرٌ ثانوىٌّ على العموم ، وأن الأخلاقَ وليدةُ المنفعة والبِيئة والرأى وقواعد الحقوق والانتخاب الطبيعىِّ والتربية والذكاء وما إلى ذلك،وقد ذكرنا فيه أن أقدم الدِّيانات لم تَنُصَّ على أصول الأخلاق ، وأن النَّصَّ على مبادئ الأخلاق لم يكن فى غير أديان الهندوس وأديان موسى وعيسى ومحمد ،وأن هذه الأديان لم تَصْنَع أكثر من تأييدها لِما كان معروفاً ، وأن هذا التأييد قام على الأمل فى الثواب والخوف من العِقاب فى اليوم الآخر ، وأن خوف العقاب لم يكن مهيمناً على أكثر الناس ماجَعَلَت تلك الأديانُ غفران الذنوب أمراً سهلا .



٢١٣ ــ مصباح عربى قديم كان فى مسجد الحمراء (يبلغ ارتفاعه مترين و ١٥ سنتيمتراً) (متحف العاديات الإسبانى)

ومن يَطُفْ قليلاً فى العالم ويَدْرُسْ أحوال الناس فى غير الكتب يرَ الدين أمراً مستقلاً عن الأخلاق استقلالاً تامًّا ، ولو كان بين الدين والأخلاق سببٌ لكان أكثرُ الأمم تديناً أكثرَها أخلاقاً مع أن العكس هو الواقع ، وعندى أن إسپانية وروسية أكثرُ بلاد أوربة عملاً بالشعائر الدينية ، وعندى أن مستوى الأخلاق فيهما دونَه فى البلاد الأخرى كما ذهب إليه مَنْ دَرَس أمرها بعناية .

وليس فى ديانة الأمة ، إذَنْ ، ما يَجب أن يُبْحَث عن عِلَل أخلاقها ما كان لجميع الأديان ، كما قلتُ ، أصولٌ أخلاقية طيبة لو عُمِل بها لدخل العالم فى دورٍ ذهبىّ ، وما اختلفت طريقة العمل بتلك المبادئ باختلاف البيئات والأزمنة والعروق والأحوال، وماتباينت الأممُ ذات الدِّيانة الواحدة فى مقاييسها الأخلاقية .

ويُطَبَّق ما تقدم على جميع الأديان ، ومنها الإسلام فمبادئ الأخلاق التي نَصّ عليها القرآن ، وإن كانت كاملةً ، اختلف تأثيرُها باختلاف الشعوب والبيئات والأجيال .

وكانت أخلاق العرب في أدوار الإسلام الأولى أرق كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبةً ، ولا سيما الأممُ النصرانية ، وكان عدلهم واعتدالهم ورأفتهم وتسامحهم نحو الأمم المغلوبة ووفاؤهم بعهودهم ونُبْلُ طبائعهم مما يستوقف النظر ويناقض سلوك الأمم الأخرى ، ولا سيما الأممُ الأوربية أيام الحروب الصليبية .



٢١٤ — دراويش دوارون (مولوية) (من رسم لإعدادي)

ولو صَحّ أن يكون للأديان ما يُعْزَى إليها من التأثير لوجب أن نقول إن القرآنَ أفضلُ من الإنجيل ما بَدَت أممُ الإسلام أسمى أخلاقاً من أمم النصرانية فيما مضى ، ولكن ما قلناه من استقلال

الأديان على الأخلاق يدلُّ على انتفاء صحة هـذا الاستنتاج ، فأخلاقُ المسلمين ، كأخلاق النصارى ، اختلفت باختلاف العوامل المذكورة صعوداً وهبوطاً .

ونشأ عن سيادة الترك الطويلة ونظامهم السياسيِّ انحطاطٌ فى أخلاق الشرقيين الذين خضعوا لحكمها ، وإذا كانت مكارم الأخلاق تَتَبَخَّر ويَعُمُّ الفساد فى بلادٍ كتركية ، حيث يكون دينُ ولىِّ الأمر وعُمَّاله أهواءهم ، وحيث يكون كلُّ إنسان عُرْضَةً لمظالم هؤلاء الطامعين فى انتهاب مافى أيدى الناس ليغتنوا ، وحيث يَقْنَط الناس من العدل فلا ينالون شيئاً إلا بالرشوة، فإنك ترى أخلاقَ الشرقيين الخاضعين لسلطان الترك قد انحطت بحكم الضرورة ، ولـكن القرآن برىءٌ من هـذا الانحطاط براءةَ الإنجيل من انحطاط النصارى الخاضعين لمثل ذلك السلطان .

وما تَقَدَّم يُثْبِت ، بدرجة الـكفاية ، فسادَ الرأى الأوربىِّ القائل إن دين محمد هو سببُ مايُشَاهَد فى بعض أمم الشرق من الانحطاط ، ورأىٌ فاسدٌ مثلُ هـذا مصدرُه ماقيل من إبداعـه لمبدأ تعدد الزوجات ، وما زُعِم من أن جَبَرِيته تَحْمِل الإنسان على الـكسل ، وما أذيع من أن محمداً لا يطالب أتباعه بغير الشعائر السهلة ، فالقارئُ الذى سار معنا إلى هنا يَرَى درجة بُعْد هذه المزاعم من الصحة ، وقد رأينا أن مبدأ تعدد الزوجات كان شائعاً فى الشرق قبل ظهور محمد بقرون كثيرة، وأن جبرية القرآن ليست أشدَّ مما جاء فى كتب الأديان الأخرى ، وأن العرب ، إذا كانوا جبريين بسَجِيَّتهم ، ولم تُؤَدِّ جَبَرِيَّتُهم إلى الخمول ماشادوا دولةً عظيمة ، وأن أصول الأخلاق فى القرآن ساميةٌ سُمُوَّ ماجاء فى أىِّ كتاب دينىٍّ آخر ، وهذا إلى أن القرآن لو كان عاملاً فى انحطاط مسلمى الشرق لوَجَب أن يَتَفَلَّت من ذلك الانحطاط الشرقيون الذين لايقولون بمبدأ تعدد الزوجات ولا يَبْدُون جَبَريين كنصارى سورية، ونصارى سورية ، كما أجمع كلُّ من بَحَث فى أمور الشرق ، أحطُّ أخلاقاً من المسلمين بدرجات .

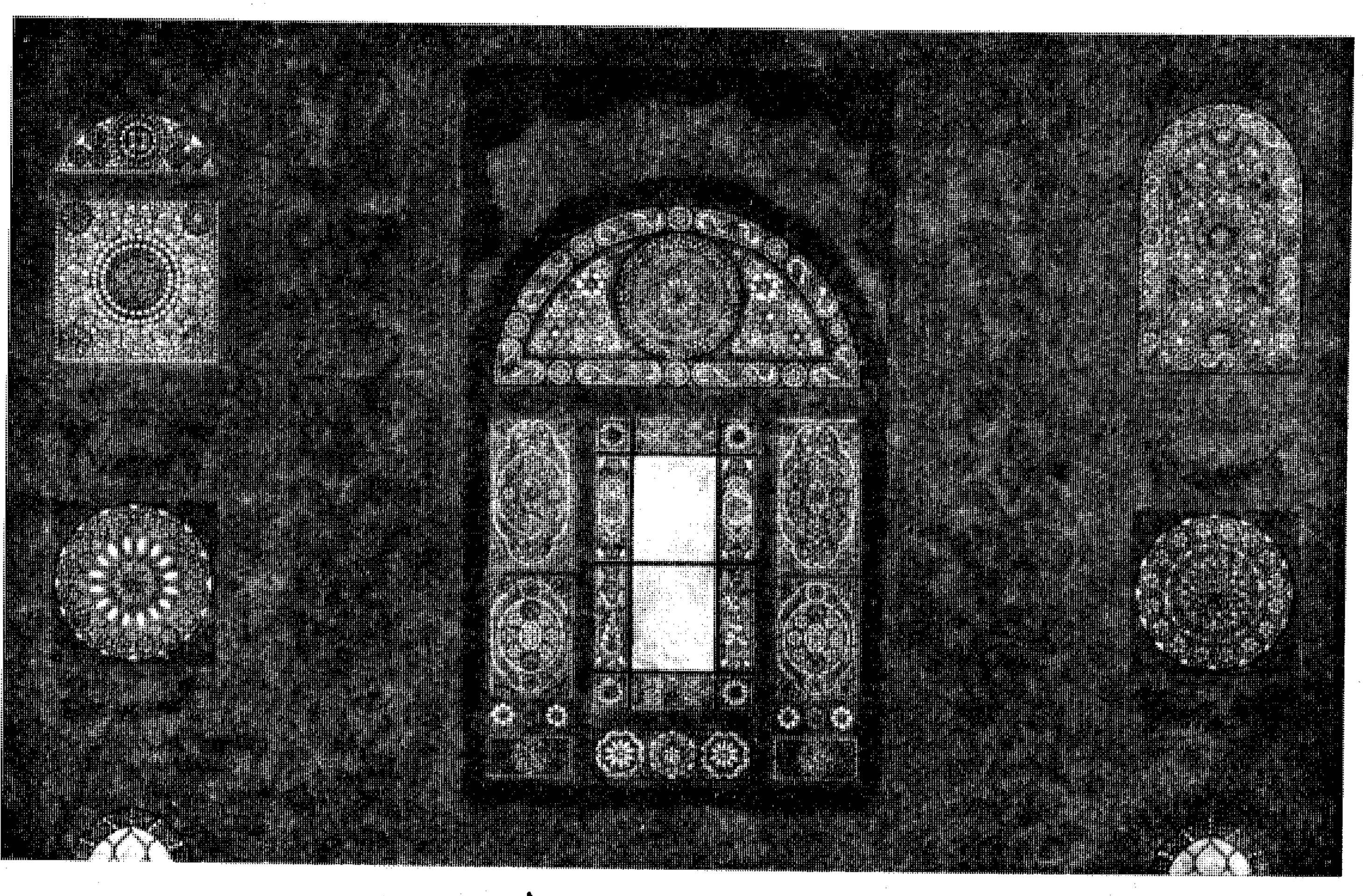
وكان يمكننا أن نَخْتِم هذا الفصل بقولنا إن أصول الأخلاق فى القرآن عاليةٌ علوَّ ماجاء فى كتب الديانات الأخرى جميعها ، وإن أخلاق الأمم التى دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق مثلَ تَحَوُّل الأمم الخاضعة لدين عيسى ، وإن التحول نشأ عن عواملَ لم يـكن للمبادئ الدينية أثرٌ كبير فيها ، غير أن أهمَّ نتيجةٍ يمـكن استباطُها من جميع ماتقدم هى تأثير القرآن العظيم فى الأمم التى أذعنت

لأحكامه ، فالدِّيانات التى لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جداً ، وقد لاتَجِد ديناً اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم ، والقرآن هو قُطْب الحياة فى الشرق ، والقرآنُ هو مانرى أثرَه فى أدقِّ شؤون الحياة .

أجَلْ ، دَخَلَت دولة العرب فى ذِمَّة التاريخ، بيد أن الدين الذى كان سبباً فى قيامها لايزال ينتشر، ويسيطر ظلُّ النبيِّ من قبره على ملايين مؤمنين الذين يسكنون أقطارَ إفريقيةَ وآسية الواسعةَ الواقعةَ بين مَرّاكُش والصين والبحر المتوسط وخطِّ الاستواء .

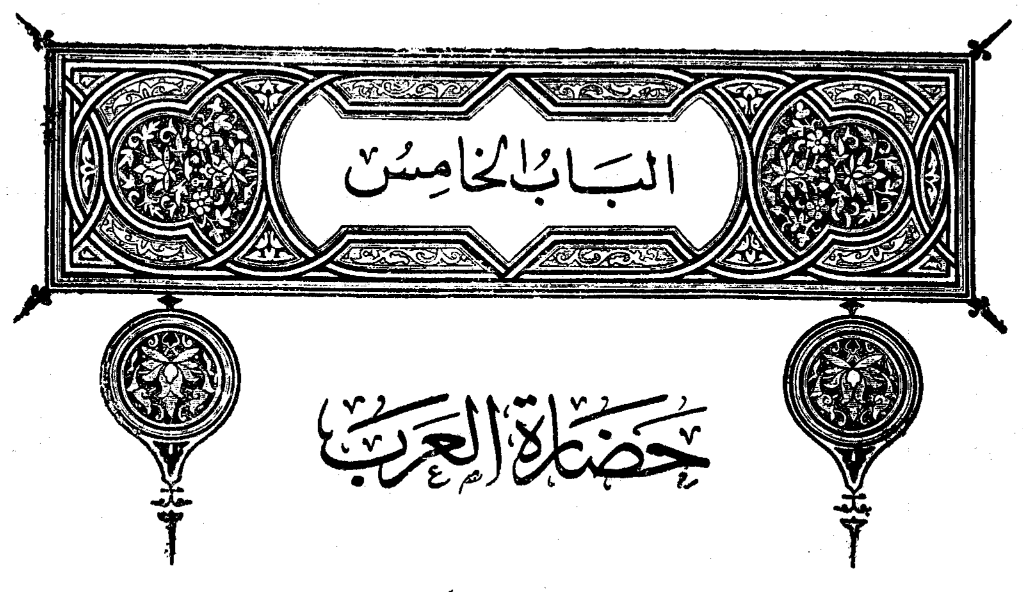
أجَلْ ، إن الإنسان ألعوبةٌ فى يد كثير من السادة من غير أن يَدْرِيَ، ولكنَّ أشدَّ هؤلاء السادة جَبَرُوتاً هم الذين يقضى الإنسان حياتَه مستغيثاً بهم خائفاً منهم ، ويَسْفِك الدماء ويَذرِف الدموعَ من أجْلهم ، وَيشْهَر أقسى الحروب ويقترف أفظع الجرائم فى سبيلهم ، مع أنهم ليسوا غيرَ ظِلالٍ عابرة مقيمة بعالم الرُّؤى والأوهام .

حقًّا إنها لظِلالٌ خفيفة ، ولكنها مرهوبة، وحقًّا أن فاتحين كثيرين سادوا العالم وأخضعوا الناس لسلطانهم ، ولكنك لا تَجِد واحداً منهم كان له من السلطان مايساوى سلطان بعض الأموات .



نوافذ زجاجية فى مكان الصلاة من المسجد الأقصى بالقدس

(من تصوير المؤلف الفوتوغرافى)



الباب الخامس

حضارة العرب

الفصل الأول

مصادر معارف العرب - تعليمهم ومناهجهم

---

١ — مصادر معارف العرب العلمية والأدبية

كانت حضارةُ الفرس وحضارة بزنطة العظيمتان تَقْذِفان نيرانَهما الأخيرة حينما بَدَأَت فتوح العرب، وقد استوقف العالَمُ الذى فَتَحَه أتباعُ النبىِّ خيالَهم المُضْطَرِمَ، فأخذوا يدرسون الآداب والفنون والعلوم بمثل نشاطهم فى فتوحهم، ولم يلبث الخلفاء، بعد أن شادوا دولتهم، أن أنشأوا فى جميع المدن المهمة مراكزَ للتعليم وجمعوا حولهم كلَّ عالمٍ قادر على ترجمة أشهر الكتبِ، ولا سيما كتبُ اليونان.

وحَدَث ما جَعَلَ أمرَ تلك الترجمة سهلاً، فقد كانت معارف اليونان والرومان العلميةُ القديمة منتشرةً فى بلاد الفرس وسورية منذ زمن، وبيانُ ذلك أن النساطرة لَمَّا نُفُوا من دولة الروم أقاموا فى مدينة الرُّها (أورفة) العراقية مدرسةً لنشر معارف اليونان فى آسية، وأن تلك المدرسة لما هُدِمَت فى عهد زِنُون الإيزورىِّ احتضن أكاسرةُ بنى ساسان أساتذتَها، وأنه كان من نتائج هذا القبول الحسن أن قَصَد علماء أثينة والإسكندرية بلادَ فارس عند ما أغلقها جوستينيان فنقلوا إلى أكثر لغات الشرق انتشاراً، كالسريانية والكلدانية، إلخ، أهمَّ كتب علماء اليونان مثل أرسطو وجالينوس وذيسقوريدس.

ووَجَد العرب فى بلاد فارس وسورية، حينما استولَوْا عليها ، خزائنَ من العلوم اليونانية ، وأمروا بنقل ما فى اللغة السريانية منها إلى اللغة العربية ، ولم يلبثوا أن أمروا بأن يُنْقَل إليها ما لم يكن قد نُقِلَ، فأخذت دراسات العلوم والآداب تسير قُدُماً إلى الأمام .

ولم يَدُم اكتفاء العرب بما نُقِل إلى لغتهم طويلاً ، فقد تَعلَّمَ عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ، على الخصوص، ليستقوا منها علوم اليونان، ثم تعلَّمُوا اللغة اللاتينية واللغة القشتالية فى إسپانية كما يشهد بذلك ما فى مكتبة الإسكوريال من المُعْجَمات العربية اليونانية والعربية اللاتينية والعربية الإسپانية التى ألّفها علماء من المسلمين .

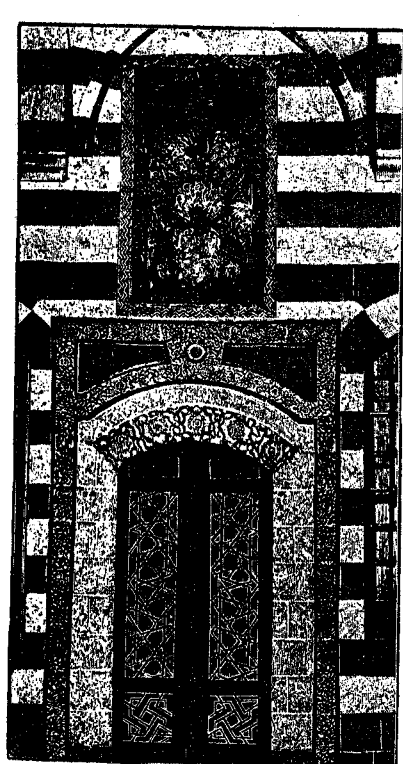
وكانت معارف اليونان واللاتين القديمةُ أساساً لثقافة متعلمى العرب فى الدور الأول ، وكان هؤلاء كالطلابِ الذين يتَلَقَّوْن فى المدرسة ما وَرِثه الإنسان من علوم الأولين ، وكان اليونان أساتذةَ العرب الأولين إذَنْ ، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع والنشاط لم يَكْتَفُوا بحال الطلب الذى اكتفت به أوربة فى القرون الوسطى ؛ فلم يلبثوا أن تحرَّرُوا من ذلك الدور الأول .

والإنسانُ يقضى العجبَ من الهِمَّة التى أقدم بها العرب على البحث ، وإذا كانت هنالك أممٌ تساوت هى والعرب فى ذلك فإنك لا تجِد أمة فاقت العرب على ما يحتمل ، والعربُ كانوا إذا ما استولَوْا على مدينة صرفوا هَمَّهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها ، وإذا ما كانت تلك المدينةُ كبيرةً أسسوا فيها مدارسَ كثيرة، ومنها المدارسُ العشرون التى رَوَى بنيامين التُّطِيلِيُّ المتوفَّى سنة ١١٧٣م أنه شاهدها فى الإسكندرية، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وَطُلَيْطِلَةَ وقرطبة ، إلخ . على جامعات مشتملة على مختبراتٍ ومراصدَ ومكتباتٍ غنية ، وكلٍّ ما يساعد على البحث العلمىِّ ، وكان للعرب فى إسپانية وحدَها سبعون مكتبة عامة ، وكان فى مكتبة الخليفة الحكَم الثانى بقرطبة ستمئة ألف كتاب منها أربعةٌ وأربعون مجلداً من الفهارس كما روى مؤرخو العرب ، وقد قيل ، بسبب ذلك، إن شارل الحكيم لم يستطع ، بعد أربعمئة سنة ، أن يجمع فى مكتبة فرنسة المَلَكية أكثرَ من تسعمئة مجلد يكاد ثلثها يكون خاصًّا بعلم اللاهوت .

٢ – مناهج العرب العلمية

ليست المكتباتُ والمختبَراتُ والآلاتُ غيرَ وسائلَ للدرس والبحث ، وتكون قيمتها فى معرفة الاستفادة منها ، وقد يستطيع المرء أن يكون مطلعاً على علوم الآخرين ، وقد يبقى عاجزاً عن التفكير وابتداع أيِّ شىء مع ذلك ، فيظلّ تلميذاً غيرَ قادر على الارتقاء إلى درجة أستاذ ، وسيبدو ، من الاكتشافات التى نذكرها فى الفصول الآتية ، مقدارُ ما اكتشفه العرب بما لديهم من وسائل الدرس ، والآن أقتصر على ذكر المبادئ العامة التى وَجَّهَتْ أبحاثهم :

لم يَلْبَث العرب ، بعد أن كانوا تلاميذَ معتمِدين على كتب اليونان ، أن أدركوا أن التجرِبة والترصد خيرٌ من أفضل الكتب ، وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة جَدّ علماء القرون الوسطى فى أوربة ألف سنة قبل أن يعلموها .

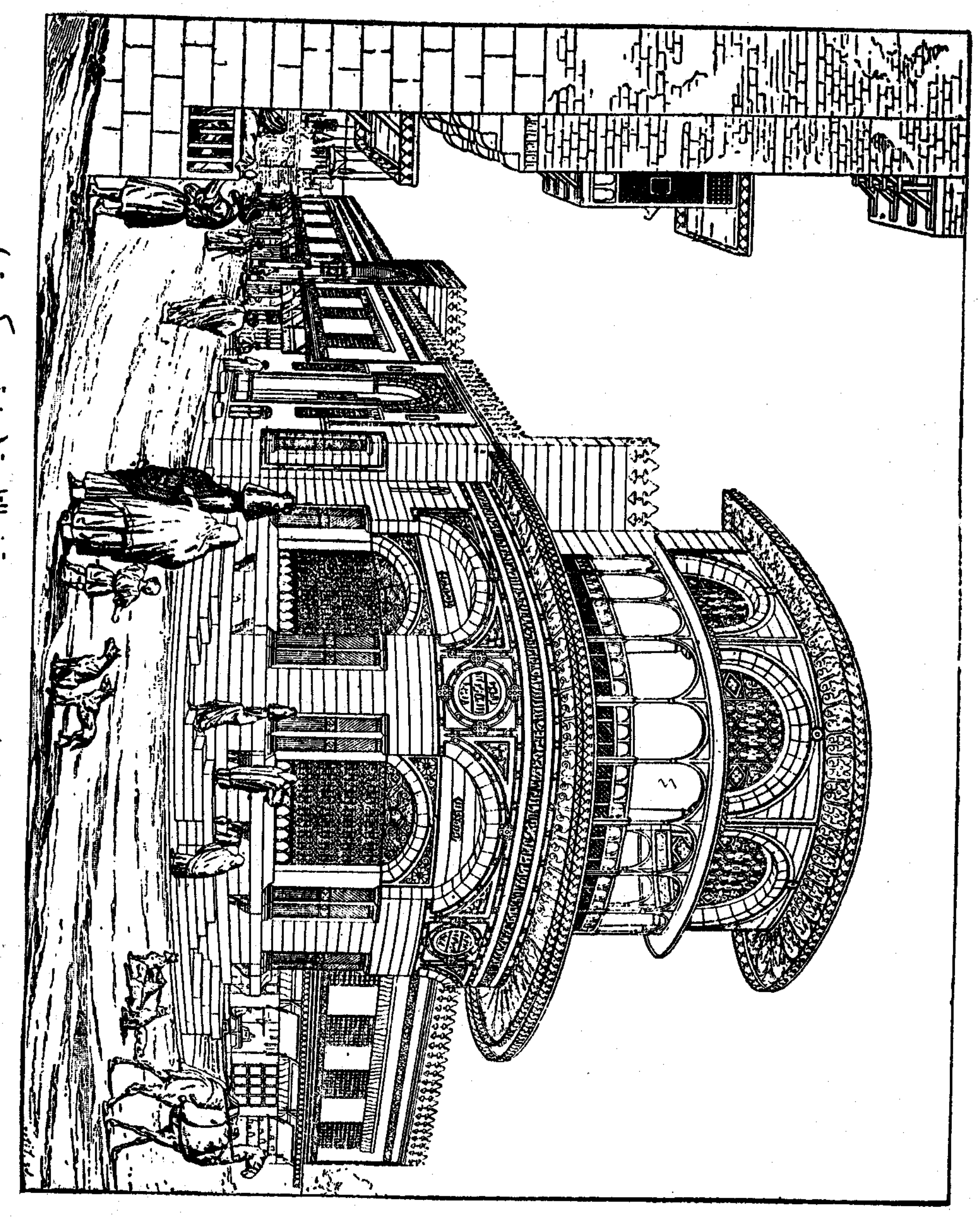


٢١٥ – باب مسجد ومدرسة فى دمشق
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ويُعْزَى إلى بيكن ، على العموم ، أنه أول من أقام التجربة والترصد ، اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة ، مقامَ الأستاذ ، ولكنه يجب أن يُعْتَرَف اليوم بأن ذلك كلَّه من عمل العرب وحدَهم ، وقد أَبْدَى هذا الرأىَ جميعُ العلماء الذين دَرَسُوا مؤلفاتِ العرب ، ولاسيما هَنْبُولدُ ، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجرِبة والترصد هو أرفعُ درجةٍ فى العلوم قال : « إن العرب ارْتَقَوْا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريباً » .

وقال مسيو سيديُو : « إن أهمّ ما اتصفت به مدرسة بغداد فى البُداءة هو روحُها العلمية

الصحيحة التى كانت سائدةً لأعمالها ، وكان استخراجُ المجهول من المعلوم والتدقيقُ فى الحوادث تدقيقاً مؤدياً إلى استنباط العلل من المعلولات وعدمُ التسليم بما لا يَثْبُتُ بغير التجربة مبادئَ قال بها أساتذةٌ من العرب ، وكان العربُ ، فى القرن التاسع من الميلاد ، حائزين لهذا المِنْهاج المُجْدِى الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أرْوَع الاكتشافات » .



٢١٦ — زاوية قديمة للدراويش وعين ومدرسة فى القاهرة (من تصوير كوست)

قام مِنْهَاجُ العرب على التجربة والترصد ، وسارت أوربة فى القرون الوسطى على درس الكتب والاقتصار على تكرار رأى المعلم ، والفَرْقُ بين النَّهْجَيْن أساسىٌّ ، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفَرْق .

واختبر العربُ الأمورَ وجرَّبُوها ، وكانوا أولَ من أدرك أهمية هذا المِنْهاج فى العالم ، وظلوا عاملين به وحدَهم زمناً طويلاً ، قال دُولَنْبر فى كتاب « تاريخ علم الفلك » : « تَعُدُّ راصدِيْن أو ثلاثة بين الأغارقة وتَعُدُّ عدداً كبيراً من الرُّصَّاد بين العرب » ، وأما فى الكيمياء فلا تَجِدُ مُجرِّباً يونانياً مع أن المُجرِّبين من العرب يُعَدُّون بالمئات .

ومَنَحَ اعتمادُ العرب على التجربة مؤلفاتِهم دقةً وإبداعاً لا يُنْتَظَر مثلهما من رجلٍ تَعوَّدَ درسَ الحوادث فى الكتب ، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا فى الفلسفة التى كان يتعذر قيامها على التجربة .

ونشأ عن مِنْهاج العرب التجربىِّ وصولُهم إلى اكتشافات مُهِمَّة ، وسترى من مباحثنا فى أعمال العرب العلميـة أنهم أنجزوا فى ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حَقَّقَه الأغارقة فى زمن أطولَ من ذلك كثيراً ، وكان تُرَاث اليونان العلمىُّ قد انتقل إلى البزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل ، ولما آل إلى العرب حَوَّلوه إلى غير ما كان عليه فتَلَقَّاه ورَثَتهم مخلوقاً خَلْقاً آخر .

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعربُ قد نَشَرُوها ، كذلك ، بما أقاموا من الجامعات وما ألَّفوا من الكتب ، فكان لهم الأَثَر البالغ فى أوربة من هذه الناحية ، وسترى فى الفصل الذى ندرس فيه هذا التأثير أن العرب وحدَهم كانوا أساتذةَ الأمم النصرانية عِدَّة قرون ، وأننا لم نَطَّلِـع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب ، وأن التعليم فى جامعاتنا لم يَسْتَغْن عما نُقِل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب إلا فى الأزمنة الحاضرة .

الفصل الثانى

اللغة والفلسفة والآداب والتاريخ

---

١ — اللغة العربيـــة

تُعَدُّ اللغة العربية من اللغات السَّامِيَّة ، وتُشْبِه اللغةَ العبرية كثيراً ، وتختلف فى مخارجها عن أكثر اللغات الأوربية ، فيَجِد الأجانب صعوبةً كبيرة فى النطق بها .

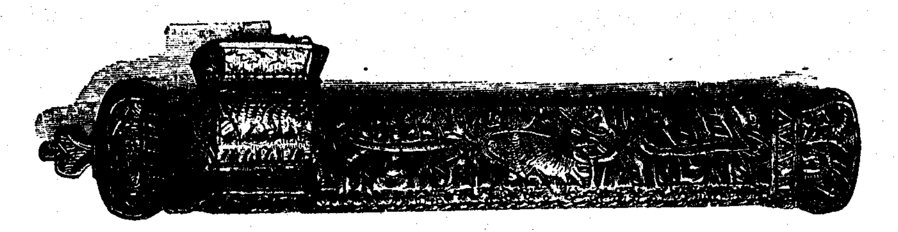
ونجهل تاريخ نشوء اللغة العربية كما نَعْرِفها الآن ، ولكننا نعلم من الشعر العربىّ الذى قيل قبل ظهورِ محمدٍ بقرنٍ واحد أن اللغة العربية كانت قد وَصَلَت إلى درجة كمالها الحاضر .

حَقًّا ، تشتمل اللغة العربية على لَهَجاتٍ كثيرة ، ولكن كتَّاب المسلمين أجمعوا على أن لهجة قبيلة محمد تمتاز بأنها أفصحُ لَهَجات العرب ، وكان من تأثير القرآن أن جعل من اللَّهْجة التى كُتِب بها لغة عامَّة .

واللغةُ العربية من أكثر اللغات انسجاماً ، وهى ، لا رَيْبَ ، مختلفةُ اللهجاَت فى سورية وجزيرة العرب ومصرَ والجزائر وغيرها ، ولم يكن هذا الاختلاف فى غير الأشكال ، فترى المرَّاكُشىَّ يَفْهَم بسهولةٍ لَهْجَةَ المصريين أو لهجةَ سكان جزيرة العرب مثلاً ، مع أن سكان القُرَى الشمالية الفرنسية لا يفهمون كلمةً من لَهَجات سكان القُرَى الجنوبية فى فرنسة ، واسمع ما قاله الرَّحَّالة بُرْكهارْد الذى يُعَدُّ حُجَّةً فى هذا الموضوع :

« تَجِد اختلافاً كبيراً ، لا رَيْبَ ، فى لَهَجات اللغة العربية العَامِيَّة أكثرَ مما فى أية لغة أخرى على ما يحتمل ، ولكنه لا يَصْعُب عليك أن تفهمها جميعَها إذا ما تَعَلَّمْت إحداها ، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التى يتكلم أهلوها بها ، وهى الواقعةُ بين مدينة مُغَادر (الصُّوَيْرَة) ومدينة مسقط ، وقد يكون لاختلاف طبيعة البلدان تأثيرٌ فى اختلاف تلك اللهجات التى هى عَذْبةٌ فى أودية مصر

والعراق الدنيا ، وجافّةٌ فى سورية وجبال بلاد البربر ، وأعظمُ فَرْقٍ ، كما أعلم ، هو ما بين لَهْجَةِ المغاربة فى مَرَّاكُش ولَهْجَة الأعراب بالقرب من مكة فى الحجاز ، ولكن هذا الفَرْق بين تَيْنِك اللهجتين لا يزيد على اختلاف لَهْجَة فَلَّاحى سوآب (جنوب ألمانية) عن لهجة فَلَّاحى سكسونية (شمال ألمانية) » .



٢١٧ ـ دواة على الطراز الفارسى العربى مصنوعة من النحاس المكفت بالفضة
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ولم تَتَحَوَّل اللغة العربية ، إذَنْ ، إلا قليلاً منذ زمن محمد ، ولكنه طرأ تغييرٌ كبير على الخطّ ، فالخطُّ الأول المعروف بالخطِّ الكوفىِّ ، الذى رُوِى أنه اخْتُرِع فى مدينة الكوفة ، كان صَعْبَ القراءة لُخلُوِّه من حروف العِلَّة ، فَتَحَوَّل هذا الخطُّ حوالَى القرن الثامن من الميلاد بإدخال أصول الشكل والحركات إليه مع المواظبة على استعمال الخطِّ الكوفىِّ فى الكتابات ، فَجَعَل هذا من العسير كثيراً أن يُستدلَّ على قِدَم هذه الكتابات مما عليها من الحروف المنقوشة .

وما قلناه فى فصل آخرَ عن الدين نقول مثلَه عن اللغة العربية ، فمع أن الفاتحين الذين ظهروا قبل العرب لم يستطيعوا أن يَفرِضوا على الأمم المغلوبة لغاتِهم قَدَرَ العربُ ، بالعكس ، على فَرْض لغتهم عليهم ، ولما صارت اللغة العربية عامةً فى جميع البلاد التى استولَوْا عليها حَلّت محلَّ ما كان فيها من اللغات ، كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية إلخ ، . وكان للغة العرب مِثْلُ ذلك الحظِّ زمناً طويلاً ، حتى فى بلاد فارس على الرغم من يقظة الفُرْس ، أىْ ظَلّت اللغةُ العربية فى بلاد فارسَ لغةَ أهل الأدب والعلم ، وظلَّ الفُرْس يكتبون لغتهم بالحروف العربية ، وكُتِب ما عَرَفَتْه بلاد فارس من علم الكلام والعلوم الأخرى بلغة العرب ، وللغة العربية فى هذا الجزء من آسية شأنٌ كالذى كان للغة اللاتينية فى القرون الوسطى ، وانتحل الترك أنفسُهم ، وهم الذين قهروا العرب ، الخطَّ العربىَّ ، ولا تَجِد فى تركية إنساناً على شىء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغةَ القرآن بسهولة .

ولم يَشِذَّ عن سوى الأمم اللاتينية الأوربية التى لم تقُم اللغةُ العربية مقامَ لغاتِها القديمــة ، ومع ذلك فإن اللغةَ العربية ذاتُ أثرٍ عميق فى اللغات اللاتينية،وقد ألَّف دوزى وأنجلمَن مُعْجَماً فى الكلمات الإسپانية والبرتغالية المُشْتَقَّة من اللغة العربية .

وتَرَكت لغة العرب أثراً مهمّاً فى فرنسة نفسِها،وذكر سيديُو ، والحقُّ ماذكر ، « أن اللَّهَجاتِ السائدةَ لولاية أو ڤِرْن وولايةِ ليموزان الفرنسيتين مَحْشُوَّةٌ بالكلمات العربية ، وأن أسماء الأعلام فيهما ذاتُ مَسْحَة عربية » .

قال هذا المؤلف : « ومن الطبيعيِّ أن تقتبس فرنسة وإيطالية من العرب،الذين كانوا سادةَ البحر المتوسط منذ القرن الثامن من الميلاد ، أكثرَ الاصطلاحات البحرية مِثْلَ : Amiral و Escadre و Corvette و Frégate و Flotte و Caravelle و Felouque و Chaloupe و Sloop و Barque و Chiourme و Darse و Calfat و Estacade ولا سيما البوصلة Boussole التى عُزِىَ أمرُها إلى أهل الصين على غير حقّ،وأن تقْتَبِسَ جيوشهما ألقابَ ضباط جيوش المسلمين وتعابيرَ وَغَى الحرب واستعمالَ بارود المدافع والقنابل والحرَّاقَات والقذائف ، وأن تأخذ عن حكومة بغدادَ وحكومةِ قرطبةَ التعابيرَ الإدارية مِثْلَ : Syndic و Aides و Gabelle و Taille و Tarif و Douane و Bazar ، وأن يُقلِّدَ ملوكُ الأسرة الثالثة الفرنسية العربَ فى شىء فيأخـذوا عنهم معظم اصطلاحات الصيد مثـل : Chasse و Maute و Laisse و Curée و Hallali و Cor de chasse و Fanfares ، وكذلك كلمة : Tournoi التى عَدَّها علماء اللغة المعاصرون مُشْتَقَّةً من كلمة Torneamentium ، وأهمُّ من ذلك كلِّه اصطلاحاتُ العلوم التى اقتبسناها من العرب،فعلم الفلك عندنا مملوء بالتعابير العربية مِثْلَ : Azimuts و Zénith و Nadir ، وبالاصطلاحات العربية لأجزاء الأسطرلاب مِثْلَ : Alidade و Alancabuth ، وبأسماء الكواكب مِثْلَ : Aldébaran و Rigel و Althair و Wéga و Acarnar و Aghol ، وقُلْ مِثْلَ ذلك عن الرياضيات حيث أخذنا عن العرب الاصطلاحات : Chiffres ، Zéro و Algébre إلخ . وقُلْ مِثْلَهُ عن الكيمياء حيث أخذنا عنهم الاصطلاحات : Alchimie و Alcool و Alcali و Alambic إلخ . ، وقُلْ كذلك عن التاريخ الطبيعيِّ والطب حيث أخذنا عنهم الاصطلاحات : Bol و Elixir و Sirops

و Juleps و Sorbet و Mirobolans إلخ . والكلمة : Haschich التى اشْتُقّتْ منها الكلمة : Assassins

وزَعَم مؤلف أحد الْمُعجَمات الاشتقاقية الفرنسية الذى أُلِّف حديثاً أن إقامة العرب بجَنوب فرنسة لم تُسْفِر عن أثَرٍ ، لا فى اللَّهجات، ولا فى اللغة،فقلةُ قيمة هذا الرأى تبدو مما قلناه آنفاً ، ومن العجيب أن يُكرِّر بعض المثقفين مِثْلَ هذا الزعم .

واللغةُ العربية غنيةٌ جِدًّا ، وزاد غِناَها بما أُضِيف إليها ، دائماً ، من التعابير الجديدة التى تَسَرَّبت فيها من اللهجات التى اتصلت بها ، وانظر إلى الُمعجم الذى أَلَّفه ابن سِيده المتوفّى سنة ١٠٦٥ م تجِدْه مشتملاً على عشرين مجلداً .

٢ — فلسفة العرب

كانت فلسفة العرب ، حينما شرعوا يَدْخُلون ميدانَ الحضارة ، مقتصرةً على مبادئ علم النفس العملية التى هى وليدةُ التجربة ، لا الكتب ، والتى ينتفع الإنسان بها وحدَها فى مضْمار الحياة .

واليونانُ هم أساتذة العرب الأُوّلون فى الفلسفة كما أنهم أساتذتهم فى مختلف العلوم ، ولم تلبث كُتُب أرسطو وثاليس وأبيذقليس وهرقليوس وسقراط وأبيقور وجميعِ أساتذة مدرسة الإسكندرية من الفلاسفة أن تُرْجِمَت .

وفاق العربُ أساتذَتَهم بسرعةٍ فى جميع العلوم التى تقوم على التجرِبة ، ولكنْ بما أن الفلسفة لم تَقُمْ حينئذٍ على التجرِبة وما إليها لم يَتَّفِق للعرب فيها تقدم محسوس .

وكانت الجماهير تَمقُت الفلاسفة مع ماتَمّ لهم من المقام الأَسْمَى فى جامعات العرب ، وكان الخلفاء يَرَوْن أن يَدْرَأُوا ماينشأ عن مذاهب الفلاسفة من الفِتَن الشعبية فيُضْطَرُّون فى الغالب إلى نفيهم لوقتٍ معيّن .

وللجماهير ماتعتذر به عن معارضتها للفلاسفة ، فقد نَبَذ الفلاسفةُ أكثرَ أحكام الإسلام ، ولم يُسَلِّموا بغير العقائد الأساسية كوحدانية الله ورسالة محمد ، ثم كانوا ينشرون آراءهم عَلَناً ويهاجمون بها عقائد المؤمنين بدلًا من الاكتفاء بعرضها على الُمثقَّفين .

والحقُّ يقضى بالاعتراف للعرب بأنهم أولُ من أغْضَى عما نُسَمِّيه حريةَ الفكر فى الوقت الحاضر ، فمع ما كان يبديه الفلاسفة من التحفظ الكبير فى كتبهم كانت تَبْدُر منهم ، فى الغالب ،



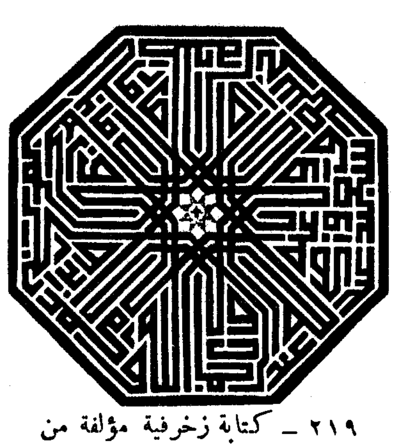
٢١٨ ـ كتابات دفة مصحف قديمة (من تصوير ليبر)

تأملاتٌ مشتملة على جانب كبير من الشكِّ والارتياب ، ومن ذلك قولُ أبى العلاء التَّنُوخىِّ الذى عاش فى القرن العاشر من الميلاد :

« اثنان أهلُ الأرض : ذو عَقلٍ بلا دين ، وآخَرُ دَيِّنٌ لا عَقْلَ له »

ثم رَأى فلاسفةُ العرب أن يَفصِلوا الدين عن الفلسفة مراعاةً للجماهير ، وأجمل الفيلسوفُ الغزاليُّ ، الذى كان يُدَرِّس فى القرن الحادى عشر من الميلاد فى بغداد ، ما انتهَوْا إليه فى الكلمة الآتية :

ليست الحقائقُ التى يُؤَيِّدها العقل كلَّ ما فى الأمر ، فهنالك من الحقائق ما يَعْجِز إدراكُنا عن الوصول إليها ، ونحن نقول بها وإن كنا لا نَقْدِر على استخراجها بقواعد المنطق وبالأصول المعروفة، وليس مما يخالف الصوابَ وجودُ افتراضٍ قائل بوجود دائرة أخرى فوق دائرة العقل ، وإن شئْتَ فقُل دائرة التَّجَلِّى الرَّبَّانىّ ، ونحن إذ كنا نجهل سُنَن تلك الدائرة ونواميسَها جهلاً تامًّا نَجِد الكفايةَ فى قدرة العقل على الاعتراف بإمكانها * » .



٢١٩ ـ كتابة زخرفية مؤلفة من تشابك حروف كوفية

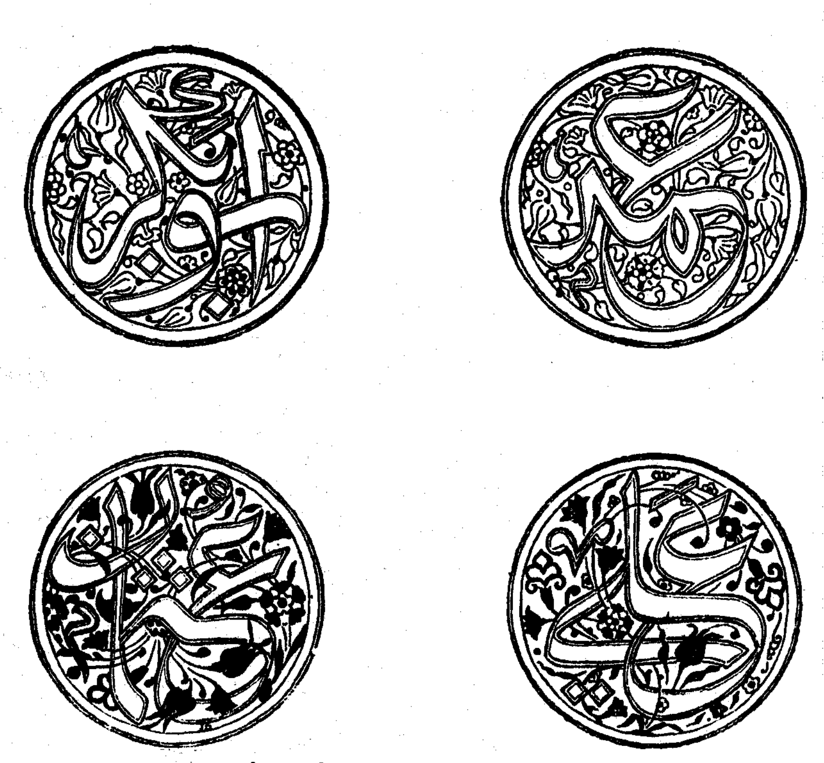
وأبعدُ فلاسفة العرب صِيتاً هو الفيلسوف الشهير ابن رُشْد الذى كان له أعظمُ تأثير فى أوربة ، أَجَلْ ، يُعَدُّ ابن رُشد ، عادةً ، شارحاً لفلسفة أرسطو فَقَطْ ، ولكننى أرى أن هذا الشارح سَبَق أستاذَه فى بعض الأحيان سبقاً يثير العجب ، وأن فلسفتَه مقبولةٌ فى كثير من الأمور أكثرَ من تلك، وإذا لم يكن ابنُ رشدٍ مفكراً حُرًّا بالمعنى العصرىِّ على ما يحتمل فإنه فَكَّر بحرية عظيمة فى بعض الموضوعات : وتدلُّ العبارة الآتية التى أنقلها من كتاب مسيو رينان حول خلود الروح وقواعد الأخلاق على عظيم استقلال ابن رشد ، قال رينان :

« يَرَى ابن رُشْدٍ أن العقل العامَّ المطلق باقٍ على الدهر قابلٌ للانفصال عن الجسم ، وأن العقل الفرديَّ فانٍ مع البدن .

« وينكر ابن رُشْد الخلود والبعث ويُصَرِّح بأن على المرء ألا ينتظر ثواباً غير ما يلاقى فى هذه الحياة الدنيا بكماله الخاص .

وعند ابن رُشْد أن الأشخاص يتميزون مادةً ويتحدون صورةً ، وأن الخلود للصورة لا المادة ، وأن صورة الأشياء أساسُ تسميتها ، وأن الفأس بلا حدٍّ ليست فأساً بل حديدٌ ، وأن من التَّجَوُّز دعوةَ جسم الميت إنساناً ، وأن الفناء لمادة الشخص والبقاء لنوعه .

« ويقول ابن رُشْد إن روح الفرد لا تُدْرِك شيئاً بغير تصور ، فكما أن الحواسَّ لا تَشْعُر إلا إذا اتصلت بالأشياء لا تفَكِّر النفس إلا إذا وُجِدت صورةٌ أمامها ، ومن ثَمَّ كان الفكر الشخصيُّ غيرَ خالد ، وإلّا وَجَب أن تكون الصُّوَر خالدة أيضاً ، وإذا كان الإدراك خالداً بذاته فإنه لا يكون كذلك عند الممارسة .



٢٢٠ ـ ٢٢٣ : ختم الخلفاء الأربعة الأولين

« ولم يُخْفِ ابنُ رُشْد نفورَه من أقاصيص العوامِّ عن الحياة الآخرة ، وهو يذهب إلى أنه يجب أن يُعَدَّ من الأوهام الخَطِرَة نظرُ المرء إلى الفضيلة وسيلةً للسعادة، لِما يتضمن ذلك من الإنكار للفضيلة نفسها ، ومن مَعْنَى الامتناع عن المَلاذِّ رجاء الثواب المضاعف ، ومن طلب العربيِّ للموت اتِّقاءً لِما هو

أسوأ ، ومن عدم احترام اليهوديّ لمال الآخرين طَمَعاً فى الكَسْب الزائد ، وفى ذلك من الإفساد لروح القوم والأولاد وعدم وجود نَفْع فى إصلاحهم مالا يخفى ، ويَعْرِف ابنُ رُشْدٍ أناساً من ذوى الأخلاق يَضْرِبون بتلك الأوهام عُرْضَ الحائط ولا يقولون بفضيلةِ مَنْ يتمسكون بها » .

٣ — الأدبُ العربىُّ

الشعر عند العرب : لايزال أمر الأدب القديم فى اليمن وفى مختلف أجزاء جزيرة العرب المتمدنة مجهولاً لدينا تماماً ، وماعَلِمناه من أشعار العرب قيل بعد المسيح وقُبَيْل ظهور محمد ، ولم تكن هذه الأشعار فى غير الغَزَل وتمجيد الملاحم ، وكان العرب يُحِبُّون أن يَسْمَعُوا شعراءهم يُشِيدون بمفاخرهم كما كان الأغارقة فى عصر البطولة .

وتَبْدَأُ تلك الأشعار ، فى الغالب ، بالتصوير والتشبيه ، شأنُ شعرِ الأمم الفطريةالتى تُحِسُّ كثيراً وتُفَكِّر قليلاً،وتختلف تلك الأشعار عن الشعر الإسرائيليّ كثيراً فى خُلُوِّها من التكهن والدُّجُون والتغنى بسفك الدماء ، ولا تَجِد فيها ذكراً لمثل المجازر الوحشية والمذابح والإبادات ولَعَناتِ الرّبِّ الدائمة التى مُلِئَت بها التوراة .

ونال الشعراء نفوذاً كبيراً بفضل حبِّ العرب للشعر فكان الشعراء يُحَرِّكون المشاعر ويرفعون أقواماً ويَخْفِضون آخرين كما يشاؤون ، وكان من نفوذهم أن مَنَحَتْ قريشٌ الشاعر الأعشى مئةَ جملٍ حَمْلاً له على عدم نشر قصيدةٍ مَدَحَ النبيَّ بها .

وكان من عبادة العرب للشعر ما أقاموا معه،قبل محمد بعِدَّة قرون ،مؤتمراتٍ أدبيةً يَقْصِدونهامن جميع نواحى جزيرة العرب،وكانت هذه المؤتمرات تقوم فى مدينة عُكاظ الصغيرة القريبة من الطائف والبعيدةِ من مكةَ مسافة ثلاثة أيام،وكانت القصائد التى تنالالحُظْوَة فيها تُكْتَب بحروف من ذهب على نسائجَ ثمينةٍ وتُعَلَّق فى الكعبة بمكةَ لتُنْقَل إلى الأعقاب .

وبلغ الشعر العربىُّ الذُّرْوَةَ فى القرن الذى سبق ظهور محمد ، ونشأ عن ذلك أن صارت لغةُ الشعراء الفُصْحى عامَّةً ، وأن صُهِرَت لَهَجاتُ بلاد العرب المختلفةُ فى لغة واحدة .

وانتهت إلينا المُعَلَّقَاتُ السبعُ بفضل حفظ أهمِّ أشعار العرب فى الكعبة ، ويُرَى فى المعلقاتِ السبع وَصْفٌ لحروب العرب ولحياة البادية الجافية القاسية ولمغامرات الأعراب ، إلخ .

وإننى أقتطف الأبياتَ الآتية من معلقة طَرَفَة التى وَصَفَ بها الحياة وصفاً لاأرى أكثر الفلاسفة ارتياباً يُضِيف إليه شيئاً كبيراً ، قال طَرَفَة :

كريمٌ يُرَوِّى نَفْسَه فى حياته ... سَتَعْلَمَ إن مِتْنا غداً أيُّنا الصَّدِى[١]
أرَى قَبْرَ نَحَّام[٢] بخيلٍ بماله ... كقَبْرِ غَوِىّ[٣] فى البِطَالَة مُفْسِدِ
أرَى جُثْوَتَيْن[٤] من تراب عليهما ... صفائحُ صُمٌّ من صَفِيحٍ مُنَضَّدِ
أرَى الموتَ يَعْتَام[٥] الكرام ويصطفى ... عَقِيلَةَ[٦] مال الفاحش المُتَشَدِّدِ
أرَى العيش كنزاً ناقصاً كلَّ ليلة ... وما تَنْقُص الأيام والدهر يَنْفَدِ
لَعَمْرُك إن الموت ما أخْطَأ الفَتَى ... لكالطِّوَل[٧] المُرْخَى وثِنْيَاهُ[٨] باليد
متى ما يَشَأْ يوماً يَقُدْهُ لحَتْفِه ... ومَنْ يَكُ فى حَبْل المَنِيَّة يَنْقَدِ

وتَقْرُبُ من تلك الأفكار الممتازة أُنشودةُ حربٍ جاء بها بلغريف من نجد ولم يُعْرَف زمن قَرْضها ، فمنها يبدو للقارئ بوضوح ، كما يبدو له من القصيدة السابقة ، ماذا كان يَجُول فى خاطر المحارب العربىِّ ، وإليك تلك القصيدة :

أقولُ لها وقد طارتْ شَعَاعاً ... من الأبطال وَيْحَكِ لن تُرَاعِى
فإنك لو سألتِ بقاء يوم ... على الأجل الذى لكِ لن تُطَاعِى
فَصَبْراً فى مَجَالِ الموت صَبْراً ... فما نَيْلُ الخلود بِمُسْتَطَاعِ
ولا ثَوْبُ البقاء بثَوْب عِزٍّ ... فَيُطْوَى عن أخى الخَنَع[٩] اليَرَاع[١٠]
سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حىٍّ ... فَدَاعِيهِ لأهلِ الأرض دَاعِى
وما للمرء خيرٌ من حياة ... إذا ما عُدَّ من سَقَط المَتَاعِ

---

(١) الصدى: العطشان . (٢) النحام : الحريص على الجمع والمنع . (٣) الغوى: الضال . (٤) الجثوة : الكومة من التراب وغيره . (٥) يعتام : يختار . (٦) العقائل: كرائم المال والنساء ، الواحدة عقيلة . (٧) الطول: الحبل الذى يطول للدابة فترعى فيه . (٨) الثنى : الطرف . (٩) الخنع : الذل . (١٠) اليراع : الجبان .

وداوم العرب على قَرْض الشِّعر دوامَ حضارتهم ، وإن لم يَسْبِقُوا المستوى الذى وُصِل إليه قبل النبيِّ ، وكان يَقْرِض الشعرَ كلُّ رجلٍ مثقف ، سياسيًّا كان أو فلكيًّا أو طبيباً ، ولم يكن لغواً قولُ بعضهم إن العرب وحدَهم قَرَضوا من الشعر ما لم تَقْرِضه أممُ العالم مجتمعةً ، وكان من حبِّ العرب للشعر أن صاروا ، فى بعض الأحيان ، يؤلِّفون كتبَ التوحيد والفلسفة والجبر نظماً ، ومن يُطَالِع قِصَصَهم يرَ أكثرها ممزوجاً بقِطَعٍ شعرية .

ومما بلغ درجةَ الثبوت فى أيامنا ، كما يظهر ، أن الأوربيين اقتبسوا فنَّ القافية من العرب ، ودلَّت مباحث ڤياردو وغيرِه من الكُتَّاب الكثيرين على هذا الأمر الذى كان الأسْقُف هُويهِ قد بَيَّنَه منذ زمن طويل .

ويُعْزَى مصدرُ الشعر الإسبانيِّ والشعر البروڤنسيِّ إلى ما كان لشعراء عرب الأندلس من التأثير ، ويلوح لى هذا الرأيُ قويماً كالرأى السابق ، ولكنَّ إيضاح الأسباب التى يُسْتَنَد إليها فى هذا يتطلب إفاضةً لا يحتملها صَدْر هذا الكتاب .

الروايات والأقاصيص : — زاول العربُ جميعَ أنواع الأدب فضلاً عن الشعر ، ويُوجَدُ للعرب رواياتٌ فى المخاطر والحبِّ والفروسية ، إلخ . ، وترَى فى روايات العرب ، مع قِلة اعتنائهم بنفسية الأشخاص ، فوائدَ كبيرةً لاشتمالها على ضروب المغامرات العجيبة ، وجَمَّلَ العربُ ، بخيالهم الساطع ، كلَّ شىء لَمَسُوه[1] ، وهم الذين لا نظيرَ لهم فى الفنِّ .

والعربُ هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية ، قال سيديُو : « كان خيالُ الشعراء يتَجَلَّى فى الروايات والأقاصيص ، وكان أتباع محمد من أكابر المُحَدِّثين دائماً وكانوا يجتمعون مساءً تحت خيامهم ليسمعوا بعض الأقاصيص العجيبة التى تتخللها المُوسيقا والغِناء كما فى غَرْناطَة ، ويُخْبر ما فى إسپانية من

---

(١) يتجلى خيال العرب وميلهم إلى التجميل فى كل شىء صغر أو كبر ، ويمكن القارىء أن يستدل على ذلك من بعض الكنايات التى ينادى بها البائعون فى شوارع دمشق لفتاً لأنظار المشترين كقول بائع الأزهار « هدىء حماتك » ، وكقول بائع الخبيزة : « خبيزة طرية تأكلها العجوز ترجع صبية » ، وكقول بائع الاوز المحمص : « لا تحتمله الأسنان » ، وكقول بائع الحلوى : « أكل السنونو » وكقول بائع التين : « ثمر العسل » ، إلخ .

القِصَص المُؤَلَّفة من قِطَـعٍ مترجمة ، أو التى قُلِّد بها العربُ ، إخباراً صحيحاً عن الأعياد وألعاب الخواتم وصِراع الثيران وحروب النصارى والمسلمين والتفاخر ورقصِ الفرسان والتشبيب والغزَل وما إلى ذلك من الأمور التى اشتهر بها عرب الأندلس فى أوربة » .

ومن أشهر أقاصيص العرب نذكر مقاماتِ الحريرىِّ ومقاماتِ الهمذانىِّ وروايةَ ألف ليلة وليلة على الخصوص .

واشتهرت مقاماتُ الحريرىِّ فى الشرق بأسْره ، ووُلِد الحريرىُّ سنة ١٠٥٤م ، وتوفِّىَ سنة ١١٢١م فى البصرة بعد أن ذاع صِيتُه بأنه من علماء عصره ، وتشتمل كلٌّ من مكتبة باريس الوطنية ومكتبة مسيو شِيفِر على نسخةٍ خَطِّيَّة مصورة جميلة من مقاماته .

وكان الهمذانىُّ ، المتوفَّى سنة ١٠٠٧ م ، ذا شهرة واسعة فى ذلك المِضْمار أيضاً ، وكان الهمذانىُّ ذا ذاكرة قوية فيحفظ القصيدةَ على ظَهْر القلب عندما يسمعها أولَ مرة ، وكان الهمذانىُّ مشهوراً ، أيضاً ، بصفاء لغته وانتقاء التعابير فى ارتجالاته .

وتُعَدُّ روايةُ ألف ليلة وليلة الباهرةُ أكثرَ القِصَص العربية شهرةً لا رَيْب ، واخْتُلِف كثيراً فى مصدرها ، ويظهر من الثابت اليوم أنها مجموعةُ قِطَعٍ وُضِعَت فى أزمنة مختلفة جدًّا ، وأن بعضها وُضِـعَ قبلَ القرن العاشر من الميلاد لذِكْرها فى كتاب مروج الذهب الذى ألفه المسعودىُّ فى ذلك الزمن ، وتجِد فى هذه الرواية قِصَصاً من أصلٍ هندوسىّ وفارسىّ ، ولـكن أكثرها أَلَّفَه عرب مصرَ فيما بين القرنِ الثالث عشرَ والقرنِ الخامسَ عشرَ من الميلاد .

وذكر أستاذ اللغات الشرقية فى هَيْدِلْبرْغ ، مسيو ڤيل ، وذلك فى مقدمة الطبعة الألمـانية لرواية ألف ليلة وليلة وَفْقَ النصِّ الشّرْقىِّ ، أنه لا يجوز الشكُّ فى أن أكثر القِصَص فيها عربىٌّ ، وأن ما فيها من أصلٍ عربىّ يختلف كثيراً عما فيها من أصـلٍ هندوسىّ بارزٍ فى المجموعة المعروفة بذلك الاسم ، أيضاً ، فى القرون الأولى من الإسلام .

وتُعَدُّ روايةُ ألف ليلة وليلة من أكثر كتب الأدب التى وضعها الإنسان إمتاعاً مع ما فيها من

نقائصَ واضحةٍ جدًّا ، وأضيف إلى ما فيها من مُتْعَةٍ ما فى قراءتها من فائدة ، فيها ينال القارئ معارفَ صحيحةً عن طبائع العرب ومشاعرهم ووجهِ تفكيرهم فى بعض الأدوار .



٢٢٤ – إفريز كوب عربى ذى كتابة بتشويه القسم الأسفل من رسم الأشخاص

وكلُّ تاريخٍ يكون مدخلاً لها يَشْمَل النظر ، وذلك لِما يُلْقِيه من نور قويّ على أحوال الشرقيين النفسية الصميمة ودوافعهم الُخلقية ورأيهم فى المرأة ، إلخ . والحقُّ أن أقاصيص الأمم وأساطيرَها من الأدلة التى أهمل التاريخ أمرها زمناً طويلاً ، والتى أخذ العلماء يُدْرِكون شأنها فى الوقت الحاضر ، ومن ذلك أنْ تَوَصَّلْنا ، بتحليل الأغانى الشعبية والأساطير ، وذلك فى درسنا أمرَ تلك الأمة الغريبة التى أتيح لنا أن نَرْقبها فى جبال تَتْرَة ، إلى معارفَ ثمينةٍ تَمَكَّنَّا بها من رسم المزاج النفسىّ لأجداد شعبٍ لم يُكْتَب له تاريخٌ قطُّ .

الحكايات والأمثال . — الحكاياتُ والرموز والأمثال من أكثر ما عُنِيَ به فى الشرق ، ومنها يَتَألَّف نوعٌ من الآداب التى تلائم النفس وتُحْفَظ فى الذاكرة بسهولة ، معأن الأفكار المُجَرَّدَة تُتْعِب وتُنْسَى سريعاً .

ويُعَدُّ لقمانُ الأُسطوريُّ أشهرَ من جاء بالحكايات ، وجعل محمدٌ من لقمانَ ، فى القرآن ، مثالَ الحِكْمَة ، ويَرَى فريقٌ من العلماء أنه معاصرٌ لداود ، ويراه فريقٌ ثان معاصراً لإبراهيم ، ويَرَى فريقٌ ثالث أن مؤلفَ الحكاياتِ شخصٌ غيرُ لقمان ظَهَر بعد محمد ؛ ويدلُّ ما بين حكاياتِ لقمانَ وحكاياتِ إيزوب من الشَّبَه على أن ذلك اقتبس من هذا أو أن كليهما اشْتَق من منبعٍ واحد على الأقلّ .

وأمثالُ العرب كثيرة إلى الغاية ، ومن أمثال العرب اقْتَبَسَتْ إسپانية وبقيةُ أوربة عدداً

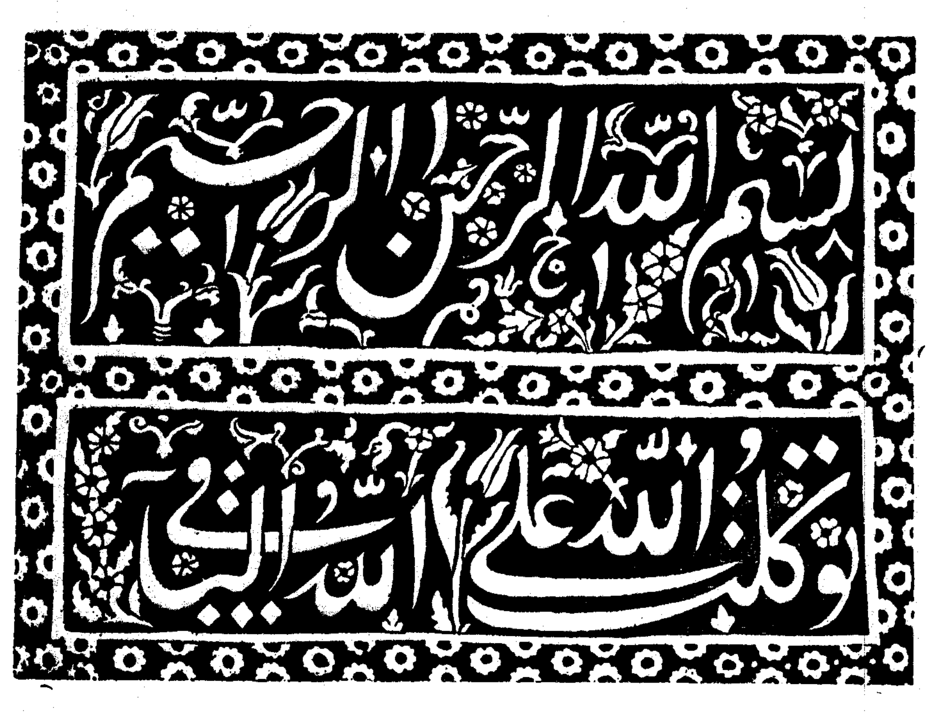
من الأمثال غيرَ قليل ، ومن يُدَقِّق فى حكمة سانْــكُو پانْسا يرَ قِسْمَها الـكبيرَ ، الذى لايَنْضِب مَعِينُه من أصلٍ إسلامىّ .

وإننى ، تنويراً للقارئ ، أنقلُ بعضَها الآتى من كتاب مسيو پياس :

« العيشُ تحت جَنَاح الذُّبابَة خيرٌ من النوم فى الجَبَّانَة * .

« استَفِدْ من شَبابِكَ فالعمرُ قصير * .

« انْسَ هُمُومَكَ فى ليلتك ما دمتَ جاهلاً ما فى غدِك * .



٢٢٥ ـ كتابة عربية حديثة وجدها المؤلف فى بيت بدمشق

« عاشِرْ حدَّاداً تُضرَّج بالسِّناج[1] ، وعاشِرْ عطَّاراً تنَلْ شَذَا الأزهار * .

« خشبةٌ تلْهِب المَحَبَّة * .

« مَنْ يتزوج امرأةً من أجْلِ جمالها يُخْدَع ، ومَنْ يتزوَّجها من أجْلِ مالها يطْمَعْ ، ومنْ يختَرْها من أجْلِ رشادها يُمتَعْ * .

(١) السناج : أثر دخان السراج فى الحائط .

« إذا ما أحبكم النساء فتحْنَ لـكم الأسدادَ ، وإذا ما كَرِهْنَـكم أقمن أمامكم سوراً من خيط العنكبوتِ كأنه من صُنْع حدَّاد ».

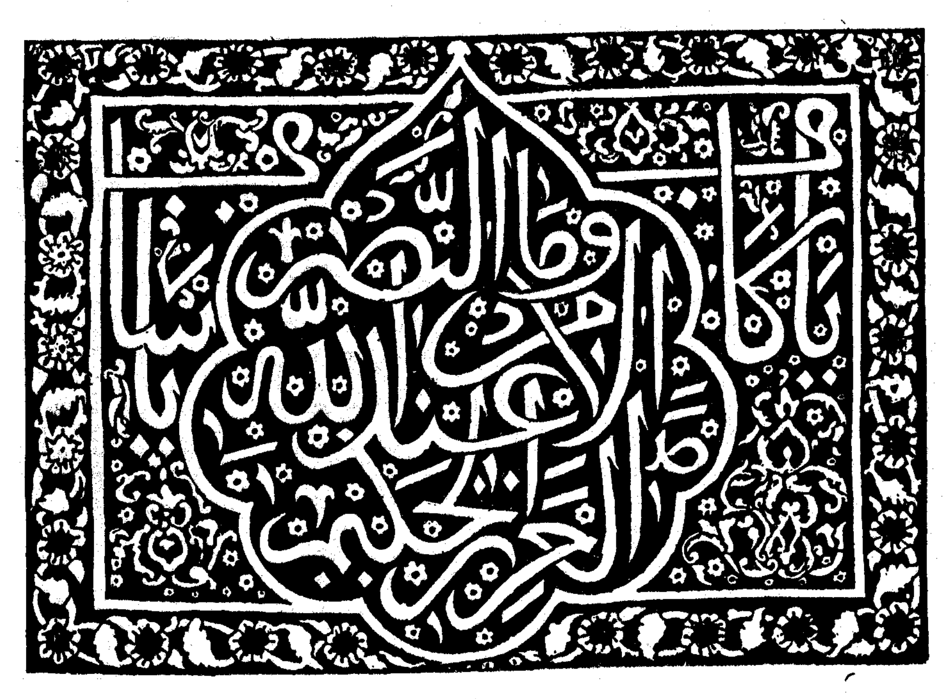
« راحةُ بالٍ مع فقرٍ خيرٌ من همٍّ مع يُسْر ».

« لا تدْخُل الذُّبابة فماً يستطيع السكوت ».

« التدبيرُ نصفُ المعيشة ، وقد يكون به كلُّ المعيشة ».

« لا تَلِدُ الفأْرَةُ إلّا فأرة ».

« الشجرةُ التى تُخْرِج الوردَ تُخْرِج الشّوكَ ».



٢٢٦ ـ كتابة عربية حديثة وجدها المؤلف فى بيت عربى بدمشق

« شاوِر من يُبْـكِيكَ لا من يُضْحِكك ».

« فى الصّلاح سِرُّ النجاح ».

« ثلاثةٌ خيرٌ من ثلاثين : الجمالُ والتقوى وكِتمانُ الهوَى ».

« مَنْهُومان[1] لا يَشْبَعان : طالبُ علم وطالب مال .

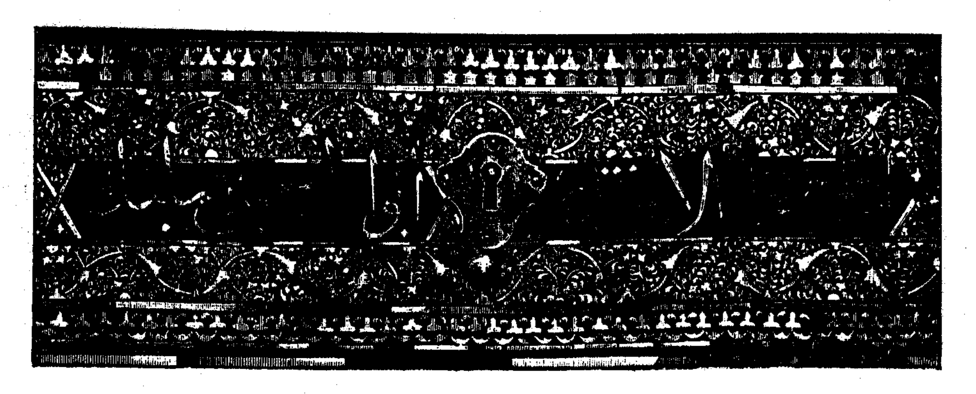
---

(١) المنهوم : ذو النهم ، من نهم فى الأكل : شره وحرص وأفرط فيه .

التاريخ : — مؤرخو العرب كثيرون،وقد عَدَّ حاجِّي خليفةوحدَه فى مكتبته الشرقية (كشف الظنون) ١٢٠٠ مؤرخ عربىّ ، وكان يُعْوِزُ مؤرخى العرب روحُ النقد على العموم ، كما كان يُعْوِزُ جميعَ مؤرخى القرون الوسطى ، وكما يُعْوِزُ الكثيرين ممن قلَّدهم من الكُتَّاب المعاصرين ، وقد قلت « على العموم » لوجود مؤرخين قليلين بلغوا درجةً عالية من تلك الروح المسيطرة كابن خلدون .

ونذكر من قدماء مؤرخى العرب الطبرىَّ الذى ألَّف ، فى أواخر القرن التاسع من الميلاد، تاريخاً عامًّا عن الزمن الذى مَرَّ منذ بدء العالم إلى سنة ٩١٤ م ، ونذكر من مؤرخى العرب المشهورين المسعودىَّ الذى عاش فى القرن العاشرمن الميلاد فأَلَّف عِدَّةَ كتبٍ فى التاريخ ، ككتاب أخبارالزمان وكتاب مُرُوج الذهب ، إلخ . قال مسيو كاترمير عن المسعودىِّ : « إذا مانظر الإنسان إلى كُتُبه بُهِتَ من تنوُّع الموادِّ التى كَتَب فيها ، ومن كثرة المسائل المهمة العويصة التى حَلَّها ، والحقُّ أنه كان واسعَ الفضل فى الزمن الذى نَبَغ فيه ، لا لأنه قرأ جميع الكتب الخاصَّة بالعرب وتأمَّل فيها فقط، بل لإحاطة مباحثه الواسعة بتاريخ اليونان والرومان وجميعِ أمم الشرق حديثِها وقديمها أيضاً » .

وألَّف مؤرخو العرب كتباً كثيرة فى التاريخ العام ، ونذكر منهم أبا الفرج الذى توفِّىَ سنة ١٢٨٦ م .



٢٢٧ — جزء من كتابة صندوق فارسى مرصع بالصدف (مجموعة شيفر)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ويتَّصِف ابن خلدون ، الذى وُلِد فى سنة ١٣٣٢ م ، بروح النقد التى تكلمنا عنها آنفاً ، وألَّف ابنُ خلدون تاريخ البربر حيث عَرَضَهم بادئاً بمبادئ رائعةٍ فى النَّقْد التاريخىِّ ، وتُرْجِم كتابُه هذا إلى الفرنسية .

وألّف المقريزىّ ، المعاصرُ لابن خلدون ، تاريخاً عن مصرَ يُعَدُّ أحسنَ مصدر للبحث فيها ، ويظهر أن هذا التاريخ قِسْمٌ من ثمانين مجلدا له فى التاريخ العام .

وألّف النُّوَيْرِىُّ ، المتوفَّى فى مصر سنة ١٣٣١ م ، موسوعةً تاريخية كبيرة .

وألّف صاحب حماة أبو الفداء ، المتوفّى سنة ١٣٣١ م ، والمشهورُ بأنه من علماء التاريخ والجغرافية ومن رجال الحرب معاً ، كتاباً فى أخبار البشر عظيمَ الفائدة فى معرفة ماهو خاصٌّ بالشرق .

وكُتُبُ التراجم عند العرب كثيرةٌ أيضاً ، وأشهرُها كتابُ المكتبة الشرقية (كشفُ الظنون) الذى ألّفه حاجّى خليفة المتوفّى سنة ١٦٥٨ م ، والذى هو مُعْجَم لأسماء نحو ١٨٫٥٠٠ كتاب شرقىّ والذى ألْحَقَ فيه اسم كلِّ كتاب منها باسم مؤلفه مع بيانٍ عنه .

البيان والبلاغة : — اهتمّ مؤلفو العرب بالأسلوب كثيراً ، وكَثُرَت كتبهم فى البلاغة والنحو ، فأحصى الغزيرىُّ فى مكتبة الإسكوريال ، وهى التى ليس فيها سوى القليل من كُتُب الأدب العربىِّ ، التى تفَلّتت من يد الإبادة والتخريب ، أكثرَ من ثلاثمئة كتابٍ فى البلاغة ، ولم تُنقَل هذه الكتب إلى اللغات الأخرى ، ولا أرى كبيرَ فائدةٍ فى نقلها إليها ، لأن من شأن علم النحو والبلاغة تهذيبَ الأسلوب ، لا ابتداعَه ، ولأن بدائعَ الفن ، لا كتبَ النحو ، هى التى يجب درسها للحكم فى آداب الأمة ، ولأن علم النحو وعلم البلاغة وليدا آداب الأمة .

ولا نستطيع أن نحكم فى بلاغةالعرب من رسائلهم فى البيان وفىالنحو ، وما كان العربُ ليَعْرِفوا غيرَ البلاغة الدينية خارجَ التعليم الجامعىِّ ، وما كان نظامهم السياسىُّ ليحتمل غيرَ هذا ، والحقُّ أن البلاغة الدينية ذاتُ سلطان عظيم على النفوس فى الشرق ، ولكن ما أسفرت عنه قرائحُ خطبائهم لم يَنْتَهِ إلينا .

وليس ماتقدم سوى خلاصةٍ لخلاصةِ تاريخ آداب اللغة العربية ، ومع ذلك فإنه يكفى للإلمام بأهمية آثارهم الأدبية وتنوعها ، ولن يكون لنا هدفٌ غيرُ هذا فى كتابٍ مُجْمَل كهذا الكتاب .

الفصل الثالث

الرياضيات وعلم الفلك

١ — الرياضيات

اتَّسع البحث فى الرياضيات ، ولا سيما علمُ الجبر ، عند العرب ، وعُزِىَ إلى العرب اكتشافُ علم الجبر ، ولكن أصوله كانت معروفة منذ زمن طويل ، ومع ذلك فقد حَوَّل العرب علمَ الجبر تحويلاً تامًّا ، وإليهم يَرْجِع الفضل فى تطبيقه على علم الهندسة .

وبلَغَ علم الجبر من الانتشار بين العرب ما ألّف معه محمد بن موسى كتاباً مُوطّئاً له بأمر المأمون فى أوائل القرن التاسع من الميلاد ، ومن ترجمة هذا الكتاب اقتبس الأوربيون معارفَهم الأولى لعلم الجبر ، بعد زمنٍ طويل .

وأقْتَصِرُ على ذكر أهمّ أعمال العرب الرياضية بإيجاز ، لِمَا فى بيانها مفصلاً من الدخول فى الدقائق الفنية ، وأقول إن العرب هم الذين أدخلوا المماسّ إلى علم المُثَلّثات ، وأقاموا الجيوبَ مقامَ الأوتار ، وطَبّقُوا علم الجبر على الهندسة ، وحَلُّوا المعادلاتِ المُكَعَّبة ، وتَعَمَّقُوا فى مباحث المخروطات ، وحَوّلوا علم المثلثات الكُرِيّة بردّهم حلّ مثلثات الأضلاع إلى بضع نظرياتٍ أساسية تكون قاعدةً له .

ولإدخال المماسّ إلى علم المثلثات أهميةٌ عظيمة ، واسمع ماقاله مسيو شال فى كتابه « خلاصة تاريخ أصول الهندسة » : « لم تؤثر تلك الثورة العلميةُ المباركة ، التى أدّت إلى طرح تلك الطرق المركبة الثقيلة فى الجيب ، وتمام الجيب ، فى علماء القرون الحديثة إلا بعد مرور خمسمئة سنة ، وذلك بدعوة ريجيو مونتانوس ، وإنْ جَهَل تلك الثورة كُوپِرْنيكُ الذى ظهر بعد نحو قرن » .

٢ — علم الفلك عند العرب

عِلم الفلك هو من أَوَّل ما اعْتُنِيَ به فى بغداد ، ولم يَدْرُس العربُ وحدَهم مسائلَه ، بل سار على طريقهم وارثوهم أيضاً ، ولا سيا حفيدُ تيمورلنك ، أولوغ بك ، الشهيرُ بزِيجه ، والذى يمكن عَدُّه المثلَ الأخير لمدرسة بغداد التى دام زمن ازدهارها سبعة قرون (٧٥٠ م — ١٤٥٠ م) .

وكانت بغدادُ مركزاً مهمًّا لمباحث علم الفلك ، ولكنها لم تكن مركزَ هذه المباحثِ الوحيدَ ، فالمراصدُ التى كانت قائمة فى البلاد الممتدة من آسية الوسطى إلى المحيط الأطلنطىّ كثيرة ، ومنها ما كان فى دمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطُلَيْطِلَة وقرطبة ، إلخ .

وأهمُّ مدارس الفلك ما كان فى بغدادَ والقاهرةِ والأندلس ، ولْنَقُلْ كلمة عن كلٍّ واحدةٍ منها :

أخذ خلفاء بنى العباس ، منذ اتخاذهم مدينةَ بغدادَ ، التى أُقيمت سنة ٧٦٢ م ، عاصمةً لدولتهم ، يَحُثُّون على دِراسة علم الفلك والرياضيات وعلى ترجمة ما ألَّفَه أقليدس وأرشميدس وبطليموس وترجمةِ جميع كتب اليونان فى تلك العلوم ، ويستدعون العلماء الذين كانوا على شىء من الشهرة إلى بلاطهم .

وأدَّت مدرسة بغدادَ الفلكيةُ فى زمن هارون الرشيد ، وفى زمن ابنه المأمون (٨١٤ م-٨٣٣م) على الخصوص ، إلى أعمالٍ مُهِمَّة ، وأُدْمِجت مجموعةُ الأرصاد التى تمَّ أمرها فى المراصد ببغدادَ ودمشقَ فى كتاب « الزِّيج المُصَحَّح » الذى نأسف على ضَياعه ، ومع ذلك يمكننا أن نعلم صحة الأرصاد التى اشتمل عليها هذا الكتاب من الدقة العظيمة التى عُيِّن بها انحرافُ سمت الشمس فى ذلك الزمن ، فقد كان رَقْمُ الانحراف ، كما حُقِّق فيه ، ٢٣ درجةً و ٣٣ دقيقةً و٥٢ ثانيةً ، أى مايَعْدِل الرَّقْمَ الحاضر .

ونشأ عن رَصْد العرب للاعتدال الشمسىِّ تعيينُهم مدة السنة بالضبط ، وأَقْدَمَ العربُ على قياس خَطٍّ نصف النهار الذى لم يُوَفَّق له إلا بعد مرور ألف سنة،وأنجزوا هذا القياسَ بحسابهم المسافة الواقعة بين نقطة البُداءة التى سار منها الراصدون ونقطةِ النهاية التى ظَهَرَ فيها اختلافٌ فى ارتفاع القطب درجةً واحدة ، ولم نَعْلَمْ النتيجةَلجهلنا المقدارَ الصحيح لوَحْدة الطول التى اصطلحوا عليها ، ونستبعد ، مع ذلك ، أن يكون الرَّقْمُ الذى تَوَصَّلوا إليه صحيحاً تماماً بعد النظر إلى قِصَر ذلك الخط .

ونذكر من أعمال فلكيي مدرسة بغدادَ الأخرى ماوضعوه من التقاويم لأمكنة الكواكب السيارة وتعيينهم بالضبط مُبادَرَةَ الاعتدالَيْن .

وقد انتهت إلينا أسماء بعض علماء الفلك فى ذلك الزمن ، ومن أشهرهم البَتَّانِيُّ الذى عاش فى القرن التاسع وتُوُفِّيَ سنة ٩٢٩ م ، والذى كان له من الشأن بين العرب ما لبطليموس بين الأغارقة ، وقد احتوى كتابه « زِيجُ الصابى » على معارف زمنه الفلكية كما احتوى كتاب بطليموس ، ولم يَصِلْ إلينا النصُّ الأصليُّ لأزياجه التى لم تَعْرِفها أوربة إلا من ترجمتها اللاتينية المُحَرَّفة مع الأسف ، ووضعَ لالاندُ الشهيرُ البَتَّانِيَّ فى صَفِّ الفلكيين العشرين الذين عُدُّوا أشهرَ علماء الفلك فى العالم .

وأَلَّف أماجورُ وابنُه ، اللذان قاما برَصَدٍ بين سنة ٨٨٣ م وسنة ٩٣٣ م ، أزياجاً ، وذهب هذا الأخير إلى تَحَوُّل حدودِ أكبر دائرةٍ من دوائر عرض القمر، خلافاً لمن تَقَدَّمه من علماء الفلك، ولاسيما بطليموسُ ، فأدى درسُ هذا الشذوذ فى دوائر عرض القمر إلى اكتشافِ اختلافٍ قمريٍّ ثالث .

واشتهر أبناء موسى بن شاكر الثلاثةُ ، الذين عاشوا فى القرن التاسع من الميلاد ، بأنهم من علماء الفلك أيضاً ، فقد عَيَّنوا بضبطٍ لم يكن معروفاً قبلهم مُبادرةَ الاعتدالَيْن ، ووضعوا تقاويمَ لأمكنةِ النجوم السَّيَّارة ، وقاسوا عرض بغداد فى سنة ٩٥٩ م ، وقَيَّدوه ٣٣ درجة و ٢٠ دقيقة ، أى برَقْمٍ يَصِحُّ بعَشْرِ ثوانٍ تقريباً .

وأشهرُ علماء الفلك الكثيرين الذين ظهروا بعد أولئك هو أبو الوفاء المتوفى ببغدادَ فى سنة ٩٩٨ م ، ومما عَرَفه هذا العالمُ الفلكيُّ هو الاختلافُ القمريُّ الثالث الذى أشرنا إليه آنفاً ، وذلك كما ظهر من كتابه العربيِّ الخطيِّ المُهِمِّ الذى عَثَر عليه سيديُّو منذ بضع سنين ، وذلك أنه استوقف نظره مافى نظرية بطليموس من النقص فى أمر القمر فبحث فى أسبابه فرأى اختلافاً ثالثاً ، غيرَ المُعادَلة المركزية والاختلافِ الدَّوْرِيِّ ، يُعْرَف اليوم بالاختلاف .

والحقُّ أن هذا الاكتشاف ، الذى عُزِيَ بعد أبى الوفاء بستمئة سنة إلى تيخو براهه ، عظيمٌ إلى الغاية ، فقد استدلَّ مسيو سيديُّو به على وصول مدرسة بغداد ، فى أواخر القرن العاشر ، إلى أقصى ما يُمْكِن علمَ الفلك أن يَصِل إليه بغير نَظّارة ومِرْقَب .

وكان أبو الوفاء مُجَهَّزاً بآلات مُتْقَنة ، فقـد شاهد انحرافَ سَمْت الشمس بربْع دائرة يَبْلُغُ نِصْفُ قطرِها إحدى وعشرين قدماً ، أي يَبْلُغُ من الاتساع مايُعَدُّ كبيراً فى المراصد الحديثة .

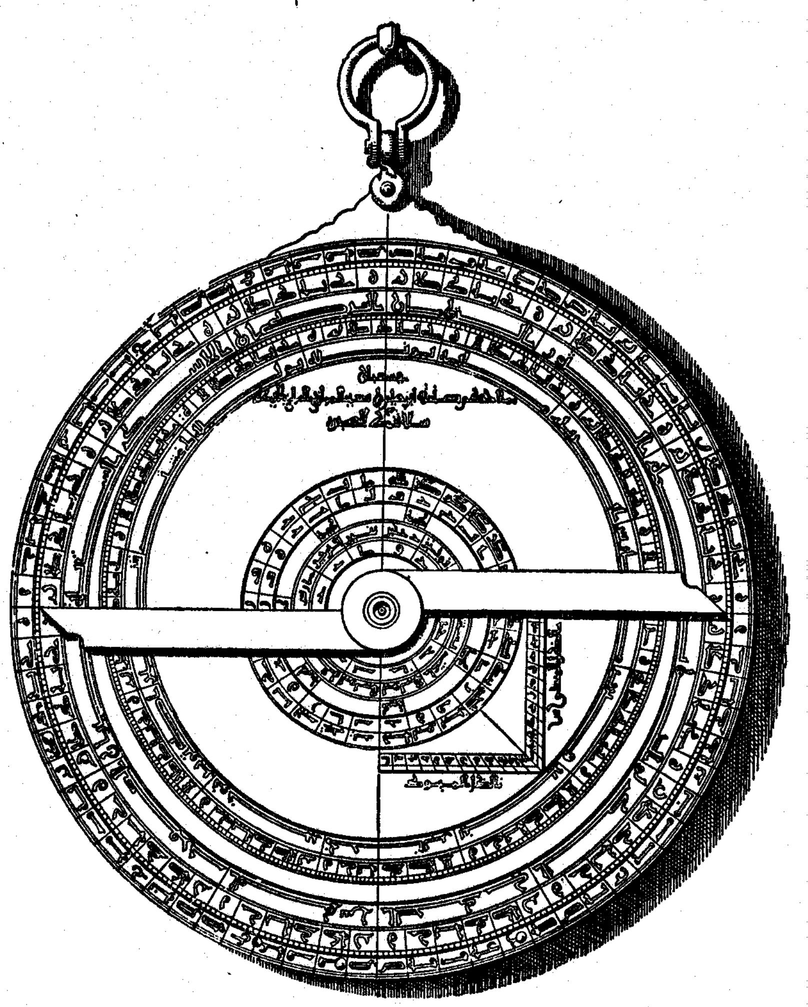
والحوادث التى أدَّت منذ أواخر القرن العاشر إلى انحطاط سلطان الخلفاء السياسىِّ ببغدادَ أوجبت فتوراً فى الدِّراسات ، ونشأ عن انقسام الدولة ومغازى السلجوقيين والحروب الصليبية وغارات المُغول اضطرابُ البـلاد وقيـامُ القاهرة وجامعـاتِ الأندلس العربية العظيمة مقامَ بغـدادَ فى زَعامة الإسلام العلمية .

ومع ذلك لم تَـكُفَّ بغدادُ عن مزاولة العلوم، وكان حبُّ العرب للعلوم من القوة بحيث لم تمنعهم الحروبُ والفِتَن الأهلية وغارات الأجنبىِّ من الاهتمام لها ، وبَلَغَ العرب من سِعَة المعارف ما أثَّروا معه تأثيراً كبيراً فى قاهريهم ، وما صار معه هؤلاء الغالبون حُماةً لهم من فَوْرِهم .

ولا شىءَ يُورِث العَجَب أكثرُ من انتصار حضارة العرب على همجية جميع الغُزاة ومِنْ تخرُّجِ هؤلاء الغُزاة ، من فوْرهم، على مدرسة العرب المغلوبين، فقد دام عمل العرب فى حَقْل الحضارة إلى مابعد زوال سلطانهم السياسىِّ بزمن طويل ، وقد دام بفضل ذلك تقدمُ بغدادَ العلمىُّ بعد أن صارت قَبْضَة الأجانب ، وقد داومت مدرسة بغداد الفلـكية على ازدهارها إلى أواسط القرنِ الخامسَ عشرَ من الميلاد ، ولم تنقطع عن نشر رسائلَ مهمةٍ فى الفلك ، ومن ذلك أن نشر البيرونىُّ ، والذى كان مشيراً للسلطان محمودٍ الغزنوىِّ (سنة ١٠٣٠ م) ، مقالتَه فى « تصحيح الطول والعَرْض لمساكن المعمور من الأرض » ، والبيرونىُّ هـذا زار بلاد الهند وعَلَّم الهندوسَ ما انتهت إليه مدرسة بغداد ، ومن ذلك أن أَمَرَ السلطانُ مَلِـكْشاه السلجوقىُّ ، فى سنة ١٠٧٩ م ، بالقيام بأرصادٍ أسفرت عن إصلاح التقويم السنوىِّ بما هو أفضل من التقويم الغريغورىِّ الذى تَمَّ بعد ستمئة سنة ، وذلك لأن التقويم الغريغورىَّ يُؤَدِّى إلى خطأ ثلاثة أيام فى كلِّ عشرة آلاف سنة ، مع أن التقويمَ العربىَّ لا يؤدى إلّا إلى خطأ يومين فى مثل ذلك الزمن .

ولم يـكن المغول أقلَّ اعتناء بالعلماء من السلجوقيين ، فقد استدعى هلاكوخان فى سنة ١٢٥٩ م أفضلَ علماء العرب إلى بَلاطه ، وأقام فى مراغة مَرْصداً كبيراً نَمُوذَجيًّا ، ولم يلبث كوبلاى خان ،

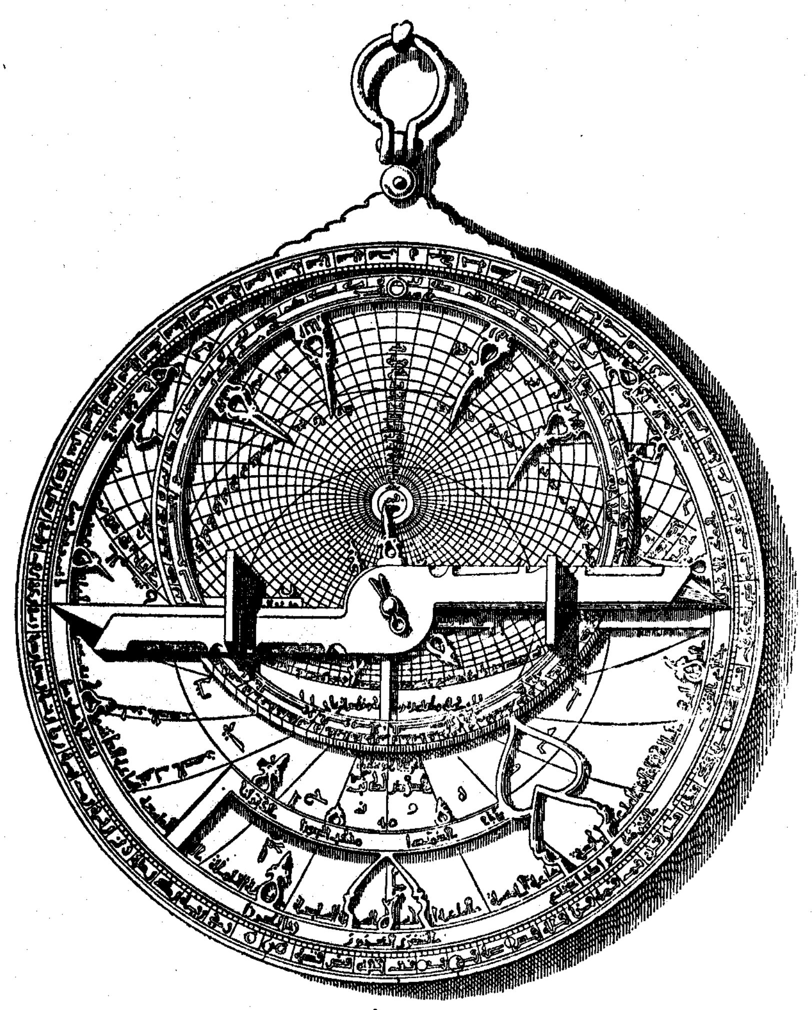
الذى هو أخٌ لهلاكو ، أن نقل إلى بلاد الصين التى افتتحها كتبَ علماء بغداد والقاهرة فى علم الفلك ، واليومَ نعلم أن فلكيي الصين ، ولا سيما كُوشو كِنغ (١٢٨٠) ، استنبطوا معارفَهم الفلكية الأساسية من تلك الكتب ، ولِذا نقول إن العرب هم الذين نشروا علم الفلك فى العالم كلِّه بالحقيقة .



٢٢٨ ــ أصطرلاب عربى قديم (متحف العاديات الإسبانى)

ولما استقرَّ تيمورلنك بسمرقندَ ، التى اتخذها عاصمةَ دولته العظمى المشتملةِ على التركستان و بلاد فارس والهند ، جَمع حَوْلَه فريقاً من علماء العرب ، ولما آل سلطان سمرقندَ إلى حفيده أولوغ بك الذى عاش فى القرن الخامسَ عشرَ من الميلاد أقبل على علم الفلك بنشاط عظيم ، وأحاط نفسَه بعدد غير قليل من علماء المسلمين ، واستطاع ، بما لديه من الغِنَى ، أن يصنع آلاتٍ رَصَدِيَّةً كانت غيرَ معروفة قبل

ذلك التاريخ ، فزُعِمَ أنه أنشأ ربعَ دائرة يبلغ نصف قطرها ارتفاعَ كنيسة أياصوفية فى القسطنطينية ، ويمكن عَدُّ أولوغ بك ، الذى لا يَفْصِلُه عن كِيپْلر سوى قرنٍ ونصف قرن ، آخرَ ممثلٍ لمدرسة بغداد الفلـكية ، أى أداةَ وصْلٍ بين القدماء والمتأخرين لِماَ قام به من الأعمال المهمة .



٢٢٩ ــ الوجه الثانى للأسطرلاب السابق

ويُعَدُّ الـكتاب الذى نَشَرَه أولوغ بك ، سنة ١٤٣٧ م ، صورةً صادقةً عن المعارف الفلـكية التى انتهت إليها المدرسة العربية فى أواسطِ القرنِ الخامسَ عشرَ من الميلاد ، وقد بحث المؤلف فى القسم الأول من هذا الـكتاب فى مسائل علم الفلك ، ودرس فيه أقسامَ الوقت وموضوعَ التقويم ومبادئَ علم الفلك العامةَ ، ثم موضوعاتِ هذا العلمِ العمليةَ كحساب الـكسوف والخسوف وتأليفِ الأزياج

واستعمالها ، إلخ ، وتشتمل هذه الأزياجُ على فهارس الكواكب وحركاتِ القمر والشمس والكواكب السَّيَّارَة ، وطولِ أهَمِّ مُدُن العالم وعرضها ، ومن هذه المدن مدينةُ سمرقندَ التى ذكر أن عرضها ٢٩ درجة و ٢٧ دقيقة و ٢٨ ثانية ، فلم أجِدْهُ فى كتب المعاصرين .

وخُتِمَ هذا الكتابُ بمباحثِ فَنِّ التنجيم الخيالىِّ الذى كان معتبراً كثيراً فى زمن أولوغ بك .

وأدى اشتغالُ أولوغ بك بفَنِّ التنجيم إلى قتله ، وذلك أنه تخَيَّل ، من اقترانات بعض الكواكب السيارة ، أن ابنه البِكْر سيقتله ، وأنه جرَّد ابنَه هذا من مناصبه ، وأن هذا الابن ثار على أبيه من فَوْرِه وغَلَبَه ، وأن أباه أولوغ بك ، هَرَب إلى التركستان ، ثم رَجَع إلى سمرقند على الرغم من نبوءة النجوم فقتله ابنُه .

ومع ذلك فإن جميع علماء الفلك اعتقدوا صحة فَنِّ التنجيم ، ومنهم فلكيو أوربة إلى زمن قريب ، حتى إن كِبِلِرَ العظيمَ نفسَه كان على هذا الاعتقاد ، فألَّف تقاويمَ نَبَوِيَّة .

ونَذْكُر ، بجانب مدرسةِ بغدادَ الفلكيةِ ، مدرسةَ القاهرة التى أخَذَت ، بعد أن فُصِلَت عن بغدادَ فى أواخر القرن العاشر من الميلاد ، تُنافِسها فى ميدان العلم ، فقد اعتنى وُلاة أمورها بعلم الفلك اعتناءَ وُلاةِ أمورِ بغدادَ به ، وقد أصبح المرْصَدُ الذى أنشأوه على جبل المُقَطَّم ، القائمةِ عليه القلعةُ فى الوقت الحاضر ، من الطِّراز الأول ، وفى مَرْصَد القاهرة وَضَع ابنُ يونس ، المتوفَّى سنة ١٠٠٧ م ، وذلك فى عهد الحاكم (٩٩٠ ـ ١٠٢١ م) ، الزِّيج الكبير الذى سمَّاه « الزِّيجَ الحاكمىَّ » والذى حَلَّ محلَّ الأزياج التى وُضِعَت قبله ، واستُنْسِخ الزِّيجُ الحاكمىُّ فى جميع كتب علم الفلك ومنها الكتابُ الذى ألَّفَه كُوشو كِنْغ فى الصين سنة ١٢٨٠ م .

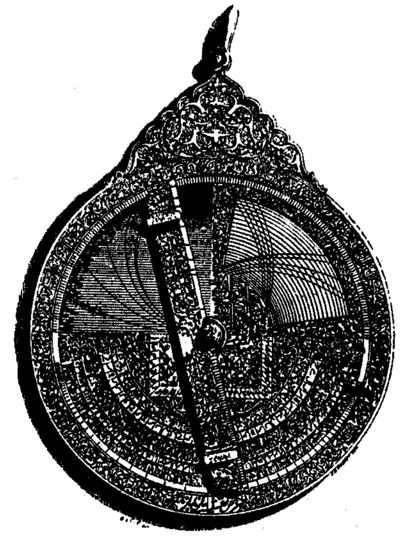
وروَى ابنُ السنبدىّ ، الذى كان يقيم بالقاهرة سنة ١٠٤٠ م ، أن مكتبة هذه المدينة كانت تشتمل ، فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، على كُرَتَيْن فلكيتين وستةِ آلافِ كتابٍ فى الرياضيات وعلم الفلك .

ولم تكن آثار العرب الفلكية فى الأندلس أقلَّ أهميةً من آثار المسلمين الفلكية فى المشرق ،

ولكنه لم يبق منها سوى القليل لإبادة جميع مخطوطاتها تقريباً إبادة مُنَظَّمَةً ، ولم تُتَرْجَم هذه الآثارُ القليلة التى نَجَت من التحريق ، ونُرَجِّح أنها لن تترجم لِمَا تقتضيه من معرفةٍ تامةٍ للغة العرب وللاصطلاحات الفنية التى لا يَعْلَمها غيرُ المتخصصين .

ولا نَعْرِف عن أكثر فلكيي العرب فى الأندلس شيئاً غيرَ أسمائهم ، ولا نعلم عن كتبهم غيرَ إشاراتٍ موجزة تكفى لبيان أهميتهم ، ومن ذلك أن ولد الزرقيال ، الذى كان حيًّا حوالَىْ سنة ١٠٨٠ م ، قام بـ ٤٠٢ رَصدٍ ليُعَيِّن البُعْدَ الأَقْصَى للشمس ، وأنه عَيَّن مقدار حركة المُبادرة السنوية لنُقْطَتَى الاعتدالَين بخمسين ثانيةً ، أى ما يَعْدِل ما جاء فى أزياجنا الحديثة بالضبط ، وأنه كان يَرْقُب الأفلاكَ بآلاتٍ اخترعها بنفسه ، وأنه صَنَع ساعاتٍ دَقّاقَةً أُعْجِب بها الناسُ فى طُلَيْطُلَة أيَّمَا إعجاب .

وإذ لم تكن كتب عرب الأندلس فى علم الفلك موجودةً ، أمكن الاستدلالُ على ما احتوته بما جاء فى كتبِ نصارى ذلك الزمن ، ومن ذلك ما تَوَصَّل إليه سيديُو (الذى دَرَس رسائل الملك الأذفونش العاشرِ القشتالىِّ الفلكيةَ وما ماثلها) من النتائج القائلة إن العرب سبقوا كِپْلِر وكوپرنيك فى اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكلٍ بَيْضِىّ وفى نظرية دَوَران الأرض ، وإن أزياجَ الأذفونش العاشر المسماةَ « الأزياجَ الأذفونشية » مأخوذةٌ عن العرب .



٢٣٠ ــ وجه سابق لأسطرلاب عربى محفوظ فى المكتبة الوطنية بباريس (من صورة فوتوغرافية)

وكان علماء الفلك فى إفريقية ، ولا سيما طنجةُ وفاسُ ومَرّاكُش ينافسون علماءَ الفلك فى الأندلس ، ولكننا نجهل آثارَهم جهلَنا لآثار علماء الأندلس ، ونَعْلَم ، مع ذلك ، أن أبا الحسن المَرّاكُشىَّ ، الذى كان يَعيش فى القرن الثالث عشرَ من الميلاد ، عَيَّن ، بضبطٍ لم يَسْبِقه إليه أحدٌ ، العرضَ والطولَ لإحدى وأربعين مدينة إفريقيةً واقعةً بين مَرّاكُش والقاهرة ، أى ما مسافتُه تسعمائة فرسخ ، وأنه قَيَّد مشاهداتِه فى كتابه « جامع المبادئ والغايات فى علم الميقات » الذى اشتمل على معارفَ ثمينةٍ لآلات الرَّصد العربية ، فترجم سيديُو بعضَه .

ولم يَعْرِف العربُ سوى المِزْوَلَة لتعيين الوقت بالضبط ، ولم تكن ساعاتهم صالحة للمباحث الفلكية الدقيقة لعدم تطبيقهم الرّقّاصَ عليها .

وكان العرب يُعَيِّنون الزوايا بأرباع الدائرة والأَسْطُرلاب ، وقد وَصَل إلينا عددٌ غيرُ قليلٍ من الأَسْطُرْلابات ، ويوجد في مكتبة باريسَ الوطنيةِ وحدَها ثلاثة أَسْطُرْلابات ، فنشرنا صورةً لأحدها في هذا الكتاب، فمن يُنْعِم النظرَ في تركيبها يَعْلَم أنها دالّةٌ على حِذْق كبير ، وأنه يَصْعُب صنعُ ماهو أحسنُ منها في الوقت الحاضر .



٢٣١ ـ وجه لاحق لذلك الأسطرلاب
(من صورة فوتوغرافية)

ويَسْهُل بيانُ تركيب الأَسْطُرْلاب ، فهو مُؤَلَّف من قُرْصٍ مَعْدِنِيّ مُقَسَّم إلى درجات ، ويدور على هذا القُرْص عَدَّادٌ ذو ثَقْبَين في طَرَفَيْه ، ويُعَلّق الأَسْطُرْلاب من حَلْقَته تعليقاً عموديًّا ، ثم يُوَجَّه العَدَّاد نحو الشمس ، فمتى مَرَّت أشعة الشمس من ذينك الثَّقْبَين قُرِئَ ارتفاع الكوكب من الحدِّ الذى وَقَف العَدَّاد عليه .

وكانت أرباع الدائرة كبيرةً في المرصد أحياناً، ولا فائدة من استعمالها في الوقت الحاضر بعد اختراع آلة فِرْنيه الدقيقة التى نَتَمَكّن بها من معرفة الدقائق والثواني في أصغر الآلات،ولكن بما أن حِيَازَةَ دائرةٍ مشتملة على تقسيم الدرجات إلى دقائقَ والدقائقِ إلى ثوانٍ ، تتطلب نصفَ قطرٍ كبير بحكم الطبيعة كان من عادة فلكيي العرب أن يكتفُوا بتقسيم الدقيقة إلى اثنى عشر قسماً ، فيَدُلُّ كلُّ قسم من هذه الأقسام على خمس ثوانٍ .

وكذلك كان العربُ يَقِيسون ارتفاع الشمس بامتداد ظلِّ مِيلٍ على سطحٍ أُفُقِيّ ، ويكون مِثْلُ هذا القياس دقيقاً عند ماتكون الآلة المنصوبة عالية .

وتَلَخّص اكتشافاتُ العرب الفلكيةُ بما يأتى : إدخال المماسّ إلى الحساب الفلكيِّ منذ

القرن العاشر من الميـــلاد ، ووضعُ أزياجٍ لحركات الـكواكب ، وتعيينٌ دقيق لانحراف سمت الشمس ونقصانه التدريجيّ ، وتقديرُ مُبَادَرَة الاعتدالَين بالضبط ، وتحديدٌ صحيح لمدة السنة ، وتحقيقٌ لشُذُوذِ أعظمِ عرضٍ للقمر ، وكشفٌ للاختلاف القمريّ الثالث المعروفِ بالاختلاف فى الوقت الحاضر والذى قيل إن تيخو براهه اهتدى إليه فى سنة ١٦٠١ م لأول مرة .



٢٣٢ ــ أسطرلاب عربى لفليب الثانى بإسبانية (متحف العاديات الإسبانى)

الفصل الرابع

العلوم الجغرافية

رِيادات العرب الجغرافية

كان العرب من السُّيَّاح المقاديم فى كلِّ وقت ، وكانوا لا يَخْشَوْن المساوفَ والمراحل ، واليومَ ، أيضاً ، نراهم يأتون مكة من أقصى البِقاع ، ويجوبون بقوافلهم داخلَ إفريقية كأمرٍ بسيطٍ،فيصادفهم فيها الأوربيون الذين لا يبلُغونها إلا بِشِقِّ الأنفس .

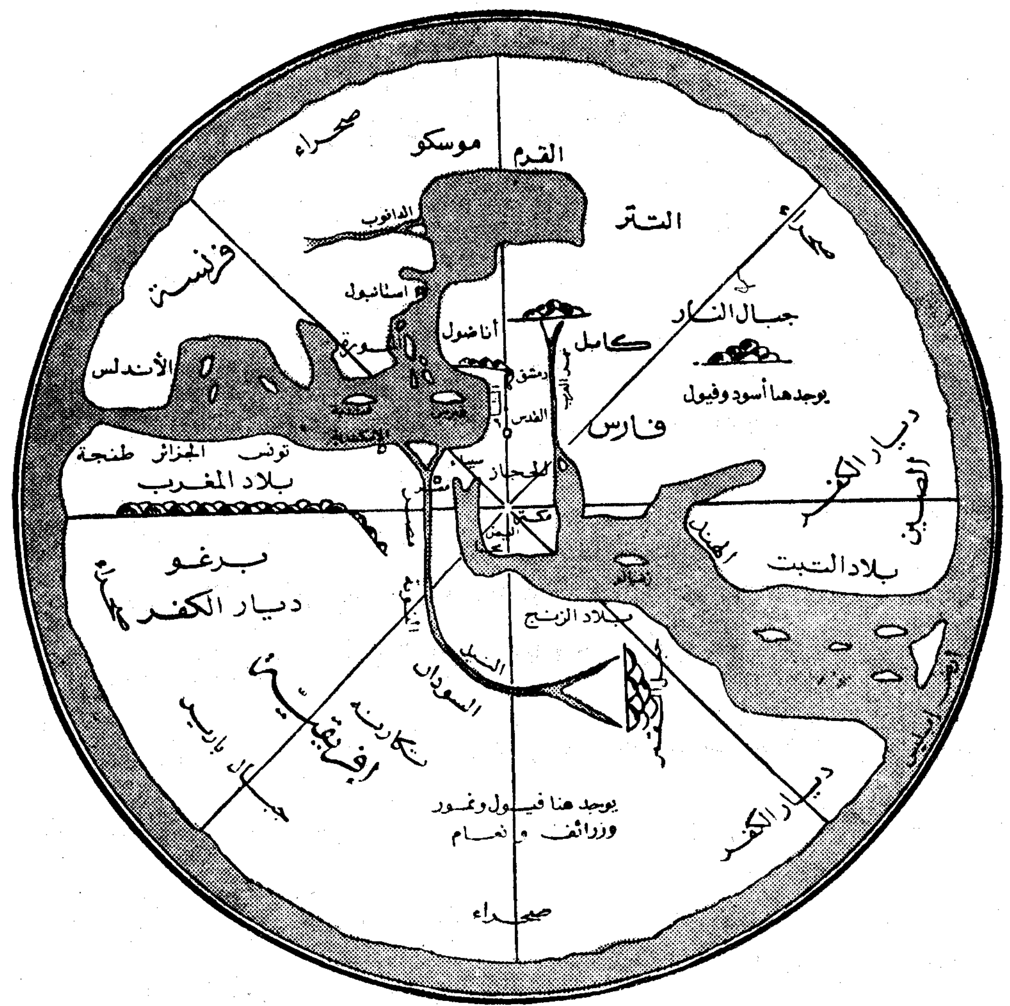
وكان للعرب ، منذ السنين الأولى من قيام دولتهم ، علائقُ تجاريةٌ بما كان الأوربيون يَشُكُّون فى وجوده من البلدان ، كالصين وبعض البقاع الروسية ومجاهل إفريقية إلخ .

والآن أُشير بإيجاز إلى أعمالهم الجغرافية وريادتهم وحدَها ، مادمتُ سأذكر ، فى الفصل الذى خَصَّصْته للبحث فى علاقات المسلمين التجارية ، البلادَ التى كانت لهم صلاتٌ تجارية بها والطرقَ التى كانوا يَسْلُكونها للوصول إليها .

وكانت طليعةُ رُوَّادِ العرب مؤلفةً من تجار يَسِيحُون للتجارة ، وعلى ما كان يُعْوِز هؤلاء من الاستعداد الضروريِّ للتأمل العلميِّ لم تَخْلُ رِحْلاتهم التجارية من طرائف مفيدةٍ فى بعض الأحيان .

حَقًّا لم يَخْرُج أمرُ سِياحات العرب القديمة التى انتهى إلينا خبرها عن ذلك المعنى ، ومنها سياحةُ التاجرِ سليمانَ لبلاد الصين فى القرن التاسع من الميلاد ، فقد أبحر سليمانُ من مرفأ سيرافَ الواقعِ على الخليج الفارسيِّ حيث كانت تَــكْثُر المراكب الصينية ، وجاوز المحيطَ الهندىَّ ، وبلغَ شواطىْ بلاد الصين ، وكَتَبَ رِحلته فى سنة ٨٥١ م ، ثم أكمل أحد أبناء وطنه أبو زيد كتابَ هــذه الرِحلة فى سنة ٨٨٠ م ، وأضاف إليها معارفَ أخذها عن عربٍ زاروا بلاد الصين .

وكتابُ سليمانَ ، الذى نُقِل إلى اللغة الفرنسية فى أوائل القرن الأخير ، هو أول مُؤلَّفٍ نُشِر فى بلاد الغرب عن بلاد الصين .



٢٣٣ ــ خريطة عربية وضعت فى أواسط القرن الثانى عشر من الميلاد (رسمها بريس الأفيني فى القاهرة)

وإذا كان سليمانُ باحثًا عاديًّا فغيرُ ذلك شأن المسعوديِّ الشهير الذى وُلِد ببغداد فى أواخر القرن التاسع من الميلاد ، فقد قَضى المسعوديُّ خمساً وعشرين سنة من حياته فى الطواف فى مملكة الخلفاء الواسعة وفى الممالك المجاورة لها كبلاد الهند ، وقَيَّد ماشاهده فى تآليفه الكثيرة المهمة التى نَعُدُّ كتابَ « مروج الذهب » أشهرَها ، قال المؤرخ العربيُّ العلامةُ ابن خلدون الذى ذكرناه غيرَ مرة والذى ظهر بعد المسعودى بأربعمئة سنة مايأتى :

« فأما ذِكْرُ الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أُسٌّ للمؤرخ تَنْبنى عليه أكثرُ مقاصده وتَتبَيَّن به أخبارُه ، وقد كان الناس يُفْرِدونه بالتأليف ، كما فعله المسعوديُّ فى كتاب مروج الذهب ، شرَحَ فيه أحوالَ الأمم والآفاق لعَهْده فى عصر الثلاثين والثلاثمائة (٩٤١ م) غرباً وشرقاً وذَكر نِحَلهم وعوائدهم ، ووَصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول ، وفرَّق شعوب العرب والعجم ، فصار إماماً للمؤرخين يرجِعون إليه ، وأصلاً يُعوِّلون فى تحقيق الكثير من أخبارهم » .

ثم بدأ ابن حوقل ، الذى وُلِد كالمسعوديِّ فى بغدادَ برِحْلاته بعد أن تمَّت رِحْلاتُ المسعوديِّ ، واسْمَعْ ما قاله ابنُ حوقل فى كتابه :

« قد عَمِلْتُ كتابى هذا بصفةِ أشكال الأرض ومقدارها فى الطول والعَرْض وأقاليم البلدان ومحلِّ الغامر منها والعُمْران ، من جميع بلاد الإسلام ، بتفصيل مدنها ، وتقسيم ما تفَرَّد بالأعمال المجموعة إليها ، وقد جعلتُ لكلٍّ قطعة أفردتُها تصويراً وشكلاً يَحْكى موضعَ ذلك الإقليم ، ثم ذكرتُ ما يحيط به من الأماكن والبقاع ، وما فى أضعافهـا من المُدُن والأصقاع ، وما لها من القوانين والارتفاع ، وما فيها من الأنهار والبحار ، وما يُحتاج إلى معرفته من جواملِ ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخَراجات والمَسافاتِ فى الطرُقات ، وما فيه من المَجالب والتِّجارات ، إذْ ذلك علمٌ يَتفَرَّد به الملوك والساسة وأهل المُروءات والسادةُ من جميع الطبقات » .

ورافق البيرونىُّ السلطانَ محموداً الغزنويَّ فى حملته التى جرَّدها على بلاد الهند فى سنة ١٠٠٠ م ، ونشر ما شاهده فى بلاد السِّند وشمال الهند ، وحاول البيرونىُّ أن يُصَحِّح خريطةَ تلك البلاد مستنداً إلى حسابه الفلكيِّ .

ويمكن أن نَعُدَّ من السياح أبا الحسن الذى عاش فى القرن الثالثَ عشرَ من الميلاد وذكرناه بين علماء الفلك ، فقد اجتاب بالحقيقة شمالَ إفريقية الممتدَّ من مَرَّاكُش إلى مصر ، وعَيَّنَ ، تعييناً فلكيًّا ، مواضعَ أربعٍ وأربعين مركزاً مهمًّا قاصداً تصحيحَ خريطة بطليموس عن الدوائر الإفريقية .

وآخِرُ رَحَّالةٍ عربىّ كبير نذكره هو ابن بطوطة الذى بدأ بسياحاته فى سنة ١٣٢٥م، مسافرا من مدينة طنجة المَرَّاكُشية ومُجَوِّلًا فى إفريقية الشمالية ومصرَ وفلسطين والعراق وشمال جزيرة العرب

إلى مكة ، وفى روسية الجنوبية والقسطنطينية ، إلخ . ، والذى ذهب إلى بلاد الهند مارًّا من بخارى وخراسان وقندهار ، فبلغ مدينة دهلى التى كانت من العواصم الإسلامية ، والتى أوفده سلطانُها إلى عاهل الصين فانتهى إلى بلاد الصين بحراً ، وقد زار فى طريقه إلى الصين سيلانَ وسومطرة وجاوة ، ووَصَل إلى المدينة التى تُعْرَف بپكين فى الوقت الحاضر ، ثم عاد إلى وطنه بطريق البحر .

ودامت تلك السِّياحات الأولى التى قام بها ابن بطوطة أربعاً وعشرين سنة ، ولكن ابن بطوطة لم يَشْعُر فى أثنائها بتَعَب ، فقد زار بعدها بلاد الأندلس وأوغل فى قلب إفريقية وانتهى إلى مدينة تَنْبَكْتُو ، وتوفِّىَ ابنُ بطوطة فى مدينة فاس سنة ١٣٧٧م بعد أن طاف ، تقريباً ، فى جميع العالم الذى كان معروفاً فى عصره ، فَرِيَادَاتٌ كالتى أتاها تكفى لتمجيد من يقوم بها فى زماننا أيضاً .

٢ — التقدم الذى حَقَّقه العرب فى الجِغْرافية

كان من نتائج رِيادات العرب ومعارفهم الفلكية التى ذكرتُها أن اتَّفَق لعلم الجِغْرافية تقدمٌ مهمٌّ ولا غَرْوَ فالعربُ الذين اتَّخَذُوا فى البُداءة علماء اليونان ، ولا سيما بطليموسُ ، أدِلَّاءَ لهم فى علم الجغرافية لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم .

كانت مواضع المدن الكثيرة التى عَيَّنها بطليموس تعييناً جِغْرافيًّا غيرَ مطابقة للحقيقة تماماً ، وبَلَغَ مقدارُ غَلَطِه فى تعيين طول البحر المتوسط وحدَه أربعمائة فرسخ .

ويكفى أن نقابل بين الأمكنة التى عَيَّنها الأغارقة والأمكنة التى عَيَّنها العرب ليَظْهَرَ لنا مقدارُ التقدم الذى تَمَّ على يد العرب ، فهذه المقابلةُ تَدُلُّ على أن مقدار العرض الذى حَقَّقه العرب يَقْرُب من الصحة بما لا يزيد على بضع دقائق ، وأن خطأ الأغارقة فيه بلغ درجاتٍ كثيرة .

وكان تعيينُ الطول صعباً على العرب وذلك لِمَا يُعْوِزُهم فى ذلك الحين من مقياسٍ للزمان (كرنومتر) ومن تقاويمَ مضبوطةٍ للقمر فكانت مَغَالِطُهم أظهرَ من ذلك ، وإن لم يَزِدْ على درجتين إلا نادراً ، أىْ وإن كانت دون غلط الأغارقة بمراحل .

حَقًّا أن أغاليط الأغارقة فى تعيين الطول كانت فاحشةً فى بعض الأحيان ، ومنها أن غلِطَ بطليموسُ ،

الذى اتخذ الإسكندريةَ مبدأً للطول ، فى طول طنجة نحو ١٨ درجةً فجعله ٥٣ درجةً و ٣٠ دقيقةً بدلًا من ٣٥ درجةً و٤١ دقيقةً ، ومنها أن جَعَل بطليموسُ فى تقاويمه طولَ المحور الكبير للبحر المتوسط الممتد من طنجة إلى طرابلسِ الشام تسعَ عشرةَ درجةً زيادة على الحقيقة ، أى مايَعْدِل أربعمائة فرسخ تقريباً ، مع أن غَلَط تقاويم العرب فيه أقلُّ من درجةٍ واحدة .

وكُتُب العرب التى انتهت إلينا فى علم الجِغْرافية مهمةٌ إلى الغاية ، وكان بعضها أساساً لدِراسة هذا العلم فى أوربة قروناً كثيرة .



٢٣٤ ــ خريطة الإدريسى العربية (١١٦٠) (من رسم ف . دوسان مارتان)

وأقدمُ كتاب نَعْرِفه عن العرب فى علم الجغرافية هو الكتاب الذى نشره النضرُ البصرىُّ

فى سنة ٧٤٠م ففى هذا الكتاب عالج النضرُ مختلف الموضوعات التى لا تَمُتُّ إلى علم الجغرافية بصِلةٍ فى الغالب ، والتى يلوح أنها خاصةٌ بأعرابٍ على الخصوص .

ثم جاء الإصطخرىُّ ، فألف كتاب الأقاليم فى أواسط القرن التاسع من الميلاد ، فكان أرقى من كتاب النضر البصرىِّ ، وكتابُ الإصطخرىِّ هذا لم يكن ، مع ذلك ، سوى إحصاء لِماَ فى مختلف الولايات من الأنهار والمدن والجبال ، إلخ .

وما كَتَبه المسعودىُّ المعاصر للإصطخرىِّ والمقدسىِّ فى سنة ٩٨٥ م فى علم الجِغرافية هو من قبيل الرِّحلات أكثر من أن يكون من الكتب الجغرافية .

وأشهرُ جِغرافيِّى العرب هو الإدريسىُّ ، ومن كتب الإدريسىِّ ، التى تُرْجِمَت إلى اللاتينية ، تعَلَّمَت أوربة علمَ الجِغْرافية فى القرون الوسطى .

وُلِد الإدريسىُّ فى الأندلس ، ثم ساقت الإدريسىَّ مغامراتٌ كثيرة إلى بَلاط ملك صِقِلِّيَة ، روجر ، بعد أن استولى النورمانُ عليها بزمن قصير ، ولما كانت سنة ١١٥٤ م ألَّف الإدريسىُّ كتابَه الجغرافىَّ العظيمَ ، مشتملاً على ما قَيَّده المتقدمون فى علم الجِغرافية وعلى ما رواه عن السياح من المعارف الكثيرة وعلى عِدَّة خرائط ، فاقتصرت أوربة على نَسْخِه بدناءةٍ مُدَّةَ ثلاثةِ قرون .

وخريطةُ الإدريسىِّ التى نَشَرْتُ صورتها ، والتى اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة ، أى على هذه الأماكن التى لم يكتشفها الأوربيون إلّا فى العصر الحاضر ، أكثرُ خرائطه طرافةً (١) ، فهى تُثْبِت أن معارف العرب فى جِغرافية إفريقية أعظمُ مما ظُنَّ زمناً طويلاً .

وأذْكُرُ من جِغرافيِّى العرب القزوينىَّ وياقوتاً الحموىَّ اللذين عاشا فى القرنِ الثالثَ عشرَ من الميلاد ، وأن كتاب هذا الأخير مُعْجَمٌ جِغرافىٌّ حافلٌ بوثائقَ عن جميع البلدان التى تتألف منها دولة الخلافة .

---

(١) قال الإدريسى عن منابع النيل : « وهذان القسمان مخرجهما من جبل القمر الذى فوق خط الاستواء بست عشرة درجة ، وذلك أن هذا النيل من هذا الجبل من عشر عيون ، فأما خمسة أنهار منها فإنها تصب وتجتمع فى بطيحة كبيرة وخمسة أنهار أخرى تنزل أيضاً من الجبل إلى بطيحة أخرى كبيرة ، ويخرج من كل واحدة من البطيحتين ثلاثة أنهار فتمر بأجمعها إلى أن تصب فى بطيحة كبيرة جداً ، وعلى هذه البطيحة مدينة تسمى طرمى » .

وعُرِف صاحبُ حماة ، وأبو الفداء (١٢٧١ م – ١٣٣١ م) ، بأنه من علماء الجغرافية أيضاً ، ولكنه لم يصنع غيرَ تلخيص كتبٍ أخرى ، وقُلْ مثلَ هذا عن المقريزيّ والحسن .

ويحتاج إحصاء أهمّ جغرافييّ العرب وما ألفوا من الكتب إلى بيان طويل،فقد ذكر أبو الفداء وحدَه أسماء ستين عالمًا جغرافيًّا من الذين ظهروا قبله ، وتكفى الخلاصةُ السابقة لإثبات شأنهم مع ذلك ، ولولا إصرار الأوربيين الخاصُّ على مُبْتَسراتهم الموروثة،التى لا تزال باقيةً ، حِيَالَ الإسلامِ لتعذر إيضاح السبب فى إنكار علماء أفاضل فى الجغرافية ، كمسيو ڤيڤيان دو سان مارتن،لذلك الشأن، ومع ذلك يَكْفِى ما أتى به العرب من عملٍ كبير لإثبات قيمتهم، فالعربُ هم الذين انْتَهَوْا إلى معارفَ فلكيةٍ مضبوطة من الناحية العلمية عُدَّتْ أولَ أساسٍ للخرائط ، فصحَّحُوا أغاليطَ اليونان العظيمة فى المواضع ، والعربُ ، من ناحية الرِّياد ، هم الذين نشروا رِحلاتٍ عن بقاع العالم التى كان يَشُكُّ الأوربيون فى وجودها فضلاً عن عدم وصولهم إليها ، والعربُ ، من ناحية الأدب الجغرافىّ ، هم الذين نشروا كتباً قامت مقام الكتب التى أُلِّفت قبلها ، فاقتصرت أمم الغرب على استنساخها قروناً كثيرة .

الفصل الخامس

الفيزياء وتطبيقاتها

---

١ — الفيزياء والميكانيكا

الفيزياء : — ضاعت كُتُب العرب المهمة فى الفيزياء ، ولم يبقَ منها غيرُ أسمائها ككتاب الحسن ابن الهيثم فى الرؤية المستقيمة والمنعكسة والمنعطفة ، وفى المَرَايا المحرقة ، ومع ذلك فإننا نستدلُّ على أهمية كتب العرب فى الفيزياء من العدد القليل الذى وَصَل إلينا منها ، ولاسيما كتابُ الحسنِ فى البَصَريات الذى نُقِل إلى اللغة اللاتينية واللغة الإيطالية فاستعان كيپلر به كثيراً فى كتابه عن البَصَريات، ويرى القارئُ فى كتاب الحسن فصولاً دقيقةً عن حرارة المَرَايا ومحلِّ الصُّوَر الظاهر فى المَرَايا وانحرافِ الأشياء وجسامتها الظاهرة ، إلخ . ويَرَى فيه ، على الخصوص ، حلاً هندسياً للمسألة الآتية التى تتعلق بمعادلةٍ من الدرجة الرابعة ، وهى : « إذا عُلِمَ موضعُ نقطةٍ مضيئة ووَضْعُ العين ، فكيف تجِدُ على المَرَايا الكُريَّةِ والأسطوانيةِ النقطةَ التى تتجَمَّع فيها الأشعة بعد انعكاسها ؟ » ، فعَدَّ مسيو شال ، الذى هو حُجَّةٌ فى هذه الموضوعات ، هذا الكتابَ « مصدرَ معارفنا للبَصَريَّات » .

الميكانيكا : — معارف العرب الميكانيكيَّة العملية واسعةٌ جداً ، ويُستدلُّ على مهارتهم فى الميكانيكا من بقايا آلاتهم التى انتهت إلينا ومن وصفهم لها فى مؤلفاتهم .

ورأى الدكتور إ . برناردُ الأكسفورديُّ أن العرب هم الذين طَبَّقوا الرَّقاصَ على الساعة ، غير أن ما أبداه من الأسباب لا يكفى، على مايظهر ، لإسناد هذا الاختراع المهمِّ إلى العرب ، والذى نُرَجِّحه هو أن الساعة الدَّقَّاقة التى أرسلها هارون الرشيد إلى شارلمان هى ساعةٌ مائية تَدُقُّ فى كلِّ ساعة بسقوط كُرَاتها النحاسية على قُرْص معدِنىّ .

ولكنَّ الذى لا ريب فيه هو أن العرب عرَفوا الساعاتِ ذاتَ الأثقالِ التى تختلف كثيراً عن

الساعات المائية ، ودليلُنا على ذلك ماوُصِفَتْ به ساعةُ الجامع الأُمَوىِّ الشهيرةُ فى كتبِ كثيرٍ من المؤلفين ، ولا سيا بنيامينُ التُّطيليُّ الذى زار فلسطين فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وقد اقتطفنا الوصفَ الآتىَ من ترجمة مسيو سلفستردوساسى لابن جُبَيْر ، قال ابن جُبَيْر :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون فى جِوَار البَلاطِ الذى أمامَه غرفةٌ لها هيئةُ طاَقٍ كبير مستدير فيه طِيَانُ صُفْرٍ قد فُتِّحَت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ، ودُبِّرَتْ تدْبيراً هندسيًّا ، فعند انقضاء ساعة من النهار تَسْقطُ صَنْجَتان من صُفْر من فَمَىْ بازَيْن مُصَوَّرَيْن من صُفْرٍ قائمين على طاستين من صُفْرٍ تحتِ كلٍّ واحد منهما ، أحدهما تحت أوّل باب من تلك الأبواب والثانى تحت آخرِها ، والطَّاسَتان مثقوبتان،فعند وقوع البُنْدُقِيَّتَيْن فيهما تَعُودان داخل الجدار إلى الغرفة،وتُبْصِر البازَيْن يَمُدَّان عنقيهما بالبندُقِيتيْن إلى الطَّاستيْن ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخَيَّله الأوهام سحراً ، وعند وقوع البُندقيَّتيْن فى الطَّاسَتَيْن يُسْمَع لهما دَوِىٌّ ، وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلَوْحٍ من الصُّفر ، لا يزال كذلك عند كلِّ انقضاء ساعةٍ من النهار ، حتى تنغلقَ الأبوابُ كلُّها وتنقضىَ الساعات ، ثم تعود إلى حالها الأول ، ولها بالليل تدبيرٌ آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطفة على الطِّيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرةً من النحاس مُخَرَّمَةً تعترض فى كلِّ دائرة زجاجةٌ من داخل الجدار فى الغرفة ، يُدير ذلك كلَّه منها خَلْف الطِّيقان المذكورة وخلفَ الزجاجة مصباحٌ يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذ انقضت عَمَّ الزجاجةَ ضَوْءُ المِصْباح ، وفاض على الدائرة أمامها شُعاعٌ ، فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضىَ ساعات الليل وتحْمَرَّ الدوائر كلُّها ، وقد وُكِّل بها فى الغرفة مُتَفَقِّدٌ لحالها ، دَرِبٌ بشأنها وانتقالها ، ويُعيدُ فتحَ الأبواب وصَرْفَ الصَّنُوج إلى مواضعها » .

٢ – الكيمياء

كيمياء العرب مَشُوبَةٌ بالسيمياء ، كما كان علم الفلك عندهم مَشُوباً بفنِّ التنجيم ، ولكنَّ مزجَ العلمِ المُثْبَتِ بالخيال لم يمنع العرب من الوصول إلى اكتشافات مهمة .

والمعارفُ التى انتقلت من اليونان إلى العرب فى الكيمياء ضعيفةٌ ، ولم يكن لليونان علمٌ بما اكتشفه العرب من المُرَكَّبات المهمة كالكحول وزيت الزاج (الحامض الكبريتىّ) وماء الفِضة

(الحامض النترىّ) وماء الذهب وما إلى ذلك ، وقد اكتشف العربُ أهمَّ أُسُس الكيمياء كالتقطير .

قال بعضُ المؤلفين : إن لافوازيه واضعُ علم الكيمياء ، وقد نَسُوا أننا لا عهد لنا بعلمٍ من العلوم ، ومنها علم الكيمياء ، صار ابتداعُه دفعةً واحدة ، وأنه وُجِد عند العرب من المختبرات ما وَصلوا به إلى اكتشافاتٍ لم يكن لافوازيه ليستطيع أن ينتهىَ إلى اكتشافاته بغيرها .



٢٣٥ و ٢٣٦ ـ فرسان من العرب يقذفون بالنار اليونانية كما جاء فى مخطوط عربى قديم محفوظ فى المكتبة الوطنية بباريس

وأقدمُ علماء العرب فى الكيمياء وأكثرُهم شهرةً هو جابر الذى عاش فى أواخر القرن الثامن من الميلاد والذى أَلّف كُتُباً كثيرة فيها ، ولكنه نشأ عن كثرة من تَسَمَّوْا باسمه من معاصريه صعوبةُ تمييز ما يجب نسبته إليه منها ، ونُقِل عددٌ غيرُ قليل من كتبه إلى اللغة اللاتينية ، وقد نُقِل كتابه « الاستمام » ، الذى هو من أهمِّ كتبه ، إلى اللغة الفرنسية فى سنة ١٦٧٢ م ، فدلَّ هذا على دوام نفوذه العلمىِّ فى أوربة مدةً طويلة .

ويتألف من كتب جابر موسوعةٌ علمية حاوية خلاصةَ ما وَصل إليه علم كيمياء العرب فى عصره ، وتشتمل هذه الكتبُ على وصفِ كثيرٍ من المركبات الكيماوية التى لم تُذْكَر قبله ، كماء الفِضة (الحامض النترى) وماء المُهَمَّيْن اللذين لا نتصور علمَ الكيمياء بغيرهما .

ويظهر أن جابر بن حيان عرَف خواصَّ بعض الأرواح ، فقد ذكر : « أن الأرواح حينما تستقرُّ بالأجسام تَفقِد شكلها وطبيعها وتصبح غير ما كانت عليه ، وأنها فى حالة التحليل إما أن تَطِير وحدَها وتبقى الأجسام التى امتزجت بها ، وإما أن تَطِير مع ما امتزجت به من الأجسام فى آن واحد * » .

وكان جابر يعتقد ، كجميع السيماويين ، أن المعادنَ مركبةٌ من عناصرَ كثيرةٍ غير معروفة ، فيُسمِّى هؤلاء هذه العناصرَ ، على حسب الأحوال ، ببعض الأسماء ، كالكبريت والزئبق والزرنيخ ، إلخ . ،

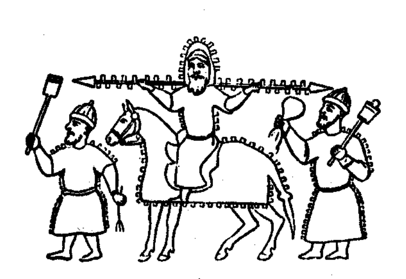
ولكن هذه الأسماء لم تدُلَّ على خواصٍّ العناصر المُفتَرَضةِ التى أُطلقت عليها ، وإلى هذا الأمر أشار السيماويون غيرَ مرةٍ ، فيجب الانتباه إليه خوفاً من الوقوع فى مثل ما اقترفه مؤلفون كثيرون من الوِزْر نَحْوَهم .

ويرى علماء الكيمياء من العرب أن جميع المعادن مؤلفةٌ من عناصرَ واحدةٍ ، وأن بعض المعادن لا يختلف عن بعضٍ إلا بسبب اختلاف نِسَب هذه العناصر ، وأنه فى حالة حَلٍّ هذه العناصر وإعادة تركيبها مرةً أخرى على نِسَب ملائمة يُظفَر ، كما هو ظاهر ، بأيِّ مَعْدِن آخر كما يُرَادُ ، كالذهب مثلاً ، وَرَانَتْ مسألة تحويل المعادن على قلوب سيماويى العرب قروناً كثيرة كما هو معلوم ، فنشأ عن نظرياتهم ، البعيدةِ من الذهنية الحاضرة بعضَ البعد ، خِدَمٌ للعلم حقيقيةٌ عند قيامهم بمباحثهم التى ما كانت لتقَع بغيرها ، أَجَلْ ، إنه لا يُكْتَشَف ما يُبْحَث عنه ، ولكنه يُكْتَشَف ما لا يُعثَر عليه بغير طلبِ تحويل المعادن زمناً طويلاً .

واشتملت كتب جابر على بيان كثير من المركبات الكيماوية التى كانت مجهولة قبله ، كماء الفِضة (الحامض النترىّ) وماءِ الذهب والپوتاس وملح النشادر وحجر جهنم (نترات الفِضة) والسليمانىِّ والراسب الأحمر ، وكان جابر أولَ من وَصَفَ فى كتبه أعمالًا أساسية كالتقطير والتصعيد والتَّبَلْوُر والتذيب والتحويل ، إلخ .

واكتشف العرب ، أيضاً ، مركّباتٍ أخرى لا غُنْيَة للكيمياء والصِّناعة عنها ، كزيت الزاج (الحامض الكبريتىّ) والكحول ، وكان الرازىّ المتوفى سنة ٩٤٠م أولَ من وَصفها فقال : إن زيت الزاج يُسْتَخْرَج بتقطير كبريت الحديد ، وإن الكحول تُسْتَخْرَج بتقطير المواد النَّشَوِيّة أو السُّكَّرِيّة المختمرة .

ودَرَسَ أكثرُ علماء العرب الذين ألفوا فى



٢٣٧ ــ قذائف محرقة استعملها العرب فى القرن الثالث عشر من الميلاد (ترى فى هذه الصورة فارساً حاملا رمحاً نارياً ولابساً ، كخادميه ، قيصاً صفيقاً من صوف ذى دسر معداً ليبلل بنفط يشعل فيها بعد ، وذلك لإلقاء الرعب فى الأعداء) من مخطوط عربى قديم محفوظ فى بطرسبرغ

مختلف العلوم مسائلَ الكيمياء ، وضاع أهمُّ كتب الكيمياء العربية ، خلا مؤلفاتِ جابر والرازىّ ، فنأسف على ذلك بعد أن تجلّت لنا قيمةُ ماهو بين أيدينا منها .

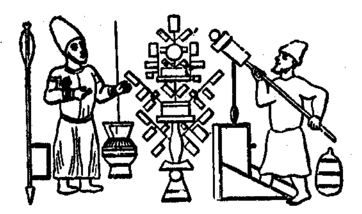
ويَظْهَرُ لنا مَدى اكتشافات العرب الكيماوية من كَثْرة ما كان مجهولاً قبلهم من المُرَكّبات التى ذكروها فى مؤلفاتهم الطبية،وابتدع العربُ فنَّ الصيدلة ، ويبدو لنا مقدارُ معارفهم فى الكيمياء الصِّناعية من حِذْقهم لفنِّ الصِّباغة واستخراج المعادن وصنع الفولاذ ودِباغة الجلود ، إلخ .

٣ — العلوم التطبيقية — الاكتشافات

المعارف الصِّناعية : — لم يُهْمِل العربُ أمرَ التطبيقاتِ الصِّناعية مع قيامهم بمباحثهم النظرية ، وكان لصِناعات العرب تَفَوُّقٌ عظيم بفضل معارفهم العلمية ، ونعلم ما أدت إليه صِناعاتهم من النتائج ، وإن جَهِلْنا أكثرَ طرقها ، فنَعْرِف ، مثلاً ، أنهم كانوا يعلمون استغلال مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب ، وأنهم كانوا ماهرين فى الدِّباغة ، وفى فَنِّ تَسْقِيَة الفولاذ ، كما تشهد بذلك نِصال طُلَيْطِلَة ، وأنه كان لنسائجهم وأسلحتهم وجلودهم وورقهم شهرةٌ عالية ، وأنه لم يَسْبِقهم أحدفى كثير من فروع الصِّناعة إلى عصرهم .

ونرى ، بين اختراعات العرب،مالا يجوز الاكتفاء بذكره لأهميته ،كاختراعهم للبارود مثلاً ، ولذا فإننا نقول بضعَ كلماتٍ فيه :

بارود الحرب والأسلحة النارية : — استَعْملت أممُ آسية أنواعَ المركبات المُحْرِقة فى حروبها منذ القرون القديمة ، ولكن أوربة لم تَعرِف هذه المُرَكّبات إلا فى القرن السابع من الميلاد ، ويُظَنُّ أن الذى نقلها من آسية هو مهندس معمارىٌّ اسمهُ كالينيك ، واستفاد البزنطيون استفادةً عظيمة من هذه المُرَكّبات فى دَحْر العرب حينما وضعوا نِطاقاً أمام القسطنطينية،وأمر القيصر قسطنطين بورْفِيرُو جينيت بعَدِّها من أسرار الدولة وإن لم تَلْبَثْ أن كُشِفَت ، وأسفرت مباحث رينو وفافيه عن القَطْع بأن هذه المُرَكّبات التى وُصِفَت فى كثير من المخطوطات القديمة مؤلفةٌ من الكبريت وبعض المواد الملتهبة كبعض الراتنجات والأدهان .


٢٣٨ ـ أسلحة نارية استعملها العرب فى القرن الثالث عشر من الميلاد (ترى فى هذه الصورة مدفعياً حاملا بيده مدفعاً صغيراً مقرباً إياه من لهب لاشعال النار وقذف القنبلة) (من ذلك المخطوط العربى القديم المحفوظ فى بطرسبرغ)

ولَسُرعان ماعَرَفَ العربُ تركيب النار اليونانية ، وبلغت هـذه النار من الانتشار عندهم ماصارت معه « عامل الهجوم المُهِمّ » كم قال ذانك المؤلفان ، وتفَنَّنَ العرب فى استخدامها والقذف بها بشتى الطرق ، وليس بمجهولٍ خبرُ الرُّعْب الذى ألقته فى قلوب الصليبيين فورَدَ ذكره فى أحاديثهم ، ومن ذلك أن أعلن جوَانْفِيلُ أنها أفظعُ شيء رآه فى حياته ، وأنها ضربٌ من التَّنانين الكبيرة الطائرة فى الهواء ، ولمَّا أصبحَ جوانفيل فى جوار الملك سان لويس: « رَكَع ورفع يديْه إلى السماء وقال باكياً : أىْ رَبَّنا يسوعُ احفظنا واحفظ قومَنا ! » .

ولا يخلو هذا الفزَع من وَهْم ، أى أن النار اليونانية إذا كانت نافعةً فى المعارك البحرية للقضاء على سُفُن العدو فإنها لم تكن كذلك فى البرّ ، ولم يَرْوِ أحدٌ من المؤرخين أنها أَوْدَت بحياة أحدٍ من رجال سان لويس أو غيرهم فى البرِّ ، وأطبقت النار اليونانية على سان لويس وكثير من فرسانه من غير أن تصيبهم بأذى ، فالنار اليونانية ، وإن كان من طبيعتها التحريق ، لم تَصْلُح للرَّشْق ، وهى ، وإن كان يُقْذَف بها ، لم تَنفَع لرَمْى القذائف ، وهى ، وإن كانت من المحترقات ، لم تكن لها خواصُّ البارود فى الانفجار .

وعُزِىَ اختراعُ البارود إلى روجر بيكن زمناً طويلاً ، مع أن روجر بيكن لم يَفْعَلْ غيرَ مافعله ألبرت الكبير من اقتباس المُرَكّبات القديمة ، ولا سيما ماوَصَفه منها مَرْكُوس غراكُوس فى مخطوطٍ كُتِبَ فى سنة ١٢٣٠ م بعنوان « كتاب النار لإحراق الأعداء ، والحقُّ أن كثيراً من هذه المُرَكّبات يشابه تركيب البارود ، ولكنه كان يُسْتعمل فى الأسهم النارية فقط ، وهو مقتبس من العرب ، لا ريب ، كجميع المُرَكّبات الكماوية فى القرون الوسطى ،والعربُ هؤلاء قد عَرَفوا الأسلحةالنارية قبل النصارى بزمن طويل كما يأتى بيانه .

وأثبتت مباحث مسيو رينو ومسيو فافية،وقدسَبَقهما إليها الغزيرىُّ وأنْدره وفيارْدُو ، أن العرب

هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهلَ الانفجار الدافعَ للقذائف ، وبيان ذلك : أن ذَيْنك المؤلفين رَأيا فى بدء الأمر كما رأى غيرُهُما ، أن أمر هذا الاختراع يعود إلى الصينيين ، وأنهما رَجَعا فى مذكرةٍ ثانية نشراها سنة ١٨٥٠ م ، وذلك بعد ما اطلَعا على ما جاء فى بعض المخطوطات التى عُثِر عليها حديثاً ، عن رأيهما مُعْلِنَيْن أن العرب هم أصحابُ هذا الاختراع العظيم الذى قَلَب نظام الحرب رأساً على عَقِب ، ومما قاله ذانك المؤلفان : « إن الصينيين هم الذين اكتشفوا ملح البارود واستعملوه فى النار الصّناعية . . . وأن العرب هم الذين استخرجوا قوة البارود الدافعة ، أى أن العرب هم الذين اخترعوا الأسلحة النارية » .



٢٣٩ ـ قطعة من نسيج عربى قديم (من تصوير لبر)

وجرى المؤرخون على الرأى القائل إن المعركة الأولى التى استُعملت فيها المدافع هى معركةُ كريسى التى حدثت سنة ١٣٤٦ م ، والحقيقةُ هى ما أثبته مؤرخو العرب فى مؤلفاتهم من النصوص الكثيرة التى تدلُّ على أن استعمال المدافع وَقَع قبل تلك السنة بزمن طويل ، ومن يَنْظُرْ إلى المختارات المقتطفة من المخطوطات التى ترجمها كونده يَجِدْ ، على الخصوص ، أن الأمير يعقوب حاصر زعيمَ ثُوَّارٍ فى مدينة المهدية بإفريقية فى سنة ١٢٠٥ ، وأنه « ضرب أسوارها بمختلف الآلات والقنابل . . . أىْ ضربها بآلاتٍ لم يَرَها الناس قبل ذلك . . . فكانت كلٌّ واحدة منها تَرْمِى قذائفَ كبيرةً من الحجارة وقنابلَ من الحديد ، فتسقط فى وَسَط المدينة * » .

ونرى ذلك صريحاً فى تاريخ ابن خلدون عن البربر حيث ذَكَر استعمالَ المدافع فى الحِصار بقَوْله : « ولما فتحَ السلطان أبو يوسف بلادَ المغرب وَجَّهَ عزمه إلى افتتاح سجلماسة (٦٧٢ هـ ـ ١٢٧٣ م) من أيدى بنى عبد الواد المتغلبين عليها وإدالةِ دعوتِه فيها من دعوتهم ، فنهض إليها فى العساكر والحشود فى رجبٍ من سنة اثنتين وسبعين ، فنازَلها وقد حَشَدَ إليها أهلَ المغرب أجمع من زناتةَ والعربِ والبربر

وكافةِ الجنود والعساكر ونَصَب عليها آلاتِ الحصار من الجانيق والعرَّادات وهِنْدَام النِّفْط القاذف بحَصَى الحديد يَنبَعِث من خِزانةٍ أمام النار المُوقَدَة فى البارود بطبيعة غريبة تَرُدُّ الأفعالَ إلى قدرة بارئها ، فأقام عليها حَوْلًا يغاديها القتالُ ويراوحها إلى أن سقطت ذات يوم على حين غَفْلَةٍ طائفةٌ من سورها بإلحاح الحجارة من المنجنيق عليها ، فبادروا إلى اقتحام البلد فدخلوه عَنْوَةً من تلك الفُرْجَة ».

وتُثْبِت مخطوطاتُ ذلك الزمن أن الأسلحة النارية شاعت بين العرب بسرعة، وأنهم استخدموها للدفاع عن مدينة الجزيرة التى هاجمها الأذفونش الحادى عشر سنة ١٣٤٢م .



٢٤٠ ــ قطعة من نسيج عربى قديم

وجـــاء فى تاريخ الأذفونش الحادى عشر : « أن مغاربة المدينة كانوا يَقْذِفون كثيراً من الصواعق على الجيش فيرمون عليه عِدَّة قنابلَ كبيرةٍ من الحديد كالتفاح الـكبير ، وذلك إلى مسافةٍ بعيدة من المدينة ، فيمرُّ بعضُها من فوق الجيش ، ويَسْقُط بعضُها عليه » .

وحَضَرَ كونت دربى وكونت سالسبرى الإنـكليزيان ذلك الحصار ، وشاهدا نتائجَ استخدام البارود ، ونقلا ذلك الاختراعَ إلى بلادهم من فَوْرِهم واستخدمه الإنـكليز فى معركة كريسى بعد ذلك بأربع سنين .

وتَجِدُ فى المخطوطات العربية بياناً لتركيب ما كان العرب يستخدمونه من البارود والأسلحة النارية ، وإليك النصَّ الطريف الذى ورد فى مخطوطٍ كُتِب فى أواخر القرن الثالثَ عشرَ من الميلاد فترجمه رينو :

« وَصْفٌ للذخيرة التى تُدَكُّ فى المِدْفَعِ مع بيان نسبتها : — تُؤْخَذُ عشرة دراهم من ملح البارود ودرهمان من الفحم ودرهمٌ ونصف درهم من الـكبريت ، وتُسْحَق حتى تصبحَ كالغُبار ، ويُمْلأ منها ثُلث المِدْفَع فقط خوفاً من انفزاره ، ويَصْنَع الخرّاط من أجْلِ ذلك مِدْفَعاً من خشبٍ تناسب جسامتُهُ فَوْهَتَه ، وتُدَكّ الذخيرة فيه بشِدَّة ، ويُضاف إليها إما بُنْدُقٌ ، وإما نَبْلٌ ، ثم تُشْعَل ، ويكون قياس المِدْفَع مناسباً لثَقْبِه ، فإذا كان عميقاً أكثرَ من اتساع الفَوْهَة بدا ناقصاً * » .



٢٤١ ـ قطعة من نسيج عربى قديم (من تصوير پريس الأفينى)

الوِراقة : — كان الأوربيون فى القرون الوسطى يكتبون على الرُّقُوق لزمنٍ طويل ، وكان غلاء أسعارها مانعاً من توافر المخطوطات فيها ، ونشأ عن نُدْرتها أن تعَوَّد الرهبانُ حكَّ كتب كِبار

المؤلفين من اليونان والرومان ليستبدلوا بها مواعظهم الدينية،ولولا العرب لضاع أكثر هذه الكتب الرائعة القديمة التى يزعم أنها حُفِظَت فى أروقة الأديار باعتناء

وكان اكتشاف مادة تقوم مقام الرَّقّ وتُشابه بَرْدِيَّ قدماء المصريين يُعَدُّ من أعظم العوامل فى نشر المعارف

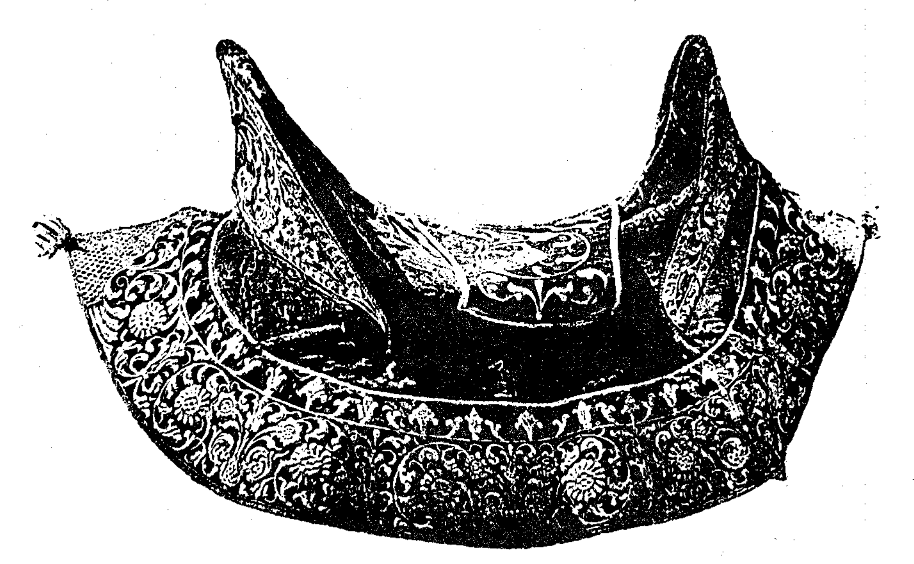
وتثبت المخطوطةُ التى عَثَرَ عليها الغزيرىُّ فى مكتبة الإسكوريال والمكتوبةُ فى سنة ١٠٠٩ م على ورق مصنوع من القطن،والتى هى أقدمُ من جميع المخطوطات الموجودة فى مكتبات أوربة ، أن العرب أولُ من أحلَّ الورق مَحَلَّ الرَّقِّ .



٢٤٢ ــ قطعة من نسيج عربى قديم (من رسم پريس الأڤينى)

وليس من الصعب أن يَصِل الباحث فى الوقت الحاضر إلى تاريخ اختراع الورق ، فمن الثابت أن الصينيين كانوا يَعْلَمون منذ أقدم الأزمان صِناعة الورق من شَرَانِق الحرير،وأن هذه الصِّناعة أُدخلت إلى مدينة سمرقند فى أوائل التاريخ الهجرىّ ، فلما فتحها العرب وجدوا فيها مصنعاً للورق الحريرىّ ، ولكن اختراعاً مهمًّا كهذا لم يكن لينفع فى أوربة ، التى لم تَعرِف الحريرَ تقريباً ، إلّا باستبدال مادة أخرى بالحرير ، وهذا ما أتاه العرب حين أقاموا القطن مقامه ، ولم يَلْبث العربُ أن بلغوا فى إتقان صِناعة الورق من القطن شأواً لم يُسْبَق ، كما دلَّ عليه البحث فى مخطوطات العرب القديمة .

ومن الثابت أيضاً أن العرب اخترعوا من الأسمال صِناعةَ الورق الصعبةَ الكثيرة التراكيب ، ويُسْتَنَد فى هذا الرأى إلى أن العرب استخدموا هـذا النوع من الورق فى زمن أقدمَ من الزمن الذى استخدمته فيه الأمم النصرانية بمدة طويلة ، فأقدمُ ورق موجود فى أوربة من هـذا النوع هو ورق الكتاب الذى أرسـله جوانفيل إلى الملك سان لويس قُبَيْل وفاته فى سنة ١٢٧٠ م ، أى بعد حملته الصليبية المصرية الأولى ، مع أن لدينا ورقاً عربيًّا صُنِـع من الأسمال قبل هـذا التاريخ بنحو قرن ، كالورق المحفوظ بين مخطوطات برشلونة والمكتوبةِ عليه معاهدة السِّلْم بين ملك أرغونة الأذفونش الثانى وملكِ قشتالة الأذفونش الرابع فى سنة ١١٨٧ م والمصنوعِ فى مصنع شاطبة العربىِّ الشهير الذى امتدحه العالم الجغرافىُّ الإدريسىُّ فى النصف الأول من القرن الثانى عشر من الميلاد .



٢٤٣ ـ سرج عربى قديم (المتحف الملكى بمدريد) (من صورة فوتوغرافية التقطها لوران)

ونشأ عن كثرة المكتبات العامة والخاصة فى الأندلس أيام سلطان العرب ، بما لم تَعرِفْه أوربة فى ذلك الزمن أن اضْطُرَّ العرب إلى زيادة مصانع الورق ، فانتهَوْا إلى صنعه ، بإتقان عظيم ، من القِنَّب والكَتّان الوافرين فى الحقول فى ذلك الحين .

استخدام البوصلة فى المِلاحة : — البوصلةُ من اختراع الصينيين ، ولكنه لم يَقُم دليل على استخدامهم لها فى المِلاحة .

وكان الصينيون من صِعاف المَلّاحين ولم يبتعدوا فى أسفارهم البحرية عن الشواطئ ، فكانت البوصلةُ قليلة النفع لهم .

وغيرَ ذلك كان شأنُ العرب الذين هم من أعاظم المَلّاحين ، والذين كانت صِلاتهم ببلاد الصين الواسعة كثيرةً أيام شَكَّ الأوربيون فى وجودها ، فكان من الراجح أن يكونوا أولَ من استخدم البوصلة فى الملاحة ، ولكن هذا لا يخرج عن حَدِّ الافتراض الذى لا يجوز الإصرار عليه لعدم قيامه على دليل

وإنما الذى لا ريب فيه هو أن الأوربيين أخذوا هذا الاختراعَ المهمَّ عن العرب الذين كانوا وحدَهم ذوى صلات بالصين ، والذين كانوا وحدَهم قادرين على إطلاع الغرب عليه لهذا السبب ، ومع ذلك فقد مرَّ بعضُ الزمن على الأوربيين قَبْلَ إدراك فائدته ، فالأوربيون لم يستخدموه قبل القرن الثالث عَشر من الميلاد ، مع أن الإدريسىَّ الذى تَكَلَّمَ عنه فى أواسط القرن الثانى عشر من الميلاد ذكرَه على أنه كثير الشيوع بين بنى قومه .

ثبت مما تقدم أن اكتشافاتِ العرب فى الطبيعيات ليست أقلَّ أهمية منها فى الرياضيات وعلم الفلك وأن معارف العرب كانت عاليةً فى الفيزياء النظرية ، ولاسيما البَصَرِيَّاتْ ، وأن العرب اخترعوا من الآلات الميكانيكية ما هو على جانب عظيم من الدِّقَّةِ ، وأنهم اكتشفوا أهمَّ المركَّبات الكيماوية كالكحول وماء الفِضة (الحامض النترىّ) وزيت الزاج (الحامض الكبريتىّ) ، وأنهم أبدعوا ألزمَ الأعمال كأصول التقطير ، وأنهم طبقوا الكيمياء على الصيدلة والصناعة ، ولا سيما استخراج المعادن وصنعُ الفولاذ والدِّباغة ، إلخ . وأنهم اخترعوا البارود والأسلحة النارية ، وصنعوا الورق من الأَسمال ، وطَبَّقوا البوصلة على المِلاحة كما هو الراجح ، وأدخلوا هذا الاختراع المهمَّ إلى أوربة ، وما يأتى يدلُّ على مقدار فضلهم فى الطبيعيات .

الفصل السادس

العلوم الطبيعية والطبية

---

١ — العلوم الطبيعية

لم يَقُم التاريخ الطبيعيّ عند العرب، في البُداءة ، على غير شروح مؤلفات أرسطو، ولكنّ العرب لم يَلْبَثُوا أن فَضَّلوا درسَه في الطبيعة على درسه في الكتب، وللعرب الفضلُ فيما وضعوا من الكتب المُمْتِعَة الكثيرة في الحيوانات والنباتات والمعادن والمتحجِّرات ، إلخ .

ويُعَدُّ القزوينيُّ المتوفَّى سنة ١٢٨٣ م والمُلَقَّبُ بـ (بلينى المشارقة) من أشهر علماء التاريخ الطبيعيّ بين العرب ، وتقوم طريقة القزوينيّ على الوَصْف على الخصوص ، كما صنع بوفون بعده .

ولا تجد في كتب العرب ماتَجِد في الكتب الحديثة من التعميم والتقسيم ، ولكنك ترى فيها من النصوص ماتعتقد به أن نفوسهم حَدَّثتهم ببعض اكتشافات العلم الحديث المهمة ، ومن ذلك أنك تَجِد في رسالة ابن سينا عن الحجارة فصلاً عن منشأ الجبال لايَبْتَعِد فيه عما يُدَرَّس اليوم كما هو ظاهر من العبارة الآتية ، قال ابن سينا :

« تَنْشأُ الجبالُ عن سببين : فالجبالُ إما أن تكون نتيجةَ ارتفاعٍ في قِشْرَة الأرض بفعل أحد الزلازل الشديدة مثلاً ، وإما أن تكون نتيجةَ عملِ الماء بأن يَشُقَّ طريقاً جديداً ويَحْفِرَ أودية ويُحْدِثَ جبالاً ، وذلك لأنك تَجِد صخوراً لَيِّنَةً وصخوراً ذاتَ صلابة فيذهب الماء والريح بالصخور اللينة ويترك الأخرى سليمةً ، وهكذا يَحْدُثُ أكثرُ التِّلال .

« والمعادن أصلٌ كالجبال ، ولابدَّ من انقضاء أزمنة طويلة لحدوث جميع هذه التحولات ، ومن المحتمل أن تكون الجبالُ آيلةً إلى الانخفاض في الوقت الحاضر * » .

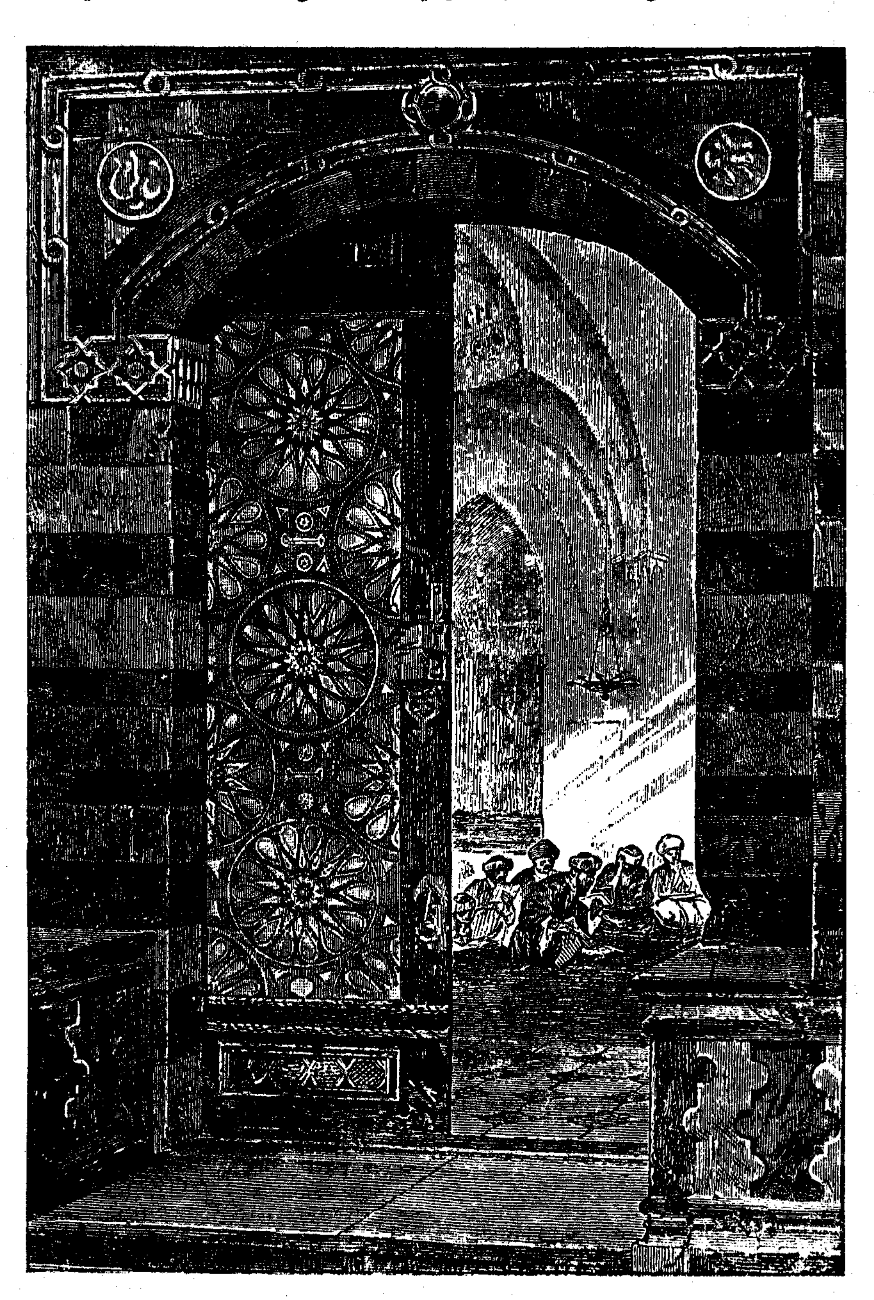
ويقيم ابن سينا الدليلَ على ماتقدم ، ويقول : « إن الذى يدلُّ على أن الماء سببٌ أساسيٌّ لذلك هو وجودُ حيوانات مائية وغيرها على كثير من الصخور ، ولاتصدر المادة الترابية والصفراء التى تَسْتُر وجه الجبال عما يَصْدُر عنه هيكل الجبل، بَلْ عن انحلال بقايا الأعشاب والوَحَل الذى يأتى به الماء، ومن المحتمل أن تأتى من وَحَل البحر القديم الذى كان يُغَطِّى جميع الأرض فيما مضى * » .

ومن ذلك ترى أن ابن سينا أبصر أنّ تحولاتِ الكُرَة الأرضية لم تنشأ عن الطوفانات الكبيرة كما اعتقد كُوفْيِه ، وإنما هى نتيجة تطورات بطيئة تَمَّت بتعاقب القرون كما أثبت ذلك علمُ الأرض الحديث .

وشاعت نظرية تطورات وجه الأرض بتنقل البحار وتحول شكل الأرض بين العرب شيوعاً تَدْخُل به فى أذهان الشعب كما نعلم ذلك من الرمز الآتى الذى نقتطفه من كتاب العالم الطبيعيِّ القزوينيِّ الذى تكلمنا عنه آنفاً ، قال القزوينيُّ :

« قال الخَضِر : مررتُ بمدينة كثيرة الأهل والعِمارة ، سألت رجلاً من أهلها : متى بُنِيَت هذه المدينة ؟ فقال : هذه مدينة عظيمة ماعَرَفْنا مدةَ بنائها نحن ولا آباؤنا ، ثم اجْتَزْتُ بها بعد خمسمئة سنة فلم أرَ للمدينة أثراً ، ورأيت هنالك رجلاً يجمع العشب ، فسألته : متى خَرِبَت هذه المدينة ؟ فقال لم تَزَل هذه الأرض كذلك ، فقلت : أما كان ههنا مدينة ؟ فقال : مارأينا ههنا مدينة ولا سَمِعْنا بها عن آبائنا ، ثم مررت بها بعد خمسمئة عام ، فوجدت بها بحراً فلقيتُ هناك جَمْعاً من الصيادين ، فسألتهم : متى صارت هذه الأرض بحراً ؟ فقالوا : مِثْلُك يسأل عن هذا ! إنها لم تزل كذلك ، قلت : أما كانت قبل ذلك يَبَساً ؟ قالوا : ما رأيناه ولا سمعنا به عن آبائنا ، ثم اجْتَزْتُ بها بعد خمسمئة عام وقد يَبِسَتْ فلقيتُ بها شخصاً يختلى ، فقلت : متى صارت هذه الأرض يَبَساً ؟ فقال : لم تَزَل كذلك ، فقلتُ له : أما كان بحرٌ قبل هذا ؟ فقال : مارأيناه ولا سَمِعْنا به قبل هذا ، ثم مرَرْت بها بعد خمسمئة عام فوجدتُها مدينةً كثيرة الأهل والعِمارة أحسنَ مما رأيتُها أولاً ، فسألتُ بعض أهلها : متى بُنِيَت هذه المدينة ؟ فقال : إنها عِمارة قديمة ماعَرَفنا مدة بنائها نحن ولا آباؤنا » .

وبحث علماء الطبيعة من العرب ، أيضاً ، فى النباتات وفى تطبيقاتها على الطبِّ على الخصوص ، وأنشأوا حدائقَ زَرَعوا فيها أندر النباتات وأكثرَها طرافةً ، ومن ذلك أن اشتملت غَرْنَاطة على حديقة رائعة فى القرن العاشر من الميلاد ، ومن ذلك أن كان لعبد الرحمن الأول حديقة مثلُها بالقرب من قرطبة ، وأنْ أوفد جماعةً من علماء الطبيعة إلى سورية وغيرها من أقطار آسية ليأتوا إليها بأعز النباتات.



٢٤٤ ــ مدخل إحدى قاعات جامعة الأزهر بالقاهرة (من رسم إيبر)

٢ — العلوم الطبية

يُعَدُّ الطبُّ والفلك والرياضيات والـكيمياء أهمَّ العلوم التى عُنِى بها العرب ، وأتمَّ العرب أعظمَ اكتشافاتهم فى هذه العلوم ، وتُرْجِمَت مؤلفاتُ العرب الطبية فى جميع أوربة ، ولم يتْلَف قسمٌ كبير منها كما أصاب كتبَهم الأخرى .

آثار العرب الطبية : — عددُ المؤلفين من أطباء العرب كبيرٌ إلى الغاية ، وخَصَّص ابنُ أبى أُصيبعة مجلداً من كتابه لتراجم أطباء العرب فنـكتفى بذكر بعض من اشتهر منهم .

نَهض الأغارقة بالطبِّ أكثرَ مما نهضوا بمُعْظَم العلوم الأخرى ، ووَجد العرب فى مؤلفاتهم مباحثَ مفيدةً ، وكان هارونُ (٦٨٥ م) أولَ من قام بترجمة كتب اليونان الطبية ، وكانت مجموعتُه الطبيةُ مقتطفاتٍ من كتب أطباءِ اليونان،ولا سيما جالينوسُ ، ثم تُرجِمَت كتب بقراط وبولس الإجِينِىّ إلخ. بعد ذلك بزمن قليل .

والرازىُّ ، الذى ذكرنا أنه من علماء الـكيمياء ، هو من أشهر أطباء العرب ، ووُلِد الرازىُّ سنة ٨٥٠ م ، وتوفِّى سنة ٩٣٢ م بعد أن زاول الطبَّ فى بغداد خمسين سنة ، وألف الرازىّ فى شتى الموضوعات كالفلسفة والتاريخ والـكيمياء والطبِّ إلخ . ، ووَضَع الرازىّ آثارَ من ظهر قبله من الأطباء على مِحَكِّ النَّقْد الشديد فوق فِراشِ المَرْضَى ، وكان ما كتبه فى بعض الُحمِّيات ذاتِ البُثُور كالحصبة والُجدَرِىِّ مُعَوَّلَ الأطباء زمناً طويلاً،وكان واسعَ الاطلاع على علم التشريح ، وكان كتابه فى أمراض الأطفال أولَ كتابٍ بَحَثَ فى هذا الموضوع،ويُرَى فى كتبه وسائلُ جديدةٌ للمداواة ، كاستخدام الماء البارد فى الُحمِّيات المستمرة الذى أخـذ به علم الطبِّ الحـديث ، وكاستخدام الـكحول والفتائل ، وكاستخدام المحاجم المعالجة داء السكتة ، إلخ .

وكان الرازىُّ متواضعاً كما كان طبيباً حاذقاً دقيقاً ، ومما رُوِى أنه أعاد بطريقة جَلْد الجسم بشدةٍ، ولا سيما الـكعْبُ ، الحياةَ إلى شخص سَقَط فاقدَ الِحسِّ فى أحد شوارع قرطبة واعتقد الناسُ أنه مات ، فلما امتدح الخليفةُ طريقتَه فى إعادة الحياة إلى الإنسان أجابه أنه رأى تطبيق هذه الطريقة على أعرابىّ

فى البادية ذاتَ مرة ، وأن فضله ينحصر فى تشخيصه لحالة ذلك المريض التى أَعْتَقِدُ ، مستنداً إلى بعض التفصيلات ، أنها ضربةُ شمس ، وإن لم يَرْوِ لنا التاريخُ حقيقتَها .

وأشهرُ كتب الرازىّ كتابُ « الحاوى » الذى جمع فيه صِناعة الطب ، وكتابُ « المنصورىّ » الذى بعث به إلى الأمير منصور والمُؤَلَّفُ من عشرة أقسام وهى :

١ ـ التشريح ، ٢ ـ الأمزجة ، ٣ ـ الأغذية والأدوية ، ٤ ـ الصحة ، ٥ ـ دواء البَشَرَة .
٦ ـ نظام السفر ، ٧ ـ الجراحة ، ٨ ـ السموم ، ٩ ـ الأمراض على العموم ، ١٠ ـ الحُمَّى .

وتُرْجِمَت أكثر كتب الرازىّ إلى اللغة اللاتينية وطُبِعَت عِدَّةَ مرات ، ولا سيما فى البندقية سنة ١٥٠٩ م ، وفى باريس سنة ١٥٢٨ م ، وسنة ١٧٤٨ م ، وأعيد طبع ترجمة كتابه فى الجُدَرِىّ والحصبة سنة ١٧٤٥م ، وظلت جامعات الطب فى أوربة تعتمد على كتبه زمناً طويلاً ، وكانت كتبه ، مع كتب ابن سينا ، أساساً للتدريس فى جامعة لوڤان فى القرنِ السابعَ عشرَ من الميلاد ، كما ثبت ذلك من برنامج وُضِعَ سنة ١٦١٧م ، وقد ظهر من هذا البرنامج أن مؤلفاتِ علماء اليونان الطبيةَ لم تنل من الحظْوَة إلا قليلاً ، وأنها اقتصرت على بعض جوامع الكلم لبقراط وبعض الخلاصات لجالينوس .

ورَوَى مؤرخو العرب أن الرازىَّ عَمِىَ فى آخر زمانه بماء نَزَل على عَيْنَيْه ، فقال حينما قيل له لو قَدَحْتَ : « لا ، قد أبصرتُ من الدنيا حتى مَلَلْت منها فلا حاجةَ لى إلى عينين ! » .

ونذكر من أطباء العرب علىَّ بن العباس المعاصرَ للرازىِّ تقريباً ، والذى عاش فى أواخر القرن العاشر من الميلاد ، ونذكر من كتبه كتاب « الملكىّ » المشتمل على الطبِّ النظرىِّ والطب العملىّ والذى اسْتَنَد فيه إلى مشاهداته فى المشافى ، لا إلى الكتب ، وأظهر فيه عِدَّة أغاليطَ لبقراط وجالينوس وأريباسيوس وبولس الإجينىّ ، إلخ . ، وابتعد فيه عن مبادئ الطب اليونانىِّ كثيراً فى معالجة الأمراض على الخصوص مع اعتماده عليها وتَرْجَمَ إتيانُ الأنطاكىُّ هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية سنة ١١٢٧ م ، وطُبِع هذا الكتاب فى مدينة ليون سنة ١٥٢٣ م .

وابنُ سينا هو أشهر جميع أطباء العرب ، وبلغ ابن سينا من التأثير فى عالم الطب عِدَّة قرون ما لُقِّب معه بأمير الطب .

وُلِد ابن سينا سنة ٩٨٠ م ، وتُوُفِّىَ سنة ١٠٣٧م ، وكان فى مقتبل عمره جابياً فارتقى إلى منصب وزير ، وكُتُب ابن سينا ممتازةٌ مع وفاته غيرَ مُسِنّ بسبب إفراطه فى العمل وانهماكه فى اللَّذَّات .

ويشتمل « القانون » الذى هو كتاب ابن سينا المُهِمّ فى الطب ، على علم وظائف الأعضاء وعلم الصحة وعلم الأمراض وعلم المعالجة والمادةِ الطبية ، ووُصِفَت فيه الأمراضُ بأحسنَ مما وُصِفَت به فى الكتب التى أُلِّفَت قبله .

ونُقِلَت كتبُ ابن سينا إلى أكثر لغات العالم ، وظلّت مرجعاً عامًّا للطب ستةَ قرونٍ ، وبَقِيَتْ أساساً للمباحث الطبية فى جميع جامعات فرنسة وإيطالية ، وكان طبعها يُعاد حتى القرنِ الثامنَ عشرَ ، ولم ينقطع تفسيرها فى جامعة مونپلية إلا منذ خمسين سنة .

وكان ابن سينا منهمكاً فى الشَّهَوَات انهماكه فى العلوم ، وقَصَّر انهماكُه فى الشهوات عمرَه كما ذكرنا ذلك آنفاً ، ولذلك قيل إن فلسفته لم تَمُنَّ عليه بالحكمة وإن طِبَّه لم يَمُنَّ عليه بالصحة (١) .

وأبو القاسم القرطبيُّ المتوفى سنة ١١٠٧ م هو أشهر جَرَّاحى العرب ، وتَخَيَّل أبو القاسم كثيراً من آلات الجراحة ورسمها فى كتبه ، ووَصَفَ أبو القاسم عمليةَ سَحْق الحصاة فى المثانة على الخصوص فعُدَّت من اختراعات العصر الحاضر على غيرِ حقٍّ .

ولم يُعْرَف أبو القاسم فى أوربة إلا فى القرنِ الخامسَ عشرَ ، وذاع صيته فيه ، قال العالم الفزيولوجىُّ الكبير هالّر : « كانت كتب أبى القاسم المصدر العامَّ الذى استقى منه جميعُ مَنْ ظهر من الجرَّاحين بعد القرنِ الرابعَ عشرَ » .

والكتاب الكبير الذى دَرَس أبو القاسم فيه أمور الجراحة ينقسم إلى ثلاثة أبواب : فالباب الأول فى مسائل الكَىِّ ، والبابُ الثانى فى العملياتِ التى تحتاج إلى المِبْضَع وفى جِراحة الأسنان والعيون

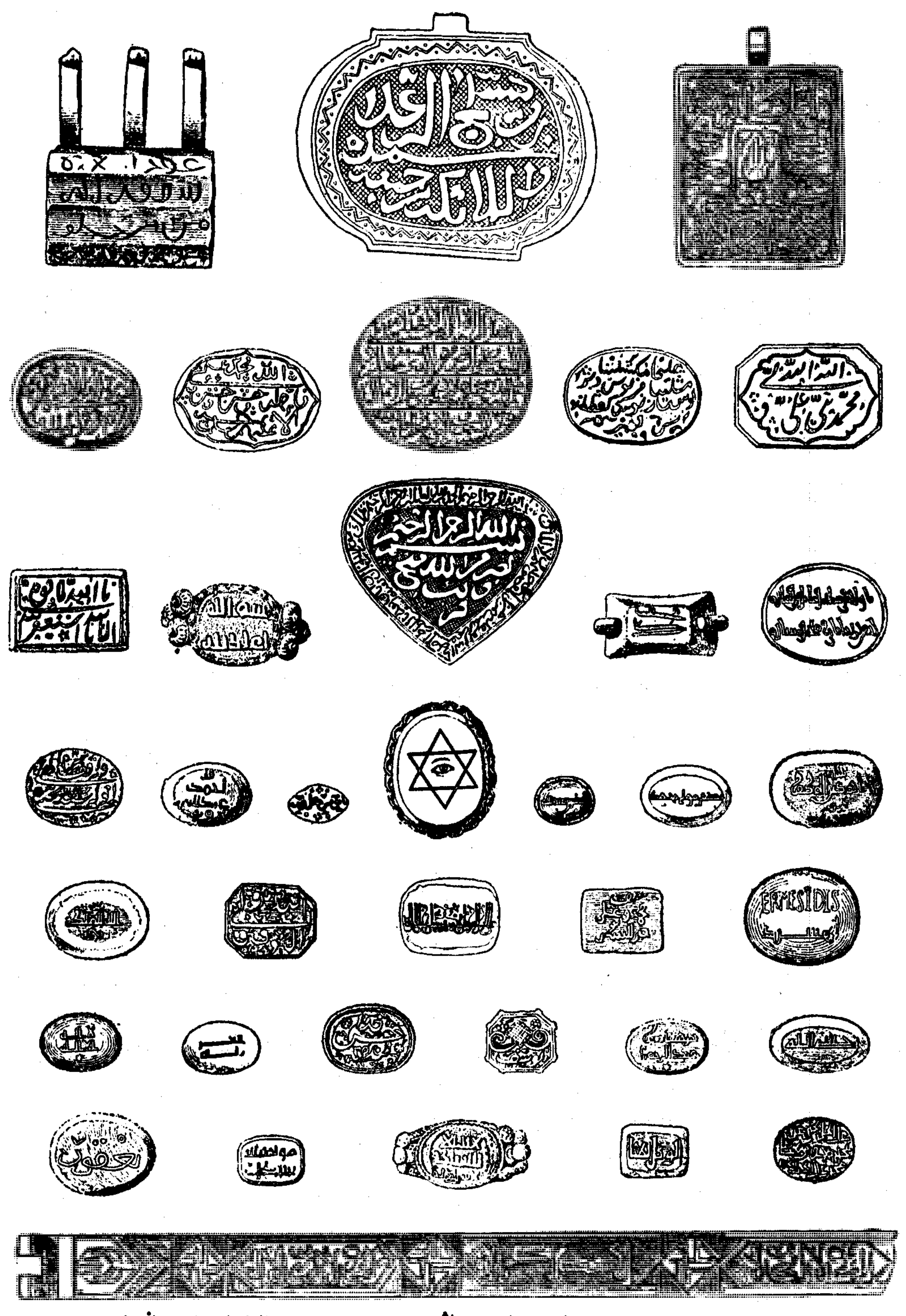
---

(١) لعل المؤلف أراد بذلك قول بعضهم :

فلم يشف ما نابه بـ « الشفا » ولم ينج من موته بـ « النجاة »

فأما كتاب « الشفاء » لابن سينا فهو مؤلف من ١٨ جزءاً بعضها فى الطب وبعضها الآخر فى العلوم الأخرى ، وأما كتاب « النجاة » لابن سينا فهو مؤلف من ثلاثة مجلدات فى الفلسفة .

(المترجم)



٢٤٥ ـ ٢٨١ : قطع من الحلى والحجارة الثمينة المنقوشة (متحف العاديات الإسبانى)

والفتق والولادة وإخراج الحصاة ، والبابُ الثالث فى الكسر والانخلاع ، وعلى ما فى هذا الكتاب من ضعف فى التقسيم نَرَى ما فيه من المعارف العملية دقيقاً جداً .

وطُبِعَت الترجمة اللاتينية الأولى لكتاب أبى القاسم فى الجراحة سنة ١٤٩٧ م ، والطبعةُ الأخيرة لهذا الكتاب حديثةٌ جدًّا ، أى تمَّت سنة ١٨٦١ م .

وكان لابن زُهْر الأشبيلىِّ ، الذى عاش فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، شهرةٌ عظيمة وإن كانت دون شهرة أولئك ، فقد كان مُجرِّباً مصلحاً مُوَطِّئاً لعلم المداواة قائلاً إن فى البدن قوةً كامنة ناظمة للأعضاء كافيةً وحدَها لشفاء الأمراض على العموم ، وجَمع ابنُ زُهْر دِراسة الجراحة والطب والصيدلة مع نقص فى التحقيق أحياناً ، وتشتمل مباحثه فى الجِراحة على بيانٍ صحيح فى الكسر والانخلاع .

وألّف ابن رُشْد ، الذى وُلِد فى قرطبة سنة ١١٢٦م وَتُوُفِّىَ سنة ١١٨٨م ، فى الطبِّ أيضاً ، وإن اشتهر فيلسوفاً شارحاً لكتب أرسطو أكثرَ من اشتهاره طبيباً ، وتَرَى له تفاسيرَ لكتب ابن سينا وكتاباً فى المداواة وكتاباً فى السموم والحُمِّيات ، إلخ . ، وطُبِعَت كُتُب ابن رُشْدٍ فى الطبِّ كثيراً فى أوربة .

علم الصحة عند العرب : — لم يجهل العربُ أهميةَ حفظ الصحة ، وكان العرب يَعْرِفون جيداً أن علمَ الصحة يُعلِّمنا طُرُقَ الوقاية من الأمراض التى لا يستطيع الطبُّ شفاءها ، وكانت مناهجهُم الصحية طبيةً منذ القديم ، وما أَمَرَ به القرآن من الوضوء والامتناع عن شرب الخمر ثم ما سار عليه أبناء البلاد الحارة من تفضيل الطعام النباتىِّ على الطعام الحيوانىِّ غايةٌ فى الحكمة ، وليس فيما نُسِب إلى النبىِّ من الوصايا الصحية ما يُنْتَقَد .

وكان من عادة مؤلفى العرب الغالبة أن يُوجِزوا وصاياهم الصحية فى كلمات جامعة يسهل حفظُها ، ومن ذلك ما قاله طبيب عربىٌّ فى القرن التاسع من الميلاد :

« ليس شىء أضرَّ بالشيخ من أن تكون له جاريةٌ حسناء وطَبَّاخٌ ماهر » .

ويظهر أن مشافىَ العرب التى أُنْشِئَتْ فيما مضى أفضلُ صحيًّا من مشافينا الحديثة فقد كانت واسعةً ذات هواء كثير وماء غزير .

ولما عُهد إلى الرازىّ فى اختيار أفضل حىّ فى بغـدادَ لإقامة مَشْفًى عليه التجأ إلى طريقةٍ لا يُنْـكِرُها عليه أصحاب نظرية المِـكروب الحديثة ، وذلك أنه عَلَّق قطعةَ لحمٍ فى كلِّ حىّ من أحياء العاصمة وأعلن أن أصلح حَىّ يُقام عليه المَشْفَى هو الحىُّ الذى يَتَأَخَّر فيه فسادُ قطعة اللحم المُعَلَّقة عن الأحياء الأخرى .

وكانت مشافى العرب ، كمشافى أوربة فى الوقت الحاضر ، ملاجئَ للمَرضَى وأماكنَ لدِراسة الطلاب،وكان الطلاب يَتَلَقَّوْن دروسَهم فى فُرُش المرضى أكثرمما يتلقَّوْنها فى الـكتب ، ولم تُقلّدهم جامعات أوربة فى القرون الوسطى إلا قليلاً .

وأنشأ العرب مشافىَ للمصابين ببعض الأمراض كالمجانين، وكان عند العرب ، كما عندنا ، جمعياتٌ للإحسان تقوم بمعالجة فقراء المَرْضَى مجاناً فى أيام معينة،وكان يُرْسَل فى الحين بعد الحين أطباء وأدويةٌ إلى الأماكن القليلة الأهمية التى لا تستحقُّ أن يقام فيها مَشْفًى .

ولم يَجْهل العربُ تأثيرَ الجوِّ الصحىّ ، ومن ذلك نَصُّ ابنِ رشدٍ فى شروحه لـكتب ابن سينا على تأثير الإقليم فى داء السِّلّ وإيصاؤه المصابين به ، كما يوصَوْن الآن ، بأن يَقْضوا فصل الشتاء فى جزيرة العرب وبلاد النوبة ، واليومَ نرى المصابين بداء السِّلِّ يُرْسَلون ، فى الغالب ، إلى بِقاع النيل القريبة من بلاد النوبة .

وتنطوى وصايا مدرسة ساليرم على نصائحَ غاليةٍ فى علم الصحة ، ولا أحدَ يجهل أن هذه المدرسة، التى عُدَّت أولَ مدرسةٍ فى أوربة زمناً طويلاً ، مدينةٌ للعرب بشهرتها ، وذلك أن النورمان ، لَمَّا استولَوْا على صِقِلّيَة وعلى جزء من إيطالية فى أواسط القرن الحادى عشر من الميلاد ، أحاطوا مدرسةَ الطب التى أنشأها العرب بما أحاطوا به المعاهدَ الإسلامية من الاعتناء الـكبير ، وأن قسطنطين الإفريقىّ ، الذى كان من عرب قرطاجة ، عُيِّن رئيساً لها ، وأنه تَرْجَم أهمّ كتب العرب الطبية إلى اللغـة اللاتينية ، فاقتُطِفَت من هـذه الـكتب وصايا مدرسة ساليرم التى ظَلَّت سببَ شهرتها الفائقة زمناً غيرَ قصير .

وكان العرب يعتمدون كثيراً على علم الصحة فى معالجة الأمراض وعلى الوسائل الطبيعية ، وليس

غيرَ ذلك أمرُ الطبِّ القائم على المداواة الطبيعية التى استقرَّ عندها العلمُ الحديث كما يظهر ، ويلوح لى، على الأرجح ، أن الطبَّ العربىَّ فى القرن العاشر من الميلاد ، لم يُؤَدِّ إلى وَفَيَاتٍ أكثرَ مما يَقَع فى هذه الأيام .

تَقَدُّم العرب فى الطب : — إن أهمَّ تقدمٍ للعرب فى عالم الطب هو ما كان فى الجِراحة ووصف الأمراض وأنواع الأدوية والصيدلة ، وظهرت للعرب عِدَّةُ طُرُق يعود الطبُّ الحديث إلى بعضها بعد إهمالها قروناً كثيرة كاستعمال الماء البارد فى معالجة حُمَّى التيفوئيد .

والطبُّ مَدِينٌ للعرب بعقاقيرَ كثيرةٍ كالسَّليخة والسَّنَا المَكِّىِّ والرَّاوَنْد والتمر الهندىِّ وجَوْز القَىْء والقِرْمِز والكافور والكحول وما إلى ذلك ، وهو مَدِينٌ لهم بفنِّ الصَّيْدَلة وبكثير من المُسْتَحضَرات التى لا تزال تُستعمل كالأشرِبَة واللُّعُوق واللَّزَقات والمَرَاهِم والدِّهان والمياه المُقَطَّرة ، إلخ. والطبُّ مدين لهم ، كذلك ، بطُرُقٍ طريفة فى المداواة عادَ إليها على أنها اكتشافاتٌ حديثةٌ بعد أن نُسِيت زمناً طويلاً ، ومنها طريقة إمْصَاص النبات بعضَ الأدوية كما صنع ابنُ زُهْر الذى كان يعالج المَرْضَى المصابين بالقبض بإطعامهم عِنَباً أُشْرِب من بعض المُسْهِلات .

وعلمُ الجِراحة مدينٌ للعرب ، أيضاً ، بكثير من مبتكراته الأساسية ، وظلّت كتبُهم فيه مرجعاً للدراسة فى كليات الطبِّ إلى وقت قريب جدًّا ، ومن ذلك أن العرب كانوا يَعْرِفون فى القرن الحادى عشر من الميلاد معالجةَ غِشاوة العين بخفض العَدَسة أو إخراجها ، وكانوا يَعْرِفون عمليةَ تفتيت الحصاة التى وصفها أبو القاسم بوضوح ، وكانوا يعرفون صَبَّ الماء البارد لقَطْع النَّزْف ، وكانوا يعرفون الكاوياتِ والفتائلَ إلخ . ، وكانوا يعرفون المُرْقِد الذى ظُنَّ أنه من مبتكرات العصر الحاضر ، وذلك باستعمال الزُّؤان لتنويم المريض قبل العمليات المؤلمة « حتى يَفْقِد وَعْيَه وحَوَاسَّه » .

الفصل السابع

الفنون العربية
الرسم والحفر والفنون الصناعية

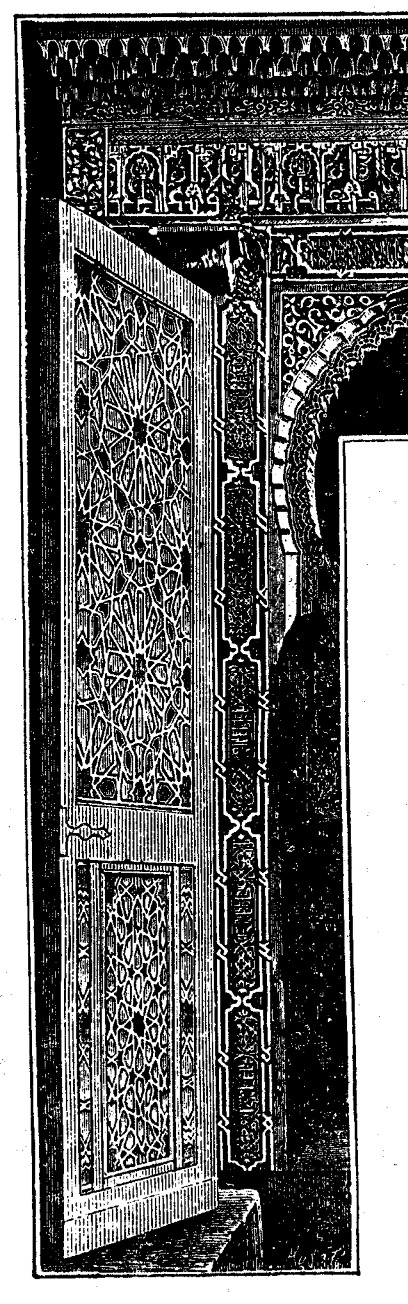
---

١ — أهمية الآثار الفنية فى بعث الأدوار

لم تَنَلْ يد التحليل العلميّ الدقيق التى قلبت رأينا فى الكون رأساً على عَقِب عالَمَ الشعر والفنّ ، ويَظْهَرُ أن من طبيعة الشعر والفنّ أن يَبْقَيَا بعيدَيْن من مباحث العلماء ، فالعلمُ قد يرى سُنَناً دقيقة لتطور الكواكب وتحول الموجودات وسقوط الأجسام ، ولكنْ هل يسود نَظْم القصائد أو إقامة المبانى أو صنعَ التماثيل غيرُ الإلهام والهوَى ؟ حقًّا إن أصحاب الفنّ يتفَلّتون حين يُحلِّقون فى سماء الخواطر من قيود السُّنَن ولا يَعْرِفون لأنفسهم سادة .

لم يَحُلْ سِحْرُ هذه العقيدة دون تلاشيها يومَ بَسَط العلمُ يدَه عليها ، فقد قرَّر العلم ، مِنْ فَوْره ، أن آثار الفن والآداب لم تكن غيرَ مُعَبِّرٍ صادقٍعن مشاعر أحد الأدوار ومعتقداته واحتياجاته،وأن من نتائج تعبيرها عنه أن كان أحسنُ صفات التاريخ هو ماتركه كلُّ جيل من الآثار ، وأن أصحاب الفنِّ والكُتَّابَ لم يَعْمَلوا ، بالحقيقة ، غيرَ الإعراب ، بشكل منظور ، عن أذواق الُجمهور المحيط بهم وطبائعه وعواطفه واحتياجاته ، وأنهم ، وإن كانوا أحراراً فى الظاهر تقَيَّدوا ، بالحقيقة،بقيودٍ كثيرة من المُؤثِّرات والمعتقدات والخيالات والتقاليد التى يتألف من مجموعها مانسميه روح العصر ، فرَزَحُوا تحت أثقال روح العصر عاجزين عن الخلاص منها على مَدًى واسع .

والأثرُ الفنيُّ عُنوانٌ ماديٌّ لخيال العصر الذى يوضع فيه ، فالپَارْتِنُون عُنوانُ خيال الأغارقة واحتياجاتهم أيامَ عظمتهم ، والإسْكُورْيالُ عُنوانُ مشاعر الإسپان فى عصر فليب الثانى ، والبيت ذو الطبقات الستّ عُنوانُ حياة البُرْجوازىّ فى الوقت الحاضر .



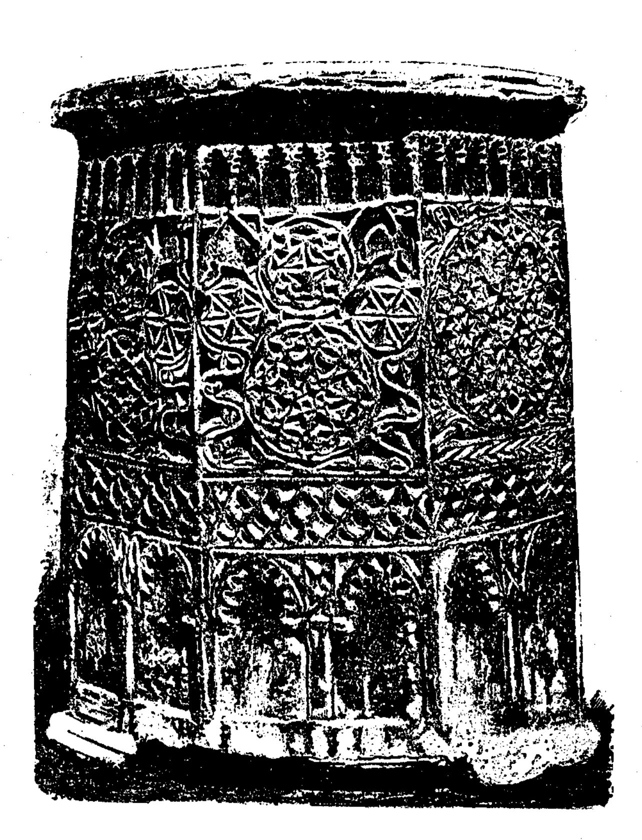
٢٨٢ ــ جزئيات معمارية فى باب بقصر الحمراء (من صورة فوتوغرافية)

وتدل آثارُ الفنِّ دلالةً صحيحة على أحوال الزمن الذى أُبْدِعَت فيه إذا وُجِد من يَعْرِف قراءتها، وإذا كان لكلِّ جيلٍ فنونُه وآدابه فلأن لكلِّ جيل احتياجاتِه الخاصةَ التى تَقْضيها الفنونُ والآداب، فالمسجدُ الذى هو معبد ومدرسة وفُنْدُق ومَشفى فى آن واحد أصدقُ دليل على تمازج الحياة المدنية والدينية عند أتباع النبىّ ، والقصرُ العربىُّ ، كالحمراء مَثَلاً ، العاطلُ خارجُه من كلِّ زينة ، والمشتمل داخله السريع العطب على كلِّ زُخْرف يُحَدِّثنا عن حياة أمة ظريفة بارعة سطحية مُحِبَّة للحياة المنزلية غيرِ مفكرةٍ فى سوى الساعة الحاضرة تاركةٍ أمرَ المستقبل لله ، ولذلك أصاب من قال : أوضحُ الكتابات ما كُتِب على الحجر .

ولكن الحجر وحدَه هو الذى يَنْطِق فى الآثار الفنية ، وكلُّ أثرٍ ماثل يُكلِّم من يُحْسِن السماع ، والمبانى تنطوى على دلائلَ عامةٍ كما تنطوى عليها تقسيماتُ الكِتاب ومختصراتُ فصوله ،

وتـكْمُل بالآثار الفنية الفرعية التى يجب على الباحث أَلَّا يحتقرَها مهما صَغُر شأْنها ، ويجب عَدُّ آنيةِ استنباط الماء والخنجَرِ والأثاثِ وكلُّ شيء يمتزج فيه الفنُّ بالصِّناعة من أصدق الوثائق التى يمكن المؤرخين أن يعتمدوا عليها أيضاً ، ومتى عَرَف المؤرخون أن يستخرجوا من هذا كلِّه حوادثَ التاريخ أُخرِجَ التاريخُ من دائرة سرد الوقائع وسلاسل الأنساب والدسائس السياسية الممزوجة بتقديراتٍ صبيانية لا تقِف أمام سلطان النقد والتى لا يُوصَل بتصفح أكداس الكتب الباحثة فيها إلى معرفة بصيص من حضارة الأزمنة التى تُحَدِّث عنها .

والآثارُ الفنية والأدبية الخليقةُ بالازدراء ، لملاءمتها مالدى العروق السائرة نحو الانحطاط من الاحتياجات الوهمية ، هى التى تُنْسَخ بنذالةٍ عن آثار الماضى لاستخدامها فى شؤون الزمن الحاضر ، كأن تقام محاطاتُ الخطوط الحديدية أو المدارسُ الحديثة على الطِّراز القوطىّ مثلاً ، وكذلك لا معنى للبرج بغير فارسٍ نبيل يَحْميه ، فإضافةُ برج إلى البيت الرِّيفِىِّ الحديث من قبيل المهازئ التى تَحْدُث عندما يَلْبَس



٢٨٣ ــ فوهة بئر عربية بقرطبة (من صورة فوتوغرافية)

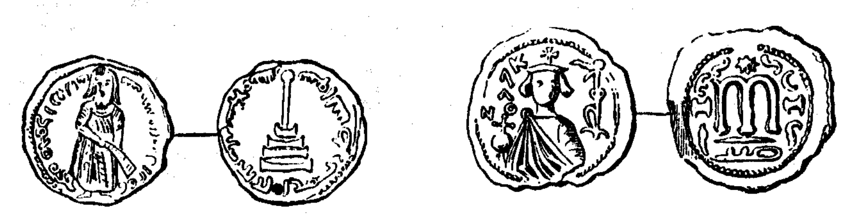
بُرْجوازىٌّ فى الوقت الحاضر خُوذَةً وَدِرْعاً كما كان يَلْبَس شارلكن ، فإذا كان صنعُ تمثال للقيصر شارلكن راكباً فرساً ولابساً خُوذَةً ودرعاً مما يزيد فى رَوْعَة هذا التمثال لدلالته على زمن المعارك والطعان فإن صنع مثله لأحد رجال المال والاقتصاد أو لأحد رجال القانون مما يستلزم قهقهةَ الناظرين

لا محالة ، والحقُّ أن الأثرَ الفنيَّ إذا ماخَرَج عن زمانه وبيئته أضاع معناه وأصبح المُتْحَفُ أليقَ مكان له .

وهنا أذكر أن البارتنون الذى أقيم تحت سماء اليونان الصافية على ذُرْوَة الأكروبول المهيمنة على أثينة هو من أجمل مايتصوره الإنسان من المعابد،فلما أقمنا على طِرازه كنيسةً فى ميدان المادلين بباريس كان هذا عملاً سَمِجاً بارداً ، ولو لم يبالغ المهندس فى تجسيم هذه الكنيسة لكانت محلًّا لسُخْرِيَة الناس عند قياسها بالأبنية العالية التى تحيط بها .

والفنونُ ، إذَنْ ، وليدةُ مشاعرِ الأمم واحتياجاتها ومعتقداتها كالنظم ، وإذا تحوَّلَت هذه المشاعر والاحتياجات والمعتقدات وَجَبَ أن تتحولَ نُظُم تلك الأمم وفنونُها أيضاً ، ولو لم يكن لدينا من دور النهضة الأوربية سوى آثاره الفنية لكفى قياسُها بآثار القرون الوسطى لإدراك تطور العالم الأوربيِّ تطوراً عميقاً .

أَجَلْ قد تَحمِلُ أمةٌ أمةً أخرى على انتحال دينها ولغتها ونُظُمها وفنونها . ولكن إنعام النظر يدلُّ على أن هذه العناصر الجديدة لاتَلْبَثُ أن تتحول تحولاً ملائما لاحتياجات تلك الأمة التى انتحلتها، وكما أن النظمَ المشتقة من القرآن فى بلاد فارس غيرُها فى بلاد الهند ومصر وإفريقية نرى الفنونَ العربية فى بلاد فارس غيرَها فى تلك البلاد الأخرى ، ولَسُرْعان ماتَطَوَّر فنُّ العِمارة العربىُّ الذى أُدْخِل مع القرآن إلى بلاد الهند فاكتسب صفةَ الاستقرار والعَظَمَة التى اتَّصَفَت بها مبانى تلك البلاد العريقةُ فى القِدَم .



٢٨٤ و ٢٨٥ ـ قطعتان من نقود الخليفة عمر

وإذْ كانت الفنونُ عُنْوَانَ مشاعر الأمة وتصوراتها كانت العواملُ القادرة على تحويلها كثيرة كَثْرَةَ العوامل التى تؤثِّر فى المجتمعات،ويُعَدُّ درسُ هذه العوامل وما لها من الأثر على جانب عظيم من

الأهمية وإن كنا لن نَصْنَعه هنا ، والمعارفُ التى لدينا فى ذلك عامةٌ الآن ، ولا تؤدِّى إلى ما نتمناه من الشروح الدقيقة ، وإذا ما قُيِّض ذلك لأحد العلمـاء فأزال النقص تألفت لغةٌ سَهْـلَة من قراءة آثار الفن .

٢ – مصادر الفنون العربية

يكفى الإنسانَ أن ينظر إلى إحدى البنايات التى أقيمت فى دور راقٍ من أدوار الحضارة العربية ، مسجداً كان ذلك البناء أو قصراً ، أو أن ينظر إلى ما صُنِـع فيه من دَوَاة أو خِنْجَر أو جلد قرآنٍ ، ليرى لهذه الآثار طوابعَ خاصةً لا يتطرق الوهم إليه فى أصلها ، والباحث فى مصنوعات العرب ، كبيرةً كانت أو صغيرةً ، لا يرَى فيها أيةَ صلةٍ ظاهرة بمصنوعات أية أمة أخرى ، فالإبداعُ من مصنوعات العرب تامٌّ واضح .



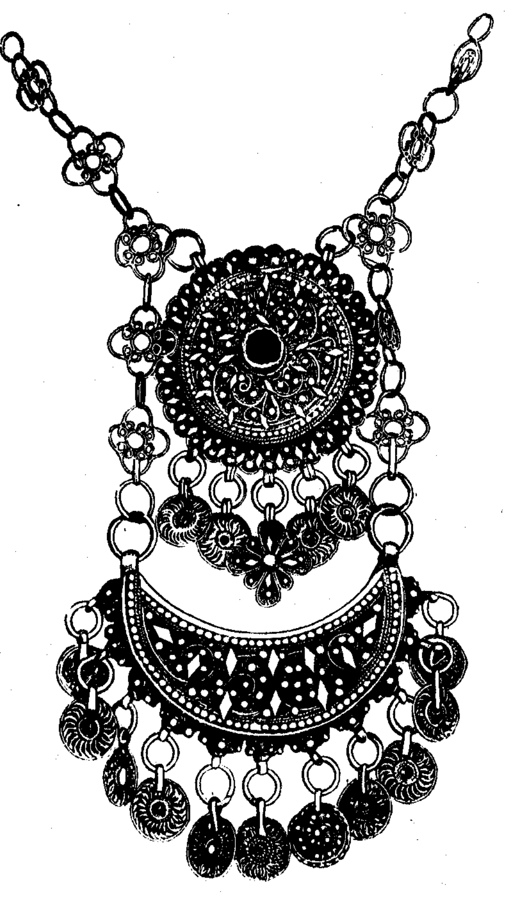
٢٨٦ ـ قطعة حلى عربية (سورية)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

والأمرُ يكون غيرَ ذلك عندما ندرس آثار العرب فى بُدَاءَة الحضارة العربية بدلاً من درس آثارهم أيام ازدهارها ، فلتلك الآثار صِلةٌ واضحة بفنون الفُرْس والبزنطيين الذين ظهروا قبل العرب

ورأى كثيرٌ من العلماء ما بين آثار العرب الفنية الأولى وآثار بعض الأمم الشرقية من صلةٍ فاستنتجوا من ذلك أن العرب لم يكونوا أصحابَ فَنّ مبتـكر ، مع أن الوقع أن كلَّ أمة تنتفع بآثار الأمم التى تقدمتها قبل أن تصبح صاحبة لآثار فنية ذاتية ، وذلك كما قال پَسْـكال بحقّ : « إنه يجب عدُّ سلسلة الآدميين الذين ظهروا بتعاقب القرون إنساناً واحداً حيًّا فى كلِّ زمان مُحَصِّلاً للمعارف على الدوام » ، والواقعُ أن كلَّ جيلٍ يستفيد فى البُداءة مما ادَّخَرَته الأجيال السابقة ، وهو يُضِيف إليه إذا كان على ذلك من القادرين .

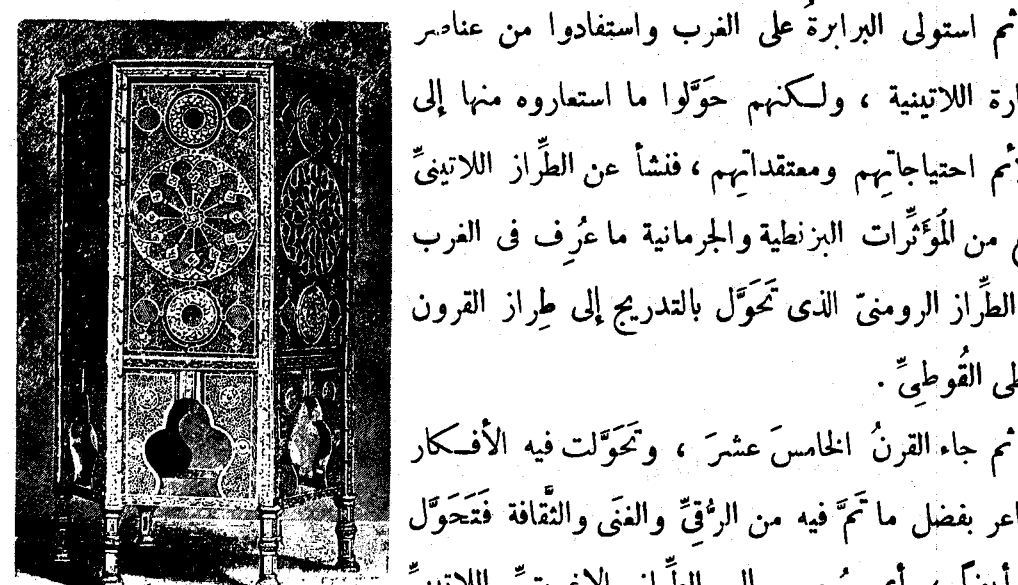
ولم تَشِذَّ أمةٌ عن هذه السُّنَّة ، وليس من الممكن تفسيرُ أمرِ أمة يُزْعَم عدمُ اتباعها لها ، ومن ذلك أن عُدَّت الحضارة اليونانية ، إلى وقت قريب جدًّا ، وذلك حين كانت مصادرها خافية تماماً ، أنها غيرُ

مَدِينَةٍ بأىِّ شىءٍ للأمم الأخرى ، فأثبت العلمُ الرفيع أن أصول الفنِّ اليونانىِّ مقتبسةٌ من الآشوريين والمصريين ، ولا ريب فى أن قدماء المصريين أنفسَهم أخذوا عن أممٍ أخرى ظَهَرَت قبلهم ، ولو لم نَفْقِد أكثر حَلَقاتِ السلسلة التى تَرْبِطنا بشعوب القرون الخالية الأولى لاستطعنا أن نَعُود إلى الوراء بالتدريج فنَتَمَثَّلَ العصر الحجرىَّ الذى كاد الإنسان يَتَّصِل فيه بأنواع الحيوان التى تقَدَّمته .


٢٨٧ ـ قطعة حلى فضية (سورية)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وقد استفاد العربُ والأغارقة والرومان والفنيقيون والعبريون وكلُّ أمة أخرى من مجهودات الماضى ، ولولا ذلك لكان لِزَاماً أن تبدأ كلُّ أمة بما بدأت به الأمم الأخرى ولَسُدَّ باب التقدم ، وكلُّ ما تفعله الأمة فى بدء الأمر هو أنها تقتبس من الأمم التى جاءت قبلها ، ثم تضيف إلى ما أخذته أموراً أخرى ، وقد اقتبس الأغارقة فى بدء أمرهم ما عند قدماء المصريين والآشوريين ، ثم حَوَّلوا المعارف التى لم يبتدعوها بما أضافوا إليها من الإضافات المتتابعة ، ثم اقتبس الرومان ما عند اليونان ، ولكن الرومان إذْ كانوا دون اليونان فَنًّا لم يَضُمُّوا إلى ما أخذوا عنهم إلا قليلاً ، ولم يصنعوا غيرَ طبع الفنِّ اليونانىِّ بطابع الجلال والعظمة الذى هو عُنْوان دولتهم الكبرى .

ثم نُقِل مَقَرُّ دولة الرومان إلى بزنطة ، وتَبَدَّلَ فَنُّهم بما أُضِيف إليه من الزيادات التى اقتضتها مشاعر الأمم الجديدة ، أى أن المؤثرات الشرقية ضُمَّت إلى المؤثِّرات الإغريقية الرومانية ، فنشأ عن تمازجها جميعِها الفنُّ الجديد الخاصّ المُسَمَّى بالفنِّ البزنطىِّ .


٢٨٨ ـ إسكملة عربية مصنوعة من البرونز المكفت بالفضة
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ثم استولى البرابرةُ على الغرب واستفادوا من عناصر الحضارة اللاتينية ، ولكنهم حوّلوا ما استعاروه منها إلى ما يلائم احتياجاتِهم ومعتقداتِهم ، فنشأ عن الطِّراز اللاتينيِّ المُشْبَع من المُؤَثِّرات البزنطية والجرمانية ما عُرِف فى الغرب باسم الطِّراز الرومنيّ الذى تحوَّل بالتدريج إلى طِراز القرون الوسطى القُوطِيِّ .

ثم جاء القرنُ الخامسَ عشرَ ، وتحوّلت فيه الأفكار والمشاعر بفضل ما تمَّ فيه من الرُّقِيِّ والغنَى والثَّقافة فتحَوَّل الفنُّ أيضاً ، أى رُجِع إلى الطِّراز الإغريقيِّ اللاتينيِّ القديم مع مراعاة مقتضيات البيئَة الجديدة ، فظهر طِراز عصر النهضة ، ثم استمرّ الفنُّ على التطور فصار جليلاً رزيناً أيام لويسَ الرابعَ عشرَ ، ثم بدا عليه التكلف فى عهد لويسَ الخامسَ عشرَ ، ثم أصبح مبتذلاً مُشْبَعاً من روح المساواة فى الوقت الحاضر .

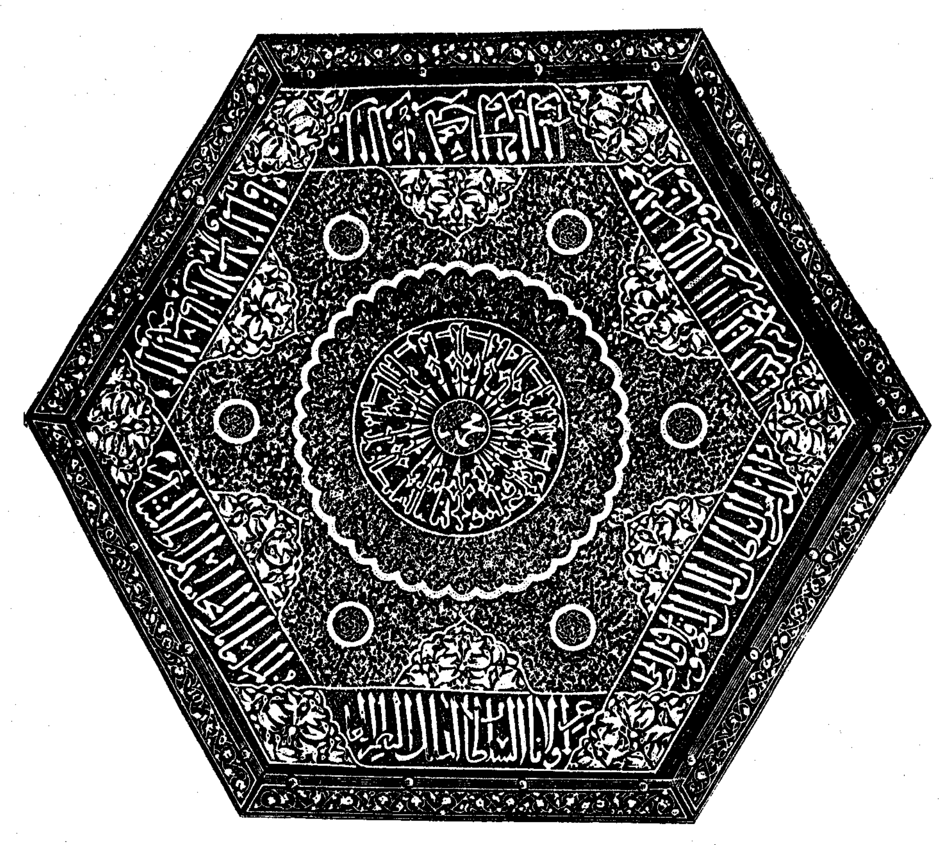
وظهر من الأدوار الكبيرة التى تتابعت على فنِّ العِمارة منذ القرون القديمة حتى الوقت الحاضر تأثيرُ الماضى ، وهل يقال إن تلك الأدوارَ عاطلةٌ من فنّ مبتكر ؟ لم يَقُلْ بهذا أحد ، ولذا يجب ألّا يقال إن العرب لم يكونوا أصحابَ فَنّ مبتكر لأنهم اقتبسوا عناصر فنِّهم الأولى من الأمم التى ظهرت قبلهم .

وتتجَلّى قوةُ الإبداع الفنيِّ فى الأمم فى سرعة تحويل ما ظَفِرَت به من عناصر الفنّ وجعله ملائماً لاحتياجاتها وابتكارها بذلك فنًّا جديداً فإذا تحقَّق هذا لَدَيْنا عَلِمْنا أن العرب لم تسبقهم أمة .

وظهرت قوة العرب الإبداعية منذ أقاموا مبانيَهم الأولى كجامع قرطبة الذى أَمْلَوْا دقائقَ صنعته على من استخدموا فى بنائه من متفننى الأجانب .

ومن ذلك أن أَعْمِدَةَ المعابد القديمة التى أخذها العرب فى قرطبة كانت قصيرةً غيرَ صالحة ليقوم

عليها سَقْفٌ عالٍ كسقف ذلك الجامع ، وأنهم وضعوا بعضها فوق بعض ساترين عدم صلاحها بتلك الحنايا الدالة على مهارتهم الفائقة ، فلو كان الترك فى محلِّ العرب ما عَنَّ مثلُ هـذا الرأى لأدمغتهم الغليظة .

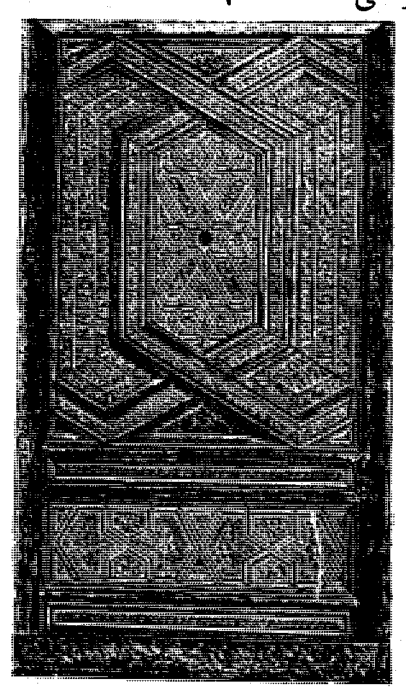


٢٨٩ ـ القسم الأعلى لإسكملة مصنوعة من البرونز المكفت بالفضة فى القرن الثالث عشر
(وقد عرضت هـذه الإسكملة فى أول هـذا الكتاب)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف فى القاهرة)

وما على القارئ إلَّا أن يتصفح صُوَر هذا الكتاب لِيَعْلَمَ قِيمةَ آثار العرب الفنية العظيمة وقوةَ الإبداع فيها ، وقد استوقفت هـذه الآثار أنظار جميع وارثى العرب ، ولم يفعل الشرق منذ ظهور العرب على مسرح العالم غيرَ تقليدها كما قَلَّدَ الغربُ الأغارقةَ والرومانَ منذ قرونٍ حتى الزمن الحاضر.

والحقُّ أن وارثى العرب قَلّدوا العرب ، ومن خلال هذا التقليد نستطيع أن نَتَبَيَّن الفرقَ بين الفنِّ المُبْتَكَر والفنِّ غيرِ المُبْتَكَر .

كان أمام الأمم التى حَلت محلَّ العرب عناصرُ بزنطية ٌوعربية وهندوسية وفارسيةُ ، إلخ . مختلفةٌ باختلاف البلدان، فلم تفعل سوى تنضيدها عاجزةً عن استنباط طِرازٍ جديد من مجموعها ، فإذا نظرتَ إلى إحدى بنايات المغول فى الهند ، مثلاً ، أمكنك أن تقول إن هذا الجزء منها فارسىٌّ وإن ذاك الجزء منها هندوسىٌّ وإن ذلك الجزءَ منها عربىٌّ ، وقلْ مثل هذا عن المبانى التى أقامها الترك الذين نَضّدُوا فيها عناصر الفنون السابقةِ من غير أن يَمزُجوا بعضها ببعض، ولـكنك إذا أنعمت النظر فى المبانى العربية كالقصور التى أقامها العرب فى الأندلس أو المساجدِ التى أقاموها فى القاهرة رأيتَ العناصر الأولى التى تألفت منها بلغت من التمازج مايتعذر معه من الانتباه إلى المصادر التى اشتُقّت منها .


٢٩٠ ــ باب عربى قديم فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

والآن نَلْمُس مزاجَ الأمة الإبداعىَّ فنقول : مهما تـكن عناصر الفنِّ التى تصبحُ قَبْضَتَها تَضَعْ طابعها الخاصَّ عليها ، فإذا كانت الأمة مُبْدِعة أمكن أن تتجلى قوتها الإبداعية فى كلِّ شىء حتى فى بناء إصْطَبْلٍ أو صنع حذاء ، وإذا كانت الأمةُ عاطلةً من مثل هذه القوة لم تَفْعَلْ سوى تنضيد عناصر الفنِّ ، كما هو شأنُ الترك الذين استطاعوا أن يُقَلِّدوا كنيسةَ أياصوفية فى القسطنطينية عشرَ مراتٍ وأن يُنَضِّدوا فيما قَلّدوه بعضَ الزخارف العربية أو الفارسية، ولـكن من غير أن تـكون لهم فيه أيةُ مَسْحَةِ إبداعٍ فنىّ خاصة .

٣ ــ الجمال فى فنون العرب

ترانا سائرين بحكم الطبيعة إلى تقدير جمال الفنون العربية بعد أن بحثنا فى مصادرها ومافيها من إبداع عظيم ، ولـكن فُقْدان المقاييس المضبوطة يجعل هذا التقدير أمراً شخصيًّا ويُقَلل من شأنه، ولن يكون نفعُ الأثر الفنىِّ ، أى مطابقتُه لغرضه ، مقياساً صالحاً لتقدير قيمته ، فمن الممكن أن تُقام عِدَّةُ بيوتٍ أو عِدَّة بناياتٍ متساويةِ الفوائد مختلفة القِيَم الفَنِّيّة .

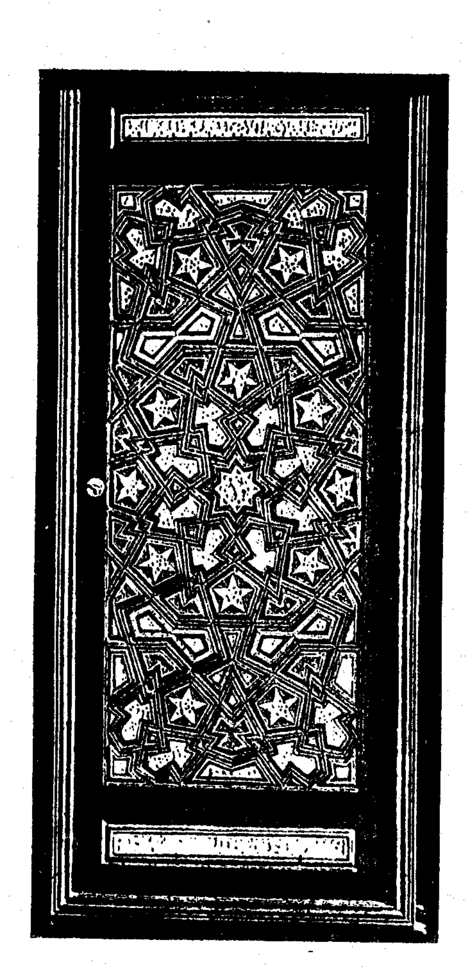
ويجب علينا أن نُعَرِّف الجمالَ والبشاعة قبل أن نعَيِّن بالضبط درجةَ الجمال أو البشاعــة فى الأثر الفنىِّ .

لقد دلَّ البحث على أن قيمة الأمور التى هى من نوع الجمال والبشاعة تختلف باختلاف العروق والتربية والبيئة والزمن وما إلى ذلك من العوامل، والتعريفُ الوحيد الممكن الذى يلائم جميع العروق فى كلِّ زمان هو أن الشىء الجميل هو مانَسْتَلِذُّه .

وهذا التعريفُ ناقصٌ جدًّا لاريب، ولـكن السعى فى إكماله يُؤَدِّى إلى الاقتراب من دائرة سبب الأسباب المنيعة التى عَجَز العلم عن دخولها حتى الآن .

وإذا كنا نَسْتَلِذُّ الشىء فلملاءمته أحوالَ أمزجتنا التى تختلف باختلاف الأشخاص والعروق، ولـكن ماهذه الأحوال ؟ ذلك مالا نقدر على الإجابة عنه .

وليس فى الطبيعة جمالٌ مطلق أو شناعة مطلقة ، كما أنه ليس فيها صوتٌ أو سكوتٌ أو نورٌ أو ظلام أو غير ذلك من الأمور التى هى وليدة ذهننا والتى أثبتت الفزيولوجية الحديثة أنها أوهام خالصة ، ولم يظهر الجمال والبشاعة فى العالم إلّا يومَ صار لبعض الأشياء والأشكال تأثيرٌ حسن أو سَيِّئٌ فى حواسنا ، وهذه أوجهٌ للذة والألم وَفْقَ آخرِ تحليل .



٢٩١ ــ لوح باب خشبى قديم مرصع بالعاج فى القاهرة
(مجموعة شيفر) (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وإذا كانت عناصرُ الأثر الفنىِّ منسجمة كان هذا الأثر الفنىُّ ذا تأثير حسن فى حواسنا ، ونقول

إذْ ذاك إنه أثر جميل،وإذا كانت تلك العناصر فاقدة الانسجام كانت مؤذيةً لحواسنا ، ونقول إذْ ذاك إنه أثر بَشِع ، وإنما الذى لا نقدر عليه هو بيان السبب فى تَلَذُّذ العين أو الأذن ببعض التراكيب وتألمها من بعضها الآخر ، ونرى اليومَ البعيدَ الذى يكتشف العلم فيه سببَ حبِّ شخص لبعض الأطعمة وكُرْهِ شخصٍ آخرَ لها هو اليومَ الذى يكون العلم قد تَقَدَّم فيه كثيراً .

والوهمُ فى تقدير قيمة الآثار الفنية نفسِها يَتَطَرَّق إلينا من إجماع فريقٍ كبير من أبناء العرق الواحد على رأيٍ واحد فى بعض أوصاف الجمال ، ومصدرُ هذا الإجماع هو فى الحقيقة تماثلُ مزاج ذلك الفريق ، فإذا مانيط أمر الجمال أو البشاعة بمختلف العروق رَأَيتَ اختلافاً فى التقدير من فَوْرِك فالبزنطىُّ كان يُفَضِّل العَذَارَى الضَّامِرات المَطُولات على إلاهات قدماء اليونان الضَّليعات ، والبرابرةُ الميروفنجيون كانوا يَرَوْن صُوَرَهم الغليظةَ أجملَ مما أنتجته الحضارة اليونانية اللاتينية ، والهمجىُّ من إفريقية الجنوبية يرَى المرأة الهوتنتية ، التى هى من أشنع نساءِ العالم فى نظرنا ، جميلةً جمال ڤينوس دُومِيدِيسِيس وأَبُولُّون دُو بِلْڤِدِير عند الأوربىّ .

ويعود بنا الإيضاحُ السابق ، كما ترى ، إلى التعريف الذى بدأنا به ، وهو « أن الشىء الجميل هو مانَسْتَلِذُّه » ، وإننا نُتِمُّ هذا التعريف بقولنا : « إن الشىء الجميل هو مايَسْتَلِذُّه أكثر أبناء العرق الواحد فى زمنٍ معين » ، ولا نستطيع أن نذهب إلى ماهو أبعدُ من ذلك .

ومهما تَجِدْ من نقصٍ فى تعريفنا للشىء الجميل تَرَهُ يَدُلنا ، مع ذلك ، إلى حقيقة الفنِّ وإلى مانطالب به رجلَ الفنِّ ، فإذا كان رجل الفنِّ يبحث عن أمثلته فى الطبيعة طالبناه بأن يقتبس منها مانَسْتَلِذُّه وأن يُبَالِغ فى إظهار ذلك مبالغةً تروقنا .

ولا نَأْلَم من رجل الفنِّ لصنعه تمثال امرأة أجملَ مما نراه عادةً ، ففى تجميل الطبيعة ، لافى نقلها حرفيًّا ، يَتَجَلَّى الفنُّ ، فانظر إلى تمثال ڤينوس دوميلو تَرَهُ آيةً فى الجمال ، وسببُ الإعجاب به هو أن الطبيعة لم تَمْنَح شخصاً واحداً ضروب الكمال التى تشاهدها مجتمعةً فيه .

ثم إذا حدث أن بَذَل رجل الفنِّ ماعنده من حِذْقٍ فى صنع تمثال لامرأة عجوز عارية مُتَكَرِّشة

أمكننا الثناء عليه ، مع ذلك ، لدِقَّته ولِما اقتحمه من المصاعب ، وإذا كان هذا التمثال محلًّا للإعجاب فلِما اصطلح الناس عليه فى زمن معين .

وقد يؤدى اصطلاح الناس فى زمن معين ، ولا سيما فى دور الانحطاط ، إلى تَبَدُّل فى أذواقهم ، ومن ذلك تَمَنِّى أنصارِ تصويرِ الطبيعة الحرفىِّ أن تكون آثار الفنِّ مطابقةً للحقائق بدلًا من أن تكون رائعةً مثالية ، وقد جَهِل هؤلاء أن الطبيعة مملوءة بالحقائق ، لا بما هو جميل ، وأن الفنَّ إذا قام ، كما يَرَوْن ، على تصوير الطبيعة تصويراً حرفيًّا فإنه يعود غيرَ موجود ، وأن آلة التصوير التى تكفى لالتقاط قبيح الأشياء لا تَدَعُ فى الناس احتياجاً إلى عبقرية رجال الفن المُبْدِعة .

وما على المرء إلا أن ينظر إلى آثار العرب الأدبية والفنية لِيَعْلَمَ أنهم حاولوا تزيين الطبيعة دائما ، وذلك لِماَ اتّصَف به الفنُّ العربىُّ من الخيال والنضارة والبهاء وفَيْض الزخارف والتَّفَنُّن فى أدقِّ الجزئيات .

والأمةُ العربية قد رَغِبَت ، بعد أن اغْتَنَت (والأمةُ العربية أمةُ شعراء ، وأىُّ شاعرٍ لا يكون متفنناً) فى تحقيق خيالاتها فأَبْدَعَت تلك القصورَ الساحرة التى تُخَيِّل إلى الناظر أنها مؤلفةٌ من تخاريمَ رُخاميةٍ مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة .

ولم يَكُن لأمةٍ مثلُ تلك العجائب ، ولكن ، فهى وليدةُ جيل فَتِىّ مَضَى وخيال خَصِب ذَوَى ، ولا يَطْمَعَن أحدٌ فى قيام مثلها فى الدور الحاضر المادىِّ الفاتر الذى دخل البشر فيه .

٤ — الفنون الصِّناعية العربية

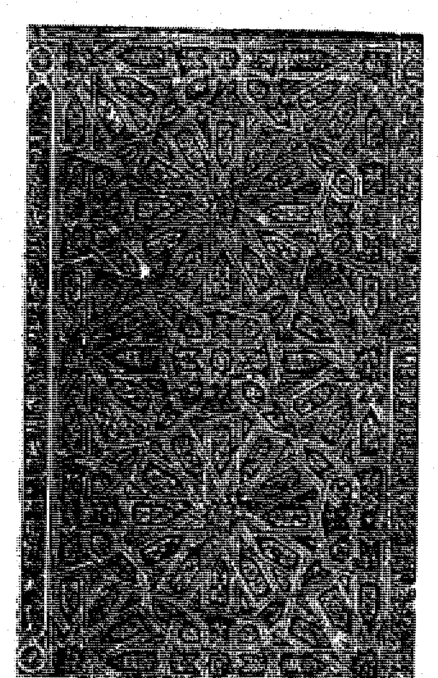
تدلُّ كلمة الفنون الجميلة ، عادةً ، على فنِّ التصوير وفنِّ النحت وفنِّ العمارة وفنِّ الموسِيقاَ ، وتدلُّ كلمة الفنون الصِّناعية على صنع المنتجات ذاتِ النفع العامِّ التى تُصْنَع بطُرُق آلية وتكون مُشْرَبَةً روحَ الفنِّ الجميل .

وإن مما يجادَلُ فى قيمته ، لا ريب ، تعبيرَ « الفنون الصناعية » ، ولكننى لن أفعل هذا هنا ، وإنما أذكر أن الفنون الصناعية تشتمل ، عادةً ، صِناعة الخَزَف والزجاج الفنِّى والفُسَيْفِساء والنجارة والصِّياغة والتكفيت وما إلى ذلك .

وقد تكون لدراسة مُنْتَجات الفنون الصِّناعية ، من حيث الحضارة ، أهميةٌ كالتى تكُون لدرس الفنون الجميلة ، فقد يوجد فى أتفه هذه المنتجات ما يدلُّ على أدَقّ شؤون الحياة الشعبية وما يساعد على تقدير معارف صانعيها الفنية واحتياجات مبدعيها ومقتنيها .

والفنونُ الصِّناعيةُ شائعةٌ بين العرب فى كلِّ مكان ، ورَوْشَمُ[1] الفرّان والدَّلْوُ والسِّكِّينُ ، مثلاً ، من الأشياء التى يصنعها العرب برَوْعةٍ تدلُّ على درجة اتصاف أحقر صُنَّاعهم بالذوق الفنىّ ، والحقُّ أن الفنَّ مستقلٌّ عن تطبيقاته ، ويمكن أن يتجَلى فى أنفس الأدوات وأثمنها كما يمكن أن يَتَجَلَّى فى أحطِّها .

ومن دواعى الأسف أن يكون درسُ فنون العرب الصِّناعية الذى خصصنا له هذا الفصل ناقصاً جدًّا لقِلّة ما عندنا من الوثائق ، ولم يتصدَّ أحدٌ بعدُ لدرس تاريخ مصدر هذه الفنون وتطوراتها المتعاقبة مع ما فى هذا من الفوائد الكثيرة .



٢٩٢ ــ لوح باب خشبى لردهة السفراء فى القصر بأشبيلية
(متحف العاديات الإسبانى)

ومبانى العرب أهمُّ آثار العرب الفنية ، وسندرس تاريخَ طِرازها فى الفصل الآتى درساً مجملاً لكثرة عددها ، ولأن البحث فيها كان الغرض المهمَّ من رحلاتنا ، ولأن جَمْع الموادِّ التى تُؤَدِّى إلى وصف ما برَّز فيه العربُ من الفنون الأُخَرِ يتطلب نفقاتٍ عظيمةً ، ولذا نقتصر فى هذا الفصل على بيان هذه الفنون الأخرى بياناً عامًّا عاجزين عن ذكر سلسلة تطورات كلٍّ واحدة منها بحسب الأزمنة ، وذلك خلافاً لما نصنعه فى فنِّ البناء .

التصوير : ــ من الأقوال الشائعة أنه حُرِّم

---

(١) الروشم : لوح منقوش يختم به .

على المسلمين تصويرُ الرَّبِّ والموجودات الحَيَّة ، ويعزو القرآن ، أو تفاسيرُ القرآن على الأقلِّ ، هذا المنعَ إلى النبيِّ .

والواقعُ أن المسلمين لم يكترثوا لذلك إلا فى زمنٍ متأخر ، وأنهم تجاهلوه زمناً طويلاً كما تجاهلوا منعَ ذلك الكتاب المقدس للعْبَة الشِّطْرَنج والشربِ بآنية من ذَهَبٍ أو فِضة .

وكان الخلفاء أولَ من خالف حَظْر تصوير ذوات الحياة ، وظَهَر من صور النقود التى نشرناها فى هذا الكتاب أنهم لم يَتَرَدَّدُوا فى رسم صُوَرِهم على نقودهم .

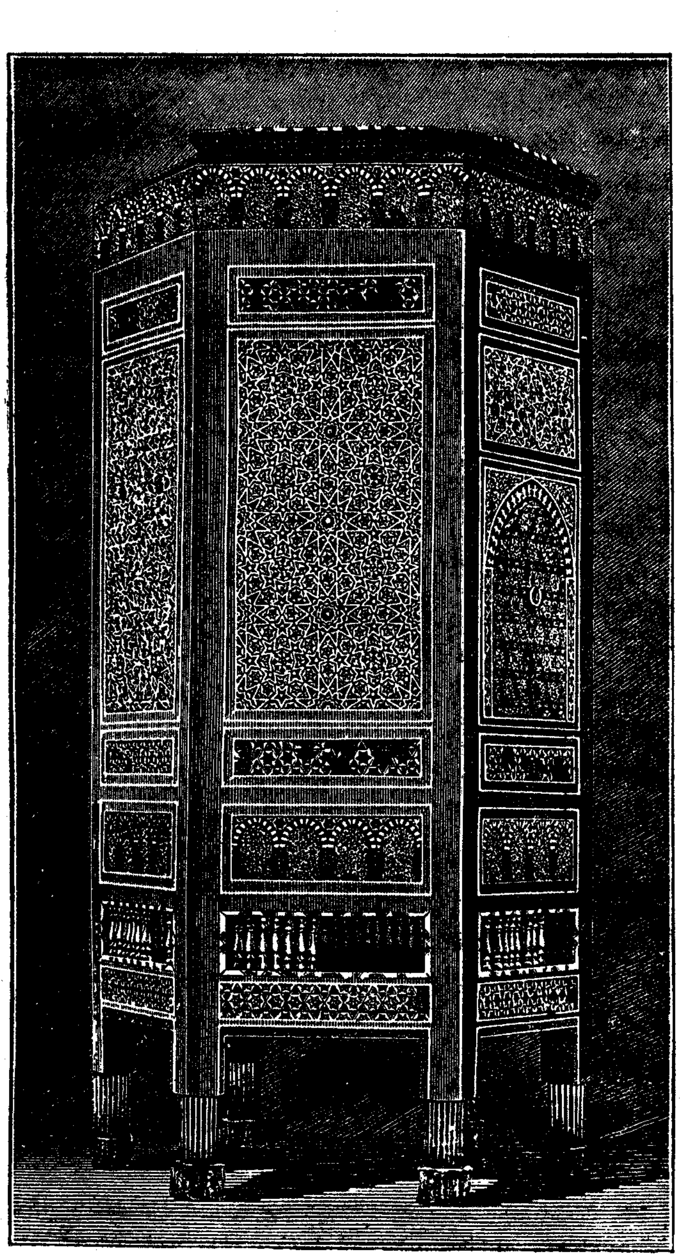
والصُّوَرُ التى على النقود أو الصورُ غيرُ القليل التى على الآنية العربية من الأدلة المفيدة على استعداد العرب للرسم ، على معرفتهم للتصوير ، ويمكن الاستدلالُ على معرفة العرب للتصوير بما ذكره مؤرخوهم الذين أنبأوا بوجود عِدَّة مدارسَ عربيةٍ كثيرةٍ للتصوير فيما مضى ، ومن هؤلاء المؤرخُ المحققُ المقريزىُّ الذى تَرْجَمَ مُصَوِّرَيْن من المسلمين وذَكَر أنه وُجِد فى قصر الخليفة المستنصر ، حين نُهِب فى سنة ٤٦٠ هـ ، ألفُ قطعةٍ من المنسوجات مصورةٍ عليها حاشيةُ خلفاء العرب مع مقاتلين ورجالٍ مشهورين ، وكانت البُسُط المصنوعةُ من نسائج الذهب والحرير والمُخْمَل مستورةً بتصاوير ممثِّلةٍ لرجالٍ من كلِّ نوع .

ويَدُلُّ ما ذكره المقريزىُّ على حِذْق مصورى عرب القاهرة فى القرن العاشر من الميلاد ، وقد رَوَى وجودَ صورتين لِمُغَنِّيَتَيْنِ تبدو إحداهما ، وهى لابسةٌ ثوباً أبيضَ على أساسٍ أسودَ ، كأنها داخلة فى الجِدار المصورة عليه ، وتبدو الأخرى ، وهى لابسةٌ ثوباً أحمرَ على أساسٍ أصفرَ ، كأنها خارجةٌ منه نحو الناظر .

ويظهر أن مصورى ذلك الزمن كانوا من المتقنين لضروب فنِّ المناظر ، فاستطاعوا تصوير السُّلَّم الذى روى المقريزىُّ وجودَه فى أحد قصور القاهرة على شكل يُخَيَّل إلى الناظر معه أنه حقيقىٌّ .

ويحتوى كثيرٌ من المخطوطات العربية على صورٍ ، ولا سيما المخطوطاتُ الخاصةُ بالتاريخ الطبيعىِّ وترويض الخيل ، إلخ . ، ولا يزال يوجد فى المكتبات نسخٌ قديمة من مقامات الحريرىّ زَيَّنها العرب

بالصُّوَر ، وذكر الغزيريُّ أن أحد المخطوطات فى مكتبة الإسكوريال يشتمل على أربعين صورةً لملوك العرب والفرس والملِكات والقادة وأعاظم الرجال ، إلخ . وأنّ هذا المخطوط يرْجِع إلى القرن الثانى عشر .



٢٩٣ ــ إسكالة خشبية مرصعة فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية)

ويعلم جميع زائرى الحمراء أن سَقْف قاعة الحكم فيها يشتمل على صُوَرٍ لمختلِف الموضوعات ، كمجاس أمراء من العرب وكمطاردة فارس مغربىٍّ لفارس نصرانىّ مطاردةَ المنتصر إلخ . وإن وُجد خلافٌ فى مصدرها ، ولم يَتَرَدَّد مسيو لاقوا فى عَزْو قسم منها ، على الأقلّ ، إلى العرب ، وهى لا تدلُّ على نبوغ فنىّ فى مصوريها كما رأيتُ .

ومع ذلك فإن تلك الوثائقَ والآثار لا تَكْفِى للحكم فى أمر مصورى العرب ، وإنما يمكن تقديرُ نبوغ رساميهم بصُوَر الحيوان والإنسان التى اشتملت عليها مخطوطاتُهم أو مصنوعاتُهم المعدِنيّة .

وتطْفو الـكتاباتُ والنقوش العربية ، فى الغالب ، فوق صُوَر ذوات الحياة التى رَسَمَها العرب ، وقد يَحْدُث ، أن تُؤَلَّف الحروفُ العربية من مزيج من صُوَرِ الحيوانات والآدميين على شكل عجيب، ومن ذلك مافى الحافة الخارجية،التى نشرنا صورةَ بعضها ، لِلْـكوب (المصنوع فى القرنِ الثالثَ عشرَ والمحفوظِ فى مكتبة باريس الوطنية) من الإفريز الذى تألفت أسطورةٌ من تشابك صُوَرِ أشخاصه فى حروف عربية .

وأشهرُ الأوانى العربيـــة الشتملةِ على صُوَر الآدميين هو الإناء الموجود الآن فى مُتْحَف اللوفر ، والمعروفُ بإناء سان لويس للعِمَاد ، والذى استُخْدِم زمناً طويلاً لتعميد الصبيان فى فرنسة ، بعدْ أنـ فُرِض أن سان لويس أتى به أيام الحروب الصليبية ، والذى أثبت مسيو دُولُونغپريه أنه من مصنوعات القرنِ الثالثَ عشرَ من الميلاد ، والذى ظهر أن أزهار الزنبق أضيفت إليه بين ذلك القرنِ ، والقرنِ الرابعَ عشرَ من الميلاد ، وهذا مع ملاحظتى أن زهر الزنبق ، أو رمزاً آخر كثيرَ الشبه به على الأقلِّ ، يوجد بـكثرة بين زخارف المبانى العربية فى مصر .



٢٩٤ — إسكملة خشبية عربية فى القاهرة
(من صورة فوتوغرافية)

ولـكن المسلمين صاروا بعد زمنٍ مختلفٍ باختلاف البلدان لا يَرْسُمون صور ذوات الحياة فى مصنوعاتهم أبداً ، مُقَيَّدين فى ذلك بأقوال الفقهاء الذين تَغَلَّبَت عليهم حرفية القرآن .

ولم تبال الأمم التى اعتنقت الإسلام ، كالفرس والمغول ، بمحظورات القرآن التى لم تلائمهم ، فترى فى بلاد الفرس ، على الخصوص ، صُوَراً كثيرة لذوات الحياة ، وإن كانت صُوَر الآدميين منها متوسطة على العموم ، وصُوَر الأزهار والحيوانات منها على شىء من الجمال مع قليل خيال .

صُنْعُ التماثيل: — صُنْع التماثيل كالتصوير من الأمور النادرة عند العرب ، ولِذَا يجب أن نكتفىَ بما جاء فى كتب التاريخ من الإشارات أو بالنماذج القليلة الناقصة جداً .

وقد أشرنا فى فصلٍ سابق إلى ذلك الخليفة المصرىّ الذى كان قصرُه مملوءاً بتماثيل نسائه ، ومثلُ ذلك ما ذكرته تواريخ عرب الأندلس من التماثيل التى كانت فى قصر عبد الرحمن الشهير ، ولاسيما تمثالُ حَظِيَّته .



٢٩٥ — روشم فران عربى مصنوع من الخشب

ولم يبق من تماثيل العرب غيرُ ما هو تافه ، كتماثيل الحيوانات الوهمية القائمة فى قاعة الأسود من قصر الحمراء وتمثال العُقاب البرونزىّ الكائن فى كانپو سانتو فى پيزه وتمثالِ الأسد البرونزىّ الذى صُنِع لِيجْرِىَ ماء إحدى العيون من فَمِهِ فتراه الآن فى مجموعة فورتونى .

صُنِعَت تلك التماثيل ، التى هى من منتجات الفنون الصِّناعية ، لِغَرَض مُعَيَّنٍ ، لا للفنِّ نفسِه ، ولا نستطيع أن نُقَدِّر قدرةَ العرب على صنع التماثيل بتلك الوثائق القليلة جدًّا .

صِناعة المعادن والحجارة الثمينة : الصِّياغة وصِناعةُ الحُلِىِّ والترصيع والتكفيت : — تقدم العرب كثيراً فى الصِّناعة المعدنية ، وبلغَ إتقانُهم لبعضها مبلغاً يَصْعُب الوصول إلى مثله فى زماننا ، وكانت آنيتُهم وأسلحتُهم مُكَفَّتَةً بالفِضة ومموهةً بالميناء المُفَرَّض ومُرَصَّعةً بالحجارة الثمينة ، وكان من تقدم العرب استطاعتُهم أن يصنعوا من مادةٍ قاسية كالبِلَّوْر قِطَعاً كبيرة مُغَطَّاة بالصُّوَر والحِكَم مما يَعْسُر صنعه ويَغْلُو ثمنه فى الزمن الحاضر ، ومن ذلك الإبريقُ البِلَّوْرِىُّ الذى صُنع فى القرن العاشر من

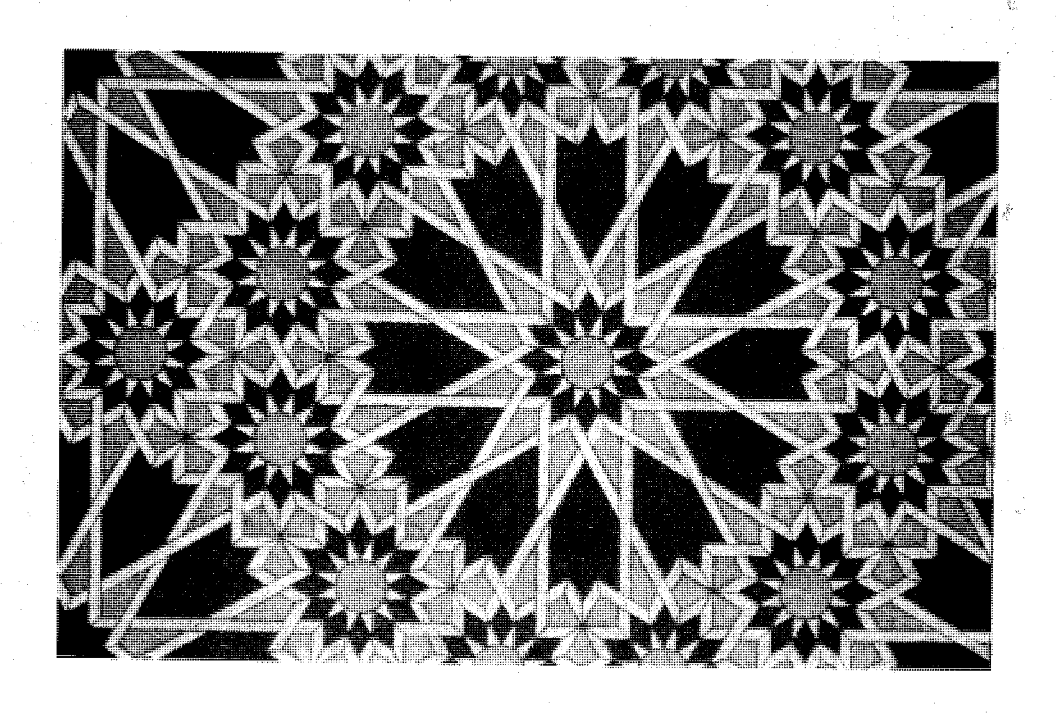
الميلاد فتجده فى مُتْحَف اللوڤر وتجد صورة له فى هذا الكتاب مع صورِ نماذج كثيرةٍ لمصنوعات العرب من المَعْدِن والحجارة الثمينة .

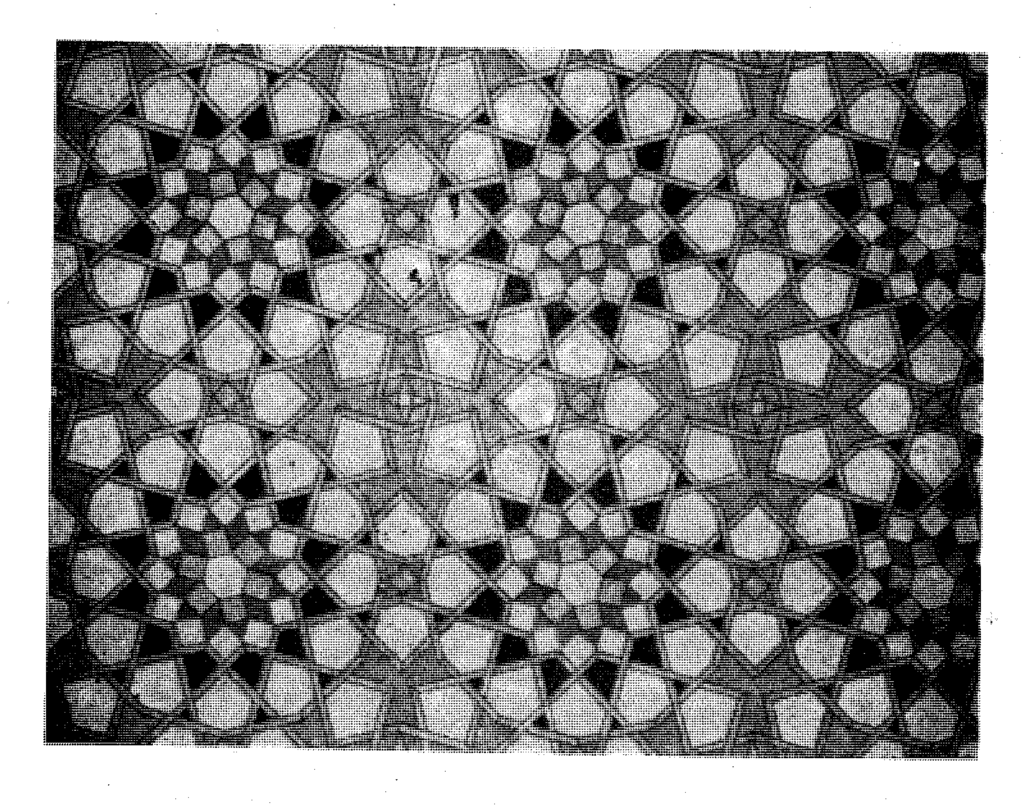
وتجلّت روحُ الإبداع العربيةُ ، على الخصوص ، فى ترصيع المعادن الصالحة لصنع الأسلحة والآنية والأباريق وكِفاف الموازين وأدوات المنازل وما إليها ، وأُطْلِق اسمُ الدِّمشقيِّ على مِنْهاج العرب مشتقاً من اسم المدينة (دمشق) التى زاولته على الخصوص ، وكانت دمشقُ والمَوْصِل أهمَّ مراكز هذه الصِّناعة ، ولا تزال هذه الصِّناعة رائجةً فى دمشق . ولكن على شكلٍ منحطّ ، ويعود انحطاطها ، لا ريب ، إلى زمن تيمورلنك الذى استولى على دمشق فى سنة ١٣٩٩م ، فساق جميع صانعى أسلحتها إلى سمرقند وخراسان .

ولا ترْجِع المصنوعاتُ المعدنية المُكَفَّتَة العربية الموجودة الآن إلى أقدمَ من أوائل القرن العاشر من الميلاد ، وأكثرُها صُنِعَ فى القرن الثانى عشر والقرن الثالثَ عشرَ من الميلاد ، والأسلحةُ المصرية التى نشرنا صُوَرَها فى جزء آخر من هذا الكتاب هى لطومانباى (١٥١١م) ، وهى مصنوعة على الطِّراز الفارسىِّ العربىّ .

وإننى أقتبس وصفَ مسيو لاڤوا لطرق الشرق فى التكفيت ، وذلك مع التنبيه إلى أن ما ذكره عن صِناعة التكفيت الحاضرة فى القاهرة لم يكن غيرَ ما فى دمشق ، فعمالُ القاهرة الذين يُحْسِنون التكفيت فى زماننا قليلون جدًّا ، وأكثرُ ما فى أسواق القاهرة من المصنوعات النحاسية هو من دمشق قال مسيو لاڤوا :

« وتُرى طُرُقٌ كثيرة لصِناعة التكفيت عند الشرقيين ويتمُّ التكفيتُ بإدخال خيط من الذهب أو الفضة إلى فُرَض مُحْدَثَةٍ فى المعدِن بالمِنْقاش واسعةِ القَعْر ضَيِّقة الوجه ، ويكون هذا الخيط بارزاً أو مُسَوًّى على حسب رأى الصانع ، فتارةً تُرَكَّب زهرةٌ دقيقة من الذهب أو الفضة على أساس من الفولاذ أو النحاس بين خَطَّيْن متوازيين ، وتطْرَق الأطراف طرقاً خفيفاً فينْجُم عن هذا ما يُشْبه الإطار وهذا ما يُفْعَل فى دمشق غالباً ، وتارة يُمِرُّ الصانعُ بمهارة عجيبة مِنقاشَه المِهْمازِيَّ الشكل بسرعةٍ على المَعْدِن الذى يُرْغَب فى زخرفته ، ويُرَكِّب خيطُ الفِضة بالمِدَقِّ على هذه الأجزاء المُعَدَّة

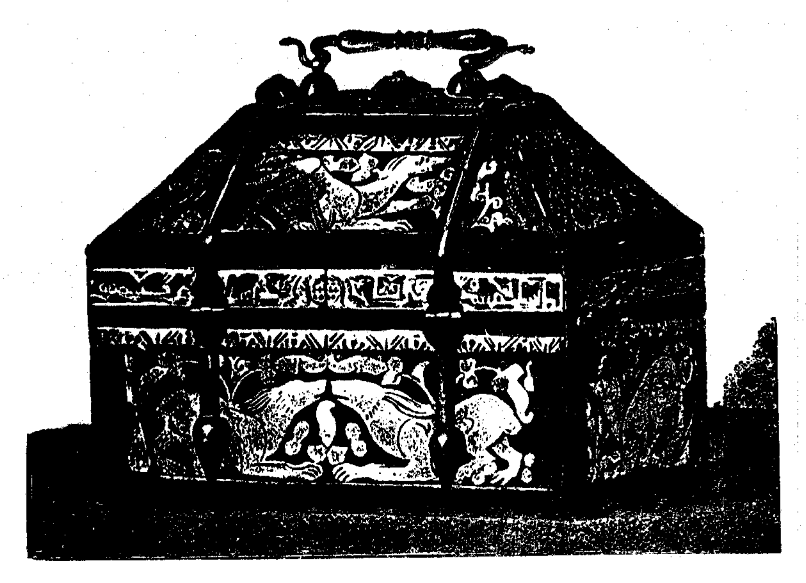




١ — رصفة رخام في بيت قديم بالقاهرة .
٢ — فسيفساء من رخام وصدف في الجامع الكبير بدمشق .

لِيُعَلَّق بها فتُمسكه ، وهذا الطراز فى التكفيت هو ما لا يزال يَفْعَلُه العمال فى القاهرة ، وهو ما يقوم به صُنَّاع الفرس على الخصوص » .

والطريقةُ الأخيرة هى التى يستعملها صُنَّاع دمشق فى الوقت الحاضر أيضاً ، وهى على ما فيها من السرعة لا تؤدى إلى صنع ما هو متين أى لا تُنَظِّف الأزهار المُكَفَّتَة بها من غير أن تُخْلَع ، مع أن المَعْدِن المُرَصَّع على حسب الطرق السابقة يُؤَلِّف جزءاً من المعدِن المُرَصع ، ولا يجوز قياس مصنوعات دمشقَ المعدِنية الحاضرة بمصنوعات عصر الخلفاء التى نذكر منها ، على سبيل المثال ، الإسكملةَ الرائعة المصنوعة من البرونز ، والتى قَدَّمْتُ لوحةً لها فى هذا السِّفْر.



٢٩٦ — صندوق صغير مصنوع فى القرن الحادى عشر من الميلاد
(طراز فارسى عربى) (متحف العاديات الإسبانى)

النقود والأوسمة : — روى المؤرخُ المقريزيُّ فى رسالته عن النقود أن الخليفة الأُمويَّ عبد الملك هو أول من ضَرَب النقود الإسلامية ، وكان المسلمون حتى السنة السادسة والستين من الهجرة (٦٩٥م) يستخدمون نقود الروم الذهبية والفِضية أو يقلدونها مع إضافة بعض الكلمات العربية إليها كاسم الخليفة ، وكالكلمات : الحمد لله ولا إله إلا الله ، إلخ .

وللنقود العربية ثلاثة أنواع : الدينارُ ، وهو من الذهب ، تَتَرَجَّح قيمته بين اثنى عشر فرنكاً وخمسةَ عشرَ فرنكاً ، والدرهم ، وهو من الفِضة تَعْدِل قيمتهُ ستين سنتيماً ، والدانقُ ، وهو من النحاس

ونشرنا فى هـذا الـكتاب ، صوراً غيرَ قليلةٍ لنقود العرب فى مختلف الأقطار ، ولا سيما مصرُ والأندلسُ ، وهى جميلة على العموم ، والحروف فيها واضحة جدًّا .

المصنوعات الخشبية : — وَصَلَ العربُ فى إتقان مصنوعاتهم الخشبية وترصيعها بالصدف والعاج إلى درجة تقضى بالعجب حقًّا ، واليوم لا تُقَلَّد ، إلا بثمنٍ عالٍ ، تلك الأبوابُ العجيبة التى تُرَى فى بعض المساجد القديمة ، وتلك المنابرُ ذاتُ التقاطيع والتراصيع ، وتلك السقوفُ ذاتُ النقوش المتشابـكة ، وتلك المشربياتُ المُخَرَّمة .

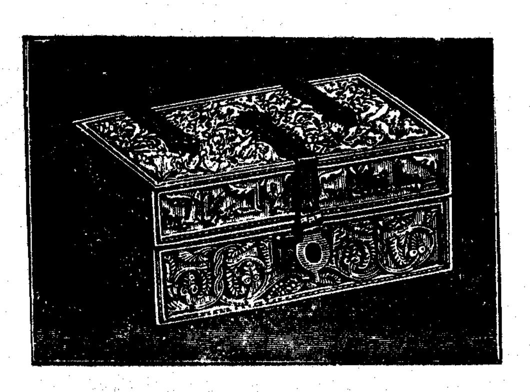


٢٩٧ ــ صندوق عربى قديم مصنوع من الخشب المرصع فى القاهرة (من صورة فوتوغرافية)

وبلَغَتْ تلك الصِّناعةُ درجةَ الـكمال قبل القرن الثانى عشر من الميلاد كما تدلُّ عليه القِطَعُ الأثرية التى انتهت إلينا من ذلك العصر فنذكر منها مِنْبَرَ المسجد الأقصى القدسيِّ الرائعَ .

وكان العرب يُتقِنون صِناعة حَفْر العاج إتقاناً نادراً أيضاً ، كما تشهد بذلك القِطَعُ الـكثيرة النفيسة التى وَصَلت إلينا كالصُّندوق العاجىِّ الصغير الذى صُنِـع لأحد ملوك أشْبِيلِيَّة فى القرن الحادى عشر من الميلاد فيُعرف بصُندوق سان إيزيدور الليونىِّ ، وكصُنْدُوق كتدرائية بايو العاجىِّ الذى صُنِـع فى القرن الثانى عشر من الميلاد فأُتِىَ به من مصرَ أيام الحروب الصليبية كما نُرَجِّح فيبدو مزخرفاً بالفِضة

المُموَّهَة بالذهب وبضروب الزينة المُرَصَّعة والمُخَرَّمة على أشكال الطيور ولا سيما الطواويس .



٢٩٨ ـ صندوق صغير من العاج المنقوش فى القرن الحادى عشر من الميلاد (متحف كنسنغتن) (من صورة فوتوغرافية التقطها مسيو بشارل رلفا)

وهنا أذكر على العموم ، وذلك فى مَعرِض البحث فى صِناعات العرب الخشبية والعاجية والمعدنية ، مايدلُّ على مهارة الصناع الشرقيين العجيبة ، وذلك أنهم يصنعون أدقَّ المصنوعات بأغلظ الآلات وأقلِّها عدداً ، أَجَلْ ، لا يُقَاس مايُصْنَع اليوم فى القاهرة ودمشق من الحُلِيِّ والقِطَع المُرصَّعَة بما كان يُصْنَعُ منها فى عصر الخلفاء ، ولكننى لا أعتقد وجودَ صنَّاع أوربيين قادرين فى الوقت الحاضر على صنع مقعدٍ مُرَصَّع أو نارجيلةٍ مُكَفَّتة أو سِوَارٍ بمثل تلك الآلات الابتدائية التى رأيتُها فى الشرق .

الفُسَيْفِساء : — عَرَف الرومان استعمالَ الفُسَيْفِساء ، واقتبسها البزنطيون منهم مع إكمال صنعها بإدخالِ أساسٍ ذهبيّ إلى الترصيعات الكثيرة الألوان .

ولم يُتَحْ لى أن أُحقِّق إتيان العرب بتعديلاتٍ مهمة فى صِناعة الفُسَيْفِساء التى لم يلبثوا أن فَضَّلوا عليها صِناعة الميناء فى زخارفهم السهلة الإنجاز .

وللفُسَيْفِساء نوعان عند العرب: فالنوع الأول هو ما كانوا يَكْسُونَ به وجهَ الأرض وأسفلَ الجُدُر من قِطَع المرمر أو الخزف المطليّ الملون المختلف المقاييس، والنوعُ الثانى هو ما كانوا يَكْسُونَ به الجُدُر، ولا سيما جُدُرُ المحاريب فنرى أن صُنْعَه بزنطيٌّ تماماً .

وقد رأيتُ تماثلاً بين قطع الفُسَيْفِساء التى هُيِّئَ لى أن أدرسها فى بلاد اليونان وتركية وسورية ومصر ونماذجِها التى أُتيتُ بها من الكنائس البزنطية فى أثينة ومن أياصوفية فى القسطنطينية وجامعِ عمرَ فى القدس ومساجدِ القاهرة ، أى تتألَّفُ قطع الحجارة المُلوَّنة ، وقِطَعُ الزجاج التى يُسْفِر ضَمُّ بعضها إلى بعض عن صُوَر ، من مُكَعَّبات صغيرة يبلغ ضلعُ الواحد منها نحو سنتيمتر ، ويشتمل كلُّ

صِباغ فيها على ثلاثة ألوان ، على العموم ، صالحةٍ لإحداث تمازج نورٍ وانعكاسه ، والمُكَعَّبات الحجرية ملونةٌ فى جملتها ، والمُكَعَّبَاتُ الزجاجية المُعَدَّةُ لإحداث أساس ذهبيّ مذهبةٌ فى وجهها فقط ، وتقوم الطريقة الدقيقة التى اتُّبِعَت لبقاء تلك الطبقة الذهبية ودوامِها لامعةً على طِلاَءِ كلِّ مُكَعَّب مذهب بطبقة زجاجية رقيقة رِقَّةَ الطبقات الزجاجية التى تكون فوق المستحضرات الميكروسكوبية فى المختبرات،وأرى أن بقاء هذه الطبقة الذهبية مدةَ ألف سنة على حالها الأول حَدَث بفضل ذلك الطِّلاَء الواقى .

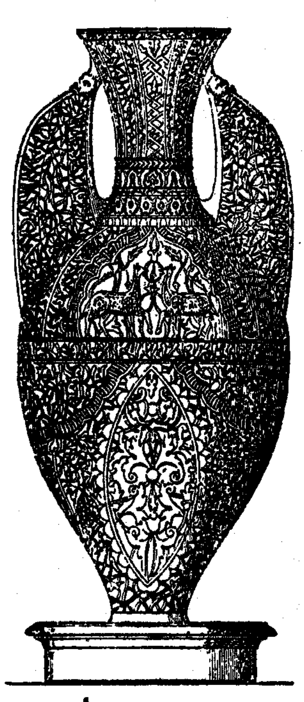


٢٩٩ ــ صندوق صغير مصنوع فى قرطبة من العاج المنقوش ، وذلك فى القرن العاشر من الميلاد (متحف كنسنغتن) (من صورة فوتوغرافية التقطها شارل رلڤا)

صِناعة الزجاج : — زاولت جميع الأمم الشرقية ، ولا سيما الفرسُ والمصريون ، صِناعةَ الزجاج منذ أيام الفنيقيين الذين عُزِىَ إليهم أمرُ اختراعه ، واكتُشِفَتْ فى نينوى أدواتٌ زُجاجية صُنِعَت قبل ظهور المسيح بمدة تَتَرَجَّح بين سبعة قرون وثمانية قرون ، ثم سيق صانعو الزجاج فى الإسكندرية إلى رومة أيام الرومان وصنعوا فيها أكواباً زجاجية جميلة مَطْلِيَّةً بالميناء ولما ظَهَر العربُ لم يَبْقَ لهم ، إذَنْ ، إلا إتقانُ تلك الصِّناعة التى كانت موجودةً قبلهم .

ولم يَلْبَثِ العربُ أن تقدموا فى صِناعة الزجاج تقدماً عظيماً ، كما يشهد بذلك ما انتهى إلينا من أوانيهم المذهبة والمطليّة بالميناء ، ويمكننا أن نتمثل ذلك بسهولةٍ من إنعام النظر فى الصُّوَر المبعثرة فى هذا الكتاب ، ولا سيما لوحةُ مصابيحِ بعض المساجد .

ويرى كثيرٌ من المؤلفين أن مورانو والبندقية مدينتان لصانعى الزجاج من العرب بِطُرُقهما التى اكتسبتا بها شهرةً كبيرةً فى صِناعة الزجاج ، والعربُ مَنْ تَعَلّمَ من اتصالِ البندقيةِ بهم اتصالاً تجاريًّا مستمرًّا .



٣٠٠ ـ إناء عربى مأخوذ من قصر الحمراء (كما جاء فى صوره قديمة)

الصِّناعة الخَزفية : — استعمالُ الخزف المطلىّ بالميناء المُلوَّن قديمٌ جدًّا ، وقد وُجِدَت قِطَعٌ منه فى بقايا القصور الفارسية القديمة ، ولم يَلْبَث العربُ أن استخدموه بَدَلاً من الفُسَيْفِساء لِمَا يتطلبه صُنْع الفُسَيْفِساء من انقضاء زمنٍ أطولَ من الزمن الذى يتطلبه ذلك ، ومن مصاعبَ أشدَّ مما يستلزمه ذلك ، وتجد فى أقدم المساجد ، كمسجد قرطبة ومسجد القَيْرَوان ، إلخ . ، نماذجَ شتَّى للخزف المطلىّ بالميناء .

وما اتَّفق للعرب فى فَنِّ العِمارة بسرعةٍ اتفق لهم مثلُه فى صِناعة الخزف،وقد استطاع العرب ، بعد أن اقتبسوا من الأمم الأخرى طُرُق صُنْع الخزف الفَنِّيَّة ، أن يبتدعوا منه ، فى بلاد الأندلس على الخصوص ، قطَعاً مبتكرةً رائعة متقنةً لم يَسْبِقْهم إليها أحدٌ كمالًا .

وتَرْجِع صِناعةُ المسلمين للخَزَف المطلىّ بالميناء فى بلاد الأندلس إلى القرن العاشر من الميلاد ، وقد كان لهم فيها مصانعُ شهيرةٌ تَبيع مصنوعاتِها فى جميع أنحاء العالم، وقد شاهدنا فى قصر الحمراء ألواحاً رائعةً مستورة بالخزف المطلىّ بالميناء ذى الانعكاس المعدِنىّ ومصنوعةً فى القرنِ الثالثَ عشرَ من الميلاد ومتشابهةً هى والمصنوعاتُ الإيطالية، التى عُرِفَت مؤخراً بالمصنوعات الماجوليكية، تشابُهاً يستوقف النظر ، وإن فى اشتقاق كلمة (ماجوليكة) ، لا رَيْبَ ، من (ميورقة) التى كان فيها مصنعٌ عربىٌّ مُهِم لصنع الخزف المطلىّ بالميناء دليلاً على أن طُرُق الإيطاليين فى صنعه مقتبسةٌ من العرب .

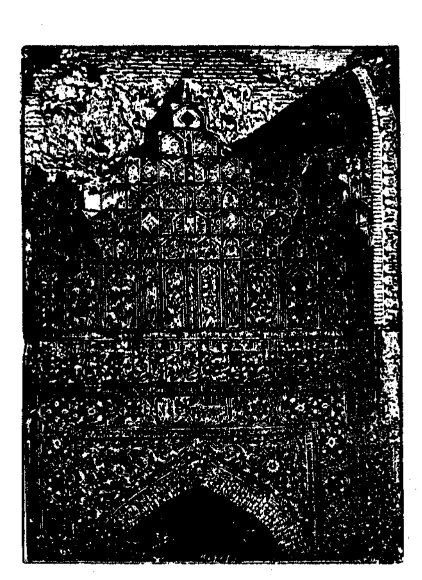
وأشهرُ نَمُوذَجٍ لصِناعة الخزف المطلىّ بالميناء الإسلامية هو الإناء الذى وُجِد فى قصر الحمراء والذى يبلغ ارتفاعه متراً وخمسةً وثلاثين سنتيمتراً ، وهو مَكْسُوٌّ برسوم زُرْق ذهبية (على أساسٍ أبيضَ ضارب إلى صُفْرَة) وبنقوشٍ عربية وكتاباتٍ وصُوَرِ حيواناتٍ خيالية تُذَكِّرنا بالوَعِل، وهو حائزٌ ، شكلاً لطابع الإبداع الخاصّ بجميع آثار العرب .

وكانت أهمُّ المراكز العربية لصناعة الخزف المطلىّ بالميناء فى بَلَنْسِيَة ومالَقَة ، قال الرحَّالة العربىُّ ابن بطوطة مشيراً إلى مالَقَة سنة ١٣٥٠ م : « وبمالَقَة يُصْنَع الفَخَّار المُذَهَّب العجيب ويُجْلَب منها إلى أقاصى البلاد » .

ومن أشهر معامل صنع الخزف معملُ جزيرة ميورقة الذى يظهر أنه قديمٌ جدًّا لافتتاح النصارى لها فى سنة ١٢٣٠ م .

ولما تمَّ إجلاء العرب عن إسپانية هَبَطَت فيها صِناعة القاشانىّ وجميعُ الصِّناعات إلى الحضيض بسرعة ، قال مسيو دُو سُوميرار : « إن درجة الإنتاج فى إسپانية صِفْرٌ ، واليومَ لا تَصْنَع معاملها سوى الأوانى المنزلية الغليظة » .

واكْتُشِفَتْ قِطعٌ من القاشانىّ فى صِقِلِّيَة ، وافْتُرِضَ بسببها وجودُ مصانعَ إسلاميةٍ للقاشانىّ فيها سابقاً ، غير أن نماذج تلك القِطَع التى وُجِدت إذْ كانت أقربَ إلى الفنِّ الفارسىِّ منها إلى الفنِّ العربىِّ صار من المحتمل أن تكون قد أُدْخِلَت إلى صِقِلِّيَة بطريق التجارة فيما مضى ، ويشتمل مُتْحَف كلُونِى على مجموعةٍ نفيسة من القاشانىّ الذى يُفْتَرَض أنه صِقِلِّىٌّ عربىٌّ .



٣٠١ ـ صينى مطلى بالميناء فى الباب الرئيسى لضريح تيمورلنك (من مجموعة الجنرال كوفن الفوتوغرافية)

وتشتمل المتاحف الأوربية على كثير من الأوانى الخزَفِيَّة التى صُنِعَت تقليداً لأوانى عرب الأندلس ، ويَسْهُل تَبَيُّن هذا التقليد بما فيها من قِطَع الكتابات العربية الممزوجة بالزخارف ، وقد حَرَّف صانعو الخزف من الأجانب هذه الكتاباتِ ، التى اتخذوها أساساً للزينة ، حين اقتباسها .

ولا يزال يُرَى فى بلاد العرب وفى أهمِّ مدن الشرق مصنوعاتٌ من الخزف الصينىِّ المُزَيَّن بالكتابات العربية المُذَهَّبة على أساسٍ من اللون الأزرق أو الأبيض ، ولا ريب فى أن عمالاً من مسلمى الصين هم الذين يصنعونها ،

ووجب ألا يكون عددهم قليلا بين الملايين العشرين المسلمين الذين تشتمل عليهم مملكة ابن السماء .

المنسوجات والبُسُط والزَّرَابِيُّ : — لم يَصِلْ إلينا شيء من المنسوجات والبُسُط العربية التي صُنِعَت أيام ازدهار حضارة العرب ، وأقدمُ ماهو موجود منها في الوقت الحاضر لايَرْجِع ، مع نَدْرته ، إلى أبعدَ من القرن الثاني عشر من الميلاد .

ونَعْلَم من تواريخ العرب أنه كان يوجد على بُسُطهم وقُطُفهم ومنسوجاتهم الحريرية ، التي صُنِعت في معامل قلمونَ وبهنسا ودمشقَ وغيرها من المُدُن ، صُوَرٌ للآدميين والحيوانات ، وقد نشرنا في هذا الكتاب صُوَراً لنسائجَ عربيةٍ قديمة،أو صُوَراً لنسائجَ عربيةٍ صُنِعَت على النماذج القديمة ، وعادالشرقُ لا يَصْنَعُ منسوجاتٍ ذاتَ صُوَر للإنسان منذ زمن طويل .

بَقِيَ علينا أن ندرس فَنَّ عِمارة العرب،وبهذا نختم بحثَنا في الآثار العجيبة التي أبدعها أتباع النبيّ والتي هي عربيةٌ أحياناً ، فتّانةٌ غالباً ، مبتكرةٌ دائما .

الفصل الثامن

فن عمارة العرب

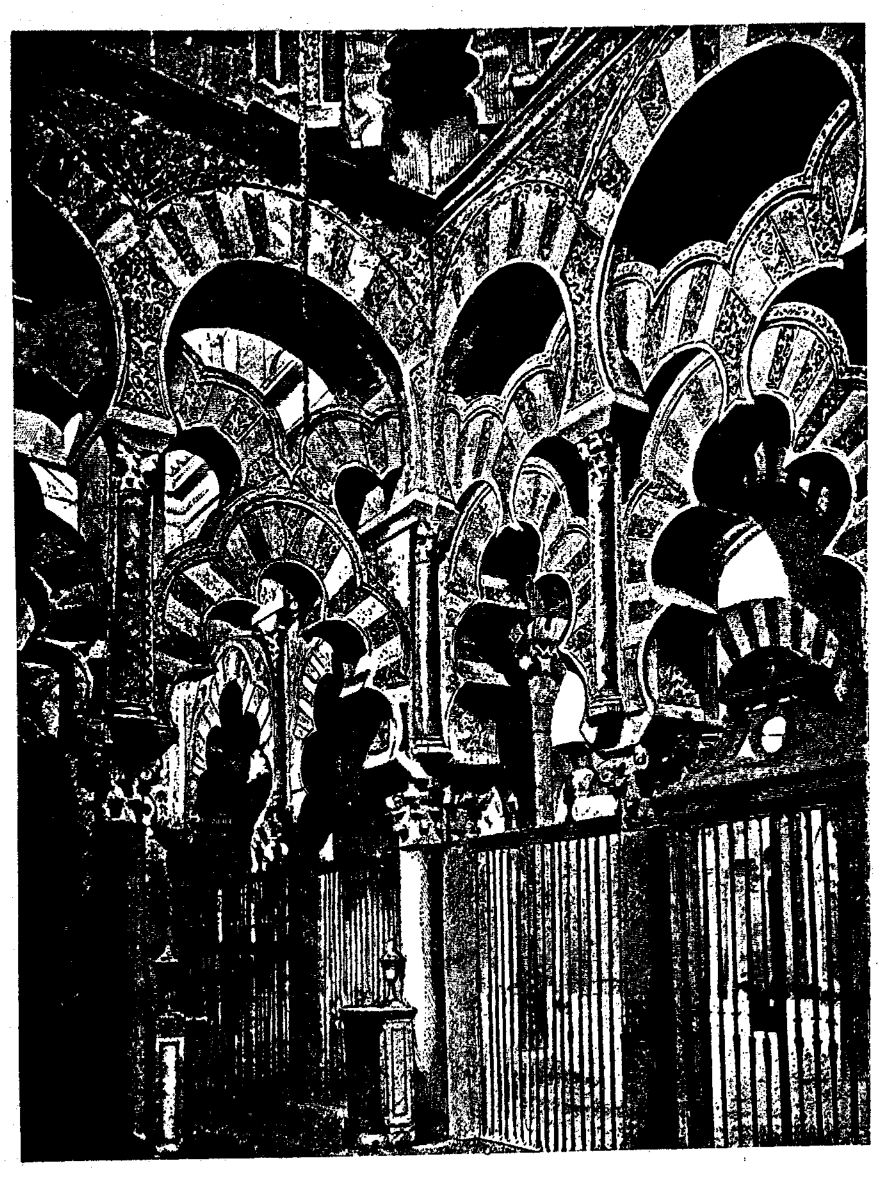
١ — معرفتنا الحاضرة لفنّ عمارة العرب

لم يعْتَنِ علمُ الآثار الحديثُ بمبانى العرب إلّا قليلاً ، وأكثر هذه المبانى فى أماكنَ بعيدة ، ولا يَسْهُل درسها دائماً ، وإذا عَدَوْتَ ثلاثةَ كُتُبٍ أو أربعةَ كتب مهمة خاصة بالبحث فى قصر الحمراء ومساجد القاهرة والقدس وَجَدْتَ الكتب غافلةً عنها تقريباً ، قال باتيسْيِه الذى هو مؤلفٌ لتاريخٍ من أحسن ما لدينا من تواريخ فَنِّ البناء ، وذلك فى الطبعة الأخيرة التى طَبَع بها كتابَه « تاريخ فَنِّ البناء » فى سنة ١٨٨٠ م : « إن مباحث تاريخ العِمارة الإسلامية تحتاج إلى توسيعٍ كبير » ، ثم أَسِفَ هذا المؤلف على نَقْص معالجته لهذا الموضوع ، والحقُّ أن هذا المؤلف اقترف عِدَّةَ غَلَطات ، ومن ذلك أنك لا تَجِد بين صُوَر كتابه المهمِّ الكثيرة صورةً لبناء إسلاميٍّ فى بلاد سورية وفارس والهند ، ولم يكن المسجد المصرىُّ ، الذى نَشَر صورته فيه مثالاً ، إلا أسوأَ نَمُوذَجٍ للمبانى المصرية القائمة على الطِّراز العربىّ ، وذلك ببابه ونوافذه القائمة الزوايا وقُبَّته البصلية الشكل .

وقال سيديُّو فى الطبعة الثانية ، التى تَمَّتْ سنة ١٨٧٧ م ، لكتابه «تاريخ العرب العام» : « من دواعى الأسف أننا لم نبحث حتى الآن بحثاً عامًّا فى المبانى التى أقامها العرب فى بلاد سورية والعراق وفارس ، حتى الهند ، فى مختلف أدوار سيادتهم ، ففى هذه المبانى ، لا ريب صفاتٌ خاصة نرى من المفيد تعيينَها » .

ومنذ زمنٍ طويلٍ أبدى ج . دوبرَنْجِه مثل هذا الرجاء فى كتابه المُمْتِع عَن فنّ عمارة العرب فى الأندلس على الخصوص ، وقال : « نَعُدُّ من حبِّ الدرس أن يُبْحَث فى أهمِّ المبانى التى أقامها العرب فى

بلاد سورية وفارس ومصر وإفريقية (نسى المؤلف أن يذكر بلاد الهند) ، وما الرسوم العامة للمسجد الأقصى الذى أقامه عمر (!) فى القدس ومساجد دمشق ومسجد عمرو بن العاص ومسجد ابن طولون فى القاهرة ومسجد القَيْرَوان ؟ وما أوضاع هذه المبانى الخاصة ؟ وما دقائقها ؟ وما زخارفها ؟ وما طابعها ؟ » .



٣٠٢ ــ أقواس جامع قرطبة

إن المقابلة بين مبانى العرب فى مختلف البلدان التى دانت لهم من الأمور التى لا غُنْيَة عنها للوصول إلى معرفة طِرازها ، فبهذه المقابلة يظهر تماثلها الذى نشأ عن وَحْـدَة النُّظُم والمعتقدات ويظهر تباينها الذى نشأ عن اختلاف البِيئات والعروق التى كانت تلك النُّظُم والمعتقدات سائدةً لهـا ، وما لدينا من كُتُبِ الوَصْف القليلة طَرَح هذه المسائلَ المُهِمَّة جانباً .

وقد يَقَعُ الباحثُ ، حين يقتصر على دِراسة فَنِّ العِمارة العربىِّ فى أحد الأقطار التى كان للعرب سلطان عليها ، فى مِثْل الغَلَطات الفظيعة التى اقترفها شاتو بريان فى كتابه الذى سَمَّاه « رِحْلَة من باريس إلى القدس » ، وذلك وقتما تَـكَلَّم عن مساجد القاهرة ، وذَكَرَ أنها تشابه مبانىَ قدماء المصريين ، والحقُّ أنه لا أحدَ يستطيع فى الوقت الحاضر أن يأتىَ مثلَ هذا الزعم ، فإذا وُجِد طِرازان متباينان أشدَّ التباين من جميع الوجوه كان ذانك الطِّرازان الطِّرازَ الفرعونىَّ والطرازَ العربىَّ ، ولن يَجِد المرء مثالًا يستند إليه فى اقتباس العرب شيئاً من الفراعنة مهما كان صغيراً .

ولم يَدُرْ فى خَلَدنا أن نُفَصِّل فى فصل مختصر كهذا الفصل تاريخَ فَنِّ العِمارة العربىِّ الذى غَفَل العلمُ عن بيانه ، ومع ذلك فإنه يمكننا أن نذكر تقسيماتِه الأساسيةَ وأن نُبَيِّن وجوهَ الشَّبَه ووجوهَ الاختلاف بين البنايات التى أقيمت على الطِّراز العربىِّ والتى لا تزال ماثلةً فى الأقطار الممتدة من الأندلس إلى الهند .

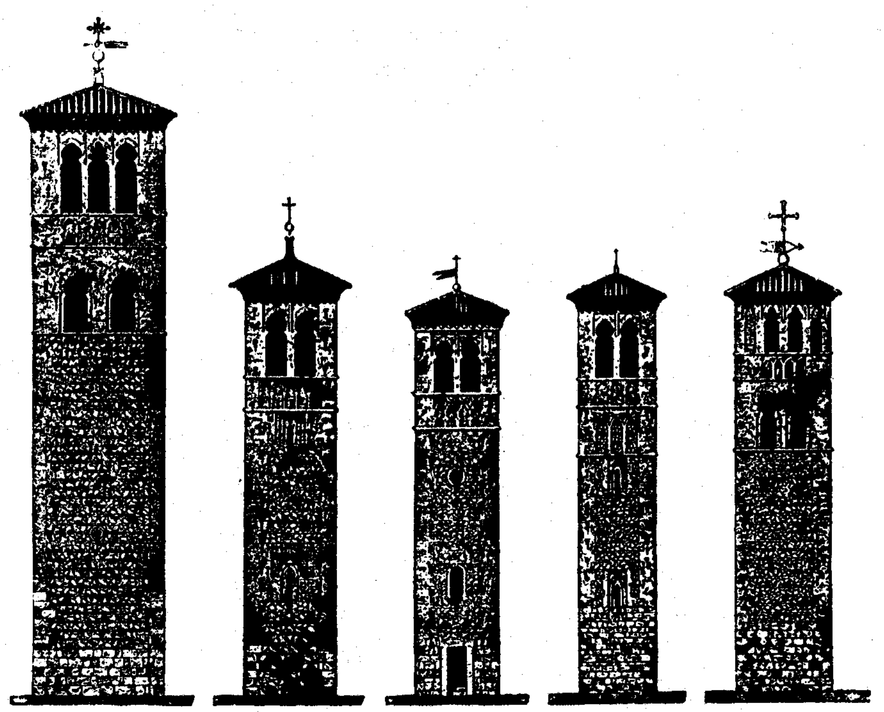
وليس هذا العملُ سَهْلاً كما يُظَنُّ ، فهو يتطَلَّبُ منا أن نَسْلُك طريقاً لم يَسْبِقْنا إليها أحد فضلاً عن عدم اتساع دائرة هذا الكتاب لغير أهمِّ البواعث .

٢ — عناصرُ فَنِّ عِمارةِ العرب المُمَيِّزَةُ

بَيَّنَّا فى الفصول السابقة مصادرَ فَنِّ العِمارة العربىِّ ، وذكرنا فيها ما اقتبسه العرب من الفُرْس والبزنطيين ، وأوضحنا كيف تحرَّروا من هذه المصادر وانتهَوْا إلى إبداع طِرازٍ مستقلٍّ خَصِب .

وإننى ، قبل أن أبحث عن المبانى التى تركها العرب فى مختلف البلدان بحثاً جامعاً ، أرى أن أدرس العناصرَ التى يتألف منها فَنُّ عِمارتهم درساً موجزاً :

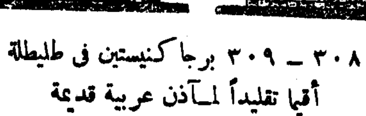
المواد الإنشائية : — تختلف الموادُّ الإنشائية التى استخدمها العرب فى إقامة مبانيهم باختلاف البلدان التى استولَوْا عليها وباختلاف مقاصدهم من إنشائها ، وكان الآجُرُّ أولَ ما استعملوا فى إنشائها، ولَسُرْعان ما استخدموا الحجارةَ فى إقامة ماهو مهمٌّ منها كقصر العزيزة وقصر القُبَّة فى صِقِلِّيَة وجامع السلطان حسن فى القاهرة ، إلخ ، وكانوا فى الأندلس يستعملون فى إنشاء مبانيهم ، غالباً ، نوعاً من البِيتُون الذى هو مزيجٌ من الموادِّ (الكلس والرمل والصَّلْصال والحَصْباء) التى لا تلبث أن تصبح طبقة صُلْبَةً كحجارة النقش .



٣٠٣ ـ ٣٠٧ : أبراج عدة كنائس فى طليطلة أقيمت تقليداً لمآذن عربية قديمة

ويقال إن عَيْبَ المبانى العربية فى قِلّة متانتها ، فإذا صحَّ هذا القول بالنسبة إلى الكثير منها فإنه غيرُ صحيحٍ بالنسبة إليها كلِّها ، وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا إنشاء بناء على جَناح السرعة ، مكتفين بالظاهر ، أقاموه غيرَ متين كما نقيم بيوتنا فى الوقت الحاضر ، وأن ماشادوا من المبانى التى لاتزال قائمةً مع مرور أكثرَ من ألف سنة عليها يَدُلُّ على معرفتهم إنشاءَ بناياتٍ خالدة عند الضرورة، وهاهى ذى قصورهم البسيطة ، كقصورهم فى صِقِلِّيَة ، لاتزال تقاوم تقلبات الفصول مع مرور ثمانمئة سنة عليها ، وهاهو ذا قصرُ الحمراء نفسُه لايزال يقاوم مع خِفّته الظاهرة .

الأعمدةُ وتيجانها : — وَجد العرب ، فى جميع البلاد التى استولَوْا عليها ، عدداً كبيراً من المبانى الإغريقية والرومانية والبزنطية المتداعية أو المهجورة ، وانتفعوا بأعمدتها وتيجان أعمدتها، كما تشهد بذلك مبانيهم الأولى التى تَضُمُّ عدداً غير قليل من الأعمدة الغربية المصدر ، ولمَّا استنفد العربُ ماوَجَدُوا اضْطُرُّوا ، بحكم الطبيعة ، إلى إنشاء ما احتاجوا إليه منها بأنفسهم ، وطبعوا عليه طابَعهم الخاصَّ الذى كانوا يَعْرِفون كيف يطبعونه على جميع آثارهم كالأعمدة وتيجان الأعمدة التى لم تُشْتَقَّ من أىِّ طِراز آخر كما قال مسيو . ج . دو پرانجه والتى تُرَى فى قاعة الأسود من قصر الحمراء ، فيجب عَدُّها خاصةً بالعرب من كلِّ وجه .



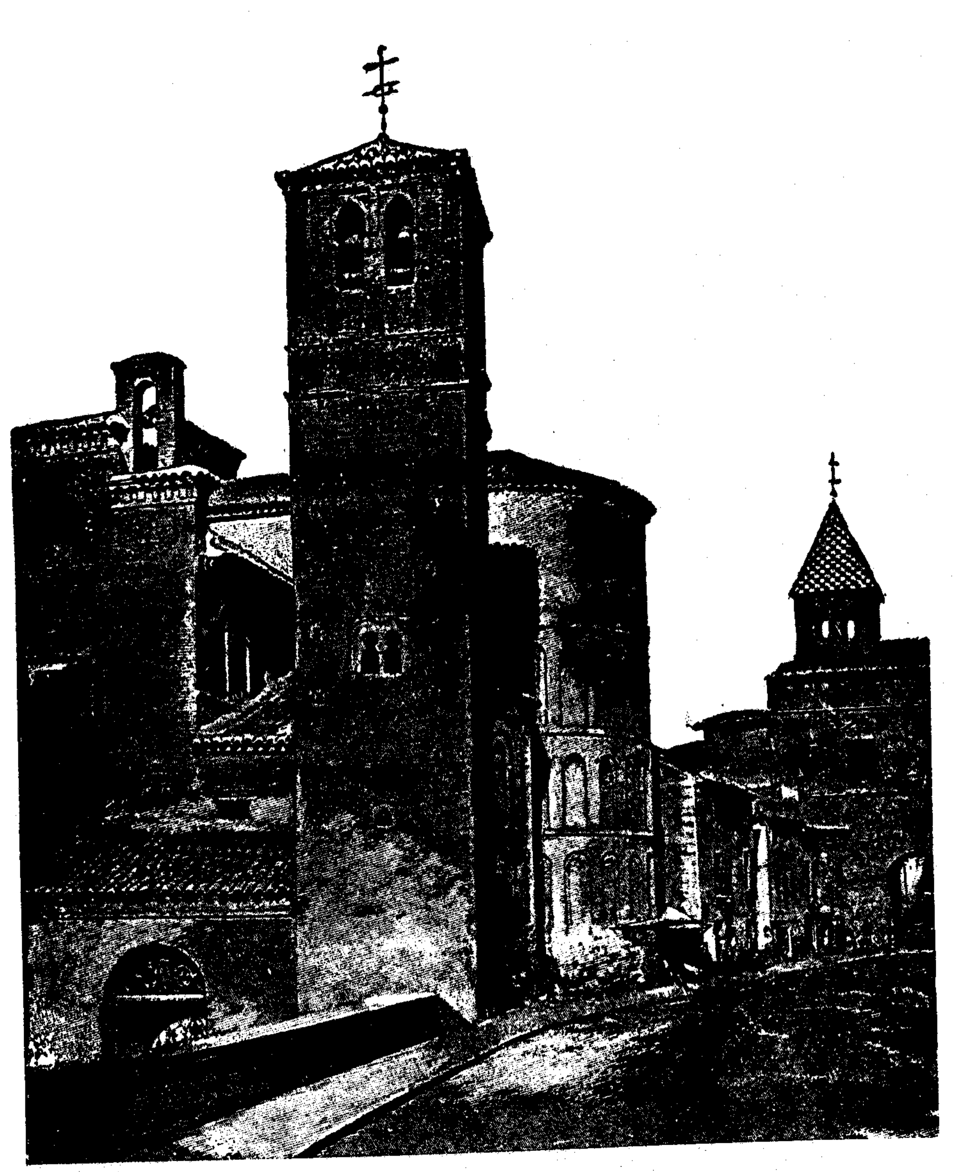
٣٠٨ ـ ٣٠٩ برجا كنيستين فى طليطلة أقيا تقليداً لمآذن عربية قديمة

الأقواس : — إن القوس المصنوعة على رسم البيكارين والقوسَ المصنوعة على شكل نعل الفرس مما امتاز به فنُّ العِمارة العربىُّ فيشاهَد فى المبانى العربية الأولى ، وإن استعمالَ القوسِ المصنوعة على رسم البيكارين والقوسِ المصنوعة على شكل نصف الدائرة معاً مما رأيتُ فى أقدم المبانى العربية فى أوربة وآسية وإفريقية ، فأُتيحَ لى درسُه .

والقوسُ المصنوعة على رسم البيكارين مع كَسْرَةٍ خفيفة فى أعلاها وخَصْرٍ خفيف فى أسفلها مما تجِدُ فى المبانى العربية التى شِيدَت فى دورٍ لاحق فيحتاجُ المرء إلى شىء من الانتباه ليَتَبَيَّنه فيها ، وتكفى هذه الأقواس ، التى وُجدت مع ذلك لمَنْح المنحنِى شكلاً رائعاً .

ثم تطورت القوسُ المصنوعة على رسم البيكارين فى مصرَ وصِرْتَ لا ترى لأسفلها خصراً ،

وذلك خلافاً لِما اتّفق لها فى الأندلس وإفريقِيّة حيث اكتسبت شكل نعلِ الفرسِ أو القوسِ المُجاوِزة وأصبحت هذه القوسُ صِفَةً لِفَنِّ العمارة العربىِّ فيهما فى بعض الأزمنة .



٣١٠ — برج كنيسة سانتياغو العربى فى طليطلة (من صورة فوتوغرافية)

وقد قيل إن القوسَ المجاوزة (المصنوعةَ على شكل نعل الفرس) كانت معروفةً عند البزنطيين، ولكنَّ هذا لم يستند إلى دليل مادامت تلك القوسُ غيرَ مشهودة فى معظم مبانى ذلك الزمن ، وأرى،

مع ذلك ، أنها لم تكن مجهولةً فيه ، وإن كانت قليلةَ الاستعمال ، والحقُّ أننى وَجَدْتُ فى كنيسة كاپْنِيكارْيا ، التى أقامتها القيصرةُ أو دوكسى فى أثينة ٤١٨ م ، على حسب ماجاء فى كتابةٍ تَبَيَّنتُها على عَمُودٍ ، أقواساً مُجاوِزةً قليلاً جدًّا ، وظهر ارتدادُ أسفل القوس منها إلى داخلها من الضعف بحيث يحتاج إدراكُهُ إلى شىء من الدقة .

المآذن : — أوجبت ضرورةَ دعوة المؤمنين إلى الصلاة ، وَفقًا لأحكام الدين ، إقامةَ المآذن فوق جميع المساجد الإسلامية كما هو معلوم ، وتختلف أشكال هذه المآذن باختلاف البلدان اختلافاً أساسيًّا ، فهى مخروطة الشكل فى بلاد فارس ، ومُربَّعةٌ فى بلاد الأندلس وإفريقية ، وأُسْطُوَانيَّةٌ ذاتُ مِطْفأةٍ فى أعلاها فى تركية ، ومتنوعةُ الشكل فى كلِّ طبقةٍ منها بمصر .

ونرى الكثيرَ من مآذن مصرَ ، ولاسيما مِئْذَنَةُ قايتْباى فى القاهرة ، من العجائب ، ولا شىء أَدَلُّ على دِقة العرب وذوقهم الفنىِّ من قدرتهم على تحويل البروج البسيطة ، ويتجلى الفرق الكبير بين ذوق العرب الفنىِّ وذوق الترك عند مقابلة تلك المآذن العربية بالمآذن التركية على الخصوص .

ومآذنُ العرب ، كأكثر مبانيهم ، مُتوَّجةٌ ، على العموم ، بأنواع الشُّرَف ذاتِ الأشكال المختلفة المعروفة بأقسام الحواجز الواقعة بين الكُوَى [1] ، ونَعُدُّ من هذه الأشكال : الدُّرَقَ [2] والنَّصْل والحَرْبة والمِنْشار ، إلخ ، والمناورُ ، وإن عُرِفَت فى بلاد فارسَ أيام بنى ساسان ، كانت أشكالها أقلَّ تنوعاً من تلك بدرجات .

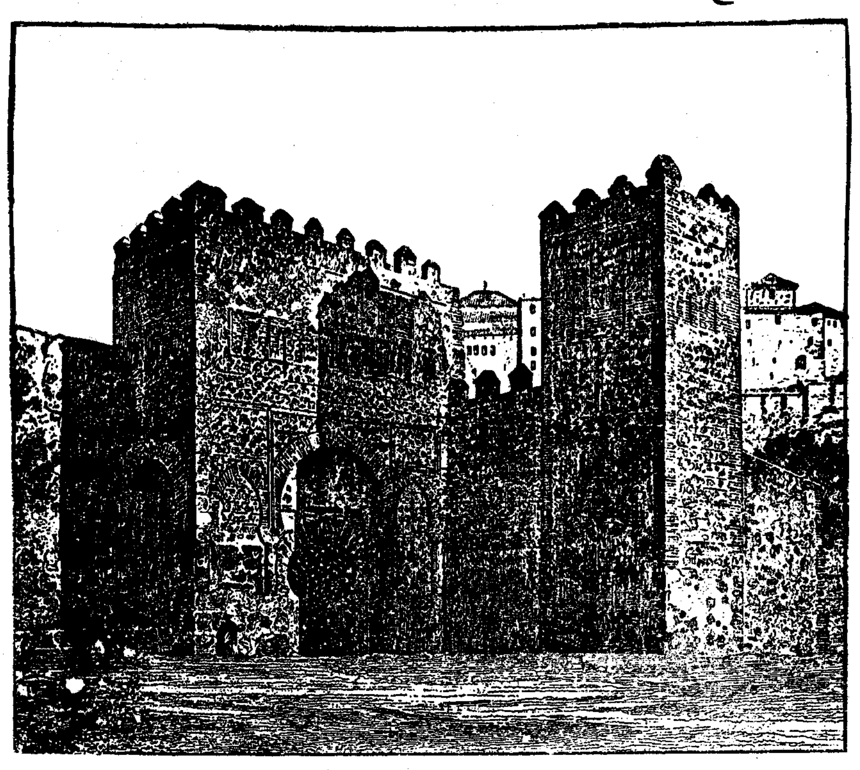
القِباب : — ليست القِبابُ مما اخترعه المسلمون وإن كان أصلُ الكلمة عربيًّا ، فقد كانت القِباب معروفة عند البزنطيين ، وكان للأكاسرة من بنى ساسان قِبابٌ فى قصورهم ، وإنما العرب هم الذين ابتكروا القِبابَ الهيفَ ذاتَ الخَصْر ، ويتألف من مرور مقطع القُبَّة العربيةِ العمودى من مركزها خطٌّ مُنْحَنٍ يذكِّرنا بشكل القوس العربية ، ثم أفرط الفرس فى حَنْو قِبابهم فانتهَوْا إلى شكلها البَصَلِىِّ الذى سنتكلم عنه قريباً .

ويختلف شكلُ القِباب العربية باختلاف البلدان ، فهى منخفضة فى إفريقية ، ولا سيما القَيْرَان ،

---

(١) الكوى : جمع الكوة ، أى الخرق فى الحائط . (٢) الدرق : جمع الدرقة ، أى الترس من جلود .

انخفاضَ القِباب البزنطية ، ويُرَى على كلِّ مسجدٍ فيها عِدَّةُ قِباب من هذا الطِّراز ، والقِبابُ في مصرَ، على العموم ، هي من الطراز الذى وَصَفْناه آنفاً ، ولا تُرَى على المساجد فيها ، بل على المزارات أو على الحُجُرات المجاورة للمساجد والمشتملةِ على أضْرِحة ، وكلما شاهدت في مصرَ قُبَّةً على مسجد أمكنك أن تقطع بوجود ضريح فيه .



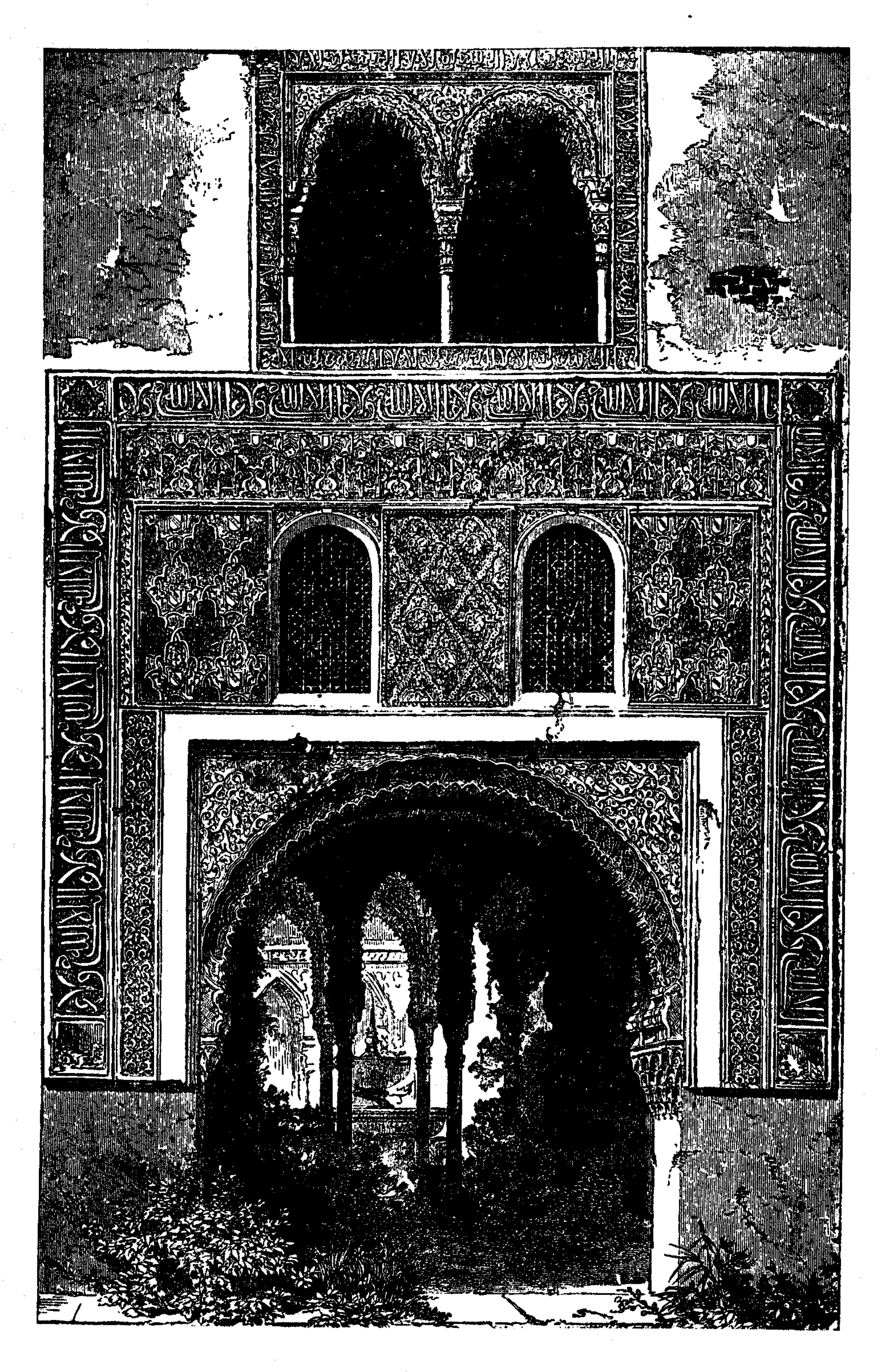
٣١١ – باب بيزاغرة (باب شقرة) فى طليطلة

وهنالك بعضُ الشَّبَه بين القِباب المصرية والقِباب السورية ، أو قُبةِ جامع عمرَ ذاتِ الخصر الضيق قليلاً على الأقلّ ، وإن كانت القِباب السورية أقلَّ هَيَفاً وأكثرَ وزناً وعاطلة من الزخارف الخارجية .

وتَرَى في مصرَ ، ولا سيما في المقبرة القريبة من أسفل قلعة القاهرة والتى سَمَّيْتُها سَهْلَ القبور ، وذلك في الصورة التى نشرتها لها ، تمييزاً لها من المقبرة الأخرى المعروفة باسم مزارات الخلفاء ، جميعَ أنواع القِباب ، كالقِباب التى هى على شكل نصف الدائرة والقِباب الإهليلجيَّة[1] والقِباب الأسطوانية والقِباب المخروطة والقِباب المجاوزة والقِباب المُقَرَّنة ، إلخ .

---

(١) الإهليلجى : البيضى .



٣١٢ ـ منظر فى داخل قصر الحمراء (من صورة قديمة)

المُتَدَلِّيات « المقرنصات » : — يظهر أن العرب كانوا يكرهون ما كان يُحبُّه الأغارقة من الأوجه المُلْسِ المُوَحَّدة والزوايا والأشكالَ القائمةَ ، فكانوا يُنشئون الكُوّاتِ الصغيرةَ الناتئة المثلثة الكُرِيَّة المسماةَ بالمُتَدَلِّيات لتَدَلَّى بعضها فوق بعضٍ فى الفضاء تَدَلِّيًا هندسيًا تدريجيًا يُذَكِّرنا بخلايا النحل ، وذلك لِما نرى من رغبتهم فى ملء زوايا الجُدُر القائمة وفى وَصْلِ القِباب المستديرة بما تقوم عليه من الرِّدَاه المُرَبَّعَة وصلاً غير محسوس ، وقد استُعْمِلَت المُتَدَلِّياتُ فى صِقِلِّيَة منذ القرن العاشر والقرن الحادى عشر من الميلاد ، وقد حَوَّل عربُ الأندلس تجوُّفاتها الكُرِيَّةَ إلى مواشيرَ [1] قائمةٍ ذات وجوهٍ مُقَعَّرَة .

والمُتَدَلِّياتُ مما انفرد به العرب ، ولم تُوجَد عند أيَّة أمة حتى الآن ، وما كاد القرن الثانى عشر من الميلاد يَحِلُّ حتى كان أمْرُها شاملاً لجميع البلدان الإسلامية ، وقد استخدمها العرب فى رَبْط أطناف أَرْوِقَةَ المآذن بأوجهها القائمة وفى ملء قِباب المساجد وفى وصلها بالجُدُر القائمة عليها وفى وَصْل القِباب الكُرِيَّة بالأوجه المُرَبَّعَة ، إلخ .

حقًّا أن المُتَدَلِّيات مما امتاز به الفنُّ العربىُّ ،ولا أوافق على رأى مسيو شارل بلان القائل : « إنها نشأت عن ضرورة إحداث الظلال بالوسائل الناتئة » فالمُتَدَلِّيات كثيرة فى داخل المبانى ، حيث لا فائدة فى إحداث الظلِّ ، كثرتَها فى خارجها ، ولم تنشأ متدليات المآذن ، كذلك ، عن « ضرورة إحداث أروقة عالية لدعوة المسلمين منها إلى الصلاة » ، ما رأينا مآذنَ الآستانة ومآذن بلاد فارس ذاتَ أروقة عاطلة مما يُشاهَد فى مآذن مصرَ من المتدليات ، وإنما الذى أراه هو أن اختراع العرب للمتدليات نشأ عن كُرْههم الزوايا والأوجه المُوَحَّدَة المُلْسِ كما ذكرت آنفاً،ويتَجَلى هذا الكُرْهُ فى جميع آثارهم الفنية ، سواء أكانت مآذنَ أم جلودَ قرآنٍ أم دُوِيًّا .

النقوشُ العربية ودقائقُ الزُّخْرُف : — زخارفُ المبانى العربية ذاتُ طابع خاصٍّ يَنْتَبِه إليه ، فى الحال،حتى أجهلُ الناس بفنِّ العِمارة،وهذه الزخارفُ المؤلفة من رسومٍ هندسية ممزوجة بالكتابات من

---

(١) الموشور فى علم الطبيعيات : مجسم من بلور تكون قاعدته مثلثة الأضلاع .

الأمور التي نرى رسمَها أسهل من وصفها وهي تابعةٌ لقواعدَ بسيطةٍ نَصَّ عليها مسيو بُرْغوان على الرغم من ظواهرها الخيالية .

وكانت النقوشُ العربية تُنْقَر في الحجر كما في كثير من مساجد القاهرة ، أو تُصَبُّ في قوالبَ كما في قصر الحمراء .

وللخطِّ العربيِّ شأنٌ كبير في الزخرفة ، ولا غَرْوَ فهو ذو انسجام عجيب مع النقوش العربية ، ولم يُسْتَعْمل في الزخرفة ، حتى القرنِ التاسع من الميلاد ، غيرُ الخطِّ الكوفيِّ ومُشْتَقَّاتِه كالقرمطيِّ والكوفيِّ القائم الزوايا .

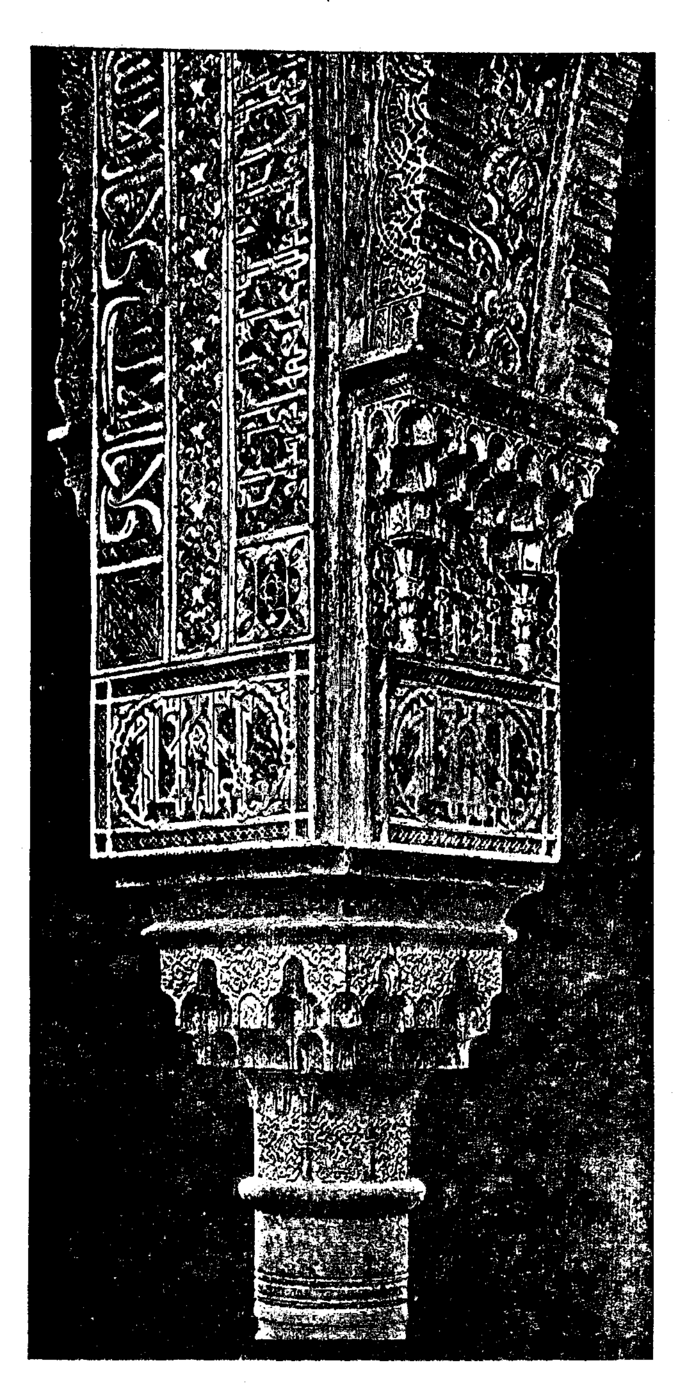
وتؤخذ هذه الكتاباتُ من القرآن على العموم وأكثرُ هذه الكتابات استعمالاً هو السطرُ الأول من القرآن ، وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، أو القولُ الجامع الذي يُلَخَّص به الإسلامُ وهو : « لا إله إلا الله ، محمدٌ رسول الله » .

وقد بَلغ الخط العربيُّ من الصَّلاح للزينة ما كان رجال الفنِّ من النصارى في القرون الوسطى وفي عصر النهضة يُكْثِرُون معه من استنساخ ما كان يقع تحت أيديهم اتفاقاً من قِطَع الكتابات العربية على المباني المسيحية تزييناً لها سائرين في ذلك مع الهوَى ، وقد شاهد مسيو لُنْفيرْيه ومسيو لاڤوا وغيرُهما الشيء الكثير منها في إيطالية ، ومما شاهده مسيو لاڤوا في مكان الأمتعة من كتدرائية ميلانو « بابٌ مبنيٌّ على طِراز رسم البيكارين يُحيطُ به إفريزٌ حجريٌّ مؤلفٌ من كلمةٍ عربية مُكَرَّرَة عِدَّةَ مرات ، وكتابةٌ عربيةٌ حول رأس المسيح المصور فوق أبواب القديس بطرس التي أمر بإنشائها البابا أوجين الرابع ، وخطوطٌ كوفيةٌ طويلة على قميص القديس بطرس والقديس بولس ، ومن دواعي أسفي عدمُ ترجمة هذا الكاتب لهذه الكتابات ، فلعلَّ الكتابةَ التي حَوْل رأس المسيح هي كلمة : « لا إله إلّا الله ، محمدٌ رسولُ الله ! » .

الزخارفُ المُلَوَّنَة : — اعتقدَ الناسُ زمناً طويلًا أن الأغارقة لم يُلَوِّنوا مبانيهم وتماثيلهم ، وإذْ كان للقواعد التي اصطلح عليها الأغارقة قُوَّةُ القانون عند الأمم اللاتينية نشأ فينا ذوقٌ مصنوع صِرْنا نَعُدُّ به المبانيَ البيضَ أبنيةً جميلةً جدًّا ، غافلين عن أن أشعة الشمس على المباني البيضِ تُعْمِي الأبصارَ وتُغْرِق دقائقَها ، وعن أننا نُعْجَب بها بقوة التقاليد فقط ، ومن الحظِّ الحسن أن أثبتت المباحث الحديثة أن

أذواق الأغارقة كانت تختلف عما عُزِىَ إليها ، وأن الكثير من مبانيهم كان مستوراً بالألوان ، وأن اللون الأزرق واللون الأصفر واللون الأحمر أكثر الألوان استعمالًا فيها ، وأن أعالىَ العَمَدِ فى معبد إجين كان مصبوغاً باللون الأحمر المُتَشَعِّبة منه تُرُوسٌ مُذَهَّبَة ، وأن مُقَدَّمه كان مصبوغاً باللون الأزرق المُمَوَّه بِأُطُرٍ حُمْر وخُضْر .

وفَضَّل العرب ، بأذواقهم الفنية الغريزية ، مُلَوَّنَ المبانى على بِيضِها ، وكانت نقوشهم العربية مُغَطَّاةً ، على العموم بألوان يدلُّ تنضيدها على معرفة كبيرة وذوق سليم ، وكانت جُدُر الحمراء ووجوهُها والجُدُر الخارجية المساجد مستورةً بأزهى الألوان .



٣١٣ ــ دقائق زخارف عمود وتاجه فى قصر الحمراء

والألوان التى استعملها العرب فى مصر هى اللون الأحمر واللون الأزرق واللون الأصفر واللون الأخضر واللون الذهبىُّ ، وأثبت أُوِين جونس ، الذى هو أفضلُ من بَحث فى دقائق قصر الحمراء والذى أدار تجديدَ قاعة الأسود فى قصر البِلَّوْر بلندن ، أن العرب إذ اسْتَثْنَيَ المِيناء الذى يُغَطِّى أسفل

الْجُدُر ، لم يستخدموا فى قصر الحمراء سوى اللون الأزرق واللون الأحمر واللون الذهبىِّ ، أى اللون الأصفر ، وأن هذه الألوان رُتِّبَتْ ترتيباً معقولاً جدًّا ، فأُحدِث اللونُ الأحمرُ فى أساسِ نقوشه وَصُبِغَتْ حواجزُة الجانبيةُ باللون الأزرق على مَدًى واسعٍ لتعديل التأثير الذى يَنْجُم عن اللون الأحمر واللون الذهبىِّ ، وفُصِل بعض الألوان عن بعض بعصائبَ بيضٍ أو بظِلٍّ نُتُوءِ الزُّخْرُف ، ومن المُرَجَّح أن كانت العَمَد مصبوغةً باللون الذهبىِّ لِمَا بين العَمَد البيض وما يقوم عليها من الزخارف ذات الألوان الكثيرة من عدم الانسجام .

وأما ماترى أثَرَه فى قصر الحمراء من اللون الأخضر والأسمر والأُرْجُوانِىِّ فقد بَيَّن ذلك المؤلف أنه من بقايا الترميمات الرديئة التى قام بها الإسپان فى مختلف الأزمنة ، وقد أضَلّت بقايا هذا الطِّلْى الرخيص ، على الأرجح ، مُرَمِّمِى قصر الحمراء فى الوقت الحاضر ، فالأجزاء التى أصلحوها ، ولا سيما الكسراتُ التى يَبِيعونها من الجمهور ، لا تَمُتُّ بصلةٍ إلى الطريقة المذكورة التى اتَّبَعْتُها بقدر ما تسمح به اللتوغرافية فى تجديد أحد لَوَاوِين الحمراء الذى تَجِدُ لوحةً له فى هذا الكتاب .

٣ — المقابلة بين مبانى العرب الفنية

مبانى بلاد سورية : — لم نذكر من مبانى سورية ، حتى الآن ، غيرَ ما أُنشِىء فيها بعد ظهور محمد ، مع أن قبائلَ عربيةً تَوَطَّنَت بلاد سورية قبل ظهوره وأقامت فيها دولًا قوية ، وتدلُّ البقايا القليلة التى اكتُشِفَت فى بُصْرَى ، والتى لم تُدْرَس جيداً حتى الآن ، على أن فنَّ العِمارة فيها كان راقياً فى ذلك الزمن ، ولِذا فإن من المحتمل أن يكون المسلمون الذين استولَوْا على سورية قد استفادوا من معارف أبناء قومهم أولئك ، ولكن فُقْدَان الوثائق حَمَلنا على السكوت عن ذلك الدَّوْر المَنْسِىِّ قانعين بذكر ما شاده العرب بعد الإسلام من المبانى العريقة فى القِدَم والمختلفة الطُّرُز والتى تَرْجِع أقسامُها المهمةُ على الأقلِّ إلى القرن الأول من الهجرة كجامع عمر والمسجد الأقصى (فى القدس) والجامع الكبير فى دمشق .

ويُرَى فى هذه الآثار الثلاثة بعضُ المؤثِّرات البزنطية والفارسية التى لم يتحرَّر فنُّ العِمارة العربىُّ فى سورية منها تماماً ، ومما هو جدير بالذكر أنه يُشَاهَد فيها ، حتى فى أقدم أقسامها ، بَدْء العمل بالأقواس

المصنوعة على رسم البيكارين والمصنوعة على شكل نعل الفرس ، أى الأقواسِ ذات الانكسار الضعيف فى أعلاها والضِّيق قليلاً فى أسفلها ، ويبدو لك هذا النوع من الأقواس فى الرِّوَاق (من الجامع الكبير) بدمشق وفى جميع أقسام المسجد الأقصى تقريباً وفى أعلى عَمَدِ الصفِّ الأول من داخل جامع عمر .

ومما يُرَى فى جميع تلك الآثار الأولى أن تيجان عَمَدِها مُتّصِل بعضُها ببعض بجسورٍ وَصْلٍ كبيرة اتصالاً انفردَ بعمله مهندسو العرب .

وإذا استعنتَ بمبدأ القياس ، فنظرتَ إلى أقدم مِئْذَنَةٍ فى الجامع الكبير بدمشق ، علمتَ أن شكل المآذن العربية الأولى فى سورية كان مُرَبَّعاً .

وقد استُخْدِمَت القِبابُ المنخفضةُ المشابهةُ للقِباب البزنطية على العموم ، وذلك باستثناء قُبّة جامع عمر التى أقيمت فى تاريخٍ متأخرٍ عن تاريخ بنائه .

مبانى بلاد مصر : — أوضحنا فى الفصل الذى خَصَّصْناه لتاريخ العرب فى مصرَ سلسلةَ تَحَوُّلات فنِّ العِمارة العربىِّ العميقةِ بمصرَ فى ثمانمئة سنة ، أى منذ بُنِيَ جامع عمرو بن العاص فى سنة ٦٤٢ م ، حتى تَمَّ إنشاء جامع قايتباى فى سنة ١٤٦٨ م ، ورأينا أن هـذا الفنَّ العربىَّ ، الذى كان بزنطىَّ النَّزْعة فى البُداءة ، لم يلبث أن تَحَرَّر من كلِّ تأثير أجنبىٍ وأنه انتهى إلى أشكال مبتـكرة تماماً .

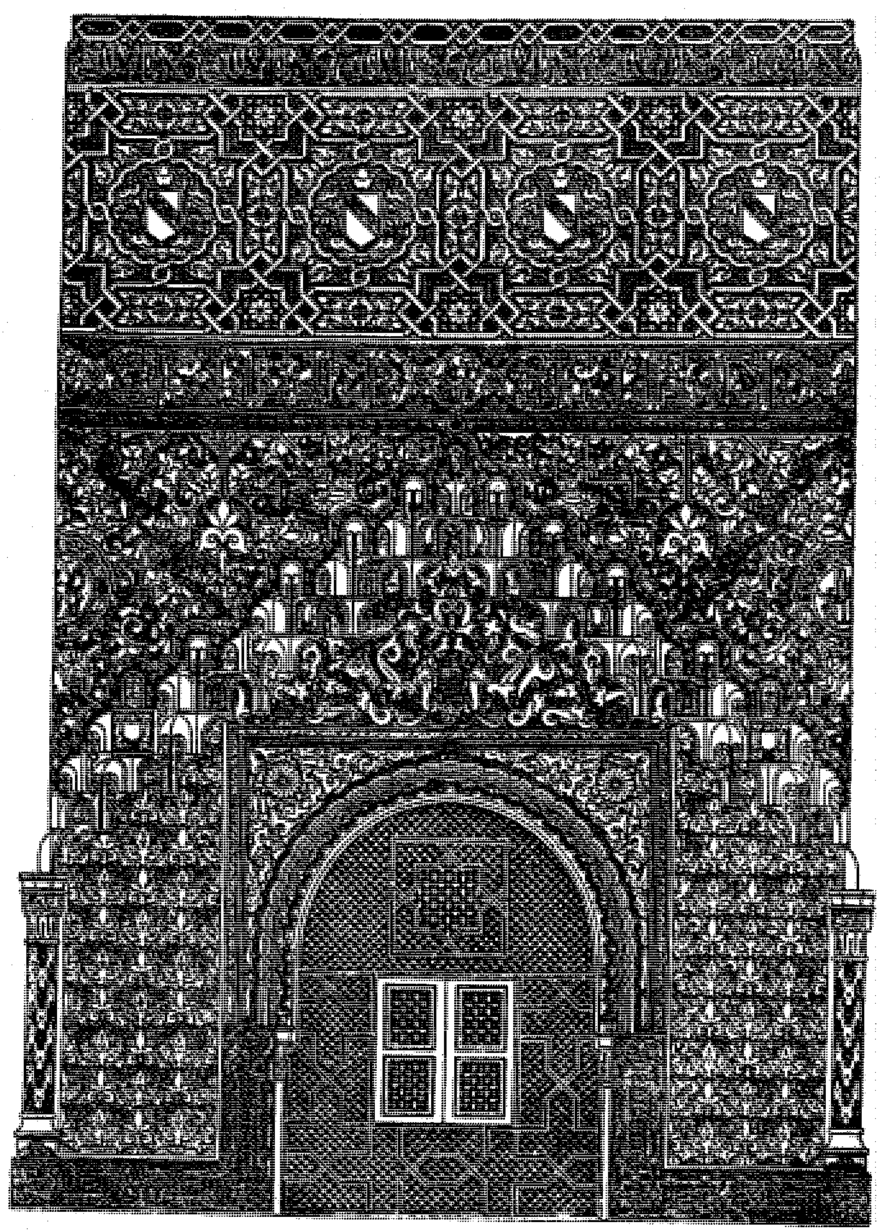
ويَظْهَرُ أنه احتُرِمَ قسمٌ من زينة جامع عمرو بن العاص الأولى مع ترميمه عِدَّةَ مَرّات ، ويُرَى فى جامع عمرو بن العاص أصلُ الأقواس المصنوعة على رسم البيكارين والمصنوعة على شكل نعل الفرس ، ولا ترَى فى جامع عمرو بن العاص غيرَ المـآذن البسيطة التى ليس لـكلٍّ منها غـيرُ رِوَاقٍ واحد والتى تنتهى برأس .

ويَتَجَلَّى فى مسجد ابن طولون ، الذى أُنشِيء فى سنة ٨٧٦ م ، بدء الخـلاص من المُؤَثِّرات البزنطية ، أىْ أن أقواسَه صُنِعَتْ ، بدون التباسٍ ، على رسم البيكارين ، وأنهـا قائمةٌ على دعائمَ مؤلفةٍ من أعمدة مرصعة فى الزوايا ، وترَى فى جامع ابن طولون نقوشَ الأزهار والأغصان الصالحة للزينة والمصنوعةِ على طِرازٍ جديد قريب من طراز النقوش العربية ، ولم تَبْدُ المُتَدَلِّيات فيه بَعْدُ .

وأُنْشِيء جامع ابن طولون من الآجُرِّ ، وتتألف مِئْذَنته من ثلاث طبقات ، وليس فيهـا

شيء من الزينة الخارجية ، وإنما ترى لـكلٍّ طبقة منها شكلاً خاصًّا ، فالأولى مُرَبَّعة ، والثانيـةُ أُسْطُوانيـّة ، والثالثة مُثَمّنة .

والزخارف أغزرُ مادةً وأكثرُ تنوعاً فى الجامع الأزهر الذى شُرِع بناؤه فى أواخر القرن العاشر



٣١٤ ـ دقائق الطبقة العليا من قاعة الأختين فى قصر الحمراء (من تصوير أوين جونس)

من الميلاد وأُتِمَّ فى تواريخَ أخرى ، وأقواسُ الجامع الأزهر حادَّة أكثر مما فى المساجد السابقة ، وتُشاهَد المُتدَلِّيات فى كلِّ مكان منه ، ولمآذنه عِدَّة أرْوِقَة ، وزخارفه غنية .

وعُدَّت أقواسُ جامع قلاوون (١٢٨٣ م) مثالاً بارزاً لبلوغ الأقواس العربية المصنوعة على رسم البيكارين ذُرْوَةَ الرُقِىِّ ، ورأينا أنه يوجد شَبَهٌ كبير بين هذا الجامع والمبانى القوطية فى القرون الوسطى .

ونرَى جامع السلطان حسن (١٣٥٦ م) مثالاً لاقتراب الفنِّ العربىِّ من درجة العظمة ، ويوجد بين كنائسنا الكبيرة وهذا الأثرِ العظيم ، الذى يبلغ ثِخَن جُدُره ثمانيةَ أمتار وارتفاعُ رِتاجِه عشرين متراً وارتفاعُ قُبَّته ٥٦ متراً وارتفاعُ مآذنه ٨٦ متراً ، شَبَهٌ أكثرُ مما بينها وبين المساجد الإسلامية الأولى ، ويدلُّ جامع السلطان حسن على أن العرب كانوا يعلمون كيف يقيمون مبانىَ واسعةً متينة عند الاقتضاء .

ويُثبِت جامع برقوق (١٣٨٤ م) وجامع المؤيد (١٤١٥ م) وجامع قايتباى (١٤٦٨ م) تقدماً جديداً تَمَّ للعرب ، ويُعَدُّ جامع قايتباى مبتكراً تماماً بقُبَّتِه العجيبة ومِئْذَنَته الرائعة ذاتِ المساند والأفاريز والأروقة والنقوش الفَنِيَّة الزاهية ، ولو لم يكن للعرب من المبانى غيرُ جامع قايتباى لاعتقد الناس ، لا ريب أنه عُنْوان فَنٍّ لا صِلَةَ قريبةً أو بعيدة بينه وبين أىِّ فنٍّ آخر .

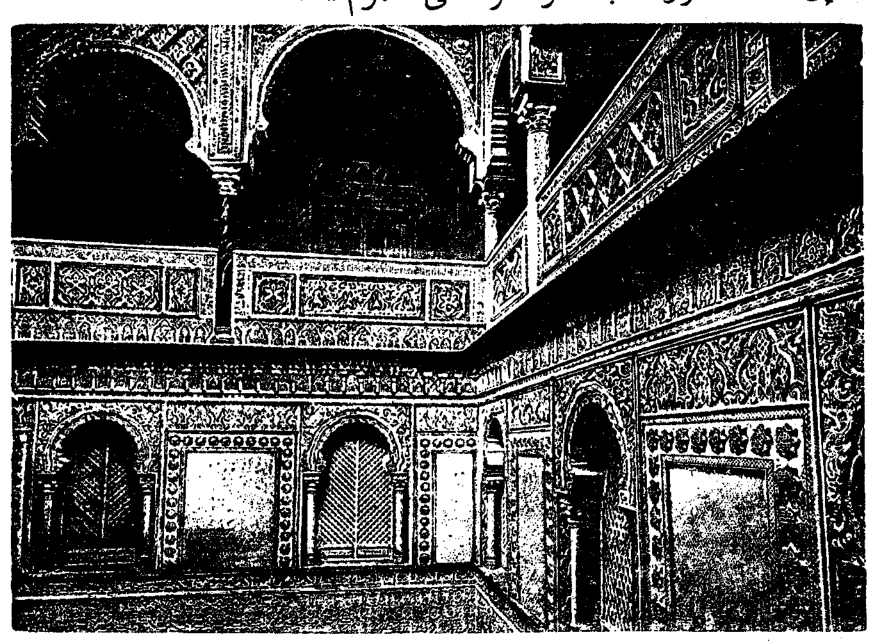
ويُعَدُّ جامعُ قايتباى ، والجوامعُ التى أُقيمت فى عصره ، كجامع قانصوه الغورى (١٥٠٢ م) ، آخرَ المبانى المهمة التى أُنشئت فى مصرَ على الطِّراز العربىّ ، ولما حَلَّ القرنُ السادسَ عشرَ واستولى السلطان سليم التركىُّ على مصرَ أُصبحتَ لا ترَى فيها فنًّا عربيًّا ، فقد قضى الترك الفاتحون على الفنِّ العربىِّ بسرعة وأخذ هذا الفنُّ ينطفئ شيئاً فشيئاً ، والحقُّ أن الفنَّ لا يعيش إلا حيث يُقدَّر ويُشَجَّع ، والحقُّ أن دِماغ التركىِّ لا يستطيع تقديرَ الفنِّ الرفيع .

وترى المبانىَ التى أقيمت فى العهد التركىِّ من ذوات الشكل الثقيل والزخارف المتعبة والألوان الكريهة ، وأصاب إيبر حيث قال : « إن من الحظِّ الحسن أن كانت هذه الآثارُ غير محتاجةٍ إلى زمنٍ كبير حتى تؤذىَ عيونَ رجال الفنِّ ، ولم تُبْنَ هذه الآثارُ لتدوم ، وإنما لتكون وسيلةً لخِدْمَة الساحات

التى أقيمت عليها،وماجزاء الذين أقاموها،من غير أن يفكروا فى أمر الأجيال الآتية ، إلا أن تَنْتَقِم منهم هذه الأجيال بأن تنساهم » .

مبانى بلاد إفريقية الشمالية : — لا ترى غيرَ شَبَهٍ ضعيف بين المبانى العربية فى إفريقية الشمالية أو صِقِلِّية وبينها فى مصرَ ، وذلك خلافاً لمماثلتها لمبانى الأندلس الأولى .

ونحن لا نَقْدِر أن نتكلم عن القصور الإفريقية لعدم وجودها فى الوقت الحاضر ، وإنما نذكر أن مارمول ، الذى زار قصورَ مَرَّاكُشَ وفاس بعد سقوط غَرْناطة بقرنٍ واحد ، قال فى وَصْفه لإفريقية : « إن هذه القصورَ تُشابه قصر الحمراء على العموم » .



٣١٥ ـ رواق عال فى إحدى ردهات القصر بأشبيلية (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

والشَّبَهُ الذى يُرَجَّح وجوده بين القصور العربية القديمة فى إفريقية وبينها فى الأندلس موجودٌ حقًّا بين مبانيهما الدينية ، وما انتهى إلينا منها دليلٌ قاطع على هذا ، وأظهرُ ما يكون هذا الشَّبَهُ فى مآذنهما المُرَبَّعة العاطلة من الأروقة والأطناف الخارجية والمؤلفِ بعضُها من طبقتين مُتَقَبِّضَتَيْن أو ثلاثِ طبقاتٍ مُتَقَبِّضَات .

وتختلف هذه المآذِن العربية الأفريقيةُ الأصلية عن مآذن مصرَ جملةً وتفصيلاً ، ونجد جميعَ المآذن

الإفريقية التى أقيمت بين القَيْرَوان وفاس من فصيلةٍ واحدةٍ ، ومنها التى أقيمت بالجزائر وطنجةَ فى تواريخَ لاحقةٍ مع شَيْدها على الطُّرُز القديمة ، ونجد من هـذه الفصيلة بُرْج لا جيرالدة (برجَ لعبة الهواء) القائمَ فى أَشْبِيلِيَّة وأبراجَ كنائسِ طُلَيْطِلَة الـكثيرة البادية العروبة .

وإذا عَدَوْتَ هذه المـآذنَ المبتـكرة وجدتَ مساجدَ إفريقية القديمةَ ، كمساجدِ القَيْرَوانِ مَثَلاً ، تختلف اختلافاً كبيراً عن مساجدِ مصرَ وفارسَ باتخاذها القِبابَ البزنطية المنخفضة عنصراً خاصًّا ، ويعلو جامعَ القَيْرَوانِ الـكبيرَ ، الذى كان هذا السِّفْرُ أولَ كتابٍ اشتمل على صُوَرٍ له ، أربعُ قِبابٍ منخفضة .

وإذا أردنا أن نحكم فى الأمر مستعينين بالمبانى التى لا تزال ماثلةً قلنا إن الفن العربىّ عانى باستمرارٍ تأثيرَ الفنِّ البزنطىِّ فى إفريقية الشمالية ، مع استثناء مَرَّاكُش ، وإنه لم يستطع أن يتخلص منه كما تخلص فى مصرَ والأندلس .

مبانى بلاد صِقِلِّيَة : — إن قصر العزيزة وقصر القُبَّة القائمين بالقرب من مدينة بَلَرْم هما العِمارتان المهمتان العربيتان اللتان أقيمتا فى صِقِلِّيَة فى أواسط القرن العاشر من الميلاد ، ولا يُشاهَد فى مكانٍ قصرٌ عربىٌّ له من القِدَم ما لهما ، وهذا يَجْعَلُ لدرسهما فائدةً عظيمة ، وإن مما يزيد فى أهميتها إنما هو الظنُّ الغالبُ بأنهما مشابهان لِما كان فى إفريقية الشمالية من القصور نظراً إلى الصِّلات القديمة التى كانت بين عرب البلدين فى غابر الأزمان ، وكوننا نستطيع أن نَتَمَثَّل بهما قصور إفريقية .

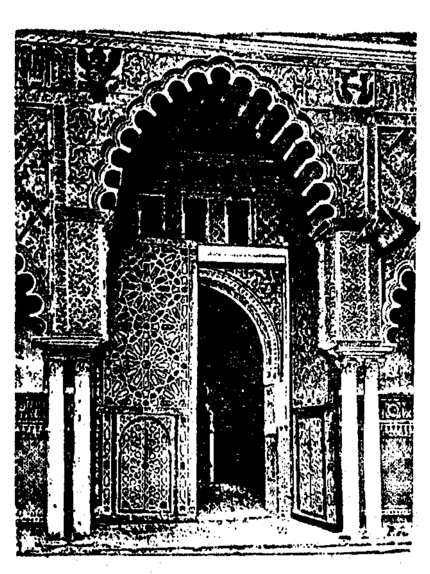
وقد كان قصرُ العزيزة وقصر القُبَّة حِصْنَيْن ومسكنـيْن فى آن واحد ، وقد قاوما تعاقب القرون لبنائهما من الحجارة المنقوشة الملتصق بعضها ببعض التصاقاً مُحْـكَماً .

وشكلُ قصرُ العزيزة الواقع بالقرب من بَلَرْم مُـكَعَّب واسع . ويبدو للناظر إلى جُدُره أنها مؤلفة من أقواسٍ طويلة مصنوعةٍ على رسم البيكارين صنعاً خفيفاً ومحيطةٍ بنوافذَ مزدوجةٍ ذاتِ أعمـدةٍ صغيرة ، وسُتِرَ الإفريزُ ، الذى أُعِدَّ ليـكون تاجاً وحاجزاً ، بالخطوط القرمطية التى بَقِيَ بعضُ آثارها ، ونشرتُ فى فصلٍ آخر من هذا الـكتاب صورةً عن التى رسمها جِيرُول دوپرانجه لإحدى رِداهه كما كانت منذ أربعين سنة ، فظهر منها أنه ذو زخارفَ بسيطةٍ أنيقة ومُتَدَلّيات مشابهةٍ لِما فى مبانى الأندلس .

ومن الصعوبة أن نَعْرِف هل غَيَّر عُمَّالُ العرب طِرازَ قصر العزيزةِ الأصليَّ أوْ لا حينما رَمَّموه فى عهد ملوك النورمان .

ويُرَى قصرُ القُبَّة غيرَ بعيدٍ من قصر العزيزة كثيراً .

ويختلف قصرُ العزيزة وقصرُ القُبَّة عن قصور العرب فى إسپانية بشكلهما الخارجىِّ وأقواسهما الطويلة المصنوعة على رسم البيكارين وانتظام شكليْهما ، ولا أرى شبهاً بينهما وبين المبانى المصرية ، وذلك خلافاً لجِيرُول دُوپرَنْجِه ، وذلك مع ما قمتُ به من البحث والتدقيق ، وذلك خلا مماثلتهما البعيدة لبعض أجزاء جامع قلاوون .

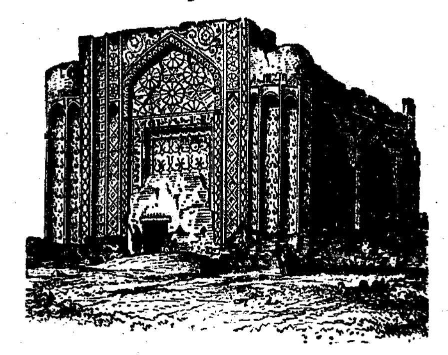


٣١٦ ـ أحد أبواب ردهة الصبايا فى القصر بأشبيلية
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

مبانى بلاد الأندلس : — قَسَّم جِيرُول دُپرانْجِه فنَّ العِمارة العربىَّ فى بلاد الأندلس إلى ثلاثة أدوار مختلفة : الدورِ البزنطىِّ ودورِ الانتقال والدورِ المغربىِّ ، ولا أرى سبباً جِدِّيًّا للتسليم بهـذا التقسيم مع رِضا الآخرين به على العموم ، فلا معنى للتعبير عن فنِّ العِمارة العربىِّ بالفن المغربىِّ أى البربرىِّ ما دام البربر لم يُدْخِلوا أىَّ عنصر جديد إلى فنون العرب ، أَجلْ ، حَكَم ملوكٌ من البربر عربَ الأندلس كما حكم ملوكٌ من الشركس عربَ مصرَ ، ولكن البربر والشركس لم يبتدعوا شيئاً فى الفنون ، ولذلك لا نَجِد فنَّ بناء مغربىٍّ فى الأندلس كما أننا لا نَجِد فنَّ بناءٍ شركسىّ فى القاهرة .

على أن لدينا من البَينات ما يُثبِت أن البَنَّائين فى أيام ملوك البربر كانوا من العرب ، فقد رَوَى ابن سعيد « أن أميرَى المُوحِّدِين ، يوسفَ ويعقوبَ المنصورَ ، أحضرا من الأندلس مهندسين لإنشاء جميع المبانى التى أقاموهافى مَرّاكُش ورباط وفاس والمنصورية ... ومن المعروف اليوم (١٢٣٧م) أن هذا الازدهار وهذا الرَّخاء فى مَرّاكُش انتقل إلى تونس فأقام سلطانُها قصوراً وغَرَسَ حدائق وكروماً

على الطريقة الأندلسية مستعيناً بمهندسى الأندلس وبَنَّائيها ونجّاريها ولَبَّانيها ودَهَّانيها وبُسْتانييها ، أىْ تمَّ شَيْدُ هذه المبانى وَفْقَ رسومٍ وضعها أناسٌ من الأندلس أو صُنِعَت تقليداً لمبانٍ أندلسية *» .



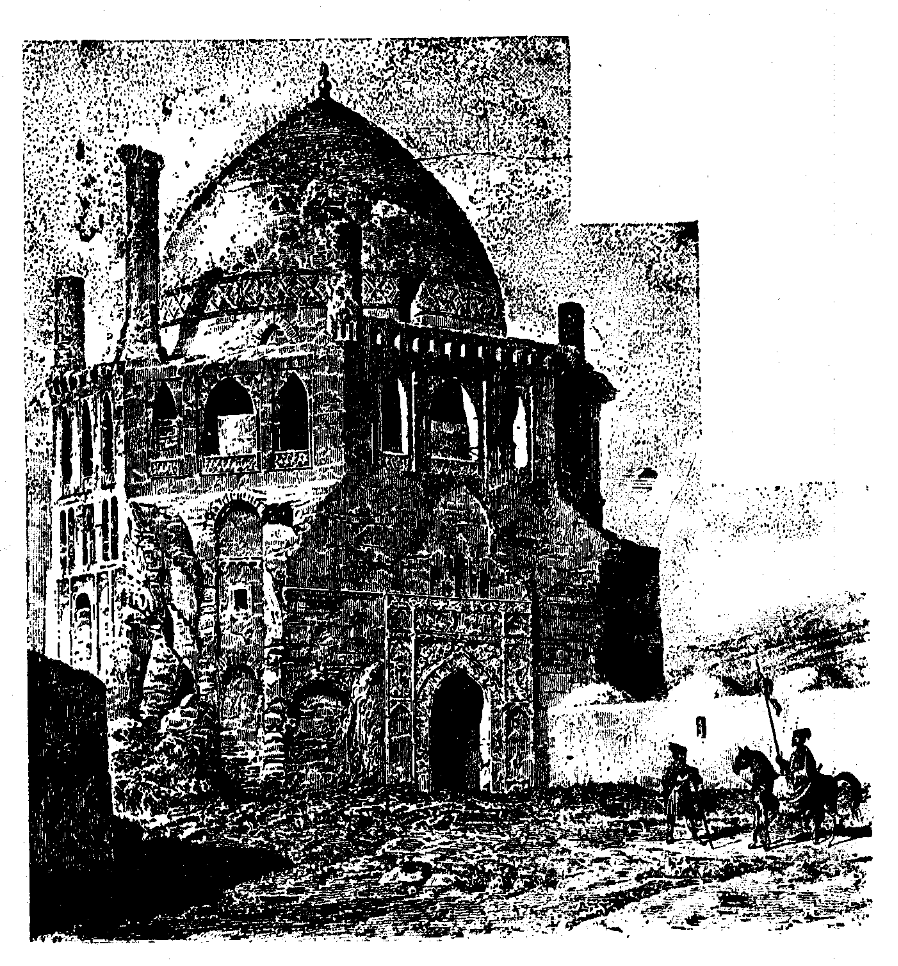
٣١٧ ـ مسجد همذان القديم بفارس
(من تصوير كوست)

وجامعُ قرطبة هو أقدمُ مبانى العرب فى بلاد الأندلس ، وأقيم جامعُ قرطبة فى دور فنِّ العِمارة الذى أسَمِّيه دورَ فنِّ العِمارة البزنطىِّ العربىّ ، لا البزنطىِّ وحدَه ، وذلك لِما لم نَجِدْ من بناءٍ بزنطىٍّ يشابهه ، وهو ، وإن كان يشتمل بوضوحٍ على بعض عناصر الفنِّ البزنطىِّ (كتيجان عَمَدِه التى هى على شكل أوراق الشجر ونقوشِه التى هى على شكل الأغصان وزينتِه المتشابـكة وفُسَيْفِسائه وزخارفه التى هى على أساسٍ من ذهب ، إلخ .) ، يختلف عن المبانى البزنطية بما فيه من الزينة بالخط الـكوفىّ ، وبأقواسه المصنوعةِ على شـكل نعل الفرس بفِلَقٍ كثيرة والقائمِ بعضُها فوق بعض ، وبِجُزْئياتِ زخارفه ، ويكتسب جامع قرطبة بهذا طابعاً باديَ الإبداع يتميز به من أىِّ بناء بزنطىّ ، وما قضت به الحالُ عند صنعه ، أى ضرورةُ تنضيد ما كان عند القوم آنئذ من العَمَد لينال به عُلُوًّا مناسباً لعَرْضه ، أكْسبَ صحونه منظراً لا تَجِدُه فى أىِّ بناء سابق ، وَمِنْ تَجَلِّى ذوق العرب الفنىِّ فى شَيْدِه طريقتُهم فى تركيب أقواسه لستر ذلك التنضيد ، فعلى من يَعْزُو مثلَ هذا الذوق الفنىِّ البديع الرفيع إلى البزنطيين أن يدلَّنا على مبانٍ أخرى استعملوا فيها هذه الطريقة

وتخلَّص عربُ الأندلس من المُؤَثِّرات الفنية البزنطية بسرعة كالتى تَخَلَّصَ بها عرب مصرَ ، ولم تلبث النقوش العربية والمُتَدَلِّيات أن قامت مقام الزخارف البزنطية على أساس ذهبىّ ، ولم تلبث الحنايا أن تَحَوَّلَتْ إلى أقواس مصنوعة على رسم البيكارين ومنقوشة نقشاً لطيفاً .

ومبانى العرب فى طُلَيْطِلَةَ أقدمُ آثارِهم فى الأندلس خلا ما فى قرطبة ، وفى طُلَيْطِلَةَ آثارٌ عربيةٌ مهمة كباب بيزغرة (باب شقرة) الذى بُدِئَ بإنشائه فى القرن التاسع من الميلاد وبابِ الشمس الذى أنشىء فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، إلخ . ويمـكن الباحثَ فى طليطلة أن يَتَبَيَّنَ بعضَ مراحل تطور الفنّ العربىّ .

وهُدِمَت مآذن المساجد القويمة فى الأندلس ، ولم يبقَ منها سوى برج لاجيرالدة (لعبة الهواء) الذى أقيم فى أشْبِيلِيَّة فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، ويمكننا أن نذهب إلى أنهـا كانت مُرَبَّعَة الشكل كالمـآذن التى أُنشئت فى إفريقية ، وإننى أستند فى رأيى هذا إلى مافى بروج كنائس طُلَيْطِلَةَ التى لاتزال قائمةً من التقليد لمآذن العرب فى الشكل والفروع الجوهرية ، ويمكننا أن نذهب إلى ماهو



٣١٨ ـ مسجد شاه خدا وضريحه فى سلطانية (القرن السادس عشر) (من تصوير تكسيه)

أبعد من هذا فنقول إن الأندلس لم تَعرِف مآذنَ مشابهةً لمآذن القاهرة ، ولو عرَفوها لـكان النصارى قد قَلَّدُوها أيضاً .

وكلما كانت إقامة العرب بإسبانية تَطول زاد فَنُّ بنائهم غِنًى وزُخْرُفاً ، ولَسُرْعان ماتحرَّر هذا

الفنَّ من كلِّ مُؤثِّر أجنبيّ ، ولَسُرْعان ما غابت الزخارف البزنطية ، ولا سيما الفُسَيْفِساء على أساسٍ ذهبيّ ، تاركةً المجالَ لِطراز جديد فى الزينة ، فكان القصرُ فى أشبيلِيّة والحمراء فى غَرْناطة بِناءَيْنِ وَصَلَ فنُّ العِمارة بهما إلى أسطع أدواره .

وبُدِئَ ببناءِ القصرِ فى أشْبِيلِيّةَ فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، ثم صُلِّح فى القرن الثانى عشر والقرنِ الثالثَ عشرَ من الميلاد ، وذلك عدا ترميمه فى زمن شارلكن وزمن فليب الثانى والزمن الحاضر ، وأُنْشِئَتْ وِجْهَتهُ فى القرنِ الثالثَ عشرَ من الميلاد ويُعَدُّ بَهْوُ الدُّمَى وبَهْوُ السفراء وغيرُهما من أقسامه آثاراً قديمةً جداً .

ولا يُلاَحَظُ فى أقسام القصر الأشبيليِّ الأولى مثلُ ما فى قصر الحمراء من فَيْض الزخارف ومن القِباب ذات النقوش المُتدَلية ، ومع ذلك فكلا القصرين متقارب ، ولا يختلفان فى غير الدقائق ، ويَكْثُرُ فى القصر الأشبيلِيِّ ما نَدَرَ وجوده فى قصر الحمراء من الأقواس المُجاوِرَة (المصنوعة على شكل نعل الفرس) والأقواسِ المصنوعة على رسم البيكارين ، وتَجِد فى القصر الأشبيليِّ من السقوف ذات التقاطيع المُلوَّنة المُذَهَّبة المحفورة ما يُشَابِهُ سقوفَ قصورِ القاهرةِ ودمشقَ القديمةِ .

وبلغ خِصْب الفنِّ العربى الأندلسيِّ غايتَه فى قصر الحمراء الذى أنشىء فى القرنِ الثالثَ عشرَ من الميلاد ، وعلى ما فيه من غُلوٍّ فى الزُّخرف نرى هذا الغُلُوَّ وليدَ ذوقٍ رفيع لا يتَجَلّى فى آثار دورٍ مُنْحَطّ .

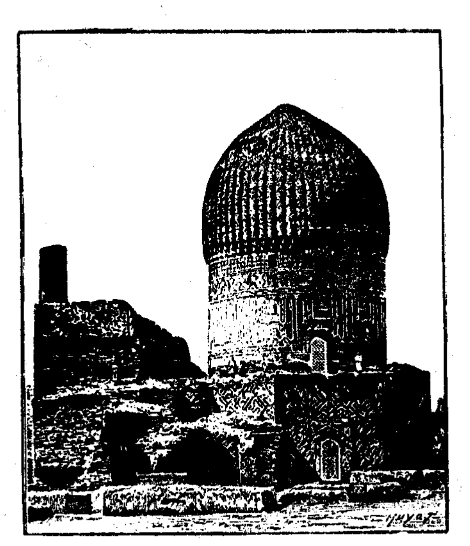
ومع أن جُدُر قصر الحمراء مصنوعةٌ من مَزِيجٍ من الكلس والرمل والصَّلْصال والحَصْباء ، لا من الحجارة المنحوتة ، ومع أن زخارفه من الجِصِّ المضروب فى القوالب ، تجِدُه متيناً إلى الغاية ، فقد قاوم تقلباتِ الجوِّ مُدَّةَ خمسة قرون من غير أن يحتاج إلى ترميمٍ ذى بال .

وأهمُّ ما يختصُّ به قصرُ الحمراء ويتَمَيَّزُ به من القصر الأشبيليِّ على ما أرى ، هو ما يأتى : جُدُرُه المُغَطّاةُ بِقِطَعٍ مُلَوَّنة مصنوعة فى القوالب ، وعَمَده الخفيفة الأفقية الخطوط الحاملةُ تيجاناً منقوشة على شكل الأغصان المتشابكة ، ونوافذه المؤلفةُ من الأقواس ذات الحنائر[1] والمنقوشات على شكل الأزهار والمحاطةِ بأُطُرٍ قائمةِ الزوايا ، وسقوفهُ المغطاةُ بالمُتَدَلِّيات .

(١) الحنائر : جمع الحنيرة ، وهى الطاق المبنى .

ولا يَجِد الإنسان فى مصرَ قصوراً عربيةً معاصرة لقصر الحمراء ، ولـكننا إذا حكمنا بأن زخارف قصور مصرَ كانت مشابهة لزخارف مساجدها رَجَح عندنا وجودُ فروقٍ مهمة بين قصور ذينك القطرين أَ لَنْ ، إن هنالك تقارباً بين الفنِّ العربىِّ فى مصرَ وبينه فى الأندلس ، ولـكنهما لم يُبْدِيا سوى تشابهٍ بعيدٍ فى جميع وجوههما .

وكان تأثير فنِّ عِمارة العرب فى فنِّ عمارة النصارى الذين حَلُّوا محلَّهم فى إسپانية عظيماً إلى الغاية ، وكان النصارى يستخدمون العربَ ، قبل إجلائهم ، فى إقامة مبانيهم أو إصلاحها ، فنشأ عن تمازج الفنَّين ظهورُ الفنِّ المُدَجَّن الجديد كما ذكرنا ذلك فى فصل آخر ، وسنأتى بأمثلةٍ كثيرة على ذلك فى الفصل الذى خَصَّصْناه لدرس تأثير العرب فى أوربة .



٣١٩ — ضريح تيمورلنك فى سمرقند (من صورة فوتوغرافية ، من مجموعة الجنرال كوفمان)

ويُرَى طِرازٌ خاصٌ قريب من الطِّراز العربىِّ يمكن تسميته بالطراز العربىِّ الإسرائيلىِّ ، وذلك خلا الطِّراز الذى ذكرته ، وذلك فى معابد اليهود القديمة التى أُقيمت فى إسپانية ، ولا يختلف هذا الطراز عن الطِّراز العربىِّ إلا باستخدام الحروف العبرية فى زينته وبالأغصان والأوراق العريضة فى زخارفه ، ونَعُدُّ كَنِيسَ الترانسيتو وكَنِيسَ سَنْتا مَارِيَة لابْلاَنْـكا فى طُلَيْطِلَةَ أمثلة بارزة على هذا الطِّراز الذى لا يخلو من مؤثِّرات الدور البزنطىِّ .

مبانى بلاد الهند : — مبانى المسلمين فى الهند دليلٌ واضح على التطورات التى يمـكن أن تَتَفَّق لفنِّ عمارة أمة بتأثير العروق التى تَتَّصِل بها .

وقد رأينا أن العرب حينما وَصَلوا إلى الهند وَجَدُوا أنفسهم أمام حضارة قويمة قديمة ، وأنهم أثَّروا فيها بدِياناتهم ولغتهم وفنونهم تأثيراً لا يزال باقياً حتى الآن ، وذلك مع ضعف تأثيرهم السياسىِّ فيها دائماً .

وظَهر من وصفنا للمبانى الإسلامية فى الهند درجةُ ما كُتِب عليها بوضوح من تاريخ تأثير إحدى الأمم ، فقد كانت المُؤثِّراتُ العربية والهندسية مجتمعةً اجتماعاً وثيقاً فى المبانى الأولى كباب علاء الدين مع ضَعْفِ أثر الفنِّ الفارسىِّ فيها ، ثم اجتمع الفنُّ الفارسىُّ والفنُّ الهندوسىُّ بنِسَبٍ متقلبة فيهما ، وصار الفنُّ العربىُّ لا يبدو إلا فى الأقسام الثانوية كاتخاذ الكتابات والمُتَدَلِّياتِ وسائلَ للزينة وكاتخاذ أشكالٍ بعض الأقواس .

ويُعَدُّ مزار أكبر وتاج محل وقصرَ المغول ، إلخ ، من الأمثلة لاجتماع هذه المُؤثِّرات التى نشأ عن تَنَضُّدها بالحقيقة ، طِرازٌ خاصٌّ يمكن تسميته بالطِّراز المغولىِّ فى الهند ، أو الطراز الهندوسىِّ الفارسىِّ العربى .

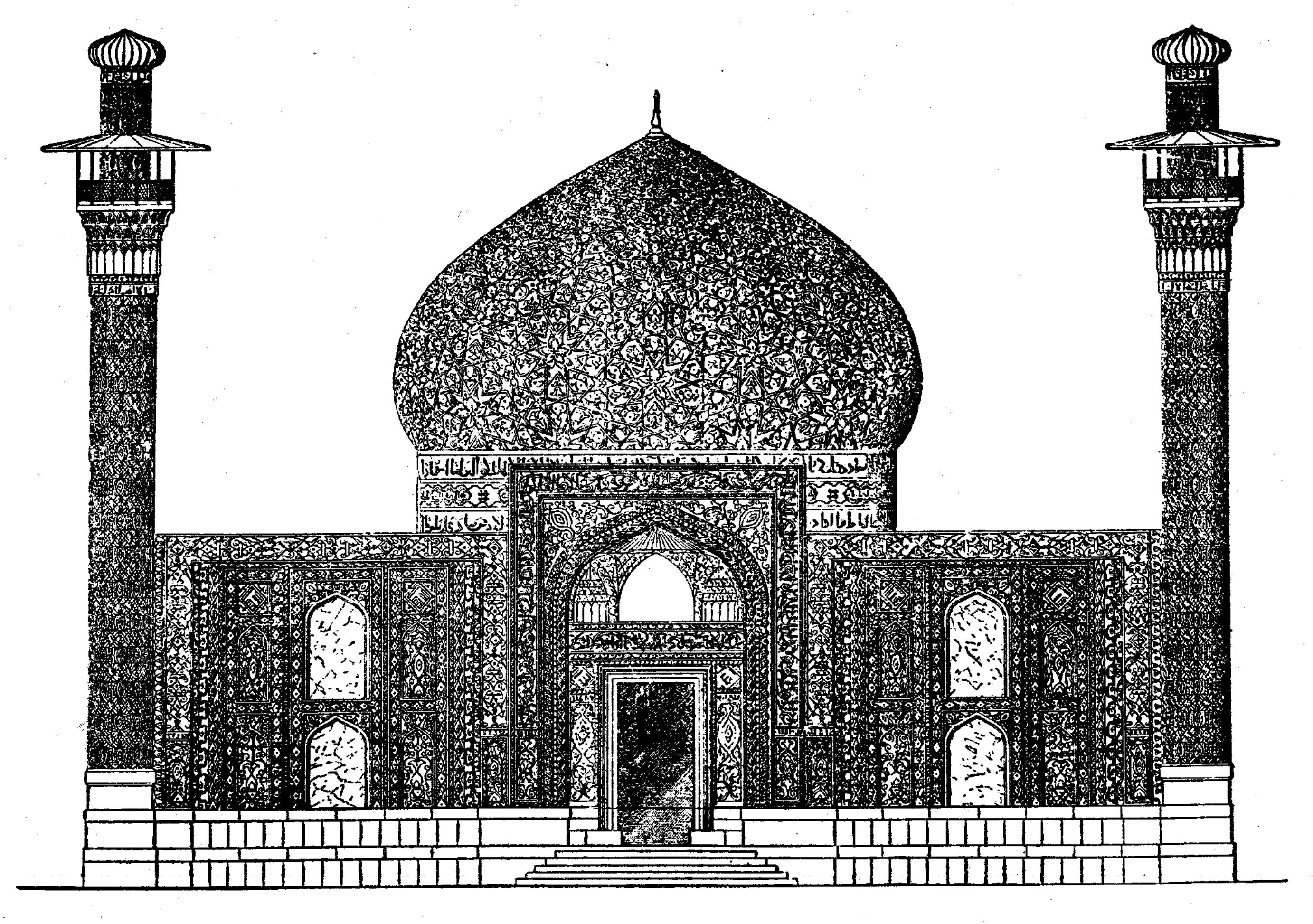
ويَتَجَلَّى هذا الطِّراز ، على الخصوص ، فى مآذن الهند المخروطة الشكل كمآذن بلاد الفرس .

وتختلف مآذن الهند عن مآذن بلاد الفرس بتخاريمها وبطبقاتها غير المَطْلِيَّة بالميناء ، وتختلف عن مآذن الأندلس وإفريقية والقاهرة بالزخارف الخارجية والأشكال العامة ، فيبدو ذلك أولَ وَهْلَة .

مبانى بلاد فارس : — يَصِل إلينا من المبانى الفارسية التى أقيمت أيام الدولة الساسانية المعاصرة للفتح العربىِّ ، ولأكثر المبانى التى شِيدَت فى الصدر الأول من الخلافة ، سوى بقايا ناقصة ، فكان هذا سبباً فى صعوبة تمثلنا تاريخ فَنِّ العمارة الفارسىِّ ومَدَى تأثيره فى فنّ العمارة العربىِّ على الخصوص ثم مَدَى تأثير فنِّ العمارة العربىّ فى فن العمارة الفارسىِّ فيما بعد .

وأُقيمَ أكثرُ مبانى الفرس المهمةِ فى القرنِ السادسَ عشرَ من الميلاد ، أى فى عهد الشاه عباس ، فإذا قوبلت هذه المبانى ببقايا العمارات السابقة ظَهَر أنها مقتبسة منها ، وهى قائمةٌ على طِراز يختلف عن طراز العرب الفنىِّ ، ولا تشارك طرازَ العرب فى غير الزخارف .

قال باتيسْيِه فى كتاب « تاريخ فنِّ العِمارة » وذلك فى مَعْرِض الكلام عن مساجد فارس : « يظهر أن مساجد بلاد الفرس لا تختلف عن مساجد بلاد سورية » وترانى أجهلُ الأُسس التى بَنى



٣٢٠ ـ رسم مجدد لمسجد السنية فى تبريز (فارس) (من تصوير تكسيه)

عليها زعمة هذا ما فقد الشَّبَهُ بين هذه المبانى ، والواقعُ أن المقابلة بين مساجد سورية القديمة (أى بين مساجد دمشق والقدس وحبرون) ومساجدِ أصبهانَ أمرٌ متعذر ، ولا نجادل فى وجود طابعٍ خاصّ للفنِّ الفارسىِّ مع ما بين الفنِّ الفارسىّ والفنِّ العربىِّ من صِلَة القرابة الواضحة التى مصدرها ما فى الفنِّ الفارسىِّ من تأثرٍ بالفنِّ العربىّ بعد أن كان مؤثِّراً فيه .

ولمساجد الفرس صفات خاصة كثيرة يتجلى أهمُّها فى شكل مآذنها وأقواسها وقِبابها وزينتها الخارجية .

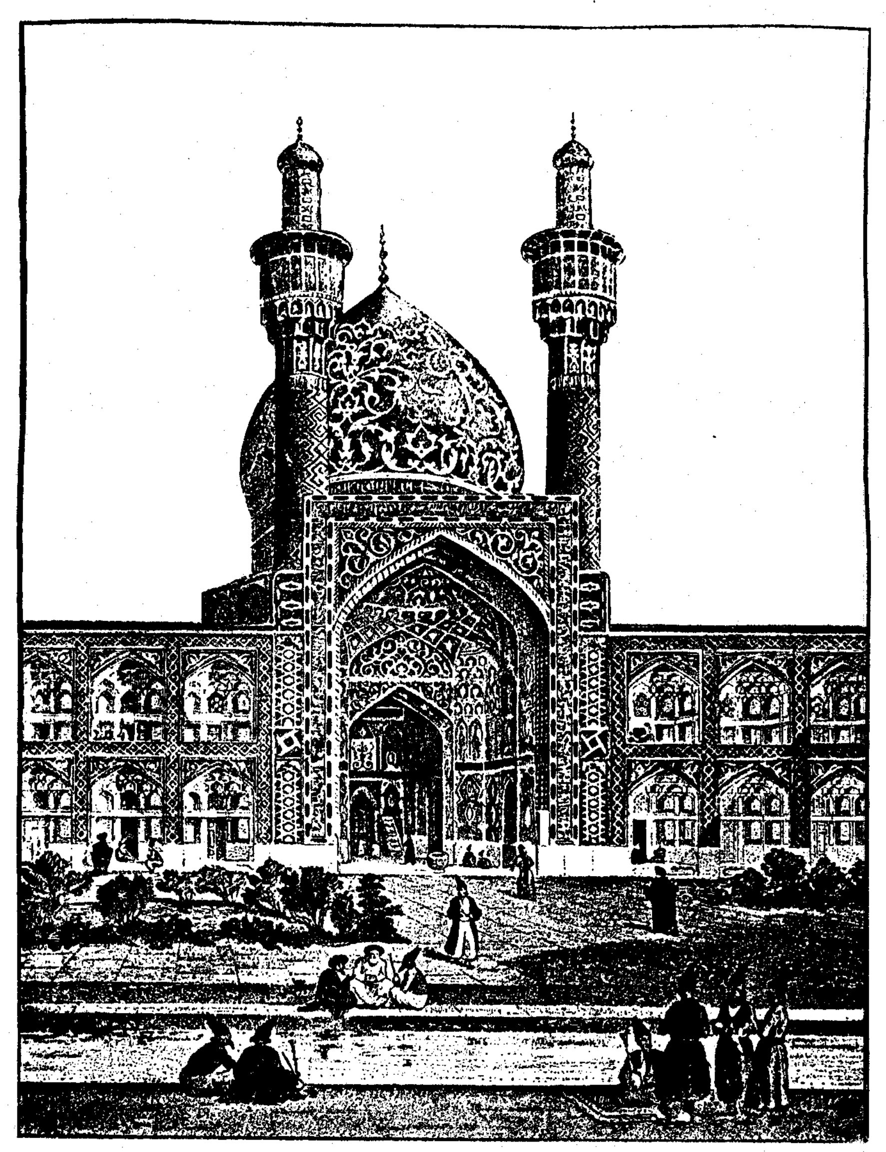
ويذكرنا شكلُ مآذن الفرس ، حتى القديم منها ، بمداخن مصانعنا ، وهى مخروطة الشكل قليلة الارتفاع مَكْسُوَّة بالميناء ذاتُ رُواقٍ واحد فى أعلاها ، وهى تختلف اختلافاً جوهرياً عن مآذن سورية وإفريقية والأندلس المُرَبَّعة ، وهى تختلف أكثرَ من ذلك عن مآذنِ مصرَ ذاتِ الأروقة الكثيرة التى يتغَيَّر مَقْطَعُها على حَسَب الطبقات ، والمُزَيَّنةِ بأنواع النقوش البارزة .

والمساجد الفارسية طابعٌ خاصٌّ أيضاً ، فيُرَى لكلّ مسجد من المساجد القديمة الفارسية المتداعية ، كمسجد همذانَ مثلاً ، بابٌ عظيم يبلغ ارتفاعه عُلُوَّ المُقَدَّم ، وينتهى بقوسٍ طريفةٍ مُفَرْطَحَة مصنوعة على رسم البيكارين من طِراز خاصّ مما لا ترى مثلَه فى أىِّ مسجدٍ عربىٍّ كان .

ونَرَى لزخارف المساجد الفارسية من الخارج شكلاً خاصًّا أيضاً ، أى أنها مَكْسُوَّةٌ بالميناء ذى الرسوم المنوعة ، ولا سيما رسمُ الأزهار ، مما امتاز به فَنُّ الزَّخْرَفة الفارسىُّ ، وإذا حَدَث أن رُئى مِثْلُها فى بعض المبانى العربية ، كجامع عمر ، أمكنَ القطعُ بأنها من صنع عمال من الفرس .

وبُنِيَت قِباب المساجد الفارسية الحاضرة بَصلِيَّةَ الشكل ، وهذه القِبابُ ، وإن بَدَت مبتكرةً ، لم تنشأ عن غير فَرْطَحَة القُبّة التى يُشْبِه مقطعُها نعلَ الفرس أو عن تضييق قاعدة القُبّة المشابهة لِقباب المساجد العربية فى القاهرة ، وبالَغ الفرسُ فى فَرطَحَة القُبة ذات المقطع الذى هو على رسم البيكارين فانتهَوْا إلى القِباب التى تشاهد أيضاً فى مساجد بغدادَ الحديثة والتى رأيت مثلها فى الكنائس الروسية ، ولا سيما كنائسُ موسكو ، حقًّا عُدَّت القِباب الروسية قائمةً على الطِّراز البزنطىّ ، ولكن الإنصاف يقضى بعدِّها مبنيةً على الطِّراز الفارسىِّ البزنطىّ وحقًّا عَجَز الروس ، كما عَجَز الترك ، عن إبداع طرازٍ خاصّ ،

ولـكنهم عَلِموا جيداً كيف يُوَفِّقون بين احتياجاتهم وبين عناصر فنون البناء التى اقتبسوها من الأمم التى اتصلوا بها ، وذلك بخلطهم هذه العناصر .



٣٢١ ـ مسجد فى أصبهان (من تصوير كوست)

ولم يكن فى بقايا أقدم المساجد الفارسية قِبابٌ بصلية الشـكل ، وأكثرُ قِباب سمرقند ومشهد وسلطانية ووَرَامين وأريفان ، إلخ . التى أُنْشِئَت على رازِ آثارٍ أقدمَ منها لا ريب ، بزنطىُّ الطِّراز أو من القباب التى ضُيِّقَت قواعدها قليلاً .

وأ كثرَ الفرسُ من استعمال المُتَدَلِّيات والخطوط العربية فى مساجدهم ، وهذه هى أهمُّ العناصر أخذوها عن العرب .

والقارئُ الذى يَدْرُس الصورَ التى نشرناها فى هذا الكتاب ، إتماماً لِمَا عَلِمه مما تقدم ، يشاطرنا رأينا فى اختلاف فنِّ العِمارة العربىِّ باختلاف البلدان وفى أن من المتعذر جمعَ متباين المبانى تحت وصفٍ واحد ، كما أنه يتعذر جمع المبانى الرومانية والقوطية ومبانى عصر النهضة التى أُقِيمَت فى فرنسة تحت اسم الطراز الفرنسىّ .

ولا تَجِد غير شَبَه بعيد بين الطراز البزنطىّ العربىّ الذى تَجَلَّى فى الأندلس فى جامع قرطبة والطرازِ العربىِّ البزنطىّ الذى تَجَلَّى فى مصرَ فى جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون ، كما أنك لا تَجِد غيرَ شَبَهٍ بعيد بين الطراز العربىّ الذى تَجَلَّى فى قصر الحمراء والطراز العربىِّ الذى تجلى فى جامع قايتباى ، ولِذا يَجِبُ أن نُقَسِّم الطِّراز العربىّ تقسيماً أساسيًّا وأن نستند فى هذا التقسيم إلى اختلافه باختلاف البلدان على حسب الطريقة التى سِرْنا عليها فى مباحثنا فى العروق ، ولذا يمكننا أن نأتى بالتقسيم الآتى الذى يلائم معارفنا الحاضرة :

١ — الطراز العربىُّ قبل ظهور محمد

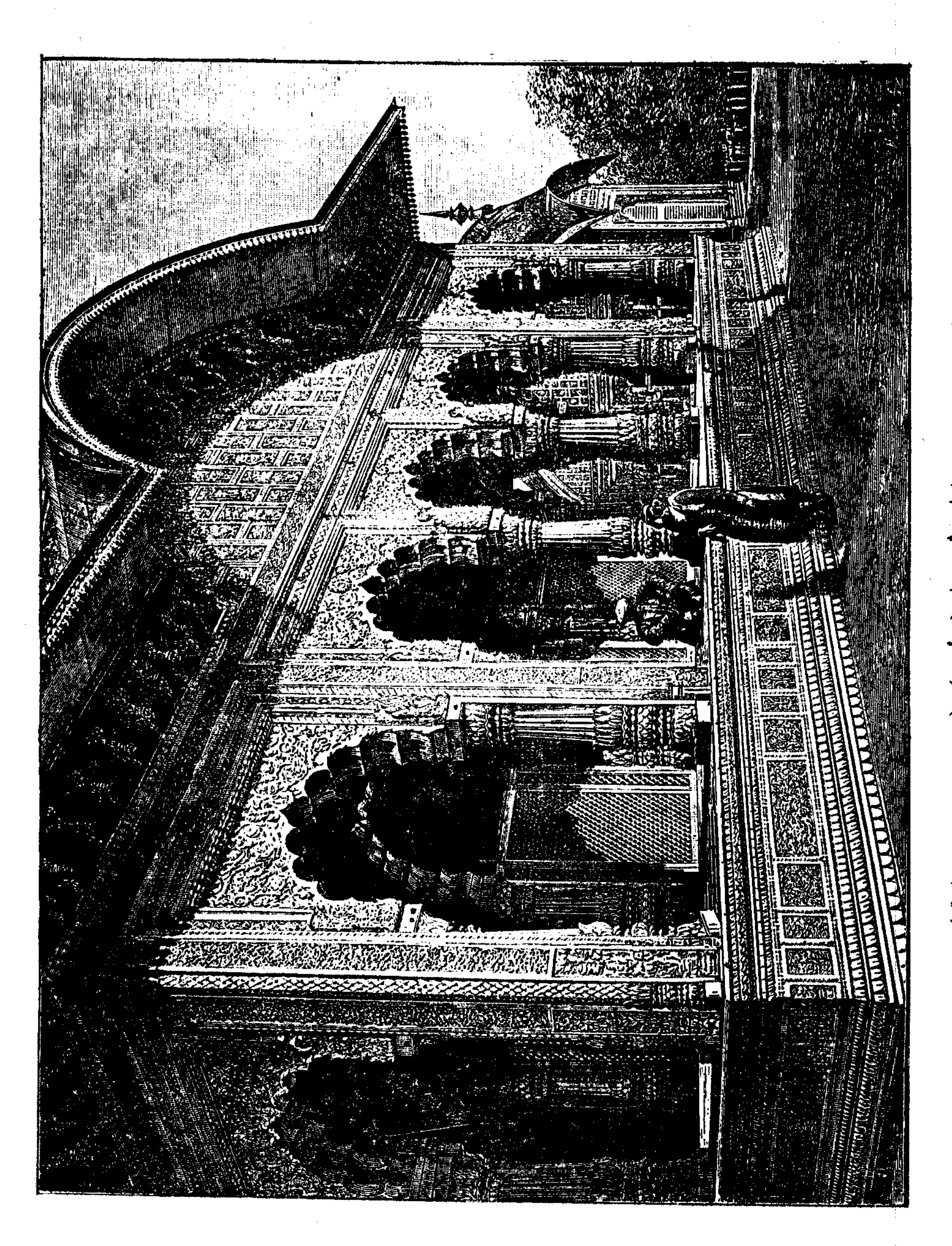
لا يزال هذا الطِّرازُ مجهولًا ، خلا ما يُسْتَكْشَفُ من بقايا مبانى اليمن القديمة ومن بقايا المبانى التى أُقيمت فى الممالك العربية السورية القديمة كمملكة الغساسنة مثلاً .

٢ — الطراز البزنطىُّ العربىُّ

الطِّرازُ البزنطىُّ العربىُّ فى سورية : — أقيمت بنايات هذا الطِّراز ، أو جُدِّد بناؤُها ، فيما بين القرن السابع والقرن الحادى عشر من الميلاد ، ومنها جامعُ عمرَ والمسجد الأقصى فى القدس والجامع الكبير فى دمشق .

الطرازُ البزنطىُّ العربىُّ فى مصر : — أقيمت بنايات هذا الطِّراز فيما بين القرن السابع والقرن العاشر من الميلاد ، ومنها جامعُ عمر بن العاص وجامع ابن طولون .

الطرازُ البزنطىُّ العربىُّ فى إفريقية : — بُنِىَ جامعُ القَيْرَوَانِ الكبيرُ ومساجِدُ الجزائر على حسب النماذج القديمة ، وبَقِىَ تأثير الفنِّ البزنطىِّ ثابتاً فى إفريقية ، وظَلَّت قِبابُ إفريقية بزنطيةً ، على العموم ، حتى الزمن الحاضر .



٣٢٢ — قصر راجا غوفر دهام (الهند) (من صورة فوتوغرافية)

الطِّرازُ البزنطيُّ العربيُّ في صِقِلِّيَة : — كانت البناياتُ ، التي أقامها العرب في صقلية قبل الفتح النورمانيّ ، على هذا الطراز ، كقصر العزيزة وقصر القُبَّة .

الطِّرازُ البزنطيُّ العربيُّ في الأندلس : — بُنِي على هذا الطِّراز جامعُ قرطبة والمباني العربيةُ في طُلَيْطلَة ، وذلك قبل انقضاء القرن العاشر من الميلاد .

٣ — الطِّراز العربيُّ الخالص

الطِّراز العربيُّ في مصر : تكامَل هذا الطرازُ فيما بين القرن العاشر والقرنِ الخامسَ عشرَ من الميلاد ، وبلغ ذُرْوَةَ كماله في جامع قايتباى ، ويمكن القارئَ أن يَتَبَيَّن تطوراتِه من النظر إلى سلسلة صور المساجد التي أحصيناها ونشرناها في هذا الكتاب .

الطِّراز العربيُّ في الأندلس : — تحوَّل فنُّ العِمارة العربيُّ في الأندلس بين قرن وقرن أيضاً ، ولكن الوثائق الضرورية لوَصْل أدواره المتوسطة فُقِدَت أيضاً ، ولم يبق من البنايات التي أُقيمت على هذا الطراز غيرُ ما هو قائمٌ في أشْبِيلِية وغَرْناطة ، ومع ذلك فإن هذا يُعَدُّ نُموذجيًّا .

٤ — الطِّراز العربيُّ المختلط

الطِّرازُ الإسپانيُّ العربيُّ : — يُشاهَد اختلاطُ عناصر فنِّ العِمارة النصرانيِّ بعناصر فنِّ العِمارة العربيِّ في المباني التي أُقيمت بعد فتح النصارى لبلاد الأندلس على الخصوص ، وواظب سكانُ القسم الجنوبيّ من إسپانية على إقامة بعض بناياتهم على هذا الطراز المختلط حتى الوقت الحاضر ، ويُعَدُّ كثيرٌ من آثار طُلَيْطِلَة أمثلة على هذا الطراز المختلط الذي نشرنا كثيراً من صوره في هذا الكتاب .

الطِّرازُ الإسرائيليُّ العربيُّ : — نذكر من هذا الطراز ما أُقيم من المباني التي كانت معابدَ لليهود في طُلَيْطِلَة كسَنْتَا مارية لابْلَانْكَا والترنسيتو ، إلخ .

الطِّرازُ الفارسيُّ العربيُّ : — إن المبانيَ التي أُقيمت في بلاد فارسَ بعد أن اعتنقت الإسلام ، ولا سيما مساجدُ أَصْبهانَ ، هي من هذا الطراز ، ولهذه المباني طابعٌ فارسيٌّ واضح وإن كانت ذاتَ أثرٍ عربيٍّ .

الطِّرازُ الهندوسىُّ العربىُّ : — مبانى هذا الطِّراز خليطٌ من عناصر الفنِّ العربىِّ وعناصرِ الفنِّ الهندوسىِّ ، ومن هذه المبانى منارةُ قطب ومعبدُ بِنْدِرَابن ، ولا سيما بابُ علاءِ الدينِ الرائعُ .

الطِّرازُ الهندوسىُّ الفارسىُّ العربىُّ ، أو الطِّرازُ المغولىُّ فى الهند : — شِيدَت المبانى التى أقيمت أيام سلطان المغول فى الهند على هذا الطِّراز ، ومنها تاج محل وقصرُ ملوك المغول وكثيرٌ من مساجد الهند ، وحلَّت المُؤثِّرَات الفارسيةُ فى مبانى هذا الطِّراز محل المؤثِّرات العربية التى كانت سائدة إلى حد كبير ، ونرى مبانىَ هذا الطِّراز خاليةً من الإبداع الحقيقىِّ وإن دلت على فنٍّ خاصٍ تَنَضَّدَت فيه عناصرُ الفنون الأجنبية التى تتألف منها أكثرَ من أن تمازج .



سوار من ذهب يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، وهو على الطراز الإسبانى العربى
(من صورة فوتوغرافية) (متحف العاديات بمدريد)

الفصل التاسع

تجارة العرب - صلاتهم بمختلف الأمم

---

١ — صلات العرب بالهند

لم يكن نشاطُ العرب التجاريُّ أقلَّ من نشاطهم فى العلوم والفنون والصِّناعة ، فقد كان للعرب ، فى الوقت الذى كانت أوربة فيه تَشُكُّ فى وجود بلاد الشرق الأقصى ولا تَعْرِف من إفريقية سوى بعض شواطئها ، علائقُ تجاريةٌ بالهند والصين وإفريقية الداخلية وبأقسام أوربة النائية كروسية وإسوج ودانيمركة .

ولم يكن نبأُ رِيَادِهم الذى وَصَل إلينا حتى الآن غيرَ ناقص ، حتى إن العلامة سيديُّو الذى يُعَدُّ حُجَّةً فيما يتعلق بالعرب لم يذكر حتى علاقاتِهم بشمال أوربة ، فأرجو أن يكون فيما أقول فى هذا الفصل ، مع إيجازه ، كافياً لإثباتنا أن العرب لم يُسَاوِهم فى النشاط التجاريّ غيرُ أمم الزمن الحاضر .

وتَرْجِع صِلات العرب الأولى ببلاد الهند إلى أقدم عصور التاريخ ، ولكن الذى يظهر أن الهنودَ ، لا العرب ، هم الذين كانوا يأتون بمحاصيلهم إلى سواحل البلاد العربية قبل محمد ، وأن السفن العربية لم تذهب من مرافئ اليمن إلى بلاد الهند إلاَّ قُبَيْل ظهور النبيّ .

ولَسُرْعان ما اتَّسَع أُفُق صِلات العرب التجارية بعد أن أصبح سلطانهم ثابت الأساس ، فلم يلبث العرب أن وَصَلوا إلى شواطئ كُورُمِيندِل ومَلَبار وسومطرة وجزائر الأرخبيل الكبرى وقطعوا خليج سيام وبلغوا جَنوب بلاد الصين .

وكان العرب يتصلون ببلاد الهند بثلاثِ طُرُقٍ أساسية . إحداها بَرِّيَّةٌ واثنتان منها بحريتان ، وكانت الطريق البرية تَصِل أهمَّ مراكز الشرق ، كسمرقند ودمشق وبغداد ، إلخ . ، بالهند بواسطة القوافل مارَّةً ببلاد فارس وكشمير ، وكان التجار الذين يُفَضِّلون الطريق البحرية يأتون من بلاد الهند

إلى موانئ الخليج الفارسى كميناء سيراف ، أو كانوا يدورون حول بلاد العرب ويبلغون موانئ البحر الأحمر ، ولا سيما عدن ، وكانت السِّلَع التى تَصِل إلى الخليج الفارسىّ تُرْسَل إلى بغداد ، وتُرْسَل من بغدادَ إلى جميع المدن المجاورة بواسطة القوافل ، وكانت السِّلَع التى تُنَزَّل فى عدن تُرْسَل منها إلى السويس فإلى الإسكندرية وإلى جميع مُدُن سورية الساحلية ، وكان تجار جنوة وفلورنسة وبيزة وكَتَلُونة ، إلخ . يجيئون ليبحثوا عن هذه السِّلَع ويُرْسِلوها إلى أوربة ، وكانت مصر خطَّ وصل بين الشرق والغرب ، وكانت هذه التجارة العظيمة من موارد غِنَى الخلفاء المهمة كما بَيَّنَّا ذلك .

وكانت السِّلَعُ التى تُنْقَل على تلك الطرق المختلفة كثيرةً ، وكانت تُبادَل ، فى عدن مثلًا ، منتجاتُ الصين والهند بمنتجات بلاد الحبشة ومصر ، وإن شِئْتَ فَقُلْ كان يُبادَل فيها أرِقّاء بلاد النوبة والعاجُ والتِّبْر بمنسوجات الصين الحريرية وخَزَفها المطلىّ وبمنسوجاتِ كشميرَ ، ولا سيما بالأبازير والعطور والخشب الثمين .

٢ – صلات العرب بالصين

تَرْجِع صِلاتُ العربِ غيرُ المباشرة بالصين ، بواسطة الهنود ، إلى ما هو أقدم من ظهور محمدٍ بزمن طويل ، ولكن صلاتِهم المباشرةَ بها لم تحدث إلا بعد أن أقاموا دولتهم .

وكان العرب يتَّصِلون بالصين بطُرقٍ برية وطرقٍ بحرية كاتصالهم ببلاد الهند ، وكانوا يذهبون إلى الصين بحراً من شواطئ بلاد العرب أو من موانئ الخليج الفارسىّ ، فيَصلون إلى جَنوبها تَوًّا .

وكان العرب يقومون برحلاتٍ متواصلة إلى بلاد الصين ، ومن أقدمها الرِحلة التى تكلمنا عنها فى فصل آخر حيث ذكرنا أن التاجرَ سليمان هو الذى قام بها فى سنة ٨٥٠ م ، ومما يثبتُ كَثْرَة صِلات العرب بأهل الصين ما كان من تبادل الوفود بين الخلفاء السابقين وملوك الصين فضلاً عما هو مسطور فى سجلات بيت مال الخلفاء من بيان للسِّلَع الصينية .

ومع ذلك يبدو أن طريق البحر لبلاد الصين كانت غيرَ مسلوكةٍ كما يجب ، وكان سلوك طريق البرِّ بواسطة القوافل أعظمَ يسراً وأكثرَ استعمالًا ، وكانت السِّلَع التى يؤتى بها من الصين إلى مدينة سمرقند التركية تُرْسَل رأساً إلى مدينة حلب فى آسية الصغرى ، فتُوَزَّع منها على أهمِّ مدن الشرق .

وفى كتاب الرِّحلة ، الذى وُضِع باللغة الفارسية فى أواخرِ القرنِ الخامسَ عشرَ من الميلاد فنَشَر مسيو شيفر بعض فصوله ، أن تاجراً مسلماً أَطْلَعَ على الطُّرُق البرية التى كانت تُسْلَك إلى الصين ، وكانت هذه الطرق ثلاثاً : « طريقَ كشمير ، وطريقَ خُوتن ، وطريقَ مَغُوليَة » .

ويشتمل كتابُ الرِّحلة هـذا على طرائفَ عن نوع السِّلَع التى كانت تُبادَل بسِلَع الصين ، ومن هـذه السِّلَع الأُسُودُ التى كان الواحـد منهـا يُبـادَل بثلاثين ألف قطعة من النسائج .

وكان التجار يرسلون إلى بلاد الصين ثمينَ الحجـارة والمَرْجانَ والخيلَ والمنسوجاتِ الصوفيةَ وأجواخَ البندقيـة القرمزية ، إلخ . ويأخذون النسائجَ الحريرية والديبـاجَ والقاشانىَّ والشاىَ ومختلف المستحضرات الصَّيْدَلِيَّة فى مقابلها .

٣٢٣ ـ صندوق صغير مصنوع من العاج المحفور فى القرن العاشر من الميلاد على الطراز الهندوسى العربى (متحف كنسنغتن) (من صورة فوتوغرافية)

ويمكننا ، عند فُقْدان الأنباء عن صِلات المسلمين بالصين وجهل علاقات الخلفاء بملوكها ، أن نستدلَّ على سِعة صِلات المسلمين التجارية بأهل الصين من وجود عشرين مليونَ مسلمٍ منتشرين فى أجزاء مملـكة ابن السماء ومن وجود مئة ألف مسلمٍ وأحد عشر مسجداً فى مدينة بكين وحدَها .

٣ — صلات العرب بإفريقية

كانت صِلات العرب بإفريقية على جانب عظيم من الأهمية أيضاً وكان العرب يعرِفون جيداً أصقاعَ إفريقية الوسطى التى يَصِل إليها رُوَّادنا فى الوقت الحاضر بِشِقِّ الأنفس ، فيُعَدُّ كلُّ ارتيادٍ لها حادثاً مُهِمًّا فى أوربة .

ويَدُلُّ إسلامُ أمم تلك الأصقاع التى يزورها تجار العرب على مقدرة العرب فى حَمْل الأمم على الترحيب بهم ، ويَجِد السياح أثراً لتأثير العرب فى أكثر البقاع التى يدخلونهـا فى الوقت الحاضر ، وعندى أنه يَجْدُر بالسياح المعاصرين الذين يرغبون فى درس شؤون إفريقية درساً مفصلاً من غير أن يُرْهِقوا ميزانية دولتهم ، وفى الاغتناء عند الاقتضاء ، أن يَحْذُوا حَذْوَ العرب فى ارتيادهم ، أىْ فى تنظيمهم للقوافل التجارية ، فالنجاحُ أضمن ، على العموم ، فى حَمْلِ أية أمة على قبول فريق من الناس قبولًا حسناً عن طريق المقايضة التجارية من اجتياز هذا الفريق لأرَضيها بغير هدفٍ ظاهر ، ومبادرتِها العُدْوانَ برَصاصِ البنادق عند سوء الظن .

وكان لعرب المغرب صِلاتٌ تجارية بأقسام إفريقية الغربية على الخصوص ، وكان لعرب مصرَ صِلاتٌ بأصقاع إفريقية الشرقية والوسطى ، وكان عربُ مصرَ يذهبون إلى بلادِ السودان بعد أن يقطعوا الصحراء طَلَباً للذهب والعاج والأرِقَّاء ، وبلغ العرب ، فى ارتيادهم إفريقية ، بقاعاً مُهِمَّة، ومنها مُدُنٌ لم يُوَفَّق الأوربيون المعاصرون لزيارتها ، كمدينة تَنْبَكْتُو ، وكان العربُ يَصِلُون إلى السواحل وإلى المناطق الوسطى أيضاً .

قال مسيو سيديُّو : « يَصِلُ العرب من شواطئ إفريقية إلى مضيق باب المندب ثم إلى الزنجبار فإلى بلاد الكاب، ويُؤَسِّسون براڤا ومنباسة وكيلوة حيث يعتزل أخٌ لأمير شيراز، وموازنبيقَ وصوفالا وميلندة ومغادوكسو ، ويستولون على الجُزُر القريبة من الشواطئ وعلى مراكزَ كثيرةٍ فى مدغشقر... ولم يكن أقلَّ من هذا تأثيرُ القرآن فى إفريقية الوسطى التى لا تزال غيرَ معلومة لدينا ، وكان ماأقامه العرب من الممتلكات فى الساحل الشرقيّ يُسَهِّل عليهم وُلُوجَ داخل إفريقية من هذه الناحية ، وكان المسلمون يزورون بلادَ الصومال الوديعةَ المِقْرَاة [١] ، فتُؤَلِّفُ ، مع سوقطرة ، مستودعاً تجاريًّا مهمًّا

(١) المقراة : الكثيرة الضيافة .

جدًّا وكانوا يزورون بلاد الحبشة وسنار وكردفان التى لها علاقات دائمة بمصر فتعد المفتاح الحقيقى لدارفور والوادى ، وكانوا يذهبون من طرابلس الغرب إلى فزان ، وكانت قوافلهم تذهب من بلاد



٣٢٤ ـ صندوق صغير من العاج المحفور ، وهو مصنوع فى مراكش فى القرن الحادى عشر من الميلاد
(من صورة قديمة)



٣٢٥ ـ إناء من البرونز مصنوع على الطراز الصينى العربى
(من مجموعة شيفر) (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

المغرب مُوغِلَةً فى الصحراء الكبرى غيرَ خائفة من المغامرة فى رمالها التى تَمتَدُّ من ضِفَاف النيل إلى المحيط الأطلنطىِّ ، والتى تبلغ مِساحتُها نحو مائتى ألف فرسخ مُرَبَّع ، وغيرَ خائفةٍ من الانتشار فى بلاد السودان والحقُّ أن العرق العربىَّ خَطَّ طريقه بين سكان إفريقية بحروف لاتمحى ، والحقُّ أن جميع السياح المعاصرين أجمعوا على الإشادة بما نجم عن هذا من الإصلاح فى تكوين هؤلاء السكان بَدَنًا وخُلُقًا وعقلاً » .

٤ — صِلات العرب بأوربة

كانت لأوربةَ علائقُ بالعرب مُدَّةً طويلة ، وكانت هذه العلائق تتمُّ بالطرق الآتية :

(١) طريقِ جبال البرنات . (٢) طريق البحرالمتوسط . (٣) طريقِ القُلْغا المؤدية إلى شمال أوربة باجتياز بلاد روسية ، فأما الطريقان الأوليان فكان يسلكهما عرب الأندلس ، وأما الطريقُ الثالثة فكان يَسْلُكها عرب المشرق .

وأقام العرب بجَنوب فرنسة عِدَّةَ قرون ، وكان لا بدَّ لهم من إيجاد صِلاتٍ فيما وراء جبال البرنات ، غير أنهم كانوا يفضِّلون أن تَقْصِد بِمِثاتُهم التجارية سواحل البحر المتوسط على الخصوص ، وأن يتَّصِلوا فيها بأممٍ تجارية مُهَذَّبَةٍ أكثر من التى كانت تَقْطُن بفرنسة أيام سلطانهم فى إسپانية .

وكان العرب سادةَ البحر المتوسطِ ، وكانوا يرسلون إلى جميع الموانى الأوربية والإفريقية المحيطة بهم منتجاتِهم الصناعيةَ والزراعية كالقطن والزعفران والورق والحرير الغَرْناطىِّ والجلد

القرطبيّ والنِّصَال الطُّلَيْطِلِيَّة ، إلخ . وكانت المرافئُ الإسبانية ، قادسُ ومالَقَةُ وقَرْطاجَنَّة ، إلخ . ، مراكزَ لنشاطٍ يناقضه ما هي عليه الآن مناقضةً محزنة .

ولا نَرَى أيّ أثرٍ لصِلات العرب التجارية بشمال أوربة فى كتب التاريخ القديمة التى انتهت إلينا ، ولكن الوثائق التى هى أدقُّ من كتب التاريخ تُثْبِت وجودَ تلك الصِلات وتدلُّ على تاريخ بُداءتها ونهايتها فضلاً عن الطُّرُق التى كانوا يسلكونها ، وتتألف هذه الوثائق من نقودٍ تركها العرب فى الطُّرُق التى كانوا يَمُرُّون منها ، فتَكشِف أعمالُ الحفر الحديثةُ عنها فى كلّ يوم .


٣١٦ ـ إناء من البرونز مصنوع على الطراز الصينى العربى
(من مجموعة شيفر)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

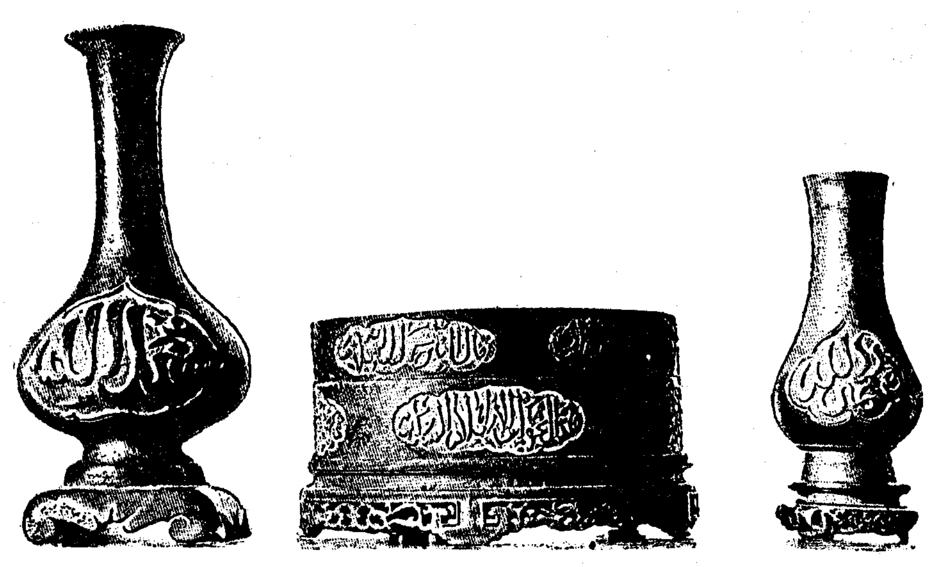
ومن هذه النقود نَعْلَمَ أن نُقْطَة البُداءة لتلك التجارة هى سواحل بحر قزوين ، حيث كان يجتمع تجارُ المراكز التجارية الكبرى ، كدمشق وبغداد وسمرقند وطهران وتفليس ، ويسيرون من أستراخان مع نهر الفُلْغا إلى مدينة بُلغار (مدينة سَنْبِرْسك الحاضرة) الواقعةِ لدى قدماء البلغار فى روسية والتى كانت تُعَدُّ مستودعاً تجاريًّا بين آسية وشمال أوربة .

ويَظْهَرُ أن العرب لم يجاوزوا مدينةَ بلغار ، وكان تجارُ أممٍ أخرى يأخذون السِّلَع صاعدين مع نهر الفلغا غيرَ تاركين له إلا لِيَنْزِلوا إلى البحرِ البلطيِّ ويَصِلوا إلى خليج فنلندة ، وكانت نوفْغورود وشلزويغ ، ولا سيما جُزُرُ البحر البلطيّ وغُوتْلَنْد وأُولَنْد وبُور نهُولْم ، أهمّ مستودعات شمال أوربة ، وقد عُدَّت النقود العربية التى وُجِدَت فى هذه المستودعات بالمئات .

وكان التجار يَتَوَجَّهون من خليج فنلندة إلى أهمّ نِقاط شواطئ البحر البلطيّ ، أى إلى شواطئ

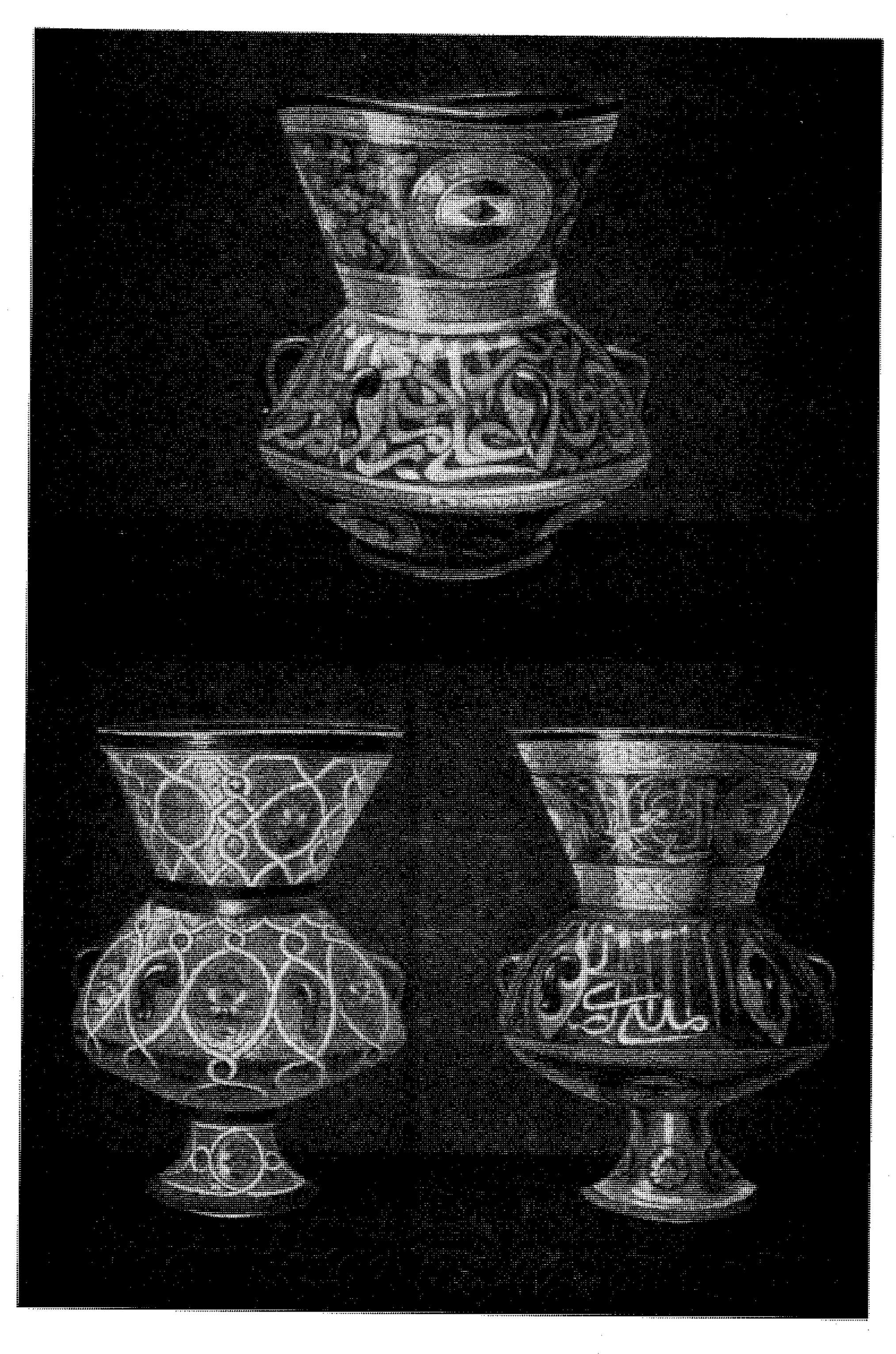
إسوج وفنلندة ودانيماركة وپروسية ، وكانوا يَصْعَدون مع مايَجِدُون على الشواطئ من مجارى المياه ، وذلك كما تدلُّ عليه النقود العربية التى وُجِدَت فى سيليزية وپولونية ، ولا سيما فى جوار وارسو .

ويدلُّ وجودُ كثيرٍ من النقود العربية فى أماكنَ معينةٍ على صِلات أصحاب هذه النقود التجارية بالدولة العربيــة فيما مضى ، وإن لم يـكن عندنا سوى فَرْضِيّات حَوْلَ حقيقة الشعوب التى كانوا ينتسبون إليها ، وترانا نَعْرِف ، مع ذلك أنهم كانوا مسلمين ، لِما لا نزال نَجِد من روسٍ مسلمين ، وتثبت الـكتابات الـكوفية التى وُجِدَت فى روسية أنه كان للعرب مستعمراتٌ عند الخزر والبلغار هنالك ، ولـكنه ليس لدينا ما يدلُّ على أن تجار العرب كانوا يذهبون إلى ما هو أبعدُ من مدينة بلغارَ ، وبلغارُ روسيةَ هم الذين كانوا يَنْقُلُون السلعَ إلى أهل دانيماركة لا ريب ، وأهلُ دانيماركة ، الذين لم تَصِفْهم التواريخ الأوربية لنا بغير القَراصِنة ، كانوا يَتَعاطَوْن التجارة أكثر من تعاطيهم القَرْصَنة إذَنْ .



٣٢٧ ـ ٣٢٩ : آنية من البرونز مصنوعة على الطراز الصينى العربى (من مجموعة شيفر)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وكان العنبر ، الذى هو من السِّلع المرغوب فيها كثيراً فى الشرق والفِراء والقصديرُ . والإماء على حسب ما ورد فى بعض النصوص العربية ، أهمَّ موادِّ تجارة العرب فى شمال أوربة ، وكان أهلُ



مصابيح عربية قديمة فى بعض المساجد ، وهى مصنوعة من زجاج مطلى بالميناء
(من تصوير المؤلف الفوتوغرافى)



٣٣٠ ـ إناء من النحاس المكفت بالفضة مصنوع في دمشق على الطراز الحديث (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

دانماركة يأخذون نسائجَ الشرق وبُسطَه وآنيتَه المنقوشة وحُلِيَّه فى مقابل هذه السِّلَع ، وأُرَجِّح أن يكون كثيرٌ من مُنْتَجات الشرق ، كالحُليِّ المُحَزَّزَة مثلاً ، قد دخل فى عِدَّة أقسام من أوربة الغربية ، وترانى أميل إلى الاعتقاد بأن بعض الحُليِّ الموجودةِ فى مَتْحَف ستوكهلم ، على أنها من مصنوعات إسكنديناقية فى الدور الحديدىِّ ، والتى نشرتُ صورَ عِدَّةِ نماذجَ لها فى كتابى الأخير ، قد جُلِبَ من الشرق بتلك الطريق التى تكلمت عنها ، فالحقُّ أن كثيراً من هذه الحُلِيِّ ذو منظر شرقىّ .

وتدلُّ تواريخُ النقود التى وُجِدت فى روسية ، من مصبِّ نهر الڤُلْغا إلى شواطئ البحر البلطىّ ، على أن بَدْء تلك التجارة العربية كان فى عهد الخلفاء الأولين وأن ختامها لم يُجاوِز أواخرَ القرنِ الحادى عشر من الميلاد ، ولِذا تكون قد دامت نحوَ أربعة قرون .

وآخرُ تاريخٍ لتلك النقود التى وُجِدَت هو سنة ١٠٤٠ م ، وبنو العباس هم أكثرُ مَنْ ذُكِرَ فيها من أولياء الأمور بآسية .

ووُجِد بين تلك النقود نقودٌ عربية ضُرِبَت فى الأندلس ، ولكنها من النُّدْرَة مايحتمل أن تكون قد وَصَلَت معه إلى شمال أوربة بعد أن تداولها تجارُ دمشق وسمرقند .

والأسبابُ التى انقطعت بها صِلاتُ العربِ التجارية بشمال أوربة بسيطةٌ جداً ، أى أن ما اشتعل

من الفِتَن الداخلية فى آسية وما تَمَّ من هجرة البلغار وما حدث من الاضطرابات السياسية فى روسية وَقْفها فى القرن الحادى عشر ، وأنها إذا كانت لم تُسْتَأْنَفْ فيما بعدُ فلِما نَشَأ عن الحروب الصليبية من تحويلِ تجارة أوربة مع الشرق إلى طريق البحر ، وأن أهل البندقية ابتلعوا تجارةَ الشرق مع الغرب منذ القرن الثانى عشر من الميلاد ، فصارت جميعُ المنتجات التى يُبَادَل بها فى مختلف أجزاء العالم تَمُرُّ من أيديهم .

الفصل العاشر

تمدين العرب لأوربة - تأثيرهم في الشرق والغرب

---

١ — تأثير العرب فى الشرق

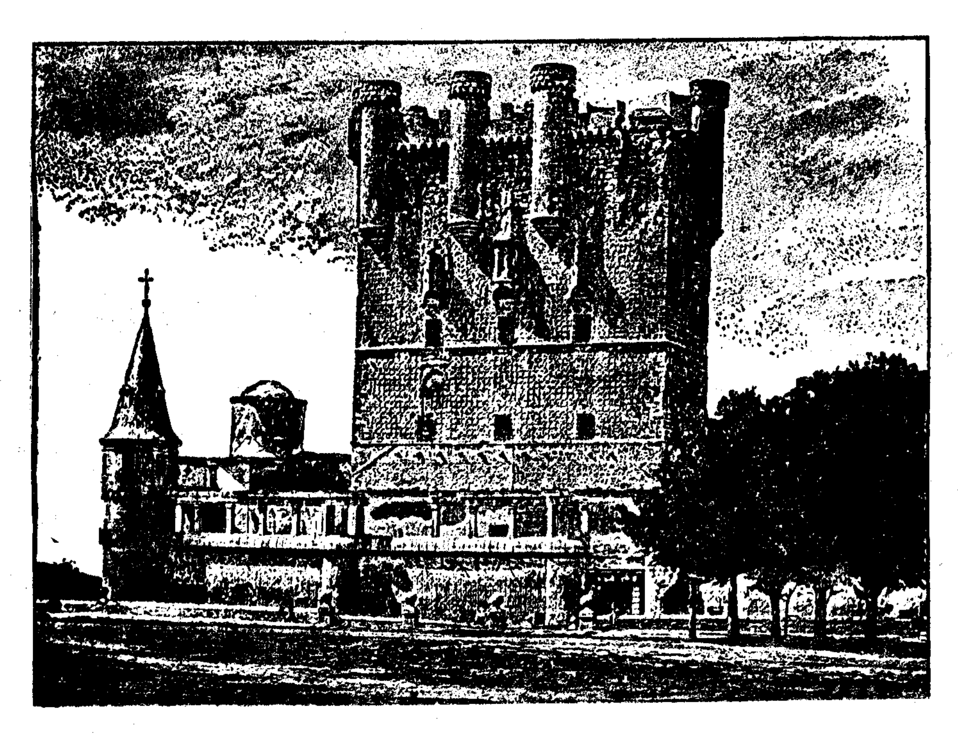
خَضَع الشرقُ لكثيرٍ من الشعوب ، كالفرس والأغارقة والرومان ، إلخ ، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسىّ إذا كان عظيماً دائماً فإن تأثيرها المدنىّ كان ضعيفاً عموماً ، وإذا عَدَوْتَ المُدُن التى كانت تملكها هذه الشعوب رأساً رأيتها لم تُوَفَّق لِفَرْض دينها ولغتها وفنونها ومن ذلك أن ظَلَّتْ مصرُ الثابتة فى زمن البطالمة وفى زمن الرومان وَفِيةً لماضيها ، وكان ما تَعَلَّمَ من اعتناق الغالبين لدِيانة المغلوبين ولغتهم وطِراز بنائهم فيها ، وكان ما تَعرِف من إقامة البطالمة لمبانيهم التى رمّمها القياصرة ، على الطِّراز الفرعونى .

وما عَجَز الأغارقة والفرس والرومان عنه فى الشرق قَدَر عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه ، ومن ذلك أن مصرَ ، التى كان يلوح أنها أصعب أقطار العالم إذعاناً للمؤثِّرات الأجنبية ، نَسِيَتْ ، فى أقلَّ من قرن واحد مَرَّ على افتتاح عمرو بن العاص لها ، ماضِيَ حضارتها الذى دام نحو سبعة آلاف سنة معتنقةً ديناً جديداً ولغة جديدة وفنّاً جديداً اعتناقاً متيناً دام بعد توارى الأمة التى حَمَلتها عليه .

ولم يُغيِّر المصريون دينَهم سوى مرة واحدة قبل العرب ، وذلك حين خرّب قياصرةُ القسطنطينية بلادَ مصر بتحطيمهم جميعَ آثارها أو تشويهها وجعلهم القتلَ عقوبة من يخالف حَظْرَ عبادة آلهتها الأقدمين ، وهكذا عانى المصريون ديناً جديداً فُرِض عليهم بالقوة أكثرَ من اعتناقهم له ، وما كان من تهافت المصريين على نَبْذِ النصرانية ودخولهم فى الإسلام يُثبِتْ درجةَ ضَعْف تأثير النصرانية فيهم .

وما وُفِّقَ العرب له فى مصر من التأثير البالغ اتفق لهم مثلُه فى كل بلدٍ خَفَقَت فوقه رايتهم كإفريقية

وسورية وفارس ، إلخ ، وبلَغ نفوذُهم بلادَ الهند التى لم يدخلوها إلا عابرى سبيل ، وبلَغ بلادَ الصين التى لم يزوروها إلا تجاراً .

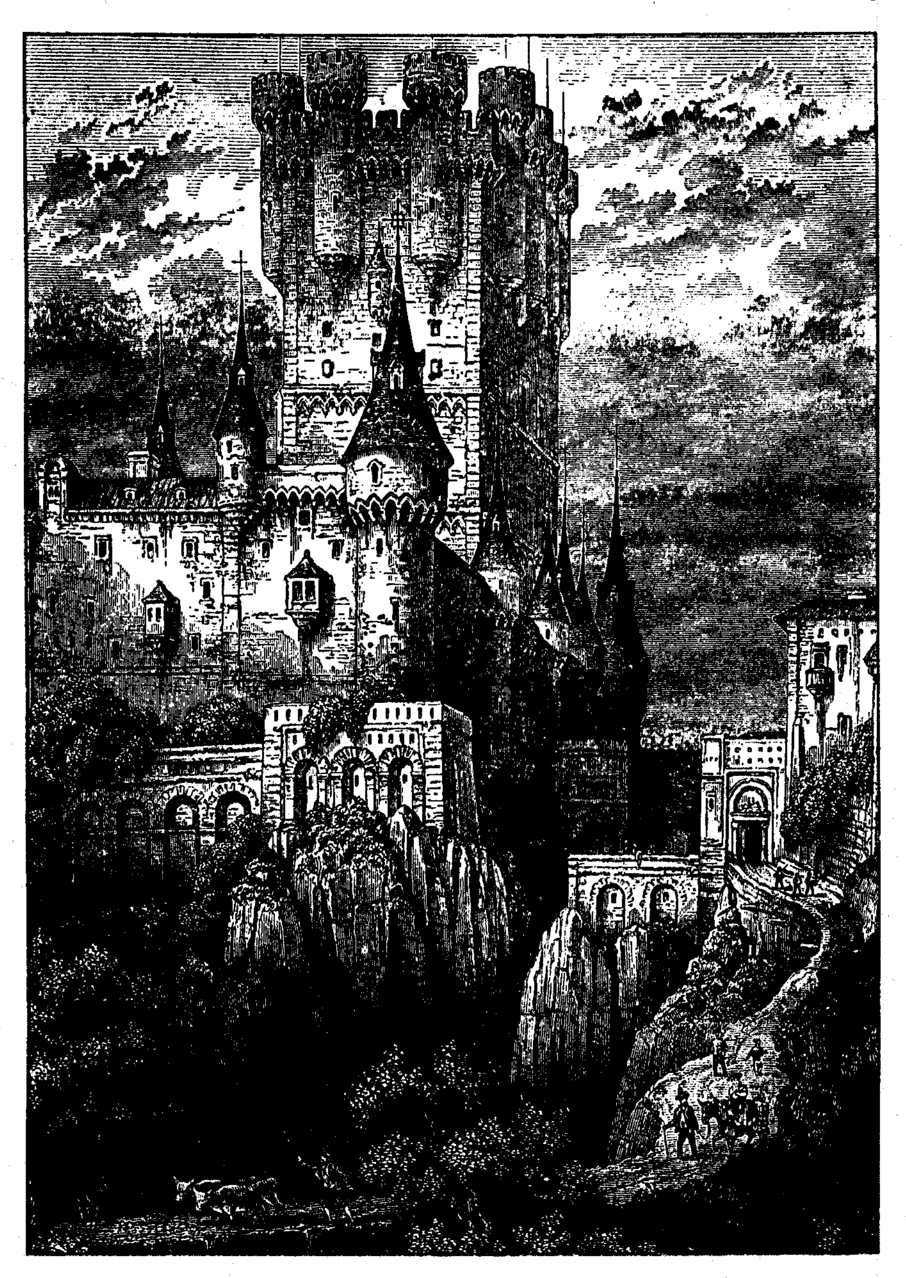


٣٣١ ــ مقدم قصر شقوبية فى الوقت الحاضر (من صورة فوتوغرافية)

ولا نرى فى التاريخ أمةً ذاتَ تأثيرٍ بارز كالعرب ، وذلك أن جميع الأمم التى اتصل العرب بها اعتنقت حضارتَهم ، ولو حيناً من الزمن ، وأن العرب لما غابوا عن مسرَح التاريخ انتحل قاهروهم كالترك والمغول إلخ ، تقاليدهم وبَدَوْا للعالم ناشرين لنفوذهم ، أَجَلْ ، ماتت حضارة العرب منذ قرون ، ولكن العالم لا يَعْرِف اليومَ غير دين أتباع النبيِّ ولغتهم فى البلاد الممتدة من المحيط الأطلنطيِّ إلى السند ، ومن البحر المتوسط إلى الصحراء .

ولم يتَجَلَّ تأثيرُ العرب فى الشرق فى الديانة واللغة والفنون وحدَها ، بل تجلى فى ثقافته العلمية أيضاً ، ومن ذلك أن المسلمين كانوا ذوى صلاتٍ مستمرة بالهند والصين وأنهم نقلوا إليهما قسماً كبيراً من المعارف العلمية التى عدَّها الأوربيون من أصل هندوسىّ أو صينىّ فيما بعد، وقد أصاب سيديُّو فى توكيد هذا

الأمر فذكر ، على سبيل المثال ، أن العربيّ البيرونيّ المتوفَّى سنة ١٠٣١ م أتحفَ الهندوسَ ، فى أثناء سياحته فى بلادهم ، بمختاراتٍ مهمة من كتب العلم فنقلوها بعدئذ نَظْماً إلى السنسكريتية على حسن عادتهم .



٣٣٢ ــ قصر شقوبية ، وقد أقيم على الطراز الإسبانى العربى (من رسم قديم لوايزنر)

ويجب ألا تَسْتنبط من هذا القول نتائجَ واسعةً ، فإذا كان العرب أفضلَ من الهندوس عِلْماً ، كما هو واضح ، فإنهم دونهم فلسفةً ودِيانة ، فليس فى عامِّية القرآن ولاهوتيته الصبيانية ، التى هى من صفات الأديان الساميَّة أيضاً ، ما يقاس بنظريات الهندوس التى أتيح لى أن أُبَيِّن عمْقَها العجيبَ فى كتاب آخر .

ويظهر أن ما اقتبسه الصينيون من العرب أهمُّ مما أخذه الهندوس عنهم ، وقد بَيَّنَّا فى فصل سابق أن علوم العرب دخلت الصين على أثر الغارة المغولية ، وأن الفلكيَّ الصينيَّ الشهيرَ كُوشو كِنْغ تناول رسالةَ ابن يونس فى الفلك فى سنة ١٢٨٠م وأذاعها فى بلاد الصين ، وأن الطبَّ العربيَّ أُدْخِل إلى الصين وقتما غزاها كوبلاى ، أىْ فى سنة ١٢١٥ م .

ولا يزال تأثيرُ العربِ العلمىُّ فى أهل المشرق جارياً ، ولا يزال الفرس يَدْرُسون العلوم فى كتب العرب ، وقد ذكرنا أن للغة العرب فى بلاد الفرس شأناً كالذى كان للغة اللاتينية فى الغرب فى القرون الوسطى .

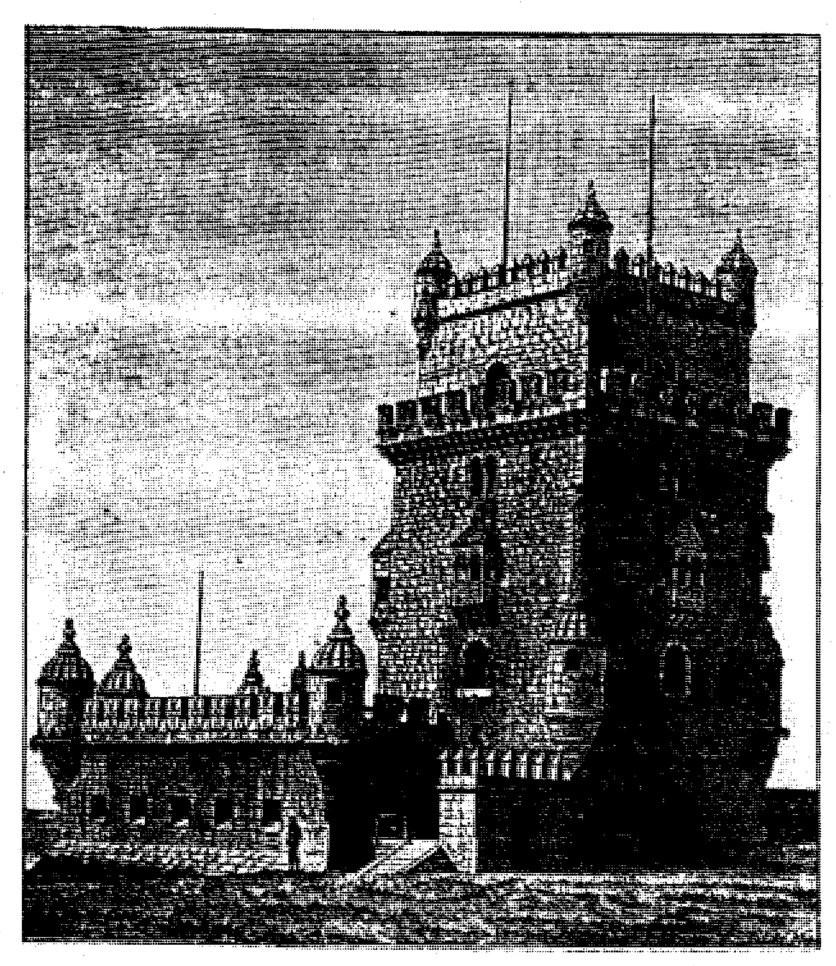
٢ — تأثير العرب فى الغرب

تأثير العرب العلمىُّ والأدبىُّ : — نُثْبِتُ الآن أن تأثير العرب فى الغرب عظيم أيضاً ، وأن أوربة مدينة للعرب بحضارتها ، والحقُّ أن تأثير العرب فى الغرب ليس أقلَّ منه فى الشرق ، ولكن بمعنًى آخر ، فأما تأثيرهم فى الشرق فتراه بادياً فى أمر الدين واللغة والفنون على الخصوص ، وأما تأثيرهم الدينىُّ فى الغرب فتراه صِفْراً ، وترى تأثيرَهم الفنىّ واللغوىّ فيه ضعيفاً ، وترى تأثيرَهم العلمىّ والأدبىّ والخلقىّ فيه عظيماً .

ولايمكن إدراكُ أهمية شأن العرب فى الغرب إلَّا بتَصَوُّر حال أوربة حينما أدخلوا الحضارة إليها .

إذا رَجَعْنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد ، حين كانت الحضارةُ الإسلامية فى إسبانية ساطعةً جدًّا ، رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجاً يَسْكُنُها سنيوراتٌ متوحشون يَفْخَرون بأنهم لا يقرأون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفةً كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يَقْضون أوقاتهم فى أديارهم ليَكْشِطوا كُتُبَ الأقدمين النفيسةَ بخشوعٍ ، وذلك كَيْماَ يكونَ عندهم من الرُّقوق ماهو ضرورىٌّ لنَسْخ كُتُب العبادة .

ودامت همجيةُ أوربة البالغةُ زمناً طويلاً من غير أن تَشْعُر بها ، ولم يَبْدُ فى أوربة بعضُ الميل إلى العلم إلّا فى القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وذلك حين ظَهَر فيها أُناسٌ رَأَوْا أن يرفعوا أ كفانَ الجهل الثقيل عنهم فولّوا وجوهَهم شَطْرَ العرب الذين كانوا أئمةً وحدهم .

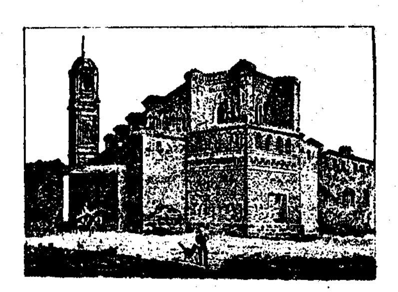


٣٣٣ ــ برج بليم ، وهو قائم على الطراز الاسبانى العربى (من صورة فوتوغرافية)

ولم تــكن الحروب الصليبية سبباً فى إدخال العلوم إلى أوربة كما يُرَدَّد على العموم ، وإنما دخلت العلومُ أوربةَ من إسپانية وصِقِلّيَة وإيطالية ، وذلك أن مــكتباً للمترجمين فى طُلَيْطِلة بدأ ، منذ سنة ١١٣٠م يَنْقُل أهمَّ كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون ، وأن أعماله فى الترجمة كُلِّلَتْ بالنجاح ما بدا للعرب بها عالمٌ جديد ، ولم يَتَوَانَ الغربُ فى أمر هذه الترجمة فى القرن الثانى عشر والقرنِ الثالثَ عشر والقرنِ الرابعَ عشر من الميلاد ، ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات

علماءِ العرب ، كالرازيّ وأبي القاسم وابن سينا وابن رُشْد ، إلخ . ، إلى اللغة اللاتينية ، بل نُقِلَت إليها ، أيضاً ، كتبُ علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم الخاصة ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرشميدس وبطليموس ، فزاد عدد ما تُرْجِمَ من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب كما روى الدكتور لوكلير في كتابه « تاريخ الطب العربيّ ».

والحقُّ أن القرون الوسطى لم تَعْرِف كتبَ العالَم اليونانيِّ القديم إلّا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ، وبِفَضْل هذه الترجمة اطّلَعْنا على محتويات كُتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب أبُلُّو نيوس في المخروطات وشُروحِ جالينوس في الأمراض السارية ورسالة أرسطو في الحجارة ، إلخ . وأنه إذا كانت هناك أمةٌ نُقِرُّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعربُ هم تلك الأمة ، لا رهبانُ القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسمَ اليونان ، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبديًّا ، قال مسيو لِيبْرى : « لو لم يَظْهر العرب على مَسْرَح التاريخ لتَأَخَّرَتْ نهضةُ أوربة في الآداب عِدَّةَ قرون » .



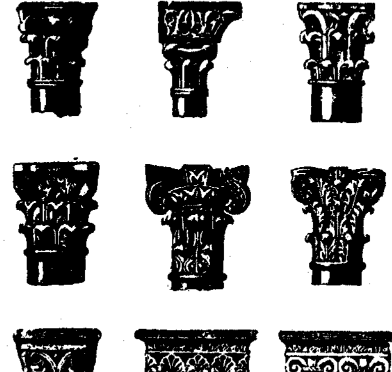
٣٣٤ ـ كنيسة القديس بطرس في قلعة أيوب ، وهي قائمة على الطراز الاسباني العربي (من صورة قديمة)

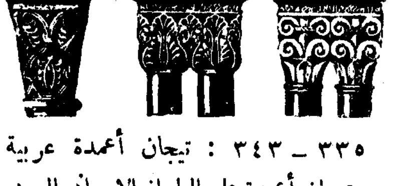
وعربُ الأندلس وحدَهم ، هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد ، وذلك في تلك الزاوية الصغيرة من الغرب ، العلومَ والآداب التي أُهْمِلَتْ في كلِّ مكان ، حتى في القسطنطينية ، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلادٌ يمكن الدرسُ فيها غيرُ الأندلس العربية ، وذلك خلا الشرقَ الإسلاميِّ طبعاً ، وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة ، ونذكر منهم ، على حسب بعض الروايات التي هي موضوع جدالٍ من غير أن يَثْبُتَ عدمُ صِحَّتها ، جربرتَ الذي صار بابا في سنة ٩٩٩م باسم سلفستر الثاني ، والذي أراد أن ينشر في أوربة ما تعلّمه فعَدَّ الناس عَمَلَه من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه من الشيطان .

ولم يظهر في أوربة ، قبل القرنِ الخامسَ عشر من الميلاد ، عالِمٌ لم يقتصر على استنساخ كتب العرب ، وعلى كتب العرب وحدَها عوّل روجر بيكن وليونارد البيزيّ وأرنود الڤيلنوڤيّ وريمون لول وسان توما وألبرت الكبير والأذفونش العاشر القشتاليُّ ، إلخ ، قال مسيو رينان : « إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا في كلِّ شيء وإن سان توما مدينٌ في جميع فلسفته لابن رُشد » .

وظَلّت ترجماتُ كُتب العرب، ولا سيما الكتبُ العلمية ، مصدراً وحيداً ، تقريباً ، للتدريس فى جامعات أوربة خمسةَ قرون أو ستةَ قرون، ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب فى بعض العلوم ، كعلم الطبِّ مثلاً ، دام إلى أيامنا ، فقد شُرِحَت كتب ابن سينا فى مونپلية فى أواخر القرن الماضى .

وبَلَغ تأثير العرب فى جامعات أوربة من الاتساع ما شَمِلَ معه بعضَ المعارف التى لم يُحَقِّقوا فيها تقدماً مهمًّا كالفلسفة مثلاً ، فكان ابن رُشْد الحجةَ البالغةَ للفلسفة فى جامعاتنا منذ أوائلِ القرنِ الثالثَ عشرَ من الميلاد ، ولما حاول لويس الحادى عشر تنظيمَ أمور التعليم فى سنة ١٤٧٣ م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربىِّ ومذهبِ أرسطو .





٣٣٥ ـ ٣٤٣ : تيجان أعمدة عربية وتيجان أعمدة على الطراز الإسبانى العربى (مسجد قرطبة ـ مسجد طركونة القديم ـ شقوبية ـ سرقسطة ـ القصر بأشبيلية طليطلة ـ دير غرافد ـ الترانسيتو بطليطلة) (متحف العاديات الإسبانى)

ولم يكن نفوذ العرب فى جامعات إيطالية ، ولا سيما جامعةُ پادُو ، أقلَّ منه فى فرنسة ، فقد كان للعرب فيها شأنٌ كالذى بدا للأغارقة واللاتين بعد عصر النهضة ، ويمكن القارىء أن يَتَمَثَّل سِعَةَ نفوذ العرب من الاحتجاج الصاخب الآتى الذى قاله الشاعرُ الكبير پِتْرَارْك :

« ياعجباً ، استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستين ، واستطاع ڤيرجل أن يكون شاعراً بعد أوميرس ، فهل قُدِّر علينا ألاّ نؤلِّف بعد العرب ؟ لقد تَسَاوَيْنا نحن والأغارقة وجميعُ الشعوب غالباً وسبقناها أحياناً ، خلاَ العربَ ، فياللحماقة ! وياللضلال ! ويالعبقرية إيطالية الناعسة أو الخامدة ! » .

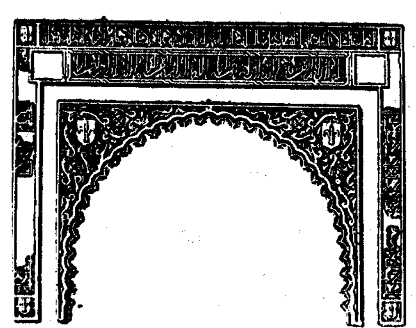
ولم يكن للقرآن تأثيرٌ فى جميع مذاهب العرب العلمية والفلسفية التى نشروها فى العالم فى خمسة قرون ، كما أنه لم يكن للتوراة أثرٌ فى كتب العلم الحديثة ، ولا عَجَبَ ، فالقرآنُ مجموعةُ أحكامٍ كان يحترمها العلماء تقريباً لأنها مصدرُ سلطان العرب، ولملاءمتها احتياجاتِ الجماهيرِ التى ليس من طبيعتها أن تكترث للعلوم والفلسفة فى كلِّ زمن إلا قليلاً، غير أن العلماء كانوا لا يبالون بما بين نتائج اكتشافاتهم ونظريات الكتاب المقدس (القرآن) من الاختلاف ، فإذا ما بلغت أفكارُهم الحرَّة عامَّةَ الناس


٣٤٤ ـ قوس الجعفرية في سرقسطة

اضطُرَّ حُماتهم من الخلفاء ، عادةً ، إلى نفيهم لأجلٍ محدود احتراماً للشعور العامّ ، وإذا ما هَدَأَت الزَّوْبَعة بسرعة استدعاهم الخلفاء، ولم يَبْدُ عدم التسامح بين المسلمين إلا بعد أن اضمَحَلَّ سلطان العرب في القرنِ الثالثَ عشرَ من الميلاد وصارت سلطتُهم قبضةَ «شعوب ثقيلة شَرِسَة غيرِ مُهَذَّبَة» من تُرْك وبربر وغيرهم كما أشار إلى ذلك ، بحقٍّ ، مسيو رينان ، وليست المذاهبُ مصدرَ عدم التسامح في الغالب ، بل الأشخاصُ ، وكان العرقُ العربيُّ من التهذيب والسماحة ما لا يَحِيد معه عن هذا التسامح الذى أقام الدليلَ عليه في كلِّ مكانٍ منذ بَدْءِ فتوحه .

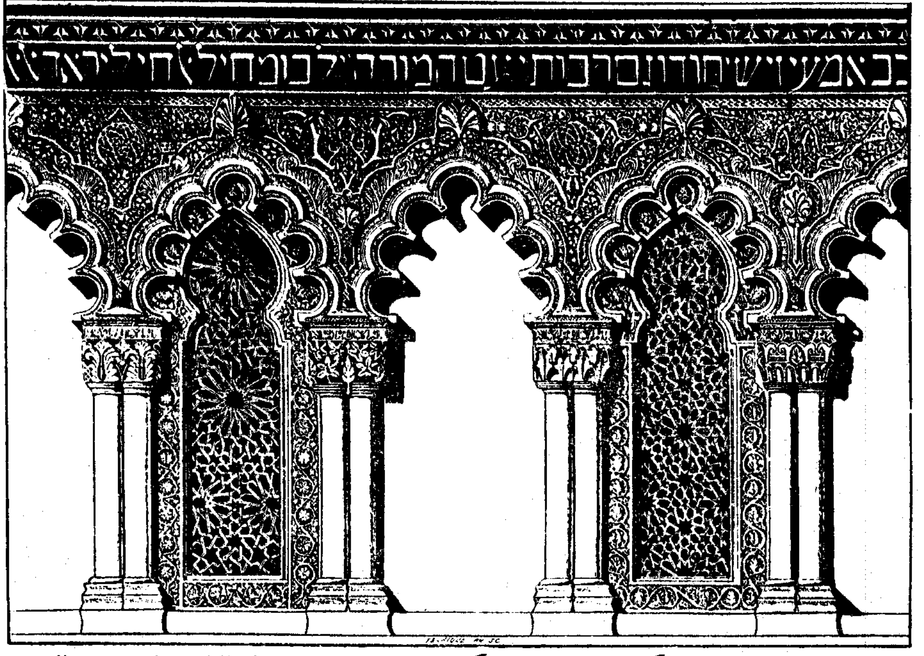
ويمكن القولُ بأن التسامح الدينيَّ كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب ، وقد أوردنا على هذا غيرَ دليل ، ولا نُسْهِب فيه ، وإنما نُشِير إلى ما ترجمه مسيو دوزى من قصة أحد علماء الكلام العرب الذى كان يحضر ببغدادَ دروساً كثيرةً في الفلسفة يَشْتَرِك فيها أناسٌ من اليهود والزنادقة والمجوس والمسلمين والنصارى إلخ . ، فيُسْتَمَعُ إلى كلٍّ واحد منهم باحترام عظيم، ولا يُطْلَب منه إلا أن يستند إلى الأدلة الصادرة عن العقل ، لا إلى الأدلة المأخوذة من أيِّ كتاب دينيّ كان ، فتسامحٌ مثلُ هذا هو مما لم تَصِل إليه أوربة بعد ما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة وما عانته من الأحقاد المتأصلة وما مُنِيَت به من المذابح الدامية .

وإذا كان تأثير العرب عظيماً في نواحي أوربة التي لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم أبصرنا أنه كان أعظمَ من هذا في البلاد التي خَضَعَت لسلطانهم كبلاد إسپانية التي نرى أن أفضلَ وسيلة لتقدير تأثير العرب فيها تقديراً قاطعاً هو أن ننظر إلى حالتها التي كانت عليها قبل فتحهم إياها وفي أثناء سيادتهم لها وبعد إجلائهم عنها ، فأما حالها قبل الفتح العربيِّ وفي أيام سلطتهم فقد بحثنا فيها ، وذَكَرْنا درجةَ السعادة التي تَمَّت لها في زمن دولتهم، وأما حالها بعد العرب فقد تكلمنا عنها أيضاً، وستتاح لنا العودة إليها حينما نبحث في ورثة العرب عما قليل ، فهنالك نرى أنها هَبَطَت بعد إجلائهم إلى دَرَكَةٍ من


٣٤٥ ـ قوس على الطراز الاسبانى العربى فى طليطلة (متحف العاديات الاسبانى)

الانحطاط لم تنهض منها حتى الآن ، ولن يَجِدَ الباحثُ مثالاً أوضحَ من هذا لتأثير أمةٍ فى أمةٍ أخرى ، والتاريخُ لم يشتمل على ماهو أبرزُ من هذا المثال .

ومما تَقَدَّم ننتهى إلى نتيجتين مهمتين : الأولى هى أنه لم يكن للإسلام ، دِيانةً ، تأثيرٌ فى آثار العرب العلمية والفلسفية ، والثانيةُ هى أن فَضْلَ الشرق فى تأثيره فى الغرب يعود إلى العرب وحدَهم ، وأما الشعوب التى حَلّت محلَّ العرب ، وإن اتّفَقَ لها شىءٌ من التأثير السياسىِّ أو الدينىِّ ، لم يكن تأثيرُها العلمىُّ والأدبىُّ والفلسفىّ فى غير درجة الصِّفْر .


٣٤٦ ـ دقائق زخارف فى كنيسة الترانسيتو (كنيس بطليطلة) وهى على الطراز الاسرائيلى العربى

تأثيرُ العربى فى فنِّ العِمارة : — للعرب ، لا ريب ، تأثيرٌ فى فنون أوربة ، ولا سيما فى فنِّ عِمارتها ، ولـكنه يبدو لى أضعفَ مما يُعْتَقَد على العموم ، ولا أرى أن يُبْحَث عنه حيث أُريدَ وجودُه ، ومن ثَمَّ أن يقال إن الطِّراز القوطىَّ أُخِذ عن العرب فى القرون الوسطى مثلا ، ومع أننى أوافق ، مع كثيرٍ من المؤلفين ، على أن أوربة اقتبست الأقواسَ القوطية (أى الأقواسَ المصنوعة على رسم

البيكارين) من العربِ ، والعربُ قد استعملوها فى مصرَ وصِقِلّيَة وإيطالية منذ القرن العاشر من الميلاد ، ترانى لا أقول إننا مدينون للعرب بِطرازنا القوطىّ لِمَا أرى من الفرق العظيم بين كنائسنا التى أقيمت عليه فى القرنِ الثالثَ عشرَ أو القرنِ الرابعَ عشر من الميلاد وما بُنِىَ فى أىٍّ من هذين القرنين من المساجد ، ولأن أقواس الأبواب والنوافذ المصنوعةَ على رسم البيكارين ليست كلَّ مافى العمارة القوطية التى تتألف من عناصر مختلفةٍ لا تُقَدَّر قيمتُها إلا بعد البحث فى مجموع البناء .

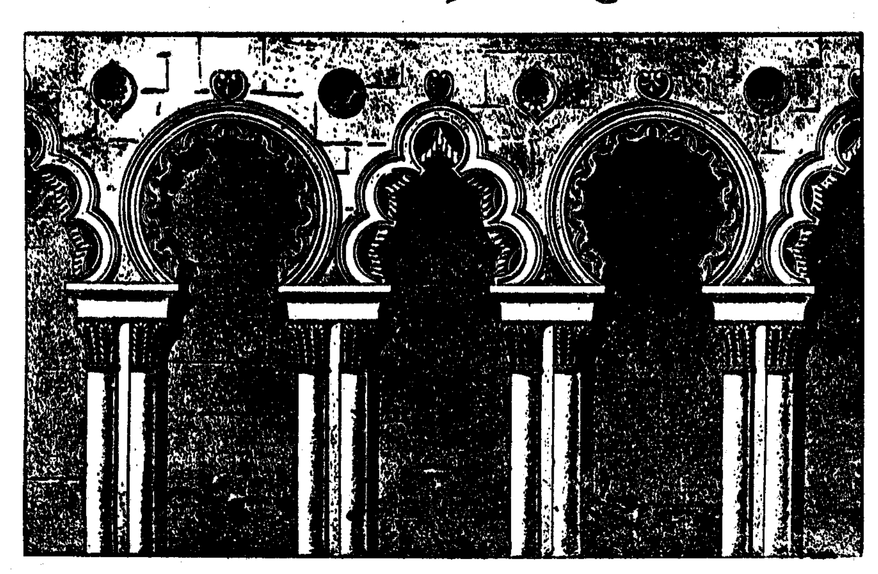


٣٤٧ — دقائق زخارف فى كنيسة الترانسيتو بطليطلة
(طراز إسرائيلى عربى)

والحقُّ أن الطِّراز القوطىَّ لم يستند إلى عنصر واحد، فهو مشتقٌّ من الطراز الرُّومَنِيِّ الذى هو وليد الطِّرازِ اللاتينىِّ والطراز البزنطىِّ ، وذلك بعد سلسلة من التطورات ، والحقُّ أن الطراز القوطىَّ ظَهَرَ ، بعد أن تَمَّ تكوينه، فنًّا مبتكرا مختلفا عن فنون العمارة السابقة ، فتُعَدُّ كل كنيسة قوطية أتْقَنَ بناؤها من أجمل ماشاد الإنسان من المبانى التى لا أستثنى منها أكملَ الآثار الإغريقية اللاتينية القديمة .

وهنا أقَرِّر أن الغرب اقتبس أصولَ فنِّ عمارته من العرب ، وأن لعروق الغرب احتياجاتٍ وأذواقًا تختلف عن احتياجات الشرق وأذواقه ، وأن بيئات الغرب مباينة لبيئات الشرق ، وأن الفنون وليدة احتياجات أحد الأدوار ومشاعره فكان ماتراه من اختلاف فنون الغرب عن فنون الشرق بحكم الضرورة .

وإننى ، على ما قرّرتُ من عدم المشابهة بين الطِّراز العربىّ والطراز القوطىّ بعد أن تكوّن ، لا أنكِر أهمية الفروع التى اقتبسها الغربيون من الشرقيين ، ولم أنفرد بهذا الاعتراف ، بل اعترف بذلك أكثرُ المؤلفين حُجّةً ، واسمع ما قاله باتِيسْيِه :



٣٤٨ ــ بعض أقواس فى دير الراهبات بشقوبية (طراز إسبانى عربى)

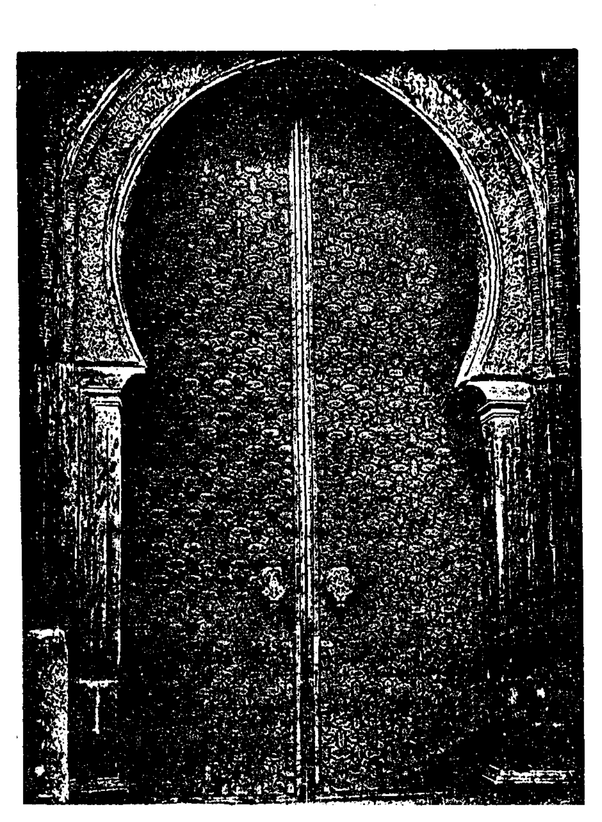
« لا يجوز الشكُّ فى أن البَنّائين الفرنسيين اقتبسوا من الفنِّ الشرقىِّ كثيراً من العناصر المعارية المُهِمّة والزخارف فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد . . . أَلَمْ نجدْ فى كتدرائية بوى ، التى هى من أقدس البنايات النصرانية ، باباً مستوراً بالكتابات العربية ؟ أَوَ لَمْ تقمْ فى أربونة وغيرها حصونٌ مُتَوَّجَةٌ وَفْقَ الذوق العربىّ ؟ » .

وذكر مسيو لُونُورْمَان ، الذى هو حجةٌ فى هذه الموضاعات مثل باتِيسْيِه ، أن تأثير العرب واضحٌ فى كثير من الكنائس الفرنسية ، ككنيسة مدينة ما غِلُون (١١٧٨ م) التى كانت ذاتَ صِلات بالشرق ، وكنيسةِ كانْدِه (مِين ولوَار) وكنيسةِ غاماش (سوم) ، إلخ .

وألَمعَ مسيو شارل بلَان إلى ما اقتبسه الأوربيون من العرب فى فَنِّ العِمارة ، وقال : « أرى من غير مبالغةٍ فيما لأمةٍ من التأثير فى أمةٍ ، وذلك خلافاً لما يُسار عليه اليوم أن الصليبيين الذين شاهدوا ما اشتمل عليه الفنُّ العربىُّ من المشربيات وشُرَف المآذن والأفاريز أدخلوا إلى فرنسة المراقبَ والجواسق والأبراج والأطناف والسِّياجاتِ التى استُخْدِمَت كثيراً فى العِمارات المدنية والحربية فى القرون الوسطى » .

ولم يكن مسيو بريس الأَفِيِنيُّ المتخصصُ فى فَنِّ العِمارة العربىِّ على غير هذا الرأى ، فقد قال : « إن النصارى أخذوا عن العرب الأبراجَ الرائعة التى استخدمها الغرب بكثرةٍ حتى أواخر القرنِ السادسَ عشرَ من الميلاد » .

ولا يَغْرُب عن بالك أن الأوربيين كانوا يستخدمون فى القرون الوسطى كثيراً من بَنَّائِى الأجانب فى إقامة مبانيهم ، وأنهم كانوا يوحون إليهم مثلما كان يوحى به العرب إلى بَنَّائِى البزنطيين ، وأن هؤلاء المعاريين كانوا يجيئون من كلِّ مكان ، وأن شارلمان كان يأتى بالكثير منهم من الشرق ، وقد نقل مسيو ڤياردو عبارةً من كتاب « تاريخ باريس » لدولور جاء فيها أن مهندسين معاريين من العرب استخدموا فى إنشاء كنيسة نوتردام الباريسية :

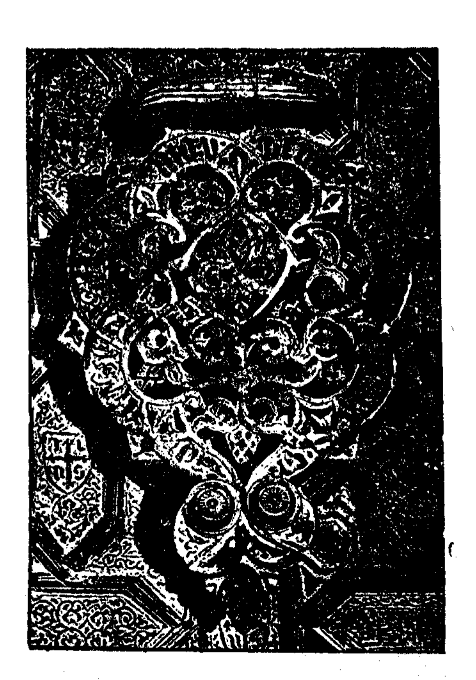

٣٤٩ ـ باب الغفران فى قرطبة (طراز إسبانى عربى)
(من صورة فوتوغرافية)

ويَتَجَـــلى فى إسپانية ، على الخصوص ، تأثير العرب المعارىُّ العظيم الذى غَفَل عن ذكره العلمـاء المشار إليهم ، وقد ذكرنا فى فصلٍ سابق أنه نشأ عن تمازج فنون العرب والنصارى طِرازٌ خاصٌّ يُعْرَف بالطِّراز المُدَجَّن الذى ازدهر فى القرنِ الرابعَ عشرَ والقرنِ الخامسَ عشرَ من الميلاد على الخصوص ، وتَرَى فى الصُّوَر التى نشرناها فى هذا الفصل أمثلةً مهمة لذلك ، وما أبراجُ كثيرٍ من كنائس طُلَيْطِلة إلّا مقتبسةٌ من المآذن ، وليست المبانى التى شادها النصارى فى الولايات المستقلة فى العهد الإسلامىِّ إلا عربيةً أكثرَ منها نصرانيةً ، وذلك كقصر شقوبية الشهير الذى نَشَرْتُ له عِدَّة صُوَر فتَدُلُّ إحدى هذه الصُّوَر التى التقطناها من رسمٍ قديم على حاله قبل حريق سنة ١٨٦٢ ، وتَدُلُّ الصُّوَر الأخرى

الفوتوغرافيةُ الأصل على حاله فى الوقت الحاضر ، ولا نجهل أن قصر شقوبية هذا أقيم فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، أى أقيم فى أيام السيد بأمر الأذفونش السادس الذى طرده أخوه من ممالكه والتجأ إلى عرب طُلَيْطِلة ودرس قصرَهم فيها وعاد إلى ممالكه وأنشأ قصراً شبيهاً به ، ومما يزيد قصرشقوبية قيمةً إمكانُ عَدِّه مثالاً للقصور العربية المُحَصَّنة التى أقيمت فى بلاد إسپانية ثم عَفَا رسمُها تقريباً فى الوقت الحاضر .

ويلوح لى أن آثاراً كثيرةً عَدَّها بعض المؤلفين من المبانى القائمة على الطِّراز القوطىِّ الخالص ، كبرج بليم الذى أُنْشِئَ بالقرب من أشْبُونة ، ذاتُ مَسْحَة عربية بشكلها العامِّ وأبراجها المُطَنَّفة وشُرَفِها وبِجُزْئيَّاتٍ أخرى فيها .

أجَلْ ، قد يُرَى أن تأثير العرب فى إسپانية زال تماماً ، ولكن بعض المدن الإسپانية ، ولا سيما أشْبِيلِيَّةُ ، حافلةٌ بذِكْرَيات العرب ، ولا تزال بيوتها تُبْنَى على الطِّراز الإسلامىِّ ، وهى لا تختلف عن نماذجها إلا بفَقْر زخارفها ، ولا يزال الرقص والموسيقا فيها على الطريقة العربية ، ويُشاهَد الدَّمُ الشرقىّ فيها بسهولة كما ذكرتُ ذلك سابقاً.



٣٥٠ — مدقة باب الغفران فى قرطبة

أَجَلْ ، يمكن أن تُباد أمةٌ وأن تُحرَق كتبها وأن تُهدَم آثارها ، ولكنّ تأثيرَها يكون أقوى من القُلُزِّ(١) غالباً ، ولا يستطيع الإنسانُ محوَه ، ولا تكاد العصور تقْدِر عليه .

تأثير العرب فى الطبائع : — لانعود إلى مافَصَّلْناه فى فصل سابق عن تأثيرالعرب الخُلُقِىِّ فى أوربة، وإنما نذكر أننا أثبتنا فيه الفرقَ العظيم بين سنيورات النصارى وأشياع النبىِّ فى ذلك الزمن ، وأن النصارى تخَلَّصُوا من همجيتهم بفضل اتصالهم بالعرب واقتباسهم منهم مبادئ فروسيتهم وماتؤدى إليه هذه المبادئ من الالتزامات ، كمراعاة النساء والشيوخ

(١) القلز : النحاس الذى لا يعمل فيه الحديد .

والأولاد واحترام العهود إلخ ، ونَذْكُر أننــا بَيَّنّا فى فصلنا عن الحروب الصليبية أن أوربة النصرانية كانت دون الشرق الإسلامىّ أخلاقاً بمراحل ، فإذا كان للدّيانات ما يسْنَد إليهــا ، وما نجادل فيه ، من التأثير فى الطبائع على العموم أمْكَنَت المقابلة بين الإسلام والأديان الأخرى التى تَزْعُم أنهـا أفضل منه على الخصوص .

وقد تكلمنا فى ذلك الفصل ، بمـا فيه الكفاية ، عن تأثير العرب الخُلُقِىّ فى أوربة ، فنحيل القارئ عليه، وإنما نُذَكّر القارئ بالنتيجة التى تَوَصَّل إليها ، أيضاً ، العلاّمة المُتَدَيِّن مسيو بارتلى سنت هيلر فى كتابه عن القرآن حيث قال :

٣٥١ ـ باب مخزن الأمتعة المقدسة فى كتدرائية أشبيلية (طراز إسپانى عربى)

« أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سنيوراتنا الغليظة فى القرون الوسطى، وتعلّم فرساننا أرقّ العواطف وأنبلَها وأرحمها من غـير أن يَفْقِدوا شيئاً من شجاعتهم ، وأشكّ فى أن

تسكون النصرانيةُ وحدَها قد أوْحَت إليهم بهذا مهما بُولِغَ فى كَرَمها » .

وقد يسأل القارئ بعد ما تقدم : لِمَ يُنْكِرُ تأثيرَ العرب علماء الوقت الحاضر الذين يَضَعُون مبدأ حرية الفكر فوق كلِّ اعتبار دينىّ كما يلوح ؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذى أسأل نفسى به أيضاً وهو أن استقلالنا الفكرىَّ لم يكن فى غير الظواهر بالحقيقة ، وأننا لسنا من أحرار الفكر فى بعض الموضوعات كما نريد .



٢٥٢ ــ قلادة من ذهب مصنوعة فى غرناطة فى القرن الرابع عشر على الطراز العربى الإسبانى
(متحف الآثار فى مدريد) (من صورة فوتوغرافية)

فالمرء عندنا ذو شخصيتين : الشخصيةِ العصرية التى كوَّنتْها الدراسات الخاصة والبيئةُ الخلقية والثّقافية ، والشخصيةِ القديمة غير الشاعرة التى جَمَدت وتَحَجَّرَت بفعل الأجداد وكانت خلاصةً لماضٍ طويل ، والشخصيةُ غير الشاعرة وحدَها ، ووحدَها فقط ، هى التى تتكلم عند أكثر الناس وتُمْسِك فيهم المعتقداتِ نفسَها مُسَمَّاةً بأسماء مختلفة ، وتملى عليهم آراءهم ، فيلوح ما تُمْليه عليهم من الآراء حُرًّا فى الظاهر فيُحْتَرم .

والحقُّ أن أتباع محمد ظَلُّوا أشدَّ مَنْ عَرَفَتْه أوربة من الأعداء إرهاباً عِدَّة قرون ، وأنهم ، عندما كانوا لا يُرْعِدُوننا بأسلحتهم ، كما فى زمن شارل مارتل والحروب الصليبية ، أو يهددون أوربة بعد فتح القسطنطينية ، كانوا يُذِلُّوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، وأننا لم نَتَحَرَّر من نفوذهم إلا بالأمس .

وتراكمت مبتسراتُنا الموروثة ضدّ الإسلام والمسلمين فى قرون كثيرة وصارت جزءاً من مزاجنا ، وأضحت طبيعةً متأصلة فينا تَأصُّلَ حِقْد اليهود على النصارى الخفىِّ أحياناً والعميقِ دائماً .



٣٥٣ ــ مصباح من زجاج مطلى بالميناء (من تصوير بريس الأفينى)

وإذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضد المسلمين مُبْتَسرَنا الموروثَ الذى زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة إن اليونان واللاتين وحدَهم منبعُ العلوم والآداب فى الزمن الماضى أدركنا ، بسهولةٍ سِرَّ جحودنا العامِّ لتأثير العرب العظيم فى تاريخ حضارة أوربة .

ويتراءى لبعض الفُضَلاء أن من العار أن يُرَى أن أوربة النصرانية مدينةٌ لأولئك الكافرين في خروجها من دور التوحش ، فعارٌ ظاهر كهذا لا يُقْبَل إلا بصعوبة [1] .

نختم هذا الفصلَ بقولنا : إنه كان للحضارة الإسلامية تأثيرٌ عظيم في العالم ، وإن هذا التأثيرَ خاصٌ بالعرب وحدَهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، وإن العرب هَذَّبوا البرابرةَ الذين قَضَوْا على دولة الرومان بتأثيرهم الخُلُقيّ ، وإن العرب هم الذين فتحوا لأوربة ما كانت تجهله من عالَم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثّقافيّ ، فكانوا مُمَدِّنين لنا وأئمةً لنا ستة قرون .

(١) حينما تلتقي المبتسرات الموروثة والثقافة في العالم الفاضل ، ولا يدرى على أيهما يعتمد في وزن الأمور ، يتجلى فيه مايجامع في شخص واحد من الذاتية القديمة التي هي وليدة الماضي ، والذاتية العصرية التي هي وليدة المشاهدة الشخصية فيصدر عنه من الآراء المتناقضة ما يستوقف النظر ، ومن ذلك التناقض المثال البارز الذي يجده القارئ في الخطبة التي ألقاها الكاتب اللبق والعالم الفاضل مسيو رينان في السوربون عن الإسلام ، والتي أراد مسيو رينان أن يثبت فيها عجز العرب ، ولكن براهينه كانت تنقض بما كان يجيء في الصفحة التي تليها فبعد أن قال مسيو رينان مثلا : إن تقدم العلوم مدين للعرب وحدهم مدة ستمئة سنة ، وذكر أن عدم التسامح مما لم يعرفه الإسلام إلا بعد أن حلت محل العرب شعوب متأخرة كالبربر والترك ، عاد فادعى أن الإسلام اضطهد العلم والفلسفة وقضى على العقل في البلاد التي دانت له .

بيد أن ناقداً بصيراً كمسيو رينان لا يستطيع أن ينام مدة طويلة على مثل ذلك الزعم المناقض لأوضح ما رواه التاريخ ، فذهبت عنه مبتسراته الموروثة ثانية ، ورجع يعترف بتأثير العرب في القرون الوسطى ويشهد بتقدم العلوم في بلاد الأندلس أيام سلطانهم .

ومن دواعي الأسف أن تغلبت على رينان مبتسراته غير الشاعرة بعد ذلك سريعاً فصار يزعم أن علماء العرب ليسوا عرباً، بل « من أبناء سمرقند وقرطبة وأشبيلية ، إلخ . » ، مع أن الواقع أن تلك البلاد مما ملكه العرب ، وأن الدم العربي مما جرى في عروق أبنائها ، وأن علوم العرب مما كان لها نصيب منه زمناً طويلا ، وأنه إذا أبيح لأحد أن يجادل في الآثار التي صدرت عن مدارس العرب ، كان ذلك من قبيل إباحته لنفسه أن يجادل في مؤلفات علماء فرنسة بحجة أنهم من الشعوب الكثيرة التي تألف من مجموعها الشعب الفرنسي كالنورمان والسلت والأكيتان ، إلخ .

ثم يظهر الكاتب الفاضل مسيو رينان أسيفاً ، أحياناً ، على سوء رأيه في العرب ، ويصل إلى النتيجة غير المنتظرة الآتية التي تنم ، كذلك ، على ما بين ذاتية الإنسان القديمة وذاتيته العصرية من التنازع ، ويأسف على أنه ليس من أتباع النبي ، فيقول : « إنني لم أدخل مسجداً من غير أن أهتز خاشعاً ، أي من غير أن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لست مسلماً » .



الفصل الأول

ورثة العرب
تأثير الأوربيين في الشرق

١ — وَرَثة العرب فى الأندلس

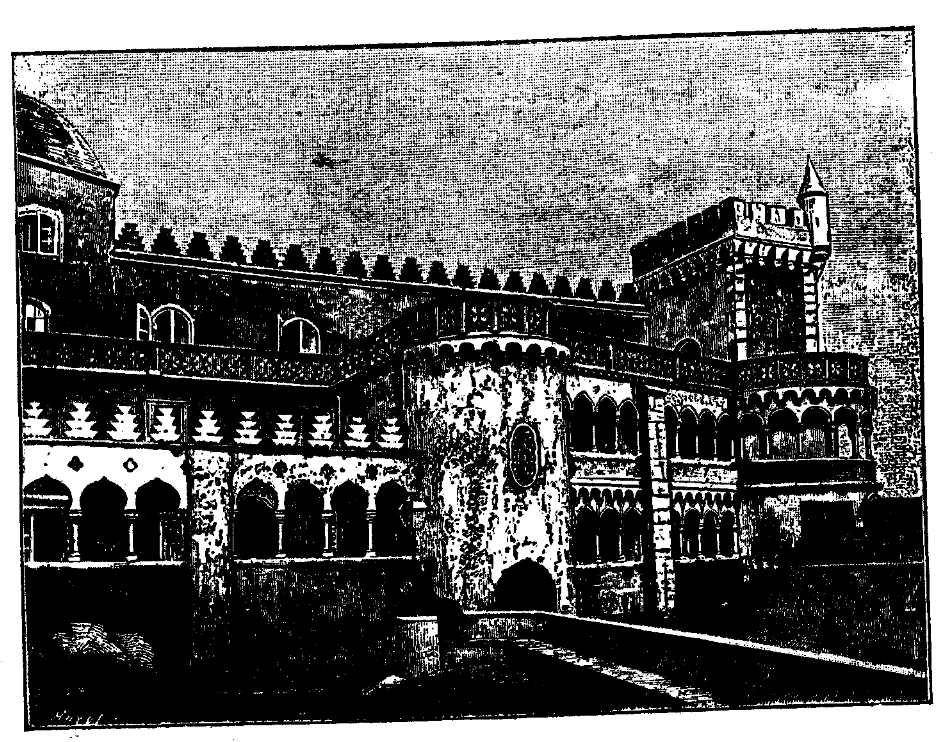
إن من أحسن الوسائل لتقدير ما لأمةٍ من التأثير النافع أو الضارِّ فى أمةٍ أخرى هو أن يُبْحَث فى أحوال هذه الأمة قبل أن تخضع للنفوذ الأجنبيِّ وفى أثناء خضوعها له وبعد خلاصها منه ، فأما أحوالُ الأمم التى دانت للعرب قبل خضوعها لهم وفى أثناء حكمهم لها فقد بحثنا فيها بما فيه الكفاية ، وأما أحوالها ، بعد أن غاب العرب عن مسرح العالم ، فنبحث فيها الآن بادئين بإسپانية .

لم يُفَكِّر النصارى ، بعد أن استردوا غَرْناطة التى كانت مَعْقِل الإسلام الأخيرَ فى أوربة ، فى السير على سُنَّة العرب فى التسامح الذى رَأَوْه منهم عِدَّة قرون ، بل أخذوا يضطهدون العرب بقسوةٍ عظيمة على الرغم من العهود ، ولكنهم لم يَعْزِموا على طردهم جميعهم إلا بعد مرور قرن ، ومع ما كان يُصِيبُ العربَ من الاضطهاد كان تَفَوُّقهم الثَّقَافِيُّ على الإسپان عاملاً فى بقائهم على رأس جميع الصِّناعات ، وكان من الصواب اتهامُ الإسپانِ إياهم بالاستيلاء على جميع المِهَن .

وطالب الشعب بطردهم فقط ، وبدا الإكليروسُ متطرفاً فأشار بقتلهم جميعاً رجالاً ونساء وشيوخاً

وأطفالاً ، وسَلَكَ فليب الثانى طريقاً وَسَطاً فا كتفى بإعلان طردهم فى سنة ١٦١٠ م ، ولكنه أمر بأن يُقْتَل أ كثرُهم قبل أن يُوَفَّقُوا لترك إسپانية ، فقُتِل ثلاثةُ أرباعهم تقريباً .

وتَمَّ الجلاء والذبح ، وعَمَّ الفرحُ إسپانيةَ لِمَا ظَنَّ من دخولها عهداً جديداً .



٣٥٤ ــ قصر حديث فى بهنا (البرتغال) (طراز إسپانى عربى) (من صورة فوتوغرافية)

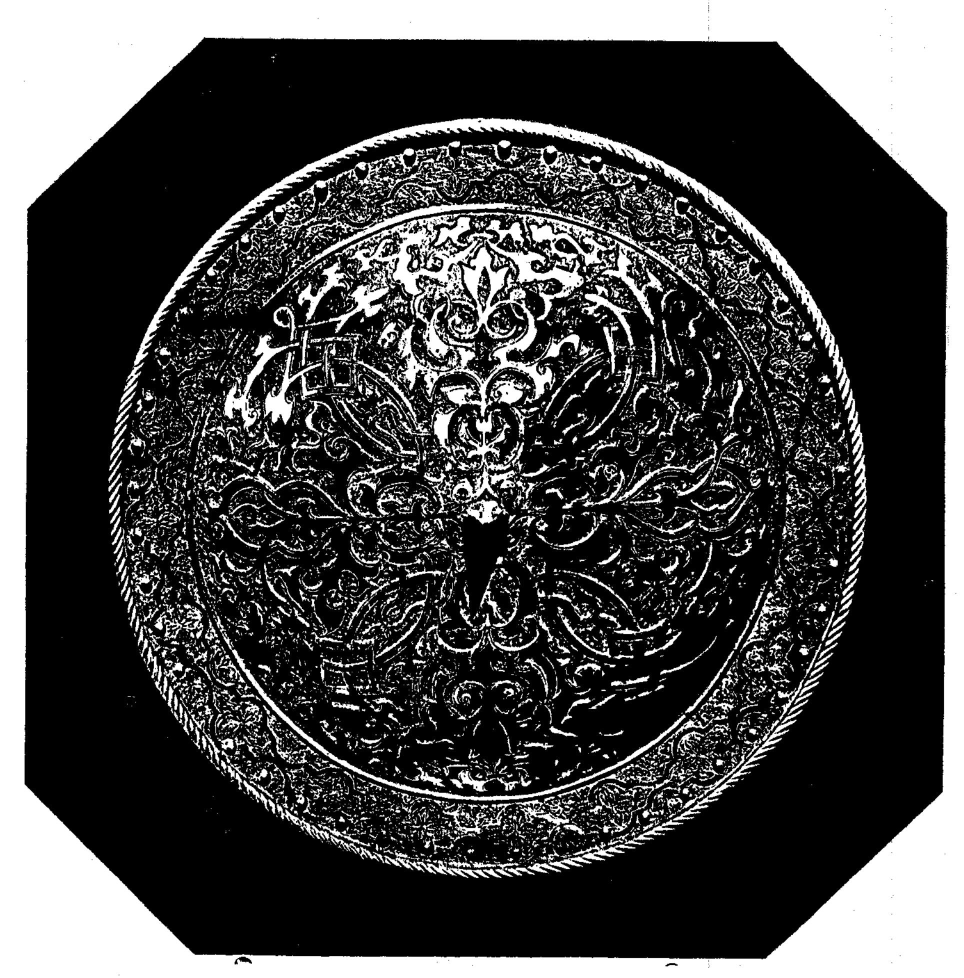
حَقًّا لقد ظهر عهدٌ جديد ماوُجِدَت نتائجُ عظيمةٌ لهذا الاستئصال الجامع الذى لا نظير له فى التاريخ ، ويكون تقديرنا لأهمية هذه النتائج أَتَمَّ إذا مارَجَعْنَا بعضَ السنين إلى الخلف وبحثنا فى أمر إسپانية بعد اختفاء سلطان العرب السياسىِّ عنها .

رأى النصارى ، الذين هاجروا إلى المناطق الجبلية فِراراً من سلطان العرب ، إمكانَ إعادة دولتهم القديمة بعد ماشاهدوا بدء تضعضع سلطان المسلمين فى الأندلس بفعل تنافسهم وحروبهم الداخلية .

ولم تُكَلَّل أعمالُ هؤلاء النصارى بالنجاح فى البُداءة، ولكنهم لم يَهِنُوا لِمَا كان يَغْلِي فى عروقهم من الحَمِيَّة الدينية، وقد صار لهم ما للعرب من الخِبْرَة الحربية بفضل الوقائع التى اشتركوا فيها عِدَّةَ قرونٍ

ما دام القتالُ مِهنَتهم الوحيدة ، وقد ساعدهم انقسام العرب على النجاح فاستطاعوا ، بعد حروب طويلة ، أن يقيموا دُوَيلاتٍ لم تفتأ تَعْظُم وتتَّحد حتى استولت بعد ثمانية قرون على غَرْناطة التى كانت عاصمةَ آخرِ دولةٍ عربية فى الأندلس ، وبهذا أضحت جميعُ إسپانية قبضتَها ، وبدَت إسپانيةُ أولَ دولة حربية فى أوربة .

ولم يكن الملك شارلكن وفليب الثانى أقلَّ براعةً من سَلَفِهما فرديناند ، وكان القرنُ الذى مَرَّ بين سقوط غَرْناطة ووفاة فليب الثانى دور عظمةٍ لإسپانية لن ترى مثله .



٣٥٥ ــ ترس فليب الثانى فى إسبانية (من صورة فوتوغرافية التقطها لوران)

أَجَلْ ، كان العرب يُضْطَهَدون فى جميع ذلك العهد ، ولكن مع بقائِهم ، وكان العرب ذوى شأن

فيه بمـــا لهم من التفوق الثقافيّ ، وكان العلماء وأرباب الصِّناعات والتجار من العرب وحدَهم ، لا من الإسبان الذين كانوا ينظرون إلى كلِّ مهنَة شَزْراً ، خلا مهنةَ الإكليروس ومهنةَ الجندية .

وكانت إسبانية تشتمل ، إذَنْ ، على جيلَيْن مختلفَيْن من الآدميين عاملَيْن بمختلف الطرق على عظمتها ، أحدُهما من النصارى القابضين على زمام السلطة العسكرية ، والآخَر من العرب القابضين على ناحية الحضارة المادية .

وكان وجود هذين الجيلَيْن أمراً ضروريًّا ، وذلك أن السلطة العسكرية إذا كانت كافية لإقامة دولةٍ فإنها تَعْجَز وحدَها عن إدامتها وأن ازدهار هـذه الدولة لا يـكون إلّا بتَوَافر بعض عناصر الحضارة ، وأن تماسك هذه الدولة لا يدوم طويلاً إلا ببقاء هذه العناصر .

وهذا هو عَيْنُ ما أصاب إسبانية بعد طرد العرب ، فقد حَلَّ الانحطاطُ فيها محلَّ العظمة ، وقد زاد انحطاطُها سرعةً ما عَطِلَت من قادة عِظام حربيين كالذين ظهروا فى قرن واحد ، وقد أضاعت كلَّ شيء حين خَسِرَت سلطانها الحربيّ وحُرِمَت الحضارةَ معاً .

وكان من سرعة الانحطاط الذى عَقَبَ إجلاء العرب وقتلَهم ما يُمْكننا أن نقول معه إن التاريخ لم يَرْوِ خبر أمة كالإسبان هَبَطَت إلى دَرَكةٍ عميقة فى وقت قصير جدًّا ، فقد توارت العلوم والفنون والزِّراعة ، والصِّناعة ، وكلُّ ما هو ضروريٌّ لعظمة الأمم ، عن بلاد إسبانية على عَجَل ، وقد أُغْلِقَت أبوابُ مصانعها الـكبرى وأُهْمِلَت زراعةُ أَرَاضيها وصارت أريافُها بلاقعَ ، وبما أن المدنَ لا تزدهر بغير صِناعة ولا زِراعة فقد خَلَت المدن الإسبانية من السكان على شكل سريع مخيف ، وأصبح عدد سكان مدريد مئتى ألف بعد أن كان أربعمائة ألف ، وصارت أَشْبِيلِيَّة ، التى كانت تحتوى ١٦٠٠ حِرْفَةٍ كافيةٍ لإعاشة ١٣٠٠٠٠٠ شخص ، لا تشتمل على غير ٣٠٠ حِرْفَة ، وهذا فضلاً عن خُلوِّها من ثلاثة أرباع سكانها كما جاء فى رسالة مجلس الـكورتس إلى الملك فليبَ الرابع ، ولم يبق فى طُلَيْطِلَة سوى ثلاثةَ عشرَ مصنعاً للصوف بعد أن كان فيها خمسون ، وخسرَت طُلَيْطِلَة جميعَ مصانعها الحريرية التى كان يعيش منها أربعون ألفَ شخص ، ووقع مثل هذا فى كلِّ مكان ، ولم تُعَتِّم المدن الـكبيرة ، كقرطبة وشقوبية وبُرْغُش ، أن أصبحت كالصحارَى تقريباً ، وزال ماظلَّ قائماً فيها من المصانع القليلة بعد توارى العرب ، وكان من غياب جميع الصِّناعات فى إسبانية أن اضْطُرَّ القومُ إلى جلب عمالٍ من هولندة عندما أُرِيد إنشاء مصنعٍ للصوف فى شقوبية فى أوائل القرن الثامنَ عشرَ .

ونجَم عن أفول الصِّناعة والزِّراعة فى بلاد إسپانية على هذا الوجه السريع ما يُشاهَد فيها من البؤس العميق ومن وقوعها فى الانحطاط التامِّ فى قليلٍ من السنين .

ومصائبُ كتلك مما يقتل كلَّ نَشاط وحَيَوِيَّة بسرعة ، وإمبراطورية واسعة لا تَغرُب الشمس عن أملاكها كتلك ، كما قيل ، لا بدَّ من أن تَقَع فى دِوْر الهمجية المظلم على عجلٍ ما لم تُنقَذ بسلطان الأجنبىّ ، ولِذَا اضْطُرَّتْ إسپانية ، لتعيش بعد وَهْنٍ ، إلى تسليم زمام سلطتها العليا وشؤونها الإدارية وصناعتها وتجارتها إلى رؤساء من الأجانب كالفرنسيين والطلاينة والألمان ، إلخ .

غير أنه لم ينشأ عن سلطة فليبَ الخامس ، الذى هو حفيدُ لويسَ الرابعَ عشرَ ، والإدارةِ الأجنبية التى أُكرِه هو وخلفاؤه على إدخالها إلى إسپانية سوى حَيَوِيَّةٍ ظاهرة غيرِ حقيقية ، وذلك لتعذر انتشال أمةٍ بعدَ هبوطها .

حقًّا ، ظهر فى إسپانية ملوكٌ نوابغُ كشارل الثالث ، وتمتعت إسپانية برخاء مصنوع ذاتَ زمنٍ وذلك عندما استَحْضَرَت من الخارج فريقاً من العلماء وأرباب الصِّناعات ، ولكن هذا كان على غير جَدْوَى ، فلن يستطيع أحدٌ إحياء الموتى ، وحقًّا أن العرب زالوا ، وقضت محاكم التفتيش على كلٍّ من يزيد ذكاؤه قليلاً على المستوى المتوسط ، فصِرْتَ تَرَى فيها سُكَّاناً ، وعادَتْ لا تحتوى رجالًا .

وأجمع كتابُ العصر الذين زاروا إسپانية على الاعتراف بضَعْف مستوى الإسپان الثقافىِّ ، وكان هذا الضعف عميقاً عامًّا فى أواخر القرن السابعَ عشرَ من الميلاد ، وبَدَت تلك البلادُ التى أضاءت العالم أيام سلطان العرب خاليةً من أية مدرسة لتعليم الفيزياء والرياضيات والطبيعيات ، وصِرْتَ لا ترى فيها كلِّها ، حتى سنة ١٧٧٦ م كيماوياً قادراً على صنع أبسط التراكيب الكيماوية ، ولا شخصاً قادراً على إنشاء مركب أو سفينة شِرَاعِيَّة ، وذلك كما قال الكاتب الإسپانىُّ كَنْپومانِس مُوَكِّداً .

ولا مِراءَ فى نجاح محاكم التفتيش المرهوبة فى أعمالها ، فقد أضحت جميع بلاد إسپانية لا تَعرِف غيرَ كتب العبادة ، ولا تَعرِف عملاً غيرَ الأمور الدينية ، جاهلَةً ما أتاه نيوتن وهارفى وغيرُهما من الاكتشافات العظيمة جهلاً تامًّا .

ولم يسمع أطباء الإسپان شيئاً عن الدورة الدموية إلى ما بعد اكتشافها بقرنٍ ونصفِ قرن ، ويمكن استجلاء مستوى معارفهم بالأمر الغريب القائل إن بعض الناس ، فى سنة ١٧٦٠ م ، اقترحوا ، مع التواضعِ ، إزالةَ الأقذار التى كانت تملأ شوارع مدريد وتفسد هواءها ، وإن رجال الصحة احتجوا على ذلك بشدةٍ

ذاكرين أن آباءهم العقلاء كانوا يعرِفون ما يصنعون ، وأنه يُمكِنُ السكانَ أن يعيشوا مثلَهم بين الأقذار ، وأن رَفْعَها ينطوى على تجربة لا يقدِر أحدٌ على كشف عواقبها .

ولم تستطع أطيبُ الجهود أن تنهض ببلاد إسپانية التَّعِسة ، فاليومَ لا تَجِد فيها زراعةً ولا صناعة[1] واليومَ تستعين بالأجانب فى كلِّ ما يحتاج إلى استعداد يزيد على أدنى مستوى ، واليومَ يُدِيرُ الأجانبُ مصانعَها ، ويَمُدُّون خطوطها الحديدية ، ويُمِدُّونها بمن يسوق قاطراتها وبكلِّ ماله علاقةٌ بالعلوم والصِّناعات .

وبلاد هذه حالُها تُعَدُّ من البلاد التى تَقْدِر على معالجة أمورها أيةُ حكومةٍ قديرةٍ حُرّةٍ أو غيرِ حرة ، وذلك أن الحكم لا يمكن بغير موافقة الجمهور ، وأن الجمهورَ الإسپانىَّ دون حكومته دائماً مهما كانت هذه الحكومةُ قليلةَ الرقىّ ، أجَلْ ، تتَمَتَّع إسپانية بمظاهر الحضارة ، ولكن هذا لا يَعْدو حدَّ المظاهر ، فالجهل عامٌّ فيها كما كان فى القرون الوسطى[2] ، ولو قيِّض لمحاكم التفتيش أن تعود اليوم إلى إسپانية لرأت جميع طبقات الشعب الإسپانىِّ ظهيراً لها ، والحُكْمُ العادل الشديد الذى أصدره المؤرخ الإنكليزىّ الكبير بَكْل منذ بضع سنين على إسپانية يَسْرِى على حاضرها وعلى زمن طويل من مستقبلها لا ريب ، قال بَكْل :

« لا تزال إسپانية نائمةً هادئةً فاقدةً للحسِّ غيرَ شاعرةٍ بكلِّ مايجرى فى بقية العالم ، أى معدودةً غيرَ موجودة ، وإسپانيةُ هنالك ، حيث أقصى نقطة فى القارّة لم تكن ، وهى جامدةٌ ضَخْمَةُ الجِرْم ، ممثِّلةٌ لغير مشاعر القرون الوسطى وأفكارها ، ومما يُحزِن فيها كثيراً اقتناعُها بحالها واعتقادُها أنها أرقى أمم أوربة ، مع أنها أكثرها تأخُّراً ، هى نخورٌ بكلِّ مايجب أن يَحْمَرَّ وجهها منه خجلًا ، نخورٌ بقِدَم

(١) قال مسيو لوقا ملاده فى « مجلة الجمعية الجغرافية المدريدية » سنة ١٨٨٢ م : إنه لا يصلح ٤٥ فى المئة من أراضى إسپانية للفلاحة فى الوقت الحاضر مع أنها كانت غنية جداً فى الزراعة أيام العرب ، ولا تزيد نسبة القسم الخصب على عشرة فى المئة منها . ويعد من أهم العوامل فى هذه الحالة المحزنة إبادة الإسبان لجميع غاباتها تقريباً .
ونحن إذا نظرنا إلى الاحصاءات وحدها رأينا إسپانية تتمتع برخاء كبير منذ بضع سنين ، فقد ارتفعت قيمة صادراتها السنوية ، التى كانت بين سنة ١٨٦٠ م وسنة ١٨٧٠م ٢٣٧ مليون فرنك ، إلى ٥٠٠ مليون فرنك بين سنة ١٨٧٠م وسنة ١٨٨٠ م ، بيد أنه يظهر من التدقيق فى أسباب ارتفاع هذه الأرقام أنه أمر عارض ، وأنه ناشىء ، فى الحقيقة ، عن تخريب حشرات الفيلوكسيرة لما يزيد على ثلث كروم العنب فى فرنسة ، وعن اضطرار تجار فرنسة إلى اشتراء مقدار من الخمر الاسپانية سدا للنقص ، وعن إصدار إسپانية إلى فرنسة ، من سنة ١٨٧٠ م إلى سنة ١٨٨٢ م ، ستة ملايين هيكتوليتر ، بعد أن كانت تصدر إليها ٣٠٠٠٠٠ هيكتوليتر ، أى عشرين مرة زيادة على ماق الماضى ، وعن بلوغ ثمن ما اشترته فرنسة من الخمر الاسپانية فى سنة ١٨٨١ م ٢٦٤ مليون فرنك .

(٢) دل الإحصاء الأخير على أن ثلاثة أرباع سكان إسپانية ، أى اثنى عشر مليون شخص من مجموع أهليها الذى هو ١٦٦٢٠٠٠٠ شخص أميون لا يقرأون ولا يكتبون .

آرائها ، نخورٌ بتدينها ، نخورٌ بقوة إيمانها ، نخورٌ بسرعة تصديقها الطائش الذى لا حدَّ له ، نخورٌ برفضها لإصلاح معتقداتها وعاداتها ، نخورٌ بحقدها على الملحدين ، نخورٌ بيقظتها الدائمة فى إبطال كلِّ مايَعْمَلونه لِيَسْتَقِرّوا بأرضها استقراراً شرعيًّا،ومن مجموع هذه الأمور تتألف تلك الخلاصةُ الكئيبة التى تُسَمَّى إسپانية » .

٢ — وَرَثةُ العرب فى مصرَ والشرق

التركُ هم وَرَثة العرب فى مصرَ وقسمٍ كبير من الشرق كما هو معلوم .

وإذا مانَظَر المرء إلى الترك من الناحية السياسية ، أدركَ أنه كان لهم دَوْرٌ كبيرٌ من العظمة ، فقد ارتعدت فرائص أقوى ملوك أوربة ، زمناً طويلاً ، فَرَقاً من سلاطينهم الذين قاموا مقام القياصرة وأحَلُّوا الهلالَ محلَّ الصليب الإغريقىِّ فوق أياصوفية وبسطوا نفوذَ الإسلام فى الآفاق .

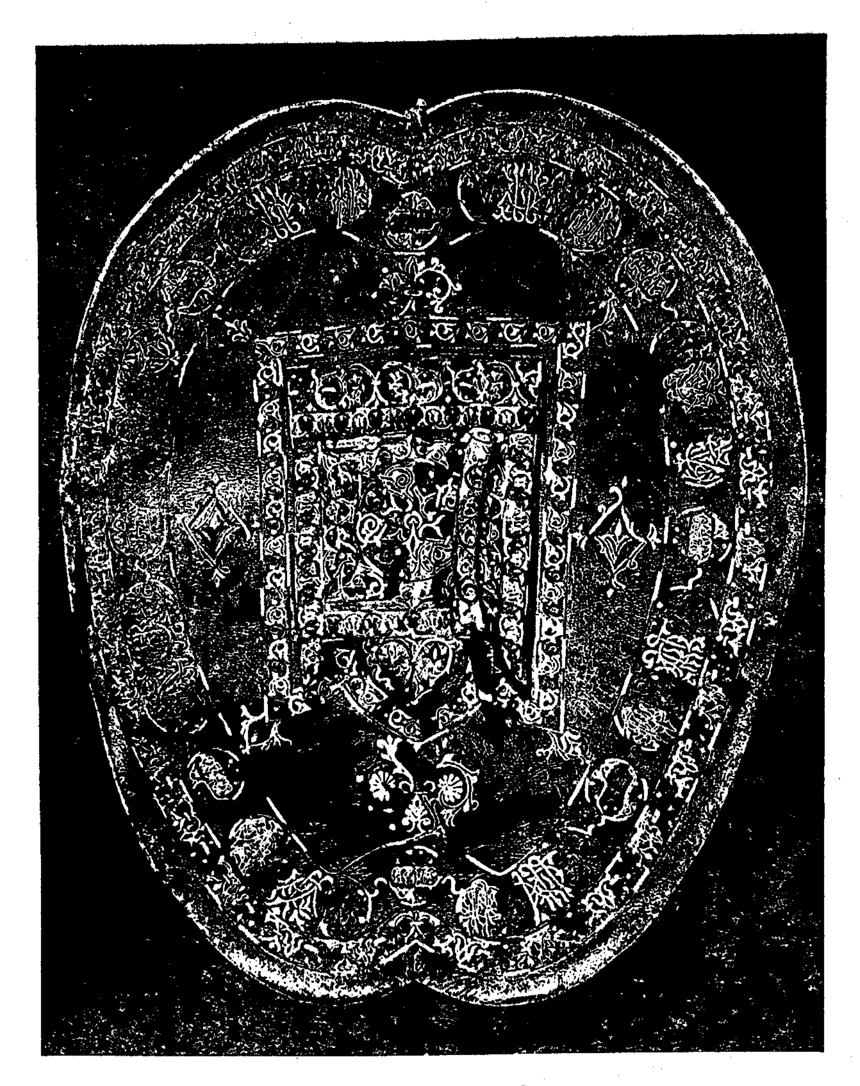
بَيْدَ أن عظمة الترك لم تكن فى غيرالحرب ، فالترك ، وإن استطاعوا أن يؤسسوا دولةً كبيرة، أثبتوا عَجْزهم عن إبداع حضارة فى كلِّ زمنٍ ، وكان أقصى جهودهم أن يستفيدوا مما أصبح تحت أيديهم من علوم العرب وفنونهم وصِناعاتهم وتجارتهم ، ولم يَقْدِر الترك أن يتقدموا خُطوةً واحدة فى هذه المعارف التى ازدهرت أيام سلطان العرب ، والأممُ ، إذْ كانت ترْجِع إلى الوراء ، حَتْماً ، إذا لم تتقدم ، لم تَلْبَثْ ساعةُ انحطاط الترك أن دَقَّت .

وترْجِع نهايةُ تاريخ حضارة العرب فى الشرق إلى اليوم الذى صارت مقادير دولتهم قبضةَ الترك بالقوة ، أجَلْ ، مافَتِئَ العرب يَحْيَوْن فى التاريخ بنفوذهم الدينىّ ، ولكن الشعوب التى خَلَفتهم لم تَسْتطِع أن تُمْسِك مستوى الحضارة الذى بلغوه .

وكان الانحطاط عميقاً فى مصرَ على الخصوص ، وبدأ هذا الانحطاط عندما جَعَلت انتصاراتُ السلطان سليم منها ولايةً من الدولة العثمانية ، فقد أخذت الفنون والعلوم والصِّناعات تنطفىء فيها شيئاً فشيئاً .

وكان يدير مصرَ فى العهد العثمانىِّ وُلاةٌ مُتقلِّبُون غيرُ مُفكِّرين فى غير الاغتناء بسرعة ، ولم تلبث مصر أن وَقَعت فى ضَنْك العيش كبقية الولايات العثمانية التابعة للآستانة ، وزال رَوْنَقها القديم

عنها ، وصارت لا تُقام فيها عِمارةٌ جديدة ، وأضحت مبانيها القديمة مهملةً ولم يَبْقَ منها غيرُ ما سَمَح به الدهر .



٣٥٦ ـ درقة قديمة لأحد ملوك غرناطة (من صورة فوتوغرافية)

ولا أحدَ يَجْهَلُ ما آلت إليه الولايات العثمانية فى الوقت الحاضر ، ومن العبث أن نُفيض فى بيان أمرها ، وإنما نقول ، مُلَخِّصين لِماَ قُدِّرَت به بإنصاف إنها ليست خيراً من أية بلاد عاطلة من الإدارة فطرقها مهملة ، ومناجمها وغاباتها وثروتها الزراعية مُعَطَّلة ، وقَطْعُ السُّبُلِ فيها من الأمور الشاملة لأبواب مدنها الكبيرة كإزميرَ مثلاً ، ولا تخلو بِحارها ، ومنها بحر مرمرة والبسفور ، من القراصنة .

ولا يستنتج القارئ مما تقدم أن أهل تركية أحطُّ من سكان أوربة ، فتركية تشتمل ، بالحقيقة ، على ذلك التضادِّ الغريب الذى أُعْجَبُ من أننى لم أَرَه فى مكان آخر ، أى أنها ذاتُ سكان لهم صفاتٌ من الطِّراز الأول مع أن طبقاتِها القائدةَ أدنى من هؤلاء السكان بمراحل خلافاً لِمَا فى الغرب ، وأن فلاحِى الترك وعمالَهم زُهَّادٌ صابرون على الأعمال أوفياءِ لأُسَرهم ، ذوو نشاط محتملون لجَوْر حكومةٍ فاسدة احتمالاً فلسفيًا ، ويُرَجِّح الجنديُّ التركيُّ الموتَ فى مكانه على الهزيمة ، وهو لا يَقْبض راتباً ، وهو لا يلبس سوى الثياب الرَّثَّة ، ويتألف طعامه من الخبز والماء ، وقد قال لى أحد القادة الحربيين، الذين رَأَوْا جنود الترك عن كَثَب ، إنك لا تجِد فى أوربة جيشاً يستطيع العيش يوماً واحداً فى مثل تلك الأحوال ، وقد يكون التركُ خيرَ جنود أوربة مع أنهم أسوأ الجنود قِيادةً .

وينطبق هذا القولُ على الترك حَصْراً ، لا على جميع سكان الولايات الآسيوية التى يَحْكُم فيها الترك ، وذلك أنه يُرَى ، فى الغالب، فى مدن تلك الولايات ، على الخصوص ، مَزِيجٌ فاسدٌ من مختلف العروق يُعَدُّ حُثَالَةً من جميع الفاتحين الذين جاسُوا خِلالها منذ قرون كثيرة فزاده النظام العثمانيُّ فساداً ، ولا ننكر وجودَ بعض المزايا فى هذا المزيج الفاسد ، ولكن مع القول بانحطاط مستواه الخُلُقِيِّ وشجاعته.

واليومَ ، لا تَرَى فى هذا الشرق الفاسد سوى سلطانٍ أجمع الناسُ على احترامه ، وقد سمعتُ اسمَه يَرِنُّ فى كلِّ مكانٍ يقع بين سواحل مَرَّاكُش وصحراء جزيرة العرب، وبين شواطىء البسفور ورمال أثيوبية ، فى الآستانة تحت قُبَّة أيا صوفية ، وفى القدس على ذُرْوَة التلِّ التى كان قائماً عليها هيكل سليمان ، وتحت قِباب كنيسة القبر المقدس (القيامة) الدُّكْن ، وفى مصر من الأهرام إلى خرائب طيبة ذات مئة الباب ، وفى كلِّ زاويةٍ يأوى إليها السائحُ ، ذلك الاسمَ الذى يَرِنُّ راجياً متوسلاً هالكاً مبعوثاً بلا انقطاع إلى أن يُغْشَى عليه بين جَلَبَةِ سُخْرِيةٍ أو عويل ، ذلك الاسمَ الذى يُنْطَق به بلهجة الوعد أو الوعيد مع إمكان رنينه كالأمل، ذلك الاسمَ الذى يبدو تميمةً قادرة تُغْنى عن الخُطَب الطويلة ويصبح الإنسان بها سيداً فى الشرق ، ذلك الاسمَ الذى يكفى ترديده على وجهٍ ما لتنفرج أَسِرَّة الوجوه ويَسْجُدَ النُّدَماء ولتَفْتَرَّ ثغورُ النساء عن ابتسامات تأخذُ بمجامع القلوب ، ذلك الاسمَ الساحر الذى يَسْهُل أن يُنَال به مالا يَقْدِر أميرُ المؤمنين على مَنْحه والذى استطاع قائدٌ أوربىٌّ أن ينتصر به فى إحدى المعارك عند النطق به منذ وقت قريب ، وأن يصبحَ سيدَ دولة الفراعنة التى تَطَلَّب فتحُها قبل مدةٍ عبقريةَ نابليون الحربية، ذلك الاسمَ اللاهوتىَّ المسيطرَ الذى له من القدرة ماليس لله ولرسوله محمد والذى يُحْتَرَم ويُبَجَّل فى كلِّ ناحيةٍ من تركية ، ذلك هو البخشيش .

ورثة العرب الأخيرون فى مصر : — ليست مصر تابعةً لسلطان الترك فى الوقت الحاضر ، وقد وقعت بين يدى إنـكلترة القوية التجارية ، ويمكن مَن اطَّلعوا على البؤس الشديد الذى شمِل بلادَ الهند منذ سيطرة الإنـكليز عليها أن يُبْصِروا المصيرَ الذى ينتظر مصرَ السيئةَ الحظِّ ، ومما ذكرتُه فى فصلٍ سابق مقدارُ الضَّنْك الذى أصاب فلّاحِي مصرَ منـذ سنين بفعل مضاربين من الأوربيين [١] ، ولـكن هذا الضَّنْك يُعَدُّ أمراً ذهبياً عند مقايسته بما ينتظرهم ، فسَيَرَوْن أنفسَهم محاطين ، كالهنود ، بطرق مُنَظَّمَةٍ مخيفة هادئة ساحقة عاصرة مُمْتَصَّة لا تُبْقى ولا تَذَر .

ويظهر أن مصير المبانى العربية ، القديمةِ التى لا تزال قائمةً فى القاهرة ، سيكون كمصير أمثالها فى بلاد الهند ، أى أن تزول بسرعة ، وأن تَحِلَّ محلّها ثُـكَنٌ للجيش أو مايماثلها ، وهاهى ذى الأعمالُ التى هى من هذا القبيل تسير سيراً يدلُّ على أنها لاتطول فى عهد السادة الجُدُد ، وعلى القارئ أن يطالع مقالات مسيو دُو رُونِه (المرافِق لبعْثَة الآثار فى القاهرة) الممتعةِ ليَطّلِـعَ على أعمال التخريب التى تُقْتَرَف فى الوقت الحاضر اقترافاً لا يُصَدِّقه العقل ، وليَعْلَمَ أن أنفس الآثار التى لا تُقَلَّدُ تُهْدَم بحُجَّة فتح الشوارع وبناء الثُّـكَن [٢] .

---

(١) يصعب بيان ما امتصه رجال المال الأوربيون ، ولا سيما اليهود ، من فلاحى مصر فى بضع سنين ، وإنما نعـلم من الأرقام التى نشرها مسيو فاندنبرغ فى سنة ١٨٧٨ م أن رجال المال أخذوا من مبلغ ال ١٧٥،٠٠٠ و ١،٣٩٧ فرنك، الذى هو مجموع القروض الخمسة ، ٥٢٢ مليون فرنك إكرامية أو عمالة ، إلخ ، وأن نصيب الخزينة المصرية منه لم يكن سوى ٨٧٥ مليون فرنك ، وأن هذه الخزينة دفعت من الفوائد ، منذ زمن طويل ، مايعدل رأس المال .

(٢) تتم عمليات الهدم بلباقة ، ولا يرد اسم سادة مصر الجدد (الانكليز) فى الأوامر التى تصدر بشأنها ، وقد نشرت فى عدد الوقائع المصرية الصادر فى ٢٠ من يناير سنة ١٨٨٣ م ، وذلك إرضاء لهواة الآثار القـديمة فى الظاهر ، لائحة للمحافظة على الآثار التاريخية أو الدينية أو الفنية قائلة « تبقى هذه المبانى بقدر الامكان على الخط الذى هى عليه ولا يسرى عليها حكم الدخول فى حذاء التنظيم إلا عند تجديد بنائها » فتعبير « إلا عند تجديد بنائها » معقد ما كان بعض المبانى يزيد اتساعا على كنيسة نوتردام دوپارى،وما كان من الممكن تفسيرتعبير « الآثارالتاريخية » على حسب الهوى ، فلا يكون لتلك اللائحة نتيجة سوى تعجيل عمليات الهدم .

ومن سوء حظ بناة الشوارع الأوربية والثـكن أن أريدت السرعة فهبت عاصفة سخط على الأمر بهدم خمسة من أنفس مبانى القاهرة الأثرية ، وأن اشتركت الجرائد الانكليزية نفسها فى الاحتجاج مع رجال الفن فوقف .

ولم يتم وقفه إلا بصعوبة ، كما يظهر من قول ناظر الأشغال العامة على باشا مبارك للجنة المحافظة على الآثار : « هل نحتاج الى ذلك العدد الـكبير من الآثار ؟ ألا يغنى النموذج الواحد عن بقيّتها ؟ » ،هذا القول بديع حقاً ، فهو يؤدى الى الاكتفاء بواحدة من الصور التى رسمها رفائيل أو روبنس واستخدام بقيتها فى حزم السلع وصرها ، ومما تمخضت عنه فصاحة ذلك الناظر البارع قوله لتلك اللجنة بشأن باب زويلة الذى كان يقتل المجرمون أمامه : « لانريد مثل هذه الذكريات هنالك ، فلنهدمه كما هدم الفرنسيون حصن الباستيل ! » .

==

٣ — وَرَثَة العرب فى الهند

المغولُ هم وَرَثة العرب الأُوَلُ فى الهند ، والمغولُ قد وَرِثوا من حضارة العرب ، وهم ، وإن لم يَقْدِروا على إنماء هذه الحضارة ، استطاعوا أن ينتفعوا بها على الأقلّ ، فتَمَتَّعَت بلادُ الهند الواسعة فى أيامهم بالرَّخاء والغِنَى .

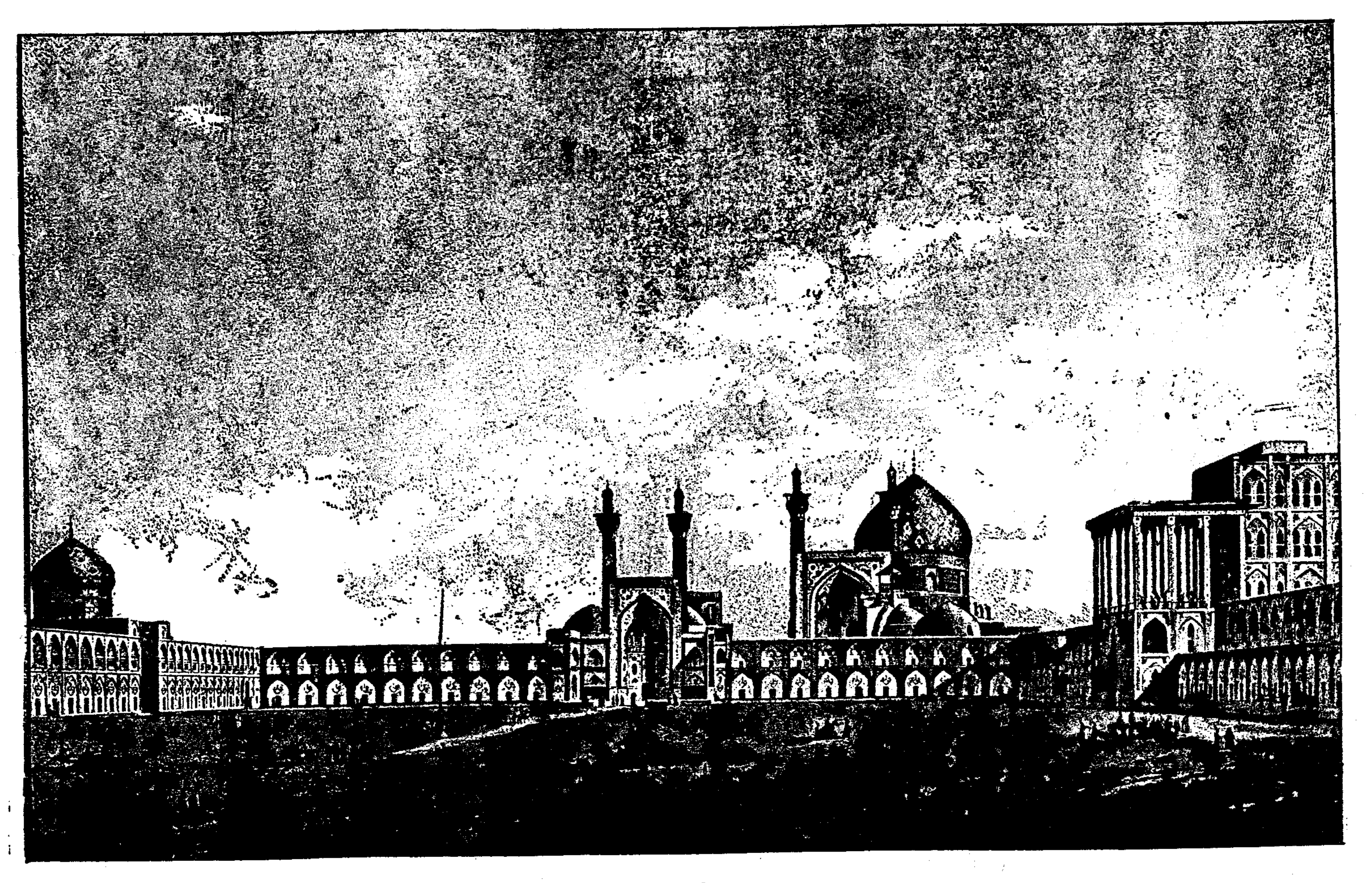
والإنكليزُ هم وَرَثَة المغول فى الهند ، والإنكليزُ قد مَدَّنوها ، أى أنشأوا فيها الطُرُق والخطوط الحديدية التى يَسْهُل عليهم أن يستغلوها بها ، ولكنه نَجَمَ عن هذه الحضارة الجديدة أن غَرِقَت بلاد الهند فى بحر من البُؤْس لم تَرَ بُقْعَةٌ من بِقَاع الدنيا مثلَه .


٣٥٧ — مدق باب كتدرائية طركونة
(طراز إسبانى عربى)

والإنكليزُ عَمَلِيُّون على خلاف الإسبان الذين طَرَدُوا العرب ، فهم بدلاً من أن يُفَكِّروا فى إجلاء الهنود رَأَوْا من الحِكْمَة أن يستغلوهم بانتظام ، ونحن ، إذا ما نظرنا إلى الأمر من الناحية التجارية فرأينا بضعةَ آلاف من التجار يسوقون مئاتِ الملايين من البشر إلى العمل فى سبيلهم بأساليبَ أشدَّ من الاسترقاق ألفَ مرةٍ ، لم يَسَعْنا إلّا الإعجابُ بهم ، ويكون حكمنا غيرَ ذلك إذا ما بحثنا فى الأمر من الناحية الإنسانية .

نشأ عن طريقة الإنكليز الاستعمارية الدقيقةِ اغتناءُ الجُزُر البريطانية اغتناءً لا حَدَّ له وفَقْرُ أولئك الهنود المُسَخَّرين المساكين فقراً مطلقاً تقريباً ، فقال مسيو غرانْديدْيه ، مُبَيِّناً نظامَ نَزْع الملكية لعدم دفع الضرائب النافع ، وذلك بعد أن ذكر أن طبقة الفلاحين التى كانت فى عهد الملوك المحليين تؤدى سدس المحاصيل الزراعية ضرائبَ صارت تؤدى نصفها فى عهد الإنكليز : « إن هذا النظام أنزل طبقةَ الزرّاع إلى الدَّرْك الأسفل من الانحطاط » .

= فعلى هواة الفن الذين يرغبون أن يشاهدوا فى القاهرة كنوز فن العمارة ، التى هى وليدة حضارة العرب فى ألف سنة ، أن يسرعوا ، فقد لا يمضى زمن قصير حتى تكون قد زالت وأحل التجار (الذين يحتقرونها لعدم فائدتها ولأنها من صنع أمة أخرى ولرغبتهم فى إمتاع المصريين بنعم الحضارة) محلها ثكنا جميلة ، وكنائس بروتستانية طريفة ، ومخازن لبيع الكتاب المقدس والمسكرات كثيرة ، وبيوتاً لجموع القساوسة والمبشرين متنوعة .



٣٥٨ ـ الميدان الملكى فى أصبهان (من تصوير كوست)

وحديثاً دَرَس أحدُ كتاب الإنكليز ، مستر هِنْدَمان ، حالةَ الهند فى العهد الإنكليزىِّ فأثبت أن إنكلترة تُغْرِق الهنود بالضرائب فلا يبقى لهم غيرُ الموت جوعاً ، وأنها تُخَرِّب جميع مصانعهم لكى تتمكن السلع الإنكليزية من إيجاد أسواق لها عندهم ، ثم قال : « إننا نسير إلى مصيبةٍ لا مثيل لها فى تاريخ العالم » .

وقد يكون التشاؤم لُحْمَةَ هذه النُّبُوءة ، ولكن صدقها يظهر عندما نعلم أن فى ولاية مدراس وحدَها ستةَ عشرَ مليونَ فقيرٍ كما جاء فى الإحصاءات الرسمية ، وأن السكان البائسين مُكَلَّفُون فى كلِّ سنة بإنفاق أربعمائة مليون على الجيش وخمسين مليونًا على الإدارة فضلاً عن إرسال ما تَعْدِل قيمته خمسمائة مليون إلى انكلترة[1] .

٤ — شأن الأوربيين فى الشرق ـ سبب إخفاقهم

دَرَسْنا ما كان للشرق من التأثير فى الغرب بواسطة العرب ، ولا يخلو من فائدةٍ أن ندرس الآن تأثير الأوربيين الحاضرَ فى الشرقيين :

دَلَّت المشاهدة على أن هذا التأثيرَ صِفْرٌ فى كلِّ وقت وكنا نرغب عن هذا الموضوع لو لم نَرَ من المفيد أن نبحث فى أسباب رفض الشرقيين لحضارة الغرب ومعتقداته رفضاً مستمرًّا مع اعتناقهم ما أتاهم به العرب بسهولة .

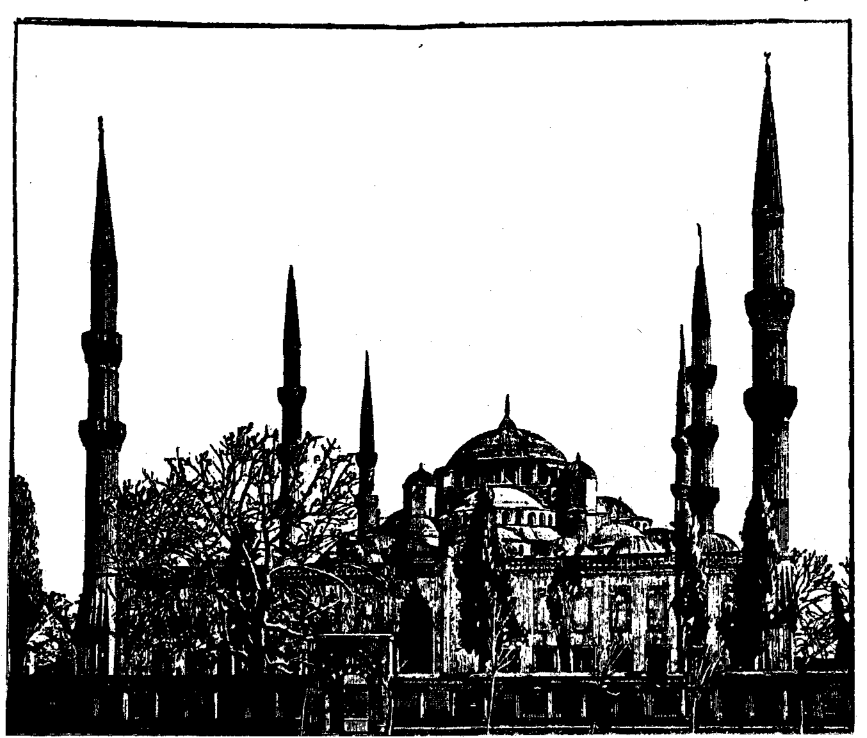
(١) قدر المبلغ الذى قبضته إنكلترة من الهند منذ عشرين سنة بعشرة مليارات ، وذلك عدا النقد الذى ينفق لتموين الفاتحين الذين يأخذ كل واحد منهم فى المستعمرة راتب وزير أو أمير ، وقد حددت مدة إقامة الموظف الانكليزى فى الهند بخمس سنين على العموم ، لعدها كافية لإثرائه ، ويمكن اجتلاء حال الهند من عبارة الكاتب الانكليزى مستر هندمان الآتية : « إن من الأمور المخيفة ، حقاً ، أن تكره الولايات الشمالية الغربية الهندية على إصدار حبوبها مع موت ٣٠٠،٠٠٠ من أبنائها جوعاً فى بضعة أشهر » ، ثم ذكر هذا المؤلف الانكليزى أنه مات ، فى سنة ١٨٧٧ م ، فى مقاطعة مدراس وحدها ٩٣٥،٠٠٠ نفس كما جاء فى التقارير الرسمية ، ولم يحدث غير مايزيد هذه الحالة سوءاً لما ينجم عن ضرورة دفع الضرائب الثقيلة من إضعاف خصب الأرضين الزراعية بسرعة .

ولا ريب فى صحة الاحصاءات التى نشرها مستر هندمان فى مجلة القرن التاسع عشر تحت عنوان « إفلاس الهند » ، والمسوغ الوحيد الذى قيل عن الجزية السنوية التى تدفعها الهند إلى إنكلترة ، ومقدارها خمسمئة مليون ، هو قول مجلة الأسبوعين : « إنها ثمن تمتع الهند بحكومة منظمة محبة للسلام » ، ويرى الهندوس ، حتما ، شيئاً من المبالغة فى وصف حكومة الهند بمحبتها للسلام مع موت هندوس يزيد عددهم كثيراً على عدد الذين يقتلون فى أشد الحروب سفكاً للدماء ، وذلك بفعل الجوع فى كل سنة .

ومن الأسباب العامة فى عَجْز الأوربيين عن حمل الأمم الأجنبية على انتحال حضارتهم هو أن الحضارة الأوربية وليدةُ تطور دام زمناً طويلاً ، وأننا لم نَصِلْ إلى درجتها الحاضرة إلا بعد أن قطعنا كثيراً من المراحل الضرورية بالتدريج ، فالرغبةُ فى إكراه أمة على قطع هذه المراحل فجأةً هى من الأوهام كالرغبة فى جعل الطفل كهلًا قبل أن يصبح فتًى .

وهذا السببُ وحدَه لا يُفَسِّر لنا ، مع ذلك ، قلةَ تأثير حضارتنا فى الشرقيين ما وُجِد بين عناصر حضارتنا ما هو بسيطٌ سهلُ الملاءمة لاحتياجاتهم وما رفضوه أيضاً ، ولذا فإن لعدم نجاحنا أسباباً أخرى .

ومن هذه الأسباب نذكر أن زيادة التعقيد فى عناصر حضارتنا أسفرت عن كثرة احتياجاتنا المصنوعة ، وأن هذه الاحتياجات المصنوعة المهيمنة أوجبت اضطراباً شديداً فى حياة الأوربىّ الحديث لحملته على العمل المُضْنى فى سبيل قضائها ، فكان مانرى من كُرْه الشرقيين لهذا الاضطراب والعمل المُضْنى وقد عَطِلوا من احتياجاتنا .



٣٥٩ ــ الوجهة الرئيسية لجامع السلطان أحمد بالآستانة (من صورة فوتوغرافية)

حقًّا أن احتياجاتِ الشرقيين من عرب وصينيين وهندوس وغيرهم ضعيفةٌ إلى الغاية ، فالعربىُّ

يكتفى فى لباسه بقطعة من المنسوجات وفى طعامه بالماء وقليل من التمر ، والهندوسىُّ أو الصينىُّ يكتفى فى طعامه بحُفْنَة من الارزِّ وقليل من الشاى ، ولا تجد فيه كبيرَ احتياج فى أمر المأوى ، وقد نشأ عن زهد الصينىِّ وفُقْدان احتياجاته ونشاطه أن تقهقر أمامه العامل الذى يزعم أنه من شعبٍ أرقى من شعبه فاضْطُرَّتْ أمريكة وأسترالية إلى منعه من دخول بلادهما فى الوقت الحاضر .

وإذا أضيف إلى ما بين الشرقيين والأوربيين من ذلك الاختلاف اختلافُهما فى الشعور والتفكير بَدَت الهُوَّة العميقة بينهما ، ولا يحْسُدُنا الشرقيون على حضارتنا ، وأقلُّهم حسداً لنا مَنْ يَزُورُ منهم بلادنا ويَحْمل هؤلاء عند رجوعهم إلى بلادهم أسوأَ الآراء فينا ، معتقدين أن دخول حضارتنا بلادَهم ينطوى على أعظم البلايا والفجائع ، ويستدلُّ المثقفون منهم على هذا بما صارت إليه بلاد الهند ، وذلك مع الإجماع على أن الشرقيين أسعدُ حالًا من الأوربيين وأعظمُ شرفاً وأمتنُ أخلاقاً ما ظَـلّوا غير متصلين بهم .

ولـكنْ إذا كان التباين الواضح بين حياة الشرقيين والأوربيين وأفـكارِهم ومشاعرهم كافياً لإيضاح عدم اكتراث أمم الشرق لنِعَم حضارتنا فإنه لا يكفى لإيضاح رفضهم لنا وازدرائهم البيِّن لنظامِنا ومعتقداتنا وأخلاقنا .

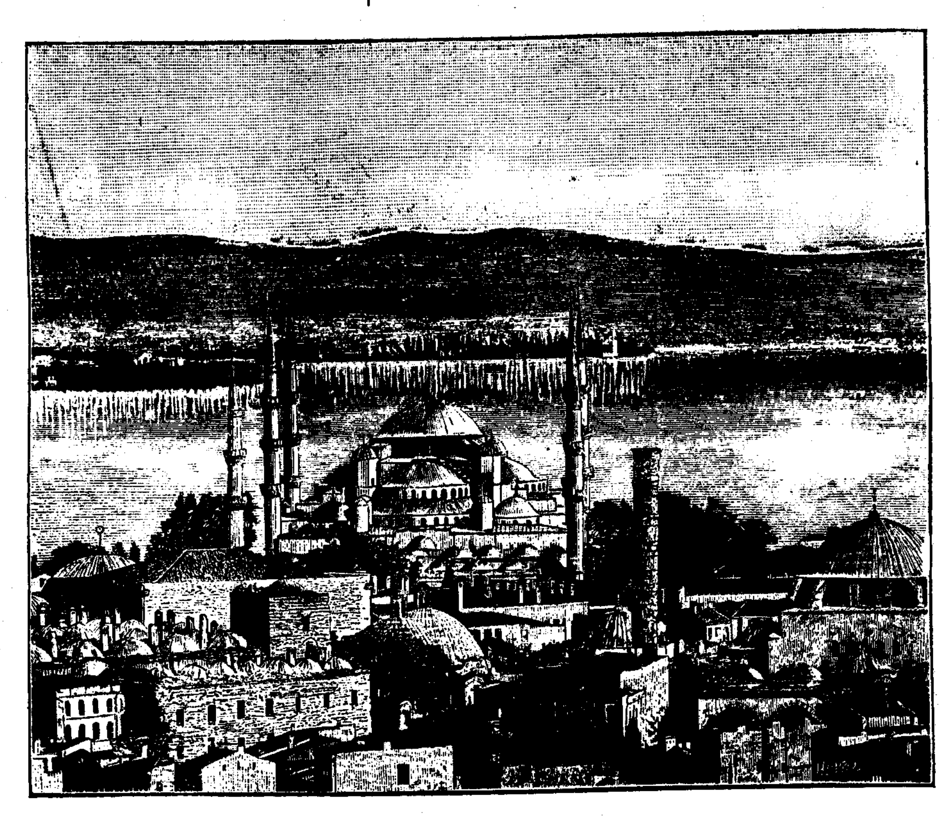
ومن العبث أن نَـكْتُم سبب تلك المشاعر ، فهى ناشئة عن مَـكْر الأمم المتمدنة وظلمها الأممَ الأخرى التى هى غيرُ متمدنة أو التى نَعُدُّها ضعيفة الحضارة .

وسياسة الأوربيين القائلةُ إنه لا يجوز أن يَمْشِيَ على الأرض فريقٌ من الهَمَج تؤدى إلى إبادة الأمم غير المتمدنة أى المتوحشة بسرعة ، فيطارِدُ الأوربيون سكانَ أمريـكة الأصليين كما يطارد الصَّيَّادون الأرانب ، ويزول أصحاب الجلود الُحمر من أمريكة لسلب أَرَضِي الصيد منهم وحصرهم فى مناطقَ جديبةٍ لا يخرجون منها بفعل الجوع إلا ليُجَدَّلوا كما يُجَدَّل البطُّ ، ويُبَادُ هَمَج أُقيانوسية ، ولم يَبْقَ من أهل تسمانية الأصليين أحد[1] .

---

(١) أحيـل القارئ على الحوادث التى ذكرتها فى كتابى الأخير : « الانسان والمجتمعات » (الصفحة ٩١ من المجلد الثانى) ليتبين سياسة البيض فى إفريقية وأقيانوسية ، وإنمـا أورد هنا الأسلوب الدقيق الذى يسير عليه ربابنة السفن الانكليزية لجمع ما يحتاجون إليـه من العمال فى جزر الملايو ، وهو أنهم يجتذبون بحيل ، ولا سيما بمظاهر ودية ، أناساً كثيرين من أهل هذه الجزر ويضربون رقابهم ويأخذون ، لزمن معين ، من رؤساء القبائل المعادية عدداً من العمال فى مقابل كل رأس من أولئك ، ولن كانوا لا يعيدون إلى هؤلاء العمال حريتهم أبداً خلافاً للعهود ، فأعمال مثل هذه هى التى جعلت العـالم الطبيعى كاترفاج يصل فى كتابه عن الجنس البشرى إلى قوله : إنه لا يجوز للعرق الأبيض الأوربى أن =

ولم تكن سياسة الأوربيين نحو الأمم الشرقية المتمدنة ، كالصينيين والهنود مثلًا ، أحسن كثيراً من سياستهم نحو أولئك الهمج ، وإذا أغضينا عن محاربتنا لهم بما ليس فيه ذَرَّةٌ ، من الإنصاف نرى



٣٧٠ ــ جامع السلطان أحمد بالآستانة من ناحية البسفور (من صورة فوتوغرافية)

أن سلوكنا اليوميَّ تجاههم يكفى لجعلهم شديدى العداوة لنا ، وكلٌّ من يُوغِل فى الشرق يَعلَم أن أحقر الأوربيين يعتقد أن كلَّ شىء مباحٌ له فى الشرق[1] ، وإذا لم يُسْتَغَلَّ الشرقىُّ رأساً ، كما يُسْتَغَلُّ فى

= يلوم أكثر الشعوب توحشاً من ناحية احترام حياة الانسان ، فليرجم العرق الأبيض قليلا إلى تاريخه الخاص ، وليتذكر بعض الحروب والوقائع التى كتبها بحروف من دم ، وليتذكر على الخصوص ، ماذا صنع مع أخواته المتأخرات وماذا أسفرت عنه خطواته حول العالم من الإقفار ، وليتذكر جرائم القتل التى اقترفها بدم بارد لاعباً لاهياً فى الغالب ، وليتذكر اصطياده للانسان بانتظام كما يصطاد الوحوش الضارية ، وليتذكر استئصاله أمماً ليفسح فى المجال للمستعمرين الأوربيين ، وليعترف أن احترام حياة الإنسان إذا كان سنة مقدسة عامة فإنه لم يرو أن شعباً انتهك حرمتها بفظاعة مثله » .

(١) أدعو من يريد أن يطلع على رأى الفريق المثقف من الشرقيين فى الأوربيين إلى قراءة المقالة الممتازة التى نشرها فى المجلة العلمية سنة ١٨٧٨ م مسيو مازانا مايدا المفوض اليابانى العام لدى المعرض الباريسى الكبير الأخير ، فمع ما حاول به ذلك المفوض من كتمان رأيه بسبب منصبه الرسمى وجنسية تلك المجلة نراه قد أوضح العمل المخرب الذى يقترفه الانكليز نحو الصينيين بقصد ابتزاز أموالهم ، ثم ذكر « أن الأجانب فى مدن اليابان وأريافها لا يحترمون من يجاورهم ولا يبالون بارتكاب أى إتلاف فيما يملكه سواهم . . . غير مكترثين للقوانين ولا للطبائع » .

الهند بما يُثقَل به كاهلُه من الضرائب التى تنزع آخرَ كِسْرَةِ خبزٍ منه فإنه يُسْتَغَلُّ بالحيل التجارية التى تَنِمُّ بوقاحةٍ دالة على ضَعْفِ الطِّلاء لدى رجالنا المتمدنين ، ويَفْقِد الأوربىُّ فى الشرق كلَّ صفاته ويهبط أخلاقاً إلى ماهو أدنى من مستوى الشعوب التى يستغلها ، ولو حوكم التجار الأوربيون من أجْل صلاتهم التجارية بالشرق على حسب قوانين بلادهم ماتَفَلَّت إلّا أقلُّهم من أكثر العقوبات شَيْناً .

إذَنْ ، لا يخلو من سببٍ مايَحْمِله الشرقيون من الرأى السّيئ فى شرفنا وأخلاقنا ، وستكون قصة علاقات أوربة المتمدنة بالصين فى القرنِ التاسعَ عشرَ من الميلاد من أسوأ صفحات تاريخ حضارتنا ، وقد يُدْعَى حَفَدَتُنا ، ذات يوم ، إلى التكفير عنها بثمنٍ غال ، وكيف يُفَكِّر فى المستقبل فى أمر حرب الأفيون الدامية التى أكْرَه الإنكليزُ فيها بلادَ الصين ، وذلك بقوة المدافع ، على إدخال هذا السُّمِّ القاتل الذى أرادت حكومتها تحريمَه لِماَ رَاعَها من أخطاره ، حَقّاً إن فائدة إنكلترة من تجارة الأفيون مئةٌ وخمسون مليوناً فى كلِّ سنة ، ولكن عدد الوَفَيات السنوية فى بلاد الصين بفِعْل استعمال الأفيون ستُّمئة ألفِ نفس كما جاء فى إحصاءات الدكتور كرِيْستِلِيب المعتدلة على الخصوص ، وهنا نسأل : أليس من الحقِّ أن يُعلِّم الصينيون أبناءهم وصفَ الغربيين بالبرابرة بعد الذى رَأَوْا من حرب الأفيون الطاحنة وما أسفرت عنه هذه الحرب من إباحة تجارته كُرْهاً ؟ لا يكون جوابَ الصينيين ، كما روى ذلك الدكتور ، وذلك عندما يحاول مبشرو الإنكليز تنصيرَهم ، إلّا قولُهم : « ماذا ؟ تَسُمُّوننا للقضاء علينا ثم تأتون لتعليمنا الفضيلة ! » ، وليس الصينىّ على حقّ فى تفكيره ذلك لا ريب ، فهو لا يُدْرِك أن الإنكليزيَّ يَحُوز ، بالوِرَاثة ، حِكَماً أخلاقية شديدة خاصة لابُدَّ له من اتباعها ، وذلك بأن يُنفِق على المُبَشِّرين ليُعِدُّوا الآسيويَّ للحياة الأبدية التى يسوقه إليها بسرعةٍ ذلك الأفيونُ الذى يبيعونه منه !

واستوقفت بَغْضَاء الشرقيين للأوربيين نظرَ جميع السياح المتصفين بشىء من الملاحظة ، وأذكر منهم السياسىَّ المتاز والوزير المفوَّض السابق ، مسيو دورُوشِيشُوَار ، الذى قال فى كتابٍ نَشَره حديثاً : « إن أولَ مايراه الغريب حينما تَطَأُ قدماه بلادَ الهند هو كُرْه الهنديِّ لسادته » ، إلى أن قال فى مَعْرِض كلامه عن الصين : « إن أُجَرَاء البِيضِ شديدو الحياء من أبناء وطنهم لاضطرارهم إلى الاتصال بالبِيض » .

وإن للشرقيين فى سلوكنا مايُسَوِّغ مقتَهم لنا أشدَّ المقت بما فيه الـكفاية ، وإننى أضع نفسى فى مكانهم وأنظر إلى الأمور من وِجْهَة نظرهم وأضيف إلى ذلك ، غيرَ مُتَرَدِّدٍ ، قولى إننا لو بَدَوْنا عُنوان الفضائل لهم لـكان من مصالحهم أن يرْفِضونا وأن يحيطوا بلادَهم بأسوار كالتى أُحيطت بها مملـكةُ ابن السماء ، فما يصنعون بحضارةٍ غيرِ ملائمة لأفـكارهم ومشاعرهم واحتياجاتهم جديرةٍ لذلك، بأن يرْفِضوها ؟ ومافائدتهم من ترك نُظُمهم الموروثة وحياتِهم السعيدة القليلة الاحتياجات وانتحالهم لحياتنا المُحمَّة ولمنازعاتنا التى لايُشْفَى لها غليلٌ ، ولنظام طبقاتنا الاجتماعية المتفاوتة ولعيشنا الـكَرِيه فى المصانع ولـكلِّ ماتتطلبه الحضارات الزاهية من مختلف الاحتياجات ؟

وَعَنَّ لليابانِ، أىْ لهذه الدولةِ الشرقية ، أن تعتنق حضارتَنا كما قيل ، وأتيح لى أن أذكر ماأسفرت عنه هذه التجربة من الارتباك فى بلاد اليابان التى كانت سعيدةً ، والتى كانت « حالُ الواحد من سكانها تُعَدُّ أفضلَ مئةَ مرةٍ من حال العـامل المُعْوِز اللاهث التَّعِب الذى يَـكْسِب عيشَه بعناء فى المصانع » ، كما قال أحد الأوربيين الذين عُهد إليهم فى إدخال الحضارة المصنوعة إليها .

ولم ينشأ عن افتتاح العرب للشرق مثلُ هذه الشرور ، فقد كانت الأمم التى قهروها شرقيةً مثلَهم، وكانت مشاعرها واحتياجاتها وطُرُق معايشها مماثلةً لِمَا كان عندهم، ولم ينشأ عن استيلاء العرب أو المغول أو الترك على الهند وفارسَ ومصرَ العليا من التغييرات الأساسية كما ينشأ عن انتحال أهل هذه البلدان للحضارة الحديثـة ، ولا بُدَّ من أن تنـال يد التبديل التامِّ حياةَ هـذه الأمم الشرقية عند اتصالها بالأوربيين، ولـكن عَجْز الأمم الشرقية عن منافسة الأوربيين يؤدى حتماً إلى مثل ماصار إليه الهندوس من البؤس الأسود والثَّوْرات الشديدة التى يُوَلِّدها اليأس .

تَبَيَّن مما تقدم ، وذلك بدرجة الـكفاية ، تأثيرُ الغرب المخَرِّبُ فى الشرق فى الوقت الحاضر ، ولا يوجد مايُسَوِّغ به الأوربيون شرَهم وطمعَهم سوى المبدأ الذى لم يعْرِف التاريخ غيره ، وهو حقُّ الأقوى ، والإيمانُ بهذا الحقِّ المهيمن وحدَه هو الذى لا يزال قائماً من بين عقائد الأجيال المُسِنَّة ، ولدى الشعوب الحديثة مايَشْغَلها من الهموم الخَطِرة عن التفـكير فى تمدين الأمم الأخرى ما اضْطُرَّت إلى النظر فى أمور عيشها قبل كلِّ شىء ، ولن يكون للأمم من الحقوق فى التنازع الحاضر الذى يزيد

كلّ يوم إلا بنسبة ما عندها من المقاتلين والمدافع ، واليومَ لا أملَ لأحدٍ فى المحافظة على غير ما يَقْدِر على الدفاع عنه ، فإما غالبٌ ، وإما مغلوبٌ ، وإما صَيَّادٌ ، وإما قنيصةٌ ، وهذه هى سُنَّةُ الأزمنة الحديثة ، ولا قيمةَ لكلمة العدل والإنصاف فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، ولا مُؤَيِّدَ لها ، وهى من الألفاظ المبهمة المشابهة لاحتجاجاتنا المبتذلة التى يستعملها العالم بأسره فتنتهى بها رسائلنا من غير أن تخدع إنساناً .

واليوم يُحَدِّثُنا الشعراء عن العصر الذهبىِّ الذى يسود الناسَ فيه إخاء عامّ ، وإننى أشكُّ فى وجود مثل هذا العصر فى أىِّ زمنٍ كان ، وهو إنْ وُجِدَ تلاشى إلى الأبد ، ولم يَرِنَّ قولُ برِينُّوس « ويلٌ للمغلوب ! » ، حينما هَدَّد رومة بخرابها ، أكثرَ مما فى الساعة الحاضرة ، فالإنسانُ قد دخل دوراً من الحديد والنار لا بُدَّ من هلاك كل ضعيف فيه .

....

الفصل الثانى

أسباب عظمة العرب وانحطاطهم
حال الإسلام الحاضرة

---

١ — أسباب عظمة العرب

نختمُ تاريخ حضارة العرب بتلخيصنا أسبابَ عظمتهم وانحطاطهم فى نظرة شاملة ، فنقول :

إن الزمن الذى ظهر فيه العرب من العوامل التمهيدية فى قوتهم ، وإن لعامل الزمن التمهيدىِّ أهميةً كبيرة فى حياة الأفراد والأمم ، وإن هناك صفاتٍ لا تبْرُز إلا فى وقتٍ معين ، فلو ظهر نابليونُ فى زمن لويسَ الرابعَ عشر ما استطاع أن يصير سيد أوربة ، ولو ظهر محمدٌ أيام سلطان الرومان ما قَدَرَ العرب على الخروج من جزيرتهم لا رَيْب ، ولظلَّ التاريخ جاهلا لهم .

وُلِدَ محمد فى أحسن الأوقات ، وقد رأينا أن العالَم المُسِنَّ كان متصدعاً فيه من كلِّ جانب ، ولم يَتَوَجَّب على أتباع محمد إلا أن يَهُزُّوه ليتساقط .

بَيْدَ أن القضاء على دولةٍ لا يكفى لإقامة حضارة ، ويدلُّ عجزالبرابرة الذين وَرِثوا حضارة الرومان فى الغرب ، كما ورثها العرب فى الشرق، على مافى إقامة الحضارات من المصاعب، وإذا كان ذلك العاملُ التمهيدىُّ مساعداً على إنشاء دولة جديدة وحضارةٍ جديدة فلابُدَّ من عواملَ أساسيةٍ أخرى لإقامتهما مما نُعَيِّنُه الآن .

وتأثيرُ العرق من أهمِّ تلك العوامل التى نذكرها :

رأينا أن من أهمِّ خصائص العرق أن يتَّصِف أفرادُه ، على الخصوص، بمشاعرَ وقابلياتٍ متماثلة وأن يُوَجِّهوا جهودهم نحو غَرَض واحد، وهذه المشاعرُ المتماثلة التى تكوَّنت بتعاقب الوراثة، أى التى تتألف الأخلاق القومية من مجموعها ، هى تُرَاث ماضٍ ساعد أجدادُنا على تكوينه فنساعد على تكوينه أيضاً من أجْلِ ذُرِّيَّاتِنا ، وهذه المشاعرُ ، وإن كانت تختلف بين شعبٍ وشعب لا تختلف إلا قليلاً فى الشعب الواحد .



٣٦١ ـ بائع خبز جائل فى القدس (من صورة فوتوغرافية)

ولا ريب فى وجود أثر لكلّ جيلٍ فيما هو أساسىّ من الأخلاق القومية ، ولكن هذا الأثر ضعيفٌ ، ولا بدَّ من مرور عِدّة قرونٍ حتى يبدو الطورُ الناشئ عن الآثار الموروثة المتراكمة بالتدريج واضحاً ، وعلى ماتؤدى إليه التربية والبيئة والأحوال من التطور السريع لا يكون هذا التطور إلا موقتاً .

والواقعُ أن صِفاتِ العرق الخُلُقية والعقلية ثابتةٌ ثباتَ صفات الأنواع الجثمانية ، واليومَ نعلم أن هذه الصفاتِ تتحول مع الزمن أيضاً ، وإن عدَّها علماء التاريخ الطبيعىّ سابقاً لا تتبدل مطلقاً .

وقد حاولتُ أن أثبت فى كتابٍ آخر أن الأخلاق التى تتألف من تجمّع المشاعر اللاشعورىّ ، لا الذكاء ، هى التى تُسيِّرنا ، ولِذَا يجب على من يرْغب فى الوقوف على شأن الأفراد والأقوام فى التاريخ أن يبدأ بالبحث فى أخلاقهم ، وقولُ يوليوس قيصر فى أجدادنا : « إنهم مُحِبُّون للثَّوْرات مُوقِدون للحروب بلا سبب غيرُ صُبْرٍ على نوائب الدهر » مما يساعد على تفسير حوادث ماضينا .

ومن السهل أن نستعين بحوادث التاريخ فنُثْبِتَ أن نتائج الأخلاق تختلف باختلاف الأحوال ، وأن المزايا والنقائص التى كانت سبباً فى عظمة أمةٍ فى زمن معين قد تكون سببَ انحطاطها فى زمن آخر ، كما هو أمر العرب ، ويدلُّ إنعام النظر على صدور مختلف النتائج عن عللٍ واحدة ، ومن ذلك أنه يَظْهَرُ ، أولَ وَهْلَةٍ ، وجودُ هُوَّةٍ اجتماعية بين الإغريقىّ فى عصر پركليس وبينه فى العصر البزنطىّ مع أن الأحوال ، لا الجوهرَ الخُلُقِىَّ ، هى التى تغيرت فى هذين العصرين ، أى أن رِقّة الإغريقىّ ودِقّته الفلسفية وجمالَ لغته انقلبت إلى خداعٍ وبحثٍ كلامىٍ وثرثرةٍ بزنطية بفعل البيئة وبتبدل الزمن ، وقد

يخيَّل إلى الناظر أن رجال محاكم التفتيش فى القرون الوسطى يختلفون بإيمانهم المُتّقِد ومحافظتهم الغريزية الشديدة عن اليعاقبة المعاصرين المتصفين بالزندقة المتطرفة والغرائز الثورية ، مع أن قليلَ تأمل يدلُّ على أن هذين الفريقين متشابهان ، وأن أسماء المعتقدات وحدَها هى التى تَغيَّرَت .

وينضمُّ إلى عناصر الخُلق القومىِّ الأساسية الثابتة ثَبَاتَ الفِقَر فى ذوات الفِقرات عناصرُ ثانويةٌ تختلف كاختلاف الطول وشكل الجسم واللون فى ذوات الفِقرات أيضاً ، وهذه العناصر الثانوية هى مايَصِحُّ أن يقال معها إن الأذواق والأفكار تتغير بتغير الأزمان ، ولكن تغيراتٍ كهذه لاتؤثِّر فى عناصر الخلق الجوهرية ، ويُمكِن تشبيه هذه العناصر الجوهرية بالصخرة التى تلتطم عليها الأمواج من غير أن تزحزحها ، ويُمكِن تشبيه تلك التغيرات بما تَضَعُه الأمواج من الرمل والصَّدَف والنبات على هذه الصخرة لتعود فتأخذَه منها بسرعة .

ومما تَقَدَّم يَعلَم القارئ أن البحثَ التاريخىَّ يجب أن يستند إلى دراسة عناصر الخُلق القومىِّ الأساسية ليُفرِّق بين الأمم ، وقد وصفنا ، بما فيه الكفاية ، عناصرَ الخُلق العربىِّ ، ولا فائدة من الرجوع إليها مرةً أخرى ، ونحن إذا تركنا جانباً ماقلناه عن ذكاء العرب وحماستهم واستعدادهم الفنىِّ والأدبىِّ وما إلى ذلك من الصفات التى لولا وجودُها فيهم ما استطاعوا أن يَصِلوا إلى درجة الحضارة ، فإننا نَذْكُر صفاتِهم الحربيةَ المتأصلة التى يمكن اتخاذُها مثالاً بارزاً على قولنا إنه ينشأ عن القابلياتِ الواحدة نتائجُ تختلف باختلاف الأحوال .

٣٦٢ ــ عرب من جوار أسوان (مصر العليا)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

ولم تكن جزيرةُ العرب ، قبل ظهور محمد ، سوى ميدانِ حربٍ دائم واسع لِما تأصَّل فى العرب من الطبائع الحربية ، ولما جاء الإسلام وألَّف بين قلوب العرب وجَّهوا جميع قُوَّاتِهم إلى البلاد الأجنبية ، وكانت

طبائعهم الحربية من أسباب انتصاراتهم ، ولَمَّا خَلاَ الميدان من أعداء يحاربونهم صَوَّبوا أسلحتهم نحو أنفسهم بفعل صفاتهم الحربية المتأصلة، وبَدَتْ هذه الصفاتُ، التي كانت سرَّ عظمتهم، سببَ انحطاطهم.

ولكن قولنا إنه ينشأ عن العنصر الخلقيّ الواحد نتائجُ مختلفةٌ باختلاف الأحوال لا يكفي وحدَه لإيضاح تطور أمة ، فهنالك أحوالٌ وعواملُ أخرى كثيرةٌ لها تأثير عظيم أيضاً .

ونذكر على رأس هذه العوامل التي نَدْرُسها ذلك العاملَ الذي توَحَّدت بفضله جميعُ القبائل العربية المنقسمة ، وهو الدين الذي أنشأه محمد ، فقد مَنح هذا الدين ما كانت تحتاج إليه أممٌ من المثل الأعلى المشترك الذي اكتسبوا به من الحَمِيَّة ما استعدُّوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله .

وقد أُتيح لي أن أذكر غيرَ مرة أن عبادة أيِّ مثلٍ عالٍ من أقوى العوامل في تطور المجتمعات البشرية ويكفي أن يكون المثل الأعلى قويًّا ليمنح الأمةَ مشاعرَ مشتركة وآمالاً مشتركة وإيماناً متيناً يندفع به كلُّ واحد من أبنائها في التضحية بنفسه في سبيل نصره ، وكانت عظمة رومة مَثَلَ الرومان الأعلى ، وكان نَيْلُ حياةٍ أخرى يُجْتَنَى منها أطايبُ النِّعَمِ مَثَلَ النصارى الأعلى ، وتَخَيَّل الرجلُ العصريُّ آلهةً جُدُداً يقيم لهم تماثيلَ مع أنهم وهميون كقدماء الآلهة لاريب ، وذلك مع كفاية تأثيرهم الطَّيِّبِ لوقاية مجتمعاتنا القديمة من الزوال حيناً من الزمن ، وليس التاريخ سوى روايةٍ للحوادث التي قام بها الناس انتصاراً لِمَثَلٍ عالٍ، ولولا تأثير المُثُل العليا ما تمدَّن الإنسانُ ولظلَّ في دور الهمجية، ويبدأ دور انحطاط الأمة حينما تعود عاطلةً من مَثَلٍ عالٍ محترمٍ يَسْتَعِدُّ كلُّ واحد من أبنائها لوَقْف نفسه عليه .



٣٦٣ — فتى عربي من مصر العليا
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

والمثلُ الأعلى الذي أبدعه محمدٌ دينيٌّ محْضٌ ، والدولةُ التي أسسها العرب هي الدولة العظمى الوحيدة التي قامت باسم دينٍ اشتقت منه جميعُ نُظُمِها السياسية والاجتماعية .

وهل يكفي هذا المثلُ الأعلى القويُّ والعواملُ الأخرى التي ذكرناها لإيضاح عظمة العرب ؟ كلاّ .

تقَدَّمْنا في الإيضاح وقلنا إن العالم القديم كان متصدعاً وإن أمةً ذاتَ صفاتٍ حربية اتحدت بفضل معتقداتها المشتركة وصارت مستعدةً لفتحه وإنه بَقِيَ لهذه الأمة أن تستولي عليه فعلاً وتَحفَظَهُ .

ورأينا كيف تمَّت فتوحُ العرب ، وكيف أنهم لم تُفَلَّ عزائمُهم ثانيةً ، وأنهم تعلَّموا من غالبيهم ما كانوا يجهلون من فنون الحرب بعد أن خرجوا من جزيرتهم وغلبهم الوارثون الأخيرون للسلطان الإغريقىِّ الرومانىِّ ، فلما تَساوَوْا هم والروم فى الأساليب الحربية لم يبق شكٌّ فى تمام النصر لهم ، لاستعدادِ كلِّ جندىّ عربى لبذل نفسه فى سبيل دينه ولِتَوارِى كلِّ إخلاصٍ وحماسة وإيمان فى جيش الروم منذ زمن طويل .

وكان يُمْكِنُ أن تُعْمِىَ فتوحُ العرب الأولى أبصارَهم وأن يقترفوا من المظالم مايقترفه الفاتحون عادةً ويسيئوا معاملة المغلوبين ويُكْرِهوهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرْغَبون فى نشره فى العالم ، ولو فعلوا هذا لتَألَّبت عليهم جميع الأمم التى كانت غيرَ خاضعة لهم بَعْدُ ، ولأصابهم مثلُ ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخراً ، ولكن العرب اجتنبوا ذلك ، فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما نَدَر وجوده فى دُعاة الدِّيانات الجديدة ، أن النُّظُم والأديان ليست مما يُفْرَض قسراً ، فعاملوا ، كما رأينا ، أهلَ سورية ومصرَ وإسپانية وكلِّ قطر استولَوْا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينَهم ومعتقداتِهم غيرَ فارضين عليهم سوى جِزْيَةٍ زهيدةٍ ، فى الغالب ، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً ، فى مقابل حفظ الأمْن بينهم ، فالحقُّ أن الأمم لم تَعْرِفْ فاتحين متسامحين مِثْلَ العرب ولا ديناً مِثْلَ دينهم .

وما جَهِله المؤرخون من حِلْم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة فى اتساع فتوحهم وفى سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم التى رَسَخَت وقاومت جميع الغارات وبَقِيَتْ قائمةً حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم ، ونَعُدُّ من الواضح خاصةً أمرَ مصرَ التى لم يُوَفَّق فاتحوها من الفرس والأغارقة والرومان أن يقلبوا الحضارةَ الفرعونية القديمة فيها وأن يقيموا حضارتَهم مقامها .

وهنالك أسبابٌ أُخَرُ غيرُ تسامح العرب وحِلْمِهم ساعدت على انتشار دينهم ونُظُمهم المُشْتَقة منه ، وذلك أن هذه النُّظُم كانت من البساطة ، فى الحقيقة ، ما لاءمت معه احتياجات طبقاتِ الأهلين الوسطى البسيطة أيضاً ، وإذا حدث اتفاقاً ، أن كانت هذه النُّظُم غيرَ ملائمة لهذه الاحتياجات عَدّلها العرب كما تَقْضِى به الضرورة ، وبهذا نفسر السِّرَّ فى اختلاف نُظُم المسلمين فى بلاد الهند وفارس وجزيرة العرب وإفريقية ومصر اختلافاً كبيراً فى بعض الأحيان مع أن القرآن واحد .

والآنَ انتهينَا إلى الزمن الذى أتمَّ العربُ فيه فتحَهم للعالم ، ولـكنَّ بحثنا لمَّا يَتِمَّ ، وذلك أن دورَ الفتح لم يـكن سوى وجه واحد من وجوه تاريخ أشياع النبىّ ، وأن العربَ أبدعوا حضارةً جديدة بعد أن فتحوا العالم ، وأن الأسبابَ التى ذكرناها لا تـكفى لإيضاح هذا الإبداع ، فلا بُدَّ ، إذَنْ ، من وجود عواملَ أخرى .

وُجِد عاملان قاطعان فى إبداع حضارة العرب ، وهما بيئة العرب الجديدة وقابلياتُ ذكائهم .

والبيئةُ مما وَصَفْنَا آنفاً ، ولم يَلْبَث العرب بعد خروجهم من صحارى جزيرتهم أن وجدوا أنفسهم أمام ما بَهرَهم من آثار الحضارة الإغريقية اللاتينية وأن أدركوا تفوقَها الثقافىّ كما كانوا قد أدركوا تفوقها الحربىَّ ، فجَدُّوا ليـكونوا على مستواها من فَوْرهم .

ويتطلب استمراء حضارةٍ راقية ذكاء مُثقَّفاً ، وأثبتت الجهود الخائبة التى حاول البرابرة قروناً كثيرةً أن يدركوا بها معنى ما بَقِيَ من الحضارة اللاتينية صعوبةَ ذلك ولم يكن العرب من البرابرة لحسن الحظ ، ونحن ، وإن كنا نَجْهَلُ حضارتَهم قبل ظهور محمد بزمن طويلٍ ، أى حين كانوا ذوى صلاتٍ تجارية ببقية العالم ، أثبتنا أنهم كانوا ذوى ثقافةٍ أدبيةٍ رفيعةٍ أيامَ هذا النبىّ .

والحقُّ أن الرجل الأديب المثقفَ يَجْهَل أموراً كثيرة ، وإنما يتعلمها بسهولة لِمَا فيه من الاستعداد الذهنىِّ وقد أظهر العرب فى دِراسة العالم الجديدِ فى أعينهم ، من الحماسة كالاستعداد الذى أَبْدَوْا لفتحه .

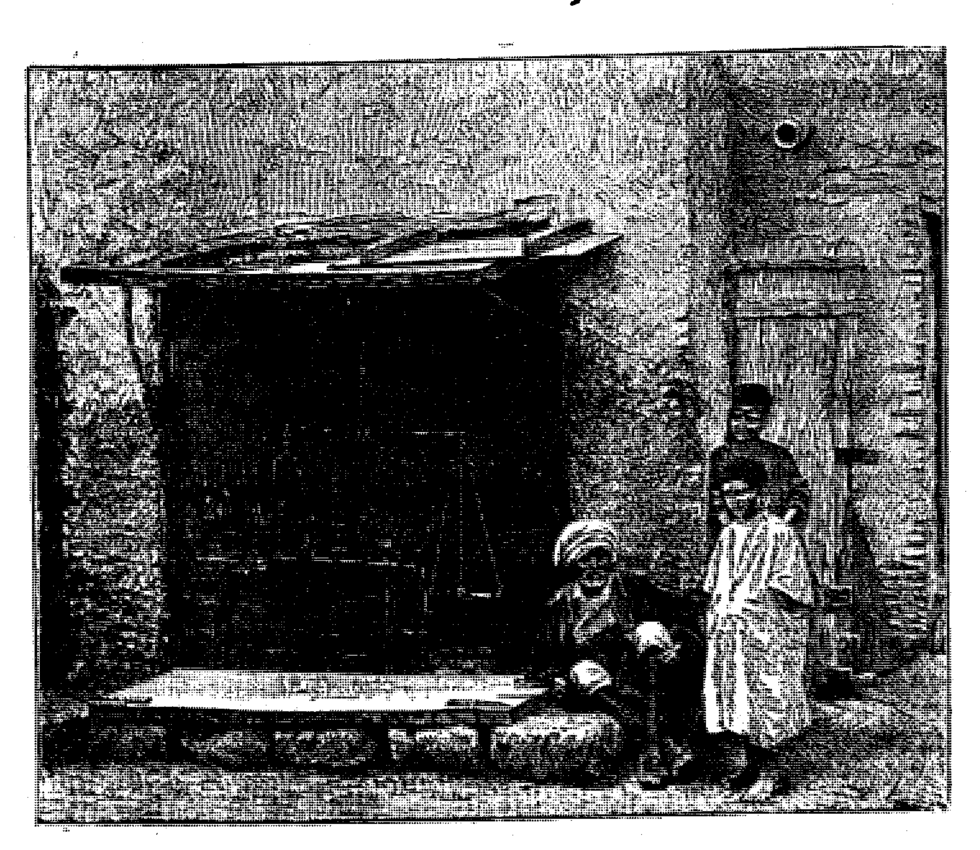
ولم يتقيد العرب فى دِراسة الحضارة التى واجهتهم فَجْأَةً بمثل التقاليد التى أثقلت كاهلَ البزنطيين منذ زمن طويل ، فـكانت هذه الحرية من أسباب تقدمهم السريع ، فالذى يَحْدُثُ فى حياة الأمم ، فى الغالب ، هو أن تأثير الماضى يُعَبِّـد الناس لنير التقاليد المُسِنَّة بعد نفعه لهم ويمنعهم من كلِّ تقدم .

ولم يلبث أن تجَـلَّى استقلال العرب الروحىُّ الطبيعىُّ وخيالُهم وقوةُ إبداعهم فى مبتـكراتهم الحديثة ، وقد رَأَيْنا أنه لم يَمْضِ غيرُ وقتٍ قصير حتى طبعوا على فنِّ العِمارة وسائرِ الفنون ، ثم على مباحثهم العلمية ، طابَعهم الخاصَّ الذى يبدو فى آثارهم أولَ وَهْلَةٍ ، وأنهم لم يبالوا بفلسفة اليونان النظرية لملاءمتها القليلة لمزاجهم النفسىِّ ، وأن هَمَّهم كان مصروفاً إلى الفنون والعـلوم والآدب على الخصوص ، فوصَفْنا بدرجة الـكفاية ما ابتـكروه فى هذه الفروع الـكثيرة .

تلك هى أسبابُ عظمة العرب الأساسية ، ولنبحث الآن فى أسباب انحطاطهم :

٢ – أسباب انحطاط العرب

يمكن الاستنادُ إلى كثير من العوامل التى ذكرنا أنها من أسباب عظمة العرب فى بيان انحطاطهم، ويكفى أن ننظر إلى عامل الزمن المُهِمّ لنعلمَ أنه ينشأ عن أنفع صفات الأفراد والأمم فى أحد الأزمنة أسوأُ النتائج فى زمن آخر ، وأن الاستعداد الخُلُقِىّ أو الذهنىّ الذى يكون عاملَ نجاحٍ فى أحد الأوقات حَتْماً يكون عامل حبوطٍ وإخفاقٍ فى وقت ثان .



٣٦٤ ـ تاجر تونسى (من صورة فوتوغرافية)

ولقد بَيَنْتُ سابقاً كيف أن غرائز العرب فى الحرب والخصام ، التى كانت نافعة فى دَوْرِ فتوحهم ، لم تَلْبَث أن أصبحت ضارّةً بعد انقضائه وخُلُوِّ الميدان من أعداء يحاربونهم ، وذلك أن العرب ، بعد

أن تَمَّت فتوحهم ، أخذ ميلهم المتأصل إلى الانقسام يبدو ، وصارت دولتهم تتجزأ حتى سقطت، وذلك كما حدث لهم في إسپانية وصِقِلِّيَة اللتين أضاعوهما بفعل انقساماتهم الداخلية على الخصوص، واللتين أجلاهم النصارى عنهما بسبب تنافسهم الدائم فيهما .

ويمكن عَدُّ نُظُم العرب السياسية والاجتماعية ، التي ذكرنا أنها من أسباب تقدمهم السريع ، من عوامل انحطاطهم أيضاً ، وبيانُ ذلك أن العرب لم يَقْدِروا على فتح العالم إلّا حينما خضعوا للشريعة الجديدة التي جاء بها محمد وجمعوا كلمتهم المتفرقة تحت لوائها ، وهي التي كان يُمْكِنُها وحدَها أن تجْمَع القُوَى المبعثرة في جزيرة العرب ، وقد بَقِيَ نِيرُ هذه الشريعة الحازمُ طيباً ما بَقِيَتْ نُظُم النبيِّ ملائمةً لاحتياجات أمته ، فلما أصبح تعديل هذه النُّظُم ضَرْبَةَ لازبٍ ، بسبب مبتكرات حضارة العرب ، كان نِيرُ التقاليد من الثِّقَل بحيث لا يمكن زحزحته .

وعادت نُظُم القرآن ، التي كانت عُنوانَ احتياجات العرب في زمن محمد ، لا تكون هكذا بعد بضعة قرون ، والقرآنُ ، إذْ كان دستوراً دينيًّا ومدنيًّا وسياسيًّا في آن واحد ، وكان لا يتبدل بسبب مصدره الإلٰهيِّ ، تَعَذَّر تعديل أحكامه الأساسية .

وتَجلّت نتائج الاختلاف ، على الخصوص، بعد أن أخذ نَجْم سلطان العرب يَأْفُل ، وصار يتكرر ردُّ الفعل الدينيِّ الذي أصبح يَهْدِف باسم تجديد الإسلام ، إلى وقوف الإسلام عند ظاهر آيِ القرآن، مع أن المسلمين في عصور خلفاء بغداد وقرطبة الزاهرة كانوا يَعْرِفُون جيداً أن يُعَدِّلوا تعاليمهم وَفْقَ ما تقتضيه احتياجات الأمم التي رَضِيَتْ بها .

وتَجَلّى محذورُ عدم القدرة على التعديل الكبير ، على الخصوص ، في نُظُم العرب السياسية التي تقضي بأن يَقْبِضَ على زمام الدولة وليُّ أمرٍ واحد يَجْمَعُ في يده جميعَ السلطات العسكرية والدينية والمدنية ، فهذه النُّظُم ، وإن كانت وحدها تساعد على تأسيس دولة عظيمة بسهولة ، تُعَدُّ أقلَّ النظم صلاحاً لبقائها . والدولُ الكبرى المطلقة التي تكون جميع السلطات فيها قَبْضَةَ رجل واحد ، وإن كانت ذات قدرة عظيمة على الفتح ، لا ترتقي إلا إذا كان على رأسها رجال عظماء ، فإذا افتقدتهم تداعى كلُّ شيء دفعة واحدة .

ومن نتائج سوء نظام العرب السياسيِّ ما أصيبت به دولتهم من الانقسام ، أي لم يُعتِمْ وُلاة الأقطار ، الذين كان يَنْصِبُهم الخلفاء ليديروا شؤونها ، والذين كانوا يتمتعون فيها بمثل مايتمتع به الخلفاء من السلطات العسكرية والدينية والمدنية، أن أرادوا الاستقلال بها ، وقد سَهَّل عليهم هذا الاستقلال لِما لم يرَوْا من سلطان يساوى سلطانهم ، وقد نشأ عن نجاح بعضهم إغراء الآخرين ، فلم تلبث أهم ولايات الدولة أن تحولت بهذا إلى دُوَيلات مستقلة .

وكان لهذا الانقسام نتائجُ ضارةٌ ونتائجُ نافعةٌ ، فأما نتائجه الضارَّة فهي أنه أضعف سلطانَ العرب الحربيَّ ، وأما نتائجه النافعة فهي أنه مَهَّدَ السبيل لتقدم الحضارة ، والحقُّ أن مصرَ والأندلس ما كانتا لتبلُغا ماوَصَلتا إليه من الرقيِّ والرَّخاء لو لم تنفصلا عن الدولة الكبرى ، وأنه ما كان ليتفقَ لهما ، في حالة بقائهما من أجزاء تلك الدولة ، غيرُ مصير الولايات العثمانية التي يُعْزَل وُلاتها عَزْلاً مستمرًّا فلا يَصْرِفون هَمَّهم إلا إلى الاغتناء منها بسرعة لِمَا لا يرَون لأنفسهم فوائدَ في تقدمها .

أَجَلْ ، إن تقدم بعض تلك الدُّوَيلات المستقلة كان عظيماً ، ولكن عاقبتها كانت كعاقبة الدول القديمة التي استندت إلى عدد الجنود وقيمتهم في سلطانها العسكريِّ بدلاً من أن تستند بعض الاستناد إلى أداةٍ حربية مهمة كما هو واقعٌ الآن ، والتي كانت تنهار أمام أول غارة أجنبية .

ثم إن الحضارة التي تُهَذِّب الطبائع وتُثَقِّف الذهن لا تُنْمِي الصفاتِ الحربيةَ ، وهي تهيئُ سقوطَ الدول الكبرى بذلك ، وذلك لأن الأمم التي يكون أبناؤها من المُعْوِزين ترغب في تغيير حالها وتهدد الأمم المتمدنة المتقاعسة التي تكون على شيء من الرَّخاء ، وبهذا سقطت أكثر الحضارات القديمة ، وهذا ماأصاب الرومان ، وهذا ماأصاب العرب أيضاً ، ولو كان الترك والمغول وغيرهم من الأمم التي صَرَعَت العرب في إبَّان تمدنهم قد هاجموا أتباعَ النبيِّ أيام تأسيس هؤلاء لدولتهم وتأليفهم أمةً صابرةً على المكاره متعودةً شَظَفَ العيشِ غيرَ مُتْرَفةٍ لباءوا بالخسران .

ونَذْكر من أسباب انحطاط العرب ، أيضاً ، اختلافَ العروق التي خضعت لسلطانهم، ويتَجَلَّى تأثير هذا السبب على وجهين مختلفين مشؤومين : الأول ماأسفر عن تقابل مختلف العروق من التحاكِّ ومايَجُرُّ إليه هذا التحاكُّ من تنافسها ، والثاني ماأسفر عن التوالد الكثير من فساد دم الغالبين بسرعة.

وكان اختلاط مختلف الأمم فى دولة واحــدة عاملَ انحلال قوىّ دائماً ، وقد أثبت التاريخ أنه لا يمــكن بقاء مختلف العروق تحت سلطان واحــد إلا بمراعاة الشرطين الآتيين ، وهما أن يــكون الفاتح من القوة مايَعْلَمُ كلُّ واحــد معه أن كلّ مقاومة له لا تُجْدِى نفعاً ، وألّا يتوالدَ الغالبُ والمغلوب ، ومن ثَمّ ألا يَفْنَى الغالب فيه .

ولم يُرَاعِ العربُ الشرط الثانىَ قطُّ ، ولم يُرَاعه الرومان فى كلِّ زمن ، وقد انحطَّ الرومان حالاً حينما عَدَلوا عنه .

ومن أهمِّ العوامل الـكثيرة فى انحلال العالم الرومانىِّ القديم سهولةُ مَنْح السادة القدماء جميعَ حقوق المواطن للبرابرة ، فقد نَجَم عن هذا أن غصَّت رومة بمختلف العروق وعَطِلَتْ من سيادة الرومان وانطفأت المشاعر التى كانت سرَّ عظمتها سابقاً ، وقد كان المواطنُ من أهل رومة لا يتردد ثانية فى التضحية بحياته فى سبيلها لِما فى عظمتها من مثلٍ عالٍ قادر ، فما تــكون قيمةُ مِثْلِ هذا المثل الأعلى فى نفوس البرابرة ؟

ومن الصَّعب جدًّا أن تَنْضَوِىَ إلى نظامٍ واحدٍ أممٌ مختلفةُ العروق وذاتُ مصالحَ ومشاعرَ متباينةٍ فى الغالب ، وهذا لا يكون إلّا بالضغط الشديد على الأكثر ، ومن الأدلة عليه النظامُ المفروض على الإيرلنديين والهندوس فى الوقت الحاضر .

وما كان العرب ليلجأوا إلى مثل هذا الضغط حِيالَ مختلف العروق التى خضعت لهم ما انتحلت دِياناتِهم ونُظُمَهم بسهولةٍ ، وما ســاوى الإســلامُ مساواةً تامــة بين جميع الذين اعتنقوه على اختلاف شعوبهم .

هذه هى شريعة القرآن ، ولم يَرْغَب الغالبون عنها ، ولم يؤلف الغالبون والمغلوبون فى بدءِ الأمر سوى أمة واحدة ذاتِ معتقداتٍ واحدة ومشاعرَ واحدة ومصالحَ واحدةٍ ، وقد ساد الوِفاقُ جميعَ نواحى الدولة العربية ماظلَّ العرب أقوياء محترمين فى كلِّ مكان .

بَيْدَ أن منافساتِ هذه الشعوب كانت خامدةً غيرَ هامدة ، وقد بَدَت حينما عاد العرب إلى ماتعودوه من الشِّقاق والانقسام ، وصارت بلاد الإسلام ميدانَ خصام دائم بين أحزابٍ لم تترك تنازعها حتى حين كان النصارى يحاصرون آخر مَعْقِلٍ إسلامىّ فى الأندلس .

ونشأ عن وجود عروقٍ كثيرة فى البلاد التى دانت للإسلام نتيجةٌ أخرى أشَرْنا إلى خطرها آنفاً ، وهى اضطرارُ العرب إلى الامتزاج بجميع الأمم التى كانوا يعيشون بينها ، وكان يُمْكِنُ العربَ أن يكتسبوا بعضَ الأهليات من اختلاطهم بالأمم التى لم تكن دونهم كثيراً ، كنصارى إسپانية مثلاً ، وهم إذا ما اختلطوا بعروقٍ متأخرة كبعض الشعوب الآسيوية والبربر لم يُصِبْهم غيرُ الخسران ، وكان التوالدُ فى كلتا الحالين يؤدِّى حتماً إلى تقويض الأخلاق التى يتألف من اجتماعها عرقُهم ، ولِذَا أصبحت البلاد التى كانت خاضعة لسلطانهم كإسپانية ومصرَ ، لا تشتمل إلا على قليلٍ من العرب بعد زوال سلطانهم السياسىِّ عنها .

وكان عامل توالد العروق الذى أشرنا إليه يكفى وحدَه لتقرير انحطاط العرب ولو لم يكونوا عُرْضَةً للمغازى ومختلفِ العوامل الأخرى ، وذلك كما هو ثابت من أمرهم فى مَرَّاكُش التى نراها اليوم شِبْهَ همجيةٍ مع عدم غزو الأجنبىِّ لها ومع مزاحمتها بِرَخائها لبلاد الأندلس فيما مضى ، والتى نَجِد أن تَفَوُّق البربر فيها وتوالدَ سكانها والزنوجَ أدَّيا إلى خفض مستوى حضارتها خفضاً عظيما .

وقد زُعِم أن المستقبل للمولَّدين ، وقد يكون الأمر هكذا ، ولكننى لا أتمناه للأمم التى ترغب فى المحافظة على مستواها فى العالم .

٣ — مقام العرب فى التاريخ

ظهر مما قلناه عن حضارة العرب وأسبابِ عظمتهم وانحطاطِهم أنه كان للعرب خصالٌ عظيمةٌ ومساوئُ كبيرةٌ وقابلياتٌ ذهنية عالية ، وإذا كان العربُ دون الرومان مرتبةً فى النظُم السياسية والاجتماعية فهم أعلى منهم بسِعَة معارفهم العلمية والفنية ، ويمكن القولُ ، على العموم إن للعرب مقاماً رفيعاً فى التاريخ ، ولْنُعَيِّنْ هذا المقام بالضبط :

يتطلب تعيينُ قيمة الفرد أو الأمة بالضبط حيازةَ مقياس مُدَرَّج ، ولكن مثل هذا المقياس مفقودٌ تماماً ، وإن عدم وجوده يَجْعَل أحكامَنا مبنيةً عَلَى مشاعرنا الشخصية أكثرَ مما تُبْنى على عقلنا ، وهذا يكفى لعَدِّها موضعَ شكٍّ .

ولو ظَفِرنا بهذا المقياس النفسىِّ ، غيرِ الموجود ، لتقدير قيمة الرجال لوجب تجديده دائما ، فهو إن صَلَح لتقدير الأفضلية فى زمنٍ لا يَصْلُح لتقديرها فى زمن آخر .

وكانت أعلى درجة فى الأفضلية التى يتخيَّلها اليونانىُّ هو أن يكون الأولَ فى الألعاب الالنپية ، أى المصارعة أو العَدْو أو الملاكمة أو ما إليها من التمارين ، فإذا ما فاز فيها كان مظهراً لأعظم تكريم ، أى كان اسمُه يُنقَش على الرُّخام ، وكان من حقوقه أن يدخل مَسْقِطَ رأسه من ثُغْرَة تُفْتَح له فى الجدار ، وكان هذا التكريم سائغاً ، لا ريب ، فى زمنٍ كان للقوة واللياقة الجُثْمانيَّة شأنٌ كبير فيه ، ولكن مثل هذه الأفضلية لا يُقَدَّر اليوم فى غير أسواق القُرَى ، ولا يكاد يمنح صاحبه خبزَه اليوميّ .

ونحن ، عند مرورنا من مجرى القرون ، نَرَى تحوُّل مقياس الأفضلية باستمرار ، أى كانت الأفضلية قائمةً على القوة الجُثْمانية والشجاعة فى القرون الوسطى أيضاً ، وكانت تُقاس بالمعارف العلمية والفنية والأدبية فى أدوارٍ أُخَر ، وبقوة الجَدَل بفصاحةٍ حوْل بعض الموضوعات فى أدوارٍ غيرها ، واليومَ يَميل الناس إلى قياس الأفضلية بما يُمْلَك من النقود ، وسيكون ملوك العصر الذى سندخله عمَّا قليل أقدرَ الناس على حيازة الثرَوات ، ونرى اتِّصاف بنى إسرائيل بدرجةٍ من هذه القابلية لم يساوهم فيها أحدٌ ، ونُبْصِر من خلال الكُرْه العامِّ الذى يُحاك حوْلَهم فى كلٍّ مكانٍ ما يَدُلُّ على اضطرار الناس إلى مقاتلتهم بعنفٍ للتخلص من سلطانهم الخطر .

ومما يستوقف نظر الباحث ما يراه ، عند درسِ الأحوال التى تُعَيِّن نجاحَ الأفراد أو الأمم فى العالم ، من ضعف شأن الذكاء وقوة أثر الإرادة والعِناد وغيرهِ من الصفات الخُلقية ، ولا شكَّ فى المخرج عند افتراض رجلَيْن أو شعبيْن : أحدهما محدود الذكاء عظيم الشجاعة ماضى العزيمة كبير الصبر مستعدٌّ للتضحية بنفسه فى سبيل مثلٍ عال ، وثانيهما رفيع الذكاء عاطل من القابليات التى ذكرتُها ، فالفوز يكون حليف الأوَّلِ ذكاءٍ منهما لا ريب ،

٣٦٥ ــ مقعد مصنوع فى دمشق من الخشب المرصع بالصدف
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)

وإذا ما عُدَّ الذكاء عاملَ نجاحٍ فقط أمكننا أن نقول إن ضَرَّه أكثر من نفعه عندما يكون فوق المستوى المتوسط ، ويَظْهرُ مِصْداقُ هذا القول ، الذى يلوح أنه غريبٌ ، عندما يَتَمثَّل المرء مصيرَ

معركةٍ يكون أحد الشعبين فيها مؤلفاً من أناس حائزين لجميع الأخلاق التي تكلمت عنها آنفاً ويكون الآخر مؤلفاً من الفلاسفة والمفكرين الذين لايطمعون في عالمٍ أفضلَ من العالم الحاضر والذين يقولون ببُطلان كلِّ مثلٍ عال ولا يُضَحُّون بأنفسهم في سبيل أيِّ خيال كان ، والذين يبتسمون من ضَعْفِ مبادئ محمد اللاهوتية ، ومع ذلك فإن العالَمَ لم يَعْرِفْ فلاسفةً تشتمل مذاهبهم على جزء من السلطان المخيف للأوهام التي استطاع مؤسسو الدِّيانات أن يبتدعوها ، والمؤمنُ ، عربيًّا كان أو رومانيًّا والله عَبَدَ أو عظمةَ رومةَ ، يَتِمُّ له النصر بفضل معتقداته بسهولةٍ إذا ماضَحَّى بنفسه في سبيلها .

ذلك ماحَدَث دائماً ولاشيء يَحْمِل على افتراض غيره ، ومع أن الرومان كانوا سادةَ العالم لم يُبْدوا تفوقاً ذهنيًّا ظاهراً في الفنون والعلوم ، وكان الأغارقة أساتذة لهم في كلِّ مايَمُتُّ إلى الفكر بصلة،ولم يَحُلْ هذا دون استعبادهم لهؤلاء الأغارقة .

ونحن ، إذا لم نبال بغير الفوز ، أمكننا أن نبحث عن مقياسِ التفوق والأفضلية في الصفات الخُلُقِيَّة المذكورة آنفاً ، ولكن مقياساً كهذا خادعٌ ، أيضاً ، لعدم قيمته فيما عدا ذلك الهدفَ الخاصّ ، أيْ فيما عدا الفوزَ العتيد .

والحقُّ يقضي بألاَّ ننظر إلى المسألة إلا من جهة الحضارة العامة،أي من الناحية الإنسانية،لنرى أنه يجب أن يُبْحَث عن الأفضلية في المستوى الذهنيّ،لا في تلك الصفات الخُلُقِيَّة ، أَجَلْ ، ما كان نُيوتُن أو لِيبْنِتْز،ليفوز في الألعاب الألنبية أو ليقاومَ جنديًّا رومانيًّا ثانيةً واحدة ، ولكن أمثاله من شِباه آلهة الفكر أوجبوا في العالم تحولاتٍ كثيرةً بما لاكتشافاتهم من النتائج القريبة والبعيدة أكثرَ مما أوجبته جميع القبائل الآسيوية التي أقامت دولاً كبيرة ، والمستقبلُ حينما يحكم في أمر الماضي بمثل هذه الحرية الفكرية التي لا عهد لنا بها اليوم سيقول ، لا ريب ، أن اختراع الطباعة والآلةِ البخارية والخطوط الحديدية والتلغراف الكهربيِّ وما إليه من الاختراعات الكثيرة أحدثَ في طُرُق معايش الناس من التطورات مالا قيمة بجانبه لِما أحدثته أشهر الثَّوْرَات .

ولْنُهْمِل ، إذَنْ ، ضروبَ الفوز الماديِّ التي تَعُدُّها الجماهير (والتاريخُ في الغالب) مقاييسَ حقيقيةً لتقدير قيمة الأفراد والأمم ، ولْنُعْلن أن قيمة الأمة العقلية ، ومن ثَمَّ درجتها في سُلم الحضارة ، تقاس بعددِ من يظهر بينها من ذوي المدارك السامية،وإنما يضاف الفوز إلى التفوق العقليِّ عندما يوجد بجانب

أعاظم رجالها القليلين جمعٌ كافٍ من ذوى الذكاء العادىّ والثّقافة المتوسطة والصفاتِ الخُلُقِيَّة العالية التى ذكرناها .

ونستطيع ، بعد هذا الإيضاح التمهيدىّ ، أن نُعَيِّنَ ، بما فيه الكفاية ، مكانَ العرب فى التاريخ ، فنقول : إنه ظهر من العرب رجالٌ من الطراز العالى كما تشهد بذلك اكتشافاتهم ، ولكننى لا أظنُّ أنهم أخرجوا رجالاً عظاء كأولئك العباقرة الذين ذكرتهم ، والعربُ كانوا دون الأغارقة فى كثير من المسائل ، مساوين للرومان فى الذكاء لا ريب ، غيرَ حائزين ، إلاَّ لوقت قصير ، ما كان سبباً فى دوام فوز رومة زمناً طويلاً من الصفات الخُلُقِيَّة .

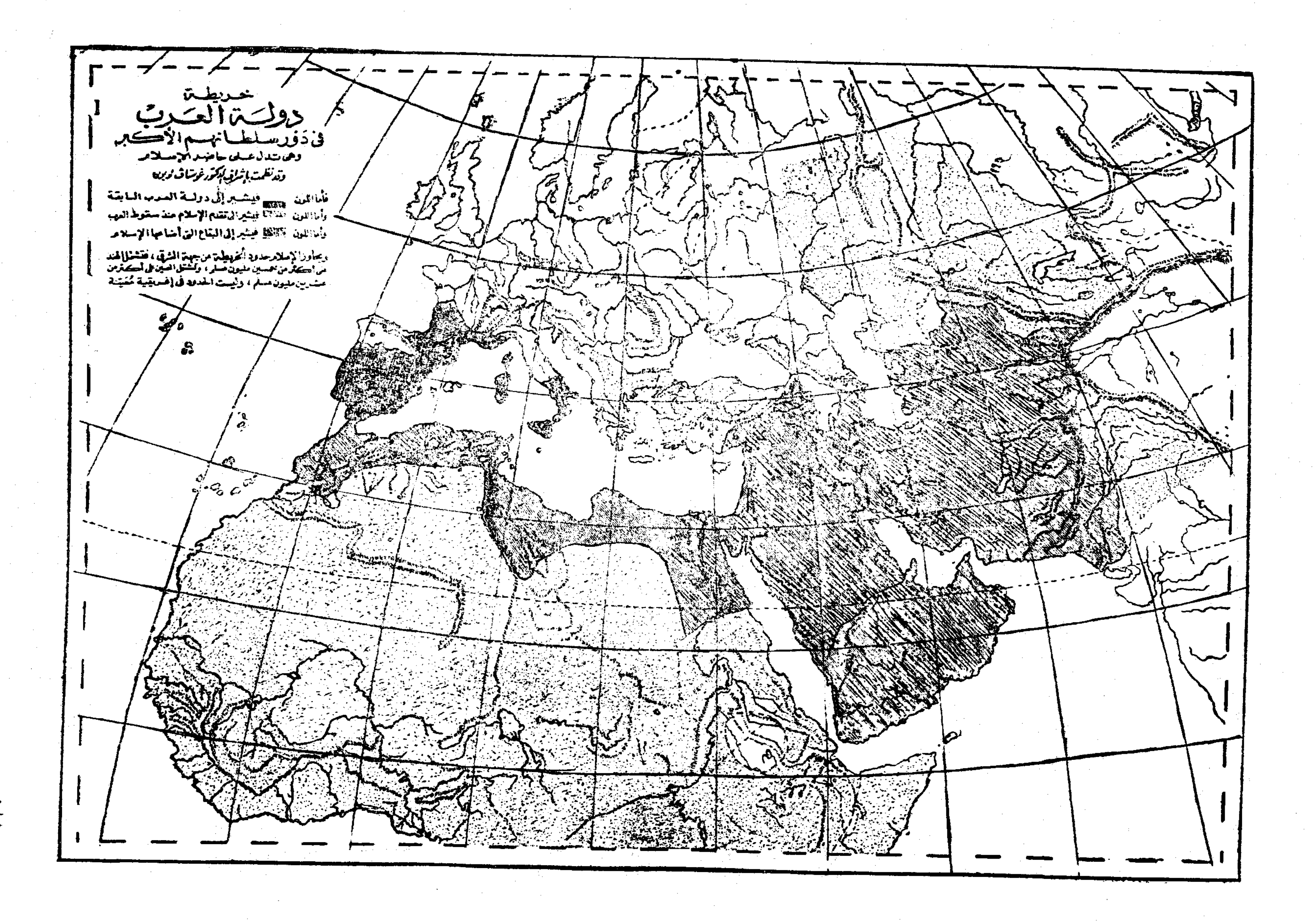
وإذا قابلنا بين العرب والأمم الأوربية ، بدلاً من مقارنتهم بالأمم التى غابت عن مسرح العالم ، أمكننا أن نقول إنهم أرقى من جميع أمم الغرب التى عاشت قبل عصر النهضة أخلاقاً وثقافةً ، فلم تَعرِفْ جامعات القرون الوسطى ، فى قرون كثيرة ، مصدراً غيرَ مؤلفاتهم ومناهجهم ، وكانت أخلاقهم أفضلَ من أخلاق أجدادنا بمراحل .

وكان العرب قد توارَوْا عن التاريخ حَوَالَىْ عصر النهضة ، ولا نقدر أن نقول شيئاً عما يمكن أن يَصلوا إليه لو لم يتوارَوْا ، ولكننا لانعتقد ، مع ذلك ، أنهم كانوا يبلغون مستوًى أفضلَ مما بلغوا لِما كان يُسْفِرُ نقصُ نُظُمهم عنه من الموانع .

ولا تمكن المقابلة بين مختلف الأدوار ، كالدور الذى غاب فيه العرب والدور الحاضر كما هو واضحٌ ، ولكننا إذا حُمِلْنا على المقابلة بين هذين الدورين قلنا إن أكابر العرب السابقين دون أكابر الزمن الحاضر ، وإن عرب الطبقات الوسطى السابقة مساوون لأبناء طبقاتنا الوسطى المتمدنة الحاضرة على الأقلّ وأرقى منها فى الغالب .

وما قلناه عن طبقات العرب الوسطى السابقة نقول مثلَه عن أكثر الشرقيين فى الوقت الحاضر ، أى إن طبقات العرب والصينيين والهندوس الوسطى الحاضرة ليست دون أَخَوَاتها فى أوربة ، وإننا نرى بين هؤلاء زُرَّاعاً وعُمَّالاً ماهرين مهارةَ زُرَّاعِنا وعمالنا على الأقل ، وإن فى مزاحمة الصينيين الساحقة للعمال الأنغلوسكسون فى أمريكة وأوسترالية ، وما نجم عنها من اتباع سياسة طردهم منهما تقريباً ، دليلاً قاطعاً على ذلك .

والشرقيون المساوون لنا مهارةً ، وهم الذين لم يَحُطَّ الاختصاصُ ذكاءهم يفوقوننا بقناعتهم وقلة


خريطة
دولة العرب
في دور سلطانهم الأكبر
وهي تدل على حاضر الإسلام
وقد نظمت بإشراف الدكتور غوستاف لوبون
فأما اللون فيشير إلى دولة العرب السابقة
وأما اللون فيشير إلى تقدم الإسلام منذ سقوط العرب
وأما اللون فيشير إلى البقاع التي أشاعها الإسلام
ويجاوز الإسلام حدود الخريطة من جهة الشرق، فتشتمل الهند
على أكثر من خمسين مليون مسلم، وتشتمل الصين على أكثر من
عشرين مليون مسلم، وليست الحدود في إفريقية محققة

احتياجاتهم وطبائعهم الموروثة ، وهم لا يفتقرون إلّا إلى أمر أساسىّ ، أىْ إلى طبقةٍ عاليةٍ كافيةٍ وبعضِ العظماء ، ليكونوا هم والأمم الأوربية المتمدنة على قدم المساواة ، ومن حَظّنا الحسن أن كانوا عاطلين من مثل هؤلاء ، وإلّا لاستطاعوا بالإضافة إلى طبقاتهم الوسطى ، أن يقوموا مقامنا وأن يَقْبِضُوا على زمام الحضارة ، ولِذَا فإنه إذا قُيِّضَ للاشتراكيين فى الوقت الحاضر أن يُحَقِّقُوا أحلامهم فى إقامة مجتمع من ذوى الذكاء المتوسط وفى القضاء بالتدريج على الأفضليات فإن سيادة العالم تنتقل من فَوْرها إلى أبناء الشرق الأقصى .

٤ — حال الإسلام الحاضرة

ثَقُلَتْ قرونٌ على أعفار العرب ، ودخلت حضارتهم فى ذِمَّة التاريخ منذ زمن طويل ، ولا نقول ، مع ذلك ، إنهم ماتوا تماماً ، فنرى الآن دِيانَتَهم ولغتَهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثرَ انتشاراً مما كانتا عليه فى أنضر أدوارهم ، والعربيةُ هى اللغةُ العامّة[1] من مَرّاكُش إلى الهند ، ولا يزال الإسلامُ جادًّا فى تقدمه .

ويُقَدِّر علماء الجُغْرافية عددَ المسلمين فى العالم بـ ١١٠ ملايين ، ولكن هذا الرَّقْمَ ، الذى وُضِع حين كنا نجهل انتشار الإسلام فى الصين وإفريقية الوسطى ، أقلُّ من الحقيقة ، واليومَ يُدَرَّس القرآن ، فيما عدا جزيرةَ العرب ، فى مصرَ وسورية وتركية وآسية الصغرى وفارس وقسمٍ مهمّ من روسية وإفريقية والصين والهند ، وتناول القرآنُ مدغشقرَ وإفريقية الجنوبية ، وعُرِف فى جزر الملايو ، وعَلِمه أهل جاوة وسومطرة ، وتَقَدَّم إلى غينية الجديدة ، ودخل أمريكة مع زنوج إفريقية .

والسهولة العجيبة التى ينتشر بها القرآنُ فى العالم شاملةٌ للنظر تماماً ، فالمسلم أينما مَرَّ تَرَكَ خَلْفَه دينَه ، وبلغ عدد أشياع النبىِّ ملايينَ كثيرةً فى البلاد التى دخلها العرب بقصد التجارة ، لا فاتحين ، كبعض أجزاء الصين وإفريقية الوسطى وروسية ، وتمّ اعتناق هذه الملايين للإسلام طَوْعاً ، لا كَرْهاً ، ولم يُسْمَعْ أن الضرورة قَضَت بإرسال جيوشٍ مع هؤلاء التجار المبشرين العربِ لمساعدتهم ، ويتسع

(١) تطبع فى الآستانة جريدة عربية واحدة ، وفى سورية عشر صحف ، منها ثلاث مجلات أسبوعية ، وتطبع فى أكثر البلاد التى يتكلم سكانها بالعربية جرائد ذات نفع محلى .

نِطاق الإسلام بعد أن يقيمه هؤلاء فى أىِّ مكان كان ، ولم تُسْتَأْصَل شأفة الإسلام بعد أن رَسَخ فى روسية منذ عِدَّة قرون، واليومَ يَقْطُن خمسونَ مليونَ مسلمٍ ببلاد الهند ، ولم يُوَفق مبشرو البروتستان لأىِّ تنصير فى الهند مع مظاهرة حكومتها لهم ، ولا نعلم بالضبط عددَ المسلمين فى إفريقية ، ولكن الرُّوَّاد المعاصرين كلما أَوْغَلوا فيها وَجَدُوا قبائلَ تُبَشِّر بالإسلام ، والآن يُمَدِّن الإسلامُ أقوامَ إفريقية ، حيث يكونون ، مُظهراً عملَه الطيبَ فى كلِّ مكان .

ولقد أصاب مسيو ج . دوفال حيث قال : « من فضل الإسلام زوالُ الأصنام والأنصاب من الدنيا ، وتحريمُ القرابين البشرية وأكلِ لحوم الإنسان ، وحفظُ حقوق المرأة وتقييدُ مبدأ تعدد الزوجات وتنظيمُه مع عدم الوصول إلى الحقِّ المطلق ، وتوطيدُ أواصر الأُسْرَة وجعلُ الرقيق عضواً فيها ، وفتحُ أبوابٍ كثيرة سهلة لتحريره ، وتهذيبُ الطبائع العامة ورفعُ مستواها بالصلاة والزكاة ، وإيواء الغرباء ، وتثقيفُ المشاعر بالعدل والإحسان ، وتعليمُ أولياء الأمور أن عليهم من الواجبات ما على الرعية ، وإقامةُ المجتمع على أُسُسٍ مُنَظَّمة ، وإذا حدث أن وُجِدَ جَوْرٌ فى الغالب ، كما فى أىِّ مكانٍ آخرَ ، وُجِدَ فى العدل الإلٰهى ما يُخَفِّف وطأتَه ، وذلك أن فى رجاء الحياة الآخرة ، حيث السعادةُ وحسن الثواب ، سَنَداً لضحايا الدهر أو الظلم ، وتلك هى بعض المحاسن التى تدلُّ فى كلِّ مكان على انتشار الإسلام بين المجتمعات غير المتمدنة » .

ويتقدم الإسلام فى الصين تقدماً يقضى بالعجب ، ويُكْتَب للإسلام أسطعُ فَوْزٍ فى الصين حيث اضْطُرَّ المبشرون الأوربيون إلى الاعتراف بالحبوط ، وقد رأينا أن عدد أتباع محمد فى الصين عشرون مليوناً ، وأن فى مدينة بكين وحدَها مائةَ ألفِ مسلم .

قال الأستاذ وازيلياف : « دَخَل الإسلامُ مملكةَ ابن السماء كما دخلتها البُدَّهِيَّة (البوذية) ، وسيقوم الإسلام ، ومسلمو الصين لا يَشُكُّون فى ذلك ، مقامَ دِيانة شاكيه مونى ، وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية ، فإذا وقع مثلُ هذا الحادث واعتنقت الصينُ ، التى تَضُمُّ ثلثَ البشر على الأقلِّ ، دينَ الإسلام تغَيَّرَت علاقات العالم القديم السياسية تغَيُّراً عظيماً ، وأمكن دينَ محمد ، الذى يمتدُّ ، إذ ذاك ، من جبل طارق إلى المحيط الهادى ، أن يُهَدِّد النصرانية من جديد » .

لقد تمَّ الكتاب ، ولنُلَخِّصْه فى بضع كلمات فنقول : إن الأمم التى فاقت العرب تمدنًا قليلةٌ إلى الغاية ، وإننا لا نذكر أمةً ، كالعرب ، حَقَّقَت من المبتكرات العظيمة فى وقت قصير مثلَ ما حَقَّقُوا ، وإن العرب أقاموا دينًا من أقوى الأديان التى سادت العالم ، أقاموا دينًا لا يزال تأثيرُه أشدَّ حيَوِيَّةً مما لأيِّ دين آخر ، وإنهم أنشأوا ، من الناحية السياسية ، دولةً من أعظم الدول التى عرَفها التاريخ ، وإنهم مَدَّنوا أوربة ثقافةً وأخلاقًا ، فالعروقُ التى سَمَتْ سُمُوَّ العرب وهَبَطَتْ هبوطَهم نادرةٌ ولم يَظْهَرْ ، كالعرب ، عِرْقٌ يَصْلُح أن يكون مثالًا بارزًا لتأثير العوامل التى تُهَيْمِن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها .



الفهارس

فهرس المصادر

غايتنا من نشر هذا الفهرس هى أن يكون لدى القارىء جدولُ جميع الكتب العربية المهمة التى تُرْجِمَتْ إلى اللغات الأوربيــة ، ولم نضف إليه سوى الكتب المؤلفة وفْقَ الوثائق الأصلية كالمخطوطات والآثار ، إلخ . ولم نذكر من الكتب العربية غير المترجمة إلا التى لها أهمية خاصة كمقامات الحريرىّ مثلا .

ويجد القارىء فى هذا الفهرس إشارة إلى مؤلفين من الفرس والمغول لم يذكروا على العموم ، ولكن كتبهم تفيد كثيراً فى الاطلاع على تاريخ العرب فى بلاد الشرق .

١ – الفهارس والنشرات الدورية ، إلخ .

حاجى خليفة – كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون ، نشره المستشرق فلوغل فى ليبسك بين سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٥٨ م مع ترجمة لاتينية له فى سبعة مجلدات :

السمعانى اللبنانى – المكتبة الشرقية ، كتبها باللاتينية فى اثنى عشر مجلداً ، ولم يطبع منها إلا أربعة فى رومة بين سنة ١٧١٩ وسنة ١٧٣٠ م.

AMARI, *Biblioteca Arabo-sicula,* Roma, 1880, in-8°.

CASIRI, *Bibliotheca Arabico-hispana Escurialensis,* Matriti, 1760-1770, 2 vol., in-f°.

DEREMBOURG, *Les manuscrits Arabes de l'Escurial, Paris,* 1883, 2 vol., in-8°.

DOZY, etc. *Catalogus codicum orientalium bibl. Ac. Lugd. Batav.,* Lugd. Batavorum, 1851-1873, 5 vol., in-8°.

DUGAT, *Histoire des Orientalistes de l'Europe,* Paris, 1868-1870, 2 vol., in-12°.

FRŒHN, *Indications bibliographiques relatives à la littérature historico-géographique des Arabes, des Persans et des Turcs*, Saint-Pétersbourg, 1845, in-8°.

FLUEGEL, *Die Arabischen, Persischen und Turkischen Handschrift, der K. K. Hofbib. zu Wien,* Vienne, 1865-1867, 3 vol., in-4°.

GONZALÉS, *Plan de una biblioteca de autores arabes espanoles,* Madrid, 1861, in-4°.

HERBELOT, *Bibliothèque orientale,* Paris, 1697.

تجد عدة طبعات لهذا الكتاب المهم ، وأحسنها ما طبع فى لاهاى بين سنة ١٧٧٧ وسنة ١٧٧٩ م فى أربعة مجلدات .

HOMMELIUS, *Bibliotheca Juris rabbinica et saracenorum arabica instructa,* Byruthi, 1762, in-8°.

HOTTINGER, *Promptuarium sive Bibliotheca orientalis,* Heidelbergœ, 1658, in-4°.

ROSSI, *Dizionario storico degli autori arabi più celebri e delle principali loro opere,* Parma, 1807, in-8°.
SCHNURRER, *Bibliotheca arabica,* Halœ, 1811, in-8°.
WÜSTENFELD, *Die Geschichtschreiber der Araben und ihre Werke* (XVIII vol. der Ab. der kon. ges. der Wiss. zu Göttingen), Göttingen, 1882, in-4°.
ZENKER, *Bibliotheca orientalis,* Leipzig, 1848-1866, 2 vol., in-8°.

وتجد أيضاً إشارات إلى الكتب العربية وترجمات للمخطوطات العربية وللرحلات فى بلاد العرب فى النشرات الدورية الآتية :

Journal Asiatique, Paris, 1822-1883.

(ترجمت كتب المسعودى وابن بطوطة ، إلخ . ، فى هذه المجموعة المهمة) .

Journal of the Asiatic Society, Calcutta, 1837-1883.

Zeitschrift der Deutsch. Morgenländ, gesellschaft.

(فى هذه المجموعة كتب مهمة عن العرب) .

Bulletin et Mémoires de la Société de Géographie de Paris.

(يشتمل الجزء الخامس والجزء السادس من المذكرات على ترجمة لجغرافية الإدريسى) .

Journal of the Royal Geographic Society, London.

(تشتمل هذه المجموعة على رحلات برتن وپاللى وغيرهما فى جزيرة العرب) .

وتجد أيضاً بياناً عن كتب العرب العلمية فى آخر المطلب الذى خصصناه لها فى هذا الفهرس .

٢ – تاريخ العرب فى الأقطار المختلفة التى خضعت للاسلام .

ابن عبد الحكم – فتح الأندلس ، ترجمه هارى جونس إلى الإنكليزية ، وطبع بلندن سنة ١٨٥٨ م .

ابن الأثير – الكامل فى التاريخ ، طبع بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٧٤ م بليدن وأوبسالا فى إثنى عشر مجلداً بعناية المستشرق تورنبرغ .

ابن جبير – رحلة ابن جبير ، ترجم أمارى القسم المختص منها بصقلية إلى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٤٦ م .

ابن خلكان – وفيات الأعيان ، ترجمه إلى الإنكليزية دو سلان ، ونشر فى لندن بين سنة ١٨٤٢ وسنة ١٨٧١ م فى أربعة مجلدات ضخمة ، ويشتمل على تراجم مشاهير الإسلام منذ محمد إلى أواسط القرن الثالث عشر من الميلاد .

ابن خلدون – تاريخ ابن خلدون ، اشتغل دو سلان بنشر القسم المختص ببلاد المغرب والبربر منه فنشره فى الجزائر سنة ١٨٤٧ م فى مجلدين كبيرين ، وسماه كتاب الدول الإسلامية فى المغرب ، ثم نقل هذا القسم إلى الفرنسية ، ونشره فى الجزائر بين سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٦ م فى أربعة مجلدات .

ابن خلدون — تاريخ ابن خلدون ، ترجم ديفرجيه إلى الفرنسية القسم المختص منه بأخبار بنى الأغلب فى إفريقية وصقلية إلى حين استيلاء الفرنج عليها وطبع بباريس سنة ١٨٤١ م ؛

ابن القوطية — تاريخ الأندلس ، ترجمه شاربونو إلى الفرنسية ، وطبع بباريس سنة ١٨٥٦ م ؛

ابن مجير الدين العليمى — الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ، ترجمه سوفير إلى الفرنسية ، وطبع بباريس سنة ١٨٧٢ م .

أبو عبيد البكرى — المسالك والممالك ، ترجمه دو سلان إلى الفرنسية ، وطبع بباريس سنة ١٨٥٩ م ؛

أبو الفرج الملطى — تاريخ مختصر الدول ، وهو تاريخ عام منذ بدء العالم إلى زمن المؤلف ، ترجمه پوكوك إلى اللاتينية ، وطبع بأوكسونية سنة ١٦٦٣ م ، وترجمه بور إلى الألمانية وطبع بليبسك سنة ١٧٨٥ م .

أبو الفداء — المختصر فى أخبار البشر ، ترجمه أدلر إلى اللاتينية وطبع بليبسك بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٤ م فى خمسة مجلدات ؛

أبو الحسن الفاسى — الأنيس المطرب ، وروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ترجمه بوميه إلى الفرنسية ، وطبع بباريس سنة ١٧٦٠ م ؛

أبو الغازى بهادور — تاريخ المغول ، ترجمه دى ميزون إلى الفرنسية ، وطبع ببطرسبرغ سنة ١٨٧١ م فى مجلدين .

أكبر — آثار الشاه أكبر ، ترجمه غلادوين من الفارسية إلى الإنكليزية وطبع بكلكتة بين سنة ١٧٨٣ وسنة ١٧٨٦ م فى ثلاثة مجلدات ، (ألف هذا الكتاب بأمر أكبر ، ويشتمل على وصف حسن للهندوستان فى عهد المغول) ، وتجد طبعة ثانية لهذا الكتاب فى مجلدين نشرت بلندن سنة ١٨٠٠ م .

البيرونى — الآثار الباقية عن القرون الخالية ، عنى سخاو الألمانى بترجمته إلى الإنكليزية ، وطبع الأصل بليبسك سنة ١٨٧٨ م ، وطبعت الترجمة بلندن سنة ١٨٧٩ م .

تيمور — أنظمة تيمورلنك السياسية والحربية ، وضعها بالمغولية وترجمها لانغليس من الفارسية إلى الفرنسية ، وطبعت بباريس سنة ١٧٨٧ م ؛

رشيد الدين — تاريخ المغول ، ترجمه كاترمير إلى الفرنسية ؛

روض القرطاس (؟) ، وهو كتاب يبحث فى ملوك المغرب والأندلس وأخبار مدينة فاس ، نقله بوميه إلى الفرنسية وطبعت ترجمته هذه بباريس سنة ١٨٦٠ م [1] ؛

زين الدين المعبرى — تحفة المجاهدين ، ترجمه رولندسن إلى الإنكليزية وطبع بلندن سنة ١٨٣٣ م (وهو يشتمل على تاريخ المسلمين بالهند) ؛

---

(١) لم يذكر المؤلف اسم مؤلف هذا الكتاب ، ولعله كتاب « تاريخ مدينة فاس » المطبوع فى بلرم سنة ١٨٧٨ م فى ٧٥ صفحة خالياً من اسم المؤلف ، وهو يشتمل على أخبار مدينة فاس إلى سنة ٨٠٣ هـ (المترجم) .

الطبرى – كتاب أخبار الرسل والملوك ، ترجم البلعمى هذا الكتاب إلى الفارسية ، وترجمه من ترجمة البلعمى زوتنبرغ إلى الفرنسية ، وطبعت الترجمة بباريس سنة ١٨٧٤م فى أربعة مجلدات ، وقد ترجم هذا الكتاب المشهور إلى اللاتينية وإلى التركية أيضاً ، وهو يشتمل على تاريخ العالم إلى سنة ٣٠٢ هـ .

العتبى – كتاب اليمنى ، ترجمه إلى الفارسية الجربادكانى ، وترجمه من النسخة الفارسية إلى الإنكليزية رينولد ، وطبع بلندن سنة ١٨٥٨ م .

عبد اللطيف البغدادى – الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار ، وتجد فى آخر هذا الكتاب مختارات كثيرة للمستشرقين ، ترجمه دوساسى إلى الفرنسية ، وطبع بباريس سنة ١٨١٠م .

غلام حسين خان – تاريخ الإسلام فى الهند فى القرن الأخير ، ترجمه إلى الإنكليزية بريغس ، وطبع بلندن سنة ١٨٣٢م فى مجلد واحد .

فرشته – تاريخ الإسلام فى الهند إلى سنة ١٦١٢م ، ترجمه بريغس من الفارسية إلى الإنكليزية ، وطبع بلندن سنة ١٨٢٩م فى أربعة مجلدات .

محمد القيروانى – تاريخ إفريقية ، ترجمه ريموزه إلى الفرنسية ، وطبع بباريس سنة ١٨٤٥م .

المسعودى – مروج الذهب ، ترجمه باربيه دو مينار إلى اللغة الفرنسية ، وطبع بباريس بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٧٨م فى تسعة مجلدات ، وهو تاريخ عام تمتد أخباره إلى القرن العاشر من الميلاد ، وتجد له ترجمة إلى الإنكليزية قام بها سبرنغر ، وطبعت بلندن سنة ١٨٤١م .

المقرى – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، نقله باسكوال دوكانيكوس إلى الإنكليزية ملخصاً ، وطبع بلندن بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٣م فى مجلدين كبيرين .

المقريزى – كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ترجمه إلى الفرنسية كاترمير ، وطبع بباريس بين سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٤٥م فى مجلدين باسم « تاريخ السلاطين المماليك » .

المكين بن العميد – المجموع المبارك (٧٥٠ – ١١٥٠) ترجمه فاتيه إلى الفرنسية ، وطبع بباريس سنة ١٦٥٧م .

الواقدى – كتاب فتوح الشام ، علق عليه ليس وطبعه بكلكتة بين سنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٦٢م فى تسعة أجزاء .

AMARI, *Frammenti di testi arabi per servire alla storia della Sicilia musulmana,* Firenze, 1855, in-8°.

—— *Storia dei Musulmani di Sicilia,* Firenze, 1854-1869, 4 vol., in-8°.

—— *Biblioteca Arabo-Sicula,* Lipsia, 1856, 2 vol., in-8°.

CARDONNE, *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la domination des Mores d'après des manuscrits arabes*, Paris, 1765, 3 vol., in-12°.

Caussin de PERCEVAL, *Essai sur l'hiſtoire des Arabes avant l'islamisme,* Paris, 1845, 3 vol., in-8°.

CONDE, *Hiſtoria de la dominacion de los Arabes in Eſpana,* Barcelone, 1844, 3 vol., in-16°.

(ألف هذا الكتاب على حسب المخطوطات العربية ، وترجمه مارل إلى الفرنسية فى ثلاثة مجلدات ، وطبعه بباريس سنة ١٨٢٥ م) .

CHRICHTON, *Hiſtory of Arabia,* Edimbourg, 1833, 2 vol. in-8°.

DEFERMERY, *Hiſtoire des Sultans Ghourides.* Trad. française, Paris, 1844, in-8°.

—— *Hiſtoire des khans mongols du Turkiſtan et de la Transoxiane,* traduite du persan, Paris, 1853, in-8°.

DESVERGERS, *Arabie,* Paris, 1847, in-8°.

DORN, *Muhammedanische Quellen zur Geschichte der südlichen Küſtenlander des Kaſpischen* (Textes arabes, persans et turcs) publiés et commentés par B. Dorn, 4 vol., in-8°, Saint-Pétersbourg, 1850-1858.

DOZY, *Hiſtoire des musulmans d'Eſpagne de 711 à 1110,* Leyde, 1861, 4 vol., in-8°.

ELLIOTT, *The Hiſtory of India as told by its own hiſtorians.* The Muhammedan period. London, 1877, 8 vol., in-8°.

FRESNEL, *Lettre sur l'hiſtoire des Arabes avant l'islamisme,* Paris, 1836, in-8°.

GŒJE, *Fragmenta hiſtoricum arabicorum,* Lugd. Batavorum, 1869, 2 vol., in-4°.

Grangeret De LAGRANGE, *Les Arabes en Eſpagne,* Paris, 1824, in-8°.

GREGORIO, *Rerum arab quæ ad hiſt Siculam ſpectant ampla collectio, arab. et lat.,* Panormi, 1797, in-f°.

HALÉVY, *Etudes sabéennes,* Paris, 1875, in-8°.

HOWORTH, *Hiſtory of the Mongols,* London, 1880, 2 vol., in-8°.

KREMER, *Culturgeschichte des Orients,* Wien, 1875-1877, 2 vol., in-8°.

LEES, *Hiſtory of the Caliphs... to the year 900 of the Hijrah,* Calcutta, 1857, in-8°.

MARCEL, *Hiſtoire de l'Egypte depuis la conquête des Arabes,* Paris, 1848, in-8°.

MIRCHOND, *Hiſtoria Ghaznevidarum,* Berlin, 1832, in-4°.

—— *Hiſtoria Samanidarum,* Gött., 1808.

MURPHY, *The hiſtory of the Mohametan empire in Spain,* London, 1816, in-4°.

OSBORN, *Islam under the Khalifs of Bagdad,* London, 1878, in-8°.

POCOCKE, *Specimen hiſtoriæ arabum,* Oxoniæ, 1649, in-4°.

(وهو مقتطف من تاريخ أبى الفرج فى منشأ العرب وطبائعهم ، وطبع هذا الكتاب مجدداً سنة ١٨٠٦ م ، مضافة إليه ترجمة دو ساسى لكتاب أبى الفداء عن قدماء العرب) .

LA PRIMAUDAIE, *Les Arabes en Sicile et en Italie,* Paris, 1867, in-8°.

RASMUSSEN, *Hiſtoria præcipuorum arabum regnorum... ante islamismum,* Hauniæ, 1817, in-4°.

(وفق ما جاء فى المخطوطات العربية فى كوبنهاغ) .

Recueil des historiens orientaux des Croisades, publié par de Slanc et Defremery, Paris, 1872-1876, 2 vol., in-f°.

REINAUD, *Chroniques arabes, extraites des historiens Arabes et relatives aux guerres des Croisades,* Paris, 1829, in-8°.

—— *Invasion des Sarrasins en France, Savoie,* etc., Paris, 1836, in-8° (d'après les auteurs chrétiens et musulmans).

S. DE SACY, *Mémoires sur les antiquités de la Perse et sur l'histoire des Arabes avant Mahomet,* Paris, in-4°.

SAUVAIRE, *Histoire de Jérusalem et d'Hebron depuis Abraham jusqu'à la fin du* XV^e^ *siècle de J.-C.* (*traduite sur le texte arabe de Moudjir-ed-dyn*), Paris, 1876, in-8°.

SEDILLOT, *Histoire générale des arabes,* 2^e^ éd., Paris, 1877, 2 vol., in-8°.

SPRUNER, *Historischen Hand atlas,* Gotha, 1853, in-f°.

WAKEDI, *Geschichte der Eroberung von Mesopotamien und Armenien, Herausgegeben von Mordtmann,* Hambourg, 1847, in-4°.

G. WEIL, *Gesch. der Khalifen Manhein,* 1846-1862, 5 vol. — *Geschichte der islam Vœlker,* Stuttgard, 1866, in-8°.

WHEELER, *The History of India from the earliest ages,* London, 1881, 4 vol.

WUSTENFELD, *Die Chroniken der Stadt Mekka,* Leipzig, 1858-1859, 3 vol., in-8°.

٣ — ديانة العرب .

أبو الفداء — المختصر فى تاريخ البشر ، ترجمه أدلر إلى اللاتينية ، وطبع بليبسك بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٤ م فى خمسة مجلدات ، وترجم ديفرجه سيرة النبى من هذا التاريخ إلى الفرنسية ، وطبعها بباريس سنة ١٨٣٧ م .

بشير الدين — تفسير القرآن ، طبع بكلكتة بين سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٧ م فى عشرة مجلدات .

التبريزى — مشكاة المصابيح (فى الحديث) ، ترجمه ماتيو إلى الإنكليزية ، وطبع بكلكتة سنة ١٨١٠ م فى مجلدين .

شريف — قانون الإسلام (أو عادات المسلمين فى الهند) ، طبع بلندن سنة ١٨٣٢ م .

القرآن — نقله كازيمرسكى إلى الفرنسية ، وطبعت ترجمته بباريس سنة ١٨٤٠ م ، وكانت الطبعة الأولى للقرآن بالعربية فى سنة ١٦٩١ م ، وللقرآن ترجمات فى كثير من اللغات ، وأقدم هذه الترجمات هى التى قام بها بيبلياندر سنة ١٥٤٣ م ، وأما تفاسير القرآن وتقاويمه فلا يحصيها عد .

محمد الشهرستانى — كتاب الملل والنحل ، طبعه كورتن بلندن سنة ١٨٤٢ م فى مجلدين .

Barthélémy SAINT-HILAIRE, *Mahomet et le Coran,* Paris, 1865, in-8°.

Dabry DE THIERSANT, *Le Mahométisme en Chine,* Paris, 1878, 2 vol., in-8°.

DOZY, *Essai sur l'Histoire de l'islamisme,* trad. Chauvin, Paris 1879, in-8°.

DUGAT, *Histoire des philosophes et des théologiens musulmans de 632 à 1158 de J.-C.,* Paris, 1878.

FLUEGEL, *Concordantiæ Corani arabicæ,* Leipzig, 1842, in-4°.
GALLAND, *Recueil des rites et cérémonies du pèlerinage de la Mecque,* Amsterdam, 1754, in-8°.
KREHL, *Uber die Religion der vorislamischen Araber,* Leipzig, 1863, in-4°.
MAHOMET, *The original sources for the biography of Mahomet,* Calcutta, 1853, in-8°.
NŒLDEKE, *Geschichte des Qorâns,* Göttingen, 1860, in-8°.
SPRENGER, *Das Leben und die Lehre des Mohamed nach bisher grösstentheils unbenutzten Quellen,* Berlin, 1868, in-8°.
G. DE TASSY, *Mémoire sur des particularités de la religion musulmane dans l'Inde,* Paris, 1831, in-8°.

٤ – الإثنوغرافية والنظم الإجتماعية والطبائع والعادات .

خليل بن إسحق – كتاب المختصر فى الفقه المالكى ، ترجمه سيغنت إلى الفرنسية ، وطبع بقسنطينة سنة ١٨٧٨ م .

AVRIL, *L'Arabie contemporaine,* Paris, 1868, in-8°.
BLUNT, *Bedouin tribes of the Euphrates,* London, 1879, 2 vol., in-8°.
BLAU, *Arabien in VI Jahrhundert. Eine ethnographische skizze* (*zeitschrift der deuts.* Morgenland Ges. 23° volume).
BURCKHARDT, *Travels in Arabia,* London, 1829, 3 vol., in-4°.
BURTON, *Personal narrative of a pilgrimage to el Medinah and Meccah,* London, 1855, 3 vol., in-12.
DU CAUROY, *Législation musulmane sunnite, rite hanéfi,* Paris, 1848, in-8°.
DAUMAS, *La vie arabe et la société musulmane,* Paris, in-8°.
DIETRICI, *Die Anthropologie der Araber in X Jahrhundert,* Berlin, 1865, in-8°.
QUERRY, *Droit musulman* (Législation Schyite), Paris, 1871, 2 vol., in-8°.
ISAMBERT, *Itinéraire de l'Orient,* 2e éd., Paris, 1882, 3 vol., in-8°.
(معلومات كثيرة غير صحيحة فى الغالب) .
KHANIKOFF, *Mémoire sur l'ethnographie de la Perse,* Paris, 1866, in-4°.
NIZAM, *Collection of opinions and precepts of Mahomeddan law,* Calcutta, 1828-1835, 6 vol., in-4°.
NIEBUHR, *Voyage en Arabie.* Trad. française, Amsterdam, 1776, 2 vol., in-4°.
PALAGRAVE, *Voyage dans l'Arabie Centrale.* Trad. française, Paris, 1866, 2 vol., in-8°.
LE PLAY, *Les Ouvriers de l'Orient,* Tours, 1867, in-8°.
PELLEY, *Visit to the Wahabee capital of central Arabia.* (Proc. of the Royal Geog. Society, 1865).
PLAYFAIR, *Histoire de l'Arabie heureuse,* Paris, 1859, in-8°.

SANTAGRA et CHARBONNEAU, *Droit musulman, Statut personnel et successions,* Paris, 1873-1874, 2 vol., in-8°.
H. SPENCER, *Descriptive Sociology,* London, 8 vol., in-8°.

(تحت الطبع ، ويبحث مجلد من هذا الكتاب المهم فى العرب) .

VAMBÉRY, *Sittenbilder aus dem Morgenlande,* Berlin, 1876.
Vivien DE SAINT-MARTIN, *Dictionnaire de géographie,* Paris, in-4°.

(ظهر منه مجلدان) .

WALLIN, *Journey from Cairo to Mêdina* (J. of Roy. Geog. Soc.) 1454.
WELLSTED, *Travels in Arabia,* London, 1838, 2 vol., in-8°.
WETZTIEN, *Nord-arabien* ... (*Zeitschrift für allgemeine Erdkunde*), 1865.
WUESTENFELD, *Genealogische Tabellen der arabischen Stamme und Familien,* Göttingen, 1852, 1 vol., in-4°.

٥ — الآداب والفلسفة .

ابن رشد — طبعت شروحه لفلسفة أرسطو مراراً باللغة اللاتينية فى البندقية على الخصوص سنة ١٥٩٥ م ، ولخص مسيو رينان فلسفة ابن رشد فى كتابه الذى سماه « ابن رشد وفلسفة ابن رشد » ، وطبعه بباريس سنة ١٨٥٢ م .

أبو طالب — عاصر محمداً وترجمت آثاره غير مرة ، وهى فى الحكم والشعر ، ونشرت ترجمة لاتينية لها مع النص العربى بأوكسونى سنة ١٨٠٦ م .

ألف ليلة وليلة — طبعت رواية ألف ليلة وليلة فى أكثر اللغات ، ولم تكن جميع الطبعات الفرنسية غير تكرار لطبع ترجمة غالاند الناقصة ، ويعد من أحسن الطبعات المعروفة ما نشره على حسب النص العربى أستاذ اللغات الشرقية فى هيدلبرغ : مسيو ڤيل .

Tausend und eine nacht, Stuttgart, 1872, 4 vol., in-8°.

امرؤ القيس — نشر دوسلان ديوانه مع ترجمته بباريس سنة ١٨٣٧ م .

الأمثال العربية — تجد عدة مجموعات للأمثال العربية ، وإليك أهمها :

Proverbiorum arabicorum centuriæ duæ cum interpretatione latina et scholiis. J. Scaligeri, Leidæ, 1614, in-4° : MEIDANI, *Proverbium arabicorum,* ed. Schrœder, Lugd. Batav., 1795, in-4°.

وقد نقل كاترمير قسما من أمثال الميدانى هذه إلى الفرنسية ، وطبع ما ترجمه بباريس سنة ١٨٣٧ م ، ونقل بركهارد أمثال عوام مصر إلى الإنكليزية ، وطبع ما ترجمه بلندن سنة ١٨٣٠ م .

LANDBERG, *Proverbes et dictons du peuple arabe,* Leyde et Paris, 1883, in-8°, tome Ier.

جامى — أخلاق جلالى ، ترجمه ثومسن من الفارسية إلى الإنكليزية ، وطبع بلندن سنة ١٨٣٩ م :

الحريرى — مقامات الحريرى ، نشرها دو ساسى بباريس سنة ١٨٢٢ م (ولا تجد ترجمة كاملة لهذا الأثر المهم) .

الزمخشرى — نوابغ الكلم ، ترجمه مينار إلى الفرنسية ، وطبعت الترجمة مع الأصل العربى بباريس سنة ١٨٧٦ م .

الزمخشرى — أطواق الذهب ، ترجمه مينار إلى الفرنسية ، وطبع بباريس سنة ١٨٧٦ م ؛

عنترة — نقل هاملتن أشعاره إلى الإنكليزية ، وطبعها بلندن فى مجلدين سنة ١٨٢٠ م ، ونقل ديفيك حماسياته إلى الفرنسية وطبعها بباريس ، وتجد لقصائد عنترة ترجمة بالألمانية طبعها منيل ببتافورم سنة ١٨١٦ م ، وتجد أشعاره مطبوعة فى ترجمات المعلقات الكثيرة إلى اللاتينية والإنكليزية والألمانية ؛

القزوينى — كتاب فى المنطق العربى ، نشره سبرنغر مع ترجمة إنكليزية بكلكتة سنة ١٨٥٤ م .

لقمان — أمثال لقمان ، نقلها مارسيل إلى الفرنسية ، وطبعت بباريس سنة ١٨٠٣ م ، (يوجد ترجمات كثيرة لهذا الكتاب) .

المعلقات السبع — نشر كوسان دوپرسڤال أصلها العربى ، وترجمت هذه القصائد المشهورة إلى اللاتينية والإنكليزية والألمانية .

المقدسى — الطيور والأزهار ، ترجمه دوتاسى ، وطبع بباريس سنة ١٨٢١ م .

CARLYLE, *Specimens of arabica poetry from the earliest times,* Cambridge, 1796, in-4°.
DOZY, *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge,* Leyde, 1860, 2 vol., in-8° (3e éd. 1881).
G. W. FREITAG, *Darstellung der arabischen Verkunst,* Bône, 1831, in-8°.
Grangeret DE LAGRANGE, *Anthologie arabe,* Paris, 1828, in-8°.
Hammer PURGSTALL, *Literatur geschichte der araber,* Vienne, 1850-1856, 7 vol., in-8°.
HUMBERT, *Anthologie arabe,* Paris, 1819, in-8°.
J. JAHN, *Arabische Chrestomathie,* Vienne, 1802, in-8°.
MEHREN, *Die Rhetoric der Araben,* Kopenhagen, 1853, in-8°.
NŒLDOKE, *Beiträge zur Kenntnis der Pœsie der alten Araber,* Hannover, 1864, in-8°.
SCHMOLDERS, *Essai sur les écoles philosophiques chez les arabes,* Paris, 1842, in-8°.
S. DE SACY, *Chrestomathie arabe,* Paris, 1826, 3 vol., in-8°.
G. WAHL, *Neue arabische anthologie,* Leipzig, 1791, in-8°.

٦ — مؤلفات العرب العلمية .

اعتمدت جامعات أوربة على ما ترجم إلى اللاتينية من مؤلفات العرب وحدهم عدة قرون ، وأعيد طبع ترجمة هذه المؤلفات مراراً ، ونقتصر على ذكر أهم علماء العرب وكتبهم الأساسية مع الإشارة إلى القرون التى عاشوا فيها ، لعدم فائدة إحصائهم كلهم .

ابن رشد — ظهر هذا الفيلسوف الشهير فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وله كتب فى علم الفلك والطب ، ومن كتبه فى الطب كتاب الترياق الذى ترجم إلى اللاتينية وطبع فى البندقية سنة ١٥٥٢ م ،

وكتاب السموم الذى ترجم إلى اللاتينية وطبع فى لوغدونى سنة ١٥١٧ م ، وكتاب الكليات فى الطب الذى ترجم إلى اللاتينية وطبع فى البندقية سنة ١٥٥٢ م .

ابن زهر — ظهر فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، واشتهر بكتابه « التيسير فى المداواة والتدبير » الذى ترجم إلى اللاتينية وطبع فى البندقية سنة ١٤٩٠ م .

ابن سينا — ظهر فى القرن العاشر من الميلاد ، وهو أشهر أطباء العرب ، وطبع كتابه المهم « القانون فى الطب » عدة مرات ، وظهرت الطبعة الأولى لكتبه فى البندقية سنة ١٤٨٤ م ، ولم ينقطع العلماء عن شرح مؤلفاته حتى القرن الأخير .

ابن البيطار — ظهر فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وهو من أشهر علماء النبات من العرب ، وترجم لوكلير كتابه « جامع مفردات الأدوية والأغذية » إلى الفرنسية ، وطبع بباريس فى ١٨٧٧ — ١٨٨١ م فى مجلدين .

ابن العوام — ظهر فى القرن السادس من الهجرة ، وهو من علماء الأندلس المشهورين فى علم النبات ، وترجم كليمان مولر كتابه فى الفلاحة حديثاً وطبع بباريس سنة ١٨٦٦ م .

ابن يونس — ظهر فى القرن العاشر من الميلاد ، وهو من واضعى « الزيج الحاكمى » الذى هو أهم كتاب عربى فى الفلك ، وترجم كوسان دوپرسڤال بعضه إلى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٠٤ م .

أبو الحسن المراكشى — ظهر فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، وله تصانيف كثيرة منها : كتاب « جامع المبادىء والغايات فى علم الميقات » الذى ترجم سيديو بعضه وطبعه سنة ١٨٤٣ م .

أبو الوفاء البوزجانى — ظهر فى القرن العاشر من الميلاد ، وهو من أشهر علماء الفلك عند العرب ، وترجم سيديو بعض الفصول من كتبه إلى الفرنسية وطبعها بباريس سنة ١٨٤٥ م .

أبو القاسم — ظهر فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وهو أشهر جراحى العرب ، وترجم كتابه فى الجراحة مراراً ، وطبعت أحسن ترجمة لاتينية له ببال سنة ١٥٤١ م .

أبو معشر البلخى — ظهر فى القرن الثامن من الميلاد ، وترجم كتابه « المدخل الصغير » إلى اللاتينية وطبع فى أوغسبرغ سنة ١٤٨٩ م ، وترجم كتابه فى الأبعاد الفلكية إلى اللاتينية أيضاً ، وطبع فى سنة ١٤٨٩ وسنة ١٥١٥ م .

أرطفيوس Artephius (؟) — ظهر فى القرن الحادى عشر ، وكتب رسالة فى السيمياء ، وترجمها أرنود إلى الفرنسية سنة ١٦١٢ م .

أماجور — ظهر فى القرن التاسع من الميلاد ، وهو مؤلف كتاب « الزيج البديع » ومن أماجور اقتبس ابن يونس أرصاده .

أولوغ بك — ظهر فى القرن الرابع عشر من الميلاد ، وهو حفيد تيمورلنك ، ويعد من أشهر ممثلى مدرسة بغداد الفلكية ، وترجمت أزياجه إلى اللاتينية ، وطبعت فى أكسفورد بسنة ١٦٦٥ م ، وترجم سيديو مقدمات هذه الأزياج إلى الفرنسية ، وطبعها فى باريس سنة ١٨٤٧ م .

البتانى – ظهر فى القرن التاسع من الميلاد ، وأهم مؤلفاته كتاب « زيج الصابى » الذى ترجم عدة مرات ، وطبع بنورنبرغ سنة ١٥٣٧ م .

ثابت بن قرة – ظهر فى القرن التاسع من الميلاد ، وهو أول من طبق الجبر على الهندسة ، ونشر سيديو فصولا من مؤلفاته التى تشتمل على حل هندسى للمعادلات المكعبة .

جابر بن حيان الكوفى – ظهر فى القرن الثامن من الميلاد ، وهو أشهر كيماويى العرب ، وتحتوى المكتبة الوطنية بباريس على ستة مخطوطات لاتينية من كتبه طبعت جميعها خلا جزء منها خاص بالمثلثات الكرية ، وأشهر مؤلفاته كتاب « الاستتمام » الذى طبع سنة ١٤٠٩م وترجم إلى الفرنسية سنة ١٦٧٢ م ، وتجد ترجمة إنكليزية لكتبه مؤرخة فى سنة ١٦٦٨م .

جابر الأشبيلى – ظهر فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، وترجم كتابه فى الفلك إلى اللاتينية ، وطبع فى نورنبرغ سنة ١٥٣٣ م ، ولا يفرقون فى الغالب بين جابر هذا وجابر الكيماوى .

الحسن بن الهيثم – ظهر فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، وهو من علماء الفلك والرياضيات ، وترجم فيتليو كتابه فى المناظر إلى اللاتينية سنة ١٢٧٠ م ، وترجم سيديو بعض فصول من كتابه فى الأصول الهندسية .

الخوارزمى – ظهر فى القرن التاسع من الميلاد ، ومن مؤلفاته كتاب الجبر والمقابلة الذى ترجمه رودلف دوبروغ إلى اللاتينية فى أوائل القرن الثانى عشر من الميلاد ، ثم نقله روزن إلى الإنكليزية وطبعه سنة ١٨٣١ م .

الرازى – ظهر فى القرن التاسع من الميلاد ، واشتهر بالطب والكيمياء ، وبلغ عدد مولفاته ٢٢٦ . وأهمها كتاب « الحاوى » الذى طبع غير مرة منذ سنة ١٤٨٦ م ، ونشر كتابه « الجدرى والحصبة » سنة ١٧٦٦ م ، وللرازى ثلاثة مخطوطات فى الكيمياء .

زاديت Zadith (؟) – ظهر فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وله كتاب فى الكيمياء اسمه Tabula Chimiœ طبع فى المسرح الكيماوى .

على بن العباس – ظهر فى القرن العاشر من الميلاد ، وترجم كتابه « الملكى » فى الطب المؤلف من خمسين جزءاً إلى اللاتينية وطبع فى البندقية سنة ١٤٩٢ م .

الفاربى Alpharebi (؟) – ظهر فى القرن الحادى عشر من الميلاد واشتهر بأنه من علماء الكيمياء ، وألفت كتبه التى أحصاها الغزيرى بالعبرية ولم تطبع حتى الآن .

الفرغانى – ظهر فى القرن التاسع من الميلاد ، وهو صاحب كتاب « المدخل إلى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم » الذى ترجم إلى اللاتينية ثلاث مرات ، والمترجم الأول له هو يوحنا الأشبيلى الذى نقله إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وقد طبعت ترجمته الأولى بفيرار سنة ١٤٩٢ م . وطبعت ترجمته الأخيرة سنة ١٦٦٩ م .

القزوينى — ظهر فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، وألف فى جميع الموضوعات مع اشتهاره فى الفلك والجغرافية والطبيعيات ، وترجم شيرى فصولا من كتابه « عجائب المخلوقات » فى الفلك والجغرافية الطبيعية إلى الفرنسية ، وطبعت فى باريس سنة ١٨٠٥ م ، وترجم كتابه فى الفلك إلى الألمانية حديثاً .

قسطنطين الإفريقى — ظهر فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، وأدخل طب العرب إلى إيطالية ، وإليه يعود الفضل فى شهرة مدرسة ساليرم ، وألف عدة كتب نذكر منها De morborum cognitione ونذكر منها Dc remediorum الذى طبع غير مرة ، وكانت طبعته الأولى ببال سنة ١٥٣٦ م .

الكرخى — ظهر فى القرن الخامس من الهجرة ، وترجم واپكه كتاب « الفخرى » فى الجبر لهذا المؤلف وطبعه فى سنة ١٨٥٣ م .

الكندى — ظهر فى القرن التاسع من الميلاد ، وزادت مؤلفاته على مئتين ذكرها صاحب الفهرس ، ومنها رسالة فى معرفة قوى الأدوية المركبة ترجمت إلى اللاتينية وطبعت مراراً بين سنة ١٥٣١ وسنة ١٦٠٣م .

محمود أفندى (باشا) الفلكى — هو مؤلف كتاب « التقاويم العربية قبل الإسلام » الذى طبع بباريس سنة ١٨٥٨ م .

محمد بن موسى — ظهر هذا الرياضى الشهير فى القرن التاسع من الميلاد ، وترجم كتابه فى الجبر عدة مرات ، ومارهو الذى قام بترجمته الأخيرة ، فطبعت فى روما سنة ١٨٦٦ م .

نصير الدين الطوسى — ظهر فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، وله تقاويم ترجم بعضها إلى اللاتينية باسم التقويم الجغرافى ، وطبع فى ليدن سنة ١٦٤٨ م ، وفى لندن سنة ١٦٥٢ م .

ولد الزرقيال — ظهر فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، وكانت أزياجه الفلكية مع أزياج البتانى أساساً للأزياج الأذفونشية .

يوحنا بن ماسويه — ظهر فى القرن التاسع من الميلاد ، وله عدة كتب فى الأدوية طبعت مراراً ، ونشرت كتبه المهمة باسم Canones universales فى البندقية سنة ١٤٧١ م .

وتعد تلك الكتب أهم ما ترجم إلى بعض اللغات الأوربية من مؤلفات العرب ، وتفيد المؤلفات الآتية فى معرفة آثارهم العلمية .

Delambre, *Histoire de l'astronomie au Moyen-âge,* Paris, 1819, in-4°.
Dorn, *Description of an arabic celestial globe,* London, 1829, in-4°.
Jourdain, *Mémoire sur l'observatoire de Méragah* (mag. encyclopédique de 1810).
Leclerc, *Histoire de la médecine arabe,* Paris, 1876, 2 vol., in-8°.
Furnari, *La Médecine arabe au* IX[e] *siècle,* Paris, 1846, 2 vol., in-8°.
Reinaud, *L'art militaire chez les arabes du Moyen-âge,* Paris, 1848, in-8°.
Sédillot, *Recherches pour servir à l'histoire des sciences mathématiques chez les orientaux,* Paris, 1837, in-4°.

SINOBAS, *Libros del saber de astronomia del rey Alfonso X de Castilla,* Madrid, 1863.
SPRENGEL, *Histoire de la Médecine.* (Hall, 1792-1803) *traduit en français par Jourdan.*
WŒOPKE, *Essai d'une restitution des travaux perdus d'Apollonius sur les quantités irrationnelles, d'après un manuscrit arabe,* Paris, 1856, in-4°.
—— *Recherches sur l'histoire des sciences mathématiques chez les Orientaux,* Paris, 1860, in-8°.
WUESTENFELD, *Geschichte der arabischen Aerzte und Naturforscher,* Göttingen, 1840, in-8°.

٧ – الجغرافية والرحلات .

ابن بطوطة – تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، وتعرف برحلة ابن بطوطة ، ترجمها ديفريميرى وسنكونيتى إلى الفرنسية ، وطبعت بباريس بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٧٩ م فى أربعة مجلدات .
ابن الوردى – خريدة العجائب وفريدة الغرائب فى الجغرافية ، ترجمها هيلنده ، وطبعت بلنده سنة ١٨٢٣ م .
ابن خرداذبه – كتاب المسالك والممالك ، ترجمه مينار إلى الفرنسية ، وطبع بباريس سنة ١٨٦٥ م .
ابن حوقل – أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبع بعناية دوغويه فى ليدن سنة ١٨٧١ م ، وترجم أوزيلى ما هو خاص منه بجغرافية المشرق إلى الإنكليزية وطبع فى لندن سنة ١٨٠٠ م ، وترجم دو سلان ما هو خاص منه بإفريقية إلى الفرنسية ، وطبع فى باريس سنة ١٨٤٢ م ، وترجم أمارى ما هو خاص منه بوصف بلرم فى القرن العاشر من الميلاد وطبع فى باريس سنة ١٨٤٥ م .
أبو الفداء – تقويم البلدان ، ترجمه رينو وجويار إلى الفرنسية ، وطبع بباريس بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٨٣ م فى ثلاثة مجلدات ، وترجم غانيه القسم الخاص منه بجزيرة العرب وطبع بأكسفورد سنة ١٧٤٠ م ، وترجم سولفا القسم الخاص منه بالمغرب ، وطبع بالجزائر سنة ١٨٣٩ م .
الإدريسى – كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ترجمه جوبر إلى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٤٠ م فى مجلدين .
الإصطخرى – كتاب مسالك الممالك ، طبع بعناية دوغويه فى ليدن سنة ١٨٧٠ م .
الإصطخرى – كتاب الأقاليم ، طبع بعناية الدكتور مولر الألمانى .
البكرى – كتاب المسالك والممالك ، ترجم دو سلان ما هو خاص منه بإفريقية الشمالية وطبع بباريس سنة ١٨٥٩ م .
القزوينى – عجائب المخلوقات ، فى الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب ، ترجم إلى الألمانية وطبع فى ليبسك سنة ١٨٦٨ م .

المسعودى — كتاب مروج الذهب ، ترجمه باربيه دو مينار ، وطبع فى باريس بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٧٨ م فى تسعة مجلدات (وهذا الكتاب تاريخى جغرافى معاً) .

ياقوت — معجم البلدان ، طبعه فون وستنفلد فى ليبسك بين سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ م فى أربعة مجلدات ومجلدين للفهارس والحواشى ، وترجم مسيو باربيه دومينار ما هو خاص منه ببلاد فارس إلى اللغة الفرنسية وطبعه فى باريس سنة ١٨٦١ م .

Babelon, *Commerce des Arabes dans le nord de l'Europe,* Paris, 1882, in-8°.

Frœhn, *Ibn Fozlan's und anderer Araber Berichte über die Russen älterer Zeit,* Saint-Pétersbourg, 1823, in-4°.

Gœje, *Bibliotheca geographorum arabicorum.* Lugd. Batavorum, 1870-1879, 4 vol.

ويشتمل المجلد الأول على كتاب الإصطخرى ، والمجلد الثانى على كتاب ابن حوقل ، والمجلد الثالث على كتاب الإدريسى .

Reinaud, *Relations des voyages faits par les Arabes et les persans dans l'Inde et la Chine dans le* IXe *siècle de l'ère chrétienne.* Texte arabe et traduction, Paris, 1845, 2 vol., in-8°.

Sprenger, *Die Post und Reiserouten des Orients,* Leipzig, 1864, in-8°.

Stuve, *Die Handelszüge der Araber,* Berlin, 1836, in-8°.

B. de Tudèl :

ترجمت رحلات هذا الرحالة الشهير فى أوربة وآسية وإفريقية فى القرن الثانى عشر ، عدة مرات ؛ إلى اللغة الفرنسية على الخصوص (Amsterdam, 1743, in-8°).

٨ — الآثار والنقود والفنون الجميلة .

ابن خلدون — المقدمة ، وترجم كوكبر دومونبره ما هو خاص منها بفن البناء ، وطبع فى باريس سنة ١٨٢٧ م .

المقريزى — نبذة العقود فى أمور النقود ، ترجمها دوساسى إلى الفرنسية ، وطبعت بباريس سنة ١٧٩٧ م

كتاب مبانى إسپانيا الأثرية (*Monumentos Arquitectonicos de España*).

تنشر الحكومة الإسپانية هذا الكتاب المصور نشراً متتابعاً ، وطبعت منه سبعة أجزاء حتى الآن .

Barbier de Meynard, *Ibrahim ... scènes de la vie d'artiste au* IIIe *siècle de l'hégire,* Paris, 1869, in-8°.

Batissier, *Histoire de l'art monumental,* Paris, 1880, 2e éd., in-8°.

Bourgoin, *Les Arts arabes,* Paris, in-4°.

Caussin de Perceval, *Notices sur les principaux musiciens arabes des trois premiers siècles de l'hégire,* Paris, in-8°.

CHRISTIANOWITSCH, *La Musique arabe aux temps anciens,* Paris, 1863, in-4°.
COSTE, *L'Architecture arabe d'après les monuments du Caire dessinés de 1818 à 1825,* Paris, 1838, in-f°.
—— *Monuments modernes de la Perse,* Paris, 1870, in-f°.
DAVILLIERS, *Histoire de Faïences hispano-moresques,* Paris, 1861, in-8°.
J. DE LA RADA Y. DELGADO, *Museo español de antigüedades,* Madrid, in-f°.
(تحت الطبع ، وقد ظهر من هذا الأثر النفيس تسعة مجلدات) .
FLANDIN, *L'Orient,* 3 vol., Paris, 1840, in-f°.
Girault DE PRANGEY, *Essai sur l'architecture des Arabes et des maures en Espagne et en Sicile,* Paris, 1842, in-4°.
GUÉRIN, *Voyage archéologique dans la province de Tunis,* Paris, 1862, 2 vol., in-8°.
O. JONES, *L'Alhambra,* London, 1830, 2 vol., in-f°.
—— *The Alhambra Court in the Crystal Palace erected and described by O. Jones,* London, 1854, in-8°.
KIESEWETTER, *Die Musik der Araber,* Leipzig, 1842, in-4°.
LABORDE et LINANT, *Voyage dans l'Arabie Petrée,* Paris, 1830, in-f°.
LANGLOIS, *Numismatique des Arabes avant l'islamisme,* 1859, in-4°.
LONGPÉRIER, *Archéologie orientale, monuments arabes,* t. 1er, Paris, 1883, in-8°.
Marmol DE CARJAVAL, *Description générale de l'Afrique,* Trad. de P. d'Alancourt, Paris, 1667, 3 vol., in-4°.
MURPHY, *The arabian antiquities of Spain,* London, 1815, in-f°.
Prisse d'AVESNES, *L'Art arabe d'après les monuments du Caire,* Paris, 1878, 3 vol., in-f°.
RAVOISIER, *Architecture, sculpture, inscription et vues de l'Algérie,* in-f°.
(جزء من رياد الجزائر بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٢ م ، وقد نشر بأمر الحكومة) .
REINAUD, *Monuments du Cabinet du duc de Blacas,* Paris, 1828, 2 vol., in-8°.
ROBLES, *Malaga muslumana.* Illustré, Paris, 1880, in-8°.
Salvator DANIEL, *La Musique Arabe,* Paris, 1863, in-8°.
SAULCY, *Numismatique des rois nabathéens de Pétra,* 1874, in-8°.
SCHLUMBERGER, *Le Trésor de Sana, Etude sur les monnaies hymyaritiques,* Paris, 1880, in-4°.
TEXIER, *L'Arménie, la Perse et la Mésopotamie,* Paris, 1842-1852, 3 vol., in-f°.
UYFALVY, *L'Art des cuivres anciens au Cachemire.* Illustré, Paris, 1883, in-8°.
VOGUÉ, *Le Temple de Jérusalem,* Paris, 1864, in-4°.

فهرس الصور والخرائط

نضع هذا الفهرسَ ليتمكن القارئ ، حالًا ، من بلوغ الرسم الذى ينْشِده فى أىِّ موضوع كان ، فيجد ، مثلاً ، جميع أمثلة العرب فى مختلف البلدان مجتمعةً فى جدول واحد ، ويجد صور البناء الواحد التى نُشِرَت ، فى الغالب ، فى فصول مختلفةٍ ، مجتمعةً فى جدول فن العمارة الخاصِّ بالقطر الذى يقوم فيه ذلك البناء ، ويجد مفرداتِ كلٍّ من رسوم أمثلة العروق ومن الأسلحة والحُلِىِّ والأدوات الأخرى مجتمعةً فى جدول خاصٍ ، ولم نَجِد التقسيمَ على حسب الأقطار مفيداً فى غير موضوع المبانى .

(٢)

المنـاظر

صفحة

(٣)

مظاهر عادات ومناظر تصويرية

(تكاد جميع الصور التى اشتمل عليها هذا الجدول تكون فوتوغرافية قد التقطت بصورة خاطفة)

(٤)

فن العمارة

يشتمل هذا الجدول على ١٥٠ صورة تدل على مناظر إجمالية وتفصيلية لسبعين بناء قائماً على الطراز العربي أو من الأبنية التي أثر فيها الطراز العربي ، وذلك في مختلف أملاك دولة الخلفاء القديمة، وقد صنفناها على حسب البقاع تسهيلا للبحث

جزيرة العرب

القدس وجوارها

دمشق

القاهرة

(٦)

الفنون الجميلة والفنون الصناعية

يتألف من الـ ١٢٠ صورة التى يشتمل عليها هذا الجدول مجموعة من الأدوات النموذجية للفنون الجميلة والفنون الصناعية التى تركها العرب ، وقد صنفت ، أولا ، بحسب المادة المصنوعة (من حجارة ثمينة ومعادن ، إلخ) ثم صنفت بحسب الأدوات ، فتجد كلا من الحلى والأسلحة والزجاجيات والصناديق والأبواب ، إلخ . مجتمعة على حدة .

صِناعة الحُلِيّ والحجارة الثمينة

النقوش الحجرية

مصنوعات معدنية مكفتة ومنقوشة ، إلخ .

فهرس الموضوعات

البـــاب الرابع
طبائع العرب ونُظُمهم

الفصل الأول : أهل البدو وأهل الأرياف من العرب

الفصل الثانى : عرب المدن ؛ طبائعهم وعاداتهم

الفصل الثالث : نُظُم العرب السياسية والاجتماعية

البـــاب الخامس

حضارة العرب

الفصل الأول : مصادر معارف العرب ـ تعليمهم ومناهجهم

الفصل الثانى : اللغة والفلسفة والآداب والتاريخ

الفصل الثالث : الرياضيات وعلم الفلك

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٧٠/١٩٦٩